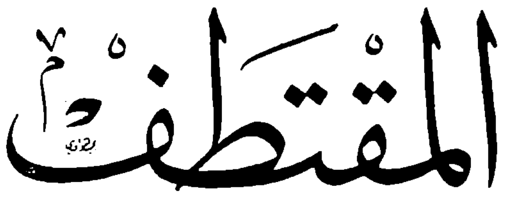


الجزء الاول من المجلد الرابع بعد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٤ — ٥ محرم سنة ١٣٦٣

# عجائب البنسيلين

## العقّار الذي ينافس عقاقير « السلفا »

تردّد ذكر البنيسيلين خلال شهر دسمبر الماضي ، مقروناً بمرض المستر تشرتشل وشفائهِ ، وبشفاء الاميرة نعمت مختار وبتكريم مكتشفهِ الكسندر فلمنغ. وهو عقار جديد فعّال نافس عقاقير « السلفانيلاميد » في بحوث العلاج الجديدة حتى بزها . وقد كانت عقاقير « السلفا » الى عهد قريب خير ما كشفهُ العلماء لعلاج طائفة من الامراض ، فلم تكد تنقضي عليها سنوات حتى أصبحت في المرتبة الثانية في علاج بعض الامراض ، وغدا البنيسيلين في المرتبة الاولى

وقد كان « المقتطف » أسبق المجلات العربية الى نشر بحثٍ وافٍ في هذا الموضوع في أول السنة الماضية ، ولا يزال ما نشرناهُ حينئذٍ ، من أوفى ما كتب في هذا الموضوع بالعربية في أصل العقار وطريقة كشفهِ وامتحان خواصهِ ، فنعيد نشرهُ هنا على ان نتبع بهِ ما جدَّ في هذا الموضوع الخطير ، وما هي الامراض التي تعنو للعلاج بهِ

### كيف كشف

البنيسيلين مادّة تستحضر من نوع خاصّ من العفن وتفتك بطائفة من الجراثيم . وقصة كشفها من القصص التي يحفل بها تاريخ العلم ، إذ يجتمع فيها عنصرا المصادفة والذهن العلميّ المهيّأ لتبيُّن الجديد غير المألوف . وقد بدأت هذه القصة في معمل بحثٍ في لندن ، حيث نحّى الباحث فلمنغ مزدرعاً للجراثيم ، لكي يفحصهُ عندما تواتيه الفرصة . ومزدرع الجراثيم طبق تنمو الجراثيم فيهِ في مادةٍ تصلح غذاءً لها . وهذه الاطباق عندما تفحص في الحين بعد

الجبن، تتعرّض طبعاً للتلوُّث بما في هواء المعمل من جراثيم . فلما أخذ الباحث هذا الطبق الخاص لفحصه، وجد فيه بقعة من العفن، تشبه شبهاً كبيراً العفن الذي يظهر كثيراً في الجبن أو غيره من ألوان الطعام ولكن العفن الذي ظهر في هذا المزدرَع لم يكن من العفن المألوف، بل بدا ان لهُ قوة عجيبة لم تكن معروفة ، لأنَّ الجراثيم القريبة من البقعة — وكانت جراثيم ستافيلوكوكوس — كانت قد أخذت تشفُّ وتنتفخ وتنحلُّ. أي انها كانت في سبيل الزوال أو الموت

فلما فحص هذا العفن ثبت انهُ العفن المعروف باسم بنيسيليوم نوتاتوم Penicillium notatum ومنهُ حضرت المادة المقاومة لفعل البكتريا التي اتخذناها عنواناً لهذا المقال — أي مادة « البينيسيلين » Penicillin وهي لا تستخرج من نوع آخر من العفن. فالپينسليوم نوتاتوم لهُ قريبٌ يدعى بنيسيليوم روبرم Penicillium rubrum ولكنهُ لا يصلح لاستخراج مادة البنسيلين منهُ على ما يعلم

## تأثيرهُ في الجراثيم

وقد عُني كاشف هذه المادة — الاستاذ الكسندر فلمنغ Fleming — ببحثها من جميع الوجوه لتبين تأثيرها في قتل الجراثيم . ولعلَّ وصف احدى تجاربه كافٍ لتبيان ما فعل . فقد أخذ طبقاً ووضع فيه المادة التي تصلح غذاءً للجراثيم . وفي منتصف الطبق شقَّ ثلماً وملأه بمادة البنيسيلين المستخرجة من العفن الخاص . ثم وضع على جانبي الثلم لطخاً من أصنافٍ شتى من البكتيريا . وهي باشلس القولون [1] ( B. Coli ) والباشلس الستافيلوكوكي [2] ثم الباشلس الستربتوكوكي [3] فالنوموكوكي [4] فالغونوكوكي [5] فالدفثيري فالانفلونزي . ثم لاحظ فلمنغ ان معظم هذه الجراثيم توقَّف عن النمو في اتجاه الثلم حيث البنيسيلين، وان مستعمراتها أخذت تتقلَّص، ما عدا باشلس القولون والباشلس الانفلونزي ( باشلس فيفر )

ثم ان علماءَ البكتيريا يقسمون طوائف البكتيريا تقسيماً آخر، وفقاً لتأثرها بالأصباغ التي تصبغ بها لاظهارها على شرائح المجهر . فمنها ما ينصبغ ومنها ما لا ينصبغ . فالطائفة الأولى تعرف بوصف طائفة « غرام الايجابية » والثانية بوصف طائفة « غرام السلبية » وفي هذه المباحث التي أدارها فلمنغ والتجارب التي جرَّبها، ظهر ان الجراثيم التي تنصبغ ( أي غرام الايجابية ) تعنو لفعل البنيسلين، وأما الأخرى فلا . ومن الطائفة الاولى في الحالين الباشلس الستربتوكوكي، ومن الثانية في الحالين باشلس القولون وباشلس فيفر الانفلونزي

( ١ ) كروي صغير قطر أصغره ربع جزء من مليون جزء من البوصة . فاذا انقسم انقساماً منتظماً ألف سلسلة من الستربتوكوكس واذا انقسم انقساماً غير منتظم الف عنقوداً من الستافيلوكوكس
( ٢ ) يحدث الالتهاب ويوجد في حالات الزكام والالتهاب المعوي في الاطفال ( ٣ ) يوجد في الدمامل وحالات تسمم الدم وغيرها ( ٤ ) مكروب النزلة الصدرية ( ٥ ) مكروب احد الامراض التناسلية ( السيلان )

بعد ذلك جرِّبت تجارب أخرى متعددة ، غرضها ، الكشف عن خواص البنيسلين وفعله في أحوال معينة فظهر ان احماءَه الى درجة الغليان مدى ساعةٍ يضعف قوتهُ الى ربعهـا ، وإحماءَه الى درجة أعلى من الحرارة يقضي عليهِ . ولكن الترشيح لا يؤثر في قدرته على الفتك بالجراثيم . أما مادتهُ الفعالة فتنحلُّ بسهولة في الماء . وخير درجة حرارة لتحضيره هي درجة حرارة الحجرة العادية . وفعله أي فتكه بالجراثيم ، يستمرُّ واضحاً ثمانية أيام الى عشرة ويزول بعد انقضاء أسبوعين على تحضـيره . وفعله المطهر بطيءٌ فهو يستغرق أربع ساعات ونصف ساعة للفتك بالجراثيم الستربتوكوكية

## يقتل الجراثيم ولا يسم الجسم

ولعلَّ أظهر خواصه انهُ لا يفتك الاَّ بالجراثيم ، ولا يسم جسماً حيًّا آخر كجسم فأر أو أرنب أو جسم انسان ، أو انساجها . ولا هو يهيج هذه الانساج . وقد وضع على جرح فلم يهيجه ، واذا حل ٨٠٠ ضعف المطهرات الاخرى ظلَّ أفعل منها . وكان مدار التجارب الأخرى ، معرفة تأثيره في البشر ، ولم تتح الفرصة لتجريبه في حوادث كثيرة ، وقت كشفهِ . لأن المتاح من البنيسيلين كان قليلاً . ولكنهُ جرِّب — على قدر المستطاع — في حوادث كان خمس منها حوادث خطيرة . فشفى حالة حادة في العين بالاستعمال الخارجي ،وأزال حالات التهاب داخلي . وسجلت هذه الحالات وطرق معالجتها حينئذٍ . فأحدث ذكرها هزة في الدوائر الطبية والعلمية . ولكن الاهتمام العام بهِ ضعف بعد ذلك ، بغير ان يضعف الاهتمام الخـاص بدراستهِ ، وعلى وجه خاص في لندن واكسفورد وغيرها

ومما ثبت خلال هذه الفترة ، انهُ يصلح لفصل البكتيريا بعضها عن بعض . فمن الجراثيم المؤذية ما يصعب استفـراده ، لأنهُ ينمو وتنمو حولهُ جراثيم أخرى . ولكن اذا كانت الجراثيم المؤذية مما لا يتأثر بالبنسيلين ، والجراثيم الاخرى مما يتأثر به ، استطاع الباحث أن يقضي على هذه الجراثيم وان يكشف الجراثيم الاولى أي يعزلها . فباشلس فيفر الانفلونزي يُقسر على كشف نفسه بهذه الطريقة ، لأن البنيسيلين يفتك بجماعة باشلس الستربتوكوكس والستافيلوكوكس وغيرها وهي التي تحيط به ، ولأن الباشلس الانفلونزي لا يتأثر بهِ

ان النتائج الباهرة التي أسفر عنها هذا البحث العلمي الدقيق ، حجبهـا في السنوات الاخيرة ، الاهتمام بالعقاقير السلفوناميدية وعجائب فعلها ، ولاسيما لأن السلفوناميديات مواد كيميائية وتحضير مقادير كبيرة منها ، لا يعوقه عائق ما . اما البنيسيلين فمادة طبيعية ولا يستخرج الاَّ من مادة واحدة هي بنيسيلوم نوتاتوم . والمقادير المتاحة منه يسيرة الآن . والسعي العلمي متجه الى توفيرها . وهو يحضر كما يلي : ان مستعمرة العفن ( بنيسيليوم

نوتاتوم ) كتلة هشة بيضاء وتتكاثر وتكبر في سرعة ، وبعد أيام تتولد بزيرات خضر قاتمة ثم تتحول سوداً . وبعد فترة يتحول العفن ، وفقاً للوسط الذي ينمو فيه، فيغدو لونه أصفر أو محاراً فاذا وضع في طبق من مرق اللحم ، طفت هذه المجموعات الهشة على سطحه فتغطيه بطبقة خضراء قاتمة ، لا يختلف مظهرها عن مظهر سطح الماء الراكد في بركة . والمرق تحت هذا السطح يتحول أصفر الى برتقالي ومن هذا السائل يستقطر البنيسيلين . ومن الواضح أن المقادير التي تحضر منهُ على هذا المنوال لا يمكن أن تكون كبيرة . والبحث في اكسفورد خاصة متجه الآن الى تنقيته، والحصول عليهِ مبلوراً . ولم يتمكن الباحثون حتى أواخر السنة الماضية (١٩٤٢) من الحصول عليهِ نقيًّا تام النقاء . وفعلهُ يزداد وفقاً لنقائه. واذا كان نقاؤه نصف تام ، كفى محلول منهُ يبلغ جزءًا في مليون جزء من الماء للقضاء على الجراثيم التي ثبت انها تتأثر بهِ ( غرام الايجابية ) واذا كان نقيًّا قريباً من التمام كفى ، محلول يبلغ جزءًا في ٢٥ مليون جزء من الماء ، لاحداث الفعل نفسه

ومما يستوقف النظر بوجه خاص ، انهُ كلما كان البنيسيلين قريباً من درجة النقاء التامة ، كان فعلهُ السمي أقل سواء في ذلك أجسام البشر أو أجسام الفئران. ولكن فعله السمي يسير جدًّا كما تقدم . ففأر يستطيع أن يتحمله اذا حقن بجرعة ، يبلغ وزنها $\frac{1}{1000}$ من وزن جسم الفأر . يقابل هذا ان فعل السلفوناميدات شديدة الفعل السمي ويجب تناولها بعناية وحرص . فالبنيسيلين أفعل كثيراً من السلفوناميدات وزناً بوزن وأقل فعلاً سميًّا منها

## فعلهُ في المرضى

ان امتحان تأثير البنيسيلين في المرضى من الناس حديث العهد وقد أسفر هذا الامتحان عن نتائج تبعث على الدهش ، فهو ينافس عقاقير « السلفا » في شفاء بعض الامراض وينجح حيث تخفق هي. وهذا لا يعني ان البنيسيلين يشفي كل مرض ويتغلب على كل ميكروب ولكنهُ يعني أنهُ أشدُّ تأثيراً من كل عقار آخر عرف حتى الآن في شفاء طائفة كبيرة من الأمراض مثل « ذات الرئة » والتعفن الناشىء عن جراثيم الستربتكوكوس ، والسيلان والدمامل ، ويغلب جراثيم الستافيلوكوكوس التي تولد الصديد وتحدث احياناً تسمم الدم، وينفع في التهاب الخلايا وكذلك في التهاب عظمة الأذن الخلفية . وبعض السلالات القوية من بعض هذه المكروبات لا تؤثر فيها عقاقير « السلفا » ولكنها تعنو لعقار البنيسيلين بسرعة فائقة وقد يشذُّ عنها نوع من ذات الرئة . وقد رويت حوادث لم يتغلب فيها البنيسيلين على ميكروبات هذه الاصابة ولكنه أضعف فعلها

وهنا حوادث اصابات كثيرة تروى عن فعل هذا العقار . منها ثلاث اصابات بسيلان

حاد ، مضى عليها احد عشر شهراً ، ولم ينجع فيها علاج ما حتى ولا عقاقير « السلفا » . ولكن لم تكد تنقضي سبع عشرة ساعة على بدء علاجها بالبنيسيلين ، حتى أخذت أعراض المرض تزول ، ومنها وجود الجراثيم في جسم مصابين . وبعد انقضاء ثمان وأربعين ساعة استطاع الثالث ان يبرح المستشفى معافىً وليس في جسمهِ جراثيم سيلان

وبرغم الفعل العجيب الذي تتصف به عقاقير « السلفا » فانها محدودة التأثير في الميكروبات التي تولد الصديد فتحدث تعفناً في الجروح والحروق والكسور المركبة وتحدث ما يعرف بأكلة (غنغرينا) الغاز . وبعض هذه الاصابات قد تستغرق شهوراً وأحياناً سنين قبل ان تشفى . وهي من الاصابات التي تكثر في ساحات القتال . ومع ذلك فقد ثبت ان البنيسيلين يشفيها شفاءً سريعاً تامًّا وأنهُ مأمون العاقبة . ولذلك يخصص كل مليغرام يحضر منه الآن للاستعمال في المستشفيات الحربية ، ولذلك اضطرّ الطبيب البريطاني في قوات الشرق الأوسط ان يستأذن لندن قبل ان يستعمله في علاج الأميرة نعمت مختار على ما أنبأتنا بهِ الصحف

والمشقة الكبيرة التي يعانيها مستحضروه في تحضيره قد صرفت عناية فريق من الباحثين الى الاهتمام بابتكار أساليب جديدة تجعل تحضير مقادير وافرة منه أمراً ميسوراً . وفي بعض المجلات العلمية التي اطلعنا عليها أخيراً أن النتائج تبشر بالنجاح . ومع ذلك يغلب أن يبقى ما يصنع منه موقوفاً الآن على الاستعمال الحربي على الأكثر ، الاَّ في أحوال خاصة

ولا يعلم هل بين البنيسيلين وعقاقير « السلفا » صلة ما ، ولكن بينهما وجوه شبه كثيرة . فالنوعان يؤثران بوجهٍ عام في طائفة واحدة من الأمراض . ويلوح ان شكل تأثيرهما واحد . فهما لا يقتلان الميكروب على ما يظن ، بل يمنعانهِ من التكاثر ، فتجهز عليه حماة الجسم (١)

على ان عقاقير « السلفا » تؤثر في الجسم تأثيراً عنيفاً وتحدث احياناً ألواناً من فقر الدم . فالجرع يجب ان تكون محدودة عدداً ومقداراً . ولكن تأثير البنيسيلين تأثير لطيف فاذا زادت الجرعة عن المقدار المحدد لم يتعرض الجسم لرد فعل قوي او لخطر عظيم . وعقاقير « السلفا » تحدث هبوطاً سريعاً في الحرارة يبعث على القلق وأما البنيسيلين فيخفض الحرارة خفضاً متدرجاً

وأغلب الرأي أن أصل البنيسيلين يستوقف الذهن العلمي بقدر ما يستوقف فعلهُ العلاجي أذهان الأطباء والناس . نعم ان الأطباء أصابوا في البنيسيلين أداة جديدة قوية لكفاح المرض ولكن البنيسيلين مستخرج من عفن . وأنواع العفن كثيرة وقد يستخرج من بعضها مواد أخرى تعين الانسان في هذا الكفاح . ولذلك أكبَّ العلماء على بحث أنواع شتى من العفن ويقال ان مادة تدعى « پناتين » تستخرج مع البنيسيلين وتفوقه فعلاً في الفتك بالبكتيريا .

---

(١) راجع كتابنا آفاق العلم الحديث فصل « العقار العجيب » صفحة ١٩٧ — ٢٠٥ ففيه تفصيل

# فلاسفة الرواق

للدكتور عثمان امين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

## زينون

زينون هو زعيم الفلاسفة الرواقيين القدماء . ولد حوالي سنة ٣٣٦ قبل الميلاد بمدينة « كتيوم » بجزيرة قبرص على الشاطىء المقابل لفينيقيا . ويستحيل التوفيق بين جميع الروايات التي ذكرت اقبال « زينون » على الفلسفة بعد اشتغاله بالتجارة . ولكننا نستطيع أن نصدق ما قيل من انه جاء الى أثينا أول الأمر في شأن من الشؤون التجارية : تذهب أقدم الروايات عن « زينون » الى أن أباه كان تاجراً من تجار قبرص فاشترى في بعض أسفاره كتباً للسقراطيين وخصوصاً كتاب « الذكرات » لاكزنوفون . فلما قرأ زينون تلك الكتب رغب في الذهاب الى أثينا ليتلقى عن أولئك الاساتذة (١) . وتحدثنا رواية أخرى أن زينون كان في سفينة تحمل بضاعة من ارجوان الفينيقيين . فغرقت السفينة على مقربة من « بيري » ونجا زينون فقصد الى أثينا . ونقول نحن : لاشك أن التاجر الشاب وجد في أثينا عالماً جديداً لا عهد له به ، يتكلم الناس فيه عن أشياء تتجاوز أمور الكسب والخسارة في التجارة ، وإذ كانت الحركة الفلسفية مزدهرة بمدينة أثينا في ذلك الحين فلا عجب أن نرى زينون يجعل بلاد اليونان مقامه ويرتضيها لنفسه وطناً ثانياً . ويظل زينون في أثينا مقبلاً على التعلم متنقلاً من مدرسة الى أخرى غير قانع بما عند أستاذ واحد : يروون انه كان يحضر دروس « اقراطيس » الكلبي فلما سئمها أراد أن يغادر مجلس ذلك الاستاذ ليستمع الى دروس « استلبون » الميغاري فجذبه « اقراطيس » من عباءته يريد أن يمنعه من الانصراف ، فقال زينون : «يا اقراطيس ان الفلاسفة لايجذبون الا من آذانهم ! »ولعله يريد بذلك التعريض بما كان في التعاليم الكلبية من فقر وقلة كفاية من الناحية العقلية . وتردد زينون على المدارس الفلسفية اليونانية زهاء عشرين عاماً . ولما أصاب منها بغيته اتخذ لنفسه مجلساً للتعليم مستقلاً في

(١) Diogène Laerce, Vie des Philosophes, VII, 31.

ايوان ذي أعمدة هو الرواق المنقوش الذي كان فيما مضى منتدى الادباء والفنانين، ومن ذلك المكان اشتقّ اسم المدرسة الرواقية[1]

١ — ﴿ شخصية زينون ﴾ ولقد عاب بعض القدماء على زينون أنهُ جعل من مدرسته أشبه الاشياء بملجأ لأهل البطالة ومأوى للفقراء والمساكين . لكن آخرين يروون ما يفهم منه ان زينون كان يجانب العامة، وانه لكي يتفادى مزاحمة الرعاع كان يشترط قدراً من المال لا بد ان يدفعه مستمعوه . ومهما يكن من شأن الجمهور الذي كان يختلف الى المدرسة الرواقية فالذي لا شك فيه ان نفوذ زينون على تلاميذه ومريديه كان نفوذاً بعيد المدى بل يكاد لا يجاريه نفوذ فيلسوف آخر في الزمن القديم : يروون ان الملك « انطيفون غوناطاس » كان من تلاميذ زينون والمعجبين به فلم يكن يفوته كلما قصد الى أثينا أن يبادر بالاستماع الى دروس ذلك الأستاذ الحكيم

كان زينون طويل القامة نحيف الجسم شديد سواد الجلد رأسه مائل على كتفه . وكان يرتدي الأقمشة البسيطة الرخيصة ويقنع في مأكله بالقليل من الخبز والتين والعسل والقليل من النبيذ. وكان سلوكه سلوك الرجل الوقور وتبدو على هيأته سمات الجد والانقباض ولكنه لم يأنف ان يغشى أحياناً مجالس الأنس والبشاشة . فاذا سئل في ذلك أجاب : بأن طبيعة الترمس المرارة فاذا نقع في الماء مدة طاب مساغاً[2] وكان زينون يؤثر الصمت على كثرة الكلام . ونستطيع أن نفهم حال ذلك الفيلسوف الاسيوي وسط شعب مولع بالكلام كالشعب اليوناني . يروون أن زينون قال في ذلك : « ان لنا لساناً واحداً وأذنين لنعلم أننا ينبغي أن ننصت أكثر مما نتكلم ».وكان زينون موجز العبارة لم يعن في كتابته بفصاحة ولا أسلوب . ولعله لم يبلغ قط شأو اليوناني الأصيل في الافتنان الأدبي بل كان بنشأته يميل الى السليقة ويحتقر الفن . على ان خشونة الطبع وغلظة القول وسط قوم مغرمين بالرشاقة والجمال لم يكونا ليحولا بين زينون وبين التأثير في مستمعيه أبلغ تأثير

٢ — ﴿ أخلاق زينون وتكريم الاثينيين له ﴾ أجمع القدماء على أن زينون كان على خلق عظيم وأن حياته على بساطتها كانت دائماً قدوة طيبة ومثالاً أخلاقيًّا عالياً . بلغ هذا الحكيم من قوة الارادة وطول الصبر وضبط النفس والعفة والسيطرة على الهوى مبلغاً أدهش معاصريه فكان الأثينيون يضربون به المثل قائلين « أضبط لنفسه من زينون[3] »

(١) راجع الفارابي « ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » في كتاب المجموع من مؤلفات أبي نصر الفارابي . طبع مصر (الخانجي) ١٩٠٧ ص ٥٨

(٢) Arnim, Stoicorum Veterum fragmenta, I, n. 285

(٣) Diogène Laerce, Vie des Philosophes, VII, 27

عاش زينون حتى بلغ من العمر ٩٨ سنة. ولما مات رثاه الاثينيون رثاءً رسميًا ، وأصدر أولو الأمر قراراً أعلنوا فيه أنهُ استحق تقدير الوطن لخدماته وحثه الشبيبة على الفضيلة والحكمة ، ولذلك منحوه تاجاً من ذهب وقبراً في مدفن العظماء . وهاك نص القرار: «حيث أن زينون بن أمناسياس من مدينة كتيوم أقام بمدينتنا هذه عدة سنين لتعليم الفلسفة وحيث اتضح انهُ من أهل الاستقامة في جميع الامور وانهُ سار في حياته كلها على مقتضى الاصول التي كان يعلمها ويدعو اليها. وانهُ دأب على حث تلاميذه على لزوم الفضيلة ، فقد رأى الشعب أن يمدحه على رؤوس الاشهاد وأن يمنحهُ تاجاً من الذهب — استحقه لورعه واستقامته — وأن يشيد له قبراً بقرميق من بيت المال . ورأى الشعب أن يختار خمسة من الاثينيين لمباشرة عمل التاج والقبر، وأن ينقش هذا القرار على عمودين : أحدهما بالمدرسة الافلاطونية والثاني بالمدرسة الارسطاطاليسية ، وان المال اللازم لهذا العمل كله يسلم حالاً لمباشرة مصالح الدولة حتى يعلم الناس جميعاً أن اهالي اثينا يشرفون ارباب الفضل أحياءً وامواتاً» (١)

وليس لدينا ما يدعونا الى الشك في صحة هذه الشهادة ولا في صدق ذلك الشعور الذي بعث الاثينيين على أن يخلدوا ذكرى زينون . حتى أن الاثينيين انفسهم أصدروا حكماً مخالفاً على فيلسوف اثيني أصيل ، مع ان جميع ما وجهوا الى سقراط من تهم ومفتريات يمكن أن ينصب على زينون. لكن الحقيقة أن روح الاستقلال السياسي والديني كانت قد انقرضت في ذلك الحين فاتضحت اذ ذاك فائدة المدارس الفلسفية وبان فضلها في إعلاء شأن المدينة وتثبيت اركان الحكم ، فلم يعد هنالك ما يحول دون الاعتراف علناً بمناقب زينون وأمثاله

٣ — ﴿ حكم مأثورة ﴾ ذكر الشهرستاني حكماً كثيرة أثرت عن زينون . وهي تلائم ما نعرفه من اخلاقه ونورد هنا بعضها : رأى زينون فتى على شاطىء البحر حزيناً يتلهف على الدنيا فقال له : يا فتى ما يلهفك على الدنيا لو كنت في غاية الغنى وانت راكب في لجة البحر قد انكسرت السفينة وأشرفت على الغرق فكانت غاية مطلوبك النجاة ويفوت كل ما في يدك ؟ . قال نعم . قال : لو كنت ملكاً على الدنيا وأحاط بك من يريد قتلك كان مرادك النجاة من يده. قال نعم. قال : فأنت الغني وأنت الملك الآن . وقيل لزينون: أي الملوك أفضل : ملك اليونانيين أم ملك الفرس ؟ قال : « من ملك شهوته وغضبه ! ونعي اليه ابنه فقال ما ذهب ذلك عليّ . انما ولدت ولداً يموت وما ولدت ولداً لا يموت ! وقيل له وكان لا يقتني الاَّ قوت يومه : ان الملك يبغضك فقال : وكيف يحب الملك من هو أغنى منه ؟ (٢)

(١) Diogène Laerce, VII, 10-12

(٢) انظر الشهرستاني الملل والنحل ( بهامش الفصل لابن حزم ) الجزء الثالث ص ٦٠ — ٦٥

٤ — ﴿ موارد فلسفة زينون ﴾ : فلسفة زينون متعددة الموارد . قد ذكرنا أن زينون حينما قدم الى اثينا استمع فيها الى المدارس الفلسفية المختلفة . فما هي اذن أهم تلك المدارس في ذلك الحين ؟

لم يكن قد مضى على موت افلاطون اكثر من ثلاثين سنة . والذين حظوا بالأستماع اليه كانوا لايزالون يحتفظون بذكريات عنه . وكان رئيس الاكاديمية « بوليمون » الذي خلف «زينوقراط» على الارجح في السنة التي قدم فيها زينون الى اثينا . اما المدارس الافلاطونية المستقلة فكانت بعد مزدهرة وكانت تثابر في تثبيت التقاليد السقراطية في شتى الاتجاهات

واما أرسطو فكان قد مضى على وفاته ثماني سنوات تاركاً رآسة المدرسة المشائية الى تلميذه «تيوفراسط». واكبر الظن أن « زينون » لم يكن يجهل تعاليم تيوفراسط الذي دارت بينهُ وبينه مساجلات فيما بعد . كما انهُ لم يجهل تعاليم « ابيقور » الذي كان قد بدأ تعليمه قبله ببضع سنين[1]. والرواقية والابيقورية هما مذهبان قد وقفا في اكثر المسائل على طرفي نقيض كما هو معلوم

واما المدرسة القورينائية فكان يمثلها حينذاك في اثينا « تيودور » الملحد الذي نفي من قورينا

أما الاساتذة الذين تلقى عليهم «زينون» فنذكرهم فيما يلي : يرجح المؤرخون أن يكون « زينون » قد حضر دروس « زينوقراط » الاكاديمي[2]. ولقد ثبت على كل حال انه تلقى العلوم على « بوليمون » خليفة « زينوقراط » في ادارة الاكاديمية . ذكر « شيشرون » ان « زينوقراط » كان يرى ان الفضيلة هي كل شيء ، ولقد بلغ من تعلقه بهـذا الرأي ان جعلهُ شرطاً للسعادة، يعني بذلك أنهُ لا سعادة من غير فضيلة[3]. أما « بوليمون » فكان يمتـدح التربية القائمة على المجاهدة ورياضة النفس وكان يؤثرها على تربيـة أساسها الثقافة النظرية والجدل البحت، وكان يرى أيضاً ان الحياة الكاملة هي الحياة الملائمة للطبيعة وسنرى آثار هذه المبادىء في المدرسة الرواقية

---

(١) L. Robin, La Pensée grecque, 2 éd. 1928, p. 409

(٢) ذكر « ديوجانس اللايرسي » ( في الكتاب السابع فصل ٢ ) ان زينون تتلمذ على « زينوقراط » ولكن بعض الكتاب ارتاب في ذلك لاسباب تاريخية. وبين«جومبرس» وهن تلك الاسباب في بحث بعنوان : Gomperz, zu chronologie des Stoikers Zenon نشره في مجلة Wiener Sitzungs — Berichte, Vol. 146, Abh.

(٣) Cicéron, Tusculanes, VI; 18, 51

وحضر « زينون » كذلك على « استلبون » الميغاري . والمشهور ان « استلبون » هذا سلك مسلك الكلبيين في ازدراء العرف العام وقلة الاكتراث بالآراء المشهورة ، وانه كان يرى أن الخير الأسمى انما يبلغه انسان ذو نفس مطمئنة أصبحت بمعزل عن التأثر بهموم الناس ووساوسهم . ولعلّ «زينون» أخذ عن الميغاريين بوجهٍ عام ذلك الميل الى الجدل المنطقي الجاف الذي طالما نعاه الناس على الرواقية القديمة

وتتلمذ « زينون » على «اقراطيس» الكلبي زمناً غير قصير . ولعلّ « اقراطيس » هو الذي أثر في زينون أثراً عميقاً باقياً . فألف « زينون » على أستاذه كتاباً سماه « مذكرات اقراطيس » . وكان اقراطيس شخصاً عجيباً انتمى الى الكلبيين ، فبالغ في تطبيق التعاليم التي وضعها « انطستانس » مؤسس المدرسة الكلبية . و « انطستانس » — كما هو معروف — كان من المعجبين بأخلاق سقراط وما طبع عليه من قوة النفس والصبر على المكاره وما عرف به من قلة الاكتراث للمال والجاه واحتقار الآراء التقليدية والاحكام الشائعة . وكذلك سنرى الرواقيين يمجدون سقراط ويكادون يرونه مثال الحكيم

على ان الكلبيين كانوا على وفاق مع سقراط في القول بأن الفضيلة هي العلم وان ذلك العلم يرشدنا الى السعادة . لكن « انطستانس » كان ينكر العلم على نحو ما يتصوره الناس ، أي علم المنطق والطبيعة لأنهما في نظره مستحيلان : إذ العلم يعبر بالقضايا العامة ، وهذه ليس لها معنى محصل ولا تنطبق على شيء له وجود حقيقي ، انما الحقيقي على الاطلاق هو الشيء الفردي الجزئي . ولا وجود « للانسان » ولا « للحصان » كمعنى كلي انما الموجود هو « هذا الانسان » و « هذا الحصان » . الخ . . . وهذه النزعة الاسمية التي تتجلى عند « انطستانس » سنرى أثرها بعدُ في المنطق الرواقي كما سيأتي بيانه

على ان « زينون » قد تلقى عن «اقراطيس» شيئاً آخر : ذلك أن تعاليم الكلبيين كانت ترمي — كما هو معلوم — الى ازدراء العرف واطّراح التقاليد واحتقار الاوضاع . والكلبيون قوم لا يحفلون لشيء ويسخرون من كل شيء . . ومن أجل ذلك تجردوا عن أموالهم قصداً وآثروا أن يعيشوا كالمشردين أو المتسولين . ولكنهم حاولوا بقوة ارادتهم أن يحدّوا من سلطان الحاجات والرغبات والشهوات التي تنشأ عن الحياة في المجتمع ، والتي يرون ان الانسان في حال الفطرة خال منها . وانما ينال الانسان السعادة حين يستكفي بنفسه لأن السعادة انما هي أمر باطني في يدنا ، مرجعهُ الينا وحدنا ولا يستطيع أحد كائناً من كان أن يسلبنا اياه : ذلك هو اطمئنان النفس والاستقلال عن الغير . ولكي ينال الانسان السعادة ينبغي أن يحتقر الظروف الخارجية : يحتقر الآراء السائدة والمال والجاه بل

الموت نفسه. ولكي يتخلص الانسان من الحاجات والرغبات المتكافئة ينبغي ان يرجع الى الطبيعة. فالعودة الى الطبيعة هي المثل الاعلى الذي كان الكلبيون ينشدونه قبل الرواقيين وقبل « ديدرو » و « روسو ». وشعار الكلبيين بالاختصار متابعة الفطرة والرجوع الى الطبيعة. وذلك هو بعينه المبدأ الذي سيكون عليه مدار الاخلاق في فلسفة « زينون » وأصحابه. وواضح ان زينون أخذه عن الكلبيين ولكنه وصل بينه وبين ثقافة أوسع مستعيناً في آرائه بمختلف الفلسفات الاخرى

وواضح كذلك ان الكلبيين، وهم أولئك الداعون الى الطبيعة، كانوا ينظرون الى الدساتير السياسية والنظم الاجتماعية نظرهم الى الاشياء الضارة والاوضاع المصطنعة، ولم يكن الانسان في نظرهم مواطناً لمدينة أو دولة خاصة بل وطنه العالم، وكانوا يطمحون الى مجتمع يعيش فيه الناس جميعاً أمة واحدة ولا يكون فيه دستور ولا قوانين موضوعة وانما يسوده الانسجام الناشىء عن الغرائز الطبيعية في حال استقامتها ونقائها [١]. ذلك ما تلقاه « زينون » عن أستاذه « اقراطيس ». وسنرى أثره في الدعوة الرواقية الى الجامعية التي قدّر لها أن تتسع بفضل الرواقيين حتى تشمل الجنس البشري فتمنح كل فرد من أفراده لقب « مواطن العالم »

والحق ان تلك الحركة الاخلاقية النازعة من جهة الى مسايرة الطبيعة ومن جهة أخرى الى اطّراح اللذائذ ومجاهدة النفس انما كانت متابعة للنزعة العامة التي كانت سائدة في عصر الاسكندر. ولقد أدت هذه التعاليم التي استقاها « زينون » من أساتذته الى تعزيز أثر المذهب الكلبي في مدرسة الرواق. وتعاليم الرواقية تشهد بعمق ذلك الأثر وان كانت مذاهب الاكاديمية قد لطفت من حدته نوعاً ما

ولا بد أخيراً ان يكون « زينون » قد اشتغل بالالمام بنظريات الفلاسفة السابقين على سقراط ولاسيما نظريات « هرقليطس ». ذهب « زينون » الى ان جميع الاشياء عبارة عن جوهر واحد وهو الجسم. وهذا يبدو لأول وهلة رجوعاً الى مادية الفكر اليوناني القديم. والحقيقة ان « زينون » قام باعثاً طبيعيات « هرقليطس » الذي كان قد ذهب الى انه لا ثبات لشيء وان كل ما في العالم هو في تغير وجريان. واخذ « زينون » عن « هرقليطس » فكرته في أن أهم عناصر الوجود النار، فربط تلك الفكرة بفكرته في الاحتراق الكوني، ومضمونها انه في فترات دورية يتقوّض نظام العالم كله ويكون احتراق عام يتبعه حدوث عالم جديد. واستعار « زينون » من الفيثاغوريين فكرتهم في « الرجعة الابدية » أعني ان

---

(١) Rodier, Etudes de Philosophie Grecque pp. 223-227

كل فترة يمر الكون بها هي صورة مضبوطة للفترة التي سبقتها، وهي فكرة قد بعثها « نيتشه » من جديد في العصر الحديث

٥ — ﴿العناصر الشرقية في تعاليم زينون﴾ : وهنالك مسألة جديرة بالعناية : يهم الباحث ان يتعرَّف أكان تعليم «زينون» كله استمراراً للفلسفة اليونانية أم ان فيه عناصر ترجع الى الاصل الفينيقي الذي ينتمي اليه شيخ الرواقية ، وبعبارة أخرى ما مدى العناصر الشرقية في فلسفة الرواقيين ؟

أما الذين يذهبون الى أن فلسفة زينون يونانية فيستطيعون ، على نحو ما بسطنا فيما سبق ، أن يبينوا ارتباط كل جزء من أجزائها بالتقاليد الفلسفية التي عرفتها بلاد اليونان من قبل . والقصة التي تروي خبر قدوم زينون الى أثينا بعد اشتغاله بالتجارة انما تفيد أن الذي جعل منه فيلسوفاً لم يكن مؤثراً أتاه من بلاده ، بل من المدارس اليونانية التي أعجب بها ومن أساتذة أثينا الذين أقبل على مجالسهم والتلقي عنهم

ولكننا نستطيع مع ذلك أن نتبين في مذهب زينون عنصراً جديداً يميزه عما في تعاليم اليونان الأصيلة . فلنا بعد هذا ان نتساءل عن صلة ذلك العنصر بالمذاهب الشرقية

كان ذلك الموضوع مثار خلاف كثير بين الباحثين . ونحن نميل الى الأخذ برأي الاستاذ « بفان » الذي قرر ان هذه المسألة لا يستطاع أن يقطع فيها برأي حاسم ما دام يعوزنا أن نقف في الوقت الحاضر على طبيعة الحكمة عند الفينيقيين (١)

على أنهُ اذا لم يكن من الميسور ان نبين في وضوح أن مادة التعليم الزينوني تحتوي على عناصر من تقاليد الساميين، فيمكننا أن نلاحظ في صورة ذلك التعليم شيئاً يفرق بين «زينون» وبين غيره من فلاسفة اليونان : قيل ان مثال « زينون » اقرب الى مثال النبي الشرقي منهُ الى مثال الفيلسوف اليوناني . فمثال الفيلسوف اليوناني قد بلغ ذروته في سقراط وافلاطون : تراها في أحاديثهما وخطبهما ودروسهما يدعوان صراحة الى نوع من الاحتكام الى العقل والتجربة . ثم هما اعتادا أن يضعا نفسيهما والمستمعين في صفٍّ واحد . واكتشاف الحقيقة عند افلاطون لا يجيء نتيجة لتعليم او تلقين يكون فيه احد الطرفين مقرراً مثبتاً والثاني معتقداً مصدقاً ، بل هو توجيه للنفوس تستخلص فيه الحقيقة الكامنة فينا بالاستنباط والدليل العقلي . وهذه الطريقة هي نقيض طريقة النبي الذي يوقن انهُ اكتشف الحقيقة بالتأمل والالهام لا بالدليل العقلي، ويعلن نتائج دعوته بصفته مرسلاً من عند الله دون ان يعطي الاسباب .

(١) E. Bevan, Stoiciens et Sceptiques, tr. fr. 1927, pp. 9-10

على ان النبي والفيلسوف يفترقان من حيث نغمة الكلام . ومن العجب أن زينون وان كان مضمون تعاليمه يونانيًّا الاَّ ان نغمة صوته اقرب الى نغمة الانبياء : كان يشعر أنهُ مكلف برسالة يريد ان يؤديها وأن يأخذ الناس بها كاملة . فكان لا بد له أن يساير حاجات العقلية اليونانية المولعة بالاستدلال والجدل والاقناع ، فعبّر عن رسالته تلك في صورة حجج موجزة وأقيسة محبوكة كانت تبدو وكأنها خلعت على كلامه يقيناً رياضيًّا . واليك مثلاً من طريقته في التدليل على وجود الآلهة قال : « العقل والحكمة يقتضيان أن تمجد الآلهة، وليس من الحكمة أن نمجد أشياء ليست موجودة ، واذن فالآلهة موجودة ».[1] وقال في موضع آخر للتدليل على أن الكون لا يخلو من عقل ومن وجدان : « لا شي مما يخلو من العقل والوجدان يستطيع أن يلد موجودات ذات عقل ووجدان ، والكون يلد موجودات ذات عقل ووجدان ، واذن فالكون نفسه له عقل ووجدان »[2]

ولكن يكفي ان نلقي نظرة على تلك الاقيسة المنطقية المختصرة لنرى انها لا تملك في ذاتها قوة على الاقناع وكأنها لم تكن الاّ وسيلة للترجمة عن معتقدات الأستاذ الذي كان تعليمه في صميمه تقريراً لرأيه هو وفرضاً له على المستمعين دون مناقشة ولا جدال . حقًّا ان « زينون » قد يذكر العقل في كلامهِ من حين الى حين . ولكن ذكره اياه كان من قبيل « اللازمة » في آخر الموشح، فزينون يلجأ في تعليمه الى عبارة قد يرددها في آخر الدور اذ يقول : « هكذا قال العقل » واذا كان الناس يصدقون اقواله فليس ذلك بسبب اقتناعهم بها اقتناعاً عقليًّا بل لأن ثمة وراء تلك التصريحات والتأكيدات قوة شخصية هائلة، ولأن ثمة شيئاً كان يرتفع من أعماق قلوبهم شاهداً مؤيداً أقوال الأستاذ : فهو اذاً تصديق لا عقلي وهو أشبه الاشياء بالايمان[3]

والخلاصة أن هذه التيارات المختلفة التي وردت على فلسفة « زينون » قد تفسر لنا شيئاً من خصائص الرواقية في جملتها . ولكننا سنرى بعد ان هذه المؤثرات العامة ، على قوتها، ليست كل شيء في فلسفة الرواق . والرواقيون اذا لم يكن لهم في بعض الاحيان بد من ان يعتمدوا على القديم ، فهم على كل حال قد ألقوا عليه طابعاً خاصًّا ونفثوا فيه روحاً جديدة.

---

(١) Ssextus Empiricu , Contre les mathematiciens, IX, 133;
Arnim. Stoic. veter. fragm·I, fr. 152

(٢) انظر Cicéron, de natura·.deorum., II, 22

(٣) انظر E. Bevan, Stoic· et Scept., p. 12.

# العمران والطيران

## بعد الحرب

من مآثر هذه الحرب — إن لم يكن بدّ من البحث عن مآثر لها — أنّ اجيالاً من التقدّم العلمي والصناعي، قد حُشدت في بضعة أشهر أو بضع سنوات . فالنضال في سبيل الكيان شحذ قرائح العلماء، وحتّم على الحكومات توفير المال اللازم لبحثهم وتجريبهم. وقد اخترعت مخترعات جديدة في الطيران واتقنت مخترعات قديمة، ما كانت على الغالب لتتاح في مثل هذا الوقت القصير في ايام السلام، ولو اتيحت لعدّت من العجائب

نعم إنّ بعض هذا التقدّم لا يزال ملفوفاً بالغموض الذي تقتضيه الضرورات الحربية ولكنّ المعروف منه، البادي في حوادث مشهورة، ومناقشات مستفيضة على صفحات المجلات والجرائد، لم يستوقف انظار الناس بوجهٍ عام، لانصرافها الى احداث الحرب

فمن عهد قريب اجتازت قاذفة كبيرة المحيط الاطلسي من جزيرة نيوفوندلند الى انكلترا في ست ساعات واثنتي عشرة دقيقة . ولو تمّ طيران من هذا القبيل في ايام السلم، لنشرت اخباره في صفحات الجرائد بحروف كبار وهلّل الناس وكبروا للطيارين، وما عهدنا بلندبرج حين اجتاز المحيط وبالذين تبعوه، بالعهد البعيد . اما وانباء المعارك التي يتوقف عليها مصير الحرب تستأثر باهتمام الناس، فقد مرّ هذا الحادث، كأنهُ لم يكن، أو كأنهُ لم يكن شيئاً مذكوراً . ولكن هذا الحادث يعني — على أقل تقدير — ان الطيران من اميركا الى لندن وباريس، بين عشية وضحاها أصبح أمراً عمليًّا

وحين تنتهي الحرب، وتتاح هذه المخترعات الجديدة، ووجوه الاتقان والتحسين التي طرأت على المخترعات القديمة، وتطبق على شؤون الحياة اليومية، فسيجد فيها الناس مايبعث على الدهشة والعجب . خذ مثلاً على ذلك التحليق في أطباق الفضاء . فقد كنا نقرأ قبل نشوب الحرب، عن مغامرات الطيارين الذين يحاولون ان يكسبوا قصب السبق في التحليق، فأصيبوا بالدوار والاغماء حين بلغوا ارتفاع ٣٢ الفاً من الأقدام او ٣٥ الفاً من الأقدام، ثم هبطت بهم الطائرة وهي تهوي كأنها جلمود صخر حطهُ السيل من علٍ، حتى اذا ما دنت من سطح الأرض استعادوا وعيهم وثابت اليهم نفسهم فقبضوا على زمام الطائرة

فأنقذوها وانقذوا انفسهم بنزولهم على الأرض في احكام ويسر

أما الآن فهناك ألوف من الرجال يحلقون الى ارتفاع ٤٠ الفاً من الأقدام ، كأنَّ ذلك شيئاً عاديًّا واذا كانت محركات طائراتهم مجهزة بأجهزة خاصة تغذيها بالهواء ، استطاعوا ان يحلقوا فيها الى ارتفاع خمسين الفاً أو ستين الفاً من الاقدام

فاذا طبقت هذه الحقيقة على ما ينتظر من أساليب الطيران المدني بعد الحرب ، صحَّ ان نقول ان مشكلة الطيران في أطباق الجو العليا ( الطبقة الطخرورية Stratosphere ) قد حُلَّت وهذا يجعل الطيران أسرع وأيسر ، وانك لتستطيع بعيد انتهاء الحرب أن تنتقل من مكان الى مكان بطائرة محلقة عشرة أميالٍ فوق سطح الارض

والواقع ان التقدم الحديث في الطيران، الذي تمَّ بعد نشوب الحرب يبعث على الدهشة. فصانع الطائرات تصنع الآن قاذفات مداها عشرة آلاف من الاميال أي انها تستطيع — في نطاق الحرب — ان تطير من الولايات المتحدة الى المانيا ثم تعود الى أميركا بغير توقف

ومغزى هذه الحقيقة يتجلَّى لنا حين نتريث قليلاً لانعام النظر فنذكر ان محيط الارض يبلغ ٢٥ الفاً من الاميال عند خط الاستواء، وان محيطها في الاقطار الشمالية حيث أكبر أمم العالم الصناعية لا يزيد على ١٨ ألفاً من الاميال

فتصوَّر اذن طائرة مداها عشرة آلاف ميل ، تقوم من أرض أميركا وتتجهُ شرقاً أو غرباً فتطير بغير توقف الى البقعة المقابلة للمطار الذي قامت منهُ على الجانب الآخر من الكرة الارضية ! أي ان الطيران من أي مكان الى أي مكان آخر ، حول الارض — في منطقة خطوط العرض الشمالية — أصبح أمراً واقعاً

وما يتوقعهُ الخبراء في سرعة الطائرات لا يقلُّ غرابةً عما تقدَّم ذكرهُ في أمرى التحليق والمدى. فمن المسائل المعروفة المتداولة ان الطائرات المطاردة التي تصمَّم وتبحث الآن تستطيع أن تطير بسرعة ٥٠٠ ميل في الساعة . وقد قال أوليفر ستيوارت الخبير بالطيران ، ان مصمم الطائرات يستطيع الآن، ان يصنع طائرة تطير بسرعة ٦٥٠ ميلاً في الساعة ، اذا صرف همَّهُ الى مراعاة السرعة لا غير في تصميمها . ويرى ده سفرسكي — وعنهُ ننقل معظم هذه الحقائق — ان بلوغ سرعة ٧٠٠ ميل أو أكثر قليلاً ليس مستحيلاً

وقد كنا الى عهد قريب ، نُعنى النفس بما يحدثهُ الطيران بهذه السرعة ، من تأثير في جسم الانسان . ولكن التجارب قد أثبتت ان هذه المخاوف لا أصل لها . فمطاردات كثيرة تبلغ في أثناء انقضاضها بقوة محركاتها ، سرعة تعادل سرعة الصوت ، وذلك بغير ان يصاب الطيار أو الطائرةُ بأذى ما

وحين يفوز المخترعون بوسيلة للحركة في الهواء يبلغ فيها الاندفاع الاضافي وزن الطائرة يصير الطيران بسرعة الصوت حقيقة واقعة. وفي المنطقة المعتدلة الشمالية تبلغ سرعة الشمس ٧٥٠ ميلاً في الساعة واذن فالطيران بسرعة الصوت غرباً يمكن الطائرة من مجاراة الشمس أي ان الذي يقوم من نيويورك بعد ميعاد طعام الفطور يبلغ سان فرنسسكو في ميعاد طعام الفطور ، مع ان المسافة بينهما ٣٠٠٠ ميل

وماذا يمكن ان يقال في قدرة الطائرات على حمل الأحمال من بضاعة وركاب ؟

في اليوم السابع من شهر يونيو الماضي أعلن مكتب الأخبار الحربية الاميركي ان شركة هيوز — كيزر ماضية في صنع طائرة تستطيع أن تحمل حملاً يزن ستين طنًّا . ويبلغ المدى بين طرفي الجناحين في هذه الطائرة ٣٢٠ قدماً وطول الطائرة نفسها ٢١٨ قدماً . وأذاعت شركة كوسنولوديتيدٌ انها معنية بتصميم طائرة تتسع لاربعمائة من الركاب . وقد وصف غروفر لوينتغ أحد كبار مهندسي الطائرات طائرة تستطيع ان تحمل حملاً تبلغ زنتهُ حوالي ١٧٥ طنًّا وهو يقول ان المرحلة التي بلغتها صناعة الطائرات الآن تجعل انشاء هذه الطائرة أمراً مستطاعاً . ومما يستوقف النظر في هذا الصدد ان جلين مارتن الذي صمّم وصنع طائرة النقل الكبيرة المعروفة باسم «مارس — المريخ» وصفها بأنها دار لها أجنحة مؤلفة من خمس عشرة حجرة ، ثم أضاف « ومن يدري فقد نستطيع ان نطير ببناية امبير ستيت » — وهي أكبر ناطحات السحاب في نيويورك

ولا يقتصر تقدم الطيران على التحليق والمدى والسرعة والسعة بل يشمل كذلك بحوثاً عجيبة في الوقود والمحرّكات وخواص المواد التي تبنى بها الطائرات . وغرض هذه البحوث زيادة كفاية المحركات وقدرة الطائرات على الاحمال بحيث تزداد زنة الحمل بالقياس الى زنة الطائرة نفسها

ولا يحتمل ان يمضي مهندسو الطائرات واصحاب مصانعها في تصميم طائرات مطردة حجماً وسعة ، لأن ذلك مناف لعوامل الاقتصاد في استعمالها . فليس من المصلحة ان تصنع طائرة تتسع لالف راكب مثلاً ، لتقطع محيطاً في بضع ساعات ، إن كان جمع الركاب من هنا وهناك وشحن امتعتهم والاشراف على جوازاتهم تستغرق مدة أطول من مدة الطيران نفسها . ووجه الخطإ في تصور الطائرات الضخمة ، هو مقابلتها بالسفن الضخمة التي تمخر عباب اليم . فهذه السفن تستغرق اياماً في اجتياز المحيط من اميركا الى اوربا فيجب ان تكون السفينة منها فندقاً فخماً عامًّا . ولكن الطائرة تجتاز المحيط في بضع ساعات ولا تحتاج الى جميع وسائل الراحة والرفاهة التي لا غنى عنها في السفينة .

# غزو روسيا

## تفشل فيه ثلاث دول في ثلاثة عصور

## — ٢ —

لادوار مرقص
من اعضاء المجمع العلمي

### حريق موسكو

علينـا الآن ان ننتقل الى الغزوة الفرنسية وفشلها في روسيا تحت قيـادة الامبراطور نابليون بونابرت الأول . والقيصر الروسي يومئذٍ هو الامبراطور اسكندر الأول من سلالة بطرس الأكبر الآنف ذكره . وقد اخترنا لذلك فصلاً عنوانه « حريق موسكو » مدبجاً بقلم شاهد عيان نريد به الكونت سيجور Ségur وهو جنرال من قواد نابليون وأحد المقربين اليه والحائزين ثقتهُ المطلعين تماماً على دخائل اموره وأحوال جيشه وغزواته . وهذا الـكاتب القائد كان أيضاً عضواً من أعضاء الأكاديمية الفرنسية في باريس وهذا ترجمة ما قاله :

« كان رجلان من ضباطنا الفرنسيين قد نزلا بحي بنـاء من ابنية الـكرملين قصر القياصرة وباتا هناك مع من باتوا في القصر من رفاقهما .وكانا من موضعهما ذاك يشرفان على الجانب الغربي والجانب الشمالي من تلك العاصمة العظيمة موسكو . وعند منتصف الليل انتبها على انوار وهاجة فنهضا ومدَّا ابصارهما واذا بهما يشهدان النيران محتدمة على نطاق واسع في الجهتين الشمالية والغربية وقد تألقت انوارها وانتشرت طولاً وعرضاً وارتفعت الى الجو واخذ ضرامها يفعل فعله الهائل في الابنية التي تقتحمها فتهدم السقوف والجدران وتتطاير الشظايا الكثيرة في كل جهة وقد وصلت منها بقية الى حيث كان الضابطان فارتاعا لهذا المنظر وخفق قلباهما لاسيما وقد رأيا الريح الشمالية تسوق ذلك الحريق الهائل باتجـاه قصر الكرملين نفسه

وقد نزل في القصر نخبة الجيش الفرنسي ومعهم الامبراطور نابليون كما ان قسماً آخر من الجيش العامل وفرق عمال الجيش الفرنسي وموظفيه نزلوا بجوار القصر في كثير من

القصور والفنادق والدور وكلهم يهدم الحريق الزاحف نحوهم وهم مستغرقون في نوم عميق على اثر ما قاسوه من المشاق والمتاعب في يومهم السابق والايام التي تقدمت

***

وبعد ما شاهد الضابطان ذلك المشهد مدة ساعة او اكثر وتأملاه وفكرا في شأنه ظناه حادثاً بسيطاً نجم عرَضاً ولم يتداركه اولو الامر بسرعة اهمالاً منهم واستخفافاً به وقال أحد الضابطين في نفسه . « مالي ولما أراه فأنا وجندي بمعزل عن هـذه النار فهي لا تهددنا ولينولّ غيرنا امرها » . قال ذلك وعاد الى فراشـه . ولا شك ان ما ناجى به نفسه هو ضرب من حب الذات وضعف الحمية مما ينتاب قلوب البشر على أثر ما يلقونهُ من متاعب وشدائد . ولا شك ان شدائد الجيش الفرنسي وضباطه كانت جمة يخطئها العد والاحصاء . فالضابط الفرنسي كان معذوراً في نجواه وتهاونه . وقد أراد هو ورفيقه ثلاث مرار الرجوع الى مهجعهما وفي المرار الثلاث كان بريق النار وازيزها وتطاير الشرر والشظايا ينهضهما من مضجعهما الى النوافذ والشرفات والحريق يتسع نطـاقه بسرعة ويشتد شواظه ويدنو زحفه من قصر الكرملين . فلما لاحظ الضابطان ذلك ازداد خوفهما وتغيرت ظنونهما وأحسا أن الأمر اعظم وأهم مما حسبا وقدَّرا فقالا هل يا ترى أقدم اعداؤنا الروس على احراق عاصمتهم هذه بأمل ان يطوقونا ونحن فيها ويقضون علينا وعلى امبراطورنا . انها لتضحية عظيمة لم يسمع التاريخ بمثلها اذا صح ظننا بشأنها ولـكن النتيجة المتوخاة من القضاء على جيش فاز مظفر تتطلب تضحية عظيمة تـكون على مستواه ثم بزغ فجر ذلك اليوم وكان قد أحس بالحريق سائر الضباط الذين باتوا في القصر فبهتوا ولجأوا الى ساحات القصر وردهاته الواسعة والذعر يدب في قلوبهم شيئاً فشيئاً وكان في القصر على غير علم منا مستودع كبير للبـارود وتحت شرفاته صناديق وبراميل بارود للجيش الفرنسي والى قربها بطاريات من المدافع الفرنسية . وقد اجتهـد القائد مورتيه Mortier ومعه غيره من الرؤساء والموظفين ورجالهم في مكافحة الحريق ووضع حدّ لهُ حتى تصببوا عرقاً من التعب وفرغت من أيديهم كل وسيلة ومن عقولهم كل حيلة . ولم يفلحوا في مسعاهم فتخلوا عن مهمتهم تلك وأتوا الى جوار قصر الكرملين واستلقوا على ظهورهم ملتمسين لأنفسهم شيئاً من الراحة واليأس أقرب الى قلوبهم من الامل ولذلك لزموا الصمت واجمين

« وكان كثيرون لا يزالون يظنون ظنّـاً راجحاً أن ذلك الحريق نجم في أول أمره عن غير عمد على يد جنود فرنسيين أشعلوا النـار وذبحوا الذبائح وأقاموا المراقص في ذلك الليل

ابتهاجاً بما نالوه من نجاح عسكري توهموه ظفراً حاسماً نهائيًّا بدخولهم موسكو فأصابت النار شيئاً أمامها التهمته وساعدتها الريح العاصفة التي كانت تهب فحصل الحريق واشتد وامتد الى أن أصبح خطراً لا يطاق ولا يرجى توقيه . هذا الذي ظننته جماعة منا وكانت جماعة ثانية تخالفها فيه وجماعة ثالثة تتردد بين الظنين . وهو غموض مزعج مؤلم لا يخرجنا منه إلاَّ الخبر الصريح الصادق فأخذنا نستطلع الأخبار ولم تلبث أن وردت علينا صريحة صحيحة إذ جاءنا افراد من رجالنا من جهات متعددة وكلهم مجمعو الكلمة على ان الروس هم الذين تعمدوا حرق عاصمتهم نكايةً بنا وأملاً بالتغلب علينا ومحو أثرنا . وكان بدء الحريق على ما روى شاهدو عيان من الجند الفرنسي ان كتلة من النار هبطت من الجو على قصر أحد أمراء الروس فتناوله الحريق وكانت تلك الكتلة الهابطة هي العلامة المتفق عليها بين رجال الحريق فبادروا الى انفاذ مهمتهم بجرأة وضراوة غريبتين وقد استخدموا في عملهم وسائل مختلفة من أسهم عليها خرق مغموسة بالقطران ومن كتل أخرى ومن قنابل متفجرة الى غير ذلك من أدوات الاحراق وقد اشتركت نسالا من الطبقة السفلى في هذا الحريق . وأما رجال الحريق فمعظمهم سجناء وأئمة أطلقت الحكومة الروسية سراحهم وأمرتهم بحرق العاصمة تحت مراقبة رجال الشرطة ورجال الدرك. وأول بناء التهمه الحريق قصر ذلك الأمير ثم دار البورصة ثم العشرات والمئات من الأبنية الكبيرة والصغيرة وكان مشعلو النيران يبدون عناداً غير اعتيادي وافتخاراً عظيماً بانجاز مهمتهم وهم لا يبالون بالجند الفرنسي الذي يقاومهم وقد أهلك منهم جماعة فلم يثبط هلاكهم همة واحد من الباقين . وزبدة ما يقال في عملهم ذاك ان التفكير فيه لا ينشأ إلاَّ عن فرط الألفة والمحبة الوطنية ولكن انفاذ هذا العمل لا يستطيعهُ إلاَّ أهل الشر والفساد .

***

«وهكذا جرى في حريق موسكو . وكان حريقها يهددنا بعواقبهِ في حاضرنا ومستقبلنا ويقضي على ثمار انتصاراتنا في روسيا وغير روسيا من ممالك الشرق والغرب . وقد بدأ حريق موسكو ليل ١٤ ايلول (سبتمبر) من سنة ١٨١٢.

« وكنا لا نزال في احدى ساعات الصباح والامبراطور نابليون مستغرق في نومه وليس من رجل في خواص رجاله يتجاسر على ايقاظه ومجابهته بخبر ذلك الحادث الفظيع . واذا بهِ يستيقظ من تلقاء نفسه على وهج النورين نور النهار ونور الحريق فما كاد يرتدي ثيابه حتى ظهرت أمارات الغضب على وجههِ وأمر باطفاء النار كأنهُ يصدر امراً عادياً سهل التنفيذ

فوقف رجاله أمامه صامتين منكسين رؤوسهم . ولما علم بطرف من حقيقة الامر تقدم من احدى الشرفات يمد بصره فصعق لما رآه من هول الحريق وسرعة دبيبه وخيبة الجند الفرنسي في مكافحته ومكافحة القائمين به . ومع ان بين مواضع الحريق وبين قصر الكرملين أرضاً براحاً واسعة ونهر موسكوفا وجسره وأرصفته وغير ذلك من الأبنية كان وهج النار قد وصل الى بلوره وزجاجه فجعلها حامية لا تكاد تمس وكانت شظايا الحريق تتطاير بسرعة وكميات عظيمة من الطنوف والشرفات والابواب الى سطوح القصر وسقوفه ومخادعه ودهاليزه وردهاته وخدم الامبراطور في القصر وحرسه يجهدون في ازالتها وتنظيف مواقعها وهم يعجزون عن ذلك لأن المتجدد منها كل لحظة كان يفوق ما يكنسونه ويزيلونه . فاعترت الامبراطور نابليون نوبة عصبية شديدة وجعل يرغي ويزبد ويقوم ويقعد ويركض من مكان الى مكان ويصدر أمراً ثم يلغيه ثم يعود الى الشرفة فيتطلع ويرى الحريق يزداد شدة واتساعاً ومن نظر الى الامبراطور في تلك الساعة كان يظن ان لهباً من الحريق مس ثيابه وجسمه بدليل ما يشاهد من كثرة حركاته واضطرابه . والرجل معذور في هذا الجزع وهذا الغضب فقد كان يبني صرحاً من الآمال على غزوه روسيا ودخوله عاصمتها منتصراً فاذا بتلك الآمال من أولها الى آخرها شبح وهمي أو طيف خيال يتوارى تماماً في ثنايا لهب الحريق وسحائب دخانه المتلبدة وكان قد عرض شروط الصلح على مغلوبيه الروس ورجا أن يرد عليه جوابهم بالقبول أو بتعديل خفيف لتلك الشروط فاذا بهم يرسلون اليه حريقاً لا يدع ولا يذر عوض ذلك الجواب وطول الأخذ والرد في الخطاب . وكلما رمى ببصره الى الأبنية الضخمة والآثار الفخمة التي تلتهمها النيران أمامه كان يتمتم قائلاً : « ما أفظع هذه الجريمة وما أقسى قلوب مرتكبيها . انهم لبرابرة »

***

« ثم امتلأ الجو بسحب من دخان الحريق فأصبحنا لا نستنشق سواه عوض الهواء الكروي النقي وارتفع صوت من القصر يقول : — ان القصر ملغوم وعن قريب يطير في الفضاء — وما أسرع ما انتقلت صيحة هذا الانذار من فم الى فم ولما بحثنا عن كنه هذا الخبر وجدناه صحيحاً وكان النهار قد مضى معظمه ودنا منا الليل يهددنا بزيادة الارتباك والويل فدخل على الملك صهره مورات وهو ملك نابولي ومعه البرنس أوجين والبرنس نوفشاتل وضرعوا اليه أن يسرع ببراح القصر قبل فوات الفرصة ضناً بحياته وحياة رجاله وإلاَّ بلعتهم النيران وفعلت الالغام فعلها بأساسات القصر فلم يصغ اليهم ولم يصدق ان القصر ملغوم فعادوا الى تضرعهم وجثوا امامه على ركبهم فأصرَّ على عناده وبقي حيث كان

«دخل نابليون قصر الكرملين التاريخي العظيم قصر القياصرة الجبابرة غزاة اوربا وآسيا فعز عليه بعد هذا الفتح ان يترك القصر ويتخلى عن ذلك النصر ولو دعاه الى هذا التخلي الحريق الهائل ورسول الموت الزؤام . وبعد اصرار نابليون على عناده هنيهة من الزمان سمعنا صوتاً من القصر يصيح صيحة ذعر وتحذير : النار ! النار ! النار في الكرملين ! فكان لهذا الانذار دوي عظيم فردده السامعون كثيراً حتى وصل الصوت الى نابليون فتفحص الخبر واذا به حقيقة راهنة لا مرية فيها وبحثنا عن سبب شبوب النار هناك فعثرنا على جندي روسي كان قد اندس في القصر بيننا وهو الذي ابتدأ يضرم النار فيه اطاعة لأمر رؤسائه وقد اعترف الجندي بما اقترف غير هياب ولا وجل فطرده نابليون من أمامه بعد نظرة احتقار واشمئزاز وجهها اليه وما كاد يخرج من حضرته حتى أقبل عليه الحرس الفرنسي ممتلئين حنقاً ومزقوه بحرابهم اربا اربا . ولما علم نابليون ان الروس ادخلوا في برنامجهم احراق الكرملين نفسه غير مبالين بما له من قيمة مالية وتاريخية ودينية وان هذا القصر مقضي عليه بعد قليل وان تمكن في المرة الاولى والثانية من اطفاء حريقه وهو في اوائله ولما علم الأمبراطور ذلك رأى ان العناد لا يجديه نفعاً فهمَّ بالخروج وأمر بالخروج معهُ من في القصر والمدينة وأشار علينا ان نتخذ طريق بطرسبرج لكي نحتل القصر الامبراطوري هناك. سرنا وبعد الجهد اهتدينا الى طريق ضيق لم يزل كثير من اجزائه سالماً من الحريق ولكن اللهيب فيه شديد فسقفه من نار تتساقط منهُ العوارض الخشبية والملتهبة وطنوب الحديد الحامية وأرضهُ كأنها من نار وعن يمينه ويساره سوران من نار . وهو مع ذلك اقل خطراً من بقية الطرق والمسالك فسلكناه والامبراطور في مقدمنا وكنا نحجب وجوهنا بأيدينا فيصيبها الشواظ ويكويها كيًّا والدخان المتكاثف يكاد يعمي عيوننا ونحن لا نستطيع اغماضها لاننا محتاجون الى نظر كل ما أمامنا وحوالينا والاّ هلكنا في طرفة عين ولم يكن لنا بدٌّ من السير الى الامام على ما يعترضه من الموانع وأما الرجوع فلا سبيل لنا اليه . وأما التربص حيث كنا ولو دقائق يسيرة فمعناه الهلاك العاجل

« وكان البرنس ايكموهل وهو مارشال فرنسي يخوض هو وجنوده بحور النار وبحيراتها في ذلك الحريق الجهنمي مفتشاً عن الامبراطور فلما عثر عليه ونحن معهُ تقدم منهُ وصافحهُ فاستقبلهُ الامبراطور استقبالاً حسناً ودياً ولكنهُ ظل على سمته ووقاره كأنهُ غير مصاب بشيء . فسار معنا المارشال وجنده حتى وصلوا بنا الى طريق آخر أقل خطراً مما كنا فيه ولكنهُ عظيم المشاق لانهُ مؤلف من خرائب وانقاض الابنية التي تدهورت فيه فسلكناه حتى خرجنا من المدينة . وفي السابع عشر من ايلول (سبتمبر) بلغنا بتروفسكي بقرب بطرسبرج

وأقمنا فيها مؤقتاً . والامبراطور عاد الى صمته وتأملاتهِ فلم نسمع منهُ هناك الاّ هذه العبارة : « ان ما أصابنا من الحريق ينذرنا بويلات عظيمة لا بد ان تحل بنا »

***

هذا هو الفصل الذي اردنا نقله عن الجنرال الفرنسي سيجور Ségur ولكي نقف بالقارىء حيث يحسن السكوت او يحتمل يجدر بنا ان نطلعه بايجاز على الحوادث والنتائج التي ساقها الدهر الى البشر بعد حريق موسكو فنقول :

ذكر المؤرخون ان الجيش الفرنسي الذي زحف به نابليون الاول لمحاربة روسيا واكتساحها هو أعظم جيش قاده في حياته بل أعظم جيش عرفه المحاربون في ذلك العصر فكان عدده ستمائة الف مقاتل ولهذا سماه الفرنسيون الجيش الكبير وان لم يعد الاّ جيشاً متوسطاً في حروب أيامنا الحاضرة . وزعم بعض مؤرخي الروس ان ذلك الجيش الفرنسي كان عدده مليون نفس ولعلهم أضافوا الى رجاله المحاربين وجنوده العاملين كل الرجال الذين رافقوا ذلك الجيش من موظفين وصناع وعمال وتجار وهم جماهير غفيرة لا يستغني عنها الجيش في حلهِ وترحاله لاجل اشغاله وحاجاتهِ ومتعلقاتهِ فبلغ مجموع العدد مليوناً أو ما يقارب المليون . قالوا : وبعد ما حدث حريق موسكو وخرجت الجنود الفرنسية شاردة متبددة لا يكاد يستقر رأيها على أي وجهة تتخذ وأي تدبير تلجأ اليهِ كانت الجيوش الروسية واقفة لها بالمرصاد ومعها قوتان أخريان لا تقلان عنها هولا وهما الجوع والبرد فان الروس كانوا قد اتخذوا الحيطة والتدابير الدقيقة لحرمان عدوهم الميرة والمؤونة في اثناء تراجعهِ غير تاركين له في القرى والمدن التي يمر بها شيئاً من ذلك . وأما البرد والثلوج فكانت مبكرة عن جاري عادتها في بلاد الروس تلك السنة كأن الطبيعة قد أخذت على نفسها ان تحالفهم على عدوهم فلحق الفرنسيون من جراء البرد ضيم شديد وعذاب لا يطاق وكذلك من جراء قلة الغذاء وأعظم من الآفتين آفة هجوم الروس ولا سيما خيالتهم القوزاق على تلك الفلول الفرنسية المبعثرة واصطيادها كما يصطاد القناصون الماهرون طيوراً وحيوانات.

بقي الجيش الفرنسي يقاسي في نكوصهِ وتقهقره تلك الويلات مدة شهرين او اكثر وكل يوم يفقد من رجاله الالوف قتلاً او دنقاً او مرضاً او جوعاً أو تعباً وكان الموتان في الخيول الفرنسية أسرع وأشنع حتى نفقت كلها تقريباً واضطر فرسانها أن يتحولوا كلهم الى مشاة كما اضطرت القيادة الفرنسية ان تترك في أراضي روسيا عتادها ومدافعها وسائر ذخائرها فاستولى الروس عليها غنيمة باردة . ولم يصل الى فرنسا من ذلك الجيش الضخم المظفر في عشرات من الحروب ومئات من المعارك ازاء عدة دول في اوروبا وآسيا الاّ ثلاثون الف

مقاتل أو أقل بينهم جمهور عظيم من المرضى والجرحى . وبذوبان ذلك الجيش ذابت آمال نابليون الاول وآمال اعوانه وأنصاره وأتباعه في اخضاع العالم أو اخضاع القسم الاكبر من العالم . ولم يلبث انكساره ذاك ان نشط بريطانيا العظمى لتجديد الاغارة عليهِ ومعها مقهورو الامبراطور بالامس من المان ونمسويين وايطاليين واسبان وغيرهم . ولكن عزيمة ذلك الجبار لم تخر بل جهز جيشاً جديداً من قومهِ وهم فتيان في ريعان شبابهم لا تنكر عليهم بسالتهم الطبيعية ولكن هيهات ان يقوموا مقام ذلك الجيش الهالك الذي كان ممتلئاً حنكةً ودربة فضلاً عن بسالتهِ وبطولتهِ فانكسر الجيش الفرنسي الجديد وأخذ الامبراطور نابليون اسيراً الى جزيرة البا وبعد ما اقام فيها بضعة اشهر تمكن بوسائل جريئة من العودة الى فرنسا وتبوء عرشها وكان له فيها حزب قوي ينصره ومعظمهُ من الجيش وحزب آخر يخذله فعادت دول اوروبا الى محاربتهِ . وقد تمتع مائة يوم بالعرش بعد عودتهِ اليه فكسروه في معركة واترلو الحاسمة سنة ١٨١٥ واحتفظت بهِ بريطانيا العظمى اسيراً في جزيرة القديسة هيلانه من املاكها في جنوب المحيط الأطلسي حيث اقام ست سنوات ثم مرض وتوفي طريداً مقهوراً وهو في اواسط عقد الخمسين من عمره . وبعد وفاته بسنوات نقلت الدولة الفرنسية رفاته من مدفنه الاول الى مدفن عظمائها في باريس حيث استقبلوا الجثة استقبالاً باهراً فخماً يليق بصاحبها

ومما يؤثر عنهُ انهُ كان يثني على بسالة الروس عموماً وخيالتهم القوزاق خصوصاً ومن اقواله بهذا الصدد : « اني احب الروس وان كانوا اعدائي لانهم ابطال والبطل يحب البطل » وقال في مقام آخر : « ان اشجع جيش حاربته هو الجيش الروسي واشجع فرق هذا الجيش خيالة القوزاق ؟ والفارس القوزاقي لا يكفيك ان تقتله لتأمن شره بل يجب عليك ان تقتله وتدفنهُ » . وبديهي أن في عبارتهِ مبالغة لطيفة اراد بها التعبير عن عناد القوزاق وشدة عزيمتهم حتى وهم على آخر رمق من حياتهم . وكان القيصر الروسي اسكندر الاول بعد ما تغلب نهائيّـا هو وحلفاؤه على نابليون حريصاً على أن لا يحرموا فرنسا شيئاً من املاكها الاصلية فتمّ له ما اراد واكتفى المنتصرون بتجريد فرنسا من فتوحات امبراطورهم وردها الى أصحابها . كما ان هذا القيصر وردت عليهِ من نابليون وهو منفي في جزيرة القديسة هيلانة رسالة ملؤها شكاوى مرة مما يناله في منفاه من سوء المعاملة في كثير من الامور حتى في التضييق عليه بنزهاته هناك ، متعمدين تعذيبهُ واهانتهُ . فرثى القيصر لحاله وساءتهُ شكواه وتوسط في الأمر لدى حليفته بريطانيا العظمى فأصدرت أمرها بالتخفيف عن أسيرها العظيم ورفع كل ما لا ضرورة لهُ من اعناته والتضييق عليهِ .

# وصف المغيب

لعدنان مردم بك

أبريقٌ ما أرى خلف السحابِ أم سطور تتراءى من كتابِ
عجبي للشمس مما سطَّرت حينما جدَّت ببينٍ واغتراب
أصبح الأفق خضمًّا من دمٍ يتلظى بلهيب واضطراب
وطفا النور كسيلٍ جارفٍ في حواشي الأفق محموم الرغاب
صور شتى أفانين المنى حكت الرؤيا بأجفان الشباب
فكأن السحب والنور بها مائج ، فلكٌ تهاوت في عباب
سُفُنٌ للنور راحت ترتمي ناشطات السير في شتى الشعاب
نشرتْ راياتها مؤذنة بافتراق ثم جدَّت في انسحاب
أي شجو هيجت شمس الضحى حين غابت وأثارت من عذاب

* * *

عرت الوحشةُ أكناف الربى فلوى السوسن جيداً باكتئاب
يتنزى من شجون وأسى نزوان الطير في قيد العقاب
ربَّ صمت من كئيب موجع حقق المعنى وأغنى عن جواب
والخزامى أطرقت مغمضة مقلة ، إغماض دَلٍّ وعتاب
غلب اليأس عليها فارتمت كخليع ناءَ من وقر الشراب
أو كمشتاق سرت في نفسه سورة الشوق الى مرأى الصحاب
قام يرنو من حنين للحمى مستعيداً حلو أحلام الشباب

والندى يرفضُّ في جنح الدجى كارفضاض القطر أو دمع التصابي
أي شجو هيجت شمس الضحى حين غابت وأثارت من عذاب

***

وترى الطير ترامت زمراً تقطع الأفق بوخد وانتهاب
تنبري كالسهم حيناً صعداً واذا انقضَّت تراءت كالشهاب
يممت شطر الحمى مسرعة تتحدى الريح جرياً في الغلاب
ولها من شوقها حادٍ اذا أخذ الاعياءُ منها في الاياب
أين للنازح عن أوطانه راحة البال وصوب من صواب
وصغار الطير في اعشاشها ترمق الليل بذعر وارتياب
ترسل الصيحة من شجوٍ كما شهق الموجع من وخز الحراب
ولها في مسمع الأفق اذا ردَّدتها الريح أنات انتحاب
أي شجو هيجت شمس الضحى حين غابت وأثارت من عذاب

***

خَبَت الأنوار إلاَّ صفحة من ضياء تتراءى كالضباب
واستمرَّ النور في غمد الدجى كحسامٍ مستسرٍّ في قراب
خلتُ شؤبوب الضيا من رقة سال يهمي قطرات من حباب
دقَّ قرن الشمس حتى خلته شاكل اللغز غموضاً في الحساب
والدجى أومأ من خلف السحاب ناشراً فوق الربى جنحي غراب
ظلمةٌ كالبحر في اثباجه غمرت أطباق هاتيك الروابي
غفت الطير وفي آماقها عبرة الموجع من سهم المصاب
والأزاهير ارتمت من شجنٍ شلو إعياءٍ على سافي التراب
أي شجو هيجت شمس الضحى حين غابت وأثارت من عذاب

# نشوء الديموقراطية

## وتطورها

## — ٢ —

لناشد سيفين

طمّ سيل قياصرة الرومان وفاض حتى اكتسح العالم كله . واستفاضت شهرة لكتائب روما انها لا تقهر . حتى اذا حسب القوم انهم قد حطموا كل مقاومة وأصبحوا سادة العالم بلا منازع . ارتفع صوت في فلسطين باسم الحرية . وشقّ شعب اليهود عصا الطاعة لروما العظيمة . ورفعوا راية العصيان في وجه قيصر . فجنّ جنونه ورماهم بابنه تيطس على رأس جيش كبير لحاصر اورشليم مدينتهم المقدسة وما زال يدك أسوارها ويضيق عليها الخناق حتى دخلها عنوة ففتك بحاميتها ودمر المدينة والهيكل تدميراً تامًّا لم يبق فيهما ولم يذر حجراً على حجر

ذهبت ريح اليهود بعد تدمير المدينة التي كانت موطن عزّهم ومعقد آمالهم فتبدّدوا في فجاج الارض وتشتتوا في بلدانها . وتوراتهم معهم تحمل في طياتها مشعل المساواة . وهكذا حلّوا بين الأمم ليكملوا الجهاد الذي بدأوه في فلسطين في سبيل الحرية . ويحملوا النصيب الذي قدّر لهم أن يحملوه من النضال ضد الطغيان . لاحياء الديموقراطية وبعثها على أسس من الحرية والاخاء والمساواة . ليكون لهم في أرض الله ما لغيرهم من الحقوق

وعاشوا في بلاد الغربة كما كان أسلافهم في التيه لا يفتأون يذكرون انهم كانوا عبيداً للمصريين وبنّائين مسخّرين حتى تولّى الله أمرهم واتخذهم شعباً لهُ وحرّرهم . وآلوا على أنفسهم أن يظلوا الى الأبد لالههم شعباً . فاستمسكوا بعروة دينهم لتدوم لهم صبغتهم . وحرصوا ألاّ يختلطوا مع الأجناس الأخرى بالمصاهرة لتبقى لهم مميزات جنسهم . وغالى بعضهم في ذلك فأطلقوا على أنفسهم اسم البنائين الاحرار . وتقلدوا شعار آبائهم الاولين ، واصطبغوا بصبغتهم ، وكان من جرّاء ذلك ، انه صار لليهود في كل بلد كيان مستقل ، وشخصية متميزة ، فساءت فيهم الظنون ، وسدّت في وجوههم أبواب الوظائف في كثير من الدول ، ولم يسمح لهم بالانخراط في سلك الجندية ، فلم يبق لهم من

ميادين لاستغلال مواهبهم ونشاطهم غير المهن الحرة والتجارة وأعمال الصيرفة ، فبرزوا فيها كلها ، وقبضوا على أزمتها ، وأثبتوا انهم أبناء بجدتها . وأنشأوا للمال دولة وكانوا هم سادتها

أثار نجاح اليهود في مهاجرهم حسد أصحاب البلاد وحقدهم فنسجوا حولهم كثيراً من القصص وأذاعوا عنهم اشاعات للخيال فيها نصيب كبير . يدور معظمها حول الربا وقسوتهم فيه على المدينين . ومن قبيل ذلك قصة تاجر البندقية لشكسبير . ثم أذاقوهم العذاب بما افتروا عليهم . واضطهدوهم وأسرفوا في ذلك كثيراً

أدرك زعماء اليهود ان العلة فيما يكابدون من ألوان العسف هي العداء لدينهم وجنسهم من التعصب ، فازدادوا تماسكاً فيما بينهم وارتباطاً ، وحرصاً على الحرية التي وهبت لهم ، وتشبثاً بعقائدهم . وأيقنوا انهم لن يطيب لهم المقام بين الامم إلاَّ أن تباح الحرية الدينية ويقضى على الفوارق الجنسية

ومن هنا يبتدىء نضال البنائين الاحرار لبناء المجتمع على أساس الحرية والاخاء والمساواة . ويبتدىء من ثمَّ تاريخ البنايةُ الحرة وهي المشهورة باسم الماسونية كقوة من قوى الديموقراطية وكعامل لهُ خطره في التطورات السياسية

كان الأمر فيما يتعلق بالماسونية ومبادئها وأغراضها سرًّا بين طائفة من اليهود في أول عهدها . وكانت اجتماعاتها قاصرة عليهم . لكن لم يمض غير قليل حتى كان البناءون الأحرار قد اتصلوا بكثيرين من الناقمين على نظام الطبقات الذي كان سائداً في أوربا في ذلك الحين . لكن لم يقبلوا منهم في محافلهم إلاّ من وثقوا به واطمأنوا الى اخلاصه خشية أن يندس بينهم من يكون عيناً للحكومة فيفسد عليهم أمرهم . وكان تدقيق الماسونية في اختيار اعضائها واشتدادها في ذلك الى حد بعيد هو السبب في كل ما يذاع عن اسرارها الخفية ، وما ينسج حول ذلك من أقاصيص

وما وافى القرن الثامن عشر حتى كانت العلوم قد نهضت نهضتها الكبرى والصناعة الآلية قد تقدمت تقدماً كبيراً . وأقبلت الطبقة الدنيا على العلوم يغترفون من مناهلها . وعلى الصناعة يشغلون مواهبهم ونشاطهم في ميادينها . ومن هؤلاء نشأت طبقة وسطى تسامت بأبصارها الى الأشراف فأنكرت عليهم ما يتمتعون به من امتيازات لا يبرر بقاءها لهم فضل اختصوا بهِ او مزية لم تكن لغيرهم ، سوى ما أورثهم الحكم المطلق من ضياع وألقاب

وكان نشاط هذه الطبقة الناشئة المثقفة على أشده في فرنسا بفضل مؤلفات ڤولتير عن الحرية الدينية . وكتابات روسو عن أسباب عدم المساواة . ونظريته عن العقد الاجتماعي .

والانسكلوبيديا التي جعلت سائر العلوم من طبيعية واجتماعية وسياسية في متناول الشعب . وكان من شأن كل هذا أن يوسع آفاق الفكر في فرنسا ويفتح عيون شعبها لنقد حكومتها

ولما ارتبكت مالية البلاد في عهد لويس السادس عشر وماري انطوانيت لم يفت الشعب ان يروا في ذلك آية على فساد النظام القائم . وابتدأت الدعوة من ثمَّ لاصلاحه وتتابعت هجمات الاحرار على الحكم المطلق لأبداله . وكان اول سهم سددوه الى هذا الحكم وأصاب منهُ المقتل هو طلبهم من الملك اجراء الانتخابات العامية للجمعية العمومية . وهذه هيئة استشارية كانت تمثل طبقات الأمة الثلاث : الأشراف ورجال الدين والشعب . وقد دعيت في سنة ١٦١٤ م لاقرار تولية لويس الثالث عشر الملك وكان قاصراً . ثم لم تدع منذ ذلك الحين للانعقاد

وما زال الأحرار يلحون في طلبهم من الملك اجراء الانتخابات لهذه الجمعية ويشدّدون عليه النكير حتى وافق على طلبهم وتحدَّد لانعقاد الجمعية يوم ٥ مايو سنة ١٧٨٩

* * *

كان لنواب كل طائفة قاعة خاصة يجتمعون فيها للمداولة . وكان لكل مجلس صوت في المسائل التي تعرض . فاذا اتفق مجلسان على رأي فهو الراجح . ولما كانت مصالح الاشراف ورجال الدين واحدة فقد كان يحدث دائماً أن تتفق آراء مجلسيهما فتكون الأغلبية في جانبهم . غير أن الشعب في هذه المرة قد صمَّم على ان يكون اجتماع الطبقات الثلاث في قاعة واحدة ثم تجري المناقشة في المسائل المطروحة وتصدر القرارات بأغلبية الأصوات . فلما انعقدت الجمعية في الموعد المقرر طرح هذا الرأي للمناقشة فرفض الأشراف ورجال الدين الموافقة عليه وأصروا على بقاء التقليد القديم . ولزم نواب الشعب موقفهم وعولوا على الاجتماع بمفردهم اذا رفض الاشراف ورجال الدين النزول على رأيهم

وبناء على هذا أرسل نواب الشعب في شهر يونيو دعوة الى نواب هاتين الطبقتين للحضور الى قاعة الشعب للقيام بالواجبات التي دعيت الجمعية العمومية من أجلها . وأضافوا الى ذلك قولهم انهم يمثلون ٩٦ ٪ من مجموع الأمة . وهم يعدون انفسهم لذلك أصحاب السلطة الفعلية في البلاد

وفي الموعد المحدد اجتمع نواب الشعب . ولم يحضر النواب الآخرون . فأطلقوا على أنفسهم اسم الجمعية الوطنية . وكان معنى هذا انكار وجود طوائف أخرى غيرهم وحصر السلطة في أيديهم . وبانكار امتيازات الأشراف والغاء مجلسهم قضى على نظام الطبقات وبانكار

امتيازات رجال الدين والغاء مجالسهم فصلت الكنيسة عن الدولة . وبحصر السلطة في أيدي الشعب قضي على الحكم المطلق

***

أخذت الحوادث تتطور بعد ذلك بسرعة وفي يوم ٥ اغسطس أصدرت الجمعية الوطنية وثيقة حقوق الانسان التي أصبحت نبراساً تهتدي به الشعوب وعلى مبادئها ترتكز دساتير الأمم الحرة في العالم كله . واليكم مقتطفات منها :

يولد الناس ويعيشون أحراراً متساوين في الحقوق . لا تمييز ولا تفاضل بينهم الاّ فيما تقتضيه المصلحة العامة

الغاية من كل مجتمع انساني صيانة الحقوق الطبيعية للانسان وهي الحرية والملكية وطمأنينة الشعب ومقاومة الاضطهاد

الشعب هو مصدر السلطات جميعها وليس يحق لأي فرد أو أية جماعة ان يأمروا أو ينهوا الاّ اذا استمدوا السلطة بذلك من الشعب

ان القانون هو مظهر الارادة العامة للامة ولأهل البلاد جميعاً الحق في ان يشتركوا في وضعه بأنفسهم أو بوساطة نوابهم . والقانون واحد بالنسبة للجميع . والناس سواء امام المراتب والوظائف العامة . لا تفاضل بينهم الاّ في اختلاف كفايتهم ولا تمييز الاّ في ما تقتضيه فضائلهم ومواهبهم

واذا دققنا النظر في هذه الوثيقة وتحرينا عن المصادر التي استلهمت منها المبادىء التي تنطوي عليها فانا نجد ان واضعيها أخذوا عن اليونان المبدأ القائل ان الامة هي مصدر السلطات والمبدأ الآخر الذي يقول ان لاهل البلاد جميعاً الحق في ان يشتركوا في وضع الشرائع بأنفسهم أو بوساطة نوابهم . اما ما جاء فيها عن المساواة في الحقوق والمساواة امام المراتب والوظائف فهو مستلهم من مبادىء البنائين الاحرار . وانا لنلمح في عبارتها بريق الحرية والأخاء والمساواة

وقد قامت الجمهورية في فرنسا على اساس المبادىء التي تتضمنها هذه الوثيقة ورفرف فوق بنائها الشامخ علم مثلث الألوان يرمز كل لون منها وهي الأبيض والأزرق والأحمر الى مبدأ من المبادىء الثلاثة : الحرية والاخاء والمساواة . وانتشرت هذه المبادىء في العالم كله وأصبح الدستور والحكومة الديموقراطية حلم كل شعب مهيض الجناح وانغمست الماسونية الفرنسية في السياسة بعد هذا الفوز . وسارت على منهاجها محافل كثيرة في البلاد الأخرى . فلم تتوان عن تغذية روح الثورة على الحكومات الاستبدادية

وهذا هو السبب في أن كثيراً من الحكومات تنظر الى الماسونية بعين الريبة وتحاربها باعتبارها خطراً على الدولة . غير ان قوى الاستبداد لم تستطع أن تصد تيار المساواة الجارف عن سبيله

فما وافى القرن التاسع عشر حتى كانت الثورة الصناعية التي نشأت عن تقدم العلم وتطبيقه وأدت الى الثورة السياسية وفوز الديموقراطية في القرن السابق قد قاربت أوجها . لكنها لم تبلغ الذروة إلاَّ في منتصفه حين استنبط بسمر Bessemer طريقته في صنع الفولاذ . فكانت مفتتح عصر الفولاذ الحديث . وهو يتميز بما استحدث فيه من آلات صانعة بلغت الغاية في ابداعها وسرعة انتاجها . كالمغزل المدار بقوة بخارية . وآلة الخياطة . والمحراث التجاري والحاصدة التي تربط الحزم من تلقاء نفسها . والمطحن البخاري . وغير ذلك من الآلات التي حلت محل أيدي مهرة الصناع وحذّاقهم . وقطعت على ملايين منهم سبل الرزق وقضت عليهم بالتعطل . وكانت عاقبة هذا ظهور الاشتراكية التي أدت الى ثورة العمال في سبيل المساواة

وأول من قال بالاشتراكية كارل ماركس وهو من علماء الاقتصاد في المانيا ومن يهودها المتنصرين . رأى ما حلَّ بالعمال وهالته كثرة المتعطلين منهم . وأدرك بثاقب بصره ان مشكلاتهم ان لم تحلَّ على منهاج واضح وأسس اقتصادية قويمة فسينكب العالم منها نكبة لم يشهد قط مثلها . وعكف من ثمَّ على دراسة شؤون العمال مذ كانت في العالم صناعة . وخرج من ذلك بالاشتراكية وجاهر بها . وهي نظرية اقتصادية تخالف في مبادئها وفي نظرتها الى العامل وعلاقته بصاحب العمل ما جرى عليه الناس وصقلهُ العرف من قديم

***

وجد العمال في الاشتراكية خيراً لهم فتحمسوا لها . وكان أشدهم حماسة عمال المانيا . وهذا طبيعي لأنها موطنها ومبعث رسالتها. وكان على رأس حكومة المانيا في ذلك الحين سياسيها العظيم بسمارك . فتظاهر في أول الامر بالميل اليها وتأييدها لغرضٍ في نفسه ، إذ كان يسعى الى التخلص من سلطة النمسا فكان مضطرًّا أن يتزلف الى العمال ليشدوا أزره اذا ما تحرَّجت الامور واشتبك في حرب معها . فما هو إلاّ أن وصل الى بغيته بعد حرب سنة ١٨٦٦ حتى تنكر للاشتراكية وقاومها بعنف لانها تضر بكيان الدولة القومي والاجتماعي

لم يفت في عضد الاشتراكية ما لقيته في المانيا من المقاومة . فما أزفت الساعة المواتية في مستهل القرن العشرين بهزيمة الروسيا وألمانيا في الحرب العظمى حتى اندلعت في كلتيهما نار

الثورة اذ قامت في ألمانيا حكومة اشتراكية لكنها لم تعمر طويلاً كما تعلمون. وقامت الشيوعية في الروسيا ولا تزال باقية باسم الجمهورية السوفيتية

هذا ما اصاب تاريخ الاشتراكية . اما الديموقراطيات فكانت اكثر استعداداً للأخذ من نظرياتها . ففسحت لها صدرها حتى صار للعمال في تلك البلاد احزاب تنتظمهم ونواب ينطقون بلسانهم ويذودون عن مصالحهم . وبحسبي ان أشير الى مشروع بيفردج الذي وسع كثيراً من المبادىء الاشتراكية وتقدم به صاحبه اخيراً الى الحكومة البريطانية ليظهر الدليل على ما اتصفت بهِ الديموقراطية من التسامح حيال المذاهب الحرة والقابلية للتدرج في سبيل المساواة . وهناك الملكية المقيدة . وهي شكل آخر من اشكال الديموقراطية نشأ في الجزيرة البريطانية وانتقل منها الى بلاد اخرى

فقد استطاع الشعب البريطاني في عزلته عن القارة ان يتدرج بالحكم من الاستبداد الى الديموقراطية مع بقاء الملك على رأس الدولة . ويرجع تاريخ الديموقراطية في تلك البلاد الى سنة ١٢١٥ حينما استطاع النبلاء ان يحملوا الملك جون على اعلان الوثيقة الكبرى وهي في جوهرها بيان بحقوق الانسان على شاكلة الوثيقة الفرنسية . ولهذه الديموقراطية شعار آخر غير شعار الثورة الفرنسية يتفق مع الملكية هو : الله والملك والشريعة. والانكليز مع ذلك اكثر الامم استمساكاً بمبادىء الحرية والاخاء والمساواة . وبلادهم هي الملجأ الأمين للهاربين من وجه المستبدين . وقد امتزجت المبادىء الديموقراطية بدماء الانكليز وأشربوا في قلوبهم حبها وسمت بأخلاقهم الى مستوى لم تبلغه في غير بلادهم . ألم تروا كيف ضاقت مسافة البعد بين طبقتي الاشراف والعامة عندهم حتى ان الملك يرفع ابناء الشعب الى مرتبة الأشراف بينما ينزل أبناء الاشراف غير الوارثين الى مرتبة الشعب . والعادة عندهم ان يرث الابن الأكبر اللقب والثروة وحده . فلا يرى الاشراف في هذا ما يضير حتى كأنه لا فرق في تقديرهم بين الطبقتين

وقد كان لهذه الروح الديموقراطية العالية أثرها في توكيد الأواصر بين طبقات الشعب الانكليزي . فلما ثارت ثائرة الحرب وأطبقت ويلاتها على العالم . أظهر الانكليز من الاتحاد والتماسك وقوة الاحتمال ما جعلهم جديرين أن يلقبوا بحماة الديموقراطية وحصنها الحصين

***

هذه هي الديموقراطية وهذه مبادئها . فاذا رأيتم انها فشلت في بلدٍ من البلاد وتصدَّع صرحها وانهار او كاد فانظروا ماذا هناك في ذلك البلد مما ينافي مبادىء الحرية والاخاء والمساواة.

# غاز الحامض

## الـكربونيك

## ومنافعهُ في الحرب الحالية [1]

قتل الغاز في الحرب العالمية السابقة أفواجاً من المحاربين وغيرهم. أما في الحرب الحالية فينقذ حياة الوف من القاتلين، في الجو والبحر والبر وتحت الأمواج على السواء. والغاز الذي يضطلع بهذه الاعمال الباسلة هو غاز الحامض الـكربونيك، ذلك الذي يزفره المرء كلما تنفس. وهو الذي يهيج العاطس حينما يتناوله الانسان في المشروبات الغازية «كالـكازوزة والصودا والبيرة وما اليها من السائلات الفوّارة» وهو أيضاً مقبب الخبز. وينتج من التخمر كمستخرج ثانوي، وينطلق من الهواء بالاحتراق. ويمكن استخراجه من المطابخ، وذلك باراقة الخل على مسحوق التخمير baking soda الـكيميائي (الذي يحضر من الصودا ويحل محل الخميرة الطبيعية) كما يوجد في مياه الينابيع المشهورة في أنحاء العالم. وهو يفور من الآبار الجافة. وجل غاز الحامض الـكربونيك المستعمل في الحرب الحالية يستخرج من غازات أفران فحم الـكوك

ومن أسباب نفع هذا الغاز كل النفع، في المجهودات الحربية، سهولة ضغطه ضغطاً شديداً بحيث يمكن تمدده عند اطلاقه حتى يزيد حجمه ٤٥٠ مرة. وهذا التمدد يجعله صالحاً جدًّا لنفخ مناطق وأطواف الانقاذ من الغرق وزوارق المطاط والجسور العوامة وأكياس التعويم التي تساعد على حمل الطائرات وهي جاثمة أو في المياه أو على سطحها. ومن أحدث منافع الضغط المشار اليه، فتح الأبواب المغلقة في قاذفات القنابل، وانزال أجهزة الهبوط على الأرض

ولغاز الحامض الـكربونيك عمل آخر خطير الشأن في ابان الحرب ونعني به اطفاء الحرائق وذلك لأنه أثقل من الهواء، سريع الانقشاع. وبما أن الهواء يحتوي عادة على غاز الاكسجين بنسبة ٢١ ٪ والنيران التي تتولد من احتراق البنزين تكون شديدة جدًّا، ويتطلب اشعالها ١٦ ٪ من غاز الأكسجين فاطلاق مقدار ضئيل من غاز الحامض

(١) لعوض جندي (ترجم عن الانكليزية)

الكربونيك المضغوط ، يقلل سريعاً نسبة الاكسيجين بقدر الثلث فتطفأ النار

واذا تجمد غاز الحامض الكربونيك أطلق عليه اسم ( الثلج الجاف ) وقام مقام الثلج في تبريد المأكولات والمشروبات للقوات المحاربة كما يستعمله صناع الدندرمة وباعتها في أميركا وغيرها ويبذل غاز الحامض الكربونيك في الانقاذ من الغرق قصارى جهده وذلك في نفخ مناطق النجاة وزوارق البلونات . وقد تمّ انقاذ ألوف من البحارة والطيارين والجنود بوساطة عطيفات ( جاكتات ) الانقاذ وهي الصديريات التي سميت باسم ماي ويست Mae West الممثلة المشهورة ويمكن نفخها بجذب حبل . وتوجد مناطق اخرى تنفخ عادة بضغط خرطوشتين على شكل السيجار تحتويان على غاز الحامض الكربونيك . وهناك طراز آخر له خرطوم وبهذا الخرطوم يمكن اعادة نفخه بالفم . وبلغ من احكام هاتيك المناطق والصديريات وخفتها أن الجنود يلبسونها في أغلب الاحيان في الادغال حيث يضطرون الى خوض جداول المياه وعبور المستنقعات

***

والقوة الفعّالة للحامض الكربونيك ، هي سبب تحسين اختراع زوارق المطاط تحسيناً رائعاً . فاذا هوت طائرة حربية من الطائرات الحديثة الى البحر فتحطمت ، فتح بابها لذاته (اوتوماتيكيًّا) فيبرز منهُ في الحال زورق من المطاط يكون مُعَدًّا ومنفوخاً من قبل . ويرجع الفضل في تهيئتهِ الى القوارير الصغيرة القوية المملوءة بغاز الحامض الكربونيك لأن المياه التي تتسرب في جسم الطائرة تعطل آلاتها المحركة . واذا سقط طيار من مقعده بالطائرة على الماء حمل معهُ رزمة مسطحة في حجم صندوق صغير ، تحتوي على اسطوانة ذات صمام ، مملوءَة بغاز الحامض الكربونيك فيدير ذلك الصمام ، فتنتفخ الاسطوانة حتى تتحول الى زورق مطاط معدٍّ لحملهِ وذلك قبل وصوله بهابطته الى سطح الماء . وهذا الغاز نافع لنفخ الجسور العائمة الضخمة في حالة الطوارىء فتحمل القناطر الوقتية التي تنصبها فرق مهندسي الجيش المحارب . ومن غرائب منافع ذلك الغاز استعماله ايضاً في نفخ أنابيب المطاط وكراته الضخمة التي تمكن الطائرات البرية من العوم حينما تضطر الى الهبوط في اليم . وقد اخترعت هذه الطريقة لاجل طائرات الجيش الاميركي قبل نشوب الحرب الحالية ولكنها أهملت لأن غرق الطائرة المقاتلة خير من ابقائها عائمة مخافة التقاط العدوّ لها فيقف على الاجهزة السرية التي تنطوي عليها . بيد أن تلك الطريقة كثيرة الاستعمال في طائرات النقل والعبور ( المعديات ) محافظة على ابقائها عائمة ريثما يستطيع ملاحوها وركابها النجاة بزوارق المطاط وأجهزة الانقاذ الاخرى

ولهذا الغاز محاسن مشهورة في انقاذ ألوف من الطيارين الذين يستهدفون للحريق في طائراتهم الحربية اذ المعروف أن نفعه مقصور على اخماد جذوة النار التي تضطرم حول المحركات الميكانيكية للطائرات في اثناء طيرانها في الجو أو استخدامها على سطح الأرض . الاّ أن بعض الخبراء قد رأى بثاقب بصيرته انهُ عقب نسف كثير من الطائرات أثر أصابة خزاناتها الفارغة من البنزين بالرصاص المحرق حين ينفد البنزين من خزّانهِ ، يتخلف منهُ غاز يجعلهُ عرضة للنسف اكثر مما لو كان الخزان مملوءًا به والبنزين سريع الاشتعال واما بخاره الممزوج بالهواء فمادة شديدة الانفجار مثل الترينيتروتوليول T. N. T. أي trinitrotoluol اذا لم تفقه في قوة الفرقعة . فكان ذلك العبقري المجهول الذي اقترح وجوب غمر خزانات البنزين الفارغة بغاز الحامض الكربونيك سبباً في ابقاء كثير منها سليمة الى الآن ولولاه لأصبحت في خبر كان

وبما ان الطائرات تصان دائماً من تيارات الهواء صوناً محكماً إلاّ انها حينما تتراكم فيها غازات البنزين تصير مثل قنابل ضخمة لا تلبث أن تنفجر حالما تمسها أية شرارة أو رصاصة متأججة . وحينئذٍ يستعمل هذا الغاز الخامل غير السام لاقتفاءِ آثار أبخرة البنزين حيث تكمن في زوايا مستودع البنزين متحفزة للانطلاق

وتصان من الحريق السفن ولاسيما ناقلات الزيت المعدني ، بأجهزة ذلك الغاز فتنسق تنسيقاً من شأنه تسهيل ادارتها باليد أو بالحرارة أو بالبصاصة الكهربائية . وقد نصبت أجهزة أخرى لمكافحة النيران في الزوارق السريعة التي يستخدمها الاسطول الاميركي للحراسة إذ تكون محركاتها الميكانيكية الدائمة الحركة عرضة للحريق

وفي الغواصات التي تجوب أعماق المحيطات بحثاً عن فرائسها ، وفي الدبابات التي تسير متثاقلة على البر ، تكون أجهزة غاز الحامض الكربونيك حارسة لها في أثناءِ الليل لتخمد ما عسى أن يشب فيها بغتة من الحرائق التي قد تكون أشد خطراً في الاماكن المحجوزة مما تكون في غيرها. وثبت عظم نفع هذا الغاز في الحالات الخاصة بالدبابات حيث تشتعل النيران من فرقعة أنبوب العادم . فحينما تهاجم الدبابات وتقذف عليها قوارير البنزين المشتعلة التي يسميها الروس قوارير مولوتوف وهي مملوءة بمثات من جالونات الزيت المعدني والبنزين حول محركها والريح عاصفة يشتد اللهب حتى يصير جزء من الجحيم . وكثير من الدبابات يحمل كل منها قارورتين من الفولاذ، فاذا اشتعلت النار في محركها الميكانيكي، تسنى جذب الغاز المهار اليه الى مكان المحرك ، وذلك بادارة صمام معين مركب فيه

وأكبر الاجهزة الخاصة بغاز الحامض الكربونيك ، هو الطراز المستعمل في بواخر نقل

البضائع ، ويؤلف من منصة طويلة تؤلف من اسطوانات ملأى بذلك الغاز ومن جهاز أوتوماتيكي يدل على الحريق تديره بصّاصة كهربائية. فتقوم هذه العين[1] آناء الليل وأطراف النهار «حينما تجول الباخرة في أرجاء البحار مُـقلّـة وسقها الثمين» بفحص الهواء الذي يمرّ بها بعد عبوره بالمنقولات ، وحالما يظهر الدخان ، يتحرك الجهاز فينبعث من الصهاريج سيل من غاز الحامض الـكربونيك فيخمد اللظى . وهذه الاجهزة المحكمة الصنع شائعة الاستعمال في المصانع التي تنتج المعدات الحربية وبالأخص المشتغلة منها بالسائلات المحللة للمواد المختلفة وبالزيوت المعدنية والبنزين والدهان والورنيش . وفي المرافق العـامة حيث تولّـد الـكهرباء وتوزع ، أجهزة ضخمة لاطفاء الحرائق بالغاز السابق الذكر لأن استعمال خراطيم المياه المألوفة يكهرب في الحال عمال الاطفاء الذين يديرونها إذ التيار الـكهربي يسري في مجرى المياه حينما يمرّ فيه سلك كهربي ذو تيار قوي أو جهاز مسحوق بالـكهربية، وثمة أجهزة متنقلة للاطفاء بالغاز توضع في ( عربات التهشيم ) التي تستخدم في مئات من الموانىء الجوية الاميركيـة وبوساطتها أمكن انقاذ كثيرين من العمال والطيارين بُـعيد شبوب النيران بثوانٍ في الطائرة المحطمة . ويوجد نوع آخر من أجهزة الاطفاء المتنقلة يستعمل في المصانع التى تنتج العتاد الحربي في اثناء الحرب ويؤلف من عربة تشبك بأية سيارة كانت فتجرها الى موضع شبوب النار . وهذا الجهاز يحمل ستة صهاريج كبيرة من غاز الحامض الكربونيك وما يتبعها من الصمامات وخرطوماً لاطفاء الحريق بذلك الغاز

***

وكان هذا الغاز موجوداً من بدء الخليقة غير أن الخلق لم تعرفهُ الاّ في القرن الثامن عشر . وذلك أن انـكليزيّـاً مولعاً بعلم الـكيمياء ونعني به العالم جوزيف پريستلي Joseph Priestly كان يقطن بجوار مصنع للبيرة ، فدهش ذات يوم اذ رأى الفقاقيـع تتصاعد من الشعير المنبّـت الممزوج بالماء الساخن المعد لاستخراج البيرة ، فالتقط منها مقداراً كبيراً وفحصها فأدرك كنهها . ثم نقل ذلك السر العلميّ الى الولايات المتحدة الاميركية حيث أقنع أحد الصيادلة بادخاله في صنع المشروبات لتحسين طعمها فكان بريستلي اول مختـرع للمياه الغازية . ويعتقد ياندل هندرسن الاستاذ بجامعة ييل الاميركية Yale ان الحامض الكربونيك الذي يظنهُ العلماء اجمعون من المواد العاطلة في الجسم ، يكاد يكون ضروريّـاً للجسم كالاوكسجين لانهُ ينبه الدورة الدموية والتنفس .

---

(١) المترجم — وصفت البصاصة الكهربية في مقتطف نوفبر ١٩٣٣ ومقتطف ديسمبر ١٩٣٧

# الدين والفلسفة

## معناها ونشأتهما وعوامل التفرقة بينهما

لمحمد يوسف موسى

الانسان طُلَعة بطبعه ، يودّ دائماً أن يعرف نفسه وما يحيط به ، وأن يتعرف علل ما يراه من حوادث وظواهر . وبعبارة اخرى يود لو استكشف الغيب ، فعرف العالم والقوة التي أوجدته ، والنظام الذي يسير عليه ، والاصل الذي كان منهُ والغاية التي ينتهي اليها ! . ولقد لجأ أول الأمر — بعد أن تقطعت السبل بينهُ وبين النبوات الاولى — الى فروض مختلفة كانت المعين للاساطير الدينية والفلسفية ، ثم وجد بعد هـذا في الفلسفات الصحيحة والأديان الحقة ما أرضى نهمه الفكري ووطد ايمانه ، وما أناله حلول أكثر المسائل والمشاكل التي أثارها ما فطر عليه من طلعة

ولعلّ التفكير الديني كان أول لون من ألوان التفكير الانساني ، لأن الايمان بقوى طبيعية أو فوق الطبيعية يكاد يكون مركزاً في فطرة الانسان ، فيضيف اليها التصرف في الكون واحداث ما يشاهد من ظواهر ، ويعبدها ممثلة فيما يرى من جماد أو حيوان أو اجرام سماوية ، ويضع لعبادتها ما يهديه اليه فكره من طقوس وتشاريع . ثم كان أن تطور الانسان وتقدم التفكير ، فتناول ما كوّنه المرء في الطور الاول من عقيدة وتشريع فشرع يفلسفه ، ثم تقدم خطوة أخرى فتجاوز الانسان بالنظر الفلسفي حدود العقيدة الى الكون كله ومصـدره ونشأته وما يتناوبه من كون وفساد ، غير متقيد في تفكيره بما ورث من دين وتقاليد ، فكان من هذا ما نعرفه بالفلسفة الحقيقة بهذا الاسم . ثم وجد الانسان بعد ذلك كثيراً مما يتطلع الى معرفته فيما جاءَ بهِ الرسل من ديانات صحيحة عن الله بعد أن بلغوا الذي أُرسلوا به فذاع بين الناس

وكان حريّـاً بالتفكير الفلسفي ، وقد نشأ اول ما نشأ في حدود العقيدة والدين ، أن يظل متعاوناً مع الدين فيما يروم المرء ويعمل جاهداً له : من فهم العالم وحقائق الموجودات ، ومن الوصول بالانسان الى السعادة التي يرجوها من وراء العلم الحق — الذي تسكن له النفس — بالعالم أرضه وسمائه . كان هذا حريّـاً بالفلسفة ، ولـكن لعوامل مختلفة سجّل تاريخ التفكير ما كان

من وفاق أحياناً وخصومة احياناً بين الدين والفلسفة كما سجّل آثار ذلك في التفكير الانساني العام. غير انهُ قبل الكلام في هذا نرى من الخير أن نحدد ما نريد بكلمة « دين » ، وكلمة « فلسفة » ، ليكون الكلام محدّداً والطريق مأموناً

١ — للدين معان متعددة ، بعضها يرجع الى اللغة ، وبعضها يرجع الى الشرع . ففي لسان العرب أن الدين هو الجزاء والطاعة والعادة والاسلام ، ويقول الاصفهاني : « والدين يقال للطاعة والجزاء واستعير للشريعة والدين كالملة [١] » والفرق بينهما في رأيه أن الدين يضاف الى الله والى النبي ، بينما الملة لا تضاف الاَّ للنبي الذي تسند اليهِ ولا تكاد توجد مضافة الى الله ، فلا يقال ملة الله كما يقال دين الله ويقال ملة ابراهيم مثلاً كما جاءَ في القرآن [٢] ويرى الشهرستاني [٣] ان الدين الطاعة والانقياد ، وأنهُ قد يرد بمعنى الجزاء والحساب ، وان الملة والشريعة يتفرعان عن اجتماع الناس وحاجتهم في سبيل خيرهم للتمانع والتعاون . والجُرْجاني يرى أن الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار ، فالشريعة من حيث أنها تطاع تسمى ديناً ، ومن حيث انها تجمع تسمى ملة ، وقيل بينهما فرق وهو ان الدين منسوب الى الله والملة منسوبة الى الرسول [٤] وبعد هؤلاءِ جميعاً نجد التهانوي يقول ان الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم اياه الى الصلاح في الحال والفلاح في المآل ، ويطلق على ملة كل نبي ، وقد يخص بالاسلام ، ويضاف الى الله لصدوره منه والى النبي لظهوره على يديه والى الامة لتدينهم بهِ وانقيادهم له

***

هذا ، والدين ، اذا لوحظ من الناحية اللغوية وحدها ، يطلق على الدين الحق والدين الباطل أيضاً ما عدا ما لا يقدر بالبعث والجزاء ، والقرآن يقر هذا حين سمى ما كان عليه العرب ديناً اذ يقول «لكم دينكم ولي دين» . لكن الدين صار له معنى شرعي خاص لما اشترط فيه أن يكون وحياً من الله لهداية الناس بما يجيء بهِ من عقائد وأصول عامة لا يتطرق اليها النسخ ولا يختلف فيها الانبياء ، ويدل لذلك قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصّينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » ، فان المعنى كما ذكر المفسرون : أوصيناك يا محمد وسائر الأنبياء ديناً واحداً

ذلك هو معنى الدين في اللغة والشرع ، منهُ نتبين أن الدين يقوم على الايمان بقوة عُليا تجب طاعتها وتجازي المرء على ما يعمل ، ويمدّ الانسان بحلول لكثير من المشاكل التي سبق

---

(١) المفردات في غريب القرآن ص ١٧٥ (٢) المصدر نفسه ص ٤٨٨ (٣) الملل والنحل ١ : ٤٦
(٤) كتاب التعريفات

أن وقف أمامها فكره وفرض فيها الفروض . فلنأخذ الآن في بيان معنى كلمة فلسفة ، لنرى ما قد يكون من صلة بين الدين وبينها في نشأتها وغايتها

٢ — والفلسفة كذلك اختلفت الآراء في تحديدها وبيان موضوعها ، فكان لنا من هذا تعاريف متعددة لها ، ويكفينا أن نذكر من بين هذه التعاريف ما ذهب اليهِ أساطين الفلسفة الاغريقية وبعض الفلاسفة والمفكرين في الاسلام

ا — يرى سقراط أن الفلسفة هي حب الحكمة والسعي وراءها ، وهي في رأيه تكاد تنحصر في معرفة الانسان نفسه

ب — ويرى تلميذه الأشهر أفلاطون انها — بمعناها الاخص — معرفة عالم المثل ، أي الأشياء الثابتة وجواهرها الدائمة

ج — ويرى أرسطو أن الفلسفة — بمعناها الأخص أيضاً — علم ما وراء الطبيعة ، أي تعرّف العلة الأولى للاشياء او تعرّف المبدأ الاول

د — والخوارزمي يرى انها علم حقائق الاشياء ، في الطبيعة أو فيما بعد الطبيعة أو الرياضيات ، والعمل بما هو أصلح [١]

هـ — ويذهب ابن سينا الى ان الحكمة استكمال النفس الانسانية بتصوّر الامور والتصديق بالحقائق النظرية والعملية على قدر الطاقة الانسانية [٢] وبمثل هذا قال الفارابي وابن رشد

و — ويرى الشهرستاني ان الحكمة تطلب ليعمل بها أو لتُعلم فقط ، فهي لهذا علمية وعملية ؛ فالقسم العملي عمل الخير ، والقسم العلمي ، علم الحق [٣]

ز — وأخيراً يذكر طاش كبرى زاده ان الفلسفة نظرية وعملية . والأولى تشمل العلم الالهي أو علم ما بعد الطبيعة والعلم الرياضي والعلم الطبيعي ، وأن العلم الالهي — وهو العلم الأعلى أو الفلسفة الأولى — هو البحث عن حقائق الموجودات من حيث هي موجودات [٤]

ومن هذه التعاريف جميعها نستطيع أن نقرر ان الفلسفة هي التفكير الحرّ في الاله والكون والانسان . أو نظر العقل الحر الذي يراد بهِ معرفة حقائق الموجودات والمعلولات وعللها ، في العالم الاكبر المحيط بالانسان ، والاصغر الذي هو الانسان ، وفي المبدأ الأول لهذا كله . أو هي التفكير الحر لكشف المجهول وإسعاد الانسان

---

(١) مفاتيح العلوم ص ١٣١ (٢) تسع رسائل ص ٢
(٣) الملل والنحل ٢ : ١٥٦ — ١٥٧ (٤) مفتاح السعادة ١ : ٢٥٥

والفلسفة — كما أشرنا من قبل — نشأت في حدود العقيدة والدين ومن غايتها إسعاد الانسان ، ومن ثمَّ التبس الأمر على بعض المفكرين لجعل الغرض منها هو غرض الدين . هذا ابن حزم يصرح بأن الغرض من الفلسفة هو اصلاح النفس ، وان هـذا نفسه هو الغرض من الشريعة ، وأنه لا خلاف في هذا بين أحد من رجال الفلسفة وأحد من رجال الشريعة (١) وهذا ما لا يستطيع الباحث تسليمه له ، اللهمَّ إلاَّ ان قصرنا الفلسفة على القسم العملي منها ، أو قلنا ان الغاية من القسم النظري تسكين النفس الطلعة القلقة وإذهاب حيرتها بالمعرفة والعلم ، فيكون ذلك عوناً لها على السعادة !

***

ومهما يكن من الفرق بين الدين والفلسفة ، فان ابن سينا يربط بينهما برباط دقيق متين يجعل — في رأيي — فضلاً واضحاً للدين على الفلسفة (٢) ، إذ يرى أن مبدأ الفلسفة العملية مستفاد من جهة الشريعة الالهية ، وأن مبادىء الفلسفة النظرية مستفادة من أرباب الملة الالهية ثم تعمل القوة العقلية على تحصيلها بالكمال ، وأن من أوتي استكمال نفسه بهاتين الحكمتين فقد أوتي خيراً كثيراً (٣)

ومعنى هذا ان المرء لا غنى لهُ في سبيل سعادته عن الدين والفلسفة معاً ، وإن كان للأول فضل على الاخرى

لكن هذه النتيجة التي تلزم الشيخ الرئيس لا ترضي طبعاً الكثير من رجال الدين . ونعتقد ان طاش كبرى زاده كان يرمي عن قوسهم إذ يقرر أن الدين جاء بالعدل حقيقة ، وأما الذي استحسنهُ عقول الحكماء — يعني الحكمة العملية التي القصد منها إصلاح النفس والمنزل والامة — فهو السياسة الاصلاحية التي يبقى بها نظام العالم وإن لم تصلح بها أمور الآخرة ، وأن الذين يقولون لا بدَّ للشرع من انضمام السياسة جهلة وعوام لأن الشرع لا يحتاج الى غيره ! وكيف يحتاج الشرع الى السياسة والانبياء تكفل بهم أمور الدارين وما يصلح به البشر علميًّا وعمليًّا (٤) وهذا الرأي ، أعني حاجة الدين أو عدم حاجته للفلسفة ، من المزالق الخطيرة ، ومع ذلك فان لي فيه كلاماً يأتي في محله من هذا البحث بفضل الله وتوفيقه

والآن ، وقد وضح معنى الدين والفلسفة ونشأتهما وموضوع كل منهما والصلة الطبيعية بينهما ، ننتقل الى الحديث عن أهم العوامل التي فرقت بينهما أو بين رجاليهما ، وجعلت

(١) الفصل ١ ص : ٩٤ (٢) لعله أراد بهذا التوفيق بين الوحي والعقل على ما سيجيء بيانه

(٣) تسع رسائل ص ٢ — ٣ (٤) مفتاح السعادة ص ٣٣٦

منهما معسكرين لكل منهما أشياع يتربص بعضهم ببعض الدوائر ، بينما كان من الواجب أن يسير كل منهما مع الآخر جنباً الى جنب ، ما داما هما معاً المعينين اللذين يرجع اليهما الانسان في كشف المجهول ، وما دام من غرضهما جعل الانسان خيراً فاضلاً سعيداً !

هذه العوامل منها ما يرجع الى السياسة ، ومنها ما يرجع الى التنازع على عروض هذه الحياة ، ومنها ما يرجع الى طبيعة الدين وطبيعة الفلسفة . وسنتبين من سياق الحديث فيما يأتي ما يتصل بالضربين : الأول والثاني، فلنجعل الكلام الآن في الضرب الأخير وحده ، معتمدين على التحليل والتأمل الذاتي

***

تكاد الغاية من الدين تتمحض في هداية الناس للخير والسعادة ؛ لا في تفهيم حقائق الموجودات وما يعتري العالم من كون وفساد ونحو هذا مما هو غاية الفلسفة النظرية . فاذا جاء الفلاسفة وحاولوا الكشف عن ذلك عدَّهم بعض رجال الدين جماعة تحاول الوصول الى ما استأثر الله بعلمه ، ورأوا فيما يحاولون ما لا يتفق وإجلال الله الذي يعلم وحده كل شيء

ثم نجد الدين يوحي الى المتدين أنهُ ليس بشيء في جانب الله وأنهُ عاجز كل العجز عن فهم نفسه ، بله العالم والسموات وما فيهن وما بينهن ! فاذا أتى الفيلسوف يعلن مقدرة العقل على تعرّف هذا كله رماه رجل الدين بالحمق والغر والتطاول الى ما ليس في طوقه ! ويوردون في هذا قوله تعالى : «ويسألونك عن الرُّوح قل الرّوح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الاَّ قليلاً»

وأخيراً ، رأى رجال الدين تخبّط المتفلسفين كثيراً وترديهم في الخطأ والضلال ، فكيف اذاً يؤمنون لهم فيما يذهبون اليه مما لو كان في معرفته خيراً للانسان لبيّنه الله ورسله ، أو لم يَحُلْ بيننا وبين البحث فيه ! وكان من الخير — لهذا — في رأيهم مجافاة الفلسفة سدًّا لطريق الخطأ فيه في رأيهم أكثر من الاصابة !

ولعلَّ سقراط نظر الى هذا كله أو بعضه حين رأى لنفسه ان يكون فيلسوفاً يعنى بالمسائل الانسانية لا بعلم الطبيعة ، وحين اعتبر علم الطبيعة علماً باطلاً مجدباً وفيه اهانة للآلهة

ان البحث في علم الطبيعة — فيما يرى — بحث باطل وعبث ، لأن الطبيعيين لم يتفقوا على مسألة من مسائله ، والاختلاف والتناقض أمارة الجهل . وهو مجدب لا خير يُرجى منه ، لأن هؤلاء المعنيّين به هل يعتقدون أنهم إن عرفوا ما عليه العالم من قانون — به

تحدث ظواهره — يستطيعون أن يحدثوا الرياح والمياه والفصول ! والبحث في هذا العلم فيه اهانة للآلهة ، لأن الآلهة منحتنا القدرة على معرفة الاشياء الانسانية بالتفكير ، واستأثرت بمعرفة الاشياء الالهية مثل تكوّن العالم وما يتصل بهذا من المسائل الطبيعية ، وعلماء الطبيعة — حينما بحثوا في هذا الضرب من المسائل وأهملوا الضرب الأول — قد قلبوا النظام الالهي باحتقارهم ما مُنحوا بالقدرة على معرفته وتطلعهم الى معرفة ما احتفظ به الالهة لأنفسهم ! (١)

وأخيراً ، لقد ثبت من تاريخ التفكير الفلسفي ان الفلسفة حاولت ان تجعل من نفسها ديناً يغني الانسان عن الأديان المختلفة ، كما نعلم من الفلسفة الرواقية والافلاطونية الحديثة . وكذلك نعلم ان بعض الفلاسفة « كافلاطون » عنوا بنقد الدين الذي كان سائداً في أيامهم ، وأن آخرين كاخوان الصفاء كانوا يرون ان الدين الاسلامى ليس كاملاً بنفسه ؛ وانما الكمال يكون متى انتظم الدين والفلسفة معاً وأفاد كل منهما من الآخر

وكفى بهذا وذاك في أن يضمر رجال الدين للفلسفة ورجالها العداء .

***

هذه هي العوامل ، الراجعة الى طبيعة الدين والفلسفة ، التي قد تدفع الى الخصومة بينهما ! طبيعة الدين الذي مصدره القلب الذي يتفتح للعقيدة بالهام قوة عليا وإن لم يقم على ما يعتقد دليل في رأيه ، وطبيعة الفلسفة التي أداتها العقل الذي يستقرىء ويحلل ويقول ثم يعتقد غير متقيد بادىء الامر بعقيدة أو رأي لم يقم عليه دليل. وباضافة العوامل الاخرى، التي سبق أن أشرنا الى مصدرها والتي سيجيء لها ذكر في محالها ، كانت الخصومة التي سجّلها التاريخ . هذه الخصومة كانت تشتد وتخف ، وتستعلن وتستسر تبعاً لتعصب رجال الحكم أو تسامحهم ، ولقوة رجال الدين أو ضعفهم ، ولغير هذا وذاك من العوامل التي كان لها أثرها في تلك الأيام .

وفي بيان هذا النضال بين الدين والفلسفة ، أي بين هاتين القوتين اللتين تحددان للأمم أهدافها وغاياتها ، يتسع القول لو وجدا مجالاً ، ولذلك نكتفي في عرضه — لدى المسلمين — وفي بيان آثاره باشارات أو لمحات فيها غناء لمن ألمّ بطرف من تاريخنا الفكري ، وسنتكلم أولاً عما كان من ذلك في المشرق ، ثم عما كان منهُ في المغرب ثانياً « يتبع »

(١) دراسات في تاريخ الفلسفة للاستاذ « اميل بوترو E. Bautroux » بالفرنسية ص ٢٢ — ٢٣

# معدن المغنيسيوم

خفيف ، مشتعل ، وافر

لازم في الحرب والسلام

كان المغنيسيوم في الماضي القريب اداة من ادوات المعامل في المعاهد المختلفة مرتفع الثمن اذ كان لا يقل ثمن الرطل الواحد منهُ عن جنيه أو أكثر ولا يستخدم الآ في احوال معظمها يعتمد على النور الوهاج الذي ينبعث منهُ عند احتراقه

وكانت المقادير التي تنتجها الولايات المتحدة في عام ١٩١٨ ضئيلة لا تزيد عن ٢٨٤ الف رطل ولكن الانتاج في عام ١٩٤٢ ارتفع الى رقم هائل مقداره ١٢٥ مليون رطل ولا تمضي سنة ١٩٤٣ حتى يصل الى ٤٠٠ مليون رطل او يزيد وليس بين المعادن معدن ارتقى الى هذه المرتبة في هذا الوقت القصير

ويدين المغنيسيوم بشهرته الى طبعه فهو حاد المزاج خفيف الروح وهو كمسحوق أو على شكل قطع صغيرة رقيقة يلتهب بسهولة البنزين ولهبهُ ابيض يميل الى الزرقة شديد لا يستطيع الماء أن يخفف من حدته

وأما اذا كان المعدن على شكل ألواح سميكة أو قضبان او ما شاكلها فانهُ لا يلتهب ولو اقترب منهُ لهب قوي وهو في هذه الحالة أخف معادن الأرض وزناً

وتحتاج الامم المتحاربة الى ملايين من ارطال المغنيسيوم معظمها يستعمل في القنابل الحارقة وفي الاشارات الليلية وفي اضاءة المناطق التي يراد تصويرها ليلاً وفي كل خامس رصاصة من رصاصات الطائرات المطاردة وغيرها من المواضع التي يحتاج فيها الى ضوء ناصع أو لهب قوي ليس من السهل اخماده

وتحتاج الامم المتحاربة الى ملايين أخرى كثيرة من ارطال المغنيسيوم ففي كل محرك طائرة تقوم ١٨٠ رطلاً من المغنيسيوم مقام ٢٧٠ رطلاً من الالمنيوم الذي كان الى عهدٍ قريب يضرب بهِ المثل في الخفة وهو اقتصاد في الوزن كبير مقداره ٣٦٠ رطلاً في طائرة من ذوات

المحركات الأربعة اي ما يعادل زنة رجلين او ان شئت ٣٦٠ رطلاً زيادة في حملة القنابل

ومع كل هذا الانتاج من ملايين ارطال المغنيسيوم فان هذا المقدار لا يسمح باستعماله في غير المحرك ولكن مهندسي الطيران يترقبون بفارغ الصبر الوقت الذي يستعيضون فيه عن الالومنيوم بالمغنيسيوم

وكانت الحالة التجارية قبل الحرب تجعل من انتاج المغنيسيوم محليًّا في كل بلد صناعة لاربح فيها اذ العرض منهُ كثير والطلب قليل

فلما نشبت الحرب واصبح لكل امرىء ما كسبت يداه اهتمت كل امة باستخراج اكثر ما يمكن استخراجه من هذا المعدن النفيس واستعماله في أهم انواع اسلحة الحرب الحديثة — قاذفات القنابل وطائرات القتال

فعنصر المغنيسيوم من أخف العناصر على الاطلاق وليس بين العناصر الفلزية سوى عنصرين أخفُّ منهُ وهما البريليوم والليثيوم . اذ ثقلهُ النوعي ١ر٧٤ أما الالومنيوم فثقلهُ النوعي ٢ر٥٦ والحديد الصب ثقلهُ النوعي ٧ر٢١ والصلب ثقلهُ النوعي ٧ر٨١ فاذا خلط المغنيسيوم بمقادير يسيرة متفاوتة من الالومنيوم أو المنجنيس أو الزنك أو السليكون أو الكدميوم أو الفضة أصبح الخليط فلزاً متيناً يسهل ليّهُ وسحبه فيصلح للاستعمال استعمالاً واسع النطاق في صناعة السيارات وغيرها

وليس المغنيسيوم من المعادن النادرة فهو ثالث عناصر الارض كثرة ولكن الطبيعة لا تمنح خيراتها لكل عابر سبيل . وكثرة المغنيسيوم لا تعني سهولة الحصول عليهِ وعزتهُ في استخلاصه فهو لا يوجد منفرداً ابداً بل متحداً دائماً ببعض العناصر الاخرى وهذه الخاصة هي التي تجعلهُ عظيم النفع في القنابل المضيئة فاتحاد المغنيسيوم باكسجين الهواء مما تقر له عين الباحث في الظلام

ولقد بحث العلماء ونقبوا فوجدوا أن للانسان منبعاً لا ينضب من هذا المعدن المرغوب فيه فهو يوجد تحت أنف كل أمة وفي متناول كل صناعة بمقادير وافرة لا سبيل الى استنفادها ولو زاد الاستهلاك آلاف اضعاف ففي كل ميل مكعب من مياه البحر خمسة ملايين ونصف مليون طن من المغنسيوم وان شئت صورةً أقرب الى الذهن فقل ان في كل مائة لتر من ماء البحر ربع رطل من المعدن

واستخراج المعادن من ماء المحيط ليس جديداً في هندسة التعدين ففي الولايات المتحدة مصانع تستخدم يوميًّا مليوناً ونصف مليون متر مكعب من ماء البحر بعضها للتبريد وبعضها لاستخراج البرومين والباقي لاستخراج المغنيسيوم

وطريقة استخراجه تبدو سهلة فقواقع البحر تجمع ثم تحرق فيتكوَّن منها الجير ويخلط هذا الجير بماء البحر فتتكوَّن أملاح معروفة تسمى المانيزيا ( تستعمل مادةً كمسهل ) وهذه المانزيا عند معالجتها بالحامض الايدروكلوريك المستخرج من أملاح البحر أيضاً تتحوَّل الى كلورات المغنيسيوم وهي مادة مركبة كما ينم عليها اسمها من الكلور والمغنيسيوم ثم تجفف وتصهر في أفران خاصة ثم يفصل الكلور عن المغنيسيوم بالتيار الكهربائي فيجمع الكلور في الحالة الغازية لاستعمال خاص . أما معدن المغنيسيوم المنصهر فيصب في سبائك

***

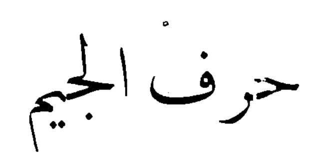
ومما يجعل المغنيسيوم أكثر صلاحية وأشيع استعمالاً ان اضافة قليل من عناصر اخرى اليه يزيد في مرونته واحتماله . وأحسن السبائك المستعملة في الطائرات يمكن معاملتها معاملة الصلب فهي تطرق في صفائح أو تسحب في قضبان أو تصب في قوالب . وهو أسهل المعادن استعمالاً فالآلات الحادة تقطع فيه كما يقطع السكين الساخن في الزبد وهو من الخفة بحيث يعادل وزنه أقل من ربع وزن الحديد

ولكن هناك صعوبة واحدة إذ يأبى المغنيسيوم إلاّ العودة الى الفطرة وميله الى الاتحاد باكسوجين الهواء في أثناء استعماله هو أخطر الانتكاسات . فالمغنيسيوم المنصهر ( ولا بد من صهره في بعض الحالات ) سهل الاحتراق اذا تعرَّض للهواء وأما في أثناء قطعه فان الرذاذ الصغير الذي يتناثر من آلة القطع أشد خطراً من مفرقع بجانبه لهب فلابد في أثناء الصهر من عزل الهواء بمواد كالمواد المستعملة في لحام الاكسجين وغيره

ولا بدَّ في أثناء القطع من ازالة البقايا اولاً بأول بوساطة تيار من الهواء فاذا شبَّ حريق هرع اليه الناس بمسحوق الطلق ولا سبيل الى استعمال الرمل لأنه يتلف الآلة أو الى استعمال الماء لأنه يساعد على انتشار المسحوق المحترق ( وهذا هو السبب في عدم استعمال خراطيم المياه في اطفاء القنابل الحارقة )

***

أما عند ما تشرق شمس السلام مرة أخرى على هذا العالم فان استعماله سيطغي حتى ان بعض العلماء يقولون أنهُ سينافس الحديد منافسة كبيرة . فثمن الرطل منه الآن لا يزيد عن خمسة قروش وسيقل هذا الثمن كثيراً فيما بعد . وحيثما أراد المهندس صلابة الحديد وخفة الخشب فسيجد في المغنيسيوم خير معين.



# حرف الجيم

لعبد الله أمين

أيشرب صوت الشين كاللهجة السورية
أو لا يشرب صوتها كاللهجة المصرية

١ — من الناس من يقترب بالجيم حين النطق بها من مخرج الكاف ويشربها صوتها فلا تكون جيماً خالصة ولا كافاً خالصة بل تكون حرفاً ثالثاً وسطاً بينهما مزيجاً منهما معاً فيقال في نحو جزر. جرس. جمل . جبل . ج كزر . ج كرس . ج كبل . ج كمل بمزج الجيم بالكاف فتصير كالكاف الفارسية المغلظة ويقول بعض الأئمة المتقدمين انها لغة شائعة — في عصرهم — في أهل البحرين وعوامّ أهل بغداد — وهي لهجة لعوام القاهرة الأصليين في نحو قولهم « يا جدع »

٢ — ومن الناس من يقترب بها حين النطق بها من مخرج الشين ويُشربها صوتها فلا تكون جيماً خالصة ولا شيناً خالصة بل تكون حرفاً ثالثاً وسطاً بينهما مزيجاً منهما معاً فيقال في نحو جزر . جرس . جبل . جمل . ج شزر . ج شرس . ج شبل . ج شمل بمزج الجيم بالشين وهيّ لغة شائعة في سوريا وبين عوام الاسكندرية الاصليين

٣ — ومن الناس من ينطق بها من مخرجها فلا يقترب بها من مخرج الكاف ولا من مخرج الشين ولا يُشربها شيئاً من صوت إحداهما كما ينطق بها كثير من أهل مصر السفلى وبعض أهل القاهرة[1]

---

(١) أ — للكاف والجيم والشين ثلاثة مخارج وثلاثتها بين مخرجي القاف والياء وخمستها متتابعة على النحو الآتي القاف فالكاف فالجيم فالشين فالياء واذا سكنت كلا منها وجئت قبله بهمزة وصل هكذا اَقْ . اَكْ اَجْ . اَشْ . اَيْ . ونطقت بها ظهرت لك مخارجها بهذا التتابع وظهرت بينها مسافات فالقاف ثم الكاف يخرجان من أقصى اللسان مع ما فوقه من الحنك الاعلى وبينهما اللهاة ويسميان لذلك لهويين . والجيم فالشين فالياء تخرج من وسط اللسان مع ما فوقه من الحنك الاعلى ومخرجها يسمى الشجر وتسمى هي حروفاً شجرية والجيم في أول الشجر من ناحية فتحة الفم الخلفية وهي قريبة من مخرج الكاف والياء في آخر الشجر من ناحية فتحة الفم الامامية وبينهما الشين

ب — اوضاع أعضاء النطق في اللهجات الثلاث هي (١) انك حين تقترب بالجيم في نحو جاء من مخرج

أما النطق بها كافاً خالصةً كأن يقال في جزر . جرس . جبل . جمل . كزر . كرس . كبل . كمل . أو شيناً خالصة كأن يقال في أربعتها شزر . شرس . شبل . شمل . بدون مزجها بالكاف ولا بالشين فهذا يعدُّ ابدالاً لغويًّا اذا ورد ولا يدخل في هذا البحث بأيّة حال

فأيّ هؤلاء اللهجات الثلاث الصحيح الفصيح الوارد في اللغة العربية الفصحى وعلى ألسنة العرب الخلّص التي يجب التزامها وأيها التي لم ترد في اللغة الفصحى ولا على ألسنة الفصحاء ويجب اجتنابها ؟

***

والجواب الذي لا شك فيه وقد أيّدته النصوص والسماع هو أنَّ اللهجة الصحيحة الفصيحة التي يجب التزامها وهجر ماعداها هي المذكورة في الفقرة الثالثة أما اللهجتان المذكورتان في الفقرتين الاولى والثانية فليستا من اللغة الفصحى في شيء

والتي تعنيني من هاتين اللهجتين هي اللهجة الثانية وهي اشراب الجيم صوتَ الشين ومن أجلها كتبت هذا المقال لأن كثيراً من الأدباء والقراء الذين لم يتلقوا القرآن الكريم عن الحفاظ المجوّدين الثقات ينتصرون لها ويدعون اليها في قراءة الفصيح من الكلام وفي قراءة أفصحه وهو القرآن العزيز

ولا يعنيني البحثُ عمَّن أخذ العرب هذه اللهجة أأخذوها عن الفرس أم عن الترك أم عن غيرهما ولا عن الوقت الذي أخذوها فيه أهو قبل الاسلام أم بعد ظهوره وانتشاره واختلاط العجم بالعرب وإنما الذي يعنيني كل العناية هو اثبات انها لهجة مستهجنة مستقبحة لا تجوز القراءة بها في كلام فصيح

---

الكاف وتمزجها بها وتشربها صوتها تضغط بسطح اللسان بالقرب من فتحة الفم الخلفية على ما فوقه من الحنك الاعلى وتطلق لسانك في فمك بدون أن يمس شيئاً فيه مع فتح الفم كثيراً (٢) وحين تقترب بها من مخرج الشين وتمزجها بها وتشربها صوتها تضغط بسطح اللسان بالقرب من طرفه على ما فوقه من الحنك الاعلى وتباعد بين فكيك وبين شفتيك قليلا (٣) وحين تنطق بها من مخرجها الاصلي تضغط بسطح وسط اللسان على ما فوقه من الحنك الاعلى وتقارب بين فكيك وبين شفتيك قليلا

جـ — الاستدلال بلهجة أهل اقليم أو أهل بلد على نطق معين بحرف الجيم أمر غير ممكن لاختلاط الناس واختلاف اللهجات وتدخل بعضها في بعض غير ان اللهجة الثانية أشيع في سوريا واللهجتين الاولى والثالثة أشيع في البلاد المصرية . وقد ذكرت ما ذكرت على وجه التقريب لا التحقيق وستعرف في آخر هذا المقال أي فريق يتخذ قدوة للنطق الصحيح بحرف الجيم ويمثله أصدق تمثيل

د — كان الافضل لتمثيل مزج الجيم بالكاف أو مزجها بالشين في الكتابة أن يوضع أحد الحرفين فوق الآخر كما فعل الاقدمون في كتبهم المخطوطة . فلما لم يتيسر ذلك في حروف الطباعة اضطررت اضطراراً الى كتابتهما متجاورين كما ترى على ان ينطقا معاً نطقاً واحداً ممتزجاً

هـ — أنصار لهجة : اشراب الجيم صوت الشين كاللهجة السورية : يسمونها تعطيشاً ويقولون عطش الجيم أي أشربها صوت الشين ولم أوفق للعثور على لفظ التعطيش في كتب اللغة ولا في كتب القراءات والتجويد

وقد كتبت طائفة ممتازة من العلماء المتأخرين منهم الصديق الجليل الأب انستاس ماري الكرملي علامة العراق منذ خمس وأربعين سنة في هـذا الحرف مقالات في الصفحات ١٨٧ وما بعدها من مجلد سنة ١٨٩٧ من مجلـة البيان وهو المجلد الاول والاخير منهـا والصفحات ٢١٦ وما بعدها من مجلدسنة ١٨٩٧ من مجلة الهلال والصفحات ١١٦ وما بعدها والصفحات ٤٨٧ وما بعدها والصفحات ٨٣٧ وما بعدها من المجلد الاول لـسنة ١٨٩٨ من مجلة المشرق

وذكروا فيما ذكروا مصادر هذه اللهجات وأوقات نشوئها في العربية واستدلوا على ما قالوه بأدلة كثيرة وبرهنوا بما ذكروا وبما استدلوا على سعة اطلاع ورجاحة فكر غير انهم أهملوا الرجوع الى نصوص كثيرة في هذا الموضوع لـكبار أئمة العربية ولو انهم رجعوا اليها لما كان من أقوالهم : ان الجيم كانت حلقية قبل الاسلام : لأن الجيم ما كانت ولن تكون حلقية وما قال بذلك أحد من أئمة العربية ولمـا استدلوا على أن الجيم صارت بعد ظهور الاسلام مُـشرَبةً صوت الشين كاللهجة السورية بقولهم : ان العلماء في أوائل الاسـلام لما ضبطوا لفظها عيّـنوا مخرجها من الشجر كما يلفظها أهل الشام : لأنَّ نسبة الجيم الى الشجر الذي تنسب اليه الشين ليس معناه أن تشرب الجيم صوت الشين كاللهجة السورية ولم يقل بذلك أحد من علماء العربية

وقد جعلت مقالي (١) هذا متمماً لأقوالهم فلم أذكر مما ذكروه شيئاً على ما فيهِ من بحوث ممتعة وذكرت فيهِ ما فاتهم ذكره وهو صلب الموضوع ومُـخُّـهُ فأقول

إن علماء العربية حينما دوّنوا علومها بحثوا فيما بحثوه من لغة العرب الحروف وقسموها الى حروف أصلية وهي حروف الهجاء التسعة والعشرون أو الثمانية والعشرون المعروفة التي أوّلها الهمزة وآخرها الياء والى حروف فرعية تتفرّع من الحروف الأصلية المذكورة والحروف الفرعية المذكورة طائفتان

***

الطائفة الأولى : ستة أحرف مستحسنة مستحبة يكثر ورودها على ألسنة الفصحاء وفي الكلام الفصيح وفي أفصحه غير منازع وهو القرآن الكريم والذي يعنيني منها هو الشين المُـشْـرَبة صوتَ الجيم وذلك اذا كانت ساكنة ووليها دال نحو أشدق فيقال أش جدق

(١) عرفت خطأ من يشرب الجيم صوت الشين منذ سنين طويلة مضت وأعددت عناصر مقال فيه ولم أكن أعرف ان أحداً فطن له وكتب فيه قبلي حتى أخبرني حضرة العلامة الجليل الاب أنستاس ماري الكرملي أنه هو وطائفة من الادباء الممتازين كتبوا فيه عدة مقالات فاطلعت على ما كتبوا ولخصته وزدت عليه ما جاء في مقالي هذا وهممت بنشره معه غير ان أزمة الورق حالت دون ذلك فاكتفيت بتعيين مواضع المقالات ان شاء أن يرجع اليها

بمزج الشين بالجيم وإشرابها صوتَها وتكوين حرف ثالث لا هو شين خالصة ولا هو جيم خالصة بل حرف وسط بينهما مزيج منهما معاً

***

والطائفة الثانية : ثمانية احرف مستقبحة مستكرهة لم ترد على ألسنة الفصحاء ولا في الكلام الفصيح ولا تجوز القراءة بها في القرآن العزيز والذي يعنينا منها الجيم المُشرَبة صوت الكاف كالكاف الفارسية المغلّظة والجيم المشربة صوتَ الشين وذلك اذا كانت ساكنة ووليها دال أو تاء في نحو اجدر واجتمعوا فيقال فيهما أج شدر وأج شتمعوا بمزج الجيم بالشين واشرابها صوتَها وتكوين حرف ثالث لاهو جيم خالصة ولا هو شين خالصة بل وسط بينهما مزيج منهما معاً . ومن هذا ترى أن إشراب الشين صوت الجيم من الحروف المستحسنة وعكسه وهو اشراب الجيم صوت الشين من الحروف المستقبحة

***

ولاغرابة في أن يكون إشراب الشين في نحو أشدق صوت الجيم من الحروف المستحسنة وأن يكون إشراب الجيم في نحو أجدر واجتمعوا صوت الشين من الحروف المستقبحة لأن ذلك خاضع لقوانين صوتية وجيهة أساسها ضرورة التلاؤم بين الحرفين المتتالين

فالجيم في نحو أجدر واجتمعوا ملائمة كل الملاءمة للدال والتاء التاليين لها لأن ثلاثتها مجهورة شديدة فاذا اشربت الجيم صوتَ الشين فقدت هذا التلاؤم لأن الشين مهموسة رخوة وهاتان صفتان ضدا صفتي الدال والتاء وهما الجهر والشدّة لذلك استهجن واستكره اشراب الجيم صوت الشين لعدم التلاؤم بين الجيم المشربة صوتَ الشين وبين الدال والتاء

والشين في نحو أشدق لا تلائم الدال التالية لها لما تقدّم من أن الشين مهموسة رخوة والدال ضدها مجهورة شديدة لذلك استحسن واستحب اشراب الشين صوت الجيم لأن صوت الجيم وفيه الجهر والشدّة يلائم صوتَ الدال وفيها مثله الجهر والشدة

***

ومن ذلك تعرف ان الجيم لا تشرب صوت الشين الاَّ في موضع واحد وهو اذا كانت ساكنة ووليها دال أو تاء وأن هذا الاشراب مع قلّته هذه مستهجن مستكره غير أن دعاة هذا الإشراب ( التعطيش ) يشربون الجيم صوت الشين في كل موضع ترد فيه بدون تفريق بين الجيم التي يليها دال او تاء والتي لا يليها حرف منهما مخالفين بذلك السماع والادلة القطعية واليك هذه الأدلة

## اقوال أئمة العربية في لفظ الجيم

قال إمام الأئمة سيبويه في باب « عدد الحروف العربية ومخارجها وصفاتها » من كتابه ما يأتي

« وقد تكون خمسة وثلاثين حرفاً بحروف هنّ فروع وأصلها من التسعة والعشرين وهي كثيرة الذكر يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي (١) النون الخفيفة أو الخفية (٢) والهمزة بين بين (٣) والألف التي تمال امالة شديدة (٤) والشين التي كالجيم (٥) والصاد التي تكون كالزاي (٦) وألف التفخيم يعني بلغة الحجاز في قولهم الصلاة والزكاة والحياة وتكون اثنين واربعين حرفاً بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة الذكر في لغة من ترتضي عربيته ولا تستحسن في قراءة القرآن ولا في الشعر وهي الكاف التي بين الجيم والكاف والجيم التي كالشين والضاد الضعيفة والصاد التي كالسين والطاء التي كالتاء والظاء التي كالثاء والباء التي كالفاء

وهذه الحروف التي تممتها اثنين واربعين جيدها ورديئها اصلها التسعة والعشرون لا تتبيّن الا بالمشافهة . ج ٢ص ٤٠٤و٤٠٥ سيبويه

وقال الامام ابن مالك في كتابه « تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد » في النحو ما يأتي في باب مخارج الحروف : بعد أن ذكر مخارج الحروف الاصلية التسعة والعشرين « لهذه الحروف فروع تستحسن وهي الهمزة المسهّلة والغُنَّة ومخرجها الخيشوم وألفا الامالة والتفخيم والشين كالجيم والصاد كالزاي وفروع تستقبح وهي كاف كجيم وبالعكس وجيم كشين وصاد كسين وطاء كتاء وظاء كثاء وباء كفاء وضاد ضعيفة » ص ٨٣ طبع مكة سنة ١٩١٣ هـ

وقال إمام اللغة والادب جار الله محمود بن عمر الزمخشري في كتابه المفصل في النحو عند الكلام على مخارج الحروف في باب « ومن أصناف المشترك الادغام » في آخر الكتاب ما يأتي : —

« ويرتقي عدد الحروف الى ثلاثة وأربعين لحروف العربية الأصول تلك التسعة والعشرون ويتفرّع منها ستة مأخوذ بها في القرآن الكريم وكل كلام فصيح وهي النون الساكنة التي هي غُنَّة في الخيشوم نحو عنكَ وتسمّى النون الخفيّة والخفيفة وألفا الامالة والتفخيم نحو عالم والصلواة والشين التي كالجيم نحو أشدق والصاد التي كالزاي نحو مصدر

والهمزة بَيْنَ بَيْنَ والبواقي حروف مستهجنة وهي الكاف التي كالجيم والجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين والضاد الضعيفة والصاد التي كالسين والطاء التي كالتاء والظاء التي كالثاء والباء التي كالفاء » . ص ٣٩٤ المفصل طبع مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٣ هـ

وقال فخر العلم والعلماء الامام ابن الحاجب في شافيته في الصرف بعد أن ذكر مخارج الحروف الأصلية ما يأتي :

« ومخرج المتفرّع واضح والفصيح ثمانية همزة بَيْنَ بَيْنَ وهي ثلاثة والنون الخفية نحو عَنكَ وألف الامالة ولام التفخيم والصاد كالزاي والشين كالجيم ، وأما الصاد كالسين والطاء كالتاء والفاء كالباء والضاد الضعيفة والكاف كالجيم فستهجنة . وأما الجيم كالكاف والجيم كالشين فلا يتحقق » ص ١٤٧ من الشافية طبع الهند

وقال امام اللغة والادب والصرف أبو الفتح عثمان بن جني في كتابه سرّ الصناعة تحت عنوان « باب ذكر الحروف على مراتبها في الاطّراد » ما يأتي :

« وهي الهمزة والألف والهاء والعين والحاء والغين والخاء والقاف والكاف والجيم والشين والياء والضاد واللام والراء والنون والطاء والدال والتاء والصاد والزاي والسين والظاء والذال والثاء والفاء والباء والميم والواو

فهذا هو ترتيب الحروف على مذاقها وتصعّدها وهو الصحيح فأما ترتيبها في كتاب العين ففيه خطل واضطراب ومخالفة لما قدمناه آنفاً مما رتبه سيبويه وتلاه أصحابه عليه وهو الصواب الذي يشهد التأمل لهُ بصحته

واعلم أن هذه الحروف التسعة والعشرين وقد تلحقها ستة أخرى تتفرّع عنها حتى تكون خمسة وثلاثين حرفاً . وهذه الستة حسنة يؤخذ بها في القرآن وفصيح الكلام وهي النون الخفيفة ويقال الخفيّة والهمزة المخففة وألف التفخيم وألف الامالة والشين التي كالجيم والصاد التي كالزاي

وقد تلحق بعد ذلك ثمانية أحرف وهي فروع غير مستحسنة لا يؤخذ بها في القرآن ولا في الشعر ولا تكاد توجد إلاّ في لغة ضعيفة مرذولة غير مُتقبَّلة وهي الكاف التي بين الجيم والكاف والجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين والضاد الضعيفة والصاد التي كالسين والطاء التي كالتاء والظاء التي كالثاء والباء التي كالميم

ولا يصح أمر هذه الحروف الاربعة عشر اللاحقة للتسعة والعشرين حتى كملتها ثلاثة وأربعين إلاّ بالسمع والمشافهة »

من أوائل نسخة خطية بدار الكتب غير مرقمة الصفحات وهي تحت رقم ١٢٠ لغة

« يتبع »

# قصة الاساطيل

## الاسلامية

لمحمد عبد الغني حسن

وقع لي أخيراً كتاب في الانجليزية عنوانه « البحارة الانجليز في القرن السادس عشر لمؤلفه جايمس فرود أستاذ التاريخ بجامعة اكسفورد ( English Seamen in the sixteenth century ) : By J. A. Froude فذكرني بالأساطيل الاسلامية يوم أن كانت ترفرف عليها راية الاسلام فتمخر العباب وتعلو الاثباج لنشر تجارة أو لغزو في سبيل الله أو لفتح بلاد جديدة

وبالطبع لم تحملني الذكريات البعيدة السعيدة على عقد موازنة أو عمل مقارنة ولكنها حملتني على أن أرجع الى أسفار التاريخ الاسلامي وأمهات كتبه أستخرج منها الاحداث وانتزع منها الوقائع البحرية الاسلامية فأصادفها أمامي كثيرة وأجدها في سهولة ويسر فلا أتكلف لها عناء في البحث أو تنقيباً في بطون الكتب . ولكني أجدها واضحة المعالم مرفوعة الاعلام فأود أن أعرضها على القراء لعلها تذكرهم بمجد درس ولكن الآمال معقودة على عودته ، وماضٍ ذهب ولكن النفوس متطلعة الى رجعته

***

وقصة الاساطيل الاسلامية قصة شائقة ممتعة يذكرها المؤرخون المسلمون على سبيل التدوين ، ويعرفها المنصفون من غير المسلمين فيسجلونها فيما يسجلون من مفاخر العرب . وينظر اليها بعض ذوي الاغراض منهم بالنظر الشزر ، فيقربون حاجباً من حاجب ويحاولون انكار فضلها وهو باد لكل عين بصيرة

والمنصفون من الغربيين كثيرون بحمد الله لأنهم ينشدون الحق ويبتغون وجه العلم فلا تعميهم غاية ، ولا يطمس على قلوبهم تحيز ، ولا يختم على سمعهم ولا على أبصارهم هوى جائر وغرض مائل

وقد كان جحود الغرب للشرق وانكار بعض المتعصبين منه فضائله راجعاً الى عوامل

دينية وأخرى سياسية . ولا شك ان الحروب كانت أهم أسباب الجفوة واتساع الشقة . ولكن النهضة الاوربية قللت من هذا الجفاء البغيض فقد استقامت على نفسها بحضارة العرب . ولهذا لم يجد المنصفون من الوفاء لها أن يرموها أو يغضوا من شأنها . الا أن نفراً منهم ظل التعصب يأكل قلوبهم والغرض يعمي عيونهم ، فلم يستطيعوا أن ينكروا مدنية الاسلام جملة لانهم لا يقدرون على ذلك ، ولكنهم هونوا من أمرها ، ونقصوا من قدرها ، ورموها بأنها مدنية أولية وحضارة بدائية . وظهر ذلك فيما كتبوا وألفوا . ومن المؤسف ان يكون جون كارنوك من هؤلاء المغرضين الذين رموا الحضارة الاسلامية بالجهل بأساليب الملاحة وطرق البحار وفن الاساطيل

الا انهُ مما يسر العربي أن يجد أسماء كثيرة أنصفت العرب وعرضت حضارتهم أحسن عرض وقدرتها أجمل تقدير

ومن هؤلاء سيديو المؤرخ وجوستاف لوبون وأرنست باكر وجب ومرجوليوث ولاينبول ولاين وأرنولد وبريجز

ولقد كان جوستاف لوبون منصفاً الانصاف كله وصريحاً الصراحة كلها حينما ذكر في كتابهِ حضارة العرب « أن بعض مفكري اوربا يجدون من الغضاضة بل من الذل أن يعترفوا بان اوربا المسيحية مدينة للعرب بخروجها من ظلمات الجهل»

***

وكلمة اسطول ليست عربية الأصل ولكنها يونانية معربة، ولا نعرف بالضبط الوقت الذي استعملت فيهِ تلك اللفظة ، ولا أول من استعملها ولكنها على كل حال لم تكن زمن الخلفاء الراشدين الذي استعملت فيهِ كلمة مراكب التي تساوي بالضبط كلمة أسطول . ويظهر أن اللفظة اليونانية دخلت العربية بعد اتصال العرب بالروم واستعملت في كتب المؤرخين المسلمين. وزاد استعمالها عند المتأخرين منهم . والمقريزي يذكرها في مواضع كثيرة من كتابه

وعلى الرغم من ضخامة هذه الكلمة فقد استعملت في الشعر وخاصة عند ابن هانئ الاندلسي شاعر المعز لدين الله الفاطمي وواصف أساطيله كما استعملها الشاعر الايادي

ومن العجب ان عمر بن الخطاب الفاتح العظيم لم يحب ركوب البحر ولم يشجع عليه بل على الضد من ذلك صرف المسلمين عنه . وكتابه الى معاوية يؤيد هذا ، فقد أقسم بالله الذي بعث محمداً بالحق لا يحمل فيه مسلماً أبداً . وذلك حينما اقترح معاوية وألح في الاقتراح على عمر بركوب البحر وغزو الروم في حمص

وعجيب جداً أن يكون هذا موقف عمر من البحر وهو الذي دوخ البلاد فتحاً وغزواً . ولعله أراد أن يركز قوة المسلمين في البر حتى يتهيأ لهم مع الزمن ركوب البحر

ويعد الخليفة عثمان بن عفان أول حاكم مسلم أنشئت في عهده صناعة الاساطيل العربية . والفضل في ذلك لمعاوية بن أبي سفيان الذي لم ينثن عن المطالبة بركوب البحر ، والذي يعد أول خائض غمرات البحار . وهنا نذكر اسم عبد الله بن قيس الفزاري الذي استعمل أميراً على البحر ، فغزا أكثر من خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة

***

لم يكن للعرب أسطول قبل عهد عثمان ، فكيف أتيح لهم أن يذرعوا بحر الروم بهذه السرعة الفائقة ؟ ومن أين لهم بصناعة الاساطيل ولم يكن لهم بها سابقة عهد . وليس في العالم حينئذ مصانع كبرى تمد الدول بحاجتها من السفن كما تفعل المصانع اليوم . وليس من المعقول أن يمدهم الروم بالسفن ولو بحجة استعمالها في التجارة . لأن العداء بين الاثنين مستحكم ، وبلاد الروم تنهار بلداً أثر بلد . والمسلمون يمعنون فيهم الغارة ؟

والجواب عن ذلك سهل بسيط . فالارادة القوية لا تقف دونها أهوال . وقد انعقدت ارادة المسلمين بالبحر ليجدوا فيه متسعاً للغزو ومضرباً للجوب . فكيف يمنعهم من ذلك حداثه عهدهم بالصناعة ، وعدم رسوخ قدمهم في الملاحة ؟

***

وهنا تتجلى العبقرية العربية ، فتستحيل الاسكندرية الى دار عظيمة لصناعة السفن . ويستخدم فيها العمال المصريون ممن حذقوا الصنعة على أيدي الروم . وتأخذ السفن العربية أشكالها من سفن الروم التي استولى عليها عمرو بن العاص في واقعة الاسكندرية . وتجيد الايدي العربية القلفطة وربط الالواح وإحكام الدسر وأقامة الدَّقَل واماله الشراع وهي التي كانت بالامس القريب تنصب الخيام وتقيم الاوتاد وتضرب القباب وتشد الرحال وتحزم الأكوار وتحدو المطايا وقد سالت الأباطح بأعناقها

وهذا الانتقال السريع من حال الى حال هو موضع الاعجاب بأجدادنا العرب ، فانهم لم يقبعوا في الصحراء ، ولم ينطووا على انفسهم في رمال الجزيرة ولم يقولوا : ارادتنا الطبيعة ان نكون اهل الحداء فيمضارب البيداء بل قالوا نريد أن نكون اهل اللواء في غمرات الماء فكان لهم ما أرادوا

ولعلك تتصوّر الاسكندرية معي حينذاك وقد علا فيها طرق الازاميل وقرع المطارق وصوت المناشير ودق المسامير .... وفي لحظة وجيزة من الزمن تخرج مصانع الاسكندرية مائتي سفينة وتنزل الى البحر لاول عهدها به ، وعليها عبدالله بن ابي السرح اميراً ، ثم يخرج بها في غزوة اخرى فيلاقي الروم في الف مركب ، فأبلى المسلمون بلاءً حسناً . واذا هم في البحر كما هم في البر : شدة بأس وقوة مراس وصبراً على المكاره . واذا النصر يلازمهم في أول معركة بحرية وهي المعروفة بوقعة « ذات الصواري » التي سميت بذلك لكثرة اجتماع المراكب فيها وعليها صواريها المرفوعة

ويزداد شعور المسلمين بحاجتهم الى المراكب في عهد بني امية ، وينشأ منهم جيل تمرَّس بالبحار ومرن على ركوبها. فيبعث عبد الملك بن مروان الى عامله على أفريقية حسان بن النعمان يأمره بانشاء دار لصناعة الأساطيل في تونس على غرار ما حدث في مصر

ثم يأتي عبيد الله بن الحبحاب والياً على افريقية سنة ١١٤ هـ فيوسع دار الصناعة التي أنشأها حسان بتونس ويغزو صقلية سنة ١٢٢ هـ

***

ويظهر أن صناعة الاساطيل الاسلامية استقرت على شاطىء افريقية الشمالية مدة ازدهار الحضارة العربية ولم يهتم خلفاء بني العباس بهذه الصناعة إلاّ حين نزل الروم دمياط من الديار المصرية ، فقد كان المتوكل خليفة ، وعنبسة بن اسحق والياً على مصر . وكان الروم واقفين للعرب بالمرصاد . فانتهزوا يوم الوقوف بعرفات سنة ٢٣٨ هـ وغزوا دمياط وقتلوا وسبوا من المسلمين . ووصلوا الى تنيس . فاهتمَّ المتوكل العباسي بصناعة الاساطيل التي كانت قد أصابها الركود زمناً

ويعد هذا أول انتعاش للبحرية العربية . فقد وضعت قوانين للبحارة ، ورتبت لهم الارزاق ، وانتخب لهم القواد العارفون بالمحاربة ، ولم تعد البحرية الاسلامية ميداناً لكل نازل وحرفة لكل محترف . ولكنها صارت فنّاً يختار له المتمرّسون من أهل الدربة ، ويتنحَّى عنهُ الجهلاء الجبناء

وتهافت الشبان على الاشتراك في البحرية وسعوا اليها بكل الوسائل حتى يكونوا من رجالها فقد كان من الشرف الأسمى أن ينتسب المرء الى الاسطول الذي كان لرجاله مكانة وحرمة

وكانت الاسكندرية وتونس قاعدتين مهمتين من قواعد الاسطول الاسلامي . تخرج منهما السفن للغزو ، وتوقع بملوك الافرنج وتثخن في ممالكهم كما يقول ابن خلدون

ولا ينسى فضل الاسكندرية في وقعة ذات الصواري سنة ٣٥ هـ ، ولا في رد الروم عن دمياط سنة ٢٣٨ هـ . كما لا ينسى فضل تونس في غزو صقلية . فمنها كانت تخرج السفن من حين الى حين الى ان استقرَّ فيها المسلمون سنة ٢١٢ هـ على يد أسد بن الفرات موفداً من قبل زيادة الله بن الأغلب

ويروي المقريزي في خططه ان أساطيل الاسلام كانت كثيرة الهجوم على بلاد العدو . فانها كانت تسير من مصر ومن الشام ومن أفريقية ، وتلك اشارة على ايجازها تدل على فضل الشام في الغزو البحري . فقد كانت « صور » هي الثغر الحربي الاسلامي المواجه لبيزنطة . ويذكر اليعقوبي في جغرافيته ( ان بها داراً للصناعة ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وكانت حصينة جليلة )

وليس من شك في أن الاسطول الشامي في القرن الرابع الهجري كان يفوق الاسطول الفاطمي في شمالي أفريقية ويزيد عليه في الكفاية والعدد . وعلى الرغم من أن الاسطول الفاطمي غزا جنوبي فرنسا ومدينة جنوة وبيزا ، فان الاسطول الشامي استطاع هزيمة الاسطول المصري في مستهل القرن الذي نحن بصدد الحديث عنه . فانهزمت ثمانون سفينة فاطمية أمام خمس وعشرين سفينة شامية في سنة ٣٠١ هـ

***

ولم يقل اهتمام المتوكل بالأسطول المصري والبحرية المصرية عن اهتمام أبيه المعتصم بالأسطول الشامي . فللمعتصم فضل تحصين انطاكية التي كانت أهم ثغر تجاري في الشام . وله فضل الاهتمام بميناء طرابلس الشام كما يذكر ذلك ابن خرداذبة

وعلى كل حال لا ينسى فضل الفاطميين على الاسطول المصري وعنايتهم به . فلقد واصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر والاسكندرية ودمياط وسيروها الى بلاد الساحل مثل صور وعكا وعسقلان . وأكثروا من بناء دور لصناعة الاساطيل

وكانت الاساطيل الاسلامية كغيرها من الاساطيل الغربية حينذاك تسير بالشراع والمجاديف ولا يدخل الفولاذ في بنائها . فمن أين لهم بالخشب اللازم لهياكل السفن وصواريها

لقد كانت البندقية تمد العرب به ولكن الامبراطور الروماني احتجَّ على دوق البندقية فتوقف البنادقة عن بيع الخشب للعرب ، الاَّ الاخشاب التي لا تصلح لبناء السفن

وقد أثرت تلك الحركة في الانتاج البحري عند المسلمين ، وزاد الطين بلة ذلك الحريق

الهائل الذي وقع في اسطول الفاطميين في زمن العزيز الفاطمي واعترف صناع الروم بأنهم هم الذين أحدثوه .

وحدثت أزمة في صناعة الأساطيل ظهر أثرها فيما صنعهُ الوزير عيسى بن نسطورس في مصر من خشب السقائف ودور الحكومة لأعداد أسطول آخر

***

ولقد فطن صلاح الدين الايوبي الى أهمية الغابات والحراج في صناعة الأساطيل فراقبها مراقبة دقيقة وعين الحراس عليها حتى لا يستعمل الناس خشبها في خاص شؤونهم . واستنبت نوعاً من شجر السنط قوم العود منهُ بمائة دينار . والحق أن الأسطول الاسلامي بلغ في عهد صلاح الدين شأناً عظيماً . وهي منزلة كان المسلمون في حاجة ملحّة اليها لاستيلاء الصليبيين على اكثر السواحل الشامية . وفي ذلك العصر بلغت السفن حدًّا عظيماً من ضخامة الهيكل وارتفاع الجُدُر

ويذكر المؤرخ الانكليزي جون كارنوك أن قلب الأسد ملك انكلترا لما استولى على قبرص وغادرها الى الشام في مائتي سفينة لاقى في طريقه سفينة ضخمة للمسلمين تحمل الفاً وخمسمائة بحار . وهو عدد لم يشهد الفرنجة مثله في زمانهم. وهذه الرواية تدل على مبلغ ما وصلت اليه صناعة الأساطيل الاسلامية من تقدم

وبعد عصر صلاح الدين قلت العناية بالأسطول الى أن جاء الملك الظاهر في منتصف القرن السابع فأعاد العناية بصناعة السفن . وكان يشرف عليها بنفسه ويرى بنفسه ما تحتاج اليه من ضروب الاصلاح . ولكن سمعة الاساطيل الاسلامية في عصره لم تبلغ ما كانت عليه في عصور التوسع والفتح . وكانت اساليب المسلمين في وقائعهم البحرية كثيرة الشبه بما يحدث الآن في عرض البحار مع ملاحظة الفرق في الصناعة والسرعة والاختراع والتقدم العلمي . فقد عرف العرب وسائل التعمية على العدو وتضليله بالألوان والشارات والملابس وغيرها . ونرى ابن حسون المصري يغزو قبرص في القرن السابع فيرفع على مراكبه الصلبان حتى يظنها المسيحيون من سفنهم فتدخل الحيلة عليهم -

وفي الحروب الصليبية نجد قائداً بحريًّا عربيًّا يقود سفينة عليها ٧٠٠ مقاتل ويستميت في القتال حتى اذا لم يبق في النجاح أمل وعلم انهُ مأخوذ لا محالة هو ورجاله أحدث في السفينة خرقاً وآثر أن يذهب هو وسفينته ورجاله وسلاحه الى أعماق اليم وأغوار البحر على أن يقعوا فريسة في يد الأعداء .

# ظاهرة التلبثي

## وما يتبعها من ظواهر

## — ٣ —

لأحمد فهمي أبو الخير

### ظاهرة التلبثي والروح

مرَّ بنا في الامثلة التي ضربناها أن ثمة ظواهر اخرى تقترن بظاهرة التلبثي لهذا يتحتم فحص هذه الظواهر مجتمعة فقد نصل الى ما يستجلي حقيقة هذه القوى النفسية الخفيـة . فأولاً وقبل كل شيء نحن نعلم أن الجسم الميت لا يستطيع أن يرى ولا أن يسمع أو يلمس أو يشم أو يذوق . فهو لا يحس ولا يشعر ، وصـدق من قال « ما لجرحٍ بميت إيلام » .

فلماذا فقد هذا الجسم الميت الحس والشعور ؟ لقد فقده لأن الجسد قد فقد الروح . فالروح اذاً هي المسئولة عن كل هـذا . ولـكي نشعر بالتأثيرات الخارجية كان من الضروري على الروح أن تـكون في حالة تستطيـع فيها التلقي أو الاستقبال . وقد ينغمر الواحد منا في التفكير فلا يسمع الصياح حتى ولو كان الصـياح في أذنه . ويقول الرواة ان الشهداء يقعون عند استشهادهم في حالة انهيار للوعي فلا يستشعرون ألماً . وعنـد ما يولد الطفل تـكون لهُ هذه الحواس كلها ، ولـكنه لا يعي كيف يستخدمها برغم انهُ رزق القدرة على استخدامها . فهذه القوى موجودة وهي التي يسميها الدكتور رو « القوى الاولية للنفس » وهي لا تمارس إلاَّ اذا وجد منبه خارجي يثيرها . مثال ذلك ان السلع المرئية لا بدَّ أن تعكس أو تبعث ضوءًا ولوناً لـكي تمكن هـذه القوى النفسية الأولية من ادراكها ، فتستطيـع من ثمَّ أن تدرك العالم الخارجي . ويحدث هذا المنبه تغيرات في عضو الحس الذي يقود الاحساس أو الرسالة الى مراكز الدماغ حيث يتحول على الفور الى حالة تدركها هذه القوى الأولية للنفس . فالنفس ، والنفس وحدها ، هي التي تمكننا من ادراك الأشياء . وعضو الحس بالاشتراك مع مركز الحس في قشرة الدماغ هو الوسيط بين الشيء الخارجي أو المنبه وبين الـ « أنا » أو

النفس ، وبعبارة أخرى هو حلقة الاتصال بين الشيء الخارجي وأنفسنا . ولا ننسى ان من هذه القوى البدائية الأولية يتكوّن جوهر الوجود الذي تتألف منه النفس عند الولادة .
من هذه القوى تتكون المادة الروحية التي تنكشف منها بالتدريج كل الصيغ العقلية

ويجب أن لا يغرب عن البال أن أعضاء الحس ، برغم أهميتها باعتبارها حلقة الاتصال بين العالم الخارجي وبين النفس ، ليست ضرورية لها لأن النفس تستطيع أن تتلقى المنبه خلال قواها الأولية مستقلة تماماً عن أعضاء الحس . نعم تستطيع هذا ولكن بتوافر ميزات خاصة . وهذه الميزات نادرة ، ما في ذلك شك ، ولكنها موجودة فعلاً ، وقد حققها كثيرون من البحاث ، مثبتين انهُ قد يكون « عقل ولا مخ ، وحس ولا أعضاء للحس »

***

مما مضى يتضح أن هناك روحاً أو نفساً ، سمها ما شئت ، تستطيع أن تعمل مستقلة عن الجسد وأعضاء حسه وعن المخ ، وقد يكون المخ وأعضاء الحس والمنبهات الخارجية شروطاً لازمة لادراك العالم الخارجي المحيط بنا ، ولكنها ليست سبب هذا الادراك وليست مصدره

***

ولقد برهنت ظاهرة التلبثي على أن خفايا عقولنا عرضة للغزو ، ودلت على ان من الضلال الظن بأننا ننسج أفكارنا في مصانع المخ المحلية ، واننا نخزنها فيها ما طاب لنا الخزن . والظاهر اننا نوجد في « جو عقلي عام » وان عقولنا تعمل في هذا الجو كأنها محطات استقبال تستقبل الالهامات الروحية ، يدلك على ذلك خطور فكرة واحدة بعقول متفرقة في وقت واحد .
ولقد تعدّد حدوث هذا التوارد في الخواطر في وقت واحد ، حتى ليصح اعتبار أنفسنا في اتصال دائم بالتلبثي مع اخواننا وزملائنا (الموجودين في عالم المادة على الاقل) دون وعي منا بهذا الاتصال

على أننا قبل أن ننسب هذه الظواهر الى وجود الروح نردد ما قاله العلامة الأستاذ هنري أرمسترونج في تعقيبه على كتاب المسألة The Question لمؤلفه مستر كلود فقد قال « يخشى بعد هذا أن يكون الكثير جدّاً من العلم الحديث مجرد تمويه حتى حين يكون هذا الكثير صحيحاً سليماً من الناحية التجريبية ، وغالباً يكون التأويل خطئاً يميل كثيراً مع الغرض والهوى وذلك لأن كثيرين جدّاً يلعبون بالعلم مع أنهم ليسوا علميين ولا يمكن أن يكونوا علميين . الواقع ان العلم تغشاه سحابة كنسية »

## التلبثي وطرح الروح

وفيما يلي خلاصة وصف تجربة علمية أجريت على الوسيطة الشهيرة والكاتبة القديرة مسز ايلين جارت وقد أجريت هذه التجربة سنة ١٩٣١ تحت اشراف جمعية البحوث النفسية الاميركية على ظاهرة « التلبثي عن بعد » وذكرتها مسز جارت في كتابها النفيس « حياتي كاستقصاء لمعنى الوساطة » الصادر سنة ١٩٤١ وقد ذكر هذه التجربة العلامة باترزبي في كتابه « الانسان خارج جسده » الصادر في ربيع سنة ١٩٤٣ . والذي حدث في هذه التجربة هو أنهُ طلب الى مسز جارت وهي جالسة في حجرة في نيويورك أن تتصل بطبيب شهير من أعضاء جمعية البحوث النفسية الاميركية مقيم في نيو فوندلاند التي تبعد عن نيويورك مئات من الاميال والتي لم تكن مسز جارت قد زارتها قط من قبل ، وأن تدلي الى البحاث المختبرين الموجودين معها في نفس الحجرة بنيويورك — كل ما يحدث لذلك الطبيب وما يصدر عنهُ ، وبكل ما ترى وما تسمع . والى قرائي ما ذكرته في كتابها . قالت :

« أعرف في قرارة نفسي أنني لكي أجري التجربة بنجاح لا بد لي من طرح روحي طرحاً واعياً حتى أصل الى هدفي الذي أتوقع الوصول اليه في نيوفوندلاند » ثم مضت تشرح طريقة الطرح وميكانيكا عمليته مما سنرجىء ذكره الى ما بعد ووصفها ما تم لها مع ذلك الطبيب الذي طرحت روحها اليه ، والذي آثرت ألاَّ تذكر اسمهُ قالت :

« لما طرحت روحي قاصدة نيوفوندلاند حيث يوجد المكان المتفق على اجراء التجربة فيهِ رأيتني في الحي هناك ، ولكني قبل أن أدخل المنزل استطعت أن أرى الحديقة والبحر كما استطعت أن أرى المنزل المفروض أني سأزوره . وشعرت فعلاً برطوبة الجو ، ورأيت الزهور نامية على جانبي الطريق . ثم مررت خلال الجدران واذا بي أجدني في داخل الحجرة التي ستتم فيها التجربة ، ولكني لم أجد أحداً هناك ، فاتجهت بنظري نحو السلم باحثة عن ذلك المختبر الذي اخبرت بأنهُ سيكون بانتظاري . ووجدت أني اذا صعدت على السلم للبحث عنهُ فلن يكون معنى هذا إلاَّ اضافة مجهود الى ما بذلت غير أني لحسن الحظ رأيتهُ آتياً هابطاً من السلم في تلك اللحظة ، ثم دخل الحجرة التي عرفت أنها اختيرت مقرًّا لاجراء التجربة

ولم يتضمن ما تمَّ من الاحداث حتى ذلك الوقت ظاهرة التلبثي فحسب بل تضمن كذلك سلسلة كاملة من مظاهر الحس غير العادي جمعت بين الجلاء البصري والجلاء السمعي والتنبؤ بما سيكون

وكان ذلك الطبيب الموكول اليه اجراء التجربة ذا قوى حس غير عادية ، فقد بدا عليه

أنهُ أدرك وجودي وشعر بأن التجربة قد بدأت . وسيتضح بما سأرويه أن كلاًّ منا كان يدرك وجود الآخر

« قال بصوت مرتفع : « ستكون تجربة ناجحة » . وقد استطعت وأنا جالسة في تلك الحجرة ، بنيويورك أن أتلقى هذا الكلام وكأنهُ يخترق سمعي الفيزيقي . وخاطب ذلك المختبر في نيوفوندلاند روحي المطروحة الى حجرة مكتبه وكأنهُ يحدثني قال : « انظري الى ما هو موجود فوق المكتب » وصدعت بأمره وانقدتُ له منذ تلك اللحظة واستجبت لقوله كما يستجيب الشخص المنوّم مغنطيسيًّا للايحاء . واستطعت أن أرى الاشياء الموضوعة فوق المكتب لا بالرؤية العادية ولكن بالجلاء البصري . وعندئذٍ أدليت بوصف ما رأيته الى الشخص الموكل بتدوين ما أقوله في نيويورك وسمعت الطبيب يقول : « قدمي اعتذاري للقائمين بالتجربة في الطرف الآخر هناك ، فلقد وقع لي حادث ولم أستطع العمل كما كنت أرجو وآمل » ونقلت ما كنت أسمعه في نيوفوندلاند الى الكاتب في نيويورك بعين الالفاظ التي وجهت إليّ ، ووصفت كذلك الضمادة التي فوق رأس الدكتور . وما كدت انتهي من ذلك حتى قال لي المشرف على التجربة في نيويورك المنتحي جانباً : « لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً لأني تسلمت منه خطاباً منذ بضعة أيام ، وكان الدكتور إذ ذاك في صحة تامة »

« وتابعنا التجربة وبقيت في حالة الطرح الروحي ، وتتبعت نشاط المختبر المقيم في نيوفوندلاند فكان الشيء الذي صدر عنه بعد ذلك هو اتجاههُ متمهلاً صوب خزانة الكتب وعرفت قبل أن يصل اليه الكتاب الذي كان يفكر فيه ، بل عرفت كذلك موضعه بين الكتب. وذاك هو التلبثي البحت . وتناول الكتاب بيده قاصداً أن أتمكن من قراءة اسمه وأنا حاضرة عنده ، ثم فتحه وقرأ في صمت فقرة منه . وكان ذلك الكتاب عن اينشتين وآرائه في النسبية ولما انتهى من قراءته في صمتٍ الفقرة التي اختارها استطعت أن أتلقى من عقله الانطباعات التلبثية لما قرأ . وقد أمليت على كاتب الجلسة في نيويورك معنى ما قرأ بكلمات من عندي . وأخبرني ذلك الطبيب في الوقت عينه بصوت مرتفع وأنا في حالة الطرح الروحي انه خلال اجراء تلك التجربة قد طرح روحه هو أيضاً الى حجرة النوم في نيويورك الخاصة بزميله طبيب العقول المشترك معه في اجراء التجربة . وجعل يصف الصورتين الفوتوغرافيتين اللتين كان رآهما هناك فعلاً عند زيارته السابقة الفيزيقية لنيويورك ، ولكنه قال عندئذٍ وهو في نيوفوندلاند ان تينك الصورتين قد نُزعتا من مكانهما ، وان حجرة نوم صديقه قد أُعيد طلاؤها بعد زيارته الفيزيقية

« وانتهت التجربة عند ذلك . وقال الكاتب عند الانتهاء ان التجربة كلها قد استغرقت خمس عشرة دقيقة . فلو كانت هذه التجربة قد اقتصرت على ظاهرة التلبثي وحدها ما استطعت قط أن اتصل بالمجرب المختبر ، ولا ان أراه هو أو الناحية التي يقيم فيها أو الحجرة التي وجد فيها ، ولا أن أمضي في التجربة .

« وكل ما كان يمكن أن يحدث نتيجة للتلبثي البحت هو نقل الافكار التي جالت في خاطر المجرب المختبر وانطباعات الكلمات التي خاطبني بها بصوت عال .

« ومما يزيد في غرابة هذه التجربة ويجعلها فذة غير عادية هو أن طبيب نيوفوندلاند ذاك قد وهب القدرة على طرحه روحه وانهُ لذلك استطاع أن يتلقى الانطباعات المخية بطريق الجلاء البصري والتلبثي عن المكان المختار في نيويورك بينما كنت أنا أيضاً طارحة روحي لأصنع في منزله في نيوفوندلاند مثل الذي صنعه هو في نيويورك

« وأرسل بالبريد في تلك الليلة عينها بيان التجربة التي أجريت في نيويورك الى ذلك الطبيب المقيم في نيوفوندلاند . وفي الصباح التالي وردت برقية منه يصف فيها الحادث الذي وقع له قبل البدء باجراء التجربة ، وورد منه بعد ذلك بيوم خطاب ذكر فيه خطوات التجربة كما وصفتها أنا ،

« ولم تبرهن البرقية فقط على اني سمعت رسالته ووعيتها تماماً حين خاطب روحي المطروحة عنده بل برهنت كذلك على اني رأيت فعلاً رأسه المربوط بالضمادة . ويذكر قرائي قولي انهُ افتتح التجربة بالتنبؤ بنجاحها ، وقد تحققت النبوءة برمتها . واذاً أكون قد نجحت بالتلبثي في تلقي هذه النبوءة وارسالها ، وفي هذه الحالة يكون التنبؤ والتلبثي قد حدثا في آن واحد . وعرفنا من خطابه أنه استخدم مكتبه وأنهُ وضع فوقه مجموعه أشياء هي التي رأيتها تماماً بالجلاء البصري ، وصدقتُ كذلك في وصف كل خطوة سلكها هو . فالكتاب الذي تناوله ، وعنوانه وموضوعه ، والفقرة التي قرأها — كل هذا كان كما وصفته بعد ادراكي اياه خلال طرحي الواعي لروحي ، وتطبيقي ظاهرتي الجلاء البصرى والتلبثي . وما كان يمكن اجراء مثل هذه التجربة المعقدة من دون استعمال وسائل الادراك الاضافية هذه »

***

والى هنا ينتهي وصف تلك التجربة الفذة ، ولكن يبقى بعد ذلك وصف أروع أجزائها ونعني به الجزء الخاص بميكانيكا عملية الطرح الروحي . قالت مسز جارت : « ان الذي لم يقبله

العلم في الجملة ، والذي أنا مع ذلك واثقة من صحته وصدقه ، هو ان لكل انسان مماثلاً او مقابلاً من مادة أرق وألطف من جسمه الفيزيقي ، ويسمي بعض العلميين ذلك المقابل الجسم النجمي او الجسم الاثيري . وهذا بالطبع غير ذلك الواقي المحيط بالجسم والذي يظل متصلاً بهطيلة طرح ذلك المقابل وبوساطة ذلك المقابل يتم كل من الطرحين العرضي والواعي . ويلاحظ اني في التجارب التي نحن بصددها كنت أطرح ذلك المقابل طرحاً واعياً . وأعرف من تجاربي أني حين أطرحه فان الطرح كان يتم من وسط صدري بين الثديين . وبمجرد ان أبدأ عملية الطرح أشعر في هذا الموضع من جسمي بجذب تصحبه رفرفة تسبب خفقاناً في القلب واسراعاً في التنفس ، كما يصحبه كذلك اختناق طفيف في الحنجرة ودوار في الرأس . وأظل أشعر بذلك في جسمي الفيزيقي طيلة مدة الطرح كلها

« وحين أكون في حالة الطرح هذه فان مقابلي يبدو كأنه قادر على استعمال النشاط العادي لكل حواسي الخمس التي تعمل في جسمي الفيزيقي . فمثلاً قد أكون جالسة في حجرة استقبال في يوم قارس البرد ومع ذلك فاني بالطرح أستطيع ان أصل الى مكان يكون صيفه في تلك اللحظة قائظ الحر . وعندئذٍ تستطيع حواسي الخمس كلها ان تشعر بالبحر وبالزهر ، فأغنى من عبير الزهر وزهمة ماء البحر ، وأسمع الطيور تغني والموج يلطم الشاطىء . وقد يكون غريباً ان اقول اني ما نسيت قط أضأل تفصيلات مثل هذه التجربة خلال طرحي الواعي ، مع أن النسيان يغشاني في حياتي العادية ، وتضمحل ذكرياتي للاماكن والاشياء . وقد يكون من الشائق هنا ان أذكر بعض ما وجدتهُ من فروق بين طرحي الواعي وطرحي غير الواعي ففي حالة الطرح غير الواعي كما في أحلام النهار أو حين أكون عند حافة النوم فان مقابلي ينزلق مني بغير ارادتي ، وقد يصطدم أحياناً بعقبات في الفضاء تعوق حركته الحرة وتحدث ترجيعاً أو عملاً عكسيًّا في مجموعي العصبي ، وصدمة في جسمي الفيزيقي . وأمثال هذه المصادمات لا تحدث البتة حينما أطرح نفسي في الفضاء طرحاً اراديًّا ، ويرجع هذا الى اني أتحرك إذ ذاك حركة واعية بكيفية أكثر ليونة وميوعة »

* * *

من كل ما مضى يتضح أن ظاهرة التلبّي التي تعسف الماديون حيالها فأخرجوها عن وضعها الحقيقي لكي يباعدوا ما بين العلم والروح ، قد أدنت العلم في الواقع من الروح بل انها أصبحت دليلاً عمليًّا علميًّا على وجود الروح .

# سور الصين

## ومنشئه

لرشوان أحمد صادق

قصة هذا السور من الاحاديث الشائقة التي تناولتها اقلام الكتاب القدماء والمحدثين شرقيين وغير شرقيين ، وان هذا السور ليرى واضحاً على الخارطات القديمة والحديثة . ولنا أن نتساءل هل هو الذي ورد ذكره في القرآن ( سورة الكهف ) ام انهُ شيد على بقايا سور أقدم منهُ وما هو الا متمم للسور القديم . تقول المصادر الصينية [٢] انهُ لم يكن في الصين سد أقدم من السد الحالي الذي شيده الامبراطور تشن أحد اباطرة الصين وتذكر بعض المصادر الاوربية أن السور الحالي متمم لبقايا سور أقدم منه فقد ورد في دائرة المعارف البريطانية [٣] العبارة الآتية « He (Chin) constructed the great wall. This had probably already existed in part but he completed and strengthened it»

وقد صرح المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري [٤] بأن السد الحالي غير الذي ورد ذكره في القرآن واستدل على ذلك بأن أهل ياجوج ومأجوج [٥] كانوا محصورين بين سدين

واعترفت بعض المصادر الاوروبية بان لا سور في الصين اقدم من سورها المعروف لنا الآن ومن هؤلاء ادجار جيل [٦]

وقد اشتد لغط الكتاب العرب والاجانب حول من بنى سور الصين فمنهم من قال ان اسمه الاسكندر ولا ندري من أين جاءوا بهذا الاسم الذي لم يرد ذكره في المصادر الصينية ولا في القرآن . وقد ذكر الطبري [١] حديثاً صرح فيه بأن باني السور هو منشيء

---

(١) يبلغ طوله ٢٠٠٠ لي ( واللي هو الميل الصيني ويقدر بنحو ½ ميل انكليزي) وقد تهدمت بعض أجزائه (٢) راجع كتاب « الخلاصة الادبية الصينية العامية » لجين جين دو كتب بالصينية طرف البعثة الصينية بالقاهرة (٣) ج٥ ص ٥٢٩ (٤) انظر كتاب «الجواهر» ج ٩ ص ٢٠٤ (٥) وقد كانوا موضع جدل بين الكتاب وكثيراً ما ذكرهم جغرافيو العرب وهم قبائل من المغول والتتار (٦) راجع كتاب "The Great Wall of China" (جغرافية رقم ٥١٧٣ بدار الكتب بالقاهرة) (٧) الطبري ج ١٦

الاسكندرية كما أورد الزمخشري صاحب الكشاف [١] ما يفيد هذا المعنى . ولكن الاسكندر الاكبر المقدوني توفي سنة ٣٢٣ ق . م [٢] في حين ان السور بني في سنة ٢١٤ ق . م [٣] ، ثم ان الاسكندر الاكبر لم يتعد نهر السند شرقاً [٤] ، وقد تعرض الأستاذ عزيز خانكي بك [٥] لهذا الموضوع فلخص معظم آراء العلماء المحدثين في هذا الصدد واستقر بهِ الرأي على ان باني سور الصين ليس الاسكندر المقدوني تاركاً الأمر لأهل البحث والتنقيب ويقول الاستاذ ريفون جست Rhuvon Guest في مقال لهُ [٦] ان تسمية الاسكندر الاكبر بذي القرنين أدى الى الخلط بينه وبين باني سور الصين « النبي المعروف بهذا الاسم » وقد بسط الاستاذ عزيز خانكي بك سبب تسمية الاسكندر الاكبر بذي القرنين نسبة الى التاج الذي تقلده في مصر

ولقد اتفقت المصادر الصينية والاوروبية التي تبحث في تاريخ الصين على أن الامبراطور الصيني تشن الذي يعد أعظم أباطرة الصين خاصة والعالم عامة هو منشىء ذلك السور [٧] فقد كان يتمتع بسلطة واسعة استغلّها في النهوض ببلاده وهو الذي اشتقّ الاوربيون من اسمهِ اسم الاراضي الصينية [٨] واليهِ يرجع الفضل في كشف بلاد اليابان واستعمارها . وقد امتدحهُ قدامة البابا واثنت عليه معظم المؤلفات الاوروبية ولكن للاسف لم يقدره مواطنوه فلم يوفوه حقهُ من الاعتراف بالجميل ، ومن اعماله انهُ صادر المؤلفات التي تبحث في العلوم غير المفيدة في نظره والمشجعة على الرجوع الى الماضي خصوصاً ما كان يبحث منها في التاريخ وانذر معارضيه من اهل المدارس بالتنكيل والعذاب ، فدفن عدداً منهم غير قليل احياء ، ويقول ادجارجيل انهُ دفن اجسامهم دون رؤوسهم فمن استسلم لرغبته انقذ ومن أصرَّ على العصيان قضى نحبهُ ، ومع ذلك فقد أبقى على بعض المؤلفات التي تبحث في التنجيم والزراعة والطب لما لها من فائدة ، ويقول اعداؤه المؤرخون الكنفوشيوسيون انهُ احرق ما أحرق منها

---

(١) الكشاف للزمخشري ج ٢ (٢) راجع كتاب « Ancient Times » تأليف برستد ص ٤٣٧ (٣) راجع .Encyc. Brit ج ٥ ص ٥٢٩ (٤) انظر كتاب «The Great Alexander» تأليف روبسون Robson وكتاب « Histoire d'Alex. Le Grand » نقله مشن Méchin الى الفرنسية عن الالمانية دريسون Droyson (٥) كتاب « الاسكندر الاكبر » (٦) راجع دائرة المعارف الاسلامية ج ٢ ص ١٢٨ (٧) ولو صدق القول بأنه ليس في الصين أقدم من هذا السور لامكننا القول بأن الامبراطور تشن هو ذو القرنين الذي ورد ذكره في القرآن وقد رأيت في مؤلف صيني اسمه الخلاصة الأدبية لجين دو صورة قبعة اعتاد ملوك الصين ارتداءها تنتهي بطرفين على شكل قرن الحيوان

(٨) للصين عدة اسماء فاسمها في المؤلفات الصينية القديمة « Hwa Hia » ومعناها The Flowery Hia . وسميت أيضا «Chung Kwo» ومعناها The Middle State وسماها بطليموس وغيره من الجغرافيين القدماء « Serica, Sera Seres » وفي المقطوعات الشعرية عرفت باسم «Cathay» ويسميها الروس Kitai (راجع .Chamber's Encyc جزء ٣ ص ١٨٦ لدى البحث عن كلمة China )

ليقضي على سير من سبقوه ، وليكون اول الحاكمين . والواقع ان الكتب احرقت بحجة الحض على اتباع النظام الاقطاعي الذي كان الامبراطور تشن يرى انهُ لا سبيل الى توحيد الامة ما دام هذا النظام البغيض قائماً ، ولم يكن يخشى اعادة طبع الكتب ولكن الطلبة اعدموا لمحاولتهم قلب النظام الجديد

ويذكر ادجار جيل ان السبب في بناء السور يرجع الى اعتقاد الامبراطور تشن في التنبؤات إذ بلغه ان عرشه سيقوض على أيدي المغول فأسرع الى تعبئة جيش يبلغ عدده ثلثمائة الف رجل للعمل في اقامة ذلك السد

ويبدو لي انه أقام ذلك السد لصد غزوات المغول والتتار وكذلك لتخليد ذكراه والتقرب الى الشعب بعمل يحميهم من المغيرين وينسيهم أعمال الارهاب والتعذيب ، كما ان مثل ذلك المشروع الذي يتطلب وقتاً طويلاً وأيدي عاملة كثيرة لخير شيء يشغل به معارضيه وأفضل منفى لمن فكر في الثورة عليه

والواقع ان الامبراطور تشن بعد أن تم لهُ اخضاع أمراء الولايات الصينية [1] فكر في قهر التتار بطريق سلمي لأنه وجد من العبث التغلب عليهم واخضاعهم بالقوة فهمَّ بانشاء ذلك السور ليفصل بين الرعاة في الشمال والزراع في الجنوب ويمنع عن سكان الأودية المطمئنين غارات أهل الصحراء

وقد امتاز عصر بناء سور الصين بالاستبداد بالرأي وسعة النفوذ والسلطان وإلاَّ لما استطاع الامبراطور الفريد الاول والذي شبهه ادجار جيل بنابليون القيام بمثل ذلك العمل الشاق . فقد بسط نفوذه على مساحة تعادل نصف اوروبا تقريباً تسكنها عناصر كانت تموج وتضطرب كالبركان الثائر فأنزل عليهم السكينة وأدمجهم في أمة متماسكة تحمل اسمه

ولم يشارك الامبراطور تشن قومه في اتباع مذهب كنفوشيوس بل اتبع عقيدة أخرى لم يذكرها المؤرخون الصينيون الكنفوشيوسيون أعداؤه وأعداء عقيدته ووصفوه بأنه كان جبَّاراً وما كان إلا حازماً يريد الاصلاح وما زالت بلاده في حاجة الى رجل عظيم مثله في تلك الظروف العصيبة

واذا ما قارنا تشن بالاسكندر [1] المقدوني وجدنا ان كلاًّ منهما نشأ في ولاية صغيرة ثم بسط نفوذه على مساحات شاسعة ، فقد كانت مقدونيا ولاية في طرف بلاد اليونان بسطت

(١) هذه الولايات هي : Yen — تشو Chou — وي Wie — تشن Chin — هان Han — شي Chi — تسو Tsu (نقلا عن خارطة في مؤلف صيني اسمه شيه جي شيه = تاريخ ، جي = مذكرة أي المذكرة التاريخية )

نفوذها على ما جاورها وامتد سلطانها على معظم القارة الاسيوية وذلك بفضل الاسكندر الاكبر المقدوني شبيه تشن الشاب الامبراطور الذي سرعان ما غزا تلك الامبراطورية من شمالها الى جنوبها ومن غربها الى شرقها وامتدت فتوحاته الى اليابان لا للبحث عن اكسير الحياة كما يصمه المؤرخون الصينيون أعداؤه وأنصار الكنفوشيوسية

وكان يعاون الامبراطور تشن نخبة من الوزراء نذكر من بينهم بولى هصي الذي خدم مولاه الامبراطور سبع سنوات فلما مات بكاه القوم وأغلق التجار حوانيتهم حداداً عليه ، وشانج يانج الذي عمل على انماء قوة سيده ووضع النظم الادارية من قانون وموازين ولكن الشعب لم يقدره فانقضوا عليه ومزقوه اربا ، وشانج الاول وكان عالماً بالنظم الادارية ، وفان شو الذي ناصر مولاه في سياسة الغزو والضم، ولوبي وي الذي كان وصيًّا على الامير تشن في حداثة سنه ومنحته أم الامبراطور والنائبة عن ابنها في الحكم اسم شنج فو أي الوالد الآخر ولذلك سمي الامبراطور تشن سانج أو ليوشنج[1]، والمستشار العظيم لي صيه الذي تفانى في خدمة مليكه وأنجز ما تأخر من طلبات سيده وقضى قضاءً تامًّا على نظام الاقطاع ووضع بالاشتراك مع مليكه خارطة للامبراطورية الصينية الموحدة ، وكان هذا الوزير من أعظم المشجعين على اقامة سور الصين وعهد أمر الاشراف على بنائه الى القائد الحربي منج تين مخترع القلم الصيني

وقبل وفاة ذلك الامبراطور الرحالة أعدّ الإساتذة العلماء المقربون اليه ضريحاً لجثمانه ويذكر الصينيون عدة قصص عما تقوم به روح هذا الامبراطور من مساعدات لمواطنيها ونسبوا اليه المعجزات فمن قائل ان أنواراً تنبعث من قبره ومن قائل ان الامبراطور قد دفن في قصر ووضع جثمانه في تابوت عائم على نهر من الزئبق لا يجرؤ أحد على لمسه لأنه لا يستقر في مكانه وان كل من حاول لمسه أصابته جربة . ولذا فكر بعض الجنود في ارتداء ملابس حديدية كي لا تؤثر فيهم الجربة وحاولوا لمس التابوت فعجزوا واذا بصيحة كالرعد فغادروا المكان وخرجوا خائفين

***

وقد عثر المنقبون عن الآثار أخيراً في تلك البلاد على لوحة امتدح فيها ثلاثة من طلبة الامبراطور مولاهم وسموه ناشر العدل القاضي على الثورات محب الامن وكان ذلك بعد أن أذن لهم مليكهم وقد ذيلت تلك اللوحة بامضاء لي صيه والوزير شوشي والمراقب تن .

(١) وقد أدى ذلك الى وجود شك في نسبة الامبراطور تشن الى ابيه كما ادعى ذلك بعض المؤرخين الصينيين

# فلسفة « كأنّ »[1]

## في الهند وفي الغرب

### نظرة المقارن

— ١ —

للسيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

«ان اكبر مساهمة قدمتها الهند الى العالم هي الديانة والفلسفة »       الاستاذ السر وليم هنتر

## التمهيد

﴿ منزلة الفلسفة الهندية ﴾ صرح القرآن منذ عشرة ونيف من القرون «وما اوتيتم من العلم الاّ قليلا » . وما اصدق هذا التصريح ! فان العلم بحر لايسبر غوره ومحيط لا ينال دركه مهما خاضت الانسانية في زمن من الازمان عباب العلم وغاصت على اسراره واحصت مسائله واستقرت دقائقه ، كل ذلك قليل بالنسبة الى ما طواه حجاب الجهل واستتر في خبايا الغيب . وعليه فكلما رفع من ذلك الحجاب وكشف من تلك الخبايا حيناً بعد حين تقدمت الانسانية وعرفت به خطأها من صوابها ، وجهلها من علمها وشرها من خيرها ، فوطأت اعراف المجد وتوقلت معارج الشرف

كانوا يعتقدون الى الايام الاخيرة أن ليست الحضارة الهندية ثابتة الوطائد مشيدة الاركان في القدم والعظمة مثل الحضارات القديمة الاخرى ولكن في سنة ١٩٢٤ حدثت حادثة اماطت اللثام عن تلك الاوهام . فان العالم الهندي بنرجي كشف مصادفةً آثار موهنجو دارو والاستاذ مارشال آثار هاربّا على شاطىء نهر السند وكانت مطوية تحت الرواسب فدلت على عظمة الهند في الحضارة والتقدم ، في الالف السادسة قبل الميلاد ، فبان به شأوها على غيرها وحازت قصب السبق[2]

كذلك كانوا يرون ان اقدم مصدر للفلسفة هو الفلسفة اليونانية . ولكن البحث

---

(١) هو اسم اطلقه المفكر الفيلسوف الالماني الشهير هانز فاي هنجر على فلسفته Die Philosophie des Als Ob اي فلسفة كأنّ . ويمكننا ان نعبره بفلسفة مثال او خيال فان كأن تفيد اما التشبيه أو الشك أو التقريب والجملة المعمولة بها ليس لمعناها نصيب من الحقيقة لانها تساق للتمثيل الغير الحقيقي

(٢) للتفصيل الوافي في الموضوع يجب ان يرجع القارىء الى تقارير مصلحة الاثار الهندية . ويجد ايضاً بياناً موجزاً في مؤلفات الاستاذ السر جون مارشال

والدراسة كشفا القناع عن ان ذلك الرأي خالٍ عن السداد ، وان الفلسفة الهندية أقدم من الفلسفة اليونانية . ثم التشابه التام بين مسائل الفلسفة ومسائل بعض العلوم بالهند وبين مسائل الفلسفة ومسائل بعض العلوم باليونان والدلائل القاطعة الاخرى حملت اكثر الباحثين والمحققين على التأكد بان مصدر الاخير الاول . نعم ترتاب جماعة من العلماء فيه ولكن ليس لديها من قوة الادلة ما يحقق ريبها

قديماً روى الفيلسوف الخطيب الروماني ابولائيوس ان فيثاغورس سافر الى الهند وتعلم الفلسفة فيها[١] كذلك ذكر مترجمه الشهير أيام بليخوس انهُ كان جوّاب آفاق طوّح به السفر الى اقاصي النواحي فورد فيها شرعة المصريين والآشوريين والبراهمة واستفاد من اسرارهم العلمية [٢] . وروى ايوسيليوس المؤرخ اليوناني الشهير عن ارستو كزينوس معاصر سقراط والمؤلف الشهير في علم الالحان ، ان بعض علماء الهند زاروا اثينا وناقشوا سقراط فسألوه ان يوضح غاية فلسفته فقال : البحث عن شؤون الانسان ، فقهقه أحدهم سائلاً : وكيف يستطيع المرء ان يدرك شؤون الانسان بدون معرفته الالهيّ معرفة تامة[٣] ؟ وسافر الفيلسوف الشهير ابولينوس التيّاني من اتباع فيثاغورس في القرن الاول الميلادي الى مدينة تاكسيلا مركز العلوم والثقافة البرهمية حينئذٍ في شمال الهند ودرس فيها الفلسفة على البراهمة[٤] . وصرح الكاتب اليوناني الشهير كايمنت الاسكندري ( ٢١٨ — ١٥٠ م ) الذي يشير كثيراً الى وجود البوذيين بالاسكندرية في زمنه ، وهو اول كاتب يوناني يذكر بوذا باسمهِ ان اليونان سرقوا فلسفتهم من البرابرة[٥] وحمل افلوطينوس مؤسس مذهب الافلاطونية الحديثة شوقه الشديد لتعلم الفلسفة الهندية على اصطحاب حملة جورديان ضد شابور ملك ايران ليجد هناك من يشد بهِ عرى آماله فيغتبط بفلح مسعاه[٦] . حتى في احوال المعيشة الخاصة كان فيثاغورس نباتيّاً لم يأكل لحماً واجتنب ايذاء ذوي الحياة مثل اتباع الديانة الجينية والبوذية واعتقد في حرمة بعض الخضار مثل الباقلاء [٧]

---

(١) Leckey : History of European Morals Vol I pp. 96 note

(٢) راجع H C. Rawlinson : India in European Literature & Thought p. 4 وأيضا A. Weber: Histoire de la Philosophie Européenne p 30 note وكذلك المرجع الآتي وان كان مؤلفاه الفاضلان يرتابان فيه ولكن بغير دليل قاطع لذلك مع وجود النصوص الصريحة P. Janet & G. Séailles : Histoire de la Philosophie p. 920

(٣) Rowlinson : India in Europe Thought & Literature p. 8

(٤) نفس المصدر ص ١٨ (٥) McCrindle : Ancient India pp 184

(٦) Rawlinson : India in Europ. Thought & Literature p 18

(٧) نفس المصدر ص ٥

هذا نزر يسير من الأدلة القديمة الكثيرة ذكرناها موجزة لأننا لسنا بصدد استيفائها هنا . وأما الأدلة الحديثة لجميع الذين قتلوا الفلسفة الهندية واليونانية وتاريخهما وعلومهما درساً وفهماً وقراناً في العصر الحاضر وتنزهوا في الحكم يرون ان مصدر الفلسفة اليونانية الفلسفة الهندية . فغير واحد من علماء فرنسا والمانيا وبعض البلاد الأخرى ، والمحقق الأديب الشاعر النرويجي كونت بيورنست يرنه ، ومن الانكليز الاستاذ السر وليم هنتر ، والأستاذ كول بروك ، والاستاذ السر وليم جونس ، والاستاذ السر مانير وليمز وغيرهم كثيرون لا أذكرهم الآن يرون هذا الرأي . كذلك استقر رأي الاستاذ الدكتور ابن فيلد في مصنفه الشهير تاريخ الفلسفة على ان فيثاغورس ، وانكسلغورس وفيرو وغيرهم من حكماء اليونان شدوا الرحال الى الهند ودرسوا الفلسفة على الهنود فاستضاؤوا بمشكاتهم [1]

هذا كان شأن الفلسفة القديمة . وأما الفلسفة الحديثة فقل أن يظهر اتجاه جديد فيها ولم يكن للهند في التفكير فيه السبق والقدم غير ان الأمر يحتاج الى البحث والدراسة والمقارنة بامعان ودقة . ان الهند وطن الفلسفة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة نمت وترعرعت على أراضيها المترامية الأطراف ، ولا يزال بساط جزئها الأكبر مطويًّا لم يظهر مكنونها ولا بيّن مكتومها بلسان عصري وتعبير حديث . على ان علماء الهند ليسوا بمعزل عنها تاركين أمورها بمضيعة . فقد قرأ العالم الهندي الشهير داس غُبتا بحثاً وافياً دقيقاً في اجتماع مؤتمر الفلسفة الدولي السادس في سنة ١٩٢٤ أثبت فيه ان ما قدم الفيلسوف بندتّو كروتشي الايطالي ، وهو احد كبار الفلاسفة المعاصرين، في فلسفته الخاصة، سبقه الهنود فيه بعشرة قرون . فان مفكريْن ومصنفيْن جليلين من الديانة البوذية اللذين عاشا في القرن التاسع الميلادى وهما « دهرما كيرتي » و « دهرمُتّارا » فكرا في أمور وأتياها مأتاها الى أن أصبح غرض بحثهما ودرية فكرها مسائل هي عناصر فلسفة كروتشي في العصر الحاضر ، فعادا به بنجح مطلبهما في القرن التاسع وهو نفس ما عاد كروتشي بدرك ارتياده في القرن العشرين . وفي الهند غير واحد من الاندية والمجامع العلمية والفلسفية يقرأ فيها مثل تلك المباحث حيناً بعد حين . واليوم نزف اليك مبحثاً طريفاً استغرق بحثه ودراسته غير قليل من وقتنا وهو المقارنة بين فلسفة الالماني الشهير هانز فايهنجر أحد كبار الفلاسفة في العصر الحاضر وبين فلسفة الحكيم الهندي الجليل « ياجنَّا والكيا » أحد كبار فلاسفة الهند في القرن السابع قبل الميلاد

**❁ الفيلسوف ياجنّا والكيا وفلسفة « كأن » ❁** عاش ياجنّا والكيا في القرن السابع

( ١ ) راجع المجلد الاول من الكتاب المذكور صفحة ٦٥

قبل الميلاد وهو زمن تكوين اوبانيشادات [1] الشهيرة في تاريخ الفلسفة الهندية . ولد في مدينة ميثيلا عاصمة بلاد ويدها وعاصر ملك جناكا من ملوكها الذي لا ينوه به اوبانيشاد كفاتح أو قائد منتصر ، أو فارس فائز في حلبة الفروسية بل كمساهم في النقاش الميتافزيقي أو رئيس في المجلس الفلسفي أو مسبغ رعايته على الحكماء الشهيرين في دولته أو صديق لياجنّـا والكيا

يحوز ياجنّـا والكيا شأو السبق في الفلسفة والحكمة والعلم والفضل بين الفلاسفة البراهمة لذلك له في الفلسفة الهندية شخصية لا تجارى واثر لايدرك شأوه . ومشربه من المذاهب الفلسفية الهندية « فلسفة ادوائيتا » [2] . وعليه فالآتمان [3] عنده أساس كوني لجميع الوجود كما هو مركز المعرفة لجميع العلم . فهو مصدر جميع الوجود واصله كما هو منبع يجب أن ينسب اليه جميع الادراكات . وقد أبان عقيدته الكونية في نظرية الانبثاقات الخاصة له . وهي ان الحقيقة الوحيدة للآتمان وان كل شيء آخر « آرتا » ( اي بلاهة ) لكونه مشتقًّا محضاً . ومع ان مسألة تناسخ الارواح لعبت دوراً هامًّـا في الفكر البرهمي الهندي ولكن ياجنّـا والكيا من علو الفلسفة الادوائيتية يعتبرها غير الحقيقي فان الروح عنده شيء خالد فلاجل اي شيء وفي اي شيء تتناسخ [4] كذلك هو يعتبر الشعور من وجهة النظر الفلسفي المحض حادثاً زائلا ولكن هذا لا يمنعهُ من اعتبار الآتمان Noeses Noeseos اي الشاهد الذاتي الخالد [4] والحقيقة الوحيدة في عالمَ الاوهام

واما فلسفة « كأن » له فحين اراد ياجنّـا والكيا ان يعتزل العالمَ ويهجر حياته الدنيوية وزّع املاكه على زوجته مايتري وكاتياياني . فسألتهُ الاولى عند الوداع عن سر الموت والخلود فقال لها : ان الحقيقة للآتمان وهو في الكائنات مثل كتلة الملح ألقيت في الماء وذابت فيه لا يمكن ان ترى وتجمع مرة أخرى ، ولكن من أي جهة يؤخذ الماء يكون ملحاً . كذلك

---

(١) اوبانيشادات جمع « اوبانيشاد » اسم آخر يطلق على « ويدانتا » معنى الاخير بالسنسكريتية خاتمة ويدا ، ومعنى الاول الجلوس بقرب ( الاستاذ لتلقي أسرار العقيدة ) وهي عبارة عن الابواب الاخيرة في كل ويد من الويدات الاربعة تشبه كتب المتون في العقيدة وتحتوي على اكثر العناصر من المذاهب الفلسفية الهندية المختلفة لذلك كثرت لها الشروح والحواشي والتقريرات باشر فيها كل منهم بمنهجه الخاص وأسلوبه الفريد موضوعاً واحداً وهو عقيدة برهمن أو آتمان . وأقدم اوبانيشادات اثنان ١ : — بريهد آرنيا كا أوبانيشاد و ٢ — تشندوكيا اوبانيشاد . ونحن سننقل كثيراً من الاول ونرمز له « بري »

(٢) هو مذهب وحدة الوجود من المذاهب الفلسفية الهندية يقرر ان لا ثنائية بين الروح والمادة ، والنفس والعالم والفكر والوجود بل الحقيقة الوحيدة للآتمان . ويمكن ان يلخص المذهب كله فيما يلي : — ا — الحقيقة الوحيدة للآتمان . ب — الآتمان معرض العلم فينا . ج — لا يمكن ان يعرف الآتمان

(٣) آتمان كلمة سنسكريتية معناها نفس ، ترد كثيراً في الكتب الدينية الهندية وتستعمل فيها بمعنى الروح الفردي . الوهو عنصر هام في فلسفة ادوائتا فالمعادلة عندها : آتمان = برهمن أي توحيد الروح الفردي مع روح العالم أي الله (٣) بري باب ٢ عدد ٤ و ١١ (٤) بري باب ٤ عدد ٣

آتمان = برهمن اللامتناهى الغير المحدود الكامل العلم يشعر به الكائن في نفسه وفي غيره ولكن بعد الموت لا وجود لذلك الشعور . يريد به ان في الحياة بعد الممات لا يبقى شعور الفردية لاندماج روح الفرد في روح الكل . فقالت له مايترى : « ان قولك ان لا شعور بعد الموت شوشني » فرد عليها ياجنّا والكيا : « أنا لا أقول لك شيئاً مشوشاً فان الأمر واضح . انه حيث كأن ثنائية موجودة يستطيع واحد أن يرى ، ويسمع ، ويشم ويعرف الآخر . ولكن حيث يدرك مدرك الحقيقة ان العالم بأسره آتمان ، فباي شيء يستطيع وماذا يستطيع أن يدرك ؟ وبأي شيء يستطيع وفيمَ يستطيع أن يفكر ؟ وبأي شيء يستطيع وماذا يستطيع أن يسمع ؟ كيف يقدر على أن يعرف العليم الذي يحيط علمه بكل شيء ؟ »

هذا الكلام و ان كان سياقه الحياة بعد الممات يفيد رأي ياجنّا والكيا في نظرية المعرفة كذلك . فهو يقول بما ان الادراك والسمع والتفكير وغيرها تحدث حين كأن الغيرَ موجود ، لذلك اذا غاب هذا الغير أصبح عمل الادراك والسمع والتفكير غير ممكن . وعليه ففلسفته تقتضي معمول كأن أي الثنائية المثالية أو الخيالية لتصبح الاعمال النفسية مثل الادراك والتفكير ممكنة . ولكن التجربة تبين لنا ان هذا الغير أو معمول كأن غير حقيقي . لذلك للعمل في منطقة نظرية المعرفة يجب أن تكون الثنائية المعروضة معمول كأن وليست بحقيقية مطلقاً . فهي كأن الثاني وضع بازاء الاول . وهذا الثاني أو العين عديم الوجود اذا أزيل عن الاول لا يبقى إلاَّ الاول أو النفس كذلك يقرر ياجنّا والكيا ان لا يمكن أن يجعل « العالِم » موضوع العلم . ان الذي أعلم ويحيط علمه بكل شيء كيف يمكنه أن يكون معلوماً ؟ وهو أساس نظرية المعرفة عنده

يظهر مما سبق ان ياجنّا والكيا ينكر وجود غير الآتمان ولكننا نراه يعدّله في سلسلة الكلام فيما بعد قائلاً : اننا حين نقول نحن لا نعرف شيئاً آخر فهو يدل اننا نعرفه ومع ذلك لا نعرفه . يقصد به ان فلسفة كأن أو الخيال التي توجه الشك الى الكائنات ذات حقيقة موضوعية للعلم وتجعلها مظهراً بغير الحقيقة يمكن ان يعدل بالاعتراف لها بشيء من الحقيقة لأجل الأغراض المتعلقة بعلم النفس فان أدوات الادراك أي أعضاء الحواس لا تنقطع عن وظائفها . ولكن بما ان الوجود الحقيقي لجميع الأغراض الكونية للآتمان فقط لذلك الحقيقة الخارجية التي نعترف بها يجب ان تكون من نوع معمول كأن أي خيالية

هذا ما ذكر ياجنّا والكيا من فلسفته في ضمن حرف « كأن » (« ايوا » بالسنسكريتية) في بريهد آرنياك اوبانيشاد . ولاوبانيشاد هذا ثلاثة شارحون : شنكرا ، ورامنوج ، ومادهو.

# نباتات الصناعة في مصر

## قديماً وحديثاً

لمحمود مصطفى الدمياطي

كان لكشف أرض اميركا واستراليا وبولينسيا وأفريقية الجنوبية وما والاها من الجزائر ولسهولة العلاقات التجارية بين مختلف بلدان العالم أثر كبير في اتساع نطاق فنّ فلاحة البساتين في مصر. فقد استجلبت انواع كثيرة من الأشجار والشجيرات والاعشاب الغريبة التي لم تكن معروفة عند المصريين القدماء واليونانيين والرومانيين والمسلمين الاوائل. وتمّ تعويدها على مناخ مصر أي «أقلمتها». وقد ساعد موقع مصر الجغرافيّ ودرجة حرارتها على أقلمة أنواع النبات من المناطق الحارّة والمعتدلة وبالأخص ما جلب منها من أميركا الشمالية والجنوبية وافريقية الجنوبية وجزائر موريس ومدغشقر واليابان. وقد فطن الى خطورة تزويد مصر بأنواع النبات النافعة ولاة مصر منذ عهد محمد علي وبالأخص ابراهيم فاسماعيل

فمن النباتات التي استجلبت لأليافها الانواع الأربعة الآتية وهي: —

(١) — ﴿ الأباقة ﴾[1]: نبات عشبيّ من الفصيلة الموزية يبلغ ارتفاعه ثلاثة امتار وينضج للاستغلال بعد ثلاث سنين. وله ألياف دقاق شديدة المتانة يحصل عليها من أغماد أوراقه فيصنع من بعضها حبال وأمراس ومن البعض الآخر نوع من الورق في اميركا وينسج من أدقّها قماش رقيق من أشهره مناديل وأوشحة مانيلا. وقد تستعمل الالياف في التجبيس. ويحصل من كل نبات على رطل واحد من الالياف في السنة وكان الأباقة في بعض حدائق القاهرة بين سنتي ١٨٧٠ — ١٨٨٠

(٢) — ﴿ البتشاق ﴾[2]: نوع عشبيّ سنويّ كبير من جنس الملوخية[3] من الفصيلة

---

(١) معرب عن لغة أهل جزائر الفليبين موطنه الاصلي واسمه العلمي Musa textilis, Nees وبالانجليزية Manilla-hemp Plant. وبالفرنسية Chanvre de Manille

(٢) معرب عن اللغة السنسكريتية واسمه العلمي Corchorus capsularis, L. وبالانجليزية Jute Plant. وبالفرنسية Corète Capsulaire

(٣) هي من أصل يوناني «ملخي» يرسم بالاحرف اللاتينية Malakhe معناها خبازى. قال الخفاجي سمي الملوكية لحرفها العامة وقالت ملوخيا وهي بقل يعمل منه طعام معروف بمصر لكنه في الهند يزرع بالقرب من كلكتا للحصول على الجوت أيضاً كما يزرع البتشاق في البنغال واسمه المعرب عن السنسكريتية «بت» والعلمي Corchorus olitorius, L. وبالانجليزية Jew's Mallow وبالفرنسية Mauve des Juifs.

الزيزفونية يلي القطن شأناً في البلاد الحارّة . قد يبلغ ارتفاعه مترين ونصف . ويزرع بالأخص في الهند في شرق بلاد البنغال ووسطها وله ألياف تسمي « الجوت » [1] يحصل عليها « بتعطين » سوقه في الماء مدة من الزمن . وهي أضعف من ألياف الكتّان والقنّب لكنها برّاقة كالحرير دقاق البنية وقوة غزلها جيدة . تستعمل في صناعة الرياش والأبسطة البخسة الثمن والأكياس والزكايب وخيش حزم البضائع والحبال والورق وغير ذلك .

وأشهر مراكز صناعة الجُوت هي كلكتا في الهند ودَنْدِي في ايرلندة حيث توجد مصانع كبار

ولا يزال البَتْشاق يزرع للتجربة في قسم النبات التابع لوزارة الزراعة

(٣) — ﴿ السَّن ﴾ [2] شجيرة سنوية متفرّعة من الفصيلة القرنية موطنها الأصلي جنوب آسيا وبالأخص الهند قد يبلغ ارتفاعها عشر اقدام . أزهارها صفر تخرج في عساليج . أوراقها فضية طوال حداد الاطراف تغشاها أوبار دقاق حريرية . ويحصل على أليافها « بتعطين » سوقها في الماء مدة من الزمن كالبتشاق . وتستعمل في الهند لصناعة الأكياس والخيش البخس الثمن . وقد تزرع الشجيرة علفاً أخضر للماشية . وكان السَّن في حدائق القاهرة والقناطر الخيرية ولا يزال يزرع قليلاً بقسم النبات

(٤) — ﴿ الرَّامي ﴾ : [3] نبات عشبي من الفصيلة الأنجرية ينبت في الصين والهند الشرقية وهو مصدر ذو شأن لأليافه المتينة الظريفة فتنسج قماشاً أو شباكاً وبالأخص شباك الاضاءة « الرتينات » . تقدر متانتها بثلاث مرات متانة ألياف القنّب . ويحصل عليها من قشرة الأغصان الصغار بتليينها بالماء الحارّ أو البخار ليسهل انتزاع الالياف الرخوة من القشرة وهي لامعة متينة يتوفر فيها بريق الحرير ومتانة الكتّان . وثمن الطن منها قبل النسج يختلف من ٤٠ الى ١٢٠ جنيهاً . ويقدرون غلّة الفدان منها بطنين

ولا يزال الرّامي يزرع للتجربة بقسم النبات .

---

(١) أطلق الامير مصطفى الشهابي في معجمه الذي ظهر حديثاً لفظ «الجوتة» على نبات البتشاق وقال هي معربة عن السنسكريتية . وعندي ان يقتصر في اطلاق لفظ الجوتة على الالياف أما النبات فيبقى له اسمه وهو البتشاق . والجوتة معربة عن « جهوت » بلهجة « اوريسا » في الهند

(٢) معرب عن اللغات السنسكريتية والاردوية والهندية واسمه العلمي Crotalaria juncea, L. وبالانجليزية Sunn Hemp وبالفرنسية Chanvre du Bengale

(٣) معرب عن لغة الملايو واسمه العلمي Boehmeria nivea, Gaud وبالانجليزية China-grass وبالفرنسية Chanvre vert de Chine

# طبيعة المدن الفاضلة

لحسن أنيس

١ — ان الحياة التي عرفت الوجود الطبيعي الذي يتألف في جوهره من نظام دقيق يسير وفق قوانين ضرورية، ثابتة لا تعرف التخلف ، عامة لا تعرف التجزؤ والاختصاص . هي هذه الحياة نفسها التي بدأت تشعر شيئاً فشيئاً « بوجود اجتماعي » تتألف طبيعته من نظام تركيبي عضوي دقيق يسير تبعاً لقوانين اجتماعيـة تماثل القوانين الطبيعية في الضرورة والثبات والصرامة . وتلك القوانين الاجتماعيـة ليست مبادىء يخترعها الذهن ليحل بهـا الطبيعة الاجتماعية حلاً صناعيًّـا ولكنها روابط مكتشفة اكتشافاً من « طبيعة الاشياء الاجتماعية » ذاتها ، ويصدق منتسكيو كل الصدق حين يقول « القوانين هي الروابط الضرورية التي تشتق من طبائع الاشياء »

فمثل الظاهرة الاجتماعية في النشأة والتطور مثلُ الكائن الحيّ يخضع في نشأته وتطوره لنواميس ليس لارادة مهما كانت سلطان عليها أو تدخل في عملها إلاّ في الحدود التي تتيحها هذه القوانين ذاتها ، وهي حدود يسيطر عليها روح التنظيم الاجتماعي العام

٢ — ولما كانت « الجماعة » كوناً متطوراً واعياً وعياً اجتماعيًّـا فهي « تشعر » بنوع من الرضا أو نوع من السخط في كل مقام تبلغه من مقامات التطور ، الذي دفعتها اليه القوانين الاجتماعية ، دفعاً على القسر لا على المشيئة الانسانية . وكان من الطبيعي أن تشعر الجمـاعة بالرضا اذا لاءمتها آثار هذه القوانين حتى يبلغ بها الرضا في كثير من الاحايين ان تنتزع هذه الصفة من نفسها وتخلعها عفواً على القوانين ، فالقدر الذي يمثل القانون في بعض الافهام حسن خيّـر في نظر المشتري اذا حلّ الرخاء بهبوط الاسعار ، وهو شرير قاسٍ في نظر البائع ، والمطر اذا هبط وقت الامحـال فالقدر طيب خيّـر ، واذا هبط بحيث لا تبغيه الارادة الانسانية فهو أحمق أهوج . وليس في الحقيقة على القدر شيء فانما هو القانون الاقتصادي في الحال الاولى والقانون الطبيعي في الاخيرة وليس القانون في ذاته خيراً أو شراً على الحالين

ويعنينه أمر الجماعة حين تحس السخط ، لأن آثار القانون لم تلائمها . أو لأن القـدرة الحركية التي يستطيعها الجسم الاجتماعي لا تتناسب مع مرامي الادراك الجمعي ، بحيث يبدو الواقع الحاضر ناقصاً هزيلاً بالقياس الى المثال الذي تتصوره الجماعة وتريد أن تبلغه ، فتعوزها

الاداة وظروف الواقع فني هذه الحال ومثلها التي تحس فيها الجماعة بحاجة روحية دافعة الى التغيير والاستحالة يهتز كيان الجماعة هزاً عنيفاً وقد يكون التعبير هو التنفيس الوحيد في هذا الطور ، فتهيئ الجماعة لذلك قلباً عبقريـاً تطلق على لسانه مشاعر الوعي العام فيصقلها صورة كاملة للحياة المأمولة الغائبة : المفقودة أو الموعودة التي يدركها الذهن وتقصر بواعث الوجود عن وضعها موضع العمل والتنفيذ — هذه الصورة هي المدينة الفاضلة ، وهي بذاتهـا دلالة أكيدة على موقف من مواقف الذهن يومىء الى حقيقتين خطيرتين هما : —

اولاً . الشعور بفساد المجتمع القائم.. ثانياً — والحاجة الى بناء مجتمع مأمول

٣ — فهي نموذج كامل للنظام المرجو لحيـاة اجتماعية بأسرها ، وهي سيرة خالية من البأساء والخطايا ، خالية من المرض والفقر والجهالة يسودها الحب والعدالة ، الثروة موزعة بين أهلها توزيعاً حسناً بحيث يجد كل مواطن حاجته بين يديه ، ولغة هذه الجماعة لغة فصحى لا تعرف التعدد ولا تعرف اللهجات ، والمواطنون الفاضلون بعيدون كل البعد عن الشقاق الديني لان الحرية الدينية مكفولة بل ان الشعور الديني موحد لا يتشقق فيحث الخلاف ويثير الفتنة . ومن بعض حسنات هذه الجماعة انها لا تشعر البتة بالشقاق العائلي لان الزوج عاقل فاضل والزوجة عاقلة فاضلة والاولاد قد تنشأوا على الحب والحرية والفضيلة . ذلك اذا اعترفت الجماعة بنظام عائلي. اما اذا كانت شيوعية مطلقة فلا شقاق أيضاً . فالحكمة قد حمت الذكر والانثى من هذا اللجج والشحناء والمدينة تفيض كلها بالحكمة والقوة والثراء ، يرف على حواشيها الضياء المأنوس من الحق والخير والجمال الذي يرعاه دستور مثالي تقوم على تنفيذه حكومة مثالية صالحة على رأسها حاكم حكيم : فيلسوف في بعض المدن أو انسان من طبيعة فذة ليس لها مثال بين عامة المحكومين ، مزود بملكات اضافية زائدة تكاد ترفعهُ الى درجة نبي كما هو الحال في مجتمع الفارابي فالمدينة الفاضلة نموذج لحياة اجتماعية سامية متينة البناء تؤدي وظائفها في حدود الكمال المنشود ، بل ان الآلة الاجتماعية هنا آلة مثالية لا ينالها العطب ولا تبطىء في تحقيق رغبات المجتمع بوجه عام

٤ — تلك هي السمات الملحوظة على العموم في المدن الفاضلة من حيث الجوهر والطبيعة وان اختلفت في العرض والشكل فقد يكون فحوى المدينة الفاضلة مضموناً ايجابيـاً منشئاً يرعى تصوير المستقبل ويهمل الواقع وقد يقتصر بعض المدن على تصوير الواقع تصويراً سالباً يكتفي بنقد الحاضر والسكوت عن المستقبل ، ولكنها جميعها تتفق على الاشارة ان جهراً وان خفية ، الى التبرم بالواقع ، ورجاء المستقبل الصالح

وقد تضيق الرقعة التي تنشأ فيها المدينة الفاضلة حتى تصبح في سعة جزيرة صغيرة مثل

الاوسيانا Oceana التي أنشأها جيمس هرنجتون James Harrangton وقد تتسع حتى تشمل ما يضاهي عالمنا كله مثل المجتمع الانساني الذي حلم به الفارابي . ولكن لا ضير من الضيق او الاتساع على الجوهر في الحالين

بل قد تنشأ المدينة في الجو اليوناني الوثني ، او العصر المتوسط المسيحي أو في الوسط الاسلامي أو في العصر الصناعي ، فتصطبغ المدينة بصبغة الوسط الاجتماعي الخاص ، ولكن اختلاف الالوان والاصباغ لاينال من الطبيعة الاساسية التي تكوّن المشترك العام بين جميع المدن

كذلك نلحظ اختلافاً من هذا القبيل في طرق الحل او الحلول التي تعرضها هذه المدن بأن يكون المحور الاجتماعي الذي تدور عليه بقية دعاوى الاصلاح هو « العدالة » التي يهدي اليها الرشد الفلسفي كما هي الحال في « الجمهورية » او ان تكون « الشيوعية المطلقة » مثلاً هي الفكرة السيدة التي تخدمها بقية الافكار مثل ما في مدينة الشمس Civitas Solis التي ابتدع بناءها المفكر الايطالي كمبانلا ، ومثل فكرة « الحب » التي تترأس التنظيم والاصلاح في أرض سالانت Salente التي خالها فينلون ، وقد يكون الحل مرتبطاً بتوزيع الثروة العقارية » كما دعاه الى ذلك صاحب الاوسيانا Oceana والى غير ذلك من اختلاف في طرق الحل والحلول المعروضة ، التي جاءت تبعاً للخلاف بين الحاجات الروحية للجماعات المختلفة في كل زمان ومكان . ولكن اختلاف طرق الحل وتعدد الحلول لا يغير من طبيعة المسألة العامة شيئاً

٥ — فما هي هذه الطبيعة ؟ أقصد طبيعة البناء الفكري التي تقوم عليها الوحدة المشتركة بين هذه الأنظار جميعاً . مهما اختلفت أشكال المدن وتعددت ألوانها ، بل مهما تباينت مناهج الحل وكثرت الحلول المفروضة واذاً في الاستطاعة تصور الاجابة من المفاهيم التي تضمنتها الفقرات السابقة ، ومن الممكن القول أيضاً ان طبيعة هذا الفكر هي الطبيعة التأليفية التركيبية التي يتركز فيها النظر « فيما ينبغي أن يكون » ويهمل « ما هو كائن » فهي ارادة اصلاح وعمل وتنفيذ تغذيها روافد روحية محررة لا تعرف الشعور بالواقع ولا تحسب حساباً لظروف الحياة وارادة الانسان الحقيقية واقتدار الجماعة على الفعل . وهي زيادة على ذلك تجهل « الطبيعة الاجتماعية » وما تخضع لها من قوانين في وضع هذه القوانين الذي مكنّا له في الفقرة الاولى

٦ — من ثمّ فشلت المدن الفاضلة حيثما أريد تحقيقها جملة في هذا الكوكب ، وشعر بعض أصحابها بهذا الفشل . وكان من لوازم هذا الشعور لون من ألوان التحول الفكري ، فبرم

أفلاطون « بالجمهورية » وعدّل من أنظاره ، بما يلائم النظر العقلي الذي يشعر بالواقع الاجتماعي شعوراً حقيقيـاً وكان أن دوّن « النواميس » وكذلك تحوّل الفيلسوف العربي عن فكرة المجتمع الانساني الاسلامي العام الى مدينة ضيقة فاضلة . وعلى كل حال فهـذا التحول لم يكن يكفي ليلائم بين طبيعة النظام في هذه المنشآت الجديدة ، وبين القوانين التي تسير وفقها بالضرورة طبيعة الوجود الاجتماعي . ولهذا تحتم عليها الفشل هي الاخرى ذلك بأنها كسابقتها ليست ملائمة للقوانين الاجتماعية الضرورية ، ولـكنها مبنية على مبادىء ذهنية مفارقة فرضت على الواقع فرضاً صناعيـاً فامتنع تحقيق هذه المدن في المكان وان كانت قد تحققت تحققاً كاملاً في الاذهان

والحق ان توماس مور كان ملهماً حين وسم مدينته الفاضلة باسم اليوتوبيا Utopia لاول مرة في تاريخ أسماء هذه المدن . ومعنى اليوتوبيا الحرفي انها التي لا توجد في أي مكان وتابعه في ذلك وليم موريس لجاءنا بأخبار النوهوير Nowhere وقلب ترتيب أحرفها أخيراً S. Butler فأطلق عليها اسم إروون Erehwon وهي بحق التي لا توجد في أي مكان لانها لم ترع بالنظر الواقعي ذلك المـكان

٧ — ومن حق علم الاجتماع البحت ان يأخذ عليها انها أغفلت « ما هو كائن » و « ابتغت ما يكون » فخدعت بذلك في « موضوع العلم الحقيقي وشروطه » . وخدعت على الاثر في « المنهج الخاص » المتبوع وفقدت اذاً شرط العلم البحت الذي يقف من الظواهر عند الوصف والشرح والتأويل ابتغاء « كشف القانون » . ولـكن هـذه النظرة على حقيقتهـا وصحتها التامة ، لا تعدو النظر الى الوجود من جانب واحد

٨ — على كل حال فان هي هزلت قيمتها في ميزان العلم المحض فهي بنفسها ميزان للخير والشر بما تقدمه من مثل مطلقة توزن بها المجتمعات الانسانية كما يقول جورج سورل حين يعوزنا الميزان والتقويم

٩ — وهي بعد في النظر الانساني العام منشأة ذهنية تضرّمت فيها آلام وأحلام ، وانطوت على ممكنات أذنت بتعديل النظر في حقوق الشعوب والجماعات ، وأعانت على ايقاظ الوعي الجمعي فنصبت وازعاً حاضراً قائماً في النواظر والاعيان

فان كان القانون صلب لا يلين تحت ضغوط الرغبات الانسانية فالمدينة الفاضلة معنى حي يتوسع بما فيه من مرونة الاحلام والاوهام — وما أعز هذه الاحلام وهذه الآمال حين تضطرب الجماعات وتتخبط من الفوضى والشرور . وما أحوج هذه الجماعات في لحظات الحرج والضيق الى مؤنس يقصّ سيرة الحياة الفاضلة الخيالية، ويرسم صورتها بخطوط واضحة .

على هامش مشروع بيفردج

# تطور الخدمة

## الاجتماعية في بريطانيا العظمى

لفؤاد محمد شبل

### ١ — قانون مكافحة الفقر

بدت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر أعراض التحول في الاقتصاد البريطاني وهو تحول يرجع الى التغييرات الاقتصادية العميقة التي أخذت سبيلها في هذا القرن وأهمها تسييج أراضي رعي الأغنام وتقدم الصناعة والتجارة في المدن مما استتبع هجرة العمال الزراعيين ونزوح من لا يملكون ارضاً التماساً للرزق فيها

وهكذا برزت مشاكل اجتماعية لم يكن في وسع نظم القرون الوسطى ايجاد العلاج لها . وخاصها بالذكر تعذر ايجاد هذا العدد العظيم من الرجال الذين اندفعوا من القرى الى المدن من المبالغ المخصصة للمساعدة العامة عند طوائف الانتاج Guilds وهذا ما دعا الحكومة الى التدخل لايجاد حل لهذه المشكلة وأسفرت التجارب التي اجرتها الهيئات الاقليمية عن نظام لمساعدة الفقراء صدر به قانون في اواخر عصر الملكة اليزابيث عرف بقانون مكافحة الفقر The Poor Law وتأيد بقانون آخر صدر في ١٦٠١ ، وقد تعدلت التفاصيل الادارية لقانون مكافحة الفقر منذ ذلك الحين تعديلاً دقيقاً وان ظل محور السياسة الانكليزية الاجتماعية

ولبث قانون مكافحة الفقر الاداة الاجتماعية الوحيدة في انكلترا وويلز طوال مائتي عام وقد ضم بين ثناياه كثيراً من صور الخير الاجتماعي التي غدت في العصور الحديثة تدرج في مشاريع مستقلة . وكانت المعونة تسدى للمريض والمقعد والى الأرامل والمسنين الذين ليست لهم عائلات . وتدبر الأعمال للاشخاص المتعطلين مع قدرتهم على العمل . فان لم يتيسر تدبير العمل خصصت لهم اعانة الى ان يتيسر ايجاد العمل لهم . وكانت فئات الاعانات تتغير بتغير الأقاليم

وفي سنة ١٨٣٤ تعدل قانون مكافحة الفقر تعديلاً عظيماً لاصلاح الاخطاء والمساوىء التي حلت بالبلاد اثر الحروب النابوليونية وأخصها بالذكر انتشار التعطل والفقر ، ولقد كانت النتائج الاجتماعية لهذا الاصلاح بعيدة المدى

***

## ٢ — المذهب الحر والسياسة الاجتماعيه للدولة

سادت مبادىء المذهب الحر وتسلطت على الافكار طوال الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر . وكان التدخل الحكومي في المسائل الاقتصادية خاصة مكروهاً عند أصحاب هذا المذهب . بيد انه رغماً عن تغلغل آراء المذهب الحر في العقلية الاقتصادية والاجتماعية البريطانية . فقد أخذت الدولة على عاتقها اعانة التعليم الاولي في عام ١٨٢٣ وتقرر تشريع حماية مصالح العمال في المصانع والمناجم والمحاجر وبذلك اختفى — تدريجيًا — كثير من المساوىء التي ظهرت ابان النهضة الصناعية بالبلاد . وعمدت المجالس البلدية الى انشاء المستشفيات والمتنزهات والمكاتب الصحية العامة وحمامات السباحة وقد تمت هذه الأعمال رغماً عن اعتراض كثيرين ممن كانوا يؤمنون بأن تدخل الدولة في اعانة رعاياها — اللهمّ الاّ عن طريق قانون مكافحة الفقر — يوجب استقلال الفرد ويجرده من فضيلة الاعتماد على النفس ويسلبه غريزة المصلحة الخاصة ، أساس التقدم الاقتصادي للجماعة . ويرد تماسك بنيان النظام الاجتماعي والاقتصاد البريطاني خاصة الى التقدم الاقتصادي والمالي العظيم الذي تمتعت به بريطانيا العظمى في الثلث الاخير من القرن التاسع عشر والى نفوذها الصناعي والتجاري فضلاً عن اتساع مجال الهجرة لابنائها سواء في المستعمرات أو في غيرها من أراضي العالم الجديد . فكان التقدم الاقتصادي والهجرة اذاً في منزلة صمام الأمن وكان طبيعيًّا ان تتسلط مبادىء الاقتصاد الحر على التفكير الاقتصادي والاجتماعي طوال العصر الفيكتوري . على انه في أواخر هذا القرن ، بدأت هذه المبادىء تتداعى تحت ضغط القوى والآراء الفلسفية الجديدة وقد زعزعت الأزمات الصناعية الكبيرة التي عصفت بالاقتصاد البريطاني بين عامي ١٨٨٠ — ١٨٩٠ عقيدة المؤمنين بالتقدم الاقتصادي كعلاج للمساوىء الاجتماعية للعصر . فكان ان هبّ كثير من العمال يطالبون مزيداً من رعاية البرلمان كما نهض الدعاة والباحثون وبذلوا جهداً جبّاراً في تأييد قضية الاصلاح الاجتماعي . ومن ثمّ أصبحت القضايا الاجتماعية التقليدية موضع نقد وتمحيص على ضوء التطور الاقتصادي والاجتماعي للبلاد . وباتت مشكلات المتعطلين والمسنين والمرضى وما اليها من المسائل تدرس

على أساس التحليل العلمي . وعلى ضوء المعلومات الاجتماعية (وقوامها الاحصاء) التي جمعها الباحثون بالدرس والاستقصاء . وهكذا تقررت أخيراً مسئولية الدولة على علاج مشكلة الفقر ومساوئها

وفي سنة ١٨٩٧ تمكنت وزارة جوزيف تشمبرلن من اقرار قانون التعويض عن اصابات العمل وفي عام ١٩٠٦ نجحت حكومة الأحرار مؤيدة بثلاثة وخمسين عضواً من العمال في تعديل هذا القانون بجعله عامًّا بعد أن كان قاصراً على عدد محدود من الصناعات الخطرة . وفي عام ١٩٠٨ صدر أول قانون للمعاشات يقضي بصرف معاش كمنحة — لمن بلغوا السبعين من العمر اذا ثبت فقرهم . وفي عام ١٩٠٩ صدر أول قانون بريطاني لتخطيط المدن . وفي السنة التالية — ١٩١٠ — عرض المستر ونستون تشرتشل وكان وقتئذٍ وزيراً للتجارة مشروعاً لتبادل العمال تنظيماً لسوق العمل . وهذا المشروع وضعه المستر وليم بيفردج ، وكان وقتئذٍ موظفاً حكوميًّا . وفي عام ١٩٠١ وضعت وزارة لويد جورج أساساً جديداً للسياسة الاجتماعية لتقريرها مشروعين هامين للتأمين المشترك ضد ضعف الصحة والتعطل على التوالي . وقد أتاح القسم الاول من قانون التأمين الاهلي الذي طبق في يوليه ١٩١٢ المساعدة النقدية في حالات المرض والولادة والعجز والخدمة الطبية للشخص المؤمن عليه، وقد شمل المشروع جميع السكان تقريباً الذين تتفاوت أعمارهم بين ٦٠ و٧٠ سنة والذين يؤدون أعمالاً يدوية أو غيرهم اذا قلّ دخلهم عن ١٦٠ جنيهاً سنويًّا (ثم رفع هذا النصاب الى ٢٥٠ جنيهاً في عام ١٩١٩ والى ٤٢٠ جنيهاً في عام ١٩٤٢ وبذلك زاد عدد المنتفعين به من المشتغلين بالاعمال غير اليدوية ) وقد يسر القسم الثاني من قانون ١٩١١ تأميناً محدوداً ضد التعطل في بعض الصناعات الرفيعة وهي التي تتصف بعدم استقرار العمل فيها . وقد شمل المشروع في البداية ½ ٢ مليون عامل . وفي عام ١٩١٦ وسع نطاقه حتى يضم ½ ١ مليون عامل آخرين . وفي عام ١٩٢٠ صدر قانون بالتأمين ضد التعطل ألغى نسب القانون القديمة وشمل ١١ مليون عامل . وفي عام ١٩٣٨ غدا عدد المستفيدين منه ١٥ مليون عامل

***

## ٣— الاصلاح الاجتماعي بعد الحرب الماضية

في خلال عام ١٩١٦ أنشئت ادارة عامة للعلاج والوقاية من الأمراض الجنسية وتم في عام ١٩١٨ تعديل واسع النطاق لاصلاح شؤون التعليم . وبعد ان وضعت الحرب اوزارها ساهمت حكومات المحافظين والائتلاف والعمال في النهوض بالشؤون الاجتماعية . فامتد نطاق العناية

بمسائل الاطفال والولادة وتقدمت وسائل رعاية العميان . وفي عام ١٩٢٥ قدم المستر تشرتشل وكان وزيراً للمالية المشروع القومي الاول للمعاشات مع اشتراك المستفيدين في الدفع وهم الارامل واليتامى والمسنين. وفي عام ١٩٢٩ وسعت حكومة العمال الثانية مدى هذا المشروع . وفي عام ١٩٣٧ نشرت الحكومة القومية مزايا التأمين الاختياري بين الأشخاص ذوي الدخول الصغيرة الذين يشملهم التأمين الاجباري بيد انهُ كان ثمة مشكلتان حجبتا جميع المشاكل الأخرى طوال فترة ما بين الحربين ، وهما السكن واعانة المتعطلين

فقد خلفت الثورة الصناعية ، مشكلات اجتماعية خطيرة تتمثل في رداءة مسكن العمال واكتظاظها بساكنيها فضلاً عن قذارتها، وهذه مسائل لم يعن بها كثيراً التشريع الاجتماعي قبل عام ١٩١٤ وضاعف حدتها توقف شركات البناء طوال سني الحرب العالمية الاولى . فلما وضعت الحرب أوزارها صدرت مجموعة من قوانين السكن ، ويسرت اكتتابات الجمهور انشاء مساكن صحية رخيصة للعمال . فبني أكثر من أربعة ملايين ونصف مليون منزل جديد معظمها من الأنموذج الذي تتطلبه طبقة العائلات العاملة . كما هدمت مئات الالوف من المنازل الحقيرة . وهكذا بات أكثر من ثلث سكان بريطانيا العظمى يسكنون منازل جديدة في غضون عشرين عاماً . والواقع ان حركة بناء المنازل كانت خير ثمرة للسياسة الاجتماعية البريطانية خلال فترة ما بين الحربين

ثارت مشكلة المتعطلين عقب الحرب الماضية واشتدت حدتها حتى غدت مسألة قومية لها خطرها وأثرها في حياة البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية . ومن ثمّ تطلبت الحال الأخذ ببضعة اجراءات حاسمة لمجابهتها منها ما يتعلق بالاستثمار ، والتحول الصناعي ، ومنها ما يختص بوسائل تدريب العمال . بيد ان هذه الاجراءات عجزت عن ان تحل المشكلة وتجتث أصولها لجسامتها . فاتخذت الحكومة الخطوات القمينة بالمحافظة على مستوى معيشة المتعطلين عند مستوى مقبول من غير الاستعانة بقانون مكافحة الفقر . وفي عام ١٩٢٠ اتسع أفق التأمين ضد التعطل ، فوسع ثلثي الطبقة العاملة من السكان . وفي عام ١٩٣٤ انشئت مصلحة جديدة لمساعدة العمال الذين لا ينتفعون بالتأمين ضد التعطل . وفي عام ١٩٣٦ صدر قانون تأمين العمال الزراعيين ضد التعطل

ولعل خير ما نزجيه ايضاحاً للتطور الاجتماعي البريطاني واتساع نطاقه دراسة تكاليف الخدمة الاجتماعية في خلال المدة من ١٩٠١ الى نشوب الحرب الحاضرة . ففي عام ١٩٠١ أنفق اربعة ملايين جنيه لتعويض العمال وإعانة الفقراء . وفي عام ١٩١٤ — ١٩١٥ اضيفت

اليها معاشات المنحة non-Contributory Pensions (وهي التي تمنح للافراد دون ان يكونوا قد ساهموا في دفع اقساط اشتراك فيها) والتأمين الصحي ، والتأمين ضد التعطل ، فزادت النفقات الى خمسة وعشرين مليون جنيه واتسع نطاق المشاريع الاجتماعية. غدا المبلغ المنفق الى ١١١ مليون جنيه في عام ١٩٢١ — ١٩٢٢ . واخيراً وصلت المبالغ التي صرفت نقداً على ذمة المساعدة الاجتماعية الى ٢٣٦ مليون جنيه عام ١٩٣٨—١٩٣٩ ولقد اشتملت ميزانية ١٩٣٨—١٩٣٩ على مبلغ ٥٠٠ مليون جنيه للخدمات الاجتماعية بأنواعها وبالحري يصيب كل ساكن ما قيمتهُ عشرة جنيهات من مجموع المبالغ المخصصة من خدمات اجتماعية أو أن أكثر من عشر الدخل القومي للامة ينفق على رفع مستوى احوالها الاجتماعية

***

## ٤ — الحروب الحاضرة وتطور الخدمة الاجتماعية

تعدلت أساليب الخدمة الاجتماعية البريطانية في خلال الصراع العالمي الحاضر. فان اصابة المدن البريطانية بالقنابل وترحيل الأطفال وتدمير المنشآت الخاصة قد ألقت على كاهل الادارات المعنية بالمسائل الاجتماعية والجمعيات الخيرية العديدة أعباءً جديدة جسيمة . كما انهُ في مارس سنة ١٩٤٠ انتفع النساء المؤمن عليهنَّ وزوجات الرجال المؤمن عليهم بمعاشات الشيخوخة ومنحت معاشات اضافية لأرباب المعاشات من المسنين الذين يحتاجون الى مزيد من المساعدة

ونتيجة لهذه التغييرات أدخلت ٣٠٠ الف سيدة في محيط أرباب المعاشات . وثمة نيف ومليون مسن يتلقون معاشات اضافية في الوقت الحاضر

بيد انهُ رغماً عن تشعب وسائل الخدمة الاجتماعية وامتداد آثارها الى كافة النواحي الاجتماعية للبلاد فانها غدت مقصرة عن مواجهة تطورات هذا العصر الاجتماعية واتجاهاته الاقتصادية . فان ادارة التأمين الاجتماعي وما يلازمه من خدمات كما هي الآن على حد قول سير وليم بيفردج — تتولاها جملة ادارات متباينة تنتهج مبادىء مختلفة . وهي تسدي خدمات لها قيمتها ولكن هذا يكلفها مالاً وجهداً فضلاً عن وجود كثير من وجوه النقص التي تستدعي العلاج« الأمر الذي حدا الى تأليف لجنة بيفردج في يونيه ١٩٤١ لتقصي أسباب النقص الاجتماعي في بريطانيا العظمى على ضوء التطور الاجتماعي والاقتصادي العالمي بصفة عامة والبريطاني بصفة خاصة » وهذا هو موضع بحثنا التالي ان شاءَ الله



# باب المراسلة والمناظرة

## البديهيات

### والهندسات غير الاقليدسية

قرأت ما كتبهُ حضرة الاستاذ خليل سالم في مقتطف نوفمبر الاخير ردًّا على مقالي في العدد الاسبق من المقتطف بشأن هندسة اقليدس . فأرجو منه ان يتدبر جيداً ما كتبتهُ سابقاً وما اقتبسهُ من كتابي النسبية لظنهِ ان هـذا مناقض لذلك . فاذا أنعم النظر جيداً في الجانبين لا يجد تناقضاً

لم أجحد الهندسات غير الاقليدسية ولا انتقدتهـا . وانما عنيت ان هذه الهندسات المتأخرة لا تنقض هندسة اقليدس ( الهندسة المنسوبة الى أقليدس سواء كانت له او سبقه غيره اليهـا ) وانما هي نموٌّ لهـا ، كما ان جاذبية اينشتين ( التي علل بها ادينغتون تمـدد الكون ) لا تنقض جاذبية نيوتن بل هي نموٌّ لها كما قال اينشتين بنصه :

« كل ما جاءَ بعد نيوتن من النظريات الطبيعية لم يكن الاَّ نموًّا طبيعيًّا لنظرياته » . يعني لم ينقضها . وكذلك كل ما جاء من ضروب الهندسات بعد اقليدس كان ارتقاء في الهندسة على كتفي هندسة اقليدس . فهل في الهندسات الاخيرة ما ينقض هندسة اقليدس ، اللهمَّ في عالم الخطوط والسطوح المستقيمة لا في عالم المتحدبات المتحركة في الزمان والمكان — العالم الذي استنبطت له هندسة ريمان وزملائهِ

***

لا اعني ان يكون اقليدس سيد الفكر الحديث — كفى ان يكون سيد فكر عصره — بل اعني ان لا يضرب بهندسته عرض الحائط . وهي الاساس واليها المرجع . واذا لم يمر طالب الرياضيات بها فلا يصل الى الرياضيات العليا التي نمت على غصنها . نخاف ان الافراط في غمط فضل الهندسة الاقليدسية يفضي اخيراً الى اهمالها فتتقوض اركان الهندسة برمتها ويغض الطلاب عن درستها بالعناية اللازمة

البديهيات

بقيت لي كلمة في منشإ البديهيات استأذن القرّاء والاستاذ خليل سالم في قولها لئلاّ يحتج على ما قلت فيها في المقال السابق

ليست البديهية نبضةً داخلية في عقولنا بل هي معرفة ككل معرفة تطرأ على عقلنا من الخارج يصدرها انفعال دماغي من فاعل خارجي . هي ارتكاز فكرة في العقل من جراء تكرار ملاحظته امراً واحداً منذ شرع، أي العقل، يتكوّن في الطفولة

سقوط التفاحة من الشجرة الى الارض وعدم اندفاعها الى فوق هو بديهية عند كل انسان . ولكنه لم يكن كذلك عند نيوتن . بل أعمل نيوتن فكره في سبب سقوطها الى أن توصل الى قانون الجاذبية

وكذلك اذا سألت أي عاميٍّ ساذج لماذا ينحدر الماء من الجبل الى البحر استهجنك لهذا السؤال . وقال لك هذا أمرٌ طبيعي ، أي بديهي

واذا سألته لماذا تشرق الشمس من الشرق لا من الغرب استغرب سؤالك . وقال لك هذا شيء طبيعي . ولكن المثقف يقدم لك سبباً لهُ

وهناك ألوف من البديهيات عند الناس لأنها رسخت في أذهانهم كأوليات منذ الصغر لتكرارها . فأبده البديهيات عند الناس هي معلومات اكتسبوها بتكرار الملاحظة حتى ان كثيراً منها صارت كأنها خلقتْ فيهم أو كجزء من عقليتهم . ولذلك اذا طلبت برهاناً عليها يتحيرون كيف يبرهنون لشدة وضوحها في أذهانهم . وأصعب شيء على العقل ايضاح الواضح

***

وهناك أوليات بديهيــة ليست إلاّ تعريفات . فقولك الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين، يعني ان الناس اصطلحوا على تسمية أقرب مسافة بين نقطتين بالخط المستقيم . فالجملتان: المعرّف والتعريف ردفان لمعنى واحد

وقولك اذا كانت كمية واحدة تساوي كلاًّ من كميتين فالكميتان متساويتان ، انما هو تحصيل حاصل . وهكذا قولهم في معرض التأكيد : اثنان واثنان اربعة فهو كعد العددين ( ٢ و ٢ ) واحد اثنين ثلاثة أربعة هكذا ٢ ٢ و ٣ ٤

وكذلك سموا الخطين اللذين في سطح واحد لا يلتقيان خطين متوازيين . فهو تحصيل حاصل أيضاً . والنكتة في اختلاف التعبير

وزبدة الكلام ان البديهيات مهما كانت فانما هي مكررات اختبارنا وليست خلقة فينا . وانما صارت كأنها هكذا من طول الملاحظة ومهما كانت البديهيات بسيطة أو تحصيل حاصل فيمكن تفسيرها . والتفسير يُعتبر كأنه برهان لها

واذا كان جميع الناس اختبروا أمراً واحداً اختباراً واحداً حقَّ لهم أن يقولوا هذا أمرٌ بديهي . هذا أمر طبيعي . ولكن لا يتحتم أن يكون يقينهم هذا صواباً فقد تطرأ عليه ملاحظة جديدة تنقضه كما كانت عقيدة دوران الشمس حول الارض بديهية عند الاقدمين فنقضتها بعد ذلك ملاحظات العبقريين المتأخرين وامتحاناتهم

— وهنا همسة بيني وبين الاستاذ خليل : — حبذا ان لا تستشهد يا صاحبي بأقوال هويتهد على الرغم من احترامي لهذا الفيلسوف ، لانهُ معروف عنهُ انهُ يكتب ما لا يفهم . وهو نفسه يقول إن الموضوع الذي يفهم بسهولة ليس بموضوع ذي شأن لان الفكر السامي هو ما لا يفهم الاّ بتفكير عميق . اقرأ ما كتبه عنه الفيلسوف جود Joad في كتابه «المرشد الى الفلسفة» فما تورع هذا ان يقرع به . وحبذا الحال لو كنت تشرح لنا ماذا يريد من قوله : « ان البديهيات شروط هندسية » نقولا الحداد

---

# معجم الالفاظ الزراعية

بالفرنسية والعربية

للامير مصطفى الشهابي

---

ذكر الأمير مصطفى الشهابي في مقدمة معجمه النفيس انهُ يرجو من العلماء القادرين على تمييز بعض الاصطلاحات العلمية عن بعضٍ أن يدلوه على الهفوات التي يعثرون عليها . واذا كان لديهم اصطلاحات ترجح التي وضعها او حققها يكون أول من يقتبسها في الطبعة التالية. وتلك الروح العلمية المتواضعة البعيدة عن الادعاء جرأتني أن أذكر بعض ملاحظات عنّت لي في أثناء مطالعتي لهذا المعجم . فاذا فسح سعادة الأمير صدره لي فانه يسعدني ان أكتب اليه فيما بعد كتباً خاصة اذا شاء . واليوم اكتفي بنشر قدر يسير من ملاحظاتي وهي :

(١) قال في ص ١٧ مادة acajou ( تطلق الكلمة الفرنسية خاصة على البلاذر anacardier وعلى الآبنوس Swietenia Mahagoni ) والذي أعرفه ان آبنوس هو بالفرنسية

bois noir و ébène أي الخشب أما شجره فاسمه ébènier وفي لغة العلم Diospyros Ebenum كما ذكر سعادته ذلك صواباً في ص ٢٣٣ . أما Swietenia Mahagoni فليست الآبنوس ولكنها شجر الماهوغنة وهو اسم اميركي أصلي لهذا النوع من الشجر . وكلمة Swietenia هي نسبة الى العالم Gerard Van Swieten النباتي الذي عاش بين سنتي ١٧٠٠ — ١٧٧٢

(٢) ذكر في ص ١٥١ مادة chauve-souris ان مقابلها العربي خفاش . طير الليل . وأضيف أن عرب الجزائر يسمونه «بوجليدة» وكان الاولى لسعادة الأمير ان يشير الى هذا ما دام معجمه القيم قد وضع للناطقين بالضاد في البلاد العربية كما صنع في مادة Citrus Medica

(٣) ذكر في ص ٢٥٩ مادة étang ما يقابلها بالعربية وهو حوض وبركة . وأنا معتقد ان ما ذكره سعادة الأمير لا على سبيل الحصر ولكني أرى ان كلمة مأجل على قلة شيوعها أولى بالذكر في مثل هذا المقام فقد وردت في كتب اللغة بمعنى الحوض الواسع يجمع فيه الماء وجمعها مآجل

(٤) ذكر في ص ٢٣٨ مادة écurie مقابلها العربي اصطبل واسطبل — وحبذا لو ذكر ان اصلها باليونانية stavleon [1] لبيان انها ليست عربية الأصل وقد ردّ سعادته في بعض مواضع من المعجم بعض الالفاظ المعربة الى اصولها الأجنبية كما صنع في مادة Aconitum

(٥) جاءَ في ص ١٢٦ مادة Camomille ان مقابلها العربي بابونج فقط على حين انهُ في كتب اللغة يسمى ايضاً القحوان والاقحوان ويعرف عند قدماء العرب بخاميلون كما ذكر ذلك معجم البستان . وخاماميلون كما ذكر الدكتور احمد عيسى بك في معجمهِ . ومن اسمائه ايضاً القرّاص وواحدته قرّاصة . والعوام يقولون القرّيص كجمّيز . والبابونج معرّب « بابونه » عن الفارسية .

وجاءَ في لسان العرب قوله : الاقحوان هو القرّاص عند العرب وهو البابونه والبابونك عند الفرس . هذا ولا يفوتني أن أشيد بفضل الامير الجليل في وضع هذا المعجم النافع الذي استنفد سنين عديدة والذي هو اول معجم من نوعه في اللغة العربية للالفاظ الزراعية نفع الله بالأمير العلم والعلماء في الأقطار العربية

محمود مصطفى الدمياطي

(١) اضطررنا لاستعمال الحروف اللاتينية بدلا من اليونانية لتعذر وجودها في المطابع

# باب الأخبار العلمية

## المعادن العجيبة

### الفيتاليوم والاسنان الصناعية

لقد كان للابحاث الكيميائية الدقيقة الفضل في أن توجه الأنظار الى « معادن خاصة » كانت منذ سنوات تعدُّ نادرة الوجود أما الآن فقد أصبحت لا غنى لأحد عنها ، فعشرات منها تجد مكانها في الصناعة ، وبعضها تسمو قيمتها عالياً فتتوارى خلف باب عليه أقفال ضربتها ادارة المراقبة العامة

فمثلاً الفيتاليوم ، وهي سبيكة غير متداولة تصنع من معادن كلها معروفة في الصناعة هي الكوبلت والكروم والموليبدينيوم . وان صلابة الفيتاليوم ومقاومته للضغط وقساوته وعدم قابليته للتفاعل كيميائيًّا اذا لامس شرائح الجسم كلها خواصّ جعلتها خير سبيكة لعمل الاسنان الصناعية . . . وهذه الخواص دفعت الجراحين فراحوا يختبرون الفيتاليوم كمعدن لعمل اللوالب والمسامير والجبائر الداخلية لربط العظام المكسورة ولعمل الصفائح لتجبير كسور الجمجمة . ومن قبل كانت سبائك أخر نقية تستعمل في مثل هذه الاغراض منذ الحرب العالمية الاولى ، غير انها كانت تسبب تهيجاً — بعد زمن ما — يستلزم اخراجها ، ولكن الفيتاليوم يمكن أن يبقى في الجسم أبداً

وسبائك الفيتاليوم الصلبة التي تقاوم الاحتكاك تجد سبيلها الى صناعات مختلفة ، وهي الآن تدخل في صناعة آلات الحرب الهامة

### المعادن وصناعة الزجاج

ثم ان مركبات من المعادن النادرة تستعمل الآن في عمل الزجاج ، فمركبات السيلينيوم تدخل في تلوين الزجاج الاحمر والأسود . ومركبات أخرى ركبتها شركة « إيستمان كوداك » لتكون عدسة إبصارية لآلة التصوير تعادل سرعتها في الالتقاط ضعف سرعة أي عدسة ابصارية أخرى استعملها سلاح الطيران من قبل . وهذا الزجاج الجديد عمل من معادن نادرة هي التانتالوم والتنجستن واللانتانوم ومركباتها . وهو لا يحوي رملاً مع ان الرمل كان مادة أساسية في صناعة جميع انواع الزجاج الابصاري وغيره . على ان صناعة ايستمان لهذا النوع النادر من الزجاج أحدثت انقلاباً يعدل ما كان يحدثه اكتشاف صناعة للصلب من غير الاستعانة بالحديد

والعدسات المصنوعة من هذه المعادن

النادرة تجعل المصورين الطيارين قادرين على التقاط الصور في ضوء خافت لا تعوقهم السرعة الفائقة ولا العلو الشامخ ثم لا تفقد العدسة شدة الايضاح ولا قوة التصوير

## البلاتين في الحرب

ولقد اتسعت فوائد البلاتين الصناعية وتشعبت طرق استعماله مما حدا بالحكومات الى تحديد المقادير المنصرفة منه . وان تقدم صناعتي الاطعمة والفيتامينات ، حيث يجب أن تزال كل حالات التحات والتفاعلات ، أتاح للبلاتين وسبائكه فوائد جمة ذات قيمة . ومن أكبر منافع البلاتين في الحرب فائدته الكيميائية كعامل مساعد في تحضير الحامض النيتريك والحامض الكبريتيك ، وهو يستعمل في صناعة مغازل الخيوط الصناعية لأنهُ يقاوم الاحتكاك ، كما انهُ يستعمل في أعمال كيميائية لا حصر لها

## البلاديوم يحل محل البلاتين

أما عمل البلاديوم الرئيسي في أثناء الحرب فهو أن يضطلع — الى حد ما — بما كان يضطلع به البلاتين في الجواهر . وان فائدة البلاديوم الذاتيـة هي في مقاومته الاحتكاك وقابليته للطرق ومشابهته في المظهر للبلاتين لهذا فهو يستطيع ان يحل محله

## الكولمبيوم في تقسية الصلب

هذا وان عنصراً جديداً نافعاً في صناعة الصلب — هو الكولمبيوم — ان أضيف الى الصلب النقي زاد صلابته في درجات الحرارة العالية . وقبل ان يكشف عن هذه الخاصية فيه كانت احدى منافعه الصناعية القليلة انهُ عامل يمنع كربون الصلب من ان يترسب ، واذن فهو يقلل زيادة تآكل الصلب الحبيبي

وانهُ ليبدو أن مقداراً ضئيلاً من الكولمبيوم يستطيع أن يقوم مقام التنجستن والمولبدنيوم في صناعـة صلب الكروم والنيكل ان عز وجودهما

## سبيكة البزموت ومنافعها

اما البزموت فهو كالماء يتمدد عند التجمد على حين أن جل المعادن ينكمش عند التجمد وهذه الخاصية يمكن الانتفاع بها في سبائك البزموت مع الرصاص والكادميوم والقصدير فدرجات انصهارها منخفضة فهي اذن تنصهر في سهولة لتكون سبيكة

وواحدة من هذه السبائك «السيرونيد» تستعمل في ملء آلاف من الاقدام من الأنابيب ذات الفائدة في سلاح الطيران فتستطيع أن تنثني بدون أن تعاني شرخاً أو كسراً أو تحطيماً ، وان أنبوبة تملأها هذه السبيكة تنثني كأنها مصمتة

وخواص سبيكة البزموت التي تساعد على ثني الأنابيب هي :—

(١) أن درجة انصهارها منخفضـة فهي اقل من درجة غليان الماء مما يجعلها سهلة التداول والاستعمال

(٢) أن تمددها اثناء التجمد يجعلها تملأ جميع الفجوات والثغرات التي في الجدار الداخلي للانبوبة ، وهذا التمدد لا يهشم الانابيب الجيدة السبك .

(٣) أن خاصية السيولة المتدفقة تجعلها قابلة ان تنساب من اي ثقب مهما كان صغيراً

(٤) حين ينتهي ثني الانبوبة يمكن ازاحة السبيكة بدون كبير عناء فيكفي غمر الانبوبة بما فيها في ماء يغلي وحين يبرد الماء تؤخذ السبيكة لتستعمل مرة اخرى

وهكذا انتشر استعمال سبيكة البزموت والرصاص والقصدير والكادميوم في عمل كثير من الاجهزة التي تضبط الحرارة لأن نقطة انصهارها منخفضة

## السلينيوم الحساس بالضوء

يكثر عنصرا السلينيوم والتيلير يوم في خامات النحاس ، وهما يخلطان في سبائك النحاس لعمل العوازل الكهربائية . وتستعمل مركبات السلينيوم في عمل المنقيات الكهربائية ثم في صناعة الفخار كمزيلات اللون ، وفي الزجاج لتلوينه باللون الاحمر : وان قوة حساسيته جعلته صالحا لاستعماله أعمدة للتصوير الكهربائي

وان سبيكة من السلينيوم والصلب أحدثت تحسناً كبيراً في خواص الصلب فأخذ ينتشر انتشاراً واسعاً ليكون مادة أساسية في صناعة الآلات . ولقد اكتشفت شركة كاربنتر ستيل حديثاً أنه باضافة السلينيوم الى سبيكة الانقار وفرت حوالي ٧٢ ٪ من الزمن الذي نحتاج اليه في بعض عمليات القطع في حين انه لا يؤثر في منافعها الحرارية التي تجعلها صالحة للاستعمال في الراديو والمنظمات الالكترونية وفي ضابطات الطائرات والترموستات .. الخ

والتيلير يوم زميل السلينيوم يستطيع أن يزيد من صلاحية الصلب في عمل الآلات دون أن يؤثر في قوة مقاومته للاحتكاك . واذا أضيف الى الرصاص زاد من صلابته ومن مقاومته للاحتكاك

وكربيدات التانتالوم والتنجستن والسترونتيوم كلها ذات منزلة عالية في الصناعة ولها شأن هامٌ في عمل الأسنة للآلات القاطعة التي تستعمل في تهيئة آلات الحرب ، والى جانب ذلك فالتانتالوم يسد حاجات جمة لما فيه من قوة مقاومة التحات وقابليته للطرق والثني وجودته لتوصيل الحرارة والكهربائية كل ذلك جعله ذا مقام عظيم في صناعة الراديو وصناعة الملفات البخارية والاسنان الحرارية والمكثفات وغيرها

## البريليوم فلز عجيب

أما البريليوم فلم يعان من الاغضاء ما عاناه غيره من المعادن ، بل انطلق فلزاً عجيباً منذ ولادته لا يكفي المتاح منهُ لحاجات طالبيه وهو يضم مجموعة من الخواص النادرة فهو أثقل من المغنيسيوم بقليل ، وكثافته ٢/٣ كثافة

الالومنيوم، وقابليته للسحب عظيمة وان قليلاً منه يضاف الى بعض المعادن كالنحاس والنيكل ليسبغ عليها خواص ذات قيمة عملية كبيرة ما كانت لتوجد فيها قبل اضافته اليها

واحدى منافعه الجليلة انه يستعمل منافذ تنفذ منها أشعة اكس لانهُ يُنفذها بسهولة أكثر مما يفعل الزجاج العادي في انفاذ الأشعة المرئية . وان أكبر كمية منهُ تستهلك هي التي تضاف الى سبائك النحاس لتجعلهُ صلباً قاسياً يقاوم الضغط والبلى ، فهو للنحاس مثل الكربون للصلب

ولهذا فان سبيكة البريليوم والنحاس تستعمل في صناعة اللوالب والرقوق المعدنية . هذه اللوالب تقاوم فقد المرونة تحت تأثير الضغط الشديد . وتلك خواص دفعت سلاح الطيران وسلاح الاشارة الى أن يعتمدا عليها في كثير من حاجاتهما

وان قليلاً من البريليوم يضاف الى النيكل يكسبه خواص طبيعية تبذ الخواص التي يكتسبها النحاس منه فهو يستعمل في اللوالب التي تقاوم التحات وابر الحقن والآلات الجراحية

## حاجة الانسان الى الاملاح المعدنية

لطالما ذكرت الاملاح المعدنية الموجودة في غذاء الانسان بطريقة ليس فيها الدقة ولا التحديد ، غير أن الماجور زولتون ورتشافتر رئيس قسم الطب المدني والصحة الصناعية في القسم الطبي بالجيش الامريكي أعلن أن غذاء الانسان لا بد أن يحتوي على الفيتامينات مع الكربوايدرات والدهنيات والبروتينات ولكن الماء والأملاح تشغل تحيزاً ضئيلاً فيها . هذا ولو ان الجسم السليم احتاج الى مايقرب من ١٥ نوعاً من العناصر المعدنية ، وقد تكون الحاجة الى كثير منها محدودة بحيث اذا قلت الكمية المتناولة من واحد منها بدت أعراض مرض آخر

وان الحاجة الى هذه المواد المعدنية تختلف بين سن وسن ، فالطفل — قبل أن يولد — تحتوي أليافه على كمية كبيرة من الصوديوم تنقص اذا ولد وتقل كثيراً عند الشاب . ثم ان المواد الاساسية في تكوين العظام — الكلسيوم والفسفور — تكون في الاطفال أقل منها عند الكبار

## اليود

تضخم الغدة الدرقية هو المرض الوحيد الذي لا يصاب بهِ الياباني لأنه يعتمد في غذائه على كثير من حشائش البحر وهي تنضم على كمية كبيرة من اليود ، واليود يحميه من هذا المرض . واذا كانت هذه حسنة من حسنات اليود الطبية ، فهو أيضاً ضروري لوقاية الجسم من كثير من الأمراض وهو أساس في بناء صحة عقلية طيبة

## قوة الصوت

لا ريب ، فنحن نعيش — منذ الحرب الماضية — في بيئة جديدة ، فمنذ انتشار الراديو ومكبرات الصوت ، والخطب العامة والنشرات والموسيقى وما يدور في داخل المسارح والملاعب والمدارس مافتئت الاصوات تتدفق على مسامعنا . على ان أكثر الأصوات ذيوعاً بيننا هو صوت الكلام ، فكم تكون القوة الكامنة في صوت كلام الانسان

فاذا قلنا ان القوة الناجمة من صوت كلام خمسة ملايين شخص اذا اجتمعوا تعادل قوة مصباح كهربائي قوته ٥٠ وات ، أعطينا فكرة غير واضحة عن مقدار ضعف قوة الصوت . فلعلَّ مزماراً قوياً يرسل نغماً قوياً — الى دقائق — يشع ما مقداره وات واحد . وان مكبراً للصوت في ملعب قد يعادل قوة صوت ٥٠٫٠٠٠ متكلم . . . قوة لا تتجاوز ١٠ وات

وان الفم والاذن معاً هما أداة السمع في جسم الانسان ، وهما معاً جهاز ضعيف بالنسبة الى أجهزة المشي والقفز والجري ، لأن الفائض من قوة الصوت العادي يربي كثيراً على ما تحتاج اليه الأذن لتسمع ، فاذا استطعنا أن نجسّم قوة كلمات محادثة عادية ثم نجزّئها أجزاء كل جزء على قدر ما تطيقه الأذن ، إذن لاستطاعت مائة الف مليون اذن أن تسمع . وهذا العدد — طبعاً — يعادل عدد سكان الكرة الارضية خمسين مرة

واذا وجد انسان في نفسه الصبر على أن يتناول طابعاً من طوابع البريد — وهو لا يزن شيئاً — فيقطّعه الى ٥٠٫٠٠٠ قطعة ثم قذفت هذه القطع الصغيرة على طبلة الأذن من مسافة بوصة واحدة وبمعدل ١٠٫٠٠٠ قطعة في الثانية ، لأثرت في الأذن كما لو كانت تسمع مدفعاً رشاشاً . ولو أصبحت قوة الصوت ٠٫٠٠١ من الوات لأصاب الأذن ضرر من شدة ما تعاني من قوة الصوت

وان فرقة كاملة كبيرة تعزف على الناي والبيانو لا تزيد قوة أصواتها على ٧٥ وات ، وهي قوة مصباح كهربائي متوسط . وصفارة كريسلر بل المثبتة على قمة بناء شركة الراديو الاميركية ( ر . ك . ا ) بنيويورك والتي تديرها آلة تدور بالبنزين قوتها ١٤٠ حصاناً هي صفارة تدور بالهواء المضغوط . وهذه الصفارة تستطيع أن ترسل صوتاً يعادل صوت أربعة آلاف مليون صوت رجل وهي تحدث أقوى صوت مستمر أرسلته ، يوماً ما ، آلة صناعية ، فهو يعلو على هزيم الرعد

ولم ترتفع قوة صوت على صوت هذه الصفارة إلاّ انفجار بركان كراكاتوا في المحيط الهندي الشرقي سنة ١٨٨٣ ولقد قيل ان صوت هذا الانفجار سُمع على مسافة ٣٠٠٠ ميل . وهذا صوت أعلى بكثير من صوت

صفارة كريسلر بل لأنهُ قد ثبت ان صوت الصفارة لا يسمع إلاَّ من مسافة ٧٥ ميلاً . فهل يمكن أن يرتفع صوت صفارة أو مكبر صوت ليجتاز المحيط فيسمع من الشاطىء الآخر ؟ لا ريب ، فانهُ سيكون صوتاً مزعجاً .

والجواب الطبيعي على هذا السؤال هو «لا» برغم ان انفجارات المدافع التي من عيار ١٢ بوصة تسمع من الناحية الأخرى عَبْر المانش وان كان أقصى مدى لها هو ١٠٠ ميل

## شلل الاطفال وعلاقته بالطعام

لقد ثبت ان نوع الطعام ومقداره مما يتناوله الاطفال يؤثران في قوة مقاومتهم لمرض شلل الاطفال ، فان تجارب كثيرة أُجريت على جماعة من الفيران فوجد انه اذا قلت مقادير الطعام الذي يتناوله الفأر عن المقدار الذي يحتاج اليهِ ازدادت قوة مقاومته للمرض، وان قوة المقاومة لهذا المرض لتبدو في أوجها اذا حُدِّدت مقادير الطعام مدى ثلاثين يوماً

هذه التجارب التي قادت الى هذه النتيجة ، قام بها جماعة من العلماء هم البروفسور ڤرنر هينل ، والدكتورة كاير فوستر وجيمس جونس وفريدا دورفمان،وجميعهم من مدرسة الطب في بنسلفانيا من أعمال فلادلفيا

وان النقص في فيتامين ب ١ وحده لكفيل بأن يزيد من قوة مقاومة الفيران للنوع الخاص بها من هذا المرض ولقد دعمت هذه الابحاث منح مالية من المؤسسة الأهلية لشلل الأطفال

وما من عالم واحد استطاع أن يقول إن تحديد الطعام يحول بين الأطفال وبين المرض ان تفشى صيفاً

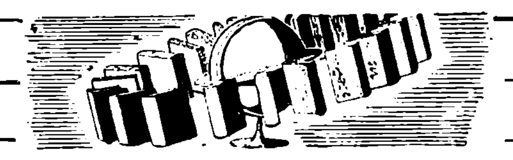
والآن الى أي مدى تنطبق نتائج التجارب التي أجريت على الفيران .. الى أي مدى تنطبق على الانسان ؟ للاجابة عن هذا السؤال ابتدأت سلسلة جديدة من الابحاث تقوم بها المؤسسة الاهلية ، بعضها على القرود لأنها أقرب شبهاً للانسان في تركيبه . على انهُ وجد أن لا الملح ولا فيتامين ب ١ يستطيع أن يقلل من مقاومة الفأر للمرض

***

ولقد ختم الباحثون أبحاثهم بتقرير علمي مشترك جاءَ فيهِ « ان تحديد مقدار الطعام المتناول أو مقدار الكربوايدرات يؤخر من ظهور المرض على الفيران »

واذن يبدو أن الطعام الذي يحوي مقادير كبيرة من السكر والنشا ، وأنواع الطعام التي تولد في الجسم قدراً كبيراً من الحرارة... كل اولئك يشجع ميكروب المرض

وثبت ان الفيران التي قاومت المرض أكثر من غيرها كانت تتناول مدى شهر مقداراً من الطعام يعادل ٤٠ ٪ من طعامها العادي



# مكتبة المقتطف

## مجلة المجمع العلمي العربي لسنة ١٩٤٣

### مراجعة للدكتور بشر فارس

وصلتنا الأعداد الستة لمجلة المجمع العلمي العربي الدمشقي لسنة ١٩٤٣ ( المجلد الثامن عشر ) . فسرّنا اطراد خروج هذه النشرة النشطة الضّامة لأقلام علية أهل العلم والفضل في الشرق العربي عامة وفي عاصمة بني أمية خاصة . ورأينا أن نطلع قراء هـذا الباب من المقتطف على آثار تلك الاقلام مما فيه طرافة أو فائدة أو تحقيق

— الجزء الأول والثاني : للامير مصطفى الشهابي نظرة في مجلة مجمع فؤاد الاول تعقب فيها طائفة من المصطلحات التي وضعها مجمع فؤاد الاول للغة العربيـة وأقرها في الدورات الست الأولى. وفي هذه النظرة مآخذ نراها صائبة . من ذلك أن الامير العالم يريد التفرقة بين المِجْهر والمجهار فيجعل الأول لـكلمة Microscope والثاني لـكلمة Loudspeaker على حين المجمع وضع المجهار للكلمتين الافرنجيتين جميعاً . ومن ذلك انهُ يقول ان كلمة Barometer يجب أن يعبر عنها بمضغط الجو ، لا بالمِضغَط فقط لأن آلات الضغط كثيرة فلا بدّ من التخصيص ، كما قيل مضغط الغاز لـكلمة Manometer

وللشيخ عبد القادر المغربي تصحيحات لـكتاب سيرة احمد بن طولون للبلوي الذي نشره الاستاذ محمد كردعلي في دمشق . وتشف هذه التصحيحات عن دراية وتنبه ، مثال ذلك ماجاء في الكتاب ص ٥٥ س ١٩ : « وكان في قصر ابن طولون مجلس يشرف منه يوم العرض فينفذ منه من يدخل ... » فصحح الشيخ العالم وقال « فينقد منه » أي يديم النظر اليه باختلاس حتى لا يفطن لهُ ( عن « أساس البلاغة » )

ولميخائيل عواد من بغداد مقالة عنوانها « العطلة الاسبوعية في الدولة العباسية »

وخلاصتها أنّ الدواوين كانت تغلق والاعمال تقطع يوم الجمعة منذ صدر الاسلام . فلما جاء المعتضد بالله ( ٢٧٩ — ٢٨٩ ) زاد يوماً آخر هو يوم الثلاثاء وجعله للراحة واللهو والغناء على حين يوم الجمعة كان للصلاة وذكر الله. وكان بعض الظرفاء وأهل البطالة يشاركون اليهود في عطلة يوم السبت فيلهون ويشربون . وأما الأولاد فكانت عطلتهم المدرسية يوم الثلاثاء زيادةً على الجمعة . ثم خرجت من الثلاثاء الى الخميس بعد المائة الرابعة . كل ذلك استناداً الى أخبار وأشعار متفرقة

ولمحمد احمد الدهمان استدراكات على تاريخ البيمارستانات في الاسلام للدكتور احمد عيسى وهي تستأهل الالتفات لما ساقه المستدرك من الأدلة المستخرجة من بطون كتب التاريخ خاصة . مثال ذلك تصحيح لبعض أسماء البيمارستانات وتعيين مواقع طائفة منها وضبط نصوص تتعلق بها أو ببنائها

— الجزء الثالث والرابع : لسليم الجندي بحث في ديوان منسوب الى أبي العلاء المعري ( التنوخي ? ) مخزون في « الظاهرية » بدمشق ويقصد الباحث الى تحقيق النسبة وقد تلطف لذلك فساق ما يثبت ثم ما ينفي . والرأي عندنا أن الديوان محمول على أبي العلاء الكاتب المشهور

وليوسف العشّ — أمين دار الكتب الظاهرية بدمشق وهو شاب نشيط على اطلاع ودربة في شؤون الخزانات ، وقد أنسنا به في دمشق هذا الخريف — بيان عن مخطوط لدمشقيّ لعلهُ، بغالب الظن كما يقول الأمين ، محيي الدين النعيمي (٨٤٥—٩٢٧) مؤلف « الدارس في أخبار المدارس » . وهذا المخطوط أشبه شيء بمذكرات يومية تبتدىء بثامن شوال سنة ٨٨٥ وتنتهي — مع سقط طفيف — عند ثاني جمادى الآخرة سنة ٩٠٨ ، يتلوها تسع عشرة ورقة من السنين التي تعاقبت بين ٩١٠ و ٩١٤ . وميزة هـذه المذكرات ان صاحبها دوّنها لنفسه فلا تحرج ولا تخوف ولا تلبيس ولا تلويح . وفائدتها انها تنبت عادات وترسم صوراً للحياة الاجتماعية في ذلك العصر قد درجت ودرست . إلاّ أن لغة المخطوط رديئة سوقية أحياناً

— الجزء الخامس والسادس : ولعباس العزاوي تنقيب عن « التاريخ العظيمي » وهو كتاب في التاريخ لمحمد بن علي بن محمد بن احمد بن نزار ، أبي عبـد الله التنوخي الحلبي المعروف بابن العظيمي من علماء المائة التاسعة . وهو من المؤرخين المهملين . وأما كتابه هذا فقد اهتدى اليه المنقـب في خزانة قرا مصطفى باشا الرزيفوني ورقه ٣٩٨ من خزانة بايزيد العامة . وهو يصـفه لنا وينقل مقدمته ثم يذكر استشهادات ابن خلـكان بفقر منه ويبين علاقته بالتواريخ الاخرى ويسرد مدارج مباحثه ويسوق مراجعه ويبـذل أنموذجاً منه . وغرضه في كل ذلك التعريف والتنبيه

وللمستشرق اسرائيل ابي ذؤيب تحليل لكتاب «المصايد والمطارد» لكشاجم الشاعر الاديب الطباخ فيما رُوي ، وهو من المبرزين في النصف الاول من المائة الرابعة . وكتاب المصايد والمطارد لا يزال مخطوطاً .منه نسخة في جامع الفاتح بالاستانة وأخرى في زنجان بايران . وموضوعات الكتاب ، على ما ذكر المحلل ، رأي الشريعة في الصيد ، فضائل الصيد ، بحث في الجوارح الأربعة : البازي والشاهين والصقر والعقاب ، أمراض الجوارح وعلاجها ، أنواع المطارد مثل الكلب والثعلب والخنزير . وأثبت المحلل بعد ذلك مصادر كتاب كشاجم من منظوم ومنثور ثم بيّن العلاقة التي بينه وبين كتاب الحيوان للجاحظ . ومما ذكره في الخاتمة ان لكشاجم نظراً عميقاً في مسألة الغرائز الجنسية فهو يتكلم عليها لاظهار طبائع دقيقة للحيوان وميولاً فيه وأهواء كامنة وبارزة

ونشر صلاح الدين المنجِّد نبذة عن كتاب الديارات للشابشتي المتوفى سنة ٣٩٩ أو ٣٨٨ ورد فيها وصف « دير سمالو » وذكر أخبار لخالد الكاتب . ومما ننبه اليه ان هذا الوصف ما نظنه جاء في « الديارات النصرانية في الاسلام » لحبيب زيات (مجلة المشرق السنة الـ٣٦،ج٣) وقد اعتمد الناشر نسخة مخطوطة كتبت سنة ٦٣١ ، قال انها فريدة ، مصوَّرة عن نسخة أخرى ، ولكنه لم يعين النسخة الاصلية .فما عرفنا هل هي النسخة المخطوطة المحفوظة في خزانة برلين تحت رقم ٨٣٢١ We.

— الجزء السابع والثامن : أثبت عبدالله مخلص مسرداً على حروف الهجاء أدرج فيه أسامي التواليف الاسلامية في العلوم السياسية والادارية وذكر اسماء مؤلفيها وعيَّن المخطوط منها والمطبوع وذكر مواضع خزن المخطوط ومواقع نشر المطبوع . وكنا نود أن يجعل للمؤلفين مسرداً آخر يرتبهم فيه على تعاقب السنين . ونضيف الى ثبت تلك التواليف « السياسية في ترتيب السياسة » المعروف بسر الاسرار لأرسطوطاليس » تعريب يحيى بن البطريق . وقد عثرنا على تلك الرسالة المخطوطة في مكتبة بلدية الاسكندرية ، وهي ضمن مجموعة رقمها ٣٦٤١١ ج . وفي « كشف الظنون » ط مصر ج ٢ ص ١٤٩ ان لارسطو « الرياسة في السياسة » ترجمة مولانا نصوح المعروف بتوالي المتوفى سنة ١٠٠٣ . وفي «كشف الظنون» أيضاً ج ١ ص ٤٨٠ وج ٢ ص ١٤٩ كتب أخرى في فن السياسة لم يذكرها صاحب الثبت ، فلتراجَع ولتتعقَّب

— الجزء التاسع والعاشر : أثبت كوركيس عوَّاد من أهل التنقيب في بغداد مسرداً على حروف الهجاء أدرج فيه اسامي الكتب وعنوانات الفصول والنبذ الموضوعة في «الحسبة الاسلامية » الجارية الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وقد رتب الاسامي والعنوانات

على صنوف ثلاثة : الكتب القديمة في الحسبة ثم الفصول والنبذ القديمة في الحسبة ثم الكتابات الحديثة في الحسبة . ولم يفته أن يبين المطبوع من تلك التواليف والرسائل وان يرشد الى خزانات المخطوطات او مظان ورود ذكرها إلاّ انه لو صنع مسرداً لأسماء المؤلفين بأرقام ترجع الى أرقام يجعلها للأسامي والعنوانات لزاد في تقريب المآخذ

ووصف عمر رضا كحاله مخطوطاً في ثلاثين صفحة للسيوطي مخزوناً في الظاهرية بدمشق عنوانه «المستظرف من أخبار الجواري» فسلَّ منهُ أخبار الإماء التي لم يترجمنَ في كثير من الكتب المطبوعة والمخطوطة ونقل خلاصتها . هذا ونزيد أن بروكلمن لم يذكر ذاك المخطوط في تاريخه ولا في تكملة تاريخه وقد اطلعنا على المخطوط في اثناء اقامتنا بدمشق هذا الخريف لاجل البحث عن مصادر جديدة لتاريخ الغناء العربي فأصبنا فيه فائدة وإن يسيرة

— الجزء الحادي عشر والثاني عشر : للأمير مصطفى الشهابي تحقيقات في علم النبات استخرجها من معجم له في « الألفاظ الزراعية »قريب عهد البروز فرأى ان يبذلها على سبيل التمثيل . وقد دارت التحقيقات في هذا العدد حول اسماء اشجار الفواكه مثل القراصيا والكرز والنارنج والبرتقال ، والليمون الهندي وليمون الجنة . وفي جلّها فوائد جديدة

وصنف ميخائيل عواد رسالة جامعة في قصة ذلك الفص العجيب من الياقوت الاحمر الذي ذاع ذكره في الحضارة الاسلامية وعرف بالجبلى او الجبَل . واصله من اعلاق الفرس ثم انتقل الى اصابع خلفاء بني العباس وانسل منها الى اصابع امراء بني بويه وغيرهم في البلدان الاسلامية . وفي كل ذلك نوادر وطرائف مستخرجة من كبرى دواوين الاخبار . ونحن نرشد الاستاذ عواداً الى فصل آخر في شأن ذلك الفص الكريم يجده في « التبصر بالتجارة » للجاحظ ( دمشق ١٩٣٢ ص ١٠ المتن والحاشية )

***

بقي أن ثمة رسائل منفرشة في أكثر من عدد ، على تتابع ، نذكر منها :

— « بعض اصطلاحات يونانية في اللغة العربية ، ونظرات فيها » للاب انستاس ماري الكرملي : يناظر الأب في هذه الرسالة الأستاذ بندلي جوزي من جامعة باكو في ألفاظ ردها الأستاذ الى اليونانية . وفي الرسالة استدراكات وتحريرات حقيقة بأن يؤخذ بها ، تدل على غزارة علم الأب وامعانه في التدقيق . ومن الأمثلة على ذلك انهُ يرى أصل كلمة « بلقيس » من Pallèks, ekos ومعناها صبية ، ويقول ، لا من Pallake, ès لأن هذه تعني الزانية والعاهرة . ثم يزيد معللاً : « ان ( بلقيس ) كانت ملكة سبأ ، والعرب أباة النفس لا يملكون

عليهم امرأة تكون ساقطة الآداب والأخلاق » . هذا وهل لنا أن نذكر الأب الفاضل بنص آخر في أمر « البرس » وهو ضرب من الثياب ، يجده في الجزء الثالث من كتاب « نظام الغريب » للربعي ( الطبعة الأولى ، القاهرة ، ص ٧١ )

— «الفصيح والمولد في كلام أهل الغوطة » لمحمد كرد علي . وهي رسالة تثبت لهجة أهل الغوطة من ظواهر دمشق ، مع اثبات المادة فعلاً كانت أو اسماً ومع ايراد عبارة اللغويين بكاملها او مع تعليق اذا وجب التعليق . والرسالة جليلة من حيث انها تبين ما بقي من الفصيح في لغة فلاحي الغوطة وما طرأ عليها من الدخيل من جانب الإرَمية والفارسية . وقد انكسرت الرسالة على أبواب تتدرج من « خلق الانسان » حتى « المكاييل والموازين والمقاييس ثم الألفاظ الاسلامية »

ومما يورث الأسف ان الألفاظ أدرجت متتابعة متماسة على غير ترتيب في الحروف وتنسيق في الطباعة ، مما لا ييسر التفتيش ولا يهون القراءة

— «القسم الضائع من كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشياري» لميخائيل عواد . جمع المصنف في هذه الرسالة أخباراً استقاها أهل التاريخ من كتاب الجهشياري وسقطت هي من الكتاب نفسه المطبوع في مصر . وقد استخرجها المصنف من نصوص صريحة وردت في أمثال كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخي ، ومعجم البلدان ومعجم الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ثم رتبها بحسب تلاحق تواريخها جرياً على أسلوب الجهشياري نفسه . ومما جاء به أخبار ترجع الى عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمعتمد والمعتضد

— « رسالة الطرق » لسليم الجندي . وهي رسالة يريد صاحبها أن تكون جامعة للالفاظ الدالة على أنواع الطرق وأجزائها وأحوالها وما كان منها في سهل أو جبل أو رمل أو واد أو نحو ذلك . وقد رتبها على حروف الهجاء . والذي حداه الى تصنيف الرسالة انه « لم يعثر على كتاب أو رسالة للمتقدمين تختص بهذا الغرض» . وفي المأمول أن يثبت المصنف مراجعه يوم يفرغ من الرسالة

— «مقامات ابن حمويه الجُوينْي » للأب انستاس ماري الكرملي . انصرف قلم الأب الى دراسة طرف من مقامات الجويني وقد أصابها مخطوطة في خزانة صاحب المعالي محمد رضا الشبيبي العراقي . وكان الجويني من الرؤساء والمقدمين وقتل سنة ٦٤٧ . وقد وصف الأب المخطوط الفريد . وترجم لمؤلفه ولوالده ثم نشر نبذاً متفرقة مجتزأة من ورائها فوائد لغوية وعمرانية مثل أسماء أرباب الصناعات والمهن وأسامي ألوان الطعام ، وعلق عليها جميعاً فأفاد

## ١ — مواعيد

ديوان شعر — من منشورات دار المكشوف بلبنان
صفحاته ٧٦ من القطع الصغير — لصلاح لبكي

لما قال المتنبي في كافور داليته المشهورة ذكر فيها « مواعيد » كافور فقال :

أمسيت أروح مثرٍ خازناً ويداً    أنا الغني وأموالي المواعيد

وغرضه ان أمواله مواعيد كافور وهي لا تحتاج الى أن تقبض عليها يد أو يحفظها خازن . . . . ولكن « مواعيد » الشاعر صلاح لبكي هي مواعيد صادقة لأنها خرجت من قلب موسوم بالصدق في إحساسه وتعبيره

ولم يكن صلاح لبكي محتاجاً الى تقديم حين أوجز رشدي معلوف الاشارة الى شعره ، ولكن الناس ألفوا التمهيد عن الرجل الذي يقرءون . وكانت توطئة المعلوف للديوان قوية ، وخاصة حين تكلم عن « عمارة الحضارة » و « ثروة الانسانية »

وليس شعر هذا الديوان الجديد طويل النفس ، أو مترامي المدى ، فهو اثنتان وعشرون قصيدة ، بلغ طول أقصرها ثلاثة أبيات وأطولها تسعة وعشرين بيتاً ، ومتى قيس الشعر بالطول والقصر ؟ ومتى كان ميزان الجودة فيه البيت أو الابيات ؟ ألم يقل الشاعر القديم

شعرٌ على قلته جيدٌ    والشعر لا يمتاز بالطول

وكذلك كان شعر « مواعيد » فهو جيد على قلته ، وتمتاز موضوعاته بدلالتها على يقظة الاحساس في الشاعر ، ومرهف التأثر فيه . فهو يبكي الطيور حين تموت بقصيدة عنوانها « موت الطيور » ويودع الورود الذابلة حين تموت بقصيدة عنوانها « موت الورود » ولكنه يودّع فيها السنا واللون والرونق لأنها فانية . . أما الطيب فهو خالد يعبق مع ريح الصبا اذا جرت ، وكذلك الشاعر . . يطبق عينيه للموت فتنطوي معه المنى والحلم الريق والرغبات الجوائش . أما الحبيب فهو الشذا كأنهُ طيف الهنا « الازرق » . ولعلّ الاستاذ « لبكي » اضطر الى وصف الطيف بالازرق للقافية ! !

وقصيدته « الى الأرض » في أولها « ترابية الارض » وفي آخرها سماوية الافلاك ، وما أصدقه حين يوازن بين الارض الولود والشاعر أبي الآمال بقوله : —

يا أرض هأنا حافلٌ    بجميع ما بك من تجني
تلدين ثم تشيعين بنيك من دفن لدفن
وأنا أبو الآمال كم    شيعتُ من أمل أغنّ

وقصيدة « عرس العقبان » تعبير صادق عن حالة الانسان اليوم في مجزرة هائلة تجد العقبان والديدان في ضحاياها فرحاً وعيداً . وقد استعمل الشاعر فيها كلمة « تجنّن » وهي على عربيتها أقرب الى استعمال العوام ، ويلوح ان الشاعر كان ساخطاً على البشرية حين نظم هذه القصيدة ، فقد حشاها بكلمات « التجنن » والديدان و « النتن » و « القذارة » ، ليصور الانسان في أقبح صورة وأبشع منظر . ولكن الصورة كانت — والحق يقال — كريهة الى النفوس . . . !

أما قصيدة « سكري » فليأذن لنا الشاعر ان نعتب عليهِ في بعض أبياتها ، فهو يغرق يومه في الخمر فلا يدّكر ، ويقول : —

فأرسل الضحكة حتى يستفيق الحجر
أضحك من نفسي ومن هواجسي فأكثر
أضحك حتى ينقضي ليلي ويأتي السحر
فان أتى فغصة وأدمع وذكر
كأنّ ما بي نغمٌ مشوَّهٌ مزوّر

ولقد كان حسان بن ثابت يشرب الخمر فيقول :

ونشربها فتتركنا ملوكاً وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

وكان عنترة يشربها فيقول :

فاذا سكرت فانني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم

وكان اليشكري يشربها فيقول : —

فاذا شربت فانني رب الخورنق والسدير

أما أغاني الاستاذ لبكي الوطنية فتمثلهما أغنيتان الى كل جندي من لبنان ، هما أحسن ما يتلى على آذان هذا الشعب الأبي الكريم

## ٢ — الفكر العربي

بين ماضيه وحاضره لسامي الكيالي مطبعة المعارف بمصر — صفحاته ٩٦ من القطع المتوسط

مؤلف هذا الكتاب ليس غريباً عن الفكر العربي بل هو مشترك في بناء هذا الفكر بمجلته « الحديث » التي تصدر في حلب فتقدم الى المكتبة العربية مدداً صالحاً من ثقافة طيبة يشترك في اعدادها للقراء طائفة من أعلام الادب والبيان والفكر في مختلف الاقطار العربية

يبحث هذا الكتاب في تفرق مسائلَ تتصل بالفكر العربي أوثق اتصال ولم يشق

الاستاذ الفاضل تلك المسائل إلاّ ليصل منها الى طريقة يحيي بها العربي تراثه الضخم القديم وليس هذا التراث القديم موضعاً للانكار ، فالمؤلف يسوق من اقوال علماء الغربيين ما يقوم شاهداً على كينونة الفكر العربي ويستشهد في أول صفحة من الكتاب بما ذكره ويلز في هذا الصدد

وفي ثاني فصول الكتاب يعرض المؤلف لما اتهم به ابن خلدون العرب من التوحش والانتهاب والعبث ومنافاة طبائعهم للعمران، فيرد على المؤرخ الكبير اتهامه ببراهين فيها كثير من العقل وكثير من العاطفة ، ثم يخشى ان تجنح به عاطفته فيستشهد بكلام جميل للشاعر الاسباني (فيلاسباسا) وهو كلام فيه كثير من الشعر والخيال ، وفيه قليل جداً من مادة التاريخ . ثم يعود المؤلف فيؤيد حججه بما كتبه الدكتور عبد الوهاب عزام رداً على ما نقله المستشرق الروسي بارتولد في كتابه ( تاريخ الحضارة الاسلامية) . وبما كتبه الدكتور طه حسين نقضاً لمزاعم ابن خلدون

والأستاذ الكيالي يرى لإحياء الثقافة العربية ان يحصر العمل في ثلاثة أمور : — البحث عن نفائس المخطوطات التي أضاعها أهلها أو دفنوها في غيابات الخزانات ، ودراستها وتنظيمها ونشر أكثرها ضرورة لنهضتنا الحالية ، واعادة طبع ما طبع من نفائس كتبنا على طريقة المستشرقين لا على طريقة جهلة الوراقين

وذلك كلام جميل ، وعمل في مقدور ورثة الفكر العربي أن يعملوه متى صحت العزائم وصدقت النيات ، واستحوا أن يقال فيهم : تراث ضيعه ذووه

وفي الكتاب فصل عن « البلديات » أو المجالس البلدية عند العرب : وهو فصل طريف عن وظيفة « الحسبة » التي يشبه عملها من نواح كثيرة عمل المجالس البلدية في زماننا هذا، وهذا الفصل هو عرض جميل لكتاب « معالم القربة في أحكام الحسبة » الذي ألفه ابن الاخوة القرشي ، ونشره المستشرق الانكليزي روبن ليوى في أصله العربي وترجمته الانكليزية

ولم يفت الاستاذ الكيالي أن يتحدث في كتابه عن مصر والوحدة العربية ، ويستشهد بكلام لعبد الرحمن الرافعي بك في كتابه تاريخ الحركة القومية ج ٣ عن مشروع لمحمد علي باشا كان يتناول انشاء دولة عربية مستقلة في مصر تضم اليها البلاد العربية في افريقيا واسيا ويستشهد بكلام آخر ، وفي هذا الفصل توضيح لفكرة الفرعونية التي يتخوف السوريون والعراقيون من خطرها كلما تحدث المصريون عن تاريخهم القديم ،وفيه توضيح للفكرة العربية يطمئن اليه المصري كل الاطمئنان . ويلمح المؤلف — في ختام هذا الفصل — من خلال الغيب بشائر مستقبل سعيد

في هذا الكتاب إيمان قوي يطفر من بين السطور طفراً ، إيمان بالماضي المجيد ، وإيمان بالحاضر العتيد ، وإيمان بالغد الوليد ، وفي المؤلف تفاؤل فسيح في المستقبل ، لم يبنه على تكهن ولا تخرص ولكن بناه على قياس على الماضي ونظر في قراءة تاريخ العرب ، وهي على كل حال فراسة « مؤمن » والمؤمن لاتكذب فراسته — محمد عبد الغني حسن

## مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية

### الجزء الثالث

سبق لنا أن ننوه بهذه المجلة الجليلة التي يخرجها الأستاذ الدكتور زكي عبد المتعال عميد كلية الحقوق بجامعة فاروق الاول بالاسكندرية . ويسرنا أن يصلنا العدد الثالث لشهر يوليه وسبتمبر من سنة ١٩٤٣ . وهذا العدد على ماكان عليه السابقان من الهمة في البحث والدقة في التأويل. ومن موضوعاته : نظام قاضي التحقيق في القانون المختلط ، للدكتور محمد عبد المنعم رياض . والتكييف القانوني للالتزام الصرفي ، للدكتور محسن شفيق. وضرورة وضع تشريع تنفيذي لبعض احكام اتفاقات مونتريه للاستاذ الدكتور حامد زكي [1] . وعلاقة الشريعة الاسلامية بالقانون الروماني ، للاستاذ الدكتور حسن احمد البغدادي ( باللغة الفرنسية ). ويلي تلك المقالات والمباحث تعليقات على الاحكام سواء في المواد المدنية ام المواد الجنائية ، وقد اشترك في التعليق الاستاذ الدكتور حسن احمد البغدادي ، والدكتور محمد اللاح ، كتب الأول في الاختصاص التشريعي والقضائي بالنسبة لمواريث غير المسلمين ووصاياهم ، وكتب الثاني في الرضاء في جريمة هتك العرض ، واشتراك الجنايتين المقترفتين في بعض الاركان ، وفي القتل الخطأ والضرب والجرح المفضي الى الموت

واختتم العدد بمراجعات لبعض التآليف القانونية . والعدد في جملته من الطراز العلمي الأول ، وهو من مآثر أقلام اهل القانون في مصر ، ولا شك في أن مخرجه العالم المجتهد حقيق بالثناء . ب .

---

(١) يجري هذا التشريع الى ثلاثة : (١) منع المحاكم المختلطة من الفصل بطريقة موضوعية في دفع الاحوال الشخصية التي تدخل في اختصاص جهات قضائية أخرى (٢) التزام المحاكم المختلطة بالاحكام الصادرة من جهات الاحوال الشخصية في حدود اختصاصها ثم وقف مراقبة المحاكم المختلطة عند حد الشروط الخارجية —(٣) عند تنازع احكام المحاكم المختلطة مع احكام المحاكم الاهلية بمناسبة الفصل في مسائل الاحوال الشخصية للمصريين يجب تغليب الثانية . ويحسن في زيادة الطمأنينة ان يباح في جميع الاحوال لكل ذي مصلحة وللنيابة العمومية أيضاً رفع نقض عن الحكم الاهلي بسبب هذا التنازع حتى اذا تأيد الحكم الاهلي أمام محكمة النقض وجب تنفيذه حتما

## الفن ومذاهبه في الشعر العربي

للدكتور شوقي ضيف — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

هذا الكتاب هو الرسالة التي تقدم بها المؤلف الى جامعة فؤاد الاول لنيل درجة الدكتوراه والفضل في نشر هذه الرسالة في حجمها الكبير وعلى ورقها الجميل يرجع الى رجلين اثنين: أولهما صاحب المعالي عبد العزيز فهمي باشا وثانيهما صاحب العزة الدكتور طه حسين بك. اما الأول فقد جاد بماله وطبع الرسالة على حسابه، وأما الثاني فقد اختارها لتطبع على حساب الأول ما دام الاختيار متروكاً لعميد الادب العربي

والرسالة كتابان في مجلد واحد: الكتاب الاول في مذهب الصنعة ومذهب التصنيع وتحته فصول خمسة في الصنعة في الشعر القديم والموسيقى والصنعة والتعقيد في الصنعة والتصنيع، والكتاب الثاني في مذهب التصنع وتحته فصول خمسة في التصنع، والثقافة والتصنع والتلفيق والتعقيد في التصنيع، ويلي ذلك تذييل في الأندلس وتقليدها المشرق والغناء الأندلسي والموشحات والأزجال. وفي الخاتمة كلمة عن الشعر العربي الحديث ومحاولة الشعراء التجديد والطريق الى التجديد المستقيم. ولكن المؤلف هنا يتهم — في غير احتراس — نماذج شعراء المهجر بالخلط السقيم، وهي تهمة كان يجب التمهل في الوقوف عندها لانصاف من يستحق الانصاف منهم مثل ايليا أبو ماضي

لقد قرأ صاحب الرسالة كثيراً من الكتب لاعداد رسالته ولاشك أن ذلك اقتضاه جهداً ووقتاً طويلاً، وهو يدعم المرجع بذكر الجزء والصفحة فلم يترك لطالب التوسع حاجة في النفس

والكتاب حافل بالامثلة من الشعر العربي في مختلف عصوره، وقد أحسن المؤلف في ضبط الشعر ما استطاع حتى لا يعنّي القارىء العادي في قراءته. والمؤلف بصر خاص بفهم الشعر وتذوقه ونقده فهو حين يختلف مع بعض النقاد يذكر رأيه هو (ص ١١٨)

والكتاب في جملته مجهود يستحق صاحبه من أجله الثناء وما دامت نيته خدمة الشعر العربي فان الشعراء والنقاد يرحبون به كل الترحيب (م)

## الى مواطني العالم الجديد

رسالة باللغة الفرنسية بقلم « ليون بليلوس »

مؤلف هذا البحث واقف على الحالة الاقتصادية والسياسية للعالم في الوقت الحاضر. وهو يدعو الى حلول شخصية جديدة يميل فيها الى التوفيق بين مختلف الاتجاهات الفكرية الحاضرة: بين الرأسمالية والاشتراكية، بين الفردية والحكومية الخ. ولكن لعل مقترحات المؤلف لا تخلو عند التطبيق من اثارة مشكلات وصعوبات من قبيل ما يعانيه العالم الآن

## مكتبة الاسكندرية في العالم القديم

هو بحث طريف في تاريخ الاسكندرية القديم تناول المكتبة العظيمة التي ظلت خلال ستة قرون كعبة العلماء حتى ذهبت طعمة للنار مع الاسطول المصري في الحرب التي شنها يوليوس قيصر على الاسكندرية . ولكن المؤرخين الرومانيين طووا صدر الكتمان على هذا الحادث حرصاً على تاريخ القياصرة من ان تلحق بهِ وصمة كهذه حتى راجت في العصور الوسطى رواية لا تستند الى سند تاريخي تنسب للعرب أمر إحراق هذه المكتبة . وقد تناول مؤلف هذه الرسالة الاستاذ محمد احمد حسين تاريخ هذه المكتبة بالبحث ثم تناول هذه الرواية العجيبة بالتحليل والتمحيص فدفع هذه التهمة عن العرب وأورد في ذلك بعض آراء الدافعين من مؤرخي الافرنج مثل ادورد جبون والمستشرقة الاميركية ما كنزن وأثبت زوال هذه المكتبة قبل دخول العرب مصر . والرسالة تقع في ٨٦ صفحة . وقد قدم لها المسيو ا . كومب بفصل في الفرنسية عن مكتبة البلدية في السنين الاخيرة

## عالم الذباب

تأليف أمير اللواء الدكتور فائق شاكر — صفحاته ٨٨ من القطع الكبير — مطبعة الجيش ببغداد

هي رسالة وضعها سعادة امير اللواء الدكتور فائق شاكر مدير الامور الطبية بالجيش العراقي تناول فيها حياة الذباب على ضوء الآراء العصرية القائمة على أسس عملية محضة وبيّن أساليب نقله للامراض وطرق الوقاية منها وقد قدّم لها ببحث طريف فيما ورد فيه شيء عن الذباب في بطون الكتب المقدسة وعلى صفحات التاريخ والآداب العربية والافرنجية

## أهدافنا

تأليف الدكتور سامي شوكة — صفحاته ١١٢ من القطع الكبير
طبع بمطبعة التفيض الاهلية ببغداد

الدكتور سامي شوكة من رجالات العراق المصلحين ومن العاملين على تثقيف الجيل الجديد بثقافة تجمع الى سعة الاطلاع الايمان الحق بالقومية العربية فهو يجاهد في سبيل فكرته ومبدإه جهاد الزعيم المخلص . وقد قامت مجلة « المعلم الجديد » التي تصدرها وزارة المعارف العراقية بجمع طائفة من محاضراته ومقالاته وأحاديثه ثم أخرجتها للناس دروساً وخططاً جديرة بالدرس والتحقيق

---

وقع في الصفحة ٣٥ في السطر العاشر خطأ مطبعي هو مسحوق بالكهربيـة وصوابه مشحون بالكهربية .

# فهرس الجزء الاول

## من المجلد الرابع بعد المائة


١ عجائب البنيسيلين — العقار الذي ينافس عقاقير « السلفا »

٦ فلاسفة الرواق للدكتور عثمان أمين

١٤ العمران والطيران بعد الحرب

١٧ غزو روسيا تفشل فيه ثلاث دول في ثلاثة عصور : لادوار مرقص

٢٤ وصف المغيب ( قصيدة ) : لعدنان مردم بك

٢٦ نشوء الديموقراطية وتطورها : لناشد سيفين

٣٢ غاز الحامض الكربونيك ومنافعه في الحرب الحالية : لعوض جندي

٣٦ الدين والفلسفة : لمحمد يوسف موسى

٤٢ معدن المغنيسيوم — خفيف ، مشتعل وافر لازم في الحرب والسلام

٤٥ حرف الجيم : لعبد الله أمين

٥١ قصة الاساطيل الاسلامية : لمحمد عبد الغني حسن

٥٧ ظاهرة التلبثي وما يتبعها من ظواهر : لأحمد فهمي أبو الخير

٦٣ سور الصين ومنشئه : لرشوان أحمد صادق

٦٧ فلسفة « كأنَّ » في الهند وفي الغرب : للسيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

٧٢ نباتات الصناعة في مصر قديماً وحديثاً : لمحمود مصطفى الدمياطي

٧٤ طبيعة المدن الفاضلة : لحسن أنيس

٧٨ تطور الخدمة الاجتماعية في بريطانيا العظمى : لفؤاد محمد شبل

---

٨٣ باب المراسلة والمناظرة * البديهيات والهندسات غير الاقليدسية : لنقولا الحداد . معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية لمحمود مصطفى الدمياطي

٨٧ باب الاخبار العلمية * المعادن العجيبة: الفيتاليوم والأسنان الصناعية . المعادن وصناعة الزجاج . البلاتين في الحرب . البلاديوم يحل محل البلاتين . الكولمبيوم في تقسية الصلب . سبيكة البزموت ومنافعها . السلينيوم الحساس بالضوء . البريليوم فلز عجيب . حاجة الانسان الى الاملاح المعدنية . اليود . قوة الصوت . شلل الاطفال وعلاقته بالطعام

٩٣ مكتبة المقتطف * مجلة المجمع العلمي العربي لسنة ١٩٤٣ : مراجعة للدكتور بشر فارس . — ١ مواعيد . ٢ — الفكر العربي : لمحمد عبد الغني حسن . مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية الجزء الثالث . الفن ومذاهبه في الشعر العربي . الى مواطني العالم الجديد . مكتبة الاسكندرية في العالم القديم . عالم الذباب . أهداها .

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الرابع بعد المائة

١ فبراير سنة ١٩٤٤ — ٦ صفر سنة ١٣٦٣

# العلم والغذاء والمستقبل

## الصحة العامة لا تتجزأ

## العلم يضع أسس التحرر من العوز والجوع

شهد القرن الماضي وما انقضى من هذا القرن تحسناً عظيماً في الصحة العامة ، في كثير من أقطار العالم . وبعض هذا التحسن يرجع الى الأخذ بأساليب الوقاية الصحية ، والانتفاع بكشف أسباب الأمراض المعدية وباستنباط العقاقير الجديدة وبعضهُ يرجع الى التقدم الحثيث في علم التغذية . فمنذ قرن أخذ قواعد الصحة العامة في انكلترة . وفي النصف الثاني من القرن الماضي خطا الطب أعظم خطوة إذ اهتدى باستور الى اسباب الامراض المعدية . ومما تلا ذلك إقامة الدليل على ان العدوى قد تنتقل بالطعام والشراب كما في حالة التيفود والكوليرا وبالحشرات كالبعوض والبراغيث والقمل في حالات الملاريا والحمى الصفراء والطاعون والتيفوس ومع ان هذه الامراض ، دانت في كثير من البلاد لعلم العلماء والأطباء ، لا يزال الازدحام وسوء التغذية وسرعة الانتقال ، وهي مما يلازم الحروب ، تمهد لانتشار الأمراض المعدية . فوباء الانفلونزا في سنتي ١٩١٨ — ١٩١٩ تفشى تفشياً مروعاً فأصيب بهِ نحو ٧٠٠ مليون من البشر ومات به ما يزيد على ٢١ مليوناً . والتيفوس منتشر الآن في غير بلد واحد . ومن المرجح اذ تنتهي هذه الحرب ، ان يفضي تنقل الناس على سرعةٍ في عالم تكاد طائفة من شعوبهِ تتضوَّر جوعاً ، الى تفشي أعظم الأوبئة في التاريخ ، ان لم تتخذ التدابير اللازمة لحسمها على نطاق دولي

هذا الخطر العظيم ما فتئ يشغل أعظم ثقات الطب وأقطاب الاجتماع ، وعلى وجهٍ خاص ، من يرمي منهم بنظره الى الفترة التي تلي الحرب . فجراثيم المرض جيش ، لا تصدُّهُ الحدود الجغرافية ولا السياسية . فيجب أن يكون دفعه مهمة تضطلع بها الدول جميعاً ، وفقاً لخطة مرسومة. وقد أعرب الدكتور هيوسمث — رئيس قسم الصحة الدولية في معهد ركفلر بانكلترة — عن هذا المعنى بقولهِ : « إن التقدم العظيم في أسباب النقل وفي انشاء طرقٍ جديدة للسفر والمبادلة ، أخذ يحوّل العالم قاطبةً الى جماعة واحدة . ولما كان من المستحيل اقامة حاجز ما يمنع سَرَيان أمراضٍ معدية كثيرة ، الى بلد من البلاد ، وجب على كل أمةٍ ان تصرف همها الى الاهتمام بالاحوال الصحية في جميع الأمم الأخرى » . فيصحُّ إذن أن نقول ان الصحة العامة لا تتجزَّأ ، كما أن رجال السياسة والاقتصاد قالوا إن السلامة والرخاءَ لا يتجزَّآن

***

على انَّ مدار البحث في هذا الفصل ، هو الغذاء ، لا المرض . واذا أردنا ان يقوم عالم الغد على أسٍّ سليم فيجب أنْ يوفر الغذاء الكافي قدراً ونوعاً لجميع الناس ؛ أي يجب أن يحقق « التحرُّر من العوز » وكذلك « التحرُّر من الخوف » — خوف الجوع والمرض

وقد ارتقت العلوم التي لهـا صلة بالتغذية ارتقاءً عظيماً خلال الخمسين سنة الاخيرة على أثر الدليل الناصع الذي أقامهُ دارون ، وهو انهُ يجوز أن يطبَّق على البشر ما يسفر عنهُ البحث التجريبيّ في الحيوان. ومعظم بحوث التغذية، أجري أولَ الأمر في الحيوان ، ولا سيما الجرذان . وهذه البحوث وضَّحت لرجال العلم أصناف الطعام التي يجب أن تتوافر في الغذاء الكامل، علاوةً على مقاديرها . وقد أثبت السر جون اور — الخبير البريطاني العظيم في مسائل التغذية — وغيره ان الغذاءَ الوافي أحد الأركان التي تقوم عليها الصحة السليمة ، وان هناك صلة وثيقة بين هبوط مستوى التغذية وهبوط مستوى الصحة العامة ، ثم بين هبوط مستوى التغذية ، وهبوط الكفايات العقلية بوجهٍ عام . وقد عني باحث انكليزي يدعى نول Noll ، بالفحص عن مدى انتشار الأمراض في الأمة البريطانية ، فوجد أن اربعة اخماس الأمة، تشكو ولا تدري ، علةً ما فهي تترجح من فقر دم بسيط الى نموّ خبيث . وهذا بحدِّ نفسهِ يشير اشارة هيّنة الى عظم المشكلة التي تواجهها الامم بعد الحرب ، في تحسين الصحة ، عن طريق الوقاية والعلاج ، وعن طريق توفير الغذاء الصحيح كذلك . فالمشكلة ليست علميـة طبية فحسبُ ولكنها مشكلة اجتماعية أيضاً

ان بحث الغذاء الصحيّ لا يزال في مهده حتى في أرقى الأمم . ويقول كتاب « العلم ونظام العالم » « ان هذه البلاد — يعني انكلترة — لم تكد تدرك ان الغذاء الصحيح هو احدى

مشكلات الصحة العامة لأن معظم ما نعرفهُ عن التغذية الصحيحة جديد »

هذا العلم — علم التغذية — يشمل ناحيتين ، أما الأولى ، فما يجب أن يأكلهُ الناس وأما الثانية فما يأكلونهُ فعلاً . وقد تقدَّم البحث العلمي ، في المواد الأساسية التي يحتاج اليها الجسم ليصيب الغذاء الصحيح الوافي ، تقدماً عظيماً خلال ربع القرن المنصرم ،وغدا الاتفاق عليها عامًّا بين العلماء . وبالرجوع اليها ندرك الآن ان الكثرة الغالبة من البشر كانت لا تصيب — حتى في ايام السلام — القدر الوافي من الطعام الصحي . وقد استخرج العلماء الادلة على انتشار سوء التغذية انتشاراً يبعث على القلق بأساليب شتى، منها الاحصاء الاقتصادي والصحي ، ومنها التجارب السريرية والمعملية

وكان رائدا البحوث الاقتصادية رجلين انكليزيين يدعيان تشارلز بوث وسيبوم رونتري . وقد نشر ثانيهما ، من عهد قريب ، نتيجة بحثه المتواصل ، في مدينة يورك . وأساس هذا البحث ، ما ينفقه الناس من مختلف الطبقات على الطعام . ولكن مقياس المال ليس مقياساً صحيحاً اذا لم يقترن بمعرفة مواد الطعام التي تُشترى وتستهلك . فعني السر جون اور بهذه الناحية ، في بحوث مستفيضة أيدتها بحوث من قبيلها في بلاد أخرى. تخلص الى : ان طعام نصف السكان لا يكفي لاقامة الصحة لأنهم لا يستطيعون ان ينفقوا المال الكافي لشراء الطعام الصحي اللازم

وقد يظن ان قلة الأمراض التي توصف عادة بأنها امراض نقص الغذاء ،كالبريبري والاسقربوط، دليل ناهض على ان رجالاً من أمثال السر جون اور أدنى الى التشاؤم في تصوير حالة الغذاء الصحي في انكلترة ولكن رجال الطب والصحة العامة في بريطانية اخذوا يلاحظون ان كثيراً من الضعف العام والاعياء اللذين لا يصحبهما مرض معين ، يرجع الى نقص المواد الغذائية اللازمة في الطعام منذ الطفولة . وقد كشف علماء الطب اساليب شتى تمكنهم من « تشخيص » هذه الحالات ، وكذلك تدل التجارب في الولايات المتحدة وكندة وبريطانية ان في سكانها نقصاً كبيراً في التغذية الصحيحة

ويؤخذ من هذه الأبحاث ان نقص الحديد ونقص الكلسيوم منتشران، والى الأول يعزى فقر الدم والى الثاني تشوه العظام والاسنان . وقد فحص في نيويورك مائة وثلاثة وأربعون بالغاً ينتمون الى طبقة من السكان دخلها قليل ، فأسفر الفحص عن انهم جميعاً مصابون اصابات ظاهرة مرجعها الى نقص فيتامين A في طعامهم . وقيود الحرب ، وما يصحبها من نقص الفواكه واللبن والبيض الطازجة ، من شأنها ان تقلل العناصر الغذائية الاساسية المتاحة لجماهير الناس

وبحث فريق آخر من العلماء بحث مقارنة ، بين طبقات الشعب ، وفقاً لدخلها . فوجدوا ان طلبة المدارس الذين ينتمون الى أسر ذوات ثراء او اكتفاء ، أطول قامة على المعدل ، وأكبر وزناً ، وأقوى من طلبة المدارس الذين ينتمون الى أسر لا يكاد دخلها يكفي لاقامة أودها . وقد ظهر كذلك ان انتشار السل بين العمال غير المتقنين ، يفوق ثلاثة أضعاف انتشاره بين الذين دخلهم أكبر من دخل هؤلاء العمال . وبلغ معدل وفيات الأطفال بين العمال أربعة أضعاف معدل وفياتهم في الاسر الموسرة . نعم ان الغذاء عامل واحد من عوامل متعددة تفضي مجتمعة الى هذه النتيجة ، ولكنه عامل لا يختلف فيه اثنان

ونقول « لا يختلف فيه اثنان » لأن هذه النتيجة المستخرجة من الاحصاء القائم على مقارنة المعدلات والمتوسطات أيدتها تجارب محكمة . فقد أُختيرت طائفة من الأطفال الذين لا ينالون الغذاء الصحي الوافي ، ثم أُتيح لهم هذا الغذاء ، فزاد وزنهم وقوتهم وتحسنت صحتهم . ثم أجريت تجارب في الجرذان ، لمعرفة الأثر الذي يتركه فيها الغذاء الغالب في شعوب شتى . فظهر ان الغذاء الغالب في غرب اوربة ينجب جرذاناً ضعيفة وان الغذاء الغالب عند قبائل « السيخ » يجعل الجرذان صحيحة قوية . وأجريت تجارب اخرى في وادي روندة فأعطيت النساء الحوامل غذاءً صحيّاً كاملاً فهبط معدل الوفيات بينهنّ الى ثلث ما كان عليه

ثم هنالك طائفة أخرى من التجارب ، تطوّع لها من تطوع ، لبحث نقص الفيتامينات وأثره في الصحة . فأعطى فريق من المتطوعين طعاماً يعوزه فيتامين C ، فما لبثوا ان أحسوا بالضعف والاعياء ، مدة طويلة قبل ان تظهر عليهم أعراض الاسقربوط . وأعطي غيرهم طعاماً يعوزه فيتامين $B^1$ ب ١ فأحسوا بانقباض وإعياء ودوار وألم في الظهر . وقد وصف احد الأطباء هؤلاء الذين لا ينالون الكفاية من فيتامين ب ١ بأنهم « كمن يحتاج الى عطلة يقضيها على شاطىء البحر ليستجم ويسترد عافيته » . وواضح ان نقص بعض انواع الفيتامين لا يحدث اعراضاً ظاهرة ما تدفع الى استشارة الطبيب وطلب العلاج ، ولكنها تكون كافية للشعور بالاعياء فتهبط القدرة على العمل ، وتزيد القابلية للاصابة بمرضٍ معدٍ ، ويكل النشاط البدني والعقلي

وقد يفوز بلدٌ ما بالقضاء على الجوع في مظهره الأوسع قضاءً تامّـاً ، وعلى وجوه النقص البارزة في الطعام ، ولكنهُ يظلّ مع ذلك في حاجة الى تدبّـر مسائل الغذاء الدقيقة الخفية . وقد قال الجنرال باران كبير جرّاحي الجيش الاميركي : « ان سوءَ التغذية كجبل الجمد عشره بادٍ وتسعة أعشاره خافية »

وليس ثمة ريب في أن ما تخسره الأمة ، من جراء سوءِ التغذية ، يبلغ مبلغاً عظيماً ،

إذا كان الانتاجُ والكسب أساس التقدير . ولكن ما لا يمكن قياسهُ بالمال هو ما ينشرهُ من نكدٍ وانقباض وشعور بسوءِ الحال ، بين الذين ساءَت تغذيتهم

***

فاذا أراد القابضون على عنان المستقبل ، ان يحرّروا الناس من العوز ومن الخوف فعليهم ان يتدبّروا هذه الحقائق . فلا قيام للمجتمع الانسانيّ الأمثل إلاّ اذا توافرت لهُ عناصر البيئة المادية ، التي تحسن فيها الصحة وينشط العقل وتستريح النفس ، والطعام الوافر الصحي في طليعتها

وقد يرتاب كثيرون في القدرة على إقامة هذا المجتمع الانساني الامثل . ولكنّ العلماءَ لا يرتابون ، إن كانت العقبة الوحيدة دون اقامتهِ هي عقبة توفير العناصر المادية اللازمة لهذه البيئة . فهم يعلمون أن العلم قادر على توفيرها ، وأنَّ ما تمَّ من هذا القبيل حتى الآن لا يكاد يكون — على عظمتهِ — شيئاً مذكوراً بالقياس الى ما يمكن أن يتم

فقد خطا علماءُ الأحياء والزراعة خطوات فساحاً في زيادة المحصولات التي تنتجها الارض بفضل الأساليب الجديدة التي ابتكرها العلم وزكّتها التجربة ، في فلاحة الأرض وبذر البذور ، وجني المحصول ، وتوليد أصناف جديدة ، وتربية الماشية ، ومكافحة الحشرات وما أشبه ذلك . وقد أصابوا نجاحاً في استنباط أساليب جديدة لحفظ الطعام بالتبريد السريع ، ولنقلهِ في أقل حجم بالتجفيف ونزع الماء منهُ . وقد يؤخذ محصول واحدٌ من البرقوق مثلاً ، فيشحن قسم منهُ غضًّا الى بلادٍ نائية ، ويجمَّد بعضهُ بالتبريد السريع ، ليستعمل حين الحاجة اليهِ فيكون كالغضّ تماماً ، ويجفف بعضهُ الآخر بنزع الماءِ منهُ ، فيشحن مسحوقاً توفيراً للمكان في سفن النقل ، ويحفظ بعضهُ في العلب

ومن عهد قريب قال وزير الزراعة الاميركي : ان كل طنٍّ من الماءِ يستخرج من اللبن الحليب واللحم والبيض والفواكه والخضر في منزلة طنٍ من القنابل تلقى على أرض المحور . وكل طنٍّ من الماء نمتنع عن نزعهِ من هذه المواد الغذائية قد يعني جوعاً لفريق من رجالنا المسلحين أو أبناءِ حلفائنا . . . فالطعام الذي ننقله من بلد الى بلد يجب ان يحشد في أقل نطاقٍ وأضيق مجال . وليس في السفن مكان لماءٍ ينقل بها بغير ضرورة في بحار الأرض السبعة

والى هذه الحقائق الحربية مردٌّ صناعة التجفيف التي أتقنت واتسع نطاقها خلال هذه الحرب . ولا بدَّ أن يكون لها مقام لا ينكر بعد الحرب للنهوض بما تقتضيهِ أعمال الغوث والتعمير . فالحاجة الى الطعام في شتى أنحاء الارض ستكون عظيمة وملحّة ، والحاجة الى السفن كذلك . والطعام المجفف يوفق بين الحاجتين ويتيح للشعوب التي استبدّت بها ضرورات

الحرب ومقادير وافرة من الطعام المغذي في أقل متسع من سفن النقل . فصناعة التجفيف من أمضى الأسلحة في تحرير الناس من الفاقة والجوع

ولكن العلماء لم يقنعوا بالوقوف عند هذا الحدّ ، بل عمدوا الى إكمال عمل التجفيف بفعل الضغط . فانك اذا أخذت عدداً من البيض يزن مائة رطل وجففته ، أصبت مسحوقاً يحتوي على جميع العناصر الأساسية في البيض وهو لا يزن اكثر من ٢٢ رطلاً . ومائة رطل من البيض تشغل اربع اقدام مكعبة ، ولكن ٢٢ رطلاً من المسحوق لا تشغل اكثر من قدم واحدة مكعبة . وفي هذا توفير عظيم . ولكن اذا أضفت الضغط الى التجفيف فانك تستطيع ان تحشد هذا القدر من المسحوق في مكعب لا يزيد طول ضلعه على نصف قدم . وقد عولج التفاح المجفف والبصل المجفف على هذا الغرار بنجاح

وكما كانت الحرب باعثاً على اتقان صناعة تجفيف الطعام وضغطه كذلك كانت باعثاً على التوسع في صنع الفيتامينات بالتركيب الكيميائي . ثم استعملت لتعزيز مواد الطعام السائرة لسد ما فيها من نقص غذائي . ويقول روي هندريكسون ، مدير ادارة توزيع الطعام بوزارة الزراعة الاميركية ، ان ٩٧ ٪ مما يصنع من المرجرين ، معزز بفيتامين A وقد سبق لنا ان وصفنا في المقتطف الخبز المعزز الذي صنع في بريطانيا والولايات المتحدة وهو يحتوي انواع الفيتامينات والمعادن التي يفقدها الدقيق حين إعداد القمح وطحنه

وقد حفزت الحرب العلماء الى البحث عن مواد غذائية « جديدة » . ونعني بالجديدة : الاغذية العريقة في التاريخ ، ولكنها أُهملت الى أن كشف العلم الحديث قيمتها . ففول الصويا ، مثلاً ، حافل بالعناصر الغذائية ودقيقهُ مصدر رخيص للبروتينات ، فاذا كانت جراية اللحم قليلة ، اعتيض ببروتيناتهِ منها . ثم ان الخميرة التي كانت تنبذ ، في صناعة الجعة ، مصدر غني بالبروتين . وفي أنباءِ الولايات المتحدة ان طريقة جديدة قد ابتكرت لتحويلها الى مادة مغذية كاللحم ، ولها طعمهُ الطيب . وقد ثبت ان « الجوافا » أغنى مصدرٍ معروف بفيتامين C ويستطاع تجفيفها فاذا مسحوقها طيب النكهة ويصلح في صنع المربيّات وغيرها

فالآفاق التي يستشرفها العلم الحديث ، في توفير الطعام الصحيّ للناس ، لا تُحدُّ . ولكن المشكلة لا تُحلُّ بالوقوف عند حدّ ما يستطيعهُ العلم ، بل تتعدّاهُ الى ما تستطيعهُ الحكومات ، من إحسان التوزيع ، ورفع مستوى العيش ، وما تستطيعهُ معاهد التربية والصحف ومحطات الاذاعة ، من نشر حقائق التغذية الصحيحة والحث على الأخذ بها . فالغذاء الصحي ، أحد اركان الصحة العامة ، والصحة العامة رأس مالٍ ، تصغر في جنبه ملايين الملايين

فؤاد صرّوف

# تحية لبنان المجاهد

لخليل ثابت بك

زار مصر في الشهر الماضي وفد لبنان وعلى رأسه دولة رياض بك الصلح. أقبل عن أمة أبية ناضلت فظفرت. وقد نشط وادي النيل للوفد الكريم وأعظمه ومن المآدب الفاخرة الحافلة التي أدبت تحية له مأدبة المصريين المنحدرين من أصل لبناني، في الثالث عشر من يناير (كانون الثاني). وفيها ألقيت خطب وأنشدت قصائد. ويطيب المقتطف ان تنشر الخطبة الفاتحة. وهي للاستاذ خليل ثابت بك رئيس تحرير المقطم ومن أعضاء مجلس الشيوخ بمصر، لانها تسجل يوماً خطيراً في تاريخ البلدان العربية الجارية الآن الى التآلف والتماسك، ذلك إلى جنب أنها مشبعة الاداء، بعيدة الغاية.

في الاثر المأثور يا سادتي ان لكل مقام مقال، فأي مقال يصلح لهذا المقـــام وأي مقال يليق به

لقد والله تمنيت ان يكون خطيبكم الليلة ابو تمام الطائي او ابو الطيب المتنبي او السموأل ابن عادياء فيصف هذا او ذاك ببليغ الشعر وجزل اللفظ وحسن الديبـــاجة ما تجيش به الصدور من حمية وحماسة وما يخامر النفوس من غبطة وابتهاج وما يهز اوتار القلوب من أماني وآمال حقق الله آمال الشرق العربي وأمانيه

وقد وجدت مجال القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

أما بعد فخير ما يستهل به المقال في هذا المقام ان نرفع باسم كل لبناني ولبنانية وكل سوري وسورية وكل منحدر من اصل لبناني أو اصل سوري أسمى آيات الاخلاص والولاء وأبلغ عبارات الحمد والثناء الى جلالة الجالس على عرش مصر الازلية الفاروق المعظم فقد طوق عنق لبنان بعطفه السامي وفضله الملكي وأسدى الى اللبنانيين في وطنهم ومهاجرهم أيادي ستبقى مذكورة مدى الدهر. وسيكون شعار لبنان في قلوب اللبنانيين بعد اليوم الارزة الخالدة يزينها الاسم الكريم اسم الفاروق العظيم الذي يهتف به الآن في كل مكان

لن ينسى لبنان يا مولاي وكيف ينسى وأنت القائل « واني مع لبنـــان الى النهاية » هذه العبارة التي نقشت في صفحات الصدور وعلى ألواح الاذهان

يا مليك القلوب ويا حبيب العروبة ويا نصير لبنان ـ أطال الله عمرك وأيد ملكك ووطد

عرشك وعظم مجدك — دعاء يصدر من صميم الافئدة ويصعد في طبقات السماء الى سدرة المنتهى

ونقدم أصدق فروض الشكر الجزيل ونعرب عن شعور الامتنان الكثير الى حكومة جلالته السنية برئاسة صاحب المقام الرفيع الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا فقد دافعت عن قضية لبنان اعظم دفاع وأثبتت للملأ ان الاتحاد العربي حقيقة واقعة سيكون لها في مصر والشرق كله شأن أيما شأن

وماذا نقول للامة المصرية الكريمة هذه الامة العزيزة التي نتشرف بالانتساب اليها والتي أصبحنا جزءاً منها والتي نحن مستعدون اذا جد الجد لأن نبذل دمنا وأولادنا وأموالنا في خدمتها والدفاع عن كرامتها وسلامتها

ماذا نقول لها وقد جعلت قضية لبنان قضيتها فهبت كرجل واحد وغضبت غضبة «مصرية» ونادت بصوت واحد تطالب بالعدل والانصاف وتناصر دعاة الاستقلال — هذه الامة التي أحرزت زعامة العالم العربي فبايعتها شعوبه راضية مختارة — هذه الامة التي يحق لها ان تقول :

قومي استولوا على الدهر فتىً ومشوا فوق رؤوس الحقب

ماذا نقول لها رداً على هذا العطف وهذا الحب وهذا الاخاء

حياك الله يا مصرّ وبياك وأنالك أقصى أمانيك وخير أمانينا لك واذا عجز اللسان عن بيان فضائك والتغني بمكارمك فالقلوب تخفق بحبك والدعاء يرتفع بصونك يا كنانة الله في أرضه

لقد كان ماحدث في لبنان ياسادتي امتحانا. كان امتحانا دقيقاً عسيراً للديمقراطية والحرية وميثاق الاتلنتيكي واتحاد العروبة وروح لبنان وأهله فجاز الجميع الامتحان والحمد لله وانطلقت الألسنة والانباء تزف هذه البشرى الى كل نصير للحرية ومحب للاستقلال

وأنتم ايها السادة الكرام لقد جئتمونا بنفحة من طيب لبنان العزيز ذكّرت غير واحد منا بمعاهد الصبا ومغاني الشباب ولكنكم جئتم بما هو أعظم من هذا شأنا فقد تمثلنا فيكم وفي اخوانكم مظاهر نهضة لبنان هذه النهضة الوطنية الشريفة التي كانت موضوع فخر الشرق واهتمام الغرب والتي أيدت الحقيقة التاريخية الازلية وهي ان الله خلق الناس احراراً وعززت الحقيقة الاخرى وهي ان كل شعب يقبل الضيم لايستحق ان يعيش

لقد عرفنا البنفسج ينبت في ربى لبنان تحت اطباق الثلج حتى اذا طاعت عليه شمس الربيع ذاب الثلج وأزهر البنفسج ينشر طيب شذاه في الآفاق

ذاب الثلج عن لبنان وأشرقت عليه شمس الحرية والاستقلال وفاح في الجو أريج هذه النهضة كما عبق عبير البنفسج من قبل الآن

لقد اعتقلتم ورُوعت بناتكم واطفالكم ودُهمت دوركم في جنح الظلام ونُقلتم الى باستيل القرن العشرين ذلك الباستيل الذي سيرمز به بعد اليوم الى فشل بطش القوة وانتصار الحق والعدل على البغي والعدوان

هنيئاً لكم وهنيئاً للبنان بكم فلقد خططتم في تاريخ الشرق صفحة منيرة مزدانة بخير ما تزدان به صفحات الامم. فعلم الخاص والعام ان في سويداء لبنان رجالا وان في سويداء لبنان نساء. بارك الله في نساء لبنان أمهات الابطال وزوجات واخوات وبنات الشجعان فقد نافست نساؤكم رجالكم في الذود عن كرامة شعبكم واستقلال لبنانكم

حيا الله اولئك السيدات الكريمات فانهن لم يرهبن المدافع ولا بالين بالخطر . أنعم بهن وأنعم بكم

ولا أحاول هنا ان أفيض في وصف مآثر رياض الصلح واخوانه الوزراء والنواب العاملين معه وسائر اركان النهضة الكريمة فان هذه الاستقبالات الرائعة والهتافات العالية والحفاوة العظيمة التي يلقاها الرئيس وزميلاه من جميع مصر ملكها وحكومتها وشعبها والموجهة اليهم والى حكومة لبنان وشعبه لابلغ ما يمكن ان يقال في بيان فضله وفضلهم وتقدير جهاده وجهادهم

ستعودون الى وطنكم الأول وقد ازددتم ثقة بالمستقبل بما شهدتم في وادي النيل السعيد من ارتياح الى نجاح قضيتكم وأمل عظيم بمصير شعبكم ودعوات صالحة باطراد نجاحكم وعهود صادقة بشد أزركم

فاحملوا معكم غير مأمورين خير تحية وتقدير للبناني الاول فخامة الشيخ بشارة الخوري فقد أحسن تمثيل روح النهضة اللبنانية وفعل في الازمة الحاضرة ما يطابق أماني اللبنانيين في جميع أقطار الارض

لقد أخذتم انتم رجال الحكم في لبنان على عاتقكم عبئاً عظيماً واضطلعتم بتبعات خطيرة وقد يكون ما هو آت أشق مما مضى واكبر. وفي قديم الزمان قال المجربون « أرسل حكيما ولا توصه » وأنتم الحكماء والحمد لله فلا تحتاجون الى من يوصيكم . غير ان هناك رسالة أرى فرضا علي ان ارسلها. ورسالتنا نحن الذين لم يتح لهم مشاركتكم في جهادكم بالفعل انتم حراس لبنان — هي اننا معكم مستعدون لتأييد كل ما يعزز قواعد استقلال لبنان ويرفع قدره ويعظم شأنه ويصون كرامته

ستلقى في طريقكم العثرات وتخلق لكم مشكلات وعقبات . وسبيلكم الى نزع الاولى وتذليل الثانية بعد عون الله اتحادكم وعقد خناصركم وتعزيز صرح قوميتكم باقامته على أسس العدل والانصاف ونزاهة الحكم والمساواة بين الجميع قولا وفعلا وأن يعمد اللبنانيون جميعا الى بناء كيانهم القومي لا على القاعدة الضيقة قاعدة الخلاف الديني والفروق المذهبية بل على القاعدة الكبيرة قاعدة مصلحة الوطن والاشتراك في اللغة والتقاليد والعادات والاتجاه وحسن صلات المودة والاخاء بجيرانكم اخوانكم الاعزاء

وفقكم الله الى ما فيه صلاحكم وخيركم وشمل لبنان وسائر أقطار الشرق العربي بعنايته ورعايته ، إن الله أكرم مسؤول

خليل ثابت

# الصناعات المصرية[1]

## أثرها في الرخاء القومي في زمن السلم والحرب

للدكتور حافظ عفيفي باشا

### مصر بلاد زراعية

هكذا كانت منذ القدم . وهكذا ستظل آخر الدهر ما دام يجري فيها النيل العظيم بلا انقطاع ويحمل الى أرضها الماء العذب والخصوبة . وما دامت شمسها الساطعة المشرقة تبعث الحياة والنمو في كل ما تنبته أرضها من مختلف المزروعات

ولو كانت الارض المصرية المنزرعة والتي تستصلح للزراعة تكفي غلتهما معاً كل المصريين لما كان في هذا غناء عن التفكير في ايجاد مورد آخر غير الزراعة يعتمد عليه المصريون في حياتهم هذا الزمان . فما بالنا والأرض المنزرعة الآن — رغم جميع الجهود التي بذلت لزيادة الانتاج وتنويعه وتحسينه — لا تكفي مطالب كل سكان هذا البلد الذي انخفض فيه مستوى المعيشة الى الحد الذي نعرفه جميعاً ، وان ما يمكن استصلاحه من الاراضي غير المنزرعة لا يتكافأ مع الزيادة المطردة في عدد السكان حتى اذا رضينا بهذا المستوى المنخفض

وعدم التكافؤ بين نسبة مساحة الأرض المنزرعة والتي يمكن استصلاحها ، وبين عدد السكان في الحال والمستقبل يرسم لنا خطوط مشكلة اجتماعية معقدة تنذر بأخطار شديدة إذا لم يتدارك أولو الرأي في هذه البلاد مواجهتها من الآن بما يناسبها من علاج حاسم

***

نحن نشكو ونضج بالشكوى من انخفاض مستوى المعيشة في مصر

ونحن متفقون على ان أساس الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي أو الصحي أو الثقافي أو أي اصلاح آخر مرتبط أشد الارتباط بما نستطيع عمله لتحسين حالة الفقر التي يعانيها كثرة المصريين

لذلك وجب على جميع المفكرين أن يبحثوا بامعان في الوسائل العملية التي تؤدي الى علاج

---

(١) محاضرة ألقاها حضرة صاحب السعادة الدكتور حافظ عفيفي باشا عن الصناعة المصرية في الثالث والعشرين من يناير ١٩٤٤ بصالة (الرواد) : في قاعة المحاضرات بالجمعية الزراعية الملكية بالجزيرة

مشكلة الفقر في مصر علاجاً ناجعاً حتى يمكن رفع مستوى معيشة كثرة أهل هذه البلاد الى الحد الذي نرجوه

ولا يكفي للوصول الى هذا الهدف أن تقرر أية سلطة رفع الأجور أو المرتبات مثلاً ، فذلك طريق هين ولكنهُ لا يؤدي إلاّ الى علاج مهدىء ، فضلاً عما هناك من عوامل اقتصادية كثيرة تحد من سلطة الحكومات في هذا الشأن . وإلاَّ تعرضت البلاد من وراء استمرار رفع الأجور بمثل هذه الوسائل الى أزمات اقتصادية تكون نتيجتها عكس ما نرجو فتزداد الحالة سوءًا وعسرا

أما علاج مشكلة الفقر علاجاً ناجعاً هو في زيادة انتاج الأيدي العاملة وفي استثمار جميع ينابيع الثروة في البلاد استثماراً مبنيًا على أساس من العلم والخبرة

وليس لنا أن نطمع كثيراً في تحسين مستوى المعيشة في مصر اذا ظلَّ اعتمادنا مقتصراً على الانتاج الزراعي وحده . ذلك بأننا بعد جهود مضنية كدنا ننتج من أرضنا أقصى ما يمكن انتاجه دون أن يترتب على هذه الجهود ارتفاع كبير في مستوى المعيشة

وليس هذا بغريب، فالواقع ان البلاد التي تعيش من الزراعة وحدها بلاد فقيرة

لذلك يجب علينا أن نركز الكثير من جهودنا في زيادة الانتاج الصناعي أيضاً . فصناعتنا لا تزال ناشئة . وهي لا تشغل إلا حيزاً صغيراً من ميدانها الفسيح . ولا يزال أمامنا في هذا الميدان نواحٍ عديدة ومنابع غزيرة يجب استغلالها على أحدث الاساليب . كما يجب على حكوماتنا أن تشجع المفكرين والمبتكرين وأصحاب رءوس الأموال على الاقدام للدخول في هذا الميدان بدلاً من استثمار أموالهم وحصر جهودهم في الزراعة وحدها . فتشجيع الحكومات أمرٌ لا بد منهُ في أول النهضة الصناعية لأن الاستثمار الصناعي محفوف بأشد الاخطار ومعرَّض لكثير من المفاجآت التي تثبّط الهمم

واذا كانت الزراعة تدر أرباحاً محدودة وكانت مفاجآتها تنحصر في نقص غلة محصول من المحاصيل في سنة من السنين فان رأس المال فيها مضمون الى حدٍّ كبير. على حين مفاجآت الصناعة أشد خطراً إذ قد يتضاءل فيها رأس المال نفسه بل قد يضيع كله أحياناً . وهذا هو رأس العلة في إحجام المولين المصريين عن استثمار أموالهم في الصناعة — وهم الذين ألِفوا عدم المجازفة والمغامرة وفضلوا الحصول على ربح ضئيل مضمون على آخر جزيل محتمل

ولا يكفي لتبديل هذه الحال أن تقتصر الحكومة على النصح والارشاد بل لا بدّ من اتخاذ جميع التدابير التشريعية والعملية لاقناع هؤلاء المولين بأن أموالهم ومصالحهم في بعض الأمن من مفاجآت الصناعة . وألاّ تنتهز الحكومة كل فرصة ملائمة لرواج الصناعة

فتُثقل كاهلَها بضرائب قد تكون محتملة في وقت هذا الرواج ، ولكنها تضيّع حتماً على رجال الصناعة أحسن المناسبات للاستفادة من هذا الانتعاش المؤقت لتوسيع مصانعهم وتحسين آلاتها واتقان منتَجاتها ووضعها على أساس مالي متين حتى تستطيع الصناعة أن تقاوم ما قد يصادفها من أزمات وما يعترضها من مختلف المتاعب في المستقبل

هذا هو تشجيع الحكومة الحقيقي للصناعة

وهذا هو السبيل لإقناع المصريين لاستثمار أموالهم فيها

وبهذا فقط تتوافر الأموال اللازمة لها ويتسع النشاط الصناعي الذي تتطلبهُ حاجات البلاد

أما أن تبحث الحكومة كل ما يفرض على الصناعة من ضرائب في جميع البلاد الصناعية العريقة وأن تسعى الى فرض أمثالها على الصناعة المصرية الناشئة فهذا أمرٌ يدعو الى التفكير والامعان الشديد

فان الصناعة في مصر لا تزال -- كما قدمتُ -- في دور الطفولة والتجربة ، وهي أشد الأدوار الصناعية خطراً وأكثرها كلفة . وليس في استطاعتها أن تحتمل ارهاق أمثال الضرائب التي تفرض الآن في بلاد محاربة تنفق يومياً على الحرب عشرات الملايين من الجنيهات

***

واني حينما أدعو الى تشجيع الصناعة في مصر والى تحويل جزء كبير من أموال البلاد ومن مجهودات شبابها المثقف الى الناحية الصناعية فلست أدعو الى التعلق بالخيال أو التشبث بالمحال . فقد أثبتت الظروف أن نجاح الصناعة في مصر ممكن ، ميسور . وأن جميع أسباب نجاحها متوفرة . فالمادة الأولية موجودة عندنا . والوقود الطبيعي متوفر . وتوليد الحرارة بالطرق الصناعية مستطاع . وأهم من ذلك أن المصري صانع ذكي ماهر . وكانت بلاده مهداً لصناعات يدوية كثيرة . واشتهر اجداده قديماً بالمهارة والابتكار وحسن الذوق

وإن نظرة سطحية الى متاحف الآثار الفرعونية أو الاسلامية في جميع انحاء العالم والى ماتحويه من بدائع الصناعات اليدوية الدقيقة التي أخرجتها عقول مصرية وصاغتها أيدٍ مصرية لتكفي للدلالة على تقدم الصناعة المصرية في عهدها القديم

واعتقادي أن هذه الأجيال الطويلة التي ماتت فيها الصناعة أو كادت لم تضعف من مهارة الأيدي المصرية. فلا يزال العامل المصري مستعداً لاتقان أية صناعة غريبة عنهُ اذا أُحسن تعليمه وإرشاده . وجميع الذين يتولون الاشراف على المصانع المصرية الآن يعلمون هذه الحقيقة ويعجبون بعمالهم المصريين وبسهولة ادراكهم لأسرار أكثر الآلات الصناعية دقة وتعقيداً

أذكر لكم بهذه المناسبة أنهُ لما صدقت النية على إنشاء مصانع الغزل والنسج في كفر الدوار اختير لهذه المصانع أحدث الآلات المستعملة في هذه الصناعة وهي آلات اوتوماتكيَّة أي تتحرك بنفسها وإنما تحتاج إلى اشراف عدد قليل من العمال المهرة . فرأى تجار هذه الآلات أن من واجبهم قبل اتمام الصفقة أن يوجهوا نظرنا الى ما سنلاقيه من المتاعب بسبب دقة هذه الآلات والى ضرورة اختيار عمال مهرة تمرنوا مدة طويلة على ادارتها وإلاَّ تعطلت عن العمل واحتاجت لاصلاحها الى الاستعانة بصناع من الاجانب . وفي هذا ما فيه من اضاعة للوقت والمال . فلم يأبه مؤسسو مصانع كفر الدوار لهذه النصيحة وصمموا على شراء أحدث ما أخرجته صناعة آلات الغزل والنسج

وقد أقيمت هذه المصانع من سنين كما تعلمون . ويدير آلاتها الآن مهندسون مصريون وعمال مصريون ويَندهش من يزور هذه المصانع الآن اذ يرى صبيًّا صغيراً لا يتجاوز السادسة عشرة ، امام أدق آلاتها صنعاً وهو يُحكم ما نيط به من عمل ويفهم معنى كل صوت تحدثه الآلة التي يشرف عليها ومغزى كل حركة من حركاتها

وكما أن أرض مصر تنبت الكثير ، وتحوي تربتها الكنوز من المواد الاولية ، التي تصلح لصناعات كثيرة فكذلك لا تنقص مصرَ رءوس الأموال اذا اتجه أصحاب الثروات فيها الى ناحية الصناعة وفكروا في استثمار جزء من اموالهم فيها بدل استثمارها كلها في الزراعة وفي شراء الأراضي بأثمان لا تناسب غلتها

على أننا — مع هذا — يجب ألاَّ نضع العراقيل أمام رءوس الأموال الاجنبية التي يريد أصحابها استغلالها في الصناعة المصرية ما دامت تخضع لقوانين البلاد

فان الصناعة تحتاج الى رءوس أموال ضخمة . كما أن استخدام مثل هذه الاموال في الصناعة لا يخلو من مجازفة لا يقدم عليها المصري بسهولة . فاذا صممنا على قصر رءوس الأموال الصناعية على الأموال المصرية وحدها فان التقدم الصناعي في مصر قد يتأخر زمناً طويلاً وليس هذا في مصلحة أحد

والواقع أن الصناعة في كل مكان لا تعرف جنسية الأموال المستثمرة فيها

فالأموال الاميركية تستعمل في الصناعات الانجليزية . والعكس بالعكس . والأموال الانجليزية والأميركية تستعمل الى حدٍّ كبير في الصناعة الايطالية والألمانية

وقد احتاجت اليابان وايطالية بصفة خاصة لإمكان ترقية صناعتهما في هذا الزمن الوجيز الى رءوس أموال كبيرة جاءتهما من البلاد الأجنبية

واذاً فجميع أسباب نجاح الصناعة في مصر متوفرة كما قدمت وبخاصة اذا بدأنا حياتنا

الصناعية بالحذر وبنينا أساسها على أحدث الأساليب العلمية والاقتصادية ولم نقصّر في البحث والاستقصاء قبل الاقدام على انشاء صناعة من الصناعات حتى نكون مجهزين بكامل العدد والوسائل

***

وبعد، فهل نحن في حاجة الى دليل لامكان قيام صناعات اهلية متعددة في مصر، ولامكان استغلال جزء كبير من ثروتنا الأهلية ومن ثروتنا الفكرية في الميدان الصناعي بعد ان رأينا بأعيننا نجاح صناعات كثيرة تؤدي الآن للبلاد أكبر الخدمات

اني لا استطيع في الزمن الوجيز المحدد لي أن أجمل لحضراتكم اعمال الشركات الصناعية القائمة الآن أو مدى تقدمها وتعدد نواحي نشاطها ودرجة النجاح الكبير الذي أصابته في انتاجها من تحسين واتقان. فنظرة سريعة الى هذه العروضات التي جمعت ونسقت في هذا المكان توضح لكم مدى التقدم الذي بلغته الصناعة المصرية في سنوات قلائل — هذا مع ان هذه المعروضات تمثل في الواقع جزءاً صغيراً من منتجاتنا الصناعية

وانكم لتعلمون مع هذا ان الصناعة في مصر مولود حديث

فنحن قد بدأنا نفكر في الصناعة منذ الحرب العالمية الماضية حينما أحسسنا بكثير من النقص في حاجاتنا وبارتفاع أثمان ما كنا نجده منها ارتفاعاً كبيراً استحال معه على طبقات كثيرة من الأمة أن تحصل على مطالبها الضرورية

ولقد يذكر بعضكم انهُ لم يكن من السهل في فترة تلك الحرب الحصول على ثوب «البفتة» إلاّ بثمن باهظ بلغ وقتئذٍ نحو خمسة جنيهات وارتفع أحياناً الى ثمانية

هذا مع العلم بأن طرق المواصلات البحرية في الحرب الماضية لم تكن مقفلة باحكام كما هي في هذه الحرب القائمة، اذ كان طريق البحر المتوسط مفتوحاً في الحرب الماضية الى نهايتها

على ان نشاطنا الصناعي الحقيقي لم يبدأ الاّ بعد سنة ١٩٣٠ حينما تقررت التعريفة الجمركية الحالية التي روعي في وضعها وجوب حماية الصناعة في مصر وتخفيف أثر مزاحمة الصناعة الاجنبية لها

وقد انتهز هذه الفرصة السانحة فقيد البلاد المغفور له محمد طلعت حرب باشا فنهض واستنهض الهمم داعياً المصريين الى الاهتمام بالصناعة فنجحت دعوته. ولم يكتف بهذا بل عرض على بلاده مشروعات صناعية متعددة تمت دراستها بعناية، وأشرف على تنفيذها وهي تقدم الآن للبلاد، كما تعرفون، أكبر الخدمات

فحياة الصناعة المصرية في الواقع دون العشرين سنة. وبالرغم من حداثة عهدها فانها

قد ترعرعت في هذه الفترة القصيرة ونمت نمواً كبيراً — في نطاق نشاطها — فاق ماكان يتوقعه أكثر المصريين تفاؤلاً واقتناعاً

فقد تأسس في هذه الفترة شركات مصرية كثيرة برءوس أموال كبيرة يتناول نشاطها الصناعي آفاقاً متعددة . وتنتج من المصنوعات أنواعاً وألواناً شتى

ويكفي لمعرفة قيمة الصناعة المصرية الآن—على انها عامل—في الثروة الاهلية أن نذكر أن نصيب الصناعة المصرية في هذه الثروة لايقل عن نصيب الزراعة بل قد يزيد عليه

فالبلاد تنتج الآن من المنتجات الصناعية ما يزيد ثمنه على ثمن محصول القطن المصري . كما يربو عدد العمال المصريين الذين يشتغلون في الصناعة ويرتزقون منها على مئات الآلاف يتناولون مرتبات سنوية تقدر ببضعة ملايين من الجنيهات. ويتناول العامل في المتوسط أجراً لا يقل عن ضعف ما يتناوله العامل الزراعي ، وقد يصل أحياناً الى خمسة أمثاله . كما فتحت لآلاف الشبان المتعلمين أبواب رزق واسعة كانوا لا يجدون مثلها من عشر سنوات الا بالتوظف في الحكومة

ولست أستطيع الآن أن أذكر لكم احصاء وافياً عن رءوس الاموال المستثمرة في جميع الصناعات بمصر أو عدد الموظفين والعمال من المصريين الذين يعملون في الصناعة ويرتزقون منها ، ولكني أستطيع أن أذكر لكم بدقة بعض الأرقام عن بعض شركات مصر

رأس المال وعدد الموظفين والعمال ومرتباتهم السنوية والقطن المستهلك وكميات الانتاج في شركات النسيج

| الشركة | رأس المال | عدد الموظفين | المرتبات السنوية | عدد العمال | الاجور السنوية | كميات الانتاج |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | جنيه | | جنيه | | جنيه | |
| المحلة | ١ر٠٠٠ر٠٠٠ *<br>١ر٠٠٠ر٠٠٠ سندات | ٥٠٠ | ١٨٠٠٠٠ | ٢٥٠٠٠ | ١٠٠٠٠٠٠ | ٧٠ر٠٠٠ر٠٠٠ ياردة أقمشة<br>١٨ر٠٠٠ طن غزل |
| كفر الدوار | ٥٠٠ر٠٠٠ | ٣٥٠ | ٦٠٠٠٠ | ٥٠٠٠ | ١٩٠٠٠٠ | ٣١ر٠٠٠ر٠٠٠ ياردة أقمشة<br>٤ر٠٠٠ طن غزل |
| الحرير | ١٢٥ر٠٠٠ | ١٥٥ | ٣٢٠٠٠ | ١٨٠٠ | ٨٠٠٠٠ | ٣ر٥٠٠ر٠٠٠ ياردة أقمشة |
| المجموع | ٢ر٦٢٥ر٠٠٠ | ١٠٠٥ | ٢٧٢٠٠٠ | ٣١٨٠٠ | ١٢٧٠٠٠٠ | ١٠٤ر٥٠٠ر٠٠٠ ياردة<br>٢٢ر٠٠٠ طن |

* استهلك جزء من هذه السندات

| | | |
|---|---|---|
| وبذلك يبلغ رأس مال هذه الشركات الثلاث ( بما في ذلك قيمة السندات المصدرة ) | ٢٫١٢٥٫٠٠٠ | جنيه |
| ويبلغ عدد الموظفين والعمال | ٣٢٫٨٠٥ | أشخاص |
| وتبلغ مرتباتهم وأجورهم السنوية | ١٫٢٧٠٫٠٠٠ | جنيه |
| وتنتج من الأقمشة ما طوله | ١٠٤٫٥٠٠٫٠٠٠ | ياردة |
| ومن خيوط الغزل ما وزنه | ٢٢٫٠٠٠ | طن |
| وتستهلك من القطن ما وزنهُ نحو | ٦٠٠٫٠٠٠ | قنطار |

هذا ما تؤديه الصناعة المصرية في زمن السلم من خدمات لأهل هذه البلاد وهو ظاهر لا يحتاج الى شرح طويل . فلقد رأينا انها فتحت أبواباً جديدة يرتزق منها جيش من الموظفين والعمال وهي تقدم للمستهلكين من المصريين بضاعة مصنوعة يقدر ثمنها بما يقرب من ثلاثين مليون جنيه سنويًّا ، كانت تأتي لهم من البلاد الأجنبية وبذلك يتسرَّب كل ثمنها الى الخارج

أما الآن ، وبعد أن قامت الصناعة المصرية في مصر ، فان ما يتسرَّب من هذه الأموال لا يزيد على ربع هذا المبلغ الضخم أو خمسه . وهو ثمن الآلات والمواد الأولية التي لا توجد في البلاد في الوقت الحاضر . وبذلك قد ساعدت الصناعة مساعدة كبيرة على تحسين الميزان التجاري في مصر بعد أن كان مائلاً لمصلحة أكثر البلاد الأجنبية قبل نهضة الصناعة الأهلية

ولتحسين الميزان التجاري أكبر الأثر في مركز البلاد المالي وفي اقتصادها القومي

ويضاف الى هذا أن قيام الصناعة في مصر كان له أكبر الأثر في زيادة موارد خزانة الدولة

ومع انهُ في غير الميسور معرفة قيمة الضرائب الصناعية البحتة بدقة فانهُ يمكن القول ، بناءً على الاحصاءات الرسمية ، ان جملة الضرائب المختلفة على التجارة والصناعة التي حصلتها الخزانة في السنة المالية المنتهية في ٣٠ ابريل ١٩٤٣ قد زادت على ١١ مليون جنيه وستزيد حصيلتها حتماً على ١٥ مليون جنيه في السنة المالية الجارية

هذا بخلاف المقدر لرسم الانتاج وهو نحو ٨ مليون جنيه . وهو ضريبة على الصناعة وحدها

وعلى هذا فايراد الخزانة العامة من الضرائب المباشرة التي تحصل عليها من الصناعة والتجارة يربو على ٢٣ مليون جنيه دون احتساب ما يخصهما من الرسوم الجمركية . في حين أن نصيب الخزانة العامة من الضرائب العقارية على الأطيان والأملاك يقل عن السنة ملايين من الجنيهات

أما ما تؤديه الصناعة المصرية للبلاد من خدمات في زمن الحرب فهو أكبر أثراً وأكثر وضوحاً

وكما قلت لحضراتكم في أول هذه الكلمة ان الأمم الزراعية أمم فقيرة وستبقى فقيرة ما اكتفت بالزراعة وحدها . كذلك أقول لكم أن الأمم الزراعية أمم ضعيفة أمام الاعتداء الخارجي . وستبقى معرضة لكل غزو ما بقيت زراعية فحسب

وإذا كانت اليابان ، وسكانها لا يزيدون كثيراً على الخمسين مليوناً ، قد غزت الصين التي يبلغ عدد سكانها عشرة أضعاف سكان اليابان، فما هذا إلاّ لأن اليابان اكتفت الى ما قبل نحو خمسين سنة مضت بالزراعة وحدها . ثم عملت حكوماتها في هذه الفترة القصيرة على انشاء صناعات أهلية زاهرة . وأما الصين فقد رضيت بالزراعة مكتفية بها للآن ولم تأبه للصناعة. وأمامنا الآن ما تعمله روسية في هذه الحرب وما وصل اليه جيشها من القوة والاستعداد وما كان عليه هذا الجيش في الحرب الماضية

واعتقادي أن ما نراه من تفوق روسية الحربي الآن ما هو الا نتيجة طبيعية لجهود تلك البلاد في الناحية الصناعية — ذلك المجهود الجبار الذي بدأ في الخمس عشرة سنة الاخيرة والذي بدت آثاره الآن ظاهرة للعيان . وليس من الممكن الآن او قبل الآن أن يعتمد بلد من البلاد في محاربة أي عدو له على استيراد أدواته الحربية من الخارج

فاذا كانت هذه النظرية صحيحة في الماضي فهي أصح في الحرب الحديثة التي تحولت فيها كل المعدات الحربيــة الى آلات ميكانية دقيقة وزاد استهلاك هذه الآلات الى حد كبير بعد استعمال الطائرات كآلات حربية أيضاً

ولأجل أن تتبينوا صدق ما أقول تصوروا أن مصر المستقلة دخلت في حرب مع أية دولة أوروبية — فماذا يمكنها أن تفعل ؟ ؟

يمكنها أن تشتري من المدافع والطائرات والقنابل ومن كل أدوات الحرب أكبر مقدار ممكن لتخزينه في وقت السلم . فهل هي تستطيع مهما ضحت بأموال أهلها أن تخزن من هذه المعدات ما يكفي لحاجات حرب قد تدوم سنة أو سنتين أو ثلاثاً ؟ ؟ مع العلم بأن الطرق البحرية ستقفل في وجهها بمجرد اعلان هذه الحرب،ومع العلم أيضاً بأنهُ قد ثبت لنا مما رأيناه بأعيننا الآن أن آلات الحرب تتبدّل وتتغير وتتحسن بين وقت وآخر وفي أثناء الحرب نفسها تبعاً للتجارب التي تحصل عليها إبّانَ المعارك

وقد رأينا في هذه الحرب ان الطائرات والمدافع والدبابات التي استعملت سنة ١٩٤٠ قد صارت الآن غير صالحة إلاَّ للعرض في المتاحف الحربية على انها نموذج تاريخي قديم

أما ما كان يصنع منها بين سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٣٩ فقد أصبحت كلعب الأطفال اذا قورنت بما يصنع منها في سنة ١٩٤٤

أظنكم توافقون على انه ليس معقولاً ان تعتمد أمة في زمن الحرب على استيراد أدواتها الحربية من الخارج بل لا بدَّ لها من الاعتماد على صناعتها الأهلية لامكان حصولها على أكثر ما يلزمها من ادوات الحرب

أريد أن أنتقل بكم بعد ذلك الى نقطة جوهرية أساسية، وهي أنهُ ليس من الميسور في بلد من البلاد تأسيس صناعة حربية تخصص فقط لانتاج أدوات الحرب بعينها إذا كانت جميع الصناعات الأخرى معدومة أو محدودة في هذا البلد — فان الصناعات الحربية البحتة تعتمد على صناعات حديدية اخرى لامكان الحصول على المواد اللازمة لها . فصناعة المدفع أو البندقية تستمد مواردها الاولية من مصانع الحديد والصلب . فلا يمكن إقامة هذه الصناعة بالاعتماد على الحصول على الصلب اللازم لها من الخارج والاَّ اذا امتنع ورود هذا الصنف تتوقف هذه الصناعة على الأثر

كما أن صناعات حربية كثيرة اخرى كصناعة القذائف والقنابل تعتمد مادتها الاولية على الصناعات المعدنية والكيماوية فهي محتاجة الى منتجات معدنية وكيماوية كثيرة تقوم بها مصانع مختلفة . وهنا أيضاً لا يمكن الاعتماد على ورود هذه المواد من الخارج بل لا بدَّ أن تصنع في الداخل لأغراض السلم ولتجد الصناعة ما يلزمها منها في كل وقت

وكما تحتاج صناعة الطائرات الى صناعة الحديد والصلب فهي تحتاج أيضاً الى صناعات النسيج والخشب واللفائف المعدنية والى صناعات كثيرة أخرى

وأستطيع أن أذكر لكم الكثير من الصناعات التي يستعمل انتاجها في زمن السلم وهي في الوقت نفسه لازمة كل اللزوم لاقامة صناعة حربية بحتة في البلاد

لذلك تعتبر بحق صناعات النسيج . وصناعات أدوات البناء . والصناعات الكيماوية . وبخاصة صناعة الأسمدة . والصناعات الحديدية والمعدنية . وصناعة تحضير وحفظ المواد الغذائية . وصناعات كثيرة أخرى ، صناعات حربية لا غنى عنها

ولهذه الأسباب أيضاً لا تجدون في البلاد الصناعية مصانع تقوم على صناعة أدوات الحرب وحدها

فمصانع ( كروب) مثلاً لا تشتغل بإعداد المدافع والآلات الحربية وحدها، بل هي مصانع صلب وحديد ايضاً تنتج من المصنوعات اللازمة للسلم ما يعد بمئات الانواع. وتقوم بجانب هذا في زمن السلم بصناعة الآلات الحربية بمقادير محدودة . فاذا ما أعلنت الحرب تحوَّلت هذه

المصانع في ساعات أو أيام الى مصانع لانتاج أدوات حربية متعددة . وإلاّ لو اشتغلت في زمن السلم بأدوات الحرب وحدها — وحاجات البلاد الى هذه الأدوات في زمن السلم محدودة — لتضاءل العمل في هذه المصانع ولاستغنت عن الكثير من عمالها ومهندسيها وأصبحت عبئاً ثقيلاً على أصحابها وعلى الدولة نفسها

ولقد سمعتم أن جميع مصانع السيارات ومصانع الحديد ومصانع الكيماويات قد تحولت في زمن قصير في ألمانية وفي انكلترة وأمريكة — عند اعلان هذه الحرب القائمة — الى مصانع حربية لا تشتغل بغير الانتاج الحربي

وقد يدهشكم أن أذكر لكم أن الصناعة المصرية — وهي حديثة النشأة كما تعلمون — تقدم لقوات حلفائنا في مصر كثيراً من أدوات ومصنوعات مختلفة ومنها مصنوعات حربية بحتة يقدر ثمنها بملايين الجنيهات ويقدر وزنها بمئات الآلاف من الأطنان . ومعنى هذا أنهُ لو لم تكن بمصر صناعة أهليـة لاحتاجت حليفتنا الى مئات من البواخر لجلب المصنوعات التي تنتجها الصناعة المصرية الآن

على انهُ يجب ألاّ ننسى أن توفير حاجات سكان البلاد من جميع المصنوعات في وقت الحرب أمر ضروري لضمان استمرار مقاومة هذه البلاد . فان مقاومة أي بلد من البلاد تطول أو تقصر وتقوى أو تضعف تبعاً لامكان حصول أو عدم حصول أهل البلاد على حاجاتهم الضرورية

ولهذا أعتقد اعتقاداً راسخاً انه لا بدّ لنا — كما قدمت — من أن نركز الكثير من جهودنا لزيادة الانتاج الصناعي وترقيته وانتشاره اذا أردنا أن نستكمل معدات الدفاع عن بلادنا . وعند ذلك فقط يمكننا أن ننشيء صناعات حربية بحتة تقوم وقت الحرب بسد حاجات الدفاع عن البلاد . كما أعتقد اعتقاداً راسخاً أيضاً انه لا أمل لنا باقامة هذه الصناعات الحربية إلاّ اذا ساعدنا على تثبيت أقدام جميع صناعات السلم القائمة الآن والسعي بعد ذلك بجد وبسرعة لاتمام الحلقة الناقصة في سلسلة الصناعات المصرية الضرورية للسلم وللحرب في آن واحد

***

واستكمالاً لهذه الحلقة أرى أن نُعنى كل العناية بتشجيع انشاء صناعات حيوية جديدة . وبين أيدينا الآن فرصة سانحة تساعدنا على ذلك — هي فرصة كثرة الاموال المتداولة في السوق المصرية . ومن المناسب انتهاز هذه الفرصة لتشجيع أصحاب الأموال من المصريين على التفكير في المشروعات الصناعية التي يجب أن تقوم بها البلاد في المستقبل

سواء لما بدا من ضرورتها في هذه الحرب أو لوجود مادتها الأولية في مصر أو في البلاد القريبة منها

ويجب أولاً وقبل كل شيء اتخاذ العدة من الآن لانتهاز أول فرصة ممكنة لتنفيذ مشروع صناعي هام يترتب عليه انقلاب عظيم في حياة البلاد الاقتصادية وهو مشروع كهربة خزان أسوان . فلقد شغل هذا المشروع تفكير الحكومات وجميع الرجال المسؤولين في هذه البلاد منذ ثلاثين سنة . ودرست مشروعات عديدة لتنفيذه كما استخدم الكثيرون من الخبراء العالميين لدرس هذه المشروعات المختلفة وابداء رأيهم فيها . ومع ذلك لم نبدأ في تنفيذه للآن . مع انه يتوقف على تنفيذ هذا المشروع الحيوي الخطير إحياء صناعات لا غنى للبلاد عنها بل هو يخلق من أفقر مديريات القطر — وهي أسوان — منطقة صناعية مزدهرة . كما يمكنهُ ان يخلق من مناطق أخرى مراكز صناعية هامة بعد نقل التيار الكهربائي اليها

ولعلّ أهم الصناعات التي يمكن إنشاؤها ، اذا تم تنفيذ هذا المشروع ، صناعة الحديد والسماد . فالحديد الخام متوفر في أسوان . وهو من نوع جيد بشهادة الكثيرين من الاخصائيين الأجانب . وهو — كما لا يخفى — المادة الأولية لكثير من الصناعات المعدنية والميكانية . أما الأسمدة الآزوتية فضرورتها واضحة لبلاد زراعية كمصر . وقد أثبتت الحرب الحالية هذه الحقيقة بشكل لا يحتاج الى بيان . إذ لو كانت هذه الصناعة موجودة الآن داخل البلاد وأنتجت من الأسمدة الآزوتية حاجة زراعتها دون أن تضطر الى الالتجاء للخارج لاستيراد كميات غير كافية منها وبأثمان باهظة لزادت غلة أرضنا من الحبوب ومن القطن زيادة كبيرة

على انه يشتق أيضاً من صناعة الأسمدة صناعات أخرى عديدة لانتاج كثير من المواد الحربية الضرورية كصناعة المفرقعات مثلاً

***

وهناك صناعات كثيرة ينتظر لها النجاح في مصر نذكر منها : —

### ١ — صناعة السليلوز Cellulose

ومشتقاته كالحرير الصناعي الذي تقدمت صناعته الآن بشكل واضح والذي تصنع أحسن أنواعه الآن من بقايا القطن ، وصناعة الحرير والسليلوز هي في الواقع سلسلة صناعات كياوية يتحول أكثرها في زمن الحرب الى صناعات حربية

## ٢ — صناعة استخراج المعادن

كذلك من واجبنا ان نهتم بصناعة استخراج المعادن الكثيرة المدفونة في اقليم البحر الأحمر . فانه يوجد في باطن هذا الاقليم أنواع متعددة من المعادن القيمة اللازمة للسلم والحرب وقد ثبت — فضلاً عن وجود البترول بكميات وافرة — وجود المعادن الآتية بكميات تجارية . واكثرها قابل للاستغلال وهي : — الفوسفاة — المنجنيز ـ الولفرام Wolfram النيكل ـ القصدير ـ الكبريت — الرصاص — الزنك حجر الطلق Talc — الكالين — الكروم

ونرى في هذا الصدد أنهُ من واجب الحكومة أن تسرع في إنشاء الطرق المعبدة التي تصل وادي النيل بشاطىء البحر الأحمر وأن تسعى لايجاد مياه الشرب اللازمة هناك . فهذا الاصلاح يساعد كثيراً على استخراج هذه الثروة المدفونة ويشجع أصحاب رؤوس الاموال على التفكير في مثل المشروعات

## ٣ — صناعة حفظ الفواكه والخضروات

كذلك يجب أن نفكر في نشر صناعات حفظ الفواكه والخضروات التي تعتبر صناعة أساسية في جميع البلاد الزراعية

اننا ننتج كميات كبيرة من الخضروات. ونستطيع مضاعفة هذا الانتاج لو ضمنا له سوقاً خارجية . ونظراً لصعوبة ايصالها الى اوربا طازجة لعدم وجود بواخر التبريد اللازمة لهذا الغرض، فانتظاراً لهذا الوقت — الذي نرجو أن يكون قريباً والذي تستطيع فيه شركة مصرية أن تنشىء بواخر التبريد اللازمة لنقل الفواكه والخضروات والزهور الى اوربا — يحسن أن نفكر من الآن في البدء بصناعة حفظ هذه المنتجات اما بتجفيفها ، واما بحفظها ؛ كما هي واما بعصرها كما يحصل في صناعة الطماطم . وكل هذه صناعات تقدمت تقدماً كبيراً في زمن الحرب . فقد راجت صناعة التجفيف رواجاً عظيماً وصار تجفيف البصل مثلاً صناعة رابحة كما صار في الامكان حفظ جميع الخضروات البقلية والطماطم والجزر وخضروات كثيرة أخرى بطريقة لا تفقدها أية ميزة من ميزاتها الغذائية بل لا تفقدها أحياناً لونها الطبيعي

وقد قامت اخيراً صناعات كثيرة من هذا النوع في مصر وراجت رواجاً كبيراً ونرجو أن يزداد نشاطها في المستقبل ، وأن تستكمل جميع أسباب التحسن والتقدم . هذا ولا يزال في هذا المجال متسع لجماعات مالية جديدة تتأسس للقيام بهذه الصناعة على نطاق واسع

## ٤ — صناعة المطاط

وأخيراً يمكن أن تؤسس بنجاح صناعة ضرورية لا توجد مادتها الأساسية في مصر الآن . ولكن هذه المادة تمر من طريق مصر الى اوربة لتصنع فيها . وأقصد بذلك صناعة المطاط ( الكاوتشوك ) . فقد أثبتت هذه الحرب ضرورة هذه الصناعة أيضاً . وهي صناعة أوربية وأميركية . ولكن مادتها الأولية تأتيها من الملايا والهند الصينية . ولا مانع من نجاح هذه الصناعة في بلادنا لتموين مصر والبلاد الشرقية القريبة . وقد اطلعت قبل الحرب على تقرير فني ظهر لي منهُ امكان نجاح هذه الصناعة في مصر نجاحاً جليّ المظهر . ولو تبين لنا من أبحاث زراعية يجب ان نقوم بها إمكان زراعة المطاط في مصر اذاً لأصبح أمر نجاح هذه الصناعة موكداً

***

أيها السادة : لقد حاولت ان أوضح لحضراتكم في كلمات قليلة حالة الصناعة المصرية وآثرها في الاقتصاد القومي في السلم وفي الحرب

حاولت أن أوضح : أولاً — أن انتشار الصناعة في البلاد هو السبيل الوحيد لرفع مستوى معيشة الطبقات الفقيرة والطريق الوحيد لعلاج مشكلة الفقر والبطالة ولايجاد عمل في المستقبل للشباب المتعلم وغير المتعلم

ثانياً — أن انتشار الصناعة وازدهارها هو السبيل الوحيد لسد حاجات أهل البلاد من الضروريات بأثمان مقبولة وقت الحرب وإبان السلم

ثالثاً — أن انتشار الصناعـة هو — كما بينت لحضراتكم — الأساس المتين الذي ترتكز عليه في المستقل جميع الجهود لامكان الدفاع عن سلامة البلاد

وإني لا أشك في أن الصناعة تتمتع برعاية الحكومة وتأييدها . لذلك رأيت من واجبي ان اترجم لأولي الأمر ولجميع المفكرين في مصر عما يجيش في صدور رجال الصناعة من خواطر وآمال

وأسعد الأيام — ايها السادة — هو يوم نرى فيه بلادنا وقد رسخت فيها أقدام الصناعة على أقوى الدعائم وأصبحت فيه بلاداً صناعية كما هي الآن بلاد زراعية بل هو اليوم الذي نطمئن فيه على زوال شبح الفقر والعوز الذي يطارد كثيراً من الطبقات ، في مصر . وهو اليوم الذي يخفق فيه علم السعادة والهناءة على بلادنا المحبوبة . جعلها الله دائماً موفورة الخير والبركة والسلام في ظل مليكنا المعظم « فاروق » حفظهُ الله لمصر وللصناعة المصرية راعياً ونصيرا.

ميخائيل نعيمة

# صرفت حبيبتي عنى

صرفت حبيبتي عني ، وناشدتها الله
ألاّ تعود اليّ إلاّ من بعد أن تتقن الحب

لكنها ما عتمت أن عادت وأكبت بشفتيها على شفتي
كأنها الرضيع الجائع يكب على ثغر أمه
وعند ما انتشت وتنهدت تنهدة الشهوة الظافرة
سلخت فمها عن فمي وهمست في أذنها :
اليكِ عني يا يمامتي
لقد أيقنت تغذية ملذاتك المائتة
أما الحب فما تعلمته بعد

وأطلت على الأرض أهلّة حول بكامله
واذا بحبيبتي تسترق خطاها الى مخدعي
كأنها الحلم عند الفجر
واذا بها تجثو عند قدميّ فتغسلهما بدمعها السخين
وتجففهما بأنفاس مهجتها المتأججة
وعند ما ابتهلت عيناها الى عيني همّست في أذنها
انهضي ، انهضي ، يا يمامتي ، واليك عني
لقد تعلمتِ كيف تروين احزانك العطشى
أما الحب فما تعلمته بعد

وانقضى الحول والحولان من قبل ان عادت حبيبتي تقرع بابي
وفي يدها الواحدة مبخرة ، وفي الأخرى شمعة مشعلة
وما إن اجتازت العتبة حتى أخذت تسجد لي وتمجدني
بصوت كله حنين وايمان وورع
وعند ما فرغت من عبادتها همستُ في أذنها
اذهبي ، اذهبي بسلام يا يمامتي
لقد أتقنت تمجيد محاسنك الموهومة
أما الحب فما تعلمتهِ بعد

ومرت دهور لم أرَ لحبيبتي في خلالها وجهاً
فأيقنت أن المنية أدركتها
من فرط قساوتي ووفرة حبها
ورحت أبحث عن مقرها الأخير
الى ان بلغت شاطىء اللاذاتيّة
واذا بي أبصر حبيبتي هناك
غارقة في لجة من الأحلام
فدنوت منها بخفة ، وبرقة فائقة سألتها
ما بالكِ وحدكِ على هذا الشاطىء المهجور ؟
فأجابتني برقة فائقة
أيكون وحده من أضاع ذاته في الحب ؟
اذ ذاك هتفتُ عالياً :
اليَّ ، اليَّ يا حمامتي
لقد آن وقت الطيران (١)

(١) ترجمة نثرية لقصيدة بالانكليزية للشاعر نفسه ، من ديوانه الجديد « همس الجفون » ترى نقداً له بقلم الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني في باب المكتبة لهذا العدد

# غزو روسيا

## تفشل فيه ثلاث دول في ثلاثة عصور

— ٣ —


لادوار مرقص

من اعضاء المجمع العلمي


### اغارة الالمان على روسيا

فرغنا من ايراد ما استحسنا ايراده من أخبار الغزوتين الهائلتين في القرنين السابقين على روسيا وكيف أخفقتا كل الاخفاق ورد كيد الغازين المقتحمين في نحورهم . وحان لنا الآن أن نشير الى الغزوة الثالثة الحاضرة التي لا يزال العالم يرى آثارها ويسمع أخبارها . وقد انقضى عليها حتى كتابة هذه السطور — أواخر ايلول (سبتمبر) ١٩٤٣ — سنتان وثلاثة أشهر وكان الزعيم الالماني الطاغية هتلر قد أعلن مطبلاً مزمراً ان ثلاثة أشهر كافيـة وحدَها لهُ ولجيوشه الضخمة ومعهم جيوش ست دول تحالفهم لسحق روسيا واستعبادها كما سحق واستعبد غيرها من الشعوب والأمم في أقل من سنة . فاذا الروس غير من عهدهم من الشعوب واذا مكايدهم الحربية واستعدادهم العسكري فوق ما قدَّره وتصوره. ومع انهُ نال منهم ومن بلادهم منالاً عظيماً في السنة الاولى من الكفاح الى أواسط السنة الثانية أفهموه لأول وهلة بقوةٍ وأفهموا الخبراء العسكريين المحايدين الذين يراقبون احواله وأحوالهم ان ما كان يدّعيه لنفسه ويدّعيه له الناس من ان جيوشه لا تقاوم ولا تغلب إنما هو حديث خرافة ، وأن ما اصطلح على تسميته بالحرب الصاعقة أو الحرب الخاطفة لسرعة انتصاراته فيها بفضل تفوقه على عدوه أضعافاً مضاعفة في العدد والعتاد انما هو ظلٌّ زائلٌ انطوى بساطه واضمحلت غمامته فلا مندوحة له عن الصبر والمصابرة في مكافحة الروس وخسران الشيء الكثير من الوقت الذي يفيدهم ويتهدده . فيئس منذ الالتحامات الأولى من تلك الحرب الصاعقة التي أصلى نار جحيمها كل من اقتحمهم من بولونيين وفرنسيين وبلجيكيين وهولانديين ونروجيين وغيرهم . وهكذا تمكن الروس بتلك المطاولة التي أكرهوه عليها من أن يتمموا استعداداتهم ويلموا شعثهم ويسدوا كل ثلمة لحوها في جيشهم، ومن ثمَّ استردوا منهُ الى الآن ( أوائل خريف سنة ١٩٤٣ ) ثلثي ما كان دوخه

من بلادهم أو ما يفوق الثلثين وهم جادون في استرجاع البقية ولا شيء يعادل توفيقهم وقوة عزيمتهم إلاّ تضعضع العدو وانهيار عزيمته وانفضاض حلفائه عنه واحداً بعد الآخر . ومن المنتظر أن يصلوا بالحرب الى بلاد العدو ويحاربوه في عقر داره ويحاسبوا الألمان حساباً دقيقاً على الفظائع والجرائم التي ارتكبوها في روسيا العظيمة المقدسة . وهذا المصير العادل قد يحين حينه في اوائل الشتاء القادم وان تأخر فالى أواخر الشتاء حسب تقدير أولي الخبرة من رجال الحرب . ولا بدّ أن يشارك الروس في المرحلة النهائية القادمة جميع حلفائهم من انكليز واميركيين وفرنسيين وبولونيين وغيرهم . وهكذا تكون روسيا هي العامل الاكبر في سقوط المانيا الهتلرية والقضاء على مطامعها وانقاذ البشر من شرورها كما كانت العامل الاكبر في اخفاق الغازي العظيم كارلوس الثاني عشر الاسوجي وإذلاله ثم في قهر شاغل الدنيا وراعبها بفتوحاته نابليون الاول . وعن قريب ستنضم اليهما روح هتلر حاملة لهما التحيات والذكريات الفاجعة والعبر الرادعة فيتبادلون أحاديث خالدة في عالم البقاء

وأما الحقائق التي يتبينها العاقل المنصف من الحملة الالمانية النازية الحاضرة في روسيا فهي هذه :

أولاً — ان الجيش الروسي أضاف الى بسالته التاريخية نظاماً عسكريّاً بديعاً وتدابير حربية عجيبة . ولم يكن له شيء من ذلك في عهده السابق

ثانياً — ان وطنية صحيحة لا تتزعزع راسخة في أعماق نفوس الروس حتى انهم في طرفة عين نسوا اضغانهم وانقساماتهم السياسية والدينية اذ رأوا خطر الغزو يتهددهم فتصالحوا ظاهراً وباطناً وتألبوا يداً واحدة على العدو المعتدي وفعلت نساؤهم وأحداثهم في مقاومته والنكاية بهِ ما يكاد يعجز عنهُ فحول الرجال

ثالثاً — ان لروسيا بفضل علمائها المبرزين نصيباً ممتازاً من العلم والفن والاختراعات الحربية الجمة ، دلت عليه أحوالهم في الحرب الحاضرة وآخر ما سمعنا به من اختراعاتهم المدافع الضخمة المتحركة الجديدة التي لها مزايا تفوق مزايا المدافع الاعتيادية في مقاومة الدبابات وقضّ شوكتها

رابعاً — ان النظام الاشتراكي المتولي اليوم زمام الاحكام في روسيا ويعرف بالنظام السوفياتي أو البولشفي والذي أنال الروس التقدم العظيم الآنف وصفه ليس فيه الشذوذ الذي سمعنا به عنهُ ولا هو على الفظاعة التي كانت تنسب اليه عمداً أو جهلاً أو مجاراةً لعوامل سياسية مقصودة . وهبه ألمّ بطرف مما أشيع عنهُ وذلك اضطراراً في أوائل نشأته لأجل ترسيخ أقدامه فلا شك انه اعتدل بعد ذلك أي اعتدال وصالح الكنيسة ورجال الدين وعطف عليهم في بعض أمورهم حين رآهم مع عشرات الملايين من تباعهم وهم

رعاياه لا يقلون اخلاصاً للوطن الروسي واندفاعاً في سبيل تعزيزه ووقايته عن سائر اخوانهم الروس الذين اتخذوا المبدأ البولشفي

خامساً : ان أعظم الأدلة وأوضحها على اعتدال البولشفيك ان زعيمهم العظيم ومارشالهم المظفر ستالين أصدر أمره في أثناء الحرب الحاضرة بالغاء المجلس البولشفي الدولي الأعلى في بلاده . وهو المجلس العظيم النفوذ الذي كان يشرف على نشر المبدإ البولشفي خارج روسيا ويدعم دعاته هناك بمسعفات مادية ومعنوية لا تكاد تنفد . فلما ألغى ستالين هذا المجلس ازال من صدور الناس ولا سيما صدور حلفائه من فرنسيين وانكليز وأميركيين وغيرهم آخر حزازة بقيت في صدورهم منهُ وآخر تهمة كانوا يوجهونها اليه ولو سرًّا . فتصافت القلوب والنيات . وقد قال احد مفكري الديمقراطية اولئك : « ان المبدأ البولشفي بعد اعتداله والمبدأ الديمقراطي يكادان يلتقيان في صعيد واحد» . قلنا والظاهر ان هذا التقارب الذي بين المبدأين كان أعظم سبب هوّن على ستالين الغاء المجلس البولشفي والدولي نخفف عن كاهل دولتهِ أوزاراً من المتاعب والمصاعب وعن خزينتها قناطير من المال في كل سنة

ومما يثلج الصدور ويدعو الى الامان والاطمئنان ويفتح امام البشرية باب الآمال الذهبية على مصراعيه ان روسيا — كما صرّح غير مرة دهاقنة السياسة الانكليز والأميركيين — ستكون بعد ما تنتهي الحرب الحاضرة عضواً فعالاً عظيم الاثر في انشاء نظم سياسية واجتماعية واقتصادية — جديدة للعالم تكون خيراً من نظمه الحاضرة وأقوى منها على اتقاء الكوارث والويلات والمعضلات وأكفل لها لاغتنام الخيرات والبركات في ظل أحسن عالم وطيد الاركان. وفي مقدمة الوسائل المتخذة لهذا المشروع الانساني الأعظم ميثاق الاتلانتيك . ومداره تساوي الحقوق بين الامم ، كبيرها وصغيرها، قويها وضعيفها . فلكل امة كرامتها واستقلالها ومسعفات لها على رغد الحياة وصفاء العيش بتسهيل المواصلات بين اجزاء المعمور وازالة الشيء الكثير من الحواجز والعوائق الحالية وفي جملتها المكوس اي الرسوم الجمركية وإجراءات السفر والانتقال. وبديهي ان نجاح هذه المساعي العالمية يكون متعذراً اومتعسراً مشكوكاً فيه جدًّا اذا ظلت روسيا على تقاليدها القديمة في الابتعاد عن سبيلهِ مفضلة الانفراد والانفصال واتباع نظم معينة تختص بها أو اذا ظلت الدول تسعى الى ابعاد روسيا عن هذا السبيل حذراً منها او تحاملاً عليها، وروسيا جزء عظيم من العالم ولا سيما في نهضتها الحاضرة . فكل اصلاح يراد للعالم وليس لروسيا يدٌ فيه ولا رضى بهِ يظل اصلاحاً أشل أعرج معتلاً لا تكتب له حياة طويلة . أمّا وقد صرحت اليوم الدولة الروسية بصدق نيتها في مشاركة حلفائها المساعي العمرانية والسياسية ورحب الحلفاء سلفاً بهذه المشاركة فقد ذللت عقبة كؤود في سبيل الخير العام الذي يتوخونهُ وتنتظره البشرية منهم .

# دار الحديث النورية

للدكتور اسعد طلس
عضو المجمع الفرنسي بدمشق

هي أول دار حديث أنشئت في الاسلام كما يقول السبكي [١] وقد خرجت جمهرة عظيمة من المحدثين والمؤرخين . وتقلب عليها طائفة من الشيوخ والمدرسين لم تحظ بهم مدرسة من المدارس بدمشق كما سترى ذلك فيما بعد

﴿ تاريخها ﴾ ليس على باب هذه الدار ولا في حيطانها كتابة تعرفنا بها او تكشف لنا عن تاريخها.ولكن امام بابها باب المدرسة العادلية الصغرى التي بنتها الاميرة الايوبية السيدة زهرة خاتون ابنة الملك العادل[٢] . والمؤرخون الذين يحدثوننا عن العادلية الصغرى يقولون إنها امام دار الحديث النورية ، كما يقولون انها تقع بين دار الحديث الاشرفية — وهي ما تزال عامرة موجودة مشهورة — وبين المدرسة العصرونية التي درست وبني على انقاضها مخازن ودور ولم يبق الا [٣] جزء من صحنها في بركة وايوان للصلاة وما عدا ذلك درس[٣]

واسمها يدل على ان بانيها هو السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكي بن اقسنقر التركي السلجوقي مؤسس الدولة النورية العظيم ( — ٥٦٩ هـ — ١١٧٤ م ) وقيل بل التي بنتها هي السيدة عصمة الدين خاتون زوج صلاح الدين وهو خلاف المعروف ولم أر من ذكره سوى بدران

---

(١) نقله الشيخ عبد القادر بدران في «منادمة الاطلال» (ص ٧٨) من مخطوطة دائرة ارقاف دمشق ولا يذكر السبكي في الطبقات الكبرى ( ٤ / ٢٧٧ ) سوى قوله « وكان الملك العادل محمود بن زنكي نور الدين قد بنى له — اي لابن عساكر — دار الحديث النورية فدرس بها الى حين وفاته »

(٢) العادلية الصغرى هي غير العادلية الكبرى — مقر المجمع العلمي العربي بدمشق — وسنصف هذه فيما بعد — وأما العادلية الصغرى فهي في سوق العصرونية في جانبه الشمالي ، وسنصفها بعد أيضا

(٣) هي في محلة حجر الذهب المعروضة الآن بباب الريد في دخلته العصرونية بناها عبد الله بن هبة الله ابن أبي عصرون الموصلي (٤٩٢ — ٥٨٥ هـ ) كان عالماً سرياً ولاه نور الدين وصلاح الدين القضاء بالشام وكان نور الدين يعتقده فبنى له عدة مدارس بسورية وبنى هو مدرسته هذه

في «منادمة الاطلال» ولعلها بنت فيها شيئاً او وقفت لها وقفاً فظن بعضهم انها هي التي بنتها
ولا يجزم الدكتور سوفاجيه بشيء في مبدأ امرها بل يقول انها بنيت بين سنة (٥٤٩ هـ —١١٦٤م) وهي السنة التي امتلك نور الدين فيها دمشق و بين سنة (٥٦٩ هـ —١١٧٤ م) وهي السنة التي مات فيها[1]. ولم استطع انا على كثرة تنقيبي الاهتداء الى نص يقطع بذلك ويعتمد على حوادث تاريخية

من المعروف المتفق عليه ان نور الدين بناها لمحدّث دمشق العظيم ومؤرخها الحافظ بن عساكر ويظهر ان المؤرخ الدمشقي بعد ان طوف في العالم الاسلامي من اقصاه الى اقصاه يطلب العلم والحديث استقرت بهِ النوى في مسقط رأسه فأخذ يدرس ويؤلف ولم يكن بالشام ايامئذٍ دور علم كالتي رآها في بغداد او فارس والمشرق

ويظهر انه كاشف نور الدين بذلك او ان نور الدين نفسه قد أحسَّ بذلك فبنى له هذه الدار وظل يدرس بها ويستقبل العلماء والطلاب الى أن وافاه أجلهُ فخلف من بعده نفر من اسرته يقتفون أثره ، وسترى تفصيل ذلك فيما بعد

وقد ظلت هذه الدار عامرة يؤمها الطلاب والعلماء من أقصى الارض ففي شهر ربيع الآخر من سنة ثمانين وخمسمائة للهجرة زار دمشق الرحالة الأندلسي ابو الحسين محمد بن احمد المعروف بابن جبير الكناني فنزل بها وهذا نص كلامه « . . وصلنا دمشق في الضحى الأعلى من يوم الخميس الرابع والعشرين لربيع الاول والخامس ليوليه ، واستهل هلال ربيع الآخر يوم الاربعاء بموافقة الحادي عشر ليوليه ونحن بدمشق نازلين منها بدار الحديث غربي جامعها المكرم[2] » ومن المؤسف جداً ان ابن جبير على الرغم من اقامته في هذه الدار نحواً من شهرين لم يحدثنا بشيء عنها ولا عمن فيها من الطلاب والشيوخ ولا عما يقرأ فيها من العلم وكتبه على كثرة ما كتب عن دمشق ومعاهدها وأخبارها . وكل من يحدثنا عن هذه الدار بعد ابن جبير لا يحدثنا بشيء من تاريخها فلا نعرف ما أصابها ولا الأدوار التي مرّت بها ولا ما وقف في سبيل مصالحها . وكل ما نعرفه عنها هو ما يحدثنا به النعيمي في كتابه « تنبيه الطالب وارشاد الدارس » نقلاً عن المؤرخ الاسدي في كتابه « الكواكب الدرية في السيرة النورية » من أن وقف هذه المدرسة كان قليلاً . وقد نقل هذا النص بدران في منادمة الاطلال ولم يزد عليه[3]. ويقول المؤرخ الدمشقي ابن كثير في

(١) J. Sauvaget, Les Monuments Historiques de Damas, 53

(٢) «رحلة ابن جبير» ص ٢٣٩ طبع مطبعة السعادة بمصر

(٣) المنادمة — مخطوطة الاوقاف — ص ٧٨

«البداية والنهاية» « ان في سنة احدى عشرة وستمائة وسع الخندق مما يلي القيمازية [١] فأخربت دور كثيرة وحمام قيماز وفرن كان هناك وقفاً على دار الحديث النورية » [٢] . وقد نقل هذا الكلام عبد القادر بدران وقال بعده : « ولما بنى الملك الاشرف دار الحديث الاشرفية غربيها — سنة ثلاثين وستمائة — شرط أن يؤخذ من وقفها الفا درهم فتضاف الى وقف دار الحديث النورية فانصلح حالها » [٣]

***

وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة حين دخل التتار دمشق احترق قسم كبير من المدينة وكانت هذه الدار وغيرها من معاهد العلم طعمة للنار . قال الذهبي في مختصر تاريخ الاسلام « وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة دخل التتار دمشق وشرعوا في المصادرة والفسق ونهبوا الصالحية وسبوا أهلها ووقع الحريق من صاحب سيس والكفرة وعملوا المنجنيق والنقوب فأحرق أهل القلعة دار السعادة — مقر النائب — ودار الحديث الاشرفية ، والنورية ، والعادلية ، وخربت تلك المحلة ، وبقيت محلة باب البريد اصطبلاً فيه الزبل نحو ذراع [٤]

ويظهر ان هذه الدار قد أعيد بناؤها أو بناء بعض مرافقها بعد تلك النكبة حتى جاء العصر التركي فأخذت تضمحل حتى كادت تدرس . ويحدثنا الشيخ بدران عنها في هذا العصر فيقول « تقلبت بها الايام والدهور فأصابها ضريب مما أصاب دار الحديث الاشرفية فصارت للسكنى وطمس محراب مسجدها وطمرت بركة مائها لتغير رسومها فأرشد الله تعالى لاستخلاصها العالم الفاضل الفقيه الشيخ أبا الفرج ابن العالم الفاضل الصالح الشيخ عبد القادر الخطيب الدمشقي فأنقذها من يد مختلسها وجلس يقرىء فيها الدروس

ولقد شاهدتها وتأملتها أثناء كتابتي لهذه السطور فاذا هي الآن تشتمل على دهليز لطيف الخ »[٥] . هذا ما يقوله بدران

أما في أيامنا هذه فقد تهدمت ولم يبق من آثارها شيء إلاّ بابها وصحنها وفيها غرفة تكاد ان تنقض والقبلية متهدمة أيضاً والمحراب النفيس عرضة للاندثار وهي اليوم مقر لبعض الفقراء

---

( ١ ) هي مدرسة صارم الدين قيماز النجمي وكان متولي أسباب صلاح الدين في مخيمه وبيوته . وقد درست وكانت داخل بابي النصر والفرج ويقول بدران ص ٢٦٣ يؤخذ من كلام ابن كثير والعماد الكاتب انها كانت بالقرب من دار الحديث الاشرفية — بالعصرونية — (٢) البداية والنهاية ج ١٣/ ٦٨

(٣) المنادمة ص ٧٨ (٤) النظرة في المنادمة لبدران ص ١٧٥ أثناء كلامه على المدرسة العادلية الصغرى

(٥) النظرة في المنادمة لبدران ص ٧٧

﴿ مدرسوها ﴾ : أول من درس فيها حافظ دمشق علي بن الحسن بن هبة الله ثقة الدين المعروف بابن عساكر الدمشقي الشافعي صاحب تاريخ دمشق الكبير (٤٩٩هـ — ١١٠٥م — ٥٧١ — ١١٧٦) [١] وقد ظل يدرس فيها الى أن مات. ثم تولى امورها ابنه القاسم ابو محمد بهاء الدين الحافظ المسند كابيه (٥٢٧ هـ — ١١٣٣م — ٦٠٠هـ — ١٢٠٣م) [٢] والمؤرخون يذكرون ان القاسم هذا كان كثير التعفف عن مالها وانهُ لم يتناول من مرتبه شيئاً بل جعلهُ لمن يرد عليها من الطلبة والعلماء. وقيل انه لم يشرب من مائها ولا توضأ مغالاة منه [٣].
وبعد ابي محمد هذا اخذ يتوالى عليها نفر من بني عساكر [٤] ثم اسندت الى الحافظ الدمشقي زيد الدين خالد بن يوسف بن سعد النابلسي [٥] ثم تاج الدين ابو محمد عبد الرحمن بن ابرهيم ابن سباع الفزاري المصري المعروف بابن الفركاح (٦٢٤ هـ — ١٢٢٧م — ٦٩٠هـ — ١٢٩١م) [٦] ثم توالى عليها طائفة من المدرسين [٧] أشهرهم الحافظ المؤرخ العظيم ابو محمد القاسم بن محمد بن يوسف علم الدين البرزالي صاحب ذيل تاريخ ابي شامه والمعجم الكبير (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ م — ٧٣٩هـ = ١٣٣٩م) [٨]. ثم جماعة لم تصلنا اخبارهم

﴿ موقعها وتخطيطها ﴾ : لا تزال الدار موجودة في حي العصرونية كما تقدم ولم يبق من بنائها الاّ جبهتها الحجرية وفيها الباب الحسن ومحرابها ، وبعض مرتفقاتها وعلى الرغم من عدوان الدهر عليها ، لا تزال معالمها موجودة وخطوطها الرئيسية معروفة
بنيت هذه الدار فوق مربع مساحته (١٦٫٣٠ متراً × ١٧٫٢٠ متراً) كما يذكر الدكتور

---

(١) انظر ترجمته في معجم الادباء لياقوت ١٣٩/٥ ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢٧٣/٤ وشذرات الذهب لابن العماد ٢٣٩/٤ ، وطبقات الحفاظ للذهبي ١٢٢/٤ . ومقدمة الجزء الاول من تهذيب تاريخ دمشق المطبوع بدمشق بعناية عبد القادر بدران وبروكلمان في : G. A. L. ٣٣١/١ وذيله ٥٦٦/١

(٢) انظر ترجمته في طبقات الشافعية للسبكي ١٤٨/٤ وطبقات الحفاظ للذهبي ١٥٦/٤ ، وكشف الظنون للحاج خليفة ٥٧٥/٢ وبروكلمان G. A. L. ٣٣١/١ والذيل ٣٦٩/١ (٣) انظر بدران ص ٧٩

(٤) نذكر منهم : زين الامناء الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة الله ، وعبد الوهاب بن زين الامناء . انظر بدران ص ٧٩ (٥) لم نعثر فيما بين يدينا من المصادر على ترجمته

(٦) انظر ترجمته في فوات الوفيات للكتبي ٢٥/١ وطبقات الشافعية للسبكي ٦٠/٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٤١٣/٥ وبروكلمان G. A. L. ٣٩٧/١ والذيل ٦٨٦/١

(٧) نذكر منهم الحافظ محمد بن علي بن محمد الصابوني ، ثم مجد الدين بن المهتار ، ثم فخر الدين بن الحنبلي ثم شرف الدين احمد بن نعمة النابلسي ثم علاء بن العطار ثم البرزالي

(٨) انظر ترجمته في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٢٤٦/٦ .وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ص ٣٥٣ وذيل طبقات الحفاظ للدمشقي ص ١٨ وبروكلمان G. A. L. ٣٦/٢ والذيل ٣٥/٢

سوفاجه[1] يتوسط هذا المربع بركة جميلة للوضوء يكتنفها من الشرق والغرب غرف وفي الجنوب مصلى واسع

والى القارىء وصفها كما كانت قبل ثلاثين او اربعين سنة معتمدين على ما ذكره المؤرخ بدران : هي الآن تشتمل على دهليز لطيف فيه عن يمين الداخل حجرة وعن يساره باب مسدود ويظهر انهُ باب حجرة ايضاً ولكنها صارت حانوتاً للبضائع والتجارة ولها ساحة لطيفة وفي وسطها بركة ماء على نمط قديم وهندسة لطيفة وبها مسجد طوله احدى وعشرون خطوة وعرضه خمس خطوات وسقفه معقود بالحجارة والآجر المتين ومحرابه من الحجر المحفور المعجّن. وبالجانب الشرقي من الساحة حجرتان جديدتان وفوقهما غرفتان مثلهما وهما من بناء أهل الخير بواسطة الشيخ عبد القادر بن أبي الفرج بن عبد القادر الخطيب وفوق دهليزها غرفة أيضاً » [2]

هذا وصفها كما كانت أيام بدران أما وصفها كما تخيلهُ ، الدكتور سوفاجه فكما يلي : يرى الداخل اليها أول ما يرى بعد أن يترك الباب قبة فخمة من تحتها بهو على النمط المعروف في أكثر المعاهد المبنية في هذا العصر والى جانبي البهو غرفتان شرقية وغربية ثم يدخل الى الصحن المربع وفي شرقيه غرفة مستطيلة والى امتدادها غرفة أخرى أصغر . ثم الى غربي الصحن غرفتان كهاتين . وفي جنوبي الصحن القبلية الواسعة المستطيلة [3] . هذا هو موجز الوصف الذي يذكره سوفاجة معتمداً قواعد عمرانية وملاحظات فنية دقيقة . أما وصفها في أيامنا هذه فكما يلي : يدخل من الباب الى صحن الدار مباشرة أما البهو والغرفتان الشرقية والغربية والقبة فلم يبق لها من أثر وقد أرجع الباب نحواً من ثلاث أمتار . وفي الصحن البركة المطمورة بالتراب والى جانبها غرفتان شرقية وغربية بناؤها حديث ومن فوق الغرفة الشرقية غرفة علوية يصعد اليها بسلم حجري من الصحن . أما القبلة فلم يبق منها إلاّ حائطها الجنوبي وفيه المحراب الذي يكاد أن ينقض والحائطان الشرقي والغربي آخذان في الاندثار

﴿ بناؤها ونقوشها ﴾ من أروع ما يجتذب اطلال هذه الدار اطار بابها وحائط قبلتها الجنوبي ومحرابه ، فأما اطار الباب ورقعته [4] وهو من الحجر الاصفر الجميل ، الحسن في تنسيقه . وأما حائط القبلة فمن الحجارة المنحوتة الضخمة ويرى سوفاجه انها كانت مأخوذة من معبد قديم كان بجوارها . وأما المحراب فهو من حجارة منحوتة أيضاً منقول من موضع

(١) Les Monuments Ayyaubides, 15

(٢) منادمة الاطلال ص ٧٧ (٣) Les Monuments Ayyaubides de Damas

(٤) نريد بالرقعة ما يسميه رجال الآثار من الفرنجة ( Tabula ansata )

آخر قديم . وما عدا هذا فكل ما في الدار من عناصر البناء عادي أو دون العادي فالآجر المستعمل في بناء العقود والأقواس والكوى هو آجر رديء الجنس سهل التفتيت ، والخشب المستعمل في البناء والاسكفات هو من الخشب العادي أما نقوشها فقليلة جداً وهي نقوش المحراب والباب. فأما نقوش المحراب فهي نقوش قديمة منقولة من مكان قديم كما يرى سوفاجه [1] وهي نقوش تشكل نصف دائرة من الزخارف المعجنة تحيط بقنطرة المحراب وهي نوعان ( الاول ) نقوش زخرفية تشبه بعض الشبه النقوش العربية المعروفة بـ arabesque و ( الثاني ) نقوش تمثل بعض الفواكه الاقليمية من عنب وتفاح وورق جيد . وقد نقشت هذه النقوش بشكل بارز . وفي هذا دليل على ان هذه النقوش منقولة من معهد قديم وإلاّ فكيف ترسم هذه الثمرات البارزة الجميلة بين يدي الواقف في حضرة الله . واما نقوش الباب فنقوش ساذجة بسيطة وهي عبارة عن خطوط ثلاثة غائرة في الحجر تحيط بالباب من جهاته الثلاث ومن فوقها رقعة مستطيلة على امتداد اسكفة الباب العليا وهي رقعة غائرة ايضاً يظهر انهم كانوا يريدون ان يكتبوا عليها بعض الكتابات فلم يفعلوا

﴿ مزاياها الفنية ﴾ : قلنا في صدر هذا البحث ان هذه الدار هي اول دار حديث بنيت في الاسلام كما يرى ذلك بعض المؤرخين واذا صح هذا كان من الطبيعي ان تتخذ انموذجاً لبناء دور الحديث التي بنيت بعدها كدار الحديث الاشرفية وغيرها من الدور

وان من المؤسف ان تكون معالمها غير واضحة وضوحاً يبين تقسيماتها ومرتفقاتها وغرفها ثم ان يد المختلسين التي اختلست قسماً كبيراً منها تضطرنا الى أن نقول ما نقوله بشيء من الحدس والتخمين

ويظهر من الاستنتاجات العمرانية التي انتهى اليها سوفاجه والتي أشرنا اليها حين بحثنا عن موقعها وتخطيطها أن نمط البناء العراقي واضح فيها كل الوضوح كما يتجلى ذلك في اسلوب بناء الاقواس والقناطر والآجر المستعمل في ذلك وقد بحثنا هذا في مقالنا المنشور عن قبة صفوة الملك في عدد مارس سنة ١٩٤٣

ويلاحظ ان هناك شبهاً شديداً بين نمط بناء الدار و بين بعض المدارس الدمشقية كالمدرسة الريحانية [2] والمدرسة العذرائية [3] وهذا الشبه يتجلى بوضوح في خبو هذه العناصر من طابع

---

(١) Les Monuments Ayyaubides 1.ˀ

(٢) الريحانية هي مدرسة ريحان الطواشي خادم السلطان محمود بن زنكي وهي بجوار المدرسة النورية من الجانب الغربي وهي اليوم كتاب للاطفال . انظر بدران ص ٢٣

(٣) العذراوية هي مدرسة السيدة عذراء بنت صلاح الدين (٥٩٣) وهي جوار المدرسة القجماسية بزقاق المبلط غربي حمام الست عذراء وقد صارت الآن داراً ولم يبق منها سوى قبر الواقفة انظر بدران ص ١٧٥

لا تكاد تخلو منهُ مدرسة وهو الرواق . ومن هنا يمكننا أن نقول ان نظام الاروقة لم يكن معروفاً في المدارس الاولى التي بنيت بدمشق في اوائل العصر النوري والصلاحي

ويمكننا بالقياس الى ما عرف من نظام المدارس المتأخرة عن النورية ان القبلية كانت تستعمل للعبادة والدراسة معاً وان الغرفتين المستطيلتين الشرقية والغربية كانتا تستعملان للتدريس . أما الغرفتان الصغريان اللتان على امتداد هاتين فقد كانت إحداهما تستعمل غرفة للشيخ وثانيتهما مكتبة وأما الغرفتان اللتان تكتنفان المدخل فاحداهما للخادم والاخرى للذخائر والمؤن

ويلاحظ الاستاذ سوفاجه أيضاً [٢] ان المدارس ودور الحديث التي ظهرت بكثرة في الدولتين النورية والصلاحية هي معاهد شديدة التأثر بالفن الاسلامي العراقي او المشرقي بوجه عام لان بناة هذه المعاهد أكثرهم من أقوام جاءوا بلاد الشام من تلك الاصقاع فأحيوا فيه نظماً ما كان يعرفها . وطبيعي اذن أن يكون الأثر العراقي واضحاً في أسلوب البناء كما كان واضحاً في الانظمة المتبعة في هذه المدارس . ويغالي الاستاذ فيقول : ان هؤلاء الامراء الذين جاءوا الشام من العراق ، لما كانوا غرباء عن البلاد وغير مطمئنين الى اهلها في اداراتهم وسياستهم لم يكونوا كذلك — في أغلب الظن — مطمئنين اليهم في بنائهم وأنظمة تعليمهم فلذلك أحضروا بنائين ومهندسين من بلادهم الاولى — العراق وما اليه — ثم يعود الاستاذ فيشط في هذه النظرية قائلاً : اننا لا يمكننا أن نطمئن كل الاطمئنان الى هذه النظرية لأن بناء هذه الدار غير جميل ولا مستوف لكثير من شروط البناء الفنية على الرغم من جودة التخطيط وحسن الهندسة . فما هو السر في ذلك ؟ هل هو في ان هؤلاء الامرء كانوا يجلبون من العراق مهندسين ومصممين حتى اذا ما جاء المهندس ونظم خريطته وتصميمه عهد بذلك الى عمال وبناة من أهل البلاد ليس لهم فن العراقيين ولا خبرتهم العمارية القيمة فشوهوا البناء وأفسدوا الخطة بعض الافساد . وهذا هو ما يتجلى بوضوح لمن يدرس حالة الدار النورية دراسة فنية متمعنة . لعلَّ في هذا الكلام بعض الحق فان ما يلاحظهُ الانسان من سوء البناء في الدار النورية من جودة التقسيم والتخطيط يجعلنا نأخذ بقوة بهذه النظرية [٣]

وصفوة القول ان هذه الدار على ما أصابها من اضمحلال وفساد توحي الى المرء بتاريخ علمي مجيد لجديرٌ بالقائمين على أمور الاوقاف والمعاهد أن ينقذوها من سوء الحالة التي صارت اليها فان في ذلك حفظاً لسمعة البلاد وتمجيداً لتاريخها العلمي

(١) انظر Rev. Arts Asiat. 1934. 37

(٢) انظر Les Monument Ayyaubides 23—24

(٣) انظر Les Monuments Ayyaubides 24 — 25

# القوة المحركة

## من البحر

مصادرها ووسائل استعمالها

لو نفدت جميع موارد الفحم والنفط ، لبقي البحر مورداً عظيماً من موارد الطاقـة ، يفيض على كل ما يحتاج اليه العالم منها ، مهما يبلغ ارتقاء الصناعة وانتشارها

والطاقة من البحر قد ترتدُّ الى أحد مصادر ثلاثة . فثمة أولاً الحركة الموجية التي لا تستقرُّ على حالٍ حتى في الايام التي يكون البحر فيها رهواً ساكناً ، وهي تتجلّى على السواحل، وقوة الامواج إذاً عظيمة حقًّا . وليس في الوسع أن نورد أرقاماً تدلُّ على هذه القوة ، لأنها تختلف باختلاف المكان والزمان . ولـكن — من رأى الضرر الذي يحلُّ بأرصفةٍ مصنوعة من الآبرق ، حين تهب العواصف وتثور الامواج ، يدرك القوة العظيمة التي تنطوي في حركة مقدار كبير من الماء ترفعهُ الريح ويعزّزه المدُّ والجزر أحياناً

وحركة الماء في البحر بفعل المد والجزر هي المصدر الثاني من مصـادر الطاقة في البحر . فجاذبيـة الشمس والقمر ، تظهر مرتين كلَّ يوم في رفع ماءِ البحر ، رفعاً يتفاوت بتفاوت المكان ، ولـكنهُ قد يبلغ أحياناً وفي أماكن معيَّـنة اربعين قدماً . واذا تصوّرت الطاقة اللازمة لرفع مقدار من الماء حجمهُ بضعة ملايين من الاقدام المـكعّـبة ، الى ارتفاع عشرين قدماً، تفُـزْ بصورة صحيحة للطاقة المنطوية في حركة المدِّ والجزر . فاذا كان في الوسع استخدام جزءٍ من مائة جزءٍ من هذه الطاقة ، كان الجزء كافياً لتوليد القوة المحركة في بلدٍ كبير

أما المصدر الثالث من مصادر الطاقة في البحر، فهو الاختلاف الذي بين حرارة الماء على السطح وحرارتهِ قرب القاع. والفرق في الحرارة مصـدر من مصادر الطاقة، فاذا كان ذلك في نطاق واسع ، وأمكن استخدامهُ ، كفى لتوليد ملايين من وحدات الـكهربائية كل سنة

ان الحركة الموجية في البحر تبلغ من التفاوت مبلغاً كبيراً ، حتى لقـد أنكر فريق من المهندسين امكان استعمالها . ولـكنَّ هناك طرق كثيرة تصلح ، من الوجهة النظرية ، لاستخدام الحركة الموجية مصدراً للقوة المحركة . من هذه الطرق طريقة لمهندس كاليفورني تستوقف النظر، ولاسيما لأنهُ جرّبها وامتحنها على نطاق ضيق . وأما جهازه فمؤلف من اسطوانة تحتوي كبّاساً ، فالـكباس يحرك عجلة في أثنـاءِ صعوده بوساطة تروس ، وحين ينزل الـكبّاس

تنفكُّ التروس . هـذه الاسطوانة توضع في مصطبة مصنوعة من الأبرق ، مشيّـدة على الساحل بحيث يكون الماءُ دائماً قرب مستواها . وهي منحرفة ٤٥ درجة ، وطرفها مفتوح صوب البحر ، فاذا صدمت موجة طرف الاسطوانة المفتوح ، اندفعت فيها الى أن تصطدم بالـكباس فتدفعـهُ الى فوق ، حتى تنفد طاقة الموجة . فاذا تحرك الـكباس الى فوق ، بفعل الموجة ، حرّك العجلة ، وعند نزولهِ تفكُّ التروس ، فيصطدم الـكباس ثانيةً بالموجة التالية . أما وزن العجلة فيكون كبيراً بحيث يكون قصورها الذاتي كافياً لحفظها دائرة ، بين ارتفاع الكبّـاس اليها مبدا وارتفاعهِ اليها تالياً

ولـكن هناك صعوبة لا بدَّ من مواجهتهـا ، وهي ان الموجة لا تصطدم بالـكبّـاس في موضع واحدٍ ساعةً بعد ساعة ، لأن المدّ يرفع مستوى الماءِ ، فيكون مستوى الاصطدام في ساعة ما مختلفاً عنهُ في ساعة سابقةٍ أو لاحقة . وللتغلّـب على هذه الصعوبة ، استنبط المهندس المذكور جهازاً يرفع الاسطوانة ويخفضها وفقاً لانبساط المدِّ وانحسارهِ . ولهذه الوسيلة في استخدام الحركة الموجية تفصيلات أخرى لا يتسع لها المقام . ولـكنها بوجهٍ عام احدى الوسائل العملية التي استنبطت لاستخدام حركة الامواج

على أن الفريق الاكبر من المهندسين وجّـه عنايتهُ الى استخدام الطاقة التي في حركة المدّ والجزر . وهذه مسألة تبدو من الوجهة النظرية غاية في البساطة واليُـسر . وقد استعملت مطاحن في انكلترا تعتمد على المدّ والجزر ، منذ أكثر من مائة عام . وكل ما يلزم هو تركيب يمكن الماء المرتفع من تحريك عجلة، كما تتحرك العجلة في مطاحن تعتمد على الماء الجاري في الجداول والأنهار . أو قد يخزن الماء حين يرتفع ثم يجري فيحرك في أثناء هبوطه العجلة . وأكثر المطاحن القائمة في انكلترا وبعض سواحل الولايات المتحدة ، حيث يشتد المد والجزر ، يعتمد على خزانات تملأُ وقت المد ، ثم اذا انحسر المد ، يُسـِّـر للماء المخزون الجريان من خلال فرجة فيحرك العجلة في جريانه . وواضح ان هناك فترة غير قصيرة ، كل يوم ، لا تدور العجلة فيها ، وهي الفترة التي يكون الماء فيها ، داخل الخزان في مستوى ماء البحر . وطول هذه الفترة او قصرها مرتبطان بمقـدار المـاء الذي يخزن ، وارتفاعه ومعدل جريانهِ . ولذلك تجد طاحونة من هذا القبيل صالحة لطحن الذرة ، ولكنها لا تصلح لتوليد التيار الكهربي . فالتوقف في العمل الأول ممكن ، ولـكن توليد الـكهربائية يجب ان يكون متصلاً لـكي يكون نافعاً . وخزن الطاقة الـكهربائية لا يزال شاقـاً ، كبير النفقة

وقد انشئت مشروعات كبيرة، للاستفادة بحركة المد والجزر، لتوليد الطاقة الـكهربائية. منها مثلاً مشروع سد نهر سيفرن بانـكلترة . وهذا المشروع يقتضي انشاء خزان ارتفاعه

٥٠٠ قدم فوق سطح البحر ، في وادي « واي » . فهذا الخزان يستطيع بما يخزن فيه من الماء على ارتفاع معين ان يولد طاقة تعدل قوة ٧٠٠ الف حصان او مليون طن من الفحم في السنة . ويلوح ان العقبة الكبيرة دون تنفيذه ، هي العقبة المالية ، على قول الاستاذ ارنولد جبسون ، أحد أساتذة جامعة منشستر . فنفقاته تقدر باربعين مليوناً من الجنيهات

وهناك مصدر ثالث لاستمداد الطاقة من البحر ، وهو استعمال الفرق بين حرارة المياه على السطح وحرارتها قرب القعر . ففي المناطق المعتدلة ، لا يعد هذا الفرق شيئاً مذكوراً ولا يكفي لتوليد الطاقة ، ولكن في المناطق الاستوائية قد يبلغ الفرق عشرين درجة مئوية بين حرارة المياه على السطح وحرارتها على عمق ٨٠٠ قدم

وقد عني الكيميائي الفرنسي كلود وزميلهُ بوشرو باختراع الاساليب اللازمة للافادة من هذا الفرق في الحرارة . ففي سنة ١٩١٣ أشار كمبل الاميركي الى امكان الحصول على حرارة ميكانيكية او كهربائية من هذا الفرق بين حرارة مياه السطح وحرارة مياه الأعماق ثم انقضت عشر سنوات فتجددت العناية بما سبقت اشارة كمبل اليه . ولكن لم يتصدّ لتحقيق هذه الفكرة الا كاود وبوشرو . فقد أثبتا بالامتحان ان تربيناً يتحرك ببخار يتفاوت ضغطه بين ٣ ارطال و٣٠٠ رطل على البوصة المربعة يمكن تحريكه ببخار مائي متولّد من طبقتين من الماء يبلغ الفرق بين حرارتهما من ٢٥ درجة مئوية الى ٧ درجات مئوية . ومبدأ هذه الطريقة يتلخّص في ان جانباً من مياه السطح الساخنة يتحوّل بخاراً إذا ضعف الضغط الجوي عليهِ . وهذا البخار يستعمل في ادارة التربين مع ضعف ضغطه . ثم يؤخذ البخار ويبرّد بماءٍ مستمدٍّ من الطبقة الباردة ويقذف في البحر . فيولّد هذا التبريد الفراغ الجزئي المطلوب في الاناء الاول الذي يتحوّل فيه الماء الساخن الى بخار . ويؤخذ من حسابهما ان قوة قدرها ٣٨٣٠٠٠ « قدم رطل » يمكن توليدها من متر مكعب من الماءِ اذا كان الفرق بين الماء الساخن والماءِ البارد نحو خمس درجات مئوية . وعندهما أن هذا الأسلوب أكفأ كثيراً في توليد الطاقة من الأساليب المعتمدة على المدّ والجزر . وقد أثبتا في اوائل العقد الرابع من هذا القرن ان فرقاً من الحرارة يبلغ ٣٨ درجة مئوية يمكن استعماله لتحريك مولّد كهربائي يولد طاقة قدرها ٥٩ كيلو وط

بقيت ناحيتان لا تمتان الى هذه المصادر الثلاثة بصلة . اما الأولى فاطلاق الطاقة الذرية التي في ماء البحر . وأما الأخرى فالطريقة التي اقترحت من اكثر من عشر سنوات — وقد اقترحها حسين سرّي باشا (بك حينئذٍ) لتوليد الطاقة الكهربائية من ماءِ البحر بجرّه في أقنية وأنفاق الى حافة منخفض القطارة ثم ينحدر على تربين فيحركهُ . ويجد قراء المقتطف تفصيل هذه الطريقة في صدر مقتطف ابريل لسنة ١٩٣١

# اللغة البولندية

## وتاريخها

لحسين المهدي غنام

لايجد الباحث في الادب البولندي شعراً اسطوريًّا للبولنديين في العصور المتقدمة جدًّا أي قبل سنة الف للميلاد ... وكما انك لا تجد أبطالاً من أبطال البولنديين الشعبيين في تلك العصور الغابرة مجّدوا في شعر من ذلك النوع ، كذلك لا تجد اثراً من آثار الترجمة لقصائد القرون الوسطى التي عالجت بطولات ومغامرات آرثر أو شارلمان، أو هكتور أو الكساندر ذائعة في تلك القرون . . . وغيرها من أدب الفروسية . ذلك مع انك تجد شيئاً من مثل ذلك في آداب بوهيمية ، وهي الملاصقة لبولندا غير ان ما وصل الى الباحثين عن تلك الفترة استخلص من أقوال بعض المؤرخين الذين ألفوا باللاتينية ، أمثال : جالس، كادلبك ، بجخقال ، دلوجوش

يقول أول هؤلاء انهُ يوم موت بولسلاس الشجاع ، كان هناك تفجع عام

ويحدثنا بيسكي ، مؤرخ القرن السادس عشر — وقد كتب باللغة البولندية — انهُ لما عاد كازيمير الاول الى بولندا قابلهُ الشعب وحياه بأغنية مطلعها : مرحباً ، مرحباً بالسيد العزيز

وهنالك أغانٍ غير هذه الاغنية وجد بعضها في مكتبة فويتستسكي ، ولكن كان من الصعب تعيين تواريخها . على أن أقدم ترنيمة بولندية هي ترنيمة موجهة الى العذراء ، وقد اتخذت أيضاً كأغنية من أغاني الحرب

وأقدم مخطوط لهذه الاغنية تاريخه سنة ١٤٠٨ ، وكان محفوظاً الى عهد قريب في مدينة كراكوف التي كانت قديماً أعظم مدينة بولندية علماً ومدنية وحضارة . وكانت عامة الشعب تنسب هذه الأغنية الى القديس آدالبرت، ولكن يبدو انها مبنية على أغنية من بوهيمية

ولا شك ان كتابة الأدب البولندي بدأت باللغة اللاتينية ، على نحو ما بدأ الادب الانكليزي وغيره من آداب الامم الأخرى في عصورها الاولى . وهنا نرى ان الاكثرية من أدباء البولنديين وشعرائهم ومؤرخيهم من رجال الدين ماثلوا أدباء الانكليز وغيرهم من شعوب أوربة

أما تاريخ بولندة الوطني فيبدأ مع تاريخ انكلترة الوطني تقريباً، أي في القرن السادس عشر وأقدم من كتب باللاتينية في أدب البولنديين هو مؤرخهم مارتن جالس الذي يقال إنهُ مات

سنة ١١١٣ وقد قال فيه بعض المؤرخين انهُ رجل فرنسي ، وبذلك عرّفه الاستاذ بروكنر البرليني، وقد جاءت في أصل هذا الرجل تأويلات أخرى ، ولكن المحقق انهُ كان غريباً غير بولندي . والتأريخ الذي وضعهُ هذا الرجل مكتوب في أسلوب شعري خالص ، وقد كان عالي المنزلة . يدل على ذلك ما ذكره الكثيرون من قدماء المؤرخين الذين تلوه

وقد تبع جالس من المؤرخين ثلاثة آخرون حذوا حذوه ، هم ماتيو خولقا ، ڤنسنت كادلبك ، بجخفال ، وكان الأولان مطراني مدينة كراكوف ، والثالث قسيس مدينة بوزن

وظلّ ڤنسنت كادلبك مدة طويلة معدوداً في خير الكتّاب الشعبيين للتاريخ البولندي وكان مثلهُ في ذلك مثل ڤنزيلوس هاچك في بوهيميا ، فقد كانت له قوة عقلية خارقة وجاذبية في كتابته تحبب حتى الاساطير البعيدة والأقاصيص الخرافية الهائلة الى نفوس الشعب الذي ظلّ ينظر اليهِ زمناً طويلاً كسند معصوم من الأخطاء ، فأقبل على قصصه وأنبائهِ بشغف المنهوم . ولكن قصصه وأساطيره تلاشت قبل نشوء النقد الادبي الحديث فلم تعرف قيمتها ولا حددت مكانتها من أدب مواطنيه الآخرين أو آداب الامم الأخرى

أما كتاب التاريخ الذي وضعه باللاتينية فقد ترجم في نهاية القرن التاسع عشر الى اللغة البولندية بوساطة كاتبين بولنديين لم يعلنا عن أنفسهما ، وقد أضافا هذه الترجمة الى طبعة الكونت پسيشز چتسكي . وكان كادلبك في نشأته رئيساً لمدينة ساندومير ، ثم مطراناً لمدينة كراكوف . ومات راهباً سنة ١٢٢٣ . وبعد موته أنزله الشعب منزلة القديسين

وعلى اية حال فان مادة كتابه عظيمة القيمة كتاريخ لبلاده ، وان كانت اللغة اللاتينية التي استعملها لغة منكرة منفّرة جافة . ولا نجد بعد ذلك ، حتى القرن الرابع عشر ، نماذج محفوظة من اللغة البولندية ، إلاّ قليلاً من التعابير والشروح ، وبعض أسماء لأشخاص أو الأماكن ، وهذه اللمحات القليلة جمعها بعناية كبيرة الاستاذ ( بودوان دي كورتناي ) في كتابه (اللغة البولندية حتى القرن الرابع عشر).وفي ذلك القرن ظهر بعض المؤرخين الآخرين مثل مارتنوس بولونس ، وجون التشارنيكوفي . وهؤلاء استعملوا اللغة اللاتينية كذلك

ويبدو ان المزامير ترجمت كذلك الى البولندية في القرن الثالث عشر ، فقد جاء في بعض كتب التاريخ البولندي القديمة ان القديسة كوننجند ، من ساندتش القريبة من كراكوف والمتوفاة سنة ١٢٩٢ ، كانت ترتل عشرة مزامير باللغة القومية قبل أن تترك الكنيسة

وفي سنة ١٨٢٦ كشف القديس فلوريان في لتر بالنمسا أقدم نموذج للغة البولندية وأكبر ما عثر عليهِ حجماً من ذلك النوع في هذه اللغة . وهذا الاثر له اسم غريب ، وهو( كتاب مزامير الملكة مرجريت ) . ويبدو ان هذا المخطوط يرجع الى منتصف القرن الرابع عشر ، وقد وقف علي مراجعته باذلاً عنايته الكبيرة في ذلك ،الاستاذ نهرنج من برسلو ، ثم طبعه في

بوزن سنة ١٨٨٣. وكان المظنون انهـا نسخة من تأليف قديم . وتظن فئة ان تسمية ذلك الكتاب مأخوذة من اسم مرجريت الزوجة الاولى للملك لويس المتوفاة سنة ١٣٤٩ ، ولكن المؤرخ كارو يميل الى ان ذلك الكتاب يمت الى ابنة الملك ميري . والأثر الهام الثاني في اللغة البولندية هو انجيل الملكة صوفية الذي كان يسمى في الأصل انجيل شاروسياتاك ، وهو مكان في المجر كان يحفظ فيه ذلك الكتاب . وهذا الكتاب بحالته تلك ، غير كامل لانهُ يحتوي اسفار موسى ، يوشع ، راعوث ، وملاخي . وفيه فقرات من ثلاثة كتب اخرى ، وورقة وجدت منذ نصف قرن تقريباً في مكتبة جامعة برسلا وتضم جانباً عن النبي ارميا

ويقال ان هذا الانجيل كتب لاجل الملكة صوفية ، الزوجة الرابعة للملك لادسلوس ياجيللو ، حوالي سنة ١٤٥٥ ، وقد وقف على نشره مؤخراً الاستاذ ( مالتسكي Malecki) مؤلف قواعد اللغة البولندية القدير . وبذل جهوداً عظيمة في طبع ذلك الكتاب

ومن المحن التي ألمت بدولة بولندة القديمـة ، فقدانها كثيراً من المخطوطات العظيمة القيمة ، ولم يكن حظ بولندة الحديثة — وهي جمهورية بأحسن من حظها وهي مملكة ، فقد أحرقت مكتباتها ونهبت تحفها ودمرت مدنهـا وآثارها واندثر الكثير من معالم مدنيتها القديمة . ومن هذه الآثار القيمة ما حققهُ الاستاذ نهرنج من علماء القرن التاسع عشر . فقد ذكر انهُ وجدت في القرن الثامن عشر في مكتبة تشنشتوخوفة طبعة جميلة لطيفة من الكتاب في سبعة مجلدات متتابعة باللغة البولندية Czestochow واستدل على ذلك ببعض رسائل ليانتشكي Janocki فقد وجدت دار للطبع فيمدينة كراكوف الشهيرة وذلك سـنة ١٤٧٤ تقريباً ، ولكن أول كتاب في اللغة البولندية طبع في سنة ١٥٢١ في مطبعة ايرونيمس وكان عنوان ذلك الكتاب « أحاديث الملك الحكيم سليمان » . وانتشرت بعد ذلك تآليف أخرى

وقد كشفت في اواخر القرن التاسع عشر آثار قديمة من اللغة البولندية ، وكلها ذات فائدة ولذة للباحث في منشأ هذه اللغة النبيلة والتي كادت تهمل وتنمحي في الأزمان الغابرة

ومن تلك الآثار سيرة القديس ( يوفراكسي ) — Zywot S. Eofraksy وقـد تولى نشرها المسيو كراينسكي بوارسو ويرجع تاريخها الى سنة ١٥٢٤

واللغة البولندية من اللغات السلافية ، فالبولنديون من الفرع الغربي للجنس الصقلبي

ومع ان الكثيرين من المؤرخين وعلماء اللغات يعدونها من اللغات الجميلة ، فإن نطقها لا يخلو من صعوبة كبيرة للغرباء عنها ولاسيما نطق أعلامها وأسمائها، ونعتقد ان هذه الصعوبة هي جماع الصعوبات في اللغات الروسية والألمانية والبوهيمية والتوانية التي تأثرت بها تلك اللغة القديمة ، واللغة اللاتينية التي تركت فيها عديداً من الكلمات والاصطلاحات وما زالت

تستعمل فيها ... كما خالطتها كلمات المانية كثيرة . أضف الى ذلك غرابة نطقها نفسها ، فهم يستعملون مثلاً حرف a تحته نبرة فينطق عندهم كما عند الفرنسيين في كلمة Bon ، وحرفي cz معاً ينطقان تْـشْ ، وحرف J ي ، وحرف ó فوقه نبرة يستعمل واو الضم الثقيلة كما عندنا ، وحرفي RZ معاً كما عند الفرنسيين في كلمة Jour وحرفي SZ معاً ش ، وحرف W ف وحروف SZCZ مجتمعة معاً تنطق شتش ، وحرف E وتحته نبرة ينطق ( إنْ ) ، وغيرها وغيرها . ولعلّ شاعرهم كازيمير برودزينسكي عنى هذه الصعوبة في اللغة البولندية اذ يقول مفتخراً بهـا — « ليبتسم كل بولندي كبرياء إذ يسمع أحد سكان ضفاف نهر التيبر أو نهر السين ، يسمي اللغة البولندية لغة جافة ثقيلة . ويسمع وهو راضٍ مغتبط ، في وقار الحـكم العدل ، أجنبيًّـا وهو يحاول في مرارة ان ينطق الـكلمات البولندية العسيرة — كما يحاول مرهف رخو الاعصاب خائرها ان يرفع درعاً رومانية قديمة — او وهو يجتهد في لغوٍ ان يقوّم لغة الرجال ولـكن بلهجة الاطفال اللاثغة الضعيفة

« ولطالما كانت الشجاعة من مميزات جنسنا ولم نفقدها ، ولطالما بقيت اخلاقنا وآدابنا على كمالها فلنفخر بهذه الخشونة بل هذه الرجولة ، في لغتنا

« ان لها توافقها ، وانسجامها ، وسحرها ، وموسيقاها التي تشبه همهمة شجرة سنديان عتيقة عمرها ثلاثمائة سنة ، لا صفير انبوبة واهية ضعيفة تميل مع الريح في أي اتجاه )

على ان التجاء الأدباء البولنديين الى الـكتابة باللغة اللاتينية في عصورهم الأولى لم تنشأ عن هذه الصعوبة ، فالاوربيون يعدون لغتنا العربية — مثلاً — لغة صعبة جدًّا بل عسيرة على افهامهم ، ولـكننا لا نتركها لنكتب بغيرها من اللغات في عصرنا الحاضر ، فـكل شعب يستسهل لغته مهما صعبت ، كأهل الصـين مثلاً . ولـكنها كانت عادة كل الـكتّـاب والشعراء في تلك العصور القديمة ، في أوربة عامة ، وهؤلاء هم كتّـاب الانجليز وشعراؤهم في تلك الأجيال ، وغيرهم من الشعوب الأخرى لايكتبون الاّ باللغة اللاتينية ، وقد ظلّ الانجليز يستعملونها حتى العصور المتوسطة ، لأنها كانت اللغة الدولية تقريباً ، وكانت جميع شعوب اوربة تتعلمها لأنهـا أم لغاتهم جميعاً . . . وبخاصة في الـكنائس والديورة ، وبين رجال الدين هنالك نشأت الطوائف الاولى من الـكتّـاب والشعراء والمؤرخين ...

ولم تنتعش اللغة البولندية القومية الاّ في نهاية القرن الخامس عشر ، فقد ظهرت في بولندة فئة من الـكتاب والشعراء والمؤرخين استعملوا لغتهم البولندية القومية ، غير ان هذه النزعة لم تلبث ان ضعفت بظهور فئة أخرى من الأدباء والمؤرخين عادوا الى الـكتابة

باللاتينية ، فكانت هذه النكسة من المساوىء الاجتماعية في اواخر القرن السادس عشر ، وان كان هذا لم ينتقص من الثروة الأدبية والفكرية التي عادت على الأدب البولندي منها. ولم يمنع هذا ظهور كتّاب مبرزين استعملوا البولندية في كتاباتهم بأسلوب رفيع ، حتى كان القرن السابع عشر ، ولعله كان أسوأ قرن مرَّ على بولندة في العصور الوسطى ، فقد تحالفت عليها القوات الثلاث واقتسمتها ، بعد اضطرابات سياسية وأدبية واجتماعية اكتنفت الحياة البولندية كلها . وكان من نتائج تلك الاضطرابات تذبذب ادبائها وشعرائها آنئذٍ في تراوح الكتابة بين اللغتين البولندية واللاتينية ، فقد كانت اللاتينية حتى ذلك الحين لغة العلية والنبلاء ، الذين جنوا على بولندة جناية كبيرة[1] ، لا يهتمون بلغة الشعب ، ولا بالأدب الذي يكتب بهذه اللغة اطلاقاً . . . وكان الكتّاب عامة ينحون في كتاباتهم — بأي اللغتين — مناحي البلاغة البيانية والزخرف والبديع . وكان من نتائجها أيضاً ، ومن نتائج نظام التعليم الذي أدخله ( الجزويت ) في بولندة ، أن انحطت لغتهم القومية مرة أخرى واختلطت باللغة اللاتينية وداخلتها كلمات كثيرة غريبة شوّهتها وما تزال تشوّهها الى الايام الحاضرة . فتأثر الأدب البولندي بل الحياة البولندية كلها بالطابع الفرنسي في القرن الثامن عشر لكثرة اختلاط البولنديين بالفرنسيين ، فأخذت اللاتينية تضمحل في بولندة قليلاً قليلاً ، كما اضمحلت في غيرها من الامم ، الى أن أمست لا تستعمل إلاّ في بعض المناقشات الخاصة بين الافراد ، كلغة غريبة ، وأقبل الأدباء والشعراء على الكتابة بلغتهم القومية ، ولم يشذ إلاّ القليلون عن ذلك في كتابة قصيدة أو مقالة باللاتينية ، كما فعل شاعرهم الأكبر متسكيفتش ، في قصيدته التي وجهها الى نابليون ، ولكن غرضه كان أن يقرأها الامبراطور بلغة يدركها ، لأن القصيدة كانت تملقاً وطلباً لانصاف بولندة المغلوبة ، ولم تكن من أعمال الشاعر الجيدة

وهكذا عاد البولنديون الى استعمال لغتهم ، وان حاول الالمان جهدهم في أن يغيروا لغة القسم الذي كانوا يحتلونه منها في القرن الثامن عشر خاصة ، فأفلحوا بعض الشيء من طريق العنف في صبغه بصبغتهم ، كما سنبين ذلك في فصل آخر . ولكن البولنديين عامة التزموا لغتهم القومية منذ ذلك الحين . وظهر كتّاب وشعراء عديدون يكتبون بالبولندية ، وان كان معظمهم مجهولاً حتى في أوربة نفسها ، ففيهم من يضارع أبناء عمومتهم الروس

ولعلنا نتناول بعض هؤلاء الادباء والشعراء في مقالات أخرى

(١) سنبين ذلك في مقال آخر

# الدين والفلسفة

## الخصومة بينهما في المشرق

لمحمد يوسف موسى

« تكلمنا في الكلمة الاولى على الدين والفلسفة : معناهما ، نشأتهما ، العلاقة الطبيعية بينهما ، والعوامل الذاتية التي جعلت كلا منهما في طرف ، كلاهما للآخر عدو . واليوم نتحدث عن مظاهر الخصومة بينهما في الشرق الاسلامي »

لما انسابت الفلسفة اليونانية بين المسلمين تلقـاها جماعات منهم بعقول ظمأى للمعرفة وأوجس خيفة منها آخرون يظنون أنها تحمل الكثير من الشر والالحاد وتناهض الدين في بعض ما جاء به من مبادىء وعقائد ، ولهذا تلقاها هؤلاء — منذ اللحظـة الأولى — بصدور مطوية على سوء الظن بها وبالقائمين عليها والمروّجين لها

هذا هو تاج الدين السبكي يذكر عن المأمون أنهُ انساق للقول بخلق القرآن وناهيك بذلك بدعة في الدين وثلمة في صرحه ، بسبب القليل الذي كان يعرف من علوم الاوائل [1] كما يذكر ياقوت عن علي بن عبيدة الريحاني أنهُ كان له اختصاص بالمأمون ويسلك في تأليفه طريق الحكمة ، كما كان يُـرمى بالزندقة . [2] ويظهر ان التهمة بالزندقة والالحاد كانت تسير جنباً الى جنب مع العناية بالفلسفة أو مجرد الاشتغال بها ، ومن ذلك ترى أن ياقوتاً نفسه يذكر في موضع آخر ان أبا زيد أحمد بن سهل البلخي ، المتوفى سنة ٣٢٢ هـ ، كان يتأثر فيما يؤلف طريقة الفلاسفة ، ولهذا رمي بالالحاد [3]

وكان المتزمّتون — الذين لا يخلو منهم عصر — لا يعـادون الطبيعيات والالهـيات وحدها من العلوم الفلسفية ، بل تراهم أيضاً ينظرون النظر الشذر لعلم الحساب وعلم المنطق ، مع شديد الحاجة لهذين العلمين ، لا لشيء الاّ لأنهمـا من علوم الأوائل ، حتى كان من أمثالهم : « من تمنطق فقد تزندق » ! وكان حزماً من حجة الأسلام الغزالي أن يلوم اللوم الشديد ، في تهافته وفي المنقذ من الضلال [4] هؤلاءِ الجهلاء الذين يضرون الدين بموقفهم هذا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ! إذ من عرف وثاقة براهين الفلاسفة ، في هذين العلمين وسائر العلوم الرياضية لم يشك في شيء منها ، لـكن يعتقد ان الاسلام مبني على الجهل

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١ : ٢١٨ (٢) معجم الادباء ١٤ : ٥١
(٣) معجم الادباء ٣ : ٦٤ وما بعدها (٤) الاول ص ١٠ وما بعدها ، والثاني ص ٩٠ وما بعدها

وإنكار البرهان القاطع فيزداد للفلسفة حبًّا وللاسلام بغضاً » ! [١]

واذا تجاوزنا عصر الغزالي نجد أحد الخلفاء العباسيين ، وهو المستنجد بالله ، يأمر — كما يروي ابن الأثير — بكتب أحد القضاة فيحرق ما كان منها في علوم الفلاسفة ، فكان مما صار طعاماً للنار كتاب الشفاء لابن سينا ودائرة معارف إخوان الصفا [٢]. كما نجد ابن الجوزي المتوفى عام ٥٩٧ ﻫ يحكم على فلاسفة المسلمين ، الذين تأثروا فلاسفة الاغريق فيما ذهبوا اليهِ ، بأنهم خلعوا ربقة الاسلام ، وبأن اليهود صاروا أعذر منهم لتمسكهم بشرائع سماوية لها معجزاتها بينما هم لامستند لما كفروا بهِ الاّ زعمهم أن فلاسفة اليونان حكماء [٣]

وبعد هذا نشير الى حادث عبد السلام البغدادي المعروف بالركن الذي كان كل ذنبه أن استعمل فضل ما رزقهُ الله من عقل فيما أمر بهِ من النظر في ملكوت السموات والأرض ، فاتهم بالتفلسف وصُدر الأمر باحراق كتبه ، فتمّ هذا الجرم الشنيع في حفل حافل وتولى كبره عبد الله التيمي البكري فجعل يتناول كتبه كتاباً كتاباً ويبالغ في ذمه وذم مؤلفه ثم يلقيه في النار ، ولما وصل الى كتاب الهيئة للحسن بن الهيثم قال وهو يشير الى الدائرة التي مثّل بها الفلك: «وهذه الداهية والدهياء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء» ثم خرقها وأطعمها النار! [٤] على أن «الركن» تغير حظه بعد هذا فأُخلي سبيله وأُعيد الى مناصبه واستمر كذلك حتى مات عام ٦١١ ﻫ

ثم كان بعد ذلك محنة سيف الدين أبي الحسن علي الآمدي ، أوحد الفضلاء وسيد العلماء وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكيمة والمذاهب الشرعية كما يقول ابن أبي أصيبعة [٥]. لكن الحسد — وهو داء العلماء — كان له بالمرصاد ، فاتهم من الفقهاء بفساد العقيدة والذهاب مذاهب الفلاسفة ، وكتبوا بذلك محضراً استباحوا فيهِ دمه ، وعلم الآمدي ما يبيّتون لهُ ففرَّ هارباً من مصر الى الشام حيث أقام بدمشق مدرساً فترة من الزمن ، ثم عُزل لمثل ما قُرف بهِ في مصر وظلَّ متعطلاً حتى توفى عام ٦٣١ ﻫ

واذا وصل الباحث الى القرن السابع الهجري لا يسعه أن يغفل في هذه الناحية فتوى الامام المحدّث والاصولي الفقيه أبي عمر تقي الدين الشهرزوري المعروف بابن الصلاح المتوفى عام ٦٤٣ ﻫ ، تلك الفتوى الخاصة بتحريم المنطق والفلسفة تعلّماً وتعليماً ووجوب أخذ المشتغلين بشيءٍ من هذا بشديد العقاب ليكونوا لسواهم عظة وعبرة ، والتي كان لها أثر بالغ استمرَّ حتى هذه الأيام !

سُئل فيمن يشتغل بمؤلفات ابن سينا فأجاب غفر الله لهُ : « من فعل ذلك فقد غدر بدينه وتعرَّض للفتنة العظمى » ، لأن ابن سينا « لم يكن من العلماء بل كان شيطاناً من

---

(١) المنقذ ص ٩٠ (٢) تاريخ ابن الاثير ج ١١ : ١٠٤ (٣) تلبيس ابليس ص ٤٩
(٤) أخبار الحكماء للقفطي ص ١٥٤ (٥) طبقات الاطباء ٢ : ١٧٤

شياطين الانس »[١] وسئل ما حكم الله فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعلّماً وتعليماً ، وهل يجوز استعمال المنطق في اثبات الاحكام الشرعية ، فكان من اجابته : « ان الفلسفة أس السفه والانحلال ، ومادة الحيرة والضلال ، ومثار الزيغ والزندقة ، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة ، ومن تلبس بها تعليماً وتعلماً قارنه الحرمان والخذلان واستحوذ عليه الشيطان ! وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة ، ومدخل الشر شر[٢] ، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلمه مما أباحه الشارع »[٣]

وفي القرن الثامن نرى الذهبي يقرر أن الفلسفة الالهية ما ينظر فيها من يرجى فلاحه ، ولا يركن الى اعتقادها من يلوح نجاحه (؟) فان هذا العلم في شق وما جاءت به الرسل في شق ، وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علماً وعملاً إلاّ التحريق والاعدام من الوجود ، إذ الدين كان كاملاً حتى عرِّبت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون فلو أعدمت لكان فتحاً مبيناً ![٤]

ولقد كان من آثار فتوى ابن الصلاح ما ذكره جلال الدين السيوطي في مقدمة كتابه « طبقات المفسرين » ، إذ يقول في ترجمته لنفسه : « وقد كنت في مبادىء الطلب قرأت شيئاً في علم المنطق ، ثم ألقى الله كراهته في قلبي ، وسمعت ان ابن الصلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك ، فعوّضني الله عنه علم الحديث وهو أشرف العلوم »[٥]

هذا ، ونختم الحديث عن رأي رجال الدين والعلماء عن الفلسفة والفلاسفة في المشرق ببيان آراء ثلاثة من المؤرخين الاثبات ، وهم : ابن خلدون ، والمقريزي ، وطاش كبري زاده

أما ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ فيرى في مقدمته « أن الفلسفة مخالفة للشريعة ، فليكن الناظر فيها متحذراً من معاطبها »[٦] . وأما تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هـ فقد ذكر انهُ قد « انجرّ على الاسلام وأهلهِ من علوم الفلاسفة ما لا يوصف من البلاء والمحنة في الدين ، وعظم بالفلسفة ضلال أهل البدع وزادتهم كفراً الى كفرهم »[٧] ثم جاء بعد هذين طاش كبري زاده المتوفى سنة ٩٦٢ هـ فحذّر من أن نطلق اسم العلم على « الحكمة المموّهة التي اخترعها الفارابي وابن سينا . ووصف حكماء الاسلام بأنهم طائفة « عكفوا على دراسات ترهات أهل الضلال وسموها الحكمة ، وربما استجهلوا من عرى عنها ، وهم أعداء الله وأعداء أنبيائهِ ورسلهِ ، فالحذر الحذر منهم . والاشتغال بحكمتهم حرام في شريعتنا ، وهم أضر على عوام المسلمين من اليهود والنصارى لأنهم يتستّرون بزيّ أهل الاسلام»[٨] على انهُ بعد هذا أباح النظر في علوم الفلاسفة لمن تثبّت من الشريعة ، وكانت غايته من النظر فيها الرد على مايخالف الدين منها ، وبشرط ألاّ يمزج كلام الفلاسفة بكلام علماء الاسلام.

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٣٤ (٢) يلاحظ انه استعمل المنطق في الاستدلال على تحريمه دون ان يدري ! (٣) الفتاوى ص ٣٥ (٤) الاسلام والحضارة العربية لمحمد كرد علي ٢ : ٤٣ ص ٤٣
(٥) التراث اليوناني ص١٦٥ (٦) المقدمة ص٤٣٢ (٧) الخطط ٤ :١٨٣— ١٨٤ (٨) مفتاح السعادة ص٢٦

فصل من كتاب «سيرة مخيلة»

# أحلام جول ڤِرْن (1)

## تتحقق

ان كثيراً من الناس تسنموا ذروة الشهرة بما عملت أيديهم ، ولكن جول ڤرن حلَّ في الأذهان محلاً سامياً من أثر ما تخيَّل . وان قليلاً مما كتب صدر عن وحي الحواس : اللمس والبصر ولكن أحلامهُ التي تحققت كانت سدى حياتهِ ولحمتها . ولقد ظل طول حياته في حلم رسم كلماته على قرطاس ، وعاش عمره قابعاً في ناحية من وطنه — فرنسة — غير انهُ طاف على متن خياله من قطب الى قطب ، واندفع به الى قاع البحر ، وسما بهِ الى آفاق السموات العلى

ولما ولد جون ڤرن كان العلم يتخبط في عهد السحر ، وحين أصبح كاتباً ناشئاً في باريس كان العلم لا يزال بين جدران المعمل لا يظفر الباحث فيه بشيء سوى التعرُّض لسخرية رفاقه وجيرانه المرتابين . ولكن تآليفه أسدت الى العلم خدمة جليلة لانها قرَّبت العلوم من أذهان الناس فغدا قراؤه — برغمهم — مكتشفين وكيميائيين وفلكيين وطيارين

وذات يوم — بعد عشر سنوات من موت جول ڤرن — جلس الجنرال لويس هيبرت ليوتي — وكان حينئذٍ مارشال فرنسة — ينشيء خططاً حربية للمستقبل ويعرضها على أحد رجال الحكم فحدّق الموظف في هذه الخطط ثم ابتسم وهو يقول « ان هذا ، يا سيدي الجنرال ، هو صدى صوت جول ڤرن » فأشار الجنرال موافقاً ثم قال « نعم ، انها تشبه حديث جول ڤرن ، ولكن الامم التي سلكت سبيل الرقي — في مدى عشرين سنة — لم تفعل شيئاً سوى أن تترسم خطاه » . واذا كان نشاط جول ڤرن الكتابي وانتاجه العقلي قد امتدا خمساً وأربعين سنة ، فلقد ظلت آثار خواطره تصلصل في الاذهان مدى قرن من الزمان، تدفع العقول بسحرها الى الشهرة والسمو والاختراع

ولشدَّ ما يندهش العقل ان هو تصفح الآن نبوءاته ، لانهُ يعجب أشد العجب لعبقرية البعض ، ثم هو يبسم ساخراً لما في القليل منها من سذاجة ، ولا عجب أن يكون فكر ڤرن قد صدق وان أخطأ أحياناً في وصف طريقة العمل . فقد قال ان الناس سيرسمون

---

(1) نقلها : كامل محمود حبيب ، بتصرف عن مجلة «خلاصة العلم»

طرقاً في السماء ولقد تحقق ذلك وقد كشف عن مصدر جديد للطاقة هو أورانيوم ٢٣٥ [١] هذا وفريق من العلماء يفكر تفكيراً جديًّا في الانتقال بين السيارات والناس يحلقون في الأجواء العليا ويغوصون في أعماق البحار . ولقد كانت الأركان الخمسة التي اعتمد عليها ڤرن هي علوم الفيزيقيا والكيمياء والجغرافيا والفلك والجيولوجيا ؛ ومنها توقع أن يبزغ فجر التقدم فتستحيل كثير من المواد شيئاً هو « وسائل الترف الحديثة »

وحين كتب جول كتابه « عشرون الف فرسخ تحت البحر » لم يكن يجول بخاطره ان كلماته ستدفع رائداً الى أن يسلك طريقه في أعماق المحيط . فلقد طبع هذا الكتاب في سنة ١٨٧٠ ، ثم بعد هذا التاريخ بست سنوات كان على الشاطىء الآخر من المحيط الاطلسي ، في مدينة نيوجيرسي الاميركية ، صبي في العاشرة ينكب على قصة رحلة الكابتن نيمو يقرأها فيقرأها . وجذبت الفكرة الصبي فأذهلته فراح يتصيّد كل كتاب يتحدث عن الرحلات في قاع المحيط . وحين بلغ هذا الصبي الثانية والثلاثين ، اندفع سيمون لايك الى متاهات البحر يقطع فيافيه في غواصته « أرجونوت » وهي أول غواصة نجحت في خوض عباب اليم . وأدّى سيمون لايك ما عليهِ من دين حين كتب أول سطر في تاريخ حياته « لقد كان جول ڤرن — الى حد ما — قائدي الاعلى الذي رسم نهج حياتي »

وحين ترامى خبر رحلة الأرجونوت الى فرنسة في سنة ١٨٩٨ أبرق جول ڤرن بالتهنئة ولكنَّ لايك قال لقد طبعت القصة في فرنسا وأبرق جول ڤرن يهنئني على حين أن كتبه هي التي دفعتني الى الغوص في طبقات الماء ، وكنت دائماً أقول ان جون ڤرن عالم قبل أن يكون قصصيًّا يكتب القصة الخيالية ، لأن خياله نفّاذ يخترق الحجب ،وهذا النوع من الخيال لا غنى لمخترع عنهُ ، اذا اقترن بمعلومات دقيقة ممتازة

وكانت تجربة سيمون لايك فذّة في نوعها ، ولكن قراء القرن التاسع عشر كانوا يعجبون من الأخيلة التي ربطت بين الهليكوبتر ، والآلة الطائرة « البتروس » والمنطاد المتحرك في كتاب ڤرن « مركب السحاب » . وفي سنة ١٩٠٣ ، أي بعد انقضاء سبع عشرة سنة على هذه القصة استطاع اورفيل وولبر ريط ان يطيرا تسعاً وخمسين دقيقة فوق رمال كيتي هوك في كارولينة الشمالية بأميركة ، واجتازت المناطيد المحيط الأطلسي في العقد الرابع من هذا القرن . وفي سنة ١٩٤١ ضرب ايجور سيكورسكي رقماً قياسيًّا عالميًّا اذ طار مدة ساعتين بالهليكوبتر الذي صنعه

والآن أصبحت الأنباء التي تثير الأعجاب في عالم الطيران هي أنباء صنع الطائرات —

---

(١) راجع مقتطف دسمبر سنة ١٩٣٩ صفحة ٥٠٠ ويوليو ١٩٤٠ صفحة ١٢٤

ناقلات الرسائل والجنود وطائرات التدريب والقاذفات — من بعض العجائن والخشب . على حين ان ڤرن أوصى ان تصنع طـائرته « ألبتروس » من ورق مضغوط لا تستطيع أقسى الآلات الحادة ان تخدشه ، وذلك برغم قلة معارفه العلمية . على أنه من الخطأ ان يقال ان ڤرن ساهم بقسط في مخترعات الطيران ، لأنهُ لم يكن مخترعاً بل كاتباً أراد أن يبسط فكرة تحققت بعد زمان فهو لم يفعل

ولا ريب في أن هناك هوة عميقة بين « البتروس » ڤرن وطائرة لندبرج حين بلغت باريس . ولـكن الفرنسيين يأبون ان يسلـكوا اسم ڤرن في قصة تاريخ الطيران وهي طويلة متشعبة . ولم يكن ڤرن نفسه يزعم لنفسه فضلاً في تنبؤاته وهو كان يقول دائماً عن رحلاته انني لا أدعي العلم لجل همي موجه نحو الجغرافية » غير ان أخيلته أصبحت « برغمه » حقائق ملموسة ، ففي رحلة « من الأرض الى القمر » وصف ڤرن المنظار العظيم الذي انشأه ليتتبع القذيفة وهي تحمل الرجل عبر طبقات السماء ، وصفه في دقة وفي اسهاب فلقد كان منظاره عظيماً يحتوي على مرآة قطرها ١٦ قدماً تستطيع ان تكبر أصغر نقطة على السماء بمقدار ٤٨٫٠٠٠ مرة . ولقد أقام منظاره على قمة سامقة من الجبال الصخرية ليتفادى اضطراب طبقات الهواء السفلية

هكذا كتب ڤرن منذ ٨٠ سنة على أثر الحرب الأهلية الأميركية . واليوم يسير العمل في كاليفورنية لانجاز منظار فلـكي فيه كل ما قال ڤرن . فمرآته العاكسة قطرها ١٦ قدماً ، وهي أكبر مرآة في العالم ، ثم هو يبنى على قمة جبل بالومار لـكي ينأى عن الاضطرابات الهوائية التي حاول ڤرن ان يجتنبها وحين يتم اعداده تـكون قوة تـكبيره هي نفس القوة التي في المنظار الذي تخيلهُ ڤرن . وكان أثر ڤرن — في كثير من الأحايين — غير مباشر ، فلقد كتب مركوني في رسالة نشرت في سنة ١٩٢٢ « لقد أثر جول ڤرن في الناس فجعلهم يرون الرؤى ، ثم غرس فيهم الرغبة في ان يفعلوا شيئاً ، ثم استمالهم ليفعلوا »

وأيقظت رؤى ڤرن أطماع الـكثير ، فان أسماء بيرد وبيب وكاستريت كلها ترتبط بوشائج متينة برؤى ڤرن . فما يروى ان الأميرال ريتشارد بيرد قال حين طار صوب القطب: ان جول ڤرن هو الذي يرشدني . وحين هبط وليام بيب الى أعماق المحيط في كرته المعروفة « بكرة الأعماق » [1] كان جول ڤرن في كتابه « عشرون الف فرسخ تحت البحر » هو الذي حرك رغبته في رؤية الأسرار التي استقرت تحت أطباق الموج . وحين أخذ نوربرت كاستريت يكشف عن شبكة الأنهار الجارية تحت الأرض في اوربة كان يستحثه سطر من كتابه المفضل « رحلة الى مركز الأرض » الذي كتبه جول ڤرن

(١) باثيسفير راجع مقتطف يوليو ١٩٣١ صفحة ٣٣ « الغوص الى الاعماق »

وقد انقضى أكثر من ربع قرن وجرائد العالم تنشر قصصاً عن نتائج جديدة لأحلام ڤرن فالسيارات، ورحلة السير هيبرت ولكنز بالغواصة تحت جليد المناطق المتجمدة[1]، وشروع العالم الفرنسي كلود[2] عن استخراج طاقة حرارية من البحر، والتصوير الفوتوغرافي بالألوان، والشهاب المنطلق الى القمر، والتلفزة، والقطار السريع المندفع بضغط الهواء و... كل هذه أحلام تحققت

والآن تسيطر على أذهان العلماء الأبحاث الخاصة بالذرة، ولكن ڤرن في كتابه «مطاردة الشهاب» الذي طبع في سنة ١٩٠٨ بعد وفاة المؤلف أشار غير مرة الى طاقة الذرة وامكان تحويل العناصر بعضها الى بعض

ولقد كان جول ڤرن يبغض في حياته شيئين: الحرب والأمبراطورية الالمانيـة. وفي كثير من كتاباته تتراءى كراهيته للالمان. وفي كتابه «حظ بيجم» يبدو احتقاره لكل ما هو تيوتوني من خلال أسلوبه التهكمي، وان نبوءتين في كتـابه «حظ بيجم» تحققتا وهما: المدافع ذات المدى الطويل، والمدنية الحديثة. وحين كتب جول عن مدفعه الضخم كان يبدو كلامه وهماً. ولو ان عمره امتد ثلاث عشرة سنة لكان رأى بعينيه خياله وهو يتحقق في المدفع الالماني «برتا الكبير» الذي انطلقت قذائفه سنة ١٩١٨ مسافة ٧٦ ميلاً وسقطت على باريس

وان كثيراً من الناس ليقولون ان معلومات جول ڤرن في العلوم كانت ضحلة. وهـذا صحيح الى حدٍّ ما. ولكنه كان طالب علم متحمساً في الطلب. وقد راجع قبل كتابة بعض رواياته خمسمائة كتاب ورسالة. وكانت خزانته تحوي مجموعة نفيسة من كتب الجغرافيـة والرحلات. ولقد جمعت مذكراته على مدى السنين فكانت حوالي ٢٥٠٠٠ ملفّ حسنة الترتيب دقيقة السارد

ولقد كان أرستيد بريان السياسي الفرنسي طالباً في الرابعة عشرة حين لقي جول ڤرن أول مرة. وحين أراد أن يملي تاريخ حياته وهو رئيس حكومة فرنسة، أخذ يشرح ما كان بينه وبين جول ڤرن فقال انني أذكر تماماً داره وكان يغلب عليها جو ريفي عادي.. وهناك وضعت قصص الرحلات العجيبة والمخاطرات المجيدة.. وأذكر انهُ وضع على الجدران عدداً من السبورات كتب عليها رموزاً عديدة هي أعداد ومعادلات جبرية، لا ريب في انها كانت الاسس التي بنى عليها أخيلته، وفي الحق لقد كان يعمل على قواعـد ثابتة من العلم والرياضة، وكانت حساباته مضبوطة. تلك الأعداد والمعادلات التي كانت متناثرة على سبورات كثيرة أصبحت جميعاً — على الايام — حقيقة ملموسة

(١) مقتطف نوفبر ١٩٣٠ صفحة ٣٨٨ (٢) أنظر مقتطف هذا الشهر فصل الطاقة المحركة من البحر

# فلاسفة الرواق

للدكتور عثمان أمين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

## كليانتس

١ — ﴿ حياته ﴾ : ولد كليانتس سنة ٣٣١ ق م في مدينة « اسوس » وكان قبل اشتغاله بالفلسفة مصارعاً . ويقال انهُ حينما قدم الى أثينا لم يكن يملك من المال إلاّ أربع دراخمات . ولكن شدة الفقر لم تكن لتصرف ذلك المصارع عن طلب المعرفة والانكباب على الفلسفة . كتب « أوجرو » عنه : « اتفقت جميع الروايات على ان « كليانتس » امتاز بصفات الهمة العالية والارادة التي لا تقهر والثبات والمثابرة التي لا تكل . فلم يحل بطء عقله ولا شدة فقره دون متابعته الدرس وتحصيله العلم [1] . ولما بدا « لكليانتس » ان يحضر دروس « زينون» لم يكن يملك من المال شيئاً، فاضطر أن يقضي ساعات الليل في أشق الأعمال لكي يكسب مايدفع بهِ رسوم التعليم : يروى عنهُ انهُ كان يحمل الماء لسقاية بعض الحدائق وكان يعجن الخبز عند احدى الخبازات . وسواء أصحت تلك الرواية أم لم تصح فهي تدل على مقدار حبه للفلسفة . ولقد أعجب « زينون » بفضائل «كليانتس » وجده في العمل ، فعهد اليه عند وفاته بأن يخلفه في ادارة المدرسة الرواقية . وبقى « كليانتس » مشرفاً على شؤون المدرسة مدة طويلة تمتد من سنة ٢٦٤ حتى سنة ٢٣٢ قبل الميلاد

لكن نفوذ الرواقية أخذ يضعف في عهده . واشتدت على المذهب هجمات الابيقوريين وأنصار الاكاديمية الجديدة . على ان «كليانتس » لم يكن له من اللباقة والمهارة في الجدل ما يمكنه من افحام الخصوم ، بل يظهر ان تفكيره كان بطيئاً وحجته غير بارعة مما جر عليه سخرية المتشككين . وكانوا يطلقون عليه اسم « الحمار » . ولكنه لم يكن يغضب لذلك

---

(١) Ogereau, Essai sur le système philosophique des Stoiciens, Paris, 1885, p. 18

المزاح الثقيل ، بل كان يرد قائلاً انه وحده أقدر على حمل برذعة « زينون » [١]

٢ — ﴿ تعليمه ومصنفاته ﴾ : تعوزنا المصادر لمعرفة نوع التعليم الذي كان يقوم به « كليانتس » . يقول « أوچرو » : « يميل الانسان الى الظن بأن كليانتس أنفق قصارى جهده في ربط أجزاء المذهب بعضها ببعض وفي ترتيبها وتنسيقها في وحدة لا تنفصم عراها » [٢]

ألّف كليانتس نحو خمسين كتاباً : كتب شروحاً على طبيعيات « زينون » « هرقليطس » ومصنفات عديدة في المنطق والاخلاق . ومن مؤلفاته التي ذكرها «ديوجانس اللايرسي » ما يلي :

رسالة « في المعرفة » ورسالة « في الجدل » ورسالة « في المنطق » ورسالة « في الزمان » ورسالة « في الرد على ارستارخوس » ورسالة « في الآلهة » ورسالة « في الحرية » ورسالة « في الواجب » ورسالة « في الفضائل » ورسالة « في القوانين » ورسالة في « الغاية » ورسالة « في السلوك » [٣]

ولم يبق من مصنفات « كليانتس » إلاّ مقتطفات صغيرة . ومن أهمها قصيدة رائعة وهي « الانشودة الى زيوس » التي ألفها مناجياً الاله « زيوس » رب اليونان . ولم يبقَ من تلك القصيدة غير أربعين بيتاً جاء فيها :

« يا زيوس يا أجل الخالدين ويا من يذكره الناس بشتى الاسماء والصفات
« يا مدبر الوجود كله ويا حاكم الأشياء جميعاً وفقاً لناموسك وسنتك
« سلام عليك
« خليق ببني البشر الفانين أن يولوا وجوههم نحوك منادين
« فبين الخلائق التي تعيش وتسعى على الارض إياهم وحدهم وهبتَ صورة منك وجعلتهم على مثالك
« وهذا العالم الذي يتحرك حول الارض حركة دائرية انما يخضع لكلمتك ويُذعن، بارادته ، لسلطانك . وجميع صنع الطبيعة يحدث كوميض البرق
« وبهذه السرعة توجه أنت « العقل الكلي » الذي ينساب في ثنايا الكون ممتزجاً بصغير الاشياء وكبيرها

(١) Diogène Laerce, Vie des Philosophes, VII, 170
(٢) Ogereau, Essai..., p. 19 (٣) Diogène Laerce, VII, 174-175.

« من دونك لا شيء يحدث في الارض ولا في البحر ولا في السماء
« ما عدا أفعال الاشرار ، وسببها جهلهم وقلة ادراكهم
« أنت لا يعزب عن علمك شيء : تؤلف ما افترق وتنظم ما تناثر وتكيّف الخيرات على قدر الشرور ، وتعطي كل شيء بحساب
« وانما العالم عقل واحد شامل خالد . فما أشقى الاشرار إذ تراهم عنهُ معرضين مدبرين. انهم يرغبون في الخير دائماً . ولكنهم لا يعرفون سنة الله التي لو اتبعوها لأصابوا في الحياة حكمة وشرفاً »[1]

***

ولقد عمد الفيلسوف في أنشودته هذه الى تقاليد الشعر الوجداني على نحو ما كان معهوداً عند الفلاسفة السابقين لعصر سقراط . وفي هذه القصيدة لخص كليانتس أهم مبادىء الطبيعة والاخلاق في الفلسفة الرواقية . يقول « الفرد كروازيه » في وصف الأنشودة :

« قطعة جميلة ولكن جمالها أخلاقي وعلمي . وفي هذه الابيات لخص كليانتس — في دقة وقوة وبنغمة دينية نبيلة — الطبيعيات والاخلاقيات في المذهب الرواقي . وقارض هذا الشعر صانع ماهر ذو اقتناع بما يقول قبل أن يكون شاعراً كبيراً

( وفي هذه الانشودة ) نجد فن الميثولوجيا التقليدية موضوعاً ، كعادة الرواقيين ، في خدمة النظريات الجديدة . وفيها امتزجت اصطلاحات المدرسة في مهارة ورشاقة بالأوصاف الهوميرية [2]

ولعلَّ جمال هذه الانشودة هو الذي دعا ديوجانس اللايرسي الى أن يصف مؤلفات « كليانتس » بلفظ « كالِسْتا » للدلالة على حسنها وبهائها . ولعلَّ هذا ما دعا شيشرون الى أن يسمي كليانتس باسم « الرواقي الأصيل » [3]

---

(١) Stobé Ecologae, I, 1, 12, Arnim, Stoic. verter. fragm, I 537
انظر الترجمة الفرنسية للانشودة في كتاب عنوانه :

Aristotle, Clèanthe, Proclus, Hymnes Philosophiques, tr. nouvelle avec avant-propos, prolegomènes et notes par Mario Meunier, 1935.

(٢) Alfred Croiset, Histoire de la littérature grecque, t. V, p. 59

(٣) Cicéron, Academ. II, 41, 126

على ان أنشودة «كليانتس» هذه نموذج من النماذج الاولى لطريقة الرواقيين في تأويل الأقاصيص. وهي تشير الى أن الانسان يستطيع بالمناجاة والدعاء أن يتصل بالآلهة وأن يسامهم في العالم الالهي

فالأنشودة، كما قال الأستاذ «ريفو» ربما كانت من بين مخلفات الادب اليوناني كله، أقرب الاشياء الى صلاة من الصلوات المسيحية. وتلك ظاهرة تفردت بها الفلسفة الرواقية -- وليست بالأمر اليسير — وهي أن تلك الفلسفة التي طالما اعتبرها الكتّاب مثلاً من أمثلة مذهب وحدة الوجود (البانثييزم) الطبيعي، استطاعت مع ذلك أن توطد بين الآلهة والناس ذلك الاتصال الشخصي الذي يبيح العبادة والصلاة والتقوى الواثقة (١)

لكن هذه النغمة التي تفيض حماسة وتديناً كان لها أحياناً — لسوء الحظ — عواقب وخيمة منافية لروح الفلسفة الصحيحة: فقد روي عن «كليانتس» ما يفيد كثيراً من التعصب للرأي وميلاً الى الترهات والأباطيل. ذلك ان «ارستارخوس» الساموسي — وهو فلكي يوناني وعبقري من أهل القرن الثالث قبل الميلاد — كان أول من تنبه الى أن الارض تدور حول محورها وحول الشمس، فلما أعلن ذلك العالم تلك النظرية قام «كليانتس» متهماً اياه أمام الاثينيين باقلاق راحة الآلهة وبالمروق من الدين لمحاولته «ان يزحزح هستيا — موطن الكون — من مكانها!» (٢)

***

ولسنا ندري الى أي حد نجح «كليانتس» في اثارة خواطر العامة على «ارستارخوس» ولكن النظرية «الهليوسنطرية» التي تجعل من الشمس (٣) مركز الكون قد تلقت ضربة وأدتها في مهدها، نتيجة مثل ذلك التعصب الذميم الذي سنرى آثاره بعد ذلك بقرون في موقف الكنيسة من العالم الطلياني «فاليلي»

---

(١) A. Rivaud, Les grands courants de la penséeantique p 174

ونظم «كليانتس» كذلك قصيدة صغيرة في الاذعان للقدر، وبقيت لنا منها أبيات ذكرها «ابكتيتوس» الرواقي في دروسه ( Epictète, Manuel, 53. ) قال كليانتس فيها: « قدني يا زيوس وأنت أيها القدر أينما رسمتما لي الطريق، فأنا متابعكما دون تخلف، لانني لو قاومت كنت من الآثمين، ولم أكن مع ذلك أقل متابعة لكما. ولقد ترجم «سنكا» أبيات كليانتس هذه الى اللغة اللاتينية Sénèque Lettres, 107, 10

(٢) Plutarque, fac. lun., 6, 3 (cité par V. Arnold, Roman Stoicism, p. 179)

(٣) Benn, History of Ancient Philosophy, p. 120-121

أسئلة وأجوبتها عن

# سر الكهربية

ما هي الكهربية ؟ كان الرأي قبل خمسين سنة ان الكهربية سائل ما او سائلان احدهما موجب والآخر سالب . ولا تزال العامة في الولايات المتحدة تشير اليها بقولها « العصارة » ولكننا نعلم الآن أنهُ إذا كان المقصود بالكهربية : التيار الكهربي ، فالجواب عن هذا السؤال سهل ، وهو ان التيار الكهربي مجموعة من الشحنات الكهربية المتحركة ، لا اكثر ولا اقل . وهذه الشحنات ، في حالة سلك او جسم آخر صلب ، هي كهيربات حرة . ولو لم تكن الذرات الموجبة في الفلزات مثبتة في مكانها لمالت الى الحركة في اتجاه مخالف لاتجاه حركة الكهيربات . وهذه الحركة الذرية تحصل فعلاً حين تمرّ التيارات الكهربية في الغازات والسوائل . ففي الغازات والسوائل ، لا تكون الذرات والجزيئات المشحونة شحنة موجبة (وهي تصبح مشحونة شحنة موجبة بعد انفصال بعض كهيرباتها عنها وتدعى « ايونات » مثبتة في مكانها فتتحرك وتكون حركتها جزءًا من التيار الكهربي . وقد كان الرأي المألوف في اتجاه التيار الكهربي انهُ يكون من الموجب الى السالب ، اي الاتجاه الذي تتحرّك فيه الدقائق الموجبة الشحنة . وهذا الرأي أخذ به قبل ان كشف العلماء ان الكهربية السالبة هي التي تتحرك في معظم الاحيان ، ولكنا عند التدقيق نجد الكهربية تعين الشحنات الكهربية لا التيار الكهربي ، نفسها ( الكهيربات والايونات ) التي يتولد التيار الكهربيُّ من تحركها . فاذا اخذنا بهذا التعريف ، فليس في وسع احد حتى الآن ان يقول ما الكهربية . اننا نعلم ان الكهيرب هو شحنة كهربية . ولكن ما هي الشحنة الكهربية ؟ هي شيء يجذب اليه اشياءَ مشحونة شحنة مغايرة لشحنتهِ ، ويدفع أشياء مشحونة مماثلة لشحنته ، ولها مظاهر أخرى حين تتحرك

ولكننا مع ذلك لم نتمكن من تمثيل صورة ذهنية لشكل الكهيرب ولذلك ترى انهُ في قدرة العلماءَ ان يقولوا لنا ما يفعله الكهيرب وكيف يتصرف، مع عجزهم عن ان يقولوا أي شيءٍ هو

وحين شرع العلماء في دراسة التيارات الكهربية دراسة كميّة ، احتاجوا الى ابتكار وحدة للقياس ، فاتخذوا « الامبير » وهو معرف تعريفاً متفقاً عليه بين جميع العلماءِ والمعاهد في انحاءِ العالم ، فالمصباح الكهربي من قوة مائة واط ـ حيث تكون قوة التيار ١١٠ ڤولطات ـ يحتاج الى مقدار « امبير » واحد تقريباً . والمكوى الكهربي يحتاج الى اربعة « امبيرات »

أو خمسة . وحين تريد ان تحرّك محرك سيارتك في صباح بارد يأخذ المحرك من البطرية بضع مئات من « الامبيرات » . فما معنى هذا كله ؟ اذا أريد فهمهُ على ان التيار الكربي ، هو كهيربات متحركة فالجواب هو ان السلك حين يسري فيه تيار كهربي ، انما يتحرك فيه عدد من الكهيربات فيجتاز كلّ ثانيةٍ نقطة معينة في الدائرة الكهربية

ولكن لا تتصوّر ان هذه الكهيربات العديدة تنطلق بسرعة قطار سريع واذا فرضنا ان كهيرباً حرًّا واحداً يقابل كل ذرّة في فلزّ ما ، فسرعة الكهيربات في سلك مصباح كهربي يسري فيه تيار قوتهُ امبير واحد ، تبلغ قدماً واحدةً للكهيرب الواحد في الساعة. وقد تكون السرعة أعظم من ذلك حين يكون عدد الكهيربات قليلاً في سلك دقيق كسلك مصباح كهربي قوتهُ مائة واط . ولكن حتى في هذا السلك ، حيث تنطلق الكهيربات وهي تشقّ طريقها بين ذرّات الفلز ، فتحرّكها وتثيرها حتى يحمى السلك ويتوهج ، حتى هنا لا تزيد سرعة الكهيربات على سرعة قدم واحدة في كل عشر ثوانٍ

ولو شئنا أن نبتاع الكهيربات الحرّة في سوقٍ ما ، لبلغ ثمنها مبلغاً طائلاً . ولو كانت الكرة الأرضية مصنوعةً كلها من الماء ، لكان فيها من قطرات الماء ، ما تجدهُ من الكهيربات في أوقية واحدة من الماء . ومن محاسن الاتفاق ان الكهيربات على جانب عظيم من الكفاية في نقل الطاقة . ففي دورة كهربية تحمل تياراً قوتهُ ١١٠ فولطات تستطيع أوقية من الكهيربات ، في سلك مصباح قوتهُ مائة واط ، ان تمضي في عملها قرنين من الزمان !

ولما كانت الكهيربات تسير سيراً بطيئاً ، فلعلّك تسأل كيف تبدأ أعدادٌ كبيرةٌ منها في التحرُّك في وقتٍ واحد ، حالما تفتح مفتاح المصباح الكهربي في دارك ؟ وتفسير ذلك ان انسياب التيار واحدٌ في جميع النقط في دورة كهربية مقفلة . ولكن ما العامل الذي يعين مقدار التيار الذي يسري في دورة كهربية ما ؟

يبدأ التيّار في الانسياب في وقتٍ واحد ، لأن عند مصدر الطاقة يوجد قدر كبير محتشد من الكهيربات . وحيث إن الشحنات الكهربية التي من نوع واحد تتنافر ، فتنافرها يدفع بعض الكهيربات في السلك . أي ان التنافر بين الكهيربات — وهي جميعاً سالبة الشحنة — يحملها على أن يدفع بعضها بعضاً فتسري في طريق التيار . وتتحرّك موجة التنافر والتدافع هذه على السلك بسرعة تقرب من سرعة الضوء ، أي ١٨٦ الف ميل في الثانية ، أي ان هذه السرعة تبلغ مبلغاً يبدو عندها أنّ حركة الكهيربات بدأت في وقت واحد . فمن المتعذر مثلاً ان تبين الفرق بين ظهور أثر هذه الموجة في طرفي سلك طولهُ ميل ما زالت الموجة قد عبرتهُ من أوله الى آخره في جزء من ١٨٦ الف جزء من الثانية

ولكن اذا نقص القدر المحتشد من الكهيربات عند مصدر الطاقة بغير ان يكمَّل النقص،

اي اذا فرغ الوعاء بغير أن يملأ ثانية ، اندفع التيار لمحةً ما ثم ينقطع . وهو ما يحدث حين يلمع البرق . او هي تنطلق شرارة كهربية بين قطبي جرَّة ليدن . وعلى الضدّ من ذلك المولد الكهربي ، او البطرية الكهربية ، فان الطاقة الكهربية تتولّد في كل منهما تولداً مستمرًّا فيجري التيار جرياناً متصلاً . ولعلك تبينت مما تقدَّم ان مقاومة سلكٍ ما لجريان التيار الكهربي فيه ، تتفاوت بتفاوت حجم السلك وشكله ، وهو الحقيقة . فالسلك الطويل اشدُّ مقاومة لسريان الكهيربات فيه من السلك القصير . والسلك الثخين يحتوي على عدد من الكهيربات الحرَّة ، أوفر من العدد الذي يحتويه السلك الدقيق . فالسلك الثخين اقلُّ مقاومة لجريان التيار الكهربي من السلك الدقيق

على ان المقاومة ترتبط ، من ناحية اخرى ، بطبيعة المادة التي صنع السلك منها . فالمقاومة تكون ضعيفة ، اذا كانت المادة تحوي عدداً وافراً من الكهيربات الحرَّة التي تسهل حركتها . والواقع ان جميع المواد ، توصل الكهربية ، بعض الايصال ، ولكنها طبعاً تتفاوت في ذلك تفاوتاً عظيماً . وقد تعوَّدنا أن نعد المطاط والزجاج والخزف والكبريت من المواد العازلة . ولكن حتى المواد العازلة تحوي كهيربات قليلة يمكن تحريكها اذا توافرت الشروط اللازمة ، واذن فهي الى حدٍّ ما موصلة للكهربية . على ان الفلزات هي خير المواد التي توصل الكهربية حتى ليصحُّ أن يقال ، ان قدرتها على ايصال التيار الكهربي من الصفات الخاصة التي تميز الفلز . ومع ذلك فبين الفلزات تفاوت كبير في هذه القدرة . ومقاومة الفلز تزداد عادةً وفقاً لارتفاع الحرارة

ان النحاس خير موصل للكهربية ، بين الفلزات غير الثمينة ، وهو يستعمل استعمالاً عامًّا لايصالها . والفضة والذهب موصلان جيدان . ولكنهما عزيزان . أما الالومنيوم فيفوق النحاس وزناً بوزن في قدرته على ايصال التيار الكهربي ، ولكنه أغلى منه وهذا يحول دون التوسع في استعماله الآن

وفي نقل الطاقة لا بدَّ من استعمال خير المواد الموصلة للطاقة ، حتى لا يضيع الاَّ أقل قدر منها خلال الانتقال في التغلب على مقاومة المادة الموصلة . واذا استعملت أحياناً المواد التي لا توصل التيار الكهربي إلاَّ ايصالاً ضعيفاً ، فانما يفعل ذلك لأغراض أخرى . فالسلك في المصباح الكهربي مثلاً يصنع من فلز التنغستن عادة ، وقد اختير هذا الفلز لانه يتصف بصفتين لا بدّ منهما في المصباح وهما ارتفاع درجة انصهاره ، وبطء تبخره

وقد استعملت أخلاط فلزية شتى للادوات الكهربية المختلفة مثل المكوى الكهربي والأفران وما أشبهها . وهذه الاخلاط تحتوي عادةً على فلز — أو أكثر — متصف بصفة خاصة ، مثل النيكل والكروم اللذين لا يصدآن حين يحميان بالتيار الكهربي في الهواء

# حرف الجيم

— ٢ —

لعبد الله أمين

جاء في « سر الفصاحـة » للأمير أبي محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي المتوفى سنة ٤٦٦ هـ المطبوع بمصر سنة ١٣٥٠ هـ و( سنة ١٩٣٢ م ) ما يأتي :

« ويلحق هذه الحزوف التي ذكرناها حروف بعضها يحسن استعماله في الفصيح من الكلام، وبعضها لا يحسن . فالتي تحسن ستة أحرف وهي : النون الخفيفة التي تخرج من الخيشوم والهمزة المخففة وألف الإمالة وألف التفخيم وهي التي بها ينحى نحو الواو وذلك كقولهم في « الزكاة » الزكوة والصاد التي كالزاي نحو قولهم في « مصدر » مزدر والشين التي كالجيم نحو قولهم في أشدق أجدق والحروف التي لا تستحسن ثمانية وهي الكاف التي بين الجيم والكاف نحو كلهم عندك والجيم التي كالكاف نحو قولهم للرجل ركل والجيم التي كالشين نحو قولهم خرشت والطاء التي كالتاء كقولهم طلب والضاد الضعيفة كقولهم في أثرد أضرد والصاد التي كالسين في قولهم صدق والظاء التي كالثاء كقولهم ظلم والتاء التي كالباء كقولهم فرند » ص ٢١ و٢٢

هامش من الطابع : رسم المؤلف فوق كل حرف ما يشبهه نجماً صغيرة فوق الكاف في كلهم وركل وخرشت وتاء صغيرة كذلك فوق الطاء من طلب وهكذا حتى آخر الأمثلة

وقال محمد رضيّ الدين بن الحسن الاسترابادي المتوفى سنة ٦٨٨ هـ في شرحه على الشافية في الصرف لأبي عمر عثمان المعروف بابن الحاجب ما يأتي :

« قوله : والشين كالجيم : ذكرها سيبويه في الحروف المستحسنة وذكر الجيم التي كالشين في المستهجنة وكلتاهما شيء واحد لكنه انما استحسن الشين المشربة صوت الجيم لأنهُ انما يفعل ذلك بها اذا كانت الشين ساكنة قبل الدال والدال مجهورة شديدة والشين مهموسة رخوة تنافي جوهر الدال ولا سيما اذا كانت ساكنة لأن الحركة تخرج الحرف عن جوهره فتشرب الشين صوت الجيم التي هي مجهورة شديدة كالدال لتناسب الصوت فلا جرم استُحسن انما استهجن الجيم التي كالشين لإنها انما يفعل ذلك بها إذا سكنت وبعدها دال أو تاء نحو اجتمعوا واجدر وليس بين الجيم والدال ولا بينها وبين التاء تباين بل هما شديدتان لكن الطبع ربما يميل لاجتماع الشديدين الى السلامة والالين فيشرب الجيم ما يقاربه في المخرج وهو الشين

فالفرار من المتنافيين مستحسن والفرار من المثلين مستهجن فصار الواحد مستحسناً في موضع مستهجناً في موضع آخر بحسب موقعه » ج ٣ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ مطبعة حجازي ، مصر

يريد الرضيّ بقوله« وكلتاهما شيء واحد » أن النطق بالشين في نحو أشدق مشربة صوتَ الجيم نحو أجدق أي بين الشين والجيم كالنطق بالجيم في نحو أجدر مشربة صوت الشين نحو أشدر اي بين الجيم والشين في أن اجتماع كلٍّ من الشين والدال ومن الجيم والدال وَلَـدَ حرفاً ثالثاً لا هو شين خالصة ولا هو جيم خالصة بل هو مزيج منهما معاً في الموضعين

ويريد بقوله « فالفرار من المتنافيين مستحسن والفرار من المثلين مستهجن » أنك حين تعمد الى الجيم مع الدال في نحو أجدر وهما مثلان في الشدة متلائمان في الجوار وليس بينهما تباين فتشرب الجيم صوت الشين الرخوة وتخرجها بهذا الاشراب من شدّتها الى رخاوة الشين اجابة للطبع الذي ربما يميل لاجتماع الشديدين الى السلامة واللين وتباعد به بينهما تعمل عملاً مستهجناً ، وأنك حين تعمد الى الشين المهموسة الرخوة مع الدال المجهورة الشديدة في نحو أشدق فتشرب الشين صوت الجيم المجهورة الشديدة لتزيل ما بين السين والدال من التنافر فيتلاءما في الشدة والجهر تعمل عملاً مستحسناً

وقال قوله: والكاف والجيم : نحو جافر في كافر وكذا الجيم التي كالكاف يقولون في جمل كَمَل وفي رجل ركل وهي فاشية في أهل البحرين وهما جميعاً شيء واحد الاّ انّ اصل احدهما الجيم وأصل الآخر الكاف كما ذكرنا في الجيم كالشين والسين كالجيم الاّ ان الشين كالجيم مستحسنة وعكسه مستهجن والكاف كالجيم وعكسه مستهجنان فقوله : لا يتحقق: فيه نظر وكأنهُ ظن أن مرادهم بالجيم كالشين وحرف آخر غير الشين كالجيم وكذا اظن ان مرادهم بالجيم كالكاف غير مرادهم بالكاف كالجيم وهو وهم

يريد الرضيُّ بقوله « وهما جميعاً شيء واحد» أن النطق بالجيم في نحو جمل ورجل مشربة صوت الكاف نحو جيم كَمَل وركل اي بين الجيم والكاف كالنطق بالكاف في نحو كافر مشربةً صوتَ الجيم نحو جافر اي بين الكاف والجيم في أن إشراب الجيم صوت الكاف كإشراب الكاف صوت الجيم يخلق حرفاً واحداً في الموضعين لا هو جيم خالصة ولا هو كاف خالصة ولولا هذه الارادة لما قال « وهما جميعاً شيءٌ واحد »

ويريد بقوله عن ابن الحاجب « وكأنه ظنّ ان مرادهم بالجيم كالشين حرف آخر غير الشين كالجيم وكذا ظنّ أن مرادهم بالجيم كالكاف غير مرادهم بالكاف كالجيم وهو وهم » أنَّ الحرف الذي يحدث بإشراب الجيم صوت الشين هو نفسه الحرف الذي يحدث بإشراب الشين صوت الجيم وكذا الحرف الذي يحدث باشراب الجيم صوت الكاف هو نفسه الحرف الذي

يحدث بإشراب الكاف صوت الجيم فقول ابن الحاجب « وأمّا الجيم كالكاف والجيم كالشين فلا يتحقق » كلام وهم حقًّا غير صحيح ما دام عكس كل منهما تحقق باعترافه وهو الكاف كالجيم ، والشين كالجيم لأن الحرف الناشيء من اجتماع شين ودالٍ هو نفسه الناشيء عن اجتماع جيم ودال وكذا الحرف الناشيء من لفظ الجيم مشربة صوت الكاف هو نفسه الحرف الناشيء من لفظ الكاف مشربةً صوت الجيم

وقال العلامة المحقق ابو البقاء ابن يعيش على المفصل في النحو لإمام اللغة والأدب أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ما يأتي :

« فأمّا الكاف التي بين الجيم والكاف فقال ابن دريد هي لغةٌ في اليمن يقولون في جَمَل كَمَل وفي رجُل ركُل وهي في عوامّ أهل بغداد فاشية شبيهة باللّثغة . والجيم التي كالكاف كذلك وهما جميعاً شيءٌ واحد إلا أن أصل إحداهما الجيم وأصل الأخرى الكاف ثم يقلبونهما الى هذا الحرف الذي بينهما »

( يريد بالحرف الذي بينهما الحرف الذي بين الجيم والكاف وبين الكاف والجيم وهو حرف واحد ثالث لاهو جيم خالصة ولا هو كاف خالصة بل هو مزيج منهما معاً في الموضعين لذلك يحسن ان يوضع فوق كاف كَمَل وركُل حرف جيم وفوق جيم جافر حرف كاف )

وقال : وأما الجيم التي كالشين فهي تكثر في الجيم الساكنة اذا كان بعدها دالٌ أو تاءٌ نحو قولهم في اجتمعوا والأجدر اشتمعوا والاشدر فتقرب الجيم من الشين لأنهما من مخرج واحد إلاّ أن الشين أبين وأفشى

فإن قيل فما الفرق بين الشين التي كالجيم حتى جعلت في الحروف المستحسنة وبين الجيم التي كالشين حتى جعلت في الحروف المستهجنة قيل ان الاول كره فيه الجمع بين الشين والدال لما بينهما من التباين الذي ذكرناه وأما اذا كانت الجيم مقدمة كالاجور واجتمعوا فليس بين الجيم والدال من التنافي والتباعد ما بين الشين والدال فلذلك حسن الأول وضعف الثاني» ص ١٤٦٣ ابن يعيش ، طبع اوربا

وفي شرح الدماميني على التسهيل في الحروف المستقبحة ما يأتي نقلاً عن نسخة خطية في مكتبة كلية اللغة العربية من كليات الأزهر الشريف بشارع البراموني بمصر :

« وفروع تستقبح وهي كاف كجيم ) كقولهم في كل جمل بحرف يشابه الجيم . قال ابن دريد وهي لغة في اليمن كثيرة في أهل بغداد ( وبالعكس ) وهي جيم ككاف مثل قولهم : في رجل ركل بحرف يشابه الكاف . وجعل سيبويه الكاف كالجيم والجيم كالكاف حرفاً واحداً وعدّهما ابن جنيّ وتبعه ابن عصفور والمصنف حرفين مراعاةً للاصل، (وجيم كشين )

نحو الأشدر في الأجدر فينطقون عوض الجيم بحرف شبيه بالشين وذكر الشارح السؤال المشهور وهو انهُ لم عدّت الشين كالجيم في الفروع المستحسنة والجيم كالشين في الفروع المستقبحة ؟ وجوابه ان الجيم حرف قوي والشين حرف ضعيف وتقريب الضعيف من القوي مستحسن بخلاف العكس

## الدليل الناطق المتواتر القطعي

هذه هي نصوص الأئمة في النطق الصحيح الفصيح بحرف الجيم الذي يجب التزامه وهجر ما عداه وهي أمنع من عقاب الجو لا يتسامى اليها شك ولا طعن ولا تأويل . ومن هذه النصوص ترى أن الائمة أجمعوا على استهجان وانكار الجيم التي كالكاف والجيم التي كالشين . وبقي دليل آخر يؤيد هذه النصوص كل التأييد وهو مثلها لا يتسرّب اليهِ شكٌ بل هو قاطع في الدلالة ، قطعاً وهذا الدليل هو السماع والمشافهة

لا شكَّ أن أسلافنا لم يكونوا يملكون في أيام الجاهلية ولا في صدر الاسلام ولا في بقية العصور الاسلامية السابقة لعصرنا الحاضر ما نملك نحن الآن من الأجهزة والأدوات الحديثة لالتقاط الاصوات وحفظها وإذاعتها كما هي فنستطيع أن نسمع من أراد صوت الجيم عن العرب الخُلص الفصحاء

غير أننا عُوِّضنا عنها ما أغنانا عنها وهو الرواية القائمة على الصدق والأمانة والفطنة والحذر الشديد، الرواية التي بلغت فيها الأمة العربية الاسلامية منذ انبثاق فجر الاسلام الى الآن ما لم تبلغهُ أمة من الامم لا في العصور القديمة ولا الحديثة، وقد بلغت الرواية الذروة في رواية الحديث الشريف . أما رواية القرآن الكريم والحرص على رسمهِ ولفظهِ وأدائه كما أُنزلَ فحدّث عن اتقانها وجودتها وسلامتها من الخطأ ما شئت أن تحدّث

رواية القرآن الكريم — وقريب منها رواية الحديث الشريف — أقامت الامة العربية الاسلامية وأقعدتها وتمخضت عن علوم القراءات والتجويد وفن رسم الحروف بل وهي التي أوحت لعلم النحو

وطريق هذه الرواية هي أن يتلقّى مريد القرآن الكريم قراءَته قراءَة صحيحة متقنة بإخراج الحروف من مخارجها ومراعاة صفاتها الذاتية والعرضية تمام المراعاة ويتدرّب عليها على مدرّب تلقى القرآن عن مدرّب آخر بهذه الطريقة وتلقّاه المدرب الآخر على هذا النحو وهكذا حتى يتصل سند الرواية بالمعلم الاول وهو الرسول صلى الله عليه وسلم

وعندي أن خير الشعوب العربية الاسلامية روايةً وحفظاً وأداءً للقرآن الكريم هو الشعب

المصري . وقد أصبحت رواية القرآن الكريم وحفظه على ذلك النحو أمانة في عنقهِ لانفراده وتقدمه في هذه الرواية وهذا الحفظ منذ قرون طويلة مضت

وفي الديار المصرية العامرة مشيخة للقراء يتدربون فيها على القراءة الجيدة المتقنة على شيوخ ذوي علم وخبرة بها وأقدام راسخة فيها وعلى رأسهم جميعاً إمام القراء في هذه الديار وهو من خير حُذّاقهم فيها. ولهم مقارئ في كثير من مساجد القاهرة يجتمعون كل يوم طوائف في عدة مساجد منها بين صلاتي العصر والمغرب ويتدارسون القرآن الكريم فيها في حضرة شيخ من ثقات شيوخهم وحذّاقهم

واذا حضرت أيها القارئ هذه المقارئ مراتٍ وأطلت الجلوس وأرهفت السمع لا تسمع حرف الجيم فيها يلفظ إلاّ من مخرجه في أول الشَّجْر من ناحية فتحة الفم الخلفية بدون الاقتراب بهِ من مخرج الكاف وجعلهِ كالكاف المغلظة ، وبدون الاقتراب من مخرج الشين وبدون إشرابه صوتها ( تعطيشه )(١)

ولقد حضرتُ هذه المقارئ غير مرّة وأطلت الجلوس من أوّل الوقت الى نهايته وأرهفت سمعي كل الارهاف بشغف وانتباه لصوت الجيم فلم أسمع إلاّ ما ذكرت ولم أكتف بذلك فالتقيت بإمام القراء السابق المرحوم الشيخ محمد خلف الحسيني رضي الله عنهُ ثم بإمامهم الحاضر أطال الله بقاءه حضرة صاحب الفضيلة الشيخ علي الضباع وسألت كلاًّ منهما — وهو شيخ للمقارئ — عن النطق الصحيح الفصيح الوارد في القرآن الكريم لحرف الجيم الذي يجب التزامه وهجر ما عداه فكان صلب جوابهما مع اختلاف زمنيهما واحداً وهو « الابتعاد بحرف الجيم حين النطق بهِ عن مخرج حرف الشين وعدم إشرابه شيئاً من صوته — عدم تعطيشه — كما ينطق به السوريون » وهذا هو الأمر الخطير الذي بعثني على كتابة هذا المقال

أما الجواب الاخير بشيءٍ من الاطالة فهو : أن الجيم تلفظ في القرآن الكريم من مخرجها من أول الشَّجْر من ناحية فتحة الفم الخلفية كما ينطق بها بعض أهل القاهرة وخير مثال لهم قرّاء المقارئ ، ولا تجعل كالكاف المغلّظة كنطق كثير من القاهريين الاصليين ولا تجعل قريبة من الشين بإشرابها صوتها ( تعطيشها ) كنطق السوريين والاسكندريين الاصليين

وإذ كان مثل هذا الكلام لا يمكن ادراكه على حقيقته إلاّ بالسماع فاني أرجو من كل من يعنيهم الأمر أن يحضروا المقارئ المصرية فان لم يكن ذلك ممكناً فلينصتوا بانتباه الى القرآن يذاع من محطة الاذاعة بالقاهرة

(١) كلمة تعطيش لا أصل لها في كتب العربية ولا يعرفها القراء

# عدد الحرب

## عند العرب

لمحمد عبد الغني حسن

قال أبو فراس الحمداني

أنا اذا اشتدَّ الزمان وناب خطب وادلهم
ألفيت حول بيوتنا عدد الشجاعة والكرم

أما الفخر بالكرم فهو موضوع نرجىء الحديث فيه الى وقت آخر، وأما (عدد الشجاعة) فذلك موضوع نجد الكلام فيهِ اليوم ملائماً والحديث عنهُ الآن مستملحاً في وقت يفتخر فيهِ أبطال الحرب القائمة بمغامراتهم ، ويعتز أبطال الجو بشجاعتهم ، ويتيه أعضاء « الكوماندوز » فيه بمخاطراتهم ومجازفاتهم

وعدد الشجاعة تختلف تبعاً للزمان والمكان ، فهي عند الرومان غيرها عند العرب القدماء وهي في العصور القديمة غيرها في العصور الحديثة ، وهي في العصور المظلمة غيرها في عصور النور

ولا شك أن شاعرنا الحمداني يقصد بعدد الشجاعة في شعره الحماسي الافتخاري : الخيل والسيوف والرماح والقسيَّ والنبال والدروع والتروس وما اليها من أدوات القتال في العصور السابقة على الاسلام والتالية له بكثير

أما اليوم فاذا أذن المقام لشاعر اوربي أو أميركي أن يفتخر بعدد شجاعته — والفخر طبيعة في النفوس — فماذا يقصد بتلك العدد؟ ؟ لا شك ان العدد القديمة قد تولى زمانها ودالت دولتها . ولم يعد للرمح والسيف والقوس والنبل ما كان لها من المقام في العصور السوالف وتنازلت الخيل عن رفيع مكانها . والسيوف عن مشهور سلطانها ، وتخلت الرماح عن عاليتها وسنانها الى المدفع القاصف والرصاص المدمدم ، والقذائف المهدّمة والطوائر المخربة والنسافات المحطمة والدبابات التي تدب على الأرض لا تبالي سهلاً ولا حزناً ، ولا مرتفعاً ولا منحدراً ، ولا تمر ببقعة الاّ ذللتها ، ولا نشزة من الارض إلاّ مهدتها تصيب الاهداف ولا تصاب ، وتعبر المسالح ولا تغاب

ومن حظ التاريخ أن عُدد الشجاعة القديمة لم تضع بأوصافها وآثارها ، وان ضاعت

باستعمالها وتداولها . فقد خلدها الكتاب وسجلها الشعراء . ولا تكاد تقرأ شعراً حماسيًّا لفارس كعنترة او شجاع كمالك بن نويرة أو جريء كعروة بن الورد أو متحمس كعمرو بن كلثوم الاَّ وجدت فيه وصفاً شاملاً للخيل العاديات والسهام المسمومة والقسي المرنانة

* * *

وأول عدد الشجاعة عند العربي الخيل فقد آثروها على غيرها ، وفضلها بعضهم على الأولاد وفلذات الأكباد ، واستكرموها للزينة والطراد . وقد يطوي العربي وخيله شبعى ، ويظمأ وجياده راوية . والى هذا يشير شاعر من بني عامر بن صعصعة بقوله :

بني عامر ما لي أرى الخيل أصبحت خماصاً وبعض الضمر للخيل أفضل
بني عامر ان الخيول وقاية لانفسكم والموت وقت مؤجل
متى تكرموها يكرم المرء نفسه وكل امرىء من قومه حيث ينزل

ولامرىء القيس أبيات في وصف فرسه من معلقته نكتفي بالاشارة اليها ولا نذكرها لمكان شهرتها وانتشارها في كتب الأدب

وقد عني العرب باختيار الخيل واختبارها والفراسة فيها حتى أصبح ذلك فيهم علماً مبنيًّا على التجربة لطول ممارستهم لها وكثرة اعتمادهم عليها . والعربي ينظر الى الفرس في جميع حالاته وعلى كل هيئاته ، وذلك في سكونه وحركته وقيامه وربوضه ومشيه وعَنَقِه ، وخببه وتقريبه ، فقلَّ أن تخطئه الفراسة أو تندَّ عنه التجربة . والفرس الكريم هو الذي يقول جرير الشاعر في مثله :

وقد قرَّبوا حين جد الرهان بسام الى البلد الأبعد
يقطِّع بالجري أنفاسهم بثني العنان ولم يجهد

والى ايثار الخيل واعزازها تشير أبيات الأخطل التي قد تنسب الى عبدالله بن عباس وهي :

أحبوا الخيل واصطبروا عليها فان العز فيهــا والجمالا
اذا ما الخيل ضيعها أناس ضممناها فشاركت العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم ونلبسها البراقع والجلالا

وقد يتخذ العربي من فرسه معقلاً له وحصناً يأوي اليه كما قال لبيد : —

معاقلنا التي نأوي اليها بنات الأعوجية والسيوف

* * *

أما السيوف فلها في تاريخ العرب مقام يلي مقام الخيل ، والحق أن الفارس لا تتم له الفروسية الاَّ بصهوة جواده وقائم سيفه . وما قيمة الفرس بغير سيف ؟ والعرب تقول في السيف أنهُ ظل الموت ولعاب المنية ، وهي كناية لطيفة ، ومن مأثور الكلام عندهم « السيف هو

الصاحب الولي ، والصديق الوفي ، والرسول الوحي — أي السريع الفصل في الأمور ) .
وقد فضل أبو تمام السيف على القلم في قوله :

السيف أصدق أنباءً من الكتب  في حدّه الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في  متونهنّ جلاءُ الشك والريب

والموازنة هنا لطيفة بين السيف والقلم ، وان كان الشاعر لم يثبت على رأي : فقد فضل القلم في قصيدة أخرى يقول فيها : —

لك القلم الأعلى الذي بشباته  تصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه  وأريُ الجنى اشتارته أيد عواسل

والغالب في الضرب بالسيف ان يكون طعناً كالرماح ، وقد يكون ضرباً كالعمود أو قطعاً كالسكين أو إلهاباً كالسوط

وشرط السيف أن يكون ماضي الحد حسن الماء سريع المقطع ، ولا يكفي ذلك كله ما لم يكن السيف في يد البطل ، فما قيمة السيف البتار في يد لا تعرف الضرب ؟ ويروون في ذلك أن عمر بن الخطاب سأل عن أمضى سيوف العرب فقيل له صمصامة عمرو بن معديكرب الزبيدي فبعث اليه عمر أن يبعث اليه بسيفه ، فلما ضرب به الخليفة وجده دون ما كان يبلغه عنهُ ، فكتب اليه في ذلك فردَّ ابن معديكرب قائلاً : اني بعثت الى أمير المؤمنين بالسيف ولم أبعث اليه بالساعد الذي يضرب به . وهو السيف الذي يقول فيه الشاعر : —

وكأنَّ المنون نيطت اليه  فهو من كل جانبيه منون

ولاشك ان كثرة الضرب بالسيوف تترك فيها أثراً وتدع فيها فلولاً . وذلك صفة مدح في صاحب السيف تدل على طول ممارسته للمقارعة والمصاولة . فقد مدح النابغة الذبياني ممدوحيه بقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم  بهنَّ فلول من قراع الكتائب

وهذا الكلام يشبه الذم ولكنهُ المدح كل المدح ، ويسميه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم . والفارس البطل يفخر أن يكون في مضرب سيفه آثار الضرب وفلول القراع كما قال بشر بن عوانة :

وفي يمناي ماضي الحد أبقى  بمضربه قراع الموت أثرا

وكانت أحسن السيوف العربية وأوسعها شهرة تصنع في مشارف اليمن أو بلاد الهند فقيل للسيف مشرفي ويماني وهندواني ومهند . وكل معركة قاتلة تحتاج الى مقاتلة من طرفين

ومشاركة من جانبين إلاّ المنون فانها تقتلنا من غير قتال . والى هذا أشار المتنبي في مطلع لاميته المتعارفة

نعد المشرفيـة والعوالي وتقتلنا المنون بلا قتال

ولقد اهتمّ العرب بالسيف اهتمامهم بالفرس ، لأنه من عدد الشجاعة عندهم ، فوضعوا له الأوصاف التي تدل على معانٍ فيه ، كما وضعوا له الاسماء الكثيرة ، فمن أسمائه التي تحمل معنى الصفات : الصقيل والمفصل والمخذم والجراز والباتر والعضب والقاضب . ومن توابع السيف حمائله التي يعلق بها ، ومفردها حمالة ، وهي النجاد أيضاً . والقراب ما يوضع فيه السيف وهو الغمد والجراب

ومن جماعة الشعراء الفوارس من افتخر بسيفه وحسن ادارته له وتقليبه في كفه وخاصة في العصر الجاهلي الذي اشتهر بكثرة الغارات والحروب ، كطرفة بن العبد صاحب المعلقة التي يقول منها :

وآليت لا ينفك كشحي بطانة لعضبٍ صقيلِ الشفرتين مهند
أخي ثقة لا ينثني عن ضريبة اذا قيل مهلاً قال حاضره قد

ومن شعراء الاسلام من كانت حقيقة شجاعته دون وصفه ، وكانت فروسيته أقل بكثير من افتخاره ، كابن المعتز الذي أحسن وصف السيف وتشبيهه ولكنه لم يحسن استعماله فوثب عليه غلمان المقتدر وخلعوه ، وخنقه الخادم مؤنس ، ولم ينفعه سيفه الذي يقول فيه : —

ولي صارم فيه المنايا كوامن فما ينثني إلاّ لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند كأنهُ بقيـة غيم رقّ دون سماء

* * *

والرمح هو عدة الشجاعة الثالثة ، وله في أيام العرب حديث يطول ، فما خلا منهُ شعر ، ولا قامت بغيره معركة وقد أوصى النبي باستعماله فقال : « عليكم بالقنا والقسيّ فبها نصر نبيكم وفتح لكم في البلاد » . وكان له عليه السلام أربعة أرماح : رمح يسمى المثنى والثلاثة الباقيات أصابها في موقعة من سلاح بني قينقاع

وأفضل الرماح — كما ذكرت العرب — ما اذا هززته لم يتعطف ، واذا ضربت به لم ينقصف ، وشرها الذي اذا أكرهته انحطم واذا طعنت بهِ انقصم . ولقد قامت للرمح في بلاد العرب صناعة اشتهر بها المثقفون الذين يقوّمون الرماح ويجعلونها مستقيمة صمدة . والثقافة هي صناعة تثقيف الرماح أي تقويمها ، ومنهُ الكلمة الحديثة « الثقافة » التي تستعمل ترجمة لكلمة Culture الانكليزية لأن فيها معنى تثقيف العقول

ومن أبدع ما قيل في الرمح قول القاضي الشريف أبي القاسم الحسني الاندلسي :

وأصم ممطول الكعوب اذا اقتضى مهج الكماة فَدَيْنُهُ لا يُمطل
متوقد حتى أقول أذابلٌ بيديَّ منهُ أم ذبال مشعل
لولا التهاب النصل أينع عوده مما يعلّ من الدماء وينهل
فاعجب لهُ أن النجيع بطرفه رمد ولا يخفى عليه مقتل

* * *

والقسيّ هي عدد الشجاعة الرابعة ، فهي من ألزم لوازم الفرسان بعد الفرس والسيف والسنان . وكان النبي عليه السلام يستعملها ويخطب عند الحرب وهو متكئ على قوسه . وكان له منهنّ أربع قسي ذكرت كتب السير أسماءها

والقوس نوعان قوس اليد وهي المستعملة في بلاد العرب ، وقوس الرجل وكانت تستعمل في بلاد الاندلس ، وقد أخذها عرب اسبانيا عن الفرنجة

وأحسن أنواع القسي ما اتخذ من النبع وهو عيدان شجر بري ، على ان كثيراً من القسي اتخذت من عيدان شجر النارنج والسفرجل والتفاح . وقد وضع العرب للقوس والنبال أسماء وسموا الرماة بحسب توفيقهم في الاصابة . واشترطوا في حديد السهام شروطاً وقسموه أنواعاً . فمنهُ الحديد لسهام الصيد ، والحديد للسهام التي تخترق الدروع والتروس ، والحديد للسهام التي تحرق السفن والابراج

***

أما الدروع والتروس وأشباهها فهي تتمة عدد الشجاعة في العصور القديمة ، وقد انتهى اليوم زمانها ، ولم يبق منها إلاّ الخوذة أو البيضة التي توضع على الرأس ليتقي المحاربون بها شظايا القنابل ، والخوذة على الرأس أخف محملاً من الدرع على الجسد ، وهي لا تعوق المقاتل عن تأدية واجبه كما تصنع الدرع التي تعطل الحركات في حرب تحتاج الى السرعة والخفة في الغدوات والروحات

هذه خواطر سريعة في عدد الشجاعة القديمة ، جمعتها من مطالعات مختلفة واستأنست فيها بكتاب قيم اسمه «حلية الفرسان وشعار الشجعان» وهو بعينه القسم الثاني من كتاب «تحفة الانفس وشعار سكان الاندلس» وهذا الكتاب مخطوط ولكنهُ طبع «بالزنكوغراف» — كما طبع كتاب الانساب للسمعاني في اوربا — بالخط المغربي وأشرف على تصحيحه واخراجه المستشرق الفرنسي لويس مرسييه قنصل فرنسا في بلاد المغرب في حينه، اما مؤلف الكتابين: الحلية والتحفة فهو علي بن عبد الرحمن بن هذيل من علماء الاندلس وأدبائها في القرن الثامن الهجري

# عمر الخيام
## كما أعرفه

لمحمود المنجوري

### الفصل الاول

### هل عمر الخيام خرافة ؟

قرأت في سـنة ١٩٢٧ بحثاً في جريدة فتى العرب الصادرة عن دمشق ، مقالاً ترجمه الاستاذ احمد شاكر الكرمي عن جريدة «المورنج بوست» ، تناول موضوع جدلٍ قام يومئذٍ بين عالمين جليلين من علماء الانجليز المستشرقين وهما الدكتور مللر ودِنِيسُن رُسّ إذ أنكر الأول الخيَّام ككائن لهُ وجود ، وقال بأنهُ خرافة موضوعة ، وأيد رأيه هـذا بنصوص ، وعارضه السير دنسن رسّ ، وعمد الى نقض أقواله بنصوص أوردها

ولقد رأيت يومئذٍ ان الرد على انكار وجود الخيـام بالوضع الذي ساقـه السير رس يحتاج الى تدعيم من ناحية الوثائق التاريخيـة ، فعمدت الى درس هـذا الموضوع وبعثت به الى « المورنج بوست» أدليت فيه بما وصل اليه درسي من وثائق الى هذا التاريخ ، يهدم زعم الدكتور مللر ، ويقيم الحجة على ان بعض العلماء المستشرقين على الرغم من طلاوة أبحاثهم لا يمكنهم أن يلموا إلمام الباحث الشرقي في أدب بلاده

كتب الدكتور ا . ه مللر قال : أُعلِنَ ان عدداً من محبي عمر الخيام سيقومون برحلة من انكلترا الى نيسابور ابتغاء تجديد الضريح الذي أخنت عليه الايام والذي يظن أنهُ يضم رفات عمر الخيام الذي ينسب اليه ذلك الشعر الذي استمد منه فِتْزْجِرَلْدْ ديوان الشعر المشهور والمسمى برباعيات عمر الخيام

وانهُ لجديرٌ بنا أن نتساءَل هل لعمر الخيـام دفين نيسابور علاقة بالرباعيات التي كانت أصلاً لما ترجمه فتزجرلد ؟ انني منذ ثلاثين عاماً أبحث هذا الموضوع في عناية وأظن ان الوقت قد حان لـكشف النقاب عن خرافة عمر الخيام :

ما هو معنى الرباعيات في اللغة الفارسية ؟ ان هذه الكلمة تعني مختارات من المقطوعات

الشعرية لا صلة بين بعضها وبعض ولا وحدة لها ، هي مجموعة في كتاب خلال سنوات عديدة ، ويشبهها بعض الشبه ( السجل الادبي ) الذي كانت تضمهُ السيدات في صالونات الادب في القرن الماضي ليدون فيه الشعراء الذين يزورونهنَّ شيئاً من نظمهم الارتجالي وقد زالت اليوم هذه العادة

فديوان الرباعيات هو مجموعة لا انسجام فيها ، ولكن فتزجرلد أخرج منه قصيدة متلاحمة ذات وحدة متماسكة بعد نفرة واضحة . إلاَّ ان الذي يستعصي على الحل هو نسبة تلك المجموعة الفارسية التي لم يرَ فتزجرلد سواها الى عمر الخيام ، فقد فحصت بنفسي تلك المجموعة في مكتبة بودلين فلم أجد اسم عمر الخيام مذكوراً فيها على الاطلاق

فمن هو عمر الخيام هذا الذي جاء باسمه فتزجرلد الى عالم الادب الانجليزي سنة ١٨٥٩ وجعلهُ معروفاً مشهوراً ؟ لقد راجعت تواريخ بلاد الفرس وكتب الأدب الفارسية ، وسألت كثيراً من أدباء الفارسيين فوجدت التاريخ يشير اشارات غامضة الى عمر الخيام ، أما كتب الادب الفارسية ( ولا أعني مؤلفات دربيلو أو فون هامر أو سواهما من الناقلين ) فهي خالية من أية اشارة الى الخيام على انهُ شاعر

وأما ما روي عن حياة الخيام فقليل ، وهو على قلّته محوط بشبهات لا يقبلها المؤرخ العصري ولا يرتضيها ، وأقدم مصدر لأخبار الخيام هو «الوصية» المنسوبة الى نظام الملك صديق عمر الخيام وزميله في طلب العلم ، الذي كان وزيراً للسلطان الب ارسلان بن ارطغرل بك التتري مؤسس دولة بني سلجوق

***

قال نظام الملك في وصيته ان أباه أرسلهُ الى نيسابور ليتلقى العلم على العالم المشهور الامام الموفق النيسابوري ، وهناك لقي تلميذين في مثل سنّه أحدهما الحكيم عمر الخيام والثاني الحسن بن الصباح فنشأت بينهم صحبة وصداقة وقال في عمر إنهُ من أهل نيسابور ، أما الحسن فقد كان أبوه زنديقاً ، وقد صار الحسن فيما بعد زعيم طائفة الاسماعيلية ، التي يعتقد أفرادها بوجوب ذبح جميع من يخالفهم من غير تمييز ولا تفريق . وتقول ( الوصية ) المبهمة ان الرفاق الثلاثة اتفقوا على ان يجتمعوا في مستقبل الأيام فاذا كان أحدهم قد أصاب ثراءً أو جاهاً أو نعمة قاسمهُ الآخران حسن حظه . ولما تقلد نظام الملك الوزارة وعرف ذلك صاحباه ، ذهبا اليه يطالبانه انجازاً لوعده ، ولم يذكر نظام الملك في وصيتهِ ما أعطاه للحسن ، ولكنهُ ذكر أنهُ أجرى على عمر الخيام رزقاً قدره ١٢٠٠ مثقال من الذهب ، تعطى له من خزينة نيسابور ، ليستعين بها على متابعة درس الفلك . وفي ذلك الوقت خلف الملك شاه اباه الب ارسلان في الملك

سنة ١٠٧٢ م وكان مشتغلا باصلاح التقويم ، فانتدب عمر وسبعة من العلماء للقيام بتلك المهمة العظيمة فاضطرّ عمر الفلكي الى الانتقال الى مرو لهذه الغاية

والمؤرخ الذي ينظر بعين الفاحص الى هذه النصوص التاريخية لا يرى الا انها ملفقة موضوعة ، لقد أكد لنا دير بيلو ان عمر الخيام توفي في نيسابور سنة ٥١٧ هـ أي سنة ١١٢٣ م ، ومن الواضح ان نظام الملك مات بعد وفاة الخيام بدليل انهُ ذكر في وصيته ان الخيام مدفون في نيسابور ، ووصية نظام الملك يجب ان تكون قد كتبت في أوائل سنة ١٠٩٢ م لأن الملك شاه عزله من الوزارة في تلك السنة ، وقد قتل بخنجر صديقه الحسن بن الصباح قبل نهاية السنة ، كما ان الملك شاه مات بعد شهور قليلة من طرد وزيره وفي هذا ما يناقض قصة عمر الخيام من أساسها ويذريها في الهواء

وقد يقول قائل ان مخطوط الرباعيات الموجود بين أيدينا فيه دليل على حقيقة عمر الخيام ، وليس الأمر كذلك ، فان ذلك المخطوط يقول فيه فيتزجرلد نفسه « ان ذلك المخطوط المشوّه تشويهاً لا مثيل له بسبب النسخ ، هو نادر الوجود في الشرق فلا يمكن الحصول عليه وايصاله الى الغرب ، ولا يوجد من الكتاب نسخ في ( انديا هاوس ) ولا في المكتبة الأهلية بباريس ، ولا نعرف بوجود نسخة في انجلترة سوى النسخة الموجودة في مكتبة بُدلين التي كتبت سنة ١٤٦٠ وهذه النسخة لا تحتوي الاّ على ١٥٨ رباعية ، وتوجد نسخة أخرى في مكتبة الجمعية الاسيوية في كلكتا تحتوي ، على الرغم من انها غير تامة ، على ٥١٦ رباعية فيها كثير من المكرر والمحرف

***

وقد أشار الاستاذ كول الى « نسخة نادرة جداً طبعت في كلكتا سنة ١٨٣٦ وهي تحتوي ٤٣٦ رباعية مع ذيل يضم ٥٤ رباعية ليس لها وجود في الأصل

ويكفي ان ينظر القارىء الى هذه الأقوال التي صرح بها مترجمو الرباعيات المنسوبة الى عمر الخيام ، ليعرف في وضوح ، انه لا توجد نسخة أصلية صحيحة للرباعيات كما كتبها عمر الخيام نفسه . وقد اعترف فتزجرلد بأن نسخة مكتبة بُدلين التي اعتمد عليها في ترجمته ، لا يرجع عهد كتابتها الى أبعد من سنة ١٤٦٠ م ، فهي على هذا قد كتبت بعد وفاة عمر بنحو ٣٧٠ سنة ، ويعتقد فتزجرلد ان تلك النسخة مدخول فيها ومحرفة

وأول طبعة من ترجمة الرباعيات لفتزجرلد احتوت ٧٥ رباعية وقد زادت الطبعة الثانية حتى بلغت ١١٠ رباعية أما الطبعتان الثالثة والرابعة فقد احتوتا مائة رباعية ورباعية ، ومما لاشك فيه ان فتزجرلد كان يزيد في كل طبعة كثيراً من الرباعيات التي لاوجود لها في الأصل

فما الذي يصنعهُ الباحث في قصيدة أو طائفة من المقطوعات الشعرية مات الشاعر الذي تنسب اليه في سنة ١٠٩٠ أو سنة ١١٢٦ ولم تعرف اشارة في الشرق حتى في مسقط رأسه فارس أو في الهند ، الاَّ في القرن الثامن عشر ، وقد اختلفت نسخ ديوانه ، فمنها ما حوى ٦٣٢ شطرة من الشعر ومنها ما حوى ٢٠٥٤ شطرة ، وأقدم نسخة من تلك النسخ دوّنت بعد أربعة قرون ، على وجه التقريب ، من وفاة المؤلف

ان علماء اللغة الفارسية يحكمون على نسخة مكتبة بدلين اذا اطلعوا عليها بأنها خليط من شعر حافظ وسعدي ومنطق فريد الدين العطار الذي كان يشتغل بالنسخ في شيراز ، وقد جمعت كلها وكتبت سنة ١٤٦٠ وأضيفت اليها الملح والمقتبسات والأمثلة التي لا يوجد مثلها في كتاب وليام جونِس الذي سماه « النحو الفارسي » . وعليهِ فان عمر الخيام خرافة ، وان أشعاره انما هي أقوال جمعت ثم نسبت الى هذا الاسم الخيالي الجميل

هذا ما كتبه الدكتور ملر في «المورنج بوست» وهو في جملته مغالطات آخذ بعضها برقاب بعض ، وسآتي برد السير دنسن رس ، ثم بتعقيبي عليه الذي أرسلته الى المورنج بوست

قال السير دنسن رس : لا أريد أن أدخل في جدال مع أحد في موضوع عمر الخيام والسبب في ذلك عدم وجود موضوع للجدل ، ولكني أريد أن أدحض بعض « الحقائق الاساسية » التي زعمها الدكتور ملر والتي بنى عليها نظريته القائلة بأن عمر الخيام خرافة

ان حكاية الرفاق الثلاثة (عمر الخيام ونظام الملك والحسن بن الصباح) حكاية ملفقة ومتفق على وضعها في التاريخ الادبي لهذا الشاعر ، فهي رواية وليس لقصتها إلاَّ عمل لا طائل تحته

لقد كتب الدكتور ملر يقول : فما الذي يصنعهُ الانسان في قصيدة أو طائفة من المقطوعات الشعرية مات الشاعر الذي تنسب اليه . . . وأجيب عن هذا القول بما يأتي :

١ — لقد توفى عمر الخيام حوالي سنة ١١٢٣ ولدينا تفصيلات عنه كتبها رجل اجتمع بهِ فعلاً سنة ١١١٢ وزار قبره في نيسابور سنة ١١٣٥

٢ — لقد أشار اليه كشاعر مؤلفون ألفوا كتباً في السنوات الآتية ١١٧٦ م و ١١٩٠ م و ١١٩٨ م و ١٢٢٤ م و ١٢٤٠ م وقد نقل احدى رباعياته ( الجويني ) مؤرخ المغول المشهور — وذلك سنة ١٢٦٠ م وذكرت ثلاث عشرة رباعيــة لهُ مكتوبة في مجموعة أشعار فارسية كتبت سنة ١٣٤٠

٣ — أمر اختلاف المجموعات في عدد الرباعيات طبيعي ولما كان الخيام مرغوباً في شعره فلا غرابة اذا نسبت اليه مئات من الرباعيات التي نظمها سواه

٤ — أما ان النسخ القديمة من الرباعيات نادرة فهذا أمر طبيعي ليس فيه ما يستغرب أو يدل على شيء

٥ — ألف عمر الخيام عدة كتب علمية لم يبق منها على تمامها إلاّ اثنان، رسالة في الجبر طبعت بالعربية والفرنسية في باريس سنة ١٨١٥ ورسالة في تعريفات اقليدس محفوظة في مكتبة ليدن. أما دعوى زيادة فتزجرلد على الرباعيات فقد آن وقت ردها ان فتزجرلد اتبع الأصل في ترجمته ولكنهُ لم يلتزم نقل الكلمات بل نقل المعاني وقد كان يترجم الرباعيتين أو أكثر في رباعية واحدة

وينبغي لي أن أختم ردي بكلمة في الرباعيات نفسها ، تطلق الرباعيـة عند الفرس على مقطوعة من الشعر ذات أربعة أسطر في موضوع واحد . وقد نظم هـذا النوع من الشعر كل شعراء الفرس ولـكن عمر الخيام امتاز عليهم بأسلوبه الفلسفي وتشاؤمه وقد جمعت هذه الرباعيات بعد وفاة الخيام ورتبت على حروف الهجاء ، ولـكن فتزجرلد لم يعبأ بهذا الترتيب بل عمد في ترتيب ما ترجمه ملاحظة الموضوع لا حروف الهجاء في القوافي

ويجب ألاّ يغرب عن البال ان العلامة كول عميد جامعة كمبردج وهو أكبر مستشرق أخرجتهُ انجلترة على الاطلاق هو أول من عرّف فتزجرلد بعمر الخيام ووجهه الى رباعياته ، وحمله فوق ذلك على دراسة شعره . على ان فتزجرلد لم يكن يفهم الاصل الذي يترجمه فهماً حرفيًّا بل كان يترجم مستوحياً المعاني التي ألهمت الخيام ، ومع ذلك فليس في مكنة أي ناقد أو متصدّ لترجمة فتزجرلد أن يجد نقصاً أو تقصيراً يغيّر المعاني أو ينقص منها أو يشوّهها

على ان رد السير دنسن رس على ما فيه من قوة البحث العلمي لا يخلو من مآخذ ، فقد أنكر هو الآخر حكاية الرفاق الثلاثة وذكرها على انهـا حكاية ملفقة وسلم بتلفيقها ولم يقدم دليلاً عليها على زعمه هذا مع ان هذه الحـكاية مذكورة في كتب استشهد بها السير دنسن نفسه في رده على الدكتور مللر

انها لجرأة على العلم وعلى التاريخ أن يقوم باحث فينكر شخصية علميـة تاريخية دون أن يناقش الوسائل والاسباب التاريخية التي ذكرت هـذه الشخصية ، وأن يترك الامر موضع شك مريب دون حجة أو برهان جديد ، فالدكتور مللر مبطل وليس له دليل ، وكان عليه أن ينقض الوثائق الآتية التي ذكرت عمر الخيام نقضاً علميًّا . من ناحية التاريخ الادبي ومن ناحية ثقة المتأدبين فيها ، واني لأسوق هذه الوثائق الى ما أشار اليه السير دنسن راجياً أن يكون في هذا توثيقاً لرد العلامة السير دنسن ، وهذه الوثائق انما هي المصـادر العلمية والتاريخية التي أمهد بها البحث في عمر الخيام بوصفهِ شاعراً وعالماً وفيلسوفاً وزعيماً من زعماء الباطنية في الاسلام

# علاقة رعاية الطفل

## بحالة الأم من الناحية الاجتماعية[1]

للدكتور حسن كمال

أنشىء قسم رعاية الطفل والامومة في القطر المصري عام ١٩٢٧ لمعالجة الأمراض الوراثية وتحسين النسل والاهتمام بالأمومة واحاطة الأمهات بوسائل العناية والوقاية وتشجيعهن على القيام بوظائف الامومة خير قيام ورعاية الطفل والعناية بصحته حتى تقل نسبة الوفيات بين الأطفال

ونستعرض الآن حالة سكان القطر ووفياتهم ثم نتتبع مدى تأثير رعاية الطفل والأمومة فيهم . وبديهي ان الاغراض السياسية التي أنشئت من أجلها مراكز رعاية الطفل هو زيادة تعداد السكان وزيادة مواليده والاقلال من وفياتهم . والجدول الآتي يبين عدد المواليد وعدد الوفيات في القطر المصري من سنة ١٩٣٦ الى سنة ١٩٤٠ :

| السنة | عدد المواليد | عدد الوفيات | عدد الزيادة في السكان |
|---|---|---|---|
| ١٩٣٦ | ٦٩٨١٨٦ | ٤٥٥٨٣٢ | ٢٤٢٣٥٤ |
| ١٩٣٧ | ٦٩٤٠٨٦ | ٤٣٤٢٠٨ | ٢٥٩٨٧٨ |
| ١٩٣٨ | ٧٠٤٣٧٦ | ٤٢٩٢٤٨ | ٢٧٥١٢٨ |
| ١٩٣٩ | ٦٩٦٧٤٦ | ٤٢٩٠٣٣ | ٢٦٧٧٦٣ |
| ١٩٤٠ | ٦٩٧٧٠٠ | ٤٤٤٤٤٨ | ٢٧٢٢٥٢ |

ولتسهيل مقارنة هذه الاعداد بالنسبة الى كل الف من السكان تكون النتيجة كالآتي :

| السنة | نسبة المواليد الى كل الف من السكان | نسبة الوفيات الى كل الف من السكان | نسبة الزيادة الى كل الف من السكان |
|---|---|---|---|
| ١٩٣٦ | ٤٤٫٢ | ٢٨٫٨ | ١٥٫٣ |
| ١٩٣٧ | ٤٣٫٥ | ٢٧٫٢ | ١٦٫٣ |
| ١٩٣٨ | ٤٣٫٣ | ٢٦٫٤ | ١٦٫٩ |
| ١٩٣٩ | ٤٢٫٢ | ٢٦٫٠ | ١٦٫٢ |
| ١٩٤٠ | ٤١٫٦ | ٢٦٫٥ | ١٥٫١ |

ومن ذلك يتضح أن هناك زيادة سنوية غير مطردة في السكان يجب المحافظة عليها . لأن زيادة السكان تعني زيادة الايدي العاملة وهذا معناه زيادة قوة الامة

ولاطراد زيادة السكان يحسن العمد الى الوسائل الاجتماعية والطبية . فالاجتماعية

(١) محاضرة للدكتور حسن كمال مدير قسم رعاية الامومة والطفولة في مصلحة الصحة الاجتماعية (القاهرة)

كالترغيب في الزواج بمختلف الطرق أو سن قوانين تقضي على الذين لا يتزوجون بدفع ضرائب للحكومة أكثر من المتزوجين ، أو تفضيل المتزوجات والمتزوجين على غير المتزوجين والمتزوجات عند الالتحاق بالوظائف العمومية. لكن هذه الطرق مقيّدة للحرية الشخصية. أما الوسائل الطبية فتتلخص في علاج العقم عند المتزوجين والمتزوجات

بعد ذلك تأتي مقاومة زيادة الوفيات وهذه أهم وسيلة لزيادة سكان القطر . لأنهُ في كل ألف من المتوفين من جميع الاعمار يموت ٢١٦ طفلاً بين الولادة ، وبلغ السنة ١٥٥ طفلاً بين السنة والسنتين و١٣٢ طفلاً بين السنتين والخمس سنوات . فيكون المجموع ٥٤٨ طفلاً . ومعنى هذا ان نصف الذين يموتون في القطر المصري من جميع الاعمار هم أطفال يقل عمرهم عن الخمس سنوات وهي حقيقة تدل على شدة وطأة الموت على الاطفال المصريين كما تدل على ان سن الطفولة هو أنسب سن للاقلال من الوفيات عامة

نشأت فكرة رعاية الطفل والأم على أثر احصاء الوفيات وتوزيعها على الأعمار ، إذ اتضحت الحقائق السابقة فأصبح لزاماً على رجال الحكم وضع حدّاً لهذه الخسارة الهائلة في أرواح السكان . ففي سنة ١٩٢٧ أنشأت وزارة الصحة دوراً خاصة هي مراكز رعاية الطفل والامومة ومن ذلك التاريخ أخذ تعداد هذه المراكز يكبر حتى بلغ الآن ٦٢ مركزاً تابعاً لوزارة الصحة،وهناك مراكز أخرى صغيرة عديدة في القرى تشرف عليها مصلحة الصحة القروية كما ان هناك مراكز أخرى تابعة لمجلس بلدي الاسكندرية . وكانت الامهات اول الأمر تعتقد انهنَّ أقدر على ارضاع أطفالهنَّ والعناية بهم وبأنفسهنَّ من مراكز رعاية الطفل. لذلك أحجمنَ أولاً عن طلب المساعدة من تلك المراكز

لكننا الآن بعد أن شاهدنا اقبال الجمهور على هذه المراكز علمنا ان تلك الافكار والعقائد كان أساسها الجهل والكسل . ولا أدلَّ على ذلك من ان عدد الولادات التي قامت بها مراكز رعاية الطفل عام ١٩٤٢ بلغت ٨٦٨٠٦ ولادة وان عدد الاطفال المترددين على مراكز رعاية الطفل في ذلك العام أيضاً ١٣٥٥٢٧٥ طفلاً . وعدد الحوامل القديمات ٥٣٢٩٢ وعدد الحوامل الجديدات ١٠٤٩٢٩ وعدد عيّنات الدم المأخوذة للفحص ٨٥١٤٦ عينة

ومع ذلك فاذا قارنا حالنا هذه بالحال في بريطانية لاتضح لنا الفرق الهائل ومدى ما يجب علينا عمله حتى نصل الى ما وصل اليه الانجليز . ففي بداية هذه الحرب ١٩٤٠ كان أكثر من ٣٠٠٠ مركزاً لرعاية الطفل كبيرة : ٢٥٠٠ مركزاً صغيراً لرعاية الطفل والامومة شبيهاً بالعيادة الخارجية. وأصبح الآن أكثر من ثلاثة أرباع الامهات ببلاد الانجليز يتمتعن بخدمات مراكز رعاية الطفل والأم

وهكذا أصبحت مراكز رعاية الطفل والامومة محل تزاحم الأمهات . والحقيقة ان العمل في هذه المراكز لهُ تأثير يخالف تأثير عيادات المستشفيات . ففي الاخيرة مرضى كثيرون وفيها أنظمة خاصة قد تأنف منها الأمهات السليمات ومعهن أطفالهن الأصحاء . أما الجو في مراكز رعاية الطفل فأشبه شيء بجو أسرةٍ من أول دخول المركز الى الخروج منهُ . فهناك تلقى المحاضرات وتدرس دروس عملية لطرق ارضاع الطفل وملبسه ونظافته والعناية بعينيه وصحته وغذائه ، وعلى هذا العناية بالأمهات وغير ذلك . كما ان المراكز تقوم بعلاج الحالات البسيطة وتصرف الشديدة منها الى المستشفيات القريبة . وهناك أيضاً يوزن الاطفال وتقاس حرارتهم وتدوّن فتتعلّم الامهات مدى نمو أطفالهنَّ وصحتهم وطرق مراقبتهما . وهناك مراكز توزع فيها الأغذية ذات القيمة الخاصة من جهة الفيتامينات التي تساعد على نمو الطفل وتدرأ عنه الامراض وهناك حقن الوقاية ضد الدفتيريا والتطعيم ضد الجدري . كما ان هناك دروس تعطى لتفصيل ملابس الاطفال الى جنب مراكز تقوم بالألعاب الرياضية للطفل

وتبدأ العناية بالطفل من الشهر الثالث للحمل فتذهب أمه الى المركز ويبحث عما فيها من مرض سيؤثر على الطفل مدة حمله وعند وضعه وبعد ولادته . فيحلل بول الأم وتقاس أبعاد الحوض ويحدد وضع الجنين ويحلل دم الأم وغير ذلك وتنبه الى ما يحسن بها عمله مدة حملها . ثم يعاد فحصها باستمرار حتى الوضع وعندئذٍ يباشر مركز رعاية الطفل ولادتها ومقاسها ويتعهد طفلها حتى السنة الخامسة من العمر والحقيقة ان كثيراً من أمراض الأطفال واصاباتهم هي نتيجة عدم العناية بكل هذه الخطوات فعدم العناية بصحة الأم وجنينها وقت الحمل يسبب كثيراً من الأمراض ومخاطر الوضع . وعدم العناية وقت الوضع يسبب امراضاً كثيرة ووفيات عديدة للامهات والأطفال . أما الاهمال بعد الوضع فحدّث عن مضاعفاته ولا حرج فهناك النزلات المعوية والالتهابات الرئوية والرمد الصديدي وغير ذلك من الأمراض التي لا تحصى

هذه الرعاية من النواحي الاجتماعية الهامة وقد كان الشعب المصري يجهلها فهي تظهر قيمة الوقاية وطرق المحافظة على الصحة وتظهر ضرورة معالجة الوالدين من كل مرض يصيبهما ويعوق رعايتهما لأطفالهما اذ ينتهي الى أطفالهم فيصابون به أيضاً . تظهر قيمة الصحة في المجتمع بعد دخول المدارس حيث يتمكن الطفل، بما أوتي من حسن رعاية وجودة غذاء وكمال نمو ووفرة صحة، من النبوغ والتقدم بخطوات سريعة لا تقاس بخطوات من سبقه من الاطفال . تظهر للمجتمع فائدة انتاج جيل صحيح سليم يكوّن جيشاً يدرأ عن الأمة الأعداء وعن القطر الكسل والجهل وعن الأهل المرض فتقل الأمراض بالنسبة الى قوة المقاومة كما تقل مصاريف المستشفيات

على حين تكثر رؤوس الأموال في المشروعات النافعة كالشركات والمصانع فتتوفر الثروة والصحة والنشاط والقوة والعزة ثم يتلاشى الفقر والمرض والكسل والضعف والمذلة

ذلك باختيار هو الغرض الأسمى لرعاية الطفل وأثره في المجتمع

على انه لا تتوفر رعاية الطفل في أمة الاّ بتوفر الشروط الآتية أو قل الوصايا الاثنتى عشرة — أو قانون رعاية الطفل —

١ — يجب ان يولد الطفل ولادة طبيعية وهو خالٍ من مرض وراثي

٢ — يجب ان يتوفر للطفل بيئة صالحة ووسط مرح وسرور

٣ — يجب ان يخصص للطفل جزء من ايراد والده ووالدته

٤ — يجب ان يعنى بالأم قبل الوضع وبعده من الوجهتين الطبية والاجتماعية

٥ — يجب ان تساعد الأم وتفضل على غيرها في العلاج بالمستشفيات

٦ — يجب ان تصرف الأم عنايتها الى طفلها لمدة ثلاث سنوات على الأقل

٧ — يشترط في غذاء الطفل ان يكون كافياً

٨ — يجب ان يوضع الطفل تحت ملاحظة طبية دورية

٩ — يجب ان تتوفر دور كفالة للاطفال الذين تضطر أمهاتهم الى ان تتركهم وحدهم بعض اليوم وهم دون الثلاث سنوات

١٠ — يجب ان تتوفر ملاجيء لايواء الأطفال الذين يزيد سنهم على الثلاث سنوات مدة مرض امهاتهم او فقد من يعولهم

١١ — يجب انشاء مدارس لتعليم الامهات العناية بالاطفال — أو على الاقل يجب تدريس ذلك بالمدارس الحالية

١٢ — يجب العناية بالمرضعات والتأكد من خلوهنّ من امراض معدية او امراض اخرى تؤثر في الطفل او في تربيته، وان يكون لبنها موافقاً للطفل الرضيع وغير ذلك حتى يكفل للطفل الغذاء والصحة والراحة، وان لا يسمح لمرضعة ان ترضع طفلاً الاّ بعد الاستئذان في ذلك

ومن هذا يتضح ان أهم العوامل في انشاء جيل جديد سليم هو العناية بالأسرة وبالمنزل فأساس سعادة الأمة هو سعادة العائلة واستتباب وسائل الراحة بالمنزل . وهذه الوصايا الاثنتا عشرة ليست كلها طبية بل بعضها اجتماعية . ومن هنا يستنتج ان الامم الراقية الآن تعنى بالناحية الاجتماعية أكثر مما تعنى بالناحية العلاجية نحو انشاء المستشفيات . والمستشفيات والعيادات الخارجية وكثرة الأدوية هي طريقة الترقيع والاسعاف لاطالة عمر مدته قصيرة كلها مرض او ضعف . ونحن الآن لا نريد ترقيعاً بل نريد انتاجاً سليماً من البداية . نريد صحة

تامة ولا نريد امراضاً تهد من كياننا وآلاماً تحرمنا لذة العمل والكد والحياة ونستعين على تحملها بالعقاقير والمستشفيات. فالمطلوب الآن جيل لا يملأ مستشفيات ولا تفترسه الامراض بل جيل يقاوم المرض ، جيل نشيط ، جيل كامل من كل وجهة

تلك هي الناحية الاجتماعية الهامة التي ترمي اليها رعاية الطفل

وتقصد هذه الرعاية ايضاً الى تدارك أخطار تقع :

١ — اخطار دور الحمل : كم من جنين توفى فأجهضت امه نتيجة جهلها بالمحافظة على صحتها فالآلاف المؤلفة من حالات الاجهاض تنجم غالباً عن الاصابة بالأمراض وعدم وقاية الأم مدة الحمل كما ان الاطفال الذين يتوفون وقت الوضع يكاد يزيد عددهم على الأجنة المتوفَّين وأغلب وفيات الوضع نتيجة عدم العناية بالجنين وقت الوضع او سوء استعمال الجفت او غير ذلك. وهناك عامل آخر هام لوفاة الجنين او الطفل الحديث الوضع ألا وهو مرض الزهري . هذا هو السبب في ان مراكز رعاية الطفل تفحص دم كل حامل جديد تطرق بابها . ويؤثر الزهري في الجنين وهو في رحم امه عادة وقد ثبت من نتائج فحص الدماء بمراكز الاطفال ان هناك نسبة كبيرة من المصابات بهذا المرض بين الحوامل الجديدات. أما الحوامل القديمات فانهنَّ يكنَّ قد برئنَ منهُ في مراكز رعاية الطفل في الحمل الاول ولذلك يقل حدوثهُ بينهنَّ. وللزهري خطر آخر على حياة الجنين فهو سر اسباب الاجهاض وهذا هو السبب في ان كل مركز رعاية طفل يشدد على الحوامل الجديدات في تعرف هل سبق اجهاض أو لا

وهناك أخطار أخرى نتيجة تسمم الحمل مثل الاكلامسيا والزلال البولي وغير ذلك مما يؤثر كثيراً في صحة الأم وحياة الطفل . وهذا هو سر فحص البول للزلال وقياس كميته وقياس الضغط الدموي في مراكز رعاية الطفل . والنزيف وقت الحمل سبب هام في قتل الجنين

وثلاثة ارباع هذه الاخطار يمكن تجنبها وعلاجها . ومن هنا وضح تشخيص الامراض عند الام وقت الحمل وتأثير علاجها الحسن على صحتها وصحة طفلها وصحة الجمهور تبعاً لذلك

٢ — اما اخطار الوضع فكثير منها سهل العلاج والاجتناب . فتغير وضع الجنين في كثير من حالات الحمل قبل الوضع يسهل الوضع ويقلل من مخاطره . كما ان قياس ابعاد الحوض كثيراً ما يرشد الى صعوبة الولادة قبل حدوثها وطريقة علاجها جراحيًّا . وهكذا يتضح لنا ان من أهم طرق منع وفيات الاطفال وقت الوضع ومدة الحمل هي : اولاً فحص الام مدة الحمل ، ثانياً علاجها علاجاً محكماً ، وذلك ما تهتم به مراكز رعاية الطفل والامومة

٣ — اما اسباب وفيات الاطفال بعد الوضع في هذا القطر فهو النزلات المعوية والمعدية والرئوية والامراض المعدية الاخرى وسوء التغذية وقلة التغذية . والنزلات المعدية وأهمها

الاسهال الأخضر، كثير الحصول صيفاً نتيجة قذارة طعام الطفل او قذارة فمه او سقوط الذباب على فمه . أما النزلات الرئوية فهي نتيجة تعرض الاطفال الى البرد فجأة وعدم العناية بتدفئتهم تدفئة كافية . وأما الامراض المعدية فأهمها الحصبة . لأن الجدري والدفتيرية أصبحا الآن مما يتفادى بالتطعيم وبالحقن

وسوء التغذية سبب عظيم في النزلات المعوية المعدية . لأن الطعام الثقيل والتالف يضران بالمعدة والامعاء ويهيجان أغشيتها المخاطية فيصاب الطفل بشتى العلل

ويتضح مما ذكر ان أهم عامل في رعاية الطفل هو الاستشارة الدورية الصحية . ولذلك فقد خصصت أيام الأسبوع لفئات خاصة : فيوم للحوامل الجديدات، ويوم للحوامل القديمات، ويوم للاطفال من وقت الولادة الى الشهر الثالث ، ويوم من الشهر الثالث الى السادس ، ويوم من الشهر السادس الى آخر العام الاول ، ويوم من اول العام الاول الى آخر العام الخامس . وهكذا يعمل المركز ستة أيام ويستريح في اليوم السابع

والمؤكد ان هذه الاستشارة الطبية الدورية في مراكز رعاية الطفل سيكون لها تأثير كبير في طوائف الامة الاخرى من آباء وأمهات وطاعنين في السن، فيعمد هؤلاء الى استشارة الطبيب دورياً ، شأن اطفالهم وزوجاتهم

فالتردد على مركز رعاية الطفل انما هو لملاحظة الامراض المبتدئة ودرأ التعرض لبعض العلل من جهة الملبس أو المشرب أو الأكل أو السكن أو مهنة الأمهات — وهناك يشير الطبيب على الأم باللازم حتى لا تصاب هي وطفلها بمرض من الامراض المذكورة

وتتلخص الاستشارة الطبية الدورية بمراكز رعاية الطفل في وزن الطفل وقياس درجة حرارته وفحص هيكله العظمي وغدده الليمفاوية وسلامة جلده ونظافة جسمه وحالة رئتيه وقلبه وغير ذلك . أما الام فيحلل بولها ويقاس ضغطها وتفحص رئتاها وقلبها وغير ذلك

ويلاحظ ان استمرار الوزن يرشد الى درجة النمو . وقد دلتنا التجربة ان لطول الجسم ووزنه وشكل صدره علاقة ببعض الامراض المعدية ، وان الطبيب الكشاف يمكنه أن يصف العلاج الذي يراه لأجل مقاومة الجسم لهذه الامراض

***

وهناك مسألة العينين التي تجب العناية بهما لكثرة الرمد الحبيبي هنا وانتشار قصر البصر الطبيعي. وهذا هو سر اهتمام مراكز رعاية الطفل بهما . وقد شمل هذا الاهتمام أيضاً أسنان الاطفال وميعاد ظهورها وحالتها الصحية حيث اتضح انها ذات علاقة هامة بالتغذية والاصابة بالزهري وغير ذلك .

# فلسفة « كأنّ »[1]

## في الهند وفي الغرب

### نظرة القارن

— ٢ —

للسيد أبي النصر أحمد الحسيني الهندي

يقول شنكرا ( ٧٨٨ — ٨٥٠ ميلادية ) الذي يعد عبقريته الاستاذ دائسن الالماني مثل عبقرية كانت Kant ، لأن شرحه لاوبانيشاد قضى على البوذية في الهند ، يقول إنهُ من الممكن أن تُتصوَّر — عقلاً — حالتان للعلم : حالة وِدْيا ، وحالة أَوِدْيا . ففي الاولى لا وجود في خارج آتمان ، وفي الثانية من الممكن أن نفرض وجوداً خارجيًّا منفرداً عن المدرك العامل . ولكن هذا الوجود الخارجي من نوع خيالي . ويقول شنكرا في الختام ان العلم الحقيقي علم ينعدم فيه تثليث الادراك والمدرِك والمدرَك

ويقول رامنوج الذي عاش في القرن الحادي عشر الميلادي ان من حرف « ايوا » ( أي كأنَّ بالعربية ) يفهم ان استقلال معمولها أو بألفاظ أخرى استقلال الحقيقة الخارجية غير ممكن الادراك [1] ثم يقول انهُ حين ينال روح الفرد توفيقاً من بَرْماتما ( أي الله ) يقدر على أن يعرف جميع الاشياء حتى برماتما بنفسه

يقول مادهو الذي يحصر الموضوع في سياقه أي الحياة بعد الممات ، بامكان ادراك معمول كأنَّ الى حد تبعيته لها وتوقفه عليها وانهُ غير ممكن أن يعرف أحدٌ الله الذي هو وجود ذو شخصية والذي يعرف روح الفرد بواسطته جميع الأشياء

قد رأيتَ مما سبق من بيانات مفهوم « كأنَّ » ان شنكرا يرى انها تشمل نظرية المثال أي نظرية وجود غير حقيقي ، بينما يرى رامنوج انها تدل على ان استقلال الحقيقة الخارجية لا يمكن ان يدرك ، في حين يرى مادهو أنها تشمل توقف الحقيقة الايجابي على وجودٍ ذي شخصية . والآن نتحدث اليك عن فلسفة « كأن » عند الفيلسوف الالماني هانز فاي هنجر

---

( ١ ) وهو رأي يدل على ان رامنوج سبق فيه الفيلسوف الانجليزي الشهير بركلي Berkeley ( ١٦٨٥ — ١٧٥٣ م ) الذي ناشد في فلسفته ان لا وجود لاهداف حواسنا مستقلا عنا ، وقد استنفد وسعه وطاقته في اثباته بخاصة في كتابه « المحاورات الثلاث بين هيلاس وفيلونوس » . وهو نفس ما نادى به رامنوج قبله بخمسة قرون : ان استقلال الحقيقة الخارجية غير ممكن الادراك

## الفيلسوف هانز فاي هنجر وفلسفة كأنْ

أظن أنهُ لم يجل في فكر ياجنّـا والكيا حين وضع فلسفته الكأنية ولا خطر ببال شارحيها انهُ سيرتفع في تأييدها وتوطيدها صوت من اوربا، بعد مرور خمسة وعشرين قرناً على وضعها. وهذا الصوت هو صوت الفيلسوف الالماني الحاد الذكاء هانز فاي هنجر

أشار فاي هنجر منذ سنين الى أن التعبيرات المثالية أي التشبيهية تستعمل في أربع لغات أوربية هامة للدلالة على طابع الحقيقة الخيالي. ففي اللاطينية يرأس ذلك التعبير حرف quasi وفي الفرنسية comme si وفي اليونانية osei وفي الألمانية als ob ومن الأخير سمي فلسفته Philosophie des Als Ob ولم يكن له نصيب من الاستشراق والا لعرف ان حرف «ايوا» بالسنسكريتية و «كويا» بالاردية والفارسية و «صانكه» بالتركية و «كأن» بالعربية تستعمل في نفس المفهوم الذي يستعمل فيه als ob

يرى الاستاذ الانجليزي ولف ان فاي هنجر استلهم فلسفته من نواحٍ مختلفة، من وضعية كانت Kant التي تحصر العلم الانساني في التجربة ومنفعيته التي ترمي الى تقدم العقل العملي، ومن ارادية شوبنهاور وتشاؤمه، ومن نشوء داروين، واختبارية مل التي تحول الحقيقة الى امكانات الاحساس الدائمة (١)

لكن فاي هنجر يقول لنا غير ذلك وشهادة الرجل على نفسه أصدق من شهادة غيره عليه فقد أبان فاي هنجر في ترجمة حياته التي كتبها هو (٢) انهُ استلهم فلسفتهُ من كانت. فكانت نجمة عظيمة متلألئة استنار بها فاي هنجر في وضع فلسفته. وهو يومئ الى مصنفات كانت المختلفة منوهاً بان التعبير الحقيقي فيها تعبير كأني اي خيالي لذلك لا يقدر عنده التعبير المختص بالكمال التصوري، ولا العقلي، ولا التجريبي حتى لا الانتقادي الصحيح على ان يفسر فلسفة كانت تفسيراً حقيقياً بل يجب ان تفسر هي من جهة النظرة الخيالية ان عقيدة كانت في عالمين، عالم التصورات العقلية البحتة Noumena، وعالم التصورات المبنية على الحواس Phenomena عدّنا بأساس يجب أن نبحث فيه عن جرثومة الفلسفة الخيالية او الكأنية. فحين يقول لنا كانت يجب علينا ان نفرض كأن هناك عقلاً خالقاً في العالم (٣) وحين يقول يجب ان نعتبر الارادة كأنها حرة وان كنا لا نقدر على ان نقول شيئاً في شأنها من وجهة التصورات المبنية على الحواس (٤)، وحين يقول يجب ان يسلك كل رجل

(١) Outline of modern knowledge p. 578

(٢) راجع ترجمة حياته هذه في المجلد الثاني من كتاب : —
Die Philosophie der Gegenwart in Selbstdarstellung

(٣) Philosophie des Als Ob p. 360

(٤) Grundlegung zur Metaphysik der Sitten

سلوكاً كأنهُ عضو من مملكة الغايات التي تعرض فكرة كلية الغايات الكاملة المجتمعة في نظام[1] وحين يقول يجب أن نعد قانون الاخلاق مقدساً كأنهُ أمرٌ الهي[2] واخيراً حين يقول في نقد الحكم انه يجب ان نفرض كأن هناك عقلاً مدركاً لا يطرأ عليهِ اي طارىء للتوفيق بين قوانين الطبيعة الخاصة والفهم[3] . كل ذلك ينبئنا باتجاه خيالي بحت سائر في جميع انتقادات كانت . وهذا الاتجاه على ما يقول لنا الاستاذ ڤاي هنجر هو ملهم فلسفته الكأنية اي الخيالية

وهنا نرى كيف ان فلسفة « ايوا » (أي « كأن ») لياجنا والكيا تنطبق على تعبيرات كانت الكأنية تمام الانطباق . فمع انه لا يوجد هناك وجود خارجي حقيقي نحن نسمعهُ يقول إنه يجب علينا أن نفرض كأن هناك أحداً لأجل أعمال الادراك المختلفة. ثم يؤكد أن الحقيقة الوحيدة للآتمان وأما الأشياء الاخرى كلها نخيال

يتطرق الى البال سؤال وهو ما حقيقة هذا الخيال أي ما هو معمول كأن الذي نوَّه بهِ ياجنا والكيا واومأ اليه كانت وأنشده ڤاي هنجر ؟ وما هو طبعه ؟ فيقول لنا الاستاذ هاينريش اشمت : ان للغلبة على مشكلات الفكر ولإدراك هدفه يُفرض بعض الفروض تخالف الحقيقة او تشتمل هي نفسها على التناقض . فالتصورات الفنية الكاذبة المعلومة التي تكوّن تلك الفروض هي معمول كأن أو الخيال[4] ويقول ڤاي هنجر ان معمول كأن أو الخيال هو الفرض غير الحقيقي مع الشعور به لاجل الاغراض العملية . والفرق بينهُ وبين الفرض العلمي ان الاخير يمكنهُ ان يحقق ويثبت ولكن الاول لا يمكن تحقيقه بتاتاً[5] . وعليه فالاخير يمكنهُ ان يكون حقيقياً لانهُ قابل التحقيق ، ثم إن جميع الاكتشافات تتكوّن من الفروض العلمية ولكن معمول كأن او الخيال لا يساعدنا على ان نكتشف ان جميع العلوم الانسانية مفعمة بأمثلة هذا الخيال . فالعلوم الرياضية والطبيعية والاخلاقية والميتافزيقية واليونانية والمنطق ليست بخالية من اثره[6] كل منها يختار بعض الفروض غير الحقيقية ثم يبني عليها بناءه ثم ان طبيعة العلوم في ذاتها مثل الفروض التي تفرضها خيالية . ففاي هنجر ينبهنا كيف يكون تصور النقطة في علوم الرياضة والجوهر الفرد في علوم الطبيعة خيالياً[7] إذ لا توجد نقطة

---

(١) Watson : Selections from Kant p·248 (٢) Philosophie des Als Ob p. 292

(٣) Watson :Selections from Kant · p339

(٤) Philosophisches Wörterbuch p. 693

(٥) راجعه في ترجمة ڤاي هنجر في المجلد الثاني من كتاب : Die Philosophie der Gegenwart in Selbstdarstellung

(٦) Robinson :Anthology of Recent Philosophy p·588

(٧) كان من فلاسفة الاسلام ابن سينا المتوفى سنة ١٠٣٧ م والسهروردي المتوفى سنة ١١٩١ م سبقا ڤاي هنجر في ادراك هذه الحقيقة بخاصة في علوم الرياضة بعد ياجنا والكيا . فكان ابن سينا يعد موضوعات علوم الرياضة من الوهميات ( راجع « النجاة » طبع مصر ص ٩٨ ) كذلك صرح السهروردي في كتابه « المطارحات » ان مباحثها تنبني على الامور الموهومة ( راجع « شرح حكمة الاشراق » طبع طهران ص ٣٥ )

حقيقية ولا جوهر فرد حقيقي ينطبق عليهما ما عند تلك العلوم من الحدود لهما . ان التصورات والتصديقات ، والجزئيات والكليات كلها خيالية فالقياس المنطقي من باب الاولى خيالي ، والمادة والعقل خياليان . والجوهر الفرد الحي Monad الذي أثير حولهُ في الفلسفة نقاش كثير من نوع خيالي أيضاً . وحق الملوك الالهي خيالي وحرب الجميع ضد الجميع التي أطنب هابز فيها الكلام خيالية . «والمجرد» الذي يعتبر أعلى الافكار في الفلسفة من نوع خيالي والقيمة والغاية كذلك خياليتان . واللامتناهي والمتناهي في الصغر من نوع خيالي . وجميع النسب المتوسطة ، والأمثلة والرموز خيالية . جميع المقولات ، والتصورات مثل الواجب والالوهية كذلك خيالية . هكذا يشرح لنا فاي هنجر ان جميع العلوم الانسانية متأثرة بمعمول كأن أي الخيال . وهو يقول ان تلك الآثار أو بلفظ آخر تلك الفروض أخطاء ارتكبت عمداً للاغراض العملية . وهنا نرى ان فاي هنجر وافق المذهب العملي النفعي ( براجماتزم ) . ولكنهُ لا يلبث أن يشذ عنهُ حين يقدّم في فلسفته فكرة جديدة [١] هي فكرة الحقيقة المزدوجة التي سنخوض فيها بعد

مما لا يحتاج الى بيان انهُ لو عاش ياجنا والكيا في العصر الحاضر لقدّم لنا هو أيضاً مجموعة الأزهار المتنوعة التي تفتحت على دوحة العلم الانساني في خمسة وعشرين قرناً لاستشهاد فلسفته الكأنية كما قدم فاي هنجر . على اننا نجده حصر مجهوده في قشع الغمام عن العلاقة بين النفس والعين في العمليات النفسية المختلفة بمقتضى الزمان والمكان . فهو يفيض في فلسفته ان الحقيقي الوحيد هو الوجود النفسي ، وأما الوجود العيني فمن نوع خيالي . وهنا نجد فرقاً ذا شأن بين فلسفة ياجنا والكيا الكأنية وفلسفة فاي هنجر الكأنية . فان فلسفة الاخير ارجافية أو حسّية على حين فلسفة الاول آتمانية

ثم إن فلسفة فاي هنجر التي وضعت في سنة ١٨٧٦ ميلادية ونشرت أول مرة سنة ١٩١١ ميلادية ، ان أتيح لها ما حاولت وتيسر لها مرادها في أندية العلم والفلسفة بخاصة في المانيا ، لم تخلُ من سبل المؤاخذة ولا نجت من مطاعن النقد . فقد عجموا عودها وقلبوها بطناً لظهر وسألوا صاحبها : انهُ اذا أصبحت جميع الأمور الواقعية خيالية فماذا بقي [٢] ؟ فرد عليهم فاي هنجر : ان هناك وجودين يمكن ان يقال فيهما اننا نتأكد حقيقتهما وهما : فيضان الاحساس وقانون المماثلة والمخالفة

وهذا الرد وان قدم فكرةً جديدةً — فكرة الحقيقة المزدوجة — لايخلو من مراجعة

---

(١) Robinson: Anthology of Recent Philosophy p. 595

(٢) راجع نقد الاستاذ شلر الانكليزي في مجلة :
Mind (New Series) vol. XXI. p. 96-100

نظر . فان علم النفس يقرر ان الاحساس المجرد خيال محض (١) فاذا قال لنا فاي هنجر ان فيضان الاحساس هو الحقيقة القصوى فماذا يمنعنا لو قلنا لهُ ان «الفيضان» و« الاحساس» كلاهما خيال

كذلك كان تطبيقه لفلسفته على علم المنطق موضع نظر عند العلماء . فقد صرَّح الفيلسوف الالماني والبطل العالمي في لعب الشطرنج الدكتور امانويل لاسكر في كتابه « الثقافة في خطر » انه تجاوز في تطبيقه هذا حده فان التصور يمكن أن يستخدم لمعمول كأن أو الخيال ولكن علمه ووجوده ليسا من معمول كأن أو الخيال . فالدائرة البيضاوية في ذاتها ليست معمول كأن . انما الدائرة البيضاوية التي تدور عليها الارض حول الشمس معمول كأن (٢)

حين ننعم النظر نجد ان لفكرة الحقيقة المزدوجة شأناً كبيراً في الفلسفة الكأنية . فالحقيقة المزدوجة عند فاي هنجر كما ذكرها بشيء من التناقض في ترجمة حياته ، هي عالم الاحساس وعالم المادة وهي فكرة لم يرتح لها اصحاب المذهب العملي النفعي ( براجماتزم ) فناقشوه فيها أشد النقاش لانهم يعتقدون ان جميع الحقائق صنف من الأغلاط وجميع الاغلاط صنف من الحقائق . لان الحقيقة عندهم هي الغلطة الناجحة والغلطة هي الحقيقة الفاشلة .لذلك لا وجود عندهم لثنائية الحقيقة

كذلك كانت فانهُ اعتقد في حقيقة عالمين : عالم التصورات العقلية البحتة Noumena وعالم التصورات المبنية على الحواس Phenomena ونشر بذور الفلسفة الكأنية في مصنفاته وفلسفته التقطها فاي هنجر

اما ياجنا والكيا فقسم الحقيقة قسمين : قسم أعلى وقسم ادنى . فالأعلى هو عالم التجارب الآتمانية الذي سماه شنكرا « وديا » والادنى هو عالم التجارب الانسانية الذي سماه شنكرا « اوديا » . وعليه ففكرة كانْت اقرب من فكرة ياجنا والكيا . غير ان ياجنا والكيا اعلن ان حقيقة عالم « أوديا » حقيقة كأنية اي خيالية . واما حقيقة عالم « وديا » فحقيقية ، لان الآتمان عليم خالد مصدر جميع الكائنات وأصل جميع التجارب

قد رأيت مما سبق ان اساس فلسفة « كأن » لفاي هنجر ارجاني أو حسي فهي واهية الاسباب ضعيفة القواعد على حين أساس فلسفة « كأن » لياجنا والكيا صخرة الآتمان الخالد فهي ثابتة الدعائم مشيدة الأواخي . كلاهما فلسفة « كأن » لذلك يتشابهان ، بيد أن الفرق الأساسي بينهما ذو شأن خطير

---

(١) W. James : Text-Book of Psychology p. 13

(٢) Die Kultur : Ingefahr Non Dr. E. Laskar p. 14

# التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر
ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون
الذوق ، فنجريه إلى غايتين : احداهما مراجعة
بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً
أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من
الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا ن
يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل
ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في
إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

## ﴿ ثلاثة رجال وامرأة ﴾ بقلم ابرهيم عبد القادر المازني

١٣½ × ٢٠ ، ١٦١ ص ، مكتبة مصر ومطبعتها ، القاهرة ١٩٤٣ (١)

تفرّد الأستاذ المازني في معالجة القصص بطابع متميز . ومن ظواهر هذا الطابع طواعية البيان . فأنت إذ تمضي في القراءة تشعر بأن الكاتب غير مجهد نفسهُ في تصيد لفظ أو تركيب عبارة . وانما هو فيض يجري عذوبة وسلاسة . وكذلك تلمح في السياق أشتاتاً من الكلمات يحسن الكاتب استعمالها في مواقع جديدة تملأك روعة وتشهد بذوق رائق . وفي تضاعيف الاسلوب روح من الدعابة الحلوة تنطوي على لون من التهكم المهذَّب والسخرية اللاسعة . وهذه الروح تذهب في نقد الحياة وتكشف الستار عن مآسيها ، دون أن تشقّ الجروح أو أو تستذرف الدموع

وقصص المازني ، على وجه عام ، زاخرة بالشخصيات الفذّة . وهو يصورها حيّة نابضة بريشة فنّان ماهر ، ويخرجها محببة يأنس الى عشرتها القارىء فيحسّ انهُ يخالطها ويطارحها الحديث بلا كلفة ولا وحشة . ولا يُغفل كاتبنا حين يرسم شخصياته أن يسترسل في عرض الخواطر التي تثير الفكر

وقد اجتمعت هذه المزايا مكتملة في كتاب الاستاذ المازني الجديد الذي أخرجتهُ « لجنة النشر للجامعيين » وأعني بهِ « ثلاثة رجال وامرأة » . وهو قصة قائمة على التحليل الدقيق لجملة من الشخصيات الطريفة التي لها بالحياة الانسانية والنفس البشرية — دون التصاق بلونٍ محليّ ساطع — أوثق الوشائج والصلات

ومن الجمع بين هذه الشخصيات يتوضح موضوع القصة وما يقصد اليه مؤلفها . فالبادي للقارىء أن هذه القصة ليست ظاهرة الحبكة الروائية التي ألفهـا في مقروءاته من القصص الناهجة منهج الاتّباعيين . ولكن الاستاذ المازني يضع قصته تلك على أسلوب مستحدث من القصص الفنيّ لاحتْ بواكيره في الأدب الغربيّ منذ عهد قريب ، ولم يغزُ بعد أدبنا العربي كل الغزو على نحو غيره من مذاهب القصص . فللأستاذ المازني بهذه القصة مزية تقريب ذلك النمط الجديد الذي يقوم على عرض الشخصيات وتحليلهـا أبعد تحليل ، وبث الخوالج النفسية ، والتعبير عن شتى النزعات الانسانية ، ولا يعنيه الموضوع المحبوك في قالبه الروائي

(١) رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء

الأصيل أكثر مما يعنيه تصوير الشخصيات وبسط الخواطر والآراء الجديرة بالنظر والتفهم . فالمازني في كتابه الجديد من الروّاد المقدّمين ، يطرق مذهباً من مذاهب القصص لم ينتهجهُ إلاّ الأقلون من أدبائنا المحدَثين

محمود تيمور

﴿ الصدّيقة بنت الصدّيق ﴾ بقلم عباس محمود العقاد

١٤×١٩ ، ١٤٩ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٣

إن المؤلف يبهر في تنـاول الجزء . فهو مفصّـل بصير ، وكـذلك كان يوم كتب في « عبقرية محمد » . واني لأردد هنا ما قلته في ذلك الكتاب [1] . والقول انه كان في الحسبان ان يعدل المؤلف عن التحليل الى التركيب ، فيسوق سيرة الصديقة بحيث تشع من جنباتها أنوار الفضل ، كما يصنع الكتاب الافرنج ، اذ يعرضون لسير العظماء ، فعلى هذا النحو ألـف E· Ludwig و S. Zweig و A. Maurois وأضرابهم . ومما ينعطف اليه الفصل الجزيء أن يضع حقيقة من حقائق النفس البشرية ثم يُجري اليها أعمال البطل أو البطلة (الأنوثة ، والغيرة ، مثلاً : ص ٣٣ ، ٤١ ) على حين انه في طريقة التركيب يشرق مثل تلك الحقيقة من خلال العزمات والانفعالات والحركات ، ولا رسمَ لجريان المسرد

***

كنتُ كتبتُ في « عبقرية محمد » : « أن المؤلف ولج الموضوع من باب مستجَـدّ ، وهو باب نفسيّـة النبي العربي ، فأراد بما كتب ان ينفذ الى روح النبي فيستشف لطائفها على اختلاف ألوانها » . وها هو ذا يطرق الباب عينه في الـكتاب الذي بين يديّ وموضوعه سيرة السيدة عائشة . ومن محاسن هذه الطريقة ان المترجَـم مهما يعظم ويخطر ينزّل منزلة الانسان . فالسيدة عائشة ، على فضلها ، أنثى تامة الأنوثة : تغار وتفرط في الغيرة حتى إنها لتدبّ بين احدى ضرائرها والرسول ابتغاء الاستئثار به (ص ٣٣ ) ، ومن ذلك أنها ذات حدّة طبيعةً ( ١٣١ ) ، وانها ظلت تحمل الحقد لمن نصح للرسول أن يطلقها (١٣٢) ، وأنها مالت الى ذوي قرباها في أمر الخلافة (١٣٣)

تلك مزية في الانشاء الذي يتناول موضوعات قد تحرف المنشيء الى التمجيد والتفخيم إطلاقاً ، بدلاً من اختبار كنه النفس الفياضة بالاحساسات البشرية الصادقة الصافية

(١) المقتطف ، يونيه ١٩٤٢

غير ان هذا الضرب من الانشاء ربما كان مساقةً الى حديث يغلب عليه منطق الدفاع ، وذلك ما انجذب اليه المؤلف لما عرض لقصة الافك ، فاجتهد في الجدَل — وهو لصناعته حاذق — فأيد مذهبه بشواهد المعقول ونصوص المنقول . وربما لجّ في استخراج هذه ، وأبعد في استنباط تلك ، حتى انه يمسي في مدارج الجاذبة والمدافعة مِدرهاً لا باحثاً :

من ذلك انهُ أوَّل شكوى امرأة صفوان بن المعطل — وهو بطل حديث الافك عند المرجفين — تأويلاً متزيِّداً فيه ، ثم استند لأجل دعمه الى خبر لا ندري ما يكون . وتفصيل ذلك ان المؤلف نقل أن امرأة صفوان « شكته الى النبي لأنه ينام ولا يصلي الصبح قبل طلوع الشمس » ثم زاد « وقد يحسن هنا أن نوجه شكوى امرأة صفوان الى بعض معانيها . كأنْ أرادت بثقل النوم كناية عن امر آخر لا تفصح عنه . إذ قيل عن صفوان هذا انه كان حصوراً لا يأتي النساء ... » ( ص ٩٦ )

والذي عندي أنْ ليس وراء شكوى امرأة صفوان تعريض ، وليست حروف الشكوى بفارَّةٍ نحو الكناية ، ولو كانت فارَّة لكان النبي الرزين فطن للامر فما قال لصفوان على جهة التصريح : « اذا استيقظت فصلِّ » إذ عقّب صفوان على شكوى زوجه يعتذر قال : « اني امرؤ ثقيل النوم لا أستيقظ حتى تطلع الشمس » [1] . وأما قصة « الحصر » فليست بالحجة القاطعة . فالذي في سيرة ابن هشام [2] ان عائشة انما كانت تقول لقد سئل عن ابن المعطل فوجدوه رجلاً حصوراً ما يأتي النساء » . وفي « السيرة الحلبية » [3] انهُ ذكر ذلك من غير إسناد . وأما صاحب « أسد الغابة » [4] وهو جمّاع وثيق فلم يروِ شيئاً من هذا . ثم ان « الحصور » لا يأتي النساء إما لعفّةٍ فيهِ حابسةٍ وإما لعُنّة ، والعلة الاولى هي الظاهرة في معنى « الحصور » الذي ورد في القرآن ( سورة آل عمران ) [5] . ثم أضف الى هذا الاستدلال الخبري واللغوي أن الذي ذُكر عن صفوان لو كان أمراً مقطوعاً بهِ مسلّماً ما انبث حديث الافك

ومن هذا الباب ان المؤلف يدفع قصة الافك بقوله: «على الذي يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها . . . عليه أن يصدق

---

(١) « السيرة الحلبية» ط القاهرة ١٢٨٠ ج ٣ ص ٤١ (٢) ط القاهرة ١٣٤٦ ج ٢ ص ٢٠٩
(٣) ج ٣ ص ٥١ (٤) ط القاهرة ١٢٨٠ ج ٣ ص ٢٦ ي(= مايليها)
(٥) « مفردات الراغب » مصر ١٣٢٤ ، ص ١١٩ — ظ أيضاً « تفسير البيضاوي » القاهرة ١٣٤٤ ص ٩٧ تحت

أن صفوان بن المعطل كان رجلاً لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الاسلام ، وأن يصدق ان السيدة عائشة كانت — وهي زوج النبي — لا تؤمن بهِ ولا تعمل بدينه » ( ص ١٠٢ ) . والذي أراه ان هـذا الاستدلال مجتلَب بل محضٌ ذاتي ، وذلك لأننا نعلم من طريق المشاهدة والملاحظة أن البشر يتفق لهم أن يزلّـوا وان كانوا من أهل التصديق والايمان ، ولولا هذا ما احتاجوا الى ربٍّ « توّاب » . وان أنت جاريت المؤلف في منطقه قلتَ : « كيف تؤمن عائشة بالنبي وتنزل عند أحكام الاسلام ثم تساهم في صوغ قصة المغافير ( ص ٣٣ ) لتستدرج الرسول الى قطع احدى زوجاته ؟ ليستفسر القارىء النساءَ عن كل ذلك ، فانهنَّ على علم كثير

وكيفما كانت الحال فان قصة الافك لا تحتاج الى مثل ذلك الاجتهاد . وحسب الباحث المحدَث أن يقول ماقاله المؤلف بحقّ في أول كلامه على تلك القصة : « تلك شبهة لا تكفي للشك في امرأة من عامة المسلمين . . . إذ لو كانت كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخَـذ بالتهمة في دينها وعِـرضها لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال » . وللمؤلف أن يردف هذا بما يسميه علماء التاريخ « النقد الداخلي » critique interne ومداره تحري الصحيح من المرويّ رغبةً في تبيين أخلاق عائشـة وصفوان . فسيرة الصدّيقة في أيام النبي وبعده تبدو فوق الشبهة [1] . وأما سيرة صفوان فنزيهـة بشهادة الرسول نفسه إذ قال : « وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلاّ خيراً وما كان يدخل على أهلي إلاّ معي » [2]

على أن المؤلف لم يُبعد هذا الابعاد إلا في الندرة [3] . ولهُ فصل حسن في « السياسة العامة » التي انتهجتها الصـديقة، ولعلهُ خير ما في الـكتاب ، ولعلّ السبب في ذلك ممارسة المؤلف لفن السياسة في حرفة الصحافة . والفصل يدور على واقعات صحيحة عُـللت وبيّـنت في دقة ويُـسر

ثم انني لا أشك في أن المؤلف ما أراد أن يولج كتابه في جانب العـلم الصّـرف لذلك ليس لنا أن نطالبه بذكر المصادر . غير أن القارىء المستطلع كان يود لو أثبت المؤلف طائفة من المراجع، إذ هناك أخبار وأحاديث قد يحلو للقـارىء أن يذهب الى مظانّـها مستفيداً أو مستثبتاً ، ولا سيما انه بدا للمؤلف أحياناً أن يكثر النقل ( ص ٤٠ ، ٦٣ ، ٩٥

---

(١) بذلك استمسك المستشرق Muir ص ٩٢ (٢) البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء... وفي « أسد الغابة » ج ٣ ص ٢٧ : « منه » بدلا من « عليه » (٣) أبعد أيضاً في ص ٢٥، فالذي جرى هناك امر طبيعي : الاب العربي يؤدب ابنته اكراماً لزوجها وارضاء، فيواسيها الزوج مكتفياً . هذا وفي أعمال النبي منفسح للامثلة الجلية على رأفته بأهله

مثلاً) . من ذلك ان المؤلف قال في بطل قصة الافك : « انهُ ما كشف عن كتف (بالتاء) امرأةٍ قط » ص ٩٦ . والذي في « السيرة الحلبية » [١] عن البخاري « انه ما كشف كنيف امرأة قط أي سترها لأن الكنيف الساتر » . والذي قرأته في صحيح البخاري نفسه [٢] عن عائشة أيضاً : « والله ان الرجل الذي قيل له ما قيل (تعني صفوان) ليقول : سبحان الله فوالذي نفسي بيده ما كشفت من كنف انثى قط » . وفي « نهاية » ابن الاثير [٣] : « (وفي حديث الافك) ما كشفت من كنف أنثى »

هذا وربما ساق المؤلفُ الخبر الواحد او الحديث الواحد في لفظين مختلفين (ص ٢٥ ، ٣٣ — ٥٣ ، ٧١ — ٦٧ ، ١٠٠) . فلمَ لا يراسله القارىء في تنقله ؟ بل ينبغي للقارىء ان يراسله في مثل تحقيق سنّ عائشة ، ولا سيما ان المتواتر والذي عليه الجمهور أن عائشة تزوجها النبي وهي بنت ست سنين وأدخلت عليه وهي بنت تسع [٤] . فانك لترى المؤلف يرجح ان عائشة ولدت في السنة الحادية عشرة او الثانية عشرة قبل الهجرة ، « فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها او قاربتها يوم بنى بهـا الرسول » (ص ٤٥) ثم تراه يروي حديثاً لها مستشهداً بلفظه على اسلوبها المرسل السهل ، وحروف هذا الحديث : «تزوجني رسول الله وأنا ابنة ست سنين...فأسلمتني اليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين » (ص ٥٧ ي) ثم تراه يسوق شهادة جاريتها بَريرة وهي تصفها في«السنوات الأولى من زواجها » فتقول : « كانت جارية صغيرة اعجن العجين وآمرها ان تحفظـه فتنام عنه فتأتي الشـاة فتأكله » (ص ٦٧) . يسوق المؤلف هذه الشهادة ليدل على عبث عائشة البريء ثم يوردها ثانية (ص ١٠٠) ، ليستظهر بها على القائلين بالافك الذي جرى حديثه في غزوة بني المصطلق وتاريخها يترجح بين السنة الرابعة والسادسة من الهجرة

فاذا جمعنا كل ذلك بعضه الى بعض خرج الينا هذا :

١ — يستشهد المؤلف بلفظِ حديث لعائشة ويسقط مدلوله في آنٍ

٢ — تنام عائشة عن العجين ، فتأكله الشاة ، وهي ابنة ست عشرة سنة او اكثر (١٢ قبل الهجرة وهي سنة ولادتها بحسب المؤلف + ٤ بعد الهجرة وهي سنة الغزوة على ادنى تقدير — أو : ١٤ أي سنها يوم زواجها بحسب المؤلف + « السنوات الاولى من زواجها »

(١) ج ٣ ص ٥١ (٢) كتاب المغازي ، باب حديث الافك (٣) مادة ك ن ف (٤) عن البخاري ومسلم وابي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن حنبل وابن سعد وغيرهم . واطلب المظان في « مفتاح كنوز السنة » وضعه المستشرق فنسنك وترجمه محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ١٩٣٤ ص ٣٢٠

على حدّ تعبيره . كيف يكون ذلك ؟ بل كيف تكون عائشة « جارية صغيرة » ، على نحو ما وصفتها بريرة ، وهي ابنة ست عشرة او فوق ذلك ، والفتيات العربيات كنَّ مبكرات النضج ولا يزلنَ كذلك ؟

ومن المسلَّم به ان تباعد الروايات في كتب السلف مجلبة للحيرة . ولكن المؤلف يختار ويرجح كما قد رأيتَ . فيحسن به الثبات على رأي يراه ، فلا يكتب في ص ١٠٨ « عاشت السيدة عائشة بعد النبي ستًّا وأربعين » ثم يكتب بعد صفحتين اثنتين « فعاشت في صحبته زهاء عشر سنين وعاشت في ذكراه زهاء خمسين سنة » ، فهاهنا انفلات من ذلك الجزم . ومن هذا الضرب قوله في ص ٧٨ « فعائشة البكر قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين » [١] ثم كأنما ريب طارئ داخله فيقول في ص ١١٠ « كانت عائشة في اوائل العقد الثالث على اكبر تقدير عند وفاته » . فالظاهر أن المؤلف يُجري الخبر أو الحديث الواحد على حسب انعطاف الغاية التي يقصد اليها في هذا الفصل أو ذاك ، والنية سليمة

***

بقي أن المؤلف حسن له ان يعمل للكتاب مقدمة وخاتمة . فالمقدمة في المرأة العربية قبل الاسلام ، والخاتمة في حقوق المرأة . وفيهما من غزارة المادّة ما يفتق أبواباً للنقاش والاستدراك . فهل أدعو المؤلف الى مراجعة أمر الوأد في الجاهلية ؟ إذ له أوجه غير التي ذكرها ، يصيبها في كتاب « العرض عند عرب الجاهلية » ( باريس ١٩٣٢ ص ١٢٤ ي ) [٢] .

وفي هذا الكتاب أيضاً ما يدل على أن العرب ما كانت تجري في شؤونها على « الارتجال » — على ما يذهب اليه المؤلف في المقدمة — بل كانت لها أحكام وسنن منتظمة ، غير مسطّرة ، لها قوة الفرض ومن خلفها جزاء معنوي . ولتجدنّ جملة ذلك في مادة ع رض من ذيل

(١) على هذا الحساب الجديد تكون عائشة قد أدخلت على النبي وهي دون العشرة — أضف هذا الى ما ورد في متن الصفحة السابقة عند الكلام على تحقيق سن عائشة

(٢) قال المؤلف « وربما ظن بعضهم ان الوأد كله من مخافة العار . . . فالعرب وجد فيهم من يئد البنات اشفاقاً من النفقة » ص ٧ . فان ظن أحد هذا ( ! ) فانما الاقدمون من مفسرين وأخباريين يذكرون ما ينبئنا المؤلف اليه ، ولا حاجة بي الى سرد المراجع ، فالامر مشهور . حتى المستشرقون وعلماء الاجتماع ذكروا ذلك ، مثلا :

Robertson Smith, Kinship and Marriage in early Arabia, 2d edition, London 1903, p 291 . ثم Westermarck, L'origine et le Développement des Idées Morales, trad. fr., Paris 1928-9, I, 414

دائرة المعارف الاسلامية الخارجة في لَيدِن بثلاث لغات اوربية

واما الخاتمة فقد ذكّـرتنا بخطبة كان القاها شبلي شميل ونشرتها المقتطف سنة ١٨٨٦[1]. ففيها ايضاً ان الفرق بين الرجل والمرأة من اصل الفطرة والطبيعة ، وفيها (ص ٩٧) « أن الرجل والمرأة إن تجاريا فالسابق هو ، وهل يبلغ الظالع شأو الضليع » او كما ورد في خاتمة كتاب العقاد (ص ١٤١) « ولكن المرأة لا تبلغ شأو الرجل في هذه الصناعات اذا وقعت المزاحمة بينهما في إحداها ». حتى مَثَل تبريز الرجل على المرأة في « الطبخ » او « الطهي » نُصيبه في الكتابين جميعاً (شبلي ، ص ١٠٣ ، العقاد ، ص ١٤١)

على ان هذا الرأي الذي رآه فريق مشهورون من فلاسفة الغرب ، مِثل شوبنهاور ونيتشه ، ان صدق سنة ١٨٨٦ فهو محل مراجعة اليوم وقد أفلتت المرأة من الوثاق الذي شددناها به دهراً ودهرا . ولقد كُتِب في القضية النسوية الشيء الكثير ودار ما دار. غير أني احبّ ان اذكّر المؤلف ان النساء شاركنَ الرجال في فن الغناء بالشام وبالعراق وبالاندلس ، وبهرْنَهم احيانا ، وكثيراً ما طارحنهم وخرَّجنهم ، وحسبهنَّ ان الإمام اسحاق بن ابراهيم الموصلي « مكث سبع سنين يختلف الى عاتكة بنت شهدة في كل يوم فتضاربه ضرباً أو ضربين »[2] و « كانت أحذق الناس بالغناء »[3] . ثم اني أحب أن أذكره — فوق هذا — أن Isadora Duncan الاميركية ابتدعت في المائة التي نحن فيها ما لم يخطر ببال رقاص . وعلى هذا قِس ما جاءت بهِ في هذا العهد K. Mansfield و V. Woolf في القصص الانجليزي ثم M. Laurencin و S. Valadon في التصوير الفرنسي

ذلك طرف من باب الفن الخالص ، وأما باب الصناعة فجلّ الطنافس الايرانية والتركية والأرمنية — وما أحلاها ! — من نسج المرأة الصَّناع . وأما التمريض مثلاً فما إخال الرجل يجرؤ على أن يطاول المرأة فيه ، الى غير ذلك من الأدلة التي يلمسها اللَّحاظ observer في الغرب على وجه التخصيص . لذلك لا يحسن إطلاق الحكم وجزمه في موضوع دقته كنهه . فالمستحسن بل المرغوب فيه أن يتحرز المؤلف هنا فيستنطق التحريات والاحصاءات، ويوازن بعضها ببعض ، على اختلاف حركات الحس والارادة والذهن ، وإن كان اكثر الحق بين يديه

(١) انظر ايضاً الجزء الثاني من « مجموعة شبلي شميل » مصر ١٩٠٨ ، واليه تَرجع الصفحات هنا

(٢) الاغاني ط بولاق ج ٦ ص ٥٧ (٣) عن ابن خرداذبه : الاغاني ج ٢١ ص ٢٢٦

في النهاية . ذلك نمط علماء النفس الذين يتناولون مسألة الفرق بين الرجل والمرأة [1]

والمؤلف أحكام أخرى قاطعة شاملة قائمة على آراء نسميها في صناعة الفلسفة « قبلية » a priori[2]. فعلم الاجتماع الحديث يخبرنا — ونحن في ص ١٤٠ — بأن هناك أمماً تظفر فيها المرأة بما لا يدور في أذهان بعضهم . ولك أن تراجع لأجل ذلك حتى المرحوم شبلي شميل ( المجموعة المذكورة ) وأن تراجع خاصة Westermarck المذكور في حاشية سابقة ونظراءه من علماء الاجتماع[3]

***

وأما أسلوب الكتاب فعلى انسياق بل اندفاق ، في حسن تصرف ، ولطف بيان قد انسحبت في ثناياه برفقٍ مسحة من البلاغة التي في كتب السلف المنقول عنها ، كل ذلك مع هدأة الثابت الذي لا يشغله الظفر . والأداء لا قلق فيه ، والعبارة سليمة ، وان وقفتني أشياء طفيفة معدودة مما يجري ، فيما أعلم ، على أقلام المولدين ( وكلنا على تلك الحال ) . ودونك بعضها :

ص ٢٦ — « آداب العرب النسائيـة » . فقد نبّـه سيبويه على أن النسبة الى نساء « نسوي » ( « الكتاب » ط بولاق ١٣١٦ ج ٢ ص ٨٩ )

ص ٣٥ ، ٨٢ — « حرمها من كذا ، حرمانها من كذا » . والمدوّن : « حرمت زيداً كذا أحرمه من باب ضرب ، يتعدى الى مفعولين » عن « المصباح المنير » مادة ح ر م ، ثم وازن غيره به

ص ٦٩ — « النسوة الاحدى عشر اللواتي » ولعل فرار هاء « عشر » من فلتات الطبع

ص ٨٨ — « اذا هي ( الاسرار ) تعلقت بعظماء الرجال وعظماء النساء » . فلولا « عظماء » الثانية لسلم النطق واستأنست العبارة بالآية « ... وكانت من القانتين »

---

(١) مثلا : Campbell, Differences in the nervous organisation of man and woman, London 1891

وفي هذا الكتاب ان البلاهة في الرجال اكثر منها في النساء . وانك لتصيب جملة ذلك في : Heymans, La Psychologie des Femmes, Paris 1925

(٢) اطلب في « مباحث عربية » القاهرة ١٩٣٩ ص ١١٠ معنى «الرأي القبلي»

(٣) حتى في بلد اسلامي ، في مملكة محمد خالد أوزبك بالقوقاز ( عن رحلة ابن بطوطة ، ط التقدم ، مصر ١٣٢٢ ج ١ ص ٢١١ ، ٢١٢ ) « ان النساء أعلى شأناً من الرجال ... وربما كان مع المرأة زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها »

ص ٩٣ — « الاختلاف يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة » . فالتراوح خلاف هذا ، كما بيّـن من قبل الامام اليازجي ، واليوم الـكرملي في مجلة المجمع العـلمي العربي ، والعوامري في مجلة مجمع اللغة العربية الملـكي . وانما غرض المؤلف « يترجح » كما سطّرت فوق ، أو يتذبذب، أو نحو ذلك

ص ١١٧ — « تنكر عائشة التّزيد من الثراء على الصحابة » . والمذكور في دواوين اللغة « التّزيد في الشيء » أي تكلف الزيادة فيه

وبعدُ فلعلّ بين يدي الاستاذ العقاد ما لا يمتدّ اليه اطلاعي

بشر فارس

﴿ قنابل ﴾ مسلاة مصرية في ثلاثة فصول ، بقلم محمود تيمور

١٢ × ١٦ ½ ، ١٨٩. ص ، لجنة النشر للجامعيين ، القاهرة ١٩٤٣

منذ عامين تقريباً نشر الاستاذ محمود تيمور مسرحيته « المخبأ رقم ١٣ » وقد عالج فيها النفس الانسانية وكيف يقوى فيهـا الشعور الديني عند وقوع الخطر واشتداد الـكرب فتتمسك بأهداب الفضيلة حتى اذا ما بدأت ظلمة الكروب تنقشع بدأ الشعور الديني والتظاهر الخلقي في التواري شيئاً فشيئاً

واليوم ينشر مسرحية جديدة هي « قنابل » تمتّ الى مسرحيته السابقة بصلات منها المعين الذي استقى منهُ المؤلف مادة المسرحيتين ، وهو الحرب وويلاتها وما مرّ بهذا البلد فيها من فترة كانت أشد الفترات قتاماً وحيرةً وتشاؤماً وفزعا ، الى جانب صلة الوحـدة في فنّ تيمور القصصي من اطلاع على الروح المصرية في حالة الفرح أو الحزن والاضطراب أو الاستقرار ، ومن اهتمام بالأشـياء الشاذة في المحيط الذي ينقل منهُ مسرحيته ، ومن ادراك للأحاسيس التى تجول عادة في نفوس الناس وقد تتفق أو تختلف في نفس واحـدة تبعاً لظروفها وملابساتها ، ثم صلة أخيرة هي الروح الفكه الذي أضفاه المؤلف عليهما

ولـكنّ هنـاك وجوهاً من الاختلاف بين المسرحيتين في الفكرة والجوّ وفي لغـة المسرحية . فهو يطلعنا في المسرحية الجديدة على حيرة النفس الانسانية بين غريزتها في حب الحياة وما فرضته عليها عقيدتها وايمانها بالقدر فرضيت أن تتظاهر وراء العقيدة بما تفزع منهُ الغريزة ، ولـكن هذه غلاّبة ، فتلجأ الى دعاوي أخرى تستر بها فزعها . فنرى أبطال المسرحية يفرّون من المدينة ، عند اشتداد الغارات الى الريف ، بدعوى الحرص على اصلاح

الريف والاشراف على الضياع حتى اذا وجدوا الموت الذي فروا منهُ كامناً لهم في الريف ، في حوادثه واضطراب الأمن فيه ، وفيما يتفشى من أوبئة ، عادوا الى المدينة بدعوى غير الاولى هي دعوى مشاركة الشعب فيما يقاسيه من آلام

هذه هي فكرة المسرحية الجديدة التي عالج بها الاستاذ تيمور حالة من حالات النفس الانسانية في حيرتها بين الايمان والخوف ، وهي حيرة يتخللهـا الفتور بسبب تلك الفكرة ، ومدارها مفازع النفس مما ليس يبعث في الموضوع الحركة وفي الوجدان الوثبـة الجائشة . وأما جوُّها فهو أرحب من جو مسرحيته الاولى الذي جعل حوادثها كلها تجري في مخبأ . وأما لغة المسرحية الجديدة فهي الفصحى وكانت في الاولى العامية . وقد صُـدِّرت مسرحية « قنابل » بمقدمة تحليلية غزيرة كتبها الفنان الاستاذ زكي طليمات .

حسن كامل الصيرفي

﴿ معجم الالفاظ الزراعية بالفرنسية والعربية ﴾ بقلم مصطفى الشهابي

١٧ × ٢٤ ، ٧٧٤ ص ، مطبعة الجمهورية السورية ، دمشق ١٩٤٣

﴿ ميزات الكتاب ﴾ ما من أحد من قراء العربية يجهل اسم الأمير الأستاذ مصطفى الشهابي فشهرته معروفة مما وشى به المقتطف ومما بثّـهُ على صفحات مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق ، وكان جمهور أبناء مُـضَـر يتمنون أن يروا بين أيديهم هذا المعجم النفيس الذي كان يذكره كثيراً في مقالاتهِ المحجَّـلة . وقد امتاز هذا المعجم بأشياء كثيرة لا ترى في طائفة من هذه المصنَّـفات ، ونحن نسرد للقارىء بعض هذه الميزات :

احداها : انه تُـرَى جماعات جماعات من الألفاظ المعربة تعريباً لا أمت فيه ولا عوج ويردفها بما يبينها لمن لا يهتدي الى معناها . فيقول مثلاً :

Abélie ( آبِـلْـية بالمد وكسر الباء ) ( سميت باسم أحـد الأطباء . جنس جنبات للتزيين ، من فصيلة الخمـانيّـات ، أصلها من الشرق الأقصى وتزرع بعض أنواعها لجمال زهرها)

Abronia رشيقة ( الاسم العلمي من اليونانية بمعنى الرشاقة ، لرشاقة أزهارها . جنس زهر من فصيلة الهبّـيّـات )

Abrus ( Abre ) نحيلة ، أبروس ( الأولى ترجمة الاسم العلمي والثانية معربة . جنس نباتات من فصيلة القطانيات ، فيه أنواع للتزيين )

A. Precatorius عصبة السوس . بِسِلّى أميركة (مترجمتان . وسماه الدكتور احمد عيسى « حب العروس ، وشثم ، وفلفل » ، على حين ان كلاً منها نبات غير هذا النبات . وسمّاه عيون الديك . قلت : لعلهُ عيون الديكة المذكور في المفردات . وهو جُنيبة تستعمل جذورها كعرق السوس ، ولها بزور حمر لامعات ، على كل منها نقطة سوداء يصنعون منها عقوداً وأساور للاولاد )

فالقارىء يرى من هذا الكلام الموجز ان المؤلف كتب : بسلى كقِرِلّى وهي الكتابة الفصيحة ، وكثيرون يكتبونها « بسلة » بهاء في الآخر وهو غير صحيح . وانك لتجد في هذا السفر الجليل طائفة لا تعد من مثل هذه الاسماء الحديثة الوضع ، لكن على أساس متين لا يتزعزع ، وذلك الى آخر ما دوّنهُ فيه من هذا القبيل

والمزية الثانية انهُ يحكم الوضع بما يقابل الكلمة الفرنسية احكاماً دقيقاً . فقد قال مثلاً في : Acacia Glaucophylla سنط أحوى (داحية في اليمن ، وقلت : احوى ؛ بتصرف) وقال في A. Cyanophylla سنط مزرقّ الورق ( ورقه الى زرقة ، وهو صالح للتزيين وللارض اليابسة )

فانظر الى دقة الوضع في التسميتين ولم يكتف في الاول باللفظ اليماني ولم يقل في الثاني سنط أزرق لأن الازرقاق غير الزرقة ، وما أكثر من لا يميز الشيء الواحد عن الشيء الآخر

والمزية الثالثة أن المؤلف لا يدون في تأليفه إلا ما تحقق وجوده في كلام الفصحاء ، فان شك أظهر شكه بلا توقف . راجع مثلاً ما وضعهُ بازآء Acer تَرَهُ يقول : « قَيْقَب . جرْمَشَق ( القيقب في اللسان والتاج : الآزاد دِرَخت بالفارسية . وهذه الكلمة تطلق على ما نعلم على Melia azedarach ، لكن القيقب أصبحت تدل اليوم على هذا الشجر ، أي على جنس Acer أما الجرمشق فلم أجدها إلا في معجم دوزي نقلاً عن كتاب ألفه لاين[1] في المصريين . قال فيه : أظن ان الجرمشق هو Erable جنس أشجار وجنبات حرجية وتزيينية من فصيلة القيقبيات ) — فانظر الى هذا التحقيق ، الدقيق ، ومن الأسف أراني اليوم بعيداً عن خزانتي البغدادية . وأظن ان أول من ذكر الجرمشق هو فريتغ الألماني في معجمه العربي اللاتيني ، وأظن أيضاً ان صاحب محيط المحيط نقلها في ديوانه من دون ان يشيرَ الى المصدر الذي اخذ عنه ، وقد أُهِمَ .

(١) نطق الاسم : رلين Lane ، وكتابه : Man. and Cust. of the Mod. Egypt. (ب.ف)

ومما استحسناه كل الاستحسان في هذا الديوان الجليل كتابة « اسيتاة ، وخلاّة ، وسلفاة ، وكبريتاة » ونحو هذه الحروف بالهاء في الآخر ، وهو أول من اتبعنا في هذا الرسم وهو اللازم . وأما كتابتها بالتاء المبسوطة فغلط واضح ، لأنها ان كتبت بالتاء ، دلت على الجمع السالم لأستية ، وخلة ، وسلفة ، وكبريت وكبريتة ، الى نظائرها . وأما المعترض على ان خلاّة مثلاً يوقف عليها بالهاء فنقول له : ان هذه الألفاظ يسكت عليها بالتاء لا بالهاء وذلك واضح من عجمة صيغتها ، وعجمة تركيبها . فقد جاء في اللسان في مادة ( م ن ي ) ما نصه : « وفي التنزيل العزيز : ومناة الثالثة الأخرى . والهاء للتأنيث ويسكت عليها بالتاء وهو لغة ، والنسبة اليها منوي » اه . ( ومناة ، الصنم العربي الانثى لفظ يوناني لأنه كان يرمز اليها بصورة قمر ، ومعنى مناة : القمر، بلغة الهلنيين )

***

﴿ ما نظنه وهماً في نظرنا ﴾ ان المؤلف العلامة ذكر في معجمه اسماء كثيرة من الحيوان والطير ، والحشرات والهوام وربما استعجل في نقل بعض الاسماء من غير مراجعة بعض تآليف أرباب الفن أو الاختصاصيين . فقد ذكر Putois d'Afrique ووضع بين يديه : ابن عِرس ( ج : بنات عرس للذكور والاناث . وتطلق أيضاً على الحيوان المسمى Belette وهما من جنس واحد . حيوان من فصيلة السموريّات ) . والمشهور عند العلماء ومذكور في أغلب المصنفات في هذا الموضوع ان ما سماه المؤلف ابن عرس هو الظَربان . وهو مشهور في مَثل عربي يذكره أرباب المعاجم العربية . أما المؤلف فجعل الظربان مقابلاً لما يسميه الفرنسيون Ictonyx ووضع بازآء Mouette ظربان اميركي . فهذا الوضع صحيح دون الذي قبله

ووقع له مثل هذه الكلم المتشابهة بالعربية وبازآئها اسماء فرنسية غير متشابهة للكلمات الآتية : Chouette, Duc, Effraie, Hibou, Moyen duc, Petit duc, Grand duc وهذه لم تذكر في محل خاص بها ، بل في مادة Duc . وفي العربية ألفاظ خاصة بكل من هذه البوم الكثير لا أتمكن من ذكرها هنا ، لأني بعيد عن كتبي ، التي هي في بغداد . ولعلي أعود الى هذا البحث ، حينما أعود الى وطني بعد حين

***

﴿ ما نتمنى ان يكون في هذا المعجم ﴾ نتمنى أولاً ان يعاد الى العربية ما كان أصله في هذه اللغة الشريفة . من ذلك : Addax . فقد وضع لها المؤلف الكلمة مهاة . وهي على الحقيقة ( عَـدّاء ) من العدو . وهي غير موجودة في بلاد العرب بل في ديار الاندلس — على

ما أتذكر — والعداء من وضع عرب الاندلس وقيل لي انهُ موجود في جزيرة العرب

وكذلك Chamois فقدوضع لها المؤلف شَمْواة وهي (قَموص) في العربية وقد ذكر لغويو الفرنسيين ان كلمهم من الالمانية القديمة Qamuz ( قاموتس ) مع انها من العربية اذ ليس في الالمانية ما يوجه وضع اللفظ المذكور ، بخلاف العربية فانها مشتقة من القماص كسحاب وغراب ، وهو الوثب الذي هو من خاصية هذا الحيوان الرشيق ، والكلمة من وضع عرب الاندلس أيضاً

ومن هذا القبيل ما ذكره حضرته عن المسمى Cavia Cobaya, Cochon d'Inde, Cobaye ( اللفظة اللاتينية كوبايا من لغة اميركية غير معلومة . حيوان لبون من القواضم). والذي عندي ان هذا اللفظ من أصل عربي هو القبع ، لأنه كثير القبوع وقبوعه نخيره وهو صوته وان لم يكن شديداً كقبوع الخنزير . قال في « لسان العرب » : قبع يقبع قبعاً وقبوعاً : نخر . وقبع الخنزير ويقبع قبعاً وقباعاً كذلك » اه

ويجري هذا المجرى ما جاء في Boa : بُوَاء ( معربة . ثعبان عظيم من فصيلة الاصَلِيّات) والذي عندي أن الكلمة من العربية من « باع يبوع : اذا جرى جرياً ليناً وتثنى وتلوى » ( عن اللسان ) وهذه الصفات من خاصية هذا الثعبان العظيم ، كما هو معروف عنهُ ؛ ومدوّن في جميع التصانيف

وجاء في ترجمة Alcool «كحول . غَول ( لم يجز بعض اللغويين الكلمة الثانية يسمّى سبيرتو بعامية الشاميين— اه ) وكذلك في عامية العراقيين والمصريين . والغول خطأ وان قال به كثيرون اذ لم يرد في كلامهم . واما كُحُول فصوابها كُحْل كقفل ، كما يقر بذلك لغويو الغربيين . وقد وردت بهذا المعنى عينيه في قصيدة قديمة في علم الكيمياء في نسخة خطته لأحد الأقدمين ، والمخطوط مخزون في الدير الكرمليّ في بغداد ، وليس الآن في يديَّ. والجامع بين الكحل السائل والكحل المذرور هو لطافة الجوهر ، سائلاً كان أم جامدا . وامثال ذلك كثيرة في العربية

ونتمنى ثانياً ان يختم كتابة الاسماء المؤنثة بالهاء لا بالألف ، أزهاراً كانت الالفاظ أو مُدناً أو منسوبات الى رجال مشهورين . وسبب هذا الرسم ان الأقدمين ، من علمائنا من العرب الاقحاح ، لما فتحوا المدن الاندلسية ، أو زاروا ديار الغرب ، ما كانوا يكتبون تلك الاعلام إلاّ بهاء في الآخر . فهذا الادريسي لما زار مدن ايطالية لم يختم كتابتها إلا بالهاء . وهي كثيرة . والكتاب الخاص بتلك الاصقاع مطبوع ومنقول الى لغة اجنبية .

وقد وردت ( رومة ) مكتوبة بالهاء اغلب الاحايين ، ومرتين او ثلاثا بألف ، وأظن ان هذا الرسم الأخير من الناشر أو الطابع لا غير ، وإلا فانها كتبت دائماً بالهاء

والعرب الذين فتحوا ربوع الاندلس لم يكتبوا أسماء تلك المدن إلا بالهاء . وقد وضع العلامة حسن حسني عبد الوهاب باشا رسماً ( خريطة ) تمثل تلك الديار ، ولم يرسمها كلها إلا بالهاء ولم يسجل واحدة بألف في الطرف بل رسمها كلها بهاء في الآخر ، لأنه توخى الامانة في ما خطط ورسم

وأما الذين يكتبون أسماء الاناث — من مدن ، ونساء ، وأزهار ، وحشرات — بالألف في الآخر ، فانهم لم يكونوا من العرب ، ولم تكن لغتهم المضريَّة ، بل كانوا من أهل سورية أو من الاجانب المتعرّبين ، ممن يرسم أواخر تلك الاعلام في تلك اللغات بالف في الطرف . ابحث في معاجم العرب من لغوية وبلدانية ، ترهم يكتبون سورية بالهاء ، وكذلك أنطاكية وقسطنطينية وانبابة واشباهها ، بخلاف ما يفعلهُ اليوم بعضهم

والأمير الأستاذ صاحب المعجم لم يَسِر في هذه الطريق على وجهٍ واحد — ويا للاسف ! — بل جرى مرة على أسلوب السريانيين ، ومرة على طريقة العرب وربما جمع بين الاثنتين ، فانك تجده يرسم Dalbergia دلبرجية ، ودفنة Daphne وداتورة Datura Stramonium الخ متبعاً في هذا الرسم منهج السلف الفصيح

وكتب غداسيا ، وغردونيا ، وغرديفيا ، وغريفيليا .. سعياً وراء السريانيين والمستعربين . وخطَّ درْوينيا أو دروينيَّة ، هكذا بالوجهين للفرنسية Darwinia وقال : « منسوبة الى داروين العالم المواليدي Naturaliste الانكليزي المشهور . جنس جنبات للتزيين من فصيلة الآسيان » . قلنا : فان كانت هذه الجنبة منسوبة الى دَرْوِن ( وكتابتها بدون ياء قبل النون هي أفضل من كتابتها بالياء ، كما كان يفعل المرحوم الدكتور يعقوب صروف ، هي أقرب الى لفظها الانكليزي ) . فمن العبث أن تكتب بالألف ، كما ان من العبث أن تكتب سورية ، وانطاكية وقسطنطينية الخ بألف في الآخر . وورود ألفاظ مكتوبة بوجهين قليلة جدّاً

ونتمنى ثالثاً أن يهجر بناتنا طريقة من يجيز كتابة الصفة المجموعة بصورة مفردة ، وأريد أن أشير الى من يجيز قول من يذهب الى استعمال : نساء سمراء ورجال سمراء . . فهذا لم ينطق بهِ عربي . فقد قال المؤلف مثلاً في Chouette بومة صمعاء ( أنواع من البوم لا تنازع لها ولذا نعتت بأنها صمعاء ) . والصواب الذي لا ريب بهِ ، ولا شك ولا توقف :

بأنها « صُمّـع » . ومثل هذا الاستعمال قليل جداً ، لأن طبيعة الأمير عربية محضة ، وسليقته تنبذ هذه الهنيهات من غير أن يتوخى دفعها بطريقة نحوية أو صرفية

وأن يهجر أيضاً اللغة الجارية ، كما هو دأبه ؛ ومع ذلك نراه يقول في مادة Dravière خليط الكلإ ( خليط من القطاني والنجيليات تزرع بزورها سوية . . . » وسوية لم ترد بمعنى « معاً » الا في كلام العوام من الديار العربية اللسان . ومثل هذه الهفوات قليلة جداً بل أقول بكل فخر للأستاذ المؤلف انها نادرة لا يلتفت اليها ، ولا يؤبه لها

ونتمنى رابعاً ان يتدبر الكلم حين يصوغ العبارة العربية ولا يلتفت الى أرباب الصحف والكتب السقيمة الانشاء . فقد جاء مثلاً في مادة حامض ( ص ٢١ Acide ) ما هذه اعادة عبارته بنصها : « حامض جسم مركب يحمر صباغ الطرنشول الازرق . والحوامض ثلاثة أشكال وهي اولاً ... ثانياً ... ثالثاً ... » وصحيح التعبير ان يقال : ثلاثة أشكال وهي : الاولى ... والثانية ... والثالثة ...

ونتمنى خامساً ان يعدل عن التعبير الكيمياوي القديم الى تعبير عربي يرضي العامة والخاصة ، والعلماء الاجانب وأثبات اللغة . فقد جاء مثلاً قوله في Sulfurex « حامض سلفورو حامض كبريتو » اه . ومن المعلوم في لغتنا العدنانية انها لا تقبل الفاظاً تنتهي بواو ساكنة ولهذا قال علماء الجامعة الاميركية منذ نحو سبعين سنة : حامض كبريتوس وهذا أصح . لكني اتفقت مع المرحوم الشيخ احمد السكندري أن يقال في حامض الكبريتيك : الحامض الكبريتي . وفي الحامض الكبريتوس : الحوَيمض ( بالتصغير ) الكبريتي ، لأن المطلوب من هذا الوضع قلة الحامض لا غير

***

﴿ عجبنا من سعة اطلاع المؤلف ﴾ نحكم من مطالعة هذا المعجم النفيس على سعة اطلاع الأمير في الموضوع الذي عالجهُ فانهُ اطلع ما كتبه الدكتور داود الجلبي وما كتبه مرشد خاطر الدكتور العالم العامل . راجع ما وضعه المؤلف في : استمصال ، وما كتبه الفريق الدكتور أمين المعلوف ، رحمه الله ، وما كتبتهُ أنا . راجع ما جاء في : مَمصَرَى ( لا مِمصرى بالكسر لا بالفتح ) وما وضعهُ المؤلف بنفسه ، راجع ما جاء في : سلفرة . ولعلَّ هناك غير من نوهنا باسمه ، أو قد غاب عنا حين كتابتنا هذه العجالة

وفي الختام اننا نشكر العلامة الجليل على ما أتحف العربية ، بهذه الهدية الثمينة . ولا جرم ان كل عالم واسع المعرفة ، وكل مضريّ لا يخامره الحسد ، يشكره معنا لأنه أهل

لكل تقدير ، إذ صرف في وضع هذا التصنيف أحسن أيام حياته ، وأثمن ساعاته ، كافأه الله أحسن مكافأة على عمله هذا العظيم

الأب أنستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

## ﴿همس الجفون﴾ بقلم ميخائيل نعيمة

½ ١٥ × ½١٩ ١٣٠ ص ، مكتبة صادر ، بيروت ١٩٤٣

اسم ديوان شعر أصدره الاستاذ ميخائيل نعيمة ثالث الثلاثة الكبار ، أو الأشهرين ، من أدباء لبنان في المهاجر ، والآخران هما المرحومان أمين الريحاني ، وجبران خليل جبران . والثلاثة طبقة واحدة وان كانوا يتفاوتون ويختلفون في المنازع وأساليب التناول والأداء ، وبعضهم أسبق الى الميدان من بعض ، وأشهر — في مصر على الأقل

نشأ الاستاذ نعيمة في لبنان ، ودرس في روسية وأقام في فرنسة وهاجر الى أمريكا ثم ارتد الى وطنه الذي أحبه ، فهو ثمرة ناضجة لاربع ثقافات مختلفة — العربية والروسية واللاتينية والسكسونية بالمعنى الأعم الأشمل . ولعلَّ تنوع هذه الثقافات هو الذي حماه أن تضيع شخصيته فيما توفر عليه وأن يفقد ذاته فيما دخل فيه منها ، واستبحر . فان تعددها ، أو تباين وجوهها خليق أن يمنع طغيان احداها على محصلها وغلبة روحها عليه . على انهُ لاشك ، مع ذلك ، في أن الفضل الاكبر في احتفاظه بطابع خاص ، راجع الى قوة نفسه ووثاقتها

يقابل هذا ان طول اقامة أدباء لبنان في المهاجر ، وتوفرهم على تحصيل لغات أخرى ، واضطرارهم الى اتخاذ لغة المهجر لغة لهم ، جعل معظمهم يتقنون اللغات الأجنبية فوق اتقانهم لغتهم الأصلية ، وسهل ذلك ، وأعان عليه أن درس الآداب الأخرى أيسر وأقرب منالاً من درس الأدب العربي ولاسيما القديم منهُ . وعذرهم في هذا بيِّن ، فما كان ثمَّ مفر منه ، فهو أمر تقل فيهِ الحيلة ، فلا يكون سواه ، وليس معنى هذا ان لغتهم سقيمة ، وانما معناه انهُ أدركها بعض الضعف ولم يكن عنهُ معدى ، وانهم اضطروا أن يكونوا أكثر احتفالاً بالمعنى منهم بلفظه الذي يؤديه ، فليس يسعنا نحن الشرقيين الذين قعدوا ولم يهاجروا إلاّ أن نشعر ونحن نقرأ لزملائنا المهاجرين ان لفظهم دون معناهم حلاوةً أو قوةً أو جمالاً أو روعة

والمزية ، أو معظمها ، والقوة أو الجمال أو الروعة ، في المعنى على الأكثر لا فيما صُبَّ فيهِ وصيغ من لفظ ، ولا ضير من هذا ولا هو يغض من القيمة الأدبية لآثار اخواننا أدباء المهجر كما نسميهم لنميزهم ، وان كان الكبار منهم قد عادوا الى وطنهم . فان العبرة في الأدب بأثَرِه ، والأثر يحصل في نفوس القراء بالمعنى كما يحصل بأسلوب الأداء ، والمعاني هي الأصل على كل حال ، وليست الألفاظ إلاّ أداة لنقلهِ من ذهن الى ذهن ، ومن نفس الى نفس . وما دام الكاتب أو الشاعر يبلغ حيث يريد من نفس القارىء ، فذاك حسبه

على ان الاستاذ ميخائيل نعيمة من أسلم اخوانه عبارة وأصحهم لفظاً وأقومهم أداء . ولغته خير من لغة زميليه الراحلين ، ولكن الأستاذ ايليا ابو ماضي أبلغ شعراً ، ولا أقول نثرا

وللأستاذ نعيمة جانبان يبرزان في نثره وشعره ، وهما متباينان أشد التباين ، أو لعلّ الأصح أن نقول انهما متميزان جدًّا لا يختلطان . فهو في نثره — ولاسيما حين ينقد — مفكر سديد النهج مستقيم النظر ، وحجة ثبت ، وعالم وثيق ، ولكنهُ في شعره وفيما يكتبه نثراً بوحيٍ من عاطفته ، تغلب عليه الروحانية . وهذه الروحانية ليست عابسة ، فانها تفيض رحمةً وحنانا ، وان كانت لا تخلو أحياناً من ابتسامة الرجل الواقعي الساخر

وهذه النزعة الروحانية شائعة في أدب لبنان ، يستوي في ذلك المقيمون والمهاجرون ، وكأني بهم لطول ما يواقعون الحياة من جانبها العملي ، أو المعاشي ، أو المادي ، أو ما شئت فسمه ، يحدث لهم رد الفعل الطبيعي فتلجّ بهم الرغبة في أن يخلوا بنفوسهم ويناجوها ويديروا فيها عيونهم عسى أن ينفذوا الى السرائر ويطلعوا على ذلك الجانب المزويّ عن العيون

وفي هذا الديوان « همس الجفون » طائفة من الشعر نظمها الأستاذ بالعربية ، وأخرى هي ترجمة نثرية لقصائد له بالانجليزية ، ويرى القراء في غير هذا المكان قصيدة اخترناها له على سبيل التمثيل لاسلوبه ونزعته ، وهو أسلوب سلس يجري مجرى البساطة والوضوح ، ويبرأ من التكلف والحوشية ، ولا يخلو من قلق هين . والروحانية في هذه القصيدة تمتزج بالادراك الصحيح للواقع ، والفطنة الدقيقة للحقائق التي تحجبها الظواهر ؛ والسخر الذي يؤدي اليهِ التفطن الى التمويه . واشباهها في الديوان كثيرات ، وانما اخترناها لأنها أجمع لهذه المعاني وأنطق بها

والديوان مطبوع على ورق نفيس كدنا ننسى أن مثلهُ يوجد في دنيانا اليوم ، وفيه رسوم رمزية بريشة الناظم ، ورسم واحد للمرحوم جبران خليل جبران . وقد خلا من الخطأ المطبعي أتم خلو ، وتلك آية أخرى

ابرهيم عبد القادر المازني

# باب الأخبار العلمية

## الغذاء سر من أسرار التعمير والشباب

أجرى بيرد هايستنغز أحد أساتذة الكيمياء الحيوية بجامعة هارفرد تجارب قصد بها الى معرفة الصلة بين الغذاء والشيخوخة ، أو بين الغذاء والتعمير

وقد تبيّن هذا العالم ان نظاماً معيّناً من الغذاء يطيل معدّل عمر الجرذان التي أجرى التجربة فيها ، ويمكنها من الاحتفاظ بسمات الشباب وبخواصّه في أنساجها حتى بعد أن تبلغ الشيخوخة بحسب السنين

وليس ثمة ما يكفل الآن صدق هذه الحقيقة على البشر ، ولكنّ رجال العلم يجرون التجارب على الجرذان ، لينفذوا منها الى تطبيقها على البشر

وقد اشترك هايستنغز مع طائفة من الباحثين في جامعة كورنل ، فبحثوا التركيب الكيميائيّ لأنساج أجسام الجرذان في مراحل مختلفة من العمر ، أي في الطفولة والحداثة والمراهقة والكهولة والشيخوخة . وكانت المواد التي شملها البحث ، الماء والفصفور والپوتاسيوم والكلوريدات ، لمعرفة توزيعها في النسيج العضلي في الساقين والقلب . وقد اختلف عمر الجرذان من ٣٠ يوماً الى ٢٦١١ يوماً . وعشرة أيام في عمر الجرذ تقابل سنة في عمر البشر . وكذلك نجد ٣٠ و ٦٠ و ٦٠٠ و ٧٥٠ و ٢٦١١ يوماً في عمر الجرذ تقابل ٣ و ٦ و ٦٠ و ٧٥ و ٢٦١ سنة في عمر البشر

وقد اشتهر الاستاذ ماكاي باطالة عمر الجرذان باعطائها غذاءً خاصًّا من شأنه أن يبطئ أفعال الجسم الحيوية ، لقلة وحدات الحرارة فيه ، ولكنهُ يحتوي على مقادير وافية من الفيتامينات والمعادن وغيرها

والجرذان التي تتغذى بهذا الطعام تكون أصغر حجماً وأخفّ وزناً وأطول عمراً من لداتها التي تتغذّى بطعام تكثر فيه وحدات الحرارة . وكذلك تمكن ماكاي أن يولّد جرذاناً تعمّر الى سن يتفاوت بين ٧٥٢ يوماً و ٢٦١١ وهي تقابل في عمر البشر سنًّا يتفاوت بين ٧٥ سنة و ٢٦١ سنة

ثم جاءَ هايستنغز وأعوانهُ فوجدوا ان التركيب الكيميائي لأنساج الجرذان التي عمّرت باعتمادها على هذا الغذاء ، شبيهة بتركيبها في الجرذان الصغار . ففي جرذان بلغت من العمر ٢٦١١ يوماً كان تركيب الانساج مقابلاً لتركيبها في جرذان بلغت من العمر ٦١٠ أيام . فكأن كيمياءَ النسيج العضلي في شيخ أوفى على ٢٦١ سنة تشبه كيمياء النسيج العضلي في رجل في الستين

## البنيسيلين في علاج الزهري

تروي المجلات العلميــة الاميركية انهُ أعلن في الاجتماع الذي عقدتهُ جمعية الصحة العــامة الاميركية ان عقار البنيسيلين قد يكون أداة فعــالة في التغلب على الزهري والسيلان كليهما

فقد أعدَّ ثلاثة من أطباء المستشفى البحري التابع لمصلحة الصحة العامة الأميركية تقريراً وصفوا فيه علاج الزهري في بواكيره ، في أربع حالات ، بالبنيسيلين . وهناك حالات أخرى تعالج بهِ الآن . وقد مضى على بعض هذه الحالات مدة كافية ، تمكن الاطباء من الاستيثاق من ان العلاج كان ناجعاً

وطريقة العــلاج حقن البنيسيلين في عضلات المصاب مرة كل أربع ساعات ليل نهار مدة تسعة أيام . فبعد انقضاء الساعات السبــع الاولى على الحقن بهِ تختفي لولبيات الزهري من القروح

وفي اليوم الخامس عشر يكون فحص الدم سالباً وبعد انقضاء مائة يوم على وقف العــلاج يتعــذّر العثور على أي أثر للداء في دم المصاب ولو استعملت أدق الــكواشف المعروفة

والعلاج بالبنيسيلين مأمون العاقبة . ولم يتبيَّــن الأطباء حتى الآن أثراً لتسمم ما نتيجة للعلاج بهذه المادة المستخرجة من أحد أصناف العفن . وقد روى أحد هؤلاء الأطباء ان بعض المرضى أصيب بحرارة خفيفة في اليوم الأول ، ولــكنَّ هذا في رأيه مرجعهُ الى الفتك بطوائف كبيرة من اللولبيّــات ، لا الى البنيســيلين نفسهِ

## الفيتامين في فول الصويا

أثبت الدكتور بول بركهولدر الاستاذ بجامعة يايل : ان في فول الصويا فيتامينات متعددة . فقد حاول الاستاذ بركهولدر أن يقرر بالتحليل الدقيق نسبة سبعة فيتامينات في ستةٍ من أصناف هذا الفول ، فلم يجد فروقاً كبيرة بينهــا ، ولــكنــه تبيّــن ان تركيز الفيتامين يتفاوت بتفاوت نضج حبة الفول . فالثيامين أوفر في حبة الفول الناضجة منهُ في حبة الفول الغضرة . على حين أن الريبوفلافين أوفر في الحبوب الغضرة منهُ في الناضجة . وهــذه المعرفة لازمة في الغذاء لأن حبوب الفول تؤكل ناضجة وغضرة على السواء

ثم قابل الاســتاذ بركهولدر تركيز الفيتامين في فول الصويا ، بتركيزه في لحم العجل الاحمر ، ولحم الخنزير الاحمر ، وفي حبوب القمح . فوجد ان كفة الفول في جميع الفيتامينات — ما عدا النياسين — ترجح كفة القمح ، وانها تعادل كفة اللحمين

وقد نشرت تفصيلات هــذا البحث في مجلة « سينس » منذ عهد قريب

## فيتامين C يفعل فعل الانسولين

أضاف علماء الهند اضافة جديدة الى علوم الكيمياء الحيوية والطب . فقد كشف الأستاذ بانرجي أحد علماء مدرسة الطب الاستوائي بكلكتة ان فيتامين C يفعل فعل الانسولين في حالة البول السكري . وقد أجرى تجاربه في خنازير الهند فأخذ طائفتين منها وغذّى إحداها بطعام ينقصهُ فيتامين C وغذّى الأخرى بالطعام عينه ولكن بعد اضافة مقدار وافٍ من هذا الفيتامين اليهِ . فأسفرت التجربة أن الطائفة الثانية ظلّت سوية سليمة من كل ناحية ، وأما الطائفة الأولى فأصيبت بأعراض « البول السكري ». فلما أعطيت جرعاً من فيتامين C زالت هذه الاعراض

## بركان في البحار الجنوبية

رابول - التي لهجت بذكرها الأخبار - هي عاصمة « بريطانية الجديدة » ، وهي جزيرة صغيرة قرب غينية الجديدة . ولرابول مرفأ جيد كان فيما مضى فوهة بركان طغى عليه البحر فملأه اليوم بمياهه . وتطل على رابول ثلاثة جبال شاهقة بركانية . والواقع ان هذه الجهة بأسرها عرضة للتقلبات العنيفة البركانية . وقد ظهرت منذ أمد غير بعيد على ساحل « بريطانية الجديدة » جزيرتان صغيرتان هما « ماتوبي » و « فولكان » . وفي سنة ١٩٣٧ فتكت الزلازل بغتة بجزيرة فولكان فأودت بحياة المئات من الأهالي ، وأمطرت رابول وابلاً من المقذوفات والحمم البركانية ، ولما هدأت ثورة البركان وعاد الأهالي الى ديارهم وجدوا « فولكان » أصبحت جبلاً داخلاً في البحر يصله بالشاطىء شقة من الارض، فصارت غير جزيرة

## هل تعلم

* ان نساء الولايات المتحدة قدمنَ ٤٩ مليون زوج من جوارب الحرير والنيلون ، تبلغ زنتها ٢٥٠٠٠٠٠ رطل تستعمل في الجهد الحربي ؟

* ان الصناعة الأميركية تصنع الآن للقوات المسلحة ورقاً خاصّاً للخارطات الحربية لا يبتلُّ ولو غمس بالماء العذب أو الملح ؟

* أن لورق السجاير استعمالاً جديداً ؟ فهو يوضع على الجروح بعد رش مسحوق السلفانيلاميد عليها ، وانهُ يفوق الشاش المعقم من هذه الناحية ؟

* ان مجلة خلاصة العلم الاميركية روت ان ميلاً مكعباً من ماء البحر يحتوي على تسعة بلايين رطل من عنصر المغنسيوم ؟

# فهرس الجزء الثاني من المجلد الرابع بعد المائة


١٠٥ العلم والغذاء والمستقبل — الصحة العامة لا تتجزأ : لفؤاد صروف
١١١ تحية لبنان المجاهد : لخليل ثابت بك
١١٤ الصناعات المصرية : للدكتور حافظ عفيفي باشا
١٢٧ صرفت حبيبي عني ( قصيدة ) : لميخائيل نعيمة
١٢٩ غزو روسيا : لادوار مرقص
١٣٢ دار الحديث النورية : للدكتور أسعد طلس
١٣٩ القوة المحركة من البحر — مصادرها ووسائل استعمالها
١٤٢ اللغة البولندية وتاريخها : لحسين المهدي غنام
١٤٧ الدين والفلسفة — الخصومة بينهما في الشرق : لمحمد يوسف موسى
١٥٠ أحلام جول ڤرن تتحقق : نقلها كامل محمود حبيب
١٥٤ فلاسفة الرواق — كليانتس — : للدكتور عثمان أمين
١٥٨ أسئلة وأجوبتها عن سر الكهربية
١٦١ حرف الجيم : لعبد الله أمين
١٦٦ عدد الحرب عند العرب : لمحمد عبد الغني حسن
١٧١ عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود المنجوري
١٧٦ علاقة رعاية الطفل بحالة الأم من الناحية الاجتماعية : للدكتور حسن كمال
١٨٢ فلسفة « كأنّ » في الهند وفي الغرب : للسيد أبي النصر أحمد الحسيني الهندي

باب التعريف والتنقيب ( نقد كتب )

١٨٧ الى ٢٠٤
« ثلاثة رجال وامرأة » لابرهيم عبد القادر المازني ، نقد بقلم محمود تيمور
« الصديقة بنت الصديق » لعباس محمود العقاد ، نقد بقلم بشر فارس
« قنابل — ملاة مصرية في ثلاثة فصول » لمحمود تيمور ، نقد بقلم حسن كامل الصيرفي
« معجم الالفاظ الزراعية » لمصطفى الشهابي ، نقد بقلم الأب أنستاس ماري الكرملي
« همس الجفون » لميخائيل نعيمة ، نقد بقلم ابرهيم عبد القادر المازني

٢٠٥ باب الاخبار العلمية * الغذاء سر من أسرار التعمير والشباب . البنيسيلين في علاج الزهري . الفيتامين في فول الصويا . فيتامين C يفعل فعل الانسولين . بركان في البحار الجنوبية . هل تعلم

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الرابع بعد المائة

١ مارس سنة ١٩٤٤ — ٦ ربيع اول سنة ١٣٦٣

# بعد الحرب ... ماذا ؟

## ١ — فترة الانتقال

لا بدَّ من فرض فرضين . أما الاول فهو أن الدول المتحدة ستكسب الحرب في الميدان . وأما الثاني فهو انها تملك الفكر النير والادراك الصحيح والعزم الصادق على المضي بعد الظفر الحربي ، في طريق التعاون الصحيح ، لكسب السلام والسعي القويم لانشاء عالم أفضل من العالم الذي هوى ولن يقوم . ففي المرة الماضية كسب الحلفاء الحرب في الميدان ، ثم خسروا السلام ، ففوق أنقاض الحرب العالمية الاولى شيد الناس صرحاً فخماً ، عمروه بآمالهم ومناهم ، وكان هدفها جميعاً توطيد أركان السلام ، وترسيخ اصول الحكم الشعبي وتعميمها ونشر العدل الاجتماعي القومي والدولي . وجاءت فترة عابرة ، بدا فيها أن بعض الأمم على الأقل سائر قدماً الى تحقيق بعض هذه المُنى

ولكن لم تكد تنقضي سنوات حتى كانت الآمال منهارة ، معفرة بتراب المطامع ، ملفوفة بأكفانٍ سداها ضعف العزم ، ولحمتها قصر النظر . وهذه فرصة اخرى ، يلوح أنها ستتاح للانسانية بعد جيل . وليس ثمة مشقة في التسليم بالفرض الأول استناداً الى اتجاه الحرب العام خلال السنة الاخيرة . ولكن التسليم بالفرض الثاني يحوطه بعض التحفظ على الأقل . نعم ان احتمال التعاون بعد هذه الحرب اعظم منهُ بعد الحرب الماضية . وموقف الولايات المتحدة من هذا التعاون الآن يختلف اختلافاً كبيراً عن موقفها منه بعد الحرب العالمية الاولى . وليس بخافٍ ما يعد الآن من عدة وما يخط من خُطط لتطبيقها تطبيقاً

مشتركاً بعد الحرب . وقد نحسن الظن فنميل الى الاعتقاد بأن العبرة المستخرجة من السلام المضيع بعد الحرب الماضية لم يفت مغزاها على القادة والشعوب . ومع ذلك لا بد ان يبقى التعاون الصادق بعد هذه الحرب فرضاً حتى يقوم الدليل العملي الناطق عليه بعد ما يرتفع كابوس الخطر الذي يهدد الكيان ، ويؤلف الآن بين العزائم والقلوب

وليس ثمة ريب في ان الطريق الوحيد الى انشاء سلام وطيد الأركان هو طريق التعاون الدولي تعاوناً صادقاً مستمراً . وهذا الطريق وعر طويل ومن السهل أن نحدق الى العقبات التي تعترض السير في هذا الطريق ، وأن ننقاد لقول القائلين بأن تذليلها مستحيل . والعقبات كثيرة حقاً ، والتغلب عليها يقتضي تفكيراً قوياً وإدراكاً صحيحاً لطبيعة العمران الحديث ، وشجاعة لا تنثني والمنثنون أمام الصعاب بغير محاولة هم دعاة الهزيمة في معركة السلام، ويحق عليهم ما يحق على دعاة الهزيمة في اثناء الحرب . على إن تحقيق الأمل لا يتم بين ليلة وضحاها ، بل هو جهاد مستمر ، فنحن حيال هذه المشكلات في حاجة الى تربية مستمرة مطردة سعةً وسمواً والى سعي صادق لا يفتر

في حدود هذين الغرضين والاعتبارات المتصلة بهما نحاول بحث بعض المشكلات التي لا بد من مواجهتها بعد الحرب . وهذه المشكلات طائفتان بوجه عام. الاولى ما كان له صلة بالاحوال القائمة في شتى البلاد ، حين تضع الحرب أوزارها . والثانية ما كان لها صلة بانشاء هيئة دولية تنظم السلام وتشرف على حفظه وتوفير الاحوال التي يزكو فيها اصله ويورق فرعه ، وهي مشكلة طويلة الأمد . وقد عهد معهد كرنيجي للسلم الدولي الى لجنة من المفكرين والخبراء المستقلين رأياً ونزعةً سياسيةً ، في بحث هذا الموضوع وتوضيحه، فقالت في تقريرها : « حالما تنتهي الحرب ستواجه جماعة الامم مهمتين منفصلتين ، ولكنهما متفاعلتان ، ولا بد من التأهب لهما قبل أن ينصبّا على عالم نهكته الحرب وهزه عود السلام فراح لا يقيم وزناً كبيراً لضرورات الحال الجديدة . اما المهمة الاولى فهي مشكلة التعمير السياسي والمادي والروحي في البلاد التي هوت عليها كف الحرب ثقيلة مدمرة . وأما المهمة الثانية فانشاء نظام دولي دائم »

تشتمل المهمة الاولى على ثلاث طوائف من المشكلات نستطيع أن نصفها بالمشكلات الاجتماعية ، والمشكلات الاقتصادية ، والمشكلات الحربية السياسية ، وهذا تقسيم يقصد التيسير . والاّ فإن هذه المشكلات ليست منفصلة بعضها عن بعض . فالمشكلات الاجتماعية ، كتوفير المأكل للجياع والهزال ، وتوفير الملبس للعراة او من في حكم العراة والأدوية للمرضى متصلة اوثق اتصال بالمشكلات السياسية مثل قيام الحكومات وقدرتها على حفظ الأمن وتمهيد الطريق لاستئناف الحياة السياسية الرشيدة ، ومتصلة كذلك أوثق

اتصال بالمشكلات الاقتصادية ، وبخاصة العودة الى الإنتاج الزراعي والاقتصادي السوي ، فقدرة الناس على العمل هي رأس المال الأساسي في كل عهد وكل حضارة

وبين المشكلات الاجتماعية التي لا بد من التأهب لمواجهتها نجد في المقام الأول مشكلة البادرة الى إغاثة الشعوب الخارجة على سقم من سعير الحرب . فلا بد من وضع الخطط التي تكفل مقاومة الجوع والمرض مقاومة عاجلة فعالة ، وجميع الدلائل تدل على ان المرض سيكون بعد هذه الحرب ، كما كان بعد الحروب السابقة ، أفتك بالناس من الأسلحة . وستصمت المدافع حين يصدر الأمر بكف القتال ، ولكن نار المرض ستمضي ملتهمة حاصدة ما دامت الأحوال مضطربة ، وما دام الناس لا يقوون على المقاومة ، وما دام العلاج عزيزاً والأحوال التي تصخب الحروب وتساعد على انتشار الأوبئة قائمة ، وهي سوء التغذية والجوع ، وترحيل طوائف كبيرة من الناس من بلد الى بلد ، كترحيل الاسرى والمعتقلين أو ترحيل العمال ، وقلة وسائل العلاج واضطراب الأحوال الاجتماعية . ومواجهة هذه المشكلة الضخمة لا يمكن ان تلقى على كاهل الهيئات المتطوعة . ولا بد من أن تتأهب لها الحكومات فتخصص لها أموالاً طائلة ، وتوفر لها أسباب النقل

ومن حسن الحظ وبواعث الرضى والثقة بالمستقبل أن الدول المتحدة قد ادركت التبعة العظيمة الواقعة على كاهلها في علاج هذه المشكلات ، وانضمت اليها دول ليست محاربة تشعر بضرورة مشاركتها في تحمل نصيبها من هذه التبعة . فأنشئت الهيئة الدولية للاعانة والتعمير ، وقد ضم مؤتمرها ممثلي أربع وأربعين دولة يبلغ عدد سكانها ، أربعة أخماس سكان الكرة الأرضية . وللدلالة على ضخامة المشكلات التي تعالجها هذه الهيئة ، أقول ان الخبير البريطاني السير فردريك ليث روس وضع بياناً مفصلاً بما تحتاج اليه بلاد القارة الاوربية لا غير من مقادير الطعام في الستة الأشهر الأولى التي تلي وقف الحرب ، فاذا هو يحتاج الى سفن أو وسائل نقل أخرى مجموع حمولتها ثلاثة وعشرون مليوناً ونصف مليون من الأطنان . فمهمة هذه الهيئة هي تدبير هذه المقادير تأهباً لتوزيعها ، ثم تدبير السفن ووسائل النقل اللازمة لنقلها ، ثم نقلها وتوزيعها على أساس من العدل ، والحاجة كما يقرها خبراء التغذية . وما يقال في المأكل يقال في الملبس والدواء واعادة الرحلين واللاجئين الى أوطانهم ويقدر عددهم بعشرين مليوناً على الأقل في أوربة وحدها

أما الطائفة الثانية فهي المشكلات الاقتصادية ، ومنها تدبير عمل للجنود المسرحين ، وتحويل المصانع التي لا تحصى من انتاج الحرب الى انتاج السلام ، وتوزيع المواد الخام اللازمة للصناعة ، ، وتدبير حل معقول للنساء اللواتي تعودن الانتاج والكسب في اثناء

الحرب ، وتثبيت النقد بحيث تنتظم المعاملات التجارية بين بلاد الارض على أساس نظام مستقر أو مائل الى الاستقرار ، وتنظيم المواصلات البحرية والجوية ، وتحويلها من أغراض النقل الحربي الى النقل السلمي . وكل مشكلة من هذه المشكلات تحتاج الى بحث دقيق والى تعاون وثيق لكي تحل ، ولا تحل ارتجالاً

وأخيراً هناك طائفة ثالثة من هذه المشكلات تتصل بالنظام السياسي في البلدان التي تحتلها الجيوش الحليفة عقب نهاية الحرب مباشرة ، أو عقب استردادها من المحور قبل أن تنتهي الحرب . وهذه البلدان لا بدَّ أن تبقى مدةً ما في حكم البلاد المحتلة احتلالاً عسكريًّا ، أي تبقى خاضعة لقيادة الجيش المحتل . ولكن العالم في حاجة من هذه الناحية الى مبدإ جديد . فهذه الحرب حرب عالمية كما لا يخفى . والجهد الحربي الذي تبذله الدول المتحدة جهد مشترك . وهذا يقتضي أن يكون عمل التعمير السياسي والاقتصادي في البلاد المجتاحة عملاً مشتركاً ولا بأس في أن تتولاه دولة ما ، ولكن على شرط أن تتولاه باسم الدول المتحدة جميعاً ، ووفقاً للمبادىء والخطط التي أقرت لمثل هذه الحالة . ففرضٌ على الدول المتحدة منذ الآن أن تضع القرارات الخاصة بطبيعة الادارة والمبادىء التي تتبع فيها والمراحل التي تجوزها كل أمة في عودتها التدريجية الى الحياة السياسية السوية والحكم القومي ، وأن يعد الرجال لتولي هذه التبعات

هذا طرف يسير جدًّا من المسائل التي يجب أن تعالج حين تنتهي الحرب ، حتى قبل انتهائها — مثلاً في البلاد التي تُرفع يد الغاصب عنها . وارجاء معالجتها على أسس من الحزم والعدل والانسانية يكون باعثاً من بواعث الاضطراب والفوضى حتماً . فمعالجتها لا يمكنها أن تنتظر انشاء هذه الهيئة انشاءً متدرجاً نموًّا وقوة وسعة اختصاص . ولذلك يكاد يجتمع الرأي على أن تكون هناك فترة تطول أو تقصر بين نهاية الحرب — أي عقد الهدنة العسكرية — وبين عقد معاهدة الصلح ، ومدتها تتفاوت في رأي الباحثين من ٥ سنوات الى ٢٥ سنة

فأوربة بعد الحرب ، وكثير من البلاد الأخرى ، ستكون أشبه ما يكون بمقاطعة أصابها الزلزال وطغى عليها السيل وفشا فيها الوباء . فيجب أن يوجه الاهتمام الاول الى حفظ الأمن وغوث المنكوب واصلاح الخراب . وفترة الانتقال يجب أن تكون كافية لعلاج هذه المشكلات التي لا يمكن أن ترجأ معالجتها ، ولخمود العواطف المشبوبة ولتهيئة الظروف الاجتماعية والاقتصادية والنفسية لكتابة وثيقة السلام والحرية والرخاء التي ترنو البشرية اليها ، ولتنفيذها . وبغير أن تهيأ هذه الظروف جميعاً قد تكتب الوثيقة ، وقد تكون غاية في البلاغة والإحكام ، ولكنها تبقى حبراً على ورق

## ٢ — تنظيم السلام

كان رجال الفكر والاجتماع والسياسة الذين تعنيهم أغراض الحرب وقواعد البنيان الاجتماعي والسياسي بعدها ، يذهبون في المراحل الأولى من الحرب مذهبين مختلفين ، في ما يتعلق بالأهداف التي تتوخاها الدول المتحدة منها . أما المذهب الأول فقوامه ضرورة اعلان الاهداف ، واقناع الناس ، بصدق النية على تحقيقها ؛ وأما الثاني فقوامه تقديم الاهتمام بكسب الحرب ، وضرورة صرف الجهد والعزم الى هذا الاهتمام . فكسب الحرب في رأي اصحاب هذا الرأي هو الغرض المقدم على غيره من الاغراض . فكان رد أصحاب المذهب الاول أن اعلان الاهداف ، جزء من السلاح السياسي الماضي الذي يحث الشعوب المتحدة الحرة والمستبد بها ، على بذل كل جهد في سبيل الظفر

وكان النضال ، حين دارت هذه المناقشة ، يجتاز مرحلة دقيقة ، فكانت الحاجة كل الحاجة ، الى حصر الجهد في شؤون الحرب والاعمال الحربية ، ومع ذلك اجتمع روزفلت وتشرتشل اجتماعهما المشهور الاول في المحيط الاطلسي — اغسطس ١٩٤١ — فاسفر عن وثيقة « دستور المحيط الأطلسي » ، وقد عزز من شأن هذه الوثيقة ما جاء في تصريحات الاقطاب المسئولين بعد ذلك ، مما وضّح قواعد تلك الوثيقة أو فصلها أو أيدها ، ثم وافقت عليها جميع الدول المتحدة ، وزادها تأييداً ما أسفر عنه مؤتمر موسكو من اعتراف بضرورة المضي في التعاون بعد الحرب وانشاء هيئة عامة ، للسهر على حفظ السلام والسلامة بين الدول . واستخرج مجلس الشيوخ الامريكي النص الوارد في هذا الصدد ، في تصريح موسكو ، وأدرجه في قرار وافق عليه موافقة تقرب من الاجماع

وكل من عني بالبحث أو بالتأمل في بعض المشكلات التي لا بدّ من مواجهتها بعد الظفر ، سواء أمباشرة كانت تلك المشكلات أم بعيدة الأمد ، يعلم أنها معقدة كل التعقيد وان استيضاحها واعداد خطط لمعالجتها يقتضيان ، على أقل تقدير ، بحثاً مسهباً وثيقاً وتفاهماً على القواعد الأصلية ، وعلى بعض التفاصيل . وبعض هذه المشكلات لا بد من معالجته ، على الفور ، حين تنتهي الحرب ، بل ربما قبل انتهائها ، في بعض البلاد ، فليس في الوسع ارجاء التأهب لذلك . واليوم أبكر من غد

على ان فترة الانتقال ، فترة عابرة مهما يطل أمدها ، والوضع فيها وضع شاذ ، مهما يكن ضرورياً ، ولا مفر منه ، والسلام لا يستتب الا اذا عادت الأمم الى الوضع الطبيعي والحياة السوية في نطاق من النظام يضمن لها ثلاثة أغراض ، السلامة والحرية والرخاء . وكل غرض من هذه الأغراض وحدة لا تتجزأ . فسلامة كل أمة جزء أصيل من سلامة

الدول جميعاً . وكل تهديد يوجه الى سلامة أمة ما ، هو تهديد موجه الى سلامة الجميع ، وكذلك حرية كل أمة ، ورخاء كل أمة

فارتقاء الحضارة الحديثة أفضى الى ارتباط الأمم بعضها ببعض ، والى اشتباك مصالحها فأصبحت العزلة التامة في هذا العصر الذي وحدت بين أممه مآثر العلم ومنتجات الصناعة أمراً مستحيلاً ، وغدت الاقامة في برج عاجي يطل المقيم فيه ، على تيارات الحياة ، بغير أن يتأثر بها ، منافية لاتجاه الحياة نفسها . ولا يزال السلام الطويل الأمد الذي ترنو اليه الانسانية مرتبطاً بالسلامة الحربية المشتركة ، ولا تزال الحرية التي نتطلع اليها متصلة ببيان حقوق جديدة مشتركة ، لجميع الناس على السواء توافق أحوال العصر الحديث ، ولا سبيل الى الرخاء المنشود الاَّ عن طريق حياة اقتصادية مشتركة

فالمشكلة التي تواجهها الانسانية بعد الحرب ، هي مشكلة انشاء هيئة أو هيئات ، تجعل هذا « الاشتراك » مستطاعاً . ويخطىء من يظن ان عقد معاهدات الصلح بعد فترة الانتقال يضع الامر في نصابه ، ويحل المشكلة . فالصلح الذي يضمن في ظله الأمن المشترك والحرية المشتركة والرخاء المشترك ، لا يمكن ان يكون حادثاً عابراً ، كعقد مؤتمر وكتابة معاهدة ، بل هو عمل مستمر وليس عقد المؤتمر وكتابة المعاهدة الاَّ توطئة وتمهيداً . فانشاء الهيئة العامة التي اشار اليها تصريح موسكو ووافق عليها مجلس الشيوخ الأمريكي ، لا بد ان يكون لباب المشكلة الطويلة الأمد التي تواجهها الأمم بعد الحرب . فما يكون قوام هذه الهيئة ؟ وما الركن الذي تقوم عليه ؟ أتكون عالمية بأوسع معنى الكلمة ، أم تكون هناك هيئات كبيرة محلية ، أم تكون بعثاً لعصبة الأمم بعد تعديل ما يجب تعديله فيها ، لتكون أقدر على النهوض بالتبعات الملقاة على كاهلها ؟ أم تكون لوناً من الاتحاد السياسي ، تشرف عليه حكومة عالمية ؟

قرأت كثيراً مما كتب في هذا الموضوع . فلم أجد اجماعاً بين اصحاب الرأي ، بل على الضد من ذلك وجدت مشروعات تختلف عن مشروع بعث العصبة الى توحيد الأمم وتوثيق الصلة بينها على اساس الصلات المالية والاقتصادية . وسأعرض بعض هذه المشروعات على أن أشير في نهاية المقال الى ما قد يعد مشروعاً أو أركان مشروع بأحسن مزاياها

أما المشروع الاول فهو مشروع بعث عصبة الأمم . واصحاب هذا المشروع يذهبون الى أن انهيار الاجتماع الدولي بين الحربين العالمية الأولى والعالمية الثانية ، يرجع الى أربعة اخطاء . اولها خيبة العصبة في تعديل فكرة السيادة القومية المطلقة ، وثانيها امتناع الولايات المتحدة الأمريكية عن الاشتراك في العصبة ، والثالث النص في ميثاق العصبة ان قرارات المجلس يجب أن تكون بالاجماع لتكون نافذة المفعول ، والرابع أن العصبة لم تملك القوة

اللازمة لتنفيذ قراراتها . فاصحاب هذا المشروع وضعوا اقتراحات لتصحيح كل هذه الاخطاء الأساسية في كيان العصبة ويعتقدون أن بعث العصبة على هذا الأساس يكون كفيلاً بتحقيق الغرض منها اذا توافرت النية الحسنة والفكر النير والعزم الصادق . وهذه صفات مفروضة فرضاً في كل مشروع لأن كل مشروع مهما يبلغ الكمال منهار من أساسه ، ان لم تتوافر هذه الصفات

وأما المشروع الثاني فهو مشروع الاتحاد . وصاحب نواة هذا المشروع صحفي امريكي يدعى كلارنس سترايت ، كان زمناً طويلاً مكاتباً لجريدة نيويورك تيمس في جنيف ، وقد راقب أعمال العصبة عن كثب ، وخرج من مراقبته الى القول بأن رجال السياسة ، كما عرفهم ، عاجزون عن تسوية شؤون الدول تسوية سلمية عادلة لأنهم بحكم نشأتهم وصناعتهم مندوبون الى ضمان المصالح الخاصة بالحكومة التي يمثلونها ، ولذلك اقترح في كتابه « الاتحاد الآن » مشروعاً تنشيء بمقتضاه جماعة من الدول المماثلة في تقاليدها ونظراتها السياسية والاجتماعية ، وهي الديمقراطيات على جانبي المحيط الأطلسي، اتحاداً كبيراً قوياً على نمط الاتحاد الذي انشيء بين الولايات المتحدة في أول عهدها .فتمارس حكومة هذا الاتحاد الوظائف العامة الخاصة بقوة دفاع مشتركة واقتصاد حر مشترك ، خال من الحواجز بين الدول أعضاء الاتحاد ، ونقد واحد ، ونظام مشترك للمواصلات »

وكان هذا الاقتراح قبيل نشوب هذه الحرب، فبعد نشوبها اقترح سترايت انشاء اتحاد في الحال بين الولايات المتحدة وجامعة الامم البريطانية ، على هذه القواعد ثم يوسع نطاقه ليضم رويداً رويداً الدول الديمقراطية، الى أن يضم العالم. وقد عنى باحث آخر بوضع دستور لاتحاد اوربي ، على ان يضم تحت جناحيه اتحادات اقليمية أوربية مثل الاقليم الذي يشمل بولندة وتشيكوسلوفاكية ، والاقليم الذي يجمع بين اليونان ويوغسلافية

وأما المشروع الثالث فهو القائم على مبدأ حسن الجوار ، أو مبدأ الجار الطيب . وأصحاب هذا المشروع يشيرون الى نجاح مبدأ الجار الطيب الذي مارسته حكومة الولايات المتحدة في القارتين الامريكيتين ممارسة فعالة متسقة الجوانب في عهد الرئيس فرنكلين روزفلت ، ويقولون ان هذا النجاح تم بغير سلطة عليا من قبل هيئة دولية كالعصبة ، أو حكومة اتحادية كالحكومة التي يقترحها سترايت وأصحابه ، وان الدأب في هذه السياسة انشاء لجان وعقد مؤتمرات لبحث الموضوعات ، وتقديمها الى الحكومات المختصة

وهناك مشروعان آخران احدهما قائم على مبدإ مالي ، والآخر على مبدإ اقتصادي . أما الأول فركنه بنك عالمي تكون مهمته تنظيم الحياة الاقتصادية وتنسيقها في أرجاء العالم ،

وأما الثاني فقائم على المبادىء التالية : اذا منعت المنتجات الزراعية والصناعية من اجتياز الحدود السياسية فالجنود يجتازونها ، واذا لم تحطم القيود التي تقيد التجارة فان القنابل تحطم المصانع ، وان الاتفاقات الاقتصادية القائمة على مصلحة الفريقين المتبادلين أدنى الى المحافظة عليها من الاتفاقات السياسية ، أي ان اللباب في هذين المشروعين هو « الاتحاد الاقتصادي الآن » ، وهو يقابل جزءًا من مشروع سترايت الذي يجمع بين الشؤون الحربية والاقتصادية وبعض الشؤون السياسية . على ان اصحاب الاتحاد الاقتصادي يرون أنْ لا حاجة الى الاندماج السياسي ، لأن التوحيد الاقتصادي يجعل التوحيد السياسي في المقام الثاني وفي حكم تحصيل الحاصل

هذه نماذج من المشروعات المقترحة ، ولكل منها تفصيل وعلى كل منها اعتراضات ، فما قلته هنا لا يتجاوز الاشارة وحسب ، وواضح من هذا القليل أن أجزاء من كل منها لازمة للمحافظة على سلام العالم وحريته ورخائه . كل مشروع من هذه المشروعات وغيرها ، أشبه ما يكون بآلة موسيقية واحدة ، لها لحنها الخاص بها ، ولكن النغم الفخم مؤلف من جميع الألحان ، معزوف عزفاً منسقاً على جميع الآلات ، وفي كل مشروع كلمة تعد في منزلة المفتاح الذي يفتح به باب ذلك المشروع ، ففي هذا كلمة « العصبة » ، وفي ذاك كلمة « الاتحاد » ، ولكن أصحابها جميعاً مدركون أن كلمة واحدة أو مبدأً واحداً لا يكفي لدفع جميع القوى الانسانية من سياسية واقتصادية وروحية في عنان واحد ، لتجر مركبة مثقلة بمشكلات العالم ، فهذه الالفاظ تدل على اتجاهات ويجب التوفيق بينها

فعالم بعد الحرب سيشهد قيام أكثر من اتحاد واحد ، منها السياسي ومنها الاقليمي ، ومنها الاقتصادي ، ومنها الخليط لجزء من مشروع « الاتحاد » يجب أن يدمج في كل مشروع يرجى له نجاح . وربما لا تُبعث عصبة الأمم كما كانت ، ولكن لا ريب في أن بعض الأعمال التي كانت تنهض بها العصبة ستبعث ، ويجب ان تبعث وتدمج في هيئات دولية قديمة منبعثة ، أو جديدة على الاطلاق . وليس في وسع أحد ان يزعم ان التوسع المرجو في التجارة العالمية ، والمساواة في الفرص المتاحة للحصول على المواد الخام ، يمكن ان يحققا ، في ظل أنظمة النقد والمصارف المضطربة التي كانت تسود العالم قبل نشوب الحرب . فجزء من المشروعين المالي والاقتصادي يجب ان يدمج في النظام العام الشامل

فهذه المشروعات متصلة بعضها ببعض ، معتمدة بعضها على بعض ، غير مناقض بعضها لبعض . انها تسعى جميعاً الى غرض واحد ، فالحاجة الى النية الحسنة والفكر النير ، والعزم الذي لا يلين ، انما هي الحاجة الى الروح فبغير الروح ، لا نجاح لمشروع ما : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

فؤاد صرّوف

# رسالة الطب

## في الحياة

لصاحب السعادة الدكتور سليمان عزمي باشا

للبيئة والمجتمع والوراثة تأثير في شخصية الانسان ، واذا ماتهذبت غرائزه بالتربية والتعليم تطبع بحميد الصفات فابتعد عن القبائح

فالطبيب الطيب المنبت اذا ما حصل على تعليم راقٍ ومتين يصبح ذا شخصية بارزة وأخلاق عالية وكفاية فنية عظيمة ، وخليقاً بأن يمتاز على معاصريه ببعد النظر وسعة الصدر والقدرة على فهم الامور واخراج الاستنتاجات السليمة وقدْر المسائل حق قدرها، لأن فن الطب ودراسته والعلوم الطبية وما يتصل بهـا عوّدته البحث والاستنتاج وربط الامور بمسبباتها ونتائجها كما عودته المثابرة والصبر والتأني وتقدير المسئولية — فمسئولية الطبيب في فنه تتصل بأهم وأنفس شئون الحياة ( الروح — الصحة والعافية — الحياة ) وما عدا ذلك من مال وكسب وجاه وشهرة وافتخار وتنعم بزينة الحياة وملذاتها وما يعده طلابها سعادة ونعيماً وغاية يسعون وراءه في هذه الحياة الدنيا هو عند زهادها مظاهر خلابة عبدها الناس وتغالوا في الاستكثار منها، ولولا هذا التباين في مقاصد الناس لفسدت الأرض. وقد راجت سوق المادة للاسف في هذا العصر، ولا أزعم ان الأطباء براء من كل هـذا فهم بشر ولـكل انسان وجهات نظر تختلف عن وجهات نظر غيره وكل يرى سعادته وهناءته في ادراك ما تصبو اليه نفسه — والسعادة فنون ولـكل فن عشاقه

بل قد رأى بعضهم السعادة لدى المجانين لأنهم سعداء في اعتقادهم وفيما تركز في ذهنهم وشغلهم عن كل شيء آخر

وهذا البحث الذي كتبه أخيراً أحد أساتذة علم النفس وترجم في مجلة « المختار » تحت عنوان « العقل في الجنون » يوافق قول الشاعر العربي « وما لذة العيش إلاّ للمجانين »

فهم يعيشون في دنيا من الاحلام بعيدون عن دنيا الحقائق والتفكير والهموم ، لاهون بما هم فيه، فرحون بما لديهم غافلون عن كل شيء آخر من أمور الحياة ، لايشعرون بمسؤولية ولا تقع عليهم تبعة تصرفاتهم — وما أنسب قول الشاعر العربي في ذلك

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

واذا كانت الماديات ضرورية فهي كالملح للطعام لا تكون إلاّ بقدر، ولا يجب أن تتضاءل ازاءها الفضائل وتتلاشى المزايا الطيبة الخالدة ، فكل شيء مصيره الى الفناء إلاّ الشخصيات الانسانية التاريخية وأعمالها المجيدة النافعة فانها باقية على مرّ السنين والايام

وقد أثرت العلوم المادية المحسوسة في الطب نفسه ، فبعد ان كان الطبيب يطبق معلوماته ويقيس بخبرته ويحكم بعقلهِ الراجح فيما يعرض له من الامور دخلت المادة في العلم وأصبحت التحاليل والمجاهر والأشعة والعقاقير مهيمنةً على الفن ونسبت اليها الفوائد السحرية في سهولة التشخيص ونجاح العلاج وأهملت الى حدٍّ ما شخصية الطبيب وتأثيره النفسي في اعتقاد المريض — لا أقول ذلك لأنقص من قيمتها وحقها فهي ذات فائدة عظيمة — ولكن ألاّ يضحى قِبَلها شخصية الانسان ، فليس العلم بذاته هو الذي يقرر ، وليست الآلات والاجهزة هي التي تفكر، ولكن العالم هو الذي يشاهد ويستنتج ويقرر

فاذا اتخذنا الطب مثلاً فقد بحث الانسان في الطب وقرن بحثه بأمراض الانسان والحيوان، وغيرّ وبدَّل في النظريات ليصل الى دفع الامراض وتخفيف ويلاتها . ولو تتبع الانسان النظريات الطبية من مبدأها الى الآن لوجد اننا الآن بعيدون كل البعد عن كثير من النظريات الاولى بل ذهبنا الى أبعد من ذلك ونظرنا اليها كأنها خرافات — ويجب ألاّ نحتقر واضعيها لانها كانت اول درجة من درجات السلم ارتقينا منها ثم صعدنا درجة فدرجة الى ان وصلنا الى ما نحن عليهِ ، ثم عدلنا البناء لهذا السلم وشيدناه على أساس أمتن وعمادة بنائية أقوم ، والفضل المتقدم

والطب كغيره من العلوم لا تكون له فائدة الاّ اذا عمل بهِ . وفي هذه الصناعة الشاقة يجب على الطبيب الماهر ان يربط ما يشاهده من اعراض المرض باسبابه وتأثيرها في وظيفة اعضاء الجسم . خذ القلب مثلاً — فاذا ما شخص الطبيب آفة عضوية في القلب محدثة تغيراً في انسجته فلا يقف بحثه عند هذا الحد بل يجب أن يتعرف تأثير هذا المرض في وظيفة القلب، وهل القلب يؤدي وظيفته كاملةً او ناقصةً، وهل عاقهُ المرض عوقاً تامًّا او غير تام عن أدائها — وهذه النتيجة التي ينبغي أن يصل اليها الطبيب هي من أدق وأشق النقط في عملهِ لانهُ يتوقف عليها سير العلاج

ويستلزم الوصول الى هذه النتيجة فحص باقي اعضاء الجسم لارتباط الدورة الدموية بها جميعاً، كما ان من أهم ما يعنى به الطبيب فحص الدورة الدموية من قلب وشرايين وأوردة واوعية شعرية وضغط دم في حالة أمراض اعضاء الجسم الاخرى ، لان المرض وان ظهر موضعيًّا في عضوٍ ما فانهُ يؤثر في كامل بنية المريض، ولاسيما الامراض الحادة والحمية منها على

وجه الخصوص. والانسان متغير متقلب في كيفية تأثر بنيته بالامراض، ولكل فرد خواصه. وفي هذا الجو العاصف الممتلىء بالصعوبات والشذوذ ماذا يفيد العلم وماذا تفيد آلات الفحص والمعامل بدون ذكاء الطبيب وسلامة تفكيره وإصالة رأيه وكفايته ومقدرته على تطبيق العلم

خذ أبسط الامثلة : ماذا يفيد علم الجراحة اذا لم يكن عند الجراح الأنامل الموهوبة لاتقان اجراء العملية، وماذا يفيد العلم والانامل الموهوبة اذا لم يكن الجراح سريع الخاطر حنكتهُ التجارب فيقابل ما يطرأ عليه اثناء العملية من الصعوبات وتمكنهُ خبرته ان يقرر متى يقدم على اجراء العملية ومتى يحجم عن عملها — ويقاس على ذلك كله ما يسعه فكر القارىء من الاحتمالات

خذ مثلاً آخر المدرس : لا يكفي أن ينبغ طبيب في فنه ليكون أستاذاً قديراً بل هنالك مواهب ومميزات أخرى يجب أن تتوفر فيه ، منها حسن الالقاء والقدرة على التعبير بألفاظ سهلة سلسة بسيطة بليغة ، وأن يكون قادراً على المسايرة مع عقلية الطالب والامتزاج بحالته النفسية فيستعمل خبرته وتجاربه أثناء القاء الدرس فلا يكون شبه اسطوانة فونوغرافية يلقي ويعيد ما يقرأه في بطون الكتب.

ويجب أن يكون في علمه وأخلاقه وآدابه وكفايته ومواظبته مثلاً يحتذى به ليتشرب الطلبة بروحه ويأخذوا عنهُ أحسن المواهب ، هذا اذا قصد تكوين جيل صالح سليم مقدر للمسئولية ، حي الضمير ، طاهر الذمة ، فيكون المثل الاخلاقي لهم يأخذون عنهُ فلا يكون كما قال الشاعر :

خذ بقولي ولا تنظر الى عملي ينفعك قولي ولا يضررك تقصيري

بل يكون كالقدوة لهم . ولا ينهى عن خلق ويأتي مثله . وقد قال جوتيه شاعر الألمان في هذا المعنى « لا تطالب أحداً إلاّ بما تطالب بهِ نفسك أولاً »

المعلم والاستاذ والطبيب يجب أن يعدّ كل منهم عمله ومهنته كعلم وصناعة وفن ويؤدي لكل منها حقه فيزيد علمه بكثرة البحث والاطلاع ويتقن صناعته بكثرة الممارسة والتجارب لتزيد خبرته ومهارته ويتقن فنه بالدقة في القول والعمل وبث روح الاخلاص في المهنة مع العطف المشبع بروح الفن

فبالتعليم والتثقيف ومعرفة الكليات والجزئيات وقوة الملاحظة والذاكرة والأبحاث الشخصية والمشاهدة والقياس وسعة الاطلاع وحسن الاستنتاج وكثرة المرانة والتجريب يصل الطبيب الى الحكم الصحيح في أي مسألة تعرض عليه ، ويكون أسرع من غيره في استنباط الحقيقة وربط الأسباب بمسبباتها

وماذا يفيد العلم والتعليم اذا لم يكن للطبيب شخصية قوية بارزة وأخلاق متينة يقدر

بها المسئوليات التي يواجهها فيسخر العلم لفائدة الانسانية في أسمى معانيها وهي حفظ حياة أخيه الانسان والمحافظة على صحته وعافيته ومنع الامراض عنه وشفاؤه منها اذا ما انتابته .

فينبغي للطبيب أن يعتز بكرامته ويستقل برأيه دون مكابرة ولا عناد ويسمو بشخصيته فوق كل الاعتبارات، ومن هانت عليه نفسه كانت على الناس أهون

فالذكاء والنشاط وحب الاتقان والاخلاص للفن وصدق العزيمة وقوة الارادة والصبر والمثابرة والصدق صفات ملازمة للشخصيات الوثابة ، لا الشخصيات القانعة بالقليل مما تعلمت من علم أو من فن

ولا يكفي أن ننجح فيما تعلمنا ونقتصر عليه بل يجب أن نبحث ونفتح ونزيد العلوم والفنون فلا نكون عالة على الآخرين نأخذ ولا نعطي ونتعلم ولا نزيد ، إذ لا ينبغي أن يكون الانسان أنانيًا يأخذ ولا يعطي فقد قتلت الأنانية النفوس . ويجب أن نفكر في غيرنا لنعيش كلنا سعداء

الأنانية تورث الكبرياء والغيرة والحسد والاستئثار بالخير والايثار يورث التواضع والغبطة والمحبة وتعميم النفع والخير والعلم بدون الأخلاق المتينة جسد بلا روح

رحم الله ( شوقي ) حيث قال :

صلاح أمرك للاخلاق مرجعهُ  فقوّم النفس بالأخلاق تستقم

والنفس من خيرها في خير عافية  والنفس من شرها في مرتع وخم

ورجال العلم والمهن والادارة والصناعة والتشريع وأمثالهم ، والاطباء على الخصوص ، ان أساءوا استعمال فنهم يضرون أكثر مما ينفعون، ويتمثل اذن مريضهم بقول من قال

تداويت من داءٍ بداءٍ  واقتل ما أعلك ما شفاكا

الطب والرحمة متلازمان ولذا ندخل الطب في شؤون المرضى الاجتماعية أكثر من غيره من المهن ، وهو علم شاق متعب صعب ، ولكنه كله رحمة وعطف، به كثير من التضحية ونكران الذات

واذا كان فن من الفنون خليقاً ان تمارسه الملائكة او رجال الدين فهو صناعة الطب، ولذا يسمي الناس الأطباءَ ملائكة الرحمة ورسل الانسانية . ولو رجعنا للتاريخ لوجدنا من القرون الوسطى وما قبلها من العصر المسيحي ان كثيرين من الرهبان كانوا يتولون التطبيب وكانت الأديرة في اوربة ملجأ للمرضى. ولا غرابة في ذلك فان رجال كل دين يرون من التدين السير على خطوات رسلهم وأنبيائهم، وقد أتى المسيح عليه السلام بمعجزات طبية عديدة وحث على الرحمة والمحبة والسلام ، فمن المعقول اذن ان يسير الرهبان والمتدينون في طريق التطبيب والعناية بالمرضى لما في ذلك من رحمة وحنان وعطف على الفقراء والضعفاء والبائسين

وكتب تاريخ الطب حافلة بما يثبت ذلك ، ومع انتشار العلم والحضارة الحديثة أخذت المستشفيات ومدارس الطب تنفصل شيئاً فشيئاً عن أماكن العبادة الى انصار أغلبها معاهد علمانية، ولا يزال بعضها الى الآن دينية أو شبه دينية — ويروي لنا التاريخ ان أول مستشفى شيد في انجلترة شيده سنة ١٠٨٤ رئيس الاساقفة لانكفران Lane franc وسماه مستشفى سنت جون St. John كما ان بها مستشفيات اخرى شيدها في أول أمرها رجال الدين

وفي العهد الأخير زاد الاهتمام بشؤون المرضى الاجتماعية واهتمت الملكة فكتوريا بهذه الناحية غاية الاهتمام واقتفى أثرها من جئن بعدها من الملكات وساعدن وعضدن المشروعات التي تؤدي الى تحسين شؤون المرضى الاجتماعية ونجحت أعمال البر والاحسان التي من هذا القبيل في انجلترة بفضل اهتمامهن بها وغيرتهن عليها وتشجيعهن لها

ويجمع المال لهذه الجمعيات عن طريق الهبات والتبرعات والاشتراكات وجمع النقود في ايام معلومات . ويدير هذه الجمعيات هيئات منظمة ،للسيدات وللاطباء فيها أكبر نصيب، لأن السيدات بغريزتهن ذوات نفوس شفيقة رحيمة ، والاطباء بحكم صناعتهم ذوو شفقة ورحمة ومعرفة بمواطن البؤس والشقاء ، فهم المرشدون الهادون لهذه الجمعيات ولهم أكبر نصيب في تنفيذ اغراضها ، فالطبيب بحكم صناعته يتصل بجميع الطبقات : الفقير والمتوسط والغني ، ويراهم عند بؤسهم ومرضهم وحاجتهم وضعفهم ، فهو عليم خبير وهو أقدر الناس على ارشاد الأغنياء والسلطات الى وجوه البر المختلفة والى أفضل ما يعمل لتخفيف الضراء عن الانسانية

وهكذا صدق قول جلادستون السياسي الانجليزي الخطير « سيأتي الوقت الذي يكون فيه الأطباء مرشدي الأمم » . وليست رسالة الأطباء في هذا الجيل كما كانت عليه في العصور الخالية مقصورة على علاج الفرد ومنع المرض وتخفيف آلامه وويلاته عن الأفراد بل اتسعت وانفسح أمامها المجال وأصبح طب الفرد وطب الجماعة وطب الوقاية والعلاج وشؤون المرضى الاجتماعية داخلة في دائرته ، وتفرع الطب الى فروع عديدة . ومن النصائح التي ذكرها الدكتور يوسف مراد في كتابه شفاء النفس الوصية الآتية ، اذكرها لأنها كأنما خصصت للاطباء « لا يمكن ان تكمل شخصيتك الا اذا شعرت فعلاً بأنك عضو عامل في مجتمع تسعى دائماً لخدمته مهما كانت طبيعة عملك — دعم الأواصر التي تربطك بأفراد اسرتك ومهنتك وقريتك ووطنك بل بأفراد الانسانية جمعاء . . . . ان الأمراض النفسية لا تبعد ان تكون أمراضاً خلقية وان أساس الصحة العقلية هو في جوهره تغلب الايثار على الأنانية والتعاون على المنافسة والتسامح على الحقد والبغضاء »

لايعنى الأطباء بالحكم أو بالسياسة كما يفهمها الآخرون وقلما يجادلون بل هم عمليون لهم سياسة طبية اجتماعية خاصة بهم بل تشمل تقريباً كل مرافق الحياة وتدخل في الشؤون الطبية

والاجتماعية كلها للخير وللبر وللاسعاد الانسانية ، وتخفيف ويلات الأمراض. فأول من فكر في ادخال شؤون المرضى الاجتماعية في دائرة الأطباء المستر لوك والكولونيل منتفير في سنة ١٨٩٥ في مستشفى رويال فري في لندن ، ثم نظم معهداً لتدريب السيدات على هذه الأعمال سنة ١٩٠٧ واستحق الانعام عليه بلقب سير فصار اسمه سير شارلز لوك. والحياة نضال مستمر والأطباء يجيدون النضال على طريقتهم وأسلوبهم في ذلك غير أساليب الآخرين فهي خالية من الشدة والعنف ، كلها لين ورفق لأن البيئة التي يجولون فيها تستدر الرحمة والبر والعطف

كل طبيب مثقف يتخذ مثله الأعلى من تأثير البيئة والتربية والتعليم والتوجيه الصالح فيضع نصب عينيه آمالاً يصبو اليها . والطبيب يرى مثله الأعلى أن يكون رجل علم وصناعة وفن تقوم جميعها على أسس علمية متينة وأخلاق سامية — ويهيئه عمله أن يكون رجل بر وخير وانسانية . واختلاطه بكل طبقات المجتمع ودرسه لعقلياتهم وأمزجتهم المختلفة يحتم عليه أن يكون ذا ثقافة بسيكولوجية لينجح في تأدية رسالته لأن الطب أقرب العلوم الى البسيكولوجيا العملية ، فعمله ليس مقصوراً على الافراد بل والجماعات . وكل طبيب حاز شهرة في فنهِ عنده خبرة بسيكولوجية عملية وان لم يكن قد درسها من قبل

وكذا الحال في رجال الاعمال الناجحين في أعمالهم التي تحتاج لمعاملة الافراد والهيئات والحكومات .

وقد اتسقت واجبات الطب وامتدت الى النظر في الشؤون الاجتماعية فلا مندوحة للطبيب عن أن يتصل بسلطة المجتمع الذي يعيش فيهِ ويستعين بذوي الجاه والنفوذ والمال لتتوفر له وسائل النجاح في تأدية رسالته

واذا فكرنا قليلاً نجد انهُ لولا التعاون الذي تحتمه المدنية والحضارة لما امكن أي انسان أن يؤدي عملاً مجدياً مثمراً مفيداً . فالعلوم والفنون والتعليم والتربية والصناعة والقضاء والتشريع والادارة وغير ذلك من مختلف الاعمال كلها تتعاون لحفظ كيان الحضارة. وترتقي الامم بتوثيق هذا الارتباط وتنحط بتفككه . والعامل البسيط والصانع والفلاح والخادم الى آخرهم يؤدي كل منهم وظيفة انسانية نافعة للمجتمع . قال الشاعر

فالناس للناس والدنيا مكافحة     بعض لبعض وان لم يشعروا خدمُ

وقد كان للطب اثر كبير في نجاح المشروعات العظيمة . وفي التاريخ الحديث عبرة من فتح قناة باناما اذ كان لتأثير انتشار الملاريا اثر سيء على نجاح المشروع في اول امره . وعند ما واجهت امريكة هذه المشكلة بالاحتياطات الوقائية والعلاجية عادت الصحة الى العمال وامكن اتمام هذا العمل المجيد . وقد حفظ التاريخ بين صفحاته فوز الطب وانتصاره الباهر في اتمام المشروعات الحيوية العظيمة بعد أن أخفق المال وحده في اتمامها

# الامير عمر طوسون

## كما عرفته

حديث لسعادة فؤاد أباظة باشا

مدير الجمعية الزراعية الملكية

رغب اليَّ صديقي رئيس تحرير المقتطف ان أتلقى حديثاً لهذه المجلة من فؤاد اباظة باشا عن المغفور له الامير عمر طوسون . فهو من أكثر الناس معرفة بالامير الراحل الذي كان رئيساً للجمعية الزراعية الملكية

ولقد استغرق هذا الحديث مع فؤاد باشا ثلاث جلسات ، تبينت خلالها احاطة واسعة ، وتواضعاً جميلا من جانب محدثي الكريم . وقد تفضل فأمدني بما ليس لديَّ من مؤلفات الراحل العظيم لمراجعتها في عدد آت

واني بعد ان عرضت على سعادته هذا الحديث فأقره لا يسعني الا شكره باسم المقتطف

محمد عبد الغني حسن

---

لا أدري أي النواحي عن الأمير عمر طوسون أطرق ، فهو جامع لكل خلال الخير ، ومن أية ناحية نظرت اليه وجدته عظيماً جليل القدر . فكأن الشاعر القديم عناه بقوله :—

كالبدر من حيث التفت وجدتهُ     يهدي الى عينيك نوراً ثاقبا

وقد أفاضت الصحف والمجلات الاسبوعية في وصف الأمير ما أفاضت وكانت سيرته موضوع الحديث على كل لسان . ونقل الأديب في كل سامر . فكان رحمه الله الحديث الحسن لكل واع ، والكلمة الطيبة في فم كل متكلم . وما كذب القائل : —

وانما المرء حديث بعدهُ     فكن حديثاً حسناً لمن وعى

وهنا قلت لمحدثي . وما أصدق الشاعر حين قال :

تدول أحاديث الرجال وتنقضي     ويبقى حديث الفضل والحسناتِ

***

ولقد وُصفَ رجلٌ فقيل فيه « فُتّش عن تجربة » فأنا محدثك اليوم عن الأمير حديث المجرب لهُ ، وقاصٌّ عليك بعض ما رأيتُ منهُ في الجمعية الزراعية التي تشرفتْ برياسته ، وخلت اليوم من مكانه ومكانته . وهو مكان كان رحمه الله فيه ملء السمع والبصر . فقد نزل من بين أعضائها منزلة الاعزاز والتكريم والحب . وتلك منازل يهبها الله لمن يكل اليه الأمر

الكبير والشأن الخطير . وكان حضوره في جلسات الجمعية سبباً الى مبادرة الاعضاء للاجتماع. فكأن بينه وبينهم دوافع وجواذب . والآن وقد انفضَّ منه المجلس ، وتعطل النديّ . إلاّ أن روحه لا تزال مرفرفة ، وحماسته للجمعية لا تزال ماثلة ، تستمد منها المضي الى غاياتها ، والاستمرار على تحقيق أهدافها . ولا أذكر أن جلسة واحدة شهدها الأمير فتأجلت لعدم اكتمال العدد القانوني

ولعلك تسألني عن السر في تلك المكانة التي أُنزلها الامير بيننا . وليس في المسألة سرٌّ أذيعه ، ولكنها فضيلة حباه الله بها . وأرى من الوفاء لهُ أن أنشرها . ولم تكن تلك الفضيلة مطوية حتى تنشر ، أو مكتومة حتى تذاع . ولكنا نحن الذين اتصلنا به واقتربنا منه عرفناها له وأكبرناها فيه . ويسرني اليوم أن تذيعها بوساطة « المقتطف » على الذين لم يتحْ لهم أن يعرفوها بأنفسهم أو يشهدوها بأعينهم

لقد خلق الأمير بيننا جوًّا يتجلى فيه الحب لشخصه . وكان حبًّا يكتنفه الاجلال ويحيط به الاحترام . وكان على بعد منزلته دانياً ، وعلى جلال قدره متواضعاً

***

لقد أحببنا الأمير لأنهُ كان منا وكنا منهُ . وكانت تنزل النازلة بأحدنا فيجد عند الأمير حسن العزاء وجمال المواساة ... وكان يحل السرور بأحدنا فيجد عند الأمير لطف المشاركة وكرم التهنئة . أليس في ذلك ما يأسر القلوب ويطوّق الأعناق ؟

وأحببنا الأمير في الجمعية لأنهُ كان يدير مناقشاتها ومباحثاتها في جو هادىء ، مما يفسح المجال للرأي الناضج والفكر المختمر . وكان شر الآراء عنده الرأي الفطير . فلا يصدر القرار إلاّ بعد البحث الطويل والرأي الحر والاقتناع بالاجماع . فاذا ما تشعبت مسالك الفكر ، واختلفت مذاهب الرأي في الأمور الهامة ، أحالها على المختصين من أعضاء المجلس ، وعلى اللجان الخاصة لدراستها دراسة تفصيلية . ثم أخذ رأي المجلس واحترم رأي الاغلبية ، ولو كانت في غير جانبه . بعد أن يطلب اثبات رأيه . ولم يستأثر سموه بذلك الحق لشخصه أو يختص به لنفسه ، بل كان ذلك حقًّا لكل عضو من الاقلية

فأنت ترى انهُ كان معنا يأخذ بالشورى ، ويدع المجال لاصطراع الأفكار ومبادلة الآراء . ولا يبت في أمر حتى تدرسه اللجنة المختصة ويعرض رأيها على المجلس لاتخاذ قرار في الامر . والواقع ان ادارة الجمعية كانت تسير — وستظل سائرة ان شاء الله — على المبادىء الدستورية والأخذ بالشورى والخضوع لرأي الاغلبية . وكان سموه لا يتعدى اختصاصات المجلس ، والمجلس لا يتعدى اختصاصات اللجان . والجميع لا يتعدّون اختصاص

المدير العام . وكل أولئك في حدود السلطة العُليا للجمعية العمومية صاحبة الرأي الأعلى في شؤون الجمعية

فكان نظاماً برلمانيًّا دقيقاً رضي عنهُ الجميع ، فاذا ما استقر الرأي على مبدأ من المبادىء كان سموه « نظاميًّا » من طراز رفيع وغرار بديع . وكأنما أشرب « النظام » في قلبه ، وخالط حبه دمه ، فلا يرضى بالعبث به أو الخروج عليه على أية صورة

ولا شك ان هذه الروح « النظامية » كان لها أثرها بين موظفي الجمعية . فاطرد بينهم النظام ، واتسق سير الاعمال . وطبيعة عمل الجمعيـة الزراعية تقتضي قيام العلاقات مع الحكومات المختلفة . وهنا يقوم عامل لا يتصل بادارة الامير ورياسته أكثر مما يتصل بمركزه وشخصيته . فقد كان لتلك الشخصية المحبوبة والذات الموهوبة مركز ممتاز محبوب وكان لذلك المركز أثره في تسيير أعمالنا . وكانت علاقاتنا بالحكومات المختلفة تقوم على أساس من حسن التفاهم وجميل التعاون

ومن هنا كان احساسنا نحن بالمصاب عظيماً ، وخطبنا في الفقيد أليما

***

هذا هو الأمير عمر طوسون في الجمعيـة ، بل تلك ناحية واحدة من نواحيه المتعددة فيها، ولو شئت أن أقص عليك الكثير من آثاره لتشعب الكلام . فله في كل زاوية منها حجر ، وفي كل بقعة أثر ، وفي كل عمل لها أحاديث وسير . ولكن المقام لا يأذن

أما الأمير خارج الجمعية ، فاسأل عنه في كل ميدان تره فيه سابقاً . فما تخلف عن شوط ولا قعد عن غاية ، ولا أحجم حيث يجب الاقدام . وكنت تراه في اليوم العصيب والأزمة المحدقة ، والشدة العارمة ثابتاً كالطود ، واضحاً كالضُّوى . صريحاً في الحق ، جهيراً بالرأي يخلص النصح ويصدق المشورة ، وبخاصة اذا اختلفت النوازع ومالت الدواعي

وما ألبس، رحمه الله، الباطل حقًّا ، ولا صوَّر الكذب صدقاً . بل كان رأيه لله وللوطن، ذلك الذي قال فيه في مقدمة أحد كتبه « هذا الوطن العزيز الذي مهما بذلنا في سبيله من جهد فلن نستطيع أن نوفيهُ شيئاً من حقوقه الواجبة »

ولم يكن في وطنيته مستبدًّا ولا مستكبراً ؛ بل كان ديمقراطيًّا شعبيًّا . ولم يفرض على الناس زعامته ، بل فرضها عليهم صدق دعوته واخلاص عقيدته . فاذا ما أشكل الأمر ، وأعضل الرأي التفت الناس الى الأمير عمر طوسون وتطلعوا اليه فلا يضن بالرأي ولا يبخل بالمشورة . وأدْلى بما ينصح بهِ الناصحُ الشفيق الذي يخلط حلو الكلام بمره ، وسهله بوعره ويحرك الاشفاق منهُ ما هو ساكنٌ من غيره

وهذه المشاركة الشعبية تظهر بجلاء في البلاغ الذي صدر عن اصحاب السمو الامراء وفيهم عمر طوسون يوم ٣ / ١ / ١٩٢٠ وفيه « جئنا نحن اولاد محمد علي لا لنشارك أمتنا في أمانيها ومقاصدها فقط ، بل لنضم صدورنا الى صدور افرادها ، ونجعل ايدينا في ايديهم حيث اننا لسنا الا روحاً واحداً ، حتى نكون جسماً لا يجبر ، وقوة لا تقهر . فنطالب بحقوق وطننا »

وكما كان معنا في الجمعية من احترام الرأي وتقدير حرية الفكر كان في مواقفه الوطنية. كما جاء في حديثه مع المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٠ « وانهُ — أي الامير — وان كان رأيه الخاص الذي يتمسك به كل التمسك هو وجوب حصول البلاد على حقوقها كاملة غير منقوصة فهو يحترم رأي الامة لانهُ رأي الجماعة التي يتحتم احترام رأيها »

فهل رأيت بعد هذا مثلاً لاحترام الرأي من رجل كان يمكنهُ أن يتخذ من شرف نسبه وجلالة قدره مسوّغاً للاستبداد بالرأي والاعتساف في الحكم ؟

وكفاه في الوطنية فخراً أنهُ هو اول من دعا الى ارسال وفد مصر الى مؤتمر فرساي في ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ للمطالبة بحقوقها . وكانت الفكرة اختمرت بادىء ذي بدء في نفسه فحادث بشأنها المرحوم محمد سعيد باشا فاقترح عليه ان يتكلم فيها مع المرحوم سعد زغلول باشا لشخصيتهِ البارزة في الهيئة الاجتماعية وفي الجمعية التشريعية . وقد ظاهر سموه بالفعل الوفد الذي سافر من أجل هذه الغاية وزوّده بماله وجاهه وآرائه

أما السودان فكان للامير همه وشغله ، فهو شديد الايمان بالعلاقة بين الشقيقين ، ولا يدع فرصة تمر من غير توطيدها . وفي كتابه ( المسألة السودانية — طبع المستقبل سنة ١٩٣٦) يعرض الأدوار التي مرت بالمسألة السودانية عرضاً تاريخيًّا وطنيًّا رائعاً

ولقد اتخذه السودانيون في مصر دعامة لهم وركناً شديداً يأوون اليه فيجدون فيه نجدة الكريم واخلاص الحميم وحصافة الحكيم ، وامتدَّ نائله الى السودان تربة وأرضاً لا دعاية وكتابة ، فعم ريفه وحضره ، وسهله ووعره . وكفاه فضلاً أن البعثتين اللتين أوفدتهما الجمعية الزراعية الى السودان سنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٣٧ كانتا من ثمار تفكيره

(الحق انهذا تواضع من فؤاد اباظه باشا . فالبعثة الاولى كانت من ثمار تفكير اباظه باشا نفسه . فعرضها على الامير فشملها سموه بعطفه وتشجيعه ، هل أغضبت فؤاد باشا لأني أذعت عنه فضلاً رأى حياؤه أن يستره ، وأبى تواضعه أن يذكره ؟ ولكن الفضل أجدر أن ينشر ، وأحق ألاّ يستر ، وقد هداني الى هذه الحقيقة كتاب « السودان » الذي أخرجته

وزارة التجارة والصناعة سنة ١٩٣٨ مطبعة مصر . وقدم له بمقدمة صاحب العزة عبد الرحمن بك فكري — عبد الغني )

***

وكان في الامير عمر طوسون نزعة دينية قوية . فهو يكره الخمر وشاربها . وقد جعل جمعية منع المسكرات بالاسكندرية تحت رياسته الشرفية وأولاها معونته . ومن مآثره انهُ اقترح على الحكومة المصرية اشتراكها في مؤتمر مكافحة المسكرات المعقود في ( انقرس )

وكثيراً ما كان يحارب الآراء الاجتماعية المتطرفة التي باعدت بين المسلمين ودينهم القويم. وهنا يتجلى حفاظه وغيرته

وما كان أشد فرحه حين يرى مسجداً أُسس على التقوى ، أومنارةً يرتفع منها الأذان باسم الله الاكبر . والمسجد الذي انشئَ في قرية ( بهتيم ) النموذجية هو من وحيه واشارته

على ان هناك في اقصى جنوبي السودان مئذنة عالية لمسجد جديد . ولو كانت تنطق الأحجار وتتكلم الديار لنطق هذا المسجد بأيادي الأمير عمر طوسون عليه

ذلك هو « مسجد جوبا » وتلك هي مئذنته . وهناك في تلك الأرض النائية وذلك المكان السحيق، يجتمع المسلمون ليولوا وجوههم شطر المسجد الحرام خمس مرات في اليوم...

ولم يكتف الأمير بتأليف لجنة لبناء « جامع جوبا » تحت رعايته بل بدأ التبرع بمائة جنيه ثم شفعها بألف وألف لانشاء مبان يستغل ريعها للانفاق على المسجد ومرتبات القائمين عليه، هذا عدا اعانات أخرى لمساجد متعددة في السودان . رحم الله الأمير لقد رفع للدين حوائط ومنائر ، والله يقول « انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر »

***

أما الأمير عمر طوسون المزارع فقد كان فلاحاً بطبعه ، مشغوفاً بالزراعة محبًّا لأصحابها. وقد وُهبَ في هذا الباب عبقريةً خاصةً غذاها بالصبر ، ونمّاها بالجهد ، وأضاف الى عقله المطبوع عقله المصنوع . فبلغ بمزارعه مبلغاً نقلها من أرض غامرة الى جنانٍ عامرة بيدين حولتا الجدب خصبا فكأنهُ الامير أبو دلف الذي مدحه الشاعر بقوله :

ولو يجوز لقال الناس كلهمُ لولا أبو دلف ما أورق الشجرُ

***

أما اهتمام الامير بالعلم فتنطق بهِ مؤلفاته ومحاضراته وأبحاثه . وكان شديد التتبع لكل كتاب يظهر ، أو بحث ينشر ، أو محاضرة تذاع . فاذا رأى موضعاً للتعليق أو الاعتراض لم يحجم عن ذلك . سواء كان الموضوع سياسيًّا أو تاريخيًّا أو اجتماعيًّا . وكان أسلوبه

في الرد والمناقشة خالياً من شوائب الكلام . فلا يقصد إلاّ الحقيقة ولا ينشد إلاّ المصلحة . وما عرفت عنهُ انهُ نال من مُناظِره أو حاول أن يحطَّ من شأنه . ولكنه كان يناظر في أدب العظيم ، وحكمة الرزين

وأروي للقراء مسألة تدل على يقظته وتتبعه لكل ما ينشر أو يقال : فلقد شك أستاذ محاضر ذات يومٍ فيما جاء بكتاب الامير « مديرية خط الاستواء » من أنَّ ملك أوغنده كان تحت حماية مصر . فاهتم الأمير بالامر . وعزَّ عليهِ أن يخرج هذا الرأي من رأس مصري . وأقنع المحاضر بالحجة والبرهان ان أوغنده كانت حقيقة تحت حماية الحكومة المصرية

أما مؤلفاته فقد ذكرتها الصحف سرْداً . ولعلكم تتناولون التعريف بها الى قرائكم في المقتطف تعريفاً يدل على موضوع كل كتاب وقيمته للحق والعلم والتاريخ ( سأفعل — ان شاء الله — في العدد المقبل في الباب المستحدث : — التعريف والتنقيب — عبد الغني )

وللامير نواحٍ أخرى كثيرة لو اتسع المقام لأطلت الحديث عنها . الاّ انني اكتفي بالأشارة الى غرامه بالرحلات والكشف والارتياد . والصحراء الغربية على الخصوص تشهد بذلك . وله على « المتحف الحربي » أيادٍ لا تنكر بين تشجيع وتوجيه واهداء . وله مشاركة طيبة في «متحف الحضارة» الذي اهتم به حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق . فقد جعل الأميرُ عمرُ الجمعية الزراعية تساهم في المشروع . وكان — سقت قبره الغوادي — مرجع اللجنة فيما يختص بقسم السودان . وكان اكثر رجالنا اطلاعاً على تاريخ مصر القديم والحديث . ولا يزال المجمع العلمي يذكر له محاضرته بالفرنسية عن فروع النيل القديمة وقد ظل ثلاث ساعات يلقيها

***

وأكبر ما كان في الأمير مروءته وانسانيته، وهمته وحيوية ضميره ، وكان أفق انسانيته فسيحاً لا يضيق بالحدود ولا ينحصر في بقعة من الارض . ولكنه امتد الى بلدان اخرى كموقفه من الحرب الطرابلسية وحرب البلقان وحرب الحبشة . فقد كان دائماً سباقاً الى النجدة سريعاً الى الندى

واذا قال الشاعر الجاهلي في مدح قومه :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم  في النائبات على ما قال برهانا

فان الامير عمر طوسون لم يكن ينتظر حتى يندب . ولكن مروءته كانت دائماً تبدأ . ومعروفه كان دائماً يبتغى . .

تلك أسمى مراتب الانسانية

# اللغة القبطية

## نشأتها وتطورها

للدكتور باهور لبيب

قبل أن نتحدث عن اللغة القبطية نشأتها وتطورها يجدر بنا أن نعرض لهـذا اللفظ ومدلوله وأصله واشتقاقـه لأن البحث عن أصل الكلمة يميط اللثام عن معـالم كثيرة تنير الطريق للباحث وتبعده عن الوقوع في الخطأ . فلفظ ( قبطي ) نسبة الى ( قبط ) وهنا نرى ياء النسبة العربية . أما كلمة ( قبط ) فهي تحريف للفظ اليوناني والروماني الذي أطلقه اليونانيون والرومانيون من بعدهم على مصر والمصريين بعـد حذف السابق ( اي ) واللاحق ( وس ) وبقيت كلمة — جبط — بالجيم المعطشة التي تنطق عادة (ق) ، لذلك كتبت الكلمة بها أي ( قبط ) بمعنى مصري . ولا شك في أن يونانية هـذا اللفظ الخـاص بمصر وشعبها لدلالة قوية على العلاقات القديمة التي كانت قائمة بين مصر واليونان فالتاريخ يحدثنا والآثار تؤيده على ان العلاقات اليونانيـة المصرية بدأت في أوائل الدولة الحديثة أي في عصر التوحيد الثالث ( ١٥٨٠ — ١٠٨٥ ) ق . م . وذلك ان بعض الفراعنة استعان بالجنود اليونانيين المرتزقين في بعض حروبهم

وأخذت هذه الصلة تنمو تدريجيـًا حتى إننا نجدها تجارية في العصر الذي سبق حكم الفرس لمصر . وبعد دخول قمبيز ملك الفرس البلاد نزح كثير من التجار اليونانيين وتبعهم عدد عظيم من علمـاء اليونان ومفكريهم الذين عنوا بدراسـة تاريخ مصر وآثارها ودينها وأخلاق اهلها ، نذكر منهم هيرودوتس المؤرخ وأفلاطون الفيلسوف وهوميروس الشاعر وارفيوس الموسيقي وغيرهم وهكذا أصبحت مصر كعبة القصاد من بلاد اليونان المختلفة من تجار وعلماء وجنود حتى ان ( بسماتيك الاول ) مؤسس الأسرة السادسة والعشرين (وأول ملك من ملوك عصر التوحيد الرابع ) منح الجاليـة اليونانية جزاء المساعدة التي قدمها له جنود اليونان بعض الاجزاء من البلاد لتكون خاصة بهم وبأسراتهم من بعدهم كالحي الخاص باليونانيين في بلدة منف وفي بلدة دفنة. ثم في عصر الملك احمس الثـاني خصصت لهم مدينة ( نوقراتيس ) وموقعها الحالي بالقرب من صفط الملوك

لذلك لا نعجب أن نرى بعد ذلك شعب مصر يرحب بقـدوم الاسكندر وبرسم كهنة آمون له ابناً لكبير آلهتهم آمون ومنحه سائر الألقاب الفرعونية الخمسة . توفى الاسكندر

وورثه البطالسة فأخذت الصلة بين مصر واليونان تقوى حتى صارت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية وقد بقيت كذلك حتى دخول العرب مصر وتعدت العلاقات الثقافية الى السياسية إذ أصبحت مصر تحت حكم اليونان مدة طويلة ( ٣٣٢ ق . م . الى ٣٠ ق . م . ) وكانت هذه المدة الطويلة كافية لتوثيق العلاقات بين الشعبين المصري واليوناني وكافيــة أيضاً لأن يلمس المصريون الفرق بين الكتابتين اليونانية والمصرية القديمة متمثلة في الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقيــة فبينما الكتابة اليونانيــة ، وان كانت من أصل مصري ، تتطور وتصبح أكثر ملاءمة للحياة في ذلك الوقت إذ بالمصرية تبقى محافظة على صورها وأشكالها القديمة المختلفة. لذلك شعر المصريون بالحاجة القصوى الى وجوب العدول عن الكتابة المصرية القديمة الى الأبجدية اليونانية التي كان المصريون قد أخذوا في استعمالها بخاصة في كتابة أسماء الأعلام. ثم قاد هذه الحركة فيما بعد العالم الاسكندري ( بونثينوس ) وتلاميذه المصريون حوالي أواخر القرن الاول وأوائل القرن الثاني للميلاد فقد نقحوا الاملاء القبطي وكتبوا اللغة في الابجدية اليونانية البالغ عدد حروفها اربعة وعشرون واضافوا اليها سبعة حروف وهي ( شاي وفاي وخاي وهوري وجنجا وكشيما وتي ) اخــذت من الديموطيقية لعدم وجود اصواتها في اليونانية . ثم اضافوا حرفاً آخر وهو ( صو ) الذي يستعمل للدلالة على العدد «٦» كما هو الحال في اليونانية. ومن حسن الحظ ان حفظ لنا التاريخ بعض الكتابات القبطية القديمة التي ترجع الى العهد الذي لم يكن قد اعترف فيه بعد بالمسيحية ديناً رسميًّا للدولة بالرغم من دخول المسيحية البلاد ايام حكم نيرون على يد القديس مرقس عام ٥٤ م

ومن أشهر هذه الكتابات البردية التي طبعهــا العــلامة ( جريفث ) [1] والنص المحفوظ بمتحف اللوفر ونشره ( ارمان )[2]. فهذان النصان يعالجان اموراً تتصل بالسحر والفلك لا علاقة لها بالمسيحية بتاتاً . ففي البردية الاولى نجد ذكراً لنجم السعد وآخر لنجم النحس كما يوجد في النصين دعاء الى اوزيريس اله الموتى وانوبيس اله الجبانة ورع وايزيس . وغير هذه الكتابات عثر في اخميم على بطاقات للمومياء يرجع تاريخها الى القرن الثاني الميلادي وبعضها مؤرخ بالعام الرابع من حكم الامبراطور هدريان وقد نشرها ( شتيندورف ) [3] . وكلمــا يتقدم بنا العهد نجد المسيحيــة تتثبت في مصر فتنهزم امامها الوثنية ويضطر الامبراطور قسطنطين الى الاعتراف بها ديناً رسميًّا له وللدولة حوالي عام

(١) F. E. L. Griffith, The old Coptic Horoscope of the Stobar Collection, Aeg. Z. 38, pp. 71—85

(٢) A. Erman, Die aeg. Beschwoerungen des grossen Pariser Zauberpaprus, Aeg. Z. 1883, p. 89

(٣) Steindorff, Aeg. Z. 1890, p. 49 : Die Mumien Etiketten

٣٢٥ م . وحوّل خلفهُ بعض المعابد المصرية القديمة الى كنائس كما اغلق الباقي منها ثم جاء الامبراطور ( جوستنيان ) فأرسل قائده ( نرسيس ) الى جزيرة الفيلة حيث قضى على البقية الباقية من عبادة ايزيس واوزوريس . وهكذا ترى المسيحية تعزز بعد ان قدمت من ابنائها الشهداء الكثيرين ايام حكم ( دوقلسيان ) حوالي عام ٢٨٤ م . فأصبحت مصر بعد ذلك معقلاً للمسيحية ووطناً للديورة والرهبنة ، واستطاع الاقباط أن يخلقوا فنًّا قبطيًّا متأثراً باليوناني حيناً وبالفرعوني حيناً آخر .

أما اللغة القبطية وآدابها فقد استمرت حيَّة حتى القرن العاشر الميلادي بدليل اننا نجد الاسقف ساويرس بن المقفع يقول ما معناه ان القلم العربي عرف عند أهل الديار المصرية كما اننا نعرف من جهة أخرى ان كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية حتى نجد في أوائل الحكم العربي لغة الدواوين القبطية أو اليونانية . وظلت اللغة القبطية اللغة الرسمية لمصر حتى عهد عبد الله أخ الوليد بن عبد الملك بن مروان . الذي أحل العربية محلها سنة ٧١٤ م . ولما كانت سنة ٩٩٧ م قام الحاكم بأمر الله بن العزيز أحد ملوك الفاطميين وأمر بابطالها لغةً حية. واللغة القبطية كغيرها من اللغات تنقسم الى لهجات وقد ظهر ذلك جليًّا عند استخدام الأبجدية اليونانيــة لاستخدام الحروف الصائتة الى جانب الصامتــة ( المتحركة والساكنة ) بخلاف الجاري في اللغات السامية التي تكتفي بالحروف الصامتة فقط . ونحن نستطيع ان نفرق بين خمس لهجات في القبطية ولا نستطيع ان نجزم بوجود أكثر من لهجتين في العصر الفرعوني . وأشهر اللهجات القبطية هي :

أولاً — البحيرية التي كانت أصلاً لهجة الاسكندرية عاصمة مصر الرسمية ، ايام اليونان والرومان ، وما جاورها في الوجه البحري . ومما زاد في انتشار هذه اللهجة انتقال بطاركة الاسكندرية الى ( بابلون ) أي الفسطاط او مصر القديمة ثم الى القاهرة واستخدامهم اللهجة البحرية كلغة رسمية للكنيسة . وما زال هذه اللهجة مستعملة الى اليوم فقط في العبـادات في الكنائس الارثوذكسية وبين قليل من الأمر ويلاحظ انها أكثر اللهجات تأثراً بالمفردات اليونانيــة لقربها من مواطن الثقافة اليونانية .

ثانياً — اللهجة الصعيدية وهي لغة أهل طيبة ( الأقصر ) ومعظم سكان الصعيد الأعلى

ثالثاً — اللهجة الأخميمية وهي خاصة بأهل اخميم وأقرب اللهجات الى المصرية القديمة وأبعدها تأثراً بمفردات اللغة اليونانية وذلك لبعدها عن الأوساط الاجنبية .

رابعاً — اللهجة الفيومية وهي لغة سكان الفيوم وما جاورها من البلدان

هذه نظرة عاجلة عرضت فيها اللغة القبطية نشأتها وتطورها كما بينت ان لفظ قبطي هو اسم يطلق على أبناء مصر مسيحيها ومسلميها ، وسأتحدث الى القراء عن بعض أدب هذه اللغة

# القوى الخلقية

## للموسيقى

لعثمان علي عسل

برينو فالتر Bruno Walter من الموسيقيين المعروفين في العالم. فقد كان رئيساً لجوقة اوبرة برلين وفينة وميونيخ . وقام بعدة رحلات الى باريس وروما والولايات المتحدة وقد نشر هذا المقال في مجلة المركير دي فرانس Mercur de France ( فبراير سنة ١٩٣٩ ) مترجماً بقلمي كوليت وجاك فيشوت . وعن هذه الترجمة نقلنا هذا المقال

ان من يلاحظ المستمعين في قاعة للموسيقى يسترعي انتباهه ظاهرة سيمائية أخاذة ذلك انهُ قبل أن يبدأ العزف ، يبدو الجمهور كأنهُ غير مكترث . ثم لا تلبث الموسيقى أن تبدأ ، فتنقل الى مملكتها هذه المخلوقات البشرية التي كانت الى هذا الحين سادرة . وهكذا تتحوّل كل الوجوه بتأثيرها ويرتسم عليها تعبير غير عادي من الانفعال والسماحة : فهذا التحوّل العام في أسارير الوجوه ، يشهد بجلاء ان عاطفة عميقة أو نفحة من الخير أخذت تلمس النفوس وذلك أن الموسيقى حيما تستحوذ على المستمعين ، بفيض أنغامها ، تثير في نفوسهم هاتفاً خلقياً يمكن التعبير عنهُ بهذه الكلمات :

« لتطرح بعيداً عنك كل ما هو مبتذل وشرير . ودع السبيل لما ينطوي عليه قلبك من أسمى النزعات وأنقاها وأكثرها حدة »

وأنني لعلى يقين من انني لا أبالغ . ألم تتهيأ الفرصة لكل انسان ، بعد أن تضطره الموسيقى الى الخلو الى نفسه ، أن يلاحظ انها تصير بعد ذلك مصدراً للسمو ؟ وهكذا نجد أنفسنا منساقين الى أن نتساءل عن القوى التي تسري خلالها تلك القوى التي لا يظهر أثرها على الحساسية الموسيقية فحسب ، بل على العاطفة الخلقية للمستمعين أيضاً . ولكن ينبغي عليّ قبل أن أتصدى لهذا البحث ، أن أتجنب سوء فهم قد يعترض القارىء . فمن الأمور التي لا تخطر على بالي ، بحث الآثار الخلقية للموسيقى باعتبارها أهم رسالة للموسيقى ، وأن أجعل منها وسيلة للتهذيب والتربية . كلا ! فالقوى الموسيقية وآثارها في عالم الأصوات هي ماهية الموسيقى الحقيقية . غير انهُ اذا تيسر لها فوق ذلك ، أن تضفي على الانسانية شيئاً من

التحسن ، مهما كان ضئيلاً ، فلنا كل الحق أن نسجد في معبد الجمال شكراً على هذا العون ، المنقطع النظير الذي تسديه للخير

واذا أردنا أن نميز هذا الهاتف الخلقي ، الذي تثيره الموسيقى في النفوس ، نجد من حسن الحظ ، شواهد أخرى غير هذه الشواهد التي لاحظناها في تغير السمات ، وان كانت هذه شواهد غنية بمعانيها . أليس في مقدورنا أن نتأمل النفس بدراسة حركاتها ، حين تؤثر فيها الموسيقى ، بدل أن نفحص سمات وجوه غريبة عنا ؟ وأيّنا لم يحس أن الضباب الذي يخيم عليه ، يكون أسرع تبدداً بفعل الموسيقى من انقشاع السحب أمام الشمس . كما انها تحرك في الوقت نفسه كل ما فينا من الخير والحب

وقد عبّر الشاعر شوبير Shober عن هذه الفكرة بوضوح ، في قصيدته عن الموسيقي أوحاها اليه شوبارت « لقد أشعلت في قلبي حبًّا ملتهباً ، وفتحت أمامي أبواب عالم أسمى » ونحن الذين نعشق الموسيقى ندين لها بهذا الانفعال ، والسمو ، ونشوة القلب ، وحالة التجلي أيضاً . وقد عرفنا كل هذه الاحوال بتجارب عديدة وجميلة

ولكن مما عسى أن تتكوّن هذه القوة الخفية ، التي توقظ فينا هذه الرغبة الشديدة في الخير ، هذا « الحب الملتهب » الذي يشير اليه شوبير ؟ هل شخصية الموسيقار الروحية السامية المتلألئة بالحب هي التي تعبر عن نفسها في موسيقاه ، أو انها تطرد أثناءها بقوة طاغية ، تدفعنا في تيارها بلا مقاومة ، الى أسمى أجواء هذه العاطفة . أو هل في طبيعة كل موسيقى وسورتها قوة تعمل في طبيعتنا الخلقية وهي مستقلة عن شخصية الموسيقار ؟ وأخيراً هل يتبدل الانسان حقيقة الى أحسن مما هو عليه بتأثير الموسيقى ؟ أو أن مآل هذا الهاتف الخلقي كمآل خطبة أنطون قديس بادوفا للأسماك التي يتحدث عنها الشعر « ما كاد الوعظ ينتهي حتى عاد كل الى طبيعته فأسماك اللوتسو ظلت لصوصاً وثعابين البحر عشاقاً ، فالخطبة ساحرة ، غير أن الأسماك كانت هي هي . أي انها ظلت كما كانت » . فهل هذا شأن الموسيقى ، وهل ينتهي الهاتف الذي توجهه للبشر ، الى ما انتهى اليه وعظ القديس انطون ؟ واذا كان هذا الهاتف التهذيبي يثير لذة واقعية ، ألا ينتهي به الأمر الى تأثير دائم ؟ واذا لم يكن الأمر كذلك ، فهل نصم قوة الموسيقى التهذيبية بالضعف ، أو نتهم الجنس البشري بالعجز والنقص ؟

ان التجارب التي تمت حتى الآن تجيب إجابة لا تؤيد كل التأييد هذا السؤال من وجهيه لأنهُ اذا كان الانسان ينزع حتماً نحو الكمال بتأثير الموسيقى ، فينبغي علينا نحن الموسيقيين ،

الذين نخضع لتأثيرها على الدوام ، أن تكون الخلاصة النهائية لأخلاق الانسانية ، لأن أمواجها المطهرة تدفعنا كل يوم وترمينا في عبابها العاصف . ومع ذلك فانني أخشى أن لا يكون الموسيقي على العموم أحسن طبعاً أو أحط خلقاً من الذين يعتون الى حرف أخرى . واذا كان بين أفذاذ الملهمين ، من لهم شخصيات سامية طاهرة أمثال باخ وبتهوفن وموزارت وشوبارت ، فانهُ يوجد من أصحاب العبقرية المبدعة ، من لا تثير حياتهم في نفوسنا اعجاباً من غير تحفظ . ففي نفوس هؤلاء المبدعين ، وهي الينابيع الأصلية للموسيقى الحقيقية ، التي تجعلنا نحس الرفعة والحماسة والصفاء ، ما يكدر صفوها من البواعث الدنيئة . كما ان حياة هؤلاء الرجال العظماء تنطوي على أعمال لا عظمة فيها ، وعواطف وضيعة

أفلا يبدو لنا بعد ذلك أن هاتف الموسيقى التهذيبي ، ليس له إلاّ آثار عابرة تعمل في النفس ، على نحو ما يعمل التيار الكهربائي في قطعة الحديد المغطسة التي تكتسب حين يتم النحاس قوة لا تلبث أن تزول حين ينقطع ، ومن ثمَّ تعود قطعة من الحديد هامدة ؟

وأنا لا أعتقد انهُ ينبغي لنا ان نضع أهمية القوة التهذيبية للموسيقى موضع الشك ، كما انني لا أرتاب أيضاً في أن الانسان على استعداد للانتفاع بها جديًّا . غير انهُ من اللائم حينئذٍ أن نجعل آمالنا متواضعة وأن نسلم بأنه ليس من المحتوم أن تقودنا الموسيقى الى الفضيلة والكمال ، كما انهُ من المحتمل أن تردنا الى حالة أحسن . وأنا مقتنع بذلك شخصيًّا . ولكي نتحقق من هذه الدعوى ، التي تفيض بالأمل ، أود أولاً ان أحلل القوى التهذيبية للموسيقى تحليلاً عميقاً ، ثم نتحدث عن نتائجها المحتملة

ومن رأيي ان قوى الموسيقى التهذيبية لهنا ثلاثة مظاهر : رسالة ، وتفسير ، ومقياس للقيم الخلقية . وانني لأجد صعوبة هائلة في توضيح النقطة الأولى : وهي كيف تبدو لي الموسيقى رسولاً من مملكة الاخلاق ؟ فهي تواري وجهها كما تواري الملائكة الصغيرة محياها بجناحين من أجنحتها في معبد الرب ومن ثم لا نستطيع ان نراها الرؤية التامة . واذا عدلنا عن هذا النهج في التشبيه ، فاننا نعجز عن ادراك ماهيتها ادراكاً عقليًّا واضحاً ، ليتسنى لنا أن نعبر عنها تعبيراً يمكن صياغته لفظيًّا . فمنذ عامين تقريباً قام شاب من المولعين بالموسيقى ، ببحث في مدينة نيويورك ، فوجه الى الموسيقيين المشهورين السؤال التالي : «ما هي الموسيقى ؟ » وقد بدا لي ان الاجابات التي كنت أعرفها ، وكذلك الردود التي تلقاها الشاب ، كانت كلها مملوءة بالمغالطات من ناحية ، وغير وافية من ناحية أخرى . ولم أرد أنا عليه لأنني أحسست العجز . غير أني كثيراً ما عاودت البحث ، منذ هذه اللحظة عن

جواب لا يكون ناقصاً كل النقص . ولم أتمكن الى هذا اليوم ان أضع تعريفاً لمعنى الموسيقى ومع ذلك فنحن جميعاً نعلم ما هي عند ما نستسلم لايحاء الاحساس لا عند ما نلجأ الى جلاء الفكر ووضوح المناقشات التي نصغي اليها ، ففي تلك اللحظة نشعر بأنهُ لا يوجد شيء يمكن أن يأتلف وأرواحنا ، ولا يكون أشد امتزاجاً بها من روح الموسيقى المليئة بالأسرار . كما نعلم جيّداً حينما نصغي الى صوت باطن ، ان ثمة قانوناً جوهريًّا يسير حركات الموسيقى التي لا نهاية لتنوعها : فالنشاز يميل الى الائتلاف لكي ينتهي الى حل . وجميع الأشكال التي يتطوّر اليها التأليف الموسيقي — مهما كان — في الزمان ينتهي بميل نحو التوفيق ، والتهدئة ، والانسجام السكوني . وهذا الميل أو هذا الاتجاه الذي ينتهي الى الهدوء ، من الاضطراب المنسجم ، هو طابع الموسيقى الغربية، وهي التي أعنيها في هذا البحث . والنشاز، متوازناً غير ثابت ، قانون طبيعي لهذه الموسيقى ، ولا يحدث فيها أي اختلال . فهي تجد نفسها مضطرة ان تتحول وتتطور ، لكي تنتهي الى حل في توافق كامل . فكل موسيقى ينبغي أن تنتهي عند هدوء التوافق الرئيسي . وليس في وسعي ان استوفي هذا البحث بتتبع تطورات النظرية الموسيقية ، ولكني أجدني مضطرًّا ان أشير بالاجمال الى ان عناصر القلق تعمل كحركات ودوافع تفضي الى الاطمئنان ، ولا يحدث هذا في الانسجام فحسب بل يحدث ايضاً في تركيب اللحن نفسه . وكذلك الحال في النشاز فانه يؤدي الى فعل مماثل غير انهُ اذا كان كل ائتلاف معناه الانتهاء عند الهدوء ففي أية قطعة من الموسيقى احتمالات كثيرة لختام مفاجىء . فاذا بدا حينئذٍ ان تطور القطعة ما زال يخضع للحركة انتهى الامر بالائتلاف الى ان يكون كالنشاز تقريباً . فالموسيقى في حاجة الى خاتمة لتركيبها عند حل سكوني لكي توكد فعل الترفيق والتهدئة

***

ان تطور الموضوع والسياق والتغمس يدعو الى هذا القلق في الانسجام ، وفي الصورة كما يؤخر ويؤجل في الحلول : لكي يتمخض في النهاية ، عن خاتمة هادئة في السياق النغمي والانسجام ، والصورة . والانفعال النفسي الذي ينشأ عن هذا التردد والتوقف ، وكذلك الآثار التي يتركها على الحساسية ، مردها كما ذكرت الى ان النشاز يميل الى الائتلاف ، واضطراب الصورة الى السكينة ، والتي لا يستطيع ان يصل اليها الاّ بتطور اللحن ولا يبلغها الاّ في النهاية

وفكرة المقام الصوتي من صميم الأفكار التي تتعلق بالنشاز والائتلاف فالتوافق

يكون نافراً او مؤتلفاً اذا اتجه نحو المقام ، او اذا بلغهُ . وهؤلاء الذين ينكرون فكرة المقام يطرحون فكرة النشاز والائتلاف . وخطأ النظرية الخارجة على نظرية المقام قائم فيما يلي :

ما دام الموسيقيون من أتباع هذه النظرية لا يعترفون بالمقام الصوتي ، فان النشاز في ألحانهم لا يحتاج الى تقدم ، ومن ثمَّ يفقد هذا النشاز معناه ، كما تنجرف موسيقاهم عن طريقها الطبيعي وتصبح صناعية متكلفة ، ويكون شأنها كشأن البذرة التي لا تحتوي على حيوية محتملة الظهور ، أي انها تظل لغة صوتية مجردة . وهذه الفكرة لا يمكن ان يعقلها ويقبلها ذوو الروح الموسيقية السليمة . لأن أصحاب هذه النظرية لا يحاولون التغلغل في أسرار القوانين الموسيقية ويستبدلون بها نظرية ذات صبغة عقلية . ولهذا من الجائز ان يبدو انتاجهم جريئاً وروحياً ، غير انهُ لا يمكن ان يكون موسيقياً . وأظن انهُ ليس من العبث ان اشير الى ان اكثر الانسجامات وأشدها اندفاعاً لا يمكن ان يكون خارجاً على المقام لأنهُ يعتمد اعتماداً مهما كان ضعيفاً على فكرة المقام . ولا ينطبق ما ذكرت الاَّ على الملحنين الذين يمارسون النظرية المعارضة للمقام الصوتي بدقة . وكذلك المحاولة التي تحول بين الموسيقى والتوافق النهائي ، فان هذه الموسيقى تنتهي الى خاتمة ليس لها منفذ ، فلا يمكن ان يقر انسان ان قطعة موسيقية تنتهي بنشاز ، فمن المستحيل ان نعتقد انها انتهت ولكنها تترك في أنفسنا أثراً بأن هناك انقطاعاً في اللحن . ومهما تحكم الملحن فانهُ يعجز أمام الارادة غير المحسوسة التي تحدو باللغة الموسيقية أن تحل النشاز في روح المقام ، وأن تنتهي بالتوافق التام

وأني لأجد نفسي ملزماً ، لكي استوفي هذا العرض أن أشير الى أن لدينا توافقين رئيسيين : توافق أكبر وتوافق أصغر . وعندي أن الاثنين ليس لهما في الخاتمة نفس القيمة الانسجامية واذا كان الثالث مؤتلف كالتوافق الاكبر من غير شك ، فالتوافق التام الأصغر يبدو لي كعنصر ضعيف نافر ، وأحسب ان ( باخ ) شعر بهذا عند ما ختم بتوافق تام أكبر قطعة مكتوبة بالتوافق الأصغر . وما دامت قوانين الموسيقى نفسها تسمح بخاتمة بالأصغر ، فعلينا ان نعترف بأن هذا النزوع الاولي نحو التوفيق يمكن ان يعبر عنه بصيغتين وإن كانت احداها لا ترضينا تماماً . والتوافق الكامل هو الانسجام الوحيد الذي يعبر عن تمام الرضى والسعادة والشعور الكامل بالراحة . وهو خالد لأنهُ عبارة عن النقطة النهائية للتأليف الموسيقي ، كما انهُ لا يدع مجالاً لالهام ما بالتغير

ويشترك المستمع بحساسيته في هذا الميل الدائم الذي ذكرناه ، وهو نزوع ينتقل من الانفعال الى الهدوء ، ثم الى السكينة النهائية المحددة . ولكن ينبغي علينا ان نميز تمييزاً دقيقاً بين ما تعبر عنه الموسيقى بذاتها وما يعبر عنه الملحن خلال الموسيقى . فماهية الموسيقى كما أشرنا هي في هذا النزوع من التنافر الى الاستقرار ، وهي تبلغ ذروتها بانتهائها بالائتلاف. وهكذا تناجينا الموسيقى بميل نحو التهدئة وان كان .هذا لا يمنع الملحن من استخدامها لكي يعبر لنا عن العذاب وسوء التفاهم والتمرد واليأس

وهذا مماثل لما يحدث في مجال آخر ، فقانون الثقل والجاذبية العامة يتحكم في المادة ، غير أن هذا لا يمنع جسماً في وزن هائل كالطائرة من الارتفاع في طبقات الجو والبقاء فيها فالتشابه تام في الحالتين : وهو في تغلب قوة الانسان على القوانين الجوهرية لعنصر من العناصر

وكما أن الادراك الصحيح العميق لقانون الجاذبية ، في حالة الطيران ، يسمح بالتحكم في هذا القانون وبالتمكن من التحليق ، كذلك تتبين بجلاء طبيعة الموسيقى الصادقة ، باستعمال القوانين التي تنظم السياق الموسيقي استعمالاً جريئاً لكي يتسنى للروح أن تعبر عن نفسها بحرية . « الى أعلى » « الى اليمين » « الى اليسار »هذه الاتجاهات التي تخضع لها الطائرة أثناء تحليقها ، على حين قانون الثقل التي تغلبت عليه يلزمها بالهبوط نحو الأرض . ان التعبير عن فيض العواطف يصاغ في لغة موسيقية ، وتكون التهدئة في هذه اللغة عبارة عن قانون أصابه شيء من التعديل . فقد يرغب الملحن في التعبير بالموسيقى عن العذاب وهذه تردد في الوقت نفسه ، همسة من الفرح يكون أثرها أقوى من رنات الملحن الأصلية . فهو يستطيع أن يردد « لا » عنيفة صاخبة ، غير أن اللغة التي يستخدمها لهذا الغرض قد تترنم « بنعم » في صوت يدرك بعناء ، ولكنهُ يكون أشد وقعاً في النفس. والسرور، كما يقول نيتشه، أعمق تغلغلاً في النفس من الألم ، وعلى هذا تكون « رسالة السرور » للموسيقى،من حيث هي موسيقى ، أشد جلجلة في النفس من الآلام العديدة التي تحاول الموسيقى أن تفسرها وفقاً لالهام الملحن. وفي هذا التجلي الشامل الذي يثيره الهناء الداخلي الناشىء من التهدئة العامة ، نجد علة أساسية للسعادة التي تحملها الموسيقى الى المستمع . فعند ما نصغي الى الموسيقى نجد أن ميلنا الشديد ورغبتنا العميقة في الانسجام بمعناه العام — يتحققان ويتأيدان ثم يهدآن . وبهذا المعنى تبدو لي الموسيقى رسالة لها قيمة خلقية عالية تحمل من عالم الأصوات الذي تغشاه الاسرار الجيل السعادة الى وجودنا الخلقي

« يتبع »

# الحيوان المنسي

للاب أنستاس ماري الكرملي

﴿ تمهيد ﴾ — نريد بالحيوان المنسيّ ذلكم الحيوان الذي لم يذكره علماؤه في مؤلفاتهم ، أقدمين كانوا أم محدثين ، إما نسياناً ، وإما اهمالاً ، واما جهلاً لحقيقته أو اسمه أو لسبب آخر لا نعرفهُ وربما ذكره بعضهم ذكراً لا يتحصل منهُ فائدة تذكر ، كقوله مثلاً : حيوان ، أو طائر ، أو حشرة ، أو سمك ، أو هامّة ، أو نحو هذه الألفاظ العامة التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع

وقد عنينا كل العناية للوصول الى نتيجة بيّنةٍ ، لمقابلة الالفاظ بما ورد من جنسها في اللغات الاجنبية ، ان كان هناك ما يشابهها أو يبيّن حقيقتها . وقد اعتمدنا في ذلك كله على معجمنا الكبير المسمى « الساعد » ، وكنا قد ابتدأنا بهِ منذ سنة ١٨٨٣ ، أي منذ نحو من ستين سنة ، ونحن لا نزال نشتغل بهِ ، إذ العمر لا يكفي ، ولو كان عمر نوح

هذا ونحن لا نراعي فيه ترتيباً ، لأننا نعالج الموضوع بموجب ما يحضرنا من اللفظ ، فننتقل من وصف دابةٍ ، الى دويّبة ، الى طائر ، الى سمكة ، الى حشرة ، إذ الغاية الأولى والقُصوى التحقيق والتدقيق ، لا الترتيب ولا التبويب ، إذ هذه الامور تأتي بعد الجمع والتأليف لا غير . وعليه نبتدىء بحثنا من الطائر الآتي ذكره .

## الصرّ والاطيش

﴿ توطئة ﴾ — ذكرنا غير مرة في الصحف والمجلات ان في لغتنا الضادية ، ألفاظاً لا يهتدى الى معرفة حقيقتها إلاّ بشق الانفس . وفي بعض الاحيان ، قد يصرف الباحث أياماً ، بل شهوراً ، لا بل سنين ، ليعرف مؤدّى الحرف الذي يبحث عن معناه ، فلا يرجع إلاّ مورقاً [1] ، أو يعود بما عاد بهِ حنين . وهذه الأوضاع تشمل ما يتعلق بالحيوان ، والطير ، والسمك ، والنبات ، والجماد . فيعرف الشيء الفلاني بقول اللغويين : حيوان ، أو

(١) يقال أورق الصائد : اذا لم يصد . وأورق الطالب : لم ينل . وأورق الغازي : لم يغنم

طائر ، أو سمكة ، أو نبات ، أو معدن ، وكل ذلك لا يفيد فائدة تهدي الباحث الى ضالته وربما كان ذلك اللفظ يتعلق بصناعة ، أو فن ، أو علم ، أو عادة ، كان ذلك معروفاً في عصر من العصور ، أو بلد من الديار العربية اللسان ، أو قبيلة من قبائل العرب ، لكنهُ لم يسجّل معناه في العهد الذي كان يعرفهُ الجميع ، فذهب أصحابهُ ، وانقرض من كان يعرف معناه ، فبقينا اليوم كمن كان في سبحات وجه الله

ومن جملة الألفاظ التي كنا نتسقّط معرفتها ، ونتصيّد معانيها في زواياها وخباياها ، ونبذل السعي للوقوف عليها ، ألفاظ جمة في علم الحيوان في مختلف أقسامه ومن جملتها : ( الاطيش ) و ( الصر ) ، فكنا نقول : ما هذا الاول ، وما هذا الثاني ؟ وما يقابلهما عند العلماء وأبناء الغرب ؟ . أما الآن فنظن أننا قد وجدنا ضالّتنا — على ما يخيل الينا — فجئنا نكاشف بها قراء المقتطف مهدين حقائق العلم الى عشاقهِ ، ليروا رأيهم ، ويكاشفونا بما يعنّ لهم ، ويفندوا قولنا ، ويصلحوا أودنا . فنقول :

﴿ الأطيش ﴾ — حاولنا أن نعرف رأي اللغويين عند تعريفهم هذا الطائر . واكبر معجم بيدنا هو تاج العروس ، فرأيناهُ يقول في مادة ( ط ي ش ) ، ما هذا نصه بحروفهِ : الاطيش طائر ، وكأنه لخفتهِ وكثرة اضطرابهِ انتهى — وفي الاوقيانوس ما نقلهُ : الاطيش زنة احمر : اسم طائر . اه — وفي لسان العرب — وهو معجم عربي فارسي ضخم في أربعة مجلدات كبيرة — ما معناه الاطيش : اسم طائر . اه — وفي حياة الحيوان الكبرى للدميري : « الاطيش طائر . قالهُ ابن سيده . اه . وقد تصفحنا أسفاراً عديدة ، فلم نجد فيها أكثر من هذا القدر . وما زاد عليهِ بعضهم هو من مختلقاتهم إذ لا يقوم على أساس قويم . وقد وجدنا نحن ما يوضح الآن معناه ايضاحاً يدفع كل شبهةٍ

﴿ كيف اهتدينا اليهِ نَبَهاً ﴾ — طالعنا في كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ج ١ في ص ١٤٤ س ١٣ هذه العبارة : « سمن بعروا ، وهي دابة بخراسان تسمنُ على التعب والشقاء — فتعجبنا من غرابة هذا الاسم ومن غرابة كتابتهِ بهذه الصورة المعيبة . وكنا قد قرأنا في سابق الأيام ان لهذه الدابة عدة أسماء ، ذكرنا منها اثنين في لغة العرب ( ٦ : ٢٢٧ ) وهما القطاسُ والخشقاء ونسينا الاسم الآخر ، الاّ اننا كنا نتذكر انهُ ثلاثي الاحرف ، وعينه عين معجمة لكنه ذهب عن ذاكرتنا ، وكان الاسم مشهوراً عند العرب في صدر الاسلام ، فقلنا في نفسنا : لا بد من الاهتداء اليه ، اذ هذه أحسن فرصة لاصلاح الخطأ والاهتداء الى الحق . فأخذنا نتصفح حياة الحيوان الكبرى

للدميري في احدى نسخه الخطية الخمس التي عندنا لاننا كنا قد عثرنا عليه في احدى تلك النسخ ، فألفينا في حاشية الصفحة ٩ بجانب كلمة الأطيش هذه العبارة :

« هو طائر يشبه الصر كل الشبه ، ويألف الجماعة من أصحابه ، ويطير دفعات ، ويألف الغياض والغابات ، ويستطيب بزر الكتان ، ويعشش على صغار الأشجار كالجوز ، والكرم ، والرتم ، والعوسج ، ونظائرها ، وهو كثير الطيش ومنه اسمه » انتهى . فتركنا الى وقت آخر البحث عن مترادف الخشقاء ، وتابعنا تحقيق الأطيش ، فظهر لنا انه المسمى بالانكليزية Linnet وان الصر هو Canary Bird ، فاصطدنا عصفورين بحجر ، كما يقول بعضهم في أمثالهم . وهذا الصيد نفسه المفيد لم يكن منا قصداً ، بل نبهاً .

٤ — ﴿ تحلية الأطيش ﴾ قال لاروس في معجمه الوسط : الأطيش المبتذل ( وبلسان العلم Linaria Cannabina مبثوث في اوربة كلها ، اللهم الا في أقصى الشمال ، فانه يرى عوضاً عنه ، نوع مجاور له ، هو الأطيش الأصفر المنقار Linaria flavirostris والأطيش المبتذل طائر حسن ، أربد ، أسمر ، ورأسه وصدره معلمان بأحمر زاه في الذكر ، الا ان هذا اللون يخضر في الطيور الأسرى ، والاناث . هذا والأطايش من آكلة الحبوب خلقة، وقد انشأ العلماء ردفي جنس لبعض الأنواع مثل الأطيش الشمالي ( واسمه العلمي Degiothus linaria ومأواه أقصى شمالي اوربة وأميركة، وأطيش البلاد المتحدة Leucostide Tephrocotis»اه

وقد أجمع علماء الطير في جميع البلدان على ان غذاء هذا الطوير أنواع البزور ولا سيما بزر الكتان ومن ذلك اشتقاق اسمه في لغاتهم Linotte أو Linnet و Linarta الذي معناه الكتاني او آكل بزر الكتان ويعشش على الجفان وصغار الأشجار . والفرنسيون يضربون المثل بطيشه فيقولون فلان أنزق من الأطيش ، وبلسانهم Tête de Linotte

﴿ الصر ﴾ — لم نجد اسم هذا الطائر في القزويني ، ولا في الدميري ، ولا في المخصص، لكنا وجدناه في القاموس ، وتاج العروس، وهذا نصهما مدمجاً بعضه ببعض[1] : « الصر » بالكسر ( طائر كالعصفور ) في قده ، ( أصفر ) اللون سمي بصوته . يقال : صر العصفور يصر : اذا صاح . وفي حديث جعفر الصادق : اطلع عليَّ بن الحسين وأنا أنتف صرًّا . قيل : هو عصفور بعينه كما ورد التصريح به في رواية أخرى » انتهى — وهي عبارة صاحب النهاية بعينها، وان لم يصرح الزبيدي بذلك ، اذ هذه عبارة ابن الأثير بنصها :

---

(١) ما كان بين هلالين هو كلام القاموس ، وما كان بلا هلالين هو نص التاج

« وفي حديث جعفر بن محمد : اطلع عليَّ [1] بن الحسين ؛ وأنا انتف صِرَّاً . هو عصفور او طائر في قده ، أصفر اللون سمي بصوته يقال : صر العصفور يصر صروراً : اذا صاح . » اه — فوجود ذكر الصر في الحديث نفيس جدًّا لأنه يعلمنا ان عرب الجاهلية كانت تعرف هذا العصفور

﴿ من أين جاءنا هذا الاسم ؟ ﴾ — — رأينـا ان الصر يسمى بالفرنسية سرن Serin وكان يسمى في المائة الرابعـة عشرة للميلاد سرينا Serena والقسم الأول من الكلمة الفرنسية اي ( سر ) يشبه اسم طائرنا بالعربية اي (صر ) ، لكن ليس هذا من ذاك، ومن أصرَّ على قوله ، فقد أظهر قلة وقوفه على أسرار الضاد . لأن ( الصر ) مأخوذ من حكاية صوته ، كما جاء في تفسير الحديث الذي نقلناه عن النهاية . اذ لهذا الطويئر البديع الحسن ، نغمات عديدة . أما النغمة التي يكررها صباح مساء فهي ِصرْرْرْرْرْرْرْ أي صاد مكسورة يتبعها راءات ساكنة يختلف عددها بين العشرة والخمسة عشرة وبالحروف الفرنجية Sirrrrrrr . فهو مسمى بحكاية احد أصواته لا غير، كما سميت طيور كثيرة بحكايات اصواتها كالقلق ؛ والكوكو ، والصرصر ، والهدهد ، الى أشباهها

﴿ تحلية الصر ﴾ — دلنا نص الحاشية المطرزة لحياة الحيوان الكبرى الخطية : ان الصر بقد الأطيش وانه يشبه الأطيش وهو Linnet بالانكليزية ، وأفادنا ابن الاثير انه بقد العصفور، أصفر اللون ، فلم يبق شك عندنا في انه المسمى بلسان العلم Serinus وبالانكليزية Canary Bird وبالفرنسية Serin . قال لاروس الوسط : « الاصرار : طيور رشيقة القوام متوسطات القد ، خضر الألوان ، تتخللها صفرة وسواد ، ويرى الأصفر في السلائل الأليفة ينفتح شيئاً فشيئاً ، ويهجم على الريش كله ، والصر الشامي Cini dryospiza مبثوث في سقي بحر الروم ، والصر الكناري D. Canaria أصغر من السابق وهو خاص بجزائر السعادة أي الجزائر الخالدات ( اي جزر كناري ) ومادبرة وهو داجن في اوربة منذ مئات من السنين . اما صر فلسطين D. aurifrons والصر القزم Metoponia pusilla فهما من الاناضول

﴿ الخلاصة ﴾ — زدنا على ما ثبت من اسماء الطير وما يقابلها في اللغات الغربية والعلمية لفظين ولا نظن ان أحداً من محققي العرب الاقدمين أو المحدثين سبقنا الى تحقيقهما وتحديد أعيانهما وان كان ثمَّ من فَرَطنا اليه، فنود ان نعرف اسمه، لنذكره بالحسنى ، ونقدم اليه عبارات الشكر والثناء

---

(١) في الاصل المطبوع : علي بن الحسين وهو خطأ

# المآصر

## في بلاد الروم والاسلام

## — ١ —

لميخائيل عواد

### تصدير

من يطالع التصانيف العربية القديمة ، وخاصة ما وضعهُ وصَّاف البلدان ومن طوَّف في الأصقاع ، يجد أموراً شتى ، تتطلب منهُ الوقوف والتريّث ، لما لها من الخطر ، وذلك استجلاءً لمعانيها التي كادت تخفى علينا الآن لبعد العهد بها ، واستيضاحاً لما كانت عليه في تلك العصور الخوالي

ونذكر اننا وقفنا منذ سنين على شيءٍ من هذا القبيل يتعلق بضرب من المطاحن المائية ، كان يطلق عليه في العصور الاسلامية اسم « العروب » فرأينا أن نستقصي ما ورد عنها في كتب الأدب والتاريخ والبلدان ، فحصل لنا من ذلك شيء وفير ، مكّننا من وضع بحث فيها ونشره (١)

وسننشر بحوثاً من هذا القبيل ، توضح ما جاء في تلك المؤلفات من مثل هذه المصطلحات والأوضاع التي كانت يومذاك أمراً مفهوماً معروفاً بين أكثر الناس ، ثم تغيّرت الأحوال نخفي معناها واستبهم مدلولها أو كاد

وها نحن أولاء نبحث في ناحيةٍ لا نظنّ ان احداً من الكتبة المحدثين قد طرق بابها ، نعني بها « المآصر » النهرية والبحرية ، فنقول :

كان مما عني بهِ أولئك البلدانيون ، الثغور المتوسّدة سواحل البحار ، فوصفوها بما أوتوه من علمٍ ومعرفة ، وخصّوا موانئها بقسط وافرٍ من هذا الوصف ، تلك الموانىء

---

(١) العروب في العراق ( الرسالة ، العدد ٣٦٠ ، ص ٨٩٤ — ٨٩٦ )

العجيبة التي كانت تعجّ بالسفن الذّاهبة والقادمة والراسية . ولا عجب من قول بعضهم في صفة ميناء أطرابلس ، بأنهُ ميناء « عجيب يحتمل الف مركب [1] » ، وان « المراكب تحطّ فيه ليلاً ونهاراً ، وترد بالتجارة على مرّ الأوقات والساعات صباحاً ومساءً ، من بلد الروم وأرض المغرب بضروب الامتعة والمطاعم [2] »

وأهم ما يسترعي الاهتمام في كثير من هاتيك الموانىء ، وجود سلسلة ضخمة من الحديد تعترض الميناء فتحده من جهة البحر ، رسخ أحد طرفيها في صخرة مرتفعة مشرفة على جانب الميناء ، وربُط طرفها الآخر بقفل محكم الصنع وُضعَ داخل برجٍ مطل على الميناء من جهته الثانية ، ويجلس في البرج المذكور شخص يطلق عليه اسم « صاحب القفل » عنده الأمر والنهي في خروج السفن من الميناء ودخولها اليه ، فيعمل على رفع السلسلة أو على خفضها

وشبيه بهذا ما كان يجري في بعض الأنهار ، غير انه كثيراً ما استبدلت السلاسل بالقلوس ، والأبراج بالسفن النهرية ، كما سيجيء تفصيله

ويطلق على هذه كلها « المآصر » ، وكانت الثغور ذات المآصر تتمتع ، من جهة البحر ، بسلام لا يضارعها فيه إلاّ تلك المدن التي تحيطها الأسوار ويحرسها الحرّاس ، فالمآصر إذن الحصن الحصين لبعض الموانىء وسدّها المنيع ، تدفع بهِ عنها كل غزو يأتيها من جهة البحر

وكانت الضرائب والعشور تجبَى عند هذه المآصر على كل مالٍ وطعامٍ وحيوان وغير ذلك مما يدخل البلاد أو يخرج منها على ما سنبيّنه في مطاوي بحثنا

## ١ — المآصر النهرية

### (ا) المآصر في كتب اللغة وأمثالها

يعتبر الصحاح للجوهري ( المتوفى سنة ٣٩٣ للهجرة ) ، من أقدم المعاجم التي ذكرت المآصر . فقد قال في مادة ( أ ص ر ) ما نصه : « أصر : أصره يأصره أصراً حبسه ، والموضع مأصَر ومأصِر ، والجمع مآصر ، والعامة تقول معاصر [3] »

ويقول الراغب الاصفهاني ( المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ) في مادة ( أ ص ر ) : « الأصر عقد

( ١ ) البلدان لليعقوبي ( ص ٣٢٧ طبعة دي خويه ، ليدن )
( ٢ ) صورة الارض — المسالك والممالك — لابن حوقل ( ص ٦٩ طبعة كريمرز ، ليدن )
(٣) الصحاح ( ١ : ٢٨٠ ، بولاق )

الشيء وحبسه بقهره ، يقال أصرتهُ فهو مأصورٌ ، والمأصَر والمأصِر محبس السفينة [١] »

وفي أساس البلاغة للزمخشري ( المتوفى سنة ٥٣٨ ﻫ ) في مادة ( أ ص ر ) ايضاً قوله : « . . . ومضى فلان الى المأصر وهو مفعلٌ من الاصر ، أو فاعلٌ من المصر بمعنى الحاجز . ولعن الله أهل المآصر أو المواصِر [٢] »

وجاء ابن منظور ( المتوفى سنة ٧١١ ﻫ ) فأفصح لنا أموراً لم يذكرها من سبقهُ من أرباب اللغة . فقد قال في مادة ( أ ص ر ) ما هذا بحروفه ، مع ترك الاجابة لنا به في موضوعنا : « . . . والمآصر هو مأخوذ من آصِرة العهد انما هو عقدٌ ليحبس به . . . ، الكسائي : أصرني الشيء يأصرني أي حبسني ، وأصرت الرجل على ذلك الأمر أي حبسته ، ابن الاعرابي : أصرتهُ عن حاجتهِ وعما أردتهُ أي حبسته ، والموضع مأصِرٌ ومأصَر ، والجمع مآصر ، والعامة تقول معاصر . . . ، والمأصر يمدُّ على طريقٍ أو نهرٍ تؤصرُ به السفن والسابلة ، أي يحبس لتؤخذ منهم العشور [٣] » اه

أما الفيروزآبادي ( المتوفى سنة ٨١٧ ﻫ ) فقد أشار اليها في مادة ( أ ص ر ) اشارة خفيفة بقوله : « والمأصرُ كمجلسٍ ومرقدٍ المحبسُ ج : مآصر ، والعامة تقول معاصر [٤]. »

وتلاه السيد مرتضى الزبيدي صاحب التاج ( المتوفى سنة ١٢٠٥ ﻫ ) فذكرها أيضاً في مادة ( أ ص ر ) ملخصاً أقوال بعض من تقدَّمهُ قال [٥] : « . . . والمأصر مفعل من الاصر أو فاعل من المصر بمعنى الحاجز . ولعن المآصر ، هكذا في الاساس ولم يفسره ، وفي اللسان : والمأصر يمد على طريقٍ أو نهرٍ يؤصر بهِ السفن والسابلة أي يحبس ليؤخذ منهم العشور . . . »

قال نصر الهوريني في تعليقٍ لهُ على ما جاء في التاج : « قوله ولعن المآصر كذا بخطهِ ، والذي في الأساس : ولعن الله أهل المآصر أو المواصر . اه . وقوله : ولم يفسره تفسيره هو ما ذكره عقبة عن اللسان »

وقد نبهنا أبو منصور موهوب الجواليقي (المتوفى سنة ٥٣٩ ﻫ ) الى خطإ شائع في لفظ المآصر ، وقع فيه أكثر اللغويين الذين تطرقوا الى ذكرها ، فقال : « . . . . وهو المأصر بكسر الصاد ، وفتحها خطأ . ومعنى المأصِر في اللغة الموضع الحابس من قولهم :

( ١ ) المفردات في غريب القرآن ( ص ١٧ ، المطبعة الميمنية ) (٢) أساس البلاغة (١ : ١٤ ، طبع دار الكتب المصرية ) (٣) لسان العرب (٥ : ٨٠ — ٨٢ ، بولاق) (٤) القاموس المحيط ( ١ : ٣٦١ ، بولاق ، الطبعة الثالثة سنة ١٣٠١ ﻫ ) (٥) تاج العروس (٣ : ١٥)

أصَرت فلاناً على الشيء آصِره أصراً اذا حبسته عليه وعطفته »[١]

وممن ذكرها أيضاً أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي (المتوفى سنة ٣٨٧ هـ)، فقد قال في تعريفها: « المأصِرُ: سلسلة أو حبل يشد معترضاً في النهر، يمنع السفن من المضي »[٢]

هذا، وقد نُسب الى المأصر نفر من الناس. قال القاضي أبو سعد عبد الكريم السمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ) في مادة (المأصري): بفتح الميم والضاد (كذا، والصواب الصاد) المكسورة بينهما الألف وفي آخرها الراء. هذه النسبة الى مأصر، وسأذكر السبب فيه. والمشهور بهذه النسبة ابو بشر يونس بن حبيب بن عبد القاهر بن عبد العزيز بن عمر ابن قيس بن أبي مسلم العجلي المصري، كان له محل عظيم، كاتبه المعتز بالله كتاباً بالنظر في امر متظلم تظلم اليه، وهو ابن أخت حبيب بن الزبير الذي روى عنه شعبة وكان ينزل المدينة وكان ابو مسلم من سبي الديلم، سباه أهل الكوفة وحَسن اسلامه فولد له قيس المأصر، ويقال انهُ مولى لعلي بن ابي طالب ثم ولاه الماصر، وكان أول من مصر (كذا والصواب مأصر) الفرات ودجلة؛ فهي قليس (كذا، والصواب قلس) المأصر. والنسبة اليه مأصري. وكان ممن خرج مع عبد الرحمن بن الاشعث امام الحجاج مع القراء، فلما هزم ابن الأشعث هرب عبد العزيز وعمر بن قيس مع أهله الى اصبهان وأقام عمر بن قيس المأصر بالكوفة . . . . . فهذه قصة قيس الماصر، وأما ابو بشر يونس بن حبيب . . . قلت توفى قبل الثلثمائة »[٣]

واختصر هذا الكلام جلال الدين السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) فقال: « الماصري: بكسر المهملة وراء الى قيس الماصر، لأنهُ أول من مصَر (كذا، والصواب مأصَر) الفرات ودجلة »[٤]

هذا جل ما وقفنا عليه بشأن المآصر في الأسفار اللغوية القديمة، وأما ما جاء عنها في المعاجم الحديثة، فلا يعدو ان يكون تكراراً لما سبق لأنه في الحقيقة منقول برمته عن هاتيك التصانيف القديمة. ومن ثمة اكتفينا بالاشارة الى ذلك دون ان نعمد الى ايراد ما جاء فيها[٥]

---

(١) تكملة اصلاح ما تغلط فيه العامة (ص ٤٨ طبع دمشق) (٢) مفاتيح العلوم (ص ٧٠ طبعة فان فلوتن في ليدن) (٣) الانساب، (الورقة ٥٠٢ ب، نشره مرجليوث، ليدن)
(٤) لب اللباب في تحرير الانساب (ص ٢٣٤ طبعة فاث، ليدن سنة ١٨٤٠)
(٥) أنظر مثلا: محيط المحيط لبطرس البستاني (١ : ٢٥)، أقرب الموارد لسعيد الشرتوني (١٢:١)، البستان لعبد الله البستاني (٤٤:١)، دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي (١ : ٣٨٤، مادة أ ص ر)، معجم لين: ج ١ ص ٦٣

## ( ب ) المآصر في كتب البلدان

ان أفصح الأنباء التي اتصلت بنا بصدد المآصر النهرية ، ما أخبرنا به ابن رسته (الذي صنف كتابه في سنة ٢٩٠ للهجرة ) في كلامه على الطريق بين بغداد والبصرة ، فقد أوضح لنا ماهيتها ، وشرح طريقة استخدامها ، ودونك ما قاله : « من بغداد الى المدائن ومن المدائن الى دير العاقول ، ومنهُ الى جرجرايا ، ومنه الى جبل ، ومنهُ الى فم الصلح ، ومنه الى واسط ومنه الى نهر بيْـن ومنه الى الصينية ومنهُ الى الحوانيت ومنه الى القطر. وهذه القرى من واسط الى هذا الموضع كلها شرقي دجلة . وبالحوانيت [1] أصحاب السيارة [2] والمأصر من قبل السلطان . والمأصر ان تشد سفينتان من أحد جانبي دجلة وسفينتان من الجانب الآخر وتشد السفن على شطين . ثم تؤخذ قلوس [3] على عرض دجلة وتشد رأسها الى السفن لئلا تجوز السفن بالليل »[4]

وقد ذكرها ابن رسته في موطن آخر من كتابه بقوله : « وبدير العاقول مسجد جامع وأسواق ومآصر ، وبها أصحاب السيارة ومآصر على دجلة »[5]

***

## ﴿ الذيل ﴾

(١) السيارة : « ضرب من السفن . وجاءت صحيحة بصورة ( شبارة ) في تاريخ الطبري في غير موطن . وجاء في معجم دي خويه ( ص ٣٠٣ ) في آخر كتاب الطبري : هي

---

(١) ذكرت الحوانيت في : المسالك والممالك لابن خرداذبة ( ص ٥٩ طبعة دي خويه في ليدن ) ، وتاريخ الطبري ( ٣ : ١٨٥٨ ، ١٨٩٩ ، ١٩٠٠ ، ١٩٠٢ ، ١٩٠٣ ، ١٩٠٦ ، ١٩١٧ ، ١٩٢٢ ، ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ ، طبع أوربة ) ، وعجائب الاقاليم السبعة لسهراب ( ص ١١٨ طبعة مثريك ، نينة = ص ٩ من طبعة لسترنج في المجلة الاسيوية البريطانية )

(٢) السيارة «انظر الذيل» رقم ١

(٣) قلوس «انظر الذيل رقم ٢ »

(٤) الاعلاق النفيسة ( ص ١٨٤ — ١٨٥ طبعة دي خويه ، ليدن )

(٥) الاعلاق النفيسة ( ص ١٨٦ )

السُّمَيريّات ، لأن مسكويه يذكر السميريات في حين غيره يقول الشبارات. وعليه فالشبارة هي الرواية الصحيحة . (انظر تكملة المعجمات العربية لدوزي) — والشبارة ضرب من السفن الصغيرة كانت في ايام الخلفاء العباسيين في دجلة والفرات . قال ابن العبري ( مختصر تاريخ الدول ص ٤٤٢ طبعة صالحاني ) : « وفيها ( سنة ٦٤٠ للهجرة ) توفي الامام المستنصر بالله الخليفة ببغداد ... ومن شدة غرامه بمدرسته المعروفة بالمستنصرية ، أمر لصقها بستاناً خاصًا له ، فقلّ ما يمضي يوم الا ويركب في السيارة ويأتي البستان يتنزه فيه ... » (عن «الساعد» — بتصرف — ، وهو معجم لا يزال مخطوطاً ، للأب أنستاس ماري الكرملي)

ونحن نضيف الى ما تقدم قول الطبري (٣ : ١١٧٤ ) : « . . . ويصير أبو سعيد ومن معهُ الى خس ، ثم الى عسكر الافشين ، فتلقاه صاحب سيارة الافشين .... »

وذكرها هلال الصابئ ( رسوم دار الخلافة ص ١٤ ، المخطوط ) في جملة أصناف السفن في دجلة سنة ٣٠٥ هـ حين قدوم رسول ملك الروم . قال : « . . . وفي دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب (و ) السيارات والزّلالات والسُّمَيريات بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة .... »

وقول الشريف الادريسي (مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ص ٣٨ طبع رومة سنة ١٥٩٢ م ) : « .... وتدخلها المراكب السيارة .... »

وذكرها غير مرة سبط بن الجوزي ( المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ) . قال في ترجمة الوزير أبي الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر رئيس الرؤساء : « .... فلما كان يوم الأربعاء رابع ذي القعدة ركب في سيارة وعبر في دجلة الى الجانب الغربي وجميع أهل بغداد من الجانبين يدعون له ويبكون عليه لأنهُ كان محسناً اليهم .... ولما صعد من السيارة عند القلعة وأرباب الدولة بين يديه بأسرهم ... » : « مرآة الزمان ٨ : ٢٢٠ حوادث سنة ٥٧٣ هـ طبعة جويت ، شيكاغو )

وقال في احداث سنة ٦١٤ هـ : « وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة ، وركب الخليفة في سيارة وخاطب الناس يتأوه لهم ويقول : لو كان هذا الماء يرد بمال أو حرب دفعته عنكم » : (مرآة الزمان ٨ : ٣٨١ )

(٢) القلوس واحدها القَلس وهو على ما في تاج العروس (مادة : ق ل س ) : حبل ضخم من ليف أو خوص . قال ابن دريد ( الجمهرة ٣ : ٤٢ : فأما القلس الذي يتكلم به أهل

العراق من هذه الحبال ) لا أدري ما صحته ، أو هو حبل غليظ من غيرها من قلوس سفن البحر ولو قال من قلوس السفن كان أصاب في حسن الاختصار فان السفن لا تكون الاَّ في البحر ويروى أيضاً القاس بالكسر وهكذا ضبطه ابن القطاع . . . . يقال قلس السفينة يقلسها اذا ربطها بالقلس . . . »

وتستخدم القلوس لأغراض شتى منها لتثبيت الجسور . قال هلال الصابىء ( تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ص ٢١ طبعة آمدروز ) : « نفقات الجسرين وثمن ما يبدل من سفنهما والقلوس وأرزاق الجسّارين من جملة ثلثمائة دينار في الشهر عشرة دنانير »

ويتخذه الملاحون لسفنهم النهرية كما ذكر ذلك القاضي التنوخي ( نشوار المحاضرة ١ : ٢٠٦ طبعة مرجليوث ) في معرض كلامه على أخبار جحظة البرمكي . قال : « .... قال : وأخبرني أنه كان معه في حَديديّ (وهو ضرب من السفن في العصر العباسي) لابن الحواري وقد حملهم الى بَلاشْكَر ليتفرجوا والحديدي يمده الملاحون بالقلوس »

واتخذت القلوس لبعض الأغراض في اقامة الافراح ، من ذلك ما ذكره صاحب التكلة في حوادث سنة ٣٥٩ هـ ( أنظر تجارب الأمم ٦ : ٢٦٩ ، حاشية ١ ) قال : « وعمل ( أبو الفضل العبّاس بن الحسين الشيرازي ) دعوةً لمعز الدولة . . . وقطع دجلة من فوق الجسر الى دار الخلافة بالقلوس الغلاظ ، وطرح الورد فيها حتى ملأها وغطا ( كذا ) دجلة . . . »

وللمحاسن أضداد ، فقد اتخذت القلوس للضرب والتعذيب والقصاص . فمن جملة أخبارها في هذا الصدد ما حكاه المسعودي ( مروج الذهب ٨ : ١٥٤ طبعة باريس ) : « . . . فضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرة على ظهره وبطنه وقفاه ورأسه وأسفل رجليه وكعابه وعضله ، حتى لم يكن فيه للضرب موضع ، وبلغ به ذلك الى حالة لا يعقل ولا ينطق . . . »

وكذلك ما ذكره مسكويه وهلال الصابىء في عرض كلامهما على ابن الفرات ( تجارب الأمم ٥ : ١٣٦ ، سنة ٣١٢ هـ ، وتحفة الأمراء ص ٥٩ ) ، قالا : « . . . فأوقع نازوك المكاره بالمحسِّن حتى تدوّد بدنه ، ولم يبق فيه فضل لضرب . وضرب ابن الفرات ثلاث دفعات بالقلوس فلم يعط شيئاً . . . »

« يتبع »

# كف القرد [1]

## قصة

لوديع فلسطين

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة ، وفي الصالون الصغير بڤيلا « لوبرنام » جلس الأب وابنهُ يلعبان الشطرنج ، وقد أسدلت الستائر وأوقدت المدفأة ، فلعب الوالد لعبة وضع فيها « الملك » في مركز حرج استوقف نظر السيدة العجوز الهادئة الجالسة الى الموقد تحيك بعض أشغال الابرة . ولما أدرك الوالد غلطته متأخراً ، أراد تضليل ابنهُ كي لا يفطن اليها ، فقال : « انصت الى الريح »

فلم يحوّل الابن عينيه عن رقعة الشطرنج ، وأجاب : « اني منصت » ثم مدّ يده وقال : « كش الملك »

وخسر الأب المباراة ، فقالت له زوجه : « عسى أن تكسب المرة القادمة يا عزيزي »

ورفع الأب — مستر هوايت — رأسه ، وألقى نظرة فاحصة تجاه الباب ، ثم هتف : « ها هوذا » ، وترك مقعده مسرعاً نحو الباب الخارجي ، وفتحه مرحباً بالضيف . فدخل الزائر ، وهو عملاق مديد القامة ، قدّمه مستر هوايت الى أسرته قائلاً : « السرجنت ماجور موريس » . فصافح الضابط أعضاء الأسرة ، ثم احتل مقعداً مجاوراً للمدفأة ، وأخذ يتأمل النار ، وأخذ الجميع يتناولون الشراب ويتسامرون . فشرب الزائر قدحاً ثم أتبعهُ بثانٍ ، وثالث ، فاتسعت عيناه ، وشرع يفيض في الحديث ويطنب وقد أخذت الأسرة الصغيرة تراقب هذا الزائر العريض المنكبين وهو يتهالك في مقعده ، راوياً ما شاهده من المناظر الوحشية وما استوقف نظره من تصرفات الشعوب العجيبة ، وما علق بذاكرته عن الحروب والأوبئة

وقال مستر هوايت ناظراً الى ضيفه مشيراً الى زوجته وابنه : « كان لما فارقنا منذ

(١) للكاتب الانجليزي و. و. جيكبز W. W. Jacobs وعنوان القصة Monkey's Paw.

اثنين وعشرين عاماً شاباً مهملاً منسيًّا ، أما الآن فقد صار شيئاً . أنظرا اليه

وعلقت مسز هوايت على كلامه بلطف : « يبدو انهُ لم يخسر كثيراً »

وقال الكهل هوايت : « كم أود أن أذهب الى الهند مثلك يا موريس كي أرسل بصري في أرجائها »

— « خير لك حيث انت » أجاب الضابط هازًّا رأسه ، ثم وضع قدحه الفارغ أمامه ، وتأوه تأوهاً خفيفاً ، ثم هزّ رأسه ثانية

— « أريد أن أشاهد الهياكل القديمة وفقراء الهند وسحرتها . . . أكمل ما كنت تحدثني عنهُ يومئذٍ يا موريس ، عن كف قردٍ أو شيء من هذا القبيل »

— « لم أقل شيئاً يستحق الانصات اليه »

واستفهمت مسز هوايت متعجبة : « كف قرد ؟ »

فأجاب الضابط محاولاً التخلص من هذا الموضوع : « انهُ موضوع يجوز أن يمت بصلة الى السحر »

فبدا الاهتمام على السامعين الثلاثة ، واشرأبّوا بأعناقهم الى الزائر ، الذي أفرغ قدح الشراب ، دون وعي في جوفه ، ثم أعاده ثانياً الى مكانهِ فملأه المضيف له

واستطرد الضابط باحثاً في جيوبه عن شيء : « اذا شاهدتها وجدت انها كفّ صغيرة عادية ، جففها الزمن »

ثم أخرجها من جيبه وقدمها لهم . فتراجعت مسز هوايت فزعاً منها ، ولكن نجلها هربرت تناولها ، فاحصاً إياها باهتمام

فأخذها مستر هوايت من ابنه ، وفحصها بدوره ، ثم وضعها على المائدة مستفهماً : « أي غرابة في هذه الكفّ الضامرة ؟ وأي عجبٍ يكتنفها ؟ »

أجاب الضابط : « انها تحمل رقية أحد الفقراء الهنود ، وهو رجل تقيّ ورع ، أراد أن يبرهن ان القدر يتحكم في حياة الناس ، وان الذين يعترضونهُ يفعلون ذلك لضرّهم ، فعقد على الكفّ تعويذة كي يستطيع ثلاثة رجال متباعدين أن ينال كل منهم ثلاث رغبات منها »

وكانت حركات الزائر شديدة التعبير ، طافحة بالتأثير ، مفعمة بالثقة ، حتى ان مستمعيه شعروا بأن مرحهم دبَّ اليه القلق ، وضحكاتهم تطرق اليها الخوف

وسأل هربرت هوايت متخابثاً : « حسناً ، ولماذا لا ترجو تحقيق ثلاث رغبات يا سيدي ؟ »

فنظر اليه الضابط نظرة فاحصة معبّرة ، وقد ابيضّ وجهه المنقبض ، وأجاب بهدوء : « لقد فعلت »

وهنا سألت مسز هوايت : « وهل نلت حقّاً ما رغبت فيه ؟ »

— « نعم » وقرع الزجاجة على أسنانه القوية

— « وهل رغب آخرُ في شيء ؟ » سألت السيدة العجوز باصرار

وكان جوابه : « الرجل الاول ، تحققت رغباته الثلاث . لستُ أعلم الرغبتين الاوليين منها ، ولكن الثالثة أدّت الى الموت ، وهكذا حصلتُ على الكفّ »

وكانت نغمة كلامه قوية جدّاً ، حتى خيّم على الجماعة صمتٌ رهيب

وقال الكهل أخيراً : « اذا كنت قد نلت مرامك منها يا موريس ، فليس بك حاجة للكفّ . لماذا تحتفظ بها ؟ »

فهزّ الضابط رأسه ، وهمهم : « كانت لديّ فكرة في بيعها ، ولكني لا أظن اني أفعل ذلك . لقد كانت سبباً لكوارث كثيرة حتى الآن . أضف الى ذلك أن الناس لن يشتروها ، لأن بعضهم يظن انها خرافة طريفة ، والذين يعتقدون أن بها قوة يريدون أن يجربوها أولاً ، وينقدوني قيمتها بعد تجربتها »

فسألت السيدة العجوز محدقة ببصرها اليه : « لو استطعت أن تحقق ثلاث رغبات أخرى ، فهل ترجوها ؟ »

فأجاب الضيف : « لست أدري . . لا أعلم »

ثم تناول الكفّ ووضعها بين سبابته وابهامه ، وقذف بها فجأة في الموقد ، فصاح هوايت صيحة حسرة ، ثم انحنى سريعاً وانتشلها من النار

فقال الضابط موكداً : « خيرٌ أن تدعها تحترق »

فأجاب هوايت : اذا كنت زاهداً فيها يا موريس ، أعطني إياها »

— « كلاّ . لقد ألقيت بها في النار . واذا احتفظت بها فلا تلمُني على ما قد يصيبك منها . ألقها في النار ثانية كرجل عاقل حكيم »

فهزّ هوايت رأسه ، وفحص غنيمته الجديدة عن قرب ثم استفهم : « وكيف تستعملها ؟ »

— « ارفعها أمامك في يمناك ، وردّد رغباتك بصوت مسموع . . . ولكني أحذرك العواقب »

فقالت مسز هوايت وهي تهمّ بمغادرة مكانها الى اعداد العشاء : « انها تذكرني بقصص الف ليلة وليلة . . ألا تظن انه يمكنك أن تطلب لي أربعة أزواج ؟ »

وأخرج زوجها الطلسم من جيبه بعد أن دسّه ، وأخذ الثلاثة يضحكون . فأمسك الضابط بيده ، وظهرت على محياه نظرة تحذير ثم قال مشدّداً : « اذا لم يكن من التمنيّ بدّ فارجُ شيئاً معقولا »

فدسّها مستر هوايت ثانية في جيبه ، ثم حوّل المقاعد وانتقل بضيفه الى المائدة . وقد أنساهم العشاء قصة الطلسم ، ثم عاد ثلاثتهم ينصتون الى حديث مغامرات الضيف في الهند

وانصرف الضيف مشيعاً بتحيات مضيفيه

ثم تساءلت مسز هوايت : « هل نقدته شيئاً عوضاً عنها يا أبتِ »

— « مبلغ زهيد ، وقد رفض قبوله ، ولكني ألححت عليه ، فقبل وقد أوصاني ثانية بأن أطوّح بالطلسم »

فقال هربرت : « سنصبح أغنياء .. مشهورين . . . سعداء . أرجُ يا أبتِ أن تصبح امبراطوراً حتى لا تكون خاضعاً لأحد »

وأخرج مستر هوايت الطلسم من جيبه وفحصه بدقة ثم قال : « لست أدري ماذا أطلب . . يبدو اني أملك كل ما يعوزني . . »

فقال هربرت : « حسناً ، أرج اذن الحصول على مائتي جنيه ، فان فيها لكفاية وريّا »

فافتر وجه الوالد عن ابتسامة ، ثم رفع الطلسم في يمينه وقد جلس ابنه الى البيانو ، وأخذ يعزف بعض النغمات المثيرة ، وردّد الوالد بوضوح : « أرجو الحصول على مائتي جنيه » وإذ ذاك صدرت من دولاب الموسيقى نغمة حيّت كلمات الوالد ، ولم تخنقها سوى صرخة مفزعة داوية صدرت من الوالد الشيخ نخفّت اليه زوجته وابنه

فصرخ : « لقد تحركت في يدي وأنا أردّد رغباتي . . . تلوّت كالأفعى » ثم نظر الى الكفّ الملقاة على بساط الحجرة نظرة استياء وانقباض »

فقال الابن ملتقطاً الطلسم وواضعاً إياه على المائدة : « أين المال ؟ انني لا أراه ، وأقسمُ بأني لن أراه »

ونظرت الزوجة الى رجلها نظرة فاحصة ثم قالت « يبدو انك واهمٌ ! »

فهزّ الرجل رأسه : « خيراً ، لم ينتج عنها ضررٌ ، ولكنها رغم ذلك صعقتني »

ثم جلسوا الى المدفأة ثانية حتى أفرغ الرجلان غليونيهما . وفي الخارج كانت الريح قد بلغت أشدها حين انتبه الكهل على صوت اقفال الباب بالدور الثاني من الڤيلاّ . ثم خيّم على الثلاثة صمت غريب رهيب ، حتى انصرف الرجل وزوجه أخيراً الى مخدعيهما

وأجاب الابن والده : أظن انك ستجد المبلغ مربوطاً على سريرك ، وستراقبك الاشباح حين تخبيء المال الحرام . .

وجلس منفرداً في الظلام محدقاً في النار التي ترسل زفراتها الأخيرة ، فتراءت له فيها أشباح ، كان آخرها رهيباً جداً حتى انهُ حدّق اليه دهشاً مذهولاً . وقد تجسّم له تجسّماً ناطقاً ، حتى صدرت منهُ ضحكة قلقة . ثم أخذ يتحسس المائدة بحثاً عن كأس من الماء كي يقذف بمحتوياته النار ، ولكن يده أصابت « كفّ القرد » ، فسحب يده سريعاً ، وأخذ يفركها على مئزرته ، وصعد الى مخدعه يسبق الريح

***

وأشرقت شمس اليوم التالي تفترش مائدة الافطار ، فضحك هربرت متهكماً مما كان يقض مضجعه الليلة البارحة . وخيّم على الغرفة جوّ غريب لم يكن لها به عهد ، ولم تألف مثيله من قبل . أما الطلسم ، فقد وضع باهمال على خزانة أدوات المائدة

وقالت مسز هوايت : « أعتقد أن جميع الجنود سواء ، ولاسيما المتقدمون في السن منهم . ما كان يحسن أن ننصت اليهِ ، إذ كيف تتحقق الرغبات في هذه الأيام ؟ وإذا تحققت ، فكيف يصيبك يا أبتِ مبلغ مائتي جنيه ؟ »

فأجاب هربرت : « قد تمطرها السماء »

وهنا قال الوالد : « لقد حدثنا موريس أن الرغبات تتحقق بطريقة طبيعية جداً حتى يمكن نسبتها الى المصادفات »

— « على كل حال ، لا تتحدثان في موضوع المال حتى أعود » قال هربرت هذا الكلام ثم انصرف تشيعه نظرات والدته حتى توارى في الطرقات . ثم عادت الى مائدة الافطار سعيدة متهللة . ودق ساعي البريد الباب ، فأسرعت اليهِ ، واذا به يحمل اليها « صكّاً » من « الخياط » فقالت معلقة على هذا : « سيجد هربرت في هذه الحادثة مادة طيبة للدعابة والتندُّر حين يعود من عمله »

فقال مستر هوايت ، وهو يصبّ بعض الشراب في قدحه : « أريد أن أقول رغم كل ذلك ان الطلسم تحرّك في يدي . وأقسم بذلك »

فقالت زوجه : « انك واهمٌ »

— « لقد قلتُ انه تحرّك في يدي ، ليس في ذلك ادنى شك ... ما الأمر ؟ »

فلم تنطق زوجه بجواب ، اذ كانت تتأمل حركات غريبة لرجل بالباب الخارجي . كان الرجل يطل من نافذة الباب بحركات قلقة ، إقدام ثم إحجام وكان يبدو أنهُ يحاول حمل نفسه على

الدخول قسراً . ووقف أمام الباب ثلاث مرات ثم ارتد ثانية . وفي المرة الرابعة ، تقدّم واضعاً يده على الباب ، وعلى حين فجأة استقرّ رأيهُ فدفع الباب وسار في الممر . وفي اللحظة عينها ، خلعت مسز هوايت مئزرة المطبخ التي كانت ترتديها ودسّتها في بطانة مقعدها ، ثم خفت الى الزائر الذي كان يبدو قلقاً مضطرباً ، وأدخلته الحجرة . فحدّق اليها خلسة ، وأصغى الى اعتذارها عن فوضى الحجرة . ثم انصتت اليه تحاول الصبر ما استطاعت امرأة على ذلك ، ولـكنهُ وقف اولاً صامتاً كالجلمود ساكناً كأبي الهول وأخيراً فتح فمه ثم انحنى والتقط قطعة من القطن كانت عالقة بسراويله : « لقد دعيت كي .... لقد أتيتُ من قبل شركة « موومبجنز » !

فصعقت السيدة العجوز وقالت وقد تقطعت أنفاسها : « هل في الأمر شيء ؟ هل حدث لهربرت أمر ؟ ما هو ؟ ما هو ... »

فتدخل زوجها : مهلاً يا سيدة . اجلسي ولا تسبقي الحوادث » ثم التفت الى الزائر قائلاً « اني واثق بأنك لا تحمل اخباراً سيئة يا سيدي »

فقال الزائر : « اني آسف .... »

فاستفهمت المرأة « هل أصابهُ شيء ؟ »

فأحنى الزائر رأسه أسفاً : « أصيب أصابة خطيرة ، ولـكنهُ لا يحسّ الماً »

فضمَّتْ السيدة يديها ثم قالت : « آه شكراً يا الهي . . . شكراً يا الهي لذلك . . . شكراً ... »

وقطعت حديثها لما تبينت أن كلام الزائر يحتمل أن يطوي شرًّا ، وخاصة عندما أبصرته واجماً وتبينت الصراع الذي يكاد يمزق أحشاءه . فانقبض صدرها ، ثم تحولت الى زوجها ووضعت يدها في يده . ومضت لحظة صمت طويل

وبعد جهد ، قال الزائر بصوت حبيس : « لقد التهمته الآلات » فأجابُ مستر هوايت مذهولاً بهول ما سمع : « التهمته الآلات ؟ » ... « نعم ... »

ثم جلس يحدقاً الى النافذة فاقداً صوابه ، وأخذ يدي زوجه بين يديه ، وضغط عليهما كما كان يفعل منذ اربعين عاماً ..

وتحوّل الى الزائر قائلاً : « لقد كان آخر من بقي لنا ... يا للقسوة ». فتنحنح الزائر ، ثم قام واتجه صوب النافذة قائلاً : « لقد رغبت اليّ الشركة أن ابلغكم تعزيتها الصادقة وتقديرها لمصابكم الفادح » ودون ان يحوّل بصره قال : « أرجو أن تعلموا أني لستُ سوى خادمها ، أؤمر فأطيع »

ولم يكن لكلامه من جواب سوى رجع الصدى . وابيضّ وجه السيدة وزاغ بصرها وانقبض صدرها . أما زوجها فقد ظهرت على محياه علامات أعادت الى الذاكرة وجه الضابط في اليوم السابق، ثم أكمل الزائر حديثه قائلاً : « وأودّ أن أقول ان الشركة لاتتحمل مسؤولية ما حدث . ولكن نظراً لخدمات نجلكما ، فهي ترغب في تعويضكم »

فأسقط مستر هوايت يدي زوجته ، ثم قفز من مقعده وحدّق الى الزائر مرتعباً ، وعبّرت شفتاه الجافتين عن السؤال : « كم ؟ »

— « مائتين من الجنيهات » أجاب الزائر

ودون ان يلتفت الى صراخ زوجته ، ابتسم الكهل ابتسامة خافتة ، ومدّ يده كالضرير ، ثم سقط على الارض كتلة فاقدة الحسّ

***

في المقبرة الكبيرة الجديدة ، على بعد ميلين ، دفن الكهلان ابنهما ثم عادا الى منزلهما غارقين في صمت ووهم رهيبين . لقد مرّت الحوادث متتابعة حتى إنهما لم يدركا صحتها اولاً وأصبحا في حالة انتظار كأنهما يتوقعان حدوث شيء آخر — شيء يستطيع أن يخفف الحمل الثقيل الذي ناءَ به قلباهما . ولكن الأيام مرّت وابتدأ انتظارهم يستحيل فشلاً — فشلُ المتقدمين في السن الذي يسمونه خطأً : « بلادة » . فكانا قلما ينطقان بكلمة ، لانهما لم يجدا ما يتحدثان عنه ، وأصبحت أيامهما طويلة مملّة

وكان بعد أسبوع من ذلك أن استيقظ الكهل فجأة في الليل ، ثم مدّ يده ووجد نفسه وحيداً في فراشه . وكانت الحجرة دامسة الظلام ، والريح تهبّ معوّلة في الخارج . فجلس في مخدعه وانصت ثم اندفع يقول : « عُدْ ! انك لا شكّ تعانى برودة الجو » فقالت الزوجة وقد استيقظت باكية : « ان ابني يضنيه البرد » . ووصل صوت نحيبها الى اذنه ، وكان الفراش دَفِئاً ، والنوم يثقل جفنيه فاستلقى ونام الى أن ايقظته صرخة مفاجئة من زوجه :

— « كفّ القرد ! » « كف القرد ! »

فقفز مستعداً وقال : « أين هي ؟ أين ؟ ما الامر ؟ » ثم أقبلت اليه من مخدعها تتخبط في عرض الحجرة وقالت : « أريدها ... هل أعدمتها ؟ »

— « انها على خزانة الفضيات . . لكن لماذا ؟ » فصاحت ضاحكة ، ثم انحنت وقبّلت

وجنتيه وقالت : « آه لقد خطرت عليّ الآن فقط.... لماذا لم تخطر على بالي من قبل ؟ . . . لماذا لم تخطر على بالك أنت ؟ ... »

— « ماذا تعنين ؟ »

« الرغبتان الاخريان ... لقد نلنا رغبة واحدة فقط » فقال الزوج : « أما كان فيما حدث عبرة لك ؟ »

فصاحت ظافرة : « كلاّ ... سنطلب طلبة أخرى . . . انزل واحضر لي الطلسم سريعاً وتمنَّ أن يعود ابننا حيًّا... »

فجلس الرجل في فراشه ، وطرح رداء نومه على قدميه المرتعشتين ثم صرخ ذاهلاً : « يا الهي ، . . هل جننتِ ؟ »

— « احضرها ... احضرها سريعاً واطلب آه .. ابني ابني »

فأشعل زوجها ثقاباً أنار به الشمعة ثم نهرها : « عودي الى فراشك . انك لا تدركين ما تقولين »

فأجابت الزوجة محمومة : « لقد نلنا رغبتنا الأولى ، فلماذا لا نرغب أخرى ؟ »

فقال الكهل : « انها مصادفة »

فصرخت زوجه مرتعشة من النشوة : « اذهب واحضرها واطلب ... »

فالتفت الكهل اليها واهتزَّ صوته : « لقد مات لعشرة أيام خلت ، أضفي الى ذلك ، ولن أقول أكثر من هذا ، انني لن أستطيع معرفته إلاّ من ثيابه . اذ كان منظره مخيفاً يوم الحادث ، فكم بالحري منظره الآن ؟ »

فصرخت الزوجة « هات الطلسم » ثم سحبته إلى الباب قائلةً : « هل تظن اني أرهب الطفل الذي أرضعت ؟ »

فنزل في الظلام الى الدور الاسفل ، وأخذ يتحسس طريقه الى خزانة أدوات المائدة ، وكان الطلسم في مكانه، ولكنّ خوفاً رهيباً خيّم عليه، إذ كيف يستطيع أن يتمنى عودة ابنه مشوهاً اليه . فهرب من الحجرة منقبضاً ، وضلَّ الطريق الى الباب ، وأخذ يتحسس طريقه حول المائدة ثم يزحف بجوار الحائط ، حتى وجد نفسهُ أخيراً في ممر صغير ، والطلسم الوبيل في يده ، والعرق يتصبب مفرقيه

ولما دخل الحجرة استحال وجه زوجه بياضاً يعبر عن بهجة الانتظار ، ولكنه افرط خوفه ، تراجع منها رعباً

فصرخت بصوت عالٍ : « اطلب طلبتك »

— « عبثٌ باطل ! »

وصرخت ثانية « اطلب »

فرفع الرجل يمينه وقال : « أطلب عودة ابني حيًّا ثانية » وعلى أثر ذلك ، سقط الطلسم الى الارض وأخذ يتأمله مرتعداً . ثم غاص مرتعشاً في مقعد مريح بينما اتجهت زوجه الى النافذة ترفع ستائرها وتطل منها بعينين ملتهبتين

***

ظل الكهل مكانه حتى شعر بالبرد ، وكان يسترق البصر الى طيف زوجته وهي تطل من النافذة . وكانت الشمعة على وشك الاحتراق ، تلقي أشعتها الراقصة الاخيرة على جانبي الغرفة وسقفها ، حتى تلاشت . وزحف الكهل ، على أثر خيبة الطلسم ، الى فراشه دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم تبعته زوجه بعد دقيقة أو اثنتين

وصمت الاثنان ، ولكنهما كانا ينصتان الى دقات ساعة الحائط وفي أثناء ذلك ، صات أحد الجرذان ، فسمع صوته واضحاً جليًّا . وإذ كان الظلام دامساً حالكاً ، نهض الرجل المحطم من فراشه جامعاً أهداب شجاعته ، وأخذ علبة الثقاب ، ثم أشعل منها عوداً وهبط الدرجات كي يحضر شمعة

وعند الدرجات الأخيرة ، انطفأ العود ، ثم انتظر كي يشعل آخر . وفي الوقت ذاته سمعت دقة هادئة على الباب الخارجي يكاد يخطئها السامع . فسقط العود من يده ، ووقف لحظة واجماً دون حراك حتى تكرر القرع على الباب . ثم التفت حوله مذعوراً وهرب مسرعاً الى حجرته مغلقاً بابها خلفه

وردد المنزل إذ ذاك صدى القرعة الثالثة

فصرخت السيدة مذهولة : « ما هذا ؟ »

فأجاب الكهل بنبرات مرتعشة : « فأر ... فأر .. لقد صادفته على الدرجات »

فجلست الزوج في فراشها تنصت ، ثم تردّد في أرجاء المنزل صوت طرقة أخرى على الباب فصاحت : « انهُ هربرت . . . . انه هربرت ! »

ثم قفزت الى الباب ، ولكن زوجها سبقها وأمسك بذراعها ضاغطاً عليها بشدة . وهمس في أذنها : « ماذا تنوين ؟ »

فصرخت وحاولت التملص : « انه ابني . . . هربرت . . . لقد نسيت انه يبعد عنا ميلين . . . لماذا تمنعني ؟ . . . دعني . . . يجب أن أفتح الباب »

وصرخ الكهل مستعطفاً مرتعشاً : «أناشدك بالسموات لا تدعيه يدخل »

فردت عليه : « انك تخشى ابنك ! . . . دعني . . . سآتي حالاً يا هربرت . . . هأنذا يا هربرت . . . »

***

وسمعت دقة ، ثم أخرى . وإذ ذاك أفلتت الزوجة من زوجها ، وتبعها هذا الى أول الدرجات مستعطفاً وهي ماضية عنهُ كالسهم ، تنهب الدرجات نهباً وتطويها طيًّا . وسمع مستر هوايت صوت مزلاج الباب السفلي وهو يدفع ، ثم نادته زوجه : « الرتاج العلوي .. اسرع إليّ . . . انهُ شديد الارتفاع »

ولكن زوجها كان جاثياً على الأرض يرسل بيديه عليها بحثاً عن الطلسم . آه لو كان يجده قبل أن تستطيع زوجه فتح الباب . وردد الباب صوت طرقة واضحة . ثم سمع الزوج صوت امرأته وهي تستعين بأحد المقاعد في فتح الرتاج العلوي . ثم سمع صوت المزلاج وهي تديره من مكانه . وفي تلك اللحظة عينها عثر على « كف القرد »، وبحركة جنونية ردد طلبته الثالثة والأخيرة

وفجأة خمدت الطرقات رغم أن صداها كان لا يزال يتجاوب في أرجاء المنزل . ثم سمع الزوج صوت المقعد تسحبه زوجته الى الخلف ، وفتح الباب . فصعدت اليه نسمة باردة حملت اليه نحيب زوجته ، نحيب الأسى والاستياء ، فشجعه ذلك على ان يسرع الى جوارها وأن يتقدما الى الباب الخارجي

وفي الجهة المقابلة ،كان ضوء المصباح يتراقص فيضيء طريقاً هادئاً مقفرا .

# الدين والفلسفة

## الخصومة بينهما في المغرب

لمحمد يوسف موسى

« بعد ان تكلمنا في الكلمة الثانية على مظاهر الخصومة بين الدين والفلسفة في المشرق الاسلامي ، نتكلم اليوم على مظاهر هذه الخصومة في المغرب »

نستطيع القول بأن المملكة الاسلامية في المغرب والأندلس ، وقد تعاقبت عليها دول مختلفة ، كانت مصداقاً لبعض قوانين ابن خلدون الاجتماعية . ذلك بأن هذا الفيلسوف الاجتماعي استقرأ الاطوار التي تمر بها الأمة من الامم ، من لدن قيامها الى انقراضها ، وجعل الطور الثاني هو « طور الاستبداد ، أي استبداد الأمير بقومه والانفراد دونهم بالملك ، وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة ، ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معنيًّا باصطناع الرجال واتخاذ الموالي والأنصار »[1] كما يقرر في موضع آخر « ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة ، وأن السبب في ذلك انهُ متى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت عنهُ الى ما وراء المعاش من التصرف في حاجة الانسان وهي العلوم والصنائع »[2]

من أجل ذلك ليس عجباً أن نرى الدولة الأموية التي أسسها صقر قريش بالأندلس ، تعمد قبل كل شيء الى توطيد سلطانها فيما اقتطعته من بلاد الدولة العباسية ، ويشغلها هذا التوسع في بسط النفوذ والسلطان عن العلوم والفلسفة ، حاشا ما كان خاصًّا بكتاب الله وسنة رسوله والفقه واللغة ، وما الى ذلك من العلوم الاسلامية الاصيلة التي لا غنى عنها . ولهذا نجد صاعداً الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢ هـ يذكر « أن هذه البلاد ظلت بعد الفتح لا يعنى أهلها بشيء من العلوم إلا علوم الشريعة وعلم اللغة ، الى أن توطد الملك لبني أمية بعد عهد أهلها بالفتنة ، فتحرك ذوو الهمم لطلب العلوم »[3] . ونعتقد انهُ من الواضح ان المراد بالعلوم التي تحرك هؤلاء لطلبها العلوم، التي من جنس العلوم القديمة الفلسفية التي لم يكن للعرب إلف بها

(١) المقدمة ص ١٣٨ (٢) نفسه ص ٣٤٤ (٣) طبقات الامم ، طبع مصر ، ص ٧١

ثم كان أن أخذت العلوم الفلسفية تنشط من عقالها وتأخذ مكانتها الحقيقة بها في عهد الحكم الثاني المستنصر بالله ( ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ ) ، الذي كان له فخر افتتاح هذه الدراسات العالية وتمهيد سبلها للراغبين ، بما كان يجمع من الكتب والمؤلفات . وكان يدفع هذه الحركة العلمية للأمام ، التسامح الذي لا تكاد العصور الحديثة تعرف له نظيراً كما يقول « رينان — Renan » الفيلسوف الفرنسي المعروف « إذ كان هناك مسيحيون ويهود ومسلمون يتكلمون لغة واحدة ويتناشدون شعراً واحداً ، ويتعاونون على الدراسات العلمية والأدبية . لقد امحت كل الحواجز التي كانت تفصل الناس ، وصار الجميع يتعاونون في إقامة صرح التمدن المشترك ، كما غدت مساجد قرطبة بتلاميذها الذين يعدون بالآلاف مراكز الدراسات العلمية والفلسفية »[1]

لكن العامل السياسي ظهر — مضافاً الى عوامل أخرى — فقضى على هذه النهضة في مستهل أمرها . إذ توفى الحكم وتولى ابنه هشام المؤيد ، وكان غلاماً حدثاً ، فاستبد به وبالملك الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر ، وعمل هذا الحاجب على استمالة العامة والفقهاء فعمد الى خزائن الحكم العلمية فأفرز بمحضر من أهل العلم والدين ما فيها من كتب علوم الأوائل القديمة ما عدا الطب والحساب وأمر باعدامها : فأحرق بعضها ، وطرح بعضها في آبار القصر وهيل عليها التراب والحجارة ، وغيرت بضروب من التغايير . فعل ذلك تحبباً الى عوام الاندلس ، وتقبيحاً لمذهب الخليفة الحكم عندهم « إذ كانت تلك العلوم مهجورة عند أسلافهم ، مذمومة بألسنة رؤسائهم ، وكان كل من قرأها متهماً عندهم بالخروج عن الملة ومظنوناً به الالحاد في الشريعة »[2]

ومما يؤكد ما نراه من أن الحاجب المنصور اجترح ما اجترح مدفوعاً بعامل سياسي ، ما يذكره المقري نقلاً عن ابن سعيد ، إذ يقول بياناً لحالة فنون العلم لدى أهل الاندلس ، « ان كل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلاَّ الفلسفة والتنجيم ، فان لهما حظاً عند خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف العامة . فانهُ كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه فان زل في شبهة رجموه أو حرّقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتلهُ السلطان تقرباً للعامة . وكثيراً ما كان يأمر ملوكهم باحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت ، وبذلك تقرَّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه »[3]

---

(١) ابن رشد ومذهبه ، بالفرنسية ، ص ٤

(٢) طبقات الامم ص ٧٦ (٣) نفح الطيب ، نشر دوزي ، ج ١ ص ١٣٦

ولم يكتف المنصور بما فعل ، بل أصدر مرسوماً حرّم بهِ الاشتغال بالفلسفة فصار الذين يعنون بها يستخفون بدراساتهم ، كما صار الذين استمروا يحملون شعلة التفلسف عرضة للمحن والأرزاء. مصداق هذا حياة متفلسفي ذلك العصر ومنهم ابن باجه المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ومعاصره مالك بن وهب الأشبيلي .

بل تعدّت المحنة الفلسفة الى علم الكلام في عصر أسرة المرابطين ، فصار قبيحاً وبدعة في الدين بما وسوس بهِ بعض الفقهاء الى علي بن يوسف بن تاشفين المتوفى سنة ٥٣٧ هـ فشدد في نبذه متوعداً من عُثر عنده على شيء من كتبه حتى انه لما دخلت مؤلفات حجة الاسلام الغزالي أمر باحراقها وتوعد بسفك الدم من وجد لديه شيء منها (١)

***

وإذا تركنا أسرة المرابطين الى دولة الموحدين التي خلفتها ، نجد فيها من عُرف بتشجيع الفلاسفة ومن عمل على اضطهادهم ، حتى ان ابن رشد انكر اشتغاله بالفلسفة لما سأله أمير المؤمنين أبو يعقوب عن رأي الفلاسفة في قدم السماء ، على نصرته للفلاسفة (٢)

وبالرغم مما رأيناه من كراهة الفلسفة واضطهاد الفلاسفة والمتفلسفين بالمغرب والاندلس لايسع الباحث الاّ ان يقرر أن هذه الاضطهادات زادت الفلسفة والفكر الحر أنصاراً مستخفين تارةً ومجاهرين أخرى وكان ذلك لعوامل مختلفة

ونعتقد أنه صار من السهل الآن معرفة البواعث التي دفعت رجال الدين ، أو نفراً منهم على الأقل ، الى معاداة الفلسفة وعلم الكلام الآن في ذلك العصر . هذه البواعث قد يدخل فيها الجهل والتعصب والسياسة والحسد أحياناً ، ولكن من الحق أن نقرر أنهُ في كثير من الحالات كان الباعث على ما امتحن به الفلاسفة ومن اليهم عدم صلاحهم للنظر فيها أو انحرافهم في شيء من آرائهم عن بعض ما جاء به الدين ، إما حقّـاً وإما جهلا

وإلاّ فكيف نفسر أن المنصور أبا يوسف يعقوب ( ولي سنة ٥٨٠ هـ ) لم ير بأساً في اشتغال الحفيد أبي بكر بن زهر بالفلسفة ، وقد حرم الاشتغال بها ، لما يعلمه — كما قال — من متانة دينه وخلقه ؟ (٣) وكيف أن ابن زهر هذا أبى بشدة على اثنين من تلاميذه أن يشتغلا بشيء منها قبل أن يتقنا علوم الدين ويتعودا القيام بالشعائر الدينية ؟ (٤)

ومهما يكن من أمر البواعث العامة والخاصة التي دفعت الى اضطهاد الفلسفة والفلاسفة ، فانهُ بنكبة ابن رشد سنة ٥٩٥ هـ فقدت الفلسفة الاسلامية آخر نصير وممثل لها من المسلمين

---

(١) المعجب للمراكشي ، نشر دوزي ، ص ١٢٣ (٢) نفسه ص ١٧٤ — ١٧٥ (٣) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٦٩ (٤) نفسه ص ٦٩ — ٧٠ .

في الشرق والغرب ، وتضافرت عوامل مختلفة على اماتة روح الابتكار وسيادة روح التفكير

***

وأخيراً ، هل يبيح الدين ما كان من اضطهاد كثير من رجاله للفلسفة والفكر الحر ؟ وهل كان من الخير أن تسوء العلاقة بين رجال الدين والفلسفة ، كما رأينا ؟

١ — مهما تكن البواعث التي صدر عنها بعض رجال الدين في عدائهم للفلسفة ، ومهما تكن مكانتهم وشهرتهم في التاريخ ، فانه مما لا ريب فيه في رأينا أن الدين الاسلامي لا يبيح كل ما امتحن بهِ هؤلاء الفلاسفة ومن اليهم من اضطهاد وتنكيل . الدين الذي يأمر كتابه ألاّ نجادل أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن ، كما أمر موسى وهرون أن يلينا القول لفرعون لعلهُ يتذكر أو يخشى ، الدين الذي حث على النظر في العالم ، ظاهره وباطنه ، لنعرفه فنشكر من سخره لنا ؟ الدين الذي يقرر كتابه انهُ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ الدين الذي هذا شأنه ، لا يرضى ما صنعه رجاله بالفلسفة

نفهم أن تحترب الافكار وأن تقرع الحجة الحجة ولكن لا نفهم أن تُنتضى السيوف وتسيل الدماء لتأييد رأي قد يكون خاطئاً ! ربما كان من الفلاسفة من ركب رأسهُ ، وذهب الى ما لا يتفق وأصول الدين ، هؤلاء جزاؤهم أن يؤدبوا بأدب الشرع ، ولكن منهم من حسنت نيته فاجتهد وأصاب أو أخطأ ، فكيف يجوّز مسلم لنفسه أن يرميه بالالحاد وأن يحرّض على تعذيبه وعلى قتلهِ أحياناً

٢ — يتبين من هذا الذي قدمنا انهُ لم يكن من الخير لأحد من الطائفتين أن تسوء العلاقة بين رجال الدين ورجال الفلسفة كما رأينا . لقد حفر هذا الخلاف — بل العداء — بين الفريقين هوّة ظلت فاصلاً بينهما دهراً طويلا ، وأساء كل من المعسكرين بالآخر الظنون ، فرمى رجال الدين الفلاسفة بالالحاد ، وجازاهم هؤلاء شرّاً بشرّ فرموهم بالجمود وعدم الفهم للدين ! وكان من هذا وذاك أن حُرم الدين الانتفاعَ بجهود كثير من أبنائه المفكرين ، وان تحامى العامة الفلاسفة ، فانكمش الفكر الحر وأخلى الطريق للجهل والتقليد

ومن المؤلم أشد الألم انهُ لا يزال لذلك الموقف آثاره في هذا العصر الذي نعيش فيه إذ يمثل أحد المعسكرين بعض رجال الأزهر ويمثل المعسكرَ الآخر بعض رجال الجامعة . وإذ ثار الخلاف واشتد في حالات كثيرة — كلنا يذكرها — على حساب العلم والتفكير ! بل لعلنا لا نخطىء اذا قلنا انهُ من السهل أن نجد ممثلين لهذين المعسكرين في الازهر نفسه

علم الله انهُ لولا داء الحسد لسلم تاريخ الاسلام مما ذخر بهِ تاريخ الأديان من اضطهاد التفكير الحر ورجاله . ذلك بأنهُ — كما يقول الشيخ محمد عبده — « اذا عدّ عادّ بعض

رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام ، وقتلتهم حماقات الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين ، فما عليه إلاّ أن ينظر في أحوالهم فيقف لأول وهلة على ان الذي أثار أولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وأن ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم وطلب تنكيلهم ، وانما نجد الحسد هو العامل الاول في ذلك كله والدين آلة لهُ ، ولهذا لا تجد مثل ذلك الأذى يقع إلاّ على قاضي قضاة كابن رشد أو وزير أو جليس خليفة أو سلطان أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلاً لايذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض لاهلاك بعضهم بعضاً ، كما يشهد به العيان ويحكي لنا التاريخ »[1]

هذا ، وقد تم ما أردنا من عرض العلاقة بين رجال الدين والفلسفة ، ومنه وضح أن الفلسفة والفلاسفة كانوا أحسن حظاً في المشرق منهم في المغرب ، فما تعليل هذا ؟

***

لا نعرف أحداً من مفكري الشرق وفلاسفته عني بتخصيص كتاب أو رسالة للتوفيق بين الدين والفلسفة ، وان كانوا عالجوا هذه المسألة في أثناء كتاباتهم ، على حين صنع ذلك فلاسفة المغرب ، كما يتبيّن من « حي بن يقظان » لابن طفيل ، ومن مؤلفات ابن رشد التي خصّصها كلها أو بعضها لهذه الغاية على ما سيجيء

ومعنى هذا انهم في الشرق لم يحسوا بالحاجة الملحة لتأمين حياتهم كما أحسها إخوانهم في المغرب ، فعملوا على اظهار أن ما يـؤمنون به هو فلسفة تتفق والدين الذي يعتقدونه حقًّا ، أي أن المفكرين في الشرق نقصهم الى حدٍّ كبير عامل هام من العوامل التي تدفع التفلسف للتوفيق بين الدين والفلسفة أول كل شيء

ذلك بأن أوائل المفكرين — كالكندي مثلاً — كانوا يعيشون في عهد المأمون ومن تلاه من الخلفاء العباسيين الذين عُرفوا ، كما قدمنا ، بحرية الفكر وتشجيع المفكرين وحمايتهم. ولما جاء المتوكل سنة ٢٣٢ هـ ، واضطهد المتكلمين والفلاسفة وحجر على أصحاب المقالات ، صادف هذا الانقلاب في السياسة العلمية ضعف سلطان العباسيين وظهور دويلات في قلب الدولة الاسلامية ، وتبع ذلك تفرق العلم وطلابه في مراكز كثيرة تابعة لأمراء يحبون العلم ويشجعون عليه[2]

---

(١) الاسلام والنصرانية ص ١٠١ — ١٠٢

(٢) هذا واضح ومعروف فانه يمكن الرجوع الى « تاريخ آداب اللغة العربية » لجورجي زيدان ج٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، و « مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي » لسيد أمير علي ص ٢٤٧ — ٢٤٩ الترجمة العربية

ومن هذه الدويلات الدولة الحمدانية بحلب والسامانية ببخارى . كما وقعت السلطة المركزية ببغداد نفسها فترة طويلة في أيدي أسر بني بويه ، المعروفين كذلك بتشجيع العلماء وفي كنفهم نبغ مسكويه

وكانت تجزئة الدولة الاسلامية على هذا النحو من صالح الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا يجدون حماة في امراء تلك الدويلات ، ومن المـثـل لهذا الفارابي وسيف الدولة الحمداني كما كان الواحد منهم إذا خشي على نفسه من أمير من الامراء انتقل الى غيره ، ومن مثل هذا ابن سينا[1] ويضاف الى ذلك كله أن الدولة العباسية كانت امشاجاً من عناصر مختلفة في الدين والجنس والثقافة مما يجعل الفلاسفة أجراً إذ يجدون وسطاً موافقاً بعض الموافقة[2]

كل تلك العوامل تجعل الفيلسوف الشرقي لا يحس الحاجة الماسة الى التوفيق اول الأمر بين الدين والفلسفة ، ولا لأن يخصص لهذا مؤلفاً من مؤلفاته . وعلى عكس هذا كان الحال في الغرب الاسلامي تحت حكم المرابطين اولاً والموحدين ثانياً ، في وسط مليء بالجهد وتعصب العامة وكثير من رجال الدين ، ضد كل أحرار الفكر وان كانوا من المتكلمين على مذهب الاشعري ! بل ضد كل عالم له رأي خاص وان كان الغزالي خصم الفلاسفة اللدود ! في وسط يبلغ التعصب فيه ضد الفكر والفلسفة درجة تجعل بعض الامراء يوقعون — ابتغاء مرضاة العامة ورجال الدين — بمن كانوا يحمونهم ويشاركونهم سراً في دراسة الفلسفة أحياناً ، كما وقع لابن باجه وابن رشد ! لاعجب اذاً إن رأينا الفلاسفة في المغرب أسوأ حظاً من اخوانهم في المشرق ، فيخصصون بعض جهودهم للتوفيق بين الدين والفلسفة ، ليأمنوا على أنفسهم ويحببوا الفلسفة للناس بالتدليل على انها والدين من منبع واحد

***

والآن ، وقد انتهينا من ماهية الدين والفلسفة ونشأتهما وبيان العلاقة بينهما في خلال العصور ، نكون وصلنا الى المرحلة الاخيرة ، وهي بيان ما كان من شعور بعض المفكرين الفلاسفة بالحاجة الماسة للتوفيق بين هاتين القوتين ، وعرض محاولاتهم هذا التوفيق في إيجاز ، ومبلغ نجاحهم فيما قصدوا اليه .

---

(١) طبقات الاطباء ج ٢ ص ٥ — ٦ ، والمستشرق « منك — Munk — » في كتابه أمشاج من الفلسفات اليهودية والعربية ص ٣٥٤ ، وكارا دي فو — Carra de Vaux » في كتابه « ابن سينا » ص ١٣٩ — ١٤٠

(٢) كتاب « نظرية ابن رشد » للمستشرق جوتيي Gauthier ص ١٦٣

# عمر الخيام

## كما أعرفه

لمحمود المنجوري

### الوثائق التاريخية التي وردت فيها أخبار عمر الخيام

وهي وثائق كتبت على وجه التحقيق قبيل السنوات الآتية : ٥٠٦ هـ و ٥٣٦ هـ و ٥٩٥ هـ و ٦١١ هـ و ٦٢٠ هـ و ٦٢٨ هـ و ٦٤٦ و ٦٧٤ هـ و ٧١٨ هـ و ٨٠٨ هـ وما بعدها وسنرى ان الخيام توفى سنة ٥٢٦ هـ

ونستطيع عند ما نستعرض وقائعها والتواريخ التي دوّنت فيها ، ان نقسّمها الى ثلاثة أقسام، وأن نخرّج منها ما يأتي :

(١) — وثائق عاصر كاتبوها الخيام نفسه ، وكانوا على وجوده شهود اثبات رأوه رأي العين

(٢) — وثائق جاءت في كتب دوّنت في القرن السادس والسابع والثامن للهجرة

(٣) — تعليقات جاءت في كتب دوّنت في القرن التاسع للهجرة وما بعده

﴿ القسم الاول ﴾ : وثائق تتناول وقائع ذكرتها شهود اثبات رأوا الخيام رأي العين

( ا ) — المقالة الثالثة من ( جهار مقالة — أربع مقالات ) لاحمد بن عمر علي النظامي العروضي السمرقندي ، خصص النظامي هذه المقالة لأخبار الفلكيين وجاء بها ما ترجمته :

« حظيت في سنة ٥٠٦ هـ في مدينة بلخ وفي قصر « أمير بوسعدجر » بخدمة الاستاذ عمر الخيام والامام المظفر الاسفزاري ، وفي اثناء الحديث سمعت حجة الحق أي عمر الخيام يقول : انني اذا مت فان قبري سيكون في مكان تهب عليه نسائم الشمال وينتثر عليه الزهر والورد مرتين في العام الواحد

وقد تملكني العجب من قوله لاني كنت أعلم ان خياماً لا يتكلم الا عن روية . وفي سنة ٥٣٠ هـ دخلت نيسابور، فبلغني ان التراب قد أخفى ذلك العظيم منذ اربع سنوات، وترك العالم السفلي يتيماً . ولما كان له حق التعليم ذهبت لزيارة قبره يوم الجمعة ومعي رجل

ليدلني على قبره ، فأخذني الرجل الى مزار (حيرة) ولما وصلنا التفت الى اليسار فألفيت قبر الخيام بجانب جدار حديقة مهجورة وقد أحاطت بقبره أشجار المشمش المنورة وكان الزهر يتساقط على قبره حتى أخفى قبره وقد ذكرتُ ما قاله لي في بلخ. فبكيت ولم أجد في هذا العالم نظيره، أسكنهُ الله تبارك وتعالى جنانه بمنهِ وكرمهِ»[1]

هذه وثيقة من أقدم الوثائق التاريخية كتبها تلميذ لعمر الخيام وقد تناول فيها اثبات ما يأتي :

انهُ قام على خدمة استاذه الخيام سنة ٥٠٦ هـ بمدينة بلخ وسمع دروسه مع دروس زميله الامام المظفر الاسفزاري — وهو فيلسوف عاصر الخيام وناظره — وانهُ عاد الى نيسابور سنة ٥٣٠ هـ فعلم ان الخيام قد مات منذ اربع سنوات ، وانهُ زار قبره براً ووفاءً باستاذه

وبتحقيق هذه الوثيقة تقع وفاة الخيام سنة ٥٢٦ هجرية

ونص هذه الوثيقة اكثر أمانة ودقة لتدوين الوقائع مما ذكرتهُ مقدمة رباعيات فتزجرلد بل انها تختلف عنها في بعض التفاصيل ، وجدير بالمستشرقين ان يستوثقوا من النصوص عند اعادة طبع رباعيات فتزجرلد وان يرجعوا الى هذه الوثيقة لتصحيح ما ورد في المقدمة

ولقد اهتم بعض المستشرقين بأنواع الزهور التي يمكن ان تنبثق مرتين في العام الواحد تأكيداً لرواية الخيام عن نفسهِ فكتب في هذا العلامة برون كما كتب العلامة وليم سمبسن (W. Simpson) الذي زار نيسابور في اكتوبر ١٨٨٤ وحجَّ الى قبر الخيام ورآه رأي العين وشاهد الزهور منتثرة من شجر يورق مرتين في العام ، وذكر المستشرق رس D. Ross ان وليم سمبسن ارسل فصيلة من هذا الشجر الى انجلترة وان العمريين غرسوها في حدائق كيو Kew—Gardins وان الغرس أفلح ونوَّر

(ب) — كتاب حكماء الاسلام للامام ظهير الدين ابي الحسن ابي القاسم البيهقي[2] فقد ذكر الخيام مرتين

---

(١) جهار مقالة، ترجمة E. G, Browne ط كمبردج ١٩٢٢ والترجمة العربية للاستاذ الصراف ص ٧ دار السلام بغداد ١٩٣١

(٢) ذكر ياقوت ان البيهقي ولد سنة ٤٥٠ هـ بخراسان وتوفي سنة ٥٣٦ هـ فهو اذن معاصر للخيام وهو منسوب الى بيهق بلدة قريبة من نيسابور وقد نقل عنه المستشرق الروسي زوكوفسكي ولكنه لم يذكر اسم هذا الكتاب

(١) فقال : دخلت على الامام — أي عمر الخيام — في خدمة والدي فسألني معنى هذا البيت في الحماسة :

ولا يرعون اكناف الهُوَينى إذا حلوا ولا أرض الهدون

فقلت له : الهوينى اسم تصغير كالثريا والحميا ومعناه انهم من عزهم وجرأتهم لا يرعون النواحي التي أباحتها المسالمة ووطأتها المهادنة ولكن النواحي المتحاماة .

ثم سألني عن أنواع الخطوط القوسية . فقلت : أنواع الخطوط القوسية اربعة منها محيط دائرة ومنها قوس اعظم من نصف دائرة . فقال لوالدي « شنشنة أعرفها من أخزم »

ولقد جاء في ترجمة المستشرق الروسي Schukovski زوكوفسكي لهذا النص [1] ان البيهقي دخل على عمر الخيام في سنة ٥٠٥ هـ وعلى هذا يكون البيهقي قد شاهد بنفسه عمر الخيام في هذه السنة

(٢) وحكى لي الامام محمد البغدادي انهُ كان يتخلل بخلال من ذهب ويتأمل في كتاب الشفاء ، ولما وصل الى فصل « الواحد والكثير » قال لي : اطلب الأصحاب لأنني أريد أن أوصي . ولما اجتمعوا أخذ يصلي لله معرضاً عن صحبه ، ولما سجد كان يقول في سجوده « اللهم اني عرفتك قدر ادراكي ، فاغفر لي فان معرفتي اياك وسيلتي اليك » ثم قضى نحبه

هذا وصف يقرره شاهد أثبت كيف قضى الخيام ساعاتهِ الاخيرة من هذه الحياة ، ولست أدري كيف يرتاب بعض الباحثين في احتمال حدوث هذه الوقائع ، فليس غريباً أن يدرك الانسان قرب أجلهِ ولا سيما اذا بلغ السن التي بلغها الخيام . وليس غريباً أن يوصي الخيام قبل وفاته وما نزال نسمع كل يوم ما يشبه هذا الحادث

على ان مؤرخاً آخر قد وصف الساعات الاخيرة للخيام ، ولكن في وضع أكثر سعة واحتمالاً ، فذكره الشهرزوري شمس الدين محمد بن محمود في كتابه « نزهة الارواح » الذي ألفهُ بين سنة ٥٨٦ و ٦١١ هـ بقوله :

وحكي انهُ كان — أي عمر — يتخلل بخلال من ذهب وكان يتأمل الالهيات من الشفاء ، فلما وصل الى فصل الواحد والكثير وضع الخلال بين الورقتين ، وقام وصلى ، وأوصى ،

---

(١) نسب زوكوفسكي هذا النص الى كتاب فردوس التواريخ لمولانا خسرو الابرقوهي المكتوب قبيل سنة ٨٠٨ هـ وقد أخذ عنه المستشرق رس في مقالات نشرها في مجلة الجمعية الملكية الاسيوية ، ابريل ١٨٩٨ ص ٣٤٩ والواقع ان الذي جاء بهذا النص هو البيهقي في كتاب حكماء الاسلام وقد نقله الاستاذ حامد الصراف عن نسخة مصورة موجودة بالمجمع العربي بدمشق ظفر بها العلامة محمد كردعلي في أوروبة ونقلها مصورة هدية الى مجمع دمشق ص ٧ : الصراف ط. دار السلام بغداد

ولم يأكل ولم يشرب . ولما صلى العشاء سجد وكان يقول في سجوده « اللهم تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني فاغفر لي ، وان معرفتي اياك وسيلتي اليك » . ومات رحمه الله تعالى

ولقد جاءت هذه الشهادة من مؤرخ نقد الخيام ووصفه « بسوء الخلق وضيق العطن » كما سترى في الوثيقة التالية :

﴿ القسم الثاني ﴾ — وثائق جاءت في كتب دوّنت في القرنين السادس والسابع والثامن للهجرة

( ا ) نزهة الأرواح وروضة الافراح لمحمد الشهرازوري سنة ٥٨٦ ه مقدمة الاستاذ ساخاو في الآثار الباقية لأبي الريحان البيروني ص ٥٦

عمر الخيام نيشابوري الآثار والميلاد كان تلو ابي على ابن سينا في اجزاء علوم الحكمة إلاَّ انهُ كان سيء الخلق ضيق العطن ، تأمل كتاباً باصبهان سبع مرات وحفظهُ وعاد الى نيسابور فأملاه فقوبل بنسختهِ الأصلية فلم يوجد بينهما تفاوت ، وله ضنة بالتصنيف والتعليم ، وله مختصر في الطبيعيات ورسالة في الوجود ورسالة في الكون والتكليف . وكان عالماً بالفقه واللغة والتواريخ

ودخل الامام عمر يوماً على شهاب الاسلام الوزير عبد الرزاق وكان عنده امام القراء ابو الحسن الغزالي وكان يتكلمان في اختلاف القراء في آية فقال الوزير : على الخبير سقطنا ، فسئل الامام عمر عن ذلك ، فذكر وجوه اختلاف القراء وعلل كلام كل واحد منهما ثم ذكر الشواذ وعللها وفضل وجهاً واحداً فقال الغزالي « كثّر الله في العلماء مثلك اجعلني من بعض أهلك وارض عني فاني ما ظننت أحداً من القراء في الدنيا يحفظ ذلك ويعرفهُ فضلاً عن واحد من الحكماء »

وأما أجزاء الحكمة من الرياضيات والمعقولات فكان ابن بجدتها

ودخل حجة الاسلام الغزالي عليه وسأله عن تعيين جزء من أجزاء الفلك القطبية دون غيرها مع كونه متشابه الأجزاء ، فطوّل الخيامي الكلام ، وابتدأ من الحركة من مقولة كذا وضن بالخوض في كل النزاع ، وكان من دأب ذلك الشيخ المطاع ، حتى أذّن الظهر فقال الغزالي جاء الحق وزهق الباطل . وكان السلطان ملكشاه ينزله منزلة الندماء ، والخاقان شمس الملوك ببخارى يعظمه غاية التعظيم ويجلسهُ معهُ على سريره

تثبت هذه الوثيقة مقابلة الخيام لوزير من وزراء عهده وهو شهاب الاسلام والي طوس كما تقرر مقابلتهُ للامام الغزالي ، وشهادته للخيام واقراره له بالفضل كما تثبت ان الخيام كان مقرباً من الملوك حتى ان الخاقان شمس الملوك كان يجلسهُ على سريره تقديراً لعلمهِ واعزازاً

لمركزه ، وكان ملكشاه ينزله منزلة الندماء . فالخيام بهذه الوثيقة عالم يقرن بالغزالي ونديم تتوق الملوك الى مجلسه ورجل مُوفق الحظ يرفعهُ الملوك ويقربونه اليهم

ولم تكن هذه الشهادة آتية من رجل شايع الخيام بل جاءت من مؤرخ حمل عليهِ ونقد مذهبه فأثبت ان الخيام « كان سيء الخلق ضيق المعطن » فهذه وثيقة تقرر ما للخيام وما عليه في نظر مؤرخها ، وهي الى ما ذكر تثبت ما وصل الى علم صاحبها من أسماء مؤلفات الخيام وتشهد بذكاء عمر النادر

( ب ) مرصاد العباد لنجم الدين أبي بكر الرازي ألفه سنة ٦٢٠ هـ — ١١٢٣ م بالفارسية في التصوف وأدب النفس ، وهو لا يشتمل على سيرة الخيام إلاَّ ان مؤلفه نقد الخيام نقداً له قيمته من ناحية الحكم على مذهب الرجل وعلى خلط الناس بين مذهبه ومذهب المتصوفة ، فوضع الخيام في مصاف الفلاسفة الماديين الذين ينكرون البعث والنشور فقال ما ترجمته (١)

« وما الحكمة في جعل هذه الروح العلوية النورانية في قالب سفلي أظلم متخذ من التراب ؟ ثم ما السبب في التفريق بين الروح والجسد وقطع العلاقة بينهما ؟ لِمَ تتلاشى هذه الصورة وهذا الشكل ، وما السبب في نشر جسد الانسان في المحشر مرة اخرى ؟

أجل ، ان الذي خرج من زمرة ( كالانعام بل هم أضل سبيلا ) ووصل الى المرتبة الانسانية وخلص من قوله ( ويعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ) وسلك بذوق وشوق عظيمين الطريق الحسن ، علم ان ثمر النظر والقدم هو الايمان والعرفان

ان الفيلسوف الدهري الطبيعي محروم هذين المقامين حتى ان أحد الفضلاء وهو المشهور بحكمته وكياسته ( عمر الخيام ) قد تاه في بيداء الضلال بقوله :

در دائرة كامدن ورفتن ماست
آنرا نه بدايت نه نهايت بيداست
كس مي نزند دمى در من عالم راست
كاين آمدن ازكجا ورفتن بكجاست

يعني : ان الدائرة التي فيها نجيء ونذهب ليست بذات بداية ونهاية ، لا أحد يستطيع أن يقول من أين هذا المجيء والى أين هذا الذهاب

(١) الترجمة للصراف عن الفارسية

( ج ) كتاب كامل التواريخ لابن الاثير سنة ٦٢٨ هـ جاء فيه عن الخيام في حوادث سنة ٤٢٧ هـ ما يأتي :

« وفيها جمع نظام الملك والسلطان ملكشاه جماعة من أعيان المنجمين ، وجعلوا النيروز اول نقطة من الحمل ، وكان النيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت ، وصار ما فعلهُ السلطان مبدأ التقاويم . وفيها أيضاً عمل الرصد للسلطان ملكشاه واجتمع جماعة من أعيان المنجمين في عمله ، منهم عمر بن ابراهيم الخيامي وأبو المظفر الاسفزاري وميمون ابن النجيب الواسطي وغيرهم . وخرج عليهِ من الأموال شيء عظيم ، وبقي الرصد دائراً الى ان مات السلطان سنة ٤٨٥ هـ فبطل بعد موتهِ »

فهذه الوثيقة تقرر اجتماع الخيام بعلماء عصره بدعوة ملكشاه لتصحيح التقويم وعمل الأرصاد الفلكية وهي تثبت ان هذا الاجتماع بدأ سنة ٤٢٧ هـ ولكنها لم تذكر اسماء جميع أعضاء هذا المجمع الفلكي

(د) كتاب تاريخ الحكماء للمؤرخ الوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ سنة ١٢٤٨ م . وفيه ذكر الخيام قال : (١)

« امام خراسان ، وعلاَّمة الزمان ، معلم علم يونان ، ويحث على طلب الواحد الديان ، بتطهير الحركات البدنية ، لتنزيهِ النفس الانسانية ويأمر بالتزام السياسة المدنية ، حسب القواعد اليونانية . وقد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها الى طريقتهم وتحاضروا بها في مجالسهم وخلواتهم ، وبواطنها حيَّاتٌ للشريعة لَوَاسع ، ومجامع للاغلال جوامع . ولما قدح أهل زمانهِ في دينهِ وأظهروا ما أسره من مكنونهِ ، خشي على دمهِ وأمسك من عنان لسانهِ وقلمهِ ، وحج متاقاة لا تقية ، وأبدى أسراراً من السرار غير نقية . ولما حصل ببغداد سعى اليهِ أهل طريقته في العلم القديم فسد دونهم الباب سدَّ النادم لاسد النديم ، ورجع من حجهِ الى بلده يروح الى محل العبادة ويغدو ، ويكتم أسراره ولا بدَّ ان تبدو ، وكان عديم القرين في علم النجوم والحكمة وبهِ يضرب المثل في هذه الأنواع لو رزق العصمة . وله شعر طائر تظهر خفياته على خوافيه» . وقد أتى القفطي بقصيدة نظمها الخيام بالعربية منها

اذا كان محصول الحياة منية فسيان حالا كل ساعٍ وقاعد

كتبت هذه الوثيقة التاريخية في القرن السابع للهجرة وهي تهدف بنا الى المناحي التي

(١) أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ط. ليبسك

أخذ عنها الخيام فلسفته فتقرر أن الخيام « يعلم علم اليونان ، ويأمر بالتزام السياسة الدنية حسب القواعد اليونانية » وتكشفنا على أمر اخر خطير يعلل ذهاب الناس بالخيام مذهب المتصوفة فتدلنا الى سر ذلك فتقول بأن بعض المتصوفين وقفوا على شيء من ظواهر شعره فنقلوه الى طريقتهم وتحاضروا به في مجالسهم وخلواتهم وهذا يعلل السبب في اختلاف عدد الرباعيات وكثرتها ويكشف لنا السر في وجود الرباعيات المنسوبة الى الخيام فهؤلاء المتصوفون هم الذين أدخلوا الكثير من نظمهم على رباعيات الخيام فنحلوه إياه

وتدل هذه الوثيقة على ان الخيام لم يسلم من نقد عصره واتهامه اياه بالزندقة حتى انهُ خشي على دمهِ ، وكف عن أسلوبهِ في التهكم بالعادات والتقاليد والعقائد وذهب يحج بيت الله مناقاة ودفعاً لسوء يناله أو مكروه يصيبه من الناس

وتشير هذه الوثيقة الى ان الخيام كان صاحب مدرسة يتبعه في مذهبهِ تلاميذ وأشياع فتقرر بأنهُ لما عاد من الحج الى بغداد اقبل اليه « اهل طريقته في العلم القديم فسد دونهم الباب سد النادم » وتقرر بأن الرجل كان يخشى على نفسه من خصومه فتظاهر بعد الحج بالعبادة والتقوى « ورجع من حجهِ الى بلده يروح الى محل العبادة ويغدو ، ويكتم أسراره ولا بدَّ ان تبدو »

( هـ ) كتاب آثار البلاد وأخبار العباد . وهو مؤلف عربي في الجغرافية كتبه زكريا القزويني سنة ٦٧٤ هـ وقد ذكر الخيام عند كلامه على مدينة نيسابور قال

« ينسب اليها من الحكماء عمر الخيام ، كان حكيماً عارفاً بجميع أنواع الحكمة سيما النوع الرياضي ، وكان في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي ، سلم اليه مالاً كثيراً ليشتري به آلات الرصد ، ويتخذ رصداً للكواكب . فمات السلطان وما تم ذلك »

( و ) كتاب جامع التواريخ كتبهُ رشيد الدين بن فضل الله المتوفى سنة ٧١٨ هـ جاء فيه ما ترجمته (١)

ان اسباب العداوة والنفرة التي كانت بين سيدنا حسن الصباح وعمر الخيام ونظام الملك انهم كانوا في مدرسة واحدة ، وكان بينهم صفاء واخاء وصداقة عظيمة كما يحدث بين ابناء المدارس ، حتى وصلت الصداقة الى اوجها ، واتفقوا على الاخاء والمحبة ثم اتفقوا على ان من ينال منهم رتبة علمية يساعد الآخرين ، وبحسب الاتفاق ، اتفق ان وزّر نظام الملك وزيراً كما هو مذكور في تاريخ آل سلجوق فذهب اليه عمر الخيام وذكره بالعهود

(١) الترجمة للصراف . وذكر رس ان هذا الكتاب قد تم تأليفه سنة ١٣١٠ م أي حوالي سنة ٧١٠ هـ

والمواثيق في أيام الصبا فتذكر نظام الملك الحقوق القديمة وقال له : وليتك نيسابور ونواحيها وكان عمر حكيماً عظيماً فاضلاً عاقلاً فقال : ليس لي طاقة بالسياسة وأمر العوام ونهيهم فأعطي راتباً شهريًّا بحسب الوظيفة . فأعطاه نظام الملك عشرة آلاف دينار في السنة من دخل نيسابور المحروسة بدون نقص ولا انقطاع ... وكذلك سيدنا حسن الصباح ذهب من الري الى نظام الملك ليحظى بخدمته ، وقال له : الكريم اذا وعد وفى ، فقال له نظام الملك : اختر بين ولاية الري وأصفهان » وكان سيدنا ذا همة عالية فلم يقنع بذلك ولم يرض به وكان يتوقع ان يشاركه بالوزارة فقال له نظام الملك : كن ملازماً لحضرة السلطان مدة. ان نظام الملك كان يعلم ان حسن الصباح كان طالباً لأن يحل محله في الوزارة والرتبة فكان يتحذر منه ، وبعد سنين استوحش السلطان من نظام الملك ورفع الحساب من عهدته »

تصف هذه الوثيقة حكاية الرفاق الثلاثة وما اتفقوا عليه فيما بينهم من عهد أيام الصبا والمدرسة ، وتذكر ولاية نظام الملك الوزارة وذهاب عمر الخيام يطالبه البر بوعده ، وتذكر وفاء الصديق نظام الملك للخيام وكيف أقطعهُ ولاية نيسابور وكيف أبى الخيام هذا وطلب راتباً يناله ، وكيف أجيب الى بغيتهِ . وتذكر هذه الوثيقة كيف سعى حسن الصباح الى صديقهِ القديم وكيف طالبهُ برًّا بوعده ، وكيف كان يضمر لصديقهِ الوزير من طمع في الجاه والوزارة ، فلم يقنع بولاية الري أو اصفهان ، كما تذكر ان نظام الملك أحسَّ بهذا الخطر عليهِ من زميله القديم فأبعده عن نفسهِ ولكن الحقهُ بخدمة السلطان ، كما تشير هذه الوثيقة اشارة خفية الى ان السلطان غضب بعد ذلك على نظام الملك لحد من اشرافهِ على أموال الدولة بسبب سعاية حسن الصباح

على انهُ يظهر جليًّا ان صاحب هذه الوثيقة كان من أتباع الباطنية بدليل انه يذكر حسن الصباح مقروناً بلفظة « سيدنا وأنهُ كان ذا همة عالية » فلم يقنع بالعرض السخي الذي عرضهُ عليهِ نظام الملك ، وبدليل انهُ لم يصرح بنقد لحسن الصباح في سعايتهِ عند السلطان ووشايتهِ بصديقه وولي نعمته نظام الملك

***

والوقائع التي جمعتها هذه الوثيقة تجعلنا نعتقد ان الخيام قد اجتمع بصديقه القديم حسن الصباح ، فهل تعاون الخيام في نشر الدعوة الباطنية مع صديقه صاحب هذه الدعوة ، وهل تخفي الرباعيات عقائد الباطنية مطوية مسطورة ؟ لعلنا نظفر بشيء من ذلك في دراستنا المقبلة للخيام .

# فلاسفة الرواق

للدكتور عثمان أمين
مدرس الفلسفة بكلية الآداب

## كروسبوس [1]

١ — ﴿ شخصيته ﴾ هو تلميذ « كليانتس » وآخر ممثلي الرواقية القديمة وأبعدهم أثراً وأكثرهم انتاجاً عقليًا . ذكر ديوجانس اللايرسي أن القدماء كانوا يقولون : « لولا كروسبوس لما أمكن أن تقوم لمدرسة الرواق قائمة » بعد اضمحلالها في عهد « كليانتس » [٢]

ولد كروسبوس حوالي سنة ٢٧٧ ق.م في مدينة «صول» بجزيرة قبرص . وكانت قبرص في ذلك الحين مسرحاً للمنازعات السياسية بين البطالسة حكام مصر من جهة وبين ديمتريوس وانطيغوناس من جهة أخرى . واذن كانت جزيرة قبرص بلاداً قد قضي فيها على التقاليد القومية وحال فيها تقلب الحكام والسادة الفاتحين دون ازدهار الشعور بحب الوطن [٣] فلم يكن من العسير على كروسبوس وقد نشأ في بلاد كهذه أن يجعل المثل الاعلى في الأخلاق فكرة الجامعية العقلية الروحية التي تنادي بأن الفيلسوف لا وطن له أو ان وطنه هو الكون بأسره

وكان لكروسبوس قوة على الجدل عظيمة حتى قيل في عصره « لو كان بالآلهة حاجة الى فن الجدل لاتخذوا جدل كروسبوس » . ولقد كان كروسبوس نفسه — فيما يروى — يقول لأساتذته انهُ ليس بحاجة الى شيء أكثر من تقرير المسألة وهو كفيل بأن يجد من نفسه البرهان عليها [٤] ولقد عاب عليه بعضهم مرة انهُ لم يجار الجمهور في الذهاب الى استماع

---

(١) يذكره القفطي باسم « كرسفس » ( أخبار الحكماء طبع مصر ١٣٢٦ ص ١٧١ ) والشهرستاني باسم « خروسبس » ( الملل والنحل طبع مصر ( بهامش الفصل لابن حزم ) ج٣ ص ٩٩ )

(٢) Diogène Laerce, Vie des Philosophes VII, 183.

(٣) Bréhier, Chrysippe, p. 8

(٤) Diogène Laerce, VII, 179

دروطن « ارسطون »، فأجاب « لو انني كنت تابعت الجمهور لما درست الفلسفة[1] » وهذا دليل على مبلغ ما طبع عليه من الاعتداد بالنفس وقلة التواضع

٢ — ﴿ أساتذته ﴾ تتلمذ كروسبوس لكليانتس في الرواق . ويروي « سطيون » الاسكندري أن « كروسبوس » كان يختلف الى الاكاديمية المنافسة للرواقية . وكان يحضر الدروس التي كان يلقيها « ارقيزيلاس » و « لاقيدس » . ويقول « ديوجانس اللايرسي » ان هذا يفسر لنا كيف ان « كروسبوس » كتب رسالة في مناقب « العادة » وفي مساوئها كما يفسر استعماله منهج الاكاديمية في الكلام على الحجوم والاعداد[٢] . ويذكر « شيشرون » شيئاً عن مضمون رسالة « كروسبوس » هذه التي جمع فيها طائفة من أقوال الاكاديميين وحججهم في نقض معيار الحقيقة . ويضيف أن « قرنيادس » — وهو من أنصار الاكاديمية الجديدة — لم يكن محتاجاً الى أن يخترع حججاً جديدة لهدم معيار الحقيقة بل كان يكتفي بما أورده « كروسبوس » في رسالته المتقدمة الذكر[٣]

لكن فيما أورده « سطيون » عن اختلاف كروسبوس الى الاكاديمية ما يدعو الى الظن أن تلك القصة ليست الاَّ افتراضاً محضاً قصد منهُ أن يفسر لنا وجود نظريات اكاديمية مبسوطة في مؤلفات كروسبوس . ولعل هذا يدل على رغبة كروسبوس في أن يقف تمام الوقوف على حجج خصومه وعلى تحريه الدقة في العلم بآرائهم[٤]

٣ — ﴿ تعليمه ﴾ ويظهر ان كروسبوس جعل من التعليم شغله الشاغل حين تولى الاشراف على الرواق . فقد أجمع رواة الأخبار على انهُ كان يُعنىَ على الدوام بحسن ادارة المدرسة وانتظام سيرها وعلى انهُ كان من الاساتذة المجتهدين يؤدي مهمته كل يوم بهمة لا تعرف الملل[٥] والذي ورد في الفهرست الهرقيولاني من انتظام ساعات دروسه قد يذكّر بالموعد المضبوط الذي كان يخرج فيه الفيلسوف الالماني « كانت » كل يوم طلباً للرياضة

كان زينون صديقاً لانطيغوناس ملك مقدونيا كما ذكرنا واتصل « سفيروس » الرواقي بالملك « كليومين » ثم ببلاط الملك « فيلوباطر » بالاسكندرية[٦] لكن كروسبوس لم يتصل بأحد من اهل الجاه . وينبغي أن تقر مع « ديوجانس اللايرسي » أنهُ وحده خالف العادة

---

(١) Diogène Laerce, VII 182 (٢) Diogène Laerce, VII, 183-184
(٣) Cicéron, Premieres Académiques, II, 87. — Arnim, II 34, 12
(٤) Bréhier, Chrysippe, p. 11 (٥) Diogène Laerce, VII, 182
(٦) Diogène Laerce, VII, 177

المتبعة في اهداء الكتب الى الملوك فلم يهد من مصنفاته الكثيرة شيئاً الى ملك أو امير [١]

ولعل أهم طابع في منهج التعليم عند «كروسبوس» هو انهُ نظري تلقيني (دجماتيق) فقد كان الناس حتى ذلك العهد يسيرون على التقاليد السفسطائية التي تنحو نحواً عملياً صرفاً في التعليم، فكان هم المدارس أن تلقن الطلاب بواسطة التدريب على الخطابة كيف يمهرون في تأييد الآراء او نقضها على السواء. وذاعت تلك الطريقة في التعليم حتى كادت مدرسة ارسطو نفسها أن تصير شيئاً فشيئاً مدرسة لتخريج الخطباء [٢] واتخذت الاكاديمية منذ «ارقيزيلاس» «منهج جورجياس» «السفسطائي. وهو عبارة عن الكلام في نقض كل رأي يطرح للبحث او تأييد اي رأي كان. وأمثال تلك المناهج في التربية والتعليم تدل على شيء من التشكك وعلى ان الغاية من التعليم عملية صرفة كما اشرنا. لكن «كروسبوس» وان لم يكن يستنكر كل الاستنكار طريقة عرض الآراء المخالفة، كان يرى فساد هذا النهج ما دام الباحث يريد لا فناً عملياً بل علماً اخلاقياً. ذلك ان معارضة الحق بالرأي الشبيه بالحق قد تزعزعه في النفوس، وهذا لا يناسب الا من يريدون التوقف في الحكم. ومن أجل ذلك وجب في عرض آراء مخالفة لآرائنا أن لا نعرضها الا بعد ان نهدم ما يجعلها شبيهة بالحق [٣]

٤ — ﴿كروسبوس وأقيسته المنطقية﴾ يذكر ديوجانس اللايرسي أن كروسبوس كان يصوغ أقيسة منطقية من القبيل الآتي: «ما ليس في المدينة ليس في البيت أيضاً. ولا بئر في المدينة، اذن لا بئر في المنزل» وقوله «يوجد رأس ما. وذلك الرأس ليس لك. فاذا كان ذلك كذلك فهنالك رأس ليس لك واذن أنت من دون رأس». ثم قوله «اذا كان شخص في ميغارا فهو ليس في أثينا. ويوجد الآن رجل في ميغارا، اذن لا يوجد أحد في أثينا». ومنها قوله «اذا قلت شيئاً مرَّ من شفتيك. وأنت تقول عربة. اذن هنالك عربة تمر من شفتيك» وقوله «اذا لم تكن فقدت شيئاً قط فأنت ما زلت مالكاً اياه. ولكنك لم تفقد قط قروناً. اذن فأنت صاحب قرون [٤]» ... !

ولم يبين لنا ديوجانس اللايرسي ماذا كان قصد «كروسبوس» من ايراد أمثال هذه الأقيسة العجيبة. ولكن يخيل الينا أن «كروسبوس» انما أوردها مازحاً، وانهُ أراد أن

---

(١) Diogène Laerce, VII, 183 (٢) Cicéron, orator, 46

(٣) Plutarque, De Stoic. repug., 10 cité par Bréhier, Chrysippe p. 16

(٤) Diogène Laerce, VII, 186-187

يبين قلة الكفاية في أقيسة المنطق الصوري الارسطاطاليسي وانها يمكن أن تؤدي الى نتائج مضحكة لا تخلو من سخف وان تكن سليمة من حيث الصورة ، وعلى ذلك تكون مراعاة المادة في المنطق واجبة

٥ — ﴿ مصنفات كروسبوس ﴾ كان كروسبوس واسع الاطلاع دائب التأليف أراد أن ينشيء في علوم زمانه موسوعة تحل محل الموسوعة الارسطاطاليسية فألف في المنطق والطبيعيات والاخلاقيات . ألف فيما يروى نيفاً وسبعمائة كتاب لم يبق منها إلاّ شذور قصيرة

أورد ديوجانس اللايرسي فهرساً لكتب كروسبوس [١] فذكر فيه ١١٩ مصنفاً في المنطق — أكثرها مقصورة لا تزيد على فصل واحد — وذكر ٤٣ كتاباً في الاخلاق . ولكن الفهرس المنطقي ناقص في أوله، وفي ترتيب مواده اضطراب كبير . فهو لا يوافق تقسيم المنطق عند كروسبوس على نحو ما عرفه ديوقليس الماغنيسي [٢] وعلى نحو ما يستفاد من كلام شيشرون [٣] . ثم ان فهرس الكتب الاخلاقية مضطرب كذلك أشد اضطراب فهو يحوي عدداً كبيراً من المصنفات المنطقية قد دسّت فيه دسّاً . واذن فهذا الفهرس كله ليس مصدره « كروسبوس » بل الظاهر ان واضعهُ أحد القيمين على المكتبات القديمة الذين يجهلون أهم معاني الفلسفة الرواقية [٤]

واذا كان فهرس ديوجانس اللايرسي قد خلا من ذكر المصنفات الطبيعية لكروسبوس فان من الكتّاب المتأخرين كشيشرون وبلوطرخس من ذكروا من هذا القبيل ١٩ مصنفاً طبيعيّاً [٥]

ومن مصنفات كروسبوس المشهورة في الطبيعيات ( ولم يذكرها ديوجانس اللايرسي ) رسالة في النفس ورسالة في الآلهة ورسالة في القضاء والقدر ورسالة في العناية .

ومن مصنفات كروسبوس في الاخلاق رسالة في الاهواء [٦] ورسالة في الفرق بين الفضائل [٧] ورسالة في الجمهورية [٨]

---

(١) انظر قائمة كتبه الطويلة في : Diogène Laerce, VII, 198-202

(٢) Diogène Laerce, VII, 62 ( Arnim, II, 38, 5.

(٣) Bréhier ,Cicéron, orateur, 32, 115

(٤) Bréhier, Chrysippe, p. 20-22

(٥) Bréhier, Chrysippe, 30

(٦) Bréhier, Chrysippe, 36-51

(٧) Diogène Laerce, VII, 202

(٨) Bréhier, Chrysippe, 33-55

٦ — ﴿ نظريات كروسيبوس الخاصة ﴾ : روى بلوطرخس ان كروسيبوس بسط نظرية المعاني السابقة ونظرية المعاني الشائعة بسطاً وافياً ورتبها ترتيباً واضحاً. وقال شيشرون إن كروسيبوس هو صاحب النظرية التي يفرق فيها بين العلل الاولى والعلل الثانية ليوفق بين نظرية القضاء والقدر وبين فكرة المسؤولية والحرية الاخلاقية ، فقال ان القضاء المحتوم انما ينصب على العلل الثانية . اما ميولنـا وهي العلل الاولى فهي في مقدورنا ونحن أحرار في توجيهها (١)

ولكن عيب على كروسيبوس اسرافه في نظرية الرواق عن الاشيـاء « السواء » أعني الاشياء التي ليست خيراً ولا شرًّا كالحياة واللذة والارتزاق

وأخذ على كروسيبوس كذلك انهُ أباح في كتابه الجمهورية التزوج من الاقربين كزواج الأب من ابنته والابن من أمه والاخ من أخته . وانه في كتابه العـدالة أباح للناس ان يأكلوا لحوم البشر (٢)

وعاب خصوم كروسيبوس عليه، فضلاً عما ذكرناه، ان أسلوبه كان ثقيلاً وان لغته لم تكن مهذبة مختارة وانهُ مثلاً حين فسر قصة « هيرا » و « زيوس » قد تفوّه بألفاظ لا تليق بجلال الآلهة بل هي أولى بأن تصدر من « أولاد الشوارع » كما قال ديوجانس اللايرسي (٣)

والحقيقة ان كروسيبوس كان دائماً مضطرًّا الى ان يتكلم أو أن يكتب مستعجلاً اما لتوضيح مسألة أو للرد على خصم فلم يستطع في مثل تلك الحال ان يتوخى في أقواله أو في مصـنفاته ما كان يتوخاه كتّـاب ذلك الزمان من رشاقة العبارة وجمال الاسلوب (٤)

٧ — ﴿ مهمة كروسيبوس في الرواق ﴾ حمل كروسيبوس عبء التراث الرواقي فكان عليه أن يضطلع بواجبين : الاول — ان يجمع كلمة الرواقيين بعد أن تفرقوا شيعاً كثيرة لا انسجام بينها ولا خطر لهـا . والثاني — أن يدفع عن الرواق هجمات الخصوم أو المنافسين . أما الواجب الاول فقد وفق كروسيبوس في ادائه . اذ تولى الرد على « ارسطون » و « هيرلوس » بل « كليانتس » . وكانت ردوده حاسمة فوضع بذلك حدًّا للمناقشـات الطويلة التي كانت سبباً في انشقاق الرواقيين على أنفسهم . وأما الخصوم والمنافسون الذين كان عليه أن يواجههم فكثيرون ، أهمهم ينتمون الى مدرستين احداها الابيقورية وهي معاصرة على وجه التقريب للمدرسة الرواقية والثانية هي الاكاديمية الجـديدة وهي مدرسة كانت تنتسب الى أفلاطون

---

(١) Cicéron, De fato, 18 (٢) Diogène Laerce, VII, 188

(٣) Diogène Laerce, VII, 187-188 (٤) Diogène Laerce, VII 180

ولكنها رأت ان تدعو باسمه الى مذهب التشكك . ولنحاول ان نرى الآن ما عسى أن يكون شعور كروسبوس والرواقيين نحو هاتين المدرستين

أما الابيقوريون فلم يكن الرواقيون ينظرون اليهم إلاّ نظرات الازدراء . فالابيقوريون قوم لا ثقافة لهم . يحتقرون الجدل فلا يجيبون على حجج الرواقيين القوية واعتراضاتهم الدقيقة إلاّ بتصريحات غامضة وتوكيدات عامية من غير دليل . وكثيراً ما كانوا يحاولون الاجابة عن نتائج الاستدلالات المنطقية فيقنعون بقولهم « ليس هذا صحيحاً » . فاذا أراد الرواقيون مثلاً أن يبرهنوا لهم على ان اللذة ليست في عداد الخيرات ورأيتهم يجيبون . « اللذة خير . هذا شيء نحسه كما نحس ان النار تسخن ولا يمكن ان يبرهن عليه »

لكن موقف الرواقيين من شكاك الاكاديمية كان في الحق موقفاً يخالف موقفهم من الابيقوريين. كان لا بد لكروسبوس ان يناهض ادلتهم وان يقارع حججهم بما لا يقل عنها قوة وبراعة . فاضطر ان يحاربهم بمثل أسلحتهم فانتهج في ذلك منطقاً دقيقاً محبوكاً وكان له منه ما أراد . بل انهُ بلغ من المهارة في فنون الجدل والمحاجة واثارة الشكوك ما لا مطمع وراءه

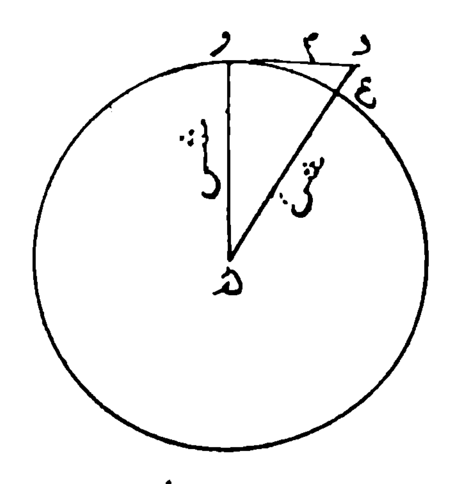
ولكن مذهباً كان مضطرًّا الى الدفاع عن أمره في شتى النواحي كان لا بد له ان يتسع شيئاً فشيئاً وان يزيد وضوحاً . وأكبر الظن ان كروسبوس بقي مخلصاً لآراء زينون في المواضع الاساسية ولم يمنعهُ ذلك من ان يضيف اليها بعض التفاصيل وان يوضح ما كان منها بحاجة الى ايضاح حتى أصبحت الرواقية بفضل جهوده فلسفة تامة مرتبطة الاجزاء واضحة المعالم.ومن المحقق ان كروسبوس اوضح طائفة من المسائل ظلت غامضة بعد زينون وكليانتس من ذلك مسألة معيار اليقين والمعرفة . وكروسبوس هو يقيناً صاحب الفضل الاكبر في بناء علم النفس الرواقي وهو على الخصوص المنشيء للمنطق الرواقي كله او يكاد . فاذا كان ذلك كذلك فما نظن ان القدماء كانوا مغالين حين قالوا . « لو لم يوجد كروسبوس ما وجد الرواق » (١)

وجملة القول ان كروسبوس دافع عن المذهب الرواقي دفاعاً قويًّا مستمرًّا ولم تكل عزيمته عن مناصرة المدرسة على كثرة الهجمات التي كانت ترد اليه من كل صوب ، من الابيقوريين ومن الشكاك ومن تلاميذ « زينوقراط » و « استراتون » وغيرهم . ولا شك ان كروسبوس هو الذي دأب على تنظيم الرواقية وبسطها بسطاً ثبتت به دعائمها مدى خمسة قرون ، حتى جاء افلوطين الاسكندري فقوض بفلسفته جميع المذاهب المادية

(١) Rodier, Etudes, p. 238

# باب المراسلة والمناظرة

## مدى الرؤية من الطيارة




في صفحة ٤١٤ من مقتطف ديسمبر الاخير جدول لمدى الرؤية من طائرة محلقة . ولاستخراج مسافة مدى الرؤية ، أي المسافة من مرتفع الراصد الى الافق ، طريقة رياضية بسيطة مهما كان مقدار الارتفاع

الرسم يمثل محيط الارض ونقطة د ترمز الى موقع ارتفاع الطيارة أو قمة الجبل أو أي مرتفع عن سطح البحر . والحرف و يرمز الى الأفق . والحرف م يرمز الى المسافة بين الناظر والأفق

ارسم الخط و ه وهو شعاع (نصف قطر) الارض وارسم الخط د ه وهو مؤلف من الشعاع ش والخط ع الذي هو مقدار الارتفاع

ومن حيث ان الخط د و (الذي هو م) مماس للدائرة فهو مع الشعاع ش يعمل زاوية قائمة. فالمثلث و د ه قائم الزاوية

***

وبحسب قضية فيثاغورس مربع د ه الذي هو ع + ش يساوي مجموع مربعي م$^2$ + ش$^2$ هكذا:

(ع + ش)$^2$ = م$^2$ + ش$^2$

ع$^2$ + ٢ ع ش + ش$^2$ = م$^2$ + ش$^2$

م$^2$ = ع$^2$ + ٢ ع ش

وهو معلوم ان نصف قطر الأرض المتوسط (ش) يساوي ٣٩٥٧ ميلاً تقريباً

فاذا كانت الطيارة على ارتفاع ميلين مثلاً كانت

م$^2$ = م$^2$ + ٢ × ٢ × ٣٩٥٧

م$^2$ = ١٥٨٢٨

م = ١٢٦ ميلاً تقريباً

ولنفرض ان الارتفاع ميل واحد فقط

م$^2$ = ل$^2$ + ٢ × ١ × ٣٩٥٧ = ٧٩١٥

م = ٨٩ ميلاً تقريباً

الميل = ٥٢٨٠ قدماً

***

امتحن ذلك الجدول بهذه الطريقة فالرقم الذي يطابق نتيجة هذه القاعدة يكون صواباً وإلاّ فهو خطأ .

نقولا الحداد

# التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر
ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون
الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة
بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً
أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من
الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن
يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل
ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في
إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

# المشتمل


## ١ — الفنون الرفيعة

| | | |
|---|---|---|
| معرض السجّاد التركي | بقلم | زكي محمد حسن |

## ٢ — الكتب

| | | | |
|---|---|---|---|
| « الاسلام اليوم » | نقد | بقلم | إبرهيم عبد القادر المازني |
| « قوانين الدواوين » | — | — | محمد عبد الغني حسن |
| كتب ظهرت | | | |

## ٣ — المحاضرات

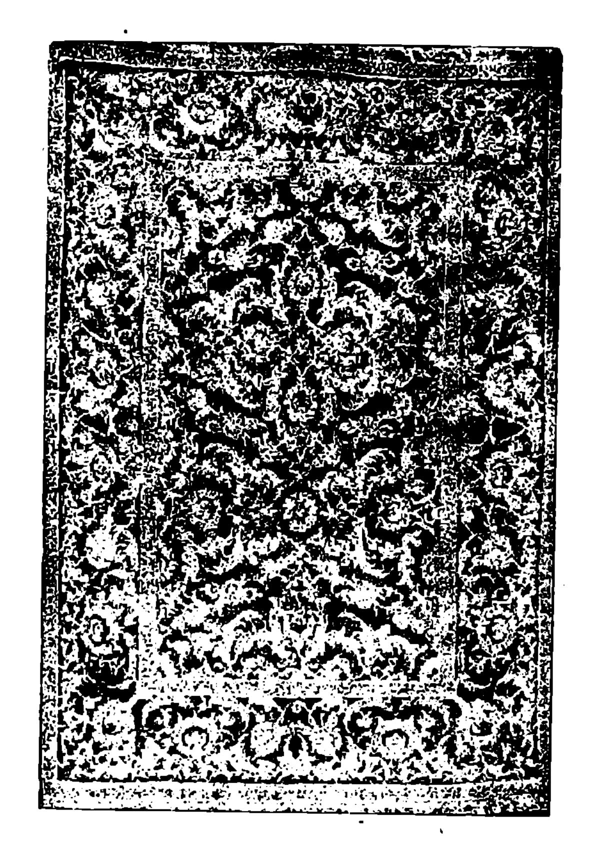
| | | |
|---|---|---|
| علاقة مصر بالأجانب | بقلم | كامل محمد عجلان |
| وظيفة الجامعة في العالم الحديث | — | زكي محمد حسن |

## ٤ — الذاهبون

| | | |
|---|---|---|
| جان جيرودو | بقلم | بشر فارس |

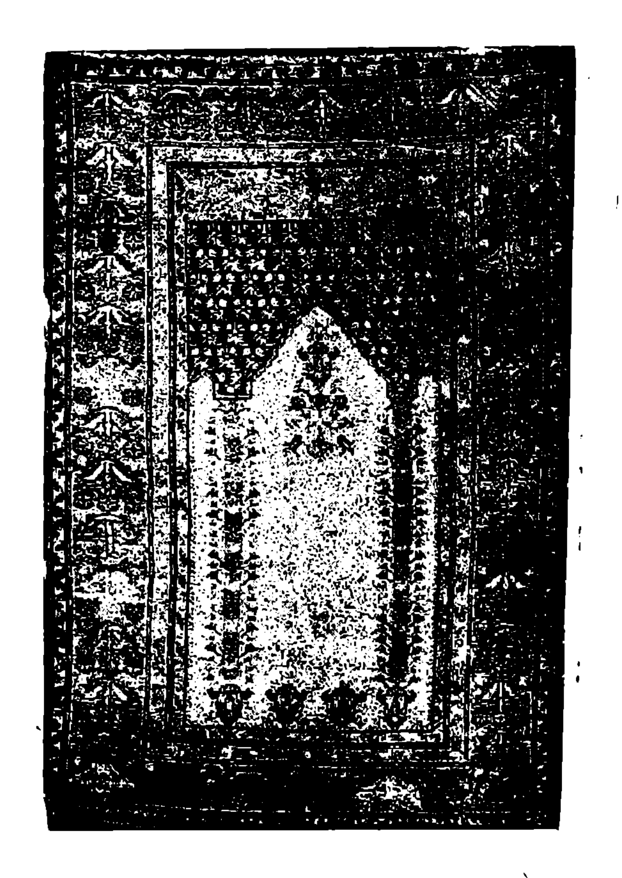
## ٥ — التعقيب

| | | |
|---|---|---|
| كلمة | بقلم | محمد يوسف موسى |
| كلمة | — | أحمد محمد شاكر |



« دمشق » القرن ال١٦

( الرقم في دليل المعرض : ١٨ )



« كوردهس » القرن ال١٧

( الرقم ٥٢ )

# ١ – الفنون الرفيعة

سبق لي ان كتبت في المقتطف ان العناية بالاعلاق والالطاف من دلالات الثقافة المنفعلة. وهذه دار الآثار العربية في القاهرة تهيء معرضاً للطنافس التركية . وسيفتتح المعرض للجمهور مع خروج هذا العدد ، وقد نظم المعرضَ الاستاذ المستشرق جاستون فييت G.-Wiet مدير الدار والاستاذ حسين راشد رئيس أمنائها . فهما حقيقان بالتهنئة والشكر

ودونك بحثاً في الطنافس التركية وفحصاً عن نفائس المعرض بقلم بصير يضطلع بتعليم الفنون الاسلامية في جامعة فؤاد الاول ب . ف

## معرض السجاد التركي

### بدار الآثار العربية في القاهرة

شاء الاحتياط من خطر الغارات الجوية في هذه الحرب أن تنقل دار الآثار العربية وغيرها من المتاحف الكنوز الثمينة الى مخابىء أمينة ، فكان من ذلك أن حرم الجمهور المصري ونزلاء مصر الكثيرون مشاهدة معظم بدائع الفنون المصرية من العصر الفرعوني الى عصر الأسرة المحمدية العلوية . وكأن دار الآثار العربية رأت أن تخفف من وطأة هذا الحرمان فعملت على أن تنظم كل عام معرضاً لجانب من جوانب الفنون الاسلامية تساهم فيه بقسط يسير من نفيس مقتنياتها وتكشف فيه عن روائع الفنون الاسلامية التي عني بجمعها نخبة من أعلام المصريين ٠

وقد أصاب معرض العام الماضي نجاحاً عظيماً وكانت الدار قد جعلته وقفاً على الصور الايرانية والهندية والتركية من مجموعة شريف صبري باشا . وأتيح للاستاذ ڤييت مدير دار الآثار أن يضيف الى المكتبة الفنية سفراً جليلاً في وصف هذه المجموعة

أما هذا العام فقد قامت الدار بتنسيق معرض جميل للسجاد التركي وأحسنت صنعاً في تعزيزه ببعض نفائس الطراز التركي من المنسوجات والتحف الخزفية والمعدنية . وقد ساهم في هذا المعرض الى جنب دار الآثار العربية نخبة من أصحاب المجموعات الفنية النفيسة ، بينهم من المصريين الامير يوسف كمال وشريف صبري باشا والدكتور علي ابراهيم باشا والدكتور بشر فارس، ومن الاجانب السير روبرت جريج

المعروف ان آسيا الصغرى كادت تعادل ايران في مقدار ما تنتجه من السجاد الذي كان يصدَّر الى مختلف الآفاق . أما من حيث النوع فلا شك أن بعض ضروب السجاد التركي من حقه أن يدخل في أبدع السجاجيد الشرقية . وذلك لأن بلاد الاناضول وفيرة المراعي ، يجود الصوف في جوها البارد وأرضها الجبلية ، وعلى مقربة من مراكز النسج فيها مياه خالية من الاملاح يُغسل فيها الصوف فتجود صباغته بعد ذلك ، ومع هذا فان السجاجيد التركية بوجهٍ عام دون الايرانية في النسج وكثرة الألوان والزخرفة

ونسج السجاد قديم في آسيا الصغرى . وقد أشار الرحالة مركو بولو في القرن الثالث عشر الى السجاجيد السلجوقية الجميلة في تلك البلاد ، وكذلك ذكرها ابن بطوطة في القرن الرابع عشر . بل وصل الينا ثلاث سجادات تركية قديمة ترجع الى عصر السلاجقة في القرن الثالث عشر والرابع عشر بعد الميلاد . وكانت هذه السجادات محفوظة في جامع علاء الدين بمدينة قونية ثم نقلت منه الى متحف الاوقاف في استانبول . والواقع ان مركو بولو ذكر مدينة قونية Iconium في مقدمة بلاد التركمان أو الروم السلاجقة فقال ان أدق طنافس العالم وأبدعها كان ينسج فيها على أيدي السكان الذين كانوا مزيجاً من الترك والأرمن واليونان

ويظهر في تلك السجاجيد التركية القديمة التي وصلت الى العصر الحاضر ما ظلَّ جارياً بعد ذلك من وجود ساحة ( او : أرض ) متوسطة في السجادة فيها الرسم الرئيسي ويحيط بها إطار ( أو : كنار ) قوامه أشرطة تختلف في العدد والعرض بحسب نوع السجاد . والساحة تشتمل على رسم هندسي بسيط متكرر أو على أشكال صغيرة متعددة الاضلاع مكررة في صفوف ومناطق منظمة . أما الاطار فمتوسط العرض وزخرفته من أشكال هندسية أو من حروف كوفية غير مقروءة [1] ، على النحو الذي نعرفه في كثير من التحف الاسلامية حين يعمد الفنانون الى استعمال الكتابة للزخرفة فينقلون أطراف كلمات أو مقاطع حروف ويكررونها من غير رعاية للمعنى . ونسج السجاجيد المذكورة لا يزال غليظاً بعض الشيء ، ولكن التنسيق بين الألوان الحمر والزرق والصفر فيها يشهد بمهارة وذوق فني لطيف

وطبيعي ان زخارفها عليها مسحة من البداوة ولا أثر فيها للرسوم النباتية أو رسوم الكائنات الحية . ومع انها الأساس الذي قام عليه السجاد التركي في القرون التالية فان أشبه السجاجيد بها كان ينسج في الاندلس والمغرب في القرنين الرابع عشر والخامس عشر

---

(١) انظر : Bode — Kühnel : Vorderasiatische Knüpfteppiche aus Aelterer Zei شكل ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢

وأقدم ما نعرفه من السجاجيد التركية بعد هــذه المجموعة القديمــة يرجع الى القرن الخامس عشر . وقد دخلته رسوم الحيوان والطير ولـكنها رسوم بعيدة عن الطبيعة وقوامها خطوط مستقيمة تجعلها مجموعة من الاضلاع والزوايا . وخير مثال لذلك قطعة من سجادة هي الآن في متاحف الدولة في برلين . وفي هذه القطعة منطقتان في كل منهما رسم هندسي لحيوانين خرافيين يتعاركان ، وحول الرسم إطار من رسوم هندسية بسيطة

ولا يزال نسج السجادة خشناً، وأما أرضها فصفراء ، على حين ان رسوم الحيوانات زرق وحمر . اما زخارف الاطار فحمر وسود . وقد قرأتُ أن في المتحف التاريخي بمدينة استوكهلم قطعة من سجادة تشبه القطعة التي نحن بصددها وفيها رسم طائرين متواجهين [١] ولـكنني لم أر صورة لها . ويلوح ان سجادة نرويجية قديمة قد زخرفت برسم يشبه رسم الحيوانين في القطعة المحفوظة في برلين . ولا يميل مؤرخو الفنون الى ادراجها في المنتجات الشرقيــة بل يرجحون ان صنّاعاً من اهل اسكنديناوه نقلوا الزخرفة عن سجادة شرقيــة حصلوا عليها بوساطة التجارة المزدهرة بين الشرق وأمم الشمال عن طريق الروسية او بوساطـة القرصان النرويجيين الذين كانوا يبلغون سواحل البحر الابيض المتوسط [٢]

وفضلاً عن ذلك كله إن رسوم بعض السجاجيد التركية قد وصلت الينا مستعملة في الألواح الفنية التي خلفها فنانون هولنديون أو ايطاليون فيما بين القرن الثالث عشر والقرن السادس عشر، مما يشهد بأن تلك السجاجيد كانت تصدَّر الى اوربة في زمن اولئك الفنانين . والحق ان كثيراً من قصور المدن الايطالية وكنائسها القديمة تحتوي حتى الآن على تحف ثمينة من السجاد التركي القديم ، بل ان أكثر ما في متاحف العالم من هذا السجاد صار اليها من تلك القصور والكنائس . ومن الفنانين الايطاليين والهولنديين الذين رسموا الطنافس التركية في ألواحهم الفنية جيوتو Giotto ودُمينِكو دي بارتولو Domenico di Bartolo وفرا انجليكو Fra Angelico وكارباتشيو Carpacio وهولباين Holbein وفان ايك Van Eyck وممليننج Memling

***

والمعروف ان المنطقة الرئيسية لنسج السجاد في تركية هي النجاد الواقعة في الاناضول على مسافة غير بعيدة من شاطىء البحر الأبيض المتوسط . فنطقة — عُشَّاق وكوردهس وقولا —

(١) انظر ص ٤٣٢ Dimand : A Handbook of Moham. Decorative Arts :

(٢) المرجع السابق ، من تأليف الاستاذين بوده Bode وكونل Kuehnel ص ٣٦

وكلها غربي آسية الصغرى — لا تزال تنتج مقداراً كبيراً من السجاجيد التركية، وأصبحت ازمير منذ القرن السادس عشر قاعدة هامة لتصدير تلك الطنافس الى اوربة ؛ حتى نسب اليها ضرب من الطنافس كان يصنع فيها او على قرب منها ، وكان جل القائمون عليه من الجاليات الاجنبية في ازمير ممن يشتغلون برسم زخارفه وتعيين مساحته والاشراف على نسجه بحسب الرغبات الأوربية . هذا وان كانوا يقلدون في زخارفه رسوم السجاجيد الشرقية القديمة ولا سيما السجاجيد الايرانية فقد كانوا احياناً يستعملون رسوماً يرغب فيها عملاؤهم في الغرب ، ويلتزمون أبعاداً يعينها اولئك العملاء وهي توافق حجرات البيوت المعدة لها في اوربة . والملحوظ مع هذا ان منطقة « عشاق » لا تزال تنتج حتى الآن طنافس تشبه النوع الذي نحن بصدده . فأصبحت المجموعة كلها، قديمها وحديثها، تنسب الى مدينة عشاق، وكادت النسبة الى أزمير أن تذهب . وليست الطنافس المنسوبة الى عشاق نوعاً واحداً، بل هي أنواع

وتدل صناعتها على انها من فصيلة واحدة . فأشهر أنواع تلك الطنافس نوع سجاجيده كبيرة خشنة النسج تحتوي على جامة (صُرَّة) في وسطه ، بيضية الشكل بوجه عام . وفي كل من اركان ارض السجادة ربع جامة اخرى ، وذلك مما يذكّر بالزخارف الايرانية التي نجدها في العصر الصفوي على بعض ضروب الطنافس الايرانية وفي بعض الجلود والصفحات المذهبة و « الألواح » القاشانية

***

والحق ان تأثر السجاجيد المنسوبة الى عشاق بالطراز الايراني جلي واضح . وفي بعض انواع هذه السجاجيد تتكرر الجامات ويختلف حجمها وتتعدد اجزاؤها وتتألف احياناً من رسوم صليبية الشكل او شبه نجمية او متعددة الاضلاع . وتحتوي الجامات واجزاء الجامات وسائر أرض السجادة على رسوم فروع نباتية وزخارف عربية « ارابسك » . اما الاطار فمن شريط متوسط العرض بين شريطين ضيقين، وفي الشريط الاوسط رسوم فروع نباتية ووريقات شجر وزهور وألوان هذه السجاجيد قوية ويغلب أن تكون أرضها حمراء اوحمراء قاتمة ، وإطارها ازرق قاتم . اما رسومها فباللون الاصفر والازرق والاخضر . ويرجع أقدم هذه الطنافس الى القرن السادس عشر ولكن معظمه من القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد جاءت رسومه في الألواح الفنية التي خلفها بعض الفنانين الاوربيين في القرنين المذكورين . ولا غرابة في تأثر تلك السجاجيد بالزخارف الايرانية فالمعروف ان كثيرين من الفنانين الايرانيين قدموا الى تركية وعملوا في القصور العثمانية ، فتلقى عليهم

الفنانون الترك كثيراً من أساليب الصناعة والزخرفة ولا سيما في التصوير وصناعة الخزف والقاشاني والسجاد . وثمة طنافس منسوبة الى عشاق بعضها للصلاة كما يبدو من الرسم الشبيه بالمحراب في ارضها ، وبعضها سجاجيد صغيرة تصدّر الى البلقان

أما سجاجيد الصلاة المنسوبة الى عشاق فنادرة . والمشهور منها الآن سجادتان : الأولى في مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم وهي بين نفائس المعرض الذي نحن بصدده . والثانية في القسم الاسلامي من متاحف الدولة في برلين ، وكلتاهما ترجع الى بداءة القرن السادس عشر . وقوام الزخرفة في التحفتين شريط كبير من رسوم السحب الصينية يشغل النصف الأسفل من الساحة الوسطى ، ينثني ويضيق في أدناه ليضم رسماً هندسيًّا . وفي أركان السجادة والجزء الباقي من أرضها رسوم زهور وفروع نباتية ووريقات شجر محرفة عن الطبيعة . واللون الرئيسي في هاتين السجادتين هو الازرق القاتم في الجزء الاكبر من الساحة الوسطى ثم الأحمر والأخضر في الرسوم وفي سائر الساحة . ونسجهما خشن ، ولكنه لا يعيب من رونق الزخرفة وتناسق الالوان وزهوها . هذا والمعرض يضم احدى عشرة سجادة من الطنافس المنسوبة الى عشاق . وكلها من مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم . وفيها سجاجيد نادرة لا نكاد نعرف لها مثيلاً حتى في المتاحف الحافلة

وعرضت الدار ثلاث سجاجيد من نوع تركي ينسب الى المصور الالماني هولباين H. Holbein ( ١٤٩٧— ١٥٥٤ ). واحدى هذه السجاجيد من مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم ، والأخرى من مجموعة السير روبرت جريج . ويمتاز هذا النوع بزخارفه الهندسية البحتة التي يكثر فيها رسوم النجوم وأشباهها والأشكال الصليبية والمربعات والفروع النباتية المحرَّفة عن الطبيعة ، المرسومة في أسلوب هندسي . أما الاطار فالغالب أن يكون متوسط العرض وأن تكون زخرفته من رسوم هندسية تقلّد الحروف الكوفية . وألوان رسوم هذه الطنافس في الغالب صفر وزرق على أرض حمراء . وقد فقدت الرسوم النباتية فيها كل صلة بالطبيعة ، فتتعذر استبانة أصولها

والظاهر ان سجاجيد هولباين كانت منتشرة جدًّا في اوربة خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الاول من القرن السادس عشر ، فقد ظهرت رسومها في الألواح الفنية التي خلفها بعض أعلام الفنانين في ذلك العصر ولاسيما هولباين Holbein الالماني ولورنزو لوتو Lorenzo Lotto البندقي . ويضاف هنا ان المتاحف الغربية والمجموعات الفنية الخاصة غنية بهذا النوع من الطنافس التركية . ويظهر من رسومها في الالواح الفنية

الباقية ان نسجها تطوّر قليلاً فانتهى في زخرفة الاطار الى فروع نباتية منطلقة او محبوسة في جامات

وفي القرن السابع عشر وصل تطور الرسوم النباتية في هذه الطنافس بوجهٍ عام الى أن شطّ بعدها عن الطبيعة حتى أصبح فهمها غير ميسور

ومعظم سجاجيد هولباين صغيرة تشبه سجاجيد الصلاة . وثمت ضروب من الطنافس التركية تشبه سجاجيد هولباين في زخارفها الهندسية ، وان كانت تخالفها قليلاً في اختيار الألوان أو في سعة الاطار أو في ازدحام الزخرفة ومساحة الموضوعات الزخرفية وفي هيئاتها. وترجع هذه الطنافس الى القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولا يمكن التمييز بين أنواعها المختلفة إلاّ للاختصاصيين الذين تدرّب بصرهم على تقدير تلك التحف والحكم عليها ، لأن المرجع الأساسي في فهمها ليس الوصف وانما العين الدقيقة والخبرة الواسعة . وليست هذه الانواع بأسرها ممثلة في المعرض

***

وفي المعرض سجادة من مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم ( رقم ١٥ في الدليل ) تنسب الى النوع المعروف باسم الطنافس ذات الطيور . وهو ضرب من السجاجيد زخارفه هندسية، وأرضه بيضاء وفي النادر صفراء قاتمة ،وفيه رسوم زهور ووريدات ورسوم عربية « ارابسك » محرفة عن الطبيعة ويبدو بعضها أحياناً كأنه رسم طير ذي رأسين في اتجاهين مختلفين . والحق انها تشبه طنافس « عشاق » في بعض أساليبها الفنيـة ، ولا سيما رسوم الاطار. ويرجع عصرها الى ما بين نهاية القرن السادس عشر ونصف القرن السابع عشر ، كما يظهر من تاريخ بعض الالواح الفنية التي رسمت فيها (١)

وفي المعرض كذلك سجادتان من مجموعة علي باشا ابراهيم من النوع الذي يعرف باسم الزخرفة الصينية المسماة « تيشنتاماني » والتي تسمى أحياناً زخرفة « البرق والكوْر » أو زخرفة «السحب والاقمار» ( رقم ١٦ و ١٧ في الدليل ) . وذلك لأن الرسم الذي يتكرر في أرض السجادة يتألف من ثلاث كوَر على هيئة مثلثٍ وتحتها خطان صغيران ضيقان فيهما تمرج بسيط . أما الاطار فتوسط العرض وفيه رسوم سحب صينية وأوراق شجر وزهر أو شبه كتابة كوفية . وأرض هذا النوع من الطنافس بيضاء مساحتها كبيرة في الغالب

(١) المرجع السابق لبوده وكونل ، ص ٤٤

أما الطنافس التركية التي تنسب الى دمشق فيمثلها في المعرض ثلاث سجادات، الاولى من مجموعة الدكتور علي باشا ابراهيم ، والثانية من دار الآثار العربية ، والثالثة من مجموعة سمو الأمير يوسف كمال . والحق ان الرأي الراجح في دوائر الفنون الاسلامية الآن ان هذا النوع من السجاجيد خرج من المناسج السلطانية التي أنشأها سليمان القانوني في القسطنطينية، ولكنها تنسب الى دمشق لان الزخارف التي تسودها هي عينها التي نعرفها في الخزف والقاشاني المنسوبين الى دمشق في القرن السادس عشر ، والذي كان بعضهُ على الاقل يصنع في آسيا الصغرى . وقوام تلك الزخارف الفروع النباتية والمراوح النخيلية palmettes وأوراق الشجر والأغصان والزهور والبراعم والخزامى والقرنفل والسوسن

وأرض تلك السجاجيد حمراء ، وموضوعاتها الزخرفية قريبة من أصولها الطبيعية ، ولكنها مكررة ومرتبة في هيئة متكافئة بعيدة عن الطبيعة . ومع انها تأثرت بالاساليب الايرانية فان لها طابعاً خاصّاً . وتبدو زخارفها البديعة كأنها لوح من القاشاني ذي الألوان البهيجة و الزهور الدقيقة ، مما نعرفه في منتجات الطراز التركي في القرنين السادس عشر والسابع عشر

وثمت سجاجيد صلاة من النوع الذي نحن بصدده الآن . وكذلك يطلقون أسم سجاجيد المائدة على نوع منهُ متوسط المساحة ، مربع الشكل . ومن ضروبه الأخرى المعروفة سجاجيد ليست رسوم النبات والزهور فيها بغالبة على ساحة السجادة ، بل نجد هذه الرسوم في جامة ( صُرَّة ) في وسطها ، وفي كل ربع جامة من اركانها الأربعة وفي الاطار كله . أما سائر الساحة ففيه رسم مكرر قوامهُ نقطتان بينهما خطان متعرجان (١)

ولا يتسع المقام هنا لأن نعرض لنوع آخر من الطنافس المنسوبة الى دمشق والتي تكثر فيها رسوم النجوم والمناطق الهندسية المتعددة الاضلاع والزخارف النباتية المحرّفة عن الطبيعة ، وتسودها الألوان الحمر والخضر والزرق . فان جلّ علماء الآثار يظنون الآن ان هذا النوع من صناعة مصر فيما بين القرن الخامس عشر والسابع عشر (٢)، وان كان بعضهم

(١) المرجع السابق ، شكل رقم ٩٤

(٢) راجع مقال الاستاذ زيجفريد ترول Siegfried Troll عن الطنافس الدمشقية في المجلد الرابع من مجلة Ars Islamica ( سنة ١٩٣٧ ) . وراجع مقال الاستاذ إردمان K. Erdmann عن الموضوع عينه في المجلد الخامس من المجلة المذكورة

يذهب الى ان الطنافس المنسوبة الى دمشق بأنواعها المختلفة من انتاج مصانع سلطانية قامت في آسيا الصغرى على مقربة من القسطنطينية

***

ومن الطنافس المعروضة بضع سجاجيد من النوع المنسوب الى ترانسلفانية (من رقم ٢١ الى ٢٥ في الدليل) . والحق انهُ يشبه سجاجيد « عشاق » بعض الشيء ، وانما ترجع نسبته لتلك البلاد الى انه كان اكثر الطنافس التركية انتشاراً فيها ، إذ وُجد عدد كبير منهُ في كنائس المجر ورومانية ، حتى ان علماء الفنون الاسلامية رجحوا انهُ كان يصنع في الاناضول خصيصاً للتصدير الى شمالي البلقان

ويظهر التأثر بالطراز الفارسي في هذا النوع من الطنافس ، فقوام زخرفته في معظم الأحيان جامة في وسط ساحة السجادة وفي ارباع جامات في أركانها. وقد يحذف رسم الجامة وأجزائهـا من ساحة السجادة ويستبدل بهِ رسم مشكاة . أما الاطار فمن بحور او مناطق مستطيلة بينها مناطق نجمية الشكل على النحو الذي نعرفهُ في بعض سجاجيد الصلاة المصنوعة في مدينة كوردهس . وفي الساحة الوسطى والاطار رسوم نباتية وزخارف عربية (ارابسك) محرفة عن الطبيعة. ويرجع هذا النوع من الطنافس الى القرن السابع عشر وفاتحة الثامن عشر ، كما يتبين من الالواح الفنية الاوربية التي ترد فيهـا رسومهُ ، ومن النصوص المؤرخة على بعض سجاجيدهِ مسجلة تاريخ اهدائها الى احدى الكنائس في اقليم ترانسلفانية [1].

***

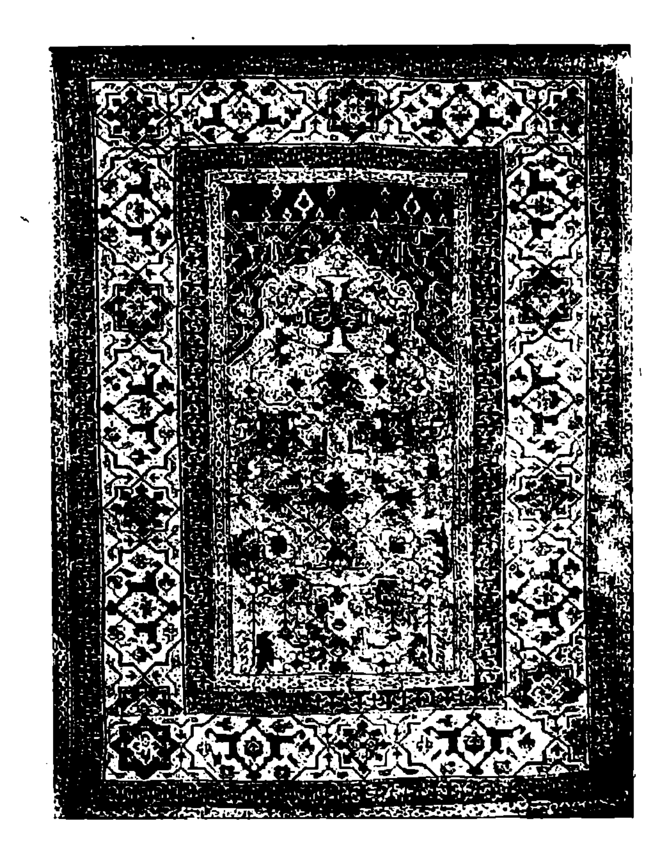
وقد وفقت دار الآثار لان تجمع في هذا المعرض عدداً وافراً من أبدع سجاجيد الصلاة التركية . وكلها من صناعة المناطق الجبلية بالاناضول في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وكثير منها دقيق النسج أرضه حمراء او زرقاء او بيضاء ، ومساحتهـا صغيرة في أغلب الأحيان ( ٦ أقدام × ٤ أقدام ) . ويمتاز معظمها برسم يمثل محراباً في أرض السجادة. وقد يكون المحراب ذا قوس واحد أو ثلاثة أقواس. وقد تكون لهُ أعمدة وربما حل محلها عصابتان أو عصابات زخرفية رأسية . وقد تتدلى من المحراب مشكاة وربما قام مقامها ابريق أو غير ذلك . ورسوم المحاريب مختلفة ففيهـا ذو القوس المدبب وذو العقـد الفارسي . ورسوم

(١) راجع J. de Vegh et Ch. Lager : Tapis turcs provenant des églises et collections de Transylvanie ص ٣٢



« هولباين » القرن الـ١٧

( الرقم ١٤ )



« ترانسلفانية » القرن الـ١٧

( الرقم ٢٣ )

الأعمدة قد تتطور حتى تصبح سلاسل أو أشرطة من الزهور والنبات وتبدو كأنها تتدلى من المحراب بدلاً من أن تكون دعامة له ، أما الاطار في تلك السجاجيد فمن عدة أشرطة رفيعة فيها رسوم زهور ووريقات محرفة عن الطبيعة، مكررة في نظام دقيق

***

ومعظم سجاجيد الصلاة التركية النفيسة ينسب الى مدينة كوردهس . أما ما جفت زخارفه وشطت عن أصولها الطبيعية وخشن نسجه فينسب الى مدينتي قولا أو لاذيق . وثمت مدن أخرى ينسب اليها بعض أنواع هذه الطنافس ولكننا لا نطمئن كثيراً الى هذه التفرقة الاقليمية لأن أساسها أسماء وضعها التجار بغير تدقيق ولا تمحيص

فالنوع الذي ينسبونه الى كوردهس ( جوردس ) ( من رقم ٢٧ الى ٥١ في المعرض ) يكون المحراب فيه أصغر منهُ في سائر أنواع سجاجيد الصلاة ويرتكز على عمودين أو أكثر. وأما الرسوم فدقيقة والألوان شاحبة والنسج محكم محتبك والاطار ضيق ، وبينه وبين أرض السجادة عدة أشرطة رفيعة . ولهذا النوع من الطنافس فروع لا يتسع المقام للكلام عليها هنا . وحسبنا أن نشير الى بعضها ، مثل الذي كان يهدى الى العرائس ويمتاز باطاره الذي تبدو زخارفه كأنها مثلثات متجاورة تستقر على قاعدتها تارةً وعلى احدى زواياها أخرى ، ومثل سجاجيد « الصف » وهي التي كان أفراد الأسرة الواحدة يصطفون عليها للصلاة ، وهي طويلة ، تشتمل على بضعة محاريب متجاورة

أما سجاجيد قولا ( كولا ) فأقل احتباكاً في النسج ودقة في الرسم ولكنها أكثر توقداً في الألوان . والحق ان الفرق ليس كبيراً بين سجاجيد كوردهس وسجاجيد قولا . ولكن المسافة بين عمودي المحراب في السجاجيد الاخيرة تزخرف غالباً برسوم زهر ونبات محرّفة عن الطبيعة . وكذلك تمتاز سجاجيد كوردهس بأن لها شريطاً فوق الساحة الوسطى وشريطاً تحتها على حين هذا غير موجود في سجاجيد قولا سوى شريط واحد فوق رسم المحراب . أما أشرطة الاطار فأكثر عدداً في سجاجيد كوردهس

***

وفي المعرض مجموعة نفيسة من سجاجيد قولا بعضها للدكتور علي باشا ابرهيم واحداها من مجموعة السير روبرت جريج والاخرى من مجموعة الدكتور بشر فارس .

( من رقم ٥٢ الى ٧٠ في المعرض ) وتترجح تواريخها بين القرن السابع عشر والتاسع عشر

وثمت ضرب من طنافس الصلاة ينسب الى بلدة لاذيق من اعمال مدينة قونية ، ويمتاز بألوانه الزاهية من أخضر وأزرق وأصفر. وفي ساحة المحراب رسم عصوين ورؤوس سهام فضلاً عن سائر رسوم الزهور — ولاسيما الزنبق — ولنا عهد بهذه في سجاجيد الصلاة التركية ( من رقم ٧١ الى ٨١ في المعرض )

وينسب الى ميلاس ضرب من الطنافس يمتاز برسوم في ساحته محرّفة عن الطبيعة تمثل شجرة الحياة، وبخانات مستطيلة تجري فيها خطوط متعرجة ، ألوانها الأحمر والاصفر والازرق والبنفسجي ( من رقم ٨٥ الى ٩٠ )

اما سجاجيد « المودجور » فذوات ألوان فاقعة وإطارات تبدو كأنها مربعات من القاشاني ( من رقم ٩١ الى ٩٤ )

والى « برْغَمَه » ( برجما ) وقونية تنسب طنافس صغيرة مربعة يسودها من الالوان الأحمر والأزرق والأبيض ، وتشط رسومها في البعد عن الطبيعة فتصبح اشكالاً هندسية متعددة الاضلاع . واكبر الظن ان هذه الطنافس كانت تجلب الى اسواق برجما وقونية ، ولكنها من صناعة القبائل البدوية شمالي الاناضول . ( من رقم ٩٥ الى ١١٥ )

***

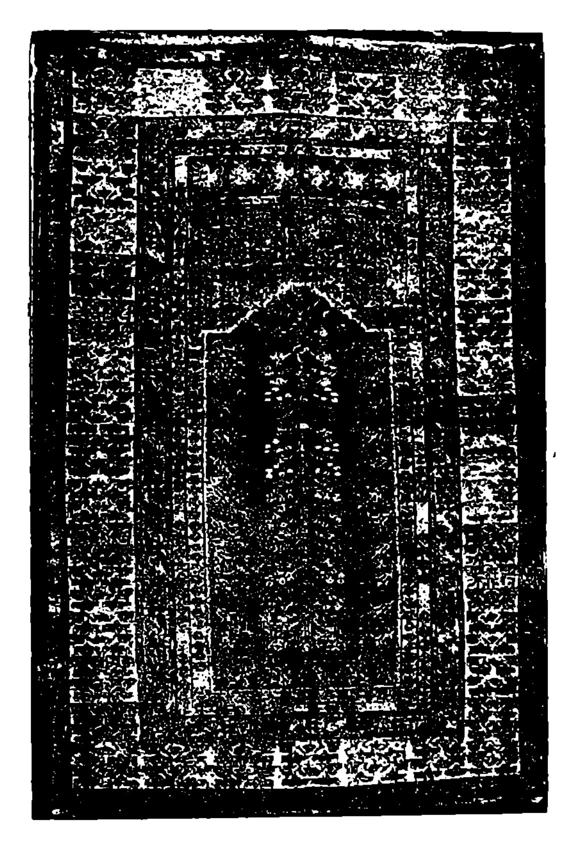
والحق ان المجال لا يتسع هنا لتفصيل الكلام على شتى انواع الطنافس التركية ، فحسبنا الاشارة الى توفيق الدار لجمع هذه النخبة الحسنة في المعرض

وما من شك في ان وصف هذا السجاد لا ينقل صورة واضحة لألوانه وزخارفه . فان ميدان السجاد من ميادين الفنون الاسلامية التي لا تكشفها ولا تتفهمها الا العين

***

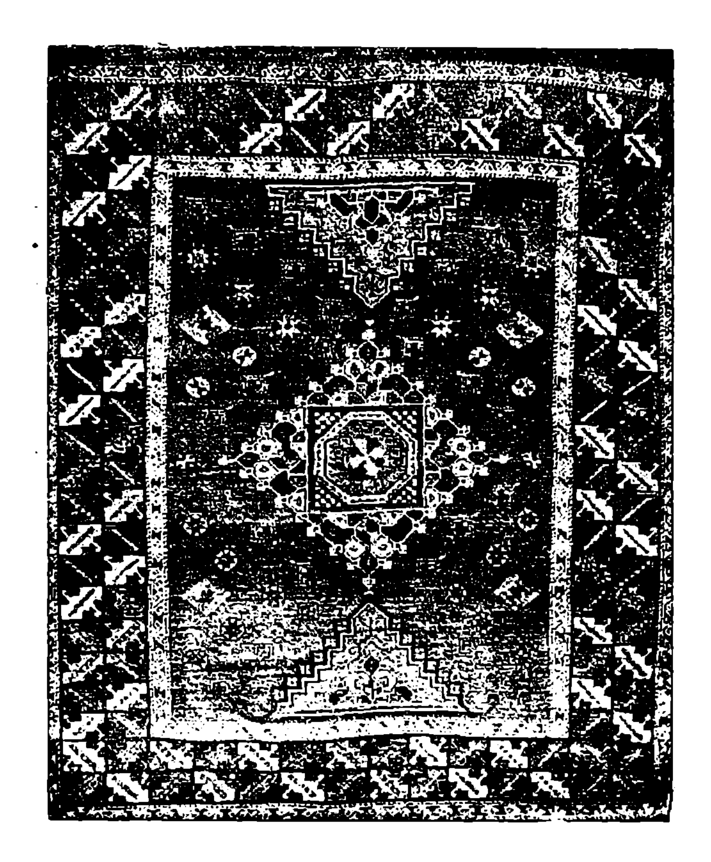
أضف الى ذلك أن علماء الفنون يختلفون أحياناً في نسبة الطنافس التركية المتأخرة الى شتى مراكز الصناعة لأن معظم هذه شارك في انتاج انواع مختلفة ، ولا سيما منذ مال السجاد التركي الى طريق الاضمحلال في القرن التاسع عشر ، فغمضت زخارفه وضاع التباين بين الاطار والساحة الوسطى ، وسادت في الرسوم الاشكال الهندسية لملء الفراغ فحسب

زكي محمد حسن



« قولا » القرن ال١٧

( الرقم ٥٨ )



« برغمه » القرن ال١٨

( الرقم ٩٧ )

# ٢ - الكتب

## ﴿ الاسلام اليوم ﴾ Islam To - day

نشر: A. J. Arberry and Rom Landau
طبع: Faber and Faber Ltd., London
١٤ × ٢١ ½ ، ٢٦٠ ص ، لندن ١٩٤٢ (1)

رأى مخرجا هذا الكتاب النفيس وناشراه - المستر ا . ج. أربري ، والمستر روم لانداو - ان العالم الاسلامي « وحدة منقطعة النظير » في تاريخ الجنس الانساني ، وعللا ذلك بان الاسلام وضع للمسلمين قواعد حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية جميعاً ، ورسم لهم النهج في كل باب ، ووجههم وأخذ بأيديهم في كل حلبة ، وبذلك تسنى له ان يتخطى الحواجز الجنسية والقومية والاجتماعية التي لم يكن ثمَّ معدى عن قيامها حائلاً بين طالب علم في مصر ، وفلاح في جاوه ، وتاجر في مراكش ، وصحافي في سورية . وليس أبغض الى الاسلام من التمييز بين الطبقات وتفضيل بعضها على بعض أو رفع واحدة منها فوق أخرى ، على النحو المعهود الذي لا تزال له بقية في اوربة . ورأيا كذلك ان فكرة « الوحدة الاسلامية » لم تزل منذ بداية هذا القرن تقوى ويتعاظم اثرها في العلاقات الدولية ، وحسب المرء ان يذكر اسماء بلدان كمصر والعراق ومراكش وايران ليدرك ما للشعوب الاسلامية من قيمة وأثر في شؤون العالم

ولذلك أرادا أن ينشرا على الناس كتاباً يكون فيه الجواب عن مسائل كهذه : هل صار العالم الاسلامي تحت سلطان الغرب ؟ وما هي آماله في العصر الحاضر ؟ وهل أمر الحكم فيه الى الدين ، والى اي مدى ؟ وما موقفه من الحرب العالمية ؟

وليس ثمة شكوى من قلة الكتب الموضوعة عن العالم الاسلامي ، ولكن هذا الكتاب أريدَ به أن يبيّن علاقة هذا العالم بالحوادث الدولية العصرية ، وانهُ لمطمع بعيد حتى في أيام السلام ، فكيف بهِ في زمن حرب تكثر فيها المصاعب والحوائل دون الاتصال بأرجاء هذا العالم الفسيح ؟ ولهذا استكتب الناشران طائفة من العارفين بالبلاد الاسلامية والواقفين على أحوالها وشؤونها ، وجلهم من الانجليز ، ولكنّ بينهم اثنين من الشرقيين المسلمين

(١) رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء

أحدهما الدكتور طه حسين بك وثانيهما السير حسن سهروردي ، فكان من جراء تعدد الاقلام وانفراد كل كاتب بفصل ، أن فقد الكتاب وحدة التأليف ، ولكنهُ صار أعظم قيمة لأن كل كاتب اعرف بموضوعه الخاص وأشد توفراً عليه من كاتب واحد يحاول الاحاطة بكل موضوع

وقد تناول الكتاب معظم البلاد الاسلامية المستقلة وأكثر الجماعات المسلمة المهمة ، وأهمل تركية لأنها في سنة ١٩٢٨ فصلت الدين عن الدولة ، وألغت التعليم الديني في مدارسها وكفت عن تعليم اللغة العربية أيضاً ، وأغلقت التكايا وما اليها، ولم تدع إلاَّ المساجد لاقامة الشعائر . وهذا سبب لا نراه كافياً لتسويغ اهمالها واسقاطها من عداد الدول الاسلامية ، وشبيهٌ بذلك أن تسقَط فرنسة من عداد الدول المسيحية من أجل ان الدين والدولة فيها مفصولان . ومما يجعل الحجة في ترك تركية أضعف ان الكتاب تناول بالبحث طوائف اسلامية في بلاد غير مسلمة ، نحو الصين والبلقان وروسية . فعسى أن يتدارك الناشران هذا النقص في طبعة تالية

ويعنينا من الكتاب، على وجه الخصوص ، الفصل الذي كتبه الدكتور طه حسين بك عن « مصر الحديثة » وهو وجيز لا يعدو ست صفحات وبعض صفحة ، ومن العسير ان يكفي للتعريف الوافي بمصر في حاضرها ، وبخاصة اذا أراد الكاتب ان يصل الحاضر بالماضي ، ويرد هذا الى ذاك ، ويجعل أحدهما بسبب من الآخر — كما فعل — وانهُ لنهج سديد في ذاته ، ولكنه يضيق مجال القول في حاضر مصر . ويذهب الدكتور طه بك بحق الى ان مصر كانت ، وما زالت ، منذ أقدم العصور تصل الشرق بالغرب موتجعل من بلادها ملاذاً للحضارة كلما اصطلحت عليها الخطوب وحلت بها النكبات والمحن ، وان قدرتها على اداء هاتين المهمتين الجليلتين رهنٌ بعوامل ثلاثة : مبلغ رخائها المادي ، وسهولة اتصالها بالعالم الخارجي ، وحظ أهلها من الحرية الشخصية . وقد ساق الأمثلة والشواهد ، بايجاز ، من قديم العصور وحديثها . وتراه ، من أول الفصل الى آخره ، لا يزال يكر راجعاً الى العهود القديمة للقياس والمقارنة والتمثيل . ولا شك ان هذا ما يقتضيه التعريف الحسن بروح مصر ونزعتها ، او بخصائص هذه الروح ، ولكنه في فصل قصير يجعل التعريف بمصر الحاضرة قليل الغناء، ويحول دون الاحاطة الواجبة بالجوانب المختلفة التي ينبغي ان ترفع قِبل العيون لقراء غربيين لا يعرفون عن مصر الاَّ النزر اليسير — اذا كانوا يعرفون شيئاً

ونستأذنه في القول انه بالغ قليلاً في قوله ان مصر آخذة الآن بأسباب نهضة لم تعرف مثلها في تاريخها الطويل . فاما انها آخذة بأسباب نهضة فصحيح ، وأما ان هذه النهضة

لامثيل لها في تاريخها الطويل الحافل فأمل نسأل الله ان يتحقق . ولكنه ليس أكثر من أمل لا نراه يجيز للباحث ، مهما بلغ من اطمئنانه اليه ، ان يسوقه مساق الأمر الواقع

وقد خص التعليم بجل عنايته ، وكان في هذا على صواب ، فان نهضة التعليم تفضي الى النهضة في كل باب آخر ، ولكن قارىء الكتاب حريّ ان يسأل بعد ان يفرغ من قراءة هذا الفصل عن الحالة الاقتصادية والاجتماعية ( وفي جملتها الحركة النسوية ) . وعن الحكم ونظامه القائم في البلاد ، وعن الفنون والآداب والصناعات ، والزراعة وغير ذلك مما تقوم عليه حياة الأمم . ولو كان الدكتور طه أوجز فيما أطال فيه ، وعُني ولو بالاشارة الى هذه النواحي ، لجاء فصله أوفى وأجدى . على ان من حقه علينا ، انصافاً له ، ان نحمد له عنايته بهذا التعريف الحسن بخصائص مصر العامة التي لازمتها من قديم الزمان ، وان كان بيانه لا يخلو من حماسة الوطني وغيرته على سمعة بلاده ، وليس هذا بعيب في ذاته ، وان كل مصري ليشكره له ، ولكن الكتاب لم يوضع للمصريين

ابرهيم عبد القادر المازني

﴿ قوانين الدواوين ﴾ بقلم الاسعد بن مماتي ، الوزير الايوبي

جمعه وحققه : عزيز سوريال عطية

١٧ × ٢٤ ، ٤٦٩ ص ، الجمعية الزراعية الملكية ، القاهرة ١٩٤٣

يعدُّ كتاب « قوانين الدواوين » وثيقة تاريخية عظيمة الخطر لأقسام مصر الجغرافية وأحوالها الزراعية ونظام الادارة والحكم فيها في القرن السادس الهجري أيام الدولة الايوبية التي لم يصلنا عنها إلاّ النزر اليسير . وقد كان المؤلف مشاركاً في الدواوين المصرية حتى ولي رياستها في عهد الايوبيين . وأضيف اليه ديوان الجيش وديوان المال . فهو عريق في مناصب الدولة الكبرى ، ولذا كان لكتابه قيمة كبيرة . فأحاديثه عن أحوال الدواوين في مصر هي أحاديث الخبير المطلع على الأمور

ومن هنا كان اهتمام المغفور له الامير عمر طوسون بنشر هذا الكتاب عظيماً ، ومقصده أن ينتفع به قراء العربية والمشتغلون بشؤون الزراعة والتاريخ

وكان للامير الراحل فضل البدء في تحقيق الكتاب وتنقيحه قبل أعداد أصوله للطبع . ولما بلغه أن الدكتور عزيز سوريال عطية ، أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فاروق الاول بالاسكندرية معنيٌّ بهذا الكتاب وكل اليه أمر إنجاز العمل عن حسن تقدير ، فبذل الدكتور جهوداً مضنية لم يفت سمو الامير أن يشير اليها في مقدمته للكتاب

ونحن اذا أشدْنا باشارة الامير على الجمعية بنشر الكتاب ، وأشدْنا بمجهود سموه في التنقيح زمناً ، وأشدْنا كذلك بمجهود الدكتور عزيز سوريال بعدما استقل بالعمل ، فان ذلك كلهُ ليس بمانعنا من أن نصرف الى هذا الكتاب المهم عناية خاصة فنقول فيه كلمة لا تنقص من قيمة الجهد المبذول ، بل على الضد من ذلك تُعلي من قيمته

والحق ان أصول الكتاب ونسخه الخطية كانت — كما يلوح لي — على حال لا يستقيم معها اخراج الكتاب في سهولة ويسر . ولذلك آثر الدكتور عزيز سوريال أن ينشر النص دون تصويب إلاّ ما لا بدّ منهُ ، معتذراً لذلك بأن يظل الكتاب محتفظاً بقيمته الاثرية أو أسلوبه الأثري . وهذا موضع نظر : فان أقدم مخطوطة للكتاب ليست بخط مؤلفه ابن مماتي بل كتبت بعده بما يزيد على قرن . فما قيمة الاحتفاظ بأسلوب أثري ليس للمؤلف الأصلي يدّ في مسخه وتحريفه ؟

والآن نذكر ملاحظاتنا :

ا — ﴿ ترجمة المؤلف ﴾ رجع الدكتور الى شذرات ذات قيمة في حياة ابن مماتي في « وفيات الاعيان » و « خطط المقريزي » و « معجم الأدباء » . ولكن يظهر انهُ عنّت لهُ بعد انجاز الكتاب شذرات أخرى كالوافي بالوفيات للصفدي . وقد وعد بنشرها مستقلة تكملةً للكتاب. وما كان أجمل لو أن الناشر استوفى ترجمة ابن مماتي ووضعها في أول الكتاب فلم يعمد الى الاضافة والتكميل مما يدل على تأخر في الأهبة

وفي كتاب السلوك للمقريزي أشارات موجزة الى ابن مماتي ص ١٠٥ سطر ٤ ص ١٣٨ سطر ١١ ص ١٦٥ سطر ٦ وفيها ذكر القبض عليه وتعليق رجليه ، وص ١٩٢ سطر ١٢ وفيها ذكر فراره الى حلب

ونذكر ايضاً انهُ جاء في السلوك ج ١ ص ٥٨ ذكر للخطير مهذَّب بن مماتي وقد علق عليهِ الدكتور محمد مصطفى زيادة ناشر الكتاب بقوله (لعلهُ ابن مماتي صاحب كتاب قوانين الدواوين ) والصواب انهُ والده

ولم يتعرض المستشرق نيكلسون لذكر ابن مماتي ، على حين ان الاستاذ « هيوار » ذكره في كتابه المشهور ص ٢٠١ ، وهو يشيد بقيمته الشعرية . على ان القليل الذي وصل الينا من شعره لا يجعلنا نطمئن الى حكم « هيوار » Huart على العلات

ب — ﴿ تحقيق وفاة ابن مماتي ﴾ يذكر الدكتور عزيز ان ابن مماتي توفي بحلب سنة ٦٠٦هـ نقلاً عن معجم الادباء ، وهذا يوافق ١٨ نوفمبر سنة ١٢٠٩ م . ثم يعود الدكتور عزيز في هامش صفحة ٢٢ من المقدمة فيذكر أن تاريخ وفاته على حسب رواية ابن خلكان هو ٣٠ من

نوفبر سنة ١٢٠٩ م . وهذا يوافق ما جاء في كتاب « هيوار » . ولكن السيوطي يذكر في «حسن المحاضرة» ج ١ ص ٣٢٥ طبعة الوطن ، أن ابن مماتي توفى سنة ٦١٦ هـ . وهو تاريخ علق عليه الدكتور بكلمة « كذا » . ولست أرى ما يمنع صحة هذه الرواية . فقد روى ابن دقاق صاحب كتاب « الانتصار » أبياتاً لابن مماتي يمدح فيها الملك الكامل . وهذا الملك استقل بملك مصر في يوم الجمعة ٧ جادى الآخرة سنة ٦١٥ هـ ( النجوم الزاهرة ج ٦ — ص ٢٢٧ )

والدكتور عزيز يشك في صحة هذه الأبيات لا لسبب ظاهر الا أنها تؤيد رواية السيوطي في تاريخ الوفاة

ويلوح لنا ان الدكتور عزيزاً لم يبذل من الجهد في تحقيق وفاة ابن مماتي كل ما هو حقيق بطول أناته وسعة علمه. ولقد رجعتُ اليها في ابن الاثير طبع أحمد الحلبي سنة ١٣٠٣هـ فلم اجد لها ذكراً في حوادث سنة ٦٠٦ هـ ولا في سنة ٦١٦ هـ . ورجعت اليها في كتاب «روضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر» لابن الشحنة فلم أجد لها ذكراً . ورجعت اليها في « تاريخ أبي الفداء » طبعة دار الطباعة بالقسطنطينية فلم اجد لها أيضاً ذكرا

ومما يثير العجب أن المقريزي في كتاب « السلوك » لم يذكر وفاة ابن مماتي في حوادث سنة ٦٠٦ هـ ، ولكنه ذكر في حوادث سنة ٦٠٧ هـ وفاة يوسف بن الاسعد ابن مماتي . . . .

أما ابن العماد الحنبلي صاحب « شذرات الذهب » فقد ترجم لابن مماتي ترجمة مختصرة ( ج ٥ ص ٢٠ طبعة القدسي ) . وذكره في وفيات سنة ٦٠٦ هـ . وهو ناقل عن ابن خلكان بالتحقيق لانهُ لم يذكر من مؤلفاته غير الكتابين اللذين ذكرهما ابن خلكان وهما :« نظم سيرة صلاح الدين » و « نظم كتاب كليلة ودمنة »

ج — ❁ ضبط الشعر في الكتاب ❁ الشعر الوارد في المقدمة محرف مكسور في الجملة . ومع ان المؤلف يصحح كلمة في بيت « ليستقيم بها المعنى والوزن » ( ص ٤٦٨ ) فاتته أشياء في الشعر الوارد كله ، ففي ص ١٦ ،

منـه رأينا الصبحَ تزدا ن وتزداد انفراشا

وصوابه :

مذ رأينا الصبح يزدا ن ويزداد انفراشا

والتصويب عن « معجم الادباء » طبعة رفاعي لا طبعة مرجوليوث التي رجع اليها الاستاذ عزيز

وفي ص ١٧ ضبط البيت الآتي هكذا :

ورأى أن يرسلَ الاسْـــهُـم بالبَـرَد فراشا

وصوابه بالبرْد بسكون الراء .

وفي ص ١٧ أيضاً :

وأنست الصيَّ الصبا وأذكرت جهنـما

وصوابه : وأنست الصِّبي الصَّبا

ومن التحريف في الشعر ص ١١

كفر النصارى بعد ما عَـذَروا به دين المسيح

والصواب : غَـدَروا بمعنى خانوا

وفي ص ١٦ (هذا البيت في هجاء رجل) :—

فني أفعاله تَوْرًا وفي الفاظـــه بَـرَدَى

ويضبط الدكتور « تورا » بالتاء المثناة الفوقية . ويعلـق في هامش ص ٢٠ مع بعض التسرع : في الاصل : « ثورا » . وهو خطأ والصواب « تورا » بالتاء المثلثة . راجع مادة « ثورا » « معجم البلدان » طبعة الخانجي وهو نهر بالشام . وقد صنع فيه العماد الأصفهاني بيتاً يقول فيه

يزيد اشتياقي وينمو كما «يزيد» يزيد «وثورا» يثور

( ويزيد : اسم نهير بالشام أيضاً . )

ويذكر الدكتور بيتين نسبا الى عمارة اليمني حين أمر « شيركوه » النصارى في مصر بلبس الغيار والتعمم بغير عَذَبة . وهما : —

يا أسد الدين وَمَـن عدله يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غيارا شدَّ أوساطنا فما الذي يوجب كشف القفا ؟

وكان يحسن بالدكتور ان يحقق هذا ، فظاهر الشعر يوهم أن عمارة كان نصرانيـًا . وذلك لم يقل به أحد ، فهو عريق في الاسلام ( راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٨٦ ) . والدكتور يروي عن ياقوت . وعبارة ياقوت فيها خلط . وحق هذا الشعر ان يكون لابن مماتي أو لابيه المهذب لأنهما كانا غير مسلمين ثم أسلما

د — ﴿ النظر في المتن ﴾ رجع الناشر في تحقيق أسماء النواحي الى مؤلفات أخرى ، وهو سعي جليل . ولو فعل ذلك في أسماء النبات أيضاً لكان أتمّ . ولو جرى على رسم واحد في كتابه لكان أكثر اطراداً وأوفى مراداً ولكنه تارة يُرسم هاتور : هتور ، والاقراصية : القراصيا ، وزهرة المنثور : المنثور ، وتارة يذكر : التفاح القاسمي ، ثم يعود

فيقول عنه : التفاح الشامي . والصواب القاسمي . ( راجع «نزهة الأنام في محاسن الشام » ). وتارة يذكر : التين البوني ، وهو خطأ وصوابه : البرزي ، نسبة الى برزة ، من متنزّهات الشام ( راجع ص ٢٦١ من « نزهة الأنام » )

وفي ص ٨١ جاء في متن الكتاب ( — وبها — أي بمصر — الأفيون ، وبها القرط ) ويفسّرهُ الدكتور في الهامش بأنهُ لجام الفرس ! ! مستعيناً في ذلك بالقاموس المحيط . فما معنى قول ابن مماتي بعد ذلك « وليس في الدنيا قرط تشد عليه الخيل الا في مصر » . فهل معنى هذا انه ليس في الدنيا لجام تشد عليه الخيل الا في مصر ؟ الحق ان القُرط وزان قُفل نبات شبيه بالرطبة واسم حبه البرسيم ( راجع «المخصص» . ومعنى « تشد » هنا أي تقوى عليه الخيل ( راجع « القاموس » مادة : — الشدة )

ﻫ — ﴿ الاخطاء النحوية ﴾ آثر الناشر ألاّ يتعرض لتصويب أخطاء الكتاب النحوية واللغوية . ولكنه عمد أحياناً أخرى الى التصويب . فلمَ لا يجري على قاعدة سواء ؟ وكيف يترك الأستاذ الدكتور أمثال هذه الاخطاء من دون تصويب : — « تختلف باختلاف سنينه ص ٢٧٦ » . «ومتى وُجد شيئاً ص ٣٢٩ » «وأربعُ مثاقيل ص ٣٣١» و« لهذا الخراج ص ٣٤٥ » و « البطة خمسين رطلاً ص ٣٦٥ » . ؟ ان ابن مماتي هو الأديب الشاعر الرئيس العين الجليل الكبير المنزلة ( كما نعته ياقوت ) فكتابه — عندنا — بريء مما تركه الأستاذ الدكتور بحجة الابقاء على أسلوبه الأثري وان كانت هذه حجة بعض الناشرين من الأفرنج

أما الأبيات الناقصة المخلّعة في ص ١٧٠ المنسوبة الى أبي الفضل الأدفوي في فضل مدينة قوص فلا يحسن تركها على هذه الصورة ، فانها لأبي الفضل الأدفوي مؤلف كتاب « الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد » . والمتوفى سنة ٧٤٨ ﻫ وهي مذكورة كاملة صحيحة سليمة في كتابه ص ١٥ ( طبع المطبعة الجمالية )

وبعد فهذه ملاحظات لم نرَ بدّاً من ذكرها حتى تتم الفائدة للقارىء فيضيفها الى جهد الأستاذ الدكتور عطية ، وهو جهد ملموس في ثنايا الكتاب عند مراجعة النسخ المخطوطة ومعارضة بعضها ببعض ، وفي آخره عند تدوين المسارد ( الفهارس ) وهي ثمانية مقسمة الى فنون مختلفة بين أسماء الأعلام ، والبلدان ، والخلجان والترع والجسور ، والنبات والزرع ، فضلاً عن الأقسام الادارية والألفاظ المستعصية . والكتاب أخيراً مرجع نفيس

محمد عبد الغني حسن

﴿ أبو شوشة والموكب ﴾ بقلم محمود تيمور

$13\frac{1}{2}$ × ١٩ ، ١٠٤ ص ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٤٣

هذه هي الطبعة الثانية لهاتين المسرحيتين ، وقد ظهرت في دمشق وباللغة الفصحى ، والطبعة الاولى كانت خرجت في مصر باللغة العامية . ولعل هاتين المسرحيتين ولاسيما الاولى خير ما عمل محمود تيمور للمسرح . وقد سبق لنا ان كتبنا في ذلك . وعلى من يريد الاستزادة أن يطالع المقدمة التي صنعها زكي طليمات — الخبير بفن المسرح ظاهره وباطنه — لهاتين المسرحيتين ، فانه نظر فيهما بحذق *

﴿ تاريخ بير السبع وقبائلها ﴾ بقلم عارف العارف

١٧ × ٢٤ ، ٣٢٩ ص ، مطبعة بيت المقدس ، القدس ١٩٤٣

يبحث الكتاب في تاريخ البلاد التي تؤلف « قضاء بير السبع » في الوقت الحاضر والتي يحدها من الشمال جبل الخليل ومن الشرق البحر الميت ووادي العربة ومن الغرب البحر الابيض المتوسط وشبه جزيرة سينا ومن الجنوب خليج العقبة . ويعتمد المؤلف ثلاثة مراجع : الكتب والأسفار فالطلول والآثار ثم الاحاديث والأخبار . ولكنه يتلقاها بالمراجعة والتمحيص ، وليس المرجع الأول بغزير . وفي الابواب باب في الحروب التي نشبت بين القبائل مع ذكر أسبابها وأيامها . ثم باب تعرض فيه حال بير السبع على تعاقب العصور من زمن الكنعانيين والعموريين والفلسطينيين والمصريين وبني اسرائيل وغيرهم كالأنباط والفرس واليونان والروم حتى عهد العرب والصليبيين والاتراك ومن حل محلهم اليوم . ولهذا الكتاب الذي حاول صاحبه ان يجريه مجرى المبحث العلمي مسرد اجتمعت فيه موضوعات الكتاب وأسماء الأمكنة والأعلام الواردة *

﴿ ما تيسر ﴾ بقلم خليل سكاكيني

مجموعة مقالات وخطب في التربية والاجتماع والسياسة

١٥ × ٢٢ ، ١٣٥ ص ، المطبعة العصرية ، القدس ١٩٤٣

﴿ من يوميات فتاة عصرية ﴾ بقلم حسين شوقي

$11\frac{1}{2}$ × $16\frac{1}{2}$ ، ١٢٨ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤

# ٣ - المحاضرات

## ﴿ علاقة مصر بالاجانب ﴾

ألقاها حسن نشأت باشا في قاعة ايوارت مساء ١٧ فبراير سنة ١٩٤٤

استهلَّ المحاضر كلمته بوجوب الدخول في هذا البحث على ضوء العقل ومجانبة العاطفة وتوخي مصلحة الوطن ، وقال عن بلادنا ان الطبيعة خصتها بمركز عظيم جعلتها حلقة الاتصال بين الشرق والغرب

وبذلك عظم شأن الجاليات الاجنبية القديمة من فينيقيين وبعد ذلك من رجال من جنوة وبيزة والبندقيـة ، وأما اليوم فنرى جاليات تمثل جميع بلاد الغرب والكثير من بلاد الشرق ، وعرض المحاضر لحالة النزلاء في عهود قديمة — (١) العهد الاول ، الى آخر القرن السابع قبل الميلاد وفيه كانت مصر ذات مركز تجاري له اهميته .وذكر فيما ذكر ان رمسيس فتح أبواب مصر على مصراعيها لدخول الاجانب فنزل بها كبار التجار ثم منحوا امتيازات — (٢) العهد الثاني منذ حكم بسماتيك الذي أقام بمصر بموازرة اليونانيين . وبعد ذلك رحل اليهود الى مصر ورحل السوريون عقب حروب ساماري وسنحـاريب ثم رحل التجار والعلماء والفلاسفة — (٣) وأيام البطالسة أصبحت مصر المنفذ الرئيسي لتجارة آسيا والهند وافريقية ، وكان يقوم بالتجـارة اليونانيون واليهود . وتاريخ هذين الشعبين هو تاريخ الاجانب المقيمين في مصر ايام البطالسة وايام الرومان

النزلاء أيام الحروب الصليبية : فيها قام الايطاليون بالسفارة التجارية فنُـقلت البضائع الشرقية الى اوربة ، وعلى الرغم من العوائق التي أقامها جان مديسيس. ومنذ القرن الثاني عشر جرت بين بيزة ومصر معاملات تجارية فعقدت معاهدة بين الخليفة الفاطمي اسماعيل الظافر وسفير البطريق فيلاتوس وقناصل بيزة

النزلاء منذ القرن التاسع عشر الى الآن : في هـذه الفترة نزح الى مصر عدد كبير من الاجانب من جنسيات مختلفة ، وأهم الجاليـات : البريطانية — الفرنسية — الايطالية — اليونانية — البلجكية — السوسرية — الاسبانية . . . وأحصى المحاضر النزلاء سنة ١٩٣٧ فكانوا ١٨٦٥١٥ ، وهي أقل نسبة ، ففي سنة ١٩٢٧ مثلاً بلغوا ٢٢٥٦٠٠

ثم أشار الى اكرام الحكومات للاجانب منذ عهد محمـد علي ، وأسهب في وصف حالة الاجانب ابتداء من مايو سنة ١٩٣٧ ، وأشار الى الضمانات في حق الاقامة ورعاية الشركات

الى غير ذلك مما ينزه نيّة الحكومة المصرية . وأوصى أخيراً باكرام وفادة الجاليات ، ثم ختم محاضرته بالجملة البليغة الخالدة « أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا »

كامل محمد عجلان

## وظيفة الجامعة في العالم الحديث

ألقاها الدكتور رلمنت Lamont أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول في الجمعية الجغرافية الملكية مساء ٢٣ فبراير سنة ١٩٤٤

عرض المحاضر لنشأة الجامعات في البيئات الدينية المسيحية والاسلامية في العصور الوسطى ثم تحررها من سلطة رجال الدين وبدء اتجاهها نحو الديمقراطية في التربية العلمية والخلقية

وبحث الاستاذ عن هذه المسألة : هل نجحت الجامعات في تأدية رسالتها في القرن التاسع عشر وفاتحة القرن العشرين ؟ فقال : أما جامعات بريطانية فانها نجحت من ناحية التربية الخلقية لأنها نشأت في بيئات اقليمية وذهبت عن طلابها الصفة الجامعية التي ازدهرت في العصور الوسطى حين كان طلاب الجامعة الواحدة من مناطق وأوطان مختلفة وكان بعضهم يؤثر في بعض من حيث تباعد آفاقهم فكراً وتجربة ، وقد ضاع ذلك في الجامعات الاقليمية الجديدة . ثم ان هذه الجامعات حصرت عنايتها في التربية العلمية التي توافق الانقلاب الصناعي وتقدم الآلة

واستثنى المحاضر هنا جامعتي اوكسفرد وكمبردج وجامعات الولايات المتحدة حيث يلتقي طلاب من مناطق متباعدة . ثم أشار الى ما يجري في المانية إذ يتنقل الطالب بين جامعات شتى رغبةً في زيادة تجاربه واتساع مداركه

ثم عرض لمصر وشرح مزايا موقعها الجغرافي وزعامتها لبلاد الشرق العربي فأشار الى ضرورة انشاء عدة جامعات تكون مراكز للثقافة . ولكنه صرّح بأنهُ يخشى انا اذا فتحنا الباب على مصراعيه ، فكثر عدد الطلاب في الفرقة الواحدة ، ضعفت الصلة بين الطالب وأستاذه فينحدر التثقيف الى نظام المحاضرات العامة

ويلوح ان المقصد من هذه المحاضرة رغبة المحاضر في أن يحث الجامعة على تنمية الصلة بين الاستاذ والطالب لتفلح الجامعة في تربية الشخصية والارشاد الى طرق البحث العلمي القويمة الى جنب توفيقها في مجال العلوم البحتة والتطبيقية

زكي محمد حسن

# ٤ - الذاهبون

« في الذاهبين الاولين من القرون لنا بصائر »

قس بن ساعدة

---

## جان جيرودو Jean GIRAUDOUX

فرنسي . ولد سنة ١٨٨٢ وتوفي سنة ١٩٤٤ . جال في أوربة ورحل الى شمالي أميركة . انسلك في وزارة الخارجية . زار روسية والشرق . عين يوم اعلان الحرب على المانية مدير مكتب الدعاية

كانت القصة الفرنسية بعد الحرب الماضية خفيفة الوزن، أضرّت بها السرعة . والقَصص الحقّ وليد الخبرة بالحيـاة ، والنظرة النضيجة ، والتفهم والتوجع . وهـذان من توابع الملابسة الطويلة لمحن الانسانية

كان جان جيرودو — وعلى هذه الحال جُلّ إخوانه القُصّاص — لا يُعنى إلاّ بالساعة التي هو فيها : الحاضر جملة الحيـاة . فلعلّ الحرب الماضية علمتهم جميعاً السخرية بالمستقبل ، لأن الموت في الزمن القريب وربما كان في الغد ، ففيمَ العناية بما هو آتٍ ؟ وما يكون البقاء ؟ وما يكون العمل الذي لا يفنى ما دام الفناء فينا ؟ ثم بصّرتهم لواحقُ الحرب أن الأوضاع والتمثّلات والعقائد الى تبدل محيِّر ، فما يكون الشعور بالقائم المتصل ؟

من هنا وهناك تلك القصص الخالية من القيمة الدائمة، من الحقيقة الثابتة

مثل هذا اللون من القصص انما يدخل في الأدب العابر والانشاء الذي لا خطر لهُ ، لانهُ غير مغموس في تيّار الحياة الدفّاقة ، ولا منتزع من وليجة النفس المعقّدة . وليس معنى هذا انهُ أجنبيّ عن الفن . فأولئك القصاص عمدوا الى أساليب في البيان أخاذة ، وطرقوا موضوعاتٍ منشّطة ، إلاّ أن شأنها غير عظيم

وامتاز جيرودو — في جانب الموضوعات -- بتناول نفسية المرأة على حين انها كالمهملة في الغالب عند اخوانه ، ووصف ملامح فرنسة في قراها ومدنها ، في سهلها وسمائها ، في برج ايفل ، وعالج صلة فرنسة بألمانية فحلّل روح هذه وبيّن متناقضاتها . وصفةُ جيرودو في كل ذلك الاطمئنان الى عيشة رغد ، والتمتع بسعادة هيّنة ، مما يبث في قصصه طراوة

الفتيّ، ونعومة المرفّـة، وخفة الشارد، وسذاجة المبتسم ..تلك حال من حالات النفس يهددها الملل، لذلك ما قويتُ على أن ألزم قصةً لجيرودو وذهني ظمآن وضميري طلاّب . ان الملل الذي يهـدد أبطاله من طول النعيم يدلف الى القارئ، وذلك حتى في قصصه الأخيرة، Choix des Elues مثلاً، حيث أراد أن يغذّي العيش الهيّـن بعنصر داخل عليه : الرفق

وأما بيان جيرودو فغاية الفن سواء في الجو الذي يختاره لجري القصة أو في التعبير . اما الجوّ فبين الواقع والموهوم، ان جيرودو يفكك الواقع ويرسلهُ في كون متخيَّـل كما صنع في Juliette au pays des hommes فيتسحّب معهُ الخاطر ويشرد الرأي . وأما التعبير فأسلوبه أفواج من الاستعارات الغرائب والتشبيهات الطرائف، تارةً متلاحقة وأخرى متشابكة، وفي قصة Suzanne et le Pacifique الشيء الكثير من هذا . كل ذلك يردّ التآليف جملة من البـدَوات الشوارد، ولـكنها بدوات ان لم تكن مثقلة بالتفكّـر فهي مرهفة، مصقولة . ولا شك أن جيرودو واخوانه — على رأسهم كوكتو J. Cocteau — ابتدعوا في التعبير وافتنوا في التصوير حتى انهم ابتكروا أداءً كان اساتذتهم الشعراء، مثل رامبو وأبولينير، مهدوا الطريق اليه

وها هنا مَـثَـل من بيان جيرودو ( فاتحة قصة . . . Suzanne )

« كان اليوم، مع هذا، مما لا يحدث فيهِ شيء، ومما تخرج فيهِ الكواكب متجاورةً لا عمل لها، خروج الدجاج والمطرُ مستمر، وقد أحسّـت الكواكب أن الحياة ستظل راتبة حتى المساء، وكان من دأبها ان تنوّعها . وكان كل شيء في السماء : كانت الشمس، وتحت شمار كان القمر . الليلُ، الصباحُ، كل شيء كان محضـراً على سُمُـط وضـاءة . وكانت ريح الجنوب تقع على ريح الشرق عموديةً، وكانت أنسام شمالية غربية جنوبية تلمسك برفق في الزاوية القائمة »

***

إن قصص جيرودو قدرها في طراوة الموضوع وطلاوة الأسلوب. ولـكن له مسرحيات، وفي بعضها فوق ذلك . ولا أعني تلك التي جعلته المسرحيّ الرائج — أو كما يقول الفرنسيون à la mode — أو الساحر l'enchanteur، ثم لا أعني تلك التي أداها الممثل لويس جوفيه L. Jouvet أشهراً أو شهوراً متلاحقة، من ذلك مسرحية Amphitryon 38 وقد شهدتُها سنة ١٩٢٩ في مسرح Champs Élysées وخرجتُ منها وأنا أقول : « تلك

حلاوة ! » . ومن ذلك ايضاً آخر مسرحية شهدتها له ، وكان ذلك في مسرح Comédie Française في خريف ١٩٣٨ ، وعنوانها « المزامير » . وما أدري هل طبعت ، لذلك أجملها وأنعتها : هي تنقل الفكرة الجائلة في مزامير العهد القديم الى مجرى الحياة الحاضرة . ومدار هذه الفكرة عند جيرودو أن امرأة موزّعة القلب تبوح بما يضطرب في دخيلة نفسها بمرأى من سيدها ومسمع ، فتخبره غير واعية بأنها تجلّه وتحب مع هذا فتىً ناعماً ، فلا بد من القطيعة. والمسرحية مجراة على الطريقة الرمزية المستحدثة : ايماء وتلويح وحديث باطن وغموض لطيف ، الاّ انها اقرب الى المهارة الذهنيّة منها الى التأثر الدفين

والحق ان المهارة الذهنيّة الى جنب الثرثرة واستدعاء الطرائف وفرض الكاتب فنَّهُ على العبارة مما يضر بصدق الشعور وبعد الفكر عند جيرودو . ثم ان جيرودو يؤثر الخفة ويطلب الظرف ويقصد الأخذ ، وعلى هذا مسرحياته Ondine ونظائرها . وما أظن أن بهذا يعجَب من يُكبر شكسبير . غير ان لجيرودو مسرحية Siegfried وقد نقلها من قصة له ، بل له « حرب طروادة لن تكون » La guerre de Troie n'aura pas lieu . فهذه حقاً مسرحية ذات خطر ، وان انبثت في ثناياها عيوب جيرودو ، نحو الحشو والتكلف . هي مسرحية على حسب المفهوم الاغريقي ، ولا مفهوم غيره ، وعليه جرى شكسبير المعلم وراسين وإبسن . وقوام ذلك تناظر قوتين متفاوتتين ، احداهما تصرع الأخرى بعد عراكٍ عنيفٍ طويل . وموضوع المسرحية الاخيرة ، في كلمة ، أن حرب طروادة وقعت لسبب تَفِه أعجز سلم القومين وأضاع حلم الرئيسين . وبهذا ردّ جيرودو الى المسرح جوهره النقيّ ، وهو النضال الخفيّ العنيف ، والى الناظر متعتَه الرفيعة ، أريدُ الانجذاب المستتر والاغراق في التأمل الصامت ( هل يقرأ أهل المسرح عندنا ؟ ! ) . ولكن جيرودو أخرج هذه المسرحية ثم عدل الى الخفائف الظرائف ، لأنهُ المسرحيّ الرائج فلا بدّ له من مؤانسة النظّارة ، ولا يكون ذلك إلاّ اذا نزل اليهم

واني ناقل لك هنا بعض مشهد من هذه المسرحية ، وربما فطنتَ معي الى مسحة شكسبيرية

الفصل الثاني ، المشهد الثالث عشر

( الرئيسان : أُليس وإكتور ، يتفاوضان في الصلح )

إكتور — أهذا هو النضال الحقّ يا أُليس ؟

أُليس — أجل . النضال الذي منه تثور الحرب أو لا تثور

إك — هل تثور ؟

أل — سنعرف ذلك بعد دقائق خمس

إك — اذا كان النضال في مجال الكلام لخطي قليل

أل — يخيل إليّ أنهُ سيكون في مجال الوزن . كلانا كأنه في كفة ميزان . لينطق المثقال !

إك — وزني ؟ ما أزن يا أليس ؟ وزني رجلٌ فتيّ ، امرأة فتية ، طفل سيولَد . وزني مرحُ الحياة والاطمئنان اليها . وزني الطفرة نحو الذي هو عادل وطبيعي

أل — وزني الرجل الكهل ، المرأة في الثلاثين ، الابن الذي أقيسه كل شهر بحزّات أجريها في اطار باب القصر . . ويزعم أبي أني أفسد النجور . . . وزني التلذذ بالحياة والحذر منها

إك — وزني الصيدُ والبسالة والوفاء والحب

أل — وزني الاحتشام بين أيدي الآلهة والناس والأشياء

إك — وزني البلّوط الذي في أواسط آسيا الصغرى ، كل أشجار البلوط المورقة المتكتلة ، مبعثرة مع بقرنا المجعّد فوق تلالنا

أل — وزني شجر الزيتون

إك — وزني الباز . أحدق الى الشمس ببصري

أل — وزني البومة

إك — وزني قوم بأسرهم من الفلاحين الدمثين والصناع المجتهدين وآلاف من المحارث والمناسج والأكوار والسنادين ... آه ! فيمَ هذه الأثقال جميعها تبدو لي ، لجاءة ، خفيفة أيّ خفة بين يديك

أل — أزن ما يزن هذا الهواء الذي لا يفسد ولا يرق ، في الشاطىء ، في الجزائر

إك — لِمَ المواصلة ؟ ان الميزان يميل

أل — جهتي ؟ أجل ، لعله كذلك

بشر فارس

# ٥ — التعقيب

النقد القويم لا بد منه للتعريف والتنوير ، فلكل من القارىء والكاتب فائدة فيه . لذلك يظفر بمنزلة جليلة في الدوائر العلمية والادبية في البلدان الرفيعة المثقفة . ومن المتبع في تلك الدوائر أن يحترم المؤلف حرية الناقد وعمله

وبعد فقد نشر هنا في العدد الماضي نقد لكتاب ظهر حديثاً ، وجرى النقد على الاسلوب العلمي فكراً ولفظا . فلم يستطع المؤلف المنقود أن يقدر هذا النقد ، فرد في مجلة الرسالة ولم يناقش مآخذ الناقد الكثيرة المتشعبة بل آثر خطة في التعبير ، ليس من شيمتنا الخوض في مثلها ، والتجأ بعد ذلك الى ما استنكره أولو المكانة والمعرفة ، وقد بعث الينا أحد هؤلاء الافاضل بكلمة ننشرها اعلاء للعلم الراسخ والادب النزيه

## أناة أيها السادة !

لست بالذي يرى لنفسه أن يلقي درساً في وجوب الأناة والتريث فيما يكون بيننا من نقاش وجدل ، وانما أرجو في أدب أن أذكر بعض السادة في العلم والكتابة أن يترفق بعضهم ببعض ، وأن يكون الجدال بينهم بالتي هي أحسن ، فذلك أحرى بالعلماء ، وأدعى الى أن يتقدم بالنقد من يرى ان عنده شيئاً من العلم يفيد التقدم به ، وآمن طريق يقود الى الحق الذي ينشده الكاتب والناقد .

أكتب هذه الكلمة وقد قرأت ما كان من نقد ورد فيه حدة وعنف بالغ بين الأساتذة الأفاضل العقاد واحمد شاكر وبشر فارس ، وقد اعتذرت أولاً عما كان من ذلك بأن الحق يجعل لصاحبه مقالاً ! لكنه وقفني في رد الاستاذ العقاد على الدكتور بشر فارس ما رماه به من « سوء الذوق » بسبب بعض ما جاء بنقده لكتاب « الصديقة بنت الصديق » بمجلة المقتطف ، فقد فهمت منه — ما فهمه كثير غيري — شيئاً يتصل بالناقد وبالعك في السيدة عائشة رضوان الله عليها

اني لم أتشرف بعد بصداقة الاستاذين ، ولكني اعرف لكل منهما حقه من التقدير ومكانته الملحوظة فيما برع فيه ، ولذلك رأيت اني أستطيع أن أقول كلمة حق في اللغة التي آثرها

صاحب « العبقريات » في الرد على صاحب « مباحث عربية » وغيرها من المباحث القيمة الممتعة

لا أريد التعرض للمسائل التي دار عليها النقد ، فقد يكفي ما قرأ القارئون للحكم في هذه الناحية ، ولكني أرى من الخير ومن الواجب أن أتعرض للغمزة الواضحة التي لفّها الاستاذ العقّاد صاحب « العبقريات » في عبارة « سوء الذوق » التي تكررت مرتين

اني اعتقد أنهُ ليس من مصلحة الدين والعلم والحقيقة أن نستعدي الدين فيما يشجر بيننا من خلاف ، الاّ ان يكون الدين هدفاً للعدوان من جاهل أو باغٍ ، وليس هذا حال الدكتور بشر فارس فيما جرى على لسانه في نقده لكتاب « الصديقة بنت الصديق »

لقد عقب الدكتور بشر على بعض استدلال الاستاذ العقاد على تنزيه السيدة عائشة مما رُميت به بأن هذا استدلال مجتلب ، بل محض ذاتي لأن البشر يتفق لهم أن يزلوا وإن كانوا من أهل التصديق والايمان . ولو قال هذا وسكت لكان حقيقاً باللوم والرمي بأكثر من سوء الذوق ، لكنهُ قال بعده ما يأتي بنصه : ( وكيفما كانت الحال فأن قصة الأفك لا تحتاج الى مثل ذلك الاجتهاد . وحسب الباحث المحدَث أن يقول ما قاله المؤلف بحق في أول كلامه على تلك القصة : « تلك شبهة لا تكفي للشك في امرأة من عامة المسلمين ... ، إذ لو كانت كل امرأة تتأخر في الطريق تؤخذ بالتهمة في دينها وعرضها ، لكانت التهم في الأعراض أهون شيء يخطر على بال » . وللمؤلف أن يردف هذا بما يسميهِ علماء التاريخ النقد الداخلي critique interne ، ومداره تحرّي الصحيح من المروي رغبةً في تبيين أخلاق عائشة وصفوان . فسيرة الصديقة في ايام النبي وبعده تبدو فوق الشبهة ، وأما سيرة صفوان فنزيهة بشهادة الرسول نفسه اذ قال : وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه الاّ خيراً ، وما كان يدخل على أهلي الاّ معي — عن البخاري ) . اه

ألا يكون بهذا قد أبان الدكتور بشر عما في صدره من اجلال لأم المؤمنين ولصفوان ، وابعادهما عن كل ظن وريبة وشبهة يتمسك بها جاهل او ضال او مدخول الصدر ؟

ثم قول الاستاذ الدكتور بشر : « هذا الاستدلال مجتلب بل محض ذاتي » — الذي قال اولاً — ألا يؤوّل بأنهُ استدلال ان صدّقهُ من يرى لأم المؤمنين النزاهة والجلالة من أجل دينه فحسب فقد لا يصدق له من لم يكن كذلك ، وأن الخير لهذا أن نلجأ أو نضيف اليهِ استدلالاً آخر يؤمن له الجميع ، وهو الاستدلال بالاخبار المروية الصحيحة الموثوق بها التي منها نعرف سيرة الصديقة وسيرة صفوان

من الممكن ان نرى هذا التأويل ، بل من الحق أن تحمل عليه عبارة الدكتور بشر ، وبخاصة أن بقية كلامه يؤكده ويجعلهُ واجبا

***

وبعد ، فاني رجل مسلم ، ولكني رأيت الحق يقتضيني هذه الكلمة ، ومني الى الاستاذ العقاد والدكتور بشر خالص التقدير

محمد يوسف موسى
المدرس بكلية أصول الدين
بالجامعة الازهرية

◆

والمقتطف ماثل للطبع قرأنا لعالم ثبت وقاض شرعي ، في صحيفة «الوفد المصري» رقم ١٧٧٣ ، كلمة جاء فيها ما يتعلق بهذا الموضوع ، ونحن نثبته هنا :

وبعد فلا نكاد نفرغ من شأن للعقاد حتى يبدو لنا شأن ، فانه يكبر عليه ان يقول له انسان « أخطأت » أو يجادله في كلة مما يقول ، وانما يريد من الناس الخضوع والتسليم ، أصاب أم أخطأ ، وهو يعرض كتبه على الناس ، وفيها الصحيح الجيد ، وفيها الزيف الباطل ، ولكن هكذا هو !

فقد كتب الأستاذ بشر فارس كلة في المقتطف قال فيها رأيه في كتاب « الصديقة بنت الصديق » فذكر مزايا رآها في الكتاب وبدا له ان ينقده بعض النقد الهادىء اللين ، فكان العقاد على سجيته ، ثار به ثورته المعروفة ، وقرعه وندد به ، بل أراد ان يوقع بينه وبين قرائه بالتزيد عليه في تحميل كلامه ما لا يحتمل ، وحذف آخره يزعم انه يبهته بأوله

فقد قال العقاد في كتابه (ص ١٠٢) في شأن قصة الافك «على الذي يقبل وشاية كتلك الوشاية الواهية أن يروض عقله على تصديق أمور كثيرة لا موجب لتصديقها ، لأنها تفتقر الى كل دليل ، والأدلة على ما يناقضها كثيرة . عليه ان يصدق ان صفوان بن المعطل كان رجلاً لا يؤمن بالنبي ولا بأحكام الاسلام . وان يصدق ان السيدة عائشة كانت — وهي زوج النبي — لا تؤمن به ولا تعمل بدينه . ولا دليل على هذا ولا ذاك »

وهذا كلام حق في ذاته لا شبهة فيه ، ولكن الدكتور بشر فارس رأى أنهُ ليس من نوع البحث العلمي البحت وأنهُ من نوع الدفاع والحذق في الجدل فقال : « والذي أراه أن هذا الاستدلال مجتلب بل محض ذاتي ، وذلك لاننا نعلم من طريق المشاهدة والملاحظة ان البشر يتفق لهم ان يزلوا وان كانوا من أهل التصديق والايمان . ولولا هذا ما احتاجوا الى ربٍّ توّاب . . . وكيفما كانت الحال فان قصة الافك لا تحتاج الى مثل ذلك الاجتهاد . . .[(١)] ، فسيرة الصديقة في أيام النبي وبعده تبدو فوق الشبهة ، وأما سيرة صفوان فنزيهة بشهادة الرسول نفسه »

وهذا كلام صحيح أيضاً ، فعائشة في ايمانها ودينها وتقواها وسيرتها في حياة النبي وبعده فوق مستوى الشبهات ، سيرة الأطهار الأبرار ، ولا يمكن لمنصف ان يفهم من كلام الدكتور بشر غير هذا . ولكن الاستاذ العقاد لم يتورَّع عن ان يرمي الدكتور بشراً بما لا يُفهم من كلامه بأي وجهٍ من وجوه التأويل ، فهو يقول ( أي العقاد ) : « واذا كان لهذا الكاتب عذر من قلة الفهم فكان ينبغي أن يتجنب قلة الذوق لئلاَّ يجمع بين الفقرين السيئين ، وفي واحد منهما كفاية ، فلا يحسب علينا أن نطيل القول في حديث الافك دفاعاً وتصحيحاً ، وهو يطيل القول فيه للتوهين والتشكيك »

هكذا والله يقول العقاد ، وما ندري أين التوهين والتشكيك في كلام بشر ؟ إلاّ أن يكون سوء الطوية من العقاد ، والحقد الذي يدفعه الى أن يرمي كل من تعرَّض لكلامه وآرائه بغير الاستحسان والتقريظ . فان بشراً لم يخالفه في معنى من المعاني ، وخاصة في تفنيد الافك من وجهة العقل والخبرة بسيرة السيدة عائشة وطهرها ونقاء تاريخها من كل شائبة ، وأن « سيرتها في أيام النبي وبعده تبدو فوق الشبهة » كما قال بشر

***

وما أردتُ الى الدفاع عن الاستاذ بشر ، فانهُ يعرف كيف يدافع عن نفسه ، ويعرف كيف يقف العقادَ عند حده ، وانما أردت أن أصوّر عدوان العقاد وطغيانه ، ليحذر الناس من تحريفه الكلم عن مواضعه .

احمد محمد شاكر

(١) راجع القول كله في كلمة الشيخ محمد يوسف موسى السابقة لهذه

# باب الأخبار العلمية

## تدرج علم الضوء

تقدَّم علم الضوء تقدماً محسوساً قبل أن يهل القرن السادس عشر بمئات السنين . فقد بحث فلاسفة اليونان المتقدمون وعلماؤهم المتأخرون في علم الضوء . ثم تبعهم العرب فشاركوا بنصيب وافر في تقدم هذا العلم وتدرجه . وقد قيل ان بطليموس — الذي كان يدرس بالاسكندرية بين عام ١٢٧ وعام ١٥١ بعد الميلاد — وضع كتاباً في علم الضوء عرفهُ أهل أوربة بعد ترجمته من العربية في القرن الثاني عشر . وقد احتوى هذا الكتاب على بحوث في انكسار الضوء وفي انكسار الاشعة الضوئية عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الارضية . وقد وجد المؤلف انهُ اذا مرّ الضوء من وسط الى وسط آخر فان زاوية السقوط تناسب زاوية الانكسار . وهذه العلاقة صحيحة تقريباً اذا ما كانت هاتان الزاويتان صغيرتين

ولم يثبت لنا التاريخ ان علم الضوء قد تقدم تقدماً يذكر منذ عهد اليونان حتى بدأت النهضة العلمية الاسلامية في القرن الثامن وحين ابتدىء في النظر في الكتب اليونانية العلمية وفي نقلها . ففي عصر هارون الرشيد ، وهو أشهر الخلفاء العباسيين ، بلغت حركة ترجمة الكتب العلمية الى اللغة العربية أشدها . ثم أخذ المسلمون في الدرس والتأليف وأخذت العلوم تنمو وتزهر

وأعظم علماء الطبيعة وأشهرهم في العصر الاسلامي هو أبو علي الحسن بن الحسن المعروف بابن الهيثم ( ٩٦٥ — ١٠٣٨ ) البصري المولد . وقد رحل ابن الهيثم الى مصر ودخل في خدمة الخليفة الفاطمي الحاكم ( ٩٩٦ — ١٠٢٠ ) ومن أهم بحوث ابن الهيثم بحوثه في علم الضوء . وهي بحوث تدل على مقدرة فائقة في الطرق التجريبية العلمية . وابن الهيثم هو أول من عمل على تصحيح الفكرة التي كانت سائدة عند اليونان عن الطريقة التي نرى بها الأشياء . فقد كان اليونانيون يعتقدون ان شعاع الضوء ينبعث من العين ويقع على الشيء المنظور ، وان الاشياء التي يقع عليها هذا الشعاع يمكن رؤيتها . والتي لا يقع عليها لا ترى . وقد كان ابن الهيثم أول من خطأ هذه النظرية . وقرر ان شعاع الضوء يخرج من الشيء المنظور ، ويقع على العين . وقد قال ابن الهيثم أيضاً ان الابصار هو عبارة عن تكون صور المرئيات على « شبكية العين » ، وان انتقال التأثير الحاصل

يكون بوساطة العصب البصري الى المخ

وقد شغف ابن الهيثم بكل ما له علاقة بالبصريات . فاستعمل المرايا الكرية والمرايا المكافئة . وقد بحث في ما يسمى « بالزيغ الكري » أي ان الاشعة المتوازية اذا وقعت على سطح مرآة كرية لا تتلاقى بعد انعكاسها في نقطة واحدة . وقد درس قوة التكبير في العدسات . ثم بحث أيضاً في انكسار الاشعة الضوئية عند نفوذها في الهواء المحيط بالكرة الأرضية . ثم استعمل ابن الهيثم الطرق الحسابية في توضيح الكثير من المسائل الضوئية . هذا مجمل عما أسداه ابن الهيثم لعلم الضوء . ولكن مما لا شك فيه ان مؤلفه في الضوء بعد ترجمته الى اللغة اليونانية قد ساهم بنصيب وافر في تقدم العلوم عند أهل الغرب، وبالأخص على يدي روجر باكون وكبلر

وربما كان شغف روجر باكون بعلم الضوء نتيجة لدراسة وتتبع ما ورد في الترجمة اللاتينية لكتاب ابن الهيثم في هذا العلم. وقد شرح باكون قوانين انعكاس الأشعة الضوئية . وكذلك النظرية العامة لانكساره ويقال انهُ كان على علم بالمرايا والعدسات، وانهُ وضع نظرية في حدوث « قوس قزح » كمثال في التعليل العلمي الصحيح المبني على الاستنتاج

ومن أجلّ البحوث التي تقدم بها عالم في علم الضوء بحوث العالم البريطاني الخالد السير اسحق نيوتن ( ١٦٤٢ — ١٧٢٧ ) ( النشرة العلمية الشهرية العدد ٢٢ مايو سنة ١٩٤٣ ). وقد قيل « لو ان نيوتن لم يقدم للعالم إلاّ بحوثه في علم الضوء لكانت منزلته بين العلماء منزلة النابهين المتفوقين منهم » . ولكن كما بينا في نشرتنا السابقة . وكما سنبين لقرائنا في الاعداد التالية . فان بحوث نيوتن في فروع العلوم المختلفة عديدة ولا تقل في أهميتها عن بحوثه في علم الضوء « النشرة الشهرية العلمية »

## مستقبل الملاريا

لقد تنبأ الدكتور ماكدوويل هامون الاستاذ بمدرسة الطب بجامعة كاليفورنيا بأن غارة عنيفة ستشن على الملاريا في المستقبل، الغرض منها مكافحة المرض في الايام الستة الاولى بين عضة البعوض الملوثة بالميكروب وبين ظهور المرض في خلايا الدم . هذا الدور هو ما يدرسهُ العلماء الآن

ولقد أثبتت الدراسات على الملاريا في الطيور أن الطفيلي يتطوّر في الخلايا المسطحة الشبكية في الطحال من نخاع العظم وفي الخلايا الشعرية في المخ . وذلك قبل أن يصل الى خلايا الدم . فلعل الابحاث القادمة تستطيع أن تقف المرض في دوره الأول اما الآن فيجب أن نعتمد على مقاومة البعوض واصطياد اليرقات ويجب ان لا نتراخى في محاربتها معاً

## طبيعة الشمس وعرضها بالسينما

قال الاستاذ شابمان في حديثه الافتتاحي بصفته رئيساً للجمعيــة الفلكية بلندن ، في جلستها التي عقدت في شهر مايو الماضي ، انهُ من الممكن ، بل من اللازم ، العمل على تقديم الـكشوف الحديثـة في « الطبيـعة الشمسية » ، بطرق جذابة يقبل عليها الشعب ، فيستمتع برؤيتها ، ويستفيد من الاصغاء الى تفسير الشارح لها . ويمكن الوصول الى هذا المأرب باستخدام الافلام السينمائية الملونة . فاذا تعاونت الهيئات المختصة في بعض المراصد على العمل في هذا المضمار ، أمكنها اخراج فلم ملون ممتع ، يعرض على الشاشة البيضاء مدة ساعة أو أقل . ويعطي للنظارة فكرة عامة شـاملة ، عن دورة أو أكثر من دورات كلف الشمس Sun spots . ولا شك في أن اخراج فلم كهذا يعطي أفراد الشعب عامة ، والأطفال خاصة ، فكرة للتعرف منها عن الكيفية التي كشف بها غاليليو الدورة الشمسية ، وعن ظهور الـكلف الشمسية واختفائها

***

ثم يمكن للنظـارة أيضاً رؤية التغير الذي يحدث في محور الشمس ، وقت تصويره تصويراً فوتوغرافيًّا من أماكن مختلفة على سطح الأرض ، وفي أوقات مختلفة طوال العام السنوي ثم يمكن ايضاً ملاحظة مناطق الكلف الشمسية وهي تقرب من خط الاستواء . فيكثر عددها ويقل خلال احد عشر عاماً . اما عن تاريخ جماعات الكلف الشمسية وعلاقتها بتلك الرقع الزاهية flocculi التي توجد على سطح الشمس ، والتي تكون في الغالب على مقربة من الكلف الشمسية ، فيمكن عرض كل هذا بصور سينمائية مكبرة مأخوذة عن كثب . ثم يعرض في هذا الفلم ايضاً كسوف الشمس ، والصور الاكليلية ، ثم يتبع ذلك عرض ما تقوم به المراصد من اعمال في الوقت الحاضر ، واستعراض ما تقدمت به من كشوف في الماضي . ويعتقد الاستاذ شابمان ان اخراج فلم كهذا لابد منه ، وانهُ يجب على علماء الفلك العمل على البدء فيهِ حتى يكونوا على استعداد لعرضه للجمهور في انحاء العالم المختلفة . عقب انتهاء الحرب العالمية الحاضرة . ويخص بالذكر الاستاذ شابمان « جمعية الفلك العالميـة » « واللجنة العالمية للتقدم العلمي » . ويشير الى ضرورة اهتمامها بتنفيذ هذا المشروع القيم

« النشرة الشهرية العلمية »

---

في العدد الماضي ، اقرأ : ص ١٩٩ ، س ١٨ : Moufette — ص ٢٠٠ ، س ٩ : تخبره — س ٢٠ : عينه — س ٢١ : خطيـة — س ٢٢ : الذرور — ص ٢٠٢ س ٢٤ : بل بالفتح

# فهرس الجزء الثالث

## من المجلد الرابع بعد المائة

٢٠٩ بعد الحرب ... ماذا ؟ : لفؤاد صروف
٢١٧ رسالة الطب في الحياة : لسعادة الدكتور سليمان عزمي باشا
٢٢٣ الامير عمر طوسون كما عرفته : حديث لسعادة فؤاد اباظة باشا
٢٢٩ اللغة القبطية نشأتها وتطورها : للدكتور باهور لبيب
٢٣٢ القوى الخلقية للموسيقى : لعثمان علي عسل
٢٣٨ الحيوان المنمي : للاب انستاس ماري الكرملي
٢٤٢ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد
٢٤٩ كف القرد (قصة) : لوديع فلسطين
٢٥٩ الدين والفلسفة — الخصومة بينهما في الغرب : لمحمد يوسف موسى
٢٦٥ عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود المنجوري
٢٧٣ فلاسفة الرواق : للدكتور عثمان امين

٢٧٩ باب المراسلة والمناظرة * مدى الرؤية من الطيارة : لنقولا الحداد

باب التعريف والتنقيب

١ — الفنون الرفيعة
٢ — الكتب
٣ — المحاضرات
٤ — الذاهبون
٥ — التعقيب

راجع « مشتمل » الباب ص ٢٨٢

٣١١ باب الأخبار العلمية * تدرج علم الضوء . مستقبل الملاريا . طبيعة الشمس وعرضها بالسينما

# المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الرابع بعد المائة

١ ابريل سنة ١٩٤٤ — ٨ ربيع ثاني سنة ١٣٦٣


من أسرار الكون المادي

## لا تزال الاشعة الكونية

### لغزاً كونيًّا

ليس بين مباحث الطبيعة والفلك ، في العصر الحديث ، ما هو أجلّ شأناً وأفتن للبّ من البحث في الاشعة الكونية، لتبيُّـن قوتها وفعلها ، واستشفاف صلتها ببداية الكون ونهايته. فهي اذا قيست بالمعهود المألوف من ضروب الاشعة كانت أقواها فعلاً وأشـدها اختراقاً للاجسام . والآراء الخاصة بطبيعتها وأصلها ومصدرها ومعناها الفلسفي الأوسع ، مختلفة وقد تكون متناقضة . ففريق يقول انها تحمل، في ثنايا أمواجها القصيرة ، أنباءَ الخليقة في رحاب الكون المادي ، وفريق يذهب الى أنها تحمل رسالة فناء العوالم واضمحلال الشموس . وبعضٌ يقول إنها أمواج أو مقـادير «كوانتات» من الضوء تعرف باسم الفوتونات وآخرون يقولون انها كهيربات . وتزعم جماعة انها صادرة الينا من رحاب الفضاء البعيد، بين النجوم والسدم ، ويقنع باحث واحدٌ على الأقل بأنهـا لا تتعدَّى في تولدها حدود الدثار الغازي الذي يحيط بالأرض . على انهم جميعاً مقتنعون بأنها تحمل رسالةً خطيرةً ، فهم لذلك مقبلون في لهفة على السعي لحلّ الرموز التي كتبت بها الرسالة

كيف يتبين العلماء الاشعة الكونية وكيف يقيسونها ؟. صنعت لذلك — في تجارب البحاثة كمطن — كرة من الصلب ، قطرها بضع بوصات ، يملأها غاز الأرغون مضغوطاً ضغطاً عالياً . والاشعة الكونية حين تخترق هذا الغاز ، تجعله قابلاً بعض الشيء لايصال الكهربائية

والتيار الكهربائي الضعيف الذي يخترقهُ يقاس بجهاز ( الألكترومتر ) مرهف الإحساس . ولكن الاشعة المنطلقة من الراديوم وغيره من العناصر المشعة ، تفعل بالغاز فعل الاشعة الكونية ، لذلك تحاط كرة الصلب هذه بجدار كثيف من الصلب ، لانهُ يحجب أشعة الراديوم وأشباهها ولا يحجب الاشعة الكونية

فاذا أخذت هذه الكرة الى نفق عميق ، وجد الغاز الذي فيها لا أثر فيهِ لسريان تيار كهربائي . ولكن اذا ظلت على سطح الكرة ، لوحظ ان تياراً ضئيلاً يخترقهُ ، ويمكن أن يقاس هذا التيار بعدَّاد خاص . وسبب ذلك ان الاشعة الكونية لا تستطيع ان تخترق طبقة كثيفة من قشرة الأرض وجداراً كثيفاً من الصلب ، لتؤثر في الغاز ، حين يكون في النفق العميق . فاذا نقلت كرة الصلب هـذه ، الى قمة جبل ، او رفعت في الجوّ بمنطاد ، زاد مقدار التيار الذي يخترق الغاز ، وهذا يثبت ان الاشعة الكونية هي التي تفعل في الغاز فتهيج ذراته فتجعلهُ قابلاً لايصال الكهربائية ، فهي أقوى في الجو منها على سطح الارض

وقد ذهب كمطن وأعوانهُ ، من سنوات ، الى بلاد بيرو في أميركا الجنوبية لأن فيها سكة حديد تخترق الجبال ، وعند أعلى موقع تجتازه سكة الحديد ، نفق يخترق الجبل ، وهو يرتفع ثلاثة أميالٍ عن سطح البحر . فلما نقلت الكرة المصنوعة خاصة لقياس الأشعة الكونية ، الى داخل النفق ، كاد أثر الاشعة الكونية في غاز الارغون لا يدرَك حتى بأدق الآلات وأشدها إحساساً . فلما خرجوا بها خارج النفق ، بدا أثر الأشعة الكونية جليًّا

وهناك طريقة أخرى لتبيُّن الاشعة الكونية ، تعرف بطريقة « انبوب الاحصاء » أو « العدَّاد » . وهو كرة من زجاج ، وقد تكون مستطيلة ، يملأُها غاز لا يوصل الكهربائية في حالتهِ السويّة . فاذا فعلت بهِ الأشعة الكونية ، أصبح موصلاً للكهربائية . ولكن بدلاً من أن يقاس التيار الذي يخترق الغاز بجهاز ( الالكترومتر ) يقوّى التيار مليون مليون ضعف ، ثم يمرُّ في مكبر للصوت ، فكلما اخترقت شعاعة من الاشعة الكونية هذا الانبوب ، سمعت نبرة معيَّنة في مكبر الصوت

أهم صفةٍ تتصف بها هذه الاشعة العجيبة هي قدرتها على اختراق الاجسام . فنحن نعلم ان الاشعة السينية ( أشعة اكس ) تستطيع اختراق الاجسام المادية ، فتخترق كفَّ الانسان أو جسمهُ ، ولا تخترق عظامهُ ، فيبدو الهيكل العظمي في صورةٍ ، صورها الطبيب المختص للجسم أو لأحد أعضائهِ . ولكن طبقةً من الماء سمكها بوصة واحدة تحجب نصف شعاعةٍ من الاشعة السينية . وطبقة من الماء سمكها قدم واحدة تحجب نصف شعاعة من أشعة جمَّا . أما قدرة الاشعة الكونية على اختراق الاجسام فقد رويت عنها نوادر تحيّر

الالباب . فقد جرّب مليكن تجارب أثبتت لهُ ان الاشعة الكونية تخترق طبقة من الماء سمكها متفاوت بين ٥٤ قدماً في احدى البحيرات و٦٠ قدماً في أخرى . والنتائج التي أسفرت عنها تجارب مسقسكي الروسي في نهر نيفا قرب لينغراد أيدت نتائج مليكن . ولكن رجينر الالماني أجرى تجاربهُ في بحيرة كونستانس فقال انهُ عند ما بلغت أجهزتهُ عمق ٢٨٠ متراً تحت سطح الماء ، ظلَّ يبدو فيها أثر للاشعة الكونية . في الطبيعة اذن مصدر — أو مصادر — يطلق أشعة أقوى من أشعة الراديوم أضعافاً كثيرة . فما هو ؟

ترجع بوادر هذا البحث الى أوائل القرن العشرين . ولكن الاشعة الكونية ، لم تظفر بعناية عظيمة من العلماء إلاَّ حين اقترح مليكن نظرية عجيبة لتفسير مصدرها ، وكان ذلك حوالي سنة ١٩٢٦ . ولباب رأيه ان الاشعة الكونية تنشأ أو تتولّد في رحاب الفضاء بين النجوم ، إذ تتكوَّن ذرات العناصر الثقيلة باندماج ذرات العناصر الخفيفة . وفي هذا الاندماج ، تنطلق طاقة عظيمة هي الاشعة الكونية . وأتى بأدلة تشير الى ان هذا التولُّد انما هو مرحلة من مراحل التكوُّن والفناء في الكون ، سائرين في حلقة مفرغة

لجديرٌ بنا أن نقف هنيهةً عند هذا الرأي ، لأن مليكن عاد اليه — أو الى نقيضهِ — في مجلة نايتشر من عهد قريب ، على أثر ما ظهر من نتائج المباحث الأخيرة في هذه الاشعة

بنى مليكن نظريتهُ ، على ان هذه الاشعة هي اشعاعات كهرطيسية ( كهربائية مغنطيسية ) أو فوتونات من قبيل الاشعة السينية وأشعة غمَّا . ولكنها أقصر من هذه الاشعاعات أمواجاً وأشدُّ اختراقاً للاجسام . وكان هذا الفرض طبيعيًّا لشدة نفوذ الاشعة ، ثم عمد مليكن الى الرياضة والطبيعة معاً ، فقال إنَّ أشعة لها نفس قدرة النفوذ التي تتصف بها أضعف الاشعة الكونية ، يمكن أن تتولد اذا اجتمعت أربع ذرَّات من الايدروجين ، واتحدت فتكون من اتحادها ذرة من الهليوم . فالطاقة التي تنطلق من هذا الاندماج ، هي في قوتها وقدرتها على اختراق الأجسام ، من رتبة الأشعة الكونية

لذلك أشار مليكن الى شعاعة منها بقوله « إنها صراخ ذرة عند ولادتها » في رحاب الفضاء ، فكان قوله هذا نفخاً في بوق أهاب بالعلماء الى البحث

وعلى هذا القياس قيل ان تولد ذرات العناصر التي تفوق الهليوم في وزنها الذري — كالاكسجين والسليكون — ينشىء أشعة كونية ، من درجات متفاوتة في قدرتها على اختراق الاجسام المادية ، وان هذه الذرات تتقارب بفعل التجاذب ، فتتكوَّن منها السدم ثم النجوم. وتشع السدم والنجوم مادتها بتحولها الى ضوء وحرارة ، وتنطلق الطاقة الشاعّة منها في رحاب الكون ، فتتحوَّل في خلال رحلتها الطويلة — وهذا فرض فلسفي — الى

بروتونات وكهيربات ، ومن هذه الدقائق تتألف ذرات الايدروجين ومن اجتماع ذرات الايدروجين تتكوَّن ذرات الهليوم فذرات عناصر أخرى وتنطلق أشعة ، وكذلك ترى الكون بحسب رأي مليكن ، يبتدىء من حيث ينتهي

ما كاد مليكن يطلع بنظريته هذه ، حتى قال جينز برأي يخالفها . فالأشعة الكونية ، في نظره ، رسائل تنبيء بفناء المادة وتلاشيها ، لا بتولدها . واتخذ من الحساب الرياضي اساساً لتأييد القول المشهور في علم الطبيعة ، وهو ان الكون يتدرَّج انحطاطاً في مقدار الطاقة الفعالة التي فيه ، الى حيث لا رجعى . فالكون بحسب ناموس « الثرمودينامكس » الثاني ، وحساب جينز ، سائر الى نهاية ، ولا عودة له منها

ثم جاء باحث طبيعي فرنسي شاب يدعى دوفيلييه ، فاقترح نظرية أخرى لتفسير أصل الأشعة الكونية ، ولكن الأصل الذي بنى عليه نظريته هو أن الأشعة الكونية ليست مؤلفة من فوتونات ، بل هي كهيربات تنطلق من الشمس الى الأرض ، من مناطق عالية الضغط الكهربائي في الشمس ، فيدنو بعضها من جو الأرض فيؤثر في جوها ، فيحدث الاضواء القطبية الباهرة ، ويمزق ذرات الغازات في الهواء فتتطاير شظاياها

ولعلَّ أغرب الآراء التي اقترحها العلماء لتعليل نشأة الاشعة الكونية ، هو رأي الأب لمِيتر الفلكي الطبيعي البلجيكي وهو صاحب الرأي القائل بأن الكون كان من ألوف ملايين من السنين ، مركزاً في حيز ضيق ثم اختلَّ استقراره الداخلي ، فانفجر فجأة ، فانتثرت منهُ السدم فأخذت تبعد بعضها عن بعض ، وما فتئت تتباعد . على انه يقول ان الاجزاءَ التي انتثرت من الكون عند انفجاره لم تكن سدماً ونجوماً فقط ، بل كان منها دقائق صغيرة جدًّا ، ذرات وكهيربات وفوتونات ، وعنده ان هذه الدقائق المتناهية في الصغر ، التي ما فتئت تجوب رحاب الفضاء من بداية الكون ، هي الاشعة الكونية

فهل ثمة سبيل الى معرفة الحقيقة في طبيعة هذه الاشعة ? وهل هي فوتونات كما يقول مليكن وجينز ، او كهيربات كما يقول دوفيلييه او مزيج من أشعة ودقائق مختلفة كما يقول لميتر ? وقد جرَّب عالمان المانيان — بوث وكولهرستر — تجربة اقنعتهما نتائجهما بان الأشعة الكونية دقائق مكهربة سالبة الكهربية . فاذا صحَّ هذا وجب أن يكون هناك اختلاف في قوة الاشعة في مناطق مختلفة على سطح الأرض ، لأن الأرض تفعل فعل مغنطيس كبير ، فيجب ان تحرف الدقائق اذ تنطلق نحو الارض . وهذا الانحراف يجب أن يكون على أقله في المناطق المجاورة لقطبي الأرض المغنطيسيين وعلى اكثره في المناطق البعيدة عنهما اي في المناطق الاستوائية. وليس في النتائج التي أسفرعنها بحث هذه الناحية من الموضوع ، ما يصح ان يسلم به على أنهُ

قاطع . ولكن الاستاذ كمطن انشأ تسعة بعوث — بمال أمدّه به معهد كارنجي — فرحلت الى مواقع شتى على سطح الارض كالمناطق الاستوائية في العالمين القديم والجديد ، وجنوب افريقية وزيلندة الجديدة ، وتوقلوا في الجبال العالية . ولما جمعت الحقائق وبوّبت الارصاد أظهرت ان قوة الاشعة الكونية قرب القطبين تزيد على قوتها في المناطق الاستوائية بمقدار ١٥ في المائة فقبل الرأي القائل بأن جانباً من هذه الاشعة على الأقل مؤلف من دقائق مكهربة . ولكن بعضها لا يتأثر بفعل الأرض المغنطيسي . ومباحث بيكار البلجيكي ورجينر الالماني في أعالي اطباق الجو تحمل على الاعتقاد بأن بعض هذه الاشعة مؤلف من فوتونات ، ولكن قد يكون بعض آخر مؤلفاً من ذرات ونوى ذرات العناصر الخفيفة ، فكأن رأي ليمتر ، هو على ما يعلم أدنى الى الحقيقة

على ان البحث مستمر . وقد انتظم فيه باحثون لم نعهد اسماءهم من قبل في هذا البحث مثل علماء وفد ذهب من جامعة شيكاغو الى جبل اڤانز في كولورادو والدكتور لاپ أحد علماء معمل رِيرسون للبحث الطبيعي وغيرهم . وقد نشرت نتائج أرصادهم في المجلة الطبيعية . ومنها ان الاشعة تصيب الارض في شآبيب ، يشمل أحدها بقعة من الارض محيطها ٣٥٦٠٠ قدم ، وان في مركز الدائرة بقعة محيطها ٣٥ قدماً تبلغ فيها كثافة الاشعة او الدقائق ، مبلغاً عظيماً . وهؤلاء العلماء أميل الى عد الاشعة الكونية كهيربات

ولكن مليكن لا يزال أحد فرسان الميدان المقدمين . وقد عاد من عهد قريب ، الى بحث رأيه عن ولادة العوالم ، كما تدل عليها الاشعة الكونية ، على ضوء المباحث الجديدة . ونشر مقاله في مجلة « نايتشر » . فرأي جينز كان قائماً على أن انحلال ذرة ما ، يولد طاقة عظيمة . وان انحلال ذرة كربون يولد طاقة قدرها ٦٦٠٠ مليون كهيرب فولط . وانحلال ذرة نتروجين يولد ٧٥٠٠ مليون كهيرب فولط . فانحلال ذرة اورانيوم على هذا القياس يولد ١٢٥٠٠٠ مليون كهيرب فولط . ولكن شآبيب الاشعة الكونية التي بحثها الدكتور لاپ تشمل طاقة من رتبة ١٠٠٠٠ مليون مليون كهيرب فولط ، فلو كان الاعتماد في توليدها على انحلال ذرة لوجب ان تكون هذه الذرة ٨٠٠٠٠ الف ضعف أثقل من ذرة الاورانيوم . فهل في الفضاء الرحب مكان ما ، توجد فيه ذرة من هذا القبيل ؟ المرجَّح ان الجواب بالنفي ، واذن فالمباحث الحديثة تبعد في نظر مليكن رأي جينز في ان مصدر هذه الاشعة هو انحلال المادة في رحاب الفضاء

وعليه فالوقت لم يحن بعد لفهم معنى الرسالة التي تحملها هذه الاشعة وانتاج نتائج فلسفية عامة عن مقامها في الكون المادي وصلتها ببدايته ونهايته

# معارض الجمعية

## الزراعية الملكية
## وتشجيع الصناعات الأهلية *

لفؤاد أباظه باشا

تقام المعارض لأغراض عديدة كبيرة الفائدة . فهي ميدان للمباراة والتنافس بين الصناع وغيرهم من المنتجين مثل الزراع فيعرض كل منهم أحسن ما وصل اليه جهده . كما هي الواسطة الهامة لتعريف المستهلكين بمختلف الصناعات ومنتجاتها . كما تعتبر من اهم الوسائل التي يتعرّف بها الصنّاع انفسهم رغبات المستهلكين ثم لجهود الهيئات التي تقوم بالأبحاث الخاصة بالصناعة وتقدمها وطرق تحسينها والمواد الخام التي تدخل في هذه الصناعات ومصادرها وينتج عن هذه العوامل مشتركة خلق صناعات لم تكن موجودة وتحسين الموجود منها لدرجة تستهوي رغبة المستهلكين وتستطيع درء مزاحمة المنتجات الأجنبية الواردة خصوصاً بعد استعراض الاحصائيات التي تقدمها الحكومة والهيئات المشتغلة بالاحصاء عن أحوال الاسواق وغيرها . كما يجب ألاّ نغفل ان المعارض العامة كانت تربط الزراعة بالصناعة والصناعات الزراعية

ولقد أقامت الجمعية الزراعية خمسة عشر معرضاً عامًّا في القاهرة عدا المعارض المحلية ، وتميزت المعارض التي أقيمت منذ سنة ١٩١٩ لآخر معرض ١٩٣٦ بكونها معارض زراعية صناعية ، بحيث جمعت المعروضات الزراعية والصناعية التي اشترك في تقديمها هيئات الحكومة ذات العلاقة بالزراعة والصناعة ، كذلك الهيئات الأهلية من زراعية وصناعية

ولا ريب في أن الجمعية قد أدت باقامة المعارض خدمة عظيمة للبلاد ، وأشاعت فيها روح الجد والمثابرة والاتقان . واذا كانت مصر قد عرفت منذ قديم الأزمان بأنها بلاد زراعية وبلغت في هذا السبيل ، بفضل ما أدخلته من أساليب الزراعة الحديثة مبلغاً عظيماً جعلها في الصف الأول بين البلاد الزراعية ، فان المعرض قد أتاح الفرصة أيضاً فتبين الجميع ان النهضة

* محاضرة القيت بالسراي الصغرى بالجزيرة في شهر فبراير سنة ١٩٤٤

الصناعية تسير مع الزراعة في طريق النماء والازدهار . ونفت بذلك من الأذهان ما استقر فيها من زمن قديم ، وهو أن مصر لا يمكن أن تصبح بلداً صناعيًّا

أجل . كانوا يلقنوننا في المدارس والمعاهد أن الطبيعة قضت على مصر أن تظل أبد الدهر بلداً زراعيًّا فحسب ، وان كل جهد يبذل في سبيل جعلها بلداً صناعيًّا للصناعة هو جهد ضائع . وقد رسخت هذه الفكرة في عقيدتي ، منذ كنت طالباً متأثراً بما كان يلقناني إياه أساتذتي من الأوربيين الذين تلقيت العلم على أيديهم . وسرت هذه التعاليم منهم الى الوطنيين . وأخذ الجميع يكررون هذا القول على مسامعنا حتى ساد الاعتقاد ان مصر لا تصلح ان تكون بلداً صناعيًّا

ولكنني حين أشرفت على اقامة معرض سنة ١٩٢٦ ، ولمست عن قرب مدى ما وفقت له مصر في ميادين الصناعة أدركت مقدار ما في هذا القول من خطأ ، وأيقنت أن مستقبل البلاد في الصناعة — بجانب الزراعة — مكفول مرموق

وحين أخذت الجمعية تعد العدة لمعرض سنة ١٩٣١ لاحت لي بوادر جديدة على أن النهضة الصناعية تسير في طريقها ، وانها توشك أن توفي على غايتها

وفي ١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ألقيت محاضرة عن معرض سنة ١٩٣١ قلت فيها « ان معرض سنة ١٩٢٦ كان حادثاً موفقاً جعل الجمهور المصري يشعر أن في بلده صناعة، وصناعاً حذاقاً . وبدأت الطبقة المتفرنجة التي كانت لا ترى في صناعات بلدها الا اصنافاً منحطة لولعها بكل ما هو اجنبي ، تفيق من غفلتها وتفتح عيونها . وقد أخذتها الدهشة عند ما قدم العامل المصري البرهان الساطع على فساد هذه النظرية التي غرسها في اذهانهم هؤلاء المغرضون الذين لا يهمهم الا الترويج للمنتجات الأجنبية والقضاء على المصنوعات المصرية

وقبيل افتتاح معرض سنة ١٩٣٦ ألقيت في جمعية الشبان المسلمين يوم السبت ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٥ محاضرة قلت فيها « ان معرض سنة ١٩٣١ كان سجلاً لمقياس التقدم المطرد في شؤون الصناعة والزراعة . وان مصر قد قطعت خطوات سريعة في هذا المضمار مما ساعد على توازن كفتي ميزانها التجاري عند ما بدا في الأفق شبح منافسة الاقطان الأجنبية لأقطاننا المصرية وأصبح القطن غير صالح وحده ليكون المرجع والعماد الوحيد للثروة المصرية »

وجاء معرض سنة ١٩٣٦ مصداقاً لهذا الذي توقعت . وبدد الوهم السابق بل كان بمثابة النهار الساطع الذي طلع على ليل قاتم . وآمن الجميع أن مصر يمكن أن تصبح بلاداً صناعية عظيمة كما هي بلاد زراعية عظيمة . وأن ليس أمامها ، كي تصل الى ما تصبو اليه ، الا ان تصح النيات وتتضافر القوى ، فقد وهبها الله تربة خصبة وأرضاً ممهدة منبسطة ، ورقعة ممدودة .

وموانٍ صالحة ، وموقعاً جغرافيًّا جعلها صلة بين الشرق والغرب . يضاف الى هذا كله مهارة تقليدية ورثها العامل المصري منذ فجر التاريخ حين كانت مصر معلمة العالم في دقة الصناعة وجمال الفن

ولو لم يكن لمعرض سنة ١٩٣٦ إلاَّ الفضل في ابراز هذه الحقيقة الكبرى لكفاه نجاحاً ولكفى الهيئة التي أعدت لهُ جزاء على ما تكلفت في سبيله

وقد امتاز معرض سنة ١٩٣٦ بأن خصص فيه قسم للسودان فجاء المعرض معبراً عن الأماني القومية تعبيره عن النهضتين الزراعية والصناعية . وأتاح الفرصة لسكان وادي النيل لكي يجتمعوا في صعيد واحد على شاطئه السعيد

وليس هذا فحسب ، بل لقد أتاح معرض سنة ١٩٣٦ لجيراننا من اهل العراق وسورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والحجاز واليمن وشمالي افريقية الفرصة لزيارة مصر والتعرف الى نهضتها فأدى بذلك خدمة جليلة عظيمة الاثر بالنسبة الى مركز مصر ومستقبلها

***

ولنبحث في محاضرتنا هذه عن أثر هذه المعارض في تشجيع الصناعات الاهلية ، باعتبارها معاونة للجهود الحكومية والاهلية في خلق الصناعات وتحسينها . فالمعارض كما قلنا كانت تؤدي رسالة الهيئات الحكومية والاهلية والمستهلكين الواحد للآخر

وللوصول الى تحقيق ما افادته الصناعات من رسالة المعارض يتطلب ولو عدة طرق أحدها بحث الانتاج للمصانع المحلية الأصيلة والمستحدثة . بيد ان هذا الامر عسير لعدم وجود الاحصاء الانتاجي الكافي . وقد يلمس كل منا ظهور المصنوعات الاهلية ورواجها حوله ولكن حصر ذلك ليس بالسهل من الوجهة الاحصائية . ولعل اكبر دليل ملموس ما نجده الآن في حالة الحرب الراهنة من انتعاش المنتجات الاهلية ورواجها مع انقطاع الوارد لدرجة هائلة . اما الطريق الثاني فيكون من استقراء بيانات البضائع الواردة في مختلف السنين ومقارنتها من حيث أخذها في التناقص وحلول المنتجات الاهلية بدلها . ولقد سلكنا هذا السبيل بمقارنة الواردات الاجنبية في بعض السنوات قبل وبعد المعارض الثلاثة الاخيرة وهي معارض ١٩٢٦ و١٩٣١ و١٩٣٦ مع ملاحظة ان البلد الذي تزدهر فيه الصناعات تقل وارداتها من المنتجات المشغولة أو المصنوعة وتزيد في واردات المواد الخام التي لاسبيل لانتاجها محليًّا ويجب ألاّ نغفل عاملين عند المقارنة : أولهما الزيادة المطردة في سكان البلاد خلال سني المقارنة اذ كان يجب ان تتمشى معها زيادة الوارد من المواد المصنوعة . ثم زيادة القدرة على الشراء .

أما العامل الثاني فهو ارتفاع الأثمان للمواد في السنوات الاخيرة وزيادة الرسوم الجمركية . فلو كانت الصناعة في مصر باقية على حالها لتحتم زيادة أثمان المصنوعات الواردة سنة بعد أخرى . وهذه الامور مجتمعة تزيد من بروز المقارنة عند استعراض الوارد من المصنوعات الاجنبية

فالمعرضان الزراعيان في سنتي ١٩٠٩ و١٩١٢ يجب ان نعتبرهما معارض تمهيدية للنهضة الصناعية في مصر . غير ان حلول الحرب الماضية سنة ١٩١٤ لا تمكننا من تتبع أثرهما . وان لم يخلو من الفوائد الزراعية والصناعية خصوصاً في تعريف الصنّاع بالآلات والماكينات مما عاد بفوائد لا بأس بها بطريق غير مباشر

أما معرض سنة ١٩٢٦ وهو الأول بعد الحرب العالمية الماضية فقد كان مفاجأة عجيبة اذ أظهر للملأ وجود صناعات أهلية متقنة كانت مهملة يجهلها كثيرون من المصريين كانوا يعولون في شراء أمتعتهم على المصنوعات الاجنبية كما سنبين في الاحصائيات الواردة بعد. ثم جاء معرض سنة ١٩٣١ ومعرض سنة ١٩٣٦ بنجاح أظهر . وهكذا تقدمت المعارض وتدرجت تبعاً لتقدم البلاد وبالجملة خطت خطوة واسعة

وليس الاحصاء الذي نقدمه شاملاً بل نكتفي بالامثلة لنبين مدى ما أفادتهُ بعض الصناعات الأهلية

﴿ صناعة الموبيليات أو الأثاثات الخشبية والمعدنية ﴾ كان للمعروضات التي قدمتها المدارس الصناعية والمصانع الاهلية أثر كبير. اذ برهن على اتقان هذه الصناعة التي لا تقل ان لم تفق ما كان ينكب عليه كبار المصريين وغيرهم . وان العامل المصري اذا وجد التشجيع ورواج سلعته أمكنه ان يبلغ درجة النبوغ . ففي سنة ١٩٢٨ استوردت مصر أثاثاً خشبيًّا من أنواع مختلفة بمبلغ ٣٧١ ألف جنيه تقريباً فهبطت قيمة الوارد في سنة ١٩٣١ الى ١١٨ ألف جنيه وفي سنة ١٩٤٣ ( أي بعد معرض ١٩٣١ ) هبطت مرة أخرى الى نحو ١٥ ألف جنيه ثم أخذت هذه القيمة في القلة . ومقابل ذلك زادت قيمة الوارد من الخشب الصالح لاستعمال الأثاث مما يدل على نهوض هذه الصناعة

ومن بين أنواع الاثاث : النوع المنجَّد وكانت قيمة الوارد منهُ ٣٢ ألف جنيه سنة ١٩٣١ فأصبح ٣ آلاف جنيه سنة ١٩٣٧ مما يدل على انتعاش صناعة التنجيد أيضاً

وقد يتبع هذه الصناعة صناعات أخرى مثل الأثاث المصنوع من الصفصاف أو الخيزران فقد كانت قيمة الوارد منهُ ٩ آلاف جنيه سنة ١٩٢٧ فأصبحت ٦٢ جنيهاً فقط

سنة ١٩٣٦ والمعلوم ان هذه الصناعة منتشرة في البلاد

ولا بأس ان نضيف الى هذا الباب صناعة المكانس التي كانت وارداتها في سنة ١٩٢٧ بمبلغ ٢٠ ألف جنيه تقريباً واصبحت في سنة ١٩٣٣ — ٧٥٠ جنيهاً وفي سنة (١٩٣٧) ٢٣٥ جنيهاً فقط . وهذا ناشيء عن زراعة ذرة المكانس في مصر وتقدم صناعة المكانس كما دلت على ذلك معروضاتها

﴿ الأثاث المعدني ﴾ نكتفي بالتدليل على ما أفادته صناعة الأثاث المعدني بالاسرَّة فقد كانت قيمة الوارد من الاسرة المصنوعة من الحديد والنحاس ١٣٥ ألف جنيه سنة ١٩٢٨ فأصبحت في سنة ١٩٣١ — ٢٠ ألف جنيه منها ١٢ ألف جنيه قيمة الاسرة الحديدية و ٨٥٠٠ جنيه قيمة الاسرة النحاسية المستوردة . وذلك نتيجة نشاط صناعة الاسرة في مصر وزيادة المصنوع منها من الخشب . وهكذا هبطت قيمة واردات المصنوعات النحاسية المصقولة من ٥١ ألف جنيه سنة ١٩٣١ الى ١٨ ألف جنيه سنة ١٩٣٨ كما هبطت قيمة الوارد من مواقد البترول من ٤٧ ألف جنيه سنة ١٩٢٨ الى ١٥ ألف جنيه سنة ١٩٣٣ . وهكذا الحال مع أجهزة الاضاءة والنجف والاعمدة ومصنوعات النيكل المنقوشة على هذا النحو

﴿ صناعة الاحذية الجلدية والجلود ﴾ لم يكن اهتمام العارضين من الافراد والهيئات الحكومية بصناعة الاحذية الجلدية والجلود ليقل عن غيرها . وقد اصبحت بحق صناعة وطنية تسد حاجة السكان . لقد استوردت مصر سنة ١٩٢٨ ما لا يقل عن ٥٧٠ الف زوج من الأحذية الجلدية فهبط سنة ١٩٣١ الى ٢٢٤ الف زوج وفي سنة ١٩٣٣ الى ٥٩ الف زوج وفي سنة ١٩٣٦ الى ٥١ الف زوج وقيمة ذلك بالتوالي ٢٤٦ الف جنيه ثم ٩٥ الف جنيه ثم ٢٨ الف جنيه ثم ٢١ الف جنيه — ونشطت مع هذه الصناعة صناعة دهان الاحذية والجلود فقد كانت قيمة الوارد منها نحو ٤٠ الف جنيه سنة ١٩٢٨ هبطت الى ١٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦

وقد نشطت أيضاً صناعة دبغ الجلود وما أدخل عليها من تحسينات فزادت قيمة المادة الخام التي تستورد للدباغة ( خلاصة نباتية ) من ٢٨ الف جنيه سنة ١٩٣١ الى ٤٨ الف جنيه سنة ١٩٣٨ كما قلت قيمة الوارد من الجلود الخام بنحو ٥٠ ٪ وغيرها — وأصبح يستعمل بعضها في صناعة الاحذية الجلدية في البلاد وما يزيد على ذلك يصدر الى الخارج وقد صدرت مصر سنة ١٩٣٣ بما يساوي ١٥٠ الف جنيه جلود غير مدبوغة وبمبلغ ١١٨

الف جنيه جلود مدبوغة . وفي سنة ١٩٣٧ زادت قيمة الصادر على الاول كثيراً وعلى الثاني قليلاً . وهكذا نشطت صناعة الجلود في مصر من احذية جلدية وحقائب وسروج وغير ذلك مع تقدم فن الزخرفة مما يجعلها مضاهية لأحسن الاصناف المستوردة

﴿ صناعة الصابون والزيوت والشحوم ﴾ كان لمعروضات الصابون والمواد الزيتية ومشتقاتها التي نسقت للزائرين أثر كبير في الصناعة وتقدمها وما لاقته بعد من رواج . لقد كانت تستورد البلاد في سنة ١٩٢٥ نحو ١٠٤٠٠ طن من الصابون العادي ثمنها نحو ٥٢٤ الف جنيه فهبطت الى ٦٣٠٠ طن سنة ١٩٣١ و ٤٦٠٠ طن سنة ١٩٣٢ وبفضل تقدم الصناعة وانتشارها قلت كمية المستورد وأصبحت ٢٨٠٠ طن سنة ١٩٣٦ — وقد تقدمت الصناعة كما هو مشاهد الى درجة انتاج أحسن أنواع الصابون: صابون غسل الوجه وغيره — ومقابل ذلك تستورد البلاد كميات عظيمة من زيت الزيتون وزبدته وجوز الهند وزبدته بمقادير متزايدة لادخالها في صناعة الصابون علاوة على ما تستنفده من زيت بذرة القطن . ولا شك ان مصر كسبت مبالغ عظيمة بزيادة انتاج الصابون محليًّا بدلاً من الكمية التي كانت تستوردها

ولا بد من الاشارة الى صناعة زيت بذرة القطن وما أفادته المعروضات والمشاهدات من ترغيب الطبقة العليا والمتوسطة في أنواع الزيت المكررة لاستعمالها في الغذاء وقد أثمرت هذه المحاولة وأصبحت تزاحم الزيوت المستوردة مثل زيت الزيتون وغيره — ولذلك يلاحظ تناقص في كمية زيت الزيتون المستوردة للتغذية . وزيادة في كميته المستوردة منه للصناعة ، فقد كان المستورد منهُ في سنة ١٩٣٦ للصناعة ٢٢٦٥ طن وللتغذية ٩٥٠ طن فقط بعد أن كان مقدار الوارد من الأخير ٢٢٧٠ طن في سنة ١٩٣٣ . وبجانب صناعة الزيت نشطت صناعات كثيرة منها السمن الصناعي والدهان وشموع الاضاءة وغيرها

وقد كانت قيمة الوارد من الشموع ٦٩٠٠ جنيه في سنة ١٩٣٢ فهبطت الى ٢٥٠٠ جنيه في سنة ١٩٣٦ كذلك دهان الأحذية والجلود من ٤٠٠ الف جنيه سنة ١٩٢٨ الى ١٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦

﴿ صناعة السكر والارز ﴾ ولا شك ان صناعة السكر وموقفها ازاء الوارد والصادر قد تغير ، فقد كان المستورد من السكر المكرر حول ٥٠ الف طن والخام ١٠ آلاف طن وذلك بين سنوات ١٩٢٤ الى ١٩٢٨ وقد تحوَّل الموقف إذ أصبحت مصر لا تستورد من

السكر المكرر أكثر من ٦٢٤ طن سنة ١٩٣٦ و ٣٧ الف طن من الخام في تلك السنة وتكرره في المصانع المصرية

كذلك كان يستورد أرز مقشور بكمية كبيرة ، مثال ذلك ٦٦ الف طن سنة ١٩٣١ فهبطت الى ٤٦٠٠ طن سنة ١٩٣٢ وما بعدها . بينما تستورد مصر كميات من الارز غير المقشور تزيد أو تقل تبعاً لرغبة الزراعة في تجديد التقاوي وسد الفائض ، فقد كانت قيمة المستورد ٦٥٣ الف جنيه سنة ١٩٢٥ فهبطت الى ٢١٦ الف جنيه سنة ١٩٣٢ والى ٣ آلاف جنيه سنة ١٩٣٣ . ومعنى ذلك ان مصر تسد حاجتها من ناتج الارز المزروع في بلادها . وزادت تبعاً لذلك أعمال مضارب الأرز وهي صناعة بلغت مراحل كبيرة من التقدم

﴿ مصنوعات الحرير والصوف ﴾ كان لمعروضات الحرير والصوف أهمية خاصة في المعارض . أولاً لأن البلاد ليست منتجة لخام الحرير بينما تستعمل الأنسجة الحريرية في نطاق واسع . بيد ان صناعة الحرير ازدهرت فزادت كميات الخيوط الخام وغيرها المستوردة من ٩٢ الف جنيه سنة ١٩٣١ الى ١٤٠ الف جنيه سنة ١٩٣٣ الى ٢٦٢ الف جنيه سنة ١٩٣٧ وكذلك زادت قيمة الخام المستورد من خيوط الحرير الاصطناعي من ٥٦ الف جنيه في سنة ١٩٣١ زيادة تدريجية الى ٢٤٩ الف جنيه في سنة ١٩٣٧. على ان ما بيّن ازدهار صناعة الصباغة أيضاً ان الوارد من الخيوط المصبوغة لم يزد على ٤ آلاف جنيه سنة ١٩٣١ و٧ آلاف جنيه سنة ١٩٣٧ . ويقابل ذلك هبوط وارد المصنوعات الحريرية الدقيقة مثال ذلك الدانتلّة والمطرزات وشرائط الحرير والعقادة والقطيفة حيث كان قيمة الوارد منها ٦١ الف جنيه سنة ١٩٣١ فصار نحو ٣٨٠٠ جنيه سنة ١٩٣٣ فقط

أما الملابس « الجاهزة » وأجزاؤها من الحرير ومثلها « الملابس الداخلية » فقد كان قيمة الوارد منها ٩٦ الف جنيه سنة ١٩٣١ فصارت ٣٤ الف جنيه سنة ١٩٣٣ و ٢٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦ ومثلها الشيلان والكفيّات من الحرير الطبيعي فقد كانت قيمة الوارد منها سنة ١٩٢٨ — ٣٦ الف جنيه فصارت ٥٦٠٠ جنيه سنة ١٩٣١ ثم هبطت الى ٩٠٠ جنيه فقط سنة ١٩٣٣

ويدهشكم الاطلاع على الرقم الخاص « بالكرافتات » وهي تعمل من قطن أو حرير ، فقد كان قيمة الوارد منها سنة ١٩٢٨ نحو ٧٦ الف جنيه وفي سنة ١٩٣١ هبط الى ١٩ الف جنيه وبعد معرض ١٩٣٢ — هبط مرة أخرى الى ٦ آلاف جنيه . وفيما تقدم دلالة عظمى على اتساع وتقدم هذه الصناعة الدقيقة في البلاد وهي مثل لعدد كبير غيرها

﴿ الصوف ﴾ ومصر ليست من البلاد التي تنتج الصوف . انما يشتغل كثير من المصانع الصغيرة وربات المنازل في اعداد المنسوجات الصوفية . ولزم تبعاً لذلك ان يزيد مقدار المستورد من غزل الصوف وخيوطه لأمداد من تقدم ذكرهم . اذا كانت صناعة الصوف تنتشر وتتقدم ايضاً . ويدل الاحصاء على ان قيمة المستورد من الغزل والخيوط الصوفية كانت ٢٥ الف جنيه سنة ١٩٣١ فصارت ٥٨ الف جنيه سنة ١٩٣٣ ثم صعدت الى ٩٦ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . ومن بين هـذه بند بارز وهو خيوط الصوف المعدة للبيع بالتجزئة للافراد . فقد كانت قيمة الوارد منهُ ٩ آلاف جنيه سنة ١٩٣١ فصعدت الى ٣٢ الف جنيه سنة ١٩٣٧

وهذا البيان يدل على تقدم صناعة الصوف كبيرها وصغيرها في البلاد بينما يقابل هذه الزيادة التي شوهدت في المستورد من المواد الخام انخفاض في المصنوعات الصوفية المستوردة مثل الملابس الجاهزة فقد كان قيمة المستورد منها سنة ١٩٢٨ — ١٠٥ آلاف جنيه — فهبطت الى ٥٢ الف جنيه سنة ١٩٣١ و ٤١ الف جنيه سنة ١٩٣٣ و٣٧ الف جنيه سنـة ١٩٣٦ . وقد هبطت ايضاً قيمة الوارد من السجاد المصنوع من الصوف

﴿ صناعة الطرابيش وأغطية الرأس ﴾ وهذه صناعة ناشئة بدأ بها بعض الأفراد اولاً ثم انهارت، ثم كان مشروع القرش الذي أنشأ مصنع الطرابيش بالعباسية ثم نما وازدهر وأصبح يموّن القطر المصري كله بالطرابيش — كانت قيمة ما استورد منها سنة (١٩٢٨) ٩٣ الف جنيه فهبطت سنة ١٩٣٣ الى ٧٩ الف جنيه ثم الى ٤ آلاف جنيه سنة ١٩٣٦ — وكذلك كان حال أغطية الرأس الأخرى التي كان قيمة الوارد منها سنة ١٩٣١ — ١٤٠ الف جنيه فتناقص الى ٦٢ الف جنيه سنة ١٩٣٦

﴿ الصناعة القطنية ﴾ يتطلب الـكلام على الصناعة القطنية ومقدار ما أفادته من رسالة المعارض-المجال الـكبير مما قد تضيق عنه مثل هذه المحاضرة وذلك لتشعب الوضوع وتعدد أنواع الصناعة ولذلك نستعرض اولاً الصناعات الفرعية الصغيرة مثل القطن الطبي والجوارب والملابس الجاهزة و«البياضات» والمناديل وغير ذلك مما كان ممثلاً في المعارض الزراعية الصناعية العامة أحسن تمثيل

﴿ القطن الطبي ﴾ مَن من الذين زاروا المعارض العامة ولم تقفهُ معروضات القطن الطبي التي كان يعرضها بعض شركات مصر ولم يعتبر أنها جرأة غير موفقة في عمل قطن معقم يستعاض به عن مصنوعات البلدان الاجنبية . ولـكن كانت النتيجة في جانب المتفائلين كما

يتضح من مقارنة قيمة الواردات من القطن المعقم . حيث كانت قيمتها سنة ١٩٢٨ تبلغ نحو ١٩ الف جنيه ثم هبطت الى ٢١٠٠ جنيه في السنة التي أقيم فيها معرض سنة ١٩٣١ وما لبثت ان صارت في السنة التالية ٨٠٧ جنيه وهكذا حتى أصبحت قيمتها ٢٥٠ جنيه فقط بعد معرض سنة ١٩٣٦

﴿ بعض المصنوعات القطنية الدقيقة ﴾ كانت تستورد مصر من الجوارب ما قيمتهُ ١٣٤ الف جنيه سنة ١٩٣٣ فهبط الى ٥٧ الف جنيه سنة ١٩٣٨ ومن الملابس القطنية الجاهزة بما قيمته ٢٤ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ١٦ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . كما هبطت قيمة الوارد من الملابس الداخلية الجاهزة من القطن من ٢٦ الف جنيه . الى ١٢ الف جنيه. اما « الفوط والبشاكير » فكان قيمة الوارد منها سنة (١٩٢٨) ٧٦ الف جنيه فهبطت الى ٨ آلاف جنيه سنة ١٩٣٨ ، والبياضات المزينة الجاهزة من ٧٩ الف جنيه سنة ١٩٣١ الى ٢١ الف جنيه سنة ١٩٣٨ . والبطانيات القطنية من ١٢ الف جنيه الى ٢٠٠٠ جنيه فقط والشيلان والـكفيات القطنية من ٥٧٠٠ جنيه الى ٨٠٠٠ جنيه والمناديل وأغطية الرقبة من ٢١ الف جنيه الى ١٧ الف جنيه

أما بالنسبة لخيوط القطن التي تهيأ على بكر أو بدونهُ وهي مرحلة وسطى في هذه الصناعة فقد كان قيمة الوارد منها ( المهيأ على بكر ) ١٢٠ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ٦٩ الف جنيه سنة ١٩٣٦

اما عن الاقمشة القطنية السمر الثقيلة فقد كانت تستورد مصر بما قيمته ٣١٢ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبط الى ٢٢١ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . بينما كان النزول عظيماً في الاقمشة القطنية السمر المقصورة فقد كانت قيمة الوارد منها ٢٨٦ الف جنيه . سنة ١٩٣١ فهبط الى ٣٣ الف جنيه سنة ١٩٣٣ كذلك هبطت قيمة الحشو اللباد والحبال بنسبة كبيرة . أما بالنسبه لجملة الأقمشة القطنية المستوردة في سنوات ١٩٢٥ ، ١٩٢٩ ، ١٩٣٣ ؛ فكانت قيمتها كما يأتي ٨،٤٠٠،٠٠٠ جنيه و ٦،٦٠٠،٠٠٠ جنيه و ٣،٥٠٠،٠٠٠ جنيه بالتوالي

ومما يدل على ان مصر تقدمت ايضاً في عمل غزل القطن علاوة على صناعة النسيج. ان المادة الخام هبط استيرادها ايضاً وهي المعروفة بغزل القطن مما يدل على كثرة انتاجه في مصر داخليـًّا

﴿ صناعة الثقاب ( الـكبريت ) ﴾ يصح تطبيق المثل ( أندر من الـكبريت ) على الماضي حينما كانت قيمة الوارد من عيدان الـكبريت او الثقاب ٢٤٥ الف جنيه عام ١٩٢٨ ولـكن الحال

تبدّل الآن اذ هبطت كمية المستورد الى ما يعادل ٨٠ الف جنيه سنة ١٩٣٣ و٢٥ الف جنيه سنة ١٩٣٦ . ومع ان صناعة ثقاب الكبريت سائرة في الازدياد الاّ أن المثل السابق ذكره لا يزال قائماً مع تعديله الى « أندر من الكبريت الجيد » ولعل صانعيه يوفقون الى اجادته أكثر مما هو عليه الآن .

﴿ صناعة الجبن ومنتجات الالبان وبعض الأغذية ﴾ تميزت المعارض العامة بمعروضات الجبن والمحفوظات وأنواعها التي تفنن في ابرازها المعاهد الزراعية والمصانع الوطنية مما برهن على امكان عمل اكثر انواع الجبن في مصر على أحسن القواعد

كانت قيمة الوارد من الجبن في سنة ١٩٢٥ نحو ٣٥٠ الف جنيه فهبطت في سنة ١٩٣٢ الى ٢٠٧ آلاف جنيه ثم الى ١٩١ الف جنيه سنة ١٩٣٣ . وربما كان اكبر برهان على انتشار هذه الصناعة كفايتها للمستهلكين في الوقت الحالي

وهكذا الحال عن منتجات الألبان والفاكهة التي كان قيمة الوارد منها ( أي الفاكهة ) ٦١٤ الف جنيه سنة ١٩٣٠ فهبط الى ٤٥٥ الف جنيه سنة ١٩٣٣ وهبط مرة أخرى الى ٢٠٩ آلاف جنيه سنة ١٩٣٧ . ولا شك انهُ كان للمعروض من أصناف الفاكهة والرغبة في زرع الأحسن منها فعل كبير في قلة الوارد . ولا ننسى معروضات التعبئة لتصدير الفاكهة الى بلدان اوربة منذ حوالي ١٩٣٥

وعلى هذا النحو من تقدم صناعة التجفيف والحفظ نضرب مثلاً للفاصوليا واللوبيا الناشفة التي كان يستورد منهما ما قيمته ٤٨ الف جنيه سنة ١٩٣١ فهبطت الى ٦ آلاف جنيه سنة ١٩٣٣ و ٧٠٠ جنيه فقط سنة ١٩٣٧

وقد كان للمكرونة المصنوعة محليًّا مجال في المعرض بحيث بينت للناس جودة النوع وتعدده فبعد أن كان الوارد منها سنة ١٩٢٨ نحو ٧٠ الف جنيه اذ به يهبط الى ٧ آلاف جنيه سنة ١٩٣٣ — و ٢٤٠٠ جنيه سنة ١٩٣٦

وهناك مثل آخر على الصناعة الغذائية كالأسماك الطرية او المملحة ، فقد كانت تستورد مصر منها ما قيمتهُ ٣٢٧ الف جنيه سنة ١٩٢٥ فهبط الى ٢٣٣ الف جنيه سنة ١٩٢٨ واستمر هذا الهبوط حتى وصل الى ٨٥ الف جنيه سنة ١٩٣٣

كذلك الحال مع اللحوم المجففة او المملحة ( مثل الباسطرمة ) فقد كان الوارد منها سنة ١٩٢٧ يقدر بنحو ٧٦ الف جنيه فهبط الى الفين جنيه سنة ١٩٣٢ والف جنيه فقط سنة ١٩٣٣

﴿ صناعة الزجاج ﴾ تميزت المعارض منذ نشأتها بوجود صناعة للزجاج بدائية يقوم بعرضها أصحاب مصانع الزجاج او بالحري أفران الزجاج الكائنة بجهة باب النصر — وتقتصر على الانتفاع بالكسر من الزجاج في عمل الأساور والخواتم والأقراط وبعض دوارق وكؤوس الماء . ثم تدرجت في الحرب الماضية الى الانتفاع بزجاجات « الغازوزة » وغيرها في عمل أكواب للشرب اثناء الحرب الماضية . ولكن تميزت المعارض الاخيرة بمعروضات المصانع الكبرى التي تؤلف المادة الزجاجية نفسها من موادها الخام في صنع الأكواب والآنية وزجاجات «اللمبات» وغير ذلك من الضروريات . وانهُ وان لم نتمكن من بيان ناتج المصانع الحديثة بصفة احصائية الاّ اننا نشعر بأنها سدت الفراغ ابان هذه الحرب وتكاد تفي مصنوعاتها بمتطلبات السكان . على انهُ اذا اقتصرنا على مقارنة الوارد من زجاجات « اللمبات » وحده لوجدنا ان قيمة الوارد منها سنة ١٩٣١ كانت ٤٣ الف جنيه فهبطت تدريجيًّا الى ثلاثة آلاف جنيه فقط

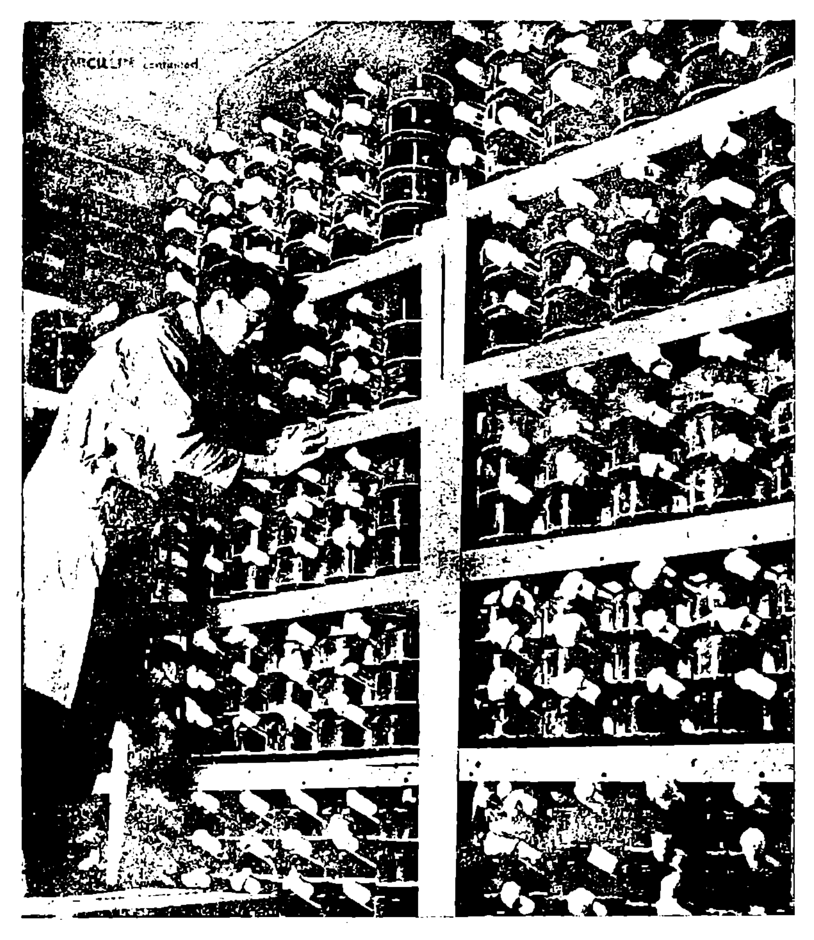
هذه هي — أيها السادة — بعض الأمثلة التي أوردناها دلالة على انتعاش الصناعات المحلية وتقدمها وخلق صناعات جديدة مما ساهمت المعارض في عملها إذ كانت كما قلت سابقاً رسالة بين المستهلك والصانع والهيئات المشتغلة بتقدم الصناعة . ولا ننسى الصناعات الهامة الاخرى التي انتعشت وأدت الى المستهلك أجل الخدمات والتي تعمل الحكومة والهيئات مجتمعة الى تقدمها مثل صناعة الاسمنت التي كادت تقضي على الوارد بأكمله . ثم الأدوات الكهربية وملحقاتها وأصناف الأدهنة الطبيعية وحاصلات البحر مثل الصدف والأزرار والأسفنج والحلوى ، والصناعات الزراعية باختلاف أنواعها

*

وفي المعارض القادمة ان شاء الله سنعني كل العناية بعرض كل ما يشحذ الهمم لاظهار صناعتين هامتين جدًّا أصبحت الحاجة اليهما من الأمور الملموسة — صناعة الكهربى من تدفق المياه من خزان أسوان واستغلالها في صناعة الاسمدة الكيميائية ، ثم صناعة الحديد من ملايين الأطنان الموجودة في منطقة أسوان

وتجدون في هذا المكان نفسه بيانات شائقة عنها في المعرض الجليل الفائدة الذي أقامته وزارة التجارة والصناعة حتى تتمكن أسوان المسكينة من تبوء مركزها بين مديريات القطر في المكان الذي أعدتهُ الطبيعة لها في عالم الصناعة

وفقنا الله جميعاً لما فيهِ خير البلاد .



هنا زجاج يحوي محصول يوم واحد من البنسيلين في أحد المصانع التي يحضر فيها . وفي كل زجاجة من هذه الزجاجات المصفوفة على رفوف جرعة من البنيسيلين . ولكن البنيسلين النقي لا يستخرج منها الا بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على تهيئة هذه الزجاجات

# ثورة في العلاج

للدكتور محمد رشاد الطوبي
المدرس بكلية العلوم

يرى الباحث في تاريخ العلوم المختلفة ان هذا التاريخ حافل بعدد كبير من الاكتشافات العلمية التي كان لها أثر واضح في تقدم الانسان ، وليس هناك من شك في أن كثيراً من هذه الاكتشافات كانت نتيجة أبحاث طويلة ودراسات متواصلة قام بها العلماء المختصون ، لذلك كان العالم مديناً لهؤلاء القوم الذين أفادوه بعلمهم وتجاربهم فأخذ يرتقي سلم المجد بخطوات ثابتة ، فكم من هؤلاء العلماء من وصل الليل بالنهار غير مدخر كل ما يملك من جهد أو مال لتحقيق فكرة أو لاستنباط شيء جديد يعود بالنفع على الانسانية كلها ، وقد تكون المصادفة وحدها هي المنبئة بظهور اكتشاف جديد كما حدث أحياناً ، ومع ذلك فالفضل كله لمن قام باستغلال تلك المصادفة السعيدة استغلالاً ناجحاً ، فقد تقع مثل هذه المصادفة لكثير من الناس ولكن عين الباحث المدقق هي التي تجلو الحقائق وتظهر للناس ما يحتوي عليه هذا الكون من العجائب والأسرار

ومن أروع الأمثلة على مثل هذه الاكتشافات قصة اكتشاف البنيسيلين ذلك الدواء العجيب الذي اكتشف حديثاً واهتزت لهُ الاوساط الطبية والعلمية في جميع البقاع ، ويعدّه كبار المشتغلين بالابحاث الطبية من أهم الاكتشافات التي ظهرت في تاريخ الطب كله ، فهم يقولون عنهُ انهُ أقوى دواء عرف حتى الآن في علاج الأمراض الناتجة عن الميكروبات ، كما وصفه بعضهم بأنهُ حجر الفلاسفة في عالم الطب ، ولقد كانت عقاقير السلفميد تُعدُّ اكتشافاً رائعاً وكانت لها شهرة فائقة في انقاذ حياة المرضى. ولكن سرعان ما تضاءلت هذه العقاقير بعد اكتشاف البنيسيلين، إذ أن هذا الدواء قد نجح نجاحاً باهراً في علاج كثير من الأمراض الفتاكة التي لا تؤثر فيها مركبات السلفميد على الاطلاق ، ويظهر أثره في القضاء على هذه الامراض بسرعة أثارت دهشة الأطباء كما ان النتائج التي حصلوا عليها من استعماله جعلتهم يؤمنون بأن هذا الاكتشاف هو فتح جديد في عالم الطب

ومكتشف البنيسيلين هو الدكتور فلمنج الذي يشغل وظيفة بكتريولوجي في مستشفى سان ماري بلندن ، وقد حدث في عام ١٩٢٩ أن ترك الدكتور فلمنج سهواً في معمله طبقاً زجاجيًّا معرضاً للهواء به مزرعة من مزارع الميكروبات التي كان يجري عليها تجاربه في ذلك الحين ، وكانت هذه الميكروبات من جنس ستافيلوكوك أو الميكروبات العنقودية .

ويحتوي هذا الجنس على أنواع تحدث البثور والدمامل والجمرات وبعض أمراض العظام المزمنة وتسمم الدم ، وقد حدث ان جرثومة من جراثيم العفن التي كان يحملها الهواء كما يحمل الملايين غيرها من جراثيم قد سقطت في الطبق الذي يحتوي على مزرعة الميكروبات السالفة الذكر ، والعفن عبارة عن نباتات دنيئة تعيش على كثير من المواد العضوية كالخبز والجبن والفواكه والخضروات وغيرها ، فاذا تركت قطعة من الخبز مثلاً معرضة للهواء زمناً كافياً في مكان رطب فانها تتعفن ، وينتج ذلك عن سقوط بعض جراثيم العفن التي يحملها الهواء على الخبز فتأخذ في النمو وتحدث عفن الخبز المعروف لكل انسان ، وهناك عدة أنواع مختلفة من العفن منها النوع المعروف علميًّا باسم بنيسيليوم نوتاتم وهو الذي تدور عليه هذه القصة ، وكانت الجرثومة التي سقطت في مزرعة الميكروبات من هذا النوع الأخير ، فأخذت هذه الجرثومة في النمو وسط الميكروبات العديدة التي تحيط بها من كل جانب حتى كوّنت حجماً واضحاً من العفن داخل المزرعة . ولما عاد الدكتور فلمنج لفحص مزرعته الصغيرة لاحظ وجود هذا العفن بداخلها ، ولعلهُ لم يكن راضياً في بادىء الأمر عن هذا الضيف الغريب الذي اندسّ وسط الميكروبات فسلبها نقاءها ، وهو أمر كثيراً ما يتذمر منهُ الباحث ، ولكنهُ عندما بدأ يدقق النظر في هذا العفن لاحظ شيئاً هامًّا كان هو الباعث له على اكتشاف البنيسيلين ، وذلك لانهُ وجد ان الميكروبات قد نمت بنجاح تام في جميع انحاء المزرعة وانتشرت بها انتشاراً واضحاً الاّ في منطقة معينة تحيط بالعفن من جميع الجهات ، كانت هذه المنطقة خالية من الميكروبات على الاطلاق ، فكأن العفن قد حرّم على الميكروبات اقتحام هذه المنطقة والاقتراب منها ، وقد استنتج فلمنج من ذلك ان هذا العفن ربما كان ينتج مادة تقتل الميكروبات او توقف نموها ، ولكي يتحقق من ذلك أخذ قليلاً من العفن ووضعهُ في أنبوبة اختبار تحتوي على سائل به بعض المواد الغذائية فبدأ العفن ينمو بسرعة فوق سطح هذا السائل ، وبعد اربعة أيام ظهر في السائل فجأة لون أصفر برّاق ذلك هو لون المادة الكيميائية التي بدأ النبات في افرازها والتي أطلق عليها فلمنج اسم البنيسيلين نسبة الى نبات العفن الذي يعرف باسم البنيسيليوم . ثم القى فلمنج بعد ذلك العفن جانباً ووجه اهتمامه الى ذلك السائل الاصفر ، فأخذ منهُ قطرة واحدة

ووضعها على مزرعة جديدة من ميكروبات ستافيلوكوك فأوقفت نموها في الحال

ولقد ظهر تقرير فلمنج عن البنيسيلين عام ١٩٢٩ وفيه أكد ان قوة هذا الدواء الجديد في مقاومة الميكروبات لم تعهد من قبل في أي دواء آخر جرب استعماله ، فلو امكن فصل هذه المادة من السائل وتحضيرها نقية ، ثم التدرج من ذلك الى معرفة تركيبها الكيميائي والى ايجاد وسيلة لانتاجها صناعياً بواسطة التأليف الكيميائي لكان هذا الدواء الجديد هو أمضى سلاح عرف في عالم الطب لمحاربة الميكروبات ، ولم يكن فصل البنيسيلين من المواد الكيميائية الاخرى التي توجد معه في السائل من الامور الهينة ، ولذا فقد ظلَّ استعماله فترة من الزمن قاصراً على تجارب المعمل اذ كانت له فائدة كبيرة في فصل الميكروبات التي لا تتأثر بفعلهِ عن الميكروبات الاخرى التي يؤثر فيها

واستمر الأمر على هذا المنوال حتى كان عام ١٩٣٩ حيث فكر بعض علماء اكسفورد في استكمال الابحاث الخاصة بالبنيسيلين ، فبدأ الدكتور ابراهام بالاشتراك مع الدكتور كايين في عمل مزارع البنيسيليوم ، وسرعان ما حصل هذان الباحثان على نتائج اولية تدعو الى الدهشة ، فبينما عقاقير السلفميد لا تقوى على مقاومة الميكروبات اذا كانت في جموع حاشدة فقد برهن البنيسيلين على انهُ قادر على مقاومة الميكروبات مهما كان عددها ، وكذلك لا تستطيع عقاقير السلفميد ان تقوم بعملها في الجروح الملوثة بالميكروبات اذا كانت هذه الجروح تحتوي على دم أو صديد أو بقايا أخرى ، أما البنيسيلين فلهُ تأثير عجيب في مثل هذه الظروف

وكان الدكتور كايين والدكتور چيننجز اول من استخلصا من السائل الاصفر مقادير ضئيلة من مسحوق رمادي اللون ، ولقد كانا على علم بان هذا المسحوق ليس هو البنيسيلين النقي ، ومع ذلك فقد كان ذا أثر شديد في ميكروبات الدفتريا والالتهاب الرئوي والميكروبات العنقودية ( ستافيلوكوك ) والسبحية ( ستربتوكوك ) ، ولكن عرفت قوة تأثير هذا المسحوق في الميكروبات السابقة وهي في داخل انبوبة الاختبار ، فهل يكون له نفس الأثر اذا كانت تلك الميكروبات في جسم الانسان ؟ لا بد للاجابة عن هذا السؤال من اجراء التجارب التي تثبت ذلك ، ولما كان اجراء مثل هذه التجارب على الانسان أمراً غير ممكن ، فقد قام الباحثان باجراء التجربة الآتية على الفيران ، وذلك انهما أحضرا خمسين منها وحقنت كلها بكميات قاتلة من ميكروبات ستافيلوكوك وستربتوكوك معاً وقد قسمت بعد ذلك هذه الفيران المريضة الى مجموعتين متساويتين ، اما افراد المجموعة الاولى فقد تركت

وشأنها ، ولكن افراد المجموعة الثانية حقنت كلها في فترات منتظمة بالبنيسيلين داخل الاوردة ، وبعد يومين كاملين ماتت جميع افراد المجموعة الاولى وعددها خمسة وعشرون ، ولكن تغلبت أفراد المجموعة الثانيـة على المرض فلم يمت منها سوى فرد واحد بينما بقي الاربعة وعشرون فرداً الآخرون في حالة جيدة

وقد استمرَّت بعد ذلك الأبحاث الخاصة بالبنيسيلين واشترك فيها غير من تقدم ذكرهم كل من الدكاترة فلوري وفلتشر وجاردنر وهيتلي ، وكان أول ما عمل في هذا الميدان هو التحقق من ان البنيسيلين لا يضر بكريات الدم البيض كما جاء في تقرير فلمنج ، ولقد توصل هؤلاء الباحثون الواحد بعد الآخر الى النتيجة التالية ، وهي ان البنيسيلين يمنع بعض أنواع الميكروبات من أن تنمو وتتكاثر داخل جسم المريض ، وليس ذلك بالامر الهين بل هو انتصار عظيم في عالم الميكروبات ، والسبب في ذلك انهُ اذا لم تتكاثر الميكروبات داخل الجسم فان كريات الدم البيض تستطيع ان تتغلب عليها بسهولة ، فهي تنتقل الى حيث توجد هذه الميكروبات وتلتهمها وبذلك يسلم الانسان من شرها وينجو من الهلاك

وبعد انقضاء عام واحد على بدء هذه الأبحاث في اكسفورد وفق هؤلاء الباحثون الى تحضير مسحوق أصفر اللون هو البنيسيلين النقي ، وكان هذا التوفيق نتيجـة للجهود المتواصلة والعزم الصادق الذي لا يلين ، فقد أجريت في خلال هذا العام كثير من التجارب الشاقة وعولجت جميع الصعوبات التي اعترضت تلك الأبحاث بمختلف الطرق حتى أمكن التغلب عليها في نهاية الأمر ، وبذلك استطاع هؤلاء العلماء استخلاص البنيسيلين النقي من السائل الذي يعيش عليه نبات العفن

ولقد بين الدكتور ابراهام قوة تأثير البنيسيلين بالتجربة الآتية ، فقد عمل محلولاً مركزاً كل التركيز من السلفابيريدين والسلفاتيازول وهما من أحسن العقاقير الحديثة المستعملة في مقاومة الميكروبات ، ووضع قدراً من كل من هذين المحلولين في بعض المزارع الغاصة بالميكروبات الفتـاكة ، فلم يستطع أحدهما ان يقف نموها وقفاً تامًّا ، ولـكنهُ قام بتجربة البنيسيلين على مثل هذه المزارع فوجد انهُ لا يترك ميكروباً واحداً داخلها دون ان يقف نموه في الحال ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل ان البنيسيلين له نفس هذا التأثير اذا خفف محلوله المركز تخفيفاً هائلاً وذلك بوضع قطرة واحدة منه في خمسمائة الف قطرة من الماء ، وقد وجد بعض البـاحثين الآخرين ان البنيسيلين المخفف بنسبة واحد الى مليونين يقضي على ميـكروب السيلان ، والمخفف بنسبة واحد الى مليون يقضي على

ميكروب الالتهاب السحائي ، والمخفف بنسبة واحد الى ربع مليون يقضي على ميكروب الالتهاب الرئوي

وقد جرب البنيسيلين بعد تحضيره نقيًا في علاج بعض المرضى الذين كانوا بالمستشفيات عند ما أخفقت جميع الوسائل الأخرى في علاجهم فانتشلهم ذلك الدواء العجيب من الموت المحقق . ومن الأمثلة على ذلك ان كان هناك مريض بالالتهاب السحائي أخفقت في علاجه كافة العقاقير ومنها عقاقير السلفميد المشهورة ، وقد يئس الأطباء من علاج هذا المريض فقدم ليكون موضعاً للتجربة ، فأخرج الأطباء كمية من السائل الموجود في قناته الشوكية بواسطة حقنة ، ثم وضعوا مكان هذا السائل كمية من البنيسيلين ، كما أعطوا المريض حقنة أخرى من البنيسيلين في العضل ، وبعد عشرة أيام كان هذا المريض صحيحاً معافى ، وكان أثر البنيسيلين في المصابين بتقيحات العظام المزمنة مما يدعو الى الدهشة ، فقد ظل بعض هؤلاء المرضى يلازمون الفراش عدة شهور ومنهم من ظل مريضاً بضع سنوات ، ولكنهم استطاعوا ان يسيروا على اقدامهم بعد أسابيع قليلة من علاجهم بالبنيسيلين ، وقد استعمل البنيسيلين أيضاً بنجاح تام في حالات تسمم الدم والالتهاب الرئوي

وقد سافر بعد ذلك الدكتور فلوري والدكتور هيتلي الى الولايات المتحدة بالطائرة ومعهما كمية من نبات البنيسيليوم ، وكان الغرض من هذه الرحلة رجاء السلطات هناك اتخاذ التدابير اللازمة لتحضير كميات كبيرة من البنيسيلين لأن بريطانيا كانت في هذا الوقت تمر بساعات عصيبة وكانت الحرب الجوية على أشدها فلم تستطع أي شركة من الشركات الكيميائية البريطانية أن تأخذ على عاتقها حينئذٍ انتاج مقادير كبيرة من البنيسيلين ، ولا سيما ان ما ينتجه النبات من هذا الدواء ضئيل للغاية ، إذ يجب زرع مقادير هائلة من البنيسيليوم لاستخلاص ما يكفي من الدواء لعلاج مريض واحد، فقد قدر ان الجرام الواحد من مسحوق البنيسيلين يستخرج من حوالي مائة جالون من السائل الذي ينمو عليه النبات ، وقد حدث في احدى الحالات التي كانت موضع التجربة أن نفدت كمية البنيسيلين أثناء العلاج ، وكان المريض قد ظهرت عليه كل علامات التحسن ، ولكنهُ مات قبل أن تحضر كمية أخرى من الدواء لاتمام العلاج

ثم تغيرت بعد ذلك ظروف الحرب واستطاعت بريطانيا أن تنشيء عدداً من المعامل الضخمة لانتاج البنيسيلين كما انها آخذة في الوقت الحاضر في انشاء عدد آخر من هذه المعامل على وجه السرعة ، وبقدر ما تسمح بهِ مقدرتها الانشائية ، إذ أن المعمل الواحد من

هذه المعامل يحتاج الى مئات الآلاف من الزجاجات التي يزرع بداخلها نبات البنيسيليوم كما انه يحتاج الى كثير من المواد الكيميائية والأجهزة التي تستخدم في مختلف العمليات ، هذا عدا الكيميائيين والعمال الذين يقوم كل فريق منهم باحدى عمليات الانتاج ، ويستخدم في هذه المعامل عدد كبير من الفتيات يقمنَ بغسل الزجاجات وتعقيمها وعمل المزارع بداخلها واحضار السوائل التي يتغذى عليهـا النبات وجمع السوائل المحتوية على البنيسيلين وتركيزها الى غير ذلك من العمليات . وقد أنشئت في الولايات المتحـدة كذلك عدة معامل لانتاج البنيسيلين بنفس الطريقة المتبعة في المعامل البريطانية

والسبب في سرعة انشاء هذه المعامل هو ان البنيسـيلين قد جرب بنجاح منقطع النظير في معالجة الجرحى في ميادين القتال ، وذلك لأن الجروح التي يصاب بها الجنود تكون دائماً معرضة للاصابة بالغنغرينا الخطيرة ، وقد وجد ان البنيسيلين لايضارعه دواء آخر في معالجة مثل هذه الجروح والعمل على التآمها ، وطريقة استعماله هو ان يذاب مسحوق البنيسيلين في الماء المعقم ويحقن داخل الأوردة او العضلات او يرش المسحوق كما هو على الجروح مباشرة ، وتستخدم اي واحدة من هذه الطرق الثلاث حسب نوع الاصابة ، وليست هناك فائدة كبيرة من أخذه عن طريق الفم لانهُ يتفكك في الحال بفعل العصـارات الموجودة في المعدة ، وقد انقذ البنيسيلين عدداً كبيراً من الجنود الجرحى في مختلف الميادين من خطر بتر اعضائهم

اما طريقة تحضير البنيسيلين في المعامل الخاصة بانتاجه فتكون بزرع نبات البنيسيليوم في زجاجات خاصة أعدت لهذا الغرض ، ويوضع في كل واحدة منها كمية من السائل الذي يتغذى عليهِ النبات ، وهذا السائل عبارة عن محلول السكر بنسبة أربعة في المائة كما يوجد بهِ ايضاً كميات ضئيلة جدًّا من بعض الأملاح المعدنية ، وبعد ذلك يتم تعقيم الزجاجات والسائل الموجود بداخلها تعقيماً كاملاً بوضعها في افران خاصة تسمى اوتوكلاف ، ثم يوضع داخل كل زجاجة كمية من جراثيم العفن وتسد فوهتها بقطعة من القطن لتمنع وصول أي أنواع اخرى من الجراثيم او الميكروبات الى داخل الزجاجة ، وفي الوقت نفسه تسمح بدخول الهواء لكي يتمكن العفن اثناء نموه من التنفس ، ثم توضع هذه الزجاجات في غرف لها درجة حرارة خاصة ، فيبدا العفن في النمو تدريجيًّا حتى يكوّن طبقة سميكة فوق سطح السائل بعد انقضاء اسبوعين تقريباً من بدء هذه العملية ، وهو يفرز في السائل اثناء هذا النمو مادة البنيسيلين فيؤخذ السائل وتستخرج منهُ هذه المادة بعمليات معقدة ، ولهذا السبب فان المقادير التي تستخرج من هـذا الدواء محدودة جدًّا في الوقت الحاضر ، ويرسل الجزء الأكبر منها الى

القوات المحاربة ، ولا يترك لاستعمال المدنيين الاّ حوالي عشرة في المائة من الانتاج الكلي ، وهذا الجزء اليسير لا يسمح باستعماله الاّ بتصريح خاص ممن بيدهم الأمر ، وتصل يومياً الى الدكتور فلمنج نفسه والى مجلس الابحاث الطبية ووزارة التموين البريطانية مئات من الرسائل التي يكتبها الاطباء وغيرهم في مختلف أنحاء انجلترة لطلب الحصول على كمية من البنيسيلين لمعالجة المرضى الذين يكونون في حالة الخطر ، ولكنه لا يعطى غالباً إلاّ في حالة الأمراض الفتاكة التي لم يجرب في معالجتها قبل ذلك لمعرفة قوة تأثيره عليها ، وليس هناك من أمل في الحصول على كميات كبيرة من هذا الدواء العجيب في الوقت الحاضر إلاّ بعد معرفة تركيبه الكيميائي ، ولا يزال هذا التركيب سرّاً من الأسرار ، وهناك عدد كبير من الأبحاث المختلفة التي يقوم بها الآن أكبر الكيميائيين في المصانع والجامعات البريطانية والأمريكية للوصول الى هذه الغاية ، وهم يتبادلون يومياً المعلومات والنتائج التي يحصل عليها كل منهم بغية الوصول الى هذا الغرض النبيل ، وقد حصلوا فعلاً على بعض الظواهر التي قد توصلهم الى معرفة التركيب الكيميائي للبنيسيلين ، ومتى كللت هذه الجهود بالنجاح يكون من المستطاع تحضير كميات كبيرة منه بواسطة التأليف الكيميائي بدلاً من استخراجه من النبات الذي لا يكوّنه إلاّ بكميات محدودة ، ويظن بعض العلماء المشتغلين بهذه الابحاث ان هذا اليوم ليس ببعيد

...

ومما يجعل البنيسيلين مفضلاً كثيراً في علاج الامراض الميكروبية على أنواع السلفميد انهُ لا يحدث أي أثر سيء في الكليتين وفي القلب ، وانهُ لا يحدث أي تسمم عام كما يحدث استعمال السلفميد، ولا يشاهد في استعماله هذه الحساسية الخاصة التي ترى حين استعمال السلفميد الذي لا تتحمله بعض الاجسام ولو كانت المقادير المستعملة قليلة

وكان من الطبيعي بعد ان اكتشف البنيسيلين وعرفت مزاياه المتعددة ان يوجه العلماء اهتمامهم الى البحث في الانواع الأخرى من البنيسيليوم لعلهم يجدون من بينها ما ينتج أنواعاً أخرى من العقاقير ، وقد توصل بعضهم فعلاً الى اكتشاف مادة أخرى تسمى باتيولين بكونها نوع آخر من البنيسيليوم ، وقد اكتشفت هذه المادة منذ ثلاثة أشهر فقط ( اوائل ديسمبر ١٩٤٣ ) ووصفت كعلاج للبرد ، ولا شك في ان الأبحاث المتعددة التي تسير الآن في هذا الاتجاه ستظهر لنا عقاقير جديدة لم يعرفها الطب من قبل.

# استغلال الاراضي البور

## بشمالي الدلتا في بضع سنوات

يوسف فارس *

استقرّ العرف في مصر على ان يجري اصلاح الأراضي البور وفق نظام الري الدائم وذلك بشق الترع والمصارف على اختلاف درجاتها ، وغسل التربة باستخدام زراعة الأرز ونحوه

ولا ريب ان هذا النظام سديد من الناحيتين الهندسية والزراعية . بيد انه من الوجهة العملية شديد البطء ، لا يواتي طموحنا الى الاصلاح العاجل . فنظام الري الدائم يتابع في سيره مدى كفاية المياه المختزنة بأسوان وجبل الاولياء . وزيادة هذه المياه تتطلب تعلية الخزانات القائمة او بناء غيرها . وذلك يقتضي دراسات عميقة ونفقات طائلة يتعذر معها الاقدام على التنفيذ السريع ولا سيما في ظل المحنة العالمية الحاضرة

على ان السياسة المائية التي سادت في القطر المصري حقبة من الزمن ، لا ينتظر ان يحدث فيها بعد الحرب انقلاب فيما يتعلق باصلاح الأراضي البور ، فالمتوقع ان يجري الاصلاح كما كان من قبل بنسبة تترجح بين عشرين وثلاثين الفاً من الأفدنة في السنة

ولما كانت الاراضي البور بشمالي الدلتا تبلغ مساحتها نحو مليونين من الأفدنة ، فلا بد من نحو قرن لكي يتم اعدادها للزراعة جميعاً . واذن تبقى مساحات كبيرة معطلة ترتقب نوبتها البعيدة في الاصلاح

ومما هو معلوم ان زيادة المساحة عامل كبير في زيادة الانتاج الزراعي ، ومصر أحوج ما تكون الى ان تزيد في انتاجها لكي تعين الشعب على الخلاص مما يعانيه من بؤس وضنك

وحسبنا مثلاً نكبة الصعيد التي رفعت لنا الستار عن حقائق مروعة كنا نغضي عنها العيون . واذا استطاعت مصر أن تزيد في انتاجها الزراعي حتى يفيض عن حاجتها ، تسنى لها أن تمد بالفائض عنها بلاداً أضرت بها الحرب وجعلتها في حاجة الى العون

---

* المتخرج في المدرسة العليا للزراعة من جامعة أنجيه بفرنسة ومن أعضاء اللجنة الاستشارية للشؤون الاقتصادية بوزارة المالية . وقد عرض هذا البحث على تلك اللجنة في جلستها المنعقدة أول مارس ١٩٤٤

## بيان المشروع

ولا يتم لنا استغلال الأراضي البور في شمالي الدلتا في وقت قصير ، إلاَّ اذا أقلعنا في اصلاحها عن نظام الزراعة المضعَّفة Culture intensive [1] الذي يستدعي الري الدائم ، ولجأنا الى نظام الزراعة الموسَّعة Culture extensive [2] الذي يساعدنا على تنفيذها اتباعُ طريقة الري الحوضي . على أن نكتفي بمحصول واحد في السنة، وهو في بلدنا المحصول الشتوي ، سواء كان من الفصيلة النجيلية أو البقلية

ويتطلب هذا النظام تقسيم الأراضي أحواضاً تحدها الترع والمصارف الرئيسية التي تحفر لذلك الغرض ، حتى تغمر الأحواض وقت الفيضان بمياه النيل، على غرار ما كان متبعاً في مصر قبل اتساع الري الصيفي ، وما هو متبع حتى اليوم في جنوبيّ الصعيد . ويجب أن يراعى في حفر تلك الترع والمصارف الرئيسية أن تكون صالحة للري الدائم حين تتحول اليه الأراضي في المستقبل بالتدريج المساير لتوافر المياه الصيفية وكفاية الدولة المالية وما اليهما من العوامل

ومتى يتمّ حفر الترع والمصارف بجسورها، وانشاء الطرق اللازمة لهـا ، يشرع في غسل التربة أكثر من مرة على حسب مقـدار الملوحة في الارض — بما يندفق من الميـاه إبّان الفيضان على الطريقة الآلية المعروفة بـ« تضريب التربة» بالمياه . وطريقة « التضريب » أكثر عوناً على سرعة إذابة الأملاح القابلة للذوبان ، فاذا تشبعت الميـاه بالاملاح المذابة سريعاً صرفت مباشرة صرفاً سطحيًّا سريعاً أيضاً وتخلصت منها التربة كل التخلص . ولا مرية انهذه الطريقة أفضل وأسرع من طريقتنا المألوفة ، لاننا في الأغلب نترك المياه تترشح في باطن الارض . فيظل أثر الأملاح في الارض باقياً

---

(١) هي زراعة تدريجية تكون بواسطة رؤوس أموال كبيرة وترمي الى غلات عظيمة جداً تستخرج من مساحات محدودة بعض الشيء . وفي هـذه الحال لا احجام عن تحسين التربة وتعزيز السباخ البلدي بأسمدة كيميائية اضافية وتغذية الحيوان بسخاء وشراء آلات محكمة وتقاوي مختارة وحيوانات نتاجها ممتاز . واذ ان العملية الزراعية في الواقع عملية صناعية حقاً يجب أن تصفي بربح كاف . على ان هذا الربح قابل للزيادة في مقادير كبيرة، اذا أجرى المزارع عمله، وهو به خبير في فطنة وحسن تصرف

(٢) هي الزراعة التي تطبق على الاطيان الفسيحة بموارد قليلة ، ولا يكون تطبيقهـا إلا في بلاد حديثة العمران وفقيرة، تكون أراضيها قليلة الخصب، أو في مناطق لا تكثر فيها أسباب الاصدار . غير ان هـذه الزراعة لا تني تحسين التربة . ومن المعقول ان تزرع مساحات كبيرة من غير حصول على غلات وافرة ، وذلك في البلاد الحديثة العمران مثل اميركة وافريقية واستراليا ، حيث ثمن الارض الخصبة لا تسوى شيئاً أو لا تكاد تسوى . هذا واذ ان طريقة الزراعة مرتبطة بنظام الاقتصاد في منطقة من المناطق يتحتم استغلال الارض شيئاً فشيئاً فتصير مناطق الزراعة الموسعة بلاد زراعة مضعفة ، وذلك من جراء النضال الاقتصادي

فأما الآلات المهيأة لتضريب التربة بالمياه فليس هذا مقام الافاضة في وصفها . وقد تعوق الاحوال الحاضرة سبيل الحصول عليها في يسر . ومن الممكن أن يستعاض الآن عن عملية التضريب بهذه الآلات بعملية اخرى تقرب منها وهي حرث الارض بالمحاريث والامشاط في أثناء غمرها بالماء مرات . على أن تكون كل حرثة في اتجاه متعامد مع سابقتها

وبعد التضريب على هذا النحو تُغمر الأرض بمياه الفيضان المشبعة بالغرين «الطمي» فترة محدودة . ثم تصرف المياه الى المصارف صرفاً بطيئاً ابقاءً على الغرين الراسب على سطح الأرض وحينئذٍ تنثر بذور احد المزروعات النجيلية كالشعير والقمح أو البقلية كالفول والبرسيم ، كما هو حادث في حياض الوجه القبلي . ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الشعير او غيره سيغل في مناطق شمالي الدلتا التي تنهمر فيها الأمطار انتاجاً اوفر مما يغلهُ الصعيد الذي يشتد جفاف جوه وحرارته

ومن الطبيعي أن نتبع في زراعة تلك الاراضي دورة ثنائية : سنة نجيلية . وسنة بقلية . وستؤتي النجيلية كالقمح والشعير انتاجاً مرضيًّا سواء أسمدت الاراضي بالنترات ام بذرت بعد استجمام وتشميس لاحق لزراعة بقلية . واما البقلية وأهمها الفول فاذا سمدت بـ « سوبر فُسفاة » وعولجت بالبكتيريا الخاصة بها ، فقد تعيد لأراضي الدلتا الطينية عهدها الذي اشتهرت بهِ منذ الفراعنة في جودة الأنتاج الزراعي

## تنفيذ المشروع

والآن وقد اوضحنا ان في الامكان سهولة استغلال الاراضي البور اذا اتبعنا فيها نظام الزراعة الموسعة ، نضيف الى ذلك ان الأيدي العاملة في مصر كثيرة ، والمياه موفورة ، والتربة ليست على الانتاج بمستعصية . الاّ انه لا بد لتنفيذ المشروع من همم عالية ، وعزائم ماضية . وقد علمنا وشهدنا كيف تقوم فرق هندسية في الجيوش المحاربة باقامة الجسور وتمهيد الطرق ومد السكك الحديدية وحفر الخنادق في أقصر وقت مستطاع . فلمَ لا نعمد الى المناطق الخاصة بالسكان من الفلاحين الشبان . فنجرد منهم فيلقاً نستعين بهِ على تعمير هذه الاراضي البور وتثميرها ، ولمَ لا نندب الجيش المرابط لهذه المهمة فلا نضطر الى تسريحه بزوال اسباب وجوده

وانهُ لجميل ان نشاهد اولئك الشبان ، وهم في زيهم العسكري ، وخيامهم المضروبة ، يتمرنون على فلاحة الارض واستعمال السلاح معاً . فيحفرون الترع والمصارف باشراف المهندسين

ثم يزرعون ويحصدون باشراف خريجي «المدارس الزراعية» ولا تقتضي اقامتهم بناء منازل قد تثقل نفقتها كاهل المشروع . اذ كفتنا خيامهم وحياتهم الرياضية العسكرية مؤونة التشييد والبناء . فان نفذ المشروع بهذه الوسيلة كان لهؤلاء الشبان ان يفاخروا بأنهم احيوا اراضي شمالي الدلتا واعادوا اليها مجدها التليد ، اذ كانت مستودع الغلال للشرق

ولو جرينا في الترع والمصارف الرئيسية المطلوبة على نظام بعض المصالح الحكومية من حيث التخطيط والقطاعات ، فان ما يخص الفدان الواحد من مكعبات الحفر لن يزيد بأية حال على ٥٠ متراً مكعباً ( ريّا وصرفاً ) . فالعامل مهما ضؤل مجهوده لا يقصر عن انشاء ما تتطلبهُ مساحة خمسة افدنة في السنة وخدمتها في الزراعة

ومن هذا يتوضح لنا ان جيشاً من العمال لا يربو على مائتي الف رجل يضطلع بتنفيذ هذا المشروع ويقوم بزراعة مليون من الافدنة في سنة واحدة . فان جاوزها لم يعدُ السنتين. وتعبئة مائتي الف أمرٌ هين بالاضافة الى ما يجند في الجيوش الجرارة من الملايين

ورب قائل إن المشروع لا يسلم من بعض الاعتراضات، شأنَ كل جديد. ونحن لا نريد ان نتوهم ما يعترض بهِ على المشروع ونجادل فيه . فنحن نؤمن بان لكل مشروع ماله وما عليه

ولكن تلك الاعتراضات مهما تكن فلا ينبغي ان تقف حجر عثرة في سبيل تنفيذ المشروع ، كما لم تقف عيوب الري الدائم حجر عثرة في سبيل تنفيذه الى اليوم . وحسبنا ما أبانهُ المهندس ولككس في كتابهِ عن الري المصري ، ولا بأس بأن نقوم بتجربة في مساحات من هذه الاراضي البور نتبين بها مقدار أثر المشروع ومدى نجاحه

## فوائد المشروع

نجملِ فوائد ذلك المشروع فيما يلي :

أولاً : من الوجهة الفنية

١ — ان تنفيذ هذا المشروع لا يحتاج الى :

ا — تعلية الخزانات او انشاء غيرها

ب — معظم أعمال الري الصناعية بسبب قلة المجاري واختلاف طرق توزيع المياه

ج — الآلات الخاصة بحفر الترع والمصارف ، وذلك لوفرة الايدي العاملة

د — الماشية في الاعمال الزراعية التي تلزم للاصلاح ، فمن الممكن جلب الآلات الآن اذ أصبحت المواصلات البحرية قصيرة ومأمونة

٢ — ان هذه الأراضي بما تأخذ من مياه قمة الفيضان تصبح صِمام الأمن لمصر الشمالية فلا يهددها الغرق وبذلك تساعد حياض مصر العليا على اتمام هذه المهمة . ونرى ان هذا الزمام الشاسع قد يفضل حياض الوجه القبلي لوجود الصمام في قلب الخطر نفسه

ثانياً : من الوجهة الاقتصادية

يغري بتنفيذ المشروع الآن ارتفاع اسعار المنتجات الزراعية في اوقاتنا الراهنة ، فيسهل استرداد ما أنفق في سبيل اصلاح تلك الأراضي في زمن قريب . ولو أنطقنا لغة الارقام لأدركنا انهُ حينما يتم اصلاح مليون فدان في سنتين على أساس استغلال المراوحة بين زراعة الحبوب والبقول ، ينتج لنا نحو من مليون طن من محصوليهما في السنة ، وثمنه زهاء ٢٥ مليون جنيه. وقد لا يتكلف المشروع هذا المبلغ ، فكأن انتاج سنة واحدة كفيل بسد نفقاته كلها . كما انهُ يكفي لتغذية ما يقرب من خمسة ملايين نسمة مدة سنة كاملة . وبديهي ان صافي الربح لل ٢٥ مليون جنيه يصبح بعد السنة الاولى زيادة مطردة في ايرادات ميزانية الدولة

ثالثاً : من الوجهة الاجتماعية

اذا عبأنا جيشاً من الشبان ليقوم بتنفيذ المشروع أتحنا لهم فرصة التمرس بالعمل مع رعاية النظام والقواعد الصحية، فيرتدُّون رجالاً أقوياء عاملين ، ينهضون بالعظائم . وحين تنتهي فترة التجنيد قد لا يفارق الجنود أو أكثرهم هذه المناطق التي ألفوها ونعموا بها ، فلا يلبثون أن يستوطنوها ويعمروها

وسيفتح هذا المشروع الباب على مصراعيه لآلاف العمال الذين يعملون الآن في جيوش الحلفاء ، بعد أن تقل الحاجة اليهم ، وبخاصة حين تضع الحرب أوزارها

كذلك يشق المشروع أفقاً واسعاً لخريجي المدارس الهندسية والزراعية فيلقون في تلك الرحاب الفسيحة ما يقوي مرانهم ويشحذ مهارتهم ، فيستفيدون ويفيدون

وقصارى القول ان مصر تثب الى الأمام وثبة بعيدة اذا نهضت بتنفيذ هذا المشروع غير متوانية ولا مسوِّفة ، فانها بذلك تسد حاجتها الحاضرة والمستقبلة الى كل ما له علاقة بالحاصلات الزراعية والحيوانية . ومن واجب مصر ان تسارع الى تحقيق ذلك رفعاً لمستوى الحياة الاجتماعية بين طبقات الشعب ، وتمهيداً لأبناء الوطن ، في الغد القريب او البعيد ، ان ينعموا بحياة مطمئنة وعيش رغد (١)

---

(١) مما يؤيد وجهة نظر هذا المشروع انه بعد تقديمه الى اللجنة جاء في صحيفة الاهرام ما يفيد ان انجلترة عمدت الى اصلاح صحراء بريطانية باتباع نظام الري الحوضي المصري، فاستغلت أربعة ملايين من الفدادين، أي نصف ما ننشد نحن استغلاله

# اوائل المشترعين
## في الاسلام

لمحمد عبد الغني حسن

كان الصحابة بعد عصر الرسول يقضون بالأحكام الفقهية تبعاً لاحكام القرآن وأقوال النبي وأفعاله ، فلم تكن هناك حركة فقهية بالمعنى العلمي المعروف : ولكنهم كانوا يقضون بالاجتهاد والرأي واتّباع الرسول تبعاً لأحوال البلاد المفتوحة بشرط ألا يتعارض قضاؤهم مع الكتاب والسنة الصحيحة ، وان يبنى على أساس القواعد العامة فيهما

ولم يكن الصحابة على حال واحدة من الفقه والقضاء بعد وفاة النبي عليه السلام ، بل اختلفت أحوالهم تبعاً لاختلاف علمهم وشجاعتهم الأدبية وطول ملازمتهم للرسول . ولكننا لا نجد بينهم أمضى في الفقه من عمر بن الخطاب . فكان يمضي فيه على اجتهاد ورأي ومعرفة . ولقد تمت على يديه بعض مبادىء في الفقه كالتشدد في الرجم ، والحد في الخمر وصلاة التراويح جماعة ، والنهي عن التمتع في أشهر الحج . وهي مبادىء تدل على اتساع نظر هذا الخليفة الفقيه ، وعلى جرأته . كما حدث في عقوبة الرجم في الزنى ، فقد تشدد في تنفيذها وأوصى بها . واستدل بما سمعهُ هو وغيره من الصحابة من رسول الله وبما رأوه من عمله : فقال عمر : — ( لقد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم في كتاب الله فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله . ألا وأن الرجم حق على من زنى وقد أحصن اذا قامت البينة أو كان الحمل أو الاعتراف؛ ألا وقد رجم رسول الله ورجمنا بعده )[1] . ولم يخالف في الرجم إلاّ بعض الخوارج وبعض المعتزلة ، ثم استقرَّ اجماع المسلمين على وجوب الرجم

أما حد الخمر فهو عند عمر ثمانون جلدة ، وقد كان العمل قبلهُ يجري على خلاف ذلك . فقد كان الشارب في عهد النبي وأبي بكر وأول عهد عمر يضرب بالأيدي والنعال والأردية[2]

---

(١) رواه البخاري وغيره ( فتح الباري ١٢ : ١٢٦ — ١٢٧ )
(٢) صحيح البخاري — كتاب الحدود

فجعل عمر حده أربعين جلدة ثم زاده الى ثمانين . ويُعدُّ عمل عمر في هذا من باب التعزير ، وقد ألجأه اليهِ شدة الحاجة اليه لانهماك الناس في الشراب

أما جمع الناس على التراويح في رمضان . فقد ورد ( عن عائشة أن النبي صلى في المسجد فصلى بصلاته ناس ، ثم صلى الثانية فكثر الناس ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج اليهم رسول الله ، فلما أصبح قال : رأيتُ الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج اليكم إلاَّ أني خشيت أن تفترض عليكم ، وذلك في رمضان) [١]

فلما جاء عمر خرج فرأى الناس اوزاعاً يصلون في المسجد فجمعهم على صلاة التراويح

ولعلَّ شخصية عمر القوية وقوة عزيمته كانتا أفعل الأسباب في أخذ الناس بما لم يألفوه في عهد الرسول والصديق . فلو كان غير عمر ما استطاع أن يستحدث في الاسلام ما لم يحدث في عهد سلفيه . إلاَّ انهُ جمع الى صفة الامام الحاكم صفة الفقيه المشترع . وكانت هذه الصفة أكبر عون لهُ على مواجهة الناس بما لم يعهدوه في عهد الرسول

ولقد عدَّ بعض الناس عمله هذا بدعة جديدة في الاسلام ! ولكنه هو نفسهُ ردَّ عليهم في ذلك ردًّا حاسماً . فانهُ لما رأى الناس في المسجد مجتمعين حول أبيّ بن كعب يصلي بهم التراويح قال : « نعمت البدعة هذه ! » . والبدعة هنا هي الجماعة في التراويح ، فقد امتنع النبي عليهِ السلام عنها خشية أن يشق على أمته بافتراضها عليهم . والبدعة هنا كذلك هي زيادتها الى عشرين ركعة . وقد كان النبي لا يزيد في النفل على احدى عشرة ركعة [٢]

ولم يكن عمر رضي الله عنه يحكم في الأمور استبداداً برأيه ، بل كان يشاور الصحابة ويناظرهم حتى ينكشف وجه الحق . ولهذا وجدت فتاويه من المسلمين صدراً رحباً وقبولاً كثيراً ، فلم يتحرجوا بها ولم يضيقوا . على خلاف عليّ كرم الله وجهه الذي كان يتابعه أهل الكوفة . وكان عند عمر من المرونة الفقهية ما يجعله فقيهاً بطبعه

وكان للرأي والاجتهاد عنده اعتبار كبير ويشبهه في ذلك عبد الله بن مسعود الذي كان يسلك طريقته ويتعصب لمذهبه حتى قال : — (لو سلك الناس وادياً وشعبا ، وسلك عمر وادياً وشعبا . لسلكت وادي عمر وشعبه ) . وبلغ من ثقة عمر فيهِ أن أرسله الى الكوفة ليعلّم أهلها ويفقههم ، وقال لهم : لقد آثرتكم — بعد الله — على نفسي :

ولم تكن حياة ابن مسعود في الكوفة اخلاداً الى السكون وركوناً الى الدعة . بل كثيراً ما ملأها بعلمه ومناظراته وفتاويه

---

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما . نيل الاوطار ٣ : ٦١

(٤) نيل الاوطار للشوكاني طبع منير الدمشقي ج ٣ ص ٦٤

وهناك فقيه رابع من فقهاء الصحابة وأعلمهم وأجدرهم بالتصدر للفتيا والقضاء . هو زيد بن ثابت . وتأتي منزلته في الفقه من طول ملازمته للنبي عليهِ السلام وكتابته الوحي . وقد امتاز بالأمانة في النقل والتعمق في الفقه ، ولهذا وثق بهِ عمر واستخلفهُ في كل سفر . ولقد فرَّق عمر الناس في البلدان واستبقى في مدينة الرسول زيداً ، فهو أثير عنده قريب منه . يرجع اليهِ في الغامض ، ويستشيره في الأمر العارض . ويقدّمه على كبار الصحابة ولا يقدّم واحداً منهم عليهِ . وكذلك كان مع الخليفة عثمان وقد شهد له سعيد بن المسيب أزكى شهادة [١]

*

أما عبدالله بن عباس فقد كانت له في الفقه قدم راسخة . شهد له الكثير بالعلم والفقه والتضلع من العربية والتمكن من الشعر والفهم لكتاب الله والتثبت من الحساب والفرائض [٢]. وكان عمر يعظمه ويجله لا لقرابته من رسول الله عليه السلام ، ولكن لعلمه وفضله

وهو أحد الستة الذين هم أكثر رواية عن النبي ، وهم أبو هريرة وابن عمر وجابر وابن عباس وأنس وعائشة . واذا اختصَّ أنس وأبو هريرة بالرواية فقد جمع ابن عباس اليها الفقه والعلم . فهو من أوائل فقهاء الاسلام . وكان لغزارة علمه يقيم في مكة فتشدّ اليه الرحال ويقصده الطلاب من جميع الاقطار

وكان هو وابن مسعود وزيد بن ثابت الثلاثة الذين يقوم الصحابة بقولهم في الفقه ويعتدّون بكلامهم

وقد شهد له العلماء جميعاً بغزارة العلم والتبحر فيه . وممن ذكره منهم علي بن المديني ، وسفيان بن عيينة ، وعبدالله بن طاهر والأزرقي صاحب كتاب مكة . وله غير ذلك أخبار طوال في كتب التاريخ والطبقات

واذا صحَّ أن النبي عليهِ السلام توفى وعمر ابن عباس ثلاث عشرة سنة في رأي ، أو خمس عشرة سنة في قول ابن حنبل — اذا صحَّ ذلك كان عجيباً أن يعد ابن عباس من اكثر الصحابة روايةً للحديث . وموضع العجب أن تسمح لهُ حداثة سنه بحفظ قدر من الأحاديث يضعهُ في مصاف الستة الكبار من رواة الحديث . ولكن العلم لا تمنع منهُ حداثة ، والفضل لا تقف دونهُ طراءة السن . وقديماً قال الشاعر : —

(١) الجزء الخامس ، تهذيب تاريخ ابن عساكر

(٢) تهذيب الاسماء واللغات للنووي الجزء الاول مادة عبد الله

فما الحداثة من حلم بمانعة قد يظهر الحلم في الشبان والشيب

*

وهناك عبد الله بن عمر ، ولكنهُ يختلف عن ابن عباس . فابن عباس كثير الرواية كثير الفتوى ، وابن عمر قليل الكلام قليل الفتوى . ولكن اقلاله من القول والفتوى لم يمنع من قيمته الفقهية . فهو يقيم بالمدينة ويفد عليهِ الوفود من الناس بغية الاغتراف من علمه

*

وتشاء الاقدار السعيدة أن يكون للمرأة المسلمة حظ المشاركة في الحركة الفقهية القائمة في مكة والمدينة وغيرها بعد وفاة الرسول . فليس الفقه خاصًّا بالرجال ولا وقفاً عليهم وخاصة اذا كانت المسائل الفقهية تتعلق بأحوال المرأة وما يعرض لها وما يكون في بيتها. فنرى السيدة عائشة تشترك مع الرجال في رواية الحديث . ونراها من الستة الأكثر رواية لحديث رسول الله عليهِ السلام ، ونرى خلقاً كثيراً من الصحابة والتابعين يروون عنها . وبقيت في المدينة يفد اليها السائلون من صحابة الرسول فتجيبهم ، وخاصة في الفرائض . ولم يصح انها دخلت الشام [١]

*

هؤلاء السبعة هم أكثر الصحابة اشتغالاً بالفقه بعد وفاة الرسول . وكان عمر أعجبهم في هذا . فلم تشغله الخلافة عن الفقه . وهو في أحكامه رحب الصدر لا يضيق بالنقد كما يفعل ضيّقو العطن : وقد يخطىء في المسألة فيعترف بالخطأ ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر ! . ويكتب كتاباً في مسألة « الكلالة » في الميراث ثم تحضره الوفاة ، فيمحو الكتاب ويقول لأصحابه : — ( ترون في الكلالة رأيكم ) ...

وكان من الطبيعي ان يحدث اختلاف بين فقهاء الصحابة في بعض المسائل ، وهو خلاف لا يرجع الى صلب الدين الاسلامي نفسه ، فذلك ما لا يقول به منصف ، ولكن مرده كان الى فهم الفقهاء ، والى اختلاف البيئات ، والى تفرق الصحابة في الامصار فكان كل منهم يفتي بما رآه عن النبي أو سمعه [٢] ، والى تأخر تدوين الحديث

ولكن هذا الخلاف كان فيه بعض الخير ، ان لم يكن فيه الكثير منه . فقد كان تمهيداً لمدارس الرأي التي ظهرت بعد ذلك ، والتي كان الجدال بينهما مشهداً من مشاهد الحركة الفكرية في الاسلام

---

(١) تهذيب الاسماء واللغات ج ١ مادة عائشة (٢) الاحكام في أصول الاحكام لابن حزم ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦

# المآصر

## في بلاد الروم والاسلام

## — ٢ —

لميخائيل عواد

## ( ج ) المآصر في كتب التاريخ

يُعدّ أسلم بن سهل الرزّاز الواسطيّ المعروف بـ « بحشل » ( المتوفى سنة ٢٨٨ هـ ) من أقدم المؤرخين الذين نوّهوا بأخبار بعض المآصر النهرية ، فقد حدثنا عن المأصر الذي بصريفين [1] واسط ، وهو المشهور في التاريخ باسم « المأصر الأسفل » وقد اتخذت فيه السلاسل بدل القلوس ، وكان الأمير المعروف بـ « مسروق » أشهر مَن أشرف على أعمال هذا المأصر . واليك جملة ما ذكره بحشل بشأنه . قال : « حدّثنا أسلم ، قال : حدثنا عمرو ابن صالح ، قال : حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي ، قال : بعث زياد مسروقاً على السلسلة

حدّثنا أسلم ، قال : حدثنا عليّ بن الحسن ، قال : حدثنا حفص بن غياث عن الأعمش عن أبي وائل ، قال : أقمت مع مسروق بسلسلة واسط سنتين

حدّثنا أسلم ، قال : حدثنا وهب بن بقية ، قال : حدثنا حماد بن أسامة عن الأعمش عن أبي وائل . قال : كنت مع مسروق بسلسلة واسط ، فمرّت سفن فيها هدايا الى معاوية

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا سعيد بن يحيى بن الأزهر ، قال : حدثنا حفص عن اسماعيل ابن أبي خالد عن أبي اسحاق ، قال : كان مسروق لا يفتش أحداً ، ويقول لمن مرّ به : ان كان لنا معك شيء فأعطيناه

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا زكريا بن يحيى ، قال : حدثنا عباد بن عباد عن عاصم ، قال : قلتُ للشعبي : كيف أفلت مسروق من عمله على السلسلة ؟ قال : أما رأيت الثوب يُدفع الى القصّار فيغسله فيجيد غسله . هكذا أفلت مسروق من عمله

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا الحسين بن منصور ، قال : حدثنا عاصم بن علي ، قال : حدثنا

(١) أنظرها في معجم البلدان ( ٣ : ٣٨٦ ، طبعة وستنفلد )

شعبة عن ابن ( لعلّه : أبي ) اسحاق عن أبي وائل ، قال : كنت مع مسروق بالسلسلة ، فما رأيت أميراً قط كان أعفّ منه ما كان يصيب ماء دجلة

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا اسحاق بن داود ، قال : حدثنا الحسين بن الربيع ، قال : حدثنا سفيان بن عيينة عن اسماعيل بن أبي خالد ، قال : بعث زياد مسروقاً على السلسلة ، فجاء بعشرين ألفاً . فقال : ما جئت به ؟ قال : جئتُ بعشرين ألفاً . قال : هي لك . فلم يقبلها

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا زكريا بن يحيى ، قال : حدثنا شريك عن أبي اسحاق والأعمش أراه عن ابراهيم ، قال : أقام مسروق بالسلسلة سنتين

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا تميم بن المنتصر ، قال : حدثنا يزيد بن هارون ، قال : حدثنا حميد الطويل عن عبد الله بن حنين وكان شريك مسروق على السلسلة

حدثنا أسلم ، قال : حدثنا محمد بن اسماعيل بن سالم ، قال : حدثنا يحيى بن أبي بكر ، قال : حدثنا شعبة ، قال : حدثني عبد الملك بن ميسرة ، قال : سمعت زياداً وكان داهية وكان عشاراً ، وكان العشارون يومئذٍ القراء مسروق وزياد بن حدير [1] » اه

وذكر ابو بكر محمد بن يحيى الصولي ( المتوفى سنة ٣٣٥ ه ) ، في حوادث سنة ٣٣٣ ه انهُ « عقدت الشرقية [2] وما فيها من الأعمال على احمد بن جعفر المعروف بابن الشرطيّ بثمانية آلاف سوى الاستثناءات فانها خمسة آلاف درهم . وضمنت دجلة والمأصر الأعلى بخمسمائة دينار ، وعقد القيار بألفي درهم ، فصار الجميع نيفاً وثلاثين ألف درهم في الشهر [3]

وعلى ذكر المأصر الأعلى ، حكى مسكويه ( المتوفى سنة ٤٢١ ه ) في حوادث سنة ٣٦٠ ه ، عند كلامه على ارتفاع ابن بقية ، قال : « كان هذا الرجل ( ابن بقيّة ) من القرية المعروفة بأوانا . . . . ونشأ في أيام الفتنة وغلبه أهل الرستاق على طريق دجلة العليا . . . وكان جرى رسمه بتقلد المآصير ، واتفق له أن اتصل بصاحب مطبخ معز الدولة المعروف بعمله، وكان ضامناً لتكريت وما يجري معها من المآصير العليا وأبواب المال ، فلما خدم عمله توجه معهُ وخفّ على قلبه ، فتدرّج من حالٍ الى حالٍ حتى استعمله على هذه الأعمال كلها وفوّضها اليه [4] . . . »

---

(١) تاريخ واسط ( المخطوط ص ٦ ب — ٧ ا )

(٢) هي على ما في معجم البلدان ( ٣: ٢٧٩ ) : « محلة بالجانب الغربي من بغداد . . . قيل لها الشرقية لانها في شرقي مدينة المنصور ، لا لانها في الجانب الشرقي »

(٣) أخبار الراضي بالله والمتقي لله ، وهو الجزء الثاني من كتاب الاوراق ( ص ٢٧٦ ، طبعة هيورث دن في القاهرة (٤) تجارب الامم ( ٦ : ٢٨٥ ، طبعة آمدروز في القاهرة )

والظاهر من هذا ، ان المآصر العليا هي التي كانت مبثوثة ما بين بغداد وتكريت — وربما تعدّت البلدة الاخيرة — تقطع دجلة في عدة مواطن ، لكنّ أشهرها في التاريخ هو المأصر الأعلى في بغداد . وقد ذكره ابو الفرج ابن الجوزي غير مرّة . قال في أحداث سنة ٤٢٥ هـ

« فمن الحوادث فيها عوْد العيارين الى الانتشار ومواصلة الكبسات بالليل والنهار ، ومضى البرجمي[1] الى العامل على المأصر الأعلى بقطيعة الرقيق[2] ، فقرر معه أن يعطيه في كل شهر عشرة دنانير من الارتفاع ويطلقوا له سميريتين كبيرتين بغير اعتراض ، وأخذ عهده على مراعاة الموضع[3] . . . »

وها هوذا يعود الى ذكر هذا المأصر الشهير عند كلامه على الحسن بن أبي جعفر الملقب بـ « عميد الجيوش » الذي خدم صمصام الدولة وبهاءها . « وولاه بهاء الدولة تدبير العراق فقدم سنة اثنتين وتسعين وثلثمائة والفتن كثيرة ، والدُعَّار قد انتشروا ، فقتل وأغرق خلقاً كثيراً » ، وقد جاء في عدله وهيبته حكايات منها انه « أعطى بعض غلمانه صينيّـة فضة فيها دنانير وقال : خذها على رأسك ، وسر من النجمي[4] الى المأصر الاعلى ، فان اعترضـك معترض فاعطه إياه واعرف الموضع الذي أُخذت منك فيه . فجاءه وقد انتصف الليل ، وقال : قد مشيت البلد جميعه ، فلم يلقني أحد[5] »

ونعود الى قول مسكويه في المآصر . فقد نبّـه عليها أيضاً عنـد كلامه على حوادث سنة ٣٢٥ هـ ، بقوله : « وانما امتعضتُ ( البريدي يتكلم ) لكم من ظلم ابن رائق ومحمد بن يزداد خليفته لكم ، وتحملتُ في مالي أربعة آلاف دينار في كل شهر بازاء ما كان يؤخذ من الشرطة والمآصير والشوك تخفيفاً عنكم ، وقد أزلتُ جميعها ، وهذا خطي برفعها عنكم...[6] »
وابن رائق هذا هو الذي وضع المآصر ببغداد . فقد زاد صاحب التكملة[7] على قول مسكويه[8]

---

(١) البرجمي ، انظر « الذيل » رقم ١ (٢) الرقيق ، انظر « الذيل » رقم ٢ (٣) المنتظم (٨ : ٧٧)
(٤) النجمي ، أنظر « الذيل » رقم ٣
(٥) المنتظم ( ٧ : ٢٥٢ — ٢٥٣ ) ، وقد نقل هذه الرواية ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ( ٤ : ٢٢٨ ، طبع دار الكتب المصرية ) (٦) تجارب الامم ( ٥ : ٣٦٤ )
(٧) هو محمد بن عبد الله الهمذاني المتوفى سنة ٥٢١ هـ ) له تكملة لتاريخ الطبري . أنظر : تجارب الامم ( ٥ : ٥ ، حاشية ١ ) ، والمنتظم ( ١٠ : ٨ ، حوادث سنة ٥٢١ هـ ) ، والاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ( ص ١٤٤ ، طبع دمشق ) (٨) قال مسكويه ( تجارب الامم ٥ : ٣٨٣ ) :
« . . . وسار موسى فياذه الى حصن مهدي فملكها ، وكانت من أعمال البصرة ، وصارت الاسافل وراءه ، ودخل الامير سوق الاهواز فنزل دار أبي عبد الله البريدي وانتظمت له الامور ، وحصل البريدي بالبصرة واستقامت لهم ، واستقر بجكم بواسط ينازع الملك ببغداد ، وجمع ابن رائق أطرافه وأقام بها »

بالكلام التالي : « وهو الذي وضع المآصير ( المآصر ) ببغداد ، وما كانت سمعت بالضرائب [١] من قبله [٢] »

وفعل ابن رائق هذا في أمر المآصر يقرب من فعل « ابن الهاروني » ، فقد كان كلاهما يتصرف في أمر استيفاء الدراهم من المآصر والمكوس ، ويثقل كاهل الناس بما لا طاقة لهم به . فقد حكى ابن الجوزي في أحداث سنة ٥٣٠ هـ ان « هـذا الملعون ابن الهاروني قصده إساءة السمعة وهلاك المسلمين وهو السبب في جميع ما جرى، فقبض على ابن الهاروني يوم الخميس ثامن عشر ( شهر ) ربيع الأول ، وجاء رسول زنكي فلقي الخليفة ( الراشد بالله ) وشكا مما جرى من ابن الهاروني وتأثيراته في المكوس والمواصير ، وقال : الخادم يسأل أن يسلم اليه ليتقرب الى الله بدمه ، فقال له تدبّر في ذلك . ثم تقدم في بكرة الاحد حادي عشرين الشهر الى ابي الكرم الوالي بقتله ، فقتل في الرحبة وصلب على خشبة قصيرة ، ومثل به العوام ، فلما جنّ الليل أخذه أهلهُ وعفوا أثره ، وظهرت له من الاموال والأثاث وأواني الذهب والفضة أمر عظيم ، ووصل الى الخليفة من ماله مائتا الف ، وكانت له ودائع عند القضاة والتجار [٣] »

وهكذا يجد المرء في حوادث السنين أنباء في وضع المكوس والمآصر واقرارها واستيفاء الدراهم منها ، أو اسقاطها وازالتها من الوجود

فقد كان من جملة حوادث سنة ٥١٥ هـ أن أعيدت المكوس والمواصير ، وألزم الباعة أن يرفعوا الى السلطان ثلثي ما يأخذونهُ من الدلالة في كل ما يباع . . . » [٤]

واستمرَّت الحال على هـذا المنوال حتى دخلت سنة ٥٣٣ هـ ، ففي شهر ربيع الاول « أزيلت المواصير والمكوس ، ونقشت الألواح بذلك ، واستوزر السلطان ( مسعود ) رجلاً من رؤساء الري يقال لهُ محمد الخازن ، فأظهر العدل ورفع المكوس والضرائب ، وكان حسن السيرة ، فدخل عليهِ رجلان يقال لأحدهما ابن عمارة ، والآخر ابن أبي قيراط يطلبان ضمان المكوس التي أزيلت بمائة الف دينار، فرفع أمرهما الى السلطان ، فشُهرا في البلد مسوّدَي الوجوه وحبسا » [٥]

---

(١) الضرائب ، انظر « الذيل رقم ٤ (٢) تجارب الامم ( ٥ : ٣٨٣ ، حاشية ١ )
(٣) المنتظم ( ١٠ : ٥٦ ) (٤) المنتظم ( ٩ : ٢٢٧ — ٢٢٨ )
(٥) المنتظم ( ١٠ : ٧٨ — ٧٩ ) ، الكامل لابن الاثير ( ١١ : ٤٧ ، أوربة = ( ١١ : ٢٩، بولاق)

ونظير هذا الحادث ما جرى في سنة ٥٤١ هـ . فقد روى أبو الفرج ابن الجوزي انهُ « طيف بالألواح التي نقش عليها ترك المكس في الأسواق ، وضربت بين يديها الدبادب والبوقات » (١)

وقد أفاض في ذكر هذا الحادث سبطه ، بقوله « وفيها ( سنة ٥٤١ هـ ) بطلت المكوس والضرائب ببغداد ، وسببه ان ابن العبادي جلس بجامع السلطان ، وحضر السلطان عنده ، فوعظه وذكر ما يجري على المسلمين من الظلم ، ثم قال : يا سلطان انت تهب في ليلة لمطرب مثل هذا المأخوذ من الناس ، فاجعلني ذاك المطرب واجعل ذلك شكراً لما أنعم الله عليك ، فأشار بيده قد فعلت ، وارتفعت الضجة بالدعاء ، ونودي في البلد بالاسقاط ، وكتب به ألواح ونصبها في المحال والشوارع ، فلم يزل الأمر على ذلك حتى قلع الألواح أبو العباس أحمد بن الناصر لدين الله ، وقال : ما لنا حاجة ان يكون عندنا آثار الأعاجم » (٢)

ويظهر ان اسقاطها وازالتها لم يكن طويل الأمد ، فقد عادت هذه الضرائب والمآصر الى ما كانت عليه ، وتحكم المكاسون والماصريون في رقاب الناس ، فارتفعت الشكاوى من كل جانب ، واستغاث النـاس بالسلطان ، فأمر عماله باسقاطها ، كما جرى في سنة ٥٤٥ حيث كان « مرض ابن البلنكري وهو خاص السلطان مسعود ، فلما عوفي أسقط المكوس . وكان المكاس ببغداد يلقب مختص الحضرة ، وكان يبالغ في أذى الناس وأخذ أموالهم ، ويقول أنا قد فرشت حصيراً في جهنم » (٣)

وورد ذكر المآصر في العمل الذي وجده هلال بن المحسن الصابئ (المتوفى سنة ٤٤٨هـ) المشتمل على ذكر أحمد بن محمد الطائي ، وما ضمنه من الأعمال وشرطه على نفسه من حمل مال الضمان مياومة الى بيت المال . وقد شرح فيه وجه خرج المياومة ، فذكر هلال « المرتزقة برسم الشرطة بمدينة السلام والخلفاء عليهم ، وأصحاب الأرباع والمصالح والأعوان والسجانين وأصحاب الطوف والماصريين ومن في جملتهم من الفرسان الذين ميزوا وألحقوا بطبقة (المتوسطين) من المشايخ والمترفين ومن هذه سبيله من الرجالة الموكلين بأبواب المدينة ، وأيام شهرهم مائة وعشرون يوماً من جملة ستة آلاف دينار في المشاهرة = خمسين ديناراً » (٤)

---

(١) المنتظم ( ١٠ : ١٢٠ )
(٢) مرآة الزمان ( ٨ : ١١٣ — ١١٤ ) ، وقد نقلها ابن كثير في البدء والتاريخ ( ١٢ : ٢٢١ )
(٣) المنتظم ( ١٠ : ١٤٣ ) ومرآة الزمان ( ٨ : ١٢٤ )
(٤) تحفة الامراء ( ص ١٥ ) ، وانظر ص ٥٧ من مقدمة الناشر ، مادة ( أصر . الماصريون )

## ﴿ الذيل ﴾

(١) قال ابن الجوزي (المنتظم ٨ : ٦٦، حوادث سنة ٤٢٣ هـ ) : « وقوي أمر العيّارين وكبس رئيسُهم البرجميّ خاناً فأخذ ما فيه ، فقوتل فقتل جماعة ، وكان يأخذ كل مصعد ومنحدر ، وكبس داراً بسوق يحيى وأخذ ما فيها واحرقها ، هذا والعسكر ببغداد »

ثم قال (٨ : ٧٩ ، سنة ٤٢٥ هـ) : « وفي ليلة الأحد سادس عشر ( شهر ) رمضان ، أغرق البرجمي اللص بفم الدجيل ، أخذه معتمد الدولة فغرقه بعد أن بذل مالاً كثيراً على أن يتركه فلم يقبل منه ، ثم دخل أخو البرجمي الى بغداد فأخذ أختاً له من سوق يحيى وخرج فتبع وقتل »

ولتتبع أخباره ، أنظر المنتظم ( ٨ : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٧٢ وما يليها )

ونسج البرجمي هذا في استيفاء المبالغ من الضرائب والمآصر ونحوها ، على منوال سلفه العيار المعروف بـ « عزيز » الذي قوي أمره واستفحل في سنة ٣٨٤ هـ ، وكان من أهل باب البصرة من الجانب الغربي من بغداد « فالتحق به كثير من الدُعّار وطرح النار في المحال ، وطلب أصحاب الشرط ، ثم صالح أهل الكرخ ، وقصد سوق التمارين وطالب بضرائب الأمتعة ، وجبى ارتفاع الأسواق الباقية ، وكاشف السلطان وأصحابه ونادى فيهم ، وكان ينزل الى السفن فيطالب بالضرائب وأصحاب السلطان يرونه من الجانب الآخر ....» : (المنتظم ٨ : ١٧٤ )

...

(٢) في المطبوع « دار الدقيق » وهو تحريف ظاهر ، وقد وردت بهذا التحريف غير مرة في كتاب المنتظم ، ولم ينبه اليها الناشر وقد طلبت الى الصديق العزيز الدكتور مصطفى جواد ، العالم بخطط بغداد ، ان يعين موقع كل من قطيعة الرقيق هذه والنجمي — الآتي ذكرها — بالنسبة الى بغداد الحالية ، لنستشف من خلالها محل المأصر الأعلى ، فتفضل بالمعلومات التالية :

« قطيعة الرقيق ، وقطيعة أم جعفر ، وزبيدية بغداد : أسماء ثلاثة لقطيعة واحدة ، والظاهر من أخبار خطط بغداد انها كانت تنتهي من أعلاها بالموضع المعروف اليوم بالبحية

( البوحية ) من شرقيّ الكاظمية الشمالي ، وكان فيها القافلائيون — وهم كما في أنساب السمعاني الذين يشترون السفن الكبار المنحدرة من الموصل والمصعدة من البصرة ويكسرونها ويبيعون خشبها وقيرها وقفلها أي حديدها — ، فالشط الغربي المنصوب فيه الجسر في عهدنا بين الكاظمية والأعظمية كانت أرضه من قطيعة الرقيق . وقد قالوا قطيعة الرقيق كما قالوا ( دار الرقيق ) و ( سوق الرقيق ) » اه

قلتُ : انظر معجم البلدان ( ٢ : ٥١٩ مادة دار الرقيق ) و ( ٤ : ١٤١ قطيعة أم جعفر ) و ( ٤ : ١٤١ — ١٤٢ قطيعة الرقيق ) و ( ٢ : ٩١٧ الزبيدية )

...

( ٣ ) قال الدكتور مصطفى جواد : « النجمي الذي كان بالجانب الغربي من بغداد كان مقابلاً لدار الخلافة الحديثة المعتضدية التي كانت على دجلة بين مشرعة المصبغة الحالية الى ما وراء جسر بغداد الاسفل ( جسر الملك فيصل ) . قال ابو المظفر يوسف بن قزاغلي المعروف بسبط ابن الجوزي في حوادث سنة ٤٥٠ ( مرآة الزمان ، مخطوط رقمه ١٥٠٦ ، عربي ، ورقة ٤٧ من نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ) نقلاً عن تاريخ محمد بن هلال الصابيء ما نصه : « وبعث رئيس الرؤساء ( أبوالقاسم علي بن الحسن بن المسلمة ) الى أبي الأغر دبيس يستحثهُ في القدوم الى بغداد خوفاً من البساسيري ، فقدم يوم الاثنين ثاني ذي القعدة في مائة فارس ، فنزل النجمي مقابل دار الخليفة ، واستأذن في ضرب الطبل على باب خيمته في أوقات الصلوات ، فأذن لهُ في بعضها »

وهذا دليل صريح على كون النجمي مقابلاً لدار الخلافة ( يفصل بينهما دجلة ) . ولنا دليل ضمني على انه كان مقابلاً لقصر التاج من دار الخلافة . وكان هذا في الموضع الذي بنيت فيهِ المحكمة الشرعية وما جاورها من العمارات ( قبل بعض السنوات ) فقد ذكر سبط ابن الجوزي أيضاً في حوادث سنة ٤٤٩ ( مرآة الزمان ، المخطوط ، ورقة ٢٢ ) ان أبا الغنائم سعد بن أبي الفرج محمد بن فسانجس داعية المستنصر الفاطمي المستولي على واسط الخاطب له فيها ، كان أصحاب طغرل بك قد أسروه في هذه السنة وطافوا بهِ على أقبح حال وعليه قميص أحمر وطرطور أحمر وقلادة ودع ، فلما بلغ المطوف بهِ النجمي حُطَّ من فوق الجمل ونصبت لهُ خشبة فصلب عليها وشدّت رجلاه الى رأسه ، ثم قطع رأسه ورميت جثته للكلاب فأكلتها »

وقد ترجمه جمال الدين ابن الجوزي في وفيات سنة ٤٤٩ ( المنتظم ٨ : ١٨٩ ) ، فذكر انه صلب بازاء التاج . وبذلك نحكم بأن التاج كان مقابلاً للنجمي » اه

قلنا : وعليه يكون المأصر الاعلى في أعلى الجانب الغربي من بغداد ، والنجمي في أسفل هذا الجانب ، فغلام عميد الجيوش طاف المدينة من أعلاها الى أسفلها ، وهو ما يوافق قول ابن كثير في هذا الخبر ( البداية والنهاية ١١ : ٣٤٤ ) : وأمر بعض غلمانه أن يحمل صينية فيها دراهم مكشوفة من أول بغداد الى آخرها . . . »

وقد نبّه مسكويه الى محل النجمي يومذاك فقال في أحداث سنة ٣٦٩ ه ( تجارب الامم ٦ : ٣٩٦ ) : « . . . وخرج الطائع لله في تلقّيه ( لتلقي عضد الدولة ) مع جماعة من الجيش والمقيمين وسائر الخواص والعوام ، ودخل يوم الأحد لليلة خلت من ذي الحجة ، واجتاز في الجانب الغربي على تعبية من الجيش ، وبعد أن ضربت لهُ القباب متصلة منتظمة بين عسكره من باب حرب وبين الموضع الذي ينزله من آخر البلد ، وهو البستان المعروف بالنجمي ، وعبر في يوم الاثنين له الى داره فاستقرَّ فيها »

أنظر النجمي في صلة تاريخ الطبري ( ص ١٦٧ ، ليدن ) ، والاوراق — أخبار الراضي والمتقي — ( ص ١٤٤ ) ، والمنتظم ( ٧ : ٢٢٣ و ٨ : ٢٩٤ ) ومعجم البلدان ( ١ : ٤٦٠ ، مادة بادوريا ) ، والكامل لابن الاثير ( ٨ : ١٣٧ حوادث سنة ٣١٦ ه )

(٤) ذكر البشاري المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص ١٣٣ — ١٣٤ طبعة دي غويه في ليدن) في عرض كلامه على «الضرائب» في اقليم العراق بأنها كانت «ثقيلة كثيرة محدثة في النهر والبر . وفي البصرة تفتّش صعبٌ وشوكات منكرة وكذلك بالبطائح تقوّم الأمتعة وتفتش . وأما القرامطة فلهم ديوان على باب البصرة ، وللديلم ديوان آخر حتى انه يؤخذ على الغنمة الواحدة أربعة دراهم ، ولا يفتح إلاّ ساعة من النهار ، واذا رجع الحاجُّ مكسوا أحمال الأدم والجمال الاعرابية ، وكذلك بالكوفة وبغداد ، ويؤخذ من الحاج للمحمل ستّون ، ومن الكنيسة أو حمل البرّ مائة ، ومن العمارية خمسون ومائة بالبصرة والكوفة »

وللتوسع ، راجع : المنتظم ( ٦ : ٢٩٦ ، حوادث سنة ٣٢٧ ه ) ، والبداية والنهاية لابن كثير ( ١١ : ١٨٩ ) ، والنجوم الزاهرة ( ٣ : ٢٦٤ )

# القبلة الاولى

## ليوسف الخال

---

ضممتُ يا لطف من ضممتُ  وقبلة كان ما غنمتُ
بريئة البوح يعتريها  سكون حب غفا وصمتُ
يلفُّها الطهر قرمزيًّا  هام على ثغرها فهمت
أستوضح اللون باشتياقٍ  يهمّ بي مثلما هممت
فأطبق السر مستباحاً  يموج في كل ما علمت
تحبني جهدَ ما تمنّت  وتخنق الوهم إن وهمت
تحبني جامحَ التمني  انثر في الحب ما لممتُ
وأنشق الفوح من شذاها  منزّه النفح أين رمتُ
يا قبلة كلها نعيم  حسبي من العمر ان نعمت
ولي بها غاية تُرجّى  صلّيت من أجلها وصمت

# الدين والفلسفة

## التوفيق بينهما في المشرق

لمحمد يوسف موسى

بعد أن تبينا فيما مضى نشره معنى الدين والفلسفة ونشأتهما والعلاقة بينهما في المشرق والمغرب التي كانت الى الخصومة ، ننتقل الى ما كان واجباً على الفلاسفة من محاولات التوفيق بينهما

﴿ تمهيد ﴾ ربما كانت محاولة التوفيق بين الدين والفلسفة تبدو واجبةً وأمراً طبيعيًّا يحس به الفيلسوف المتدين لأكثر من عامل واحد ، اولاً : ليحقق الانسجام بين ما ورث من عقيدة تعمر قلبه ويراها فوق الشك وإن عزَّ عليه أحياناً ان يفهم بعض جوانبها ، وبين النتيجة التي أدى اليها النظر العقلي الصحيح ، وثانياً : ليكون بمنجاة من غضب بعض رجال الدين الذين يرون كل تفكير عقلي فلسفي ضربة موجهة الى الدين الذي مصدره الوحي لا العقل ، وليكون أيضاً بمأمن من اضطهاد الشعب لمن يرى من المفكرين فضلاً لنفسهِ في التفكير ، ويزعم انهُ قادر على فهم ما يراه الكثيرون أسراراً وأموراً فوق طاقة الانسان

واذا كانت محاولة التوفيق مما يهم كل مشتغل بالفلسفة كما قلنا ، فهي أمرٌ لا بد منهُ لفلاسفة المسلمين ، لكل ما تقدم ، ولبعد شقة الخلاف بين الاسلام وفلسفة أرسطو في كثير من المسائل ، وليستطيعوا الانتاج في هدوء

من أجل ذلك كله نجد أمر العلاقة بين الدين والفلسفة له أصله الأغريقي الذي لا ينكر ، ونجد كل المدارس الفلسفية تقريباً في العصر القديم تحتفظ بمكان صغير أو كبير للمسائل الدينية وترى للدين جدواه الخلقية والاجتماعية ، كما نجد هذا الاتجاه لتأسيس علاقة طيبة بين الدين والفلسفة يزيد عند « فيلون — Philon » اليهودي وأمثاله في مدرسة الاسكندرية وعند بعض آباء الكنيسة في المسيحية [1]

---

(١) نظرية ابن رشد للمستشرق « جوتييه » بالفرنسية ص ١٥٩ — ١٦٠

هذا فيما يتصل بالمفكرين غير المسلمين. أما بالنسبة الى المسلمين ، فان الذي يفهم الاسلام وروحه التي تدعو للاخذ بالوسط في كل الامور وتوجب التوفيق بين المتنافرين ، والذي درس تاريخ الاسلام وبخاصة الناحية العلمية — نقول إن الذي يفهم روح الاسلام ودرس تاريخ العلوم الاسلامية وتطوراتها ، يرى أن روح التوفيق بصفة عامة كانت طابعاً للمسلمين في كل ضروب التفكير النظرية تقريباً ، والتاريخ شاهد صدق على ما نقول

ففي علم الكلام نجد مذهب الأشعري — الذي عُرف بمذهب أصل السنة والجماعة — مذهباً وسطاً أريدَ بهِ التوفيق بين مذهب السلف القائم على التمسك بالنص من غير تعرض لتأويله عقليًّا ، ومذهب المعتزلة الذي أعطى للعقل الحرية في فهم نصوص القرآن وتأويلها بما يتفق مع العقل ، كما نجد المعتزلة أنفسهم يرون ان الوحي والعقل من الله فلا يمكن أن يتناقضا ، وأن الأنبياء لم يكشفوا شيئاً تعجز العقل معرفتهُ ، ولهذا يجب أن يكون مايجيء به الوحي معقولاً والاَّ وجب تأويله . وفي التشريع نجد مذهب مالك يعتمد على الحديث والمذهب الحنفي يعتمد على الرأي ونظر العقل واجتهاده ، فجاء مذهب الشافعي وسطاً موفقاً بين هذين الطرفين . وفي الفلسفة نجد محاولة الفارابي التوفيق بين افلاطون وأرسطو التي خصص لها كتاباً من مؤلفاته ، كما نجد أن أهم مميزات فلاسفة العرب المشَّائين بصفة عامة نزعة التلفيق والتوفيق بين كثير من المذاهب الفلسفية السابقة لهم

فاذا كانت نزعة التوفيق من النزعات التي سادت مفكري الاسلام في جميع فروع التفكير بصفة عامة ، فكم بالاولى يعمل الفلاسفة على التوفيق بين الدين الذي يعتقدون صحته ولا يرتابون في شيء منه والفلسفة المبنية على النظر الصحيح والمنطق السليم !

***

من أجل هذا نجد كل فلاسفة الاسلام — مثلهم مثل غيرهم من المتكلمين والمفكرين — حاولوا هذا التوفيق سواء منهم من تقدم به الزمن ومن تأخر ، مع اختلاف في الطرق التي اصطنعوها والجهود التي خصصوها لبلوغ الغاية المرجّاة ، ومع تفاوت في مبلغ ما قُدّر لكل منهم من نجاح . ويطول بنا الكلام اذا تحدثنا في شيء من البسط على كل تلك المحاولات التي بذلها في هذه الناحية الفلاسفة وغير الفلاسفة من المفكرين في الاسلام

لذلك نكتفي بايجاز القول عما كان من أعلام الفلاسفة وحدهم ؟ أعني عن الكندي والفارابي ومسكويه وابن سينا في المشرق ، وابن باجه وابن طفيل وابن رشد في المغرب

## في المشرق

١ — عاش الكندي في فترة من حياته في بيئة التفكير الحر والتسامح الكبير ، هذه البيئة التي خلقها المأمون ( ١٩٨ — ٢١٨ هـ ) وشجعها حتى انهُ كان نفسه شيعيًّا ووزيره يحيي بن أكثم سنيًّا ووزيره الآخر احمد بن أبي دؤاد معتزليًّا ، وحتى ان الرجل كان لا يجد حرجاً في أن يعتقد ما يرى من مذهب ، فكان يجتمع في البيت الواحد عدة إخوة لكل منهم مذهبه ورأيه [١] لكنهُ عاش بعد هذه الفترة في العصر الذي بدأه المتوكل على الله ( ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ ) والذي عاد فيه سلطان أهل السنة

لا جرم اذاً ، أننا نراه يشعر — ككل مفكر حر — بالخوف والقلق على نفسه ، فيحاول التوفيق بين الدين الذي لا يشك في انهُ حق والفلسفة التي يقرها عقله . ولهذا نجد ابن النديم يذكر لهُ بين مؤلفاته رسالة في تثبيت الرسل وأخرى في نقض مسائل الملحدين [٢] كما نرى ظهير الدين البيهقي يذكر عنه انهُ « قد جمع في بعض تصانيفه بين أصول الشرع وأصول المعقولات » [٣] كما يذكر في ترجمة أبي القاسم الحسين بن الفضل الراغب انهُ كان من حكماء الاسلام ، وهو الذي جمع بين الشريعة والحكمة في تصانيفه ، وان من كلامه : « بين العقل والشرع تظاهر ويفتقر أحدهما الى الآخر » [٤] وبهذا لم يكن الفارابي هو الذي افتتح هذا العمل ، أي التوفيق بين الدين والفلسفة ، كما قرر أحد العلماء الباحثين [٥]

٢ — على أن الفارابي عمل لهذه الغاية بجدّ ، غير منبعث ، على ما نعتقد ، باتقاء تعصب الجهّال ورجال الدين ، إذ قضى حياته في جوٍّ حماه من هذا ونحوه . لقد عاش المعلم الثاني عيشة هادئة وادعة حيناً في بغداد موطن تعلمه ودراسته ، ثم انتقل الى حلب وأميرها سيف الدولة الحمداني — المعروف كما قدمنا بحب العلم وتشجيع أهله — ليعيش في كنفه عيشة الزاهد المتصوف الذي لا تغرّه رياسة ولا تفتنه الدنيا حتى مات بدمشق وقد رحل اليها بصحبة أميره سنة ٣٣٩ هـ . والذي يرجع الى ترجمته ، كما ذكرها ابن خلكان [٦]

---

( ١ ) جورجي زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » مطبعة الهلال بالقاهرة سنة ١٩١٢ ج ٢ ص ١٩ ( ٢ ) الفهرست طبع مصر ص ٣٦٢ ( ٣ ) تتمة صوان الحكمة طبع الهند سنة ١٩٢٥ ص ٢٥

( ٤ ) نفسه ص ١٠٤ — ١٠٦ ، وقد أتينا بهذا استطراداً نافعاً في هذا المقام

( ٥ ) ابراهيم مدكور في كتابه « مكانة الفارابي » بالفرنسية ص ٤١

( ٦ ) ج ٢ ص ١١٢ — ١١٤

وابن أبي أصيبعة [(١)] وصاعد الاندلسي [(٢)] والقفطي [(٣)] ، يجد مصداق هذا فالفارابي لم يضطهد بسبب الفلسفة . اذاً فقد كانت محاولته التوفيق لما رسخ في ذهنه من ان الحقيقة واحدة ، وانهُ قد وصل اليها أفلاطون وأرسطو وجاء بها الوحي ، فيجب لذلك التوفيق بين ما يظن تعارضه من هذا كله

والخطة التي اتخذها الفارابي تتلخص في أمرين تأثره فيهما من أتى بعده : تفسيره النبوة بجعلها أمراً عقليًّا ، وتأويل بعض العقائد الدينية التي يسميها المتكلمون بالسمعيات تأويلاً عماده العقل والنظر ، وبهذا وذاك يكون قد اعترف بالوحي ولم يلغ العقل ، وجعل لكل منهما مكاناً بجانب الآخر . انهُ يرى ان النبوة ليست أمراً خارقاً للعادة ، إذ ليس النبي إلاّ انساناً بلغت قوته المتخيلة غاية الكمال، وتسنى له الاتصال بالعقل الفعال ، فيعرف عنهُ في اليقظة الأمور الحاضرة والمستقبلة وغيرها مما يجعل له صفة النبوة [(٤)] ، ويكون الفرق بينه وبين الفيلسوف أن النبي يصل الى هذه الحقائق كما وصفنا على حين يصل الفيلسوف اليها بالنظر العقلي ، وليس هذا — في رأي الفارابي — بالفرق الكبير

ولم يخف على الفارابي ما في تفسيره للنبوة وبعض السمعيات ( مثل الملائكة واللوح والقلم والحساب ) من عسر في الفهم يجعله فوق طاقة بعض الناس ، فقسم الناس الى طبقات ثلاث : العامة ورجال الدين والفلاسفة ، ورأى انهُ يجب عرض الأشياء على كل طائفة حسب مقدرتها على تصورها وفهمها ، إما بذكر حقائقها ، وإما بتقريبها لهم بذكر محاكياتها وأمثالها [(٥)]

بهذا التفسير العقلي لنظرية النبوة وبعض العقائد السمعية ، وبتقسيم الناس ازاء هذه الامور الى طوائف ثلاث ، رسم الفارابي طريق التوفيق بين الدين والفلسفة للذين أتوا بعده وتأثروا بهِ في هذه الناحية كما يظهر ذلك واضحاً من صنيع مسكويه وابن سينا

٣ — أما أبو علي احمد بن يعقوب مسكويه فقد عاش في كنف دولة بني بويه ،

---

(١) طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٣٤

(٢) طبقات الامم ص ٦١ — ٦٣

(٣) أخبار الحكماء ص ١٨٢ — ١٨٤

(٤) آراء أهل المدينة الفاضلة، نشر « Dieterici » بليدن ص ٥٢ ، والسياسات المدنية طبع حيدر آباد سنة ١٣٤٦ هـ ص ٤٩ — ٥٠

(٥) كتاب الجمع بين الحكيمين ، طبع ليدن ، ص ٢٦ — ٢٧ والسياسات المدنية ص ٥٥ — ٥٦

وظل أثيراً لدى أمرائها حتى توفي سنة ٤٢١ هـ كما ذكر القفطي ، او بعد هذا بعام كما يقول صاحب كشف الظنون وياقوت . وقد عني كالفارابي بمسألة التوفيق بين الدين والفلسفة ، أعني المسألة التي تعتبر معقد الطرافة والابتكار في الفلسفة الاسلامية ، وكانت وسيلته لهذه الغاية تفسير النبوة تفسيراً عقليًّا يضعف الفرق بين النبي والفيلسوف ويزيد الصلة بينهما ، وتبيين الحاجة الماسة للنبوة ، وغير هذا وذاك مما وافق فيه رجال الدين والمتكلمين كخلود النفس وحدوث العالم عن عدم (١)

النبي، عنده ، انسان يصل بتأثير العقل الفعال في قوته الحاسة وقوته المتخيلة الى ما يصل اليه الفيلسوف من حقائق ، لا فرق بينهما الاّ ان هذا وصل اليها مرتقياً من أسفل ، أي من قوة الحس الى قوة التخيل الى قوة الفكر التي بها يدرك حقائق الأمور التي في العقل الفعال، على حين النبي يتلقى نفس الحقائق منحطة اليه من عل ، ولأن الحقائق التي يصلان اليها واحدة ، كان الفيلسوف أسرع من غيره لتصديق ما يأتي به النبي وقبوله(٢)

والناس في رأيه — كما أشرنا من قبل — في حاجة ماسة لمعرفة الآراء الصحيحة والأعمال النافعة التي بها تدرك السعادة ، وان كان معرفة صحة ما دعوا اليه بالنظر الصحيح تكون من جهة الحكماء (٣)

٤ — واذا تركنا مسكويه الى الشيخ الرئيس أبي علي بن سينا نجد أنهُ قد عُني بالبحث في كثير من رسائله الصغيرة — فضلاً عن النجاة والاشارات — بتخصيص بضع صفحات من كل منها للغاية التي سعى لها الفارابي من قبل وهي الجمع بين الوحي والعقل، ونجده قد تأثر به الى حدٍّ كبير فيما اتخذ لهذه الغاية من خطة وطريق ، أعني من تقريب الفلسفة من الدين ، وتفسير عقائده وشعائره تفسيراً يرضاه العقل والتفكير الصحيح . لهذا نرى الاكتفاء هنا بما ذكرناه عن الفارابي ففيه مقنع وغناء

ولكنا نرى ان نشير هنا الى ان ابن سينا عاش في بيئة كانت — كما ذكرنا من قبل — تشجع العلم والبحث الحر فلم يناله سوء بسبب اشتغاله بالفلسفة ، وما ناله من الاضطراب في حياته بعد وفاة أبيه كان سببه اشتغاله بالسياسة . واذاً فلم يعن بمسألة التوفيق تقية ومحافظة على الحياة الهادئة الرغدة ، بل ليوائم بين عقيدة القلب المقدسة ونظر العقل الصحيح

(١) الفوز الاصغر طبع بيروت سنة ١٣١٩ هـ ص٣٢ ، ٤٩ (٢) نفسه ص ١٠٢ — ١٠٤
(٣) نفسه ص ٦٦

# اختبار العبقرية

لكامل محمود حبيب

« ان سوء المعاملة والعوز يؤثران في أشد الاطفال ذكاء فيبدو غبيا »

لعمري كيف تباينت أنصباء الناس من الذكاء ؟ ولماذا غدا بعضهم شجاعاً والبعض جباناً وبدت على بعضهم الرغبة في أن يصير قائداً واستنام الآخرون الى أن يكونوا تبعاً ، ونشأت فئة في الغطرسة والكبرياء . وركنت فئة أخرى الى الخنوع والضعة . وهكذا مما لا حصر له من الخصال المتشعبة ؟ ومن بعد ، كيف تمنح الطبيعة رجلاً منةً ضافية فتسمو به في ناحية خاصة من نواحي الحياة فيبدو نجماً متألقاً في سماء الدنيا ؟

عجز العلم — حتى قريب — عن أن يفك طلاسم هذه الاسئلة ، ولكن معامل الأبحاث النفسانية أخذت تحاول — حديثاً — نبش هذا الموضوع فانتهت الى ان العبقرية الفعالة هي نتيجة لأمرين متلازمين : الوراثة ، والبيئة التي أحاطت بالطفل في مطلع العمر . وحين وجد العلماء أنفسهم لا يستطيعون أن يقطعوا برأي جازم ، قالوا ان الذكاء وليد الوراثة فحسب . واذا كانت البيئة — في كثير من الاحايين — تؤثر في العبقرية الباكرة فذلك لأنها قد تدفع المرء الى غاية لا يستطيع أن يميز بين غثها وسمينها

ولقد أحلَّ العلم الحديث البيئة المبكرة المحل الاول عند تحديد الخصائص الانسانية ، ونبه المجتمع الى أمر حيوي ذي بال : هو أن يعنى بالأفراد ذوي الكفايات الممتازة عناية خاصة منذ ظهور أول سيماء عليهم

كيف — اذن — استطاع العلماء أن يكشفوا عن العبقريات ؟ وما هو مستوى الذكاء المفرط في رأيهم ؟ هذان سؤالان لايدفعان بنا الى الاستغراق في التسلية فحسب بل الى جدال عنيف يتناول « اختبار الذكاء »

والذكاء الخارق يتميز بسمات منها : الذاكرة الممتازة ، والسمو في الترابط العقلي والمنطقي

والقدرة على استدعاء المعلومات عند الحاجة . ومنذ سنوات قام الاختصاصيون بعمل اختبارات شملت فئات كثيرة من الناس فكشفت عن مستوى الذكاء النسبي فيهم

وفي سنة ١٩١٧ طبق الاختبار الاول « ألفا » على الجيش الاميركي ، وكان ينضم على أسئلة فيها خداع بسيط وأحاجي سهلة واختبارات للذاكرة . وبعد مئات الآلاف من هذه الاختبارات رتبهم العلماء في سمط ، واستنبطوا المستوى العادي للذكاء الذي اتخذ وحدة للقياس ، واعتبر « معدلاً للذكاء » ووضع له رقماً اختيارياً هو « ١٠٠ » فاذا قلّ ذكاء شخص عن المستوى العادي بمقدار ١٠ ٪ مثلاً قيل ان ذكاءه ( م ٩٠ ) واذا زاد عليهِ بمقدار ٢٠ ٪ قيل ان ذكاءه ( م ١٢٠ ) وهكذا ...

وكانت اختبارات الذكاء مثار نقاش حاد طويل لا حاجة لنا فيه ، غير انهُ مما لا ريب فيه ان هذه الاختبارات هيأت معدلاً للذكاء لا ينفلت منهُ انسان مهما كانت مهنته . على ان مستوى الذكاء الذي تبينهُ الاختبارات بعد السابعة من العمر قلما يتغير بمرور الزمن

ولقد قامت جامعة إيوا بالولايات المتحدة — منذ سنوات — بسلسلة من الأبحاث أثبتت ان مستوى الذكاء في كثير من الاطفال يرتفع غير قليل إن هم ظفروا بعناية وانتباه ، وشعروا بالطمأنينة والهدوء . وأثبتت أيضاً ان العوز وسوء المعاملة يؤثران في الطفل الذكي فيبدو غبيًّا

وان أكثر الأبحاث متعة هي محاولات بذلت لدراسة مستوى الذكاء في طفولة ثلثمائة رجل من عظماء العصر الحاضر ، معتمدة على ما جاء في كتب التاريخ عن طفولتهم

وجاءت نتائج هذه الأبحاث تؤيد القضية القائلة بأن الذكاء لا يرافق — دائماً — النجاح في الحياة العملية ، على عكس ما يتراءى عادة . فلقد ظهر من هذه الابحاث ان نابليون هو أعظم عظماء التاريخ الحديث ويليه تسعة ان رتبوا فهم : ڤولتير وبيكُن وجوتِيه ولوثر وبورك ونيوتن وملتن وبت وواشنجتن . ورغم ذلك فان معدل ذكائه وهو على رأس العشرة الأوائل يماثل معدل ذكاء واشنجتن وهو الأخير فكلاهما مستوى ذكائهِ يساوي ( م ١٤٠ ) . على حين كان ذكاء بورك يعادل ( م ١٦٥ ) ولوثر ( م ١٧٠ ) وكل من ملتُن وبيكُن (م ١٨٠) وكل من نيوتن وبت وڤولتير ( م ١٨٥) ولكن جوتِيه بذ الجميع في ذلك فمعدل ذكائه يساوي ( م ٢٠٠ )

وانهُ ليبدو أن العبقرية يصحبها الذكاء المبكر . وهذا هو الغالب وان لم يكن دائماً هو

الحق . فان جون ستيورت مِل تعلمَّ الاغريقية في الثالثة من عمره ، وقرأ افلاطون في السابعة ، وفي الثامنة درس اللاتينية والهندسة والجبر وحينما كانت سنه تربو قليلاً على السادسة كتب تاريخ رومة

ولشد ما يذهلنا أن يكون كريستيان هنيكين في الرابعة من عمره ثم هو يقرأ الألمانية ويتكلم عدة لغات ويشدو طرفاً من الرياضة والتشريح والجغرافية ، ويستظهر ١٤٠٠ عبارة مقتبسة من الأدب اللاتيني . ولقد أراد ملِك الدانيمارك أن يجلس الى العبقري الصغير، غير أن المنية لم تمهلهُ فاختطفته وهو في الرابعة وأربعة أشهر

ثم ان كارل ويت التحق بالجامعة في الثامنة من عمره وحصل على شهادة Ph. D في الرابعة عشرة وعاش حياة علمية عالية ناجحة مدى عمره الطويل البالغ ٨٣ سنة

والعظيم يأتي — عادة — بالفذ من أعماله في صبح شبابه . فجوتيه كتب « آلام فرتر » في الخامسة والعشرين من عمره ، وملتُن نظم أناشيده العبقرية ، وهو عند الحادية والعشرين وشيلنج وضع مبادىء فلسفته وهو في العشرين ، وپت تقلد منصب رئيس الوزارة البريطانية في الرابعة والعشرين

ومنذ تسع عشرة سنة قام العالم النفساني الفذ الدكتور تيرمَن بجامعة ستانفورد الأميركية ببحوث واسعة ، تبحث عن الذكاء الخارق في مدارس الاطفال على الشاطىء الباسفي ولا سيما في كاليفورنية . فاختبر الاطفال العديدين ، من أبناء تلك المنطقة اختبارات ذكاء متشابهة فوجد ان نحواً من ١٥٠٠ طفل من هذا العدد الضخم حازوا ( م ١٤٠ ) فأكثر مما رفعهم الى صفوف العباقرة

هذا العدد من العبقريين نما الآن واشتد وانغمر في الحياة يكافح ليكسب قوته ؛ وهم يخترقون سبلهم في نجاح تنقطع دونه أعناق زملائهم

والبنون والبنات من هذا العدد تزوجوا من أناس هم دونهم في الذكاء بمقدار ٢٥ درجة وأنجبوا أطفالاً عند هذا المستوى تقريباً ، وهو يقرب جداً من مستوى ذكاء آباء العبقريين وأخواتهم

والآن تنكشف أبحاث الدكتور تيرمَن عن أشياء تبعث في النفس الدهش : فان ٢٥٪ من عباقرته نجحوا في الحياة نجاحاً فاق كل ما جناه الباقون ، و ٥٠٪ بلغوا مستوًى متوسطاً والباقي أخفقوا اخفاقاً ظاهراً . وكان ما يجنه الفئة السامية من مدة يربو كثيراً على أضعاف

ما جناه القسم المتخلف . وان أعجب العجب في ما جاء به الدكتور تيرمَن هو ان فئتين من عباقرة الأطفال أثبتت التجارب تساويهما في الذكاء ، وعاشا معاً زميلين في الدرس وفي المدرسة نفسها ظهرت احداهما — مع ذلك — على الاخرى . لاريب، في أن عاملاً بيِّناً أثر في كل من الفئتين فأحدث هذا الفرق الواضح . ذلك العامل هو — كما قال الدكتور تيرمَن — البيئة المنزلية وما بذرت في نفس الطفل من غراس الشخصية فأطفال القمة هم أبناء الأثرياء الذين يستطيعون أن يهيئوا لابنائهم حياة راقية هادئة مستقرة . أما أفراد الطبقة الدنيا فهم غراس بيوت لا تعرف الهدوء ولا السعادة ، والآباء فقراء ، جلهم غرباء ترهقهم ثقافتهم الاجنبية وشظف العيش في وقت معاً . وهكذا غلبت على الأطفال البيئة المنزلية تجذبتهم الى أسفل ، الى أسفل ...

وفي الحق إن الأطفال الموهوبين لا يؤدون عملهم المدرسي على الوجه الاكمل ، لأن المادة تضجرهم فيرفضون العمل الأ أن يجدوا فيه المتعة ، ثم قد تأتي الصدفة فتحيل حياة العبقري الى شيء آخر : فمثلاً : نيوتن كان قد انتهى الى أن يكون فلاحاً اميًّا لولا أن زار — ذات مرة — طالباً في الجامعة من ذوي قرابته . وفراداي هجر المدرسة في الرابعة عشرة من عمره .. هجرها الى الأبد ... ولكن مجرى حياته تغير حين قرأ موضوعاً عن الكهربي في احدى دوائر المعارف . وانهُ ليقال إن قرابة نصف العباقرة تبدو عليهم سيماء الذكاء وعودهم ما يبرح لدناً ، ورُبعهم يشب دون ان ينبيء عن شيء من العبقرية

ولقد اثبتت التجارب أن الذكاء الحاد وليد الوراثة ، على حين أن الشخصية والخصائص هما من نواتج البيئة ، وأن التدريب السديد يستطيع ان يخلق من العبقرية بالقوة عبقرية بالفعل ، وأن أهم العوامل في تكوين هذه العبقرية اثنان : الحافز ، وهو أن يعيش المرء في بيئة تتطلب مقدرة عظمى وتقدر هذه المقدرة حق قدرها ، ثم الشعور بالأمان والهدوء منذ فجر الحياة

وإن ما يصدق على العبقريين ينطبق ايضاً على مَنْ عداهم ، فالذكاء والشخصية عند المتوسطين من الناس يتأرجان إن هما وجدا ظروفاً ملائمة طيبة . هذه القاعدة المهمة الواضحة يتجاهلها ، أو يتغاضى عنها القائمون على التربية ابتداءً من الوالدين الى الدولة

ولقد أبان لنا العلم عن السبب الذي يجب من أجله أن ندفع عقولنا الى العمل ، وأن نزوّد الجيل الناشيء كل ما نستطيع من تذزيب وتجارب نافعة واطمئنان ثم الشعور بالقوة والنجاح

# القوى الخلقية

## للموسيقى

## — ٢ —

لعثمان علي عسل

برينو فالتر Bruno Walter من الموسيقيين المعروفين في العالم. فقد كان رئيساً لجوقة اوبرة برلين وفينة وميونيخ . وقام بعدة رحلات الى باريس وروما والولايات المتحدة وقد نشر هذا المقال في مجلة المركير دي فرانس Mercure de France ( فبراير سنة ١٩٣٩ ) مترجماً بقلمي كوليت وجاك فيشوت . وعن هذه الترجمة نقلنا هذا المقال

يحلو لي الآن بعد أن عرضت ما نفهمه من ماهية الموسيقى الخالصة ، أن أوجه البحث نحو النقطة الثانية وهي : ما تحدثنا به العبقرية المبدعة باللغة الموسيقية فما هي القوى الخلقية للموسيقى المفسرة لعالم العواطف الانسانية ؟

ان الملحن يختار الموسيقى ليترجم عن عواطفه · وهو ينقلها الى المستمع في لغة موسيقية . والموسيقى كما يقول شيلر « توقظ قوة العواطف الغامضة التي ترقد في القلب في سبات غريب » وأنا أضيف الى ذلك أن الموسيقى وحدها هي التي تملك هذه القدرة لأنها تصدر من هذه العواطف الغامضة وتعينها على الظهور في صورة واضحة . عواطف غامضة ؟ نعم ! ولكن ألا تحمل الينا أيضاً رسالة تفيض بالعواطف الواضحة ؟ ألم تكتسب الموسيقى بفضل بيتهوفن ومن عهده قوة على التعبير عن حياة الملحن وسيرته

وأحب أن أنبه القراء الى الخطر الذي ينشأ عن عدّ الموسيقى كتاباً شخصيًّا للملحن يصف فيه تجاربه وعواطفه . فان ادخال الاعتراف الشخصي في اللحن لا يزيد في غزارته إلا في اللحظة التي تتحول فيها التجربة التي نحياها ، برمتها ، الى موسيقى ( كما هو الحال عند بتهوفن ) فتنتهي التجربة من كونها تجربة بحيث لا يعطل تمتعنا بالموسيقى البحتة تذكار حوادث واقعية . أضف الى هذا أن « العواطف الغامضة » لها أهمية كبيرة لا حد لها ، لأن انتقالها من الملحن الى المستمع هو الذي يكشف قوة التفسير التي للموسيقى من حيث هي موسيقى . فهي تعبر عن حالة الملحن القلبية حتى ان لم يستعمل بانتباه ، هذه الرنة أو تلك ،

لكي يعبر عن عواطف معينة . لأنها تنفجر وتتدفق من أعماق النفس ، حيث لا يوجد وعي ، وحيث تكون السيادة للذات الغريزية التي نبهتها قوة العواطف الغامضة . وأنا أعتقد أن الموسيقى تعبر تعبيراً صحيحاً عن ذات الملحن

فكم يثيرنا قسم الـ Andante من سمفونية جوبيتر ويبعث في نفوسنا الحماسة لأن موسيقاه انبثقت من نفس ( موزارت ) الكبيرة في لحظة كانت فيها هـذه النفس تضطرم بالانفعال والحماسة . وفي هذا دليل على ثروة الموسيقى الصـادقة . يقول ريتشار فاجنر « لا أستطيع أن أدرك عبقرية الموسيقى إلاّ في الحب » وهو بهـذا يكاد أن يعلن قاعدة محددة . فللموسيقى مصادر سامية هي قوة عظيمة وفيض غامر من الحب . ونحن نجد في في كل قسم Adagio من بتهوفن — وهو أروع صورة يتحقق فيها الفن الموسيقي — أنشودة حب تتردد . كما قيل في Le Joueur de vielle لشوبارت . وأحسب انهُ اتضح بعد ذلك ان الهاتف الخلقي الذي توجههُ الموسيقى الينا بواسطة العبقريات المبدعة يتغلغل في أعماق نفوسنا . فمن منا يستطيع أن يقاوم رسالة حب لباخ أو لشوبارت أو لموزارت أو لبتهوفن أو لبرامز ؟ ولا تتركب الموسيقى بكل تأكيد من عبارات بطيئة كما هو الحال عنـد بتهوفن ، مع ان هذه العبارات تحتوي على جميع عناصر التعبير الموسيقي لأنها كما تعبر عن عاطفة واحدة عميقة تعبر أيضاً عن تباين العواطف وكثرتها . فحياة المبدع النفسية لا تقوم على عاطفة حب فقط ، بل على العكس من ذلك نجد أن الثراء التام للحياة الباطنة المتحركة تملأ النفس بأنواعها وآلامهـا وكآبتها واضطرام العاطفة وخمودها ، ثم تتحول الى موسيقى . غير انهُ لا يسعني أن أعتبر هذا كلهُ إلاّ تجزئة وتقسيماً للعاطفة التي توجد في المركز والتي تحتوي على جميع الأجزاء . وأعتقـد بأن الحال في تنوع الاحساسات ، وتنوع الموسيقى الناشئة عنها ، ونسبتها الى مركزها ، كنسبة الألوان الكثيرة التي تتفرع من المنشور البلوري بالنسبة الى الضوء الشمسي الذي يوجد في هذه الألوان جميعاً ويتحلل فيها وهو يبذل لها زخارته

ومن المهم أن نلاحظ أن ما نسميه بالموضوع في الحركات السريعة (الموضوع الثاني غالباً) يرجع الى نوع الاداجيو والأندانت . كما هو الحال أيضاً في جميع السياق النغمي على العموم . فلهذا النوع قدرة محددة مسلم بها بكل وضوح مهما تباينت صور التنوع الموسيقي

لم أتعرض حتى الآن إلاّ للموسيقى البحتة ، لأن التعبير ( الدرامتيك ) في الموسيقى الوصفية أو المسرحية ، يطغى على الرسالة التي تحملها الينا ، تلك الرسالة التي تنبثق من قلب الملحن ومن أعماق سريرته . ومع ذلك فالموسيقى (الدرامتيك) تقدم لنـا أكثر الصور وضوحاً لقوى الموسيقى الخلقية ، ان لم تكن أعمقها وأبعدها غوراً . فنحن نشاهد في

مناظر الاوبره مخلوقات نبيلة ومخلوقات شريرة والدسائس التي تدبر في الخفاء كما نشاهد التقوى والجحود والطهر والفجور والطيبة والحقد والذلة والعظمة ، وكلها تفرغ في قالب موسيقي لكي تظهر على المسرح . ولكن كيف تعبر هذه الموسيقى عن الخيانة والكراهية ؟ هل نجد لغتها النبيلة قدرة على التعبير عن هذه الافعال التي لا تمت الى الآخلاق بصلة كالتي نجدها للتعبير عن المسائل الخلقية ؟ وهل تشمل رعايتها الابرار والأشرار على السواء لا ، قطعاً ... فهي تتحيز الى أحد الجانبين . إذ تندفع بكل سخاء عند ما توحي الانسانية الرفيعة بالوقائع الدرامتيك ، وتصف بقواها حين تصف العواطف الدنيئة من الطبيعة البشرية . وبهذا المعنى نستطيع ان نقول إن الموسيقى مقياس للاخلاق

لنلاحظ جيّداً أهمية الأدوار التي يقوم بها يهوذا والشهود المزورون والقديس الأكبر في « عذاب المسيح عند القديس متى » ، فهي تكاد تكون تافهة من الناحية الموسيقية . وكذلك انكار بطرس لسيده المسيح في ترتيل يبدو ضعيفاً ، في حين أن الترتيل يتحوّل الى موسيقى حقيقية إذ يتحدث أصحاب الأناجيل عن الندم ، ويصفون خروج بطرس وبكاءه المرير . والفرق كبير بين هذه الأمثلة التي ذكرنا آنفاً ، وبين أمثلة أخرى مثل اجواق الملاحدة في « المسيح المنتظر » لهيندل ، أو لحن بِتسارو في « فيدليو » حيث تعبر الموسيقى بأسلوب حاد عن التهكم والحقد . ومن ثمّ تنشأ عبارات موسيقية تفيض بالحياة والقوة والروعة الدرامتيك . ومع ذلك اذا قارنا هذه العبارات بالعبارات الأخرى التي تناجي بها الموسيقى ، المؤمنين ، والعشاق ، والمنكوبين ، وفاتري الشعور ، نجد الفرق بينها كالفرق بين البراق الذي يخضع للظلم فيدب على الأرض ويبذل قواه في احتمال أعباء أرضية ، وبين البراق الذي يفك قيوده ويحرر أجنحته ليحلق في آفاق السماء الواسعة . واذا فضلنا أن نعدل عن هذا النمط في التصوير ، نجد في عالم الموسيقى الذي لا حدود له ، مناطق يمكن أن نسميها « أرض البحث عن الوصف اللاانساني » ، « أرض البحث عن المنفعة رغم كل شيء » وهذه هي المناطق التي تتركها للشر ليتصرف فيها . وهي مناطق متطرفة نائية تتصل بالناحية الغريزية العقلية من الطبيعة البشرية . فاذا قارنا في « فيدليو » الموسيقى الخاصة بدور بتسارو التي أشرنا اليها ، بأصوات أدوار لينورد وفلورستان ، نشعر بالمسافة الروّعة التي تفصل بين المنطقة الخاصة بالأول والأجواء الخاصة بالآخرين ، حيث تسود فيها أسمى قوى الموسيقى. كما نلاحظ أيضاً عند مانعرض بدون نصوص الموسيقى التي تعبر عن الانحطاط الخلقي أن حظها من الموسيقى الحقة يسير ، في حين ان الموسيقى التي تصور العواطف السامية مجردة

عن نصوصها تثيرنا بقوة تعادل تقريباً قوتها حين نرددها بالنصوص . لنتأمل صوت «رحماك يا الهي» في عذاب المسيح عند القديس متى أو في دور ليونورة العظيم في فيدليو . ! وماذا قدم (موزارت) للدساس بارتولو ليتغنى بهِ بجنب اللحن الذي أجراه على لسان الكونتس والذي يستدر الحنان، وعلى لسان سوزان الفاتنة ؟ وأية صلة بين ترديد ألبريش السَعِر وميم الخائل وترديد سيجموند وسيجلنده ؟ وكذلك بين أنغام ڤوتان دساس « ذهب الرين » . ولنقارن أيضاً بين دور ڤوتان الهائج في الفصل الثاني من « الڤالكيري » بالموسيقى التي يتدفق بها تدفقاً سهلاً ليناً وداع الحبيبة في نهاية الفصل الثالث . وكذلك تظل منطقة الأداجيو والاندانت مغلقة في وجه مؤلفي الموسيقى الغنائية التي تثير الحقد وروح الدس وارادة الايذاء . على حين هذه المنطقة التي هي أوسع مناطق الموسيقى ( لاننا نعثر على عناصرها في جميع العبارات التي تردد في حركات سريعة ) وكذلك جميع القوى التي يمكن أن تمت اليها بصلة ، تنفتح آفاقها للعواطف السامية ويسهل قيادها لأصحاب النفوس النبيلة . وليس في وسعي ان أتعهد هذه القارنات بالزيادة : بالنظر من ناحية الى القطع الموسيقية التي لها قدرة على التعبير الدنيء كما هو الحال في دور ليسيار في « ايريانته » لڤيبر ، وظهور پتسارو على المسرح وهو عازم على القتل في الفصل الثاني من « فيدليو » وبذاءة ألبريش في « ذهب الرين » . وبالنظر من ناحية أخرى الى الاحوال التي يسهل فيها التمييز بين حالات النفس التي تعبر عنها الموسيقى حينما تنهل من أعمق مصادرها كما هو الحال في جوق فيدليو ( أية لحظة يا الهي ... ) ودور پامينة في Flute enchantée وفي اعلان الوفاة في الڤالكيري . غير انهُ من المحتمل الاعتراض على ذلك بأنهُ كثيراً ما يمكن صياغة الشخصيات الهينة وحوادث الحياة اليومية ، والدس والخداع والكذب والبذاءة ، في لغة موسيقية بأسلوب ممتع أو جذاب دون أن ننتقص من حقيقة التعبير الدرامتيك . وهذا يرجع في الواقع الى نبل اللغة الموسيقية المجبولة عليه والى شخصية الملحن الفذة الممتازة

لهذا لم يكن من المحتمل أن يُعبر بسهولة تعبيراً موسيقيّاً عن العواطف الدنيئة . فهي على عكس ذلك تخضع بمرورها بالموسيقى نوع من التشكل . وهذا التشكل لا يبدو صناعيّاً في الجو السامي لفن الموسيقى . ومهما يكن جانب الموسيقى الروحية الممتعة الفاتنة ، الذي يخصص في الاوبرة ، لما في الحياة اليومية من دناءة وشر ، فان الفرق واضح جدّاً بين هذه الموسيقى وبين الموسيقى التي تتدفق بقوة جارفة عند ما تعبر عن السمو الخلقي . وهذا الفرق يكفي لأن يكون مقياساً حاسماً لتقويم الطابع الخلقي للمراحل الدرامتيك . ولكن

تقرير هذا الأمر، الذي له مكانة خاصة في الأخلاق ، لا يمكن ادراكه إلاّ على انهُ ينطوي في نفسه على عامل خلقي . ومما لاشك فيه ان هناك جوّاً آخر تنشر فيه الموسيقى جناحيها بكل سعة كما تنشرها في جو السمو الخلقي : وأعني جو الحب . فينبغي أن نسلم بأن قوة الموسيقى السحرية المعبرة تكون أكثر انقياداً وخضوعاً للعاطفة الغرامية من العاطفة الخلقية ، سواء كان ذلك في أرق عباراتها كما هو الحال في « أعراس فيجارو » أو في قوتها، الجذابة كما في La ci darem la mano de Don Giovanni أو في التجلي الذي يتجاوز طاقة البشر كما في « تريستان » لڤاجنر . غير أن هذه القوة المعبرة لا تسلس للعاطفة الغرامية إلاّ اذا امتزجت بالحنو والوطنية والتجلي والحماسة . أي بالاجمال حينما يكون لهذه العاطفة علاقة بالأخلاق . فقدرة الموسيقى على الاقناع ، عندما تعبر عن العاطفة الغرامية ، تكون من القوة بقدر ما للمستوى المعنوي للعلاقات التي تعبر عنها من السمو . واذا قدرنا مكانة القوى الخلقية للموسيقى والحياة الخلقية الخاصة بفننا يجب علينا أن نسلم بأن للموسيقى — نظراً لتطورها الذي لا يحد — تأثيراً أخلاقياً في ثقافة الانسانية على شرط ان تتقبل الانسانية هذا التأثير . غير ان ماهية الانسان الخلقية معقدة ، فالخير والشر يوجدان في طبيعتنا في مزيج متنافر . وليس من الممكن نظريّاً الاجابة عن السؤال الآتي : هل تستطيع الموسيقى أن تسمو بأخلاق الكائن الحي وأن يستمر تأثيرها على الدوام ، والى أي حد تستطيع ذلك ؟ ربما سجلت ملاحظات عملية في هذا الشأن غير انها بالتأكيد نادرة جدّاً ولم تتم بطريقة منظمة تمكننا من أن نستخلص منها نتائج نافعة

وأود أن أعرض بدقة لاحدى هذه الحالات التي انتهت الى علمي صدفةً وتبدو لي انها جديرة بالتنويه

زارني ذات يوم في سان فرنسسكو رجل نصف ( وقد نسيت مع الأسف اسم هذا الرجل الودود ) وذكر لي انهُ موسيقي وان حياة المسجونين كانت موضع اهتمامه . فلما تأمل في مصيرهم وفكر في أحوالهم النفسية وأمعن النظر في الاحتمالات التي ينطوي عليها مستقبلهم ، خطرت بذهنه فكرة استخدام الموسيقى للتأثير فيهم . قد نجح في الحصول على موافقة مدير السجن على هذا المشروع . وبدأ يعلم المسجونين الغناء الجوقي بأصوات كثيرة . وقد انتهت مساعيه التي ثابر عليها الى نتيجة مدهشة — كما زعم — . فقد تغيرت أحوال كل سجين تغيراً تامّاً . ولم يكن التذاذهم بالمرح وسرورهم الحقيقي يتجليان في أوقات الدروس الموسيقية فحسب، بل لاحظ الملاحظ شيئاً من التحسن في علاقات هؤلاء الرجال الغلاظ

العنيدين برؤسائهم ، وفي صلاتهم بعضهم ببعض . وكانت العقوبات المتبعة لا توقع على من يرتكب منهم مخالفة من المخالفات ، بل كان يكفي أن يهدد المتهم بالابعاد من الدرس المقبل ، حتى يسهل قياده وتلين أخلاقه . ولم يطلق سراح أحد هؤلاء المسجونين — على قدر ما يعلم زائري — ثم عاد مرة ثانية الى السجن . ومع ذلك فقد حيل بينه وبين الاستمرار في مهمته من عدة سنوات وأظن ، على ما أذكر ، انهُ قد طرأ تغير على ادارة السجن أفسد عليه مجرى عمله . وقد لجأ إليّ ، كما لجأ الى آخرين ، ليجعلني أتحمس لفكرته ، وأسعى له عند أصحاب الأمر لكي يعود لمزاولة نشاطه ولينجح في نشر الدعوة لمشروعه . وقد سعيت له ولم ينجح مسعاي مع الأسف . واعتقد ان هذا الرجل الألوف الذي أطلعني على تجاربه كان يسير في الطريق السويّ

من الواجب علينا أن نعتبر المجرم كائناً معادياً للمجتمع ، أو كائناً غير اجتماعي على الأقل ، بمعنى أن شعوره بالمجتمع يمازجه الفزع منه أو انه لا يبالي به ولا يكترث له الامر الذي يقيد من علاقته به . فهو من ثمَّ وحيد في العالم ، تقيده شراسة ذاته ، ويعيش في عزلة رهيبة . ولم يتذكر محدثي ( الذي بدا لي حجة في هذا الموضوع ) أحوالاً تمكنت فيها الاحاديث الطيبة والمواعظ الحسنة من النفاذ في الدروع الصلبة لهذه الكائنات المنطوية على أنفسها ، أو من التغلب على مقاومة هؤلاء المسجونين ، تلك المقاومة الوحشية الباردة ، إلاّ في حالة ما تعرض حياتهم الى خطر . فهنا حيث أخفقت الألفاظ الطيبة ، كان للموسيقى القدرة التامة على النجاح . لقد درّب هؤلاء الرجال على الغناء الجوقي بأصوات كثيرة ، فكانت أرجاء السجن تدوي بالتوافقات وتطوراتها ، نتيجة لمجهوداتهم المشتركة فكان بعضهم يغني بـ « Si bemol » وبعضهم بـ « re » والآخرون بـ « Fa » ويواصلون جميعاً الغناء ويحصلون بذلك على انسجام آخر . وبتأثير هذا الانسجام، يتحول هؤلاء الرجال المحبوسون في وحدتهم الى جماعة قادرة على اتيان عمل خيري . فهم قد تشربوا بروح الاجتماع، وأحسوا احساساً مبهماً بجمال العمل المشترك . ومن ثمَّ ندرك بسهولة ان نفوسهم تنطوي على حرارة جديدة وسمو جديد . وليس في وسعي أن أتتبع التفسير بأحوال مماثلة

فمن الطبيعي أن ندع جانباً هؤلاء الذين يقفون كل حياتهم على الموسيقى ، ومع ذلك فعدد هؤلاء أقل مما نتصور . واني لأتمنى أن يدرّس في المدارس الغناء بأصوات كثيرة ، لكي نربي في نفوس الأطفال ذوق العمل المشترك الذي يتجلى في صور مختلفة للانسجام فانني لا أزال احتفظ في نفسي — من أعوام دراستي الاولى — بالاحساس بالفراغ

الذي كان يثيره غناؤنا بصوت واحد ، وبالشعور بالخلاص التي كانت تملأ قلوبنا عند ما نغني بأصوات كثيرة

ولا أظن ان هذه السعادة التي أتذكرها الآن جيداً ينبغي أن أفسرها باللذة الموسيقية فحسب ، تلك اللذة التي يثيرها رنين أغنى ، بل أيضاً بهذا الرضا المعنوي الذي كان ينشأ من هذا الاتحاد المنسجم بيني وبين زملائي . فعند ما يغني المنشدون بصوت واحد يكوّنون كتلة ، وعند ما يغنون بأصوات كثيرة يكوّنون مجتمعاً . وقوة الموسيقى هذه التي تنزع الى تهذيب الشعور الاجتماعي وتوجيهه نحو جماعة متآلفة ، برهان جوهري على وجودها وعلى شدة قوتها التهذيبية وليست هذه الجماعة مقصورة على جماعة العازفين ، فننا يجذب الجمهور الى دائرته السحرية ، وسواء كان عدد المستمعين خمسة أو ألفين فان نفس الموجة تدفعهم جميعاً الى أسمى درجات العاطفة ، فالموسيقى تحولهم الى جماعة مشتركة : أجل ! انني كثيراً ما أحس عندما تقهرني قدرتها السحرية على التحول بأننا نخضع لنوع من التحلل الذي ينتهي بامتزاج جميع الانفس في نفس واحدة . فالموسيقى تزيل من الحواجز المضروبة على الفرد ، عند ما تدفعنا بلا مقاومة كنهر حقيقي من الحب . والنفس الانسانية ، هذه النفس المنفردة ، التي كتب عليها أن تقضي حياتها الأرضية في سجن دائم ، تتصل فجأة بالكون كله اتصالاً غير محدود ، وهي تحلق في آفاق العاطفة السامية كما تتطلع من وراء الغيب إلى سلام أبدي . وفي وسعنا أن نتمثل ، أثناء التجلي الموسيقي ، بأقوال فاوست وهو يحتضر « إنني أقضي أسمى لحظات حياتي وحدسي ينبئني بسعادة عليا »

ويبدو لي بوضوح في اللحظة التي أختم بها هذا المقال ، أنني عاجز عن اثبات ما تعرضت له بطريق العقل . فمن الواضح أن كل ما كتب وما سيكتب عن الموسيقى ، مع استثناء الوقائع التاريخية ، يجب أن ينتهي بعلامة استفهام لا بعلامة وقف . وانني لأضع هذا البحث تحت هذا التعبير الرمزي . . .

وليس من قبيل أحلام رجل موسيقي بذل عمره كله في حياة موسيقية ، ما أصبو اليه من ابداء الرأي وعرض الاقتراحات : فالموسيقى تكشف أسرارها بنفسها في فصاحة قاهرة الى هؤلاء الذين يتفتح لها شعورهم

استسلم لندائها إذن ، أصغ الى « أداجيو » لبتهوفن . وسل نفسك بعد ذلك ألست على حق فيما أقول ؟ ألا تهدي الموسيقى شعورنا الخلقي الى سبيل يتفق مع سلوك الضمير ؟ وأخيراً ، ألا تطبع هذا الشعور الخلقي بطابع مقدس ينقيها ، بما لها من قدرة عجيبة تتصل بالقدرة الالهية . . .

# هذه الحرب

نضالالان [1]

يكاد الرأي يتفق بين علماء الاجتماع البشري على ان هذه الحرب ليست حرباً بالمعنى العادي المألوف من الحروب ، بل هي مزيج من لونين من النضال ، النضال القومي ، والنضال الاجتماعي الذي يرمي الى احداث انقلاب في حياة البشر . ففي الناحية الواحدة نضال قائم بين الأمم المتحاربة ، وفي الناحية الاخرى نضال قائم بين طبقات من الناس ، وآراء يعتنقونها في التنظيم السياسي والاقتصادي والاجتماعي . اما الاول فالوحدة فيه هي الدولة المؤتلفة او المحالفة لدول اخرى . وأما الثاني فيتعدى حدود الدول ، ويخرج عن نطاق الولاء القومي ، بل ربما مزّق الجبهة القومية وقطع أوصالها . وهذا اللون من النضال ، هو مظهر الانقلاب في نظم العمران ، واللوحة الواسعة التي ترسم عليها ، صور المعارك الدائرة الرحى في البر والبحر ، وفي أطباق الفضاء

فحالة العمران الذي يتجاذبه هذان اللونان من النضال ليست بالأمر الذي يسهل تبسيطه وتبين العوامل المتعددة المتفاعلة فيه . وكثيراً ما يخطئها الجمهور من الناس . وقد يخطئها فريق غير يسير من قادة الجمهور . وكل عمل يعمل يجب ان ينظر فيه قبل الاقدام عليه ، ثم يجب ان يحكم عليه بعد انجازه ، ثم يجب ان يقاس في الحالين ، بهل هو عمل يصلح من الناحية القومية ، أو هو مخالف لمصلحة طبقة من الطبقات ، أو كتلة من الكتل . وقد تمثلت هذه الحقيقة في غير بلد واحد قبل يونيه ١٩٤٠ ، وقبل ٧ دسمبر ١٩٤١ . وقليل من الناس يستطيع ان ينظر نظراً مجرداً الى التغير الدائم في ازمة العمران المتعددة الوجوه ، المتداخلة العناصر ، فيميل الى اقامة الوزن الاكبر في اعتباره ، للوجوه التي تمنيه ، وتمسه في المقام الاول ، مهملاً الوجوه الاخرى ، بعض الاهمال او كله . فمن الناس ، من يعنيه في المقام الاول ان هناك طائفة من الدول ، المعتدية ، تحاول ان ترفع نير طائفة اخرى من الدول القائمة ، لتخلق هي بدورها امبراطوريات جديدة . ومن الناس كذلك ، من يعنيه في المقام

(١) مجمل حديث أذاعه رئيس التحرير من بيروت ٢٨/٢/١٩٤٤

الاول ، طابع الانقلاب ، الذي يتميز به العهد الأخير من الحضارة . فيعتقد ان النضال الاصيل انما هو صراع بين الافكار أو صراع بين النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي تتجلى فيها هذه الافكار ، او تسعى الى ابرازها فيها . وقد يذهب بعضهم ، الى أبعد حد في هذا النظر ، فينكر النوع الاول من النضال ، اي النضال بين الامم ، ويؤكد ان هذا اللون من النضال متصف بصفة مصطنعة تخفي وراءها النضال الثاني وهو عندهم النضال الصحيح الأصيل

والحقيقة طبعاً ، هي ان كلاً من هاتين المدرستين ، من مدارس الفكر والنظر متأثرة بالنشئة الفكرية والخلقية التي نشئت عليها ، ميالة الى ان تعلي من شأن المسائل التي تهمها في المقام الاول ، مهملةً المسائل الاخرى . وليست هذه الحالة بالحالة الجديدة ، الفذة المقتصرة على هذا العصر من عصور الحضارة . فمعاصرو الثورة الفرنسية ، وعهد نابوليون واجهوا هذه المشكلة ، كما تواجهها أمم الأرض الآن . ولا يزال المؤرخون الى الآن غير متفقين على اي الأثرين الكبيرين من آثار نابوليون أهم وأجدر بالتقديم . أهو أن نبوليون فتح معظم اوروبة ، فأفضت فتوحاته الى قيام حدود سياسية جديدة ، وتوازن سياسي جديد ؟ أو أن نبوليون نشر عن طريق فتوحاته الافكار الحية المحركة الدافعة التي كانت منطوية في الثورة الفرنسية نفسها ؟

وما حدث حينئذٍ حادث الآن . ولكن المشقة التي نعانيها في استشفاف الحقيقة هي ان ما هو حادث الآن حادث لنا . فنحن في غماره ، أردنا أم لم نرد . والرجل الذي ينكفىء عن تدبره ، واستيضاح ما يجب عليه ، بصدق واخلاص ، هو أحد دعاة الهزيمة في معركة السلام والحضارة ، ويحق عليه ما يحق على دعاة الهزيمة ، في حرب الدفاع عن الكيان . بل أن النكير عليه أشد وأنكى لأن معركة السلام والحضارة هي معركة البشرية جمعاء . بل ليس في وسع احد الآن ، حتى ولا العالم الرياضي الذي لا يعنى الا بالرموز والمعادلات ، ان يقيم في برجه العاجي ، يطل منه على تيارات الحياة ، بغير ان يخوضها . فهذا الرجل ، يجب ان يهمه على الاقل ان يتاح له الجو الحر الذي يستطيع فيه ان يفكر ، ويبدع ، على سجيته ، واتاحة هذا الجو الحر مسألة اجتماعية يجب ان تعنيه

ان تاريخ البشرية ما فتىء منذ الأزل نضالاً بين طرازين من الرجال . أما الأول فهو الرجل المنتج المبدع ، الخلاق . وهذا الرجل لا يحتاج الى شيء كحاجته الى الاستقلال ، كي يفكر ويعمل . فلا هو يسعى الى السلطان والسيطرة على الغير ولا يحتاج اليهما ، ولكنهُ

كذلك رجل لاتستطيع ان تكرههُ على التفكير والعمل اكراهاً . وأما الآخر ، فهو المستكين المسيَّر ، انهُ نوع من الطفيليات يخشى الاستقلال، ويرغب في ان يؤمر فيطيع . وان يوضع له النظام المحكم الدقيق فيجري عليهِ ، فيكون فيهِ ترساً في عجلة في آلة كبيرة . فهذا الرجل يوافق على النظام الذي يقوم الطاغية على رأسهِ — أيّاً كان منشأ الطاغية — لان ذلك يعفيهِ من ضرورة التفكير والعمل المستقل .

أن السلطان والحرية غير متنافيين ، وفي وسع البشر ان يتمتعوا بالحرية بغير ان تعم الفوضى ، وفي وسع الحكومة ان تمارس السلطان بغير ان ينتشر الاستبداد . والناس يجب ان يكونوا سواءً امام القانون ، فمصيرهم ليس متعلقاً بنزوة حاكم طارئة ، أو شهوة شرطي سري . وهذه القواعد جميعاً مردها الى الايمان بأن للانسان الفرد كرامة في ذاته ، فيجب ان يمنح حريات أساسية لكي يتاح له النمو العقلي والروحي المتسق ، وهذه الحريات هي روح الحضارة ، واليها مرجع كل ارتقاء

ونحن ابناء هذا الشرق ، في دولهِ المختلفة ، قد جنبنا تجنياً كبيراً ، معظم أهوال الحرب — بالمعنى الاول — ومحنها . ولكننا لم نجنَّب ، ولن نجنب مشاق الحرب الثانية ، أو النضال الثاني . فمعركة الحضارة لا تنتهي . وصراع الحرية صراع مستمر يتجدد كل جيل . وأنكر خطيئة نبلى بها في هذا العهد الذي يتمخض عن صور جديدة من الاجتماع البشري هي خطيئة عدم المبالاة . وكلما أمعنا في دراسة الاسباب الباعثة على نهوض الحضارات وانحطاطها وجدنا صفحات التاريخ حافلة بالامثلة ، على ان كل تقدم مرده الى الافراد العاملين المبدعين الخلاقين ، فهؤلاء يجب ان يربوا التربية الحسنة وان يتاح لهم الجو الحر الذي يستطيعون ان يبدعوا فيهِ وان يعملوا وهذا هو الهدف الانساني الاعلى

---

* وضع « كروتشي » الفيلسوف الايطالي مجلداً ضخماً في فلسفة التاريخ جعل عنوانه « التاريخ : قصة الحرية »

* على رجال العلم ان يحاربوا حربين — حرب المدافع والطائرات والدبابات ، بما يضيفونه الى أدوات الحرب من ضروب التحسين والاتقان ، وحرب الفكر لتحقيق الحرية التي لا يزدهر علم ما الاّ في ظلها

كتاب « العلم ونظام العالم »

# عمر الخيام

## كما أعرفه

لمحمود المنجوري

### هل عمر الخيام خرافة

### ٣ — الوثائق التاريخية التي وردت فيها اخبار عمر الخيام

﴿ القسم الثالث ﴾ — وثائق وتعليقات دونت في القرن التاسع للهجرة وما بعده

(ا) — فردوس التواريخ لمولانا خسرو الابرقوهي سنة ٨٠٨هـ جاء فيه عن الخيام ما يأتي:

عمر هو ابن ابراهيم الخيام فذ اقرانه في غالب علوم عصره وخصوصاً في علم الفلك ، وهو مؤلف لايجارى ، وشاعر مقطوع النظير ، ومن أشعاره

هر دره كه در روى زمينى بود ست
خورشد رخى زهـــره جبينى بود ست
كرد أزرخ نازنيـــن با آزرم فشان
كان هم رخ وزلف نازنينى بود ست

ان كل ذرة في الوجود ما هي الا وجه جميلة بدده الزمن . فيا رفيقي قم فانفض هذا الغبار في لين ورفق ، ان هذا التراب كان وجه فتاة وضاحة الجبين

( ب ) رياض الشعراء حوالى ١٣٢٨ هـ(1) . وفيه ما ترجمته :

كان عمر احد علماء عصره البارزين ، وكانت له مكانة رفيعة فقدره السلطان سنجر وقربهُ من مجلسه وأجلسهُ على سريره ، وكان في ايام الشباب قرناً في المدرسة لنظام الملك وحسن الصباح ، واشتهر وهو في مقتبل العمر بالورع والتقوى والاستقامة والتمسك بتعاليم دينه ، ولكنه لما بلغت به السن مبلغها وأشرف على الكبر عكف على معاقرة الخمر يرتشف

( ١ ) ذكر رس ان هذا الكتاب الف سنة ١٧٨٤ م وانه عثر فيه على ما ترجمناه هنا وهو مودع بخزانة المتحف البريطاني مجلد ١٥٥ رقم ١٦٧٢٩ ولم يذكر اسم المؤلف . وقد تحققنا من ان هذا الكتاب وهو مختصر كتاب اخبار العلماء للقفطي واختصره الزوزني باسم تاريخ الحكماء طبع لبسيك سنة ١٩٢٥ واما كتاب اخبار العلماء فقد طبع بمصر سنة ١٣٢٦ هـ وهو معجم تاريخي للفلاسفة والاطباء والعلماء الطبيعيين واصحاب الرياضيات من العرب وغيرهم — راجع ياقوت وجرجي زيدان

من كاساتها ضالته من الحكمة ، وما زال يشرب حتى يفقد الوعي فعرّض نفسه لسخرية الناس

وذكروا ان أمه بعد وفاته كانت تعكف الى الله باكية مصلية نادمة طالبة لابنهـا المغفرة والتوبة ، وان عمر جاءها ذات مرة في الحلم وأنشدها رباعية ذكرتها وتضرّع اليها أن تكف عن الدموع والاستغفار له « فما كان البكاء والاستغفار بمنقذ عمر من النار ! . وليس لمخلوق ان يُعَلِّمَ الله كيف يرحم عباده ! »

هذه وثيقة طريفة حقًّا جاءتنا بالجديد من المعلومات ، فعمر كان أيام شبابه عفًّا تقيًّا ولـكن الحال تغيرت به أيام شيخوخته ، فشرب وعبث ، وعاشت أمه بعده تطلب له الرحمة والغفران . ثم جاءها في المنام ، وأنشدها رباعية

وفي الحق اني لا أستطيع ان آخذ بهذه الوثيقة في جملتها ، ففيها أمور كأنها قصة صادرة عن خيال منمق رفيع ، ولهذا لا أجدها في الجملة مرجعاً تاريخيًّا ، فليس من المعقول أن تبقى أم عمر — وهو المعمَّر — حية من بعده ولها من المواهب ما يحفظ رواية الشعر وروايته عن المنام !

ونص هذه الوثيقة يقرر بأن عمر عاش الى زمن رأى فيه ( سنجر ) بن ملك شاه سلطـاناً ، وبأن سنجـر قرَّبهُ وأجلسـه على سريره واني لأجد من الخير ان أقرن ما ذكرته هذه الوثيقة بوثيقة قديمة كتبت قبل هذه بنحو ٨٢٢ سنة كتبها العروضي السمرقندي أحد تلاميذ الخيام ظفرت بها في كتاب نزهة الارواح للشهرزوري نقلاً عن ( جهار مقالة ) وترجمتها : ودخل — أي عمر — على السلطان سنجر وهو صبي وقد أصابهُ جدري ، فلما خرج سأله الوزير كيف داويته وبأي شيء عالجته فقال عمر : بالصبي مسّ ، فسعى بذلك خادم حبشي الى السلطان . فلما شفي السلطان أبغضهُ

ونحن نستطيع ان نجني من هذا النص الاخير ان عمر دخل على الصبي سنجر بن ملك شاه لما كان وليًّا للعهد ، وكذلك تؤيد هذه الوثيقة الرأي القائل بان الخيام درس الطب وحذقه حتى استدعاه السلطان ليطبب ولي العهد

( جـ ) التاريخ الألفي[1] ذكر الخيام في التاريخ الألفي ، وهو مصدر وضع بعد القرن الرابع عشر . في سفر سجل الحوادث التاريخيـة في الالف عام الاولى للهجرة للحياة الاسلامية فهو يتناول سرد الاحداث الى القرن السادس عشر للميلاد

وهو مختصر نزهة الارواح للشهرزوري ، وقد جاء فيه ما خلاصته : الحـكيم عمر الخيـام هو واحد علماء خراسان وهو في الفلسفة صنو ابن سينا

(١) التاريخ الالفي لمؤلفه أحمد بن نصر الله تتوى

ونستطيع ان نعلم من مراجعة تاريخ الشهرزوري[1] ان عمر قد ولد في مدينة نيسابور وان اسرته نيسابورية الأصل والمنشأ ، ولكن البعض يزعم انه ولد في قرية شمشاد التابعة لمدينة بلخ ، وبعضهم يقول بأنه مولود في قرية ( بسنك ) التابعة لاستراباد . على ان الذي يؤكده الشهرزوري هو ان عمر مولود في نيسابور[2] . وكان ضنيناً في التأليف والنشر فلم يخرج كتباً كثيرة وله فيها ( ميزان الحِكَمْ ) في ماهية الأحجار الكريمة و ( لوازم الأمكنة ) في فصول السنة . ويستدل من تآليفه على انهُ كان يؤمن بتناسخ الأرواح فروى انه في مدينة نيسابور مدرسة قديمة أخذ في اصلاح بنائها ، وبينما كانت الحمير تحمل مواد البناء الى المدرسة ، كان الاستاذ عمر الخيام يتمشى في فناء المدرسة مع جماعة من تلاميذه ، فبصر بحمار يحجم عن الدخول في استحياء ، فابتسم الخيام واستبق الحمار وأسرَّ في أذنه الرباعية الآتية

أي رفته وباز آمده بل هم كشته
نامت زميـــان نامها كم كشته
ناخن همه جمع آمده وسم كشته
ديش ازبس كون در آمده دم كشته

يعني : يأيها الذي غاب ورجع مرة أخرى من الأنعام ، ذهب اسمك بين الاسماء وقد تبدلت أظافرك وصارت ظِلْفاً ثم بدت لحيتك في عجزك ذيلاً

فدخل الحمار المدرسة في غير تردد ، فسأل التلاميذ استاذهم ما شأن هذا الحمار ؟ فقال لهم ان الروح التي علقت بهذا الحمار كانت لاستاذ في هذه المدرسة ، لهذا تردد الحمار في الدخول استحياءً من الرفاق ، فلما علم ان الاصدقاء قد عرفوه دخل وقضي الأمر

فان تعجب فعجبٌ كيف أخذ بعض المستشرقين هذه الرواية اخذاً صحيحاً فنقلها ذوكوفسكي عن التاريخ الالفي وأكد بها ان خياماً كان يؤمن بتناسخ الارواح ، ثم نقلها غيره أمثال رُس وأكد بها في أبحاثه بأن الخيام كان مؤمناً بالتناسخ ، مع ان هذه الرواية في وضعها تعارض ما ذكر عن الخيام من حكمة وفلسفة ، فهي في تأليفها خرافة أو فكاهة مدسوس بها على فيلسوف مفكر له نقاد ومعارضون فما كان لرجل مثل الخيام له وقاره ومركزه العلمي والفلسفي[3] ان يسر الى حمار شيئاً في أذنه يحول الحمار عن قصده ،

(١) راجع وثيقة الشهرزوري التي أوردناها في وثائق القسم الثاني

(٢) نيسابور مدينة فارسية فتحها المسلمون أيام عثمان وفي رواية أيام عمر ثم استردها عثمان وهي مشهورة بأهل العلم كالامام الموفق إستاذ عمر الخيام — ياقوت

(٣) لقب الخيام في عصره بألقاب علمية ، فسماه السمرقندي « حجة الحق » والبيهقي « الامام » والنسوي « سيد الحكماء » ولقب في عصره بالفيلسوف — جامع البدائع

والرباعية في شكلها سخرية ليس لها من مثيل في تأليفها وموضوعها في جميع الرباعيات حتى المنسوب منها الى الخيام . ولم يذكر في أي مصدر من المصادر التي ذكرت الخيام انهُ كان استاذاً في مدرسة نيسابور ، مع ان هذه الرواية تدل على انه كان استاذاً في هذه المدرسة

ولهذا ليست لهذه الوثيقة أي قيمة تاريخية من ناحية الحكم على عقيدة الخيام وإنْ أخذ بها بعض المستشرقين أمثال زوكوفسكي ورُس وغيرها

وسنترك مناقشة عقيدة الخيام في التناسخ لمكان آخر من هذا البحث

هذه هي الوثائق التي استطعنا الى الآن أن نصل اليها وهي حجج قاطعة ترد دعوى الدكتور ملر بأن الخيام خرافة

وهناك وثيقة أخرى جاءَ بها الشيخ مير خند جواندمير صاحب كتاب روضة الصفا وهو من علماء القرن الثامن للهجرة سجل فيها وصية نظام الملك ، ولقد سلخناها من وثائق القسم الثاني لقيام شك المستشرقين فيها ، ولأن السير رُس قطع بعدم صحتها . واليك نص هذه الوصية عن الفارسية :

## وصية نظام الملك

نقل الشيخ ميرخند هذه الوصية في كتابه روضة الصفا (ج ٤ ص ٦١) وهو من علماء القرن الثامن للهجرة ، ولقد أخذ بعض العلماء هـذه الوصية وثيقة صادرة من نظام الملك نفسه كما رفض البعض الآخر الوقائع التي وردت فيها . واليك ترجمتها :

« قال الاستاذ نظام الملك أسبغ الله عليه فيض رحمته ، كان الشيخ مُوَفَّق النيسابوري رحمه الله رحمة واسعة من أعظم رجال خراسان علماً وحكمة ، وكان رجل وقار وبركة ، ناهز من العمر الخامسة والثمانين ، وذاع صيته وآمن الناس بأن من قرأ عليه القرآن والحديث نال مرتبة عالية وشرفاً رفيعاً ، ولهذا بعثني اليهِ أبي مع الاستاذ الفقيه عبد الصمد ، فخرجنا من طوس وسعينا الى مجلسه في نيسابور أطلب العلم وأجِدُّ في التحصيل من فيضه الموفور

ولقد شملتني عناية أستاذي واحتوتني رعايته ، فوقع من قلبي موقعاً . ونال مني محبة واحتراماً ، ولبثت على هذه الحال أربع سنين

وحدث أن رأيت عند مقدمي اليه طالبين يبلغان من العمر ما بلغت ، قد وصلا اليه ولما يمض عليهما غير يسير ، وهما الحكيم عمر الخيام ، والملعون حسن بن الصباح ، وكان لهما حظٌّ من الذكاء وفير ، وما لبثنا حتى كانت بيننا مودة ربطتنا برباط قوي متين فاذا انتهينا من حلقة إمامنا سعيا إليَّ نستذكر دروسنا كل يوم

وكان عمر نيسابوري المولد ، وأما حسن بن الصباح فكان أبوه من الري ، وكان رجلاً صعب المراس ساء مذهبه وخبث مشربه وفسد معتقده ، نشأ حسن في الري في زمن وليه أبو مسلم المروزي ، رجل الفضل والعقيدة ومكارم الاخلاق ، بينما كان حسن ملحداً خارجاً على الجماعة وأهل السنة مكثراً من اظهار مفاسدهم ، ولكنهُ كان اذا حضر مجلس الوالي أبي مسلم اصطنع الورع والتقوى ، ودفع عن نفسه الريب والشكوك ، واتخذ من تلمذته على الامام موفق النيسابوري، وهو امام أهل السنة والجماعة في نيسابور، دافعاً للشبهات مُتاقاةً وتدليساً . فلازم دروس الامام متخذاً الزهد والعزلة دليلاً على صدق طويته وسلامة معتقده، ولكن حاله كانت مترددة فرويت عنه دعوة الإلحاد وشاع مروقه بين الكافة ، وكان يدعي انهُ عربي المنتسب حميري القبيلة من آل صباح ، وان والده من الكوفة نزل الى ( قم ) ثم انحدر الى ( الري ) ولكن ذلك ما كان ليأخذه أهل خراسان بل أنكروه على حسن ، وكذّبهُ أهل طوس ، وذكروا ان أباه كان قرويًا صُعلوكاً من أهالي خراسان

ولقد جاءني حسن ذات يوم واستبق القول فقال : نحن تلاميذ الامام موفق النيسابوري، فلابد لنا من نوال حظوظ مسعودة ، فان لم ننلها جميعاً فلا بدَّ من واحد منا نائلها . فمن هذا السعيد الذي سيحظى بفيض الامام وتوفيقه ، فأي عهد نستوثقه بيننا حتى يرعى صاحب الحظ أخويه ؟ فقلنا ليكن ما تريد . فقال فليكن بيننا الميثاق على ان من ينال رفعة وحظًا أشرك أخويه فيما أتاه من الدنيا . فقلنا : فليكن هذا الذي تقول والله على ميثاقنا شهيد . ومضت السنون ودارت الايام دورتها ، وتنقل بي السفر من خراسان الى ما وراء جيجون ، ثم استقرَّ بي المقام في غزنة وكابل ، ولبثت فيهما ردحاً من الزمن ثم عاد بي النوى الى بلدي وأهلي ، فوكل إليّ السلطان الب أرسلان عملاً مسئولاً وقلدني وظيفة خطيرة . ثم استوزرني على رعيته ، فجاءني عمر الخيام فأكرمت وفادته ، وذكرت ما تعهدنا بهِ من حسن الوفاء . وعرضت عليه ان من كان على علمه وفضله وجب أن يلازم مجالس السلطان . وقلت لهُ سأذكر فضلك عند ربي ، فهيء لك مكانة في نفسهِ لتقع منها موقعاً . فتصبح من نفسه كشخصي حظوة ومكانة . فقال الحكيم الخيام : لقد دعاك منبتك الطيب ودفعتك نفسك الكريمة وألهمك وفاؤك الحسن الى ما عرضت ، وفي الحق لست أنا غير رجل ضعيف متواضع لا يليق لان يكون ما أردت من شرف ، فلست قميناً بتواضع وزير المشارق والمغارب ، وان هذا الالتفات الرحيم الذي آثرتني بهِ ليس بالشيء الكثير ولا الغريب عن خلقك الكريم وشأنك الخطير ، فلتكن أياديكم باقية عليّ أبد الدهر واني لو قضيت العمر

شاكراً لكم لما أجزيت الوفاء حظه ، فلأكن يا مولاي موضع الخضوع لمقامكم ولست بقادر أن أرد ما أمرت أو أدفع ما شملتني من عطف فان في الرد كفراً وجحوداً ، على اني لا أبغي من الدنيا إلاّ أن ألبث في دولتكم متصلاً بكم مشتغلاً بنشر العلم والمعرفة داعياً لكم بطول البقاء

ولم يتحوّل عمر عن كلامه ، وأيقنت انهُ مدفوع اليهِ عن ضمير ورغبة ، فعينت له كل عام ١٢٠٠ دينار من بيت المال في نيسابور ينفقها في شؤونه ، ولكن عمر عاد بعد ذلك الى موطنه وعكف على دراسة علومه خصوصاً علم الهيئة الذي بذّ فيهِ الأقران وبلغ منهُ مبلغاً رفيعاً ، ثم عاد الخيام الى (مَرْوْ) وأخذ في تدريس علم الحكمة في عصر ملك شاه ، فقربهُ الملك وأعزه ، وبلغ الخيام في عهده مبلغ كبار العلماء والحكماء »

وذكرت الوصية ذهاب حسن الصباح الى نظام الملك يستوفيه عهده ، وان الوزير ترك له الخيار في ولاية الري واصفهان . ولكن حسن لم يكن ليقنع بهذا الذي عرض عليهِ فأحسَّ بهذا نظام الملك، فقدمهُ للسلطان حاجباً له ، وظل في مركزه يرقب الفرص ويتحينها . وأبى إلاّ أن يكون خوّاناً غدّاراً فراح يعبث في البلاط سعاية ووشاية ، فسعى بالوزير لدى السلطان ثم افتضح أمره فشقَّ عصا الطاعة وخرج غاضباً موتوراً معلناً الثورة العامة

## مجمل رأي الذين يرفضون وثيقة نظام الملك

تشكك غير واحد من المستشرقين في الوقائع التي نطقت بها هذه الوثيقة ، وجاؤوا تأييداً لشكهم بأسباب اعتمدوا عليها في تقرير عدم صحتها ونِسْبتها الى الوزير نظام الملك ، ومن هؤلاء العلماء السير رُس والمستشرق هوتزما

ولقد توسلوا الى عدم صحة هذه الوثيقة بالتشكيك في اجتماع الرفاق الثلاثة عمر ونظام الملك وحسن الصباح في مدرسة واحدة لاستحالة تقارب أعمارهم ، وقد أيّدوا ذلك بأدلة أوردوها ، وبهذا تمكنوا من ايجاد برهان على ان هذه الوصية لم تصدر من نظام الملك

وفي هذا يقول السير رُس :

« أخذ بهذه الوصية جميع الذين درسوا عمر ، وقبلها العصريون على أنها شيئاً تاريخيًّا لا يتطاول اليه الشك ، على الرغم مما تحوي من تناقض تاريخي ملحوظ

على اننا نستطيع أن نبحث عن التاريخ الأدبي لهذه الوصية،فنجد انها ذكرت لاول مرة في كتاب المؤرخ الفارسي الشيخ مير خند ، فلما اراد المتقدمون من الباحثين ان يبحثوا في صدق هذه الرواية ومبلغها من الحق التاريخي وجدوا انها دُوّنت تدويناً معقداً في القرن

الخامس عشر للميلاد ، أي بعد عصر الخيام بنحو الف سنة ، وانها لم تكتب في المراجع التي ذكرت الخيام في السنوات التالية لعصره ، وانها منسوبة الى الوزير نظام الملك وبدأ المتادبون يميلون الى رفض حكاية الرفاق الثلاثة التي سجلتها وصية نظام الملك ، ونظروا اليها نظرهم الى رواية مشكوك في وقائعها ، فقال المستشرق هوتزما أن واضع هذه الوصية قد خلط بين نظام الملك وبين وزير آخر من عظماء الفرس وهو أنو شروان بن خالد ، فلقد ذكر أنو شروان عن نفسه انهُ هو الآخر كان في المدرسة مع حسن الصباح، ولكن هذا الرأي قد ناله فتور، وأصابه اعراض، لما أخذ المستشرق برَون بوصايا نظام الملك وأكّد صحتها، ولقد سارت مسير الحقائق التاريخية في القرن الرابع عشر للميلاد ، والرأي عندي هو ما رآه هوتزما ، فقد يحتمل أن تكون الخرافة قد بدأت كما تبدأ الخرافات دائماً بالخلط بين الاشخاص ، فقد يكون أحد الاشخاص أو الرواة، قد خلط لأمرٍ ما، بين الوزيرين نظام الملك وانوشروان، ونسب ما قرره انوشروان عن اجتماعه هو وحسن الصباح في مدرسة واحدة الى نظام الملك، وتناسى الناس حقيقة الأمر وذكروا الواقعة منسوبة الى نظام الملك

على أني اميل الى رفض قصة الرفاق الثلاثة لسببين : الاول ان المؤرخين المتقدمون والذين اتصل عصرهم بعصر الخيام أو قرب منه لم يذكروا وصية نظام الملك ولم يشيروا اليها ، الثاني ان ليس من المعقول تعمير الخيام وحسن الصباح معاً هذا الاجل الطويل، فجميع المراجع أجمعت على أن مولد نظام الملك كان في سنة ١٠١٧ م اذ انه مفروض ان الخيام وحسن الصباح كانا قرنين لنظام الملك فتكون سنة مولدهما على وجه التقريب هي نفسها هذه السنة أي سنة ١٠١٧م، وقد ذكر ان عمر الخيام مات سنة ١١٢٣م على حين مات حسن الصباح سنة ١١٢٤ م أي انهما عمّرا نحو مائة سنة وست ثم وسبع . فان حدث وطال هذا الأجل لأحدهما فكيف حتمت الاقدار أن يطول الأجل لكليهما !

على انهُ لو ظهر ما يُعيننا على تحديد ميلاد حسن أو عمر في سنة متأخرة اذاً لرجعنا بهذه الوثائق التي تهيء لنا اسباب الحكم على سلامة قصة الرفاق الثلاثة أو على مبلغها من الانتحال. واذا أقمنا الحجة على ان حسن الصباح لم يكن مع نظام الملك في مدرسة واحدة ، كان في هذا الكفاية على نقض الثقة في قصة الرفاق الثلاثة ، وعلى انتحال الوصايا ونسبتها الى الوزير نظام الملك ؛ على انني أرى انه اذا لم يتح لنا إقامة حجتنا هذه على إبطالها وجب علينا اذا أخذنا بها ان نعتمد على شهود رأوا الرفاق الثلاثة في مدرسة واحدة ، فليست المراجع وحدها كافية لان تكون دليلاً على مثل هذه القضايا ولكن الاثبات فيها يكون قويّاً مدعماً اذا ما أكدته البيّنة

ولقد اطلعنا على مذكرات لوزير فارسي مشهور ، وهو انوشروان بن خالد ، الذي سجل على طائفة الاسماعيلية كبائرها وخفاياها ، وذكر لحسن بن الصباح واتباعه جرائم وآثاماً ، وليس من شك في ان هذه المذكرات سجلت أهم الأحداث التاريخية التي عاصرته او التي اتصلت بعصره اتصالاً وثيقاً ، وهي على وجه التحديد الأحداث التي وقعت بين موت الفاتح ارطغرل بن محمود وبين حكم ملك شاه أي بين سنتي ١٠٧٢ م — ١١٣٤ م . ولقد ترجم هذه المذكرات الى العربية المؤرخ الاسلامي عماد الدين الاصفهاني احد خلصاء صلاح الدين ، وذيلها بتضمين لتاريخ السلاجقة ، ثم أعاد نسخ هذا التاريخ البنداري في القرن الثالث عشر للميلاد

هذا هو التاريخ الأدبي الذي نشره هوتزما سنة ١٨٨٩ ، وإنك لتجد في صفحة ٦٦ من النسخة العربية المذكورة بيانات طريفة سجلها انوشروان بنفسه عن قيام مذهب الاسماعيلية [١]

وليست قيمة هذه البيانات في انها تقرير من وزير عاصر حسن الصباح وزامله في المدرسة ، ولكنها تضم الى هذه القيمة تصويراً واضحاً لحسن الصباح يكشفنا على تعليمه وعلى ناحية من أيام شبابه ، وفي الحق ان الوزير انوشروان لم يذكر اسم حسن الصباح صريحاً ، الا انهُ أراده فعبر عنه بكلمات لا تميز غير شخصية حسن نفسه ، وليس من العسير عليك ان تميز شخصية حسن مما وصف انو شروان ، فهو يقول « لقد وقع امر يدعو الى العجب في سياق الأحداث التي حدثت ، اذ ان أشخاصاً كانوا معنا في المدرسة ونالوا ما أخذنا من حظ وفير في العلم والدين والفقه والآداب ، قد اختلفوا عنا مشرباً ومذهباً ، وكان من بينهم صاحب ( ري ) [٢] الذي تنقل في الأسفار والذي اتخذ النسخ والكتابة حرفة له ، ونفذ أعماله بقدرة ونجاح ، ثم انبرى في ثورة وما زال بها حتى استولى على قلعة حصينة ، ثم ارتكب أعمال الارهاب والتخريب مع أتباعه ، وما زالت مذاهبهم خافية عن الناس حتى افتضح امرهم وشاع [٣].

---

(١) وصف الوزير انو شروان الفظائع التي ارتكبها حسن الصباح وأتباعه ، والجرائم التي نهض عليها نظام مذهب الاسماعيلية الارهابي ، وكيف قام حكم الارهاب الذي أخذوا به أهالي البلاد والملوك . وقرر انو شروان أن أول رجل عظيم ذهب ضحيتهم هو الوزير نظام الملك حيث قتل سنة ١٠٩٢ م بعد موت ملك شاه بشهر واحد ( برون ط هوتزما ص ٦٧ ) ورس ط ١٩٠٢ ص ٣٣ لندن

(٢) جاء بكتاب جامع التواريخ ان حسن الصباح ذهب من الري الى نظام الملك ليحظى بخدمته وذكر الوزير بوعده فقال له نظام الملك « لك الخيار بين ولاية الري واصفهان » فلم يقنع حسن بذلك ولم يرض به اذ كان يتوقع أن يشاركه الوزارة . فقال له نظام الملك فلتلزم خدمة السلطان

(٣) البنداري ط هوتزما ص ٦٧، ورس ط لندن سنة ١٩٠٢ ص ٣٢

# باب المراسلة والمناظرة

## تحقيق سن عائشة

لأحمد محمد شاكر

يقول صاحب كتاب « الصديقة بنت الصديق »[1]:

« كانت روايات من أقوال الاقدمين تذكر ان النبي عليه السلام خطب السيدة عائشة وهي في السادسة وبنى بها وهي في التاسعة . وكان هذا مجالا لاعداء الاسلام وأعداء نبي الاسلام يبدئون فيه ويعيدون ، ويجدون المستمعين والمتشككين حتى بين المسلمين . فهنا مجال لاطالة الوقوف يعبره أمثال هذا الناقد الحاقد مهرولين ويجهلون ما وراءه من الزور الاثيم والبهتان المبين . وهنا وقفنا لنثبت بالعقل والنقل أن محمداً عليه السلام لم يبن بالسيدة عائشة إلا وهي في السن الصالحة للزواج بين بنات الجزيرة العربية ، فأثبتناه على رغم الاقاويل والسنين » ( الرسالة ٥٥١ في ٢٤ يناير سنة ١٩٤٤ )

وهذه الروايات التي تجهل ما وراءها « من الزور الاثيم والبهتان المبين » (!) هي الروايات الصحيحة التي لا شك في صحة إسنادها والثقة برواتها عن سنّ عائشة حين زواج رسول الله بها ، وأنه عقد عليها وسنّها ستّ سنوات ، وبنى بها وسنها تسع سنوات ، وهي الاحاديث التي رواها البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والدارمي وأحمد بن حنبل وابن سعد كلهم من حديث عائشة بالاسانيد الثابتة الصحاح ، وبالالفاظ الواضحة التي لا تحتمل تأويل المتأولين . ولا لعب العابثين ، والتي رواها ابن ماجه من حديث عبدالله بن مسعود وابن سعد من حديث أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود ومصعب بن سعد بن أبي وقاص وابن شهاب الزهريّ وحبيب مولى عروة بن الزبير . كل هؤلاء الأئمة الثقات الأثبات الذين يروونَ ويصدقون ما يروون ، هم عنده مثلنا « ما يجهلون ، وراءه من الزور الأثيم والبهتان المبين » ويدركه هو وحده بما أوتي من جرأة وتهجم ، وبما فقدَ من بحث وتحقيق ، فهو يثبت وينفي « على رغم الأقاويل والسنين » فهو يلعب بالروايات ويحرّفها كيف شاء ثم

(١) انظر نقد بشر فارس لهذا الكتاب في المقتطف ، فبراير ١٩٤٤ ، باب « التعريف والتنقيب »

يقول : « ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت اليهِ » ( كتاب الصديقة ص ٦٥ ) ثم ينسى ما اجترحت يداه فيقول ( ص ٧٨ ) :

« فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي بكراً غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين »

« فههنا انفلات من ذلك الجزم » كما قال الدكتور بشر فارس في نقده ص ١٩٣

وهو يبني تحقيقه هذا العجيب على مقدماتٍ اخترعَ بعضها اختراعاً ، وحرَّف بعضها تحريفاً منكراً ، بالتحوير أو التأويل ، ثم يسوق ذلك كله مساق الحقائق التاريخية الثابتة ، شأن الرواة الثقات . ثم لا يذكر شيئاً من الحقائق التي تخالف هواه . فهو يقول :

« وتختلف الاقوال في سن السيدة عائشة يوم زفت الى النبي عليه السلام في السنة الثانية من الهجرة ، فيحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات » ( الصديقة ص ٦٤ )

أما زعمه أن بعضهم يرفعها فوق ذلك بضع سنوات فانه قول مبتكر ، لم يقله أحد من العلماء ، ولم يرد في رواية من الروايات ، وإنما يريد أن يتزيد بهِ ويصل الى بغيتهِ .

وأما جزمه بأن الزفاف كان في السنة الثانية من الهجرة ، فانهُ اعتمد فيه — فيما أرى — على قول الحافظ النوويّ في تهذيب الاسماء ( ج ٢ ص ٣٥١ ) : « وبنى بها بعد الهجرة بالمدينة بعد منصرفه من بدر في شوال سنة اثنتين بنت تسع سنين ، وقيل بنى بها بعد الهجرة بسبعة أشهر وهو ضعيف ، وقد أوضحتُ ضعفه في أول شرح صحيح البخاري » هكذا يقول النووي ولكنهُ نسي ، فانهُ لم يوضح دليل ضعفه في أول شرحه للبخاري عند شرح الحديث الثاني من الصحيح ، في نسختنا المخطوطة عن أصلها العتيق . وهذا الترجيح من النووي في تأريخ الزفاف خطأ صرف . والقول الذي ضَعَّفه بغير دليل هو الصحيح الراجح. قال الحافظ بن حجر في فتح الباري ( ج ٧ ص ١٧٦ من طبعة بولاق ) : « واذا ثبت أنهُ بنى بها في شوال من السنة الاولى من الهجرة قوي قول من قال انهُ دخل بها بعد الهجرة بسبعة أشهر ، وقد وهّاه النووي في تهذيبه ، وليس بواهٍ إذا عددناه من ربيع الأول، وجَزْمُه بأنَّ دخوله بها كان في السنة الثانية يخالف ما ثَبَتَ » . والدليل على خطإِ ما رجحه النووي حديث عائشة نفسها في طبقات ابن سعد ( ج ٨ ص ٣٩ — ٤٠ ): « تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال سنة عشر من النبوة ، قبل الهجرة لثلاث سنين، وأنا ابنة ست سنين، وهاجر رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فقدم المدينة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وأعرس بي في شوال ،على رأس ثمانية أشهر من المهاجَر، وكنتُ يومَ دخل بي ابنة تسع سنين »

فالثابت من قول عائشة نفسها أن رسول الله بنى بها في السنة الاولى من الهجرة ، في شوال بعد مهاجره في ربيع الأول ، بسبعة أشهر على رأس الثامن . وترجيح النووي أن ذلك كان بعد غزوة بدر في السنة الثانية ، ترجيح بغير دليل ، والادلة الثابتة تنفيه

فحكايةُ الكاتب الجريء قولاً مرجوحاً لا دليل عليه ، وإتيانه به في صيغةٍ توهم أنه القولُ الواحدُ الذي لم يروَ غيره ، كأنه قضية مسلمة ، إذ يقول : « وتختلف الأقوال في سن السيدة عائشة يوم زفتْ الى النبي عليه السلامْ في السنة الثانية من الهجرة » . هذا الصنيع منه لن يكون من الأمانة العلمية في شيء

ومن هذا النوع من الأمانة قوله ( ص ٦٤ ) : « فقد جاء في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة » . والذي في ابن سعد ( ج ٨ ص ٤٢ ) : « أخبرنا محمد بن حميد العبدي حدثنا معمر عن الزهري وهشام بن عروة قالا : نكح النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وهي ابنة تسع سنوات أو سبع » . وأنا أوقن أن الكاتب الجريء أعرف باللغة العربية من أن يخفى عليه الفرق بين معنى « نكح » وبين معنى « خطب » وأنهُ لن يغير لفظ إحداهما الى لفظ الأخرى عن جهل بهما ، وإنما يفعل ذلك عن عمد وهو يعرف ما يفعل

ثم ما باله يدع الروايات الصحيحة المتواترة ، ولا يستند الاّ الى الروايات الشاذة أو المنكرة التي تخالف كل رواية صحيحة ؟ . أمامه الروايات الصحيحة في كتاب ابن سعد وغيره عن الزهري وعن هشام بن عروة وعن غيرهما أن رسول الله تزوج عائشة وهي بنت ست سنين ، وفي بعضها « سبع سنين » ودخل بها وهي بنت تسع سنين . فما بال هذه الرواية التي لاشك أن راويها أخطأ فيها أو اختصر فأخطأ من روى عنهُ فهمَ اختصاره . ولكنْ الكاتب الجريء يريد شيئاً معيناً ، فلا عليهِ أن يتخيَّر من الروايات اضعفها ، ولا عليه أن يحرف ألفاظها الى ما يشاء ، لتصل بهِ الى ما يريد ! ثم هو يريد أن يصور للقارىء أن الذي كان في السنة العاشرة من البعثة قبل الهجرة بثلاث سنوات هو خِطبةٌ فقط ، يوهم أنهُ لم يكن هناك زواج ، وإن لم يصرح بنفيه ، فيقول ( ص ٦٣ ) :

« وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات » ويقول ( ص ٦٤ ) : « فتمت الخطبة في شوال سنة عشر من الدعوة قبل الهجرة بثلاث سنوات »

ويحرف رواية ابن سعد من كلمة « نكح » الى كلمة « خطبت » ويقول ( ص ٦٥ ) :

« وان خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة »

ويقول في ( الرسالة ) في الكلمة التي اقتبسناها أول مقالنا هذا :

« كانت روايات من روايات الاقدمين تذكر أن النبي عليه السلام خطب السيدة عائشة وهي في السادسة الخ »

وهو يعرف كما يعرف المسلمون جميعاً، عالمهم وجاهلهم ، ذكيّهم وغبيّهم، أن الخطبة عند المسلمين غير الزواج ، وأنهما غير الزفاف والدخول ! ولكن هكذا يكون الكاتب الجريء

وأعجب من هذا كله ، وأشدّ جرأةً على الحق ، وأشد تهجماً على سيرة رسول الله ، وأسوأ أثراً على الجريء فيما قال وكتب، وفيما يقول أو يكتب، أن يقول ( ص ٦٤ ) :

« فقد جاء في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الاقوال » !

أما القول الذي يصفهُ بأنهُ « أشهر الاقوال » فانه لم يقله أحد قط، ولم يُروَ في كتاب من كتب السنة أو السيرة أو التاريخ ، هذا الى محاولة تصوير هذه الفترة بأنها فترة خطبة لا فترة زواج قبل البناء ، ثم هو يصرّ على ما ادعى اصراراً عجيباً لم يأت عليه ببرهان . فيقول ما نقلنا من قبل : « وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات »

ويقول ( ص ٦٤ — ٦٥ ) :

« إذ لا يعقل أنها — يعني خولة بنت حكيم — تشفق من حالة الوحدة التي دعتها الى اقتراح الزواج على النبي ، وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات أو خمس سنوات أخرى » !

ومن أين يأتي بالخمس السنوات ويدعي أنها أشهر الأقوال ؟ والأقوال كلها متضافرة على أنها ثلاث سنوات والشهور محدودة فيها بينة ؟ يتمسك بالروايات الصحيحة التي فيها أن الزواج كان قبل الهجرة بثلاث سنين ، ثم يجزم بالرواية الضعيفة أن الزفاف كان في السنة الثانية من الهجرة ، ثم لا يجدُ مناصاً من قواعد الحساب أن الثنتين إذا أُضيفتا الى الثلاث كان الجميع خمساً من غير تردد . فقد سَلِمَ له قوله ووصل الى ما أراد . ولكنه نسيَ أو تناسى أن الروايات كلها تذكر أن بين الزواج والزفاف ثلاث سنين فقط ، وأنها حُددت بالشهور من شوال الى شوال ، وأنهم كثيراً ما يذكرون عدد السنين ويجبرون فيها الكسور ، فتقول عائشة ما روينا من قبل : إن رسول الله تزوجها قبل الهجرة بثلاث سنين، وهي تريد سنتين وكسراً إذ حدّدت التاريخ بالشهور : أن الزواج كان في شوال سنة عشر من النبوة ، وأنه قدم المدينة في ١٢ ربيع الأول ، وهي السنة الأولى من الهجرة ، وأنه دخل بها في شوال من السنة نفسها على رأس ثمانية أشهر ، وأنه تزوجها وهي بنت ست سنين ودخل بها وهي بنت تسعٍ . فهذا حسابها صحيحاً من شوال قبل الهجرة بثلاثٍ الى شوال في

سنة الهجرة ، ثلاث سنين كوامل ، لا تحتمل تزيداً ولا تحويراً ، فأين هذا الحق من ذلك الصنيع ؟

ثم يزداد الكاتب الجريء جرأة ، فيذهب يحتال حيلة غريبة في التأوّل ، يفتعلها افتعالاً ، يزعم أنه ينصر رأيه ، ويقيم حجته ، فيقول ( ص ٦٥ ) :

« ويؤيد هذا الترجيح من غير هذا الجانب أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها الى النبي ، وأن خطبة النبي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة . . فاما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لانها بلغت سن الخطبة وهي في قرابة التاسعة أو العاشرة ، وبعيد جداً أن تنعقد الخطبة (١) على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الاسرتين . وإما أن تكون قد وعدت لخطيبها وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحياناً بين الاسر المتآلفة ، وحينئذ يكون أبو بكر مسلماً عند ذلك ، ويستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الاسرتان على الاسلام . فاذا كان أبو بكر رضي الله عنه قد وعد بها ذلك الوعد قبل اسلامه ، فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام »

هكذا ينقل الكاتب الجريء ويتأول . واحفظوا عليه قبل كل شيء إصراره على أن الذي كان في السنة العاشرة للدعوة خِطبة لا زواج ، وإن لم ينفِ الزواجَ صراحةً ولكنهُ يوقعهُ في نفسِ القارىء ويقنعه به إقناعاً من لحن القول « يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه السلام »

والقصة التي يشير اليها ويحاول أن يصبغها بصبغة رأيه ، هي قصة مطولة في زواج النبي صلى الله عليهِ وسلم بسودة بنت زَمْعةَ وبعائشة رضي الله عنهما . رواها أحمد بن حنبل في مسنده ( ج ٦ ص ٢١٠ — ٢١١ ) ونقلها عنهُ الحافظ ابن كثير في تاريخه ( البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣١ — ١٣٣ ) وأشار الى رواية مثلها عند البيهقي مؤيدة لاسنادها . وهذا الحديث فيه قصة وَعْدِ أبي بكر بابنته المطعم بن عدي على ابنه جبير ، وخطبة النبي إياها وزواجهُ بها ، ثم زفافها اليهِ بعد قدومهم المدينة . وهذا موضع الشاهد منهُ : « قالت أم رُومان — زوج أبي بكر لخولة بنت حكيم التي كان لها فضل السعي في هذا الزواج — : إنَّ مطعم ابن عديّ قد ذكرها على ابنه ، ووالله ما وعدَ أبو بكر وعداً قط فأخلفه ، فدخل أبو بكر على مطعم بن عديّ وعنده امرأته أم الصبي . فقالت : يا ابن أبي قحافة لعلك مصْبي صاحبنا تدخلهُ في دينك الذي أنت عليه إن تزوج اليك ؟ فقال أبو بكر المطعم بن عديّ : أقَوْلَ هذه تقول ؟ قال : إنها تقول ذلك . فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عِدَته

( ١ ) المعروف في شرعة المسلمين أن الخطبة ليست عقداً ؛ ولكن الكاتب الجريء يريد شيئاً قد كشفنا عنه

التي وعده. فرجع فقال لخولة : ادعي لي رسول الله، فدعته فزوّجها اياه ، وعائشة يومئذٍ بنت ست سنين ..... قالت عائشة فقدمنا المدينة فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج في السنح . قالت : فجاء رسول الله فدخل بيتنا ، واجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءَتني أمي وإني لفي أرجوحة بين عِذْقين ترجح بي ، فأنزلتني من الأرجوحة ، ولي جُميمة ففرقتها ومسحتْ وجهي بشيءٍ من ماء ، ثم أقبلت تقودني حتى وقفتْ بي عند الباب وإني لأنهج ، حتى سكن من نفسي ، ثم دخلت بي ، فاذا رسول الله جالس على سرير في بيتنا وعنده رجال ونساء من الانصار ، فأجلستني في حجره ، ثم قالت : هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهم وبارك لهم فيك . فوثب الرجال والنساء فخرجوا ، وبنى بي رسول الله في بيتنا ، ما نُحرتْ عليَّ جزور ، ولا ذبحت عليَّ شاة ... وأنا يومئذٍ بنت تسع سنين »

هذه هي القصة التي يحاورها الكاتب الجريء ويداورها . ويلعب بها ويعبث ، يستنبط منها . وما رأينا فيما قرأنا أشد جرأة على الحق ، ولا إيغالاً في الباطل ، ولا لعباً بالألفاظ والمعاني، ولا تحريفاً للكلم عن مواضعه ، مما صنع هذا الرجل

حديث صريح اللفظ ، بيّن المعنى ، يَقسِره هذا الكاتب الجريء على أن يدلّ على ضدّ لفظه الصريح ومعناه الواضح ، فلا يأتي بالحديث على وجهه ، بل يصرّفهُ على لفظ من عنده ، يُخدَع به القارئون ، فلا يدركون ما وراءَهُ . ثم يبني استنباطه على غير علم بعادات العرب ، وعلى غير معرفةٍ بأحكام الشرع . فهو يقول ما حكينا من قوله ، ويصرّ عليهِ إصراراً منكراً فيما قرأنا له الآن ( في العدد ٥٥٩) من الرسالة المؤرخ يوم الاثنين ٢٠ مارس إذ يقول :

« وبحسبنا أن نعلم أن عائشة خطبت قبل خطبتها للنبي ، وأن الذي خطبت له كان من المشركين ، بحسبنا أن نعلم هذا لنعلم أنها خطبت قبل الدعوة الاسلامية وأن أبا بكر لن يزوج بنته بعد الدعوة الاسلامية لرجل يكفر بدينه، وهو البرهان الراجح على أنها حين خطبت لمحمد عليه السلام وبنى بها بعد الخطبة بسنوات قد كانت في سن صالحة للزواج »

وليحفظ عليه القارىء أيضاً أنهُ فعل هنا ما فعل من قبل ، فلم يأت بذكر لعقد الزواج بين رسول الله وبين عائشة ، بل ساق القول من الخطبة الى البناء ، كما نبهنا عليهِ آنفاً ، إذ هو لا يريد أن يعترف بعقد عُقْدَةِ النكاح في السنّ المبكرة . ثم نعود الى ما نحن بسبيلهِ :

بنى هذا الكاتب الجريء كلّ دعواه في هذا الحديث ، وكلّ استنباطه منهُ على شيء واحد ، يستبعده جدّاً في كتابهِ ( ص ٢٦٥) وينفيه نفياً باتّاً في مقاله (الرسالة ٥٥٩) وهو

أن أبا بكر « لن يزوج بنته بعد الدعوة الاسلامية لرجل يكفر بدينه ». وهو يخطىء في هذا جداً ، فان لفظ الحديث الذي سقناه يدل على أن أبا بكر كان عند وعده للمطعم بن عدي إن استمسك به المطعم ، وأنهُ ذهب اليه لعلهُ يجد من وعده مخرجاً، ففجأته أمُّ الصبي بخشيتها أن يؤثر على ابنها إن هو تزوج عائشة فيدخلهُ في دينهِ الذي هو عليه، وهو الاسلام . فلم يجد أبو بكر من اختلاف الدين أو تخوّف أمّ الصبيّ مخرجاً من عدته، فسأل الرجل، وهو وليُّ ابنه الصبي في التزويج، ليرى أيقرُّ زوجه على قولها ، فلما وافقها الرجل وجدَ أبو بكر المخرج من وعده « فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته التي وعد » . وإنما أوقع الكاتب الجريء في هذا الخطأ وأوهمهُ ، معرفته أنَّ زواج المسلمة بغير المسلم زواج باطل لا ينعقد ، وأن المسلم إذا ارتد عن الاسلام فسخ عقد زواجه بزوجه المسلمة ، وأنَّ غير المسلمة إذا أسلمت وكانت ذات زوج عُرض على زوجها الاسلامُ ، فان أبى أن يسلم فُرّق بينهما . وهذه أحكام يعرفها العامة والخاصة، فبنى عليها أنهُ « بعيد جداً أن تنعقد الخطبة مع افتراق الدين » وأنه « يستبعد جداً أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الاسرتان على الاسلام » وأنها « خطبت قبل الدعوة الاسلامية ، وأن أبا بكر لن يزوج بنته بعد الدعوة الاسلامية لرجل يكفر بدينه » . ولكنهُ لم يعلم أول هذا التحريم لزواج غير المسلم بالمسلمة ، ولم يدرك مبدأ أمره ، أكان في أول الاسلام حتى يطبق في هذه الواقعة في وقتها ، ام هو تشريع تأخر عنها ، فلا يطبق عليها ، ولا يستدل بهِ فيها

ألا فليعلم الكاتب الجريء أن زواج المسلمة بالمشرك كان جائزاً وواقعاً في أول الاسلام ، على عادة القبائل والاسر من التزاوج والمصاهرة ، وأنهُ لم يحرمه الله تعالى الاّ بعد صلح الحديبية ، في أواخر السنة السادسة من الهجرة ، لما نزل قوله تعالى في سورة الممتحنة (لا هنَّ حلٌّ لهم ولا هم يحلُّون لهنَّ) . قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (ج ٨ ص ٣٢٣ طبعة المنار) : « هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الاسلام أن يتزوج المشركُ المؤمنةَ ، ولهذا كان أبو العاص بن الربيع زوج ابنةِ النبي صلى الله عليه وسلم زينب رضي الله عنها ، وقد كانت مسلمة وهو على دين قومه ، فلما وقع في الأسارى يوم بدر بعثت امرأتهُ زينب في فدائه بقلادة لها .... فأطلقهُ رسول الله على أن يبعث اليه ابنته ، فوفى له بذلك ... وبعثها مع زيد بن حارثة ، فأقامت بالمدينة من بعد وقعة بدر ، وكانت سنة اثنتين ، الى أن أسلم زوجها أبو العاص بن الربيع سنة ثمان فردها عليهِ » . وليس بعد هذا البيان بيان . وما إخال أن للكاتب الجريء حيلة في أن يجادل

فيهِ ، وهو ينقض كل ما بنى عليهِ استنباطهُ أو تحريفهُ

وليعلم الـكاتب الجريء أيضاً أن كل ما ينسب الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم من « قول أو فعل او تقرير » هو عند المسلمين من « الحديث » وأنهُ لا يجوز لأحد أن ينسب الى الرسول شيئاً من هذا إلاّ عن ثقة وثبت ، وباسناد صحيح ، على النحو الذي قام به أئمة الحديث ووضعوا له القواعد والقيود ، في فن واسع المدى ، لعلهُ قد سمع بهِ ، وأنهُ لا يعذر أحد في التحدث عن رسول الله بغير ثبت ، لقولهِ عليهِ السلام : « من حدَّث عني بحديث يُرى أنهُ كذب فهو أحد الكاذبين » وأن العمد الى التحدث عنهُ بما ليس بصحيح من أعظم الآثام ، لقولهِ صلى الله عليهِ وسلم : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . فليعد نظراً إلى ما قدمت يداه في هذه المسئلة بعينها ، يجِدْ أنهُ أنكر الصحيحَ الثابت الذي لا خلاف فيهِ عند المحدثين وغيرهم ، أن رسول الله تزوج عائشة قبل الهجرة وهي في السادسة أو السابعة من عمرها ودخل بها في المدينة بعد ثلاث سنين من الزواج ، وأنهُ لكي يصل الى تأييد إنكاره ، وتأييد دعواه أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت الى النبي ، اضطرَّ الى تحريف ألفاظ الأحاديث ، والى تحريف معناها ، والى سوق الـكلام من الخطبة الى الزفاف ، خشية أن يذكر عقد الزواج قبل الهجرة فيكون حجة على نفي ما أراد إثباته وإثبات ما أراد نفيه ، حتى لقد كاد يزلُّ بهِ قلمهُ إذ يقول :

« وجرت الخطبة بعد ذلك في مجراها الذي انتهى بالزواج بعد سنوات » ( كتاب الصديقة ص ٦٣ )

فانهُ يوهم القارئَ ، وإن لم يصرح الكاتب ، أن الذي كان في مكة قبل الهجرة لم يكن فيهِ زواج ، وأنه انتهى بالزواج بعد سنوات ، يعني في المدينة . ولـكنهُ لم يستطع أن يكون جريئاً كما يريد ، فخشي أن يدعي أن هناك زواجاً كان بالمدينـة ، لئلاَّ يكشف للناس عن فساد قوله ، ووهْـي أدلته . وإن هو أنكر علينا هذا فليقل لنا كلمة صريحة : متى تزوج رسول الله عائشة ، أعني العقد لا الخطبة أكان ذلك قبل الهجرة حين خطبها على أبيهـا ، أو كان بعد الهجرة حين بنى بهـا ؟ ويَجدْ أنهُ حرَّف عن عمدٍ كلمة « النكاح » التي هي الزواج الى كلمة « الخطبـة » . وأنهُ جاء الى أبيَـن حديثٍ وأصرحه في الدلالة على سن عائشة ، وهو القصة التي فيها سعيُ خولة بنت حكيم ، فحرَّفه بالتأويل المنكر ، ليستدلّ بهِ على ضدّ ما يدلُّ عليهِ لفظهُ الصريح ، أنها تزوجت بنت ست سنين وزفت بنت تسعٍ ، وأن أمها أخذتها يومَ الزفاف من أرجوحة كانت تلعب بها بين النخيل . ويَجِـدْ أنهُ ادّعى أن هناك من يرفع سن عائشة فوق التسع بضع سنوات ، ولم يقل ذلك أحد . وأنهُ ادَّعى أن

الزفاف لم يتمَّ إلاّ بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال ، ولم يوجد قط قول بهذا ، فضلاً عن أن يكون أشهر الأقوال . ويَجِدْ أنه كان يجهل حكم الزواج بين المسلمة والمشرك في صدر الاسلام ، وأنهُ تحدث فيهِ بغير علم. ويَجِدْ أنهُ فوق هذا كله جمح بهِ قلمهُ ، فوصف هذه السنن الصحاح بأنها « من الزور الاثم والبهتان المبين » حين زعم أننا نجهل ما وراء روايات الأقدمين . وليت شعري بمَ يصف عمله في التحريف والتحوير والقول على رسول الله بما لم يأت عليهِ ببرهان ، ونخر بأنهُ أثبتهُ « على رغم الاقاويل والسنين » ؟

ثم ليعلم أيضاً أن السنة النبوية « من قول وعمل وتقرير » مصدرٌ عظيم للتشريع الاسلامي ، وهي المصدر الثاني بعد القرآن ، وهيَ المفسرة لهُ المبينة ، كما قال الله لنبيهِ : ( لتبين للناس ما نزّل اليهم ) وأن هـذه الأحاديث التي أنكرها بتحريفه وتأويله ، وأثبت ضدَّ ما ثبت فيها « على رغم الاقاويل والسنين » فيها دلالة على أحكام شرعية خطيرة الأثر ، منها جواز تزويج الصغيرة للكبير ، ومنها أن الصغيرة يلي أمر تزويجها وليّها إذ هي لا تملك أمر نفسها ، ومنها أن البناء بالصغيرة جائز حلال ، الى غير ذلك من الأحكام ، وأن إنكاره ما فيها إنكارٌ لكل ما يستنبط منها بالطريق العلمي في الاستنباط ، ونسبة شيء الى رسول الله لم يثبت بالطريق الصحيح للاثبات ، بل ثبت ضده ونقيضه . فان لم يدرك هـذا كلهُ فقد أبلغناه ، وما علينا من وزره من شيء

•

وبعد : فما الذي دفع به الى هذه المضايق ، وأورده هذه الموارد وأقحمه ؟ يظن أنهُ يسوّغ عمله إذ يقول : « ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفي ما تقوّله المستشرقون على النبي بصدد زواج عائشة في سن الطفولة الباكرة » ( كتاب الصديقة ص ٦٦ ) ويقول : « وإنما عنانا أن نبطل قول القادحين في النبي أنه عليه السلام بنى ببنت صغيرة لا تصلح للزواج ، وقد أبطلنا ذلك بالادلة التي لا نكررها هنا » ( الرسالة في العدد ٥٥٩ ) . هذا عذره الظاهر لنا من كلامه . وليس لنا أن نخوض فيما وراءه

ولكن أهذا هكذا ؟ قال مستشرق ، أو طعن مبشر ، أو قدح ملحد ، فقال أحدهم ما شاء من قدح في عمل بعينه ، أفترى أنت هذا العمل معيباً يجب التبرؤ منه ، أم تراه جائزاً لا شيء فيه ولا غبار على من يعمله ، وأن العائب إنما ينظر اليه من ناحية غير صحيحة ، وبعين مغرضة ليست بريئة ؟ أفلا ترى أنك إذا نفيتَ هذا العمل وأنكرته فقد رأيته معيباً كما رأى العائب ، وقادحاً كما فعل القادح ، فما حاجتك الى التستر وراءه ، وماذا يمنعك أن تصرح بأن هذا العمل غير جائز ، وأنك توافق في استنكاره من سبقك من المستشرقين ؟

هذا هو الطريق المنطقي للبحث العلمي، العالمُ لا يدافع عن نظرية علمية ولا ينصرها الاّ اذا رآها رأيهُ والتزمها قوله . ثم ألم يكن الأجدرُ بالكاتب الجريء أن يصنع ما يصنع الرجالُ، فيصرح بانكار كل الأحاديث التي فيها سنّ عائشة وينقدها على طريقة المحدثين فيبين ضعف أسانيدها وبطلان رواياتها إن استطاع ، فذلك خير له من تأويلها وتحريفها والتزيّد فيها ، ثم مناقضته نفسه بالاحتجاج ببعض ألفاظها على أسلوب عائشة المرسل السهل الجزل الفصيح (ص ٥٧ — ٥٨ ) كما استدرك عليهِ الدكتور بشر في نقد كتابهِ

وبعدُ مرة أخرى : فان شريعتنا شريعة الاسلام ، أباحت تزويج البنات الصغار ،وجعلت تزويجهنّ للأولياء ، بدليل زواج النبي صلى الله عليهِ وسلم بعائشة وبنائهِ بها وهي دون العاشرة ، وبدليل قول الله تعالى في سورة الطلاق ( واللائي يئسنَ من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدّتهنّ ثلاثة أشهر واللائي لم يحضنَ) . فاللأئي لم يحضنَ هنّ الصغيرات اللائي لم يأتهنَّ الحيض وهنّ دون البلوغ ، عليهنّ عدّة ثلاثة أشهر إذا طلقنَ ، ولا يكون طلاق وعدة إلاّ بعد زواج ، أليس كذلك ؟ فمن رضي هذه الشريعة لم ينكرْ ولم يعبأ بقول العائبين المغرضين ، ومن أبى ( أفأنت تكرهُ الناسَ حتى يكونوا مؤمنين )

احمد محمد شاكر

# التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونلبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق، فنجريه إلى غايتين: إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة. ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن. هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

# المشتمل


١ — المسائل

| | | |
|---|---|---|
| النقد والعلم | | بقلم بشر فارس |

٢ — الكتب

| | | |
|---|---|---|
| « رسالة الغفران » | نقد | بقلم ابرهيم عبد القادر المازني |
| « القاهرة » | - | - زكي محمد حسن |
| « الملك الضليل » | - | - محمود تيمور |
| « الواحة » | - | - حسن كامل الصيرفي |

كتب ظهرت

٣ — المخطوطات

« دَرْج بَرديّ مصري » بقلم و. ج. وَدِل W. G. Waddell

نقله من الانجليزية وهيب كامل


---

# ١ – المسائل

## النقد والعلم

قاعةٌ استطالت كأنما تريد أن تدرّب الطرفَ على البعد ، ثم رضيت ببعض الظلمة كأنما تبغي أن تبعث الوجدان على التأمل ... كنّا في مدرّج من مدرّجات السُّربون ننتظر أستاذاً لنا نتلقى عنهُ صناعة الأدب وثقافته

دخل ذلك الشيخ ، شيخُنا ، فقال :

اليوم أبتدىء حيث انتهيتم . فأكبر الظن أنكم نظرتم في التآليف التي دللتكم عليها من أشهر ، أريد التآليف التي تتصل بنظريات النقد مباشرةً أو مقاربة ، نحو « كتاب الشعر » لأرسطو ، و« فن الشعر » لهوراس الروماني ورسالة « الاعجاز » de Sublimitate المنسوبة الى لنجينُس اليوناني[1] ونحو ما ورد تحت اقلام بِنْ جُنْسن ودرَيدن الانجليزيين ، ومونتنيي الفرنسي ، وكَنت الالماني ، الى جنب من تناولوا أحكام النقد في القرنين الماضيين ، وأظنكم عملتم بين يدي مانزوني الايطالي ، فعلمتم ان كل عمل من اعمال الفن يحمل في طياته معالم الحكم فيهِ ، فيسأل الناقد : « ما غرض المؤلف ؟ أمعقول هو ؟ أوَ بلغه المؤلف ؟ » ثم تبين لكم ان النقد قائم على اصول وقواعد تشترك فيها الذاتية والموضوعية ، وان هذه الأصول والقواعد تارةً مشتقة من طبيعة الفن نفسه ، وأُخرى راجعة الى مزاج الناقد وذوقه وذكائه وحسه وخياله والى مبلغ انعطافه

لست لهذا اعرض اليوم ، ولست بمرشدكم كيف تشتقون تلك الأحكام ، ولستُ بمبصركم طرائق تهذيب المزاج ، وارهاف الذوق وغيره من الأدوات الذاتية . فأنتم على بصرٍ بكل ذلك ، او في استطاعتكم ان تكونوا كذلك اذا انتم طلبتم في هذه الجامعة مراحل الأدب وخصائص الفن ومطالب الفلسفة

اني أريد ان انبهكم الى ان النقد منذ منتصف القرن التاسع عشر آخذ في الولوج في ناحية العلم . وليس معنى هذا انهُ عادل عن نعومة الذوق الى خشونة المذهب . ولكن

---

(١) من القرن الثالث بعد الميلاد

المقصود من ذلك انهُ فن ينظّم حيث يجب التنظيم ويقيّد حيث يحسن التقييد . فما هو بالهائم هيمان البدوات ولا هو بالشارد شرود السوانح

وقليل من التاريخ هاهنا يفيد ويوطّىء :

سأقصر السردَ على رُقي النقد في فرنسة ، إذ فيها مال اولَ ميلهِ نحو العلم ثم ثبت في جانبه . وليتكم تطالعون ما ألفهُ سِنتْسْبِري في الانجليزية في تاريخ النقد والذوق الادبي في اوربة[1] فتطلعوا ما كان من شأن النقد في غير فرنسة . وفي هذه اللغة ايضاً كتاب A. Morize في « مسائل التاريخ الادبي ومناهجه » خرج في بُستُن سنة ١٩٢٢ . ثم لا بدّ لكم من التوسع في ما انا قائله ، فاطلبوا لذلك كتاب G. Rudler في « مسالك النقد وتاريخ الأدب في الأدب الفرنسي الحديث » وهو مطبوع سنة ١٩٢٣ في أُكسفُرد ، وفي هذا الكتاب ما يرجعكم الى مؤلفات النقّاد انفسهم ، فاذهبوا اليها حتى ينبسط لكم ما أنا مُجمل هنا

تمهّل شيخنا شيئاً حتى نفرغ من تدوين المراجع ، ثم قال :

سنة ١٨٨٨ اخرج هِنكا Hennequin كتابه « النقد العلمي » ، وسنة ١٩٠٠ أخرج رِنار Renard « المنهج العلمي لتاريخ الادب » . وذانكم المؤلَّفان غاية محاولاتٍ سبقت . فمنذ فجر القرن وصلت مدام دي ستال Mme de Staël الأدبَ بأوضاع المجتمع ومعتقداته . وتلاها فيّما Villemain يستشف روح الأمة من بيان الكتّاب ، ويتعقّب الأثر الانجليزي في رسائل القرن الثامن عشر في فرنسة . ثم جاء سانت بوف Sainte-Beuve وأراد — لما كان يخرج أحاديث « الاثنين » — ان يصنع « التاريخ الطبيعي للعقول » ، فجعل يتعرّف طباع الأدباء من دواوينهم ثم يتصفّح تلك الطباعَ يستوضح تأثير البيئة من جهة المعنى ومن جهة الحس جميعاً . واما تين Taine فذهب الى ما يلي ذلك إذ اراد ان يُقعد الأدب تحت حكم مذهب « الحتميّة العلمية » ، فهو ابداً يفتش عن الأسباب الموجبة ، لذلك يعدّ مظاهر الفن ولائد ثلاثة عناصر مؤتلفة على تفاوت : السلالة والبيئة والزمان . ثم اصبح النقد مع بْرُنتيير Brunetière لوناً من الوان فلسفة « النشوء والارتقاء » او « التحول » ، من ذلك انصراف همه الى تسلسل المؤلَّفات بعضها من بعض وخروجها من طور الى طور بأسباب جماعية أو فردية

(١) Saintsbury, the History of Criticism and Literary Taste in Europe ( 1900 — 1904 )

على ان النقد في فرنسة لم يدخل كله في ذلك الجانب الوضعي . فقد اتجه فريق الى الطريقة الابتداعية romantique ، وقوامها الهِزّة ، وغرضها التأمل ثم الانجذاب الى ألطاف الجمال وأنوار الجلال. ومن أَلمع الأمثال هنا كتاب ڤكتور هُجو في «وليم شكسپير». ولهذا الضرب من النقد ان يكون . فالحق ان وراء سبحاته مطالع آفاق . غير انهُ ادخل في إنشاء الفنان المتخيّل ، وعلى هذا فصول تيوفيل جوتييه ، لذلك هو حريّ بتناول « الفنون الرفيعة » نحو الموسيقى والرقص والتصوير . وأيّاً كانت جهتهُ فانهُ يحسن بهِ ان يلتفت الى ما سيأتي من الحديث ، حتى يعتمد . ومن لواحق الابتداعية اسلوب التأثر في النقد ، ومن أربابه عندنا جول لِمِيتر . وهنالك أساليب أخرى لعلي أتكلم عليها جميعاً في إملاءة آتية

★

واليوم لسنا نرى النقد عبداً لمذهب من مذاهب العلم ولا تبعاً من اتباعهِ . بل نحن نتكلم في ما بين النقد والعلم من تساير وتماسك وتجاوب ، على ما قد بيّنه ، من طريق النظر والعمل ، رُكن النقد الأدبي في هذا العهد : ج. لانسو G. Lanson [1] ومن نحا نحوه

فالنقد الأدبي مثلاً انما ينهض على الإحاطة المستنيرة بتاريخ الأدب ، وهذه الاحاطة المستنيرة هي التي تصقل الذوق فتجذب الحس الى الجميل وتنفره من القبيح ثم تهيء الحكم. فليست معرفة التاريخ الأدبي ههنا لوجه المعرفة ، ولكنها تجري الى تلطيف الاحساس وشحذ الادراك . ولا بدّ للاقبال على تاريخ الأدب من منهج سديد ، وقد وقفتم على بعض هذا المنهج لما تحاورنا في طرائق علم التاريخ ، فعرضت لمسئلة الفهارس والمراجع معَ إعداد النصوص وترتيبها ثم تمحيصها بنقدها نقداً خارجيّاً هنا وداخليّاً هنا ، كل ذلك الى جنب ما يتصل بالبحث عن استمداد الأديب من سابق له ، ونزوله على حكم بيئتهِ ، وجريانهِ مع تيار عصره ، وانفراده عن مواقف غيره بطابَع قائم برأسه

ومن التقصير ان تقنعوا بالاستبحار في تاريخ الأدب ، فلا معدى عن الوقوف على مقاصد الفلسفة عما يندرج تحتها من علم النفس وعلم الاجتماع خاصةً ، واذكروا هنا كيف يتنقل كُرُتْشي B. Croce الناقد الايطالي الملهَم بين تاريخ الأدب والفلسفة تنقل العارف، واذكروا أيضاً معاصرَنا الفرنسي مَرِتا Maritain . ثم استضيئوا بعد ذلك بالرفيع من آداب الأمم الأخَر، فالموازنة بينها من الأبواب التي شُقت الآن في النقد الأدبي . واستأنسوا أخيراً بالفنون على الوانها

(١) لا نزال نعاني رسم الكلمات الاعجمية على أصل مخارج حروفها ونبرات حركاتها !

تلكم عُدّة من عدد التمييز والحكم . ثم دونكم آلة لا بدّ منها للناقد الوثيق الأمين . وهذه الآلة هي ما نسميه . الأسلوب العلمي . وهو يكتسب من طول الممارسة لخطط العلوم على أصنافها وأقسامها . ولا احب ان اذكركم بقواعد منهجه : من نبذ الهوى ، وطرح التعصب ، ولزْم الشك خشية الزلق، ثم التحفظ في التعميم ، والتزن في التحليل ، والتريث في التركيب

ذلكم موقف الذهن من الحقيقة ذات الحرمة ، وذلكم هو السبيل الى المعرفة ذات الرفعة . ومن شرائط الأسلوب العلمي : استطلاع لا غرض فيه ، وطوية بيضاء ، ودأب متصل ، ثم إعراض عن الارضاء او الاسخاط وإهمالٌ لسطوة هذا او شهرة ذاك ، وامتثال للوقائع المحسوسة ، وتقصٍ في الجسّ مع فحص ما سطّره النقاد من قبل وما انتهوا اليهِ من نتائج . ثم احذروا البرهنة من طريق القياس لأن مبذولات الفن ليست على غاية في الدقة واليُسر والاستقلال ، وخير من تلك البرهنة ان تعملوا العمل الذي لا عجلة فيه حتى تنضج الفكرة فيستقر الرأي على عمود الحق او ما يداني الحق . فعليكم ان تعتمدوا الحسَّ الخبير ولا ترجعوا الى الهاجس ، الى الحدْس ، الى نفضة الوجدان الاّ في الذي يدقّ عن الادراك المباشر ويُعجز الحسّ الظاهر كمثل الشعور بالاعجاز والروعة

فاذا انتم نظرتم في اثر من الآثار قديماً كان او حديثاً ،عرفتم كيف توجهون البحث وقد رفعتم عن ذوقكم واحساسكم وخيالكم سلطان الرعونة والانانة [1] ، فتحصرون الذات المطلقة وتحدّونها ، لا تدعونها تشط وتبغي حيث لا يحق لها سوى الكشف اللطيف

★

بهذه الآلة و تلكم العدة تنفصلون عن فئتين تقبلان على النقد ايضاً :

ان عامة القراء هم إحدى هاتين الفئتين ، ينقدون عفواً بحسب مناهلهم ومنازعهم . ويلحق بالقراء من ينشر في الصحف حتى في الكتب احاديث تجري مجرى هيناً لا تصعيد نظرٍ فيها ولا تصويب: احاديث مرتجلة تكاد تُقرأ مرةً ثم تُلقى . وأما الفئة الثانية فأهلها يقتحمون النقد لميلٍ فيهم الى التهويل ، فيفرشون ألوان مهارتهم الذهنية على حساب الاثر

(١) « الرعونة : الوقوف مع الطبع » ، « الانانة: قولك أنا » عن اصطلاحات « الفتوحات المكية» راجع ذيل « التعريفات » للجرجاني

الذي ينظرون فيهِ ، فما يَشغلهم الدنوّ من الحقيقة ولا يحركهم الغوص على دقائق الأثر خدمةً له وعنايةً بجمهور القراء . وذلك لأنهم لا يعلمون ان للنقد غاية سامية تلهو بحذقهم ، فكأنهم لم يقرأوا ما كتبهُ فُلتير: «لقد طالما كانت لنا تسع ربّات للأدب ، والنقد الصحيح هو الربة العاشرة »

انما غاية النقد تجري الى امور. منها : تدبر ما يُرفع للعين . امَـا كان الناقد kritikos عند الهلّنيين يتوسم ما ينشده الراوية من شعر هوميرس، فيرتاب في صحة هذا البيت او في موقعه من القصيد ؟ — ومنها : وضع القيم في مواضعها من طريق أحكام هي وليدة الاطلاع والدّربة والتفهم والانجذاب ، فلا اجتلاب ولا مجازفة — ومنها : الحدّ من طغيان النقد المرتجل والمقتحم جميعاً باقامة الحصافة والأمانة والاحاطـة واللقانة مقام الشطط والهوى والدعوى والعبث — ومنها : إعانة الآثار الرفيعة على ان تنكشف وتنتشر الى جنب الاشادة بالقرائح الغَمْرة السَّمْحة الطلقة وبخاصة ان كانت مهملة أو كالمهملة، مغمورة أو كالمغمورة، هل تذكرون متى قُدر شكسبير حق قدره ، وكيف عُرف فضل مونْتِيني Montaigne في انجلترة وفي وطنه فرنسة ؟ — ومنها : كشف الستر عن اهل الكسب لوجه الكسب وأصحاب الدجل في العلم والأدب ، فتبصرون القراء المستطلعين الراكنين اليكم بالأوهام التي بنى عليها اولئك الخلقُ صيتهم وجاههم . من ذلك المنزلة الوضيعة التي تركز فيها الآن نوعاً معروفاً راكضاً في الأسواق مبتذلاً ، إذ أطلقنا عليهِ هذا الاسم « أدب البوابين » ، ويسميه الإنجليز « الأدب الاصفر »، وفي هذا الأدب الرخيص قَصص وغيره . ومن ذلك أيضاً ما صنعهُ بوالو Boileau ثم موليير Molière في القرن السابع عشر لما عيّرا « المتحذلقات ». فلا تخشوا ان تمسوا الاصنام الجُوف . وبذلك كله تصرفون الجمهور عن أعداء الثقافة الحقة وعمن يدنسها راضياً ناعماً ، ثم تدفعون اليهِ ـ وأنتم روادهُ المخلصون ـ مقاييس الفن الخالص — ومنها أيضاً : الانشاء ، وذلك باستيفاء النواحي المقصرة في الأثر المنقود سواء بالمراجعة او الاستدراك او التنبيه إن كان الأثر مما يتصل بفروع العلم ، او برد الالوان الى اصولها وانواعها مع المعارضة والشرح اذا كان الأثر مما يدخل في ضروب الفن . وأنتم في ذلك تبنون وترفعون ، وتنوهون وتوجهون ، وطلبتكم الحقيقة . فيأنس بنقدكم أهل الدراية وأرباب الفضل ويعظِمونكم ويتأزرونكم

★

ولاتظنوا انكم سالمون من المطاعن والمغامز ، وإن توفرت لديكم العدة وتوثقت بين أيديكم الآلة . او لعلكم من أجل ذلك يقع فيكم من يقع . واما خصومكم من جهتين : جهة المرتجلين والمقتحمين الذين يحكمون بالوهم السانح والخاطر الهاجم ، الاّ اذا كانوا ممن يرعى حُرُمات العلم والادب ويكبر الجدّ ، ثم جهة المؤلفين الذين خفّت بضاعتهم وانتفخ صلفهم وجلُّهم ممن نشأ نشأً شيطانيًّا à la diable فأعياهم التحصيل وفاتهم التهذيب ، لذلك يرون الحق أبداً في جانبهم حتى اذا شرب احدهم وهو ريّان وطعم وهو شبعان . سيرمونكم بما أرمى أنا واخواني به

سيقول لكم العيّ الكسلان أو المغرور النفّاج — وفي الناس من يجمع بين النعتين — : أنتم أهل اطلاع على الأصول والقواعد والمراجع والمصادر ، لحرام عليكم ان تخنقوا العبقرية ، عبقريتنا ، بضغطها بين اسباب معارفكم

ألا فأخبروهم ان الاحاطة مرقاةُ الفهم السليم . وذكّروهم ان النقد أخذ في النموّ بالاسكندرية على ايدي خَزَنة الكتب الذين جمعوا ورتبوا ، وفهرسوا وسردوا ، ونسخوا واذاعوا ، وانهُ صار الى ما صار اليهِ في القرن التاسع عشر بفضل التنقيب عن النصوص والتحرير لها والتوفر عليها . ثم فقّهوهم معنى الاحاطة ، عاذرين لهم : الاحاطة وسيلة لا غاية ، وليست المراجع والمصادر وما اليها غير ادوات تتوسّع بها المعرفة وتتقوى الذاكرة . نحن نسعى وراء الآراء ، ولكننا نريدها الى الصواب أقرب وعن الخبط أنأى . وهل يشك سوى الجاهل او المتعسف ان نشاط الذهن أسلم حين يتخذ موقفاً بعيداً عن التخرص والمجازفة ؟ واما الذوق فبالاطلاع ينعم ويرحب : فلا عجز عن لقف الرهيف وفهم البعيد ولقن الدقيق ، ثم لا صد عن الجديد ولا بغض للطريف ولا اغفال حتى للشاذّ الغريب

★

سينسب اليكم المخرق والمرتزق جميعاً ، هذا من امانتكم فزع وذاك على درايتكم حنق . فليكن ذلك لكم تفكيهاً وتلهية ، ولا بأس ان يرفّه عنكم وانتم في جدّ سيّار . فللناس أهواء ، وهواكم ان يظل بين ايديكم الجوهر الكريم الذي لا يرتقي اليهِ سوء

بشر فارس

# ٢ – الكتب

• رسالة الغفران • منقولة الى الانجليزية بقلم G. Brackenbury

١٣½ × ١٩½ ، ١٥٩ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٣ *

قرأت هذه « الرسالة » فذهبت أفكر في ترجمة الأدب من لغة الى لغة كيف ينبغي أن تكون ؟ أنجعلها حرفية دقيقة بغير نظر الى ما بين اللغات من فرق في الذوق ، وطريقة تأليف الكلام « على معاني النحو » كما يقول الجرجاني ، وما بين أبنائها من اختلاف في أساليب التفكير والتناول ؟ ان الأمانة تقتضي هذا ، ولكن الامانة لا تهون في كل حال ، ولاسيما اذا عظم الاختلاف بين لغتين كالعربية والانجليزية ، وبعدت مسافة الزمن بين العصر الذي ننقل منه والعصر الذي ننقل اليهِ ، فكان لهذا أثره حتى في الأجيال المتعاقبة من أمة واحدة ، فما ظنك بأمتين ، غربية حديثة ، وشرقية قديمة ؟ أم نتصرف كما تصرف فتزجرلد حين نقل « رباعيات الخيام » من الفارسية الى الانكليزية فطرح الثوب وتحفظ بالروح ونظم معانيها شعراً انجليزيا سلساً يطيب وروده على الأذن ولا تنفر منه أذواق قومهِ ؟ وليس لي علم بالفارسية ، غير أني قرأت ترجمات عربية شتى لهذه الرباعيات عن الفارسية ، بعضها منثور والبعض منظوم ، قيل في وصفها انها حرفية ، وأنا أفضل ترجمة فتزجرلد ولا أعدل بها شيئاً ، لأنها شعر استطاع قائله — ولا أقول مترجمه — أن يكسبه جمالاً ويجعل لهُ سحرا . ولكن هذه لا تعدّ ترجمة بالمعنى الصحيح ، وأصدق ما يقال فيها — في رأيي — ان فتزجرلد استوحى معانيها من الخيام ، ولم يتقيد بالأصل ، بل أرسل نفسه وهو ينظمها على سجيته وسجية قومه .

ويقول بيتس E. S. B. Bates في كتابه «دراسات في الترجمة»[1] ما معناه ان الترجمة الأدبية لا ينبغي أن تقتصر على أداء المعنى فحسب ، بل يجب أيضاً أن تنقل روحه الى القارىء ، وأن لا تكون في ثوبها المستعار أقل روعة أو جمالاً أو قوة منها في ثوبها الأصلي

* رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء

(١) Intertraffic, Studies in Translation

ويذهب تتلر A. F. Tytler [1] ، الى ان الترجمة ينبغي أولاً أن تكون دقيقة الأداء للمعاني التي في الأصل، وثانياً أن يكون للاسلوب وطريقة الاداء الطابع نفسه الذي للاصل ، وثالثاً أن يكون للترجمة كل ما للاصل من سهولة التأليف وسلاسة الانشاء . ولكنه يجيز بعض التصرف في الشعر ، لأن روح الشعر ألطف من أن يحتمل الالتزام الدقيق للاصل ، وأخلق بهِ أن « يتبخر » اذا بالغ المترجم بالتقيد

وأحسب ان من العسير فرض قانون يلتزمه كل مترجم في كل حال ، أو وضع قاعدة لا يتزحزح عنها مقدار شعرة ، ولكن من المسلم فيما أرى ان الامانة شرط لا معدى عنهُ ، وليست الامانة أن تؤدي المعنى وحده ، بل ينبغي كذلك أن تحرص على « شخصية » الكاتب . واذا قلت الشخصية فقد قلت الاسلوب ، وطريقة تناول الموضوع ، وعرضه ، والنهج الخاص في تأليف الكلام ، فان المعنى الواحد يكتبه رجلان ، فيكون بينهما تفاوت ، ويوجهه كل منهما وجهته لأنهُ ينظر اليهِ من ناحية غير ناحية صاحبه ، ويخلطه في نفسه بغير ما يخلطه ذاك ، ويزاوج بينه وبين ما عنده ، ويولد من هذا التزاوج شيئاً آخر قد يجيء مختلفاً جدًّا على الرغم من التشابه العام ، كما يتشابه الشقيقان ، وهما بعدُ اثنان متميزان

• • •

« ورسالة الغفران » التي ساقتنا الى هذا الحديث ، هي ، كما يعرف القارىء لأبي العلاء المعري . وسبب كتابتها ان ابن القارح حمّل رسالة اليه ، فأضاعها ، فكتب اليهِ يعتذر وتكلف في اعتذاره أن يظهر علمه وفضله وأدبه ، فرد عليهِ أبو العلاء برسالة الغفران وقابل ما تكلف من العلم بمثله فأغرقه في بحر من علمه بالأدب ونقده الشعر ، واحاط ذلك باطار من الفكاهة ، وتخيل ابن القارح في الجنة يطوف بها ويرى ويسمع الى آخر ذلك

وكان الاستاذ كامل الكيلاني قد نشر « مختصراً » لهذه الرسالة، احتفظ فيهِ باطار القصة، ولم يستبق من غيرها الا ما لاغنى عنه للسياق، فيسّر قراءتها للقارىء العادي الذي لا يعنيه التوفر على الدرس والتحصيل

وقد نقل المستر ج . براكنبري هذا المختصر الى اللغة الانجليزية ، نقلاً حرفيًّا في الأغلب، ولم ينبه الى انهذه ترجمة المختصر لا الأصل،فالقارىء الانجليزي الذي لايعرف ذلك قد يذهب الى رأي في المعري لا مسوغ له في الحقيقة لان ما حذف من العناصر الادبية واللغوية في المختصر كثير والباقي لا يكفي للتعريف بما قصد اليهِ ابو العلاء

(١) On the Principles of Translation

ومما يلاحظ ايضاً ان المترجم استعمل الفعل الماضي من البداية الى النهاية كأنما كانت الرسالة رواية لما كان ، على حين حرص أبو العلاء على أن يعرض على القارىء صورة تهكمية لرحلة متخيلة لابن القارح في الآخرة

والترجمة ، كما قلنا ، حرفية على العموم ، وصحيحة ايضا . وقد تصرف الاستاذ في بعض المواضع — ولا سيما في ترجمة الشعر — تصرفاً لا يعاب ، ولكنه وقع في طائفة من الهنات يحسن التنبيه اليها

فقد ترجم هذا البيت

وان صخراً لتأتمّ الهداة به كأنهُ علم في رأســه نار

هكذا :

Let Sakhr be a guide and a leader outstanding...

اي فليكن صخراً ... ثم ترجم :

أفنى تلادي وما جمعت من نشب قرعُ القوازيز أفواهَ الاباريق

بقوله :

All the wealth I have hoarded up
Is nought to the clink of the brimming cup
That rings on the edge of the wine-jar's lip

ومعنى ترجمته : « ان كل ماجمعت من ثروة لا يعدل قرع ... » ثم ترجم :

ان الثراء هو الخلود ، وان المرء يكرب يومه العُدمُ

بقوله :

The only wealth is the life to come
She says " though man be near his end"

فترجم « الخلود » « بالحياة الآخرة » ، وحسب العُدم — وهو الفقر — العَدَم أي الفناء تغير المعنى كله . ثم ترجم :

كأنَّ المدام وصوب الغمام وريحَ الخزامى ونشر القطر
يُعل به بردُ انيــابها اذا غرد الطائر المستحر

Like wine and rain and perfumed flow'rs
And scented sap — as healing balm
Flows out the nectar from her mouth
The while the bird in tones its lay
And fills the air with magic sound

وفيهِ قلبٌ لمعنى « يعل به برد أنيابها »
ثم ترجم البيت الثاني على لسان جني:

فتارة انا صل في نكارته وربما أبصرتني العين عصفورا
نلوح للانس حولاً أو ذوي عورٍ ولم نكن قط لا حولاً ولا عورا

فقال :

I took at times a horrid serpent's form
Or now a bird's — or did a man deform
To make him squint, or loose one seeing eye

والمعنى هنا مقلوب. فان الجني يقول انهُ هو الذي يبدو لبني آدم أحياناً أحول أو أعور. ولكن الناس صاروا هم الحول او العور في الترجمة . أما الشطر الثاني من البيت الثاني فقد حذف كله

وفي ترتيب أبيات الجني خطأ (ص ١١١ — ١١٣ ) وهو مطبعي على الأرجح ، ولم نجد ترجمة الأبيات الثلاثة الأخيرة منها

وهذه كلها هنات هينة وقليلة ، لا تغض من قيمة الترجمة ومجهود المستر براكنبري فيها. وليس لنا ان نقول شيئاً في لغته فان الرأي فيها لقومه دوننا ، فهم أعرف بها وأقدر على الحكم عليها وتذوقها

وما أظن الاّ ان القارىء قد أدرك أنّا كنا نؤثر ان يترجم النص الكامل للرسالة لا المختصر ، وإن كان لا يسعنا الاّ أن نعترف بان النص الكامل كان خليقاً أن ينفر القارىء الانجليزي ويتعبه . ولكن التعب حاصل على الحالين ، فان المختصر نفسه لا يوائم ذوق الغربي ، ولا يجري على ما ألف ، ولما كان الغرض من الترجمة ان يطلع الانجليز على مثال من الأدب العربي ، فقد كان الانصاف يقتضي أن يُعرض على أصله وحقيقته ، غير مبتور أو منقوص . وليس الحذف من عمل المستر براكنبري ، فما عدا ان نقل المختصر المنشور ، بامانة ودقة ، فلا لوم عليهِ ، وانهُ لمشكور على مجهوده الذي لا نشك في انه سيفوز من قومه بحقه من التقدير

ابرهيم عبد القادر المازني

## • القاهرة • بقلم عبد الرحمن زكي

١٦½ × ٢٤½ ، ٢٥٣ ص ، دار المستقبل ومكتبة النهضة بمصر ، ١٩٤٣

كتاب جديد في الآثار الاسلامية وتاريخ مصر منذ العصر الفاطمي . وليس المؤلف غريباً عن هذين العلمين ، فقد تخصص فيهما حين درس بجامعة فؤاد الأول فتخرج في معهد الآثار الاسلامية منذ سنين وكتب المؤلفات والمقالات في تاريخ مصر وفنونها الاسلامية . وليس هذا الكتاب الجديد أول مؤلفاته في القاهرة ، فقد أخرج فيها كتاباً في جزئين ، ظهر الأول سنة ١٩٣٤ والثاني سنة ١٩٣٥ ، وأجمل فيهما تاريخ العاصمة منذ نشأتها الى عصر الخديوي توفيق

أما الكتاب الجديد فقد امتد فيهِ الحديث عن القاهرة الى عصر الفاروق . وطبيعي ان يكون الكتاب السابق بجزئيهِ أساس هذا الكتاب الجديد . ولكن الفترة التي انقضت بين ظهورها — وهي نحو عشر سنوات — لم يضعها المؤلف سدى ، فقد أفاد مما ظهر فيها من المؤلفات والمباحث عن مصر الاسلامية وعاصمتها ، كما أتيح له ان يتصل بالأستاذ محمد رمزي بك وان ينتفع بعلمه في هذا الميدان وبمذكراتهِ الوافية عن القاهرة وتخطيطها وأسوارها وأبوابها ومجرى النيل فيها وما الى ذلك

وليس الكتاب دراسة في عمارة القاهرة وتطورها وأحيائها فحسب . وطبيعي أنهُ ليس مجموعة من المقالات لا تكاد تمت بصلة الى القاهرة ، كما حدث في كتاب ظهر حديثاً يحمل اسم القاهرة على الغلاف وفيهِ من الاستطراد ما لا يسوغ هذه التسمية . وانما كتاب البكباشي عبد الرحمن زكي قصة العاصمة وما يتصل بها من تاريخ مصر ، فقد صوّر المؤلف في صفحاته تأسيسها ، ومظاهر الحياة فيها ، والعمائر التي قامت على أرضها ، والأحداث التاريخية التي كانت مسرحاً لها . وعرض لأعلام الرحّالة الذين زاروها وما دوّنهُ كل منهم عن ذكرياته . ولذلك وفّق في ان يبعد الكتاب عن الجفاف الذي يعيب الكتب التي تفحص عمران المدن فحصاً علميًّا آليًّا لا حياة فيهِ

• • •

بدأ المؤلف بعرض سريع لعواصم مصر الاسلامية قبل بناء القاهرة فتحدث عن الفسطاط والعسكر والقطائع . وبيّن ان العرب انصفوا في اختيار مواقعها وان ما رماهم

به ابن خلدون من الجهل في انتخاب مواقع المدن وخططها لم يكن صحيحاً في كل المدن التي شيدوها . ثم انتقل الى فتح الفاطميين مصر وانشاء القاهرة على يد جوهر القائد سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) في السهل الرملي الواقع شمالي الفسطاط لتكون سكناً للخليفة الفاطمي وأهل بيته ورجال جيشه . وعرض المؤلف لقدوم الخليفة المعز لدين الله وانتقال الخلافة الفاطمية من بلاد المغرب الى وادي النيل . ثم نقل وصفاً للقاهرة خلفه رسولان قدما الى مصر سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٧ م) من قِبل عموري (املريك) ملك الصليبيين ليعقدا مع الخليفة ، باسم سيدهما ، اتفاقاً سياسيًّا . وكان الأصح في رأينا ان يؤجل ذكر هذا الوصف الى بعد تمام الكلام على تطور القاهرة في العصر الفاطمي ، لأن قدوم الرسولين الصليبيين كان في نهاية هذا العصر

وقد وفّق البكباشي عبد الرحمن زكي في الافادة من المؤلفات التي كتبها أعلام المشتغلين بالآثار الاسلامية وفي الانتفاع بدراسته في الجامعة ، فنجح نجاحاً كبيراً في دراسة تطور العاصمة في عصور الفاطميين والأيوبيين والمماليك وابراز مميزاتها في كل عهد من هذه العهود التاريخية ، واستطاع ان يفصل الكلام في أسوار القاهرة ومساجدها وقلعتها وسائر ما شيد فيها من العمائر التي اصبحت العاصمة المصرية بفضلها خير متحف لطرز العمارة الاسلامية في مختلف عصورها

ولم يهمل المؤلف دراسة المجتمع في القاهرة خلال تلك العصور التاريخية فتحدث عن أعياد القوم وعاداتهم وأساليب التعليم عندهم وشهرة علماء القاهرة التي سرت الى بلاد الاندلس ، حتى كان الرحالة المسلمون من المغاربة — مثل ابن جبير — يحرصون على لقاء أولئك الاعلام

ومما ذكره في هذا الصدد ان صلاح الدين ولي عرش السلطنة المصرية « ولم تكن في مصر مدرسة واحدة تعنى بنشر التعليم الديني على أسسه الصحيحة » (ص ٦٩) . وهذه مسألة فيها نظر ، وكان الأسلم في رأينا أن يقال انهُ لم يجد مدارس تعلم قواعد الاسلام على مذهب أهل السنة .

ولسنا نوافق المؤلف على ان أحداً من حكام القاهرة لم يخلف مثل ما خلفه صلاح الدين من آثار لا تزال باقية وان القاهرة تدين لهذا السلطان بشكلها واتساع نطاقها الى درجة لا تقل كثيراً عما هي عليهِ الآن (ص ٦٠) . فالحق ان في هذا القول هضماً لحق عصر المماليك

وما ازدانت بهِ القاهرة من العمائر الجميلة في القرنين الثامن والتاسع بعد الهجرة ( ١٤ و ١٥ بعد الميلاد ) . ولا يفوتنا ان صلاح الدين مات قبل أن يكمل بناء القلعة والسور

وجاء في الكتاب ( ص ٧٦ ) أن شجرة الدر اتفقت مع الأمراء ، بعد وفاة الملك الصالح ، على مبايعة « ابنها » . وأكبر الظن ان هذه غلطة مطبعية لأن شجرة الدر لم تكن والدة طوران شاه بل كانت زوجة أبيه . فلعل المقصود « ابنه » . ولنذكر في هذه المناسبة ان الأخطاء المطبعية كثيرة في الكتاب وان بعضها من الخطر بحيث لا يسهل معهُ فهم بعض الجمل فهماً دقيقاً . وقد سرّنا ان المؤلف فطن الى ذلك فطبع بياناً مستقلاً بتصحيح الأخطاء المطبعية ضمه الى ما لا يزال باقياً في المكتبات من نسخ الكتاب

ولاشك في ان البكباشي عبد الرحمن زكي يستحق أطيب الثناء على الفصول التي عقدها للكلام على القاهرة في عصر المماليك فانها تمتاز بدقة البحث وتقصي الحقيقة العلمية وعرضها في أسلوب سهل لا تعوزه الحياة . أما ما كتبه في المدينة أيام العصر العثماني والعصر الحديث فحسبه انهُ السابق في هذا المضمار ، لأن القاهرة في هذين العصرين لم يكتب فيها ما يستحق الذكر ، ولأنه أصاب نجاحاً كبيراً في الاعتماد على ما دوّنه الرحالة الذين زاروها حينذاك وعلى مختلف المصادر التي يجب الرجوع اليها في هذا الصدد . وطبيعي من المؤلف ، وهو ضابط ومؤرخ للجيش ومدير المتحف الحربي ، ان يخص الناحية الحربية ببعض الاطالة فنراه يعني بالحملة الفرنسية على مصر وبما أحدث الفرنسيون في القاهرة من هدم وبناء لأسباب عسكرية مثل مقتضيات الدفاع

• • •

اما الجزء الاخير من الكتاب فعن تطور القاهرة منذ محمد علي الكبير الى أيامنا هذه . والحق انه تطور عظيم بما أحدثه حكام مصر من قصور وحدائق ومرافق عامة وما طرأ على مساحة العاصمة من نمو وامتداد وما قام على أرضها من عمائر ضخمة حكومية وغير حكومية

واذا ذكرنا ما بذله المؤلف في اتمام الكتاب واعداد صوره وخرائطه من جهود مشكورة ، وما أسداه للخزانة العربية من خدمات باخراج هذا السفر في تاريخ عاصمة الديار المصرية ، فاننا نحرص على ان ننبه الى ان مثل هذه الكتب العلمية التي يحتاج الباحث الى الرجوع اليها يجب ان يعنى فيها بعمل مسارد هجائية لمحتوياتها حتى تسهل الافادة منها ويمكن الكشف فيها عن مختلف المسائل التي قد يُظن انها تطرقت الى الكلام عليها

وفي رأينا انهُ يحسن بالمؤلف أن يزيد في العناية بتهذيب اللغة في آثاره العلمية، وان يتجنب الاسلوب الحرفي في عباراته، وان يترك التأثر باللغتين الانجليزية والفرنسية في تركيب عباراته، فانهُ بذلك يسدي أجلّ خدمة لمن اعتادوا قراءة الآثار الادبية، ويتجنب لوم الذين يعنون بسلامة العبارة ورصانة الاسلوب

زكي محمد حسن

• الملك الضليل • بقلم محمد فريد أبو حديد

١٥ × ٢٢ ، ١٩٨ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤

يحتوي هذا الكتاب على ترجمة حياة « امرىء القيس » في قالب قصصي. وهذا الضرب من التراجم القصصية على اسلوب فني يكاد يكون جديداً في ادبنا العربي ، فقد عالجه بعض كتابنا من قبل ، ولكنهم لم يبلغوا في معظم آثارهم مبلغ الاجادة الفنية . فظهور هذا الكتاب يعد في الواقع ظاهرة جديرة بالاعتبار ، لأن حظه من الفن موفور

وقد ازدهرت التراجم القصصية في الأدب الغربي ازدهاراً عظيماً ، وبرز فيها ادباء من أعلام الفكر ، وقد لقيت من إقبال جمهرة القراء ما يدل على فرط الشغف بها والارتياح اليها . وذلك لأن التراجم على هذا النحو تعرض حياة الشخصيات البارزة عرضاً شائق الأسلوب ، خلاب القالب نائياً عن جفوة التاريخ البحت . والانسان مفطور على التطلع الى دخائل هذه الشخصيات في تبسط يدنيها الى الحياة المألوفة الدائرة ، وميل الناس الى ذلك أقوى أعراقاً من ميلهم الى تعرف الأبطال الخياليين في القصص ، لأن شخصيات التاريخ أناس مثلنا أحاطهم الزمن بهالة من العظمة سمت بهم فوق العيون ، ومن ثمَّ يطيب لنا أن نجتلي مزاياهم ونتبين نقائصهم ونسبر أغوارهم في وسائل معايشهم

وثمة فرق بين التاريخ القصصي ، والقصص التاريخي ، ففي النوع الاول يلزم الكاتب نفسه الأمانة والدقة في سرد حوادث التاريخ وترسم الشخصيات . ولكنه يبسط خياله شيئاً ليستعين على الحبك والتصوير ، وفي النوع الثاني يطغى الاختراع والتخيل على الموضوع التاريخي ، فتبعد القصة عن الثقة التاريخية التي يمكن التعويل عليها

• • •

والكتاب الذي بين يدينا من نوع التاريخ القصصي ، وهو يعالج حياة شخصية من الشخصيات البارزة في أدب العربية ، وهيهات لدارس هذا الأدب أن يأخذ فيه دون أن

يستمع الى قول صاحب تلك الشخصية : « قفا نبك ... » وأن تسترعي انتباهه تلك الحياة الجياشة بالمغامرات وتقلبات الدهر ، حتى لنجعل من « امرىء القيس » شخصية أشبه شيء بشخصيات الأساطير

وأوضح ما يطالعك من هذا الكتاب انه صورة واضحة المعالم ، صادقة الشعور ، فانك لتحس إذ تمضي في صفحاته كأنك تحيا في رحاب الصحراء ، بين تلالها ورمالها ، ومراح إبلها ، ومسارح صيدها ، ومنابع مائها ، ومنابت زهرها ، تتنقل مرافقاً هذا الفتى العابث الفياض القلب بشاعريته ، فتطرب بأغاريده يرددها حيث يهوى لا عبء ولا كلفة . ثم ينعى الى الفتى أبوه ، فتراه ينفض عنه غبار اللهو ، وينهض للأخذ بالثأر ، فيواتيه الحظ حيناً ، ويكبو به أخيرا . وينتهي به المطاف الى أنقرة يلتمس الراحة لنفسه المكدودة وجسمه المنهوك ، فيستوفى أنفاسه هناك . والمؤلف يعرض هذه الصورة مفصلة في لطف تنسيق وحسن تعبير ، فيتابعها القارىء جذلان

وكما وفق المؤلف في رسم شخصية « امرىء القيس » وتجلية نفسه في أطوارها المتباينة لم يخطئه التوفيق في رسم سائر الشخصيات التي اتصلت من قرب أو بعد بحياة ذلك الملك الضليل

ولا ننسى ما لهذا الكتاب من فائدة في اضاءة تلك الحقبة المظلمة من التاريخ العربي ، وهي العصر الجاهلي ، فهو يدني للاذهان صورة الحياة السياسية والاجتماعية لذلك العصر ، وهو كذلك يصور لنا حياة « بيزنطة » في مجالي بذخها واستهتارها وما تتقلب فيه من مناعم ومباهج ومجون

محمود تيمور

## • الواحة • بقلم صلاح الأسير

١٤½ × ٢٢ ، ١٢٥ ص ، منشورات الاديب ، بيروت ١٩٤٣

صلاح الأسير من شعراء الرمزية في لبنان على ارهاف في الشعور ورقة في النغم وانطلاق في الخيال، وقلّ ان يلمس وادي الحقائق بجناحيه . ولهذا نجد في انطلاقه بعض الشذوذ بين معاني القصيد، فالطائر يظلّ يحوّم في الجوّ متردداً، مختلف الوجهة قبل ان يحطّ في مكانه ، وقد نجد في هذا التنقل لذة وإن كانت تخطف البصر، وتشتت الفكر . ولا يمنعنا هذا من الالتفات الى معاني الشاعر المستحدثة وتشبيهاته اللطيفة وموسيقاه العذبة . وقد جمع عدد من

قصائد ديوانه ألواناً من هذه المعاني والتشبيهات ، تسوقها في موكب شعري تلك الموسيقى كما هو الشأن في قصائد « الى غريبة » وفيها يقول :

يهتف بي ويشردُ في ناظريها الموعدُ
وأرقب الهمسة في بوحٍ لها وأرصدُ
أخاف إن يقينها ضــلَّ بهِ الترددُ
وبي رفيف اللحن بي مصرعه والمولدُ
ولهفــة لها فمٌ ورغبة لهــا يدُ

وقصيدة « وشاح أزرق » و « تقولين » و « اسمها » و « دمعة » وفي هذه يقول :

من ترى ذوّب في عينيك آثام الليالي
دمعة رقراقة الشكــوى على خدّ الزوالِ
يتلاشى دونها حلم الصبا ، حلم الخيالِ
عمرها لمعة فكر البكر في يوم الضلال
مات فيها الأمل الضا حي وغارت في الوبالِ

وقصائد « رجاء » و « الى ساقية » وغير ذلك من العقد المنتظم الحبّات

ولو عني الشاعر بمراجعة بعض ألفاظ الديوان والتدقيق فيها من الوجهة اللغوية لجعل جمال هذه الحبّات متناسق الجوهر ألاّق البريق ، وكان في امكانهِ أن يتخلص من كلمة « التَرمرُ » في قوله من قصيدة « الى امرأة »

أهواك في الترمرُ م الظمآن والتردُّدِ

وكان أوقع وأقرب الى الرقة في اللفظ والصحة في اللغة لو استبدل بها كلمة « التململ » ، وكذلك كلمة « مُضنّ » في قصيدته « اني مغنية » بعيدة عن الصحة ، وغير ذلك من مثل هذه الكلمات . وليس معنى التنبيه الى مثل هذه الأشياء انتقاصاً لحق الشعر ، ولكنه حرص الفنان على أن يرى الشيء الجميل خالياً مما يشغله عن متابعة الفتنة فيه

وقد قدَّم الشاعر لمجموعتهِ بحوار بين المثال والحجر جعلني استعيد في ذاكرتي وأنا أقرأها مسرحية « مفرق الطرق » لبشر فارس ، وظلَّ هذا الخاطر يتراءى أمامي في الجو وفي الحوار وان كان فيهما لفتات من لفتات صلاح الحلوة

حسن كامل الصيرفي

◆

• الوان من الحب • بقلم عبد الرحمن صدقي

١٣ ½ × ١٩ ، ١٥٦ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤

مجموعة من القصص منقولة من فرائد الآداب الاسبانية والروسية والفرنسية مختتمة بأقصوصة من وضع المترجم موضوعها « بلقيس ملكة سبأ » . وفضل المترجم في هذه المجموعة أنهُ قدّم للقارىء العربي طاقة في اختيار أزاهيرها لطف الذوق . وهـذا الى أن بعض أصحاب هذه الأزاهير لا عهد لنا بالاطلاع على آثارهم في العربية . فبجانب « موپسان » الفرنسي و « تشيكوف » و « جُـركي » الروسيّـين — وهم ممن حفلت الترجمات العربية بأدبهم — نجد قصصاً « لأبانيز » الاسباني و « بلزاك » الفرنسي و « اندرييف وليسكوف وكپرين » الروس ، وهم جدد أو كالجدد على القارىء العربي . ولقصص هذه المجموعة طابع يؤلف بين أشتاتها وهو تحليل نوازع الحب في ألوانها المختلفة

أما الأقصوصة الموضوعة التي تعرب عن فن المترجم فقد أصاب فيها توفيقاً ، اذ نجح في تحليل نفسية المرأة . هذا والكاتب يعنى من ناحية الأسلوب باختيار اللفظ للمعنى المراد

*(١)

• تاريخ غزة • بقلم عارف العارف

١٧ × ٢٤ ، ٣٥٥ ص ، دار الايتام الاسلامية ، بيت المقدس ١٩٤٣

من محاسن هذا الكتاب أن مؤلفه يفتتحه باثبات مصادره العربية والافرنجية ، وإن أغفل ذكر النشر والطبع والسنة والمكان . وفصول الكتاب تنبسط على عهود كثيرة . فهي تتعقب ، في سرعة أحياناً ، أخبار غزة تحت مختلف من بناها أو ملكها أو فتحها ، من المعينيين حتى يومنا هذا ، مروراً بالكنعانيين والفراعنة والاسرائيليين والآشوريين والفرس واليونان والرومان والمسلمين على تعاقب دولهم والصليبيين والمماليك والترك ثم نابليون وابراهيم باشا فالانجليز

هذا وفي الكتاب فصل موقوف على « غزة في يومنا هذا » (ص ٢٤٩ — ٣١٦) وهو حسن مفيد ، إذ فيه النظرة الواصفة الشاملة والاستقصاء في لمّ معظم ما يتعلق بعمران

(١) النجم يرمز الى اسم من اسماء المتعاونين على الانشاء في هذا الباب

المدينة ، وطريقة المؤلف هنا المشاهدة والتحري . وفي الظن ان هـذا الفصل حقيق بأن يُـرجع اليهِ اليوم وفي الغد

وفِقرُ الـكتاب ، مرتبة وفصوله متعاقبة . ثم فيه ٣٥١ صورة تتصل بالآثار والرجال ، وبعض هذه تُـلحـق الـكتاب بالرسائل الصحافية ، ثم ليس للـكتاب مسرد للرجال والاماكن

*

• تونس الخضراء • بقلم لجنة دائرة المعارف الاسلامية

١٤ × ١٩½ ، ١٣٧ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٣

في هذا الـكتاب ادرج نفر من لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية مقالات مقتبسة من تلك الدائرة كان قد ألفهـا طائفة من أعلام المستشرقين الفرنسيين . ورأت اللجنة أن تحذف المراجع التي تثبت في خواتم المقالات ، لأنها تريد اذاعة كتاب سهل المأخذ ، خفيف المادة . ورأت أيضـاً أن تستكتب الاستاذ شفيق غربال من أهل التاريخ في مصر ، فصنع بحثاً في « تونس المعاصرة » جاء كالمدخل الى مقالات المستشرقين . وقـد عرض المؤرخ فيه لمـا آلت اليه تونس بسبب المشـكلات التي وقعت لهـا وانتهت بهـا الى النزول تحت سلطان فرنسة ، غير أنها لم تُـسلب شخصيتُـها على نحو ما جرى للجزائر . فهي محميّـة أو كالمحميّـة ابتغاء الاستغلال . هذا وليس لهذا الـكتاب المفيد مشتمل للموضوعات ولا مسرد للأسماء أو غيرها .

*

• تغذية الحيوان • بقلم احمد غنيم

١٦ × ٢٣ ، ٢٠٠ ص ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٤٣

يبحث الـكتاب في انواع غذاء الحيوان وقبول هضمه لهـا وحاجته إلى مواد معينة ومركبات خاصة فيها صنوف من الڤيتامينات ثم حاجته الي مقادير قائمة على النسبة الدهنية . ويلي ذلك علائق الغذاء بجهد الحيوان ثم بنموه وتسمنته . ويختم هذا الـكتابَ الذي يعدّ مرجعاً عمليًّـا تجريبيًّـا جدولٌ لمواد العلف فيه فائدة دانية كبيرة

*

• جميل بثينة • بقلم عباس محمود العقاد

١١½ × ١٦½ ، ١٥٢ ص ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، ١٩٤٤

# ٣ - المخطوطات

## دَرْج بَرْدي مصري *

« فاسمك تخشاه الأمم يا ربّ »
« المزامير » ١٠٢ ، ١٥

من القول الشائع في أوراق البَرْدي انها جافة كالرماد ، وحقـاً يجب أن تكون كذلك اذا وقفنا عند المعنى الحقيقي للكلمة ، لأن المـاء يصيّـر تلك الأوراق كتلة من اللباب البنيّ الذي لا قيمة له . أما اذا إنصرفنا الى المعنى المجازي فالأمر ليس كذلك ، إذ الأوراق بعيدة كل البعد عن الجفاف ، هي ملأى بفوائد انسانية في أعين من يستطيع تأويلها

ومن الأمثلة في ذلك أخرى مقتنيات « جمعية فؤاد الاول لعلم البـرْدي » فهي فريدة في نوعها . هي دَرْج بردي — من أجزاء كثيرة — يشتمل على النصف الأخير من سِفر « التثنية » من التوراة، مكتوب بحروف جميلة كبيرة مستديرة على الحناء ، وهو الرسم الخاص بالقرن الثاني والاول قبل الميلاد . ولاشك انهُ كان مخطوطاً أنيقاً ، وذخيرة ثمينة عند صاحبها اليهودي — وهي جديرة بالتنويه لتاريخها المتقادم فلا يضارعها إلاّ قطعة من الترجمة اليونانية للتوراة في مجموعة بَرْدي رَيْلَـنْـدْز Rylands في منشستر، هي دونها في الحجم كثيراً ، ولـكنها من باب المصادفة العجيبة جزء من درج يشتمل على النصف الأخير من سفر « التثنية » أيضاً ويرجع الى القرن الثاني قبل الميلاد كذلك

ومما يبعث الطمأنينة في الأنفس أن النص الوارد في هـذه الأوراق المتقادمة مطابق — لولا اختلافات يسيرة — للنص المثبت في العصر الحديث . ومعنى هذا أن نسخاً من النص اليوناني للتوراة كانت متداولة في مصر ، وذلك بعد مدة دون القرنين ، من يوم نقل التوراة من العبرية الى اليونانية أول مرة في الاسكندرية . ثم إن نصوص هذه النسخ المتداولة كانت بالفعل نصوص النسخة التي طبعها سويتي Swete أو بروك Brooke ومَـكايـَن McLean

ان البقية الضئيلة لمجموعة بردي رَيْلَـنْـدْز لم تحفظ لنا مثلاً واحداً لكلمة كيريُس Kyrios ( الربّ ) أو ما يرادفها — هذا على حين ان بَرْدي القاهرة يطلع علينا بمفاجأة تامة ، فهو

* كتب هذا البحث خاصة لباب « التعريف والتنقيب » من مجلة « المقتطف »

يعطينا أمثلة كثيرة في النص اليوناني للكلمة العبرية الآتية (أو على الأحرى: الإرَميّة) «يَهفي» المؤلفة من أربعة أحرف . وهذه هي أول مرة نجد فيها كلمة عبرية مستعملة باطراد في نص يوناني من نصوص البردي على الاطلاق

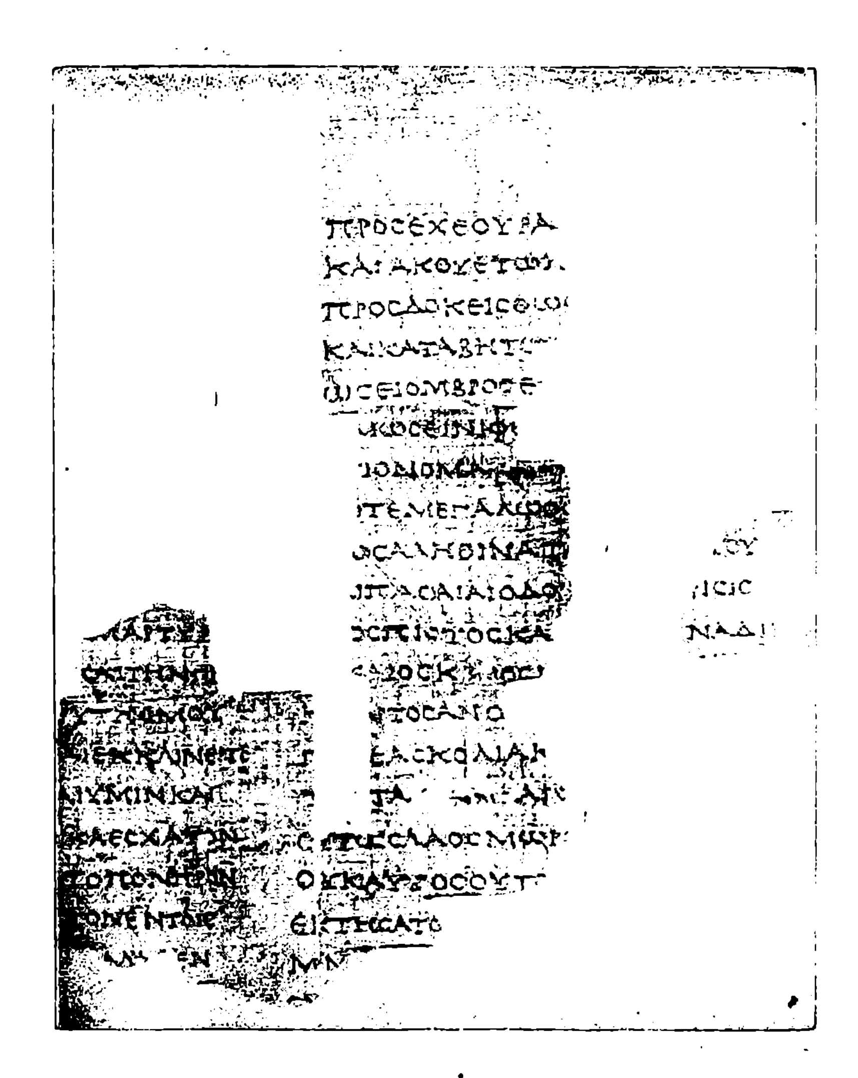
• • •

وتبيّن الصورة المنشورة هنا أربعة أجزاء صغيرة من التي يتألف منها الدَرْج ، وقد ألصقنا بعضها ببعض ، فبدت في عمودٍ من عشرين سطراً أو تزيد . ويشتمل هذا الجزء من الدرج على قسم من سفر « التثنية » ( من الاصحاح ال٣١ ، الآية ال٢٨ الى الاصحاح ال٣٢ ، الآية ال٢٧ ) أكثره من « نشيد موسى » . وانك ترى اسم الالـه بالعبرية في العمود الثاني في السطر السابع والخامس عشر . ولقد تعمّد الناسخ — ويكاد يكون من المحقق انه كان يهوديًا يتقن اليونانية — أن يتهيأ في كل مرة لاقحام الكلمة العبرية ، وذلك بأن يتيقن من وجود مكان يسع كلمة « يهفي » المكتوبة من اليمين الى اليسار بعد الفراغ من اثبات آخر كلمة يونانيـة مكتوبة من اليسار الى اليمين . فكان يقيس المسافة ويحددها بنقطة في كلا الجانبين ( أنظر سطر ١٥ ) . وهكذا نباغت الناسخ — بعد عشرين قرناً — في عمله ، فنستطيع أن نلمح الى طريقته

• • •

ان اسم الاله الخاص في التوراة العبرية وهو « يهفي » (يَهْـوه أو يهڤوڤا كما يكتب خطأ في الترجمة المقررة ) لا يرد في ترجمتنا اليونانية للتوراة ، ولا يرد كذلك في الترجمة التي تُدعى « سبعينية » نسبة الى مترجميها السبعين . وأهم ما نعلمهُ عن الترجمة السبعينية قوامهُ المخطوطات الانجيلية كالمخطوط الاسكندري ومخطوط الفاتيكان والمخطوط الامبروزي والمخطوط السينائيء المشهور ( وهو الآن بالمتحف البريطـاني بلندن ) . ولكن هذه المخطوطات كلها ترجع الى القرنين الرابع والخامس بعد الميلاد أي انها كُتبت بعد ستة قرون أو سبعة بعد ترجمة التوراة ( أو بعد ترجمة الكتب الخمسة الاولى منهُ على الاقل ) وقد قام بها المترجمون السبعون في عهد بطليموس فيلادِلْفس

ولقد ذهب بعض الثقاتَ الى أن كلمة كيريُس ( الرب ) استعملت منذ البدء لتأدية كلمة « يَهفي » في الترجمة اليونانية للتوراة ، ولكن ورقة بردي القاهرة التي نصِفها الآن تدحض هذا الزعم . ومهما يكن من شيءٍ ، فقدكان ترك الاسم الخاص للإله وهو « يَهفى » ، أو الأحرى : استبدال كلمة « كيريُس » ( الرب ) بهِ ، خطوة ذات خطر كان على المترجمين أن يخطوها . فقد كان استبدالاً بعيد الأثر وعلى هذا يقول س . ه . دود C. H. Dodd



بردي مصري من القرن الثاني ق.م. فيه جزء من « التثنية »
من الاصحاح ال٣١ ، الآية ال٢٨ الى الاصحاح ال٣٢ ، الآية ال٧
من « نشيد موسى »

في كتابه « التوراة واليونانيون » : ١٩٣٥ « قد ساهم المترجمون السبعون — بمجرد اسقاط اسم الاله الخاص — في تحديد معنى التوحيد » . وذلك أن كلمة « كيريُس » (الرب) تتضمن معنى السيد المهيمن فهي صالحة كل الصلاح لوصف الاله الواحد الفرد من حيث أن الاله مهيمن بما في هذه الصفة من الاطلاق . ولكن جرت العادة في القرن الثالث قبل الميلاد باستعمال كيريس على انها لقب من ألقاب بطليموس الرسمية ( راجع « حجر رشيد » ) وفي القرن الثاني او قبلهُ أطلق كيريُس على « الرب سيرابيس » الذي صاغهُ البطالمة . ويقوم المستر ألَن رُو Alan Rowe الآن في نجاح عظيم بالكشف عن معبده الرائع في منطقة عمود السواري

اما في القرن الاول قبل الميلاد فنحن نعلم ان « الرّبة ايزيس » اتخذت اللقب المجد « كيريه » . وطوال العصر القديم كله كانت الكلمة في التذكير (كيريُس ) وفي التأنيث ( كيريه) تُطلق على ثمانية وعشرين ربًّا واحدى عشرة ربة مختلفين . وانما هذا الاستعمال الوثني لكلمة كيريُس لقباً ملكيًّا والهيًّا قد جنَّب مترجمي التوراة اليهود عنها زمناً . ويبدو أن هذه الوثيقة الجديدة التي نصفها ونسميها بَرْدي فؤاد رقم ١٦٦ تدفع لنا دليلاً على تردد اليهود في ادخال كلمة كيريس في « الكتاب المقدس » . وأقرب ما يضارع هذه الوثيقة إحدى أوراق بردي أُكْزِرِنْكس Oxyrhynchus Papyri الجزء السابع رقم ١٥٥٧ ، وهي ترجع الى القسم الأخير من القرن الثالث بعد الميلاد وفيها صوّر الاسم الالهي «يهقي» بياءٍ عبرية ، وهي الحرف الأول من الاسم ، مكررة مرتين يقطعهما في الوسط خط أفقي غير متقطع

أما مصدر وثيقتنا الجديدة فهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كروكودَيْلوپلِس ( أرْسنوي ) أي مدينة الفيوم . والجالية اليهودية في مدينة ( أرسنوي ) هذه معروفة عند المؤرخين المحدَثين من زمن . فقد وردت اشارات اليها في وثائق ترجع الى القرن الثالث قبل الميلاد . وتشير بردية تاريخها سنة ١١٣ بعد الميلاد الى مجمع لهم وكنيس في مدينة ( أرسنوى )

• • •

لعلهُ من الحق أن يقال ان البردي جاف كالرماد ، فقد أوشك الرماد أن يتجمع هنا ، فلنقف عند هذا الحدّ الذي بلغناه في هذا البيان

و . ج . وَدِل W. G. Waddell
استاذ الدراسات القديمة في كلية الآداب
بجامعة فؤاد الاول

نقله من الانجليزية : **وهيب كامل** ، كلية الآداب

# باب الأخبار العلمية

## مصل للتعمير

نشرت رسالة العلم الأسبوعية انباءً تلقتها من روسية ، عن المساعي التي يبذلها العلماء الروس ، لاتقان سلاحٍ يكافحون به السرطان وضغط الدم العالي والشيخوخة المبكرة. وهذا السلاح مصل خاص استعمل في علاج الجروح فعجّل اندمالها

يصنع هذا المصل بتلقيح الجياد بخلايا الطحال ونخاع العظم . وتؤخذ هذه الخلايا من جثث أناس ماتوا فجأة وثبت ان اجسامهم ليست مصابةً بمرض معدٍ . ويرجع الفضل في هذه الطريقة الى الاستاذ اسكندر بوغولومتس ، مدير معهد البيولوجيا والباثولوجيا التجريبية في مدينة كييف سابقاً وقد فصّل أحد معاونيه — مرتشوك — الطريقة المستعملة في تحضير المصل وامتحانه في « المجلة الاميركية لآثار الطب السوفيتي »

على ان هذا المصل لا يؤثر تأثيراً مباشراً في جراثيم نوعية الامراض او في سمومها بل هو يحفز نشاط النسيج الضامّ Connective في الجسم وهذا النسيج هو في رأي بوغولومتس الساحة التي تنشأ فيها الامراض ، فحفظ هذا النسيج في مستوى عال من الصحة والنشاط، من أهم المسائل في مكافحة المرض . وعنده ان هذا المصل صنع لتحقيق هذا الغرض ولذلك يعتقد انهُ يصلح سلاحاً لعلاج احوال مرضية شتىً مثل الحمى القرمزية وحمى النفاس والسرطان وضغط الدم العالي والشيخوخة المبكرة وغيرها

*

وتأخير الشيخوخة من الأغراض العلمية التي اتجه اليها بوغولومتس في مباحثه. وهو يرى ان الأمد الطبيعي للحياة هو ١٢٥ سنة الى ١٥٠ سنة لأن أمد حياة الحيوان يبلغ أربعة اضعاف او خمسة اضعاف مدة البلوغ . والمصل الذي صنعهُ يحفز — على اعتقاده — الجهاز الفسيولوجي فيعزز قدرة المرء على مقاومة العدوى وغيرها من الافعال المرضية كالسرطان

## غذاء الجيوش

تضم الجيوش البريطانية في صفوفها جنوداً من مختلف الملل والنحل . وأغلب هؤلاء الجنود ينتمون الى أديان تحرم بعض الأطعمة ، في حين ان لجميعهم أطعمة وطنية خاصة تتولى فرقة خدمة الجيش الملكي البريطاني ترتيبها بحسب رغائبهم . مثال ذلك ان هناك الفرع الهندي لخدمات التموين الذي يقوم بتموين الجنود الهنود وتزويدهم بأغذيتهم الخاصة وهي تختلف باختلاف أديانهم ومناطقهم الاقليمية

## عقّار جديد ضد الملاريا

روت رسالة العلم الاسبوعية الاميركية خبراً في المقام الأول من عظم الشأن ، عن عقّار جديد لمكافحة الملاريا. فقالت في عددها الصادر في ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٤٣ ان هناك دلائل على ان الجيش الأميركي يملك عقاراً جديداً لمكافحة الملاريا ، وان الأمل الكبير المعلق بهذا العقار ، مدلول عليه في تجربة العقّار في ساحات الحرب حيث تكثر المناطق الموبوءة بالملاريا

ولم يذع اسم هذا العقّار ولكن الحكومة أشارت الى وجوده في تقرير أذاعتهُ عن خمسين جنديًّا تطوَّعوا لإجراء تجارب مكافحة الملاريا عليهم في غابات غينية الجديدة ، فمنحوا وسام الاستحقاق لما أسدوه في شجاعة ممتازة من خدمة لا يقتضيها الواجب العسكري

وقد قسم جميع المتطوعين لهذه التجارب ثلاث فرق ، احداها أعطيت الأتبرين (بديل الكينا) والثانية أعطيت هذا العقّار الجديد المجهول ، والثالثة لم تعط شيئاً ولا استعملت أساليب الوقاية . فلما أصيب رجال الفرقة الثالثة عولجت بالعقّار

وتقول رسالة العلم : ولعل هذا العقّار مركبٌ كيميائيٌّ جديد استحدث في أحد المعاهد المعنية بهذا الموضوع . وقد روي من سنة ان «البرومين» Promin وهو احد مشتقات عقاقير « السلفا » يفعل فعلاً مضاداً للملاريا

وقد روينا في جزء قريب من المقتطف ان البنسيلين يؤثر في لولبيات الزهري ، فحمل ما أثر عنهُ من هذا القبيل ، طائفة من العلماء على تجربته لمعرفة تأثيره في طفيليات الملاريا

## الصلة بين الغذاء ومقاومة المرض

كشف فريق من الاطباء الباحثين في جامعة منسوتا الأميركية ، سرّ الصلة الوثيقة بين الغذاء ومقاومة المرض ، إذ أثبتوا بالتجارب الخاضعة للتحقيق العلمي ، ان نشاط كريات الدم ( فاغوسيت ) التي تلتهم جراثيم الأمراض ، يضعف كثيراً اذا نزعت فيتامينات معينة من غذائها . وهذه الفيتامينات هي بعض ما ينطوي في فيتامين B المركب ، وكذلك فيتامين C . ويبدو كذلك ان نقص فيتامين A و D يضعف نشاط الكريات التي تلتهم الجراثيم . وقد أشار الاطباء الذين كشفوا هذه الحقيقة الى أن نقص هذه الفيتامينات لا يضعف الاجسام المضادَّة للامراض التي تتولد في الجسم بفعل اللقاح ضد مرض او آخر

ومن المحتمل ان يفضي هذا الكشف الى تبين حاجة الجسم إلى الفيتامين ، بامتحان نشاط الكريات التي تلتهم الجراثيم

## لافوازييه

احتفل العالم العلمي بالعيد المئوي الثاني لميلاد انتوان لورانت لافوازييه . وهو العالم الفرنسي الشهير الذي وضع أساس الكيمياء الحديثة فقيل فيه بحق انهُ المنشىء الاصلي لها .

ولد لافوازييه في السادس والعشرين من شهر اغسطس من عام ١٧٤٣ . وسنسرد لقرائنا نبذة عن بحوثه في علم الكيمياء . وعن خدماته للعلم بوجه عام . قد كان لافوازييه أول من بين بتجاربه المشهورة ان الهواء الجوي هو عبارة عن مزيج من غازين مختلفين . أحدهما هو غاز الاكسجين . والآخر هو غاز الأزوت الذي نعرفه الآن بغاز النيتروجين . وقد بين لافوازييه أيضاً ان الاكسجين يساعد على الاحتراق . وضروري للتنفس . وان النيتروجين يخمد اللهب والنار ويقضي على الحياة . وقد فسر لافوازييه تجارب كافنديش ، فأثبت ان الماء مركب من غازي الاكسجين والايدروجين وان الحامض النيتريك يمكن انتاجه باتحاد غازي الاكسجين والنيتروجين . وقد كان لافوازييه أول من عمل على اصلاح وتعميم المسميات الكيميائية . وقد رتب أول جدول للعناصر الكيميائية الموجودة . ويمكن القول ان بحوث لافوازييه في فروع العلوم المختلفة تقرب في مالها من شأن وتقدير العالم لها من بحوث العالم البريطاني الخالد السير اسحاق نيوتن

والمقام مناسب لأن نذكر ناحية أخرى من أعمال لافوازييه وجهوده . فقد اهتم لافوازييه طوال أيام حياته بخدمة الشعب عامة ، وبخدمة العلم والحث على الأخذ بهِ وتطبيقه في الصناعة خاصة . فقد عمل مثلاً في السنين الاولى من حياته العلمية على ملاحظة التغيير اليومي في درجات الحرارة والقراءات البارومترية في مساحات واسعة النطاق . وذلك للبحث في التغيرات الجوية ودراسة هل في الامكان التكهن عن حالة الجو . وهذه أمنية قد حققها العلم الحديث . وقد كان من أثر رسالة لافوازييه عن اضاءة الشوارع أن منحه ملك فرنسا مدالية ذهبية . وقد زار لافوازييه المناجم الفرنسية ومحاجرها ومصانع الحديد فيها . وذلك لمساعدة الاخصائيين في تخطيط خريطة جيولوجية للبلاد الفرنسية . وانتخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية . وهناك ساهم بنصيب وافر في تحضير التقارير العلمية عن مختلف الامور التي كانت تهم الشعب الفرنسي منها تقارير عن السجون والمخترعات والصناعة والصحة العمومية وغيرها. ولما كان عضواً في « شركة الفيرم » — وهي شركة خاصة كانت مهمتها جمع الضرائب عمل على الاصلاح والتحسين في طرق جمع الضرائب اصلاحاً اساسه الرافة والرفق بالناس

أما في املاكه الخاصة ومزارعه فقد جعل لافوازييه رائده دائماً تطبيق الطرق العلمية في الزراعة وفي تربية المواشي. ولما عين عضواً في « لجنة البحث في البارود » قلب طريقة العمل التي كانت تسير عليها اللجنة قبل انضمامه اليها رأساً على عقب. فأدخل من التعديلات والاصلاحات ما ضمن بها جودة نوع البارود وزيادة المقادير المصنوعة منه، مما جعل فرنسا في ذلك الوقت في حالة استعداد حربي، معتمدة في ذلك على ما تنتجه من البارود بدون ان تحتاج الى استيراد مقادير منه من الخارج

كان لافوازييه من اعظم رجال العلم وقد جمع الى علمه كفاءة ادارية وعناية كبرى بالمصالح العامة . وهي صفات ندر ان تجتمع في رجل واحد ( النشرة العلمية الشهرية )

## عصر السرعة واللاسلكي

ثم يسبح الخيال بأبي العلاء، فيستبق الأجيال، حتى ليتمثل عصرنا الحاضر: عصر السرعة الخاطفة وما يتلوه من عصور، متنبئاً بما كشفهُ العلم وما لم يزح الستر عنهُ الى اليوم، فيقول:

« ان شاء المليك ( الله )، قرَّب النازح وطواه، حتى يطوف الرجل – في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر – طوفهُ بالكعبة حول « قاف » ( وهو – فيما تقول الاساطير – جبل محيط بالأرض )، ثم يؤوب الى فراشه والليلة ما همت بالاسحار »

وثمة يطفر به خيالهُ الوثاب، فيتمثل في عالم الاماني والأحلام، ما بلغه العلم بعد عصره بألف عام، فيتخيل الاذاعة اللاسلكية التي أصبحت الآن حقيقة راهنة بعد أن كانت وهماً من الأوهام، فيقول:

« ويسلم بمكة، فيسمعهُ أخوه بالشام »

ثم يتمادى في خياله فيتمثل الانسان وقد استطاع أن ينقل النار في لحظات من مكان قصي الى آخر، أو يتخيله يغص باللقمة وهو في « خراسان » فيسرع الى ماء « زمزم » ليستقي منهُ ويزيل غصتهُ بهِ، أو بغيره من المياه البعيدة النائية، فيقول:

« ويأخذ النار من تهامة، فيوقد بها النار في يبرين وقاصية الرمال

ويجاز بأكيلتهِ ( يغص بلقمته )، في قصور فرغان ( في خراسان ) فيعتصر بماء المضنونة (زمزم) أو جرابٍ ( موضع بعيدٍ، فيه ماءٌ ) »

كامل كيلاني

( من مقدمة رسالة الهناء )

---

تصويب « وظيفة الجامعة في العالم الحديث » نشرت في العدد الماضي، وسقط منها سطر وبعض سطر. ودونك القراءة الصحيحة للعبارتين: ص ٣٠٢، س ١١، ١٢: « فانها بحثت من ناحية التربية العلمية ولكن أكثرها لم يوفق التوفيق كله في ناحية التربية الخلقية » — س ١٧: « واستثني الحاضر هنا جامعتي أكسفرد وكمبردج حيث يلتقي طلاب من مناطق متباعدة. وبسائر جامعات بريطانية ألحق الحاضر جامعات الولايات المتحدة »

# فهرس الجزء الرابع

## من المجلد الرابع بعد المائة


٣١٥ لا تزال الاشعة الكونية لغزاً كونياً : لفؤاد صروف

٣٢٠ معارض الجمعية الزراعية الملكية وتشجيع الصناعات الاهلية : لفؤاد اباظه باشا

٣٣١ ثورة في العلاج : للدكتور محمد رشاد الطوبي

٣٣٨ استغلال الاراضي البور بشمالي الدلتا في بضع سنوات : ليوسف فارس

٣٤٣ اوائل المشترعين في الاسلام : لمحمد عبد الغني حسن

٣٤٧ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد

٣٥٥ القبلة الأولى ( قصيدة ) : ليوسف الخال

٣٥٦ الدين والفلسفة ، التوفيق بينهما في المشرق : لمحمد يوسف موسى

٣٦١ اختبار العبقرية : لكامل محمود حبيب

٣٦٥ القوى الخلقية للموسيقى : لعثمان علي عسل

٣٧٢ هذه الحرب نضالان : لرئيس التحرير

٣٧٥ عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود المنجوري

٣٨٣ باب المراسلة والمناظرة * تحقيق سن عائشة : لأحمد محمد شاكر

باب التعريف والتنقيب

٣٩٣ ١ — المسائل : « النقد والعلم » بقلم بشر فارس

٢ — الكتب : « رسالة الغفران » نقلها من الانجليزية : برا كنبري . نقد بقلم ابرهيم عبد القادر المازني — « القاهرة » تأليف عبد الرحمن زكي . نقد بقلم زكي محمد حسن — « الملك الضليل » تأليف محمد فريد أبو حديد . نقد بقلم محمود تيمور — « الواحة » ديوان شعر لصلاح الاسير . نقد بقلم حسن كامل الصيرفي — ثم كتب أخرى ظهرت

٣ — المخطوطات : « درج بردي مصري من القرن الثاني ق. م. » بقلم و. ج. ودل . نقله من الانجليزية : وهيب كامل

٤٠٢ باب الأخبار العلمية * مصل للتعمير . غذاء الجيوش . عقار جديد ضد الملاريا . لافوازيه . عصر السرعة واللاسلكي ، بقلم : كامل كيلاني

# المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الرابع بعد المائة

١ مايو سنة ١٩٤٤ ‏‎ ‎‏٨ جمادى الاولى سنة ١٣٦٣


من أسرار الجسم الحي

# البيوتين والبيودين

## وصلتهما بخفايا النمو والمرض

علم الحياة علمٌ واسع النطاق كثير الشعاب ، يتصل من ناحية بالفلسفة ومن ناحية بعلوم الطبيعة والكيمياء . والمارشال سمطس يذهب في ما أُثِرَ عنهُ من مذهب فلسفي — يعرف بالمذهب الكلي Holism — الى أن الحياة ليست وحدةً مستقلةً بل نظام معين . والانسان في نظر أحد الفلكيين ليس إلاّ مركباً من مركبات الايدروجين في حالة غروية ، وقد أضيفت اليهِ أخلاط ومركبات أخرى . أما علماء الكيمياء فيحاولون أن يحلوا المادة الحية الى العناصر التي تتألف منها ، فيقيسون المقادير اليسيرة من المعادن التي تدخل في تركيب جسم من الأجسام ، وغرضهم أن يضعوا للجسم الحيّ تعريفاً كيميائيًّا ، كما يكتب كبار الطهاة ، وصفةً لكعكة معيَّنة أو نوع من الطعام ، ثم يعلنون أن المواد الكيميائية ، في جسم الانسان ، لا يزيد ثمنها على ثمانية عشر قرشاً صاغاً ! ولو استطاع الكيميائيون أن يركبوا من هذه المقادير جسماً حيًّا ، لكانت الأجسام الحيّة أرخص من بعض أصناف الكعك والحلوى

ولكن هيهات ! إننا نجهل الوصفة التي ركّبت بمقتضاها الأجسام الحية ، ولا بدَّ أن تبقى بعض الظواهر الغريبة في حياة الأجسام الحية ، كالسرطان والنمو والمرض مستمرّة حتى يكشف السرّ ، ويعلنَ الخفيّ

انَّ تسعين في المائة أو أكثر من تسعين ، من مادّة الكون، مفرغ في أجسام النجوم والسدم . والنجوم والسدم ، على عظمتها ، مركّبة من مادة في حالة توهّج يستطاع تفسيرها وتصوّرها وفقاً لمبادئ الطبيعة والكيمياء . ولكن الخلية على صغرها ، مركّب معقد من سوائل وغازات ومواد غروية ، وهي على برودتها إذا قيست بدرجات الحرارة العادية ـ لا بحرارة الشموس ـ مقرٌّ لتفاعل ذريٍّ وجزيئي خفيّ ، تنبثق منهُ شعلة الحياة . فالمادّة الحية ( الجبلة ، البروتوبلاسمة ) أقرب مظاهر الطبيعة الينا وأبعدها عنا في آن

وليس لأحد أن يتوقع كشف هذا السرّ العظيم ـ سرّ الحياة ـ بوحي يهبط على كائن من كان ، ولا لأحد أن يتوقع كشفهُ دفعةً واحدة . فلا بدَّ من البحث المحكم الدقيق ، ولا مفرَّ من النفوذ الى الحقائق الصغيرة ، رويداً رويداً ، ثم ضمّها بعضها الى بعض ، وقد لا يماط اللثام تماماً عن السرّ ، ولكن البحث العلمي ماضٍ في إماطتهِ قليلاً قليلاً . وفي ما يلي من المقال ، قصة حقيقتين، كشفهما العلم الحديث، تتصلان بأسرار النمو ومقاومة المرض في الجسم الحيّ (١)

## البيوتين

أطلق اسم « البيوتين » على أحدث عضوٍ في أسرة من الفيتامينات تعرف باسم فيتامين مركّب B . ومع أن تركيبهُ الكيميائيّ لم يعرف إلاّ من عهد قريب ، فإن مبدأ قصتهِ يرجع الى سنوات خلت

ففي سنة ١٩٢٧ كان فريق من العلماء الألمان ، يجرّبون تجارب بطائفة من الجرذان ، جففوا بياض ( زلال ) البيض وأدخلوهُ في طعامهم . وكانت الجرذان حين أكلت هذا الطعام ، تنتفض حيوية ونشاطاً ، فلم تنقض عليها ثلاثة أسابيع ، حتى ظهرت عليها أعراض غريبة . فقد بدأ وزنها يقلّ وكساؤها الوبريّ الأبيض الناعم ، يخشن وينزّ ، وظهرت رقع عليهِ زال الشعر منها تماماً . ثم فقدت مرونة قوائمها فلم تلبث حتى تيبّست . وبعد أيام ماتت . وكان مبعث استغراب هؤلاء العلماء ، أن الجرذان كانت تحتفظ بعافيتها كاملة ، لو كان زلال البيض المضاف الى طعامها قد سُلق . فمن الواضح أن في زلال البيض النيء سمّاً خاصّاً يسمّ هذه الجرذان

(١) اعتمدنا على مجلة «خلاصة العلم» و«رسالة العلم الاسبوعية» ومجلة «هاربر» ومقال لبول ده كروف سبق نشره في ريدرز دايجست

فعني العلماء والأطباء في كل صقع بأخبار هذه الجرذان . كيف يفسّرون هـذا المرض وما يعقبهُ من وفاة ؟ وما هو سبب مرض زلال البيض ؟

على أن فريقاً آخر من العلماء كان مُكبّاً على دراسة نموّ الخميرة فوجدوا أن هنـاك عاملاً غذائيًّا ، لا بدَّ منهُ لخلايا الخميرة ، حتى تنمو نموًّا سويًّا ، فأطلقوا على هذا العامل اسم فيتامين H أو « بيوتين » فحاول هؤلاء العلماء ، أن يطعموا البيوتين ، للجرذان المصابة بمرض زلال البيض ليروا ما يكون المصير ، فنجت الجرذان مما أصابها وبرئت . فثبت أن البيوتين الذي يولّـد خلايا الخميرة ، يبرئ من مرض زلال البيض

فتوسّـل العلماء بهـذه الحقائق ، الى المضي في بحثهم ، عسى أن يكشفوا سرَّ الجرذان التي تقضي بزلال البيض . فأفضى البحث في معامل شتى الى تبين بعض السرّ ، واذا هو أن زلال البيض يحتوي على مادة معيّـنة ، تسلب الطعام ما فيـه من بيوتين ، باتحادها بهِ . فيمتنع هضمه وتمثيله على الوجه اللازم . وتوسلوا بأساليب الكيمياء الحيوية ، فتبينوا أنَّ هذه المادة « بروتين » واطلقوا عليها اسم « افيدين » وقد اشتقوه من لفظ « افيد » Avid ومعناه « جشع » أو « نهم » لأن هذه المادة فيها جشع للبيوتين والمعروف حتى الآن ، أنّ الافيدين لا يوجد الاّ في زلال البيض . ومقادير يسيرة جدًّا منهُ ، تكفي لاحداث المرض في الجرذان ، فاذا أُغليَ الافيدين خلال ثلاث دقائق الى نصف ساعة ، زال فعلهُ

ولا يزال الافيدين موضـع عناية عظيمة عند فريق من الباحثين ، ولكنَّ موضوع البيوتين ، كان أدنى إلى البحث ، وأقرب الى الفائدة ، فما أوفت سنة ١٩٣٣ حتى كان السؤال الاول عند العلماء المعنيين ببحثهِ ، هو هل يستطاع الحصول عليـهِ نقيًّا من الشوائب ؟ فالفيتامينات الأخرى قد عزل بعضها ، وركب بعضها بالتأليف الكيميائي ، فهل في الوسع إخضاع البيوتين للعزل والتأليف ؟

وجاء الجواب في سنة ١٩٣٦ فكان بالايجاب . فبعد عناء عظيم في التصفية والفصل والتركيز تمكن الباحثان كوجل وتونيس الالمانيان من عزل مقدارٍ منهُ يبلغ ثلاثة أجزاء من مئة ألف جزء من الأوقية استخرجوه من ربع طن من صفار ( مح ) البيض ، وكان هذا المقدار مبلوراً صافياً كالبلور لا تشوبه شائبة . أما وقد حضّـر مقدار يسير من البيوتين المبلور الصافي من مصادر طبيعية ، أفلا يستطاع تركيبهُ بالتأليف الكيميائي في أنابيب المعمل وبوتقاتهِ ؟

والواقع أنّ ظفر كوجل وتونيس بعزله ، كان توطئةً لا غير ، لبحث دامت سنوات أخر ، قبل الظفر بالحلّ النهائي

ويعود الفضل في معرفة تركيب البيوتين ، ثم في تركيبهِ بالتأليف الكيميائي الى الاستاذ ڤنسان دي ڤينيو وأعوانهِ في مدرسة الطب بجامعة كورنيل الاميركية . وقد منح دي ڤينيو في السنة الماضية جائزة « ميد جنصن » جزاءً لهُ على بحثهِ واعترافاً بفضله

على أننا نسأل : لماذا يعدُّ العلماءُ تركيب البيوتين بالتأليف الكيميائي أمراً خطير الشأن ؟ والجواب عن هذا السؤال مزدوج . فتحضيره بالتأليف الكيميائي يتيحهُ للباحثين، في مقادير أوفر وأثمان أرخص فينشط بحثهُ والتجريب بهِ . والبيوتين كثيرٌ في الكبد والكليتين والغدة الحلوة -- البنكرياس — والخميرة ومَحّ البيض . ولكن استحضارهُ من هذه المواد شاق وكثير النفقة . فاذا أثبت البحث نفعه ، شقَّ استعماله استعمالاً واسع النطاق في الطب إلاَّ إذا كانت المقادير المتاحة منهُ كبيرةً وافية

والبيوتين ، موضع عناية عظيمة لأنهُ مادّة فعَّالة من الناحيـة الفسيولوجية ، فلو استعمل منه مقدار يسير جداً لاستطاع أن يحدث تفاعلاً كيميائيًّا . وفعله في تنشيط النمو يستبين ولو كان المقدار الموجود منه لا يزيد على جزءٍ من أربع مئة بليون جزءٍ . وهذه القوَّة ، تبعث على الدهشة ، حتى بعد مقابلتها بقوة المواد الاخرى الفعالة من الناحيـة الفسيولوجية. فالثيروكسين مثلاً — مادة الغدة الدرقية — فعَّال إذا كان المقدار الموجود منه جزءًا من أربعة بلايين جزءٍ والادرينالين فعال اذا كان المقدار الموجود منه جزءًا من عشرين مليون جزء . فمادة كيميائية ، قوية الفعل كالبيوتين ، نسيج وحدها أو هي في طبقة خاصة

على أنَّ العناية بالبيوتين ، لا تقتصر على شدَّة فعلها ، او فائدتها في تغذية الجرذان ، المصابة بمرض زلال البيض . فقد وجد الدكتور وليم تراجر أحد علماء معهد روكفلر أن تكاثر طفيلي الملاريا في أجسام فراخ الدجاج والبط ، يتأثر بمستوى البيوتين فيها . وبحثهُ هذا يفضي الى الظن ، بأن قلة البيوتين ، في هذه الحيوانات ، يزيد تعرُّضها للملاريا . ويقابل هذا أن إضافة البيوتين ، بعد الاصابة ، أضعف شدَّة الاصابة . فاذا صحت هذه النتائج وتأيدت ، فهنا مثل على ڤيتامين معين — هو البيوتين — يعزّز المقاومة ضد مرض معين — هو الملاريا . وما دام البيوتين ، يصنع الآن بالتأليف الكيميائي . ففي الوسع إباحة المقادير اللازمة منهُ لتجربة جميع التجارب اللازمة ، الخاصة بمكافحة الملاريا على هذا الاساس

ومن أغرب الحوادث التي رويت، حادثة سجلها ونشرها الدكتور روبرت وليمز ، في فبراير ١٩٤٣ ، وهي حادثة نقص البيوتين ، في جسم عامل إيطالي عمره ست وستون سنة . كان

هذا العامل منذ حداثته مولعاً بالبيض النيء ، فيمزج بيضةً أو بيضتين بملء كاس من النبيذ ويشرب المزيج . وقد أقام ست سنوات يفعل ذلك مراراً كل يوم . وولعه بالبيض حمله على شراء مزرعة لتربية الدجاج فيها ، من أجل بيضها ، وكان يأكل من عشرين* بيضة نيئة الى ٧٠ بيضة كل أسبوع . وكانت تجيء عليه أيام لا يتناول فيها شيئاً سوى البيض النيء والنبيذ . وقد ظهرت على بشرته الأعراض التي ظهرت على الجرذان الذي أدخل زلال البيض النيء في طعامها . ودلَّ بحث حالتهِ في المستشفى ، على نقص مقدار البيوتين في جسمه . فعولج بالبيوتين ، وسائر أعضاء أسرة فيتامين B ولكن الاكتفاء بأخذ البيوتين في طعامهِ لم يكف لاحداث التركيز الوافي من البيوتين في جسمه ، فحقن بهِ حقناً ونجح العلاج

على أن الاهتمام الأكبر بالبيوتين ، آتٍ من ناحية ما يعلق بهِ من أمل في كشف سرٍّ من أسرار السرطان . فبعض الأنساج السرطانية ، لا يحتوي على مقدار كبير من البيوتين ، وبعض آخر منها ، يحتوي على مقدار عال جدًّا يفوق المعدل السوي . فاذا كان للبيوتين صلة ما بنمو خلايا السرطان ، كما له صلة بنمو خلايا الخميرة ، أصبح في الوسع من الناحية النظرية على الأقل ، خفض النمو السرطاني ، بتحديد المتاح من البيوتين . وقد امتحنت هذه النظرية امتحاناً أوليًّا ، فلم يسفر الامتحان عن نجاح ، ولكن البحث ماضٍ في سبيلهِ ، وما عرف حتى الآن ، ليس إلاَّ فاتحة فصل جديد في تاريخ الطب وتقدمهِ .

## البيودين (١)

أما قصة « البيودين » و « البيودينات » فترجع الى سنة ١٩٣٥ ففي تلك السنة أسس أسقف مدينة سنسناتي الاميركية معهداً للبحث العلمي واختار لادارته من الناحية العلمية ، رجلاً يدعى الدكتور جورج سبرتي Sperti وكان حينئذٍ في الخامسة والثلاثين من عمره ، ولكنهُ كان قد أحرز شهرة واسعة بين العلماء ببحوثه الباهرة ، فأتاح له المعهد الجديد الفرصة وأفسح له المجال ، إذ مكنهُ من انشاء معمل للبحث في سنسناتي وآخر في « پام بيتش » بولاية فلوريدا للبحث في خلايا الأحياء المائية ، وجمع حواليهِ طائفة مختارة من علماء الطبيعة والكيمياء الحيوية وفسيولوجية النبات وما أشبه ، ووثق الصلة بين المعهد وبين عدد من المعاهد الأخرى وكان الغرض الأكبر البحث في السرطان

فلما اجتمع سبرتي بزملائهِ ذكرهم بحقيقة غريبة غامضة في فعل الخلية . فعند ما يصاب نسيج حي ما بجرح ، تنشط الخلايا التي تجاور الخلايا المصابة ، الى التكاثر تكاثراً سريعاً ، ولا تعود الى حياتها السوية إلاَّ بعد ما يتولد النسيج الجديد ويندمل الجرح . فلا بدَّ أن تكون

(١) بيودين مركب من « بيوس » : حياة و « ديناميس » : قوة

هناك مادة ، تسيطر على حياة الخلية وتحركها حيناً بعد حين . قال : فاذا كشفتم ما هذه المادة وما فعلها وكيف تفعل ، فلعلكم تفوزون بالمفتاح الذي يفتح أغلق مغلقات الخلية

فكانت الخطوة الأولى ، إحداث أذًى ما في الخلايا الحية ، ثم مراقبة ما يقع لها ويتمّ فيها . فاستعمل سبرتي الاشعة فوق البنفسجية ، وهي على ما نعلم مفيدة اذا كانت قوتها ومقاديرها يسيرة ، وفتاكة اذا كانت كبيرة . فذهب إلى أنهُ اذا استعمل هذه الأشعة ، في قوة ومقدار ، فوق الاشعة المفيدة ودون الفتاكة ، حدث الأذى أو الضرر بالقدر المطلوب . وقضى هو وزملاؤه السنوات التالية ، وهم مكبون على أنابيب الاختبار تحت مصابيح الاشعة . خلايا الخمائر وخلايا أنساج الأجنة من الفراخ وخلايا السحالي والسمك وأكباد الحيوان وما أشبه ، جميعها عُرّضت للاشعة فوق البنفسجية ، وكانوا حين يبلغ الضرر الواقع لهـا من التعرض للاشعة ، مرتبة معيّنة ، يأخذونها فتغسل في محلول خاص ثم تقطّر الخلايا من المحلول . فاذا كان في هذه الخلايا مادة ما تولدت فيها بفعل الضرر الذي أصابها ، فيجب أن تكون في هذا المحلول المعقم الخالي من الخلايا

وفعلاً وجدت هذه المادة في هذا المحلول . وقد أثبت وجودها بتغطيس قطعة نسيج من جنين فرخ — لم تعرّض للاشعة — في هذا المحلول ، فاذا نشاط عجيب في نمو الخلايا وتكاثرها ، وكان هذا النمو بادياً على شرائح المجهر . أي أن الخلية الحية أباحت أخيراً أحد أسرارها

ثم تبين الباحثون أن هناك أصنافاً مختلفة من « البيودين » فصنف يحدث نشاطاً في نمو الخلايا وتكاثرها فيفعل فعلاً ناجعاً في اندمال الجروح . فأطلقوا عليهِ « عامل التكاثر » . وصنف ينشط التنفس فأطلق عليهِ «عامل التنفس» ، وصنف يزيد سرعة الخلية في استهلاك السكر للفوز بالطاقة التي يولدها احتراقهُ ، ولا تزال صلة « البيودينات » بالسرطان موضع بحث . ولكن سبرتي لا يرضى ، أن تهمل حقيقة علمية جديدة الى أن تكشف صلتها الوثيقة بالموضوع الأصيل الذي أفضى الى كشفها . والى رأيهِ هذا مردُّ « مروّخ البيودين » الجديد الفعّال في شفاء الجروح . لأنهُ إذا صحّ أن البيودين — عامل التكاثر — يحرّك الخلايا السليمة الى النمو والتكاثر فيجب أن يكون فعّالاً في شفاء حروق تصاب فيها مساحات واسعة من الجلد . وكذلك استخرج بيودين التكاثر من أكباد الحيوان ، واستخرج بيودين التنفس من خلايا الخميرة ، ومزجا بمادة دهنية فاذا المروّخ يفعل فعل السحر في شفاء هذا النوع من الحروق . ومن عجائب هذا المروّخ أن المصاب بالحرق لا يشعر بألم عند ما يدهن حرقه بمروّخ البيودين مع أن هذا المروّخ لا يحتوي على مخدّر ما . أما سر فعلهِ هذا فلم يعرف بعد .

# الى زائرة

لو كنتِ ناصعة الجبينْ هيهاتِ تمنحني الزيارهْ
ما روعةُ اللفظِ المبين ؟ السحرُ من وحي العباره

◆

ظلٌّ على وَهج الحنين رسمته معجزةُ الإشاره
خطٌّ تساقطَ ، كالحزين ، أرخى على العزم انكساره
ماذا بِوجد المحسَنين ؟ صوتٌ شجٍ خلف الستاره

◆

غيَّبتِ في العَجب الدفين معنىً براعته البكاره
دراً يفوت الناظمين ونهضتِ تهديني نجاره
خطواتُ وسواسٍ رزين : وهبٌ تُعمّيه الطهاره

بشر فارس

# ينبوع الفن

## مسرحية في ثلاثة فصول

بقلم خليل تقي الدين

---

### أشخاص الرواية

الكاتب ـ القلم ـ الورقة البيضاء ـ الدواة

المكان لا يتغير في المشاهد الثلاثة . فهو غرفة المكتب في منزل الكاتب . المسرح متخذ شكل منضدة كبيرة عليها ورق أبيض وقلم ودواة . هنا وهنالك كتب كثيرة وصحف ومجلات ، بعضها مرصوف على الرفوف ، وبعضها منتثر على الارض ، وعلى المقاعد . خزائن تندفق الكتب منها . مقعد شرقي مستطيل الى جانبه نارجيلة مهملة كأنها متروكة منذ عهد بعيد . الغبار يعلو الاشياء . لا نظام في المكتب ولا ترتيب ، لكن المكان ، مع ذلك ، يعمر بهذا الاضطراب عمراناً محبباً الى النفوس . على الجدران صور زيتية بغير اطارات من ريشة الجميل وفروخ والانسي (مصورون لبنانيون) ، وصورة كاريكاتورية تمثل الكاتب

---

# المشهد الاول

الزمان — الهزيع الأول من الليل

| | |
|---|---|
| الدواة ( للقلم ) | لم هجرتني ؟ . . . أما ظمئت شفتاك ؟ ! |
| الورقة البيضاء ( للقلم ) | وكيف تجفوني ، أيها الماكر الناسي ؟ |
| القلم | أنا أهجر وأجفو ؟ معاذ الله ! لـكنه «هو» الذي هجر، و« هو» الذي جفا ! ! |
| الدواة | هو ! هو ! دائماً وأبداً هو ! متى تخلع عن عنقك هذا النير ؟ . . |
| الورقة البيضاء | أجل ! متى تتحرر وتحررنا ؟ |
| القلم | نحن ، بدونه لا شيء : جماد لا حياة فيه ! |
| الدواة | لا بل هو بدوننا لا شيء : حيوان ناطق ، لا أكثر ولا أقل ! ! |
| الورقة البيضاء | وهو « لولانا » أريج لا يفوح ،ولحن لا يسمع، وسراب في صحراء ! |
| القلم | لـكننا لا نحيا إلاّ به . |
| الدواة | وهو ؟ أترى الى هذه الحياة التي يحياها بعيداً عنا ؟ |
| الورقة البيضاء | لقد انحط الى مستوى البشر ! |
| الدواة | وكان بنا يسمو ، ونحن نسمو بهِ الى ذرى الآلهة ! |
| الورقة البيضاء | كنا نبني له المجد ، ونهيئ البقاء |
| الدواة | ونضفر لجبينه أكاليل الخلود |
| القلم | وما يعنيه من البقاء والمجد والخلود ، وقد دانت له الحياة ، ومنحته نعمة الحب كنزها الأكبر ؟ ! |

الدواة إنهُ إذن يضحي بنا على مذبح الحب ، وينسانا بين الشفاه المعسولة ، والعيون النجلاء ؟

الورقة البيضاء وتدافع بعد ذلك عنهُ ؟

القلم واحمرتاه ! كنت قصبة جوفاء، فصرت، بين أنامله، حيًّا ، بل خالقاً يبدع الحياة . فكيف أنكره ؟

الدواة ومن أرادك على انكاره ؟ لكن أئذا هجرك هو ، وجفاك ، تهجرنا أنت ، وتجفو ؟ ؟

الورقة البيضاء وتنظر اليّ فلا تشفق على عريي ؟

القلم وحق الألف والباء ، إن بي لشوقاً عنيفاً الى عناقك أيتها الحبيبة البيضاء . ولكن ، ما حيلتي وهو يطيل الهجران ؟

الدواة وأنا ؟ أتراك نسيتني أيها الجاحد ؟

القلم وكيف أنساك ، وبي ظمأ قاتل الى نغبة من ينبوعك الأزرق ؟

الدواة فعلامَ لا تأتيني إذن ؟

الورقة البيضاء ولا تكسو عريي بالكلام الخالد ؟

القلم مهلاً ! فهذه ساعته الكبرى ، ولا بدّ أنهُ آت ، فقد هيّأ لهُ الليل الجو الذي يحب . سيجذبه السكون الينا كما كان في ماضيات الأيام

الدواة كان ذلك بالأمس، وارحمتاه على الأمس البعيد !

الورقة البيضاء يوم كان يدلف اليّ خفيف الخطى كما يدلف العاشق الى معشوقه ، فاذا داعبتني يداه ، بعثت فيّ لمساته لذة راعشة، ودغدغ صفحة خدي لهاثه الحارّ ، يوم ينحني عليَّ انحناء الحبيب على الحبيب

الدواة ويذيب في قلبي عصارة قلبه !

القلم ونأخذ جميعاً في الخلق والابداع . . .

الورقة البيضاء فاذا صحرائي واحة خضراء ، وسرابي جني وماء ، وجدبي خصب ، وعريي كساء !

الدواة وإذا كل قطرة من ينبوعي فكرة رائعة « وصورة حية » وعاطفة نابضة

القلم وإذا نحن في عرس دائم مع البشر المبدع الخلاق

الدواة عمده ليطبع الزمان بالطابع الذي لا يمحى ولا يزول

الورقة البيضاء طابع الفن وميسمه الأكبر

الدواة لكن الليل قد انتصف أو كاد وهو لا يأتي

الورقة البيضاء شأنه منذ شهور

الدواة ونحن ، في انتظاره ، نتحرّق ، ونفنى ، ونذوب

الورقة البيضاء ويتراكم علينا غبار النسيان

القلم وكأن توالي الأيام يسلّمنا الحياة ليعيدنا ، كما كنا ، جماداً بغير حياة !

الدواة لا بد من حيلة نردّه بها إلينا

الورقة البيضاء لا بل نرده بها الى نفسه

القلم ولمَ لا تقولان نرده الى الأجيال ؟

الدواة أحسّ أنني هرمت منذ هجرني ، وأن عروقي جفّت ، وغاض في قلبي ماء الحياة

الورقة البيضاء فماذا يحلّ بنا إذا طال بهِ الهجران ؟

الدواة رباه ؟ وماذا يحل بهِ ؟ ...

القلم يظل واحداً في القطيع . نكرة تحمل اسماً ، وتعيش عمراً ، ثم تمضي كأن لم تكن ، كما تعيش وتموت الحشرات. فأما أنتِ فتعودين زجاجة فارغة ، تلقى في الطريق ، وأنت صرة صغيرة لشيء حقير ، وأما أنا فأعود قصبة جوفاء تلقى في النار ، أو تدوسها الاقدام

الدواة بربك جنبنا وجنبه هذه النهاية المروّعة

القلم لا بدّ من أن أقتفي أثره وآتيكما بالخبر اليقين، ثم نرى في أمرنا

الدواة إنها لفكرة رائعة ، ولكن أتقوى على اللحاق به ؟

القلم سأندس في جيبه ، على سابق عهدي بهِ ، يوم كان مقامي فوق قلبه

الدواة يالك من قلم مجدود !

الورقة البيضاء ليتني كنت مكانك !

≋ الستار ≋

## المشهد الثاني

الزمان — بين دبيب العتمة وانطفاء النور

القلم وارحمتاه لنا ! واشباباه ! ( يجهش بالبكاء )

الدواة إنك تخيفني !

الورقة البيضاء وتبعث الرعشة في جسدي

القلم الويل لنا مما ينتظرنا !

الدواة ما لك تتكلم بالألغاز ؟ ألا تريد أن تهدأ وتحدثنا عما رأيت وسمعت ؟

القلم ماذا تريدين أن أقول ؟ حسبك أن تعلمي أنهُ لن يعود . لن يأتي . لن يأتي أبداً . أيكفيك هذا ؟ !

الدواة ( منتحبة ) يا ضيعة شبابي ! أيها الينبوع المتفجر من صدري لم يبق لك إلاّ أن تغور . قبلني يا حبيبي قبلة الوداع فقد دنت نهايتي ودقت ساعة الفراق

الورقة البيضاء لقد هبّت عليّ لفحة الموت . وإني لأحس طعمه في حلقي

الدواة ولكن ألا حدثتني الحديث كله ؟

القلم إن صاحبنا عاشق متيّم . فلا عجب إذا نمي ساعته الكبرى ، فساعات حياته كلها عامرة بالحب

الدواة عرفت ، إذن لماذا يخلف مواعيده معنا ؟

القلم أجل ! لأن له كل ليلة موعداً أحب إليه وأشهى !

الورقة البيضاء مع التي يهوى ؟

القلم نعم . « وهو » الى الآن ، عاشق محظوظ . كلما لقيها حدثها حديثاً متصلاً لا نهاية لهُ ، كبعض ما نحسن من كلام

الدواة وهي ، ماذا تقول لهُ ؟

القلم تتدلل . فهي ، ككل الحسان من بنات جنسها ، لعوب إلى حد كبير

الورقة البيضاء وهل تبادله حبًّا بحب ، أم تراها تهزأ بهِ ؟

القلم ليتها صدّته وداست قلبه بقدميها . لكنها تفرض سلطانها عليه ، وتُحكم ، شيئاً فشيئاً ، وضع النير في عنقه

الدواة وهل هي جميلة ؟

القلم ( للدواة ) لها عينان أصفى من ينبوعك !

الورقة البيضاء لشدّ ما تبالغ !

القلم ( للورقة ) . . . وشفتان أرقّ منك !

الدواة أكمل . أكمل . ولماذا لا تقول : وقدٍّ كقدّك الخيزراني أيها الفاجر ، ما دمت أنت أيضاً قد أخذت بصفاء عينيها ورقة شفتيها !

الورقة البيضاء تبًّا لك من زير نساء ! لست خيراً من الرجال

القلم لِمَ تظلميني ؟ أنا ، إذا شئت ، زير ورقة ودواة . أما النساء فصاحبنا أدرى بهنّ

الدواة ولكنك لم تقل لي بعد هل تحبهُ هذه الفاجرة ؟

القلم يخيل إليّ أنها تحبهُ ، أو هي منجذبة إليه بفضل ما بنيناه له نحن ، سمعتها أمس تغني له مقاطع من شعره ، فراح في نشوة من الطرب ، ثم أكبّ على يديها يوسعهما تقبيلاً ، وهي تضحك وتغني وتبعده عنها بتراخ . . .

الورقة البيضاء يخيَّل إليَّ أنها لا تمنع عنهُ شيئاً . وهذا ما يخيفني

القلم كلاً كلاً . إنها بعد ، لم تستسلم اليهِ ، ولكنني أخشى . إنها على أهبة أن تفعل

الدواة يجب أن نحول بينهُ وبينها ! يجب أن نجنبه هذه النهاية المحزنة حتى يعود إلـهاً مبدعاً بعد أن صار بشراً حقيراً !

القلم وأعجب ما في الأمر أنها لا تفتأ تسألهُ لماذا مكث حتى كاد ينساه الناس

الدواة إنها لا تخلو من الفطنة والذكاء . لكن أذكى النساء أكثرهنَّ خطراً

القلم قالت لهُ : ألم أوح اليك بشيء ؟ إنك لا تحبني إذن !

الورقة البيضاء وما كان جوابه ؟

القلم جوابه ؟ ... دعي الأدب والشعر فهما وهمٌ ، وأنتِ الحقيقة . إن في عينيكِ من الشعر ما لم يحلم بهِ الأولون ولا الآخرون ، وفي فمكِ من العذوبة ما لم تنطوِ على مثله ألحان الموسيقيين . . . بهذا ، وبمثل هذا كان يجيبها ، وهو مدله نشوان

الدواة الآن عرفت لماذا يجفونا !

القلم لأنهُ سعيد . أو يخيل إليهِ أنهُ سعيد . هكذا خلقوا ! إنهم لا يذكروننا ما دامت كؤوس اللذة مترعة في أيديهم ، فاذا تحطمت ألهب الشقاء نفوسهم ولسع الألم قلوبهم فلاذوا بنا يغنّون ، ويبكون ، ونفحوا الأجيال بفلذات أكبادهم قطعاً وآياتٍ مكتوبة بنجيع الفؤاد ، هي وحدها التي تبقى ، وبها وحدها يخلدون

الدواة كل أملنا إذن أن يشقى ؟ !

القلم أجل ! وأن يعاني ألماً عظيماً . الناس مدينون للألم بكل رائع ، وبكل سام ، وبكل جميل ! لولا الألم لما كان شعر ، ولا موسيقى ، ولا نقش ، ولا تصوير !

الورقة البيضاء تبارك الألم إن ردَّ صاحبي إليَّ !

القلم اسمعي ! جميع الخالدين من أبناء الفن أحبّوا . وجميعهم أحبوا حبًّا عظيماً . وهم لم يخلدوا إلاّ لأنهم تعذبوا في حبهم

فتسنى لهم أن ينعموا بنعمة الألم الأكبر

الدواة ينبوع الفن !

القلم هذه قسمتهم . إنهم لا يحسنون الغناء ، ولا يبدعون إلاّ إذا غمرهم اليأس والشقاء

الدواة أتراهم في هذه الحالة يستغنون عني ؟

القلم أجل ! لأنهم يغمسون أقلامهم في نجيع الفؤاد !

الورقة البيضاء وما يدريك ان صاحبنا لا يشتاقنا في غمرة السعادة هذه ، أو يحس الحاجة الينا ؟

الدواة أجل ! ليغني نشيد النعيم كما ينشد غيره لحن الشقاء ، سواء بسواء !

الورقة البيضاء أليست اللذة الكبرى كالألم الأكبر ، مهمازاً للعبقرية ؟

القلم كلاّ ثم كلاّ ! إنهم لا يبدعون إلاّ إذا تعذبوا . ألم تسمعي بالمجنون ، مجنون ليلى ؟

الورقة البيضاء بلى ! حدثتني عنهُ جدتي

القلم أكان هنالك مجنون ليلى ، لو زفت اليهِ ليلى ؟

الدواة من يدري ؟

القلم كانا يصبحان زوجين حقيرين في خيمة ضائعة في الصحراء ، يرعيان الغنم ، وينسلان الأولاد

الورقة البيضاء وهما اليوم ...

القلم خالدان في جملة الخالدين

الدواة وغداً ؟

القلم كذلك . لا أمس للخالدين ولا غد . إنهم أسمى من أن يحدهم زمان

الدواة وتريد أن تزج صاحبنا بينهم ؟

القلم ولِمَ لا ؟ على شريطة أن أشقيه

الدواة لكنه يبيع البقاء والخلود بساعة معها

القلم لأنهُ بشر أحمق . ونريده على أن يكون نصف إلـه !

الدواة وعلامَ عزمت إذن ؟

القلم — دعيني أقص عليك تتمة الحديث . لقد ضرب لها أمس موعداً يلقاها فيه

الدواة — متى ؟ وأين ؟

القلم — هنا ، غداة غد ، في مثل هذه الساعة ، بين دبيب العتمة وانطفاء النور ، وعند ما فارقها راح يطوّف في الشوارع ويهذي كالمجنون ، ويردد : غداً ! غداً ! واطول شوق المستهام الى غد ! وأكبر ظني أن موعد الغد موعد عظيم ! وظل يسير على غير هدى حتى قادته رجلاه الى الشاطىء ففتح ذراعيه للبحر وأخذ يصرخ بصوت عالٍ كأنه يناديها من بعيد : تعالي إليّ ، فؤادي يناديك في هدأة الليل ، هل تسمعين . . . ثم صاح : تعالي ، تعالي ، تعالي كررها عشرات المرات ... حتى إذا أتعبه النداء ترنم بالبيت الخالد :

قد يهون العمر إلاّ ساعة وتهون الأرض الاّ موضعا

الدواة — بيت شوقي الذي يفضله على سائر ما نظم الشعراء من أبيات

القلم — كما يفضل قائله على سائر الشعراء . وظل يغني بصوته العريض

الدواة — ماذا ؟ هو يغني ؟ ...

القلم — وماذا عليه إن غنى وسامعوه البحر والأمواج والصخور ؟

الورقة البيضاء — وأنت ...

الدواة — لقد كان الخائن معها قبل هنيهة ، فهل اشتاقها بمثل هذه السرعة ، حتى يحن اليها هذا الحنين ؟

القلم — إذا لم أخطىء كان غد يوماً فاصلاً

الدواة — لا بد من عمل حاسم

الورقة البيضاء — يجب أن ننقذه من الهوة الفاغرة فاها تحت قدميه ، وننقذ أنفسنا من موت محتم

القلم — ونردّه الى من خلق لهم وخلقوا له من دون الناس أجمعين ومن دون سائر الكائنات ، إلينا نحن

الدواة — بناة اسمه ومجده وخلوده

الورقة البيضاء وماذا تريان ؟

القلم سأجرح قلبه بيدي حتى تنفجر منه الدماء ، فيعود الينا !

الورقة البيضاء واشوقي اليه ! إنهُ لا يعرف التحليق الاّ على صدري ؟

الدواة ولا يعرف الاعماق إلاّ في قاعي

القلم ولا يسمو إلاّ بي

الدواة ولكن أخاف إن هدمت حبه أن ينتقم منا

القلم كيف ؟

الدواة إذا لجَّ به اليأس أغرقه في الكؤوس، وجذبته الموائد الخضراء فكنا حفاري قبره بدلاً من أن نكون بناة مجده

القلم كلاّ كلاّ أنا أدرى به منك ، فلا تخافي. إن فيه دعلة العبقرية فهو إنسان موهوب . ولهذا الفريق المختار من الناس أقوى من الخمر ومن المائدة الخضراء ، ومن المرأة نفسها ! نحن الملجأ الأكبر والملاذ الأخير ، ولا غنى له عنا

الدواة وماذا أنت فاعل ؟

القلم سأنفذ خطة عبقرية أستوحيها من موعد الغد . سأكتب اليها رسالة مغفلة أن سر موعدها لم يبق سرّاً . فقد فضحه صاحبنا وفاخر به وتباهى بين جمع من خلانه.

الورقة البيضاء يا لك من مغامر جريء !

القلم لا يقدم على العظائم إلاّ المغامرون !

الدواة واذا لم تصدقك ؟

القلم وكيف لا تصدقني وموعدهما سرٌّ من الأسرار ؟ فاذا كان لها بقية من كبرياء أحجمت ، ثم انقلب حبها بغضاً لمن عبث باسمها وبحبها ، وأنا لهما بالمرصاد

الدواة وماذا علينا أن نفعل ؟

القلم تعيناني على الكتابة

الورقة البيضاء أنت ؟ ! تكتب وحدك ؟ !

القلم صمتاً ، لولا حاجتي اليك لمزقتك شر ممزق ! كيف لا أكتب وأنا القلم !

الدواة إذن هاك قلبي فاغرف منه ما تشاء

الورقة البيضاء وهاك خدي فاكسه بما تريد

السنار

---

# المشهد الثالث

## الزمان — قبيل منتصف الليل

الدواة ما له زائغ النظرات كأن به مسًّا من الجنون ؟

الورقة البيضاء لقد قضينا عليه ، ودسنا قلبه ، وحطمنا حبه ولم نفد شيئاً

القلم مهلاً فلا بد من أن يعود !

الدواة رأيته أمس يجهش بالبكاء وينتحب كثكلى فقدت وحيدها

القلم إنهُ أتعس من الثكالى

الورقة البيضاء ألم يحاول ان يتصل بها ؟

القلم بلى ، لكنهُ كان يقابل بالاعراض من جانب خدمها ، وبالصمت المستمر من جانبها هي

الدواة إذا استمرَّ على هذه الحال فقد عقله

القلم لا تخافي ، إنهُ لا يزال تحت تأثير الصدمة الاولى ، ولا بد أن يثوب إلى رشده ، حين يصبح هواه ذكرى ، وخيالا

الدواة وعندها

القلم يأتي دورنا نحن ...

الورقة البيضاء خيل إليَّ أمس أنني أسمع وقع خطاه . والواقع أنهُ اقترب مني ، ولكنهُ لم يلبث أن انفجر بكلام غير مفهوم

القلم كانت الصدمة أليمة بقدر ما كانت آماله كبيرة وشوقه اليها عنيفاً

الدواة لقد أحكمت تسديد السهم

القلم وكانت إصابتي جد موفقة . لقد طعنتها في الصميم . فانقلب حبها الى كراهية شديدة ، وحقد لا يحسنه إلاّ النساء

الدواة وأصبت عصفورين بحجر واحد

القلم جازفنا بكل شيء ، ولعبنا لعبة الموت والحياة

الدواة وهل تعتقد أننا فائزون ؟

القلم كل الاعتقاد . لا بل ان بي مثل اليقين أنهُ آتٍ عما قريب . ألم ترَ كيف دخل علينا أمس ؟

الدواة لكنهُ لم يلبث أن خرج الى العراء

( يسمع وقع خطوات في الخارج ، فتطفأ الانوار ، ويسدل الستار هنيهة ثم يرتفع )
( فاذا القلم والورقة والدواة قد تزايلت كأشخاص وعادت جماداً يسيطر عليه الكاتب )

الكاتب ( مكباً على المنضدة يكتب في حمى الوحي برهة من الزمن ، ثم يلقي القلم من يده ويحدق الى الورقة وقد كستها السطور وينشد بصوت حنون ، خارج من أعماق أعماقه )

يا فؤادي أقصر ! فهذا غرامي قد تلاشى وهذه أحلامي ...
كغيوم مجنونة شاردات تتبارى في أفقهـــا المترامي

. . .

قد خلعت الشباب عن منكبي العاني وما زلت في ضحى أيامي
أقطع العمر مثلما يقطع الليـــل شقيّ أعدّ للإعدام

. . .

يا فؤادي خذلتني في غرامي ومحوت الجنات من أحلامي
وعزأبي الذكرى وربَّ عزاءٍ كان للنفس باعث الآلام
كلمـا رنّـت القـوافي بأذنـــيَّ رأيت الماضي القريب أمامي
خلق الشعر للحنين وعندي نغم اليأس أعذب الأنغام
وقعتهُ نفسي وغنتهُ أشعاري وأملاه في الشقاء غرامي
كل بيت أرمي به في قصيدٍ قطعة من صميم قلبي الدامي ...

( يكب الكاتب على المنضدة ويروح في سبات عميق ، كأنه محطم )
( الاعصاب من سهر الليالي ، فتعاود الاشياء حياة الاشخاص )

القلم أرأيتما ؟

الدواة وافرحتاه ، عاد الينا ، وعادت معهُ الحياة !

الورقة البيضاء ونعمت بملامسة يديه ، ودفء لهاثه !

القلم ( للدواة ) لقد روَيت شفتي من ينبوعك العذب

الدواة لا أبعدك الله عني يا حبيبي

القلم ( للورقة ) وطبعت على خدك الأملس قبلة ما كان أشوقني اليها !

الورقة البيضاء ما رأيك في ثوبي هذا ؟

القلم إنهُ لطرفة رائعة . ولكن اجمدي فها هوذا يتحرك !

( يتململ الكاتب ثم يفيق شيئاً فشيئاً فتبدو عيناه مقرحتين ، ثم يتأمل الابيات ، )
( ويأخذ ورقة جديدة ويشرع في الكتابة برهة حتى اذا انتهى قرأ فيما بينه وبين نفسه )

الكاتب إيك يا قلب دماً فان التي عبدتها قد طواها الأمس القريب !
ويا عينيّ انطفئا فلن تقعا بعد اليوم على محيّاها الصبيح !
ويا شبابي اذبل قبل أوانك فقد كبرت مائة عام في عشرة أيام
ربّاه ! لو كنت أدري لماذا أعرضت بعد إقبال ، وسخطت بعد
رضاء ، وامحت من حياتي ، كما يغيب نجم شعّ هنيهةً في سمائي
فأنار ظلمة حياتي كلها
رحماك ، حبيبتي ، سأظل أناديك ، وأغنيك ، وأخاطبك ، حتى
تأتي إليّ ، أو تأتيني الراحة الكبرى ، فأنحدر الى رمسي وعلى
شفتي اسمك المعبود ! !

( يخرج الكاتب من الغرفة محني الظهر ، ثقيل الخطى ، كأنه في الستين من عمره )

الدواة رباه ، ما أشد حزنه ؟

القلم لقد بدأ يحس وخز الألم الاكبر ، وما هذه إلاّ البداية

الورقة البيضاء وعاد معنا سيرته الاولى فأصبحنا في عرس دائم .. .

القلم أجل ؟ نحن في عرس ، ما دام قلبه في مأتم .

بعقلين — لبنان — صيف سنة ١٩٤٣

# المآصر في بلاد الروم والاسلام

## — ٣ —

لميخائيل عوّاد

### ( د ) المآصر في كتب الأدب

لم يترك الشعراء الأوائل ناحية من مناحي الحياة ، ولا مرفقاً من مرافقها إلاّ قالوا فيهِ شعراً . وها إن أبا العباس عبد الله بن المعتز بالله يتطرق الى ذكر المآصر في شعر خالدٍ له . فأنشد :

بالكرخ والميدان لي منزلٌ ولذّتي القفص وقطربل[1]
وخير مال لي طيارةٌ[2] تدبر بي في السير أو تقبل
يلاطم الماء مجاديفها حاملة لكنها تَحمِلُ
غايتُها قصرُ حُمَيْدٍ وفي بستانِ بشرٍ دهرُها الأطولُ
وإن نجد من مأصِرٍ غفلةً تطِرْ الى كركين[3] لا تعدلُ[4]

وكان القاضي المحسّن التنوخي ( المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ) ممّن نبّه الى المأصر الأسفل ، إذ سرد حكاية طويلة جاءَ في آخرها : « فتوجه النفّاطون والرجّالة الى الزورق فضربوه

(١) لنا مقال لم ينشر بعد بعنوان « مواطن القصف واللهو في العراق ، أيام العباسيين » ، وفيه كلام على هذه المواقع (٢) طيارة ، انظر « الذيل » رقم ١

(٣) كركين : بضم الكافين ، من قرى بغداد ، كانت أحد مواطن القصف واللهو . ولها أخبار في معجم البلدان ( ٤ : ٢٦٣ ) (٤) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو الجزء الثالث من كتاب الاوراق لابي بكر محمد بن يحيي الصولي ( ص ٩٨ طبعة هيورث دن في القاهرة )

بالنار ، وأقبل الملاّح يلطم ويصيح ويقول : يا قوم فيه أموال الناس . . . . وأحرقت قلوس الزورق التي كانت تربطهُ وتمسكه ، . . . فانحدر مع الماء لنفسه والنار تشتعل فيه ، فوقع على الجسر فقطعهُ وانحدَر حتى انتهى الى موضع معسكر سيف الدولة ( لعلّه ابن سيف الدولة ) ، وكان نازلاً في المأصر بواسط » (١)

## ( ﻫ ) المآصر في كتب الإدارة والسياسة

لم نقف في المراجع التي تدخل في هذا الباب على أقدم مما ذكره القاضي أبو يوسف ( المتوفى سنة ١٨٢ ﻫ ) — صاحب الإمام أبي حنيفة — ، قال : « وحدّثنا قيس بن الربيع عن أبي فزارة عن يزيد بن الأصم عن أبي الزبير أنهُ قال : إن هذه المآصر والقناطر سُحْت لا يحلّ أخذها ، وبعث عمالاً الى اليمن ونهاهم أن يأخذوا من مأصرة ، أو قنطرة ، أو طريق شيئاً ، فقدموا ، فاستقلّ المال . فقالوا : نهيتنا . فقال خذوا كما كنتم تأخذون » (٢)

وقد مرَّ بنا غير نبأ عن المأصر الأسفل بصريفين واسط ، وها هوذا هلال الصابىء يتطرّق الى ذكره في مجرى كلامه على أحوال دار الخلافة العباسية ببغداد . قال : « ... ومن ذلك النفقات التي تطلق في كل سنة لثمن الجوارح وكسوة الكراع ، وثمن القلوس للمأصر الأسفل ، وثمن الكماة المقددة : اثنين وأربعين الفاً وسبعة دنانير » (٣)

وقبل الانتهاء من هذا الباب ، نورد أخباراً تشبه أن تكون ذات صلة وثيقة بالمآصر النهريّة . فقد ساق مسكويه في حوادث سنة ٣٣١ ﻫ هذا الخبر : « كان رسم مراكب ابن وجيه أن تُشدّ بعضها الى بعض بالليل في عرض دجلة فيصير كالجسر ، فلما كان في الليل ونام الناس وكلّ مَن في المراكب ، أشعل ذلك الملاّح السعف ، وأرسل الزورقين والنار فيهما ، فوقعا على تلك المراكب والشذاءات ، فاشتعلت واحترقت قلوسها واحترق مَن فيها . . . » (٤)

وما من شك في أن ابن وجيه ، إنما عمد الى عمله هذا الذي ينطوي على المكر والإيقاع ، اصطياداً للسفن المنحدرة في دجلة وسلباً لما تحمله من مالٍ وزاد

---

(١) نشوار المحاضرة ( ٨ : ٩٤ ، نشرة المجمع العلمي العربي بدمشق ) (٢) الخراج لأبي يوسف ( ص ٨٠ ، طبع بولاق ) (٣) دنانير ، « انظر الذيل » رقم ٢ (٤) تجارب الامم ( ٦ : ٤٦ )

وروى الوزير أبو شجاع في أحداث سنة ٣٨٦ هـ ما جرى عليهِ أمر لشكرستان بالبصرة الى أن استقرّ ما بينهُ وبين مهذب الدولة من الصلح . قال : «فاختلفت الرواية في دفعه عنها ، فقيل إنّ أهل البصرة قويت نفوسهم فوثبوا على الديلم ، وانصرف لشكرستان من غير حرب الى أسافل دجلة ، وقيل بل عقد جسراً في الموضع المعروف بالجلّ وقال : الديلم يرمون كلّ مَن يرد من نهر عمر . وجعل أمامه سلسلة حديد ممتدة من إحدى حافتي نهر ابن عمر الى الأخرى ليدفع عن الجسر ما يرسل على الماء من شاشات القصب المضرمة بالنار تغوص بثقلها فتعبر الشاشيات عليها فتغرقها ، فوافى عسكر البطيحة من نهر ابن عمر وجمعوا قصباً كثيراً بعرض النهر وأرسلوه مضرماً بالنار ، وجعلوا سفنهم التي فيها مقاتلتهم من ورائه ، فوقع على السلسلة وتقطعت وعلى السفن الصغار فاحترقت ، ووصل الى الجسر ، ودخل عسكر البطيحة البصرة يقدمهم ابن مرزوق وعسكره الى الجزيرة .... » (١)

وحكى ابن كثير في أخبار سنة ٦٩٠ هـ أنهُ « جاءت البريديّة لغزو العراق ، ونودي في الناس بذلك ، وعملت سلاسل عظام بسبب الجسورة على دجلة بغداد .... » (٢)

يؤخذ مما تقدّم أن المآصر النهرية كانت منبثّة في غير مكان على دجلة والفرات ، على أن أهمها ما كان في : بغداد ( وفي أعلاها المأصر الأعلى ) والحوانيت ودَير العاقول ، والمَلْث ، والكوفة وصريفين واسِط ( وعندها المأصِر الاسفل )

## ﴿ الذيل ﴾

(١) الطيارةُ ، ويقال فيها الطيار : ضرب من السفن النهرية القديمة ، أكثر ما اتخذ في العراق لركوب العظماء . فقد أخبرنا ابن الجوزي ( المنتظم ٩ : ١٣٠ ) في حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، خبر طيار شهير عرف بطيار جلال الدولة البويهي . قال أبو الفرج « وفي يوم الثلاثاء حادي عشر المحرّم جلس المستظهر لمحمدٍ وسنجر ، واجتمع أرباب المناصب في التاج ، ونزل كمال الدولة في الزبزب وأصعد الى دار المملكة فاستدعاهما فنزلا في الزبزب ، وكان الطيار قد شعث وغاب وهو الذي انحدر فيه والدهما جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه الى دار الخلافة حين جلس له المقتدي بأمر الله ، وانحدر فيه طغرلبك حين جلس له القائم بأمر الله. وهذا الطيار كان لجلال الدولة أبي طاهر بن بويه وأنفق عليه زائداً على عشرة آلاف دينار ،

(١) ذيل تجارب الامم (ص ٢٧٢ — ٢٧٣ ، طبعة آمدروز ) (٢) البداية والنهاية (١٣ : ٣٢٢)

وأهداه للقائم ، وجددت عمارتهُ في سنة سبع وأربعين ، وتشعث في أيام المقتدي فجددت عمارته وحط الى دجلة ، فكان للناس في تلك الأيام من الفرجة بدجلة عجائب ، ثم هدم »

والظاهر أنهم سموه بالطيار ، لأنهُ من السفن الخفيفة السريعة الجريان ، كأنها لسرعتها تطير على وجه الماء . وقد أفاض الكلام فيها العلاّمة الطيب الذكر أحمد باشا تيمور في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ( ٢ «١٩٢٢» ص ٣٢١ — ٣٢٤ )

وما ذكرناه ها هنا ، وكل ما جاء عن السفن في هذا البحث ، مختصر من كتاب « السفن والمراكب في بلاد الاسلام والفرنج » من تأليف كاتب هذا المقال وأخيه كوركيس عوّاد وهو ما زال مخطوطاً

(٢) رسوم دار الخلافة ( الورقة ٣٠ من المخطوط ) وهو كتاب أعددناه للنشر بعد أن حققناه وعلقنا عليه ، وألحقنا بهِ فهارس مفصّلة وملاحق منوّعة . والمقال الذي بين يديكَ أحد تلك الملاحق . طالع ما كتبناه بشأنهِ في : مجلة الرسالة ( العدد ٣٦٢ ، ص ٩٧٧ — ٩٨٠ ) . وهناك إشارات متفرقة عنهُ في الرسالة أيضاً ( العدد ٤٨٥ ، ص ٩٧٩ ، ٩٨١ ، والعدد ٤٨٦ ، ص ١٠٠٦ — ١٠٠٧ ) . والثقافة ( العدد ٩٨ ، ص ٣٩ ، والعدد ١٩٨ ، ص ٥ — ٨ ، والعدد ١٩٩ ص ١٩ — ٢١ ، والعدد ٢٠٠ ، ص ١٩ — ٢٠ ) ، والمقتطف ( ٩٨ « مارس ١٩٤١ » ص ٢٤١ ) ، ومجلة غرفة تجارة بغداد ( ٤ « ١٩٤١ » ص ٢١١ )

---

# حقائق جديدة

## عن الشمس

* قام الدليل في بحث مقارن بين طيف الذهب وطيف الشمس ، على وجود الذهب في الشمس

* وقام الدليل الطيفيُّ كذلك على وجود عنصر الثوريوم في الشمس ، وهو من العناصر المشعة النادرة

* بدأت دورة جديدة من دورات الكلف التي تظهر على وجه الشمس ، ومدتها إحدى عشرة سنة وثلث سنة

# الدين والفلسفة

## التوفيق بينهما في المغرب

لمحمد يوسف موسى

---

١ — نترك الآن فلاسفة المشرق الى إخوانهم في المغرب فنجد أن أبا بكر محمد ابن يحيى ، المعروف بابن الصائغ وبابن باجه والمتوفى عام ٥٣٣ هـ ، لم يصل إلينا عنه ما يدل على عنايته بهذه المشكلة التي شغلت مفكري الاسلام جميعاً . ولكن المستشرق الفرنسي جوتيه Gauthier يؤكد بحق [١] أن ابن باجه لم يمس هذه المشكلة ، وإنما قصر أجله وكثرة مشاغله حالا بينه وبين أن يخصص لها رسالة من رسائله كما فعل أسلافه ، فقد عاش عيشة مضطربة وشغلته الدنيا حتى فجأته المنية قبل ظهور علمه وبث حكمته ، كما يقول ابن طفيل [٢]

وهذا التأكيد من « جوتييه » له ما يبرره ، إذا لاحظنا أنهُ عاش في بيئة كان يخشى فيها المفكر الحر على نفسه ، وان ابن باجه نفسهُ استثار عداوة كثير من مناوئيهِ وحساده — ومن بينهم الفتح بن خاقان — فأثاروا عليه الشعب والحكومة واتهموه بالالحاد والخروج عن الدين [٣] . رجل هذا شأنه بين هؤلاء الأعداء والحساد ، كان حريًّا لو امتد به العُمر أن يدفع عن نفسه تهمة الالحاد بعمل يبين به أن الفلسفة والدين يتفقان، وأنهُ ليس من العدل أن يقرف المرء بالالحاد لأنهُ فيلسوف ، ولكن أولئك الأعداء عاجلوه فدسوا له السم فمات منه كما يقال

٢ — أما ابن طفيل ، الذي عاش عيشة هادئة متمتعاً فيها برعاية أسرة الموحدين حتى توفى عام ٥٨١ هـ في عهد السلطان أبي يوسف يعقوب ، فقد عني كما يذكر المراكشي بالتوفيق

---

(١) نظرية ابن رشد ص ١٦٤ (٢) حي بن يقظان ، نشر مكتب النشر العربي بدمشق ص ١٤
(٣) ابن ابي أصيبعة ج ٢ ص ٦٢

بين الدين والفلسفة ، حتى إنه من الممكن ان يقال مع « جوتييه » إن الغرض من قصته الفلسفية « حي بن يقظان » كان إظهار هذا الاتفاق والتدليل عليه . فانه لما التقى بطله « حي » — بعد أن وصل الى الحقيقة بالنظر — « بآسال » وقد عرفها من الدين ، وقص كل منهما على الآخر قصته ، ثبت لهما أن الحقائق التي عرفها أحدهم بالتفلسف تطابق تماماً الحقائق التي عرفها الآخر من الدين [1]

وقد انتهى مؤلف « حي بن يقظان » الى ما انتهى اليه أسلافه من أن الناس طبقات . فنهم من لا يستطيع أن يطيق معرفة الحقائق عارية بذاتها ، فالخير لهُ في الانتفاع بالشريعة وما ضربتهُ لهذه الحقائق من رموز وأمثال ، ومنهم الذين وُهبوا استعدادات وعقولاً ارتفعوا بها عن العامة ، وهؤلاء تفيدهم المكاشفة بالحقائق ذاتها [2] ولهذا رأى ، كما رأى أرسطو والفلاسفة الآخرون من قبل ، أن هناك تعاليم باطنة للخاصة وأخرى ظاهرة علنية للعامة ، فيجب أن نجعل كل نوع منها لطائفة خاصة لا يصلح أمرها إلاَّ به ، وبذلك لا يصطدم الدين بالفلسفة ، بل يتقرر بينهما السلام

٣ — وصلنا الآن الى أعظم فلاسفة المسلمين بالأندلس ، أعني الى أبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد المتوفى عام ٥٩٥ هـ ، الذي كانت محاولته في التوفيق بين الدين والفلسفة خلاصة جهود من سبقوه في هذا الطريق وتاجها ، مضافاً إليها ما شاء له عقله القوي وتفكيره السديد

والباحث إذا رجع الى العصر الذي عاش فيه فيلسوف قرطبة ، ومثل لنفسه الأثر الخطير الذي أحدثهُ الغزالي ضد الفلسفة والتفكير الحر بكتابه « تهافت الفلاسفة » ، عرف أن ابن رشد كان في حاجة ماسة مُلحّة لبذل الجهود لإماتة هذا الأثر أو إضعافه على الأقل ، وذلك بمحاولة لها دعائمها القوية يضع فيها الحدود الواضحة للعلاقة بين الوحي والعقل حتى لا يقوم بينهما بعدُ خصومة أو عداء . كان لا يسعه إلاّ أن يعمل هذا ، ليصل الى تجلية ما كان يعتقد من مؤاخاة الشريعة للفلسفة وتعاضدهما في سبيل المعرفة والسعادة الخاصة والعامة

لقد خصص ابن رشد لهذه الغاية كتابيه : « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » و « الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة » ، وذلك فضلاً عن تناولها في

---

(١) حي بن يقظان ص ٥٠ ، وجوتييه ص ١٧٠ — ١٧١

(٢) حي بن يقظان ص ١٣٧ — ١٤٠ ، وجوتييه ص ١٧١ — ١٧٣

مناسبات مختلفة في كتابه « تهافت التهافت » . ووضع لهذه الغاية طريقاً يؤدي في رأيه اليها ، ومبادئ تقوم عليها ، هذه المبادئ هي :

ا — الاستدلال بالقرآن والحديث على وجوب النظر العقلي أو التفلسف ، وبيان أن ما يؤدي اليه هذا النظر لا يمكن أن يخالف الشريعة . وقد وجد من القرآن وحديث الرسول ما أسعفهُ بما أراد من وجوب النظر والتفكير والسعي الى الحكمة ، ثم وصل من هذا الى التأكيد بأنهُ من المقطوع بهِ أن كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع فإن هذا الظاهر يقبل التأويل، حتى لا يصطدم العقل بالشرع (١)

ب — بيان أن العقول والاستعدادات للادراك تختلف ، ولهذا انقسم الشرع الى ظاهر له أهله من العامة وأشباههم ، وباطن لهُ أهلهُ وهم ذوو البرهان . ومن أجل ذلك يرى ابن رشد انقسام الناس الى طوائف ثلاث : الخطابيون وهم الجمهور الذي يصدق بالأدلة الخطابية ، وأهل الجدل ومنهم المتكلمون الذين ارتفعوا عن العامة ولكن لم يصيروا من أهل البرهان اليقيني ، والبرهانيون بطبعهم وبالحكمة التي أخذوا أنفسهم بها (٢)

وذلك التفاوت في الفطر والعقول الذي جرّ الى هذا التقسيم يجب أن يكون له أثره في اختلاف التعاليم التي يؤخذ بها كل طائفة أو فريق ، فللجمهور وأشباهه من الجدليين — الذين لا يطيقون الوصول الى التأويل الصحيحة — الايمان بظواهر النصوص الشرعية وما ضرب لهم من رموز وأمثال ، وللعلماء أهل البرهان الايمان بالمعاني الخفية التي ضربت تلك الأمثال والرموز لتقريبها من العقول وهذا يكون بتأويل النصوص . ويجب أن يجعل كل نوع من هذين التعليمين لطائفته الخاصة ، لأن جعل الناس شرعاً واحداً في التعليم خلاف المحسوس والمعقول (٣) ، إذ التكلم مع الجمهور على النحو الفلسفي يكون بمنزلة إعطائهِ طعاماً هو سمٌ له وإن كان غذاء للآخرين (٤)

ج — وضع قواعد عامة لتأويل ما يجب تأويله من نصوص الشريعة ، لبيان متى يكون التأويل ، وكيف يكون ، ولمن يصرح بهِ ؟

وفي هذا يرى أن هناك نصوصاً يجب على أهل البرهان تأويلها ، وحملها على ظواهرها كفر ، لأن الواجب عليهم الايمان بما فيها من معانٍ خفية ، كما يجب على العامة حملها على

(١) فصل المقال ، طبع ميونيخ ، ص ٧ — ٨ (٢) الكشف عن مناهج الادلة ص ٢١
(٣) نفسه ص ٧٩ (٤) تهافت التهافت ، نشر بويج ، ص ٣٥٦ ، ٣٥٧

ظواهرها ، وتأويلهم لها كفر ، لأن الفروض عليهم الايمان بالظاهر . من هـذه النصوص قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » ، ونحوه مما يوهم من القرآن والحديث أن الله جسم وينتقل من مكان الى آخر [1] . ويصوغ من هذا كله مبدأ عامًّا ، فيقول بعد ما تقدم : « إن من كان فرضه الايمان بالظاهر فالتأويل في حقه كفر ، إن كان هذا في أصل من أصول الدين لأنهُ يؤدي اليهِ [2] وغني عن الذكر أن من كان فرضه التأويل يكون الأمر بالعكس بالنسبة اليه بصفة عامة أيضاً

وبعد هذا يتشدد في وجوب عدم إذاعة التأويل لغير أهله ، ومن ثمَّ يلوم اللوم كله الغزالي والمتكلمين عامة لاثباتهم التآويل في كتبهم فذاعت بين أهلها وغير أهلها ، وكان من ذلك أن عاب قومٌ الشريعة وعاب آخرون الحكمة ، وأن مزقوا الشرع وأوقعوا الناس في شنآن وحروب [3]

د — بيان الطريقة المثلى للاستدلال على ما اختُلف فيهِ من المسائل بين رجال الدين ورجال الفلسفة ، كعلم الله وقدم العالم والتفرقة بين القدم الزماني الذي يتصف به العالم — في رأي الفلاسفة — والقدم الذاتي الذي لا يتصف به إلاّ الله وحده ، والدار الآخرة وكيفية ما يكون فيها من حساب

لقد طبق ابن رشد ، في بيان هذه المسائل وإثباتها ، ما قرره سابقاً من ضرورة ملاحظة اختلاف العقول وما يعتبر نتيجة له من اختلاف التعاليم . والكلام في تلك المسائل يطول ، وليس هذا موضعه ، لذلك نجتزئ بما أشرنا اليهِ من طريق معالجتها بياناً وإثباتاً بتطبيق ما قرره من مبادئ عليها

هـ — وأخيراً بيان الوحي ما هو ، وتحديد الصلة بينه وبين العقل ، وبيان الحاجة الى الشريعة مع الفلسفة ، ثم بيان ما يجب أن يُعتقد ويُفهم في النبوة والمعجزات

وقد تكون هذه المسألة الأخيرة ، مسألة الوحي والنبوة ، أهم ما يتعرض له من يحاول التوفيق بين الدين والعقل ، لذلك كان لا بد من أن يقول فيها ابن رشد كلمة صريحة لا لبس فيها ، ولقد قالها

ذكرنا أن ابن رشد خصص كتابيه « فصل المقال ، والكشف عن مناهج الأدلة » لمشكلة

---

(١) الكشف ص ١٦ (٢) الكشف ص ١٧ (٣) فصل المقال ص ١٧ — ١٨ ، ٢٣

التوفيق بين الدين والفلسفة ، وأنهُ عالجها أيضاً في كتابه تهافت التهافت . ونذكر الآن أن الباحث يدهش إذا تتبع رأي فيلسوف قرطبة في هذه المشكلة كما عرضه في هذه المؤلفات الثلاثة، ويكاد يرى نفسه مضطراً للحكم عليه — إذا جعل نصوص هذه المؤلفات كلها بمنزلة سواء — بالتناقض او الرغبة في إيهام القارىء وتضليله !

*

انهُ يعلن أن هناك أموراً تعجز العقول الانسانية عن معرفتها ، وإذاً فلنرجع للوحي الذي جاء متمماً لعلوم العقل ، «لأن كل ما عجز عنه العقل أفاده الله للانسان من قِبَل الوحي»[1] كما يعلن أن الفلسفة تعنى بفحص ما يجيء به الشرع ، فأن أدركته كان هذا أتم في المعرفة ، وإلاّ أعلنت بقصور العقل الانساني عنه وأن هذا مما يدركه الشرع وحده »[2] ويعلن أيضاً أن تلك الأمور ، وكلها ترجع الى معرفة الله والسعادة والشقاء الانساني في الدنيا والآخرة واسبابهما ، لا تعرف كلها أو معظمها إلاّ بوحي أو يكون معرفتها بوحي أفضل »[3] ولا عجب عنده في هذا ؛ لأن « الفلسفة تنحو نحو تعريف بعض الناس سعادتهم ، وهم من عندهم استعداد لتعلمها ، أما الشرائع فتقصد الى تعليم الجمهور عامة »[4] ولهذا كان العلم الذي يأتي به الوحي رحمة لجميع الناس[5]

بينما يعلن ابن رشد هذا كله ، مما لو حكمنا عليه به نجعلهُ من الفلاسفة غير العقليين، نراه في « فصل المقال » يشيد بعلوّ النظر العقلي ، حتى إنه ليقطع « بأن كل ما أدى اليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي»[6] وهذه القضية — التي لا يشك فيها مسلم كما يقول — يعظم ازدياد اليقين بها عند من قصد الجمع بين المعقول والمنقول ، « فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنهُ لا يؤدي النظر البرهاني الى مخالفة ما ورد بهِ الشرع ، فإن الحق لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له »[7] وبعد أن يقرر هكذا قيمة النظر العقلي وعلوّه ، نراه يؤكد قدرتهُ على الوصول الى كل الحقائق ، التي يجيء بها في الوحي في شكل رموز وأمثال ، ويعرفها عقل الفيلسوف عارية خالصة؛ وهذا هو السبب فيما سبق ذكره من انقسام الشرع الى ظاهر وباطن ، « فان الظاهر هو تلك الأمثال المضروبة لتلك المعاني، والباطن هو تلك المعاني التي لا تنجلى إلاّ لأهل البرهان»[8].

---

(١) تهافت التهافت ص ٢٥٥ (٢) نفسه ص ٥٠٣ (٣) مناهج الادلة ص ١٠١ (٤) تهافت التهافت ص٥٨٢ (٥) نفسه ص ٢٥٦ (٦) فصل المقال ص ٨ (٧) نفسه ص ٧ (٨) نفسه ص١٥

هكذا يظهر لنا ابن رشد في هذه المشكلة ، مشكلة الوحي والعقل ، متعارضاً أو متناقضاً في بادئ الرأي . تارةً يلوح أنهُ غير عقلي فيتبع العقل للوحي كما يبين من نصوص التهافت والمناهج ، التي اعتمد عليها وحدها الأستاذان « مِهْرن Mehren » و « ميجيل آسين Miguel Asin » فأثبتا له نزعة غير عقلية تجعل العقل تابعاً للعقيدة والفلسفة تابعة للدين في بعض مسائل أساسية [١] وتارةً يكون عقليًّا بمعنى الكلمة ، يوجب — كما رأينا — تأويل النصوص الشرعية التي تخالف بظاهرها ما يؤدي اليه النظر البرهاني الصحيح

لكن الباحث — ليدفع هذا التعارض أو التناقض الظاهري — يجد من الحق أن يرد نصوص المناهج والتهافت الى نصوص « فصل المقال » الذي ألفه خاصة ليكشف رأيه في مسألة الصلة بين الحكمة والشريعة ، على حين لم يكن الأمر كذلك في الكتابين الآخرين ، وعلى حين كان غرضه من « تهافت التهافت » الرد على الغزالي واظهار الفلاسفة في آرائهم بمظهر لا يختلف عن الدين ليطمئن رجاله ويفرخ روعهم ! وبهذا يكون فيلسوف قرطبة غير متناقض في رأيه وموقفه وفهمه للصلة بين الدين والفلسفة ، وتكون نزعته عقلية لا عوج فيها ولا التواء

وقد يؤكد هذا الذي نرى من تأويل نصوص المناهج والتهافت لتتفق ونصوص فصل المقال ، ما ذهب اليهِ ابن رشد نفسه في مسألة النبوة والمعجزات مما لا يختلف عما ذهب اليه الفارابي وابن سينا ، أي من أن النبوة حادث طبيعي معقول يكونَ بالوحي عن الله ، بتوسط ما يسمى عند الفلاسفة بالعقل الفعال وعند رجال الشريعة ملكاً [٢] وأن الوصول لهذا يكون ببلوغ القوى المتخيلة والعقلية الكمال فتطلع الاولى على اللوح المحفوظ وما فيه من غيب وتنتقل الثانية من معلوم الى آخر بالحدس انتقالاً سريعاً حتى لا يحتاج الى تعلم ، وان المعجزة كذلك أمر يتفق دائماً مع العقل وقوانين الطبيعة [٣] فليس يحتاج في ذلك الى أن نقرر أن الأمور الممتنعة في العقل ممكنة في حق الانبياء [٤] ، وأن المعجزات تكون متى بلغت القوة النفسية العملية حد الكمال فيستطيع صاحبها أن يؤثر في الأمور الطبيعية — مثل نزول مطر وحدوث زلزلة — ويسخرها له كما تؤثر نفس الانسان عادة في جسمه وفي غيره من الناس ايضاً إن كانت هذه القوة النفسية قوية الى حدٍّ ما

---

(١) يرجع فيما يختص بالاول الى رسالته : دراسات في فلسفة ابن رشد تتعلق بصلتها بفلسفة ابن سينا والغزالي ، وفيما يختص بالثاني الى جوتييه في كتابه نظرية ابن رشد (٢) تهافت التهافت ص ٥١٦ وجوتييه ص ١٤٥ (٣) جوتييه ص ١٤٦ (٤) تهافت التهافت ص ٥١٥

وأخيراً فيما يختص بابن رشد ، نرى أن رأيه في فهم الصلة بين الدين والفلسفة ووجوب التوفيق بينهما على النحو الذي رآه هوما ذهب اليه سلفاه العظيمان الفارابي وابن سينا ، وإذاً فليس من الحق ما ذهب اليه بعض الباحثين المصريين من أن طريقة ابن رشد في التوفيق تختلف عن طريقة الفارابي وابن سينا . إن هذا الاستاذ الباحث يرى أن هذين كانا يعملان على التوفيق حقيقةً بين الوحي والعقل ببيان أنهُ بالتعمق في العقل والوحي يرى أنهما يتطابقان ويعبران عن حقيقة واحدة

أما مذهب ابن رشد — فيما يقول — فلا يزيد عن أنهُ فصل لنفوذ الدين عن نفوذ الفلسفة ، ما دام قد جعل الأول للعامة والثانية للصفوة المختارة ؛ وفصل للتعاليم الدينية عن التعاليم الفلسفية [١]

وهذا الذي يراه الأستاذ ؛ حين يوازن بين رأي ابن رشد ورأي الفارابي وابن سينا في هذه المسألة ، بعيد عن الصواب

ذلك . بأن ابن رشد يرى مثل سلفيه أنهُ لا فرق في الحقيقة بين ما يجيء عن الوحي وبين ما يؤدي اليه نظر العقل ، وفي هذا يقول — كما تقدم — إن النظر البرهاني لا يؤدي الى مخالفة ما ورد به الشرع ، فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ، كما يرى أن الحكمة هي صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ؛[٢] أو كما يعبر الاستاذ « جوتييه » أن الدين والفلسفة لغتان لحقيقة واحدة [٣] ، وهذا عين ما يراه الفارابي وابن سينا . وأما ما يوجبه ابن رشد من رعاية اختلاف التعاليم باختلاف طبقات الناس العقلية ، وبعبارة أخرى ما يوجبهُ من فصل مناطق النفوذ لكل من العقل والوحي ، فانهُ لا يجعل طريقته في التوفيق تختلف عن طريقة المعلم الثاني والشيخ الرئيس . ذلك لا يجعل إحدى الطريقتين توفيقاً حقيقيّاً ، والأخرى مجرد فصل بين السلطات ! وبخاصة وقد تبين مما تقدم أن ابن رشد مسبوق بالفارابي وغيره من فلاسفة الاسلام بنظرية تقسيم الناس الى طبقات تبعاً لاستعداداتهم العقلية ، ووجوب التفرقة لهذا بين ما يجب أن يكون لكل طبقة منها من التعاليم

---

(١) الاستاذ ابراهيم مدكور في كتاب مكانة الفارابي ص ٢١٧ — ٢١٨

(٢) فصل المقال ص ٢٦ (٣) نظرية ابن رشد ص ١٨٠ — ١٨١

# الطبع الحيواني

بقلم كامل كيلاني

---

## ١ — الضعيف والقوي

إذا انتقلنا مع شيخنا « أبي العلاء » من الطبع الانساني الى الطبع الحيواني راعنا منهُ أنهُ لا يكاد يحمد للحيوان صفة واحدة إلاّ أنحى بالذم على غيرها



فهو في جمهور منظومه ومنثوره ، لا يفتأ ينعتهُ بالجور والإفساد ، ويصفهُ بالبغي والاستبداد ، ويعلن سخطه واستنكاره لما يشهده ويراه من فنون بغيه وأذاه

وعنده أن الحيوان كالإنسان — في كل صقع ومصر ، وفي أي عهد وعصر — ظالم معتد أثيم ، يفتك قويه بضعيفه ، ويستبد قادره بعاجزه ، لا فرق في ذلك بين سباع الطير وبغاثها ، وأسد الفلاة ومهاتها ، وهو يرى ما يراه أستاذه المتنبي : أن البغي أصيل في كل نفس ، برة كانت أو فاجرة :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفــة فلعــلة لا يظــلم

## ٢ — غريزة الظلم

والحمامة — على ضعفها — ظالمة باغية ، وهي قادرة برّة كانت أو فاجرة :

والشر في حيوان الأرض مفــترق والإنس كالوحش من ضار ومُبْـتـقـل

وهي — فيما يرى شاعرنا — لا تتورَّع لحظة واحدة عن الفتك والأذى والعدوان متى هُيِّئ لها من أسباب الشر وطرائقه ما يحقق آرابها ، ويتيح لها ارضاء نزعاتها الباغية ،

ويكفل إرواء نزعاتها الطامئة الطاغية . فهي تظلم — ما وسعتها طاقتها الضعيفة — كما يظلم الأسد جهْدَ طبيعته الباطشة الغلابة ، فهو يقول :

كادت تساوَى نفوسُ الناس كلهم في الشرّ ما بين منبوز ونَبّاز [1]
ظُلْم الحمامة في الدنيا ــ وإن حُسِبت في الصالحات كظلم الصقر والبازي

والخِشْفُ — وهو ولد الظبية أول ما يولد — يحمل، على عجزه وضعفه، نفساً شريرة باغية ، لا تكاد تختلف عن نفس الأسد طبيعة وعنصراً ، ومعدناً وجوهراً، وكلاهما جدير أن يتقى شرُّه ،ويحذَر ضرُّه .

وإليك النص :

«خفْ من خِشف بغِم [2] ، كما تخاف من هزبر (أسد) ضغم (عض) ، فكل الأنفس مواطن الشرور ، وعنده أن الكل في الغفلة سواء :

وأم شبلين في غيل ومأسدة كأم خشفين في شث وطباق [3]

على أنه يوصيك أن تصنع المعروف دائماً في كل من تمكنك الفرصة من اسداء الجميل اليه سواء في ذلك الانسان والحيوان ، فهو يقول :

توخ الأجر في وحش وإنس ففي كل النفوس مرام أجر

وكأنما يشير بهذا البيت — في لباقة — الى مأثور الحديث :

ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منهُ طير او انسان أو بهيمة الا كان له به صدقة

## ٣ — طبيعة الخوف

ولا يفوت شاعرنا أن ينبه — فيما نبه اليه من طبائع الحيوان وغرائزه — ما جُبل عليه من طبيعة الخوف من القوي. فهو اذا قرر لنا في بعض فصوله ما تأصّل في طبيعة الانسان من الظلم ، فقال : « طبع النائم على الحلم ، والانسان على الظلم » — لم يَفُتهُ — في فصل آخر — أن يُصوّر ما طبع عليه الحيوان من غريزة الخوف من الفاتك الباطش : فيقول :

« المخلوق كما خلق
طُبعَ الهادلُ ( الحمام )

---

(١) نبزه : لمزه ، ونبزه بكذا : لقبه به ، وهو شائع في الالقاب المستهجنة (٢) بغمت الظبية : صاحت الى ولدها بأرخم ما يكون من صوتها ، وبغم فلان صاحبه : لم يفصح له عن معنى ما يحدثه به (٣) يعني أن الظباة ــ في عرينها ــ كالظبية التي ترعى من النبات : الشث والطباق

على الخوف من الأجادل ( الصقور ) .
فالحمائمُ وإن سكن الأقفاص
وعلمن أن لا مناص ( أن لا خلاص )
يُحسنَّ النَّقرَ
و يَخشينَ مخالب الصقرِ »
أو يقول :
« أرى حيوانَ الأرض يرْهبُ حتفهُ ويفزعُهُ رعد ويُطمعهُ برْق »

## ٤ — براعة النحلة

وله ، الى ذلك فنون من المقابلات بين الانسان والحيوان ، لا يتسع هذا المقام لتفصيلها ، فلنقتصر على بعض ما أبدعهُ في المقابلة بين الانسان والنحلة ، قال :
«والجارسة (النحلة) تبني من الشمع أحسن مسكنٍ وتودعهُ طيِّب الأرْي( العسل ) .
وزَمازِمُها تسبيحٌ لملهم الحكمة من أراد
فما فضيلة الصَّنع ( الحاذق الكف بالصنعة )
اذا اتخذ قميصاً ( درعاً ) للحرب
كبارد الحَبَب ( طرائق الماء )
أو بُردِ الحُباب ( جلد الحية )
وما أروع قوله في تشبيه البارع الموهوب بالنَّحلة ، فهو بما أوتيه من مزايا نادرة ، وقدرة باهرة ، يردُّ الوحشيَّ من الكلام أنيساً ، كما يرد النحل ما يجنيه من نوْر الأزهار — وهو مرُّ المذاق — عسلاً سائغاً للشاربين ، فهو يقول :

« ردَّت لطافته وحدَّةُ ذهنه وحش اللغات أوانساً بخطابهِ
والنحل يجني المرَّ من نوْر الرُّبى فيعود شهداً في طريق رُضابهِ»

## ٥ — رزق الحيوان

وهو — على هذا — دائم العناية ، موصولُ التفكير في الحيوان والانسان جميعاً ، ولهُ في ذلك فنون من روائع الصور ، تضيق بتفصيلها مُطوَّلاتُ الاسفار بَلْهَ موجزات الفصول
ويُحسبنا في هذه الوجازة أن نشير الى بعض ألواحه الفنِّية الرائعة التي تصوِّر ناحية من نواحي تفكيره العميق ، في تمثُّل العناية الالهية بكل حي من الأحياء ، وكيف كفلت

الرزق لجميع المخلوقات . فهو يعرض — في هذا اللوح الفاتن — صورةً رائعة التفصيل تمثل بعض المصادفات التي تعدُّها الأقدار لتهيئة الرزق لمن قسم لهم على غير انتظار

فهذا رجل يعتزم السفر فيعدُّ للرحيل عدتهُ، ويدفعهُ الشرهُ الى التأنق في اختيار طيِّب الزاد ، والافتنان في تهيئة لذيذ الطعام فاذا تمَّ لهُ مراده ، وأعدَّ للرحلة زاده ، وضع الخبز في سفرة من الخوص ، الى جانب جدْي سمين طري اللحم لذيذ الطعم يكاد ينفطر إهابه لدسامته . ولم ينس المسافر نصيبه من الحلاوة ، فأعدَّ لنفسه ما يكفي الجماعة — من لذيذ الفالوذج ، ثم صبر الى الصباح ، فلما أشرق النهار بدأ رحلته ، وما زال يواصل السفر طول يومه ، حتى إذا آذن النهار بالزوال ، نزل على ماء نمير ، جلبه السيل الغزير ، الى عين أو غدير ، فطعم من شهي الزاد حاجته ، وأكل من لذيذ الحلاوة كفايته . وأتاح المسافر بهذه الرحلة فرصة سعيدة ، ومأدُبة فريدة ، لأُمةٍ من النمل ، جائعات ، جئنَ اليه مسرعات ، وأقبلنَ على مشاركته في زاده متسللات ، وقد بدَتْ جُسومُهُنَّ المحزوزات ، كأنَّ ظهورهنَّ من الحزّ مقطوعات .

ولا يفوت شاعرنا أن ينبه الى ما يختصُّ بهِ الضعيف من قدرةٍ على الأذى ، وإلحاق الضرِّ بالقويّ ، فيقرر لنا أن هذه النملَ الضعيفات ، لسنَ عن الشرِّ بعاجزات ، وأنهنّ — على تجرُّدهنَّ من السيوف والرِّماح ، وأدوات الحرب والكفاحَ — قادرات على ايذاء الكُماة المدجَّجين بالسلاح .

ثم يمثِّل لنا شاعرنا كيف أتاح المسافر لضيوفه النازلات بساحتهِ ، ألواناً شهيّةً من فُتات مائدتهِ .

ويصوِّر لنا كيف طوَّح صاحبنا ما زاد على كفايته من العظام ، بين كثبان الرمال والآكام . فهيَّأ بذلك رزقاً لطائفة من الحيوان ، وجدت فيما يحتويه العظم من مخٍّ طريّ ، زاداً جدَّ شهيّ .

فأقبل عليهِ بعض الجياع ، من الغربان البُقع أو الضباع

وهنا يبدع فيلسوف المعرَّة وشاعرها صورة بارعة لتلك الغربان والضباع ، ويصف كيف يتبدَّينَ في بديع ثيابهنّ ، فيخيل لمن يراهنّ ، أنهنّ قد تلفّعنَ وتسربلنَ ببديع من الثياب والأبراد ، مخططة بالبياض والسواد .

واليك النصَّ العلائيَّ :

« أمرُ الأرزاقِ أزْوالٌ ( عجائب ) .

عزم ظاعنٌ على الشُّخوص ( المَسير )

فاتخذ سمّهةً [١] ( سفرة ) من خوص .

فيها أبيض حرّ ( خبز )

وعمروسٌ [٢] ( جديٌ ) ، أرضعتهُ الخروس [٣] ( المرضع القليلة اللبن ) ورعديد [٤] ( فالوذج ) ، يكتفى بهِ العديد

فصار الانسان لما أبصر

فلما فنيَ يومه وأقصر [٥] ( صار في آخر النهار )

نزل على عين سجراءَ ( يضرب ماؤها الى الحمرة ، لقرب عهده بالسيل ) ،

فأصاب من الطعام

والله آثر ( خصّ ) الأنفس بطيّبِ الأكيلِ ( المأكول )

فاجتمع اليه سودٌ جزلٌ [٦] ( نمل )

يؤذين ذوي الأسلحة ، وهنّ عزلٌ

فأصبنَ ما قُمِمَ لهنّ ، والحسّامة النزل ( يعني أن ما سقط من المائدة كان زادهنّ ، والنزل هو : الطعام الذي يصلح للنازل ، اذا نزل بك )

ورمي بالأنقاءِ ( الكثبان من الرّمل )

أعظماً ذوات أنقاء [٧] ( أمخاخ )

فابتدرهنّ بُقْعٌ : ( جمع أبقع ، وهو الغراب ، أو : الضّبُع ، لونه البقع ) كأنما عليهنّ لفعٌ من البرُد أو السّباج [٨]

ومن لفتاته الطّريفة في هذا الباب قوله :

يرى الضب الراكب

فيقول لحِسْلِهِ ( ولده ) :

اتق الحارش ( صيّادَ الضّبّ ) .

فيمر الراكب عجلا ،

(١) السمهة : السفرة تتخذ من الخوص (٢) العمروس : الجدي أو الخروف ، وأكثر ما يستعمل في الجدي ، ويقال : ان عبد الملك بن مروان قال لعدي بن حاتم : « ما تعدون أفضل الطعام عندكم » ؟ قال : العنوق (الاناث من المعزى ، واحده عناق ) قال : أما نحن فلا نعدل بالعماريس » (٣) الخروس : التي تلد بكرها ، فيكون لبنها قليلا ، فتعمل لها الخرسة ، وهي طعام تطعمه النفساء ليدر لبنها (٤) الرعديد ، هنا : الفالوذ ، وفي غير هذا الموضع : الجبان (٥) أقصر : صار في قصر النهار ، وهو : آخره (٦) يقال للنملة: جزلاء ، لاجل الحز الذي في ظهرها ، ويقال : بعير أجزل اذا خرجت من فقار ظهره ـ فقارة (٧) ( مصدر أنق العظم إذا صار فيه نق ، وهو : المخ ، واذا فتحت الهمزة ، فهو جمع نقي ) (٨) ( اللفع : جمع لفاع وهو ما يتلفع به ، والبرد : جمع بردة ، والسباج : جمع سبيجة وهو ثوب فيه سواد وبياض )

ومعه جراب عجوة ، فيلقيه ،
ويعجله السير عن أخذه
فيكون في ذلك الجراب معيشة للحسل

## ٦– في طلب الرزق

ومن بدائع الصور التي رسمتها ريشة هذا المبدع قوله أيضاً يمثل ما يعانيه الإنسان في طلب الرزق :

ويغدو الحاطب نشيطاً ، وفي يده المخلب ( المنجل ) ، وعلى عاتقه المسد
فيكون أكيل أسامةَ ( مأكول الأسد ) مع الشروق .
وقوله يمثل ما تعانيه القطاة من ضروب الاخطار في سبيل التماس الرّزق :
تنزل القطاة الى شرَك الوليد
وهي فرّحى بما لاح لها من الرزق
فيؤول أمرها معهُ إلى أحد ثلاثة أشياء :
سحطٍ مزعف ( ذبح سريع ) أو سجنٍ حرج أو عذابٍ مُبَرِّح
وقوله : وابك على طائر رماه فتى لاهٍ فأوهى بفهره [(١)] الكتفا
أو صادفته حبالةٌ نصبت فظل فيهـا كأنمـا كتفا
بكر يبغي المعاش مجتهداً فقصَّ عند الشروق أو نتفا
كأنهُ في الحياة ما فرع الغصـ ن [(٢)] فغنى عليـه أو هتفا
وقوله يصف النحلة :
وتقدم الجارسة ( النحلة ) على مارّ الطريق باللسب ، وحتفها فيه — وقوله :
«وينام الوليد عند وجار الضبة المكون ( وهي : التي فيها بيضها )
ومعهُ تمرات حشفات ( من أردإ التمر ) [(٣)]
فتخرج لتمرقهنَّ منهُ فيصيدها بالسعي الهيّن

ملاحظة : هذا المقال من « مقدمة رسالة الهناء » وهي تحت الطبع ، وأما الصورة المنشورة فمن ريشة جبران خليل جبران

(١) الفهر : الحجر ملء الكف (٢) فرع الغصن : علاه (٣) وقيل : اليابس الفاسد منه

# سرابيوم

## « معبد الاسكندرية »

للدكتور باهور لبيب

---

منذ فترة قصيرة اكتشف رجال متحف المدينة الاسكندرية بجوار عمود السواري آثاراً ترجع الى عهد الملك بطليموس الثالث . وقد نوهت بهـا بعض الصحف وذكرت أن بينها لوحات ذهبية تدل على أن بطليموس الثالث هو المنشيء لسرابيوم الاسكندرية

ولكنه اتضح من بحث المراجع الأثرية والأدلة التاريخيـة أن منشيء سرابيوم الاسكندرية هو بطليموس الأول لا الثالث

فكان الاسكندر الاكبر وحكام البطالمة يميلون الى مهادنة المصريين ومجاملتهم من الوجهة الدينية. ولذلك حذوا حذو ملوك الفراعنة فكانوا يزورون الآلهة المصرية في معابدها ، واتخذوا لانفسهم الالقاب المصرية التي ترجع الى تاريخ معبودات مصرية قديمة كاللقب الحوريسي نسبةً الى الالـه حورس ( إلـه السماء ) ، الذين كانوا يعتقدون أنه يحمي حامل لقبهُ بل يعتبر من سلالته . واللقب صارع نسبة الى الإلـه رع ( إلـه الشمس ) ظنّـاً منهم أن المسمى به يعتبر ابناً للإلـه رع

ولم يكتف بطليموس الأول باستمالة المصريين وإرضاء كهنتهم بالطرق المنوّه بها آنفاً ، بل فكر في طريقة أخرى لايجاد عبادة مشتركة يونانية مصرية تربط الشعبين

فغير اسم المعبود المصري ( العجل آبيس ) بتسمية مصرية يونانية ( أوسرحابي ، أي العجل آبيس المتوفى ) بسرابيس . وعبـده المصريون في شكل الآلهـة المصرية أزوريس أو العجل آبيس أو الإلـه اونوبيس . واليونانيون في شكل الإلـه اليوناني هادس ( إلـه الآخرة ) أو اسكالبيوس ( إله الشفاء ) أو زيوس

وبذلك أصبح كلٌ من الشعبين لا يعتبر هذه الديانة رمزاً لديانة جديدة

فكلّف بطليموس الأول المهندس اليوناني Parmenissus پارمنيسوس انشاء معبد للإلـه سراپيس بالاسكندرية فأقامه مكان عمود السواري الحالي، وأطلق عليه اسم السرابيوم وكان هذا المعبد أهم مركز لعبادة هذا الإلـه في عصر البطالمة

وقد أضاف أيضاً بطليموس الاول هيكلاً جديداً بسراپيوم منف [1] المعبود العجل آپيس، وهو أحد أشكال الإله سراپيس على الطريقة المصرية كما تقدم. ويرجع تاريخ سراپيوم منف الى الدولة الحديثة أو الى ما قبل هذه الدولة على حسب بعض الآراء. ولا يمكن القول بأن بطليموس الاول هو الذي أنشأ سرابيوم منف بناءً على التعديل الذي أجراه فيه [2]

كما أن وجود ألواح ذهبية باسم بطليموس الثالث بسراپيوم الاسكندرية منقوش عليها أنه أهدى الى سرابيس المعبد والحرم المقدس — لا يدل دلالةً قاطعة على انشاء هذا السراپيوم، بل يستنتج من النقوش فقط انهُ اهتم بتوسيع هذا المعبد أو بتجديد بنائه كما حدث في سراپيوم منف في عهد بطليموس الأول، لا سيما أن السرابيوم يشمل عدة مبانٍ

وقد وجد علماء الآثار ألواحاً ذهبية ببلدة كانوب ( بجوار أبي قير ) باسم بطليموس الثالث منقوشاً عليها أنهُ أهدى هو وزوجته برنيكا المعبد للإلـه أزوريس. فالمقصود هنا أن الاهداء ينصب على ما أضيف بمعرفتهما بهذا المعبد. وتوجد إحدى هذه الالواح بالمتحف البريطاني بلندن

مما تقدّم نستطيع القول بأن بطليموس الأول لا الثالث أنشأ سراپيوم الاسكندرية [3]

---

(١) سراپيوم منف عبارة عن هياكل متصلة بمحاريب لدفن ما يموت من عجول آبيس وكانت توضع جثث العجول في توابيت وتدفن بهذه المحاريب. وكانت وفاة العجل آبيس تعتبر حادثاً تهتز له البلاد كلها

وعندما يكون العجل آبيس على قيد الحياة كان يعيش في مكان بجوار هيكل بتاح على مسافة أربعة أميال تقريباً داخل بقعة مزروعة من الوادي تدعى « آبيوم »

وعلاقة الاله بتاح بالعجل آبيس هو أن المصريين في عصر الدولة الحديثة كانوا يعتقدون أن روح الاله بتاح قد تقمصت العجل آبيس

(٢) وفوق أهمية ما شيده بطليموس الاول في سرابيوم منف من الوجهة الدينية تقوم له أهمية فنية إذ انه أول بناء في مصر معروف حتى الآن ظهرت فيه الاعمدة اليونانية المسماة « كورنتي »

(٣) وقد وصلت درجة عبادة الاله سرابيس الى حد جعل جميع المصريين يعبدونه، وكذلك يونانيو مصر إذ أصبح إله الدولة. وفي المسائل القضائية ذكر اسمه في القسم

كما أن عبادته انتشرت من الاسكندرية الى البلاد الاغريقية ثم فيما بعد الى الدولة الرومانية

# الألم وفائدته

## الألم إنذار يحذر من غدا جسمه في خطر

نقلها : كامل محمود حبيب

---

لقد حاولت المبادئ الفلسفية والتعاليم الدينية طويلاً أن تثبت العدل الذي ينطوي عليه وجود الألم في هذا العالم . أما من الناحية البيولوجية فالألم ضروري في نظام الكون، فما كان لنوع من الحيوان أن يعيش على الأرض ما لم تهيئهُ الطبيعة بأجهزة تنبهه ليدفع عن نفسه أي خطر يهدد سلامته

والألم كأي إحساس آخر تحملهُ الأعصاب من نقطة التأثير في الجلد الى منطقة الادراك في المخ ، خلال الحبل الشوكي . وهنا تتم عمليـة إدراك الألم ، لا عند مكان الأثر الأول . وإذن فلا ألم بدون عصب ، ولا ألم بدون المخ . وهكذا يكون للجهاز العصبي الكامل الصحيح من الشأن في إدراك الألم ما يبذّ شأن الموضع الذي أصيب فعلاً . فرجل بترت يده يستطيع أن يجد لذع الألم أثيرت أطراف الاعصاب المقطوعة والطفل يحس الألم وهو لا يعرف مأتاه، لانهُ لا يقدر على تحديد مصدره تماماً . وإن بعض أنواع الألم لتخدع المرء في تقدير مصدرها ، فالتهيج في الحجاب الحاجز ـ مثلاً ـ يبدو كأنهُ ألم في الكتف

ويلوح انالشعور بالألم ينقلهُ نوع خاص من الأعصاب لا يعدوه ، مثلما تنقل أعصاب السمع وأعصاب البصر هذين الإحساسين وحسب . وهناك أعصاب خاصة للمس تدرك الحرارة والبرودة وتستشعر الحركة . ويمكن الاستدلال على وجود هذا النوع إن نحن اختبرنا منطقة من الجلد ضيقة محدودة فأمررنا عليها إبرة حادة دقيقة وشعرة خشنة على التعاقب ، فإنا نجد أن منطقتين من مناطق الألم تتباعدان بمسافة مليمتر تقريباً ، في حين أن المسافة بين منطقتي الاحساس تربي على ذلك كثيراً . أما على سطح قرنية العين ، حيث لا أعصاب للمس، فإن أي لمسة — ولو من شعرة من قطن ، تسبب ألماً

ولقد كشفت الاختبارات المجهرية عن أن طرف الأصبع تنتشر عليه نهايات أجهزة تشبه أزرار الأجراس الكهربائية ، وينطلق من كل نهاية عصب كبير . ويقوم كل هذا الجهاز بالادراك الحسي — اللمس — ، ويفرق بين مختلف الاحساسات وإن كانت واهية . والى جانب هذا أعصاب قليلة متفرقة على شكل أنابيب شعرية لا تنتهي بطرف متميز ، تلك هي التي تغطي قرنية العين ، وإذن فهي — ولا ريب — أعصاب الألم

وينتشر في كثير من أجزاء الجسم والأوعية الدموية ، ومعظم الاعضاء أعصاب قريبة الشبه بما تقدم ، وهي تختلف قليلاً في التركيب وفي نوع الاحساس بالألم الذي تنقلهُ . فما من شك في أن اللذعة الوقتية التي يحدثها وخز سن دبوس تختلف كثيراً عن ألم دائم أحدثهُ قطع شريان أو تمزيق عضلات المفصل . وقد يكون الألم في بعض الأجزاء — كتجويف البطن — أثراً للضغط أو الشد لا من قطع أو حرق ، وفي بعض آخر - مثل أجزاء المخ - لا يحس المرء الألم

وشبكة الأعصاب اللانهائية المنتشرة في منطقة ما في الجسم تتجمع رويداً رويداً لتكون حبالاً سميكة تحوي أعصاب الحركة التي تسير الى العضلات ، كما تحوي أعصاباً للحس من جميع الانواع . وقبل أن تبلغ العمود الفقري تنفصل قسمين ، فتدخل أعصاب الحركة الى النخاع الشوكي من الامام وأعصاب الحس من الخلف

وفي داخل العمود الفقري اختصاص بيّن ؛ فالاعصاب التي تنقل الحس بمواضع الأشياء وحركات العضلات تنطلق لتصبح حزمة كبيرة في الناحية الخلفية من النخاع الشوكي . وأعصاب اللمس تتناثر داخل الحبل الشوكي دون انتظام . وأعصاب الألم تدخل الى النخاع الشوكي من الناحية التي جاءت منها .وتصعد فيه نحو المخ ، وهي تنتهي الى منطقة من المخ تعرف باسم مبدأ العصب . وهذا تركيب يتحد فيه الانسان مع أحط أنواع الفقريات ، ولعلَّ له علاقة وثيقة بحاستي الشم والذوق من ناحية ، ومن ناحية أخرى بالتعبير عن الانفعالات النفسية . وإن وخز المخ لا يحدث ألماً ، ولكن التخدير الموضعي في المخ يلغى حاستي اللمس والحركة في مناطق خاصة دون الاحساس بالألم

وإذا بذل كل جهد مستطاع لازالة منبع الألم فلم يجد ذلك شيئاً ، وجب على الاطباء أن يبحثوا عن طريقة تخفف منه . ولربما كانت أبسط طريقة هي استعمال الحرارة أو البرودة في منطقة الألم لتهدئته . وإن الطرق الكهربائية المتباينة لتوليد الحرارة في أنساج الجسم ،

واستعمال الأشعة تحت الحمراء ... هي اختراعات أوحت بها قارورة الماء الساخن الموقرة

والانفعال المضاد أمر مهم في مناهضة الألم ، ولعل الغريزة الطبيعية التي تدفع الى حك المنطقة المتألمة هي المنشأ الأولي للانفعال المضاد . أما استعمال الاشعة البنفسجية وآلات الدلك فهما طريقتان منقحتان ، غير أن أثرهما محدود ، وعلى أي حال فالانفعال المضاد علاج ضعيف للالم

ويمكن أن تنقسم الأدوية المسكنة الى مجاميع مختلفة ، فالأفيون ومشتقاته ، والمورفين والكودايين والهيروين وغيرها هي مسكنات للآلام الحادة ، ولكن لها ناحية ذات خطر مروع ، تلك أن تأثيرها يتضاءل رويداً رويداً ، ثم يصبح تعاطيها عادة . وهذه الأدوية ذات فائدة جلى في حالات الألم الحاد ، غير أن تأثيرها يزول إن طالت مدة استعماله

* * *

أما المخدرات العامة مثل الايثير والكلوروفورم ، والمخدرات الموضعية كالكوكايين ، فتمنع الاحساس بالألم في أثناء العمليات الجراحية ، ولكنها لا تستعمل في حالات الألم المزمن . والمجموعة المنومة ، مثل الكحول وايدرات الكلورال ، تمنح النوم ولا تزيل الألم . وبعض الأدوية المركبة بالكيمياء مثل الاسبيرين والاسيتانيليد يؤثر في تسكين ألوان خاصة من الألم ويغلب أن تكون معتدلة ومقترنة بمرض معدٍ ، وفي حالات الصداع . وقد تعجز جميع الوسائل عن ان تؤثر في حالات الألم المزمنة مثل النورالجيا المزمنة ، وإذن يصبح حتماً أن يستأصل مصدر الألم بالجراحة

وقد تكون أبسط طريقة لذلك هي بتر أعصاب الألم المتصلة بالجزء المتألم . هذه طريقة جميلة ناجعة إن كانت أعصاب الحس متميزة عن الأعصاب التي تحرك العضلات ، ولكن هذين النوعين من الأعصاب ينضمان معاً في كثير من الحالات ، فيعز علينا أن نضحي بهما معاً

وهناك طريقة أمثل تتلخص في قطع أعصاب الحس من لدن الحبل الشوكي والابقاء على أعصاب الحركة ، ولعلَّ الخطر الجاثم في تضاعيف هذه الطريقة يتراءى إن قطعت مجموعة كبيرة أعصاب الحس فينشأ عنها فقد حاستي اللمس والتوازن . وقد تستعمل طريقة مشابهة لتلك في الحالات العادية ، وهي حقن أصول الاعصاب بالكحول من لدن الحبل الشوكي .

# عمر الخيام كما أعرفه

— ٤ —

لمحمود المنجوري

---

هل عمر الخيام خرافة:

قد يكون من العسير على الباحث أن يزيل من سطور التاريخ الادبي روايات تداولت أجيالاً طويلة، تلقاها العلماء في غير تردد أو شك، فالناس — لأمر ما — يقدسون ما جاء عن السلف، وقد جبلوا على ألاّ يتعبوا أنفسهم أو يرهقوا تفكيرهم، على ان الأمانة العلمية تدعو كل باحث ألاّ يعلن رأياً جديداً قبل أن يتخذ العدة ويجمع البراهين التي تؤيد ما يقول، بل ان هذه الامانة تدعوه أن يكون هو مؤمناً واثقاً بصحة دعواه، قبل أن يذهب وراء الشكوك والتردد ويسرع فيعلن آراءً مبتسرة في التاريخ والعلم جرياً وراء الشهرة ومخالفة للاجماع الادبي

فيوم زعم الدكتور وللر ان عمر الخيام خرافة، لم يتقدم بهذا الزعم مؤمناً به لأنهُ مستشرق كبير كان في متناوله أن يطلع على ما قدمنا من وثائق تاريخية تؤيد وجود الخيام في الحياة. ولكنه ذهب مذهب العجلة وسعى وراء الظهور برأي جديد. وليس هذا شأن الخلق العلمي. كذلك زعم الدكتور رُس أن وصية نظام الملك وصية موضوعة وان اجتماع عمر الخيام ونظام الملك وحسن الصباح في مدرسة واحدة أمرٌ غير محتمل لاختلاف أعمارهم، وأنهُ وضع غيرَ معقول ولامقبول، وان الرأي الذي ارتآه السير رُس هو ان وزيراً آخر غير نظام الملك كان مع حسن الصباح في مدرسة واحدة، وان هذا الوزير هو أنوشروان ابن خالد، وفي هذا يتمم السير رُس دعواه فيقول:

«قد يكون من العسير ان نقنع الرأي العلمي بأن الوزير انوشروان كان في المدرسة مع حسن الصباح، فمن سوء الحظ اننا لانعلم تاريخ ميلاد هذا الوزير، وأول تاريخ في حياته أشار اليه هو بنفسه سنة ١٠٩٥ عند ما اشترك في موقعة وأصبح بعدها رجلاً عظيماً، ولقد مال حسن الصباح الى مذهب الاسماعيلية في سنة ١٠٧١ م، ولم تكن خراسان وطنه؛ ولقد

ذكر لنا انهُ دخل في الاسماعيلية على يد فئة كانت تدعو اليها في خراسان ، وعلى أي حال فقد دخل في الاسماعيلية بعد مغادرته المدرسة ، فمن المحتمل ان يكون حسن الصباح قد بلغ العشرين يوم انتهى من الدراسة ودخل في تلك الفرقة، وعلى هذا فلا يمكن ان يكون تاريخ مولده قبل سنة ١٠٥٢ م

وعليه فمن المرجح ان يكون حسن الصباح وأنو شروان بن خالد قد ولدا نحو سنة ١٠٥٠ م ، وانهما كانا في مدرسة واحدة في نيسابور وان شخصاً في القرن الذي تلا هذا العصر حسب أن نظام الملك قرناً لعمر الخيام [1] وان وزيراً عظيماً آخر يسمى انوشروان كان في المدرسة مع حسن الصباح ، وان الاربعة جميعاً درسوا في نيسابور ، وحدث ان اختلط الأمر بين الوزيرين؛ ومن هنا نشأت قصة الرفاق الثلاثة نظام الملك وعمر الخيام وحسن الصباح

ونستطيع أن نعثر في حياة عمر الخيام كلها على حادثين تاريخيين لا شك فيهما ، ففي سنة ١٠٧٤م اجتمع عمر مع سبعة من علماء الفلك لاصلاح التقويم بناءً على دعوة ملك شاه، والتاريخ الثاني هو سنة ١١١٢ م عند ما زاره تلميذه النظامي العروضي ولقيهُ في بلخ

فلو فرضنا ان حسن بن الصباح ولد في سنة ١٠٥٠م وما دام عمر في سنه وقد ثبت أن عمر في سنة ١٠٧٤ م كان من هيئة كبار الفلكيين فتكون سن عمر في هذه السنة ٢٤ سنة . فهل من المعقول ان يكون عمر قد بلغ في عصره شهرة عالمية فيصبح الفلكي الاول في الدولة ولما يبلغ من العمر غير اربع وعشرين سنة ؟ ولهذا أميل الى وضع تاريخ ميلاد عمر في سنة متأخرة بعض عشرات السنين قبل ميلاد حسن الصباح . ولتكن سنة ١٠٤٠م عاماً لميلاده، فبناءً عليه يكون عمر قد بلغ الثالثة والثمانين في سنة ١١٢٣ م وهو العام الذي اتفق على ان الخيام قد مات فيه . ويكون قد بلغ الخيام الثانية والسبعين عند ما لقيهُ تلميذه النظامي العروضي في بلخ

ولم يذكر تاريخ وفاة عمر على حقائق ثابتة ، واني لاشك في رواية اتصاله بالسلطان سنجر ، فهذه القصة هي الاخرى لم ترد في غير المراجع الحدثة التي خلط اصحابها بين السلطان سنجر وبين شمس الملك الخاقاني صاحب بخارى [2] . ومن المحقق انه قد حدث ايام ولاية سنجر للعهد ما دعاه الى كراهية الخيام [3] انما هو محقق لدينا آن الخيام كان في سنة ١١١٢م

(١) هذه المسألة ما زالت غامضة فلم يأت الخيام في كتاب الجبر بأي اشارة الى نظام الملك بينما تحدث صريحاً عن «أبي طاهر» فقال « لقد أعانني أبو طاهر على استمرار البحث وكنت أوشكت على قطعه يأساً » وأبو طاهر هو شرف الدين أبو طاهر السكومي الذي ولاه نظام الملك في سنة ١٠٨٨ ولاية مرو والذي استوزره السلطان سنجر فيما بعد

(٢) حكم شمس الملك من سنة ١٠٦٧ م الى سنة ١٠٧٩ م (٣) نزهة الارواح للشهرزوري

حيًّا يرزق لما زاره تلميذه النظامي العروضي وان النظامي عاد سنة ١١٣٥ م فزار قبر الخيام

وعثرنا في طبعة طهران لرباعيات الخيام على نبوءة تنبأ بها في شتاء سنة ٥٠٨ هـ أي بين سنتي ١١١٤ و ١١١٥ م ، وعلى هذا يجب ان نضع وفاة الخيـام في الفـترة بين عامي ١١١٥ م و ١١٣٥ م ومن هذا أرى ان تكون الوفاة في سنة ١١٢٣ م

وعلى ضوء الحقائق التي تقدمت أبيح لنفسي ان أضع حياة الخيـام وضعاً لا شك فيه فأقول : ولد الخيام بمدينة نيسابور في القرن الحادي عشر للميلاد . والده ابراهيم اتخذ صناعة الخيام حرفـة له ، وليس من المرجح ان يكون عمر قد اشتغل بحرفـة أبيه كما كانت عادة ذلك العصر ، ولقد حفظ في مدته القرآن وتعلم علوم الفقه والحديث والكلام وأدب اللغـة العربية وعلوم الرياضة ، وتخصص في علوم الفلك والفلسفة وعكف على دراسة الطب ، ومن المحتمل ان يكون قد درس الفلسفة في مدرسة نيسابور . وكانت وظيفته رصد الأفلاك . وكان واحداً من الثمانية الذين عينهم ملك شاه لاصلاح التقويم وانشاء التقويم الجلالي »[1]

هذا بحث رُس ولا يخلو من طرافـة ، فهو يكشف عن ناحيـة من طرائق الاستقراء العلمي الذي يقوم به كبار المستشرقين في آدابنا ، على انني لا أستطيع أن أقبل ما جاء فيه جميعه كما لا استطيع ان أرفضـه اطلاقاً ، فنحن الآن أمام تقريرين أحدهما منسوب الى نظـام الملك لا يريد السير رُس وغيره من العلماء ان يأخذ به ، والآخر منسوب الى انوشروان وقد أخذ به السير رُس . وقد ذكرت في التقرير الأول الوقائع صريحة وأسماء الخيام وحسن الصباح ونظام الملك مكشوفة سافرة . وأما ما ذكره انوشروان فانما هو تلميح لا يجوز أن يأخذ به عالم يقضي بحكمه في قضية تاريخية متصلة بالأدب والعلم . ويرفض السير رس وصية نظام الملك لأن المصادر القديمة لم تذكرها ولأنها ظهرت في عصر متأخر ، فهـل ذكرت المصادر القـديمة مذكرات الوزير أنو شروان ؟ على ان عدم ظهور وثيقة نظام الملك في عصر قريب من الخيام لا يقلل من شأنها او يبطلها ، فالبحث العلمي قائم غير منقطع ، وباب الاجتهاد مفتوح وقد تظهر الآن وثائق اخرى تتصل بعصر الخيام وغير الخيام ، وكانت مطمورة او مجهولة قروناً طويلة فتغير من الاوضاع العلمية والادبية وتوجد حقائق جديدة لم يكن لها وجود من قبل ، ومع هذا فلا يجوز ان يحتج مبطل بأنها وثائق لم يذكرها المؤرخون القدامى أو انها ما دامت متأخرة عن عصر صاحبها بقرون طويلة فلا يؤخذ بما فيها

---

(١) مقدمة رس للرباعيات ص ٦٩ ط لندن ١٩٠٠

وكذلك يرفض السير رُس وثيقة نظام الملك لعدم احتمال تعمير الخيام وحسن الصباح هذا الأجل الطويل معاً ، ولست أدري ما الذي يمنع من تعمير صديقين أجلاً طويلاً متقارباً . واذا جاز ان نصدق أنو شروان عندما يقول : لقد كنت بالمدرسة مع حسن الصباح فلماذا لانصدق وزيراً آخر عند ما يقول هذا القول ، مع ان نظام الملك قاله صريحاً دون تلميح او اشارة أو غموض ، كما فعل انو شروان . وأخذ هوتزما والسير رُس يخرجان من قول أنو شروان ماطاب لهما من تخريج

اما تناقض السنوات التي ولد فيها عمر او حسن الصباح او نظام الملك ، فبحث لا يتصل بسلامة وصية نظام الملك ، فتحديد الاعمار في هذه العصور من الامور التي لا يمكن ان تكون على وجه الضبط والتدقيق ، ويقول رُس انهُ اذا أخذ بوصية نظام الملك فمعنى هذا ان عمر الخيام يكون قد بلغ الرابعة والعشرين عندما استدعاه نظام الملك وملك شاه لاصلاح التقويم ، وأنكر ان يبلغ فلكي ذروة المجد في هذه السن . ولست أدري لماذا ننكر النبوغ وعبقرية الجد على الشباب وما زال الشباب يقود العلم والأدب والهندسة والطب والاختراع في جميع مرافق الفكر والفنون . وهل هو بمستحيل ان ينبغ شاب في سن الخيام فيكشف قوانين جديدة في علوم الفلك والحركة والكهربى والصوت واللاسلكي وعالم الميكروبات ، فتقلب الحقائق على أوضاعها وتنشأ حقائق جديدة لم تكن في الحسبان؟ ان للشباب جهوداً مذكورة في العبقرية والنبوغ ولهذا لا يجوز ان نأخذ بما أخذ به السير رُس في هذا الباب

على اننا نستطيع ان نشير الى المصادر القديمة التي ذكرت اجتماع عمر الخيام ونظام الملك وحسن الصباح في مدرسة واحدة وهذه المصادر هي :ـ

(١) كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين فضل الله المتوفى سنة ٧١٨ هـ

(٢) كتاب روضة الصفا للشيخ ميرخند من علماء القرن الثامن للهجرة

(٣) فردوس الشعراء سنة ١٣٢٨ هـ

(٤) دبستان مذاهب : كتب في القرن السابع عشر للميلاد في العقائد والمذاهب والاديان

وهذه كلها تأخذ بوصية نظام الملك وتقر ما فيها ـ

على انهُ قد اخذ العمريون بوصية نظام الملك ولم ينكرها غير طائفة قليلة ممن ذكرنا من المستشرقين كما اخذ بها غير واحد من ثقات البحوث الشرقية أمثال المستشرق برون ،

وليس من اصحاب المصادر الحديثة من أنكرها او بعبارة اخرى لم يقم للآن دليل علمي على بطلانها

*

## صوت الخيام في الآداب الحديثة

ظلّ الخيام مغموراً في عصره وبلده لانهُ فيلسوف انقلابي مفكر، حمل مشعل التفكير الحر، ونَقَدَ تقاليد زمنه وآراء معاصريه، وتهكم بزعماء الرأي وقادة الدين. ظلّ مغموراً لانهُ سبق زمنه بأجيال، فنظروا اليهِ نظرة المتمرد الثائر. وخبا صوته فلم يصل الى التفكير العربي القديم، لأن دعوة الخيام قامت على شيء من الخصومة بين العقل الفارسي والعقل العربي الذي سيطر وسما بسيطرة القرآن والدعوة الاسلامية الخالصة على الدولة الفارسية، ولأن التفكير العربي القديم لم يلتفت الى الخيام التفاته الى شاعر فذ أو فيلسوف جاء بالخارق من الرأي، ولكن التفكير العربي ظل ملتفتاً الى الخيام التفاته الى عالم فلكي او رياضي ليس غير. فلم تعرف الرباعيات في الأدب العربي ولم يبلغ صوت الخيام كشاعر فارسي له رأيهُ وفنه وأدبه الا في العهود الأخيرة، ولقد بلغنا هذا الصوت الشرقي الكريم من طريق الغرب وأدب الغرب ولم يصلنا من الأفق القريب!

لعل الثقافة العربية لم تشغل بأدب الخيام لاسباب، منها أن في الادب العربي الكثير من الشعر ما نحا نحو الرباعيات في الخمر، بل فيه من الشعراء من سبق الخيام الى المعاني التي احوتها الكأس والخمر كما تقرأ في شعر ابي محجن الثقفي، وابي الهندي، وابي نواس وغيرهم، وفيه من شعراء الفلسفة ما أغنى العقل العربي عن هذا الاهتمام به، فله في أبي العلاء وغير أبي العلاء عوض يظفر بهِ ويغنيه عن شعر الخيام من فلسفة وتشاؤم وتمرد، فالديوان العربي ديوان حافل محشود بما أغنى التفكير العربي عن الخيام قروناً طويلة

وفي الحق لم يكن من توافق بين مزاج الخيام الثائر وبين العقل العربي الذي هداه القرآن وصرفه عن التمرد والانقلاب، ولهذا لم تظهر عناية الأدب العربي بهذا اللون الفارسي من الشعر، ولم يحفل به الا في فترة التجديد وانتعاش المبادىء الانقلابية التي سرت من الغرب الى الشرق، فعاد الشرق الى شاعره فوجدها في صوته القديم تتردد من أجيال سحيقة قبل أن يسمعها من روسو وديدرو وڤولتير وغيرهم من ادباء التجديد والثورة والانقلاب

ولعل توافق المزاج الاوربي مع نهج الرباعيات ومع الاهداف الادبية والانقلابية التي احتوتها هو الذي جعل التفكير الغربي يُعنى بها ويهتم بالخيام هذا الاهتمام الملحوظ في همة المستشرقين والمطابع وجمهرة القراء والمتأدبين برباعيات الخيام وادبه ودعوته ، فلما ظفر العقل الأوروبي الحديث برباعيات الخيام اعترف بأنها لُقية غالية نادرة ، فهي من ناحية تتفق مع لون من ألوان الشعر المعروف بـ Sonnet وهي بعد هذا تجاري الاتجاهات الجديدة للتفكير في العقائد والمذاهب العقلية والاجتماعية ؛ فهذا الفوز الذي بلغته الرباعيات في أوروبة انما يرجع الى أن الخيام فهم الحياة كما يفهمها الاوروبي المعاصر ، فهو ينظر الى الحياة بمنظار المدنية الحديثة طبقاً لعقائد رجّحها واتخذها ذوقاً وقياساً لأدبه وفلسفته وحياته ، ولقد طبق الخيام هذه الأقيسة وأخضع هذه القيم التي ارتآها على تفكيره ونهجه ووحيه الذي ألهمه الرباعيات ، بل انهُ سلك بها حياته الخاصة مع الخاصة والعلماء وقادة الرأي ، فكان بالقياس الى أهل زمانه مفكراً ثائراً وملحداً وفيلسوفاً مجدداً في قيم الحياة العامة التي ألفتها الناس في عهده من جمود وركون ورياء وزهد وانصراف عن الحياة ومباهجها ، ولقد لفت هذا التجديد وهذه الثورة الغربَ الى الخيام كفيلسوف شرقي حمل مشعل التفكير الحر ومعول الهدم قبل أن يحمله مفكري الثورة الفرنسية ولقد اعترف رينان ومسيو باربيه دومينار المستشرق الفرنسي بهذا فقال « أليس حدثاً غريباً أن يظهر شاعر في بلاد فارس في القرن الحادي عشر للميلاد يكون قرناً كما قال رينان لجوتيه وهايني ؟ » .

فالخيام فيلسوف مفكر سبق زمانه بقرون وأجيال ، وليست قيمة الرباعيات في جمال شعرها وجزالة موسيقاها ، ولكن قيمتها فيما قامت به كل رباعية كوحدة لها معناها ونظرها ودعوتها الحرة في الحياة والاجتماع والمذاهب الفكرية العامة . وهي من الناحية الأدبية عمل انساني غير مطبوع بطابع اللون أو الجنس أو الاثرة القومية أو المذهبية . ولقد بلغ الاعجاب بالرباعيات أن أنكر كثير من الأدباء والمستشرقين المذاهب التي جاءت بها على مفكر شرقي عاش في القرن الحادي عشر للميلاد ، وذهبت بهم الأنانة الى نسبتها الى فتزجرالد نفسه ، فقالوا انها ليست بشعر فارسي وانما هي شعر انجليزي خالص وحسّياً وإلهاماً ومذاقاً وفنّاً ، ومن هؤلاء الجاحدين مستر لجاليان Le Gallienne ومستر أرثر پلات Arthur Platt وقد تأثر برأيهما بعض المستشرقين والباحثين وبعض الغربيين الرجعيين الذين ينكرون على الشرق فلسفته وعبقريته ومدنيته ، وفنونه وخلوده وجماله والذين يقولون الشرق شرق والغرب غرب

# باب المراسلة والمناظرة

## ١ — استدراك على مقال

قرأت في مقتطف فبراير سنة ١٩٤٤ مقالاً للدكتور أسعد طلس بشأن « دار الحديث النورية » ( ص ١٣٢ — ١٣٧ ) ، فرأيت فيهِ ( ص ١٣٤ ) ما نصهُ : « وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة حين دخل التتار دمشق احترق قسم كبير من المدينة ، وكانت هذه الدار وغيرها من معاهد العلم طعمة للنار . قال الذهبي في مختصر تاريخ الاسلام : « وفي سنة تسع وتسعين وسبعمائة دخل التتار دمشق وشرعوا في المصادرة والفسق ونهبوا الصالحية وسبوا أهلها ووقع الحريق . . . » الى آخره

وهذا الكلام منهُ مُستحال ، ومنهُ خطأ . أما المحال فأن يكون الحافظ الذهبيّ قال شيئاً من هذا . فان الخبر عن حادث ينسب الى سنة ٧٩٩ ، والحافظ الذهبيّ مات سنة ٧٤٨ أي قبل التاريخ الذي أرّخ بهِ الحادث بأكثر من خمسين سنة . وأما الخطأ ففي تاريخ دخول التتار الى دمشق سنة ٧٩٩ . فانهم لم يدخلوها إلاّ سنة ٨٠٣ . وبذلك أرخها كل المؤرخين الذين رأينا مصادرهم بين أيدينا ، لم يخالف أحد منهم في ذلك . فانظر مثلاً « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للحافظ السخاوي ( ج ٣ ص ٤٧ — ٤٨ ) في ترجمة « تيمورلنك » فانه ذكر أنهُ قصد سيواس في آخر سنة ٨٠٢ ، ثم نزل يوم الخميس ٩ شهر ربيع الاول سنة ثلاث يعني ٨٠٣ على حلب . ثم ذكر أن التتار اقاموا بحلب يعاقبون ويأخذون الاموال الى يوم السبت مستهل شهر ربيع الآخر أو ثانيه ، ثم رحلوا الى جهة دمشق وأخذوها . ثم قال : « واستمرّ بدمشق — يعني تيمورلنك — الى العشر الثاني من شعبان » الى آخره . وكل ذلك في سنة ٨٠٣ . وانظر أيضاً « شذرات الذهب » لابن العماد ( ج ٧ ص ٢٢ ، ٦٤ — ٢٦٥ ) فانهُ يؤرخ دخول التتار الى دمشق سنة ٨٠٣ . وانظر أيضاً « تاريخ ابن إياس » ( ج ١ ص ٣٣٤ طبعة بولاق ) فانهُ يؤرخ يوم حرق دمشق في حوادث سنة ٨٠٣ : « فلما كان يوم الخميس مستهل شعبان أمر تيمورلنك باحراق مدينة دمشق » الى آخره . ثم يقول ( ص ٣٣٥ ) : « فلما كان يوم الجمعة ثاني شهر شعبان فيه — يعني في عام ٨٠٣ — رحل تيمورلنك عن دمشق بعد ما فعل

الذي فعله ، فأخذ عسكره وخرج من دمشق ، وكانت مدة إقامته بدمشق الى أن رحل عنها نحو ثمانين يوماً » . وكذلك تجد تفصيل بعض هذه الحوادث في ذلك التاريخ في « خطط الشام » لمحمد كرد علي ( ج ٢ ص ١٧٩ )

ولست أدري من أين أتى الخطأ لكاتب المقال ولمصدره الذي نقل عنهُ ، وهو كتاب مخطوط للشيخ عبد القادر بدران . فلعلهُ يتفضل بالتحقيق أو التصحيح.

أحمد محمد شاكر

◆

## ٢ — الجامعة السورية والمصطلحات العلمية

وردت في مقتطف يناير من هذا العام بضع كلمات طبية أحببت أن أذكر لكم ما يستعمل مقابلاً لها في معهد الطب من الجامعة السورية بدمشق

«عُصَيَّة» وتستعمل مقابلة كلمة باشلس وفرنسيتها Bacille « مكورات عنقودية » مقابلة Staphylococcus « مكورات عقدية » مقابلة Streptococcus . « مكورات رئوية » مقابلة Pneumococcus . « مكورات بنيَّة » مقابلة Gonococcus ( وذلك لمشابهة هذا الجرثوم في المحضرات المجهرية لحبتي البن المتقابلتين ) . « العصية الخُنَّاقية » أو « عصية الخناق الغشائي » مقابلة باشلس الدفتريا . « العصية الكولونية » مقابلة Bacillus coli . وكثيراً ما ترد هذه الاسماء بالصيغة الآتية اختصاراً فيقال : عنقوديات وعقديات وكولونيات . وذكرتْ عظمة الأذن الخلفية والمراد بها Mastoide «وهي الخشَّاء »

وهذه الكلمات ومئات غيرها في مختلف العلوم الطبية تكوّن اصطلاحات لغة طبية مفهومة بين خريجي المعهد الطبي العربي الكثيري العدد والمنتشرين في البلاد العربية كافة . وهي كلمات وضعها أو عرّبها أو اقتبسها من جهود علماء اللغة أساتذة أعلام في هذا المعهد ، أذكر منهم مرشد خاطر أستاذ أمراض الجراحة وسريرياتها ، وحمدي الخياط أستاذ فني الجراثيم والصحة ، والاستاذ جميل الخاني الاستاذ السابق لعلم الطبيعة والأمراض الجلدية والزهرية ، وغيرهم ممن جعل من اللغة العربية لغة كاملة قادرة أن يُستغنى بها عن غيرها في تدريس هذا الفن الجليل : الطب ، والعلوم التي تتفرع منه أو تتعلق به .

دمشق عبد السلام العجيلي

◆

## ٣ — الشاعر هومِرُس وعلم الآثار

الشهرَ الماضي تحدث الاستاذ أ . ج . ب . ويس A. J. B. Wace أستاذ الدراسات القديمة في جامعة فاروق الاول ، في الجمعية الجغرافية ، عن شعر هومرس وصلة الآثار بهِ . فبدا لي أن أجمل الحديث مع بعض التعقيب على سبيل الاشارة حتى عودة أخرى :

بدأ المحدّث بقوله إن اليونان المتقدمين لم يشكّوا قط في صحة نسبة الالياذة والاوديسية كلتيهما الى صاحبهما سواء في ذلك المؤرخون أو الفلاسفة أو الشعراء

ثم جاءت مدرسة الاسكندرية بمناهجها العلمية وتناولت شعر هومرس بالنقد التحليلي، وبلغت شأواً بعيداً في نقد النصوص من الناحية اللغوية ، وخلّصت النص مما أُقحم فيه من الكلمات والمعاني المستحدثة ، وقد زعم هذه المدرسة العالمان اللغويان أريستارخُس Aristarchus وزنودوتس Zenodotus في القرن الثاني قبل المسيح . وظهرت في الاسكندرية أيضاً مدرسة ذهبت الى أن كاتب الالياذة لا يمكن أن يكون هو نفسه مؤلف الاوديسية ، وراحت تفصل بين الملحمتين المطوّلتين ، ومدرسة « الفاصلين » هذه زعمها كزينو Xeno وهيلانِكس Hellanicus ، ولكن أساطين نقاد الاسكندرية يوم ذاك لم يأبهوا كثيراً لهذه المدرسة

وفي العصر الروماني ذهب المؤرخ اليهودي يوسف Josephus إلى أن الكتابة لم تكن قد عرفت في أيام هومرس ، وأن القصيدتين إنْ هما إلاّ مجموعة من الاناشيد . أما الخطيب الروماني كيكرو Cicero فقال إن المطوّلتين كتبتا في عهد الطاغية پيزستراتس Pisistratus في أثينة في القرن السادس قبل الميلاد

أما في العهد الحديث فقد أخرج الناقد الألماني الكبير وُلْف Wolf كتابه « المقدمة » Prolegomena باللاتينية في سنة ١٧٩٥ موسوماً بطابع الشك الذي ساد أوربة قبل الثورة الفرنسية . وكانت الثورة نفسها من مظاهره ، أخذ فيها بنظرية يوسف وكيكرو جميعاً . وعزا ما في المطوّلتين من وحدة الى مجهودات مدرسة الاسكندرية . وقال إن الأناشيد كانت من نظم شعراء متعددين . وآمنت مدرسة النقد الهومري الألمانية بمذهب إمامها ، واتجه رجالها إلى « تشريح » المطوّلتين وإبراز الأناشيد الأصلية من ثناياها

وهنا طلع علم الآثار بفتوحاتهِ على يد شليمن Schliemann فكشف عن طروادة

مسرح الحرب ومايسيني عاصمة أجا ممنون زعيم الحملة اليونانيـة ، فكشفت ألواحٌ عليهـا كتابات بدّدت نظريات النقّـاد ، وثبت بها قطعاً أن الشعر الهومري كان من الممكن تسجيله في حينه ، لأن الكـتابة كانت معروفة في القرن الحادي عشر ق.م أو قبله ، حالة أن شعر هومرس لم يدّع أحد كتابته قبل القرن التاسع .

ثم أورد المحدّث شواهد كثيرة على صدق الشاعر وأمانته في الوصف مما كشفت عنهُ الحفائر، منها قرون العنائر المذهَّبة ، وهيا كل الكلاب المدفونة مع أصحابها ، والخوذات البرنزية ، ومختلف أنواع الاسلحة ، وصور مركبات تجرها الخيل وغيرها

وهنا أثبت المحدّث أن اليونان كانوا ينحتون التماثيل في عصر هومرس ، وقال إنهُ وجَـد أثناء قيامهِ بالحفائر في مايسيني تمثالاً يصور ثلاثة شخوص

وبعد ، فلا شك أن هذه الشواهد كلها تدل على أن الشاعر عاش في أعقاب حضارة وُفِّـقَ في وصفها وصفاً أميناً ، ثم تدحض مزاعم النقاد الذين أنكروا وجود حضارة رائعة في هذا التاريخ المتباعد . ولـكنها ـ عندنا ـ لا تثبت أن الالياذة وضعت على هذا النحو الذي نعرفها بهِ الآن ، ولا تهوّن مما يُعزى إلى مدرسة الاسكندرية من تغيير وتنقيح وترتيب في النص ، كما أنها لا ترد في شيء على نظرية « الفاصلين » . وكنا نرجو أن يدعم المحدّث الصلة بين المطوّلتين ، كما صنع الاستاذ ستانلي كسن Stanley Casson في مقاله « كيف ألّـف هومرس الاوديسية ؟ » في مجلة « الآثار » Antiquity مارس ١٩٤٢

وعندنا أن القول الفصل في المسألة الهومرية لا يزال بين أيدي أصحاب النقد الداخلي الذين عليهم أن يفسحوا الطريق للشاعر حتى ينافح عن نفسهِ بواسطة آثاره نفسها ، فيظهروا منهجه الشعري وطريقة نظمه وانسياق خواطره ، ثم يتوفروا على تبيين خصائصه الشعرية إلى جنب مفهوم الملحمة في نظره ، ويثبتوا بعد ذلك وحدة موضوع كل مطوّلة واستمرار أبطالها على خُـلق لا يتغير في الملابسات المختلفة، ثم اطراد فلسفة واحدة في مايتعلق بآلهة السماء في كلتا الملحمتين. ومن الأمثلة في هذا ما قاله الاستاذ س . إلْيُـت بَسِـتْ S. E. Bassett في كتابهِ « شعر هومرُس » ( سنة ١٩٣٨ ) .

وهيب كامل

# التّعريف والتّنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

# المشتمل


صورتان للفن العربي المستحدث

١ — المسائل

| | |
|---|---|
| اللفظ والمعنى | بقلم ابرهيم عبد القادر المازني |

٢ — الكتب

| | |
|---|---|
| أغنية الرياح الأربع | نقد بقلم كامل محمد عجلان |
| الجيش والبحرية في مصر . . . | — — زكي محمد حسن |
| نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي | — — محمد يوسف موسى |

كتب ظهرت

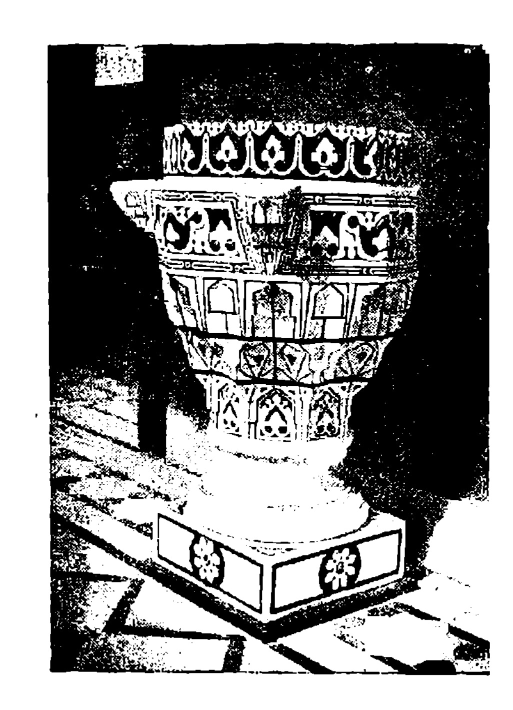
٣ — الاستدراك

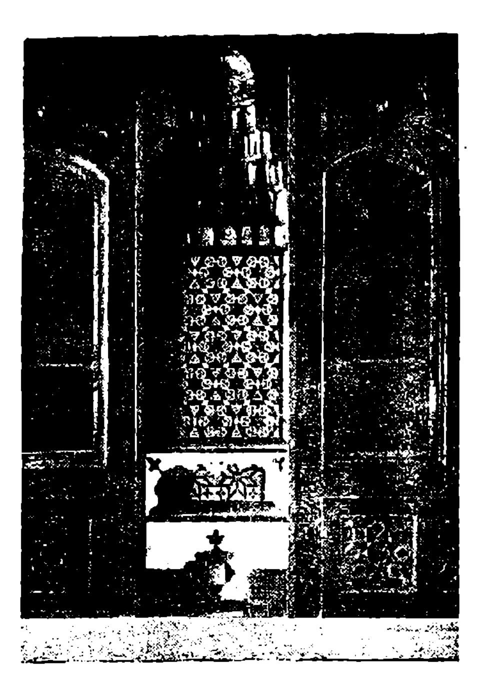
| | |
|---|---|
| كتاب الحيوان ، الجزء الخامس | بقلم الأب أنستاس ماري الكرملي |

٤ — التعقيب

| | |
|---|---|
| في اللغة الشاردة | بقلم بشر فارس |
| رسالة | — مصطفى جواد |


---

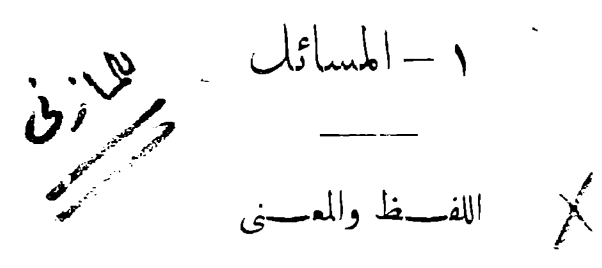




\- ١ -　　　　\- ٢ -

في بناء ماء الفيجة بدمشق آيات من الفن العربي المستحدث صنعها أو سواها من عناصر قديمة فنان ماهر هو محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان . وهنا مثلان : ١ — جرن قديم عباسي من الرخام التركي ، حفر ودهن بألوان مختلفة ٢ — محراب حجرة مخشبة معظم خشبها من فجر القرن الـ١٩ .





# ١ — المسائل

## اللفـــظ والمعـــنى

اللغة أداة ليس إلاّ ، ووسيلة للعبارة عما في النفس لا أكثر ولا أقل ، فان للأخرس أداة غيرها هي جملة من الاشارات والإيماءات والحركات مع أصوات ساذجة يخرجها للتنبيه أو التوكيد ، والتقرير أو التوضيح . ولكن أداة الأخرس قاصرة جدًّا لا تعدو حد الدلالة على المراد ، ولا يبلغ من وفائها بالحاجة أن تجلو رأيًا حضر ، أو حكمة نبغت أو عاطفة جاش بها الصـدر . نعم تدل على ذلك وتشير اليه ، ولكن كما يشير الفهرس إلى جملة مشتمل الكتاب . وقد كانت هـذه الإيماءات وما يجري مجراها — وما زالت — بعض ما يتوسل بهِ الإنسان من قديم الزمان الى التعبير ، فلم يبلغ بها إلاّ أيسر الحاجات وأدناها منالا . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر والخوالج ، وعلى قدر كثرتها ومبلغ إلحاحها يكون طلب الابانة والرغبة في الافصاح . وقد ألفى الانسان نفسه تكثر حاجاته وتقوى غريزة عقله ويترامى أفقه ولكن أداة الايماء لا تسعفه لأنها تعجز الرقي ، والتعبير الوافي بها يفوت الذرع ، والاكتفاء بها خليق أن يورث نفسه التثاقل وطبيعته التقاعس ، والخاطر يبطىء بها ، والعجز يظهر . ووجد أن الاصوات ألين وأسرع مؤاتاةً ، فقضى على الأيسر والأصلح . وما زالت سنة الطبيعة أن كل موجود يؤثر الذي هو أسهل ، ولن تجـد ماءً يجري الى فوق ، وله متسرب الى تحت . وهكذا كانت اللغة .

★

وقد شبهوها بالوعاء ، والظرف ، والجسد ، والثوب — يعنون أنهـا تضمَّن بالمعاني وتحويها ، وان المعاني تحل فيها ، وتكتسيها ، فتظهر بها :

ويقول الجاحظ في رسالته في « الجد والهزل » : « ان الله تعالى علمّ آدم جميع الاسماء بجميع المعاني ، ولا يجوز أن يعلمه الاسم ويدع المعنى ، ويعلمه الدلالة ولا يضع له المدلول عليه . والاسم بلا معنى لغو ، كالظرف الخالي ، والاسم في معنى الابدان ، والمعاني في معنى الأرواح . اللفظ للمعنى بدن ، والمعنى للفظ روح ؛ ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ لكان كمن

وهبه شيئاً جامداً لا حركة لهُ ، وشيئاً لا حس فيه ، وشيئاً لا منفعة عنـده . ولا يكون اللفظ اسماً إلاَّ وهو مضمّـن بمعنى » .

وهـذا صحيـح . ثم يقول « وقد يكون المعنى ولا اسم لهُ ، ولا يكون اسم إلاَّ ولهُ معنى » .

والشّـق الأول من هذه العبارة خلط . فاما ان اللفظ وحده ، وبمجرده ، ومن غير أن يكون في كلام مؤلف منظوم ، « شيء جامد لا حركة له ، ولا حسَّ فيه » فصحيح إذ كان المعنى لا يستفاد إلاّ من تأليف الكلام . وأما ان المعنى يكون ، ولا عبارة عنه ، ولا لفظ يؤدّيه ، فهذا هو الذي لا يكون . وقد يستطيع الانسان بعد بضعة آلاف من السنين أن يستغنى عن اللغة جملة ، وأن يبلغ من اقتداره على التعبير أن يرسل خوالجه — من معان واحساسات — موجات في الهواء يتلقاها ويتلقفهـا غيره كما تتلقى أجهزة الراديو الموجات التي تطلقها في الجو محطات الاذاعة . وأنا أعتقد أن هذا سيكون بعد أن يبلغ الانسان من العلم المبلغ الذي يجعل ذلك ميسوراً . وإن أحدنا ليفهم عن صاحبه مراده بنظرة ولا يحتاج في هذا الى كلام أو اشارة ، فلست أرى ما يمنع التوسع في هذا الى آخر المدى . ولـكن هذه منزلة لا تزال بعيـدة . وليس بنا عن اللغة الى الآن ، والى زمان آخر طويل ، غنى . وما دمنا عاجزين عن التعبير بغير هذه الأداة فلا سبيل الى معنى إلاّ بلفظ ، ومن كان يتوهم أن من اليسور أو الممكن أن يحصل المعنى بغير لفظ فليجرب ، وليحاول أن يتصور معنى يدور في رأسه ، أو إحساساً يضطرب به صدره ، من غير أن يكون له لفظ يتبدى فيه ، أو فليحدث نفسه بأمر ما ، فانهُ خليق أن يجد أنهُ لا يستطيع أن يفعل ذلك الاّ اذا اهتدى الى اللفظ الذي يفرغه فيه ويصبه منه في مثل القالب ، وانه بغير ذلك لا يشعر بأكثر من جيشان او اضطراب فكأنهُ ينظر الى سحاب غليظ متراكب لا تنفذ العين فيه ، أو شيء ملفّـف . ولا سبيل الى الرؤية الواضحة الاّ بعد أن يتفتق السحاب أو يتقشع ، ولا يتبين المرء ما يدور في نفسه الاّ اذا صار لما يخالجهُ لفظ يكتسيه ويبدو فيه ، وهذا هو السبب في غموض الكلام ووضوحه ، فالغموض هو قصور اللفظ ، والوضوح هو حلول المعنى في لفظه ، أو قل أن الغموض مرجعه الى أن المرء لم يمهل معانيهِ أو خوالجهِ أو احساساتهِ حتى تصفو مما يخالطها ويعتورها ، أو تطرحه عنها ، وتخرج منهُ ، ويتسنى لها أن تتخذ ما يبرزها ويميزها . أما لماذا يدع المرء الامهال ، فسألة أخرى ، فقد يكون عجولاً بطبعهِ ، أو يكون بهِ كسل عقلي ، أو تكون المعاني أو الخوالج أدق أو أعوص عليهِ من أن تحيط بها عبارة ، أو يكون قد ركبهُ الوهم فظن أنهُ فهم وأدرك ، وما أدرك شيئاً

على وجههِ، وما وسعه لهذا أن يعرب، إذ لا إعراب إلاّ بعد إدراك ، أو يكون فاهماً ولكنه مغتر او ذو بطر ، او كحديث العهد بالنعمة ،فيسرف في البيان او يقصر .

ونعود بعد هذا الاستطراد فنقول ان المعنى لا يمكن ان يحصل او يتيسر تصوره الاّ بلفظهِ، ومن هنا كان الخطأ في تشبيه اللفظ بالوعاء او الظرف او الثوب او غير ذلك مما يجري هذا المجرى ، ذلك ان اللفظ ليس شيئاً مستقلاً عن المعنى ، وقائماً بذاتهِ ، وانما هو والمعنى كل لا يتجزأ ، وليس للمعنى وجود بغير لفظ ولا للفظ بمجرده حقيقة تدرك ، وكل ما يقال في الايجاز والاطناب هراء ما لم يفهما على وجهيهما الصحيحين . فليس الايجاز الاّ صبّ المعنى في لفظه المعبر عنه والاكتفاء بهِ دون الاستطراد الى غيره، اما الاطناب فليس الاّ استطراداً الى معاني « أخرى » غير الذي اليهِ القصد وعليه القول، فان المعنى لا يؤدي الاّ بلفظهِ ،فاذا تغير اللفظ تغير المعنى لا محالة . ومن هنا كان الترادف في اللغة الواحدة خرافة، الاّ اذا كان المراد أن قوماً اتخذوا لفظاً لمعنى، وقوماً آخرين اتخذوا غيره، ومؤدى هذا أن هناك لغتين لا لغة مفردة ، وان كانتا من أصل واحد .

✶

وقد قيل ما قيل في الشبه بين الانسان والحيوان ، وفي النشوء والتحول وما الى ذلك أو ما ليس اليه ، وذهب بعضهم الى ان الخط الفاصل بين الانسان والحيوان يبدو أنهُ رهن بطية واحدة في حشو الدماغ ، ولكن بينهما فاصلاً واحداً لم يستطع ان يزيله أو يستهين بهِ حتى أولئك الذين يردون الفكر الى الاحساس ، ويقولون ان الحيوان يشارك الانسان في الملكات التي هي الأسباب المنتجة للتفكير . وهذا الفاصل هو اللغة فما استطاع حيوان ـ الى الآن ـ أن يتخذ لغة مثل لغة الانسان.

وفي هذا يقول « لوك Locke » ومن الممكن ان يُعدّ من الفلاسفة الماديين : « وأنا على يقين جازم من ان القدرة على التفكير لم يُعطها الحيوان ، وان استنباط الآراء العامة وتصفحها يميز الانسان تمييزاً تامًّا من الحيوان . ومن الجلي أننا لا نسير على آثار غيرنا في استخدام رموز عامة لآراء عامة . ولنا ان نقول ان الحيوان تعوزه ملكة التفكير والارتياء لأنهُ لا يستعمل «الفاظاً» أو رموزاً أخرى عامة » .

ومؤدى هذا ان اللغة أكثر من وعاء ، أو ظرف ، أو ثوب ، او جسد ، وان هذه ليست الاّ الفاظاً يراد بها تقريب وظيفة اللغة من الافهام ، وان اللغة آلة يعمل بها العقل

ولا يستطيع بغيرها أن يعمل ، وينظر ، ويتدبر ، ويستنبط ، ويستبين ، ويستشف الى آخر ذلك. فليست وظيفتها بمقصورة على العبارة عما يدور برأس الانسان او يضطرب بهِ صدره ، أي انها ليست أداة للبيان فحسب ، وانما هي أيضاً أداة للتفكير نفسه وآلة كما أسلفنا ، لحركة العقل .

ولست تجد لغة حيث لا تجد انساناً ، ولا نعرف انساناً ليست له لغة ما ، فهي من عمله ، بمعنى أنها نشأت معهُ ، ونمت واتسعت ، تبعاً لاتساع حياته . ومع قدم اللغة ـ كل لغة ـ لم يستطع الانسان على كرّ الدهور ان يضيف جديداً الى أصولها أو يغير مناهج تأليفها وتركيبها ، أو يبدل أوضاعها ومقاييسها ، أو يعدل بها عن طرائقها في المجاز والاستعارة الى آخر ذلك ، وكل ما استحدثتهُ الأجيال المتعاقبة لا يعدو الشكل الى الجوهر ، ولا يمتد من الفرع الى الأصل ، حتى ليمكن أن نقول إننا ما زلنا نستعمل الألفاظ نفسها التي دار بها لسان الانسان حين سمى الأشياء أسماءها . ولا شك ان اللغة تتطور ولكن أصولها ومناهجها وطرائقها لا يلحقها تغيير ، والقانون الذي يجري حكمه على اللغة هو قانون الطبيعة نفسها ، ولا دخل فيهِ لارادة الانسان الحرة ، أو اختياره ، فهو لا يستطيع أن يستحدث فيها ويغير ، ويزيد وينقص ، على هواه ، كما لا يستطيع أن يغير قانون الدورة الدموية في بدنه ، أو أن يضيف إصبعاً بله شبراً الى قامته . وكما ان الانسان لا يتسنى لهُ أن يقبض على زمام الطبيعة إلاَّ اذا عرف قانونها وتوخاه ، كذلك لا يستطيع الكاتب أو الشاعر أن يقبض على ناصية اللغة ويتصرف فيها ويبلغ بها حيث يريد إلاَّ بعد أن يحيط بقانونها وينزل على حكمها.

وقد حكوا عن الامبراطور تيبريُس Tiberius أنه أخطأ مرة في كلمة فرده بعضهم الى الصواب ، فقال منافق ان الامبراطور نطق بها صحيحة وجاء بها على وجهها ، فاذا لم يكن هذا كذلك، فأحرِ بأن يصبح ما قاله هو الصواب . فعاد الاول يقول : «هذا كذب ونفاق أيها القيصر ، فانك تستطيع ان تمنح الناس الجنسية الرومانية ، ولكن الألفاظ فوق سلطانك » .

وهنا موضع التحرز ، فان اللغة لغتان ، واحدة تستقر وتثبت على صورة فلا يلحقها التغيير الاَّ في النادر والاَّ في ما لا يمس الاصول، وهذه هي التي تكتب ولها آداب ، وأخرى هي اللهجات ، أي لغات الكلام وهذه دائمة التغير ، ولا ثبات لها على حال ، لأنها لم ترزق ما يقيدها انضبط ويصدها عن التبدل والتحول المستمرين . واللهجات أسبق من اللغات

الثابتة ، او لغات الكتابة والأدب . وليست لغة الكتابة والأدب الاّ احدى اللهجات ، وما كانت لغتنا العربية إلاّ واحدة من لهجات العرب في الجاهلية ، وقد كتب لها السيادة وقمم لها الاستعلاء ، قبل الاسلام بقليل ، ثم ثبت لها ذلك بنزول القرآن الكريم بها ، فاندمجت فيها اللهجات الأخرى ، ولولا القرآن لما عجزت اللهجات الاخرى عن الحياة ، ولكان من الممكن - اذا ساعفت احداها الأحوال - ان تفيد قوة ، تسترد بها مكانتها .

واللهجات ليست محلية او اقليمية فحسب ، فان هناك لهجات طائفية ايضاً لا عداد لها ، مثل لهجات الرماة والفرسان ، والجنود ، والزراع ، والبحارة ، وأصحاب الحرف . ومن هنا - على سبيل المثال - كثرة اسماء السيف وغيره من ضروب السلاح ، وما يطلق على الخيل وحملها ونتاجها واسنانها وخلقها وصفاتها ونعوتها والوانها وشياتها واصواتها وعيوبها وأدوائها وعدوها ، وربطها وعلفها وسروجها ، ونعوت الابل في اخلافها وحلبها وكثرة ألبانها أو قلتها وضعفها أو هزالها وأسنمتها وألوانها وأوبارها الى آخر هذا وأمثاله . ومن هنا ايضاً هذا التدقيق الشديد في اسماء الجماعات من الناس وغيرهم . ومرجع هذا الى نوع الحياة التي تحياها الجماعة او القبيلة وانحصارها في نطاق ضيق . فتصبح العناية بالتفاصيل ميسورة ؛ كما لا يمكن ان تكون في جماعة كبيرة منتحضرة جوانب حياتها عديدة .



وبعد ، فان ابن لغة الكتابة والأدب لا يسعهُ الاّ ان يلم بها وبأصولها وأدبها - أي بقانونها الذي اكتسب صفة الثبات ، وروحها الذي يمكن ان نسميه « الغريزي » اذا هو أراد ان يمضي على النهج القويم ، فما يمكن ان يتصرف فيها تصرف الاقدار او ان يقضي فيها بأمره كما كان يقضي سلاطين الاتراك ، او اصحاب الحكم بأمرهم في زماننا . حتى العامية او اللهجات ، لا يتسنى فيها مثل هذا العسف . وصحيح ان الفرد هو الذي يستحدث الالفاظ او الصور الجديدة ، ولكنهُ انما يستطيع ان يفعل ذلك بعد ان يتسرب بروحه في الجماعة ، ثم هو لا يفعل هذا عن عمد وبعد اعمال فكر ، وطول تأمل وتدبر ، وانما يصدر عنهُ ما يصدر وهو غير مدرك او دار ، لانهُ إنما يتصرف وفق قوانين طبيعية لا سلطان له عليها ولا سيطرة ، وبعد تهيؤ روح الجماعة او الطائفة التي هو منها .

ابرهيم عبد القادر المازني

# ٢ - الكتب

## • أغنية الرياح الاربع • بقلم علي محمود طه

١٤ × ٢٠ ١٣٢ ص عيسى البابي الحلبي وشركاه القاهرة ١٩٤٣ *

« نظمها شاعر مصري عاش قبل الميلاد بما يقرب من الفي عام ، ونوه بكشفها ، ونقلها الى الفرنسية العلامة الجليل الاب دريتون عام ١٩٤٢ ، وأتمها وقدم لها شاعر مصري محدث بعد الميلاد بما يقرب من الفي عام محاولاً أن يتخيل قصتها وأن يهيء لها جواً مسرحياً »
عن مقدمة الديوان

في نظم الأستاذ المهندس علي محمود طه رنة جذابة وحلاوة بحترية ، الرأي فيهما أنهما مستمدتان بمهارة من الشوقيات من حيث النفس والقوافي والتأثر بالاهازيج الميسورة . وشوقي حقيق بأن تترسم خطاه . ولا يفوتنا أن نقول أيضاً إن « أغنية الرياح الاربع » في موضوعها ومحاولات ناظمها تدل على أنه ممن أطالوا القراءة لشعراء المهجر الاميركي وحذوا حذو مجلة « أبولو » ( المدرسة الشعرية المصرية ) فالشاعر يطرب لترانيم أبي شادي إذ هناك أوجه شبه بين اتجاهه وبين ما نظمه أبو شادي من روايات غنائيـة منها « الآلهة » . ثم ان الاستاذ طه من الذين استطاعوا ان يظفروا بحظ كبير من عناية الصحف ، وذلك مما يبعثنا على أن نلتفت الى منظوماته ونعنى بها كل العناية .

في منظومة « الرياح الاربع » أجد حقـاً ريح الجودة في مواقف (ص ٦٠ ، ١٢٦ ) وفيها مقطوعات تشهد بأن الشاعرية في الاستاذ المهندس لو اكتملت وخلصت لأثمرت وآتت أكلاً شهيـاً لهُ شأن في ميدان رسالات الشعراء .

فما نأسف لهُ أن شاعراً في مكانة الاستاذ جذبهُ تلذُّذ عامة السامعين والقارئين بالأغاني الشعبية ، فلم يكبر نظمه أن تجري فيه تعبيرات مبتذلة . وهذا من مضار رواج تلك الأغاني التي هيهات أن تمت الى الفن الرفيع بصلة قويمة .

فقد حاول الاستاذ أن يسلس قريضه ، وذاك في الحق لون من الجمال ، ولكنهُ لم يوفق كل التوفيق ، فالشعبيات وأمثالهـا في مسرحيته غير قليلة . ودونك أمثلة : « هيمان هيمان

* رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء

يا غرامي» ص ١١ — « ضمي هنا رأسك يا حبيبتي » ص ٢٩ — « لشد ما أهواك يا جميلتي » ص ٢٩ — « فيما مضى من غابر الايام » ص ٣٣ . ومن التعابير التي يتأثر فيهـا العامة : « يلعب بسيفه » يريد : يحرك ، لا يلعب — وفي الأغنية أيضاً :

« كثيرون مثلك مروا بنا فردوا الزبائن عن بابنا »

وأضر من هذا بالشعر على الإطلاق إن يتهاون الشاعر بلغة الضاد والقرآن الكريم . فقد نبه من قبل أستاذنا إبرهيم عبد القادر المازني على أن الأديب المهندس يستعمل اللغة جزافا . والمنظومة الجديدة تشهد بشيء من هـذا سواء في النظم أو النثر . ونحن لا نرى دعوى التجديد مسوّغة مثل ذلك . ولا بدَّ لنـا من الوقوف والتنبيه على هذا : « يقبّـلان بعضهما » ص ٢٩، والصواب يقبل أحدهما الآخر — « اكتراث بالجميع » ص ٣٠، والأولى: للجميع — « واضطرح توافه العقائد » والصواب : واطرح — « عقداً مصاغاً » ص ٥٢ ، والصواب : مصوغاً — « يتفرَّجنَ على سفينة »ص ٦٣ ، والمراد : يشاهدنها، وليس تفرج بهذا المعنى منقولاً عن الفصيح ، — «وهلاّ نزلت الآن» ص ٧٦ ، والصواب : هلاّ تنزلين، لأن المقصود هنا الحض لا اللوم — « أنا التي أعير» ص ٧٣ والصواب : التي تعير — «دماؤكم اول ما تباح» ص ١٢٨ ، والوجه : يباح، لعودتها على« ما »— «منشغلات» ص١٠٣، والأقوم : مشغولات — « ما عدت أعي » ص ١٤٤، وعليه أن يقول : عدت لا أعي

ولا أريد أن أنبه على الأخطاء المطبعية وهي غير قليلة ، فلعل لصاحب الديوان عذرا .

وبعد فربما أهمل الاستاذ الشاعر بعض التشويق المسرحي . ففاته مثلاً أن يترك الخطابة في التعبير وينصرف الى بعد الفكرة التي في الأغنية الفرعونيـة ، المأخوذ عنهـا . ثم الى تجاوب أطوار الحركة على المسرح ، وفاته أيضاً أن يرسم الشخصيات بقوة ووضوح ويكشف ملامحهم حتى لا يمل الناظر ويضيق بمتابعة الناظم الى آخر الفصول . أقول هذا وأنا أتذكر ما أحس به حين أطالع المسرحيات الرفيعة التي ترجمها شاعرنا خليل بك مطران وغيره من روّاد الأدب المسرحي .

وعندي أن الشاعر المهندس برع في نظم المقطوعات وقصيد المناسبات براعة تستحق التقدير . وما أظن ذلك شأنه في معالجة القصة شعراً وليس هذا بضائر له ، كلاّ ! فله الثناء على جهوده في سعيه الذي نظم به قصةً رائعة مقتبسةً قضيت في قراءتها وقتاً لا آسف عليه .

كامل محمد عجلان

## • الجيش والبحرية في مصر من الفتح العربي إلى بداية العصر الطولوني •

بقلم سيدة اسماعيل كاشف

١٤ × ٢١½ : ٤٠ ص وزارة الدفاع الوطني القاهرة ١٩٤٤

تنطوي هذه الرسالة على مقدمة وبابين : المقدمة إجمال لفصول جاءت في الكتاب الذي تقدمت بهِ الآنسة سيدة كاشف الى كلية الآداب بجامعة فؤاد الاول فحصلت على درجة « الماجستير » . والباب الاول في الجيش والثاني في البحرية .

وقد وفقت الآنسة في عرض نظام الجيش العربي وطبيعته وتطوره بمصر في فجر الاسلام . وتحدثت عن حرص الخليفة عمر بن الخطاب على منع الجند العرب من الاشتغال بالزراعة أو التجارة ، وأحسنت في تفنيد رأي المستشرق لين پول Lane-Poole في تعليل تلك السياسة بأن الاستعمار المنظم كان بعيداً كل البعد عن تفكير عمر ، وان غزوات المسلمين في البداءة كانت حملات عابرة . وردّت الآنسة بأن ملك الجند للارض ليس شرطاً للاستعمار المنظم ، وبأن تلك السياسة كانت سياسة موضوعة ترمي الى نشر الدين وسلطان المسلمين بدون التعرض لشؤون الشعوب المغلوبة على أمرها . واعتمدت الآنسة في بعض أطراف الموضوع على ما جاء في أوراق البردي من وثائق تشير الى أعطية الجند وأرزاقهم ، وعنيت بشرح ما كان لوادي النيل من شأن بوصفه قاعدة للفتوحات وما كان لحاميته من فضل في غزو شمالي افريقية وبلاد النوبة .

أما الباب الثاني فقد عرضت فيهِ الآنسة جهود مصر في بناء الأساطيل الاسلامية الأولى وما كان لخبرة الملاحين والعمال المصريين من أثر في انتقال السيادة البحرية من الروم الى العرب في ذلك العصر . وأشارت الى ان نشاط المصريين لم يقف عند اعداد الأسطول المصري ، فان والي مصر كان يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل في أسطول المغرب او اسطول المشرق فكانوا يساهمون في الاعمال البحرية العامة للدولة الاسلامية

ولما تحدثت الآنسة عن الانتصارات الاسلامية الاولى في البحر المتوسط عرضت لوقعة «ذي الصواري» وذكرت أنها سميت بهذا الاسم لكثرة صواري السفن التي التحمت في القتال فيها ، وقالت انها تسمى في الكتب الاوربية واقعة فونيكة لوقوعها بالقرب من ثغر فونيكة Phoenicus غربي الاسكندرية . وهكذا نرى ان الكاتبة قد رجحت في هذا الصدد الرأي القائل بأن واقعة ذي الصواري حدثت على مقربة من الاسكندرية . وهو الرأي الذي يستنبط من النصوص العربية ، ونفضله على الرأي الذي يراه معظم المستشرقين

تأثراً لقول قاله أحدهم في القرن الماضي ، وخلاصته ان وقعة ذي الصواري حدثت جنوبي آسية الصغرى بجوار ثغر فونيكس Phœnix . وآخر من فصل هذه المسألة الاستاذ ماريوس كانار في مقال بالمجلة الاسيوية الفرنسية ( يناير — مارس سنة ١٩٢٦ )
Les Expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la Légende

ولا ريب في أن أساس هذا القول نجده في ما كتبه المؤرخ اليوناني تيوفانس Théophane غير ان الحق ان هذا المؤلف كان يخلط كثيراً في ذكر الوقائع البحرية ، فقد ذكر مثلاً ان اسم قائد المسلمين في الوقعة التي يظنونها وقعة ذي الصواري هو أبو الأعور على حين المعروف أن هذا القائد كان عبد الله بن أبي السرح . ومع ان الاستاذ كانار نفسه لم يخرج في هذه المسألة عن رأي معظم من سبقه من المستشرقين،فانه أشار الى احتمال الخلط في ذكر هذه الوقائع عند المؤلفين المسيحيين ، لأن الغزوات البحرية كانت على استئناف مستمر .

فنحن نقر الآنسة على قولها بأن وقعة ذي الصواري نشبت على مقربة من الاسكندرية ولكن المقام لم يمكنها في رسالتها ولا يمكننا في هذا الباب من سرد الأسباب التي ترجح هذا الرأي ، فحسبنا أن نوجه القارئ المستزيد الى ما جاء في كتب التاريخ العربية عن هذه الوقعة، والى مقال الاستاذ الفرنسي كانار ومقال المستشرق الالماني ڤلهوزن Wellhausen في حروب العرب والروم في العصر الاموي ، والى ما جاء في Annali حوليات المستشرق الايطالي كائيتاني Caetani .

هذا وكان في المأمول أن تعرض الآنسة ببعض التفصيل لما كان من التعاون في الجيش بين العرب والمصريين الذين دخلوا في الاسلام ، فكنا نود أن تجلي لنا على الخصوص نوع الخدمة التي كان يؤذن للمصريين في القيام بها في الحرب والسلم للرجالة من الجيش العربي .

زكي محمد حسن

• نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي • بقلم علي حسن عبد القادر

$17\frac{1}{2}$ × ٢٥ ٣١٢ ص مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٤٢

من الدراسات التي يجب أن نعنى بها عناية كبيرة تواريخ العلوم الاسلامية ، ومن أجلها الفقه والتشريع الاسلامي ، ذلك لنعرف في باب الفقه كيف نشأ ، وكيف استوى على ساقه ، وكيف تطوّر حتى صار ما نعرف اليوم من أحكام — في مختلف ضروب الحياة وواقعاتها —

تختلف في قبولها والاعتداد بهـا باختلاف ما بُـنيت عليه من الأسس ، من القرآن والسنة النبوية . . . والأعراف المتعددة بتعدد الأقطار الاسلامية المختلفة . بذلك نعرف ، كما يقول الأستاذ مؤلف الكتاب موضوع البحث والذي جعلنا اسمه عنوانًا له ، ما كان منهُ عمليًا نافذاً ، وما كان جدليًا أو مثاليًا نظريًا . وبذلك نستطيع ، فيما أرى ، أن نختار منهُ في غير حرج ما بهِ يكون الخير في هذا العصر الذي نحن فيه والعصور التي تتلوه .

وقد غبر الأزهر دهراً طويلاً لا يعنى بهذه الناحية من الدراسات ، اللهم إلاَّ نفر قليل وجهوا قدراً من جهودهم الى هذه الدراسة من بعض جنباتها ، وأمثلهم فيما نعرف المغفور له الشيخ حسين والي بما أرخ للتوحيد والتفسير والحديث بكتابات علمية قيّمة ، بعضها لا يزال مخطوطاً ينتظر أن تعود الحياة دافقة قوية الى الأزهر فينشر تراث رجاله الأعلام !

والمشروع الذي وضعهُ زميلنا هو تأريخ الفقه بالمعنى الكامل ، فيتناول القوانين المتصلة بالشريعة اتصالاً مباشراً ، سواء أكان ذلك باندماج هذه القوانين في الشريعة أم بتأثير الشريعة في هذه القوانين ، ويقصد بهذا قوانين العرب أيام الجاهلية وقوانين الشعوب التي دخلت في الاسلام ، كما يمتد بحثه الى الأعراف التي كانت قائمة بين الشعوب الاسلامية نفسها ( ص ٤ ) . ولهذا حصر الأدوار التي مرّ بها الفقه في خمسة ، وتحدث في هذا الجزء الأول عن الثلاثة الاولى منها ، وهي التي تنتهي بتأسيس المذاهب الفقهية المعروفة .

لقد ظهر قبل هـذا الكتاب بحوث وكتب في تاريخ التشريع ، منها القديم ومنهـا الحديث ، ولكن هذا الكتاب يعتبر نوعاً طريفاً من البحث ، ففيه الافادة الى حد كبير من بحوث العلماء المستشرقين ، وفيه العمق والتحليل ، وفيه رد الظواهر الى أسبابها وعناصرها الأولى ، وفيه المقارنة التي يتم بها بيان الفكرة وفضلها . وذلك ما يجعلنا نوقن أن الاخوان الذين جمعوا بين ثقافة الأزهر وثقافة أوربة حريون أن يحققوا ما أنيط بهم من آمال الى حد كبير نغتبط بهِ ، وبأنهُ ينتظر منهم خير كثير للدراسات العلمية العالية — الاسلامية والفلسفية والتاريخية — في الأزهر وغير الأزهر .

لقد عرض المؤلف في عمق وشجاعة لمشكلات كثيرة ففتح آفاقاً واسعة لإِجالة الرأي :

عرض للتشريع بمكة وخصائصه ، وإلى أهم ما دار عليهِ الوحي في المدينة من عقائد وتعاليم وتشاريع ( ٧ — ٢٥ ) . وخص القرآن بعد هذا ، باعتبـاره المصدر الرئيسي للتشريع ، بكلمة تاريخية عن نزوله والأحرف السبعة التي نزل بهـا ، والنسخ وأنواعه ( ٢٥ — ٤٧ ) . وعرض بعد ذلك لصفات الرسول في التشريع ، والى مصادر التشريع في

العصر النبوي . ثم انتقل الى عصر الصحابة والى فقه عمر والتشريع في عهده وأثره الكبير فيه ، والى اختلافات الصحابة وقد انتشروا في البلدان ، مبيّناً ان ذلك كان بدء تطور الفقه ( ٥٣ـ٨٣ ) . وعرض بعد هذا في توسع لمسألة حفظ القرآن وجمعه ( ٨٤ ـ ١٠٠ )

ثم انتقل الى الدور الثاني وهو دور تأسيس الفقه ، مستعرضاً ما كان للاحداث السياسية من أثر كبير في الفقه والتشريع . وكان من هذا أن اخذ التشريع — في رأيه — ينفصل عن الحياة ، واخذ الفقه يتجه اتجاهاً نظريًا بعيداً عن الحياة العملية ، ملتمساً اسباب هذه الظاهرة من الهوة التي حدثت بين العلماء الاتقياء والحكام من الخلفاء الأمويين ( ١٠٠ — ١١٠ ) وقد وقف هنا وقفة حسنة عند المصدر الثاني للفقه وهو السنة ، مبيناً في وضوح وروية العوامل التي كانت سبب ظهور مدرسة الحجاز ومدرسة العراق ، منتهياً إلى تحديد العمل الفقهي في هذا الدور بأن العناية بالروايات فيه كانت أقل من العناية بالرأي والفتوى ( ١١٠ — ١٥٨ ) . ولاتصال التفسير بالفقه ، أتى بكلمة موجزة مركزة عن مدى هذا الاتصال ، مبيناً أن من أسباب اختلاف الآراء في التفسير ما كان من اختلاف المصاحف وأن ذلك كان له طبعاً أثره في الفقه . وختم الحديث عن هذا الدور الثاني بالكلام على فرقتين كان لكل منهما فقه خاص له أصوله ومقاصده ، وهما الخوارج والشيعة ( ١٥٩ — ١٨٧ ) .

ونقل البحث بعد هذا الى الدور الثالث ، بادئاً ببيان ما كان لانتقال الخلافة الى العباسيين « من أثر هام جاوز السياسة الى الدين » ، ومن ذلك أن الحكومة في هذا العهد العباسي «كانت ملائمة لتطور الفقه وللاعتناء بالحياة القانونية على الوجه الديني» ، مستشهداً بما وضعه كل من أبي يوسف بطلب الرشيد والخصاف بطلب المهتدي في كتاب الخراج من نُظُم الحكومة وادارة الدولة على أساس من الفقه القائم على السنة ( ١٨٧ — ٢٠٠ ) . وكذلك أخذت الاختلافات تظهر واضحة بين مدرسة الحجاز ومدرسة العراق ( ٢٠٥ — ٢١٧ ) .

أخذ بعد هذا في الكلام على الامام أبي حنيفة « الذي استقرت عنده وعند اصحابه مذاهب العراق » ففحص المحيط العلمي الذي نشأ فيه ، ثم ابان فضل اصحابه في بناء شخصيته ( ٢١٨ — ٢٢٨ ) . والكلام على ابي حنيفة ومذهبه جرّ الى مسألة « الحيل » الشرعية ، والى حكم الاسلام فيها بصفة عامة (٢٢٨ـ٢٣٥) . وبعد كلمة على أشهر تلاميذ الامام وأصحابه ، انتقل الى الكلام على الامام مالك ومذهبه الذي يقوم على الحديث وعمل اهل المدينة والرأي احياناً (٢٤٣ — ٢٥٠) . ثم ساق الحديث الى الشافعي واصوله الفقهية وطريقته

التي تجعل مذهبه وسطاً بين أهل الرأي واهل الحديث ، كما كانت « رسالته » نقطة الانتقال التاريخية للفقه الاسلامي ( ٢٥٦—٢٦١ ).

ثم انتقل بعد ذلك الى الكلام على ابي سليمان داود الظاهري ومدرسته التي كان « اهم ما تخالف فيه المدارس الاخرى هو استعمال مصادر الراي والقياس » وعلى تطور هذا المذهب على أيدي تلاميذ مؤسسه ( ٢٦٥—٢٧٢ ). واخيراً ، جاء الحديث عن الامام ابن حنبل ومكانه في الفقه في كلمة قصيرة ، وعن مدى انتشار كل من المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة وغيرها في القرن الرابع ، واسباب هذا الانتشار (٢٧٤ — ٢٨٥ ). ثم تحدث عن اثر الفقه بصفة عامة في العناية بالحديث وجمعه وتصنيفه مع طرق ذلك (٢٨٦—٢٩٦) .

وتكلم بعد هذا في ما كان من نقد الحديث وطريقته « وهو يقوم على النظر الى الرجال في الاسناد وعدالتهم وضبطهم وغير ذلك » ، دون اهتمام كبير بمتن الحديث ، ولذلك نقدها نقداً حقًّا (٣٠٢-- ٣٠٥ ) . وانتهى الكتاب باشارة عابرة الى خمود التأليف وقفل باب الاجتهاد في القرن الرابع ، والرجوع الى التقليد بعد ما استقرت المذاهب الأربعة المعروفة .

• • •

ذلك جماع ما حواه الكتاب الذي بأيدينا ، ومنهُ تعلم كم كان مؤلفهُ متواضعاً حين أكد في مقدمته أن ما وصلت اليهِ أعماله في هـذه الناحية لا يمكن بحال أن يتعدى المحاولات العلمية في هذا الصدد ! لقد حوى الكتاب مسائل كثيرة لكل منها خطرها ، وأثار مشكلات شتى أمكنهُ أن يعالج ما عالج منها بمقدرة وجدارة حريتين بالتقدير .

هذا ، وكنا نود أن نقف عند هذا الحد ، لولا حق العلم والنقد الحق ، لذلك نرى أن نتقدم بهذه الملاحظات التي لا تنقص من قيمة هذا العمل الكبير :

١ — في بعض المسائل التي تحتمل وجوهاً مختلفة من الرأي ، يرى القارئ أحياناً الميل الى بعض الآراء التي قد تخالف ما اجتمعت عليه الروايات الاسلامية ، وقد يكون هذا الميل صريحاً ، وقد يكون بعرض الآراء بلا ترجيح ما اتفق عليه أكثر الروايات الاسلامية في حالات لا يوجب الحق – في رأيي – الميل عنها . ونجد مصداق هذا في مسألة الصلاة وأنها كما يرى بعض المستشرقين فرضت في أول الأمر مرتين : بالغداة والعشي ، مخالفاً بذلك بلا ضرورة الروايات الاسلامية التي تقرر أنها فرضت خمساً مرة واحدة ( ص ١٤ ). وكذلك أمية الرسول ، فقد أثبت أولاً أن معناها عدم معرفته القراءة والكتابة على ما حققهُ جمهور العلماء قديماً واعتمده كثير من الباحثين في هذا العصر ، ثم جاء بعد سطور وفسّر الأمية بعدم معرفة الكتب القديمة ، لا بعدم معرفة القراءة والكتابة (٢٥—٢٦ ) .

٢ — يشعر القارىء أحياناً بشيء من العسر في التوفيق بين ما يذهب اليه في مواضع مختلفة في المسألة الواحدة . من ذلك ما قرره ص ١٠٨ من أنهُ بدأ في العهد الأموي تأسيس علم الفقه الذي يقوم على منهاج نظري مثالي لا يمت إلاّ بسبب ضعيف للحياة العملية ، ثم تأكيده بعد هذا أن عمل الفقهاء في هذا العصر كان ادخال مبادئ الدين في العادات المعمول بها إذ ذاك ، ومعنى هذا - في ما أرى - أن الفقه كان عمليًّا لا نظريًّا مثاليًّا . ومن ذلك أنهُ يقرر أن أبا حنيفة لم يوجد لنا حقيقة طريقة فقهية ، بل انهُ لا يوجد في الفقه الاسلامي طريقة بالمعنى الحقيقي ( ٢٢٦ ) ، على حين أنه قد قرر قبل هذا ( ٢٢٣ ) أنهُ ظهرت على يدي أبي حنيفة لأول مرة طريقة منظمة للفقه على أساس القياس ، كما أنهُ يقرر بعد هذا ( ٢٥٦ ) أنه إلى الشافعي يرجع الفضل في أنه أوجد طريقة وأقام اصلاحاً فقهيًّا . ومن ذلك ما يراه (٢٣٠) من أن الحيل في نتيجتها احتيال على الخروج من سلطان الفقه والقانون الاسلامي ، فهي لهذا أعمال إذا استعملت على وجهها الصحيح ظهرت غير مأذون فيها ، على حين يقرر بعد هذا ( ٢٣٥ ) أن فكرة الحيل لا تنافي الأخلاق ، فهي في الحقيقة ليست مركباً للذين يريدون أن يتخطوا الشريعة ويتركوا العمل بها . ولابن القيم في كتابه « إعلام الموقعين » بالجزء الثالث بحث حسن في الحيل وأنواعها والأحكام الشرعية التي تتعاورها ، ومنه يتبين الباحث انها كلها ليست حراماً ويراد بها التفلت من سلطان الفقه وأحكامه .

وعناية المؤلف بالحديث عن « الحيل » عند الحنفية جعلته يروي عن الخطيب صاحب « تاريخ بغداد » أن هناك لأبي حنيفة كتاباً في الحيل لا يتفق مطلقاً والدين ، ثم يترك هذه الفرية بلا تكذيب قاطع صريح ، مع أن ذلك كان واجباً وميسوراً كما ورد بكتاب « تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب » ص ١٢١ — ١٢٢ للعلامة الشيخ الكوثري .

وبعد ، فهذا العمل ، الذي حاولنا وصفه للقارئ عمل حري بالتقدير من الذين يعنون بالدراسات الفقهية في الأزهر وغير الأزهر . هو حري بهذا ، بما حوى من مسائل ، وبما عالج من مشاكل ، وبالنهج القويم الذي قام عليه ، وبالمراجع الكثيرة الأصيلة العربية والألمانية التي رجع اليها المؤلف . لذلك ندعو أن يديم الله الانتفاع به ، وأن يعين صاحبه على السير به الى ما يرجو له من كمال .

محمد يوسف موسى

المدرس بكلية أصول الدين بالازهر

◆

• بلزاك •[1] بقلم أحمد الصاوي محمد

١٤ × ١٩½ ١٤١ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

هي سيرة الكاتب الفرنسي بلزاك من قصاص المائة التاسعة عشرة ، ساقها المؤلف في أسلوب القصص السلسي فأدناها إلى عامة الجمهور .

*

• تلاقي الأكفاء • بقلم علي أدهم

١٣½ × ١٩½ ١٥١ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

مشاهد من التاريخ مقتطفة من هنا وهنالك . ويبدو للقارئ أنها على هامش التاريخ ، وأنها قصص وأحاديث تبعث التسلية بما فيها من طرائف . ولكنها ، مع ذلك ، لا تخلو من شأن ، إذ تكشف بعض النواحي المجهولة من الشخصيات البارزة ، وتعين الباحث في هذه الشخصيات على اكتناه أسرارها . وفي هذا الكتاب ما يؤانس القارئ . وفصوله التي تنتقل به بين التاريخ الشرقي والغربي وتصور له من شخصياته ، تبعث النفس الى الاستزادة والاستقصاء في المراجع التاريخية الحافلة . ومن أمثلة ما في الكتاب : « لغز تاريخي حول وفاة القيصر الأكبر » و « بين نابليون وتاليران » و « صفحات من حياة الحكم أمير الأندلس » . وقد صاغ المؤلف هذه الأحاديث التاريخية في أسلوب متخيَّر .

*

• ثبت ما قبل التاريخ المصري • بقلم شارل بشتلي

Bibliographie de la préhistoire égyptienne

١٦ × ٢٥ ٧٧ ص الجمعية الجغرافية الملكية المصرية ١٩٤٢

هذا مسرد كامل باللغة الفرنسية لجميع ما نشر في شأن ما قبل التاريخ المصري المعروف . وهو جمع ضاف لكتب ورسائل ومقالات ، جلها في وصف الحفريات ونتائجها من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٩٣٨ . وهي مكتوبة بلغات أوربية مختلفة ، وبالعربية في الندرة . وفضل هذا المسرد المرتب على حروف الهجاء الأوربي أنه يقرب المراجع ويلم تفاريقها ، فيمهد للباحث في ذلك التاريخ الوعر المسالك خطط التنقيب ، ويدني اليه اسباب المراجعة.

*

---

(١) النجم يرمز الى اسم من أسماء المتعاونين على الانشاء في هذا الباب .

• شيكسبير • بقلم محمد فريد أبو حديد ، زكي نجيب محمود ، أحمد خاكي

١١½ × ١٦½ ١٧٦ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤ سلسلة « اقرأ »

• مباحث في الفلسفة والاخلاق • بقلم محمد يوسف موسى

١٣½ × ١٩ ١٧٠ ص مطبعة الازهر ١٩٤٣

ليس صاحب هذا الكتاب أجنبيًّا عن الفن الذي يؤلف فيه، بل هو من رجاله وأركانه. فلهُ « فلسفة الأخلاق في الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية » ، ثم له «تاريخ الاخلاق». وقد روجع هذان الكتابان في المقتطف من قبل ، وقال فيهما واحد من أهل النظر في الفلسفة قولاً حسنا .

وهذا الكتاب الخارج اليوم جد مفيد من حيث إنه يضم فصولاً مشبعة في غير إطالة مستدعاة ، تدور على تعريف الأخلاق وتبيين صلتها بالحكمة ، بل قل بالفلسفة . والفصول موزعة بين الأخلاق والعلم وما فيهما من النظريات، ثم مكانة الأخلاق من الفلسفة إذ هي فرع من فروعها على صلتها بغيرها من العلوم ، ثم الخلق وتكوينهُ مع تعرف المؤثرات فيه الى جنب الفطرة والوراثة ، ثم السلوك وما بينه وبين القصد ، والضمير وما مهمته ومظاهره وماهيته وتربيته ودرجاته ، ثم المثل الأعلى وكيف يختلف ويتكوّن ، ثم القياس الخلقي وانقسامه قسمين : عملي ونظري ، ومن هذا : العرف ، فما أصله وسلطانه ؟ وكيف يصلح لأن يكون مقياسا ؟ ومن هذا ايضاً : القانون ، فما أنواعه وفيه الطبيعي والوضعي والالهي والاخلاقي؟ ثم ما بين كل هذه من الفرق وما يترتب عليهِ من الحاجة الى البحث الأخلاقي مع وجود القانون الالهي .

ذلك مجمل موضوعات هذا السفر المتواضع من جهة العرض، القويم من جهة السرد . فانهُ وان كان كتبهُ صاحبه لطلبة الجامعة الأزهرية ليضم فوائد دانية كثيرة . فهو ينقل بفهم ويسر إلى قراء العربية ما رآه علماء الغرب في الموضوع الذي يعالجه ، ويردف ذلك بما يواطئه أو يعارضه في مؤلفات السلف من حكمائنا ، مع استقلال في النظر . فهذا تقريب لطيف.

وليت الكتاب ضمَّ في آخره مسرداً للاعلام العربية والافرنجية ، وآخر للمصطلحات وما ينظر اليها في إحدى اللغات الأوربية .

*

# ٣ـ الاستدراك

• الحيوان • الجزء الخامس للجاحظ

بتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون

١٧ × ٢٤ ٦٣٩ ص مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٣

١ — تمهيد : أبو عثمان عمرو بن بحر المشهور بالجاحظ ، هو أكتب كتّاب العرب على الاطلاق ، منذ أن وجدوا على الارض الى عهدنا هذا . ولعلّ القارئ يعجب من هذا الكلام ، ويعزوه الى جهلنا لتاريخ الآداب العربية ، أو لا أقلّ من أن ينسبنا الى الغلوّ الفاحش ، لكن الحقيقة أننا لا ننطق عن غرض ، ولا عن هوى، إنما ننطق بالحقيقة مجردة عن كل غاية ، أو فكرة ملتوية .

نعم ، لقد قام في بني مُضر كتّاب نوابغ بلغاء فصحاء أبدعوا في ما نمقوا ووشوا من رفيع القول ، ومسجّعه ، ومن مختار الالفاظ وأدقها تعبيراً عن المراد ، ومنهم من أغربوا فيها إغراباً فاقوا من تقدمهم في النطق ، واتخذوا من الكلام أعوصها وأغمضها ، لكن ذلك كلهُ ليس بشيء يذكر بجانب ما أبدعهُ الجاحظ وصنفهُ ووصفهُ من متقن العبارة ومحكمها ، فانهُ يستحق وحده أن ينعت بـ«وصّاف الدقائق[1]» من بين كل من قبض على اليراعة العربية .

٢ — نظرة عامة في تصانيف الجاحظ : للجاحظ تصانيف ورسائل عدة مختلفة المواضيع ، بلغت ١٢٥ على قول ياقوت الحمويّ ، في معجمه المعروف بمعجم الأدباء ، لكن

---

(١) المراد بوصاف الدقائق من يكتب على الاشياء ويصورها تصويراً دقيقاً يمثلها بين يديك تمثيلاً كأنك تراها رأي العين ، وتلمسها لمس اليد ، حتى كأنه ينطقها نطقاً حياً ، تغنيك عن مقابلتها ومشاهدتها بوسيلة أخرى ، لأنك ترى محاسنها ومعايبها جميعاً على حد سواء .

ويسمي الافرنج « وصاف الدقائق » : Réaliste وقد حاول بعضهم نقلها الى لساننا بقولهم « كاتباً واقعيّ » وآخرون بقولهم : « مصور الاشخاص والاشياء كما هي بدون تجميلها » وبعضهم قالوا : هو « الكاتب الواقعي » . وفريق « القائل بحقيقة الاشياء » وجماعة : « القائل بالمذهب الحسي والواقعي » وآخرون غيرما مر بك من الالفاظ والتعابير ، وكلها لا تفي بالمطلوب من الحرف الافرنجي . هذا ويقابلها عندنا : « وصاف الخياليات » وعندهم: Idéaliste .

لم ينشر منها الى الآن – على ما نعهد – إلا ٢١ ، بينهـا كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان . وأحسن مؤلفاته : البيان والتبيين ، وأثمن منهُ وأبدع كتاب : الحيوان . إلاَّ أن إخراج هذه الدرة من مغاصها بسبع لآلئ ( سبع مجلدات ) على نفقة الحاج محمد السَّاسي ، حط من ثمنها ومن شرف ثِينـها [1] ، إذ أزال كثيراً من محسنات الكتاب ، وروائعهِ ، ومبتكرات أقواله ، فيعثر القارئ في كل صفحة من صفحـاتهِ على أوهام ، وتصحيفات ، وتحريفات ، ونواقص ، ومحذوفاتٍ ، تخل بسياق المعنى ، كما ان ثمَّ دواخل ومفأَماتٍ [2] مما يشجي ويبكي وينكي ، ويحول دون القارئ من المضي في وجههِ قدماً .

٣ — إعادة طبع كتاب الحيوان : فلمـا رأى أولاد مصطفى البابي الحلبي الدركة التي انحط اليها هذا الأثر النفيس الذي يعدّ من أفخر مفاخر الناطقين بالضـاد ، انتدبوا لابرازه الى عالَم البعث والنشور والخلود ، شابًّا مصريًّـا جم الى توغلهِ في الآداب والعلوم العربية وقوفَـهُ أحسن وقوف على تصانيف الجاحظ ، وآرائهِ وأفكاره ، ومعارفهِ ، فأبرز الى نور النشور أربع مجلدات منهُ . وبين يدينا الجزء الخامس الذي يعدُّ أوسع المجلدات ، وأصعبها فهماً لما حوى صدره من الآراء الفلسفية الغامضة ، وما وقع فيهِ من التصحيف والتحريف .

وفي هذا المجلد يبحث الجاحظ عن الطير التي تألف الدور وعن الفئران والجرذان ، والسنانير ، والعقارب ، وعن بعض الهوام كالبراغيث والقمل والصئبان ، والبق ، والجرجس والشبران ، والفراش ، والأذى ، والعناكب ، والنحل ، والقراد ، ثم تبدو له بادرة فجأة ، كأنهُ فاتهُ شيء ، فيرجع القهقرى ويتكلم على الحبارى من الطير ، وعلى الضأن والمعز من الحيوان ، وعلى الضفادع من دويبات الماء ، ثم يعود ثانيةً فيكلمنا على الفرق بين الإنسان والبهيمة ، وعلى الانسان والسبع ، ثم يؤوب أوبة ثالثة كأنهُ يصحو من غيبةٍ او ذهول ، فيعقد فصلاً في القطا ، ويختم هذا الجزء بنوادر وأشعار وأحاديث .

٤ — محتويات كتاب الحيوان : وقد وسم المؤلف كتابهُ بالحيوان . أما الحقيقة فهي أنهُ مَعْـلَـمَـة ، « قائمة برأسها » ومشتملة على جميع العلوم والفنون المعروفة عهدئذٍ . فاذا القارئ يصيب فيها أنواع المباحث والموضوعات ، كالتفسير والحديث ، وعلم الكلام ،

---

(١) الثين بكسر الثاء المثلثة : مستخرج الدرة من البحر .

(٢) مفأمات : جمع مفأم ، اسم مفعول من أفأمه ، أي وسعه وزاد فيه .

والفلسفة ، والمنطق ، وأنواع المذاهب ، والأديان ، واللغة ، والأدب ، والتاريخ ، والبلدان ، والتراجم ، والشعر ، والحكم ، والأشعار ، والأمثال ، وعلم الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، وكل ما وصل اليه العرب من علم الفلك والظواهر الجوية ، والقصص والروايات ، والأخلاق ، فضلاً عما وضعهُ هو من نفسهِ من الأقوال ومن فكره الخاص به من الآراء . وهذا ليس بقليل.

فالمطالع يرى عظم نفع هذا التصنيف ، فهو يغني عن خزانة كتب مختلفة المباحث والمواضيع . ووجوب تسليمه الى أديب يتمكن من اخراجه بجميع ألوانه المتموجة المتألقة ، وإلباسه أثمن حلة وأبدع وشي . وهذا ما فعله الاستاذ عبد السلام محمد هارون .

٥ — حسنات هذه الطبعة : ان المعتني بطبعه لم يضنّ بالحواشي على اختلاف أبوابها ومعانيها ، ومواضيعها . وقد وجّه الأنظار مراراً لا تحصى الى الأصول التي ورد مناهلها ليعيد صحة الرواية الى نصابها الذي كانت وضعت فيه في بادئ الأمر ، من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ، وأخبار تاريخية ، وتصحيحات علمية ، وخرافات دخيلة ، وموضوعة ، ومأثورة عن السلف . ففاز المحرّر بالسهم الأوفى وبالنصيب الأعلى مما توخى .

فلقد رأيناه صحح آيات قرآنية لم يوردها المؤلف على وجهها ، كما هي في السور ، وهذا عجيب من مسلم علامة مثل الجاحظ صاحب الفرقة الجاحظية[1] . فلقد صحح عبد السلام ما ورد منها في هذا الجزء في الصفحات ٣٢ و ٩٣ و ١٣٧ و ٥٤٤ و٥٤٧ .

ومن مزايا هذه النسخة أن المحرر ضبط جميع الحروف التي تحتاج الى تشكيل وتدوين وضبط ، وربما زاد على الضبط بالعلامات ، الضبط بالكلام ، كل مرة مست الحاجة الى هذا الأمر .

ومن مزاياها أنهُ طبع الحواشي متميزة عن النص بحرف دقيق بديع الرسم ، وعرّض تلك الحواشي ، حتى شغلت موطناً غير يسير من الكتاب ، ثم أخرج كل رقم من أرقام ترتيبها

(١) قال في شرح المواقف : الجاحظية : فرقة من المعتزلة ، وهم أصحاب الجاحظ ، قالوا : المعارف كلها ضرورية ، ولا ارادة في الشاهد ، أي في الواحد منا ، انما هي ارادته لفعله : عدم السهو ، أي كونه عالماً به ، غير ساه عنه . وارادته لفعل الغير ، هي : ميل النفس اليه . وقالوا : ان الاجسام طبائع مختلفة لها آثار مخصوصة ، ويمتنع انعدام الجواهر ، وانما تتبدل الاعراض ، والجواهر باقية على حالها ، كما قيل في الهيولى ، والنار تجذب الى نفسها أهلها ، لا ان الله يدخلهم فيها . والخير والشر من فعل العبد . والقرآن جسد ينقلب تارة رجلاً ، وتارة امرأة» . اهـ

بحيث تبدو للناظر ، من غير أن يبحث عن موطنها وموقعها من الصفحة .

ومن خصائصها أن المحقق استعمل التنقيط في جميع الأوجه ، من أنف الديوان إلى أخمصه ، ولم يخالف قواعده في عبارة واحدة ، حتى في الحواشي ، وحتى في أمر زهيد . ذلك ما لم نره في أي تأليف طبع في الغرب ، فضلاً عن الشرق في لغة الضاد .

وأعاد طائفة من الكلم إلى مواطنها ، تلك الحروف التي يخل حذفها بالمعنى إخلالاً لا يخلو من معرة وسوء عقبى ، وقد أسقطها النساخ ، والورّاقون ، وسيئو النيات ، وأرباب الغايات والأهواء . فبذل كل ما في وفاضه من السهام ، لكي يصمي صيده ، ولا يخفق ، فكان ما أراد .

وبذل كل ما في كنانته في تقطيع الموضوعات ، وإقامة الدبار [1] ، ليريح القارئ من تسلسل السطور وتتابع الكلم ، حتى يبقى المطالع مستريح البصر ، ومستجم القوى الفكرية ، بأن جعل لتلك الدبار عناوين مختلفة من وضعه ، عدا ما كان وضعه المؤلف من نفسه ، لوجوب هذا الأمر لمن يريد أن يجعل كتابه غذاء للفكر ، وراحة للبصر .

وكان بعض كتبة العصر يحذفون من عبارات الجاحظ كلمة « أيضاً » [2] ، زاعمين أنه لم يستعملها . أما الأستاذ هارون ، فانهُ أبقاها في موطنها كل مرة وردت ، ولم يحفل باعتراضات المعترضين ، لأنها من أفصح الكلام وأقومه وأقدمه ، لورودها في جميع النسخ التي اعتمدها ، على اختلاف ناسخيها ووراقيها ، وقد عددت منها ثلاثين مرة ثم وقفت .

هذا بعض ما أردنا أن نشير اليه من باب السرعة ضنًّا بوقت القارئ وطلباً للايجاز .

• • •

(١) الدبار بالكسر جمع دبرة ، بفتح الدال المهملة ، وسكون الباء الموحدة التحتية ، يليهما راء فهاء في الآخر ، وهي البقعة تزرع كالمشارة ، ويريد بهما الكتاب وأرباب المطابع : جملة من الكلام تبتدئ برأس سطر بارز عن سائر السطور ، وتنتهي بعد طائفة من السطور ، اراحة للبصر وهي التي يسميها الفرنسيون Alinea والانكليز Break وتجمع المشارة على مشاور ومشائر كنارة ومناور ومنائر .

(٢) فقد قال الجاحظ مثلا في ص ٢٣ : « وقد يقولون ذلك أيضاً على المثل » ــ وفي ص ٢٣ : « وهذه أيضاً فضيلة أخرى » ــ وفي تلك الصفحة نفسها : « جوزوا أيضاً أن يقولوا » ــ وفي ص ٤٥ : « ولو كان أيضاً التهافت ... » وفي ص ٤٨ : «وقد غلط أيضاً كثير منهم» ــ وفي ص ٦٥ : « ويدل أيضاً على ما قلنا » الى صفحات لا تحصى . وقد جرى المحرر ــ وهو تلميذ الجاحظ النبيه ــ جري أستاذه ، فلم يعمل بما قاله بعضهم في هذا الصدد ، بل تأثر معلمه عن كثب .

٦ — ما كنا نتمنى أن يكون في هذا الكتاب: كنا نتمنى ما يأتي :

— أن ترقم كل خمسة أسطر برقم ، حتى يسهل على القارىء الرجوع الى عددها من غير أن يعدها كل مرة وفي كل صفحة على حد ما يفعل اليوم جميع من يتولى نشر الكتب العلمية ولا سيما القديمة منها ، حين يضطر القارئ الى مراجعة بعض الألفاظ ، فلا يزحم نفسه لعدّ السطور لوجودها .

— نقل المحرر بعض عبارات افرنجية تفسيراً لبعض الكلم العربية ، نقلاً عن الأجانب . وكان يحسن به أن يترجمها الى العربية ، ليستفيد منها من لا يفهم الافرنجية كما جاء في الحاشية «١» من ص ٣٥١ وح ٧ ص ٤٦٨ .

— كان يحسن به أن يضع بجانب كل حرف يدل على حيوان أو نبات أو معدن ما يقابله عند الافرنج ، ليسهل على الباحث إتمام البحث عنه بحثاً علميًّا عند أولئك الأعاجم . لأنهم قتلوا تلك المواد خبراً ، فنحن نحتاج إلى عرفانهم لأننا عالة عليهم .

— كثيراً ما استعمل المحرر ألفاظاً كنا نتمنى ان يعدل عنها الى ما اشتهر اتخاذها عند الأدباء ، فانهُ استعمل (التنبيه) في مكان ( الحاشية ) ، كما في ص ٦ ح ٤ ، و٥٤٦ ح ١ و ٥٥٢ ح ٣ — وهي أكثر من أن تحصى . وقد اجتزأنا بهذه الاشارة الطفيفة .

— ورد في ص ٦٨ س ١٢ : « والثلج قد يداوى بهِ بعض الرضى ، ويتولد فيهِ الدود . . . » — قال المحرر في الحاشية « سبقت اشارة الجاحظ الى ديدان الثلج في (٣ : ٣٩٦ س ٦) . — ولم يذكر المؤلف اسمهُ عند العرب ، ولا المحرر في موطن من مواطن الديوان . والذي نعلمهُ أن اسمهُ ( الزُّلال ) وزان غراب . راجع تاج العروس في مستدرك ( ز ل ل )

— ذكر المحرر في ٤٧ ح ٦ : « العفص ، بفتح العين بعدها فاء ساكنة : ثمر شجر جبلي يقارب البلوط » — والذي نعرفهُ ان العفص زيادة مرضية تجيء على بعض الأنبتة هي نتيجة وخز تخزه حشرة أو هامة ، وتضع في الوخز بيضها ، فينتج من هذا العمل ، ضرب من العقد أو الغدد هو هذا العفص ، فهو ليس بثمر كما يظن . أو كما كان يتصوره الأقدمون واسمهُ العلمي المشهور Quercus Infectoria ودونهُ Quercus Lusitanica وبالفرنسية Chêne à galles أو Ch. des Teinturiers وبالانكليزية الشائعة Dyer's oak ودونها Gall Oak أو Nut Gall Oak . ويُنقل مقادير لا تحصى من عفص العراق الى

ديار الغرب لدخوله في الأصباغ وبعض الأدوية وفي عمل الحبر الأسود الذي لا يمحى والشديد السواد .

— نقل المحرّر الى الحرف اليوناني بعض الكلم العربية الهلنية الاصل لجاءت مخطوءًا فيها ، كما في أصل الهيولى في ص ٥٠ ح ٤ وص ٢٣٧ ح ١ الى غيرها ، وهي ليست بكثيرة .

— جاء في ح ٤ ص ٥٢ « الأرز بالفتح وبضم : شجر الصنوبر » — والمحققون يقولون: إن الأرز بفتح الهمزة وانهُ ليس بالعرعر ولا بالصنوبر ، بل إنهُ شجر قائم بنفسه اسمهُ العلمي Cedrus Libani وبالانكليزية Cedar of Lebanon وبالفرنسية Cèdre, Cèdre du Liban, Pin du Liban .

— وفي نص ص ٦١ : « وضروب الضباب والانداء ، فتراها إما صفراء وإما حمراء » . والصواب إما صفراً وإما حمراً : أي إن كلاً من صفراً وحمراً بالجمع المنصوب غير الممدود . والمدّ من جهل النساخ .

— ورد في ح ص ٨٤: (الطلق) « بالاوربية العلمية» Talc أو Talcum متعادل مركب من (سليكات المغنيسيوم) اه . ولو قال المحشّي : وبالاوربية Talc أو Talcus لكان أضمن للصحة . ويحسن أن تكتب سليكاة بالهاء لا بالتاء المغنيسيا . راجع المقتطف ١٠٤ : ١٩٩

— وفي ح ٩ ، ص ٨٤ « والبركان عامية مأخوذة من : Volcano » . والذي عندنا أنها معربة وقد وردت في شعر ابن حمديس .

— وفي ح ٥ ص ٨٨ : « والعقيق هنا : البرق ، ولم تذكر المعاجم في هذه المادة بهذا المعنى الا العقيقة والعقق بضم ففتح » — قلنا : لم تذكر المعاجم العقيق لانها جمع قياسي لعقيقة ، كما قالوا سحاب وسحابة وأرز وأرزة وبقر وبقرة ، فهي قياسية . وقد نبه أرباب المعاجم أنهم غير مقيدين بذكر القيسات من الحروف .

— وفي ح ٢ من ص ٩٥ : « فذا توفي حوالي سنة ٣٣٧ » . وقد استعمل المحرّر « حوالى » بمعنى نحو . وقد اكثر ارباب الصحف في هذا العهد من استعمال هذا اللفظ بهذا المعنى . وقد قلنا مراراً ان الفصحاء من الكتبة لم يعرفوها . وربما قالوا في مكانها : في حدود سنة كذا .

— في ح ٢ من ص ١٤٥ : « والبشام : نبت طيب الريح والطعم » . فهذا تعريف عام لا يفيد فائدة علمية واضحة . ولو نقل عبارة لسان العرب لكان أجلى ، فقد قال بعد ان ذكر هذه العبارة : « شجر طيب الريح والطعم يستاك بهِ . قال أبو حنيفة : البشام ، يدق ورقهُ ويخلط بالحناءِ للتسويد ... والبشام : شجر ذو ساق وأفنان وورق صغار أكبر من ورق الصعتر ولا ثمر لهُ واذا قطعت ورقتهُ أو قصف غصنهُ هُريق لبناً أبيض واحدهُ بشامة » .

— وفي ح ٩ من ص ١٥٢ تصحيح لما ورد في النص : « إذ مرّ العقعق والسخاب في منقاره : « فيما عدا ل : « في فهِ . وأنّى يكون لهُ فم ؟ ! » قلنا : ورواية الفم أصح من رواية المنقار، فقد ذكر اللغويون : فم السمكة ، وفم الطريق ، وفم الوادي ، وفم النهر من باب المجاز والتوسع . فلماذا لا يقال : فم الطائر ، وقد قالوا : فم الحيوان ( المصباح ) ولماذا لا يدخل الطائر في جماعة الحيوان ؟ وقد كرر المحرر هذا الانكار في ح ١ ص ٣٣٨ .

— وفي ح ٥ ص ١٥٨ في تعليقهِ على هذا البيت : « معي كل فضفاض القميص كأنهُ » ط فقط : فضفاض الثياب ، ولم أجدها في مرجع . قلنا : وهذه النسخة نفسها كافية لأن تكون مرجعاً يعتمد عليه ، إذا اتفق المعنى والمبنى معا . (١)

— ذكر المحرر في ح ٥ من ص ٢٠٩ التدرج والدُرّاج ، فالتدرج على الأصح هو Pheasant بالانكليزية وبالفرنسية Faisan وأما الدراج وزان رمان فهو Francolin بالفرنسية والانكليزية معاً . وأما ذكر الدُرّاج فهو الحيقطان بالعربية و A cock pheasant بالانكليزية و Le mâle du francolin بالفرنسية ، وقد أخطأ استينكاس بتسميته بالانكليزية Black partridge.

« للكلام بقية »

انستاس ماري الكرملي
من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

---

(١) على ان الفضفاض وردت في جميع المعاجم . قال في اللسان : « وقميص فضفاض : واسع . وفي حديث سطيح : أبيض فضفاض الرداء والبدن . أراد واسع الصدر والذراع . فكنى عنه بالرداء والبدن . وقيل : اراد كثرة العطاء ، ومنه حديث ابن سيرين . قال : كنت مع أنس في يوم مطر والارض فضفاض ، أي قد علاها الماء من كثرة المطر . وقد فضفض الثوب والدرع : وسعهما . قال كثير :

فنبذت ثم تحية فأعادها غمر الرداء مفضفض السربال

والفضفاض : الكثير الواسع ... الى آخر ما جاء هناك . وراجع أساس البلاغة ، فقد جاء فيه : « درع فضفاضة : واسعة . وبطن فضفاض . . . وعيش فضفاض واسع» .

# ٤ – التعقيب

## في اللغـة الشـاردة

اتفق لي من ثلاثة أشهر أن تدبرت هنا كتاباً خرج لقراء العربية[1]. فالى جنب الوصف الحسن اذا حقَّ هـذا الوصف ذكرت طائفة من العيوب التي تقصي الكتاب عن حلقة العلم وتلصقهُ بأدب الصحف ، ثم أضفت الى تلك العيوب ما أصبت من زلات في جانب اللغـة ، وقد هوّنت الأمر إذ قلت : « وقفتني أشياء طفيفة معدودة مما يجري ، فيما أعلم ، على أقلام المولدين — وكلنا على تلك الحال » . دوّنت ذلك ثم قيدت تلك الزلات نخفّضتها الى ست . ومما تركته مثلاً ما جاء في صفحة ١١٩ من الكتاب : « الوفود عثرت في طريقها بغلام »، والوجه الصحيح : « عثرت على غلام » ، لأن عثر بالشيء يكون للعثار والسقوط على جهة الحقيقة ، وأما عثر عليه فأصابه نبَـأً ( عن غير طلب ) أو اطلع عليه ، وهو المعنى المقصود من العبارة . وفيمن نبه على هـذه الزلة من قبل : اليازجي ( لغة الجرائد ) ، والكرملي ( مجلة الرسالة العدد الـ ٤٨٣ ) ثم فصّل التنبيه محمود محمد شاكر ( الرسالة ٤٩١ ) .

وانما المقصد من مثل هذا التنبيه على وجه العموم أن تمحض الملكة ويفصح المنطق . وبكلنا حاجة الى ذلك ، فالعربية نأخذها اكتساباً ، لا نملكها بالفطرة . ثم هي غير منقادة في يُسر . حتى أهل اللسان من القدماء البصراء هفَـوا فتعقّب المتعقبون هفواتهم . وهيهات أن يكون معنى هذا أن التخلف في الإنشاء مقبول والتسمح في التعبير ميسور . ولـيذهب الأمر في البعد إذا كان الخطأ أولجَ في «ما تغلط فيه العامة»، ثم يعظم اذا اندرج في الطائفة التي نبه عليها أهل اللغة ورفعوها لبصر من يريد أن يتجنب فلتات اللسان .

قيَّـدت تلك الزلات ، فنـهَـدَ المنقود ينافح ، وله هـذا . غير أنهُ خلط الجدل بما شاءت قريحته أن تسمح به ، كأنمـا النقد القويم في باب العلم والأدب إثم . ألا لـكلٍ وجهه ونيّـته . . . بالله أيروّع المحكُ من كان للمعرفة عاملاً والى الحق ناظرا ؟ هلك الزمن الذي كانت الغلبة فيه بالمماراة ، ولن يَبعث باعث ذلك العهـد الأغبر ما دام نظرائي بقيد الحياة ، وما دمت .

---

(١) « الصديقة بنت الصديق » ، راجع مقتطف فبراير ص ١٨٩

هذا ، وبعد نخلٍ طويلٍ للعبارات التي لفظتها القريحة - وهي غمرة - ارتفعت الينا ، في عناء ، ملاحِّـةٌ تدور على زلّـتين اثنتين ، والزلات كنّ ستّـًا على سبيل التمثيل ، كما قدّمت .

ووالله لولا أن يكون الـكاتب وقع لهُ أن ينتمي الى مجمعٍ دأبهُ حوطُ اللغة العربيـة والذبّ عنها لمضيت عنهُ . فربَّ خاشٍ يخشى أن يتأثره متأثر فيعثر عثاره . والى ذاك يُـضاف أنك بجنب السقم الذي ينقل طائفة من عبارات المنقود تَـلمس في الجدل الذي يطيب له مكابرة من جهة ومغالطة من جهة ، وإني أجري هاتين الـكلمتين على حد مدلولاتهما في فنّ المناظرة .

أما المـكابرة فهاهنا :

كنت أخذت عليه قوله : « آداب العرب النسائية » ، ص ٢٦ من كتابه ، وذكَـرته بما ورد في كتاب سيبويه ( ط بولاق ١٣١٦ ج ٢ ص ٨٩ ) : « وتقول في الاضافة ( أي النسبة ) الى نساء : نِسوي ، لأنهُ جماع نسوة وليس نسوة بجمع كسِّـر له واحد » .

قال المنقود الى التخريج ( الرسالة ٥٥٩ ) . وجملة حججه : أن نص سيبويه يرجع الى مذهب البصريين وحده ، وأن النساء بمعنى النسوة تحل احدى الكلمتين محل الاخرى ، وأن النساء إن فرض انها لا تقال إلا للكثرة وهو فرض بعيد فما دخل الـكثرة في الحكم النحوي ( يعني النسبة ) ، وأنه يقال النسائي بانزال الجمع منزلة الجنس الواحد كما يقال الانصاري والاعرابي بانزال الجمع منزلة القبيلة الواحدة .

ودونك قطع هذه الحجج المجتلَـبة :

١ — لم يورد المنقود نصًّـا للكوفيين يدفع نص سيبويه أو يخالفهُ أو يضعفهُ ، ولم يأت أيضاً بـ « نسائي » مسموعاً منقولاً عن فصيح .

٢ — ان نساء جمع نسوة ، وهي للـكثرة . « قال ابن سيده ( المحـكم ) : و« النساء جمع نسوة إذا كثرن » ( لسان العرب ج ٢٠ ص ١٩٣ ، تاج العروس ج ١٠ ص ٣٦٥ ) . وفيهما أيضاً : « ولذلك قال سيبويه في الاضافة ( النسبة ) إلى نساء : نِسوي ، فرده الى واحده » . ففي النسبة تـكون الاضافة الى الواحد ، وإذ ليس لنسوة من لفظه واحد ، نسبوا الى نسوة لأنهُ أقرب من نساء الى الافراد .

٣ — قد تـكون النسبة الى نساء ، وهو جماع نسوة ، صحيحة بل واجبة اذا تضمن نساء معنىً غير موجود في نسوة . فقد اشترط أبو حيّـان في هذا الموضع : « أن لا يكون رد الجمع الى الواحد يغيّـر المعنى ، فان كان كذلك نُـسب الى لفظ الجمع كاعرابي ، إذ لو قيل فيه عربي رُدَّ الى المفرد لتبادر الأعمّ ، والقصدُ الأخصّ لاختصاص الأعراب بسكان

البوادي... »[1]. هذا وأنت تعلم أن الذي في نسوة من المعنى هو الذي في نساء، ولولا أن يكون الأمر كذلك ما حلت إحداهما محل الأخرى بحسب ما يقرّ به المنقود نفسه. ثم إنك ترى أن حكم نساء ونسوة هنا غير حكم أعراب وعرب، فلكل من هذين اللفظين الآخرين معنًى خاص به كما قد مرَّ بك. ومثل هذا قل في « أنصاري » فانما الانصاري مما « غلب فجرى مجرى الاسم العلم »[2]، ولم يرد النسائي تحت قلم الكاتب اسمَ علم.

٤ — وأما تكلّف المنقود الرغبةَ في انزال النساء منزلة الجنس الواحد فأمر يبطله ما ورد في خاتمة « المصباح المنير » (فصل النسبة): « وان كانت النسبة الى جمع فان كان مسمًّى به نسب اليهِ على لفظه نحو كلابي وأنصاري، لأنهُ نازل منزلة الفرد فلم يغيَّر. وان لم يكن مسمى به، فان كان له واحد من لفظه نسبتَ الى ذلك الواحد فرقاً بين الجمع المسمى به وغير المسمى به، وقلت: مسجدي في النسبة إلى المساجد... ، لأنك ترده الى واحده. وقيل إنما رُدَّ إلى الواحد لأن الغرض الدلالة على الجنس، وفي الواحد الدلالة عليهِ فأغنى عن الجمع. وكذلك لو جمعت شيئاً من الجموع التي لا واحد لها من لفظها، نحو نَبَط تجمع على أنباط، إذا نسبتَ اليهِ رددته الى ما كان عليهِ، وقلتَ نبطي في النسبة الى الأنباط، ونسوي في النسبة الى النساء ».

٥ — والخلاصة ان المنقود في تخريجه حكم برأي نفسه[3] وقد فرت من بين يديه قواعد النسبة وشرائطها، وغابت عنه نصوص الثقات والأثبات. ولذلك أراني مضطرًّا إلى أن أُهمِلهُ لأتبع سيبويه، وقد تبعهُ في « نِسوي »: ابن سيده في مخصصهِ ج ٣ ص ١٥٤، والفيروزابادي في قاموسهِ، وابن مكرَّم في لسانهِ، والزبيدي في تاجهِ، والفيومي في مصباحه[4].

(١) حاشية الصبان على شرح ألفية ابن مالك الأشموني، ط مصر ١٢٨٠ ج ٣ ص ٢٣٧.

(٢) حاشية الصبان ص ٢٣٩

(٣) arbitrarily, arbitrairement.

(٤) ويتصل بحكم الكاتب برأي نفسه مجازفة وباجترائه على المروي الصحيح ما فرط منه في قصة « سن السيدة عائشة » في كتابه ثم في نقاشه. ولقد اطلع القارئ في « المراسلة والمناظرة » من العدد الماضي على الفصل الفاصل الذي عقده أحمد محمد شاكر.

ثم انه يلحق بمثل تلك المجازفة أن المنقود حسب ان « النقد الداخلي critique interne » عند علماء التاريخ منصرف الى تعرف طبائع الخلق (الرسالة العدد ٥٥٥ ص ١٩٤). والوجه الصحيح أن النقد الداخلي (أو الباطني) عند القوم موقوف على تبيين النصوص، وتحري الاخبار، الى ما يندرج تحت ذلك. وكتب مناهج العلوم باللغات الاوربية زاخرة بأصول هذا الفن. ومن الميسور الآن أن يقف عليها المستطلع في كتابين خرجا بالعربية: الاول « مصطلح التاريخ » لاسد رستم، بيروت ١٩٣٩ (ص ٦٦ — ١٣٠)، والثاني « منهج البحث التاريخي » لحسن عثمان، القاهرة ١٩٤٣ (ص ١١٣ — ١٨٠).

وأما المغالطة فهنا :

كنت أخذت على الكاتب قوله : « الاختلاف يتراوح بين السنة الرابعة والسنة السادسة وما بعدها » ص ٩٣ من كتابه . وأشرت الى ان التراوح خلاف هذا ، كما قد بيّن من قبل الامام اليازجي ، واليوم الكرملي في مجلة المجمع العلمي العربي ، والعوامري في مجلة مجمع اللغة العربية الملكي . فانما غرض المؤلف : « يترجح » أو « يتذبذب » أو نحو ذلك .

فاستدرك المنقود على هذا النحو : « لكن المراوحة بين العملين في جميع معجمات اللغة هي أن يعمل الرجل هذا مرة وهذا مرة . والمراوحة بين الرجلين هي أن يقوم على كل مرة . فاذا قلنا على هذا ان الاختلاف يتراوح بين السنة الرابعة وبين السنة السادسة فذلك صحيح ما دام الاختلاف هنا هو الفاعل الذي يقول مرة بسنة من السنين ومرة بسنة أخرى ، فهو يتراوح بين القولين تارة الى هذا وتارة الى ذاك . »

ويزيّف هذا أن الكاتب أجرى تراوح مُجرى راوح . وهما على اختلاف : راوح رباعي ، غير معتدٍ بنفسه ، فاعله فرد وهو يكون بين أمرين : يُعمل ذا مرة وذا مرة : راوح فلان بين كذا وكذا . وأما تراوح فخماسي ، له أن يتعدى بنفسه ، فاعله غير واحد ، وهو أن يتعاور عاملان أو أكثر أمراً واحداً : هما يتراوحان عملاً ، « وان يديه لتتراوحان بالمعروف » . فكيف تقول : « الاختلاف يتراوح بين كيت وكيت » ؟ في ذلك كله راجع ما سطره العوامري في مجلة المجمع ج ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ .

* * *

ذلك تفصيل رد الكاتب المنقود مع دفعي له .

وما دمت في معرض التنبيه على سبيل التمثيل فلا بدّ من تتبع طائفة من الأوهام المبثوثة في كتاب أخرجه الكاتب من أيام ، وعنوانهُ « عمرو بن العاص » . وليكن التنبيه في غير اطالة . وقد يكون الوهم من جهتي ، فإن كان ذلك كذلك ففي المرجوّ أن أردّ الى الصواب . فانما الغاية التي أجري اليها ويجري غيري من الغُيُر بقاء لغتنا الكريمة على نقائها :

١ — الخلط — في ثنايا الكتاب (خاصة ص٨٢ـ٩٥ ) استعمل المؤلف كلمة « الروم » تارة و « الرومان » أخرى ، من غير تمييز ، وإنما مقصده هنا وهنا : روم « بزنطية » وهم « الطبقة الثانية من ملوك الروم » على ما جاءَ مثلاً في « التنبيه والاشراف » للمسعودي ، لا « الطبقة الاولى » ومركزها رومية ( « الرومان » اليوم ) .

٢ — اضطراب التعدية — ص ١٠: « وهو الذي قال عن النبي عليه السلام حين مات ابناه : ان صاحبكم هذا الأبتر . فنزلت فيه الآية : ان شانئك هو الأبتر » . واستعمال « عن » بعد « قال » في هذا الموضع خطأ كريه ، لأنها للنقل والرواية ، فكأن القائل ينقل عن الرسول ، والوجه أن يقول : « قال فيه » أو « عليه » — ص ١١ : « ومن كلامه عنها ( عن أم عمرو ) أنها سلمى بنت حرملة » . والذي لحق « عن » في المأخذ السابق يلحق بها هنا . والصواب استعمال « على » أو « في » — ص ١١ : « وانجاب هذه ومثيلاتها للنوابغ من البنين » . جعل « أنجب » متعدياً بنفسه ( واللام مزيدة للتقوية ) وهو لا يتعدى بنفسه ، يقال : أنجب الرجل والمرأة إذا ولدا ولداً نجيباً . وورد : أنجب والداه به ( أساس البلاغة ، ن ج ب ) — ص ٢٨ : « واعده الى مكان منفرد » . والذي في « اللسان » و « التاج » : واعده الوقتَ والموضعَ — ص ٦٢ : « يتأهبون للزحف على المدينة » . والمنقول : ( اللسان ، مثلاً ) « يزحفون الى العدو » : يمشون . وأما « زحف على » فمن « زحف الصبي على الأرض قبل أن يقوم أو يمشي » : فعلى ، هنا ، تفيد الاستعلاء ، وأما الى فتدل على انتهاء الغاية المكانية — ص ٩٣ : « أهو روماني أو مصري » . والمقصود : أروماني ( رومي ) هو أم ( أو ) مصري ؟ إذ هنا طلب التعيين — ص ١٢٥ : « نضاله ( أي معاوية ) مع علي » . والمقصود : نضاله علياً أو لعلي . لأنَّ « مع » تفيد هنا الاجتماع والمصاحبة والمشاركة ، وهذا عكس الذي يريده المؤلف .

٣ — العاميّات — ص ٣٥ : « يقدم الرجل الحذور ( ؟ ) على شطحات » . يريد « على مخاطرات » . والذي في تاج العروس : « الشطحات ، وهي في اصطلاحهم ( يعني المتصوفة ) عبارة عن كلمات تصدر منهم في حالة الغيبوبة ( divagations ) . وذكر الشيخ السنوسي في أثنائه : الشطحات لم أقف عليها فيما رأيت من كتب اللغة كأنها عامية وتستعمل في اصطلاح التصوف » ، اطلب هنا كتب مصطلحات الفلسفة : « التعريفات » للجرجاني ، مثلاً . وللشطحات معانٍ شتى متأخرة تصيبها في « ذيل المعجمات العربية » للمستشرق دوزي — ص ٥٧ : « حاق بها الفشل » . يريد « الاخفاق » ، على حين الفشل : الجبن والفزع والضعف. وقد سبق لبصير في اللغة أن ردّ الكاتب في هذا ( الرسالة ٥٤٥ ، ٥٤٨ ) ففزع الكاتب الى التخريج المجازي . فهل أجمل بين يديه ما قيّده العوامري في مجلة مجمع اللغة العربية ( ج ١ ص ١٥٦ ) قال ، بعد استشهاده بالنصوص العالية على رأسها ما ورد في القرآن : « فالتلميذ الذي يقول مثلاً : فشلت في الامتحان أي أخفقت : لا يدري إلا أن هذا

المعنى لذلك اللفظ ، ولا يفقه وراء ذلك شيئاً . فكيف نبيح له هـذا الاستعمال المجازي ، وهو يجهل حقيقة اللفظ ومجازه ؟ فهذا خطأ يجب اصلاحه ، فان المجاز والاستعارة انما يكونان عن علم وإرادة وإلاّ كانا عبثاً وتخليطاً . » — ص ٧٥ ، ٧٧ : « ثقة الفاروق بكفاءة عمرو ودرايته — ما عرف من كفاية عمرو » . الكفاءة غير الكفاية ، وقد تكلم اللغويون لهذا العهد في هذا المطلب غير مرة . والصواب في الموضعين : الكفاية — ص ٩٥ : « كانت حركات السرايا في الصعيد مناورات للتعمية والاستطلاع » . والمناورات - وهي جمع مناورة - من الألفاظ الدخيلة على أيدي الترك فيما يغلب على الظن ، وهي عامية أيّ عامية وفرنسيتها manœuvres . وعربيّتها في هذا الموقع : مراوغات ، محاوتات ( فعل الحوت في الماء ) — ص ١١٣ : « فليس عمرو بالذي يحتمل هذا العزل أو يستكين اليه » . والمراد : يسكن اليه أي يطمئن ويرتاح . وان أردت : استكان ، وهي بمعنى خضع وذلّ ( اللسان ، ك ي ن ) فالتعدية باللام لا بإلى ، وفي التنزيل : « ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون » — ص ١٣٥ « في السابع عشر من رمضان » . والأعلى : من شهر رمضان . قال ابن درستويه في كتاب الكتّاب ( بيروت ١٩٢٧ ، ص ٩٢ ) : « وأما الربيعان ورمضان فليست بأسماء للشهور ولا صفات لها ، فلا بدّ من اضافة شهر اليها ، كقولك شهر ربيع وشهر رمضان . . » . ثم ارجع الى تاج العروس ( ر م ض ) : « قال الفراء : يقال هذا شهر رمضان وهما شهرا ربيع ، ولا يذكر الشهر مع سائر الشهور العربية ، وشاهده قوله عزّ وجلّ : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن . »

٤ — من غرائب الصرف — ص ٦٨ : « فجرد جيشاً من ثقاة المدنيين » . والصواب : ثقات ، بالتاء المبسوطة ، فالمفرد : ثقة ، وحكمها حكم صفة . فكأن المؤلف قاسها على قضاة ، ومفردها قاضٍ .

• • •

وبعد ، فليس للقلم رجعة الى هذا الآ اذا اعتبر المنقود ، فكتب لوجه العلم والأدب .

بشر فارس

◆

استدراك : سقطت عبارتان : (١) والمولدات وغير ذلك — ص ٥٠١ س ١٧ ، بعد : — العاميات
(٢) وفي المصباح والتاج أيضاً ذكر من يجوّز اسقاط كلمة شهر . ص ٥٠٢ خاتمة س ١٧

# رســالة

وردتنا وهذا الباب ماثل للطبع رسالة من مصطفى جواد الدكتور في الآداب من السربون والاستاذ بدار المعلمين العالية ببغداد ، زاخرة بمراجعات لغوية في ما دار على قلم المنقود وإذ كانت الرسالة مطولة وكان المقام محدوداً نعتذر الى كاتبها المتمكن وقارئ هذا الباب من الاجتزاء ببعض ما حوت الرسالة .

تناول صاحب الرسالة في أول حديثه الكلام على الجزازات، فقال في ما قالهُ : « اما علم الجزازات فقد حاول الكاتب أن يتغافل عن ضرورته فما استطاع قط ، ولا يبلغ علم الجزازات إلاّ من له استعداد لتصنيف العلوم تصنيفاً علميّاً . ولا يجوز أن يستخف بهِ من لن يبلغه... »

وبعد تلك الديباجة عرض للأغلاط اللغوية ، فسرد منها اثنين وعشرين وقع عليها في ثلاث مقالات جرى بها قلم المنقود في مجلة الرسالة ( وأرقام الأجزاء : ٥٥٥ ، ٥٥٧ ، ٥٢٩) وهو ينازع في مسائل النقد المنشور في مقتطف فبراير الماضي . ونحن نقتطف من ثمرات السرد ما يأتي :

« الجزء ٥٥٥ — ص ١٦١ « آراء حول الكتابة » . والصواب : في الكتابة ، لأن حول ترجمة about || ص ١٦١ « وفيما يلي طائفة من الآراء » والعرب لا تستعمل الفعل : ولي يلي ، بلا مفعول لأنهُ واجب لتعيين المكان || ص ١٦٢ « تكلمنا عنها » والظاهر انهُ لا يميز بين تكلم عنه وتكلم عليهِ ، والفرق في استعمال حرف الجر لازمة مراعاته كالذي في صبر عنه ، وصبر عليهِ ، وقال عنه ، وقال عليه || ص ١٦٢ «وعلى أية حال لامساس فيهذا ولا ذاك» ومعلوم أن خبر « لا » للتبرئة ومعمول خبرها لا يجوز أن يتقدما عليها ، فالصواب : ولا مساس في هذا ولا ذاك على أية حال . وإنا لنعجب من بعد الكاتب عن السليقة العربية... »

« الجزء ٥٥٧ — ص ٢٠١ « كتبنا عن عائشة كتابنا » والصواب : في سيرتها ، في ترجمتها ، أو ما أشبه ذلك . « وكتب عن » تفيد : نقل واستملى واستنشد . والخطأ من غلبة لغة الترجمة على قلم المنقود ولبه || ص ٢٠٢ «دبت بين الرسول وبين إحدى زوجاته » وهذا خطأ لأن « بين» المضافة إلى الظاهر لا تتكرر || ص ٢٠٢ « اذا نحن لم نمحص خلائقها » والتمحيص : الابتلاء والاختبار، فكيف يختبر أخلاقاً ماضية مع صاحبتها . وفي القرآن الكريم : « وليمحص الله الذين آمنوا » أراد تمحيصهم بالجهاد والصبر . فالتمحيص للامر الشاهد ، وهو في التطهير من أعمال

الله تعالى . وفي أساس البلاغة : « محص الله التائب من الذنوب ، ومحصهُ : خلصه من كل عيب ... » فان كان في صاحبة الترجمة عيب فهل يستطيع هو تمحيصها منهُ أي إخلاصها ، وهل هو محترف للتمحيص على طريق الوكالة عن الله تعالى ؟ || ص ٢٠٢ « ثم تقابل بين الكفتين» ولم يقل عربي فصيح : قابلت بين كفتي الميزان والأمرين والشاعرين ، وانما قالوا وازنت ، فكل استعارة في العربية تستوجب فعل المستعار ، فالمستعار في الحقيقة «الكفة» والفعل الخاص بها : الموازنة والرجحان ، أعني بالفعل الحدث || ص ٢٠٢ « ولكن ما هو البحث الخالص ؟ » وكل يعلم ان الاضمار قبل الذكر لا يجوز ها هنا ، لأن المسئول عنهُ هو البحث ، ولأن « هو » مقدمة إخبار ، ولا يجتمع سؤال ومقدمة إخبار في عبارة واحدة ، لتناقضهما بالنسبة إلى مقتضى الحال || ص ٢٠٣ « وهذا هو التدليل » والتدليل كلمة لم تستعملها العرب فلم يقولوا في القصد : التقصيد ، ولا في الهداية : التهدية . ولعله أراد «الدلالة» وظنها غير كافية فنقل فعلها الى باب المبالغة والتكثير ، مع أن «الدلالة» تدل على المبالغة لأنها على وزن « فعالة » ، وهي من مصادر المبالغة كالعزازة . فالعرب تكتفي بوزن المصدر عن النقل ... »

« الجزء ٥٥٩ — ص ٢٤٢ : النسبة إلى « أمَّـهة » : أمَّـهي ، كما يقال في النسبة الى « ترّهة » : ترّهي ، لا : أمّـوي . فقد قال الكاتب : « فاذا قلبت الهاء ( من أمهة ) واواً كما تقلب في سنة : سنوي ، شفة : شفوي ، عضة : عضوي فليس في ذلك خلاف للمأثور ولا للمنصوص عليه »

وفي هذا تخليط عجيب ، لأنك إذا عددت أصل « أمّ » أمّـهة خرجت الأمهة من باب سنة وشفة وعضة ، وللنسبة أبواب وحساب . وليست سنوي نسبة إلى سنة بسبب قلب الهاء واواً كما ادعى الكاتب ، وإنما ذلك لرجع اللام المحذوفة الى الكلمة وحسبانها واواً || ص ٢٤٢ « يسهل ايجاد الذنب .. ولا يسهل ايجاد العذر » وظاهر قوله أنهُ لا يميز بين الايجاد والوجدان . فالايجاد : إحداث وانشاء وخلق ، والوجدان : عثور . فالصواب : يسهل وجدان الذنب || ص ٢٤٢ « هم اولئك الادعياء الذين يقحمون انفسهم » . وقد استعمل اسم الاشارة قبل تعيين المشار اليهِ بالذكر او بالجهة ، وذلك خطأ قبيح أيضاً . فالصواب : هم الأدعياء أولئك الذين يقحمون || ص ٢٤٢ أيضاً « وهو يقرأ ما أمامه بهذه اللغة فلا يفهمه » ولم أظن قط كاتباً يجهل الفرق بين « أمامه » و « بين يديهِ » و « بازائهِ » ... فالأمام يقتضي أن يكون ظهر الكتابة الى وجه الرائي والقارئ ، ولا فائدة في ذلك وايضاح ذلك أنك تقول «وقف فلان أمامي » اذا كان ظهره الى وجهك و «وقف بين يدي وبحضرتي»

اذا واجهك . فالمكتوب يكون بين يديه لا أمامهُ لاستحالة قراءته إذا كان أمام...»

وبعد ذلك عرض صاحب الرسالة لكلمة « نسائي » و « تراوح » وهما من زلات المنقود كما تقدم . ونحن نثبت هنا ، على جهة الاختصار ، ما جادت بهِ بصارته باللغة ولم يذكّر في ثنايا المقال السابق :

١ — « نسائي » : « ادعى (يريد المنقود) جواز النسبة الى نساء وترك نسوة بخلاف ما نبه عليهِ سيبويه وثقات الصرفيين ، قال نجم الأئمة الاستراباذي ( « شرح الشافية» ط مصر ١٩٢٩ ج ٢ ص ٨٠) : « وان كان اللفظ جمعاً واحده اسم جمع نسبت أيضاً الى ذلك الواحد كما تقول في النسبة الى نساء : نسوي، لأن واحده نسوة ، وهو اسم جمع ...» وتجوز النسبة الى الجمع بشروط أولها حصول فائدة في ذلك كدفع التباس أو حفظ أصل أو جهل مفرد أو موازنة مفرد ، فما الفائدة في قولنا : نسائي ، مع نص العلماء على نسوي ؟ ولا دخل للمذهبين البصري والكوفي في هذه المسألة ، فلم يقل أحد من الصرفيين الكوفيين إنهُ يجوز أن يقال : نسائي وأنباطي وأقباطي ورجالي ...»

٢ — « تراوح » : « احتج اولاً بالمراوحة اي المفاعلة من الراحة او الروح ، لا من الرواح ثم وثب الى التراوح ، وفي كليهما كان مسقطاً في القول واهماً ، وهذه عاقبة من يخطىء الصواب ويريد الخلاص من الاقرار بالخطأ . فالمراوحة عملُ فاعل واحد ، والتراوح عمل فاعلين او أكثر منهما . فالاختلاف واحد لا يتراوح وحده، وكذلك لا يقال هذا الشيء لا يتساوى ولا يتماثل ولا يتشابه ولا يتقابل. ثم إنهم جعلوا تراوح متعديًّا بنفسهِ فما الذي أدخل « بين » في الجملة ؟ فانهُ يقال : تراوحا العمل، ويقال : « ان يديه لتتراوحان بالمعروف» بحذف المفعول والاصل : «لتتراوحان الحركة بالمعروف » . وصواب القول : «والاختلاف بين السادسة والرابعة» بحذف يتراوح . واذا أريد الشك قيل : « الرابعة أو السادسة » كقوله تعالى « الى مائة الف أو يزيدون . »

ثم ختم الرسالة بقوله : « وجدنا له هذه الاغلاط في موضوع واحد ولو كان ذا ثلاثة اجزاء ( يعني « الاعداد الثلاثة » من مجلة الرسالة ) ، فكيف يكون حاله إن قرأنا له كتاباً من كتبهِ ؟ .. وإني أعد السكوت عن هذا جريرة في شرع العلم والأدب...»

بغداد مصطفى جواد

# باب الأخبار العلمية

## مرصد غرينتش يغير مكانه

أذيع من لندن في أواخر مارس الماضي ، نبأ يصح أن يعد نهاية عصر في تاريخ علم الفلك الحديث : ذلك بأن مرصد غرينتش الذي يعتمد عليه في التوقيت ، في جميع أنحاء العالم ، واليه يرجع ربابنة السفن في حساب مساراتهم في البحار ، سينتقل من مكانه التاريخي ، جنوبي نهر التاميز.

وقد أعلن السر هارولد سبنسر جونز مديره ، أن الباعث على هذا الانتقال ، هو الدخان الذي يحفل به هواء لندن الآن ، في منطقة مباني المرصد ، نتيجة لقيام منشآت صناعية كثيرة فيها

وقد زعم الألمان ، أن قنابلهم أصابت المرصد في الهجوم الجوي على لندن سنة ١٩٤٠ وفي خلال الغارات الأخيرة ، ولكن ذلك لم يؤيد من مصادر رسمية بريطانية .

على أن انتقال مرصد غرينتش من مكانه الى مكان آخر ، لا يحدث تغييراً ما في المهمة العظيمة التي طال عهد نهوضه بها وهي تعيين الوقت الاساسي الذي ينسب اليه الوقت في كل منطقة أخرى في العالم . فمكانه الجديد ، أنى كان — وهو لم يحدد بعد على ما يعلم — سيكون على خط الطول « صفر » الذي يحسب كل شرق وكل غرب بالقياس اليه .

وقد أنشىء مرصد غرينتش سنة ١٦٧٥ على عهد الملك تشارلز الثاني ليكون معواناً للملاحي البحار في مستهل العصر الذي أخذت تتسع فيه الملاحة البريطانية اتساعاً عظيماً . والملاحة المحكمة تقتضي معرفة مواقع القمر والنجوم معرفة دقيقة ، فأنشىء المرصد لهذا الغرض وعين له الملك تشارلز الثاني مكاناً في أعلى موقع بالحديقة الملكية في غرينتش وعهد الى السر كريستوفر رن المهندس المعماري المشهور في تصميم مبناه ، على أن لا تزيد نفقاته على خمسمائة جنيه وعين الفلكي المشهور جون فلامستيد مديراً له بمرتب يبلغ مائة جنيه في السنة .

وقد كانت ضاحية غرينتش مثابة لكبار القوم في ذلك العهد ، ولكن التوسع الصناعي ، كاد يغمر المرصد بالمصانع الجديدة ومحطات توليد الطاقة المحركة فغدا الهواء ملوثاً ، وفرضت على أعمال الرصد قيود حدت من نفع المرصد على ما قال مديره سبنسر جونز في حديث له نشر في الصندي اكسبرس.

ثم إنَّ مصابيح السيارات الكثيرة ، كانت تشق ظلام الليل في جواره ، بأنوارٍ لامعة قبل الحرب — وكذلك أضواء الاعلانات الضخمة : فاجتمع القتام الناشئ عن الدخان والهباب ، والبهاء المتقلب الناشئ عن أنوار السيارات ، على جعل انتقال المرصد من مكانه الحالي أمراً لا مفرَّ منهُ.

فرؤية المجرَّة بالعين المجرَّدة غدت متعذرة والتصوير الطويل الأمد بالمصوِّرات الضوئية، غدا مستحيلاً .

## هل «الريلاكسين» توْرٌ جديد

## يهوّن الولادة على الحوامل ؟

في الأنباء العلمية من أميركة أن أحد أساتذة جامعة هارفرد بيَّن وجود هرمون «تَـوْر» جنسي جديد للأنثى . وقد قضى في هذا البحث عشرين سنةً فلما ثبت وجوده عنده، أطلق عليه اسم «ريلاكسين» ومعناه المادة التي تحمل العضلات على الانبساط . فاذا ثبت وجوده عند غيره من العلماء وتأيدت الخواص التي تعزى اليهِ، أصبح عاملاً من أهم العوامل لتهوين الولادة على النساء.

وكاشف هذا « التوْر » هو الاستاذ فردريك لي هيسو Hisau ، وقد كشفهُ بعد بحث طويل مستفيض في دراسة الحياة الجنسية لحيوان يعيش في أنفاق البراري كما يعيش الخلد.

وقد لاحظ انَّ حوض الأنثى في هذا الحيوان ضيق ، وفتحتهُ لا تتسع للولادة ؛ ولكن اذا حملت الانثى اتسعت الفتحة . فخطر له ان « توراً » معيناً في المبيضين يحدث هذا التغيير في سعة فتحة الحوض ، وامتحن ظنهُ هذا بحقن خلاصة من مبيضي أنثى في ذكر مخصيّ ، فاتسعت فتحة الحوض .

فلما نشر نتيجة مباحثهِ الأولى ، قل من التفت اليها . ولكنَّ علماء الغدد بدأوا يعنون بمباحثه حين تمكن هيسو وغيرهُ من الباحثين من العثور على هذه المادة التي تحمل العضل على الانبساط في الحوامل من خنازير الهند والأرانب والكلاب والهررة والافراس والنساء

ولكن اين هذه المادة ، وما قوامها ، وهل يستطيع عزلها ومعرفة تركيبها الكيميائي؟

فلما روي انَّ بعض الباحثين في اوربة تمكنوا من احداث الانبساط في اوتار عضلات الحوض بحقن التورين المعروفين للمبيض ـ وهما الإستروجين والبروجستيرون ـ غلب الرأي أنَّ رأي هيسو لا يستند الى أساس صحيح . ولكن هيسو وصحبهُ مضوا في بحوثهم ، وفي أواخر مارس الماضي ، نشروا في مجلة « علم الغدد الصم » بحثاً مسهباً بينوا فيه أن المادة التي دعوها « ريلاكسين » هي

حتماً غير الاستروجين والبروجستيرون ، ذلك بانهم استخلصوا من المبيضين خلاصة مركّزة ، أزالوا منها كلّ أثر لتوْري الاستروجين والبروجستيرون (وهما يحلاّن في الكحول) وعلى ذلك أحدثت هذه الخلاصة فعل الانبساط .

## التنتالوم : فلزٌّ عجيب

كان التنتالوم منذ أربعين سنة فلزًّا لم تقع عليهِ عين إنسان ، ولكنهُ اليوم يستعمل في جراحات الحرب فيسدي خدمات لا تقوَّم بمال.

والتنتالوم من الفلزات النادرة ،ولا يزال ثمن الرطل الواحد منهُ في حدود ستة عشر جنيهاً ، ولكنهُ متصف بخواص تجعلهُ مادَّة لا غنى عنها تقريباً في علاج جمجمة مكسورة أو أذن مصلومة أو أنف مجدوع . وقد يستعمل كذلك سلكاً دقيقاً لربط طرفي عصب منفصم فيتيح لجرحى الحرب ومصابيها استعمال اذرع وافخاذ كان استعمالها متعذراً لولاهُ .

وسبب ذلك أن التنتالوم لا يتفاعل إلاَّ مع مواد كيميائية قليلة ، وعصارات الجسم لا تؤثر فيهِ ، ثم ان العظم ينمو عليهِ وحواليهِ وكذلك سائر نُسُج الجسم الرخوة .

ومن اعجب الامثلة على فوائده ، مثل فدائيٍّ أميركي كسرت جمجمته في شمال افريقية ، فاستخرج الاطباء شظايا العظم المحطم واحلوا محله ، لتغطية المخ ، رقعة من التنتالوم مساحتها ١٢ بوصة مربعة وثخانتها جزءٌ من عشرين جزءًا من البوصة . وقد عاد الجندي إلى الخدمة الحربية .

وكسرت جبهة بحَّار فعاد بفضل التنتالوم الى الخدمة في الغوَّاصات . وكان من أثر الحادثة في أول الأمر ان ترك في الجبهة منخفضاً ، وكان يشعر بالدوار في الحين بعد الحين ويصاب بصداع متكرر. وقيل له إنهُ لا يصلح للخدمة . فكشط الاطباء الجلد ووضعوا لوحاً من التنتالوم ثم خاطوا الجلد ، وهو الآن لا يشكو إلاَّ ندبةً على الجبهة ، ويستطيع ان يتحمل ضغط الهواء الشديد الذي يتعرَّض له بحَّارة الغواصات . وكذلك نجح الجرَّاحون نجاحاً عجيباً في وصل طرفي عصب مفصوم ، بسلكٍ دقيق من التنتالوم .

ولا تقتصر فوائد التنتالوم على استعماله في الجراحة . فهو يصلح لصنع اسلاك المصابيح الكهربائية ،وان كان التنغستن قد حلَّ محلَّهُ . ويدخل في صنع الزجاج المستعمل في المصورات الضوئية فيمكن الطائرات المستكشفة من تصوير أجسام على الأرض من ارتفاع عظيم . ثم إنهُ عامل كيميائي وسيط في إحدى مراتب صناعة المطاط . وأخيراً إنهُ يتصف بقدرتهِ على امتصاص جزيئات الغاز .ولا يخفى أن الأنابيب الكهربية المفرغة ليست مفرغة تماماً . بل يبقى فيها بعض الغاز ، فاذا وضع التنتالوم داخل هذه الأنابيب امتص جزيئات الغاز فيطول « عمر » الأنابيب .

## « الانسولين » في علاج كلّ شيء !

ورد من مدينة المكسيك خبرٌ طبيٌّ ، إن صحَّ ، كان باعثاً على الدهش ، وخطوة أخرى عظيمة في الكفاح بين الانسان والمرض.

ففي مدينة المكسيك طبيبٌ — الدكتور دوناتو بيريز غارسيا — يستعمل الانسولين في علاج كل حالة مرضية من التيفود والزهري الى التهاب البريتون والملاريا والروماتيزم . وهو يحقن المريض بمقدارٍ من الانسولين ، يكفي لاحداث صدمةٍ قويةٍ فيه ، فيتفصَّد عرقاً ويزداد نبضهُ وترتفع حموضة دمهِ ويصاب بغيبوبة . وهذه أعراض الصدمة . ثم يحقنهُ في الوريد بمقدار من الغلوكوز ، لمقاومة أعراض الصدمة ، وهو يعتقد أن الصدمة تؤثر في البكتيريا فتجعلها أدنى الى التغلُّب عليها بالعلاج الخاص بالمرض . وقد مضى على غارسيا خمس عشرة سنة وهو يجري على هذا الضرب من العلاج . وقد عالج بهِ أحد عشر الف حالة — على ما روي — فلم يفض العلاج الى وفاة أحد . وقد شهد فريقٌ من الأطباء بعض ما فعل فأعجبوا ، ولكن المسألة في حاجة الى بحث علمي دقيق وتجارب كثيرة محكمة ، خاضعة لجميع قيود التجريب العلمي .

وقرَّاء المقتطف يعلمون ، ان صدمة الانسولين ، أُجدت في علاج بعض الأمراض العصبية . وفي مقتطف يوليو ١٩٣٨ ص ١٥٧ — ١٥٩ مقال عنوانهُ « الصدمة التي تشفي علاج الخبَل بالانسولين وتأثير صدمتهِ في المدمنين ».

## أبناء عمومة البنيسيلين

يستخرج « البنيسيلين » من العفن المعروف باسم « بنيسيليوم نوتاتوم » . وثمة عفن آخر يدعى « بنيسيليوم باتيولُم » استخرج منهُ العلماء البريطانيون مادة أطلقوا عليها « باتيولين » . وثمة عفن ثالث يدعى « أسبرجيلوس كلافاتوس » استخرج منهُ العلماء الأميركيون مادة أطلقوا عليها « كلافاكين ». وقد قيل ان « الباتيولين » فعّال في معالجة الزكام ، ولكن التجارب التالية لم تؤيد هذا الرأي تأييداً تامًّا

ثم ثبت ان « الكلافاكين » و « الباتيولين » مادة كيميائية واحدة ، وان استخرجتا من عفنين مختلفين . وهذان العفنان جنسان متقاربان كالتفاح والكمثرى . ولكن « البنيسيليوم باتيولم » أقرب الى « البنيسيليوم نوتاتوم » الذي يستخرج البنيسيلين منهُ[1] .

---

(١) بعد الفراغ من كتابة هذا الخبر طير البرق الينا أن الدكتور هنس اخنوخ الالماني أصلاً ونزيل لندن حالاً استنبط دواء جديداً سماه فينيسلين يحتوي على البنيسلين شكلا ويمتاز عليه بمزايا شافية مدهشة . وكان اكتشاف ذلك عرضاً بعد معالجة ولد مصاب بالزائدة الدودية والتهاب البريتون ، فشفي بهذا الدواء حين كان المرجح انه يموت لو أجريت له العملية الجراحية . ونحن ننتظر ورود الاخبار المفصلة لهذا الدواء الذي هاج خبره خواطر الاطباء .

## النبات وثروة الارض المعدنية

كان معدنو اليونان القدماء يباهون بأنهم يستطيعون أن يعرفوا المعادن التي تنطوي عليها الارض من مراقبة النبات النامي على سطحها . فكان معاصروهم يهزأون منهم أو على الأقل يضربون بكلامهم عرض الحائط . فاذا عمدوا إلى التنقيب وعثروا على المعادن التي قالوا بوجودها استناداً إلى خصائص النبات قال المرتابون انهم نقّبوا في تلك الارض قبلاً فعرفوا ما فيها ثم حاولوا ان يقنعوا الناس بأنهم يعرفون السبيل إلى سرّها من مراقبة نباتها.

ولكن أحد علماء التعدين المحدثين يقول إن الأدلة متوافرة على أن المعدنين يستطيعون أن يعرفوا طائفة من المعادن المطمورة في الأرض من النبات النامي على سطحها وبوجهٍ خاص اذا كان ذلك النبات كثيف النمو في بقعة ما. فأفضى ذلك الى شروع علماء البلاد المختلفة بدراسة النباتات المختلفة وعلاقتها بالثروة المعدنية المطمورة في جوف الارض .

ومما يروى أن أحد هؤلاء العلماء كان مرة يجول في مقاطعة دربي في انجلترة فرأى أشجاراً من الفصيلة السماقية فقال لصحبه ان في هذه الارض رواسب غنية بالرصاص. قال ذلك دون ان ينكث الارض بعصاه أو يتفرس في حجر من الحجارة التي يدوسها . وأغنى مناجم الرواسب الرصاصية في أميركة ، قائمة في منطقة تزكو فيها الاشجار السماقية .

وهناك نوادر وأمثلة أخر كثيرة من هذا القبيل .

وأحدث ما روي في هذا الصدد أن الدكتور أرثر لتل أحد علماء الكيمياء الأميركيين، ورئيس جمعية الصناعة الكيميائية سابقاً ، اقترح في « النشرة الصناعية » استعمال النباتات لاستخراج معادن شتىً من الأرض . فمن النباتات البحرية ما يختص بطبيعته باستخراج الفناديوم من الارض ، حيث تعدين الفناديوم مستحيل . والفناديوم عنصر تشتدُّ الحاجة اليه في صنع صنف خاص من الصلب . ومن النباتات البحرية ما يختص باستخراج المنغنيس، وهكذا.

## أصل البلاجرا

البلاجرا مرض ينشأ من نقص المواد المغذية في الطعام . وقد وصفهُ أولاً طبيب اسباني في سنة ١٧٧١ وأصلهُ لفظان إيطاليان يعنيان « البشرة الخشنة »

## التلقيح الصناعي في الدجاج

التلقيح الصناعي لكثير من الحيوانات المستخدمة في المزارع بوجه عام ، وللماشية بوجه خاص ، عملية تقدم تطبيقها الى حد كبير . وتم الأخذ بها في معظم الدول . أما التلقيح الصناعي للدجاج فعملية لم يتم الأخذ بها حتى الآن . ولا يعمل بها الا القليل من الاخصائيين . وقد عمل المستر بلاك والمستر سكورجي بجامعة ردنج بانجلترة على تحسين عملية التلقيح الصناعي في الدجاج . وطريقتهم الجديدة هذه تنص على إجراء عملية التلقيح على دورتين : الدورة الاولى جمع المني من الديك والدورة الثانية حقن الدجاجة بالمني .

ويمكن جمع المني من الديك بتدليك بطنه تدليكاً خفيفاً . وذلك لأنعاشه حتى يقذف بالمني . ثم يجمع هذا المني في قمع عادي وتختلف كمية المني التي يمكن جمعها من الديك من سنتمتر واحد الى سنتمترين مكعبين في كل مرة ثم يمزج المني بالماء . وذلك بنسبة حجم من المني الى حجم مساو له من الماء ويكفي حقن الدجاجة بعشر سنتمتر مكعب من هذا المزيج .

وهذه العملية تستلزم مهارة تامة لضمان نجاحها . لأنهُ من الضروري قلب قناة البيض بالضغط وادنائها من فتحة مبرز الدجاجة . وقد وجد أنهُ عند ما تحقن الدجاجة في المبرز فقط لا ينجح التلقيح إلاّ في بعض حالات قليلة . ولذلك كان من الضروري اتباع الطريقة السالفة الذكر . أي حقن الدجاجة في فتحة قناة البيض المقلوبة . والمني الذي يقذفه ديك واحد يكفي لتلقيح ما بين ٥٠ و ٧٠ دجاجة في كل فصل من فصول السنة .

ونعدد الآن المزايا التي يمكن الانتفاع بها في تلقيح الدجاج تلقيحاً صناعيًّا : —

(١) لا ضرورة لحبس الديك مع الدجاج في مساحة محدودة . وبذلك يمكن تجنب اصابتها بالطفيليات باطلاقها في مساحات واسعة

(٢) بما انهُ يمكن تلقيح عدد كبير من الدجاج من مني ديك واحد في وقت محدد ، يصبح اختبار النسل مسألة سهلة .

(٣) من الظاهر الجلي ان في اتباع عملية التلقيح الصناعي اقتصاداً في مقادير المني المستعملة . حيث ان الحالة الطبيعية تستلزم لنجاح التلقيح وقوع الجماع عدة مرات

### هل تعلم ؟

* أن المفرقعات استعملت في التعدين أولاً سنة ١٦٢٧ ؟.

* أن المذنب الذي ظهر سنة ١٩١٨ كان أكبر من الشمس ؟

* أن لون الزبدة المصفرّ يتأثر بما تأكلهُ البقرة أكثر مما يتأثر بسلالتها ؟

* أنهم صنعوا في أميركا ورقاً للسجاير لا يبتلّ فيتبيح للجنود التدخين في المطر ؟

# فهرس الجزء الخامس

## من المجلد الرابع بعد المائة

٤٢١ البيوتين والبيودين وصلتهما بخفايا النمو والمرض : لفؤاد صرّوف
٤٢٧ الى زائرة ( قصيدة ) : لبشر فارس
٤٢٨ ينبوع الفن ( مسرحية في ثلاثة فصول ) : لخليل تقي الدين
٤٤١ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد
٤٤٥ الدين والفلسفة — التوفيق بينهما في المغرب لمحمد يوسف موسى
٤٥٢ بين يدي أبي العلاء — الطبع الحيواني : لكامل كيلاني
٤٥٨ سرابيوم — معبد الاسكندرية : لباهور لبيب
٤٦٠ الألم وفائدته : نقلها كامل محمود حبيب
٤٦٣ عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود المنجوري
٤٦٩ باب المراسلة والمناظرة * استدراك على مقال : لأحمد محمد شاكر . الجامعة السورية والمصطلحات العلمية : لعبد السلام العجيلي . الشاعر هومرس وعلم الآثار : لوهيب كامل

### باب التعريف والتنقيب

صورتان للفن العربي المستحدث
٤٧٥ ١ — المسائل : « اللفظ والمعنى » بقلم ابرهيم عبد القادر المازني
— ٢ — الكتب : « أغنية الرياح الاربع » تأليف علي محمود طه . نقد بقلم كامل محمد عجلان — 
٥٠٥ « الجيش والبحرية في مصر من الفتح العربي الى بداية العصر الطولوني » تأليف سيدة اسماعيل كاشف . نقد بقلم زكي محمد حسن — « نظرة عامة في تاريخ الفقه الاسلامي » تأليف علي حسن عبد القادر . نقد بقلم محمد يوسف موسى — ثم كتب أخرى ظهرت
٣ — الاستدراك : « كتاب الحيوان ، الجزء الخامس » بقلم الأب أنستاس ماري الكرملي
٤ — التعقيب : « في اللغة الشاردة » بقلم بشر فارس — « رسالة » من مصطفى جواد

٥٠٦ باب الأخبار العلمية * مرصد غرينتش يغير مكانه . هل الريلاكسين تور جديد ؟ التنالوم : فلز عجيب . « الانسولين » في علاج كل شيء ! . أبناء عمومة البنيسيلين . النبات وثروة الارض المعدنية . أصل البلاجرا التلقيح الصناعي في الدجاج . هل تعلم ؟

المقتطف

الجزء الاول من المجلد الخامس بعد المائة

١ يونيو سنة ١٩٤٤ — ١٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٣

# خالة الجو

## وتأثيرها في الحرب والحياة

أثبتت المباحث والتجارب الحديثة ، أنه يندر بين فروع العلم المختلفة ما هو أوثق صلة وأشد تأثيراً في الحرب والحياة ، من حالة الجو . وقد كان التكهن بمستقبل الحالة الجوية ، عملاً يستوقف النظر ويدر الثروة أحياناً ، منذ قرون . مع أنه كان أقرب إلى الحدس منه إلى العلم . حتى البيولوجي الفرنسي المشهور لامارك قضى عشر سنوات في مستهل القرن التاسع عشر ، ينشر كل سنة كتاباً أو تقويماً يضمنه ما يتوقعه من أحوال الجو ، خلال السنة التالية يبنيه على ما يراه من تأثير القمر في حالة الجو . وفي مستهل سنة ١٨٣٧ تكهن كاتب يدعى باتريك مرفي بأن درجة الحرارة في يوم ٢٠ يناير من سنة ١٨٣٨ ستكون أعلى درجات الحرارة في فصل الشتاء كله . فصح ما قال : وأذاعت الصحف قوله ، وتأيد القول ، فعظم الاقبال على تقويمه ، وجنى ثروة لا بأس بها . على أن استطلاع الحالة الجوية ، خرج في العهد الأخير من نطاق التكهن ، إلى نطاق العلم مع أنه لم يبلغ بعد درجة الدقة والإحكام المطلوبين في العلوم الطبيعية . وقد بلغ من عناية الفريقين المتحاربين ، بأنباء التقلب الجوي ، حين نشبت هذه الحرب ، أن أصبحت حقائق الأرصاد الجوية ، سراً لا يباح نشره في الصحف . ويندر الآن بين الحقائق الحربية ، ما هو أولى بالكتمان ، من حقائق الحالة الجوية ، أو ما هو أولى بالتقديم في الارسال والاستقبال . فتقرير عن الحالة الجوية ، مذاع من محطة أرصاد ، يجب أن يكون ابن ساعته حتى يكون ذا فائدة حربية . فاذا انقضى عليه اثنتا عشرة ساعة ، عدّ

تاريخاً قديماً . ولذلك يقدَّم إرسال التقارير الجوية ، على جميع أخبار الحرب ، ولا يقدَّم عليه أحياناً إلاَّ الأوامر الصادرة من قائد عام ، إلى قواد الميدان في أثناء معركة دائرة الرحى .

ولعلك تسأل لماذا تعلق القيادات العليا هذا الشأن العظيم بأخبار الارصاد الجوية ؟ والجواب هو أن حالة الجوّ ، عامل أصيل في إعداد الخطة لكل عمل حربي . فسرب ما من القاذفات ، قد تتعذر عليه العودة إلى قاعدته ، إن هو لقي في أثناء العودة رياحاً تعترضه ، فتخفض سرعة طائراته حين يكون الوقود في مستودعاتها قد أشرف على النفاد . وقد يستحيل على أسطول من السفن الحربية مفاجأة العدو ، إن هو دخل مياه العدوّ في جوٍّ صافٍ كعين الديك . وقد تمنى بالإخفاق خطة لتطويق العدو لأن المطر هطل غزيراً في أرض مستوحلة فعاق الدبابات والسيارات المدرعة عن بلوغ أهدافها في الميعاد المضروب . ورجال الأرصاد الجوية يقع على عاتقهم أن ينبئوا قيادة السرب : متى يحتمل أن تكون الريح مواتية لهم حين عودتهم من غارة ، وقيادة الأسطول : متى يحتمل ان يكون الغيم مطبقاً أو الضباب كثيفاً ، فتختفي حركات الأسطول تحت ستارها عن أعين الأعداء ، وقيادة الجيش : هل ينتظر نزول مطر غزير ؟

والروايات التي تروى عن أعمال حربية عظيمة الشأن تمت في هذه الحرب بعد الاسترشاد بعلم الراصدين ، لا عداد لها . فطيران سرب دولتل فوق طوكيو ، تمَّ بعد ما أثبتت محطات الارصاد الجوية ، لقيادة سلاح الطيران الأميركي ، أن الجو فوق طوكيو سيبلغ من الصفاء مبلغاً يمكن الطيارين من تبين الأهداف وقذفها قذفاً محكماً . ورصادو الجو هم الذين عينوا للقيادة الاميركية ، في المنطقة الجنوبية الغربية من المحيط الهادئ ، يوماً عاصفاً مسفّ الغيم ، يمكن الكتائب الأميركية من النزول في وادي الكنار ، دون أن يتبينهم الحماة اليابانيون ، قبل تمام النزول . ثم إنَّ الأميركيين اختاروا يوماً غائماً للنزول في جزيرة آتو — إحدى جزائر الوشيان — إذ استردُّوها من اليابانيين ، على حين أن اليابانيين اختاروا يوماً غائماً كذلك للجلاء عن جزيرة كيسكا الواقعة إلى شرقها

وقد اختار الألمان شهر سبتمبر من سنة ١٩٣٩ لغزو پولندا ، فلم يكن هذا الاختيار اعتباطاً . ولكن علماء الظواهر الجوّية من الالمان أنبأوا القيادة الالمانية بأنّ الجوّ في سبتمبر ، سيكون صافياً والمطر قليلاً أو نادراً . حقًّا ان الاتجاه السياسي في اوربا خلال الصيف ، كان يشير إلى احتمال الغزو في الخريف . ولكن البولنديين اطمأنوا الى أن شهر سبتمبر ، يكون عادة شهر مطر غزير . فلا مفرَّ من أن ترتطم كتائب الالمان الميكانيكية في

وحل بولندة . ولكن حساب علماء الالمان كان دقيقاً . فاجتاحت الكتائب الألمانية المدرَّعة أرض بولندا الجافة الصلبة في أقل من ثلاثة أسابيع ، على حين أن المطر الذي تمناه البولنديون واعتمدوا عليه ظلَّ منحبساً .

وعلى هذا النمط اختار الألمان الاسبوع الثاني من شهر ابريل سنة ١٩٤٠ لغزو النرويج . وقد اختاروه ، استناداً إلى قول علمائهم بأنهُ سيكون أسبوع ضباب ومطر ، فشحنت سفن النقل الألمانيـة ، وتخفَّت في مياه مضيق السكاجيراك ، لم تتبينهـا عين ، فلما انقضت فترة الضباب والمطر ، وصحا الجوُّ وصفا ، كانت هذه السفن قد اشتركت في احتلال النرويج . وحين أراد الالمان ، الفرار ببارجتيهم الشارنهورست والجنيزنو ، وبطرادهم برنس أويجن ، من مرفإ برست إلى ثغور المانيا ، لم يشاؤوا ان يغامروا بها في رحلة طويلة حول الجزائر البريطانية ، خشية أن يكون مصيرها مصير البارجة بسمارك ، وقد كانت أقوى وأسرع . فاستقرَّ الرأي ، على أن تجتاز بحر المانش ومضيق دوفر . فالشقة قصيرة ، واذا كان الجوُّ ملائماً ، استطاعت أن تجتازها قبل أن يتمكن البريطانيون من معاجلتها . فصدر الامر الى رصَّاد الجوِّ ، بالتنبيه إلى أول يوم يكون فيه الضباب كثيفاً والغيم مسفَّاً والمطر غزيراً على محاذاة الساحل الفرنسيّ . وقد استكشف البريطانيون السفن الثلاث قبيل الظهر ، حين كان مدى الرؤية لا يزيد على ثلاثة أميال أو خمسة في الهواء ، وأقلَّ من ذلك على سطح البحر . فخرجت القاذفات البريطانية ، وقاذفات الطربيد ، وأطبقت على السفن عسى ان تصيبها في المقتل ، ولكن ضباباً وستاراً كثيفاً من الدخان ، حالا دون إصابة اجسام صغيرة سريعة الحركة كهذه السفن ، إصابة قاتلة . ولم تتح حالةُ الجوِّ للبريطانيين فرصة للإطباق عليها ، إلاَّ بعد الظهر ، إذ هطل المطر فاستخفت به المدمرات البريطانية وهجمت على السفن بالطرابيد فأصابتها وإن لم تكن الإصابة قاتلة .

وقد يرتكب خطأٌ في تعيين الاحوال الجوية المحتملة ، إما عن إهمال أو عجز ، وإما لأن الطبيعة تأبى أن تتقيد بضوابط العلم الانساني ، فيفضي ذلك إلى كارثة ، أو قد يفضي اليها .

فاليابانيون مثلاً حشدوا قافلة كبيرةً في رابَول لتجتاز بحر بسمارك — بين نيو بريتن وغينية الجديدة — لتعزيز الحاميات اليابانية في غينية الجديدة . وقد احتفظوا بسفن النقل وسفن الحرب التي عينت لحراستها أياماً حتى هبَّت عاصفة ، متجهة في اتجاه القافلة ، فظنُّوا أنها تستر القافلة عن طياري الحلفاء . وكذلك أقلعت القـافلة العظيمة ، وقوَّادها واثقون بمضيِّهم لطيتهم . ولكن العـاصفة انحرفت عن مجراها المحتمل ، فتركت القـافلة مكشوفة ، في

جوٍّ صافٍ ، فتبينها أحد الامريكيين من طياري الدوريات ، فنادى القاذفات والمنقضات ، فمحت القافلة على بكرة أبيها، لم تنجُ منها سفينة ما ، لا سفينة نقلٍ ولا سفينة حرب .

وقد كاد مزاج الطبيعة المتقلّب ، أن يحوِّل غزو صقلية ، من النجاح التامّ الى احتمال الاخفاق . فقد كانت الخطة لغزو صقلية ، قد أعدَّت أحكم إعداد ، وعيِّنت الساعة ، وإذا عاصفة تهبُّ في يوم الغزو لم تكن في حساب علماء الأرصاد الجوية ، فاصطخبت أمواج البحر ، وغدا إقلاع زوارق الغزو شاقًّا أو متعذراً ، وأصيب كثير من الرجال بالدوار ، وخشي القواد ، مدى ساعات ، أن تحول أحوال الجوِّ ، لا قوة المحور ، دون إنفاذ خطة محكمة يرتبط بها مصير ايطاليا . ولكن العاصفة مرَّت ، وسكن البحر — وبقية القصة صفحة باهرة من التاريخ الحربي .

وحالة الجوّ تسير عادةً وفقاً لنماذج معيَّنة . فالعواصف وغيرها من ألوان الاضطراب الجوّي ، تتبع طرقاً معروفة حول الأرض ، إذ تهبط مقادير كبيرة من الهواء البارد الجاف ، من المناطق القطبية في اتجاه جنوبي غربيّ ، وتتحرّك مقادير كبيرة من الهواء الدافئ المشبع بالرطوبة ، من المناطق الاستوائية في اتجاه شمالي شرقي فاذا عرف الاتجاه الذي تتحرك فيهِ هذه المقادير من الهواء ، وسرعتها ، كان في الوسع التكهن بحالة الجو في المناطق التي تلتقي فيها مقادير الهواء البارد الجاف ، بمقادير الهواء الدافئ الرطب . ففي منطقة الالتقاء ، تتحوَّل رطوبة الهواء الدافئ ، مطراً وغيماً أو ضباباً .

وفي المناطق الشمالية ، من الولايات المتحدة وكندا وأوربا ، يكون اتجاه التيارات الناشئة عن التقاء الهواء البارد بالهواء الدافئ من الغرب الى الشرق . وفي الولايات المتحدة ، ثلاثة مسارات عامة لهذه الظواهر الجوية ، يبدأ أحدها في شمال غرب كندا ، ثم يتجه شرقاً فوق ولايتي داكوتا ، محاذياً الحدود الكندية الامبركية الى ولايات نيو انجلند ، ثم يتجه إلى المحيط الأطلسي . والثاني يبدأ في بحر كريب ( بحر الانتيل ) ، ويتجه الى ما يلي سواحل الولايات المتحدة الشرقية ، ثم ينحرف قرب نيو انجلند إلى المحيط . والثالث يبدأ في جنوب غرب الولايات المتحدة ، ثم يتجه شرقاً وشمالاً في شرق .

فاذا عرف الضغط الجوّي ، ونوع الاضطراب الجوّي ، كان في الوسع معرفة الحالة الجوّية خلال الأيام المقبلة ، في مسار العاصفة . ثم إذا عُرفت سرعة عاصفةٍ ما ، كان في الوسع معرفة حالة الجوّ في يومٍ ما ، على الطريق الذي تسير فيهِ . وكون هذه الأحوال الجوية تتحرك من الغرب الى الشرق ، يتيح لعلماء الأرصاد الجوية في الولايات المتحدة

وكندا ، مزية عظيمة ، لأنهم يتمكنون ، من الاعتماد على تقارير الأحوال الجوية في داخل البلاد ، فيتعرفون ما يحتمل أن تكون الأحوال الجوية فوق المحيط الأطلسي أو فوق أوربا ، بعد أيام . وهذه المعرفة تفيدهم في تنظيم القوافل وتعيين مواعيدها ، وفي الهجوم الجوي ، وحتى في تقرير موعد الغزو المنتظر .

وقد ضرب أحد العلماء مثلاً على ذلك وضح فيه هذه الحقيقة . فقد أذيع بالراديو ، من محطة ما ، في قلب الولايات المتحدة بيان محلي عن حالة الجو ، على نحو ما كانت صحفنا تنشر قبل نشوب الحرب ، بيان مصلحة الطبيعيات عن الحالة الجوية عندنا . وقد بينت هذه الاذاعة تفاصيل هذه الحالة ، في مواقع معينة بعيدة عن الساحل الأميركي الشرقي ، ولكن اتفق أنها كانت مواقع على أحد الطرق الثلاثة التي تتبعها الحالة الجوية في سيرها من الغرب الى الشرق .

وكان القائد الأميركي ، في إحدى القواعد البحرية على ساحل المحيط الاطلسي ، ضابطاً متنبهاً يقظاً عارفاً بمسائل الأرصاد الجوية . فعلم حين اطلع على هذه الاذاعة ، أنه لا تنقضي أيام حتى يصفو الجو يوماً أو يومين ، في المنطقة التي تشملها دورياته ، وقدّر أن هذا الصفو سيتيح للغواصات فرصة لتشديد سطوها على القوافل ، فاتخذ أهبته الوافية لرد كيدها في نحرها . وحدث ما توقع ، فأحبطت أعمال الغواصات . على أنهُ ثبت خلال ذلك ، ان قائد إحدى الغواصات الالمانية كان قد سمع هذه الاذاعة ، وخرج منها بالنتيجة الصحيحة ، ولولا يقظة القائد البحري ، لكان فتك الغواصات بالسفن عظيماً

• • •

لحكومات الدول المتحدة ، عشرات من محطات الأرصاد الجوية ، في شتى أقطار المعمورة . وكل منها تجمع الحقائق التي تسفر عنها الأرصاد ، أو تتلقاها من ناس يعتمد عليهم ، وترسلها الى جميع المحطات الأخرى ، ببرقيات رمزية . ومن هذه المحطات ما يرسل في الجو بالونات ، مرة كل ست ساعات ، أو كل اثنتي عشرة ساعة ، لتبيّن اتجاه الريح وسرعتها في الطبقات العليا من الهواء . وقد ترسل في الجو بالونات تحمل أجهزة دقيقة مقترنة بأجهزة إرسال لاسلكية ، فتبعث هذه الأجهزة الى الراصدين على الأرض ما تقيسهُ الأجهزة الأولى من سرعة الريح وحرارتها ورطوبتها . وفي جميع القيادات ، ضبّاط فنيون اختصّوا بتفهُّم التقارير الجوية ، لتطبيق مغازيها على مقتضيات الحالة الحربية . وقد بلغ من اهتمام الألمان بجمع ما يتيسر جمعهُ من حقائق الحالة الجوية فوق المحيط الأطلسي ، أن عهدوا إلى الغوّاصات في

عرض المحيط ، في إرسال أنباء أحوال الجوّ بالراديو ، وعهدوا كذلك إلى طائرات خاصةٍ بعيدة المدى في الايغال فوق المحيط الأطلسي للغرض نفسه .

وقد اضطرَّ الألمان الى ذلك اضطراراً بعد تدمير محطة الأرصاد الجوّية التي كانوا قد أنشأوها في جزيرة جرينلندة . فقد كانوا يعلمون أن من يتبيَّـن أحوال الجوّ اليوم ، في جزيرة جرينلندة ، يستطيع أن يعلم ما تكون عليـهِ غداً أو بعد غد فوق قارَّة أوربا . فأنشأوا في تلك الجزيرة محطة لهذا الغرض . ولـكن الأمريكيين أرسلوا اليها بعثة خاصة ، لانشاءِ محطة لرصد أحوال الجو ، فلم تلبث حتى حطـمت المحطة الألمانية

ومن غرائب الاتفاق أن تبيُّـن أحوال الجوّ ، بدراسة الهواءِ البارد الجاف الهابط من المنطقة القطبية والهواء الدافئ الحار الصاعد من المنطقة الاستوائية ، يرجع الى نظرية قال بها أولاً عالمان نرويجيان خلال الحرب العالمية الأولى ، وهما فيلهلم بيركنس وابنهُ جاكوب .

فقد كان يهم ربابين سفن صيد السمك في النرويج ، وأرباب الصـناعات التي تعتمد على صيدها ، أن يعرفوا معرفة دقيقة أحوال الجوّ غربيَّ النرويج . فلما نشبت الحرب وتوقف البريطانيون عن إذاعة تقاريرهم الجوية ، وضعت هذه النظرية « القطبية » وامتحنت . وقد يذهب علماءُ الاقتصاد الحربيّ ، إلى أن الألمان احتلوا نارفيك في شمال النرويج ، لأنها مرفأ لا يجمد ماؤه على مدار السنة ، وهو لقربه من منطقة كيرونا السويدية حيث مناجم الحديد يصلح أن يكون ثغراً لإِصـدار الحديد إلى المانيا ، فهذا خيرٌ من نقله بسكك الحـديد السويدية ، أو بالسفن في خليج بوثنيا ثم في بحر بلطيق ، وهما يجمدان خلال ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر في فصل الشتاءِ . على ان علماء الظواهر الجوية ، الذين يدركون ما لمعرفة هذه الظواهر من منزلة في الأعمال الحربية ، يضيفون الى الباعث الاقتصادي باعثاً آخر . ويقولون إن الألمان أرادوا الاستقرار في نارفيك لإِنشاءِ محطة للارصاد الجوية فيها ، ولذلك طالت مقاومتهم للحلفاء حين نزلوا فيها . ثم جهدوا في استردادها . وقد كان نزول الأميركيين في جرينلندة وإسلندة لإِنشاءِ قواعد للطائرات بين الولايات المتحدة وبريطانيا ، بقدر ما كان لانشاءِ محطات لرصد الظواهر الجوّية ، وإتاحة نتائجهِ لقيادات الدول المتحدة في بريطانيا .

◆ ◆ ◆

وفي الجزء القادم نفصل تأثير أحوال الجوّ ، في الصحة والمرض والحالة النفسية .

# لبنان في التوراة

## لراجي الراعي

---

جلست أمس على شاطىء هذا البحر والكآبة تشتملني كالليل ، ورحت أعدد جراحاتي وهي أرقامي في جدول القدر ، وأسأل نفسي وأنا أرى الرايات تخفق في سماوات الأمم العظيمة : أين هي راية عظمتي ، وأين هي أمجادي أنا اللبناني ابن هذه البقعة من الأرض التي يقال لها لبنان ؟ أين وتري اللبناني في قيثارة العالم الكبرى ؟ كل دولة تطلب أبعد ما يبغيه المدى الحيوي فأين مداي ؟ وأين أسدي يزأر في غابة الوجود ؟ وأين نسري يحوم في سماء هذا الجبل ؟ لي صخرتي ولكن أين عصا موسى في يدي ، أين عصاه تضربها فينبجس من قلبها الماء . وماذا تفيدك الصخرة إذا لم تكن في يدك عصا موسى ؟

لبثت ساعة على هذا الشاطىء ، وهذه الخطرات السود تمر في كآبتي ، وفيما أنا على تلك الحال إذ نظرت فاذا بجبار يهبط عليَّ فجأة من السماء رأيت فيه وجه هرقل ، وصاح بي بصوت ذعرت له الأمواج وارتجت من هوله الأرض من حولي : أنت تجهل نفسك . أتريد أن تعرف من أنت أيها اللبناني وإلى أية سلالة تنتمي ؟ أتريد أن تعرف ما هو لبنان وإلى أي أفق تعلو قامتك في الدنيا . أتريد ؟ إذن فاطلع على الناس بالكتاب المقدس ، كتاب ينبوع الينابيع وسطر الخليقة الأول في كتابها ، وأبرز صورتك في ذلك الإطار الالهي واشمخ على العالمين وتكبر .

وطار هرقل إلى الأولمب فقمت من وقتي إلى كتابي المقدس أفتش عن لبنان ، وتصفحته من أوله إلى آخره . وإليك ما وقعت عليه من تلك السطور العبقة بمجد هذا الأرز والتي هي أول ما خطه القلم . أيها اللبناني ، أين كنت وكيف كنت ؟ اسمع ، اسمع كم مرة ذكر لبنانك ولبناني في كتاب الله ، اسمع ودوِّن : ورد في سفر التكوين في الفصل العاشر : « وكانت تخوم الكنعانيين من صيدون وأنت آتٍ نحو جرار إلى غزة » .

وفي سفر تثنية الاشتراع في الفصل الأول : « قد تكلم الرب إلهنا في حوريب وقال لنا حسبكم المقام في هذا الجبل فتحوّلوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من القفر والجبل والسهل ، والجنوب وساحل البحر أرض الكنعانيين ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات » وفي الفصل الحادي عشر : «كل موضع تطأه أخامص أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات الى البحر الأقصى يكون تخمكم » .

وفي سفر يشوع في الفصل الأول : « كل مكان تطأه أخامص أرجلكم لكم أعطيته كما قلت لموسى . من البرية ولبنان هذا النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير الذي في جهة مغارب الشمس تكون تخومكم » وفي الفصل التاسع : « فلما سمع جميع الملوك الذين في عبر الأردن في الجبل والسهل وفي جميع ساحل البحر الكبير إلى مقابل لبنان الحثيون والاموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون اعتصبوا معاً لقتال يشوع واسرائيل على اجتماع الكلمة » . وفي الفصل الثالث عشر : « وأرض الجبليين وجميع لبنان ، جهة مشرق الشمس من بعل جاد ، تحت جبل حرمون إلى مدخل حماة ، كل سكان الجبل من لبنان إلى مياه مصرفوت كل الصيدونيين سأطردهم من وجه بني اسرائيل وأنت تقسمها بالقرعة لاسرائيل ميراثاً كما أمرتك ».

وفي سفر الملوك الثالث في الفصل الرابع : « وقال سليمان ثلاثة آلاف مثل وكانت أناشيده الفاً وخمس أناشيد وتكلم في الشجر من الأرز الذي على لبنان الى الزوفى التي تخرج في الحائط » وفي الفصل الخامس : « والآن فمر بأن يقطع لي أرز من لبنـان وعبيدي يكونون مع عبيدك وأجرة عبيدك أؤديها اليك بحسب جميع ما ترسم لأنك تعلم ان ليس فينا من يعرف بقطع الخشب مثل الصيدونيين » وأرسل حيرام الى سليمان وقال « قد فهمت ما أرسلت به اليّ وأنا أُتم كل مرضاتك في خشب الارز وخشب السرو ، وعبيدي ينزلون ذلك من لبنـان الى البحر فاجعلهُ أطوافاً في البحر الى الموضع الذي تسميه لي واطرحه هناك فتأخذه وأنت تتم مرضاتي باعطائك طعاماً لبيتي فكان حيرام يبعث الى سليمان خشب الارز وخشب السرو على حسب ما أراد . وسخّر الملك سليمان من كل اسرائيل وكان المسخـرون ثلاثين الف رجل وكان يرسل منهم الى لبنـان عشرة آلاف في الشهر مناوبةً فيكونون في لبنان شهراً وفي بيوتهم شهرين . وكان ادونيرام قيماً على السخر وكان لسليمان سبعون الف رجل يحملون الأثقال وثمانون الفاً يقطعون في الجبل ما عدا الرؤساء وكلاء سليمان القائمين على الأعمال ، وهم ثلاثة آلاف وثلاثمئة يأمرون على القوم

الذين يعملون العمل. وأمر الملك ان يقلعوا حجارة كبيرة ثمينة لتأسيس البيت بالحجارة المنحوتة فنحتها بناؤو سليمان وبناؤو حيرام والجبليون وهيأوا الاخشاب والحجارة لبناء البيت» .
وفي الفصل التاسع : «كان فرعون ملك مصر قد صعد الى جازر وأخذها وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين المقيمين بالمدينة ووهبها مهراً لابنته زوجة سليمان ، فبنى سليمان جازر وبيت حورون السفلى وبعلت وتدمر في ارض البرية وجميع مدن الخزن التي كانت لسليمان ومدن المركبات ومدن الفرسان وكل ما أحبَّ سليمان أن يبني في أورشليم ولبنان وكل أرض سلطانه»
وفي الفصل العاشر : « وعمل ايضاً ثلاثمئة مجن من ذهب مطروق ، للمجن الواحد ثلاثمئة مثقال ذهب وجعلها الملك في بيت غابة لبنان » — « وكانت جميع آنية شرب الملك سليمان ذهباً وجميع آنية بيت غابة لبنان كانت من ذهب خالص لم يكن فيها فضة اذ لم تكن تحسب شيئاً في أيام سليمان » .

وفي سفر الملوك الرابع في الفصل الرابع عشر : « فبعث يواش ملك اسرائيل الى امصيا ملك يهوذا قائلاً ان العوسج الذي بلبنان أرسل الى الأرز الذي بلبنان وقال زوج ابنتك لابني فجازت وحش الصحراء التي بلبنان ووطئت العوسج » . وفي الفصل التاسع عشر : « قد قرعت على لسان رسلك وقلت بكثرة مراكبي صعدت الى قمم الجبال وأواخر لبنان ، قاطعاً أرفع أرزه وخيار سروه وداخلاً المنزل الذي في أقصاه وغابة كرمله »

وفي سفر أخبار الايام الثاني في الفصل الثاني: «وأرسل لي بأخشاب أرز وسرو وصندل من لبنان لأني اعلم ان عبيدك حاذقون بقطع الخشب من لبنان وهؤلاء عبيدي مع عبيدك فليجهزوا لي إخشاباً بكثرة لان البيت الذي ابنيه عظيم عجيب» وفي الفصل التاسع : « فعمل الملك سليمان مئتي مجن من ذهب مطروق ، للمجن الواحد ستمئة مثقال ذهب مطروق وثلاثمئة مجن من ذهب مطروق للمجن الواحد ثلاثمئة مثقال ذهب وجعلها الملك في بيت غابة لبنان».

وفي سفر يهوديت في الفصل الاول : « فعظم اذ ذاك ملك نبوكدنصر وسمت نفسه فراسل جميع سكان قيليقية ودمشق ولبنان » .

وفي سفر المزامير في المزمور الثامن والعشرين : « صوت الرب يحطم الأرز يحطم الرب أرز لبنان — ويوثبها كعجل لبنان ».

وفي سفر نشيد الأناشيد في الفصل الثالث: « الملك سليمان صنع لنفسه تختاً من خشب لبنان»
وفي الفصل الرابع : « هلمي معي من لبنان أيتها العروس معي من لبنان ، انظري الى رأس امانة من رأس سنير وحرمون من مرابض الاسود من جبال النمور »— « أختي العروس

جنة مقفلة ينبوع مقفل وعين مختومة . أغراسك فردوس رمان مع كل ثمر نفيس وفاغية مع ناردين ، ناردين ، وزعفران قصب ودار صيني مع كل شجر اللبان مرّ وعود مع أنخر الأطياب، عين جنات وبئر مياه حية وأنهار من لبنان . هبي يا شمال وهلمّي ياجنوب انسمي على جنتي فتنسكب أطيابها» . وفي الفصل السابع : «عنقك كبرج من العاج وعيناك كبركتي حشبون عند باب بنت الجماعة وأنفك كبرج لبنان الناظر الى دمشق » . وفي الفصل الثامن : « لنا أخت صغيرة وليس لها ثديان ، فماذا نصنع بأختنا يوم تخطب ، ان كانت سوراً بنينا عليه صرحاً من فضة وان كانت مصراعاً شددناه بألواح من أرز».

وفي سفر يشوع بن سيراخ في الفصل الرابع والعشرين : « تأصلت أنا الحكمة في شعب مجيد وفي نصيب الرب ، نصيب ميراثه وفي ملأ القديسين مقامي ارتفعت كالارز في لبنان وكالسرو في جبال حرمون » . وفي نبوءة أشعيا في الفصل الثاني : « ان عيون البشر المتشامخة ستخفض وترفع ، الانسان سيوضع ويتعالى الرب وحده في ذلك اليوم ، فانه يوم رب الجنود على كل متكبر متعال وعلى كل مرتفع فيحط — وعلى كل أرز لبنان المتعالي المرتفع وكل بلوط باشان » . وفي الفصل العاشر : « لكن السيد رب الجنود يكسر الأغصان بعنف فكل مرتفع القامة يقطع وكل شامخ يحط - يشذب حداد الغاب بالحديد وبيد ذي بطش يسقط لبنان » . وفي الفصل الخامس والثلاثين : « قد أوتيت مجد لبنان وبهاء الكرمل والشارون فهم ينظرون مجد الرب وبهاء إلهنا » . وفي الفصل الستين : « مجد لبنان يأتي اليك السرو والسنديان والشربين جميعاً لزينة مقدسي وأمجد موطئ قدمي » .

وفي نبوءة أرميا في الفصل الثامن عشر : « هل يخلو صخر الصحراء من ثلج لبنان ، أم تنضب المياه المنفجرة الباردة الجارية » . وفي الفصل الثاني والعشرين : « فانه هكذا قال الرب على بيت ملك يهوذا أنت لي جلعاد ورأس لبنان لأجعلنك قفراً ومدناً لا ساكن بها وأقدس عليك مهلكين كلاً منهم وآلاته فيقطعون نخبة أرزك ويلقونها في النار — ويل لمن يبني بغير عدل وغرفه بغير حق ويستخدم قريبه بلا أجرة ولا يوفيه عن عمله ويقول ابن لي بيتاً واسعاً وغرفاً فسيحة فتفتح لهُ كوى وسقف بالارز ودهن بالمغرة — أيكون ملكك بأن تفاخر بالأرز ، أما أكل أبوك وشرب وأجرى الحق والعدل وحينئذٍ كان لهُ خير — اصعدي الى لبنان واصرخي وفي باشان ارفعي صوتك واصرخي من العباريم فان جميع محبيك قد انحطموا يا ساكنة لبنان المتخذة في الأرز عشها كيف انتحبت حين أخذك المخاض والوجع كالتي تلد » .

وفي نبوءة حزقيال في الفصل السابع عشر : « وقل هكذا قال السيد الرب ان النسر العظيم ذا الجناحين العظيمين الطويل القوادم الممتلىء الكثير الالوان قد أتى لبنان وأخذ ناصية الارز واقتطع رؤوس خراعيبه وأتى بها الى أرض كنعان وأقامها في مدينة التجار — هكذا قال السيد الرب اني سآخذ من ناصية الارز العالي وأنصب أقتطع من رؤوس خراعيبه غصناً أملد وأغرسه أنا على جبل شامخ شاهق في جبل اسرائيل العالي ، أغرسه فينشىء أفنانا ويثمر ثمراً ويصير أرزاً جليلاً فيأوي تحته كل طائر كل ذي جناح يأوي في ظل أغصانه فتعلم جميع أشجار الصحراء أني أنا الرب سفلت الشجر العالي وأعليت الشجر السافل وأيبست الشجر الرطب وأنبت الشجر اليابس ، أنا الرب قلت وفعلت » . وفي الفصل السابع والعشرين : « وقل لصور الساكنة عند مداخل البحر تاجرة الشعوب في جزائر كثيرة : هكذا قال السيد الرب يا صور إنك قلت أنا كاملة الجمال تخومك في قلب البحار وبانوك أكملوا جمالك بسرو من سنير بنوا لك كل طباقك وأخذوا أرز لبنان ليضعوا سواري عليك — سكان صيدون وارواد كانوا قذافين لك وحكماؤك يا صور الذين فيك هم مدبروك وجميع سفن البحر وملاّحوها كانوا فيك لترويج موسمك » . وفي نبوءة هوشع في الفصل الرابع عشر : « وأكون لاسرائيل كالندى فيزهر السوسن ويمد عروقه كلبنان وتنتشر فروعه ويكون بهاؤه كالزيتون ورائحته كلبنان فيرجع الساكنون في ظله ويحيون بالحنطة ويزهرون كالكرم ويكون ذكره كخمر لبنان » . وفي نبوءة زكريا في الفصل العاشر : « وأعيدهم من أرض مصر وأجمعهم من أشور وآتي بهم الى أرض جلعاد ولبنان ».

تلك هي حكايتك أيها اللبناني في التاريخ ، وذلك هو لبنانك ولبناني هبطت به عليك من سماء الكتاب المقدس خمسين مرة ... أنت غني بماضيك ... ان رجلك عالقة بهذا الشاطىء ولكن رأسك في سفر التكوين ، أنت من أبناء الله المقربين المصطفين ، أنت في الشعاع الأول من شمس الخليقة وأنت أعتق آدمي في الآدميين فلا تنغض رأسك بعد اليوم إذا ما ذكر لبنان ، ولا تقف كئيباً إذا مرت أمامك مواكب الأمم الكبرى وتليت الأسفار وخفقت الرايات والأمجاد، فأرزك في حديقة الرب لا تعلوه شجرة في الدنيا . . ان لك في مجدك القديم غنية عن كل مجد . . ان لبنانك اليوم مليون من الناس ولكنك ولدت قبل أن ولد الناس فلك أولوية القدم . . .

# الدين والفلسفة

## الشيخ محمد عبده والتوفيق بينهما

لمحمد يوسف موسى

---

من الخير ، بعد ما رأينا جهود فلاسفة الاسلام — إبان العصور الوسطى — في مدّ الصلة بين رجال الدين والفلسفة على أساس التوفيق بينهما ، أن نختم هذا البحث برأي أحد أئمة التفكير للعصر الحاضر في هذه الناحية ، وهو الشيخ محمد عبده ، لنرى ما كان منهُ في هذا السبيل من فكر ثاقب وصدر رحب وجهد مشكور .

* * *

بعد ابن رشد وعصره الذي ازدهر فيه التفكير العقلي الفلسفي ، ارتكست الفلسفة وذهبت الى الوراء شوطاً بعيداً بمرور الزمن لعوامل مختلفة أشرنا فيما تقدم الى شيء منها ، واستعلى على الفلاسفة ومن اليهم من أولي الأفكار العقلية الحرة صوت رجال الدين من فقهاء ومتكلمين ، وصار الكثير من هؤلاء يسلكون كل سبيل الى التنفير من الفلاسفة وتبغيض الناس في مؤلفاتهم حتى ما كان منها في علم الأخلاق وما يتصل بهِ ، موهمين أن في قراءتها خطراً أي خطر على الدين ، متبعين في ذلك سلفهم العظيم الامام الغزالي الذي يقول في الكلام على آفة قراءة كتبهم الخلقية : « فإن من نظر في كتبهم فرأى ما مزجوه بها بكلامهم من الحكم النبوية والكلمات الصوفية ، ربما استحسنها وقبلها وحسُن اعتقاده فيها ، فيسارع الى قبول باطلهم ، ولأجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر » [1] .

ظلَّ الحال كذلك ، إلى هذا العصر الحديث ، تتعثّر الفلسفة وتعاليمها حتى عفت أو كادت ، إلاّ فترات جد قصيرة ربما وُجد فيها من يعرف لها بعض قدرها ، حتّى كان الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ( ١٨٤٩ — ١٩٠٥ م ) في هذا العصر الحاضر والحاجة ماسة الى

---

(١) المنقذ من الضلال ، طبعة دمشق ، ص١٠٤ — ١٠٥ ؛ ولعل الصحيح « الغرر » بدل « الغدر »

مثله في سعة تفكيره ورحابة صدره. لقد عمل على إيقاظ العقول الراقدة، وتوسيع الصدور الضيقة، وتنقية الدين مما علق به مما ليس بحق من أفكار القرون الوسطى: حتى لا يضيق بالعقل وناظره. ومن ثمَّ كان لهُ جهد محمود الأثر في التوفيق بين الوحي والعقل، أو بين الدين والفلسفة، متأثراً في ذلك أستاذه السيد جمال الدين الافغاني المتوفى سنة ١٨٩٧ م.

تناول الاستاذ الامام هذا العمل تناول الجادّ المقدّر لهُ العارف خطره، فوضع أصوله واختطَّ لهُ طرقه، وأشربهُ قلبه، فناضل عنهُ طويلاً غير آبه بما يصادف من صعاب وعقبات، ولا بما يثار حوله من تهم وأقاويل سوء من بعض إخوانه وروصفائه والجهلة والحسدة والمناوئين لهُ.

بدأ بالنظر في العداوة الواضحة بين الدين والعلم التي لا تقوم إلاَّ على أساس من الجهل لفَّ العقول بحجاب كثيف فمنعها من التفكير، وران على القلوب فجعلها تضيق بأي لون من ألوان النظر العقلي هذا والاسلام دين العقل والفكر، « فأمر بالنظر واستعمال العقل في ما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليهِ من دقائقه ـ تحصيلاً لليقين بما هدانا اليه ـ ونهانا عن التقليد بما حكي من أحوال الامم في الأخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك، واستتباعه لهدم معتقداتهم وامّحاء وجودهم المليّ، وحقّ ما قال »[1] نعم! هذا حق كما يقول، فالقرآن قد رفع العقل مكاناً عليّاً، حتى جعل أمر السعادة ينتهي اليه، كما جعل لهُ النظر في كل ما خلق الله وكشف أسرار الكون المكنونة[2].

أيقن الأستاذ بهذا كله، وأيقن بضرورة العمل على تآزر الدين والعلم، فوضع لذلك أصلين جعلهما الأساس في تقرير الصلة بينهما. هذان الأصلان هما: كل من الدين والعلم في حاجة الى الآخر، ووجوب تقديم العقل على ظاهر النقل عند التعارض.

* * *

أما الأصل الأول فنجده يُلحّ فيه وفي بيانه في أكثر من مؤلف من مؤلفاته، ففي أحدها يقرر أن أول أساس وُضع عليه الاسلام هو النظر العقلي الذي هو وسيلة الايمان الصحيح[3]، ولذلك نراه ينعي على المسلمين نسيانهم « أن الايمان يعتمد اليقين ولا يجوز

---

(١) رسالة التوحيد، الطبعة الثامنة، ص ٢٣ (٢) المرجع نفسه ص ١٩

(٣) الاسلام والنصرانية ص ٥٦

الأخذ فيه بالظن ، وأن العقل هو ينبوع اليقين في الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق برسالته ، وأن النقل ينبوع له فيما بعد ذلك من علم الغيب كأحوال الآخرة وفروض العبادات وهيآتها » [1] ثم يقرر بعد ذلك في كتاب آخر « أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهي ، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ، والعقل هو صاحب السلطان في معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحته لأجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال » [2].

نعم ! إن العقل البشري — كما يقول — ليس في استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته ، إلاّ في القليل النادر من الناس ، انهُ أعجز عن معرفة ما يجب أن يُعرف عن الله وأحوال الدار الآخرة ، وإن كان ذلك قد يتيسر لقليل ممن اختصهم الله بالعقل الكامل والبصيرة الثاقبة ، لذلك كله كان العقل الانساني في حاجة الى معين يعلم منه ما يعجز عن إدراكه ، وذلك المعين هو من يختصهُ الله بالنبوة من عباده المصطفين الأخيار [3]. ومع هذا كله فالعقل أساس للشرع وسند له ولا غنى له عنهُ ، ولذلك كان التوفيق بينهما واجباً .

* * *

وأما الأصل الثاني فهو تقديم ما أدى اليه النظر العقلي الصحيح إذا تعارض مع النقل ، مع تفويض علم هذا النقل وفهمه الى الله ، أو تأويله في حدود قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتهُ العقل ونظره الصحيح [4]. والشيخ يشعر شعوراً قويًّا بخطر هذا الأصل الثاني في التوفيق بين الدين والفلسفة ، ولذلك تراه يقرر، في صوت قوي وإيمان ثابت ، أنهُ « بهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مهدت كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات ، واتسع له المجال إلى غير حد ، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب إلى ما هو أبعد من هذا ؟ واي فضاء يسع أهل النظر وطلاب العلوم إن لم يسعهم هذا الفضاء ؟ إن لم يكن في هذا متسع لهم ، فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ، ولا سماء بأجرامها وأبعادها » [5].

على أنهُ هيهات، في رأيه الحصيف الثاقب، أن يكون تعارض بين الدين والعلم أو الفلسفة ،

---

(١) الاسلام والنصرانية ص ١٢٧ (٢) الرسالة ص ١٢٨ — ١٢٩

(٣) الرسالة ص ٧٦ وما بعدها (٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦—٥٧ (٥) نفسه ص ٥٧

ما دام كل منهما يعتمد على العقل ويدرس إلى حدّ ما نفس الظواهر ، وإن كان لكل منهما غاية خاصة يتجه إليها ويسعى لها ويعمل على الوصول إليها [١]

ولعلَّ من الخير أن نشير هنا إلى أن هذين الأصلين ليسا من ابتداع الاستاذ الامام ، بل نجدهما لغيره ممن يقدرهم المسلمون جميعاً على السواء ، ولكن المتعصبين لا يفقهون ! نعني حجة الاسلام الامام الغزالي .

إن هذا الحجة يقول ، في موسوعته الاحياء : « فالداعي الى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور » [٢] كما يرى في كتاب آخر أن العقل كالاسّ والشرع كالبناء ، وأنهُ لن يغني أس ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أس [٣]. كما يذكر في رسالة أخرى أن بين المعقول والمنقول تصادماً في بادي الرأي ، ولهذا انقسم الناس في ذلك إلى فرق ، وأن الفرقة المحقة « هي الفرقة المتوسطة الجامعة بين البحث عن المعقول والمنقول ، الجاعلة كلاًّ منهما أصلاً مهمًّا ، المنكرة لتعارض العقل والشرع وكونه حقًّا [٤]. ثم يوصي الباحث عند ما يبدو له تعارض الشرع والعقل أن يوقن أن ظاهر الشرع غير مراد إذ فيهِ تكذيب للعقل ، وأن عين المراد به لا حاجة إلى معرفته ولا سبيل فيهِ إلى حقيقة الكشف واليقين [٥].

وبعد هذين الأصلين ذهب الشيخ إلى ما يصح أن فيه فصل الدين عن الفلسفة ، ببيان ميدان كل منهما ومنطقة نفوذه ، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر فتقع الخصومة ويستحر الخلاف بين ممثليهما ، لقد جعل من أسباب عداء رجال الدين للفلاسفة أن هؤلاء زجّوا أنفسهم في النظر في مبادىء الدين ومسائله ، وما كان لهم ذلك ، إذ يجب ألاّ تمتزج الفلسفة بالمسائل الدينية [٦].

ومن أجل هذا نراه في مسألة أفعال العباد يذهب إلى أن التوفيق بين ما نعتقده حقًّا من إحاطة علم الله وإرادته وشمول قدرته وخلقه لكل شيء ، وبين ما تشهد به البداهة من

---

(١) مقدمة رسالة التوحيد بالفرنسية ص ٤٩ من كتاب الاسلام والتجديد في مصر

(٢) إحياء علوم الدين طبعة سنة ١٣٢٦ هـ ، ٣ : ١٤

(٣) معارج القدس ، طبعة سنة ١٣٤٦ هـ ، ص ٥٩

(٤) قانون التأويل ، الطبعة الاولى بمصر ص ٩

(٥) نفس المرجع ص ١

(٦) الرسالة ص ٢٠

اختيار الانسان لأفعاله وحريته في أن يفعل ويترك منها ما يريد ، يذهب إلى أن هذا من طلب سر القدر الذي نهينا عن الخوض فيه ، وأنه اشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه[١] ومن أجل هذا أيضاً نجده في تفسيره المطول لسورة العصر يصرح بأنه في هذه المسألة عينها لا يجب التكلم فيها بأكثر مما تكلم ، وإلاّ لخرج من الصابرين ، وخاض في القدر مع الخائضين . كما يرى هذا الرأي أيضاً — أي مما لا ينبغي للمؤمن أن يخوض فيه — في مسألة علم الله تعالى ، وانهُ شامل للكليات والجزئيات أو للكليات وحدها.[٢] وقد كان من تحرّجه في الجدل في هذه المسائل وأمثالها ، الجدل الذي لم يؤد إلاّ إلى الفرقة في الدين ، إجماله الكلام في علم التوحيد واكتفاؤه بالاشارة عن التفصيل وبالتلويح عن التصريح .

ومن الممكن بعد هذا وذاك أن نستخلص —كما يقول الدكتور تشارلز آدمس بحق — أن ميدان الفلسفة في رأي الامام هو البحث في الطبيعة وظواهرها ، أو بعبارة أخرى لهُ « كشف الأسرار المخبوءة في أعماق الكون » ، ونحو ذلك مما هو بعيد عن الدين ومباديه ومسائله [٣].

وإذا كان هذا مما ذهب اليهِ في سبيل التوفيق بين الدين والفلسفة ، أي جعل نفوذ خاص ودائرة معينة لكل منهما ، فأن من الطبيعي إذاً أن يجنح إلى ما جنح اليهِ الفلاسفة السابقون من تقسيم الناس إلى طبقات وأن يجعل لكل طبقة نوعاً خاصًّا من التعاليم .

يجد الباحث في ما ترك الامام من مؤلفات وكتابات إشارة أو إشارات الى هذا الرأي ، ومن هذه الاشارات ما كان منهُ في تعليق على كلمة لشارح العقائد العضدية في مسألة علم الله وآراء الفلاسفة فيها ، إذ يقول : «وقد تتحقق لباب الحق فيه من رسالتنا الواردات ، وهذا مشرب صوفي لا يذوقه إلاَّ من عوفي فصوفي ، وليس هذا مقام الكلام ، وإلاَّ لأسمعتك صريف الأقلام . ولعلنا نأتي على تحقيق هذه المسألة ، بوجه أبسط وأعلى ، في مقام آخر أو في كتاب آخر»[٤].

وهذا أمر جد طبيعي لتفاوت العقول والاستعدادات ، ومما أُثر من الحكمة النبوية : «أُمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم» . وبذلك يكون الشيخ متفقاً في هذا الرأي مع من ذهب إليهِ من فلاسفة الأغريق والمسلمين .

(١) الرسالة ص ٦١ (٢) حاشية على شرح الجلال الدواني على العقائد العضدية ص ١١٦
(٣) الاسلام والتجديد ص ١١٨ (٤) الحاشية ص ١٤٢

# الوقود [1]

## للدكتور حسن صادق باشا

---

معالي الوزير — سادتي :

أبدأ بشكر حضرة صاحب المعالي وزير التجارة والصناعة أن هيأ لي هذه الفرصة لأتحدث لحضراتكم في موضوع أظنني على حق إذا عددته في المكان الأول من عظم الشأن لا للصناعة فحسب ، بل لأهم مرافقنا العامة وحياتنا المنزلية وشؤوننا الزراعية . واني أنتهز هذه الفرصة للاعراب عن تقديري العظيم للمجهود الذي يبذله معاليه في نشر الثقافة الصناعية وأتمنى له كامل التوفيق .

### حاجة مصر إلى لوقود

لست بحاجة إلى أن أؤكد لحضراتكم أن إقامة الصناعات وإنماءها في هذه البلاد هو من ألزم اللوازم ، وان اقتصادنا القومي يفقد بدونها مقوماً من أهم مقوماته ، فالبلد الزراعي إذا خلا من الصناعات التي تستمد وجودها من منتجاته الزراعية والتي تلزم بوجه خاص لخدمة هذه الزراعة ، هو بمثابة مزرعة تستغلها البلاد الصناعية المجاورة له ، وحاشا أن نرضى لبلادنا هذا الوضع الذي لا يتفق مع تاريخها المجيد ولا مع مقامها الاجتماعي والسياسي بين سائر البلدان .

وإذا كانت الصناعة تقوم أسسها على المواد الأولية وعلى سواعد العمال وأموال المولين وعبقرية ذوي العقول المخترعة فلن يقوم لها قائمة بغير أن يتوفر لها الوقود الصالح الرخيص لادارة آلاتها ولبعض العمليات الصناعية نفسها .

وليست الصناعات وحدها هي التي تحتاج إلى الوقود بل هذا شأن كافة المرافق العامة

---

(١) محاضرة حضرة صاحب السعادة حسن صادق باشا القيت بصالة المحاضرات بالسراي الصغرى بالجمعية الزراعية الملكية بمناسبة اقامة المعرض النموذجي للصناعات الحديثة يوم الاحد ١٩ مارس سنة ١٩٤٤

من ري وصرف ونقل وإنارة كما هو شأن معيشتنا المنزلية ، كل هذا مما يتحتم معه أن نضع لنا سياسة ثابتة سليمة لتيسير حصول كافة المستهلكين على حاجتهم من مختلف أنواع الوقود وتنظيم استعمالها على الأوضاع الاقتصادية الصحيحة .

ومما يستوقف النظر ما يشمل جميع مرافقنا الخاصة والعامة من الفوضى في شأن الوقود ففي شؤوننا الخاصة يستعمل البعض المخلفات الزراعية من حطب وقش وكسب كما يستعمل البعض الكيروسين والفحم ( إن وجد ) كما يستعمل ذوو اليسار في مدننا الكبيرة الغاز أو الكهرباء . وفي وسائل النقل والصناعات الصغيرة والكبيرة يستعمل الفحم والغاز والبترول والكهرباء، فاذا تعذر الحصول على المادة التي نكون قد نظمنا أمورنا على أساسها أسقط في يدنا ولجأنا إلى استعمال بديل ثم آخر حتى لو تحملنا في ذلك نفقات طائلة .

وقد كان الزراع وساكنو الريف المصري حتى وقت قريب يعتمدون في شؤونهم المنزلية على حطب القطن وعيدان الذرة وقش الأرز، حتى إذا أدخل استعمال الآلات الصغيرة التي توقد بالكيروسين نشطت شركات البترول لجعلنه في متناول الفلاح في أقاصي القرى وبأرخص الأسعار ، فترك استعمال الحطب وما إليه وأخذ في استعمال الجاز . فلما حلت أزمات الحروب المتوالية وعزَّ الحصول عليه أو غلا ثمنه أصبح الفلاح في حيرة من أمره واستعصى عليه العود سيرته الأولى .

كذلك كان الشأن في آلات الحرث والري والدراس ، فبعد أن كان اعتماده بعد الماشية على آلات بخارية تحرق الفحم أو المخلفات الزراعية، ظهرت في الأسواق آلات الاحتراق الداخلي تدار بالكيروسين أو زيت الديزل فكان رخص ثمنها وسهولة ادارتها مدعاة له إلى ترك الأولى والتهافت على الأخيرة حتى لو لم يكن قد استهلك ثمن الأولى الاستهلاك الاقتصادي الكامل . فلما حلت أحوال الحرب وانقطع الوارد من قطع الغيار لهذه الآلات الجديدة وعزت مواد الوقود أو غلا ثمنها عاد يبحث عن أنقاض الوابورات الأولى وهيهات له ذلك وقد أكلها الصدأ وأتى عليها الاهمال .

وفي وسائل النقل قد لمسنا التذبذب الذي شمل قاطراتنا الحديدية والتجاء الحكومة وشركات النقل إلى تحويل قاطراتها من حريق الفحم الى الكسب ثم الى المازوت مع ما صاحب ذلك من صعوبات ونفقات طائلة .

وهكذا يمكننا أن نسترسل في ضرب الأمثال على ما تعانيه البلاد من الاضطراب

في شأن الوقود الذي هو كما قدمنا من أسس صناعاتنا بل من أهم أسس مدنيتنا مما يجعل واجباً علينا وضع خطة حكيمة ثابتة تجنبنا في المستقبل شر تقلبات الظروف .

ومما يؤسف له أننا ونحن من الأمم الفقيرة في موارد الوقود الطبيعية قد أهملنا أمرها وتركنا شؤونها للمقادير على حين تنبهت البلاد الصناعية الكبرى رغم غناها في مواد الوقود إلى ضرورة العناية بما عندها تأميناً لصناعاتها ومدنيتها .

## الحالة في الغرب

ففي انجلترة مثلاً وهي من أغنى بلاد الأرض في الفحم الحجري حيث تنتج سنويًّا حوالي ٥٠٠ مليون طن تصدر منها للخارج مئات آلاف من الأطنان ، شحذت جميع الهمم ودعت الاخصائيين من علمائها للتفكير في أمر الاقتصاد في استعمال الوقود وبحث كافة الوسائل للحصول من الفحم على أقصى فائدة ممكنة . فكان من أثر ذلك أن شاع استعمال تراب الفحم المطحون والقوالب المضغوطة كما أقيمت الأجهزة لتقطير الفحم للحصول على ما قد يحتويه من عناصر أخرى نافعة كالنوشادر والغاز والقطران والاقتصار على حرق الكوك الباقي بعد ذلك . كما وضعت القواعد لتوحيد محطات توليد القوى اقتصاداً في الوقود. واهتدوا في النهاية الى انشاء هيئة فنية خاصة Fuel Research Board لبحث جميع مشكلات الوقود سواء منها العامة او ما يخص كل مصنع بذاته ، كما انشئت هيئة تقوم على تنظيم شبكة كهربائية تشمل البلاد وتغذى من مختلف محطات التوليد لمصلحة المجموع .

كذلك كان شأن الولايات المتحدة الامريكية وهي كما تعلمون من أغنى بلاد الارض في مواد الوقود فهي تنتج ٦٠ في المائة من مجموع الفحم الحجري الذي ينتجهُ العالم ، كما تنتج ٧٠ في المائة من مجموع البترول ، ومع ذلك لم تترك الحبل على الغارب بل قامت الهيئات المختصة فيها بالبحث والدرس فأدى ذلك الى اقتصاد كبير في استهلاك الوقود بالتعديل والتبديل في تصميم قاطراتها وفي مولدات القوى ، كما عملت على التوسع في انتاج الكهرباء سواء من مساقط المياه طبيعية كانت او صناعية ومن محطات تدار بالوقود وربط بعضها ببعض في شبكة متصلة جامعة حتى يتفق الانتاج مع الاستهلاك في مختلف المناطق ولمختلف الاغراض . وقد أدت هذه البحوث في بعض الاحيان الى اقتصاد نحو ثلث الوقود المستهلك .

وفي فرنسة كانت المصانع الكبرى هي البادئة في التفكير في شأن الاقتصاد في الوقود

فعمدت بحكم المنافسة الصناعية التي واجهتها من صناعات البلاد المجاورة الى دراسة الخطط التي يمكن اتباعها للاقتصاد في الوقود ثم اشتركت في ذلك تسندها الحكومة الفرنسية فأنشئت فيها هيئة سميت L'office centrale de chauffe rationelle كان من اجراءاتها : —

(١) انشاء مدرسة لتعليم المهندسين ورؤساء العمال وتدريبهم على خير وسائل استعمال الوقود

(٢) جمع المعلومات وإجراء البحوث لتكون هيئة على علم بكل تقدم في هذا الشأن في الخارج والداخل

(٣) إقامة معمل خاص لدراسة مختلف انواع الوقود وتحليلها والوقوف على خواصها

(٤) زيارة مختلف المصانع ونقد إجراءاتها وبذل النصح الفني لها

(٥) إقامة قسم للبحوث الصناعية لاجراء الاقتصاد في استعمال الوقود

وقد قامت هذه الهيئة بخدمات قيمة لمختلف الصناعات أدت في بعضها إلى اقتصاد من ١٠ إلى ٢٥ في المائة مما كانت تستهلكه من الوقود .

اما في المانيا فقد قضت معاهدة فرساي عقب الحرب العالمية الماضية باقتطاع منطقة السار الغنية منها مدى ١٥ سنة ، كما انتقلت الى بولونيا ملكية منطقة سيليزيا العليا ، كما انها تعهدت بموجب شروط هذه المعاهدة نفسها بتوريد مقادير كبيرة من الفحم إلى دول الحلفاء تعويضاً من تعويضات الحرب . كل ذلك جعل ما بقي لها من الفحم اقل من حاجتها لصناعاتها المختلفة فاقتضى منها محافظة على صناعاتها بذل جهود خاصة للاقتصاد في الوقود وتنظيم عملية توزيع القوى . وتكاتفت في ذلك الحكومة الالمانية والهيئات الصناعية فقامت الاولى بالاشراف الدقيق على انتاج الفحم وبتسعيره ، كما انشئت هيئة حكومية استشارية تمثل جميع المرافق التي يهمها أمر الوقود لتبادل الرأي ووضع التوزيع تحت اشراف هيئـة سميت State coal commision وكانت النتيجة اقتصاداً محسوساً في الاستهلاك للوقود اللازم للنقل والصناعة وهو ما يبلغ ٨٥ في المائة من مجموع الاستهلاك .

واهتمت المانيا بوجه خاص باختراع آلات قياس الحرارة ورصدها في مختلف أجزاء المصانع لحساب تكاليف الصناعة ونصيب الوقود فيها كما اجريت بحوث عديدة في الاستفادة من الفحم المطحون والغازات والابخرة المرتفعة الحرارة وتوليد الغاز المضغوط ونقله مسافات

بعيدة . وربما كان من أهم ما انتهت اليه المانيا في شأن تدبير القوى لصناعاتها ان اقامت شبكة كهربائية شملت البلاد جميعاً من الشمال للجنوب تغذيها مولدات على أساس الوقود في الشمال ومولدات من مساقط المياه في الجنوب ، فكان لذلك أثره المحسوس في انماء الصناعات الالمانية رغم نقص الوقود كما قدمنا

وهكذا كان الحال في سائر البلاد الصناعية كروسيا وهولندا وبلجيكا والسويد برغم انها جميعاً من البلاد التي لا تفتقر لمواد الوقود ووسائل توليد القوى .

## الوقود في مصر

والآن لنلق نظرة سريعة على الحال في مصر وموارد الوقود التي في متناول أيدينا

اولاً — المواد النباتية — لم تسعدنا الطبيعة بغابات ولا يساعد الجو والمناخ عندنا على انمائها صناعيًّا الى الحد الذي يمكننا معهُ الاعتماد على الخشب كمادة من مواد الوقود . ومن دواعي الاسف اننا رغم خلو بلادنا من الغابات فان ظروف كل حرب تعصف بنا تضطرنا الى تقطيع القليل مما عندنا من أشجار فلا نعمل جديًّا في انمائها حتى كادت البلاد تقفر من الاشجار وكان الاولى بنا ان نتبع نظاماً يقضي بان يلزم كل من يقطع شجرة ان يزرع بدلاً منها خمساً مثلاً ، وهذا على كل حال ليس موضوع بحثنا اليوم. ومهما يكن عندنا من الاشجار فهناك وسائل أخرى للافادة منها غير حرقها

أما المواد النباتية التي نعنيها فهي حطب القطن وعيدان الذرة وقوالحه وقش الأرز والتبن وغيرها وكلها من المواد التي نعمد في أكثر الاحيان الى حرقها

ولا جدال في ان مقادير هذه المخلفات الزراعية التي تنتجها البلاد سنويًّا لا يستهان بها فاذا قدرنا اننا في الأوقات العادية نزرع نحو مليون فدان ونصف مليون من القطن تنتج من حطب القطن نحو مليون طن ونصف مليون من الحطب ( وهو أقل في الوقت الحاضر بسبب تحديد الزراعة الى ٧٠٠ الف فدان ومثلها أطنان من الحطب ) فان هذه المقادير على فرض حرقها حرقاً صحيحاً في أفران فنية يمكن أن تقوم مقام ٤٠٠ الف طن من الفحم أو ٣٠٠ الف طن من المازوت . أي انحريق حطب القطن يوفر علينا من مواد الحريق ما قيمته في الأوقات العادية حوالي ٦٠٠ الف جنيه من الوقود .

على ان هذا الحطب نفسه لو عولج في جهازات التقطير لامكن أن ينتج الطن الواحد منه :

٣٠٠ كيلو جرام من الفحم النباتي ( الفحم البلدي )
٥٠ « « القطران
٤٠ « « حامض الخليك
١٠ « « الكحول

فيمكننا بهذه الطريقة الانتفاع بثلث الكمية تقريباً وقوداً أصلح كثيراً من الحطب وفي الوقت نفسه الحصول على مواد أخرى هي القطران والحامض الخليك والكحول وهي مواد لها قيمتها في الكثير من الصناعات ولها فوق ذلك قيمة نقدية أضعاف أضعاف ما نفيده من حريق الحطب .

ولا شك انهُ من المتعذر تطبيق مثل هذه العملية على كل الحطب الناتج من زراعات القطن عندنا لتوزيعها في مساحات صغيرة على مناطق متباعدة تتطلب عمليات لنقل الحطب تودي بالفائدة المنتظرة منها ، على اننا لا نرى ما يحول دون قيام كبار الزراع والحكومة والشركات بإجراء شيء من هذا في زراعات القطن الواسعة جنياً للربح وخدمة للصناعة المصرية وتدعيماً للاقتصاد القومي .

أما فيما يختص بالمخلفات النباتية الأخرى كعيدان الذرة والقوالح والتبن فقد أرسل لي صديقي الدكتور عبد الرحمن بك الساوي عميد كلية الهندسة بحثاً فنيًّا في امكان الاستفادة منها في صناعة خشب صناعي يسمى mazoline نجحت تجارب صناعته في أمريكا وغيرها بتكاليف أقل من تكاليف الخشب العادي حيث لا توجد الغابات ، ولا شك ان هذه مسألة خليقة بالعناية خصوصاً ونحن نستورد من الخشب الخام والمصنوع سنويًّا في الظروف العادية ما لا تقل قيمته عن مليونين من الجنيهات حبذا الحال لو امكننا توفير جزء منها بصناعة هذا الخشب الصناعي . وقد ذكر الدكتور الساوي بك ان هذه الصناعة بسيطة في وسائلها ولا تحتاج هذه المواد النباتية إلاَّ إلى نسبة قليلة من القلفونية ( نوع من الصمغ ) وكبريتات الألومنيوم وهي مواد رخيصة الثمن يسهل الحصول عليها .

وأما قش الأرز فقد وفقوا الى الاستفادة منهُ في صناعة الورق ، ونرجو أن يتسع نطاق هذه الصناعة فنفيد منهُ أضعاف الفائدة التي ننالها من حرقه وقوداً .

وأما الكسب وهو المادة المتخلفة من عصر بذرة القطن فهي أيضاً من المواد التي تستعمل الآن للحريق بديلاً من الفحم . وفي استعمالها وقوداً ضياع لمادة من أهم المواد

الصالحة لتغذية المواشي ، وخير لنا ولاقتصادنا الزراعي استعمالها لهذا الغرض الهام بدلاً من حرقها .

وهناك روث الماشية نفقد بحرقه ما نحن في أشد حاجة اليه في تسميد الزراعات

من كل ما تقدم ترون حضراتكم ان هذه المخلفات الزراعية جميعاً وان كانت تسد جزءاً من حاجتنا من الوقود إلاَّ أن لها من الاحتمالات الصناعية الأخرى ما يستحق العناية لنستفيد منها أضعاف ما نفيده منها كمادة من مواد الوقود

* * *

ثانياً — الفحم الحجري — برغم افتقار البلاد افتقاراً كليًّا للفحم الحجري وبرغم ان البحوث الجيولوجية قد دلت على ان لا أمل لنا في العثور على أية كميات من الفحم ، برغم ذلك اعتمدت صناعاتنا ومرافقنا العامة وحتى شئوننا المنزلية الى وقت قريب على الفحم حتى بلغ المستورد منهُ من الخارج قبيل الحرب الحالية نحو ١٫٥ مليون طن ونصف في كل عام قيمتها إذ ذاك حوالي مليونين من الجنيهات .

وبرغم ان البترول قد كشف في مصر منذ أواخر القرن الماضي وبلغ انتاجه حدًّا كبيراً عقب الحرب الماضية مباشرة فقد بقي اعتماد صناعاتنا ومرافقنا العامة على الفحم ، واستمر الحال سنين طويلة على أساس استيراد الفحم وتصدير جزء كبير من انتاجنا من البترول .

ولا شك ان لهذا التصرف من جانبنا أسباباً قد يكون منها رخص ثمن الفحم في الظروف العادية بالنسبة لسعر البترول ووجود آلات تحرق الفحم لم يكن من الممكن استهلاكها سريعاً واعتياد مهندسينا ورؤساء العمال في مصانعنا حرق الفحم دون غيره من المواد وغير ذلك من الأسباب ، على اننا لا نرى ان هذه الأسباب مهما تكن قوتها كافية لأن نترك الحبل على الغارب فلا نبحث الأمر لنصل الى قرار : هل تبقى بلادنا من بلاد استهلاك الفحم أو تتحول ولو تدريجيًّا الى حرق البترول .

وحتى مع استمرارنا في الاعتماد على الفحم المستورد لم نر لا من جانب الحكومة ولا من جانب الصناعات إلاَّ مجهودات فردية غرضها تحسين طريقة حرق الفحم وزيادة الاستفادة منه باحدى الوسائل التي نوهنا بها عند الاشارة الى ما تجريه البلاد الصناعية الكبرى في شأن الاقتصاد في الوقود .

فقليل من المصانع لجأت الى استعمال الفحم المطحون أو تراب الفحم وأقل منها تستعمل

قوالب الفحم المضغوط ، كما انه لم تفكر أية هيئة صناعية في علاج الفحم لاستنباط مواد النوشادر والقطران والغاز والاكتفاء بالكوك الناتج وقوداً . ولو اجريت هذه العملية ولو على جزء من الفحم المستورد لأفدنا منهُ فائدة كبيرة . وقد يكون هذا النقص راجعاً الى أن مستهلكي الفحم على العموم لا يبلغ استهلاك كل واحد منهم الحد الذي يسمح بهذا التقطير كما ان بعض المستهلكين كالسكك الحديدية مثلاً لا تستطيع الاكتفاء بالكوك بل هي في حاجة الى أن تحرق الفحم بكامل عناصره لتحصل على حرارة كاملة منهُ . على اننا ما زلنا نعتقد انه لو تولت الحكومة مثلاً أمر استيراد الفحم وعلاجه ولو اقتصر العلاج على بعضه، والافادة من محتوياته، ثم بيع الكوك لمن يكفيهم الكوك وقوداً ، لأفادت الصناعة في مصر كثيراً من هذه الناحية .

والآن وقد قضت حالة الحرب الحالية بنقص الوارد من الفحم الى أقل من النصف فقد اضطرب حال الصناعات التي كانت تعتمد عليه فلجأت الى حلول مؤقتة غير اقتصادية من حرق الحطب أو الكسب أو تحويل المراجل الى حرق المازوت ، وتحملت في ذلك متاعب ونفقات لا نعلم مصيرها عند ما تعود الظروف سيرتها الأولى بعد نهاية الحرب .

* * *

ثالثاً — البترول — أما البترول فلا جدال في انهُ الوقود الطبيعي لهذه البلاد والذي يجب أن نبني على أساسه «سياستنا الوقودية» حالاً ومستقبلاً . ذلك ان الكشف عن البترول يرجع الى أواخر القرن الماضي ثم توالى اكتشاف حقول جمسا ثم الغردقة قبل الحرب العالمية الماضية ثم حقل غارب على الشاطئ الغربي لخليج السويس قبل الحرب الحالية . وقد كان لاكتشاف هذين الحقلين الأخيرين قيمة في تجنيب هذه البلاد شر مجاعة الوقود في ظروف الحرب الماضية ثم الحرب الحالية . وأظننا نلمس جميعاً ان الحرمان وزيادة السعر لم يبلغا في شأن البترول ومنتجاته ما بلغه الحال في سائر السلع والمواد الأخرى ، وما ذلك إلاّ لأن الجزء الأكبر من استهلاكنا من المواد البترولية ناتج في البلاد، ولسنا بحاجة إلاَّ لاستيراد بعض الأصناف مما لا ننتج القدر الكافي منه .

وهذه مقارنة بسيطة بين ما كان عليه الحال من الانتاج والاستهلاك عام ١٩٣٨ وما صار اليه عام ١٩٤٢ والأثر الذي جنيناه من اكتشاف حقل رأس غارب .

فمجموع الناتج من الخام عام ١٩٣٨ كان ٢٢٣٦٢١ طنّاً وفي عام ١٩٤٢ بلغ ١١١٦٥٧٦ طنّاً ، وقد تولت معامل التكرير بالسويس تقطير هذه الخامات وتكرير منتجاتها فكان إنتاجها : —

| | ١٩٣٨ | ١٩٤٢ |
|---|---|---|
| | طن | طن |
| بنزين | ٩٥١٥١ | ١٦٤١٨٦ |
| كيروسين | ١٧٦٣٦ | ٥٧٩٣٥ |
| سولار وديزل | ٣٦٠١٧ | ٥٨٣٢٧ |
| مازوت للحريق | ١٣١٧١٦ | ٥٧٢٥٢٩ |
| أسفلت | ١٣٧١٧٦ | ١٤٨٣٦٦ |
| | ٤١٧٦٩٦ | ١٠٠١٣٤٣ |

ويلاحظ أن مجموع الناتج من معامل التكرير عام ١٩٣٨ يزيد كثيراً عن انتاج الخام من الحقول المصرية . وهذه الزيادة ناتجة من خامات أجنبية استورد أغلبها من إيران والخليج الفارسي وعولج في المعامل المحلية

أما الاستهلاك المحلي في هاتين السنتين فكان كما يأتي ، ولا يدخل فيه استهلاك القوات المحاربة والكميات المصدرة مما زاد عن حاجة الاستهلاك المحلي :

| | ١٩٣٨ | ١٩٤٢ |
|---|---|---|
| | طن | طن |
| بنزين | ٩٦٢٢٥ | ١٠٥٥١٠ |
| كيروسين | ٣١٤٧٣٤ | ٢٧١٩٢٧ |
| سولار وديزل | ٢١٥١٣٤ | ٢١٩٢٦٨ |
| مازوت للحريق | ٥٧٣٤٩ | ٥٣٥٤٢٢ |
| أسفلت | ٢٩٢١٨ | ١١٧٨٢ |
| المجموع | ٧١٢٦٦٠ | ١١٤٣٩٠٩ |

ويتضح من هذه الأرقام أنهُ في عام ١٩٣٨ كان الناتج محليًّا في مجموعه نصف المستهلك وقد كمّل الفرق بالاستيراد خصوصاً في مادة الكيروسين حيث لم تنتج سوى جزء قليل من حاجتنا ، وكذلك في مادتي الديزل والسولار حيث لم يزد الناتج محليًّا عن ١/٦ المستهلك . أما في البنزين فقد تعادل الناتج والمستهلك ، وفي المازوت والأسفلت كان الناتج أضعاف المستهلك فصدرت مقادير كبيرة منهما، والعجيب أنهُ بينما كانت البلاد تستورد مقادير كبيرة من الفحم كانت تصدر للخارج كميات لا يستهان بها من المازوت ، ولو أحكمنا سياسة البلاد الوقودية لاحتفظت بها وأفادت منها

أما في عام ١٩٤٢ فقد زاد انتاج البنزين عن الاستهلاك وهذه الزيادة قد «امتصتها» طبعاً الجيوش المحاربة ، وفي الكيروسين ما زال انتاجنا أقل كثيراً من استهلاكنا، فاضطرنا الحال

الى استيراد مقادير كبيرة منهُ ، وقد سهلت الدولة الحليفة هذا العمل برغم حاجتها الملحة إلى بواخر نقل البترول ، فكانت خدمة تذكر بالشكر إذ حفظت للمستهلك المصري وهو عامة الشعب نسبة تقرب جدًّا من الاستهلاك الطبيعي الكامل ، فلم يطلب الى الجمهور المصري سوى اقتصاد بسيط ، وقد كان لتحديد الاضاءة والعمل بالتوقيت الصيفي أثرهما الحميد في تحقيق هذا التخفيض البسيط

أما السولار والديزل فلم يزد رقم الاستهلاك فيهما عام ١٩٤٢ إلاَّ قليلاً ، وذلك بسبب انقطاع ورود ماكينات الديزل من الخارج . وعلى العموم ما زال انتاجنا منها أقل كثيراً من المستهلك . وزيادة الانتاج تقتضي اضافات وتعديلات في جهازات المعامل ليس البحث الحالي موضع الكلام فيها .

وأما المازوت فقد بلغ المستهلك منهُ عام ١٩٤٢ عشرة امثال المستهلك عام ١٩٣٨ فأصبحنا الآن نستهلك كل الناتج المحلي منهُ ، ولو كان في مقدورنا انتاج مقادير أكبر وكانت وسائل النقل أكثر كفاية مما هي الآن لزاد الاستهلاك كثيراً .

وقد كان السبب المباشر لهذه الزيادة التحويل الذى لجأت اليه السكك الحديدية والصناعات الكبرى في قاطراتها ومراجلها فجعلتها تحرق المازوت بدلاً من الفحم .

| | | |
|---|---|---|
| وقد استهلكت السكك الحديدية | ١٦٠٠٠٠ | طن مازوت عام ١٩٤٢ |
| وعمليات المياه والانارة | ١٢٠٠٠٠ | » |
| وصناعة الاسمنت | ٦٤٠٠٠ | » |
| وصناعة الغزل والنسج | ٤٥٠٠٠ | » |
| ومصانع السكر | ٤٣٠٠٠ | » |
| ومصانع الزيوت والصابون | ٢٢٠٠٠ | » |
| وطلمبات الري والصرف | ١٠٠٠٠ | » |
| والحليج | ٥٠٠٠ | » |
| والطحن | ٥٠٠٠ | » |
| وصناعة الخزف والفخار | ٤٠٠٠ | » |
| وصناعة الزجاج | ٣٠٠٠ | » |

فما تقدم ترون مقدار اعتماد المرافق الصناعية على وقود البترول الآن، وربما استمر هذا الاعتماد بعد زوال حالة الحرب، وهذا طبيعي خصوصاً وان مصر الى جانب أنها من البلاد التي تنتج البترول هي من الناحية الجغرافية وسط بقعة بترولية هامة ، فإنتاج العراق الهائل من البترول متصل بالبحر المتوسط بخط من الانابيب يصل حقولها بمعامل هامة في حيفا، ولن يتعذر على مصر استكمال حاجتها منها ، كذلك انتاج الخليج الفارسي وايران يصل

الى مصر بالبواخر الناقلة للبترول . وها نحن أولاء نشهد المناقشة في مشروع اميركي ضخم لايصال هذا البترول من خليج ايران الى البحر المتوسط بخط من الانابيب يزيد في سهولة حصولنا على حاجتنا منهُ، على اننا لاستكمال الفائدة من هذا الوضع الجغرافي يجب علينا (وهنا أقصد الحكومة بوجه خاص ) ان نعمل من جانبنا على تسهيل عمليات تقطير وتكرير الخامات البترولية سواء منها الناتج محليًّا أو المستورد من الخارج ثمَّ على تسهيل نقل المواد وتوزيعها داخل البلاد وذلك بتسهيل مدّ الانابيب لتتصل مناطق الانتاج والموانئ بداخل البلاد. ولو اتبعت هذه السياسة في الماضي لجنبت البلاد بعض ما تعانيهِ الآن من صعوبة الحصول على بعض حاجتها من المواد البترولية .

• • •

الكهرباء — إلى هنا ينتهي بنا الكلام في الوقود . على أن الجزء الأكبر منهُ لا يطلب لذاته بل لكونه وسيلة لتوليد القوى ، ولهذا فمشكلة الوقود يجب أن تعالج جنباً لجنب مع مشكلة توليد القوى وتوزيعها . والنظام الذي تسير عليه الآن هو أن تنفرد كل صناعة بتوليد القوى اللازمة لحركاتها بوسائلها الخاصة، على أن البحوث والتجارب قد هدت الأمم الصناعية الكبرى إلى ضرورة التوحيد بقدر المستطاع . وقد رأينا أنهُ في المانيا أنشئت شبكة كهربائية انتشرت في أوربا الوسطى من الشمال إلى الجنوب وهذه الشبكة تغذي جميع المصانع والمرافق العامة والخاصة بحاجتها من تيار كهربائي رخيص ، وبذلك أمكنها أن تنهض بصناعاتها من كبوتها عقب الحرب الماضية. كذلك الحالة في الولايات المتحدة الأميركية وفي انكلترة. ولا يبدر إلى الذهن أن أمثال هذه الشبكات الكهربائية لا تقوم إلاَّ على التوليد من مساقط المياه بل في جميع هذه البلاد كان نصيب مساقط المياه في عمليات توليد الكهرباء أقل كثيراً من نصيب المحطات التي تولد القوى بالوقود . ففي الولايات المتحدة مثلاً لا تزيد نسبة الكهرباء المولدة من مساقط المياه عن خمسة في المائة أو عشرة من المجموع ، لذلك لا نرى ما يدعو إلى الاعتقاد بأننا لا نستطيع اتباع مثل هذه الخطة لعدم كفاية مساقط المياه عندنا .

وقد نجحت فعلا هذه الفكرة، فكرة توليد الكهرباء بمحطات تدار بالفحم أو المازوت في الشبكة الكهربائية التي أقامتها الحكومة في شمال الدلتا لادارة محطات الصرف التي كان لها أكبر الأثر في احياء مناطق زراعية شاسعة .

لذلك ندعو إلى بحث هذا الموضوع فيما يختص بجميع أنحاء القطر المصري على أساس الاستفادة الكاملة من جميع مساقط المياه سواء منها المساقط الصناعية كخزان اسوان وقناطر

اسنا ونجع حمادي وأسيوط والمساقط الطبيعية في الفيوم وحتى مشروع منخفض القطارة ثم ربط هذه بمحطات للوقود تقام في المواقع التي توافق طلبات الاستهلاك وبدون أن نغفل أية محطات خاصة لتوليد الكهرباء قائمة في الوقت الحالي لخدمة مختلف المصانع الموزعة في القطر كله . فاذا أمكن ربط هذه المحطات جميعاً في شبكة واحدة تحمل الكهرباء اللازمة لكفاية صناعاتنا ووسائل نقلنا وحتى للطلبات المنزلية، على أن تكون إدارتها والتوزيع فيها تحت رقابة مشتركة واحدة، فلا شك أن يكون في ذلك خير وسيلة نلجأ اليها لحسن توزيع القوى الرخيصة لمصلحة جميع الصناعات .

الخلاصة والمقترحات : والآن وقد لمسنا مواطن الضعف نرى ان العلاج يجب أن يكون ذا شقين : علاج الحال كما هو الآن اي الاقتصاد فيما نستعمله من وقود واتباع خير الوسائل لاستعماله استعمالاً اقتصاديًا كاملاً . والشق الثاني وضع سياسة مستقبلة لتوحيد توليد القوى وتوزيعها .

وهذا يتطلب ان تدعو الحكومة هيئة فنية تمثل فيها جميع الهيئات حكومية وأهلية لاجراء بحوث فنية مستفيضة ولتتقدم للحكومة باقتراحاتها . على ان يكون من أخص الموضوعات التي تتناولها بالبحث :

(١) خير وسيلة للتصرف في مخلفات الزراعة حتى لاتفوتنا فوائد أهم من مجرد الحريق

(٢) البت في سياسة استعمال الفحم الحجري ، هل يجب الاستمرار فيها ، ولأي مدى نستعمله، وهل يعالج قبل استعماله واستنباط المواد الكيمائية التي يحتويها قبل حريقه

(٣) البترول واحتمالات وجود مقادير أخرى منهُ ووسائل تشجيع البحث عنهُ وانتاجه وتكريره ثم توزيعه

(٤) مسألة اقامة شبكة كهربائية عامة لتوزيع القوى .

(٥) مدى ما يمكن الزراع الاستفادة به من نشر الكهرباء في مختلف النواحي

ونرى أن تقيم هذه الهيئة أو تقيم الحكومة نفسها ادارة فنية خاصة للقيام بالبحوث الفنية المتعلقة بالوقود وزيارة المصانع وتقديم النصح والارشاد لمن هم في حاجة اليه وتنظيم العمال والمهندسين وتدريبهم على خير وسائل الاستفادة من الوقود .

وغاية ما أرجو أن يلقى هذا النداء آذاناً صاغية فيعمل معالي وزير التجارة والصناعة على تحقيق أمل يجيش في صدور رجال الصناعة والزراعة . والله ولي التوفيق .

# الرؤساء الثلاثة

## — ١ —

## وشنطن : محرر أميركة

للدكتور نجيب الارمنازي

يتجلى ذلك العقد النظيم من رؤساء الولايات المتحدة بثلاثة رجال تفخر بهم الانسانية كلها لا الولايات المتحدة وحدها : وشنطن الذي يقترن اسمه بتحرير الولايات المتحدة وانشاء هذه الأمة الكبيرة . ولنكان الذي صان بلاده من خطر الانحلال والتفكك ، ومحا من جبينها وصمة العار التي ألصقها بها استعباد الانسان لأخيه الانسان . وولسن الذي سعى جاهداً لتكون سياسة الامم والشعوب قائمة على أساس أسمى من سلطان القوة والجبرية ، وأقدس من مصلحة الدولة وأرفع من اتخاذ الشعوب بعضها لبعض خدماً وعبيداً . هؤلاء الثلاثة الذين نشأوا في العالم الجديد بعيدين عن مزالق السياسة الأوربية ومنافسات الدول القديمة كانوا يريدون أن يعلوا شأن البشرية ويجلّوا كرامة الانسان .

كان وشنطن قائد الجيش الجمهوري في حرب التحرير وقد أجمع قومه على توليته هذه المهمة لأنهم وجدوا فيه الصفات التي يحتاجون اليها في قيادة حربهم ، فقد كان جنديًّا باسلاً يفوق نظراءه في الولايات المتحدة بكفايته العسكرية . وهو موضع إعجاب القوم بأخلاقه ومميزاته ، وبعد أن أطفئت نار الحرب ألقى اليه بنو قومه مقاليد الرئاسة ، فقام أحسن قيام بأعباء العمل السلمي الخطير . واذا لم يكن يعد من قادة التاريخ العظام ، ولا في الرعيل الاول من رجال الدولة وأقطاب السياسة ، ولا من كبار الخطباء الذين يستهوون النفوس بسحر بيانهم ، أو يستدعون الأبصار ببهاء طلعتهم ، فان لعظمته سرًّا يستقر في أشرف عاطفة ينطوي عليها قلب الانسان ، وهي احترام السمو الأخلاقي . وقد كان أول مجده وآخره انه وطني كبير ، جعلته الحرب والسياسة مؤسس دولة عظيمة ، فكان يزداد عظمة كلما ازدادت عظمة الأمة التي ترعرع فيها وشاطر في إقامة بنيانها ، وبذل في سبيل ذلك كل ما عرف به من صبر وصدق ووطنية وإخلاص . وقد ظلّ كتّاب التاريخ من مواطنيه

نحو مائة سنة يصفون مواقف بطولته ، ويغالون فيها ، غير ان القرن العشرين وما نشر فيه من فصول تاريخية نقادة ، عرى هيكل وشنطن من تلك الأساطير التي أحيط بها اسمه ، ونزع عنه ما خلع عليه عباد البطولة من الصفات التي تفوت ذرع الرجال . ولكنه لم يخسر شيئاً بالعودة الى الطبقة الانسانية ، بل زاد الاعجاب بهِ رجلاً قلما يتأثر بعوامل الضعف التي تصيب الناس عامة، ووطنيًّا تتقد في جوانحه جذوة الحماسة القومية والايمان القدسي بمستقبل بلاده ، ورئيساً بلغ ذروة المعالي وأسس لأمته تقاليد الدولة الناشئة وخلف لمعاصريه ومن جاء بعده مثلاً أعلى للمروءة وعنواناً للديمقراطية ومثالاً للشخصية الحرة . واذا لم تكن صفات وشنطن من تلك الصفات التي تضيء حيناً حتى يخطف بريقها الأبصار، ولا يدع أصحابها وراءهم في الغالب إلا معالم دارسة وأطلالاً بالية ، فان البنيان الذي أسسه لا يبرح ثابت الأركان

وقد لبث ثماني سنين في أثناء الحرب مسيطراً على السلطة المدنيـة من دون أن يجعل لنفسهِ من المزايا والحقوق ما لا تتقبلهُ الشرائع والقوانين ، فلهُ الفضل كلهُ في أن أميركة لم تحكم حكماً استبداديًّا . وله الفضل كله في انه قاتل بأيسر ما يكون من رغد مادي وعون أدبي خصماً قوي الشكيمة كثير العدة حتى نهكه وأعياه ، وقد اصبحت بلاده مدينة له بوجودها ولكنه لم يكن يمن عليها ، ولم يركب من الغرور بما احرزه من النصر المؤزر في حروبها ، ولم يشأ أن يعجل بالوقت الذي يتولى فيه التبعات العظمى حتى انقادت له الأمور وأجمع مواطنوه على أن يكلوا اليه قيادة الجمهورية في خطواتها الأولى ، فأجاب الى تحمل هذه المهمة في السلم كما تحمل مهمات الحرب، وحقق بعمله ما كان يظن الفلاسفة المجددون انهُ يتعذر في بلاد عظيمة، وهو انشاء الحكم الجمهوري، فأصبح الشعب يحكم نفسه بما يسمونهُ سلطان الأمة ، ولكن الصفوة المختارة هي التي تحكمه بحزم وقوة . وقد استولى وشنطن على الحكم والسيادة واستعان على أعنة سائر الأمور بأولي القدرة والكفاية، وابقى للحكومات الشعبية القـادمة تقاليد السيد الرئيس الذي يطبق في حـكم الجمهورية قول منتسكيو : « إن الفضيلة هي قوة الحكم الجمهوري »

• • •

وكان وشنطن في جميع أعماله شريف الغاية ، بعيد النظر ، عظيم الجرأة ، نافذ الكلمة ، ظاهر الوقار ، صادق الحس ، كأنهُ ينظر بلحظ الغيب ، شديد النضال في سبيل ما يعتقد انهُ حق ، متجافياً عن كل بواعث الأثرة ، لم يعرف انهُ ارتـكب خطأً كبيراً في ادوار

الحرب أو في سياسة الدولة . وكان في رئاسته لا ترقى اليهِ مطامع الاحزاب ومطامح الزعماء كالصخرة العظيمة التي تزل عنها الاهواء . وكان أميل الى مناهج المحافظين ، ولكن بأسمى ما في هذه الكلمة من معنى لاجل المحافظة على الجمهورية الجديدة وحمايتها، وكأنهُ خلق كما أريد أن يكون للعمل الذي قدر له القيام بهِ ، فلو كان أكثر عبقرية لأمكن ان يسرف في سلطته ولو كان اكثر ضعفاً لما استطاع النجاح في مهمته ، ولوكانت له براعة نابليون وأطماعه لأنشأ حكماً عسكريّاً أو سلطة مستبدة،ولوكانت مواهبه ضئيلة لكان يشك في أن تنال الولايات المتحدة استقلالها ، لقد كان الرجل الذي يتطلبه الزمن ، وقد أدى للانسانية أجل الخدمات فقدرت له صنيعه جميع العصور وجميع الشعوب ، حتى قال فيه المؤرخ الانكليزي غرين : لا يوجد رجل أكثر منه نبلاً بين الذين كان لهم مثل موطاقفه في حياة وطنية ، وإذا كان مظهره الخارجي لا يدل على ما تنطوي عليه جوانحه من عظمة نفس ، فانهُ وراء قناعه ناصية من نواصي التاريخ القديم ذات العظمة السمحة التي هي فوق الأهواء الثائرة والعواطف المتأججة . وكان الرجال يتوجهون اليه بقلوبهم ويمجدونه تمجيداً لم تذهب ذكراه، وسيبقى عزيزاً في عيون الذين يحبون حقوق الانسان ويقدسون حريانه .

***

وقد عقد النية على التخلي عن الرئاسة لما انتهت مدته الثانية ، ولم يكن ذلك رغبة منهُ في إحداث تقليد متبع ( أي ان لا يجدد الرئيس مرة ثانية ) ، ولكنهُ أصابهُ السأم من الحياة السياسية ومعالجة الشؤون العامة ، وهو يريد أن يقضي مراحل حياته الأخيرة في الرياض والخمائل والغابات، غير أن هنالك على ما يظهر سبباً آخر، وهو حملات الصحف المعارضة التي ضاق بها ذرعه ، وكان يشكو مرّ الشكوى من قلة الاخلاص للخير العام ، ومن تخلف المواطنين عن الطاعة ورقابة النظام ومن استشراء المطامع وتناسي الآلام التي قاساها رجال في سبيل الوطن من الذين لم يكونوا يجدون قوتاً يكفيهم ولا كساءً يسترهم . ولو أراد أن ينتخب مرة ثالثة لكان له ذلك ولكن ليس باجماع المرتين السالفتين ، وقد أدركته المنية بعد ثلاث سنوات من تخليه ، وكان في مرضه الذي مات به كما كان في حياته كلها جلداً صبوراً لا يتململ ولا يتشكى ، برغم ما يعانيه من البرحاء ، وقد انقضت مائة وأربعون سنة ونيف على وفاته ولم ينل أميركي ما ناله من حب الأمة واجلالها ، على أن منزلته في بلاده قد أصابها مايصيب عادة جميع رجال السياسة من الانصراف عنهم قليلاً أو كثيراً ، ولكنهُ ما زال يجري لمستقرٍ له في ضوء باهر لمعانه ، لا تستطيع الأيام أن تضعفه أو تخفف منه ، وقد

كان فيه جفاء وترفع وحدة تغلب أحياناً على أناته حتى لا يملك نفسه ، ولم يعرف عنه أنه ضحك ضحكاً عالياً أو أظهر سروراً وجذلاً إلاَّ مرات معدودات ، وإذا لم يكن يدّعي حب الجماهير ، فانه على ما فيه من حشمة وانقباض ، كان رقيق القلب كريم الهزة حفيّاً بالناس رءوفاً بهم وماسوّدته أمته ولا أحبته لرقة جانبه ولطف حديثه، ولكن لما تميز به من الاخلاص لواجبه وغايته النبيلة المجردة التي جعلته فوق الأشباه والنظراء ، وقد تمثلت في نفسه حقوق الانسان التي سبقت الولايات المتحدة الثورة الفرنسية إلى إعلانها فأضافتها الى قواعد استقلالها ، وقررت ان الرجال مستقلون بطبيعتهم ، متمتعون بحقوق لا يستطيعون التنازل عنها ، والحكومات مؤسسة لضمان هذه الحقوق ، وسلطتها مستمدة من المحكومين .

ولم يقتصر عمل وشنطن على تحرير بلاده ، بل ان القواعد التي دعا اليها تجاوزت حدود الولايات المتحدة وتجاوبت بها أرجاء أميركة اللاتينية ، فنهضت تحل من عقالها وتنزع ربقة الأسر عن رقابها ، وفي خطبة الوداع التي ألقاها أكد حياد بلاده وحماية نصف الكرة الأرضية من العدوان والاستعمار ، وقد نهأ الرؤساء من بعده على تقاليده في استنكار المحالفات الخطرة والدفاع عن استقلال الدول الاميركية ، الى أن وضعت نظرية مونرو الشهيرة التي كانت بياناً خاطبت به الولايات المتحدة أوربة الحريصة على الاستعمار حتى لا تطمع في غير ما هي فيه من الأرجاء ، وحتى تعلم ان القارة الاميركية ليست أرض استعمار ، وكل محاولة من أوربة لبسط سلطانها فيها أو لقهر الدول اللاتينية التي أعلنت استقلالها تعده الولايات المتحدة خطراً على سلامتها وأمانها وعدواناً عليها، وكما ان الولايات المتحدة قررت عدم تدخل أوربة في شؤون أميركة ما عدا المناطق التي كانت أوربة يومئذٍ مسيطرة عليها ، كذلك لا تتدخل أميركة في شؤون أوربة . ولكن موقف أميركة — كما قال المستر هيوز سكرتير الدولة السابق ورئيس المجلس الأعلى — كان موقف استقلال لاموقف اعتزال، وهي لا تريد الاشتراك في المناضلات السياسية الأوربية ، ولكنها لا تأبى أن تجيب كل نداء إلى الواجب الذي تعتقد به ، من غير أن تكون مجبرة على ذلك أو داخلة في تحالف ، وهي لا تقف إلاّ في صف الشعوب التي تضاهيها في مثلها العليا وفي غاياتها العامة التي ترمي الى تعزيز الروابط الاقتصادية والعلاقات التجارية وحماية المصالح المشتركة العادلة والمحافظة على السلام في العالم

# استغلال المياه الجوفية

## في مصر

ليوسف فارس

---

تسري المياه الجوفية في باطن الأراضي على مدى وادي النيل مختلفة أعماقها باختلاف الطبقات الجيولوجية التي تخترقها ، ثم تذهب سدى في البحر المتوسط بطريق مباشر أو غير مباشر ، إلاّ ما نرفعه منها أو نحجزه للاستفادة به .

ويبدو من الآبار المحتفرة المستغلة مياهها ان المياه الجوفية موفورة ، غير أنها تتأثر الى حدٍّ ما في الزيادة والنقصان بفيضان النيل و « تحاريقه » . وكذلك دلت التجربة على ان هذه المياه صالحة للري والشرب إلاَّ في المناطق الشمالية من الدلتا .

ولا ينبغي لنا أن نهمل هذا الخزان الطبيعي العظيم ، فيفلت منا تحت أقدامنا ويمشي في غمار البحر ، على حين اننا نبذل الجهد كله في البحث عن كميات من المياه السطحية ، وفي أعمال التخزين البعيدة أو القريبة ، وما يتبع ذلك من تقوية القناطر وغيرها . ولا سيما اننا في شأن تلك المياه الجوفية مطلقي الأيدي أحرار التصرف ، لا سبيل علينا لأحد في الانتفاع بها ، كما هو الواقع في المياه السطحية التي تقطع في طريقها الينا بلاداً أجنبية ربما لا يكون لنا عليها سلطان .

ونحن نحمد لوزارة الأشغال المصرية ما تبذله من مجهود في « الواحات » لاستنباط المياه من أعماق سحيقة لري مساحات ضيقة قابلة للزراعة . وهي مياه ارتوازية ، بالمعنى العلمي الصحيح ، ولا توجد في القطر المصري — على ما نعلم — إلاَّ في « الواحات » . وهي غير المياه الجوفية التي نعقد لها هذا البحث — فمن باب أولى يجب على الحكومة أن تبذل مثل هذا المجهود بل أضعافه في أرض الوادي الخصبة لاحياء زروع قد يصيبها الظمأ في فترات من السنة .

ولا يمنع الانتفاع بهذه المياه خلوها من الغرين الغني بالمواد الغذائية للنبات ، واحتمال احتوائها على قليل من أثر عناصر معدنية غير مرغوب فيها ، لأننا لا ننادي باستعمال هذه المياه طوال السنة . ولكننا نقول باتخاذها لسقية النبات العليل في أوقات حرجة من حياته ، وذلك في دور النبت أو النضج ، وهما دوران إذا أدركهما عارض كالظمأ تأثر بسببه محصول الزرع تأثراً يضر بانتاجه ، وكثيراً ما تقصر المياه السطحية في الوفاء بهذه السقيات الضرورية في الأوقات الحرجة

ونحن لم ننس بعد ما خسرته البلاد من محصول الأرز سنة ١٩٤٣ لقلة المختزن من المياه وتأخر الفيضان . وفيما يلي هذا جدول يوازن بين محصولي الارز سنة ١٩٤٢ وسنة ١٩٤٣

| المديريات | الأرز | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|
| | عام ١٩٤٢ | | | عام ١٩٤٣ | | |
| | المساحة | متوسط محصول الفدان | المحصول | المساحة | متوسط محصول الفدان | المحصول |
| | ف | ض | ض | ف | ض | ض |
| البحيرة | ٦٧٩٤٤ | ١ر٣٣ | ١٠٢٣٣٦ | ١٢٣٠٧٩ | ١ر٠٩ | ١٢٤٢٣٨ |
| الغربية | ١٧١٥٨٧ | ١ر٢٨ | ٢١٩٦٣١ | ٢٥١١٦٢ | ١ر٠٢ | ٢٥٥٤٦٨ |
| الدقهلية | ١٢١٦٣٩ | ١ر٤٣ | ١٧٣٩٤٤ | ١٦٢١٧٠ | ١ر٢٧ | ٢٠٦٣٧٦ |
| الشرقية | ٥١٣٧٠ | ١ر٦٣ | ٨٣٧٣٣ | ٧٩٨٣٣ | ١ر٢٠ | ٩٥٩٤١ |
| | ٤١٢٥٤٠ | ١ر٤٤ | ٥٧٩٦٤٤ | ٦١٦٢٤٤ | ١ر١٢ | ٦٩٢٠٢٣ |

ومن هذا الجدول يتضح لنا ان محصول الارز نقص بمقدار ثلث الضريبة للفدان الواحد فأصبح النقص في المساحة العامة نحواً من مائتي الف ضريبة ، وقيمتها على وجه التقريب ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وفوق هذا الاحصاء عشرات آلاف من الفدادين بذرت أرزاً ، ثم اهلك العطش نبتها ، فحولت لزرع محصول آخر . وهذا كله غير ما أصاب محصولي القطن والذرة الشامية من جراء تأخر الفيضان وقلة المياه المختزنة ، مما أدى الى نقص كبير في هذين المحصولين يعلمه اهل الزراعة على مضض . فلو كان هناك عامل مساعد للحصول على مياه تسعف النبات الظامئ لما ألمت بأهل البلاد تلك الخسارة البالغة .

## المشروع

ليس موضوع المياه الجوفية حديث العهد بالبحث ، فقد طمحت الانظار الى دراسته في فترات شتى ، منها ما كان ايام الحملة الفرنسية ، اذ عنيت بدرسه إحدى بعثات نابليون الهندسية . ومنها ما قام به « اوديو بك » وغيره من الباحثين ذوي الاختصاص .

ولكن الموضوع لم يستوف بحثاً ودراسة بعد . ولعلّ خطره والرغبة في تنظيم استثماره يدعوان الى تأليف لجان من أهل الاختصاص يدرسون تلك المياه الجوفية في مختلف مناطق القطر ، وذلك ليتعرفوا نوعها وعمقها وكمها وسرعتها فيتخذوا كل هذا أساساً للسير بالمشروع الى غايته المأمولة .

ومن جملة ما يحسن بهذه اللجان أن تنظر فيه مراجعة الخط الذي رسمه المهندس ولككس لما حاول الفحص عن الخط الذي يحدّ امتزاج المياه الجوفية العذبة بالمياه الجوفية الملحة ، مع العلم بأن خط ولككس يمر ببعض بلاد الدلتا ، وهو يكاد ينطبق على خط المنسوب المعروف في المصطلح الهندسي بـ ( كنتور خمسة ) .

ومن نتائج تنفيذ المشروع المبسط بعد هذا الكلام ، ينتظر أن يعدّل خط ولككس وفقاً لما يحدثهُ رفع المياه .

## تنفيذ المشروع

نرى أن تكون القاعدة التي يجري عليها تنفيذ المشروع على النحو الآتي :

اولاً — إنشاء شبكة لمحطات طلمبات توضع قبلي كنتور — ٥ — او في الخط الذي تحدده اللجنة ، لتصب مياهها في ترع شمال الدلتا الواقعة شماليّ هذا الخط ، لكي تغذي المناطق القائمة في نهايتها ، وهي المناطق التي تعاني مصاعب جمة في الري ، وبخاصة أيام « التحاريق » ويتعذر حفر آبار فردية فيها .

ثانياً — إنشاء مثل هذه المحطات في المناطق الأخرى من القطر ، مما يدرسهُ الفنيون وتتبين لهم فيه قيمة العون على استكمال ري الاراضي الواقعة في النهايات.

ولا ريب أن الأفضل في ادارة هذه المحطات التعويل على القوة الكهربية المولدة من مشروعي أسوان ومنخفض القطارة ، إلاّ أننا نرى ألاّ يبقى تنفيذ مشروعنا معلقاً على تنفيذ

هذين المشروعين ، وإنما نبادر الى تنفيذه بالطريقة التي يجدها الفنيون ملائمة ، منتهجين النظام الذي تمَّ بهِ مشروع طلمبات الصرف بشمالي الدلتا.

وفي اعتقادنا انهُ اذا قدرت ضريبة ابتدائية قدرها عشرة قروش على الفدان الواحد ، فانهُ يمكن الحصول على نصف مليون جنيه سنويًّا تستغل في الانفاق على تنفيذ هذا المشروع النافع.

## فوائد المشروع

قد يبدو أول وهلة ان المشروع عسير ، أو أن تنفيذه يكلفنا الثمن غالياً ، وذلك إذا لاحت لنا أُلفتنا للحصول على المياه السطحية وخزنها ومعرفتنا تكاليفها بعد الخزن ، ووازنّا بين هذه الألفة والمعرفة وبين ما يتطلبه استخراج المياه الجوفية من خبرة جديدة ومن جهود ونفقات لانشاء المحطات وادارتها في الفترات السنوية . ولكننا على الرغم من ذلك سنجمل فوائد هذا المشروع التي تفوق ما ينفق فيه ، وتحفز على استغلاله .

أولاً — من وجهة الري :

ا — تمكين المزروعات من رية في الجفاف وأخرى أيام « التحاريق » .

ب — التخفيف من شدة المناوبات الصيفية ، خصوصاً في نهايات الترع .

جـ — استنباط المياه من جوف الأرض يجففها كما هو الشأن في المصارف ، فيجود الزرع عامة والقطن خاصة ، إذ يساعد جفاف الأرض على تفتح اللوز تفتحاً مبكراً سليماً ، فيحسن محصول القطن وترتفع رتبته .

د — وضع سياسة مائية ثابتة للمناطق الأكثر صلاحية لزراعة الأرز ، فيعد الفلاح أرضه في الوقت المناسب ، ويتخلص من حالة الاضطراب والقلق في انتظار أنباء النيل واحتمالاته التي تصدر على أساسها تصريحات وزارة الاشغال المصرية .

ثانياً — من وجهة الزراعة :

زيادة حرارة المياه في الشتاء على حرارة مياه الترع تمنح الأرض دفئاً ، وكذلك انخفاض حرارة هذه المياه في الصيف عن المياه الساخنة في الترع يلطف حرارة الارض . وفي كلتا الحالتين ينمو النبات نموًّا طبيعيًّا ، فيتوافر محصوله .

ثالثاً — من وجهة الصحة :

ا — المياه الجوفية صحية بطبيعتها لخلوها من الجراثيم والغرين وغيرها ، فاتخاذها للشرب أصح للانسان والحيوان .

ب — قيام المحطات ييسر على الحكومة تنفيذ مشروعاتها الخاصة بامداد المدن المجاورة لهذه المحطات بالمياه الجوفية .

وسيؤدي ذلك الى امتناع الفلاح من شرب المياه الراكدة بالترع والمصارف ومنعه ماشيته من ذلك ، وبخاصة في فترة الجفاف ببعض المناطق.

رابعاً — من الوجهة الاجتماعية :

ا — يساعد المشروع على تفريج أزمة التعطل للعمال الفنيين الذين سيخلون من أعمالهم الحالية عقب انقضاء الحرب الدولية الحاضرة .

ب — ييسر المشروع أعمالاً جديدة دائمة لخريجي المدارس الفنية والصناعية،ويفسح للجامعيين أفقاً للتوسع في ميدان جديد .

خامساً — من وجهة الاقتصاد :

ا — زيادة الانتاج التي تتبعها زيادة الدخل .

ب — سلامة الماشية عموماً والأغنام والماعز خصوصاً ، فان كثيراً منها ينفق بسبب العطش في الصيف ولاسيما في مناطق شمالي الدلتا ، وستجد بفضل المياه الجوفية ما يدرأ عنها الهلاك بالعطش

ج — معروف ان الري الجوفي كان يكلف الأهلين قبل الحرب بين خمسة عشر قرشاً وخمسة وعشرين قرشاً للفدان الواحد في الرية الواحدة من الريات المساعدة في الصيف . ومن المفهوم ان هذا المشروع سيجعل تلك التكاليف اقل مما هي ، وبذلك تعم الفائدة الفلاحين سواء القادرون وغير القادرين على حفر آبار خاصة .

***

قال نوبار باشا : « إن المسألة المصرية هي المسألة المائية » .

ومما لا يتطرق اليه الريب ان استقلال البلاد يستند الى دعائمه الاقتصادية . وهذه الدعائم مرتبطة بمدى استقلالنا المائي . وحسبنا أن نستعيد في أذهاننا ذلك الشبح المخيف الذي هالنا يوم استولى بعض الدول على جزء من منابع النيل في الحبشة ، فان ذلك كفيل ان يدفعنا دفعاً الى تنفيذ هذا المشروع لنتمكن من الحصول على ما يعوزنا من مطالبنا المائية إذا ما قصر النيل لأي سبب من الأسباب عن الوفاء بهذه المطالب . وإذن نضع دعامة ركينة في أساس استقلال البلاد.

# المآصر في بلاد الروم والاسلام

— ٤ —

لميخائيل عوّاد

---

## ٢ — المآصر البحرية

اختصت بعض المدن الراكبة سواحل البحار بنوع من المآصر الضخمة ، تتخذ من سلاسل حديدية ، ويدخل في تركيبها أقفال محكمة الصنع ، توضع عند أطراف السلاسل تفتح وتغلق عند الحاجة . ولا يكون للقلوس أثر في هذا الصنف من المآصر ، لعدم قدرتها على الصمود أمام الشلنديات والشواني والبطس والرمات والحربيات والحراقات ونحوها من مراكب البحر الكبيرة ، ذلك فضلاً عن تأثير المياه المالحة فيها التي تذهب بمتانتها وتتلفها في مدة وجيزة .

وأشهر المدن الساحلية ذات المآصر أو السلاسل كما أسماها البلدانيون هي : باب الأبواب والمهدية ، وعكة ، وصور ، وبيروت ، ودمياط ، والاسكندرية ، والسويس ، فضلاً عن خليج القسطنطينية .

### (ا) مأصر خليج القسطنطينية[1]

أمر هذا المأصر قديم بعيد العهد ، وأقدم الأخبار التي وقفنا عليها بشأنه ترتقي إلى صدر الاسلام ، إذ ورد ذكره في قصة معاوية بن أبي سفيان مع الرجل الصوري الذي أسر بطريق الروم من مدينة القسطنطينية . فقد روى المسعوديّ قائلاً : « وأخبرني بعض الروم ممن كان قد أسلم وحسن اسلامه ، ان الروم صورت عشرة أنفس في بعض كنائسها من أهل البأس والنجدة والمكايد في النصرانية والحيلة من المسلمين ، منهم الرجل الذي

---

(١) هو المعروف في زماننا بمضيق البوسفور

بعث به معاوية حين احتال على البطريق فأسره من القسطنطينية فأقاد منه بالضرب ورده إلى القسطنطينية ، ..... فأما خبر معاوية وما ذكرناه من خبر الرجل الذي أسر البطريق من مدينة القسطنطينية ، فهو انّ المسلمين غزوا في أيام معاوية ، فأسر جماعة منهم فأوقفوا بين يدي الملك ، فتكلم بعض أسارى المسلمين ، فدنا منه بعض البطارقة ممن كان واقفاً بين يدي الملك فلطم حر وجهه فآلمه ، وكان رجلاً من قريش ، فصاح والإسلاماه أين أنتَ عنا يا معاوية إذ أهملتنا وضيعت ثغورنا وحكمت العدو في ديارنا ودمائنا وأعراضنا . فنمي الخبر الى معاوية فآلمه وامتنع من لذيذ الطعام والشراب ...ثم أجل الأمر في إعمال الحيلة باقامة الفداء بين المسلمين والروم ... فلما دخل من البحر الى خليج القسطنطينية ..... أخذ الصوري خبر البطريق من أصحاب القوارب والمراكب ، فأخبر أن البطريق في ضيعته ، وذلك ان الخليج طوله نحو من ثلاثمائة ميل وخمسين ميلاً بين هذين البحرين وهما الرومي والنيطس . . . والعمائر على هذا الخليج من حافيه ، والمراكب تختلف والقوارب بأنواع المتاع والاقوات الى القسطنطينية ، ... وقال للصوري : سر معهُ حتى تأتي الخليج فتطرحهُ فيه ومن كان أسر معه ممن بادر فصعد المركب من غلمان البطريق وخاصته . . . فكانوا في اليوم الحادي عشر متعلقين ببلاد الروم ، وقربوا من فم الخليج ، وإذا به قد أحكم بالسلاسل والمنعة من الموكلين به ... » [١]

وهذا أبو القاسم عبيد الله بن خُرداذْبَـه (المتوفى في حدود سنة ٣٠٠ هـ) ، ذكر هذا المأصر حين وصفه خليج القسطنطينية ، قال [٢] : « ويمر الخليج حتى يصب الى بحر الشام وعرضه عند مصبه أيضاً قدر غلوة سهم ، يكلم الرجلُ الرجلَ على شطيه ، وهناك صخرة عليها برج فيه سلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج .... » [٣]

وعلى ذكر الخليج نورد ما قاله في مكان آخر من كتابه : « .... ويسيل منها خليج عند قسطنطينية حتى يصبّ في بحر الروم ، وطوله من حيث ابتداؤه من مدينة قسطنطينية إلى حيث يصب مائتان وستون ميلا ، وفيه سفن ، وعرضه مختلف ، فاما عند القسطنطينية فقد (كذا ، والصواب : فقدره ) ثلثة أميال ، وفي موضع آخر ستة أميال ، وفي موضع آخر ميل وأكثر وأقلّ ، ويكون عرضه عند مصبه مقدار غلوة ، وبذلك الموضع صخرة عليها برج مبنيّ ، وفيه من قِبَل الروم مَنْ يفتش السُفُن » [٤]

وتابع أبو اسحق ابرهيم بن محمد الفارسيّ الاصطخري ( الذي نبغ سنة ٣٤٠ هـ ) سلفهُ

---

(١) مروج الذهب ( ٨ : ٧٤ ـــ ٨٧ ، طبع باريس ) (٢) المسالك والممالك ( ص ١٠٤ طبعة دي غويه في ليدن ) (٣) الخليج ، انظر « الذيل » بعد هذا المقال (٤) المسالك والممالك ( ص ٢٣١ )

ابن خُرْدَاذْبَة في ذكر سلسلة خليج القسطنطينية . فقد قال في معرض كلامه على بحر الروم : «... ثم تنتهي الى شط الخليج ، وهو خليج مالح يُعرَف بخليج القسطنطينية ، وعليه سلسلة ممتدَّة لا تعبر فيه سُفن البحر ولا غيره إلاَّ باذن ، مثل المأصر ، . . .[١]».

وجاءَ من بعده ، أبو القاسم محمد بن حوقل الرحالة البغدادي الموصليّ ( الذي نبغ في سنة ٣٦٧ هـ ) فذكرها في مجرى وصفه خليج القسطنطينية . قال : « وعلى الخليج سلسلة ممتدَّة لا تعبر عنها سفن البحر إلاَّ باذنٍ وعلامةٍ ، وعليها مرصد [٢]» .

وها هوذا يذكر المرصد أثناء كلامه على المأصر ، كما أسماه غيره البرج ، ومن الجليّ الواضح أن يكون المرصد من متممات أمور المأصر البحريّ ، فعنده ترتبط السلاسل بالأقفال ، وفيهِ يجلس صاحب القفل يرقب السفن القادمة والمبحرة ، ويقابله في المأصر النهريّ السفن الأربع كل اثنتين منها على شاطىء من النهر ، وعندها ترتبط قلوس المأصر ، وفيها يجلس المأصريون لمراقبة ذهاب السفن وإيابها ، للعمل على تفتيشها وأخذ العشور من اصحابها — ودونك ما ذكره على المرصد عند كلامه على اقليم فارس ، قال : « . . . وقلعة ابن عمارة تنسب الى الجلندي ابن كنعان ولا يقدر أحد أن يرتقي اليها بنفسه ، إلاَّ أن يرقى به في شيء من البُحُر (الحامل) وهي مرصد كانت لآل عمارة على البحر يعرفون منها الراكب ، فاذا أقبلت خرجوا اليها وطالبوا أهلها بضرائبهم على ما لهم من المحمل فيها . . .[٣]»

ونظير هذا ، ما ذكره عند كلامه على إرمينية وأذربيجان والرَّان ، قال ان « الخونج مدينة ايضاً بها مرصد على ما يخرج من اذربيجان الى نواحي الري ولوازم على الرقيق والدوابّ وأسباب التجارات كلها من الأغنام والبقر ، ومقاطعة هذا المرصد دائماً مائة الف دينار وزائد الى الف الف درهم وناقص في السنة ، وليس له ولما يجتاز به شبه في جميع أقطار الارض[٤]» . وقال في غير موطن من كتابه[٥] : أعشار السفن .. والمراصد .

ولا يخفى ان منارة الاسكندرية الشهيرة ، هي خير مثال للمراصد البحرية .

وممن دَرَجَ في سبيل هؤلاء القوم من الباحثين ، ابن الفقيه الهمذاني (أحد علماء اواخر المائة الثالثة للهجرة) الذي تطرّق الى ذكر المأصر الراكب على خليج القسطنطينية بقوله هذا : « ... ويمرّ خليج قسطنطينية حتى يصب الى بحر الشام وعرْض الخليج بأبدُس قدر غلوة ، واذا صار الى بحر الشام فعرضه عند مصبه ايضاً قدر غلوة . وهناك صخرة عظيمة عليها برج

---

(١) المسالك والممالك ( ص ٦٩ — ٧٠ ، طبعة دي غويه في ليدن ) (٢) صورة الارض (ص ٢٠٢) (٣) صورة الارض ( ص ٢٧٢ ) ، وانظرها في معجم البلدان ( ٢ : ٧١١ ، مادة الديكدان ) (٤) صورة الارض (ص ٣٥٣ ) (٥) صورة الارض : (انظر مثلا (ص ٣٠٢ ، ٣٠٣)

فيه سلسلة تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج . . . . [(١)] »

والظاهر ان هذه السلسلة رفعت من خليج القسطنطينية وزال أثرها قبل المائة الثامنة للهجرة ، كما يستشف من كلام النويري ( المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ) الذي ذكر خبرها بقوله : « وأما خليج القسطنطينية ، ويسمى بحر نيطش فان فوهته مقابلة لجزيرة رودس ، وسعتها غلوة سهم . ويقال إنه كان بين الشطين سلسلة طرفاها في برجين تمنع المراكب من العبور الاَّ باذن الموكل بها » [(٢)] .

## ( ب ) مآصر باب الأبواب

اشتهرت باب الأبواب بمآصرها البحري الذي فاقت به ما سواها من المدن ذات المآصر ، فما دوّنه الأصطخري في هذا السبيل قوله : « وأما باب الأبواب فانها مدينة على البحر وفي وسطها مرسى للسفن ، وبين هذا المرسى وبين البحر قد بني على حافتي البحر سدان حتى ضاق مدخل السفن وجعل المدخل ملتوياً ، وعلى هذا الفم سلسلة ممدودة لا يخرج المركب ولا يدخل إلاَّ بأمر ، وهذان السدان من صخر ورصاص ، وباب الأبواب على بحر طبرستان .... [(٣)] » .

ولا نعدو وجه الصواب إذا ما قلنا إن ابن حوقل خير من دوّن خبر المآصر البحرية ، واذا شئت الايضاح عما نقول فانظر وصفه لها : « ومدينة باب الأبواب : مدينة على بحر الخزر ، في وسطها مرسى للسفن ، وفي هذا المرسى الخارج من البحر اليها بناء قد بني كالسد بين جبلين مطلين على ماء هذا المرسى الخارج ماؤه من بحر الخزر . وفي هذا السد باب مغلق على الماء قد استحكم من وصيده بعقد قد عقد على نفس الماء ، والماء من تحته ، وللسفن مدخل مقلوب من ناحية بابه ، وعلى فم المدخل الذي تدخل فيه السفن سلسلة ممدودة كالتي بصور وبيروت بالشام وعلى خليج القسطنطينية ، وعليها قفل لمن ينظر في أمر البحر ، فلا يخرج المركب ولا يدخل إلاَّ بأمر صاحب القفل . والسد من صخر ورصاص [(٤)] » .

وممن تصدَّى لذكرها أيضاً البشاري المقدسي القائل إن : « من العجائب : الباب وهو حصن على ما ذكرنا من صور وعكة بسلسلة قد بني من الصخر ، وجعل ملاطه الرصاص ... [(٥)] » .

ثم قال في صفة باب الأبواب إنها : « على بحر الخزر ، محصنة في الحائط الذي من قبل

---

(١) مختصر كتاب البلدان ( ص ١٤٥ — ١٤٦ طبعة دي غويه في ليدن ) . واذا أردت مزيداً فراجع ( ص ٢٨٨ — ٢٩١ ) (٢) نهاية الارب ( ١ : ٢٢٦ ، طبع دار الكتب المصرية )
(٣) مسالك الممالك ( ص ١٨٤ ) وللتوسع انظر الخراج لقدامة بن جعفر ( ص ٢٥٩ — ٢٦١ )
(٤) صورة الارض ( ص ٣٣٩ ) (٥) احسن التقاسيم ( ص ٣٨٠ )

الخزر ، لها ثلاثة أبواب : باب الكبير ، وباب الصغير ، وباب آخر نحو البحر مسدود لا يفتح ، وعدة أبواب من قبل البحر وقبل الاسلام ، والحائط قد مد من الجبل الى وسط البحيرة عليه أبرجة .... [١] » .

ولم يفت الشريف الادريسي البلداني الشهير ( المتوفى سنة ٥٦٠ هـ ) وصف هذه المدينة وميناءها ذي السلسلة العجيبة بقوله إنها « مدينة عظيمة على بحر الخزر ، وفي وسطها مرسى للسفن ، وعلى فم هذا المرسى الخارج اليها بناءان كالسدين من جانبيه ، وهناك سلسلة تمنع الداخل والخارج ، إلاّ بأمر من صاحب البحر ، وهذان السدان من الصخر المحكم أفرغ بينه الرصاص ... [٢] » .

وفي المائة الثامنة للهجرة نقل لنا صفتها بلدانيّ آخر ، نعني بهِ صفيّ الدين بن عبد الحق ( المتوفّى سنة ٧٣٩ هـ ) ، ويلوح لنا انهُ أخذ هذا الوصف عن ياقوت [٣] : ذاك الذي استند الى وصف الاصطخري الآنف الذكر لسلسلة باب الأبواب . قال ابن عبد الحقّ : « وباب الابواب مدينة على البحر ، بحر طبرستان وهو بحر الخزر ، ربما أصاب البحر حائطها ، وفي وسطها مرمى السفن ، قد بني على حافتي البحر سُدَّيْن ، وجعل المدخل ملتوياً ، وعلى هذا الفم سلسلة ، فلا مخرج للسفينة ولا مدخل إلاّ بأمر . . » [٤]

وبعده بمدة يسيرة أشار اليها سراج الدين عمر بن الورديّ ( المتوفى سنة ٧٤٩ هـ ) بقوله: « أما الباب فبناها أنوشروان على بحر الخزر . . . . وبها مرسى الخزر وغيره ، وعليه سلسلة تمنع الداخل والخارج » [٥]

## ﴿ الذيل ﴾

لا شكّ انها تمنع سفن المسلمين من دخول الخليج خشية وقوع الغزو على هذه المدينة وأطرافها ، فقد ذكر قدامة بن جعفر الكاتب ( المتوفى سنة ٣١٠ أو ٣٢٠ ، وقيل ٣٣٧ هـ ) نظير ذلك في خراجه ( ص ٢٥٥ ، وانظر ص ٢٥٩ ، طبعة دي غويه في ليدن ) ما مؤداه : « .... ومقدار ما يغزو في الغزاة من مراكب الثغور الشاميَّة ما يجتمع اليها من مراكب الشام ومصر من الثمانين الى المائة ، والغزاة إذا عزموا عليها في البحر كوتب أصحاب مصر والشام في العمل على ذلك والتأهّب له . . . ويسمّى ما يجتمع منها الأسطول .... ،

---

(١) أحسن التقاسيم (ص٣٧٦) (٢) مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ( ص ٢٨٤ )
(٣) معجم البلدان ( ١ : ٤٣٧ ) (٤) مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ( ١ : ١١١ ، طبعة جوينبول في ليدن ) (٥) خريدة العجائب وفريدة الغرائب ( ص ٩١ طبع مطبعة شاهين بمصر سنة ١٢٨٠ هـ ) أو ( ص ٧٤ طبع مطبعة عبد الرازق بمصر ١٣٠٣ هـ )

والمدبر لجميع أمور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية ، ومقدار النفقة على المراكب إذا غزت من مصر والشام نحو مائة الف دينار » .

وقد نقل الينا كلٌّ من المقريزي ( الخطط ٢ : ٣٦٨ — ٣٦٩ ، مطبعة النيل ) ، والقلقشندي ( صبح الأعشى ٣ : ٥٢٣ — ٥٢٤ ) وصفاً رائعاً لتجهيز الأساطيل الاسلامية لغزو الفرنج . قال المقريزي : « كان من جملة مناظرهم ( مناظر الخلفاء الفاطميين ) أيضاً منظرة بجوار جامع المقس الذي تسمّيه العامّة اليوم جامع المقسي ، وكانت هذه المنظرة بحري الجامع المذكور ، وهي مطلّة على النيل الأعظم . . . ، وكانت هذه المنظرة معدّة لنزول الخليفة بها عند تجهيز الأسطول الى غزو الفرنج ، فتحضر رؤساء المراكب بالشواني وهي مزيّنة بأنواع العدد والسلاح ويلعبون بها في النيل حيث الآن الخليج الناصريّ تجاه الجامع وما وراء الخليج من غربيه . قال ابن المأمون ، وذكر تجهيز العساكر في البرّ عند ورود كتب صاحبيْ دمشق وحلب في سنة سبع عشرة وخمسمائة ما يحثّ على غزو الفرنج ومسيرها مع حسام الملك ، وركب الخليفة الآمر بأحكام الله وتوجّه الى الجامع بالمقس ، وجلس بالمنظرة في أعلاه ، واستدعى مقدّم الأسطول الثاني وخلع عليه ، وانحدرت الأساطيل مشحونة بالرجال والعدد والآلات والأسلحة ، واعتمد ما جرت العادة به من الانعام عليهم ، وعاد الخليفة الى البستان ... ، وقال ابن الطوير : فاذا تكملت النفقة وتجهزت المراكب وتهيأت للسفر ، ركب الخليفة والوزير الى ساحل المقس ، وكان هناك على شاطيء البحر بالجامع منظرة يجلس فيها الخليفة برسم وداعه، يعني الاسطول ، ولقائه إذا عاد . فاذا جلس هو والوزير للوداع جاءت القوّاد بالمراكب من مصر الى هناك للحركات في البحر بين يديه وهي مزيّنة بأسلحتها ولبوسها ، وفيها المنجنيقات تلعب فتنحدر وتقلع بالمجاذيف كما يفعل في لقاء العدو بالبحر الملح ، ويحضر بين يدي الخليفة المقدّم والرئيس فيوصيهما ويدعو للجماعة بالنصرة والسلامة ، ويعطي المقدّم مائة دينار والرئيس عشرين ديناراً ، وتنحدر الى دمياط وتخرج الى البحر الملح فيكون لها ببلاد العدوّ صيت وهيبة ، فاذا وقع لهم مركب لا يسألون عما فيه سوى الصغار والرجال والنساء والسلاح وما عدا ذلك فللأسطول . واتفق مرة أن قدم على الأسطول سيف الملك الجمل فكسب بُطْسة عظيمة فيها الف وخمسمائة شخص بعد أن بعث عليهم بالقتال وقتل منهم نحواً من مائة وعشرين رجلاً ، وحضر الى القاهرة ، ففرح الخليفة وركب الى المقس وجلس بالمنظرة للقائهم وأطلقوا الأسرى بين يديه تحت المنظرة من جانب البرّ ... وقد خربت هذه المنظرة وكان موضعها برج كبير صار يُعرف في الدولة الأيوبية بقلعة المقس مشرف على النيل . . . » .

# العجائن

لأمين إبرهيم كحيل

---

نشرت الجرائد أخيراً خبر انشاء شركة جديدة في مصر لصناعة « البلاستيك » أوحى بها حضرة صاحب السعادة حسن نشأت باشا سفير مصر في لندن وسيدير شؤونها حضرة صاحب السعادة عبد الفتاح عمرو باشا الغني عن التعريف . ولعلّ أكثر القراء حين طالع الخبر مرّ عليه كريماً إذ لا يتحقق ماذا يكون « البلاستيك » هذا الذي تنشأ من أجله الشركات وتقام له المصانع ويضطلع بأمره الكبراء وذوو النفوذ والصيت فيجمعون له الأموال وتهتم به الجرائد والمجلات وقد علقت إحداها على الخبر فأطنبت فيه وفسرت « البلاستيك » « بالباغة » لخدّت بذلك مما عساه أن ينتجه المصنع ، إذا قام . فالباغة جزء صغير من كلٍّ عظيم متنوع المزايا والأشكال والأصول والمنافع المعروفة « بالبلاستيك » الآن ، والتي اصطلح الكتاب من أهل العلم في مصر على تسميتها بالعجائن .

لحبات السبحة وقلائد السيدات ومبسم السيجارة ومقبض العصا ويد المروحة ولعبة الرضيع والطفل وأطر المناظير والصور وأمشاط الشعر وعلب الحلوى وصناديق الحلى وعدة التليفون وجهاز الاذاعة وأقداح القهوة والشاي وأكواب الماء والشراب والأقراط والدبابيس وأدوات الكهرباء الدقيقة والضخمة ، هذه وغيرها من الأدوات والحلى والأوعية والآلات التي تشبه العاج أو الكهرمان أو ذيل السلاحف وليست منها في شيء ، والتي لها جمال اللؤلؤ أو المرجان أو صفاء البلور أو بهاء الرخام أو تموجات الأخشاب النادرة أو ألوان الاحجار الكريمة ، والتي تراها أدوات زخرف على ملابس الغيد الحسان أو نحورهنّ أو أصابعهنّ ، أو تراها تزين موائد الأثرياء ومجتمعاتهم ، إنما هي من منتجات « البلاستيك » أو العجائن يضاف اليها أوراق « السوليفان » الشفافة الرقيقة وسبائب الصور وشرائح البلور التي تغلف ساعات اليد والجيب وجوارب السيدات الحريرية المظهر الكاشفة لما تحتها والتي احتلت مكاناً ممتازاً عند الأنيقات من سيداتنا ، وأقصد بها جوارب « النيلون » وهي

التي اختفت بسبب الحرب لتعود بعدها ان شاء الله من صنع مصر . بل خيوط الحرير الصناعي بألوانها الزاهية وأثمانها المغرية ودهانات « الدوكو » وأشباهها ، كل هذه تدخل في نطاق العجائن ومنتجات مصانعها.

وليست صناعة العجائن من الصناعات العسيرة فخاماتها سهلة موفورة في كل بلد زراعي مثل مصر. فأساس أنواع كثيرة من العجائن هو « السيلولوز » وأنقى أنواعه القطن ، وحتى هذا لا يستخدم منهُ الاَّ أرخصهُ أثماناً وأقلهُ منفعة في صناعة الغزل والنسج ، وأقصد ما يعرف « بالسكرتو » أو نفاية القطن الشعر القصير التيلة . واذا عزَّ هذا ففي لب الاخشاب والأعشاب والحشائش ما يسد حاجة المصنع اذا أراد . ولعلَّ أكثر هذه فائدة قش الذرة ولب عيدانه وأغلفة كيزانه . وهناك أنواع أخرى تعتمد في أساسها على « لبن الفرز » وهو ما يتبقى من اللبن بعد أن تنزع عنهُ القشدة فيبقى سائلاً ينتفع بهِ فقراء الريف يستخرجون منهُ الجبن غير الدسم المعروف « بالاريش » وهذا الجبن الخالي من الدهن الفقير في عناصره الغذائية يحوي ما يسمى علمياً « بالكازين » Casein ومنهُ تصنع طائفة من العجائن تستخدم في عمل مئات من الحلى التافهة والأواني والأدوات النافعة

وطائفة ثالثة أساسها « البولينا » وهي أحد محتويات البول ولكنها تجهز صناعياً كذلك في مقادير وافرة . ورابعة وخامسة وسادسة وغيرها موادها الأولية وخامتها كالبولينا مستمدة من الفحم ومن الماء ومن الهواء . والماء والهواء لا ثمن لهما . أما الفحم فلا يوجد في مصر ، واستيراد المطلوب منه من أقطار غنية به أمرٌ هين في زمن السلم

والآن سأحاول تعريف العجائن وممَّ تصنع ، وكيف تصنع ، بقدر ما يسمح بهِ المجال . فهي كما يوحي اسمُها تكون في الأصل عجينة لينة يسهل تلوينها وتشكيلها بأي لون أو شكل نريد تحت تأثير الضغط في قوالب أعدت لها من قبل . ومن ثمَّ كانت منتجاتها متعددة الأشكال والمنافع ، فهي ليست كالخشب يقطع وينحت ويصقل ويطلى ويلصق بأشباهه بالغراء أو الشق أو النقر . وليست كالمعادن تحمى بالنار الشديدة وتربط بالسبك أو باللحام . وهي فوق ذلك لا تتأثر بالماء ولا يفعل فيها الهواء فعله في المعادن الأخرى من حيث التآكل والصدأ ، ولا يفسد رونقها الحامضُ ولا يذهب بلونها القلوي ولا يتأثر بها شراب حفظ فيها ولا يعلق بها كدر أو غبار أو دهن تصعب إزالته بوسائل النظافة العادية . ويمكن أن تكون معتمة كالخشب والحديد وفي مثل صلابتهما ، بل منها ما يزيد في ذلك على أنواع كثيرة من الاخشاب ومنها ما يتحمل سدس ما يمكن أن يتحمله الفولاذ من جهد

دون أن يكسر أو ينبعج . ومنها ما يحل محل البلور الصخري في عمل المناظير المكبرة . وهلمَّ جرًّا .

وليست صناعة العجائن بالقديمة مع أن أنواعاً منها كانت معروفة من زمن بعيد ، ويرجع تاريخها الحديث الى ما بعد الحرب الماضية بقليل . وأول ما عرف منها ما اصطلح العامة على تسميته « بالطبخ » وسماه بعضهم بالباغة ويعرف علميًّا بالسيلولويد وهي مادة اشتقت في الأصل من السليلوز وهو شعر القطن أو لب الخشب ، واذا عرض هذا أو ذاك لفعل مزيج من حامضي النتريك والكبريتيك المركزين تعريضاً طويلاً تحوّل السليلوز فيهما الى خليط من نترات السليلوز وهو المعروف « بقطن البارود » واذا فعل الحامضان في السليلوز مدة قصيرة نسبيًّا تكونت مادة لزجة تعرف « بالكلودين » فاذا أذيب « الكلودين » هذا في محلول من الكافور في الكحول العادي وطبخت فيه تحوّلت الى عجينة السليلويد التي يمكن تحويلها الى أمشاط وأزرار وإطارات للمناظير وغير ذلك . ولا يظنن القارئ أن الصناعة تكون بمثل هذه السهولة . فنعل الحامضين في شعر القطن أو لب الخشب يخضع لعوامل عدَّة ويحتاج إلى رقابة شديدة ومرانة كاملة فالناتج مادة مفرقعة خطرة . ولذلك وجب عند تمام صنعها تخليصها من آثار الحامض تخليصاً تامًّا . ثم هي مادة قابلة للاشتعال بسهولة كبيرة وكذلك الكافور والكحول ، ولذا فالاحتراس الواجب عند الطبخ لا يتيسر الاَّ للصانع الماهر الحذر . ولا بد بعد ذلك من تخليص العجينة من الكحول المتطاير تجنباً لشر اشتعاله المستطير ، وهذه عملية غاية في الدقة أيضاً إذ يجب تخليص الكحول بالتقطير والاحتفاظ به لغلاء ثمنه من غير أن ترتفع درجة حرارة العجينة ارتفاعاً يشعلها . وللمصانع والقائمين بالأمر فيها طرق وآلات وأوانٍ أعدّها المهندسون المختصون تحت رقابة القانون الصارمة ضنًّا بحياة العمال من أن تتعرّض لأخطار الصنعة . وبعد أن تنقى العجينة تضغط في أوان ذات ثقوب دقيقة فتخرج قضباناً دقيقة أشبه ما تكون « بالشعرية » أو عيدان « المكرونة » وأنابيبها ثم تجمع أطرافها حول اسطوانة تدور حول محورها وتحتها ثانية وثالثة فرابعة وهكذا والاسطوانات يتقارب بعضها من بعض بالتدريج حتى تكاد تتلامس ويمر في جوفها بخار الماء الغالي لتظل ساخنة فتتقارب أنابيب العجينة وتتلاصق ثم تتلاحم وترق تدريجاً حتى تخرج من الاسطوانة الأخيرة لوحاً رقيقاً مصقولاً . وإذا أريد إدخال لون عليها قطعت بعضها قطعاً صغيرة مثل نشارة الخشب بآلات خاصة ثم أدخل عليها اللون المطلوب بقليل من الماء ومزجت به تماماً ثم أعيد طبخها وتحويلها الى ألواح . وإذا أريد صنع أدوات ذات

ألوان متعددة كان ذلك بإخراج أنابيب مختلفة الألوان من مستودعات مختلفة وتجمع هذه على الاسطوانات فتتقارب وتمتزج جزئياً أو كلياً بحسب الرغبة

والسليلويد أو الطبخ كما قدّمت هو أقدم أنواع العجائن وأخطرها استخداماً لأنهُ قابل للاشتعال بسهولة . ولعلَّ الكثير من القراء جرَّب ذلك . ولكن أنواعاً شتى من العجائن الحديثة ليست كذلك . ولا يسمح المجال بالتوسع في القول . ويكفي أن أقول : إن المختصين يقسمون العجائن الى فصيلتين رئيسيتين هما : « العجائن اللينة » وهي التي تتأثر بالحرارة فتلين حتى بعد تمام صنعها وتشكيلها . «والعجائن المطبوخة » وهي التي لا تؤثر فيها الحرارة بعد خروجها من يد الصانع . ويعدُّ السليلويد من الفصيلة الاولى ، ولو أنهُ أمكن التغلب على عامل الاحتراق الخطر فيها وذلك بالتأثير في السليلوز بروح الخل بدلاً من حامضي النتريك والكبريتيك وتحويله بذلك الى خلات السليلوز وهو أساس خيوط الحرير الصناعي بدلاً من نترو سليلوز وهو أساس قطن البارود . ومن عجائن هذه الفصيلة تلك التي تصاغ من « الكازيين » أو مادة الجبن « الاريش » .

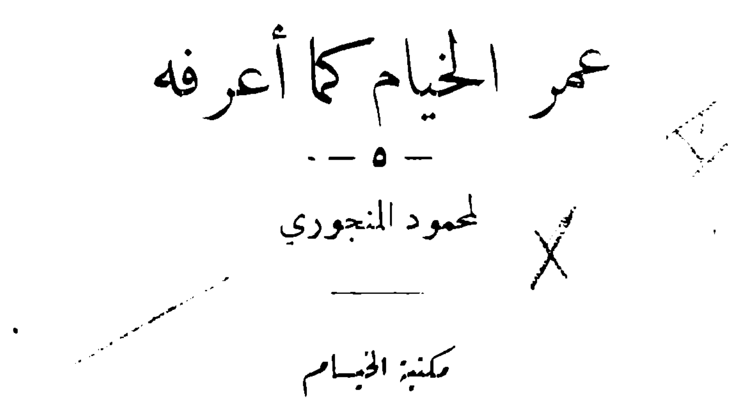
وأما أمثلة الفصيلة الثانية فكثيرة وتمتاز بحداثة عهدها نذكر منها «الباكليت» Bakelite ومادته الأساسية الفينول أو حامض الفينيك المشهور وهو أحد منتجات تقطير الفحم الحجري ، وقد احتلت منتجاتها الأسواق واقتحمت المنازل عقب الحرب الماضية مباشرة وعيبها الوحيد أنها غير شفافة ولا جذّابة المنظر . وقد حدا هذا بالفنيين الى البحث عن عجائن لها صلابة « الباكليْت » ومقاومتها للحرارة والضغط مع رقة التكوين وجمال المنظر وتعدد الألوان ، فعثروا في نحو سنة ١٩٢٧ على عجائن « البولينا » وتعرف أيضاً بالعجائن الامينية الشفافة .

وهناك أنواع أخرى مختلفة من العجائن أساسها غاز الاستيلين المعروف وهو الذي يخرج من مركب من الفحم والجير اسمه كربيد الجير بفعل الماء . ولو تمت كهربة خزان أسوان لكان من الميسور جداً الحصول على كربيد الجير هذا وعلى الاستيلين منهُ ثم على العجائن الكثيرة المتفرعة عنه وكذلك على « البولينا » الصناعية وعجائنها .

أما بعد ، فهذا عرض خاطف لموضوع العجائن المتسع الأرجاء المتعدد النواحي الكثير المنتجات الكبير الفائدة، وأرجو ألاَّ يتبادر الى الذهن أن منتجاته هذه وقفت عند حد الحلى والكماليات والأدوات الصغيرة الحجم التي لا تصلح الاَّ للتزين، فقد صنعت من العجائن

هيا كل كاملة لطائرات صغيرة سريعة وهو يدخل الآن في صناعة مئات من الاجزاء بل آلافها، في بنـاء طائرات الحرب وأسلحتها . وقبيل الحرب استخدمت صفـائح منه لتبطين جوانب الانفاق بدلاً من الخشب والحديد لانها كما قلنا لاتتأثر بالرطوبة ولا تتأكل صدأً بفعل الماء كما انهُ تجري تجـارب الآن في أميركة في بنـاء هيا كل كاملة للسيارات الصغيرة والضخمة وعربات الديزل من عجينة الورق تدعمها العجائن فتتماسك وتتصلب وتصبح كالمعدن متانةً ولو أنها في خفة الورق . وستتمخض هذه الحرب القـائمة عن كشوف وطرق جمة لاستخدام أنواع جديدة من العجائن لا نستطيع التكهن بها ولا التحدث بمزاياها . إلاّ أننا نستطيع أن نذكر غير مغالين أن عهد العجائن الذي رأى النور عقب الحرب الماضية سينمو ويترعرع ويكبر ويبلغ أشده عقب هذه الحرب . ولسوف يحاط الانسان بمنتجات العجائن من يوم مولده حتى آخر أيام حياته، فسيصنع مهده وفرشه وغطاؤه ولباسه وهو رضيع من العجائن فاذا ما شبّ وأدرك طور الطفولة كانت لعبه وكرسيه ومائدته وأدواتها من العجائن كذلك . واذا ما ذهب الى المدرسة وجد القماطر والسبورات وأدوات الكتابة وحوائط الكتب وأغلفة الكتب منها . وإذا ما أدرك دور الشباب وخرج للحياة واتخذ لنفسه مسكناً حديثاً مستقلاً أسسه من العجائن ، فالكراسي والموائد والأسرة والستائر وأدوات المائدة والزينة وكل ما يمكن أن يقع عليه نظره أو يستخدمه في غدوه ورواحه وراحته وطعامه ونومه وملبسه سيكون من العجائن الخالصة حيناً أو المتداخلة مع الأخشاب أو المعادن أحياناً. وستكون هذه كلها بطبيعة الحال أقل كلفة عند الشراء وأسهل ترتيباً وأخف وزناً وأطول عمراً، ولا تتطلب عناية الكثير من الخدم وتكاليفهم المادية والأدبية ؛ ولن تحتاج إلى طلاء أو تجديد أو صقل ، فسطوحها سليمة مصقولة وألوانها دائمة وستكون خالية من الزوايا والأركان التي يجمد فيها التراب وتتراكم عليها الأوساخ ولا تؤثر فيها قطرات سائل سقط عفواً أو يذهب ضوء الشمس ببعض لونها ولا تتشقق أو يختل استواؤها كما يحدث للاخشاب والمعادن مع الزمن ومن تأثير الجو بالحرارة والبرودة والجفاف والرطوبة .

نعم لقد بدأ عهد العجـائن ، وسيحل تدريجاً مـكان عهد الحديد والصلب والخشب . وسيكون إن شاء الله أكثر رفاهة ، وأعم نعيماً ، وأقل كلفة، وأوفر نظافة وصحة.



# عمر الخيام كما أعرفه

— ٥ —

لمحمود المنجوري

## مكتبة الخيام

في الحق لم يختلف العالم الأدبي في شاعر اختلافه في الخيام، فقد بلغ ما نسب إلى شاعرنا الفارسي نحو ٥٠٠٠ رباعية جاءت بها مخطوطات شتى. ولكن الدرس والتحقيق دلّ على أن الوراقين في عصور مختلفة هم الذين أضافوا الى الخيام هذا العدد الكبير ؛ كما أضاف أهل التصوف بعض الرباعيات إلى الخيام في أزمنتهم المختلفة مما كانوا يتغنون به في حلقاتهم. ولقد أدَّى هذا الى خلط الناس وذهابهم مذاهب شتى في الخيام. فمن العسير إذن القطع بأن بعض الرباعيات هي الرباعيات الصحيحة التي نظمها الخيام بنفسه وأن البعض الآخر هو المنحول.

وأقدم نسخة عقد الاجماع عليها هي النسخة التي عثر عليها في مجموعة أوزلي Ousely بمتحف بودلين بأكسفرد وتاريخ تدوينها يرجع الى سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦٠ م) بمدينة شيراز بعد وفاة الخيام بنحو ٣٥٠ سنة[1] وهذه المخطوطة لا تحوي غير ١٥٨ رباعية ولقد كانت هذه أهم مرجع لوحي فتزجرالد والهامه في الترجمة التي خلدت ذكره.

ويعتقد المستشرق الانجليزي هيرون ألن أن ترجمة فتزجرالد لرباعيات عمر الخيام ليست ترجمة حرفية تصوّر عمر الخيام وحده، ولكنها تصوير صادق لدراسات فتزجرالد الآداب الفارسية وغيرها، فقد تأثر بأدب حافظ والعطار وغيرهما من شعراء الفرس كما تأثر بالأدب اليوناني والأدب الروماني[2] وانهُ ليس في ترجمة فتزجرالد ما هو مترجم ترجمة صحيحة

---

(١) عثر الدكتور فريدريخ روزن سنة ١٩٢١ على نسخة قديمة يرجع تاريخها الى سنة ٧٢١ هـ

(٢) أصحاب هذا الرأي يقولون ان فتزجرالد قد تأثر في تفكيره بأبيقور اليوناني والفيلسوف الروماني ليكرتيس Lucritius فانعكست آراؤهما في نفس الشاعر الانجليزي كما انعكست في نفسه أخيلة شكسبير وغيره من شعراء الانجليز

عن الخيام غير ٤٩ رباعية فقط . وأما الباقي فهو من وحي الشاعر الانجليزي نفسه .

زعم هذا الرأي المستشرق الانجليزي هيرون ألن وأعلنه ، وقد عزَّ عليهِ وعلى غيره من الكتّاب الانجليز أن ينال الخيام هذه الشهرة العالمية وهو الشاعر الشرقي الذي لم يكن يعرفه أحد قبل أن أذاع فتزجرالد اسمه ، فراحوا يزعمون أن بعض الرباعيات التي جاءَت في ديوان فتزجرالد إنما هي من وحي الشاعر الانجليزي ، وليس للخيام إلاّ التوجيه فقط ، وأخذوا يدرسون الرباعيات على أنها عمل مشاع بين الخيام وفتزجرالد ، ثم بدأوا يقسّمون الرباعيات بينهما ، هذه لعمر وتلك لفتزجرالد ، ولكن يكفي لرد هذا الزعم ما قرره فتزجرالد نفسه من أنه إنما نقل الرباعيات مع شيء من التصرف لم يخرجه عن المعاني التي أرادها الخيام والتي ألهمه إياها التفكير الفارسي الخالص. ولقد تأثر بهذا الرأي السير رُس فقال : « ان ترجمة فتزجرالد لا تقل روعة عن شعر الخيام ، فأسلوبه تسامى عن النقص والعيب ورباعياته صورة واضحة من وحي الخيام أو هي ولادة ثانية لوحي هـذا الشاعر الفارسي ، على أن فتزجرالد قد استطاع أن يُغيِّر من ديوان الرباعيات الفارسي وأن يجعل منه ملحمة واحدة يتصل بعضها ببعض ، وسلك رباعيات الخيام في عقد واحد بعد أن تركها الخيام رباعيات متناثرة »

ولقد ذهب المستر لجاليان الى أبعد من ذلك ، فزعم ان ليس لعمر الخيام أي أثر في ترجمة فتزجرالد ، وإنمـا جاء بعمل من وحي نفسه وإلهـامه ، فالشعر الذي قدمه لنـا ليس بشعر فارسي وإنمـا هو شعر انجليزي خالص، والفكرة الفارسـية مغمورة ومتوارية لا نكاد نلمسها ، وان رباعيات فتزجرالد إنما تشابه وتطابق رباعيات الخيام مطابقة قوية وإن اختلفت عنها أداءً ووحياً .

وفي رأيي ان هؤلاء جميعاً قد أساءُوا الى فتزجرالد من حيث أرادوا الاحسان اليهِ ، فإنهُ لم يقل قولهم ، ولو أراده لقاله ، لأن قيمة رباعياته ليست لأنهـا من وحي الطبيعة الانجليزية الخالصة ولا من وحي الثقافة الاغريقية أو الرومانية التي ثقفت عقل الشاعر فتزجرالد ، وإنما قيمة هذه الترجمة قد عزَّت وغلَت لأنها من وحي الطبيعة الفارسية الشرقية ، ولأنها تبرز صوراً من الشرق في تفكيره الجديد وفلسفته الثائرة المتمرّدة .

ولقد أقبل الناس على فتزجرالد ليقرءوا الخيام الذي في بُرْديْه ، ولو شـاءوا لقرءوا فتزجرالد في كتبه الخاصة التي ألفها [1] ، وعجيب أن يكون الخيام سبب خلود فتزجرالد

---

(١) لفتزجرالد مؤلفات قيمة منها : Undine يحلل فيها أدب شكارى الانجليزي. وله في الادب اليوناني Euphranor وله Polonius مختارات وقراءات مختلفة . وظهرت له ست مآسٍ ( درامات ) في سنة ١٨٥٣ باسم Sex Dramas of Calderon

فيحزّ هذا في نفوس فريق من أدباء الانجليز فينكر على الخيام هذا الفضل ، لا لشيء إلا لأن الخيام شاعر شرقي ، وكيف يسود شرقي على أدباء الغرب ويسبقهم في تفكيرهم واتجاههم ودعوتهم بأجيال طوال !

هؤلاء المستشرقون الأدباء لا نراهم في هذا المبحث على شيء من الحق العلمي ، فليس للفن أو الأدب أو الفلسفة وطن أو لون أو جنس ، وإنما هي جميعاً حق انساني شائع لا وطن له ولا قوميّة .

وسمع صوتُ الخيام أول مرة في أوربة لما وقف أستاذ اللغات الشرقية العلامة توماس هايد سنة ١٧٠٠ في جامعة أكسفرد يرتل أغانيه الفارسية الجميلة ويردّدها على طلابه

ولكن ظلّ هذا الصوت خافتاً الى أن ظهر في أجواء الغرب حين جاء المستشرق النمسوي هامر برجستل Hammer Purgstall سنة ١٨١٨ م فاختار خمساً وعشرين رباعية تصور المذاهب الفلسفية المختلفة التي زعم أنها تخالف الدين الاسلامي مخالفة صريحة، ولم ينشر غيرها من الرباعيات

ثم عكف المستشرق السير جور أوزلي Sir Gore Auseley سفير طهران المتوفى سنة ١٨٤٤ على دراسة الرباعيات ونسخها وتحقيقها ، فعثر على نسخة مخطوطة ، أشرنا اليها في أول هذا المقال ، يرجع تاريخها إلى سنة ٨٦٥ هـ ( ١٤٦٠ م ) بمدينة شيراز وهي تحوي ١٥٨ رباعية . ثم بعث الخيام بعثاً خالداً يوم وجه العلامة كاول Cowell صديقه الشاعر فتزجرالد الى ترجمة الرباعيات ، فأعانه على نقل مخطوطة السير أوزلي التي كانت مودعة متحف بودلين سنة ١٨٥٦ . وتعد هذه النسخة أقدم مصدر ترجمت عنه رباعيات الخيام في الانجليزية إلى الآن .

ولم تقف عناية الاستاذ كاول بصديقه فتزجرالد عند هذا الحد ، بل تابع له الدرس والتنقيب فأرسل اليه في سنة ١٨٥٧ من كلية كلكتا بنسخة من مخطوطة للرباعيات عثر عليها في خزانة الجمعية الاسيوية الملكية ، ثم أرسل اليه بعد ذلك نسخة نادرة طبعت في كلكتا سنة ١٨٣٦ م . ويرجح المستشرق هيرون ألن Heron-Allen أن هذه المطبوعة تطابق النسخة المخطوطة التي عثر عليها في كلكتا ، وهذه هي المصادر التي نقل عنها فتزجرالد ترجمته الخالدة . ولقد اعترض المستشرق الفرنسي مسيو نقولا على النسخة التي عثر عليها الاستاذ كاول في كلكتا ، فترجم الرباعيات نثراً الى الفرنسية سنة ١٨٦٧ في أربع وستين وأربعمائة رباعية عن نسخة وجدها في طهران .

# باب المراسلة والمناظرة

## ١ — الهند وطن القطن

قال الأستاذ محمود مصطفى الدمياطي في مقاله « نباتات الصناعة في مصر » في عدد ديسمبر ١٩٤٣ من المقتطف في الكلام على القطن : « تعتبر الهند الموطن الأصلي للقطن الشجري » ثم استثناه بقوله : « إلاَّ أن الدكتور انجلر قد أشار إلى وجوده في غنيا العليا وبلاد الحبشة والسنيغال وغيرها » . فلا ندري هل قصد الأستاذ به الاستثناء المتصل أو المنقطع فاذا قصد الثاني فالاستثناء في سياق كلامه من قبيل الاستطراد ولسنا بصدد الكلام فيه . وأما إذا قصد الأول فيكون مراد الأستاذ بقوله « إلى وجوده » أي إلى وطنه وهو بيت القصيد لكلامنا هنا .

لم يتيسر لنا أن نسبر غور أدلة الدكتور انجلر، وليت الأستاذ نشر شيئاً ذا شأن وقيمة منها في المقتطف . على أن ما عرفنا من أدلة كبار المحققين باديها وخافيها ينبئنا أنهم لم يقولوا في تعيين وطن للقطن غير الهند قولاً يتجافى عن مواطن الريب ويسفر عن وجه اليقين . فالعلامة شوينفورث يرى أن القطن وزراعته وُجدا في وسط إفريقية وشرقها قبل زمن طويل من ظهور القطن في الحضارة المصرية القديمة[١]. ولكن وجوده فيها لا يمنع أنه قد نقل اليها من الهند، وهو ما يراه الأستاذ المحقق الامريكي الدكتور لوتز أيضاً في كتابه « النسيج واللباس »[٢]

إن أقدم أثر وجد للقطن في التاريخ هو المغازل وقطع من القطن المنسوج نسجاً دقيقاً في أطلال مدينتي « موهنجودارو » و « هارايّا » على شاطيء نهر سندهو Indus بالهند يرجع تاريخهما الى الألف السادس قبل الميلاد .[٣] وأحوال كشف هاتين المدينتين والبيان المستوفى

(١) Schweinfurth : Pflanzengeographische Skizz ( Mitteilungen Petermanns) 1868 S. 160

(٢) الكتاب المذكور ص ٤ .

(٣) يجد القاريء بياناً وافياً عن آثارهما في تقارير مصلحة الآثار الهندية وايضاً وصفاً موجزاً لها في مصنفات الاستاذ السر جان مارشال

عن آثارها لم ينشرا إلاّ بين سنة ١٩٢٧ م وسنة ١٩٣٣ م أي بعد وفاة العلامة شوينفورث في سنة ١٩٢٥ م . ولذلك لم يتسنَّ لشوينفوورث في حياته الاطلاع على تلك الآثار ذات الشأن الخطير في التاريخ وإعادة النظر في ضوئها . كذلك لا نعرف هل كان الدكتور انجلر على بينة منها عند ارتيائه ما نقل لنا الأستاذ عنهُ .

على ان هذه الآثار التي كشفت أخيراً وظهرت دلائل ناطقةً على أن الهند وطن القطن ليست بحجة وحيدة ، بل هناك شواهد اخرى مثل ذكره في الكتب الهندية المقدسة « ويدات » التي يرجع تاريخها الى اربعة آلاف سنة أو ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد . وقول هيرودوتس الذي ساح في القرن الخامس قبل الميلاد في بلاد إفريقية الشمالية والشرق الأدنى : « ان في الهند فضلاً عن ذلك أشجاراً برّية تنتج بدلاً عن الثمر نوعاً من الصوف يفوق صوفَ الغنم في الجمال والصنف» [1] - دليل على أن القطن لم يكن معلوماً في زمنه لدى أهل البلاد الأوربية والشرقية التي زارها . وعليه يرى بعض المحققين ومنهم الاستاذ الدكتور لوتز انهُ نقل من الهند الى الشرق الأدنى في الغالب في القرن الرابع قبل الميلاد أي عند هجوم الإسكندر المقدوني على الهند، لان تلميذ ارسطو ثيوفراطيس ( ٣٧٢ — ٢٨٧ ق م ) كان عالماً به، بدليل ما نقل عنهُ بلينوس المتوفى سنة ٧٩ م في كتابه التاريخ الطبيعي من الوصف الشامل له، بيد أني أرى انهُ نقل قبل هجوم الإسكندر على الهند وبعد سياحة هيرودوتس بدليل تسمية القطن باللغة البابلية باسم نهر في شمال الهند وهو « سندهو ».

كان نقل الكتان من وطنه وسط آسيا [2] الى بلاد الشرق الأدنى أسبق من نقل القطن . لذلك كانت زراعته وصناعته منتشرتين ومترعرعتين في جميع بلاد الشرق الأدنى تقريباً عند نقل القطن اليها . وعليه فاطلاق اسميهما في لغات تلك البلاد أصبح أمراً مريجاً، لأننا نجد انهُ أطلق فيها اسم الكتان أو نسيجه طوراً على القطن، وطوراً أطلق اسم القطن أو نسيجه على الكتان

إن جميع الأمم والأفراد الذين انحدروا الى الهند برّاً بعد ضرب الآريين بجرانهم فيها انحدروا طبعاً من الطريق الشمالي الغربي ، فواجهوا عند دخول حدودها نهراً كبيراً مسمى عند أهاليها « سندهو » فأطلقوا هذا الاسم محرفاً على البلاد كلها وأحياناً على بعض

---

( ١ ) تاريخ هيرودوتس الكتاب الثالث فقرة ١٠٦

( ٢ ) يرجح الاستاذ المحقق الدكتور لوتز أن وطن الكتان وسط آسيا ( راجع كتابه النسيج واللباس ص ١٩ )

منتجاتها . فوندیداد [1] یذكر البلاد باسم « هندو » ، ثم ذكرتها اللهجات المتأخرة باسم « هندوستان » [2] أي بلاد هندو . وذكرها الرحالة الصيني فاهيان في القرن الخامس الميلادي باسم « شنتوب » Shin tup [3] كذلك ذكرها الرحالة الصيني الآخر هيون تسانج في القرن السابع الميلادي باسم « انتو » Intu وهلمَّ جرًّا .

جميع هـذه الأسماء تصحيف اسم نهر « سندهو » لأن اسم الهند عنـد الآريين بالسنسكريتية « بهارت ورسن » و « جمبوديب » ولما كان سقى سندهو مزرعة ذات شأن للقطن سمي القطن عند انتقاله من الهند الى بابل باللغة البابلية « سندهو » وباليونانية « سندُن »

أما اسمه في الهند باللغـة السنسكريتية فهو « كرْپاس » وبفروعها مثل اللغة الأردية وغيرها باسقاط الراء « كپاس » ويطلق في بعض تلك الفروع « كپاس » على شجرة القطن، وأما ثمرها أي القطن فلهُ فيها اسم آخر .

على أننا عند إنعام النظر في لغات البلاد المختلفة التي نقل اليهـا القطن نجد أن اسمه السنسكريتي لم ينقل معه إلاَّ الى بعضها، وفيها أيضاً لم يطلق في الغالب على القطن بل على نسيجه

أما الفارسية فأطلق فيها « كرپاس » في الغالب على نسيـج القطن كما تدل عليـه المعاجم الفارسية. غير ان الأستاذ الألماني ولف يذكر في كتابه قاموس شاهنامه نقلاً عن عبد القادر البغدادي ان الشاعر الايراني الذائع الصيت أبا القاسم الفردوسي استعمل في مصنفهِ الشهير بشاهنامه « كرپاس » أو « كرياس » بمعنى الجناح المختص بالنساء في قصور الملوك [4] . أما القطن فسمي « پُـنْـبهْ » واسمه بالتركية « پنبوق » أو « پامبوق » أو « پاموق » أو

---

(١) الباب الاول، الفقرة ٧٣ منه . ولا يخفى ان ونديداد Vendidad هذا جزء من الاجزاء التي توجد الآن من كتاب الديانة الزردشتية المقدس « اوستا » وهو باللغة الفهلوية . ويرى بعض المحققين ان السنسكريتية أصل الفهلوية ، على حين يرى بعضهم أن كلتيهما أخت . وحرف السين بالسنسكريتية يبدل عموماً بالهاء بالفهلوية . « فسما » معناه جميع ) بالسنسكريتية هو « هما » بالفهلوية في نفس المعنى ، وقد زيدت في آخره الهاء بالفارسية الحديثة . و « سندهو » بالسنسكريتية « هندو » بالفهلوية وهلم جرا . ولقد أخطأ المستشرق الانجليزي الاستاذ لواسترانج Le strange في كتابه الشهير « أراضي الخلافة الشرقيـة » إذ ذكر في صفحة ٣٣١ منه بالحاشية : ان « سند » صورة بالفارسية القديمة لاسم « هند » . والصواب كما قلنا

(٢) و « ستان » أو « استان » محرف عن كلمة سنسكريتية « استهان » معناها محل ، موضع ، مكان . وعبثاً حاول الفاضل الايراني الدكتور رضا زاده شفق في كتابه المفيد « فرهنك شاهنامه » ص٢٢ اثبات اشتقاقهما من المصدر الفارسي « ايستادن » ومعناه القيام . إذ الكلمة في الحقيقة سنسكريتية الاصل نقلت من السنسكريتية محرفة الى الفارسية مثل كلماتها الكثيرة الاخرى

(٣) J. Legge :F allian p.26

(٤) فرهنك شاهنامه للدكتور رضا زاده شفق ص ٢١٨ طبع طهران

« عباك » كلها مأخوذة من هذا الاسم الفارسي « پُنْبه » [١]

أما العبرية فلم نجد فيها تغييراً ذا شأن في تسميته لا في الصورة ولا في المعنى، فقد ذكر في التوراة [٢] Karpas [٣] بمعنى القطن . وأما نسيجه فذكر له فيها كلمة Bus [٤] كذلك أطلق الكلمة نفسها على نسيج الكتان أيضاً [٥] . وأرى ان اسم القطن « بوز » بالتركية الذي ذكره ابن المهنا [٦] ، وكذلك الكلمة العربية « بَزّ » التي معناها الثياب من القطن أو الكتان ، مأخوذة عن تلك الكلمة العبرية .

اما العربية فاسمه فيها « قطن » وأطلق فيها هذا الاسم على نسيجه ايضاً . قال لبيد :

شاقتك ظعن الحي يومَ تحمّلوا فتكنّسوا قطناً تَصِرّ خيامُها

أراد بها ثياب القطن. ولم يعرف أصلهُ واشتقاقه وأقدم مصدر له بالعربية فيما نعرف هو ذكر أبي حنيفة الدينوري المتوفى سنة ٢٨٢ هـ في كتاب النبات له . وقد نقل عنهُ صاحب اللسان قال : قال الدينوري القطن يعظم شجره حتى يكون مثل شجر المشمش ويبقى عشرين سنة وأجوده الحديث [٧] . واما اسمه السنسكريتي « كرباس » فنقله العرب عن الفارسية، وأطلقوه في الغالب على نسيجه ، الاَّ أن ابن الاثير ذكر في شرح حديث عمر رضي الله عنهُ : أن كرابيس جمع كرباس وهو القطن [٨] . أما غيره فالجواليقي في المعرب [٩] وابن منظور في اللسان [١٠] ، والزبيدي في التاج [١١] كلهم متفقون على أنه معرب عن الفارسية ومعناه ثوب من القطن الأبيض .

أما الكلمة « الكرسف » أو « الكرسوف » باشباع ضمة السين التي ورد ذكرها في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها وبين معناها في الشروح والمعاجم : القطن أو القطع من القطن ، فأرى أن أصلها « كرفس » معرب عن كرپاس أو « كرپس » ولحقها القلب بعد التعريب فأصبحت كرسفاً . قال صاحب اللسان : والكرسف القطن وهو الكرفس [١٢] .

نقل العرب القطن إلى الأندلس في القرن الثالث عشر الميلادي ، ومنها انتشر إلى البلاد

---

(١) قاموس تركي ج ١ ص ٣٥٨ لشمس الدين سامي ، طبع استامبول
(٢) كتاب استر ، الفقرة ١ — ٦
(٣) ومن الغريب ان نطق هاته الكلمة ذكر في «الكنز» للاستاذ محمد بدر : « كرماس» وذكر معناها : كرفس ( النبات الشهير ) . وكلاهما خطأ ان لم يكن من المصنف فمن المطبعة ( راجع الكنز ص ٢٤٠ )
(٤) كتاب استر ، الفقرة ٨ — ١٥
(٥) Fonolexika p. 37 (٦) ابن مهنا لغتي طبع استامبول ص ١٦٧
(٧) لسان العرب ج ١٧ ص ٢٢٣ (٨) النهاية لابن الاثير ج ٤ ص ١٤
(٩) راجع المعرب للجواليقي طبع دار الكتب ص ٢٩٤ (١٠) لسان العرب ج ٨ ص ٧٨
(١١) تاج العروس ج ٤ ص ٢٣١ (١٢) لسان العرب ج ٨ ص ٨٠ في مادة (كرفس)

الأوربية الأخرى ، فانتقل اسمه العربي إلى لغاتها . فسمي باللغة الاسبانية Algodon وبالايطالية Cotone وبالفرنسية Coton وبالهولندية Kotoen وبالانجليزية Cotton وبالألمانية Kattun وهلمَّ جرًّا .

على أن هيرودوتس سلك في تسمية القطن مسلكاً خاصًّا إذ سماه « صوف الشجر » ولعلَّ ذلك لعدم اطلاعه على اسمه الحقيقي السنسكريتي فتبعه فيه الآخرون ، فالمصنف الشهير من القرن الثاني الميلادي يوليوس بولوكس Julius Pollux ذكره في تصانيفه بهذا الاسم. كذلك سمي باللغة الألمانية، ما عدا اسمه العربي المنقول Kattun ، باسم Baumwolle ومعناه « صوف الشجر »

السيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي

## ٢ — لفظ الجيم

جاء في الكلام على «حرف الجيم» صفحة ٤٧ من المقتطف (عدد يناير ١٩٤٤م) ما يلي هذا : «وقد كتبتْ طائفة ممتازة من العلماء المتأخرين منهم الصديق الجليل الأب أنستاس الكرملي علاَّمة العراق منذ خمس وأربعين سنة في هذا الحرف مقالات في الصفحات ١٨٧ وما بعدها من مجلد سنة ١٨٩٧ من مجلة البيان وهو المجلد الأول والأخير . الخ » . اه .

والصواب أن مقالة البيان المشار اليها للإمام اليازجي خلافاً لما تقدم . وهي أول مقالة ظهرت بهذا المعنى . وللامام اليازجي قبل مجلته البيان بسنين كثيرة مباحث في هذا المعنى وعاها كل من حضره في حلقات الدرس . لأن حرف الجيم كما ينطق به أهل سورية من مقطع الشين . فتجدهم يدغمونه بأل التعريف لقرب المخرجين . ولا يحيد عن ادغامه أحد منهم إلاّ من تعمد ذلك . فكان الشيخ رحمه الله يوجب إبانة اللام كما هي حالها قبل القاف وسائر الأحرف القمرية . وفي ذلك ما كان يدعو إلى التحدث بمثل ما ورد في مقالته المشار اليها . ثم إنه بعد تلك المقالة دُعي إلى هذا المعنى في مجلته الضياء سنة ١٨٩٨ صفحة ٥٠ وصفحة ٤٣٣ . وليس القصد بهذين السطرين التعرض للموازنة بين الأقوال وإنما أردت بهما رعاية عهد وذمام، والاعتراف لصاحب حق والسلام .

الاسكندرية جبران النحاس

---

تصحيح : في المعادلة ( صفحة ٢٨٠ شهر مارس سنة ١٩٤٤ ) التي فيها م٢ = م٢ الخ... تكون الميم الثانية ٢٢ أي مربع اثنين . وفي المعادلة التي فيها م٢ = ل٢ الخ ... تكون اللام ٢١ أي مربع واحد

نقولا الحداد

# التعريف والتنقيب

نتحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر
ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون
الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة
بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً
أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من
الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن
يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل .
ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في
إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأصداء الهوى

بشر فارس

# المشتمل

١ — المسائل


شناق ما التلقف والتثقف — بقلم بشر فارس


٢ — الكتب


ابن العاص — نقد — بقلم زكي محمد حسن

البصر وفنه — — — ابرهيم عبد القادر المازني

دراسات عن مقدمة ابن خلدون — — — أحمد محمد شاكر

العلم في الحرب — — — فؤاد صروف

الفضليات — — — محمد عبد الغني حسن


كتب ظهرت :


تقي الدين أحمد بن تيمية — نقد — بقلم *

الاسلام والفنون الجميلة — — — *


٣ — الاستدراك


كتاب الحيوان ، الجزء الخامس — بقلم الأب أنستاس ماري الكرملي


٤ — التعقيب


وصف الجمع بالمفرد — بقلم زكي مبارك

## شتان ما التلقّف والتثقّف

من قبل قلت [1] وأقول اليوم — وفي ذلك خارج لي كتاب برأسه إن شاء ربك — أقول إن لفظ « الثقافة » اتسع دورانه عندنا ، ولكنه رث مدلوله وانطفأ نوره ، فخرج عن المعنى الذي وُضع له يوم استحدثهُ المستحدث وغرضه نقل ما تنطوي عليه كلمة Culture

ولا أبغي هنا الخوض في بحث لغوي أتدرج بهِ من المصدر اللاتيني لتلك الكلمة ، فأنتقل من دلالة الى دلالة لأبيّن مثلاً كيف أخذ اللفظ في الاستواء على يد هذا أو يد ذاك من كتّاب الفرنجة ، حتى أبلغ مُفاد الكلمة لهذا العهد عند القوم . وليس في نيتي أيضاً أن أتمهل عند الثورة التي أثارها على الثقافة قبيل الحرب القائمة فئتان من غلاة الكتّاب. هذان مطلبان سأسوقهما اليك فتنظر فيهما معي وذلك الكتاب بين يديك .

اليوم أحب أن أوكد أن لفظ الثقافة في لغتنا ركّ وربما سفّ . وسبيلي في الدلالة امتحان اللفظ عندنا بالاضافة الى ما تقوم به كلمة Culture وعليه . ومن ثمّ نقدر وزنه ونحتسب مصيره في متمثّلاتنا الفكرية .

• • •

بين أيدينا مصدران لاستقراء المعنى المصطلح عليه لكلمة Culture [2] : الأول ما يستخلص من الأحاديث والتآليف ، والثاني ما قُيد في المعجمات . ومأخذ هذا مبذول قريب ، ومنال ذاك متعذر إلاّ على من طلب القراءة النفيسة في استبصار واستشفاف، ثم لابس أهل الغرب فتقرّى مقاصدهم من منابتها ، وتلمس مواقفهم من معالمها ، متأدباً عليهم أو متلطفاً للوصول الى ما يخيل اليهم وهم يصوّر .

إن صفوة ما يلتبعث من المصدرين – عندي – أن الكلمة يجري مُفادها الى صقل الإدراك ونحت الإحساس وغذو السريرة . والسبيل الى هذه الأمور الثلاثة اتصال دفين بدقائق العلوم ورقائق الفنون ، مع شحذ خصائص « الشخصية » والفرار من التكلف والعبث

(١) مقتطف مايو ١٩٤٣ . جريدة آسيا ، بيروت ١٥ / ١٠ / ١٩٤٣

(٢) لهذه الكلمة في الألمانية وجهة أخرى

والدعوى . خاتمة ذلك كله ما يبقى في النفس من مدارسة الصحائف وممارسة اللطائف . ومما يبقى : انعطاف الانسان الى الانسان والتفهم والتبصر ، فالواع الورع بقضايا الفكر الذكي وشؤون الحس الخفيّ مع القدرة على التفلت من المنقول والمبذول رجاء قبول الطريف ولقن القصيّ . كل ذلك ـ في ما أرى ـ على نحوين : ثقافة فعّالة ، وثقافة منفعلة . فالفعّالة داخلة في جانب الابتداع ، وأما المنفعلة فأن يسرع الفهمُ على حدّة ، وينعم الذوق على وفرة ، ويلطف الوجدان على سعة .

أما الثقافة عندنا فما تكون ؟

ليكن الجواب « موضوعيًّا » كما يقول المحدَثون من أهل المنطق ، فنتصفّح الواقعات والمبذولات ، فلا ندع الكلام في هذا المطلب يجري على المخيّل ، فيغرّنا الظنون ويأخذنا المرتجل .

وأول ما يمثل بين يديك من رواسم المعلوم في شأن الثقافة مرحلة من مراحل التدريس في مصر تحمل ذلك الاسم ، وهي مرحلة تضم فصول البكالورية المصرية في النظام السابق للمدارس ، إلى فصل مستجد يقال له : التوجيهي . وخلاصة ما يقال في هذه السنوات الدراسية أن التلميذ يتلقى فيها أطراف أصناف من المعارف . وهذا يعبر عنه بكلمتين هما « الثقافة العامة » وقد أخذناها عن الفرنسية Culture générale ، وفي الانجليزية تعبير أشد إحكاماً وهو : General Knowledge — أي : معرفة عامة .

هذا والثقافة بمعناها المطلق في أوربة غير الثقافة العامة . فالأولى كما وصفتُ لك . وأما الثانية فحصّلات شتى لمبادئ العلوم وبسائط الفنون . وهكذا ترى أن وزارة المعارف انتزعت من مُفاد الكلمة الأوربية ، وفيه انطلاق وإتقان ، مدلولاً إنما قيدته أو أثقلته ثم لبسته إذ جعلته في مكان معنى أرفع مرتبةً وأبعد أفقاً . فانما الثقافة التي نعنيها ـ والكلمة الأوربية بين أيدينا ـ هي في ذروة حركات الفكر الوثاب . وأما الثقافة العامة فلا تتخطى حدّ التحصيل ، وهو تلقف أو كالتلقف من حيث إنه عَبّ للمبادئ والبسائط ، فلا امتصاص ولا ترشف ، فأين النهل بجذب النفس وأين الشرب على استقصاء ؟

وقد تجاوزت الثقافة ، بمعنى التعليم والتوقيف ، جدران المدارس لتجري في مسارح الحياة . وربما دخل فيها ما يلتف حول المعارف العامة والمسائل المتداولة في ناحية الأدب والفن والسياسة والاجتماع . من ذلك نشرات تخرج باسم الثقافة ، ثم « مواسم ثقافية »

و « محاضرات ثقافية » ، حتى إننا لنظفر بـ « السينما الثقافية » ، وفي هذه الأخيرة مغالطة ، ولا سيما إذا كانت الأشرطة المعروضة أجنبية عن التهذيب والتنبيه .

ثم هنالك الثقافة التي تحصّل من طريق القراءة الهيّنة ، تأتيك من جانب كتب يريد اصحابها أو ناشروها أن تبلغ من توسطت ثقافته أو وضعت ، فلا يتكلف كثيراً في تصفحها لأن الكاتب هابط اليه إرادةً أو طبعاً .

• • •

فأنت ترى من تلك المراجعة العجلى أن لفظ الثقافة استبان من طريق مواقعه ، فإذا معناه في مصطلحنا يجري إلى التعليم وما يليه من التوجيه ، فإلى بذل المعارف وطرح المسائل ، ثم إلى استدراج الأمة إلى القراءة السهلة . وربما انحط المعنى ، بالسينما الثقافية مثلاً ، فأجرى اعتسافاً في مجرى التنبيه والوعظ أو مُموّه بهما . ولقد دارت على أقلامنا كلمة تلمّ تفاريق ذلك المعنى ، وهي « التثقيف » . والعجيب أننا استعرناها من أدبنا القديم سليقة . فهي هنالك أفادت التهذيب والتخريج أي تدميث الطبع الجافي وتنعيم الذهن الخشن . فكأني بها انقلبت الينا من دون أن تظفر بمعنى ألطف أو أوغل . وهذا التثقيف مع ما تحته من تعليم القراءة والكتابة وبذل المعارف والحث على الاطلاع الهين ، إنما هو الدرجة السفلى لمراقي الكلمة الأوربية بل شرطها المحسوس . ومعنى هذا أنه لا بدّ لك من معرفة مبادئ العلوم وبسائط الفنون لكي ترقى حتى الاتصال الدفين برقائق هذه ودقائق تلك ، فتنفسح تجاهك سبحة التأمل ، وينصرح بين يديك مسلك الصدق في الاحساس والإدراك ، حتى إن حدّة حدْسك تبلغ الهيام بشؤون الفكر المتوقد والحس الرهيف ، وإن يقظة فؤادك تطمع في استبطان البشرية المطوية بحجاب الحيرة : تفتح وتصعّد ... وعلى هذه الصفة كان أعلام أدبنا الغابر ، أمثال الجاحظ وابن الرومي وأبي العلاء والتوحيدي والفارابي وابن خلدون .

وحينئذٍ فالمتخرج في مدرسة أو الدائب في قراءة الكتب الميسّرة والصحف الباذلة أطراف العلوم والفنون والآداب رجل ذو ثقافة في رأي عامة الجمهور العربي ، وحقيق بالرجل وأولى أن يقال فيه : إنهُ غير أمّي أو إنهُ من أهل التنبه .

وأما لِمَ هبطت كلمة Culture ، في الجملة ، الى مُفادها الأدنى عندنا ، وقنعت ، في غالب الأمر ، بمعنىً رثّ أو شحب ، فذلك مطلب تسأل عنهُ الأمة وأصحاب أمرها . وللحديث عندي تفصيل أرجئه .

بقي أن أشير إلى ما قلت من قبلُ ، وصفوته أنْ ليست الثقافة كلها بمحصورة في خزانة صحائف . فالاطلاع وإن ذهب طالبهُ فيه وأمعن ، والتأليف وإن برع معالجه وأبدع، سلّم إنما درجاته معدودة . فالثقافة منبسطة ، فعلاً وانفعالاً ، على الفلسفة والنحت والتصوير والمسرح والموسيقى والرقص ، وإلى جنبها جميعاً العلم المرصود للمعرفة المنزّهة .

• • •

ذلك جوهر الثقافة الحقة مميزة من الثقافة العامة . والمعنى هنا مضغوط ، مغلول ، مستضعف ، ولكنه هناك منفرج ، منطلق ، متماسك . فإن لم نؤثر الذي هناك ظللنا على باب المعبد نلمحه من بعيد خلال ضباب يتكاثف فيتراكم ، فلا تنفذ لنا باصرة ولا يطير بنا خاطر .

بشر فارس

☆

# ٢ – الكتب

---

**• ابن العاص • بقلم عباس محمود العقاد**

١٤ × ١٩½ سم ١٥٠ ص الحلبي وشركاه القاهرة ١٩٤٤ *

يحق لمصر أن تفخر بما نراه من نهضة مباركة في ميدان التأليف في نواحي التاريخ والحضارة الاسلامية . وما من شك في ان هذا الضرب من التأليف حسن جدًّا ومفيد في التعريف بتراث الاسلام وأعلامه . والكتاب الذي أخرجه الاستاذ عباس العقاد في عمرو بن العاص أثر من آثار هذه العناية بدراسة أبطال الاسلام ومظاهر حضارته .

وقد أصاب المؤلف توفيقاً كبيراً في تصوير نفسية عمرو ولا سيما طموحه « الذي لزمه من صباه الى ختام حياته » ، وقد كان طموحاً قائماً على مطالب الواقع في بواعثه ومراميه، فكانت نظرة عمرو الى الدنيا « نظرة عملية معروفة الموارد والمصادر ولم تكن تلك النظرة الخيالية التي يتسم بها أصحاب الحماسة والاحلام من ذوي الطموح » .

---

* رتبت أسامي الكتب على حروف الهجاء .

والحق أن الكتاب عرض حسن لكثير من المسائل المتصلة بحياة عمرو، ولكنهُ لغير الاختصاصيين من القراء، فقد غلب على العرض أسلوب الصحافة، نريد الاكتفاء بالاسترسال دون التحري والتحقيق. وكنا نود لو أن المؤلف وجّه عنايته الى التزام الدقة العلمية، فقد فاته في كثير من المواقف أن يوفق بينها وبين الاختصار مع سهولة العرض ولطف البيان.

وقد حدث أن تحمس المؤلف لعمرو بن العاص فقادته الرغبة في تمجيده الى قسط من المبالغة بعيد. مثال ذلك ما كتبه (ص ١٣٧؛ س ٦)، قال: «فالذي لا خلاف فيه أنه كسب للاسلام قطرين كبيرين هما فلسطين ومصر». والصحيح أن كسب فلسطين للاسلام لا يمكن أن ينسب الى عمرو، وإلاَّ فأين فضل خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد ابن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة؟، والمعروف أن عمراً لم تكن له القيادة العليا في فتوح الشام، كما كانت لخالد أو لأبي عبيدة. ولم يكن هو صاحب الفضل في تلك الفتوح.

ثم ان المؤلف كتب في الموضع نفسه أن لا خلاف في أن لعمرو «سهماً وافراً في كل ما تحسبه للدولة الأموية من العظائم والمآثر». وهذا بعيد عن الدقة، لأن فضل عمرو كان في قيام الدولة الأموية فحسب، أما ما لها من العظائم والمآثر فكان جله بعد وفاته، ولاسيما في عصر عبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك.

ووصف المؤلف (ص ٤٠ — ٤١) معاوية بأنه من أصحاب «العقول الوسطى». ولا ريب في أنهُ يعدل عن وصفه هذا إن بدا له أن يكتب في معاوية ترجمة، فيقرأ ما قاله فيه المؤرخون القدماء ثم المستشرقون.

ويرى القارئ الاختصاصي في تاريخ الاسلام ان المؤلف أخطأه التوفيق في مواقع، وأن مراجعه محدودة، وأن بعض أحكامه يعوزها التحري. مثال ذلك ما كتبه في تردد عمر بن الخطاب في تسيير عمرو لفتح مصر، فقد زعم المؤلف أن عُمر «لا يرى داعية للحرب إلاَّ درءاً لخطر أو قصاصاً من عدوان». وهذا غير صحيح، فليس معروفاً أن فتوحات العرب كانت للدفاع أو للانتقام فقط. وإلاَّ فأين الجهاد لاعلاء كلمة الله؟ وأين الاسباب الاقتصادية البحتة التي تتجلى في بعض ما كتبه المؤرخون العرب؟ ففي «فتوح البلدان» للبلاذري (ط. القاهرة سنة ١٩٠١ ص ١١٤). «قالوا لما فرغ أبو بكر من أمر أهل الردة رأى توجيه الجيوش الى الشام فكتب الى مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز يستنفرهم للجهاد ويرغبهم فيه وفي غنائم الروم فسارع الناس اليهِ من بين محتسب

وطامع وأتوا المدينة من كل أوب » .ويُخَيل الينا أن المؤلف ، في حرصه على نفي روح الهجوم في الفتوح الاسلامية ، يتأثر قول بعض الـكتّـاب المحدَثين الذين يريدون الدفاع عن خطة الاسلام في الجهاد على غير إحاطة بحقائق التاريخ وأصول الاسلام .

والحق ان السطحية وقلة العناية بالتحقيق تبدوان في مواضع غير قليلة من الكتاب ، فيعجب القارئ لصدورها من كاتب هو من كبار كتابنا . وربما كان مرجع ذلك استهانة الكاتب بتقييد المعارف في الجزازات واستهانته باعتماد المراجع ثم بالتزام ما صح فيها وما ثبت.

فترى مثلاً أن المؤلف (ص ٧٦) يصحح « ارطبون » الى « اريطيون» قائلاً :« ان قلة النقط والشكل في الحروف العربية كانت تصحفه حينئذٍ الى أُرطبون » . والظاهر ان المؤلف يتأثر هنا بتلر Butler في كتابه «فتح العرب لمصر »[1] ( انظر الترجمة العربية لفريد أبي حديد ص١٩١).والصواب «أطربون» كما فطن الى ذلك دي خويه de Goeje في تعليقاته على الطبعة الاوربية لتاريخ الطبري[2].وفي المعرب للجواليقي(ط دار الكتب بتحقيق احمد محمد شاكر ص٢٦).« الاطربون: كلمة رومية ومعناها المقدَّم في الحرب وقد تكلمت به العرب»[3] والواضح ان كلمة أطربون تعريب اللاتينية Tribunus وهي رتبة من رتب القيادة الرفيعة عند الروم

وكتب المؤلف (ص ٩٣)«ولـكنه(أي المقوقس)في أرجح الأقوال رجل من غير الروم ومن غير المصريين ، نشأ في القوقاس كما يدل عليه اسمهُ » . والواقع أن هذا ليس أرجح الاقوال بأي حال . وحسب المؤلف أن يرجع الى ما كتبهُ بتلر Butler في صفة المقوقس (ص ٤٤٤ — ٤٦٤ وص ٥٠٠ — ٥٢٠ ) . فالحق ان هذا موضوع متشعب الأطراف لا يستطيع حتى من أوتي موهبة عالية في الاجمال وحسن العرض ، كالأستاذ المؤلف ، أن يجمل القول فيه . فلم يزعم أحد أن المقوقس كان من غير الروم ومن غير المصريين وأنه في الوقت نفسه نشأ في القوقاس . وإنما هذا كله مسخ لنظرية بتلر في ان هرقل نقل

---

(١) اشار بتلر الى ان ابا المحاسن ذكر الاسم الصحيح : اريطيون ، ولكنا رجعنا الى « النجوم الزاهرة ط . دار الكتب ) فوجدنا : ارطبون( ج ١ ص ٢٤ )

(٢) راجع الهوامش في المعرب للجواليقي ص ٢٦ ومافيها من المصادر ثم وازن لسان العرب ج ١٦ ص ١٥٧ — ١٥٨ • وراجع ايضاً المعرب ( ط اوربة ص ١١ من التعليقات ) ففيه اشارة الى ان أصل الكلمة Tribunus وأنها دخلت في العربية من طريق السريانية

(٣) انظر جزء المقدمة والتعليقات والزيادات والتصويبات (ص CXII)

قيرس ( المقوقس ) من ولاية الدين في « فاسيس » ببلاد القوقاس ، وعلى ذلك فان من أقرب الأمور انه يسمى ققفاسيوس باللغة اليونانية ، وان هذا اللفظ اليوناني نقل إلى اللغة القبطية . . . ونشأ من هذه الصورة الاسم العربي : « المقوقس » ( الترجمة العربية من كتاب بتلر ص ٤٦٢ — ٤٦٣ ) . وعلى أية حال فالوجه هنا أن لا يقال ما قاله العقاد : « المقوقس نشأ في القوقاس كما يدل عليه اسمه » خشية ان يوهم هذا الكلام ان العرب هم الذين أطلقوا عليه اسم المقوقس ، أخذاً من كلمة « قوقاس » ، وذلك لأن العرب في ذلك العهد وبعده بحقب لم يعرفوا القوقاس بهذا اللفظ ولكن عرفوا « القبج » و « القبق » ( راجع مادة « قبق » في دائرة المعارف الاسلامية وما جاء فيها من مراجع ) .

ومن الأمثلة على هذا اللون في الحكم قول المؤلف (ص ٢٢ و ٢٣) : « فهذه الأبهة المقصودة ولا سيما قبل استقرار السلطان له ( أي لعمرو ) هي أثر من آثار ذلك النسب المغموز وتلك القامة المحدودة » . وقد كتب ذلك تعليقاً على نص في قدوم عمرو للخطبة في الجامع بالفسطاط وحوله الشرط يزجرون الناس . فالصواب أنه كان قائد الجيش الفاتح ، إن لم يكن قد ضم إلى ذلك ولاية مصر ، وانه كان يسير في تلك الأبهة على سنّة كثيرين من الأمراء والقواد أما القول بأنها أثر من آثار القامة المحدودة والنسب المغموز فقول « مشدود من شعره » على حد تعبير الفرنسيين . حقّاً ما دخل القامة المحدودة هنا ؟ ! وهل يراد أن يسير كل أمير على نهج عمر بن الخطاب في التقشف والبساطة وإلاّ اتهم بأن أبهته مقصودة وأنها أثر من نسب مغموز أو قامة محدودة ! ؟

• • •

وفي مواضع أخرى إجمال لبعض المسائل وإهمال لبعضها : وكان ذلك في الحالتين على حساب الوضوح والدقة العلمية . مثال ذلك قول المؤلف ( ص ١٠١ ) : « وكان من أهم أعمال التعمير التي تمت على يديه — بأمر الخليفة — فتح الخليج الذي سماه بخليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الأحمر » . والعبارة لا يتضح منها تماماً أن هذا الخليج كان قناة بين النيل والبحر الأحمر في موضع قريب من سكة الحديد الحالية بين القاهرة والسويس وأنه يرجع الى عصر الفراعنة وإنما جدد عمرو حفره .

وأشار المؤلف (ص ١٠٢ ) إلى أسطورة اليمامة التي باضت في أعلى فسطاط عمرو بن العاص فأبى عمرو أن يقوض هذا الفسطاط حين اختط المدينة الجديدة شمالي حصن بابليون

فسميت هذه المدينة بالفسطاط . وليت المؤلف أشار هنا إلى الاشتقاق المشهور عند العلماء والذي يقول به المؤرخون المحدثون، فان لفظ الفسطاط عندهم مشتق من اللاتينية Fossatum بمعنى معسكر . والمعروف أن مدينة الفسطاط قامت على أرض المعسكر الذي نزله العرب شمالي حصن بابليون .

وقد لخص الأستاذ العقاد حجج القائلين إن عمراً لم يحرق خزانة الكتب بالاسكندرية، ولكنهُ لم يكن موفقاً كل التوفيق في هذا التلخيص ، فان بتلر كتب فصلاً في هذه المسألة وأجمل تلك الحجج في نهاية الفصل ( ص ٣٦٨ — ٣٧٠ من الترجمة العربية ) كما أجملها الدكتور حسن ابراهيم حسن في كتابه «تاريخ عمرو بن العاص » (ص ١٤٨ — ١٥٠) ،ولكن العقاد بالغ في إجمالها بأن حذف بعضها على قوته وخطر شأنه ، فجاء عرضه المسألة مبتوراً لا يغني كثيراً ، والمسألة خطيرة الشأن ووثيقة الصلة بسيرة عمرو

وفي رأينا أن المؤلف لم يوفِ نشاط عمرو في مصر حقه من البحث ، فان الكلام في ولايته على مصر لم يأخذ القسط الواجب من الكتاب .

وقد خلط المؤلف بين الروم والرومان ( ص٧٧ — ٧٨ ) فلم يتقيد بأن العرب استعملوا « الروم » لأهل بيزنطة . وأما الرومان فأهل الدولة الرومانية الغربية المنقرضة .

وكتب العقاد (ص ١٤٣ ) : «وقد اشتهرت القبريات في آداب الأمم وشاعت الكلمات التي حفظت عن العظماء في ساعاتهم الأخيرة » . ولسنا نعرف تماماً ما الذي يقصده بالقبريات ، ولكننا لا نظن أنهُ لفظ موفق للكلمات التي يقولها المحتضر على فراش الموت . وقد جاء في « ذيل المعجمات العربية » لدوزي Dozy ان « القبرية » هي نصب ( شاهد القبر ) pierre sépulcrale, tumulaire .

• • •

وبعد فهذه ملاحظات عابرة لا تمنعنا من أن نشكر للأستاذ العقاد إقباله على خدمة التاريخ الاسلامي بالكتابة في سير أبطاله وتبسيط أطرافه وعرضه في الأسلوب السلس الممتع الذي لان له قياده .

زكي محمد حسن



## • البصر وفنه • The Art of Seeing

بقلم ألدس هكسلي Aldous Huxley

½ ١٢ × ٢٠ سم ١٤٣ ص لندن ١٩٤٣

ألدَسْ هكسلي أديب روائي، وشاعر، وعالم، من أسرة علماء مشهورين. وقد روى في كتابه «البصر وفنه» أنه أصيب في صباه — وكان في السادسة عشرة من عمره — بمرض في عينيه كاد يذهب ببصره، فظلَّ ثمانية عشر شهراً كالأعمى، يقرأ بطريقة بريل — أو براي — Braille. — ويقوده خادم حين يمشي. وقد تركه المرض، وإحدى عينيه قد سدر بصرها والأخرى سادّة لا تبصر بصراً قويًّا. وكان السبب في ذلك وجود غبشات في القرنية. وزاد الأمرَ تعقيداً أن في النظر طولاً، وفي البصر انحرافاً. وقد أمره الأطباء أن يستعمل مجهراً يدويًّا قويًّا يستعين به على القراءة، وظلَّ هكذا بضع سنوات، حتى تسنى أن يستعمل النظارات للقراءة والمشي، على أن يضع في أقوى عينيه قطرات من «الأتروبين» فيتسع ناظرها ويستطيع أن يبصر من وراء النكتة التي في ذبابتها. إلى أن كان عام ١٩٣٩ فألفى أن القراءة أصبحت متعذرة على الرغم من النظارات القوية التي كان يتخذها. فحار ماذا يصنع إذا كفَّ بصره، وإذا به يسمع بطريقة جديدة لتدريب العين على النظر، وبمعلمة موفقة في استخدام هذه الطريقة. ولما كانت النظارات لم تعد لها عنده جدوى، فقد استقرَّ عزمه على تجربة هذه الطريقة. «وبعد شهرين اثنين، استطعت أن أقرأ بغير نظارات، وبدون إجهاد أو كلال. وصار ما كنت أعانيه من النَّقص الزمن، ونوبات الاعياء في خبر كان. وظهر ما يدل على أن النكتة التي ظلت خمسة وعشرين عاماً وزيادة ثابتة، قد بدأت ترق وتزول. وأن قدرتي على الرؤية لا بعد من أن تكون عادية، ولكنها الآن ضعف ما كانت حين كنت أتخذ النظارات قبل أن أتعلم فن الرؤية»

وقد ألف كتابه «البصر وفنه» ليقضي حق الشكر للمرحوم الدكتور و. ه. بيتس — W. H. Bates مبتكر طريقة تدريب العين على النظر، وتلميذته السيدة مرجريت كوربت التي تولت تعليم المؤلف، واليها يرجع الفضل فيما أفاد من صحة النظر.

وليست غاية المؤلف أن يصف هذه الطريقة فحسب، بل أن يوفق أيضاً بينها وبين ما انتهى اليه علم النفس الحديث والحقائق والنظريات العلمية والفلسفية الجديدة.

الطبيب يعالج ، والطبيعة تشفي — هذه العبارة المأثورة تلخص مدى قدرة الطب والغاية من العلاج ، وهي أن يهيئ الطبيب للكائن المريض الأحوال الداخلية والخارجية التي تمكن عوامل البرء والصحة من إحداث أثرها . ولولا هذه العوامل الطبيعية التي تحاول في كل كائن حي أن ترده إلى أحوال الصحة ، لما كان للطب حيلة ، ولا للعلاج جدوى ، ولصار كل مرض قاتلاً ، أو لا برء منه .

ويقول هكسلي بعد أن يسوق هذا الأصل ويشرحه إن الذي يحدث حين يذهب ضعيف البصر الى الطبيب هو أن يزوده الطبيب بنظارة ، تصحح الانحراف الذي يرجع اليه هذا الضعف ، ولكن النظارة لا تمحو العلة ، ولا تجعل العين تؤدي عملها على نحو طبيعي ، وكل ما تصنعه هو أنها تبطل تأثير الأعراض ولا تمحو علة الضعف ، ومن أجل هذا يزداد الضعف على الأيام ، وتحتاج العين بعد فترة طويلة أو قصيرة الى نظارات أقوى وأقدر على تقويم الانحراف ، والأمر لا يخرج عن أحد فرضين : أن يكون ضعف البصر غير قابل للشفاء في ذاته ، أو أن تكون طريقة العلاج المألوفة خطأ في خطأ .

وقد اقتنع الدكتور بيتس — وكان رمديّا مشهوراً في نيويورك — بأن علاج الأعراض بحث لا خير فيه ، وان ضعف البصر علته في كثير من الحالات ، سوء استعمال العين ، وأن سوء الاستعمال ذو صلة بالاعياء والتوتر وهما يؤثران في الجسم والعقل جميعاً . وأن هذا الاعياء يمكن إراحة المرء منه ، ومتى تعلم المرء أن يستعمل عينيه ، وعقله ، على نحو لا إجهاد فيه ، فان البصر يقوى ، والانحراف يأخذ في الاستقامة .

ومن الحقائق الثابتة أنهُ كلما كان أداء العضو لوظيفته أحسن ، كانت حالة الأنسجة أحسن تبعاً لذلك ، وليست العين بدعاً ، فتشذ عن هذه القاعدة ، فاذا استطاع ضعيف البصر أن يرخي أعصابه ويعفيها من الشد ، وأن يحسن استعمال عينيه ، فان الفرصة تسنح للطبيعة ، فتعمل عملها .

وكيف نكون على ثقة من أن طريقة الدكتور بيتس أقوم ؟ أن الوسيلة الى الحكم هي النتيجة . وليس أبعث على الثقة من أن النتيجة كانت النجاح في كل حالة . ثم إن طريقته قائمة على قواعد سديدة لا بد منها للنجاح في أي عمل . وكل معلم حاذق يقول لك « تعلم أن تجمع بين الاسترخاء والنشاط ، وأن تعمل بغير إجهاد ، وأن تكد وتجتهد ولكن بدون تشدد »

وقد يبدو أن هذا من التناقض ، ولكن الواقع غير ذلك ، فان الاسترخاء على ضربين :

سلبي وإيجابي . فأما السلبي فيكون بالراحة والكف عن بذل جهد ما ، ولكن هذا لا يكفي لأن الانسان لا يستطيع أن يقضي عمره في راحة . أما الاسترخاء الايجابي فذاك ان تدع جسمك وعقلك يؤديان عملهما على نحو عادي طبيعي لا تكلف فيه ولا قلق ، كأن تحمل على نفسك ابتغاء الاتقان، أو أن يساورك الخوف والاشفاق بلا موجب ، من أن تخطىء ، وكلما صارت « أنا » أبرز ، صارت الطبيعة أخفى ، وعلم الطب لا ينكر ما يحدثه الشعور بالذات من إيهان المقاومة ، وتهيئة الأبدان وإعدادها للمرض . ومتى اشتد القلق أو الفزع أو الجزع أو الحزن وطال ، فان ذلك يستنزف حيوية البدن ويعرضه لأدواء شتى . ولا يعقل أن تخلو الحالة النفسية للانسان من أثر في بعض بصره .

ومعنى الرؤية هو أن العقل يطلع على أشياء في العالم الخارجي بفضل العينين والأعصاب. والعقل والعين والأعصاب تشترك وتتعاون لحصول الرؤية . وكل ما له أثر في عنصر من هذه العناصر يكون له أثره في العنصرين الآخرين . والعين والأعصاب وظيفتها الحس والنقل أما العقل فوظيفته الادراك ، والادراك مقترن بالتجربة ، أي بالذاكرة . فالرؤية الصحيحة ثمرة الحس الصحيح ، والادراك الصحيح . وقد يكون السبب في ضعف البصر راجعاً إلى العين ذاتها ، أو يكون سببه مردوداً إلى حالة الكليتين مثلاً أو الغدة الحلوة أو الحلق ، أو إلى ما يعتور النفس من حزن أو قلق أو اضطراب أو خوف ، وما إلى ذلك من الاحساسات السلبية ، فغير مقبول أن تكون النظارات علاجاً لهذا الضعف .

وبعد أن يبسط المؤلف الأسباب التي تؤدي إلى سوء الرؤية ، ينتقل إلى بيان ما يتبعه الدكتور بيتس وتلاميذه من الوسائل لتدريب العين على النظر الصحيح ، وكله مما لا عسر فيه ، وأول ذلك إفادة الاسترخاء السلبي والايجابي جميعاً . ووسيلته إلى الضرب الأول تظليل العينين بعد إغماضهما بالراحتين ، بغير ضغط أو فرك أو دعك أو غير ذلك ، إلى أن يستحيل مجال النظر كله أسود حالكاً ، ويمكن التعجيل بذلك بتخيل السواد أثناء التظليل ، إلا إذا أحس المرء أن التخيل يكلفه جهداً . وخير من تخيل السواد أن يشغل المرء ذهنه بتذكر ما يطيب تذكره من المناظر والحوادث .

ومن الوسائل أيضاً أن يطرف المرء كثيراً ، فان الجفن حين يطرف يغسل العين وينظفها ، ويحجب الضوء عنها أيضاً ، وقد أثبت علماء النفس ان الحركة من ألزم اللوازم للحس والادراك ، فاذا ظلت الجفون مفتوحة نادرة الحركة فان العين تعدى بهذا الجمود .

ولاحظ علماء النفس ايضاً أن هناك علاقة منتظمة بين « الالتفات » و « التنفس » .

فالمرء مثلاً حين يرنو الى شيء ليستثبت ، يعلق أنفاسه بضع ثوان ، أو يتنفس تنفساً خفيفاً غير عميق ، ولا بدّ لصحة النظر من أن تكون دورة الدم وافية حول العين وفيها ، ومن أجل هذا يجب أن يتنفس المرء تنفساً طبيعيًّا وهو ينظر .

ويجب أن يُطرد الخوف من النور ولو كان شديداً ، فليس للخوف منه داع ، والحيوان يحتمل الضوء في كل حال ، ولا يؤذيه ذلك ، ومن أجل هذا يستهجن الدكتور بيتس وتلاميذه اتخاذ النظارات السود أو الملونة ، لأن الضوء إنما يتعب العين المجهدة ، ومن هنا يتولد الخوف من الضوء ، وينشأ الشعور بالحاجة الى حجبه ، فالعلاج هو نفي الخوف وإرخاء الأعصاب ، بل يذهب الدكتور بيتس إلى حد النصح « بحمام الشمس » للعين . ويقول إنهُ لاخير من الشمس إلاَّ إذا حدّق المرء فيها وشخص اليها ، أما مع الاعتدال والقصد فلا ضرر ، وكل إسراف مضرة ، وطريقة « حمام الشمس » هي أن تغمض العينين ، وترفع الوجه الى الشمس ، وتحركه يمنة ويسرة ، بضع ثوان ، ثم تفتح العينين وتحرك وجهك ذات اليمين وذات الشمال ، فان ذلك خليق أن يفيدك القدرة على احتمال الضوء

ولما كانت الحدقة لا تستطيع أن تبصر بكل أجزائها على حد سواء ، وإنما ترى على الخصوص ما تأخذه الذبابة التي في انسان العين ، فان الرؤية الصحيحة تكون بهذه الذبابة ، والرؤية التامة لا تتسنى الاَّ بالحركة التي تنتقل بها الذبابة من موضع الى موضع من الشيء المنظور . ومن هنا كان لا بدّ لصحة الرؤية من تعويد العين والعقل أيضاً هذه الحركة اللازمة التي يصف لها الدكتور بيتس ما يرى أنهُ أعون عليها .

ومن العسير أن نورد في هذا الفصل الوجيز خلاصة وافية لما اشتمل عليه الكتاب ، وكل ما قصدنا اليه من التنويه بهِ هو لفت النظر الى هذا الأسلوب الجديد في علاج ضعف البصر ، وقد أسلفنا أن المؤلف يقول إنهُ استفاد قوة في بصره لم تكن معهودة بعد أن قارب العمى .

وبعد ، فليس ضعف البصر مما أشكو ، ولكني احتجت الى اتخاذ النظارات ، لأن أعصاب العين تفقد مرونتها مع ارتفاع السن كما قال لي الأطباء ، واحتجت الى تغييرها كل بضع سنوات ، وقد جربت بعض ما وصفه المؤلف في كتابهِ وقال إنهُ يكسب العين صحة في النظر وقوة ، وأشهد أني أصبحت أقدر على القراءة بغير نظارة ، وأكثر استغناءً عنها .

فلعل أطباءنا الرمديين يعنون بهذا الكتاب ، ولا يبخلون علينا برأيهم فيه

ابرهيم عبد القادر المازني

• دراسات عن مقدمة ابن خلدون • بقلم أبي خلدون ساطع الحصري

١٤٫٥ × ٢١٫٥ سم جزآن ٣٢٤ ، ٢١٦ ص

مطبعة الكشاف بيروت ١٩٤٣ و ١٩٤٤

استوعب المؤلف درس مقدمة ابن خلدون ، استيعاباً بديعاً دقيقاً ، في كل ناحية من نواحيها ، وكشف عن أسرارها وعن مزاياها ، في هذا السفر الضخم النفيس .

إنهُ يكشف لأبناء العروبة عن كتاب هو مفخرة من مفاخر العرب في القرن الثامن الهجري ، لم يلقَ من عنايتهم ما لقيه من عناية غيرهم من الترك والافرنج ، إلاَّ قليلاً . فلا تزال طبعاته ناقصةً محرفةً ، ولا تزال نظرياته عندهم بكراً لم يفترعوها ، ولا يزال الكتاب عنهم محجوباً .

أليس مما يؤسف له أن تطبع « مقدمة ابن خلدون » في مصر والشام طبعات عدة ، ليس فيها طبعة معتمدة ، ولا كاملة محققة ، وأن تكون الطبعة الوحيدة التي يمكن الثقة بها هي طبعة باريس سنة ١٨٥٨ م باعتناء المستشرق « كاترمير » ، التي اعتمد فيها على أربع نسخ مخطوطات ، والتي أثبت فيها زيادات جمة لم تذكر في غيرها ؟ يقول المؤلف في ذلك : « فإذا قارنّا إحدى هذه الطبعات بطبعة باريس نجد أنهُ ينقص منها أحد عشر فصلاً كاملاً من الفصول المهمة ، كما ينقص منها عدد غير قليل من الأبحاث والفقرات من الفصول المختلفة ، وإذا أحصينا مجموع صفحات هذه الفصول والفقرات الناقصة نجد أنها تزيد على الستين » .

ومن مزايا الكتاب أنهُ قد استكمل كثيراً مما نقص في طبعات المقدمة ، نقل بعض الفقرات الناقصة ، ونقل بعض الفصول المتروكة ، استكمالاً للبحث ، وتقريباً على القارئ ، وقد صارت طبعة باريس من أندر النوادر .

أوَليس من العجائب أيضاً ما يقول المؤلف : « إن أهم الدراسات التي كتبت بأقلام بعض الشبان العرب ظلّت خارجة عن نطاق المطبوعات العربية الى الآن » .

لقد درَس أبو خلدون سلفه العظيم « ابن خلدون » دراسة دقيقة جامعة ، درْس عالم محقق ، يصيب كثيراً ويخطئ قليلاً ، إن أصاب فعن معرفة وثبات ، وإن أخطأ فبعد بحث وجهد ، وله لا عليه في الحالين : اجتهد فأصاب أو اجتهد فأخطأ .

ونظر نظرة عادلة في نقد كتب المتقدمين ووضع له قاعدة دقيقة : أن لا ينظر اليها بمنظار العلوم في هذا العصر، وإنما تقاس الى ما كان من قواعد العلم في العصر الذي ألفت فيه .

وعلى هذه القاعدة العادلة سار المؤلف في دراسة المقدمة ونقدها والموازنة بينها وبين ما ثبت علميًّا في العصور السالفة والعصر الحاضر ، وتتبَّع عمل الرجل في طريقة درسه المسائل ، وطريقة تفكيره ، وشهد لهُ شهادة صحيحة قيمة حين يقول : « إن أبرز صفات تلك العقلية هي شدة التشوف ودقة الملاحظة ونزعة البحث والتعميم وقدرة الاستقراء . فاننا نجد في المقدمة كثيراً من الاستقراءات المستندة إلى ملاحظة الواقعات . وقلما نعثر على آثار الاندفاع وراء المجردات والاسترسال في سبيل الاستنتاجات» ج ٢ ص ١٧٣ . ونقل شهادةً لابن خلدون لها قيمتها، من رجل أوربيّ من رجال الدين ، هو روبرت فلينت الذي كان أستاذاً في جامعة أدنبرة ، ونشر في سنة ١٨٧٤ كتاب ( فلسفة التاريخ في فرنسة وألمانية ) قال فيه :

« من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ يتحلى الأدب العربي باسم من ألمع الأسماء ، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى يستطيع أن يقدّم اسماً يضاهي في لمعانه ذلك الاسم . إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ فقط نجد من يتفوّق عليهِ حتى بين كتَّاب العرب أنفسهم . وأما كواضع نظريات في التاريخ فانهُ منقطع النظير في كل زمان ومكان حتى ظهور فيكو بعده بأكثر من ثلاثمائة عام . ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأندادٍ له ، وأما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه . إنهُ يستحق الاعجاب بما أظهره من روح الابتكار والفراسة والتعمق والاحاطة » ص ١٤١ .

ومن أجود ما في الكتاب وأنفسه أن المؤلف عقد موازنات محكمة وافية بين نظريات ابن خلدون ونظريات من جاء بعده من أساطين أوربة . فقارن بين ابن خلدون وفيكو الايطالي ( المولود والمتوفى في نابولي ١٦٦٧ — ١٧٤٤ ) في كتابه ( العلم الجديد ) الذي سمي بسببه « مؤسس فلسفة التاريخ ومؤسس علم الاجتماع » ج ١ ص ١٤٣ — ١٧٠ ومما أثبت في المقارنة أن فيكو يصدق قصص العمالقة ويبني عليها قسماً كبيراً من آرائه ونظرياته في حين أنَّ ابن خلدون يفندها بصراحة وشدة . ثم يوازن بين طريقتيهما في البحث والتفكير ، ويقول : « فلا مجال للشك إذن في أن نزعة ابن خلدون الفكرية في هذا الصدد كانت أقرب من نزعة فيكو الى مناحي الابحاث العلمية بوجه عام والى أصول علمي التاريخ والاجتماع بوجه خاص » ج ١ ص ١٦٧ ثم يسجل حكماً في هذه المحاكمة العادلة بأن حق ابن خلدون في لقب

« مؤسس علم التاريخ » أو « فلسفة التاريخ » أقوى وأثبت من حق كل كاتب سبق « فيكو » كما قال « فلينت » وأقوى وأثبت من حق « فيكو » نفسه ، لأنه كان أقدم منه كثيراً ، ولأنه كان أقرب منه الى الروح العلمي الحديث » ج ١ ص ١٧٠

وعقد فصلاً آخر في المقارنة بين ابن خلدون ومونتسكيو ( ولد سنة ١٦٨٩ ومات سنة ١٧٥٥ ) في كتاب ( روح القوانين )[1] ج ١ ص١٧١ — ١٩٢ ومما يقول في هذا الفصل : « من الثابت أن مونتسكيو كان قد أبدى طائفة من الآراء الاقتصادية التي ثبت بطلانها بعد مدة وجيزة ، كما أنه أغفل كثيراً من الحقائق الاقتصادية التي تمّ اكتشافها قبل مرور مدة طويلة مما يدل دلالة قطعية على أنه لم يتفوّق على معاصريه تفوقاً كبيراً في أبحاثه الاقتصادية. في حين أن ابن خلدون كان قد سما فوق معاصريه سموّاً هائلاً في هذا المضمار ، كما أنهُ ظل يحلق فوق مستوى الذين جاؤا بعده أيضاً ، في الشرق وفي الغرب ، مدة قرون عديدة » ج ١ ص١٨٢

وعقد أيضاً فصلاً جليلاً عن ابن خلدون وعلم الاجتماع ج ١ ص ١٩٣ — ٢٠٥ بيّن فيه أن علم الاجتماع أحدث العلوم الأساسية ، ويعزى تأسيسه الى أوغست كونت ( سنة ١٧٩٨ — ١٨٥٣ ) وأن حق ابن خلدون بلقب « مؤسس علم الاجتماع » أقوى من حق كونت ، لأنهُ فعل ذلك قبله بمدة تزيد على ٤٦٠ سنة . أقول أنا : وقد أدرك ابن خلدون أنه يضع علماً مستحدثاً في الاجتماع إذ يقول : « وكأنّ هذا علم مستقلّ بنفسه ، فانه ذو موضوع وهو العمران البشريّ والاجتماع الانساني ... واعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة أعثر عليه البحث وأدّى اليه الغوص ... وكأنه علم مستنبط النشأة ، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاه لأحد من الخليقة الخ » المقدمة ص ٣٦ ، ٣٧ من طبعة بولاق سنة ١٣٢٠

وهكذا من مزايا الكتاب ، مما لا نستطيع أن نحصيه في هذا المقام ؛ ولا نستطيع أن نفيه حقه من الثناء ، إلاّ أن نوصي كل قارئ عربيّ أن يستوعب الكتاب قراءة ودرساً ، ليفيد علماً جمّاً ، وعقلاً سديداً

• • •

وفي الكتاب مآخذ ليست بالكثيرة ، جلها مما يرجع إلى مقدرة المؤلف وعلمه بالعربية.

---

(١) كتاب مونتسكيو ترجم منه يوسف آصاف النصف الاول ، باسم ( أصول النواميس والشرائع ) وطبع هذا الجزء بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٨٩١ وهو عندي ، ولا أدري أترجم النصف الثاني وطبع أم لا ؟

فان الكتاب كُتب بلغة غريبة ، في كثير منها نبوّ عن العربية في اللفظ والأسلوب

ولسنا نفصل القول في ذلك، ولكنا نضرب فيه الأمثال : « حين كان مفكرو أوروبة لا يزالون يتيهون في فيافي التفكير الكلامي الدرساني » ١ : ٢٥٠ — « يلاحظ أن مواضيع كل حد من حدود هذه السلسلة أقل عمومية وأشد معضلية من التي قبلها ، وأشد عمومية وأقل معضلية من التي بعدها » ١ : ١٩٤ — « وبهذه الصورة أصبح علم الاجتماع يسيطر على جميع العلوم الاجتماعية ، أرضي أم أبى أصحابها ، وأخذ ينفخ روحاً تقدميًّا فيها » ١ : ١٩٨ . « ان معظم مباحث المقدمة مكتوبة بنزعة علمانية وعقلانية » ١ : ٧٣ « ان الأفاعيل الحياتية أشد إعضالاً من الحادثات الكيماوية » ١ : ١٩٣. وهكذا مما ملئ به الكتاب مما يباعد بينه وبين العربية .

وقد أتى المؤلف مراراً بفعل « استهدف » متعديًّا ، مثل : « فانها لا تستهدف شيئاً » ١ : ٩ وهو فعل لازم ، لا يؤدي المعنى المراد هنا ، وليس هذا الخطأ خاصًّا بالمؤلف ، بل رأينا كثيراً من كبار الكتّاب بعصر يقعون فيه .

وأنا أوقن أن ضعف لغة الكتاب لم يكن عن عمد من مؤلفه ، ولا تقصيراً منه في استكمال لغته . ولكن يبدو لي — ولم يسبق ليَ شرف التعرُّف إليه — أنه نشأ على دراسة أجنبية ، شأن كثير من نبهاء هذا العصر ، ثم شغلته الحياة عن التعمق في العربية وعن التمرس بفصيح الكلام .

• • •

وقد عقد المؤلف فصلاً عن تطور الألفاظ واختلاف دلالاتها باختلاف العصور والموضوعات وهو شيء معروف في العربية ، وإن كان يوهم كلامه أنه شيء مستحدث ، ثم ضرب من أمثلة ذلك كلمتي « الأبنية » بمعنى الخيام و « المصانع » بمعنى المباني ، جعلهما كأنهما اصطلاح خاص أو استعمال مستحدث لابن خلدون ، وليس كذلك . فان « الأبنية » كما تطلق في العربية على المباني تطلق على الخيام ، بل لعلها في الخيام أقدم ، ففي اللسان : « البناء واحد الأبنية وهي البيوت التي تسكنها العرب في الصحراء فمنها الطراف والخباء والبناء والقبة » و « المصانع » معروفة جاءت في القرآن الكريم : « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » سورة الشعراء آية ١٢٩ . والمصانع هي ما يصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها ، قال الأزهري : « ويقال للقصور أيضاً مصانع »

وقد ترجم المؤلف اصطلاحاً افرنجيًّا ترجمة عجيبة، لا تطابق المعنى، وينبو عنها السمع. فانهُ نقل عن علماء الاجتماع المتأخرين تقسيم الحكمة والسلطة الى «السلطة المنتشرة» التي لا يختص بها أشخاص معينون ولا تتعهدها هيآت منظمة، والسلطة «المتعضية» التي يختص بها أشخاص معينون وتتعهدها هيآت «متعضية» وفق أنظمة معينة. ج ١ ص ٢٤٥. فهذه «المتعضية» يريد بها السلطة الموحدة المنظمة، يترجم بها كلمة Organisé وأصل الكلمة الفرنسية، كما وجدت في المعاجم وكما أفادني بعض العارفين، معناها: ذو أعضاء، فاشتقَّ منها المؤلف كلمة «متعضية» ولكن علماء الاجتماع لا يريدون هذا فانهم نقلوها إلى إرادة معنى «السلطة الموحدة المنظمة»

فهذا تكلف من المؤلف، لم يكن به اليه حاجة، ألجأه الى كلمة ثقيلة، وإلى اشتقاق إن وافق العربية وافقها على معنًى ينقض ما أراد، فان «التعضية» التفريق، وهو مأخوذ من الأعضاء، كما في اللسان، وهيهات هذا من ذاك.

والمؤلف يؤرخ الحوادث العربية الخالصة في الكثير الأغلب بالتاريخ الافرنجيّ يقتصر عليه، وقد يضم اليه التاريخ الهجري في بعض أحيانه. وليته جعل التاريخ الهجريّ أساس تأريخه، وهو يؤرخ لمؤلف إسلاميّ يكتب في تاريخ الاسلام وعلوم الاسلام.

ثم خاض المؤلف في موضوع شائك، الجدال فيه بغيض وعقيم: موضوع الدين والعقيدة، والعقل والتفكير والعلم، في مواضع متعددة، انظر منها مثلاً (ج ١ ص ٤٢ — ٤٨، ٧٦، ٢٤١ — ٣٤٣ وج ٢ ص ١٥٠ — ١٧٢) ويبدو لي أنه متأثر في كتابته بنظرية العداء بين العلم والدين وبين العقل والدين، وهي نظرية بالية، خجلت حتى احتجبت، وذلت حتى استكانت. ولو أعرض عن الخوض في هذا الموضوع أنصف نفسه، إذ يخيل لمن يقرأ ما كتب أنه قد خفي عليه كثير من دقائق الدين والشريعة وظواهرهما، وأن ذلك كان ذا أثر بيّن فيما فهم من كلام ابن خلدون وأدرك من مراميه

والكتاب في جملته من أقوى الكتب التي ظهرت في بضع سنين، فيه علم جم وآراء سديدة. ونتمنى أن يعيد المؤلف النظر في لغته عند إعادة طبعه، إن شاء الله.

احمد محمد شاكر

• العلم في الحرب • بقلم أمين إبرهيم كحيل

١٣ ½ × ١٩ ½ سم ١١٨ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

كل من يستقري تاريخ الحرب والعلم ، يجد بينهما علاقة مطردة . فالعلم يمد المقاتل بأدوات جديدة للفتك والتدمير ، تمكنه من مفاجأة عدوه بها ، وقد تكون سبيله الى الظفر بعد احتمال الهزيمة . والحرب تحفز العلماء الى ابتكار أساليب ووسائل جديدة ، أو اتقان القديمة ، فيصيب العلم ، حتى البحت منه أحياناً ، قسطاً وافراً من الارتقاء لا يمكن إهماله. فكشف البارود واستعماله جاءا نتيجة لبحث علمي صناعي في أخلاط الأملاح ، ولكنه أسدى إلى العلم يداً بيضاء لا تقوّم بمال . فدراسة فعل التفجر ، وهو فعل كيميائي ، أفضت إلى البحث في طبيعة الاحتراق وخواصّ الغازات . وعلى حقائق هذين الموضوعين ، قامت نظريات الكيمياء في القرنين السابع عشر والثامن عشر

وظاهرة التفجر مهدت لبحث تمدد الغازات ، فإلى المحرك البخاري الذي أوحى به انطلاق قذيفة المدفع ، فشغل الفكر باختراع طريقة لحصر الطاقة العظيمة التي تدفع القذيفة واستعمالها في التحريك . وصنع المدفع حفز نشاط المعدنين وأفضى إلى ارتقاء علوم التعدين وكيمياء الفلزات والكيمياء غير العضوية .

وليس هناك ما هو أعظم استيقافاً للنظر في هذه الحرب من تأثرها بتطبيق البحوث والمكتشفات العلمية ومن تأثر العلم بمقتضياتها من بعض نواحيه . والصلة الأولى معترف بها ولكن الثانية قلما تنال نصيبها من العناية على شدة الحاجة إلى بيان ذلك .

وكتاب الأستاذ كحيل — العلم في الحرب — كتاب جيد في الحدود الضيقة التي اختارها المؤلف له . فهو يميل إلى التبسط في مسائل بعض العلوم التي لها بالحرب صلة وثيقة. والأستاذ كحيل مجيد في التبسيط فهو حين يحاول مثلاً أن يبين منزلة النتروجين في المفرقعات — أو المواد المتفجرة — يقول : « هذه أنواع المفرقعات والغريب في أمرها جميعاً ( على التقريب ) أنها مركبات يدخل فيها النتروجين وأحياناً الأكسجين وعناصر أخرى . والنتروجين هذا من عناصر تكوين الهواء ، وهو عنصر عنيد يكره الارتباط الدائم بغيره من العناصر ، ولا يرتبط حين يرتبط إلاّ مضطرّاً وتحت تأثيرات عنيفة ، فإذا ما أتيحت له الفرصة انفصل سريعاً عما يربطه بقوة وعنف لدرجة يحدث عندها الانفجار . فالنتروجين كالمرأة اللعوب الشديدة الاغراء ، لا تقبل الارتباط الوثيق برجل إلاّ مضطرّة ، ثم لا تكاد

ترتبط به حتى تتحين الفرص للانفصال عنه — فتثير الزوابع وتسبب القلاقل حين تنفصل عنه » صفحة ١٣

وقد بسط المؤلف في ستة فصول نواحي من الحرب، للعلم أعظم شأن فيها، هي: المفرقعات وأنواعها وأسرار تركيبها وتفجرها ونواحي استعمالها. والحرب الكيميائية — أي ما كان له صلة بالغازات والأبخرة واللهب والدخان. والنفط — البترول على قوله — وما أصله وفصله ومنزلته في الصناعة والنقل والقتال، وكيف يصنع بالتأليف الكيميائي حين يعزّ وجود موارده الطبيعية. ثم الخرسانة، والحديد والصلب، والألومنيوم.

ولعلّ الأستاذ كحيل نفسه — وهو متوفر على الكيمياء خاصة — قصر بحكم توفره، بحث « العلم في الحرب » على المسائل التي تمتّ إلى الكيمياء بأدنى سبب. فجاءت فصول الكتاب بالقياس إلى عنوانه، خالية من تبسيط موضوعات علمية أخرى كثيرة لها بالحرب أوثق صلة. فثمة ناحية الطب مثلاً، وقد كان المشهور بين مؤرخي الحروب، أن الأوبئة في الحروب أفتك بالجند من القذائف النارية على أنواعها. فكيف تمكّن العلماء من ضبط الأوبئة وتوقية الجند شرورها. فالاقسام الطبية في الجيوش الحديثة صنعت العجائب في الاحتياط والتنظيم للوقاية والمعجزات في إزاء المصابين. وثمة ناحية النقل، وناحية الغذاء. وفي الناحيتين كلتيهما ما يتحدث بآيات العقل العلمي المبدع، او العقل العلمي المنظم. اما الصناعة على تعدّد نواحيها لحديث العلم فيها عجب لا ينتهي. كيف بدأ صنع المطاط الصناعي طفلاً يحبو، ثم كيف ارتقى في خلال سنتين تقريباً، الى منزلة جبّار عنيد. وما صلة الحرب بما يعرف عن الموارد الطبيعية في قارّات الارض. وكيف ترتبط الخطط الحربية، والأهداف العسكرية، بالمواقع التي تعزر فيها هذه الموارد. كلّ هذا وغيره من موضوعات « العلم في الحرب » قلما تجد له اكثر من ذكر عابر في فصول الأستاذ كحيل.

ونحن نعترف بأن تفصيل جميع هذه الموضوعات كان يقتضي كتاباً أكبر من كتابه كثيراً، أو كتباً متعددة، ومشاركة فريق من الكتاب الذين توفروا على هذه العلوم كما توفر هو على الكيمياء، فكان يحسن في هذه الحال أن يجعل « العلم في الحرب » عنواناً عامًّا لسلسلة من الكتب، يكون كتاب « الكيمياء في الحرب » حلقتها الاولى.

على أن الأستاذ كحيل أسدى في الفصل الأخير من كتابه خدمة جليلة، لتبرئة العلماء مما يكال لهم جزافاً من اتهام بأن ويلات الحروب الحديثة تقع تبعتها عليهم. فتوضيح الرأي في هذا الموضوع واجب، لأن العلماء: « لا يعنيهم إلا أن يبحثوا عن قوى الطبيعة

الظاهرة والكامنة » . فالمادة المتفجرة التي صنعوها ، تدمّر إن هي قذفت من مدفع ، ولكنها تستعمل كذلك في تمهيد الطرق وشقّ المناجم ، والنترات الداخلة فيها تستعمل في التسميد . والطائرة التي تصبُّ النقمة على المدن ، هي كذلك وسيلة من وسائل النقل والانتقال ، تربط بين قارات الأرض . وجهاز « الرادار » الذي يستعمل لتبيُّن الطائرات المغيرة ، يُستعمل كذلك لوقاية الطائرات والسفن إبان السلام ، مخاطر الاصطدام والظلام . أما هل يستعمل الكشف العلمي ، أو الاختراع ، لأغراض الفتك أو لأغراض الإنشاء والتبادُل وتيسير الحياة ، فرجعهُ إلى أخلاق الناس . فالعناية يجب أن تكون بالتربية العالية . والعلم الصادق نفسهُ ، من حيث هو طريقة وأسلوب وطابع فكري ، من أفعل وسائل هذه التربية . فالعلاج لا يكون بخفض شأن العلم ، ومنحهِ « إجازة » كما قال أحد قساوسة الانكليز من سنوات ، بل بالمزيد منهُ ، وبطبع الناس بطابعهِ الأصيل ، جنباً الى جنب التربية الخلقية القائمة على إرشاد الأنبياء والمصلحين وعبر التاريخ .

فؤاد صرُّوف

## • المفضليات • الجزء الثاني للمفضل الضبي

تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون

١٦½ × ٢٣ سم ٢٣٤ ص + ١٩ البارد مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٣

المفضليات هي مجموعة من القصائد العربية يبلغ عددها ١٣٠ قصيدة قيل إنها من اختيار المفضل الضبّي من رواة القرن الثاني الهجري ، وقيل إنها ليست كلها من اختياره (١)

---

(١) لا أجد بداً من التنويه بالمقدمة التي صنعها المحرران في الجزء الأول من هذا الديوان ( القاهرة ١٩٤٢ ) إذ نظرا في قيمة « المفضليات » من جهة تاريخ الادب ( ص ٨ — ٢٤ ) فعمدا الى النقد في سبيل تمحيص النص وتعيين زمنه أو قائله أو متخيره أو حافظه . فتحريا الآراء والاخبار والاقوال وعارضا بعضها ببعض حتى انتهيا من طريق الاستنباط والاستئناس جميعاً الى « أن هذه المفضليات التي شرحها ابن الانباري ليست كتاب المفضل خالصاً ، وان فيه زيادات للرواة ، وان فيه قصائد من الاصمعيات ، وان الاصمعيات ليست كل ما اختار الاصمعي ، بل أدخل بعضه في القسم الاول الذي ميز باسم « المفضليات » . وبعد هذا التمحيص الدقيق — وكان في ود القارىء المستمتع أن تمتد فقره — عرض المحرران في دراية لشروح المفضليات وطبعاتها ( وهنا أهملا الجزء الاول من ط الاستانة ١٣٠٨ ه ) وليتهما لم يوجزا حيث يرقب القارىء بعض الاستفاضة من جانب من تعرف فيه الاحاطة والميل الصادق الى التقصي . هذا ولعل المحررين يرجعان الى ما جمعه بروكلمن في تكملة تاريخ الادب العربي ( ج ١ ص ٣٧ ، ١٧٠ ) فربما أصابا هنالك فائدة — ب . ف .

وقد طبعت المفضليات في مصر مرتين : أولاهما في سنة ١٣٢٤ هـ وثانيتهما في سنة ١٣٤٥ مع شرح وجيز في كل من الطبعتين . الى أن دفعت الغيرة والحفاظ الأدبي الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون الى إظهارها في ثوب طريف معتنًى بالقيام عليه والتحقيق فيه . وذلك عملٌ ليس بالهيِّن ، وجهد ليس بالضئيل . وإني لأتصوّر الشارحين وهما - في سبيل عملهما - ينقبان بين الكتب ، ويقضيان الساعات بين المراجع والشروح والمعاجم والتراجم حتى يتم عملهما على أكمل وجه من وجوه التحقيق الذي نحتاج اليه اليوم في إبراز التراث العربي القديم .

وتحقيق متن هذا الديوان يحتاج من الجهد والصبر وحسن النظر والفهم الى مقدار اجتمع منهُ للأستاذين أوفر نصيب . تشهد بذلك الكتب التي أخرجاها مجتمعين أو منفردين. وكتاب « لباب الآداب » لأسامة بن منقذ الذي أخرجه شاكر ، و « الحيوان » للجاحظ الذي يخرجه عبد السلام هارون هما أصدق مثال على ما نقول .

ومن المخرجين المحدثين للكتب من يريحون أنفسهم ليُضْنوا القارئ ويُتعبوه . . ولكنَّ الاستاذين ممن يتعبون أنفسهم ليريحوا قراءهم . وهو تعب يهوّنهُ عليهما رِضَى الأدب الالباب عنهما .

أليس من التعب والجهد ألاَّ يكتفي الأستاذان بتحقيق المتن والشرح ، فيضيفا فهارس طيبة بالشعراء ، والقوافي والكلمات التي وردت في الشعر ولم ترد في المعاجم ، والأوصاف المختلفة والتشبيهات المأخوذة من البيئة العربية ، ومواضع الفخر ، والمعاني العامة التي توارد عليها شعراء المفضليات ؟.

كان يكون عمل الأستاذين أجل وأشفى لحاجة النفس لو أضافا فهرسين آخرين : أحدهما للمعاني المشتركة أو المتداولة التي اشترك فيها شاعران أو أكثر ، وثانيهما للعبارات المشتركة التي لم يختص بها شاعر وحده أو يستأثر بها دون غيره ولكنها وجدت سبيلاً الى كل شاعر.

فمن العبارات المشتركة في الشعر الجاهلي هذه العبارة : — « تبصّر خليلي هل ترى من ظعائن » للشاعر المرقش الأصغر . صْ ٤٥ سطر ٤ . والشطر بنصه ورد في معلقة زهير حيث يقول:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن تحمّلن بالعلياء من فوق جرثم

( شرح القصائد العشر للتبريزي ص ١٠٣ المطبعة السلفية ) — ثم البيتان :

أعددت للأعـــداء موضونة فضفاضـة كالنّـهي بالقاع
أحفزها عني بذي رونق مهنـد كالملح قطـاع

ص ٨٤ سطر ٦ . يكادان يتفقان لفظاً مع قول حسان بن ثابت :

لقد غـــدوت أمام القوم منتصفا بصارم مثل لون الملح قطـاع
تحفز عني نجـاد السيف سابغة فضفاضة مثل لون النّـهي بالقاع

( ديوان حسان ، شرح محمد العناني الضابط ، ص ١٠ ).

ومن المعاني المشتركة قول المرقش الأصغر :

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

( المفضليات ص ٤٧ سطر ١ ) ويشبهُ قول الشاعر :

والناس من يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولأم المخطىء الهبل

ومن المعاني والعبارات المشتركة قول المرقش الأصغر :

دما يـــدم وتعفّـى الكلوم ولا ينفع الأولين المهـــل

( المفضليات ص ٥٠ سطر ٢ ) ويشبهه قول زهير بن أبي سلمى في معلقته :

تُـعفى الكلوم بالمئين فأصبحت ينجمها من ليس فيها بمجرم

(جمهرة أشعار العرب — المطبعة الأميرية ، ص ٤٩ ).

ومن المعاني والعبارات المشتركة قول الحصني المحاربي ص ١٢٠ سطر ٨ :

لنا العزة القعساء نختطم المدى بها ثم نستعصي بها أن نحطَّـما

ويشبه الجملة الأولى من البيت قول الفرزدق :

لنا العزة القعساء والعدد الذي عليه إذا عد الحصى يتخلف

( شرح ديوان الفرزدق — طبعة الصاوي ص ٥٦٦ — السطر الأول من الهامش ).

والمعاني والعبارات المشتركة كثيرة جدًّا في المفضليات ، وما كان أحوجها إلى مسرد نفيس جديد في نوعه من صنع الأستاذين .

وقد لجأ الشارحان في كل قصيدة إلى عملين جليلين : شرح الجو الذي قيلت فيه القصيدة والدواعي التي نزعت بالشاعر إلى قولها ، وتخريج القصيدة في كتب السير والأدب والدواوين

واللغة وغيرها . وهذا العمل الثاني يقتضي من الجهد والضنى ما يستحق عليه الناشران التهنئة والتقدير .

وما دام الكتاب ديواناً للشعر الجزل الرصين فكم كنا نرجو أن يضع الشارحان جدولاً في ذيل الكتاب بالزحافات والعلل التي وردت في النص ، حتى يكون القارئ على بصيرة منها فلا تشوش عليه موسيقى الشعر . وقد يعتذر الشارحان بأن هذا ليس من سبيل عملهما في إخراج ديوان ، ولكنهما شرحا وعلقا وحققا واستحدثا فهارس لم يسبقا اليها في إخراج ديوان شعري ، فما ضرّ لو أضافا إلى الفضل فضلا ؟

ومن هذه الزحافات والعلل والعيوب الشعرية التي لم يتعرضا لها أصلاً سناد الاشباع ص ٢٦ سطر ٨ . ففي البيت اختلاف حركة الدخيل بحركتين متقاربتين في الثقل . وقد وقع هذا العيب في ص ٨١ البيت الخامس . وفي صفحة ٣٣ البيت الرابع .

ومن العلل « الخرم » الوارد في ص ١١٧ سطر ١ وفي ص ١١٨ سطر ٤ .

• • •

أما البيت المشهور للمرقش الأكبر :

النشر مسك والوجوه دنا نيرُ وأطرافَ البنـــان عَنمْ

فقد ذكر الشارحان في الهامش ص ٣٨ أن كلة دنانير يقرأها كثير من الناس مصروفة وهو خطأ — اهـ . وهذا صحيح . ولكن ما بالهما استعملا هذا الخطأ في صفحة ٣٩ المقابلة . فقد أوردا البيت :

بيض مصاليتٌ وجـــوههمُ ليست مياه بحارهم بعُـمْ

بصرف كلة مصاليت . والصواب منعها من الصرف مع استقامة الوزن ، فالقصيدة من البحر السريع . وتقطيع الشطر الأول : مستفعلن مفتعلن فعلن . وذلك مأخذ ما كان ينبغي أن يفوتهما

وبعدُ . فالمفضليات في ثوبها الجديد عمل يهنأ عليه الشارحان . والكتاب لا غنى عنهُ للأديب الذي يود الاستيثاق من لغته الشريفة والتمكن من أساليبها القديمة التي هي ثروة الكاتب وعدّة الأديب

وفق الله الأستاذين إلى إتمام عملهما بنشر كتب المتقدمين نشراً مثل هذا تطمئن إليه النفس ويعتمد عليه الباحث .

محمد عبد الغني حسن

• تقي الدين أحمد بن تيمية • بقلم هنري لاوست H. Laoust

١٦ × ٢٤ سم جزآن ٧٥٥ ص ، ٢٤٧ ص

المعهد الفرنسي للآثار الشرقية القاهرة ١٩٣٩

من جلائل أعمال فرنسة المثقفة قيام تلك الدار في حيّ المنيرة بالقاهرة : دار المعهد الفرنسي للآثار الشرقية . وبأمثال هذه الدار الرفيعة تعوّض فرنسة ما قد يبدر من بعض رجالها في الشرق خاصةً في غير ميدان الثقافة . وتخرج هذه الدار كتباً على التتالي هي مثال التأليف العلمي الرصين . وهـذا الكتاب آخر ما خرج من الكتب ، وصاحبه المستشرق لاوُسْت الدكتور في الآداب من السربون ومدير المعهد الفرنسي بدمشق . وأما موضوع الجزء الأول فمحاولة في عرض مذاهب ابن تيمية الحنبلي المتوفى بدمشق سنة ٧٢٨ ﻫ في جانب السياسة والاجتماع . وفي هذا نفي لقول من يقول إن الفقهاء من المسلمين أصحاب حيَل جوف وآراء مجرّدة ونصوص جافـة . فالفقهـاء المبرزون ـ وفيهم ابن تيمية ـ لابسوا أحوال العصور وتعرَّفوا صفات أهلها ، فذاهبهم كالمرايا

وطريقة المؤلف الفحص عن البيئة التي نشأ فيها ابن تيمية وتصفح خصائصها ، ثم تبين مزاج ابن تيمية وطبعه وحاله ، ثم درس مذهبه درساً ممعناً آخـذاً بالباطن والبعيد والغريب والقوي ، ثم تتبع أطوار المذهب في التمادي والانحراف والتكامل والتمايز . وعلى هذا كسر المؤلف كتابه ـ وهو يسميه متواضعاً : محاولة ـ على ثلاثة أبواب : الأول في قيام مذاهب ابن تيمية متأثرة بالبيئة والنشأة العقلية والجهاد الاجتماعي . والثاني في أركان المذاهب ـ وهي الله والرسول والسلَف والاجتهاد بجنب أصول الفقه ـ ثم العناصر التي تؤلف المجتمع والدولة ـ وهي الأمة أو الجماعة وأهل الكتاب فالإمامة والنواب ـ ثم غاية الأمة والامامة ـ وهي إقامة شعائر الاسلام والحدود والتعازير وقَسْم الأموال وحقوق الناس . والثالث في أثر هذه المذاهب وانتقالها ـ بالرغم من المناوآت ـ الى أمثال ابن قيِّم الجوزية وابن كثير ، ثم علوها على أيدي « الوهابيين الموحِّـدين » في التوحيد والسياسة والعبادة . ثم انبعاثها قليلاً أو كثيراً بين يدي محمد عبده ورشيد رضا . كل ذلك مسطّر ومسلسل في تمـكن وتتبع واستقصاء . ولهذا الجزء الضافي ملاحق في التفاصيل مثل عقيدة الوهابيين وقانون الحجاز الحديث ، ثم في المراجع وهي كثيرة جدًّا والمسارد وهي مستفيضة

وأما الجزء الثاني فإمداد لدراسة اجتهاد ابن تيمية وأصول فقهه . وقد نقل المؤلف

الى اللغة الفرنسية لأجل ذلك مؤلَّفين لابن تيمية هما : « معارج الوصول ، الى معرفة أن أصول الدين وفروعهُ قد بينها الرسول » و « القيـاس في الشرع الاسلامي » . وقد جعل للترجمة توطئة مفصلة بيّـن فيها دقائق أصول الفقه عند ابن تيمية وطرائق قياسه

هذا ولا اشك أن المستشرق لاوُست صاحب فضل ، وأن الجهد العلمي الصرف الذي بذله في التعريف بابن تيمية ، ذلك الفقيه الذكي المخلص الزاهد ، سيلقى من الشرق والغرب ما هو أهل له من الإكبار . وفي الأمنية أن يقبل أحدنا بعد استئذان المؤلف العالم على ابراز هذا الكتاب الى لغتنا لتعم الفائدة

*[1]

• الاسلام والفنون الجميلة • بقلم محمد عبد العزيز مرزوق

١٥ × ٢٣ سم ٣٢ ص و ١٥ لوحاً فنياً دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤

هذه رسالة صغيرة في موقف الاسلام من الفنون الجميلة، استطرد المؤلف في بدايتها فكتب أكثر من ثلثها في عصر ما قبل التاريخ والوثنية واليهودية والمسيحية وحالة الفنون الجميلة في كل منها ، ثم انتهى الى الكلام في الاسلام والفنون الجميلة فتحدَّث بإيجاز في فنون الخط والزخرفة والعمارة وفي تحريم الربا وكراهية التصوير وتنظيم استعمال الذهب والفضة والحرير وفي النقابات المساعدة والحسبة والوقف . وختم ذلك كله بشرح خمس عشرة صورة

ومما يؤسف له أن إحدى عشرة منها منقولة بحجمها عن كتب نشرت قبل الآن، ويا ليت المؤلف عني بنشر صور جديدة وترك النقل . ومما نتمناه أيضاً أن يجري المؤلفون في مصر على سنة التمسك بالأمانة العلمية فيشيروا تحت كل صورة الى الكتاب المنقول عنهُ ، ولاسيما اذا كانت صور المؤلَّف الجديد مطبوعة على أصول الرسم clichés المستعملة في المؤلفات السابقة . وهذا يبدو جليًّا في الكتاب الذي نحن بصدده

وعلى أية حال يستحق المؤلف الثناء على إقباله على الكتابة في الفنون الاسلامية والتعريف بها في ذلك الايجاز المشوق

*

---

(١) النجم يرمز الى اسم من أسماء المتعاونين على إخراج الباب .

# ٣ – الاستدراك

---

• الحيوان • الجزء الخامس للجاحظ

بتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون

١٧ × ٢٤ ٦٣٩ ص مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٣ *

— ذكر الجاحظ في ص ٢٥٣ أن « قد كان ناس من أهل سيف البحر من شق فارس يأكلون الفار والضفادع » . قلت : وقد مررت في سنة ١٨٩٤ أي قبل خمسين سنة بالضبط بسيف خليج فارس أو بحر فارس ، ورأيت عرباً يأكلون ضفادع ، فكانوا يقطعون أفخاذها ويشوونها شيًّا على النار ويستطيبونها ، ودعوني إلى أكلها فاستقذرتها ، ثم ألحوا عليّ إلحاحاً شديداً ، فأكلتها تطييباً لخاطرهم ، فاستطبتها ، فاشتريت منها كمية منهم ، وشكرتهم على هذه الدعوة ، فكانت أفخاذ الضفادع أطيب من لحم الدجاج ، فليجرب من يشك في قولي . وأعاد الجاحظ مثل هذا الكلام في ص ٥٣٠

— قال المحرر في ح ٢ من ص ٢٧٧ : « والتؤام : المزدوجات جمع توأم وهو من الجمع العزيز » — قلنا : وهذا كلام كثير من النحاة واللغويين، وقد جمعنا نحن أكثر من ٣٥ لفظاً على فعال بضم الأول . فكيف يكون عزيزاً ؟

— وفي ح ٢ من ص ٢٧٨ كلام على الزباء ، وأحسن مقال ورد في هذا البحث ، ما جاء في مجلة المشرق ، في إحدى سنواتها الأول . ولستُ بين يدي خزانتي لأذكر السنة والصفحة ، لكني واثق مما أقول فليراجع .

— في ح ٤ من ص ٢٧٩ : « تبت بلاد بالصين » والصواب أنها بلاد واقعة في شرقيّها وليست منها .

— وجاء في أنف ص ٢٩٩ هذا البيت :

واذا في الغباءِ سم بُريْص ، . . .

فقال المحشّي : أراد بهِ سامّ أبرص وهو الوزغة . وهذا اللفظ لم يرد في المعاجم ،

---

* راجع الفصل الاول من هذا الاستدراك في العدد الماضي

ولا أحسبه إلاّ لغة عامية » — قلنا : هذا اللفظ قصر « سامّ أبرص » . وقد تصرف فيه تصرف الشعراء في الكلم من قصر وزيادة وتغيير ، وليس من كلام العوام .

— في ح ٦ من ص ٣٠٤ شرح الناشر الزباد فقال : « كسحاب : ضرب من الطيب ، وهو عرق حيوان يشبه السنور » — قلنا : الزباد حيوان كالسنور له عند مخرجه جراب صغير فيه مادة دهنية ذكية الرائحة اسمها اسم الحيوان نفسه .

وقال في آخر هذا البحث : « قال صاحب القاموس : وغلط الفقهاء واللغويون في قولهم : الزباد دابة يجلب منها الطيب . وإنما الدابة السنور ، والزباد الطيب » — قلنا : الذي قاله الفقهاء واللغويون هو : الزباد دابة يحلب منها (بالحاء المهملة لا بالجيم) الطيب ، فحينئذٍ لا غلط ولا وهم ، وإنما سميت المادة الدهنية زباداً تسمية صحيحة . وسميت الدابة زباداً أيضاً من باب حذف المضاف وإبقاء المضاف اليه . فكأنهم قالوا للدابة : سنور الزباد ، أو دابة الزباد . ومعنى يحلب منها الطيب : يعصر منها الطيب ، وهي تربى في بيوت الأهالي في تلك الربوع ، وكلما احتاجوا إلى الطيب ، عصروا ذلك الجريّب واتخذوا الطيب لأنفسهم أو لغيرهم .

— وفي ح ٦ من ص ٣٣٥ : « وبيشة (في قولهم آساد بيشة) موضع تنسب اليه الآساد » — قلنا : والذي في حفظنا أنه من مواضع العراق . وليس الآن بيدي معجم البلدان لياقوت لأتثبت من الأمر .

— وقال الجاحظ في ص ٣٣٦ : « وليس للكلب اسم سوى الكلب ، ولا للديك اسم إلاّ الديك »

قلنا : ونحن نحفظ من أسماء الديك : العُنْتُرُسان والعُنْظُوان » فكيف فاتا أستاذنا الجاحظ هذا اللغوي الجليل ؟

وقال الشارح في ح ٥ ص ٣٣٩ : « الفواخت جمع فاختة وهي ضرب من الحمام المطوّق » . قلنا : إن الفاختة حمامة مطوقة خاصة بالعراق ومعروفة فيه الى هذا العهد بهذا الاسم واسمها Turtur Mesopotamenus بلسان العلم ولها تغريد خاص بها كأنها تقول : كُوكُو وُوْوْكو !

وفي العراق ضروب من الحمام كالشفنين والطوراني ( ويسمونه الطُرآني والطُوارْنِيّ ، بطاء مضمومة وواو مفتوحة والف وراء ساكنة يليها نون مكسورة فياء مشددة) والشورّ والطُرْغُلّ الى غيرها وهي كثيرة ، ولها أسماء عديدة ولا تحضرني الآن .

واما الفاختة فيسميها اليوم عوام العراق غير فصحائهم نخنية (زنة كردية وتركية) ويجمعونها على نخاتي ككراسيّ

— وذكر الجاحظ النُّشَادر أو النشاذر بصورة نوشاذُر ، بضم الذال المعجمة ، ونحن لم نَرَ هذا التقييد في كتاب يعتمد عليه ، ونظن أن هذا الضبط من عمل الوراقين لامنهُ .

وقد قال المحرّر في ح ٦ : « وبلغة العلماء الاوربيين Sal-Ammoniac ولوقال : وبلغة الانكليز ، لكان في منجاة عن كل اعتراض ، لان الاسم العلمي هو Ammoniacus Sal

— ضبط المحرر في ص٣٥٦ « بختيشوع » ضبط قلم هكذا « بُـخْـتِـيشُـوْع » . والصواب هو بفتح الباء الموحدة التحتية ، واسكان الخاء المعجمة ، وكسر التاء المثناة الفوقية ، واسكان الياء المثناة التحتية ، وضم الشين المعجمة ، يليها واو ساكنة ، وفي الآخر عين مهملة . وهو اسم شائع عند نصارى العراقيين الى عهدنا هذا . نعم ، ان بعضهم ضبطوه كما فعل الاستاذ عبد السلام ، لكنهم أخطأوا ، فليس الذنب ذنبه ، بل ذنب من اتخذ هذا الضبط بدون سند

— وذكر المحرّر في ح ٨ من ص ٣٦٠ هذه العبارة : « الانابير جمع أنبار ، والانبار : جمع نبر بالفتح . والانبار : أهراء الطعام . والهري بالضم : بيت كبير ضخم يجمع فيه طعام السلطان » اه

قلنا : الانبار تعريب اليونانية أنباريون ، فلما عربوها ، ظنوا ان (انبار) المحذوف منها أداة الاعراب اليونانية لفظ جمع عربي وأن مفردها (نبر) ، وقد فعلوا مثل هذا الفعل في عشراتٍ من الكلم الدخيلة (كقرن) المدة من الزمن ، والجيل من الناس ، و (القرميد) ، و (الفردوس) ، (والغرش) وكذلك (الهري) بمعنى الانبار فانهُ من الرومية Horreum مبنى ومعنى

— وذكر المحرر في ح ٥ ص ٣٦٢ ان البال من الفارسية . والذي أثبتناه في كتابنا « اغلاط اللغويين الاقدمين » ان الكلمة يونانية وذلك في مقال طويل . وليس الآن تأليفنا بين يدينا ، لنحيل عليهِ النظر ، إلاَّ اننا نتذكر اننا قلنا إن البال والفال من اليونانية Phalaina وليس Phlaina كما ذكرها المحشي ح ٥ ص ٣٦٨

— وذكر المحرر القمل زنة زمج ح ٥ ص ٣٦٨ الوارد في القرآن بأنهُ الصغار من الجراد ، أو صغار الذر . وقيلَ : « دواب صغار من جنس القراد . . » وقد بيّنّا في مقال طويل أدرج في مجلة غرفة تجارة بغداد أن القمل ضرب من الدويبات تقع في بعض السنين على سنابل الطعام فتمتص ما فيها من الماء وتدعها فارغة من كل مادة ولا

نتذكر الآن سنة المجلة ولا اسم تلك الدويبة العلمي.

— وذكر الجاحظ السمك الضخم الذي يكون في الفراتين وسماه الزجر ص٣٦٩ قلنا: وقد مات هذا اللفظ الأرميّ من لغة العراقيين لأنهم يسمونهُ اليوم « البزّ » بكسر الباء الموحدة وشدّ الزاي . وأظن أنها من اللاتينية Piscis ومعناها السمكة من باب التغليب.

— شرح الأستاذ المحرّر البق بقوله في ح ٣ من ص ٣٧٣ :

« البق البعوض . وقيل : هي دويبة مثل القملة ( كذا ) حمراء منتنة الريح تكون في السرُر والجدُر . وبهذا المعنى الأخير تعرف في مصر » اه — قلنا : ان الجاحظ كان بصري المولد بغدادي النشأة . والعراقيون يسمون البعوض بقًّا ولا يعرفون للضمج وهو المسمى بالبق في مصر اسماً في هذا العهد ، لأن الضمج لا يعيش في العراق ، وإذا جيءَ بهِ بطريقة من الطرائق إلى بلادنا ، فانهُ يعيش في الشتاء والربيع ، ولكن اذا جاء الصيف يموت حتماً لشدة الحرّ في ديارنا . وقد سمعت — وأنا صغير من أبناء بغداد — أن مدحت باشا والي بغداد ، جلب من استانبول علباً كثيرة مملوءَة ضمجاً ، فعاش ما كان فيها ، إذ ألقى تلك الدويبات في السجون ليعذب بها المسجونين ، ولما جاء الصيف يبست وماتت ولم يحي منها واحدة . وقد أعاد الجلب أربع سنوات متوالية ، فلم ينجح ، ولهذا لا يرى أثر للضمج في بغداد .

زد على ذلك أن « العرب الأقدمين » لم يريدوا بالبق إلاَّ البعوض الضخم ولم يستعملوها البتة بمعنى الضمج ، أما البق فيمانيّ الأصل ومن اليمن نقل الاسم إلى الانكليزية وغيرها من اللغى ، وذلك في العصور الوسطى عند انشاء السفن في بحر العرب وأرجائه .

وأما قول الكتاب إن البق بمعنى الضمج والكُتَّان يكون في السرر والجُدُر ، فصواب العبارة : في السرُر والحُصُر جمع حصير ، فانه يعيش فيها بمئاتٍ وألوف ، ولهذا تعرف بأم الحصر ، ومن أسمائها أيضاً الفسفس والفسفاس.

وجاءَ في تلك الصفحة في ح ٧ تفسيراً لقول الجاحظ : « إلاَّ أن يقتلها بالعرك والقتل » فصواب العبارة بالعرك والفتل ، بفاءٍ يليها تاء مثناة ، كما وردت في حاشية ص ٣٨٠ ودونك نص الشارح : « وفي ل : « قتلها » ووجههُ بالفاءِ كما أثبت » .

زد على ذلك أن المفسرين الأقدمين لم يفهموا بالبق إلاَّ البعوض ، ومنهُ قولهم إن البقة التي دخلت أنف نمرود اسمها السُّكَينة بزنة التصغير .

— ذكر الجاحظ في ص ٣٨٢ : « تحت النرد قطعة نرد » فعلق عليها الاستاذ النابه

ما هذا نقلهُ : « التخت في المعاجم العربيـة : وعاء تصان فيه الثياب . فارسي معرب . لم يذكروا غير ذلك . وبعيد أن يكون الجاحظ قصد هذا المعنى . وإنما أراد بالتخت اللوح الذي يوضع فوقه النرد . . . وأراد أنهم جعلوا قطعة اللبد بدلاً من اللوح » .

قلنا : ان التخت في لغة العراقيين جاء بمعان شتى منها : السرير يُقعد عليه ، والمتكأ ، والتختة ، بهاء في الآخر : اللوح من الخشب يتخذ لمرافق شتى . فما في كلام الجاحظ هو من هذا الاستعمال .

— ذكر الجاحظ في بيت شعر ( ص ٣٨٦ ) :

« من كرخ بغداد ذي الرمان والتوث »

فالكرخ هنا موضع واقع على الجانب الأيمن من دجلة وكان دائماً كثير البساتين — وأما التوث مختومة بثاء مثلثة فمن العراقيين من يلفظها الى اليوم بثاء مثلثة في الآخر ، ومنهم من ينطق بها بتاء مثناة ، وكلاهما فصيح ، وإن أنكره بعضهم .

— وجاء ذكر الهوْر في ص ٣٩٩ فقال المحرّر : « الهور بالفتح : من قولهم جرف هور أي واسع بعيد . وقولهم خرق هور أي واسع . » اهـ . — قلنا : الهور من مصطلح العراقيين إلى عهدنا هذا ، ويراد بِهِ في لغتهم : المستنقع أو البطيحة تفيض بها مياه غياض وآجام فتتسع » وهذا هو المعنيُّ هنا .

— وقال الجاحظ في ص ٤٠٢ : « إلاَّ أني متى بيَّت معي في القبَّـة ما صار اليها » ـ ولم يشرح المحشّي معنى القبة . فالقبة في لغة الجاحظ وجميع العراقيين : الغرفة والعلية

— جاء في ص ٤٢٢ : « أقبل رجلان ومعهما كلب أزب ضخم ( دَوْسر ) » فقال المحرّر : دوسر ضخم خديد ـ قلنا : والذي عندنا ان الدوْسر كلمة فارسية معناها . ذو رأسين . وذلك أن الكلب إذا كان ضخم الرأس يبين كأن لهُ رأسين فسمي بدوْسر .

وكان للنعمان بن المنذر ملك العراق ، كتيبة اسمها دوسر وهي أشد كتائبه بطشاً حتى ضرب بها المثل . يقال : هو أبطش من دوْسر . كانت مجتمعة من جميع قبـائل العرب وأكثرها من قبيلتين ، ولذلك سميت بهذا الاسم .

— ورسم المحرر شمؤون الطبيب هكذا : شمئون . ويقال فيه شمعون أيضاً بعين في مكان الهمزة وهو من أطباء النبط ، لجيل من الآرميين ، وكانوا يجعلون العين همزة حيثما وقعت

ومثل ذلك يفعل اليوم صابئة البطائح المعروفون عندنا في هـذا العهد بالصُبَّـة ، بالصـاد المضمومة والباء الموحدة التحتية المشددة المفتوحة وفي الآخر هاء .

— في ح ٩ من ص ٤٦٣ قول الشارح : « وأعرف الأقوال في النقد انهُ جنس من الغنم قصار الأوجه قباح الوجوه » قلنا : لعلهُ يريد قصار الأرجل وهي التي تكون قصاراً في الغنم .

— وورد في ح ٨ من ص ٤٦٦ هذه العبارة للاستاذ : « التياس : صاحب التيوس وممسكها » — قلنا : يكفي التياس أن يكون لهُ تيس واحد ، أو أن يكون ممسكاً تيساً واحداً ليصح فيه هذا الاسم .

— ووقع حرف في ح ١ : من ص ٤٧١ في قوله : « ليسوا فرساناً لامعرفة لهم بالخيل » لعلَّ الساقط هو « إذ » فيكون صواب العبارة : ليسوا فرساناً إذ لا معرفة لهم بالخيل .

— وطبع في ص ٤٧٣ في النص والشرح : الغرائر بالياء المثناة : والصواب انها مهموزة كما أثبتناها لأنها غير جوفاء ولا يائية البناء . وكذا يجب أن تكتب المزايد وهي المزاود الواردة في ص ٤٨٥ ح ٥

— وقال الأستاذ المحرر في ح ٨ من ص ٤٧٥ : « السقط ، بالتحريك : ما لاخير فيهِ . لعلهُ أراد بهِ حشوة الذبيحة وأطرافها ، كما يطلق اليوم هذا اللفظ في العامية المصرية » — قلنا : وبهـذا المعنى وردت السقط في العراق ويسمى بائع الأسقاط : سقَّـاطاً وسقطيًّـا وأسْقاطيًّـا .

— وذكر الجاحظ بيتين من الشعر لأبي الأسود الدؤلي ، ونص الثاني منهما هو :

ولا بسبسٍ كالعنز أطولُ رسلها ورِعْمانها يومان ثم يزول

فقال الطرز تعليقاً على « بسبس » كذا وردت — وعندنا ان الكلمة مصحفة أصلها « بشيشٍ » بشينين معجمتين ، يتوسطهما ياء مثناة تحتيـة ساكنة ، والشيش : الشيص بشين وياء وصاد . وهو تمر رديء ، يضرب المثل برداءته ويشبه به الصعب الخلق ، الشرس الطبع من الناس والحيوان .

— وجاء في ص ٤٧٧ س ٤ : « فيشيريه » والصواب : فيشتريه

— وورد في ص ٤٨١ س ٢ : و « الماعزة قد قولد » . والصواب تولّـد

— وقال الوشي في ح ٤ ص ٤٨٢ : «كسكر كورة من كور فارس » والمشهور عند

البلدانيين من كتبة العرب انها من كور العراق إلى عهدنا هذا . وتسمى اليوم (كوت الإمارة) أو هي في جوار تلك القديمة . وربما كانت من كور فارس قبل الإسلام ، ولا عبرة لذلك .

— وذكر المحشي في ح ٥ من ص ٤٨٣ : قائلاً : « وكثيراً ما تطلق المعاجم العربية كلمة « الذكر » على الضرب الكبير من الحيوان » . — قلنا : وأول من نبه على هذا الأمر كاتب هذه السطور وذلك ان العلامة أمين المعلوف رحمه الله زارني في بغداد سنة ١٩٢٢ وذكرت له ان العرب تطلق اسم « الذكر » على ما كبر من الحيوان، طيراً كان أو من ذوات الأربع ، أو من السمك والحشرات ، بل أطلقوا الذكر على بعض المعادن وأنواع الطيب ، فأخذ ذلك عني وأشار اليه في كتاباته . فجاء الأستاذ عبد السلام وقال : « تطلق المعاجم العربية » ، والصواب : تطلق العرب .

— وشرح الناشر « الضال » في ح ٨ ص ٤٨٩ بقوله : شجر . وهو كلام يشمل نباتات عديدة ولو قال : الضال من السدر : ما كان عذياً ، أو السدر البرّي لأفاد الباحث فائدة مريحة للبال واسمه العلمي Zizyphus Lotus أو Rhamnus Lotus وبالإنجليزية Lotus Tree و Wild Jujube و Lotus Jujube وبالفرنسية Jujubier Sauvage, Lotus des Anciens و Jujubier des Lotophages

— جاء في ح ٧ من ص ٥٢٥ : « الرق ، بالفتح السلحفاة المائية » — قلنا : وهذا تعبير غريب، لأن السلحفاة تكون دائماً مائية برية، ولأن الرق لفظة مستعملة إلى عهدنا هذا في العراق ؛ ويراد به العظيم من السلاحف . وقد يتساهل فيه فيطلق على الصغار منها أيضاً.

— وذكر الجاحظ البخ بمعنى الثلج وهي فارسية الأصل (ح ٣ ص ٥٢٦) وهي تستعمل إلى اليوم في العراق إذ يقول أبناء الرافدين : « أبرد من البخ » ويخصونه بما يقع منهُ من السماء، كما يسمونه أيضاً « الوفر » بواو مفتوحة وفاء ساكنة وفي الآخر راء .

— وحكى الجاحظ أن الضفدع « إذا كان صغيراً كان ذا ذنب فاذا خرجت لهُ يدان أو رجلان ، سقط » ص ٥٢٨ ولم يذكر اسمه وهو في ذلك الطور . قلنا : واسمهُ حينئذٍ الشرْغ بالكسر والشرغوف بالضم والشفدع أيضاً وبالفرنسية Têtard وبالانجليزية Tadpole

— وجاء ذكر العلاجيم في ص ٥٣٣ من نص الجاحظ وهذا حرفه : « والعلاجيم : الضفادع السود » اه .

وكثيراً ما كنت أبحث عن حقيقة هذه العلاجيم ، فاذا هي الضفادع السود . أما سائر

أرباب المعاجم فقد ذكروا أنها جمع علجوم والعلجوم، الضفدع عامة . — وقيل : هو الذكر منها . أما الآن فنعتمد على قول الجاحظ أي انه الضفدع الاسود ، ذكراً كان أو أنثى، وهو بالفرنسية Crapaud وبالانكليزية Toad وبلسان العلم ( أي بلسان أهل العلم ) : Bufo Vulgaris

« للكلام بقية »

الأب أنستاس ماري الكرملي
من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

# ٤ — التعقيب

## وصف الجمع بالمفرد

في هامش ص ٣٨ ج ١ من الطبعة الثانية لكتاب « عبقرية الشريف الرضي » جاء تعليق على هذا البيت للشريف :

والحظوظ البلهاء من ذي الليالي أنكحت بنت عامرٍ من ثقيف

ودونك التعليق : « لما ظهر ديواني اعترض أدباء العراق على البيت الآتي :

لم تفتني فتنة الدنيا وزينتها ما في شمائلك الغراء من فتن

وقالوا : لا توصف الشمائل بأنها غراء ، وإنما توصف بأنها غُـرّ . وأطالوا الجدال في مجلة ( أبوللو ) واشترك الأب انستاس الكرملي في الجدال ، وعارضنا معارضة شديدة في منزل أحد الاصدقاء . والآن نرى الشريف يصف الحظوظ بأنها بلهاء لا بله . فلينقل العراقيون الجدال الى شاعر العراق » .

وفي باب التعريف والتنقيب من العدد الماضي ، في « استدراك » الكرملي على « الحيوان » للجاحظ تنبيه إلى أن الناسخ حرّف كلمة « صفراً » أو « حمراً » فدها فجعلها « صفراء » « وحمراء » ونحن نسأل الأب أنستاس عن الموجب للتشكيك في ناسخ كتاب الحيوان، فليس من المعقول أن يكون تعمّد تحريف النص . ونحن على كل حال عند منقول ، وهو حجة إلى أن يثبت الأب أنستاس بنسخة ثانية أن الكلمتين كانتا في الأصل « حمراً » و « صفراً » .

ونرجو منهُ أن يدلنا على أنّ وصف الجمع بالمفرد في بيت الشريف كان أيضاً من تحريف الناسخين وهذا لا يكون بسبب وزن البيت . ثم نقدم له أطيب التحيات

# باب الأخبار العلمية

## اخبار العلم من روسيا

ملخص مقال للكاتب الانكليزي كراوذر

### تكريم العلماء

منذ عام، أعلنت قائمة طويلة بالجوائز التي منحها ستالين لعلماء روسيا المبرّزين تكريماً لهم على ما أسدوه من جليل الخدمات لاتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية. وكان ممن منحوا الهبات المالية الاولى ومقدارها ٢٠٠،٠٠٠ روبل، (أي ما يعادل ١٠،٠٠٠ من الجنيهات) الأساتذة يوف Yoffe، وماندلستام Mandelstam وباپليكسي Papleksi؛ وأيشفلد Eichfeld ومجموع الجوائز اثنتان وثلاثون جائزة قيمتها مجتمعة ٤،٧٠٠،٠٠٠ روبل أي زهاء ٢٣٥،٠٠٠ جنيه، وزّعت على حوالي ستين عالماً من فحول العلماء. ولم يسبق لدولة أخرى أن قامت بعمل مماثل لهذا من قبل. وقد نال بيرنشتين Bernstein مبلغ ٢٠٠،٠٠٠ روبل لأبحاثه الرياضية.

وهذا الحدث يبين بوضوح مكانة العلم السامية في اتحاد الجمهوريات السوفيتية، تلك المكانة التي زادتها الحرب رفعة وسناء. والأسلحة الحديثة لا تكون فعّالة الا إذا بنيت على المعرفة العلمية، ولولا العلم والعلماء لعجز الروس عن آياتهم الباهرة في هذه الحرب

### العلم الموجه Planned Science

طُلب الى « يوف » ، وهو من لننجراد أن يضع خطة لتقدم العلوم الطبيعية وتوجيهها فأسس المعهد الصناعي الطبيعي في لننجراد في شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ Physico Technical Institute من ثمانية أعضاء وكانت مهمته الرئيسية إعداد العلماء النابهين والصناع الحذقين كي يساهموا في بناء الدولة الاشتراكية. وفي السنوات الخمس الاولى، كان جهده الرئيسي منصبّاً على تدريب الطبيعيين المتمكنين. فجمع الطلبة الأكفاء من جميع أنحاء الاتحاد، وزاد عدد المختبرات العلمية، ولم تحل سنة ١٩٢٩ حتى غدا المعهد

مؤسسة كبيرة تضمّ أقساماً عديدة ، رجالها عشرون الفاً بينهم سبعمائة من علماء الطبيعة .

وبينما المعهد ماض في تخريج أعضاء الهيئة الجديدة للعلماء ، أنشئت معاهد جديدة يديرها هؤلاء العلماء الشبان ، في خاركوف ، وتفليس ، وسفردلوفسلك ، ودنيبروبتروفسك ، وتمسك ، وسمرقند وغيرها من المدن ، ناشرين ضياء العلوم الطبيعية في كل مكان يمكن أن يشع منهُ . فانتقل مركز الأبحاث تدريجيًّا إلى الشرق

وفي عام ١٩٣٤ ، نقلت أكاديمية العلوم السوفيتية من لننجراد الى موسكو

وعمل أكاديمية العلوم منصبٌّ على توجيه البحوث العلمية ووضع منهاجها . ويبلغ أعضاؤها زهاء ٩٠ عضواً ، بينهم علماء الطبيعة ، والمهندسون ، والكيميائيون وعلماء طبقات الارض ، وعلماء الأحياء ، والمؤرخون ، والاقتصاديون ، وعلماء اللغة والمستشرقون ، والفلاسفة . وتحتوي بناياتها على ما يزيد عن عشرين مؤسسة للابحاث ، وعدد كبير من متاحف الحيوان والمعادن ، وعلم الانسان ، وتاريخ الاديان ، وغيرها . ويبلغ عدد القائمين على هذه المؤسسات بضعة آلاف

ومن مميزات هذه الأبحاث الموجّهة ، أنها تنمو من أسفل وتنظم من أعلى في وقت واحد . ومن أهم ما تتصف به أن الباحثين الاجتماعيين هم الذين يثيرون المشكلات ثم يقتلونها درساً . وتعدّ العبقرية العلمية والمواهب البشرية ، أهمّ موارد الدولة وأنفسها . فالتوجيه العلمي يرمي إلى تهيئة أفضل الاحوال وأصلحها للعلماء كي يدربوا ملكاتهم وينفعوا مجتمعهم .

## الأجسام الصلبة والمفرقعات

نجح العلماء الروس خاصة في بعض البحوث العلمية حين جمعوا بين المواهب العلمية الطبيعية ، والتوجيه الصحيح

فاهتمت مدرسة « يوف » في المعهد الصناعي الطبيعي بلننجراد ، اهتماماً خاصًّا بدراسة طبيعة الأجسام الصلبة . وبدأ « يوف » وطلبته يدرسون موضوع « قوة البلورات » ، وهو بحث أساسيّ في قياس قوة المعادن إذ جميع المعادن تحتوي على مجموعات من البلورات . والبلورات بدورها تحتوي على ذرات أو جزيئات ، وهذه تتماسك بواسطة مجالات معينة من القوة حواليها . وطاقة هذه القوى معروفة . وقد وجد أن جميع الأجسام الصلبة المعروفة في الطبيعة ، أضعف كثيراً – مئات من المرات أو بألوفها – من هذه القوة النظرية المحتملة . ومن هذه النتيجة يمكن الخروج باستنتاجات بعيدة الأثر . ولعلّ العلماء يظفرون بطريقة تمكنهم من جمع الذرات ، بعضها الى بعض ، فيجعلوا الأجسام الصلبة أقوى من الفولاذ ومن أي

مادة أخرى معروفة . ومن السهل تصوّر تأثير كشف من هـذا القبيل في صـناعة الطائرات ومئات غيرها

وقد اتضح لـ ( يوف ) ولزملائه أن مقـاومة بلورة من الملح الصخري ، زادت عشرين مرة عند ما وضعت في الماء الساخن .

وقد ردّوا هذه الظاهرة إلى محو الشقوق التي بين سطوح البلورات . كما أثبت «جريفث» أن الشقوق الدقيقة في سطوح الزجاج قد تخفض مقـاومته الى العشر . وقد منح « يوف » ٢٠٠٠٠٠ روبل مكافأة له على ما ضمنه مؤلفه عن الموصلات المتوسطة في الطبيعة والصناعة

## التفاعلات المسلسلة

وقد نجح العلماء السوفييت خاصة في الـكيمياء الطبيعية . ومن أبرز العلمـاء « سمنوف » N. N. Semenov ، الذي اخترع النظرية الحديثة الخاصة بالتفاعلات المسلسلة Chain-Reactions وهـذا النوع من الاستجابة أو ردّ الفعـل ، هو الذي يسبب التحولات التي تحدث في الانفجارات وفي انفجار الغازات داخل آلات الاحتراق الداخلي .

ولهذه النظرية قيمة عملية عظيمة

وقد أخرجت مدرسة الـكيمياء الطبيعية للاتحاد السوفيتي ، فريقاً من الاخصائيين المتـازين في المتفجرات وإدارة المحركات وآلات الطائرات .

## الحنطة واللحم

وقد أفاد علم الأحياء فائدة كبرى من بحوث العلمـاءِ الروس في توسيع زراعة النباتات في المناطق الشمالية والقطبية . وقد منح جوهان إيشفلد Johann Eichfeld جائزة قدرها ٢٠٠٠٠٠ روبل لأبحاثهِ في هذا الصدد . وقد بذل العلماء غاية جهدهم لتحسين وسائل زراعة الخضراوات في تلك المناطق ودرسوا تأثير الليل والنهار القطبيين الطويلين فيها

وكان لأبحاث « ليسنكو » Lyssenko في موضوع تبكير نمو الحنطة والنباتات ، نتائج عملية كبيرة ، إذ أصبح من المستطاع تقصير مدة نمو الحبوب بمعالجتها بالحرارة والرطوبة ، وأصبح صيفُ الشمال القصير يكفي لنمو حبوب الحنطة ؛ كذلك أصبح صيف أواسط آسيا المبكر كافياً لتأدية الوظيفة ذاتها . وقد كان جمد الخريف في الشمال – من قبل – يكفي للقضاء على الحبوب ، كما كانت حرارة الصيف المبكر في أواسط آسيا كافية للفحها .

وبواسـطة نظام تبكير نمو النباتات ، أصبح من المستطاع زراعة نباتات الشتاء في

زمن الربيع أو العكس . وقد أفضت هذه المكتشفات الى توسيع زراعة الحنطة ونشرها في ملايين من الأفدنة في شمال الاتحاد السوفيتي وجنوبه الشرقي

وقد أمكن الحصول على نتائج مماثلة من أبحاث ڤافيلوف « N. I. Vavilov » في العناية بالنباتات . وكان نشاطه عالميًّا أدّى إلى تحسين أنواع الحنطة والفاكهة والخضراوات وكشف أصناف منها تحتمل البرودة والجدب وتقاومهما

## التلقيح الصناعي

كذلك أمكن الحصول على نتائج تبعث على الدهشة ، في تربية الحيوانات ، إذ تقدم علماء « الأحياء » في فن التلقيح الصناعي للنعاج والبقر والخيل . وأدّى هذا إلى أن أصبح أفضل الكباش والعجول وفحول الخيل تنتج عدداً كبيراً من الذرية ، والثور الواحد ينتج حوالي ٣٠ رأساً في السنة بالتناسل العادي ، أما التلقيح الصناعي فيمكن الثور من أن ينتج حوالي ١٫٥٠٠ رأس في السنة وهذا يضمن لأناث الماشية لقاح أجود الذكور . وبالاعتماد على التلقيح الصناعي تضاعف إنتاج لبن الأبقار المختارة

## مدرسة الذبذبات اللاسلكية

ومن أعلى مدارس البحث كعباً في روسيا مدرسة الذبذبات اللاسلكية التي يتولى زعامتها بابليكسي N. Papelks وقد منح جائزة مقدارها ٢٠٠٫٠٠٠ روبل لدراسة انتشار أمواج اللاسلكي وذبذباته . ويبحث علماء هذه المدرسة خاصة في ما يسمى « الذبذبات الدائرية »(١) أو التي لا تتحرك في خطوط مستقيمة .

## العلم البحت

يقال عادةً إن تصميم الأبحاث يجب أن يجمع بين العلم البحت والحاجات العملية . ويجدر بنا أن نذكر في هذا الصدد أن الرياضة ، وهي أكثر العلوم جميعها جفافاً ، قد أينعت في الاتحاد السوفيتي ، وخاصة « نظرية الأرقام »(٢) التي تعد زبدة علم الرياضة وقد أدّى هذا الانتشار العلمي الكبير في الاتحاد السوفيتي ، وهذا العدد الوافر من العلماء ، إلى نتائج خطيرة : فأصبحت المعاهد السوفيتية كبيرة جديدة تامة الاعداد ، وانخفض متوسط أعمار العلماء إذ أصبح معظم مديري المعاهد في سن الأربعين ، على حين أن السواد من مساعديهم في سن الثلاثين .

وديع فلسطين

(١) Non-Linear oscillations

(٢) Theory of Numbers

## اينشتين في الخامسة والستين

علق الدكتور فرانك ايديلوت مدير معهد الأبحاث العلميــة على العيد الخامس والستين لميلاد العــالم المعروف « البرت اينشتين » بقوله إن اللاجئين الألمان ساهموا بقسط موفور في الثقافة الاميركية ، ومن بين هؤلاء العالم « اينشتين » الذي كان أستاذاً للعلوم الرياضية في المانيا منذ عام ١٩٣٢ وهو الآن متجنس بالجنسية الاميركية ويتمتع بمكانة رفيعة بين زملائه الاميركيين ، وقد اكتسب الاحترام والحب جميع من الذين اتصلوا به وعاشروه .

وقد امتاز « اينشتين » بتحاشيه الاعلان عن نشاطه الفكري وأبحاثه، وهو يؤثر العمل في هدوء في الاضطلاع بأبحاث مهمة تخدم كثيراً من الأغراض الانسانية الطيبة .

و « اينشتين » كغيره من الرجال الذين هم من طرازه ، لا يستطيع العيش في بلد تنكر فيه حرية الفكر والقول ، لأنه متى نقدت هذه الحرية استعصى على العالم أداء رسالته ومن أجل هذا غادر « اينشتين » المانيا لاجئاً الى الولايات المتحدة ، حيث لقي من حفاوة الديمقراطيــة الأميركية وكرمها ما فسح أمامه مجال العمل والتفكير في جو حر كل الحرية » .

## تسديد مدافع الدبابات المتحركة

في جبــال صقلية استعملت الجيوش الاميركية دبابات م ٤ وكانت هــذه الدبابات تتصف بمزية لا تتصف بها الدبابات الألمانية فالدبابات الاميركية كانت تسدّد مدافعها وهي ماضية في طريقها . وأما الألمانية فكان عليها أن تقف لتعيد تسديد مدافعهــا حين يخرج الهدف الأول من نطاقها ، فان لم تفعل تساقطت قنابلها اعتباطاً

ومرجع هذا الجهاز في الدبابات الاميركية الى اختراع تمَّ في أيام السلام . فقد عُني مهندسو شركة وستنهوس بابتداع طريقــة تستعمل في القطر والمركبات البخارية فتمنعها من الارتجاج وهي سائرة على الخطوط الحديدية أو الطرق . فلما نشبت الحرب ، حوّلوا هذا الجهاز الى جهاز جديد يضبط ضبطاً كهربيّــا مدافع الدبابات من عيار ٧٥ مليمتراً فأصبح مدفعيُّ الدبابة قادراً على تسديد مدفعه في سرعةٍ ويُسر ، وبدلاً من أن يفقد شيئاً من إحكام رمايته غدت رمايتهُ أسدّ مما كانت خمسة أضعاف

وقد قال رئيس قسم المدفعية « إننا نستطيع أن نطلق هــذه المدافع من دبابة متحركة ، وهو ما لا يستطيعهُ العدو ، وأهم من هذا أننا نصيب الهدف »

# فيتامين مالطة

إنَّ القلة وشظف العيش اللذين عاناهما سكان جزيرة مالطة خـلال الفترة الطويلة التي تعرضت فيها للهجوم الجوّي العنيف المتواصل ، أفضيا إلى كشف عامـل غذائيّ لا غنى عنهُ في الإبصار السويّ . ولعلَّ هذا العامل الغذائي من طائفة الفيتامينات .

ويرجع كشف هذه المادّة على ماجاءَ في رسالة تلاها في جمعية الجراحين الحربيين الأمريكيين مارشال الجوّ السر هارولد هوتنجهام الى قائد السرب توماس ماكري المختص بعلوم الغذاء وقائد الجناح كيث لايل المختص بطب العيون .

وقد عثر السر هارولد على « فيتامين الابصار » هذا في الموالح مثل الـبرتقال والليمون .

أما كيف كشف هذا الفيتامين فقصة عجيبة . فقد لاحظ ماكري ولايل أن قوة الإبصار ليلاً في سكان مالطة ضعيفة . فلما امتحنوا وأضيف عصير البرتقال إلى طعامهم عادت إلى عيونهم القدرة على الإبصار ليلاً ، في نحو أسبوع . وأجريت مباحث من هذا القبيل في تونس ، حيث أسفر الامتحان عن تحسين القدرة على الإبصار ليلاً في عيون الطيارين الانـكليز ، خلال أيام ، بعد إضافة عصير الفواكه الى طعامهم .

والبحث ماضٍ الآن ، على قدم وساق ، لعزل هذا العامل الغذائي . فاذا ثبت أنهُ من نوع الفيتامين — كما يرجَّح — فقد يطلق عليهِ اسم « فيتامين مالطة » تخليداً لذكر سكان تلك الجزيرة وبسالتهم وصبرهم على الغارات الجوية خلال سنتين.

والموالح غنية بفيتامين C المقـاوم للاسقربوط ، ولكنَّ التجارب أثبتت ان فيتامين مالطة يختلف عن فيتامين C .

وقد وجد من عهد قريب فيتامين جديد في قشر الليمون ، وسيجري العلماء التجارب ليعلموا هل هناك صلة ما بين هذا الفيتامين وفيتامين مالطة ؟

# تدريب الطيارين البرازيليين في الولايات المتحدة

قال البريجـادير جنرال هيوم بيبودي قائد مركز التدريب الجوي الأميركي هنا ان طيـاري سرب المطاردة البرازيلي أكملوا مدة التدريب في المركز وسافروا الى جبهة مجهولة في عطلة آخر الأسبوع الماضي .

وقد صرّح الليفتنانت كولونيل دنيسون الذي تولى الاشراف على المراحل النهائيـة في تدريب هؤلاء الطيارين البرازيليين تدريباً عمليـّاً على المناورات الحربية ، بقوله : «إنهم طيارون بارعون » .

# فهرس الجزء الاول

## من المجلد الخامس بعد المائة


١ حالة الجو وتأثيرها في الحرب والحياة : لفؤاد صرُّوف

٧ لبنان في التوراة : لراجي الراعي

١٢ الدين والفلسفة — الشيخ محمد عبده والتوفيق بينهما : لمحمد يوسف موسى

١٧ الوقود : للدكتور حسن صادق باشا

٢٩ الرؤساء الثلاثة — ١ : وشنطن محرر أميركة : للدكتور نجيب الأرمنازي

٣٣ استغلال المياه الجوفية في مصر : ليوسف فارس

٣٨ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد

٤٤ العجائن : لأمين ابرهيم كحيل

٤٩ عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود المنجوري

٥٢ باب المراسلة والمناظرة * ١ — الهند وطن القطن : للسيد أبو النصر أحمد الحسيني الهندي ٢ — لفظ الجيم : لجبران النحاس . تصحيح في المعادلة : لنقولا الحداد


### باب التعريف والتنقيب


٥٩ ١ — المسائل : « شتان ما التلقف والتثقف » بقلم بشر فارس

— ٢ — الكتب : « ابن العاص » تأليف عباس محمود العقاد نقد بقلم زكي محمد حسن — 

٩١ « البصر وفنه » تأليف ألدس هكسلي . نقد بقلم ابرهيم عبد القادر المازني — « دراسات عن مقدمة ابن خلدون » تأليف أبي خلدون ساطع الحصري . نقد بقلم احمد محمد شاكر — « العلم في الحرب » تأليف أمين ابرهيم كحيل . نقد بقلم فؤاد صروف — « المفضليات » بتحقيق احمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون . نقد بقلم محمد عبد الغني حسن — « تقي الدين احمد بن تيمية » بقلم هنري لاوست — « الاسلام والفنون الجميلة » بقلم محمد عبد العزيز مرزوق

٣ — الاستدراك : « كتاب الحيوان ، الجزء الخامس » بقلم الاب أنستاس ماري الكرملي

٤ — التعقيب : « وصف الجمع بالمفرد » بقلم زكي مبارك

٩٢ باب الأخبار العلمية * أخبار العلم من روسيا — تكريم العلماء ، العلم الموجه ، الاجسام الصلبة والمفرقعات ، التفاعلات المسلسلة ، الحنطة واللحم ، التلقيح الصناعي ، مدرسة الذبذبات اللاسلكية ، العلم البحت : لوديع فلسطين . اينشتين في الخامسة والستين ، تسديد مدافع الدبابات المتحركة . فيتامين مالطة ، تدريب الطيارين البرازيليين في الولايات المتحدة

قرية شتوره ، زمردة معلقة بصدر لبنان



خميلة وغدير في الصيف والربيع



شجر ينعم وماء يجمد في الشتاء والخريف

# المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الخامس بعد المائة

١ يوليو سنة ١٩٤٤ — ١٠ رجب سنة ١٣٦٣

# الحالة الجوية

## وتأثيرها في الأجسام الحية

من أعظم بواعث الارتقاء العلمي ، اتصال علم بعلم . فعلم النفس اتصل بعلم وظائف الأعضاء ففهم الأساس العصبي للفكر والانفعال . وبعلم الغدد الصم فأدركنا من خفايا « الشخصية » بعض ما نجهل . والطبيعة اتصلت بالكيمياء فخرج علم الكيمياء الطبيعية الذي يتناول بناء المادة الدقيق ، وتوزيع الذرّات والجزيئات في السوائل وشحناتها الكهربائية . والفلك اتصل بالطبيعة والرياضة العالية ، فاذا نحن أمام البحوث الدقيقة في الضوء وصلة المادة بالطاقة ومصدر الحرارة في النجوم وشكل الكون ومبدئه ومنتهاه . والكيمياء اتصلت بعلم الأحياء ، فاذا في علم الكيمياء الحيوية ، أساس جديد لفهم المادة الحية ، وبعض أسرار الصحة والمرض

وفي العقدين الأخيرين ، اتصلت علوم الظواهر الجوية ، والإشعاع ، والفلك ، بعلوم الأحياء والطب ، فوصل العلماء إلى حقائق ونظريات جديدة، تعين في فهم الصحة والتوعك والمرض والحالة النفسية ، ونمو النبات ودورات الولادة بين كثرة وقلة . وقد جمعنا في الصفحات التالية، طرائف من هذه الأبواب ، تستوقف النظر وتوجهه إلى أبواب جديدة من البحث المجدي

حين تستيقظ في الصباح مسترخياً ، لا قبل لك بزحام الشوارع في طريقك إلى مكتبك ،



أو بإرهاق المهام التي عليك أن تعانيها في المكتب ، نخيرٌ لك أن تنظر إلى البارومتر ، قبل أن تنظر إلى الترمومتر .

فالنظر إلى البارومتر يعينك على تبين حالة الجو : أباردٌ هو أم حار ؟ أساكن الهواء أم مضطرب ؟ أجافٌ أم رطب ؟ هل ارتفعت درجة البارومتر فجأة ، أو هبطت فجأة ؟ فهذا الشعور بالاسترخاء والاعياء ، قد يكون ردّ الفعل في جسمك لحالة جوية طارئة ، لا أكثر ولا أقل .

ولكنك قد تقول : إن حالة الجو لا ترهقني . وقد تضرب بكفك على صدرك ، وتنشق الهواء وتزفره مباهياً بأن حالة الجوّ لا ترهقك . على أن علماء المتيوروبيولوجيا ( العلم الذي يجمع بين علم الظواهر الجوية — متيورولوجيا — وعلوم الأحياء — بيولوجيا ) يرون غير ذلك .

فالدكتور وليم پيترسن ، الأستاذ بكلية الطب في جامعة إلينوي الأمريكية ، يقول : إن حالة الجوّ تؤثر في حالة الجسم ، ولا سيما حين يطرأ على حالة الجوّ تغيير مفاجئ . وقد قضى پيترسن عشرين سنة في البحث العلمي والمشاهدات السريرية ، فخرج منها الى القول بأن حالة الجوّ تؤثر تأثيراً عظيماً في الجسم ، قلما يدرك ، منذ الولادة حتى الموت .

فكل تغيير في درجة الحرارة ، أو تقلُّب في درجة الضغط ، أو كل حركة من حركات الرياح ، يقتضي تغييراً سريعاً في الجسم قلما نشعر بهِ أو نتبينه . وأجسام بعض الناس تستجيب على التوّ لضرورة التغيير وملاءمة الحالة الجوية الجديدة . وهناك أجسام أخرى تتأخر في الاستجابة ، وقد يتفاوت التأخر بين اثنتي عشرة ساعة وثمان وسبعين ساعة . ثم انك لن تجد — بحسب قول بيترسن — استجابة متماثلة في جسمين ، لأنك لن تقع على جسمين متماثلين أو حالتين جويتين متماثلتين تماماً . فالمحيط الهوائي الذي نعيش فيه دائم التقلب .

وقد تجتاح بلداً ما عاصفة قوية ثم تتلوها أيام صافية مشرقة . وقد تزول الحالة الجوية ، التي يكون الهواء فيها دافئاً رطباً ، فتعقبها حالة جوية هواؤها باردٌ جاف . ولكن مهما يكن التغيُّر في حالة الهواء ، فكل تغير فيها ، يعني تغيراً في ثقل الهواء أي في ضغطه الجسم ، وإذن فهو يعني تغيراً في الأعمال الطبيعية والكيميائية التي يعملها الجسم .

وهذا التغير لا يقتصر على ضغط الدم ، بل يشمل تركيبهُ وتوازنهُ الكيميائي ، كما يشمل عمل القلب والكليتين والمعدة .

فحين تهبُّ موجة بردٍ ، يكون الهواء جافًّا ثقيل الوزن نسبيًّا . فيزداد الضغط البارومتري ، فيضغط الجسم بخلاياهُ وأوعيتهِ . وقد يبلغ الضغط على الجسم ستة عشر طنًّا

ونصف طن . فالهواء في هذه الحالة ، يضغطك كما تضغط يد جبّار كرةً مفرغةً من المطاط .

ولكن الهواء متقلب متحرّك لا يستقر ، فوزنهُ يتغير . وقد تعبر موجة الهواءِ البارد الجاف ، فتتلوها موجة من الهواء الدافئ الخفيف . فينخفض الضغط البارومتري ، فيخفّ الضغط الواقع على جسمك ، وقد يكون فرق الضغط ألوفاً من الأرطال .

فكل تغير في حال الجوّ ، يقتضي من الجسم ملاءَمة الحالة الجديدة . وبعض الأجسام تستطيع أن تحدث هذا التلاؤم ، وبعضها عاجز عنهُ في يُسر وبغير انزعاج

ومعظم المشقة يكون ساعة الانتقال المفاجئ من الحرّ إلى البرد . فالانتقال إلى البرد ، يقتضي من الجسم زيادة ما يولده من الحرارة . فيزداد ما يحرقهُ الجسم من المواد التي تولد الطاقة ، ويرتفع ضغط الدم ، وتزداد حموضته ازدياداً نسبيًّا .

وحين يبدأ الضغط في الهبوط ، بعد ارتفاعهِ إلى هـذه الذروة استجابةً لدواعي الحالة الجوية ، تسترخي الأوعية التي كان الدم يجري فيها متدفقاً ، وقد يبلغ من هبوط الضغط ، أن يبطئ دوران الدم ، وقد تقف حركته في بعض الأوعية فيتخثر . وقد تحدث وفيات .

فاذا كنت رجلاً سويّ الخلق ، وجميع خلايا جسمك وأعضائهِ تنهض بعملها على وجهٍ سويّ ، كان في وسعك أن تواجه التقلب في حالة الجوّ بغير مشقة ، فتحصل الملاءمة بين جسمك وحالة الجوّ على منوال ذاتي قد لا تشعر بهِ . على أن تغير حالة الجوّ ، واستجابة جسمك لهُ بغير أن تدري ، قد يظهران في حالتك النفسية . فحين المطر ، قد تشعر بالاسترخاءِ والانقباض الناشئين إلى حدٍّ ما ، عن هبوط ضغط الدم ، أو قد تميل إلى البَرَم والشكوى . ولكن حين ينشط جسمك ويندفع الدم في عروقك ، على أثر برد الجوّ برداً مفاجئاً ، تحسُّ توفزاً وابتهاجاً ، ثم إذا تغير الجوّ قليلاً ، أحسستَ بالتعب حتى لتعجز عن رفع إصبعك ، وهذه الحالة تعرف باسم « إعياء الحالة الجوية » .

والتأثر بالحالة الجوية على هذا المنوال يبلغ مبلغ الخطر ، إن كنت مريضاً . لأن التقلب في حالة الجوّ يؤثر في المرضى أكثر مما يؤثر في الأصحاء ، وفي النحاف أكثر مما يؤثر في السمان ، وفي الرجال أكثر مما يؤثر في النساءِ .

فالنشاط المفاجيء الناشيء عن تأثير الحالة الجوية ، وما يصحبهُ من تغير في ضغط الدم وفعل القلب ومعدّل استنفاد الطاقة المذخورة في الجسم ، قد يكون عبئاً يعجز المريض عن حمله . وقد يكون « القشة » التي تقصم ظهر الجمل ، الفارق بين الحياة والموت .

فان كنت نحيفاً ، فالبرد والمطر — في نظر علماء المتيورو بيولوجيا — هما خصماك العنيدان . والربيع هو فصل الخطر . فأنت سريع الحركة متوثب تعيش بأعصابك ، وليس في

جسمك أطباق من الشحم تدرأ عنك الصدمات ، وكل تغير في حالة الجوّ يترك أثره فيك .

وأنت ذلك الطراز من الرجال الذي يأكل ويأكل فلا يسمن . فجسمك لا يخزن شيئاً ويحرق كلَّ شيء ، وفي جسمك ميل الى فقد الفيتامين والكلسيوم واليود وغيرهما من المعادن . وأنت أدنى الى فقدها في الربيع ، لأن كثرة التقلب في حالة الجو ، خلال الربيع ، تقتضي من جسمك الملاءَمة اللازمة . وفي هذه الحالة ، تتردد نفسك كثيراً بين حالتي الابتهاج والانقباض ، فيسهل أن تصاب بالإعياء العقلي والجسماني .

فاذا طالت فترة المطر ، أو إذا حدث انقلاب فجائيٌّ في حالة الجوّ ، أصبت بحالة عصبية تقرب من أحد أنواع الجنون . فاذا كان فيك انحراف أصيل إلى الانتحار فقد يكون البرد الشديد ، أو حالة الانقباض الشديد التي تلي فترة المطر ، حافزاً إلى الاقدام عليهِ .

وقد وجد الدكتور لفنسون — أحد موظفي مكتب تسجيل الوفيات في مقاطعة كوك بولاية إلينوي — أن بين المنتحرين في النصف الأول من السنة ، يغلب النحاف من الناس . فهو القسم من السنة الذي تكثر فيهِ عواصف الشتاء . أما في النصف الثاني فتكون نسبة المنتحرين من السمان أعلى .

ويرى الدكتور پيترسن أن الرئيس ابراهام لنكولن ، مثلٌ للرجل النحيف الذي يشتدُّ تأثره بحالة الجو . فحالتهُ النفسية كانت متقلبة ، ونشاطهُ قريب النفاد ، وكان هذا التقلب فيهِ يوافق التقلب في أحوال الجوّ ، فذهب من حولهُ ، حتى منذ ثمانين سنة ، إلى ان الحالة الجوية هي السبب .

وكان المطر والبرد ، أكثر أسباب الانقباض في نفس لنكولن . وكان انقباضهُ يشتدُّ في الربيع ، ثم يخف في الصيف والخريف ، وكان الجوّ الدافئ والضغط البارومتري المستقرّ يبدد ان انقباضه ، فيسترد ثقتهُ بنفسهِ ويميل إلى التفاؤل .

فاذا كنت سميناً ، كنت أقل تأثراً بتقلب الجو ، فلا يصدمك تغيره المفاجيء ، وما خزن في جسمك من شحم ونشا وكلسيوم وفيتامين وماء ، يدرأ عنك التأثر بصدمة التقلب ، كما يدرأ قضيب الحديد في مقدم السيارة تأثير الصدمة . على أن جسم السمين يفقد « مرونته » حين يكتهل ، وقد يصاب بأمراض القلب أو السكر أو تصلب الشرايين فيشق على جسمه إحداث الملاءمة السريعة اللازمة التي يقتضيها التغير في حالة الجو . وتتأثر حالته النفسية بذلك فيميل إلى التهيج .

فاذا كنت سميناً ، فالحرارة والرطوبة — في نظر علماء المتيوروبيولوجيا — هما خصماك . وفصلا الصيف والخريف هما فصلا الخطر . فاذا طالت فترة الحرارة والرطوبة زادت قلوية

جسمك . وضغط دمك يزداد كضغط دم النحيف حين يتحوَّل الجو من الحرارة إلى البرد . أما هو فيميل إلى التراخي والاعياء . وأما أنت فتحس أنك جم النشاط . ولكن هذا الشعور لا يلبث أن يتحوَّل إلى سرعة الانفعال والتهيج ، وقد تصاب بالصداع العصبي ، فاذا بلغ هذا الطور أقصاه مدىً وتأثيراً ، فقد يؤدي إلى الانتحار أو القتل .

وينصح الدكتور پيترسن بما يلي : تبين رجع الحالات الجوية المختلفة في جسمك ، فاذا كنت نحيفاً ، يسهل تأثر جسمك بتقلب الجو ، فاعمد إلى كل ما يزيد وزنك ، والزم الدفء وتجنب التعب الجسمي والعقلي والعاطفي . وإذا كنت سميناً فاعمد إلى ما يخفض سمنتك ، ولكن لا تبالغ في ذلك ، والزم الهدوء والراحة وتجنب الحر .

وإذا كنت مريضاً أو أحسست أنك متعب مرهق وأنك عاجز عن احتمال الجو الذي لا يستقر على حال من القلق ، فاذهب في إجازة إلى مكان ملائم أو غيِّر مقر سكناك . ولكنك برغم ذلك كله لن تفلت تماماً من تأثير الحالة الجوية .

على أن الجو ليس قوامه الرياح والعواصف ، والجفاف والرطوبة ، والبرد والحر والضغط البارومتري ، وحسب . بل تخترقه ضروب الاشعاع من ضوء الشمس إلى الأشعة الكونية . ولبعض هذه الضروب تأثير في الحالة النفسية في رأي بعض العلماء .

فقد عرف العلماء من عهدٍ بعيد أن كل قدم مكعبة من الهواء الذي نتنفسه تحتوي على دقائق مكهربة — وتعرف باسم ايونات أو شوارد — بعضها مكهرب كهربائية موجبة وبعضها مكهرب كهربائية سالبة ، وهذه الدقائق محمولة في الغبار وقطيرات الماء وما أشبه . ولكننا ما نزال في مفتتح عهد جديد في فهم ما لهذه الدقائق من التأثير في الشؤون الحيوية ، لأن العلماء لم يتمكنوا إلاَّ من عهد قريب ، من السيطرة على حالة الجو الكهربائية سيطرة خاضعة لقواعد التجربة العلمية .

فالأيونات يمكن توليدها في الهواء باطلاق شرارات كهربائية فيه أو أشعة إكس أو مقذوفات الراديوم أو بفعل الأشعة الكونية وما كان من قبيلها . حتى شعلة من النار في موقد متأجج تؤيِّن الهواء إلى حدٍّ ما ، أي تولد فيه هذه الدقائق المكهربة أي الأيونات .

ثم هناك أجهزة خاصة تمكن العلماء من أن يخرجوا من قدر معين من الهواء في معمل البحث الدقائق المكهربة الموجبة أو الدقائق المكهربة السالبة ثم يدرس تأثير الباقي .

على هذا النمط وجد الأستاذ دسور Dessauer في جامعة فرنكفورت أن المرضى الذين يتعرَّضون للدقائق المكهربة الموجبة يشعرون بالتعب والإعياء والدوار والصداع . فلما أزيلت

الدقائق المكهربة الموجبة من الهواء الذي يتنفسونه وتعرضوا للدقائق المكهربة السالبة زال الصداع وحل محله شعور الانشراح والنشاط .

وقد أجريت التجارب في ضغط الدم وتأثره بحالة الهواء من حيث وجود الدقائق الموجبة أو الدقائق السالبة فيه، فظهر أن وجود الأولى يزيد ضغط الدم ويحدث شعور الراحة والطمأنينة . بل هناك ما هو أعجب مما تقدم : ذلك أن استنشاق مقادير من الدقائق المكهربة السالبة مدى أسابيع أفضى إلى تحسين الحال في ثمانين في المائة من إصابات ضغط الدم . ولا ريب انك أيها القارئ قد سمعت المصابين بالروماتزم يتحدثون بما يشعرون به من تقلب حالة الجوّ قبل حدوثه . فهل لهذا الشعور وهو أشبه ما يكون بالتكهن بالجو أساس علمي ؟

لقد أثبت الأستاذ دسور أن الناس المعرضين للروماتزم زادت آلامهم وتضخمت مفاصلهم وارتفعت حرارتهم قليلاً عند استنشاقهم هواء كثرت فيه الدقائق المكهربة « الأيونات » . ومعروف عند علماء أحوال الجو أن العاصفة قبل حدوثها يسبقها هبوط في ضغط الهواء ، فيصعد الى سطح الأرض هواء كان محفوظاً بين دقائق التراب . وقد ثبت أن الهواء الذي يكون بين دقائق التراب تكثر فيه الدقائق المكهربة الموجبة ولعلّ وجود هذه الأيونات يزيد آلام المصابين بالروماتزم قبل انفجار العاصفة .

ثم إن الهواء يحتوي على أيونات كبيرة وأيونات صغيرة ، وقد كشف الباحثون في معهد كارنيجي بوشنطن ان الأيونات الكبيرة تكثر بعد الغروب والأيونات الصغيرة تكثر قبل الشروق . ولعلّ هذا الفرق بين الليل والنهار أهم من الفرق في الرطوبة بينهما . بل لعلنا نجد في هذا الفرق تفسيراً لتأثيرها الفسيولوجي في جسم الانسان .

***

وهاك تجربة أخرى عجيبة وضعها الدكتور ملز أستاذ الطب التجريبي في جامعة سنسناتي الاميركية .

فقد ربيت طائفة من الجرذان منذ ولادتها — بعد أن قسمت ثلاث جماعات — في ثلاث بيئات متفاوتة الحرارة ، فكانت حرارة إحداها ١٨½ درجة مئوية والثانية ٢٥ درجة مئوية والثالثة ٣٢ درجة مئوية . ثم امتحنها ليعرف قدرتها على التعلم . فصنع تيهاً وضع طعامها في آخره ، ومبدؤه في هذا التيه ، أن الطريق إلى الرأس يمرّ بالبطن .

فالجرذان التي ربّيت في البيئة الأولى — وهي أبرد الثلاث — وجدت طريقها إلى الطعام بعد اثنتي عشرة محاولة ، والجرذان من الثانية وجدت طريقها بعد ثمانٍ وعشرين

محاولة . ولـكن الجرذان من الثالثة وجدت مشقة عظيمة ، فبعضها وصل إلى الطعام بعد ثمان وأربعين محـاولة ، ولـكن كثيراً منها عجز واستسلم للإخفاق مفضلاً الجوع على إرهاق العمل .

وامتحنت الجرذان جميعاً مرة أخرى بعد ثلاثة أشهر . فالجرذان التي ربيت في البيئة الأولى — البارد بالقياس إلى الآخريين — تذكرت منعطفات التيه التي تفضي بها إلى مكان الطعام ، فلم تكد تتردَّد . والجرذان من الثانية ، تذكرت رويداً رويداً ولـكنها نجحت آخر الأمر . أما جرذان البيئة الثالثة التي بلغت الطعام في التجربة الأولى ، فقد نسيت كلَّ ما تعلمتهُ فيها ، وتعيَّـن عليها أن تحاول محاولة جديدة تماماً .

ويرى الدكتور ملز ان المواليد الذين تحمل بهم أمهاتهم في الأشهر الباردة أدنى إلى النشاط والذكاء والنجاح من الذين تحمل بهم أمهاتهم في الأشهر الحارة . وقد راجع سجلَّ العظماء لدراسة هذه الناحية دراسة إحصائية ، فوجد ان ٢٧ رئيساً من ٣١ رئيساً من رؤساء الولايات المتحدة . بدأ الحمل بهم بين دسمبر ويوليو . وليس بينهم واحد بدأ الحمل بهِ في أغسطس . وغيرهم من الرجال الممتازين على هذا الغرار . فالذين تحمل بهم أمهاتهم في أشهر الربيع أميل إلى النجاح في العمل وإلى طول العمر من الذين يحمل بهم في أشهر الصيف الحارَّة . وسبب ذلك في رأيهِ أن نشاط الجسم البشري يتبع دورة سنوية ، يبلغ فيها الذروة في الربيع حين يكون الجو بارداً مستفزًّا للنشاط . ثم تهبط الى الحضيض في أشهر الصيف حين يكون الجوُّ حارًّا رطباً باعثاً على الاسترخاء . قال : "ولو كنت حاكماً بأمره لجعلت يناير لا يوليه شهرَ الزواج .

وإذا كنت ممن يعيشون في جوّ بارد تسعة أشهر أو عشرة أشهر من كلّ سنة ، كان خليقاً بك أن تقضي إجازتك في جوٍّ دافىء ، وأن تعمد فيه إلى الراحة والقيلولة ، فيخف معدَّل الاحتراق في أنساج جسمك ، ويحدث هبوط يسير في ضغط دمك ويطول عمرك .

ولعلَّ الحاجة ماسّـة — في رأي ملز — ، إلى دكتاتور صحيّ ، يعيِّـن لـكل امرئٍ خير مكان يقضي اجازتهُ فيه !

هذه نواحٍ قليلة ، من تأثير الجوّ في الحمل والولادة والصحة والنشاط والحالة النفسية ، وقد يكون بعضها في حاجة إلى التأييد العلميّ ، ولـكنها في مجموعها تبيِّـن أن بين حالة الجوّ وحالة الجسم والنفس صلة وثيقة ، وأنها جديرة بالاستقصاء العلمي الدقيق .

# الفجر الروحاني

## لبودلير*

« . . . هو الآن مؤمن بأن في الدنيا خيراً وجمالا ، وهو سعيد كل السعادة بذلك الايمان . وهذا هو في درك الهاوية يتطلع اليها مؤملا في الخلاص على يديها مستبشراً متهللا متفتح الروح لهذا الفجر الروحاني

---

« حين يدخل الفجر الأبيض الزاهر في قلب الفاجر
« ومعهُ المثل الأعلى المنشود بوخزه الأليم
« يفعل سرُّه الخفي فعله القاهر
« فإذا في البهيم الهامد يستيقظ مَلكٌ كريم

« وإذا السموات العلا الروحانية
« ينفتح فلكها المكوَّر البعيد المنال
« غائراً سحيقاً ، له ما للهاوية من جاذبية
« للصريع الذي لا يزال متألماً حالماً بالكمال

« كذلك — يا ربتي الحبيبة ، يا ذات الطهر والصفاء —
« على البقايا الداخنة من ليالي العربدة الخرقاء
« تهفو أمام عيني الشاخصة في الفضاء
« ذكراك وضاءةً زاهرةً ساحرةً بغير انتهاء

« في وجه الشمس تصبح نيران الشموع كابية كامدة
« كذلك ذكراك على الدوام ظافرة غالبة
« أيتها الروح المنيرة ! أيتها الشمس الخالدة ! »

---

* عن « الشاعر الرجيم » تأليف عبد الرحمن صدقي ، نشر مطبعة المعارف ، سلسلة اقرأ

# مآثر الملك فؤاد

## على معاهد العلم

## لمحمد زكي الابراشي باشا [1]

مولاي وسيدي وابن سيدي :

رعاك الله وحفظك ورفع شأنك وأعلى ذكرك في العالمين، وجعل التوفيق حليفك وأدامك للعلم مؤيداً ونصيراً، لقد كنت اليوم يا مولاي كعادتك دائماً باراً بأبيك العظيم، ومثلاً من يضرب الأمثال للناس في البر

ولقد خفق قلب الشعب معك وشاركتك الأمة بأسرها في هذه الذكرى الغالية، وكان في المقدمة رجال جامعة فؤاد الأول وهي غرس يدي أبيك وأعضاء مجلس ادارة الجمعيات والهيئات العلمية العديدة التي أنشأ أبوك بعضها ورأس البعض الآخر ، ورعاها جميعاً بعينه الساهرة . وذلك اعترافاً منهم جميعاً بفضله . وان الجمعية الجغرافية التي أنشأها جدكم العظيم ورأسها وسهر على مصالحها والدكم العظيم لتعتز بتشريفكم اليوم في هـذا المكان الذي طالما شرّفهُ أبوكم من قبل، وستسجل هذه الزيارة الكريمة في أجمل صفحاتها .

ولولا طمعي في كرمكم لقعد لساني عن الكلام، وكيف أستطيع الكلام عن مآثر قرن في ساعة ، وأنّى لي أن أحصي حسنات قرن وهي عديدة تجل عن الحصر

ولكني خادم مخلص لكم ولأبيكم من قبل، والخادم يطمع دائماً في كرم سيده، لذلك أستأذنكم في البدء بكلمتي مع اعترافي بالعجز والتقصير

في مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ فقدت مصر ملكاً عظيماً وعالماً جليلاً وراعياً حكيماً وهو المغفور له الملك فؤاد ، فكانت خسارتها بفقده في ذلك اليوم فادحة ؛ بل هي خسارات متعددة قلّ أن تصاب بمثلها أمة في يوم واحد

---

(١) القيت في الجمعية الجغرافية بمناسبة الاحتفال بذكرى المغفور له جلالة الملك فؤاد الاول

ولد في سنة ١٨٦٨ وتربى بادئ الأمر في سويسرا ، ثم أتم علومه العسكرية العالية في ايطاليا ، والتحق بعد ذلك بالسلك السياسي العثماني لأن مصر كانت تابعة سياسيًّا للدولة العليـة ، فكان ياوراً للسلطان عبد الحميد ثم ملحقاً عسكريًّا لتركيا في بلاد النمسا ، ولـكن سرعان ما تحرَّر من قيود الوظائف لأن نفسه العالية كانت تصبو الى التزود من العلم، ولذلك أكمل دراسته بنفسه في السوربون بحضور محاضرات فيها، علاوة على دراساته الخاصة التي يمكنني القول بأنها استمرت طول حياته ، فاستطاع بذلك التضلع من الآداب والفلسفة والجغرافيا والتاريخ . وقد أعد نفسه لخدمة مصر من طريق العلم لأنه وجد بفكره الثاقب أن لاحياة للأمم إلاَّ بالعلم وان بلاده محرومة من جامعة يتثقف فيها الشبان، فقبل رحمه الله أن يكون أول عميد للجامعة المصرية، وقد نشأت شعبية واكتفى بادئ الأمر بكلية واحدة وهي كلية الآداب، وأقبل الـكثير من كبار العلماء في أوربة مغتبطين بالعمل معهُ في هذه الجامعة الناشئة الفتية . وكان رحمه الله وهو من أكبر أمراء البيت العلوي الـكريم يقوم بهذا العمل حسبة ابتغاء وجه الله والوطن . وقدكان شديدالاهتمام بجامعته يحضر اليها كل يوم ليقوم بواجبه الذي فرضه على نفسه ولا ينساها حتى في أسفاره للراحة والاستجمام، فكان ينتهز فرصة وجوده في أوربة لمقابلة العلماء والعظماء والوزراء طالباً منهم مساعدة جامعته الناشئة وايجاد الصلات العلمية الوثيقة بينها وبين الجامعات الـكبرى . ونجح في ذلك الى حدٍّ كبير كما تشهد بذلك الـكتب والمؤلفات العديدة التي أهديت للجامعة في أول نشأتها وبالأخص من ايطاليا وفرنسا

وبعد أن تبوأ عرش مصر وطد أركان هـذه الجامعة وجعلها حكومية تنفق عليها الدولة بسخاء من الأموال العامة، ونشطت البعثات العلمية في زمنه نشاطاً يفوق ما كان عليه الحال في زمن جده الأكبر محمد علي وأبيه اسماعيل، واستكمل كليات هذه الجامعة واعترفت بها الجامعات الـكبرى في أوربة ، واستقرت كلياتها على ضفتي النيل شاهدة بفضلهِ وجهوده المتواصلة في خدمتها ورعايتها .

ولقد اتجه بكل قواه إلى الهيئات العلمية في البلاد يشجعها ويخدمها بما وهبه الله من علم غزير وصحة ومال . وكان في مقدمة ما عني بهِ من هذه الهيئات العلمية الجمعية الجغرافية التي أولاها حبه وعطفه وكان لهـا في نفسه منزلة خاصة لأن أباه الخديو اسماعيل هو الذي أنشأها . وقد كان رحمهُ الله يحب أباه حبًّا يفوق كل حب ويقدس ذكراه ويعتقد في قرارة نفسه أن التاريخ لم ينصفه وان كثيرين عملوا على حجب الحقيقة والتقليل من جهوده وان التاريخ لا شك منصفه متى بددت السحب وعرفت هـذه الجهود الجبارة على حقيقتها .

وكان من الطبيعي أن يشمل برعايته الجمعية الجغرافية التي كان يرى فيها صورة من أعمال أبيه العلمية في خدمة مصر .

رأس الأمير فؤاد الجمعية وأسدى إليها من الخدمات ما سنذكر بعضه، واستمرّ في رياستها إلى أن شاءت العناية الإلهية أن يتبوأ عرش مصر، عرش آبائه وأجداده ، ذلك العرش الذي زانه العلم ورعاية العلماء .

اعتقد من كانوا يعرفونه والملتصقون به أن العلم سيكون له أكبر شأن على يديه، كما ظن البعض أنه وهو العالم الكبير سيلهيه علمه عن السياسة، فاذا هو يحقق أمل الاولين ويخلف ظن الآخرين .

وليس من شأني اليوم أن أتكلم عن أثره السياسي فليس في مصر كلها من لا يحس به ، وليس هو موضوع حديثي اليوم ، وحسبي أن أشير إلى أنهُ تولى الحكم عند ما كانت البلاد تحت الحماية المقوتة والعالم في حرب طاحنة فتولاها سلطاناً، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى رعى الحركة الوطنية ودافع عن مصالح بلاده وكرامتها فألغيت الحماية ونودي به ملكاً على مصر، وظلّ يعمل ليل نهار. وكان الجو السياسي يصفو تارةً وتثور فيه الزوابع أحياناً وهو في جميع الحالات صابر يتحمل المكاره بشجاعة وجلد لا ينظر إلاَّ إلى عظمة مصر وسعادة أهلها، وانتهى بأن ألف بين قلوب الزعماء والكبراء وكوَّن منهم في آخر حياته جبهة وطنية بدأت المفاوضات مع بريطانيا لتحقيق استقلال مصر وفارق الدنيا وكله أمل في أن تنجح هذه المفاوضات وتحقق استقلال مصر، وقد انتهت المفاوضات بعد ذلك بمعاهدة الاستقلال.

والآن أعود إلى الكلام عن الجمعية الجغرافية لأقول كلمة في مآثر المغفور له الملك فؤاد الاول عليها ، ولا يسعني في هذا المقام إلاَّ أن أذكر بالخير فضل منشئها وهو والده العظيم الخديو اسماعيل .

لقد قيل بحق أن مصر هي مهد الجغرافيا، يؤيد ذلك ما ثبت من أن اول خريطة جغرافية في العالم وضعها المصريون في عهد الفراعنة وسجلوها على ورق البردي . وفي العصر اليوناني الروماني وفي القرن الثاني الميلادي ولد في مصر كلود بطليموس الذي أصبح عالماً من علماء الفلك واعتبر بحق أبا الجغرافيا لأنه وضع جغرافية وخرائط اعتمد عليها العالم إلى حين القرون الوسطى، وكانت أهم مرجع في شئون الجغرافيا.

ولقد شغف العرب بالجغرافيا ووُجد بين رجالهم من تركوا في هذا الشأن تراثاً قيماً

كابن بطوطة صاحب الرحلات المشهورة . ولما شاءَت العناية الإلهية أن يتولى حكم مصر محمد علي باشا الكبير واستقرَّ له الحكم في مصر، بعد جهود موفقة ، اتجهت عزيمته الى السودان ففتحه وأرسل اليه كثيراً من المهندسين في بعثات للبحث عن المعادن ولا سيما معدن الذهب. ثم سافر رحمه الله بنفسه إلى السودان ووصل إلى فازوغلي وكانت سنه إذ ذاك ٦٩ سنة

وقد أحب أولاده وأحفاده الجغرافيا وعرفوا مزاياها وما يعود على البلاد من الخير بالعناية بها ، حتى جاءَ حكم الخديو اسماعيل العظيم، فعني رحمه الله بارسال كثير من البعثات إلى السودان وإلى أعالي النيل، ودانت له تلك البلاد بفضل جيوشه المظفرة واستخدامة لرجال ذوي صفات عالية أمثال صموئيل بيكر وغوردون واسماعيل أيوب باشا والسردار راتب باشا وغيرهم .

وكانت له امبراطورية متسعة الأرجاء وامتدَّ سلطانه على سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي، فكانت له هرر وبربر وزيلع ، كما امتدَّ سلطانه إلى قرب بحيرة البرت وأنشأ صلات طيبة بواسطة غوردون باشا مع ملك أوغندا متيزا، وقد كان غوردون باشا حاكم المديريات الاستوائية المصرية والجنرال ستون باشا رئيس اركان حرب الجيش المصري يشيران على الخديو اسماعيل بأن ينظم حملة تضم أوغندا لحكم مصر حتى يكون بذلك النيل مصريًّا من منبعه إلى مصبه، ولكن كان ذلك في أواخر حكمه، فلم تمكنهُ الظروف من تنفيذ هذا المشروع

وقد أنشأ المغفور له الخديو اسماعيل باشا الجمعية الجغرافية في مصر في سنة ١٨٧٥ وكانت أول جمعية جغرافية عرفها العالم هي جمعية باريس في سنة ١٨٢١ ثم جمعية لندرة في سنة ١٨٣٠ وفينا في سنة ١٨٥٦ وروما في سنة ١٨٦٧ وبودابست في سنة ١٨٧٣ . ومن هذا يرى أن جمعيتنا الجغرافية المصرية كانت في طليعة الجمعيات الجغرافية التي عرفها العالم، وهي بلا نزاع أول جمعية جغرافية في الشرق .

وكان قصد المغفور له اسماعيل باشا من إنشاء هذه الجمعية في مصر هو ايجاد مهاد صالح للعلماء والمكتشفين لكي يعرضوا نتائج أبحاثهم ومكتشفاتهم لجهات البحيرات والمناطق الاستوائية وبالأخص منابع النيل التي ظلت مجهولة من عهد الفراعنة إلى عهد اسماعيل حيث اكتشفت وعرفت ، وكان الفضل في ذلك للعلماء والرجال العظام الذين مدَّهم إسماعيل بروحه الفياضة ولم يضن عليهم بالمال اللازم ، وهذه الجمعية الجغرافية التي كانت وحيدة في الشرق ونظائرها قليلة في الغرب وقت إنشائها أسدت إلى الجغرافيا خدمات كبيرة لاسيما بعد أن أنشأت لها مجلة ما زالت تصدر حتى الآن.

وفي سنة ١٩١٥ توفي المرحوم أباته باشا بعد أن ظل رئيساً للجمعية الجغرافية المصرية مدة ثلاث وعشرين سنة وكان ذلك في عهد المغفور له السلطان حسين، فرأى أن يعهد في رياسة هذه الجمعية التي أنشأها والده العظيم إلى أخيه العالم الامير أحمد فؤاد ( في ذلك الحين) علماً منه بكل ما يمكن أن تناله هذه الجمعية من الخير والتقدم على يديه المباركتين . وقد قبل الأمير هذه الرياسة وصدر بذلك مرسوم بتاريخ ٣٠ أكتوبر سنة ١٩١٥ وقد بعث فيها روحاً قوية وحياة جديدة إذ ضمَّ اليها نخبة من الأفاضل أمثال أحمد زكي باشا ومحمد مجدي باشا وبوغوص نوبار باشا والسناتور ادامولي وجورج فوكار والدكتور هيوم، كما زاد عدد المشتركين في الجمعية . ووجه عنايته إلى نظامها فأدخل عليه من التعديل ما يضمن لها السير في طريق التقدم واستصدر بذلك مرسوماً في ١١ أغسطس سنة ١٩١٧.

ولكي يضمن لها البقاء حصل على تعهد الحكومة لها حيث قررت لها ـ بناء على مساعيه الموفقة ـ إعانة سنوية ما زالت تصرف لها إلى اليوم . ولما كانت مصر في عهد والده العظيم قد وصلت في مكتشفاتها إلى ما لا مطمع لها بعده حيث اكتشفت منابع النيل حتى كاد يصبح مصريَّـا من منبعه الى مصبه ، فقد وجه الأمير فؤاد جل همه أثناء رياسته إلى إظهار ما كان لأبيهِ من فضل على العلم لارساله البعثات التي وصلت إلى الجهات الاستوائية واكتشفت منابع النيل وهو ما يسجل بمداد الفخر للعائلة العلوية الكريمة . كما وجه عنايته إلى تنظيم محاضرات يلقيها كبار العلماء خدمة لمصر وساكنيها ، فألقى ويلكوكس المهندس العالم المشهور سلسلة محاضرات عن الصرف في مصر . وكانت العناية إلى ذلك الحين موجهة إلى الري في حين أن العناية بالصرف كانت ضئيلة، فنبهت هذه المحاضرات الناس ووزارة الأشغال نفسها إلى خطر المضي في هذه السياسة ، وأن العناية بالري يجب ان تكون مقترنة بالعناية بالصرف، وكان من جراء ذلك أن عنيت مصر وما زالت تعنى بالمصارف لتحول دون وقوع ضرر محقق بالتربة المصرية ظهرت بوادره مثلاً في مديرية من أخصب مديريات الوجه البحري وهي المنوفية، إذ بقيت بغير مصارف اعتماداً على خصب أرضها حتى ظهرت أضرار هذا الترك واضحة. ولذلك تقرر إنشاء المصارف فيها ونفذت هذه السياسة فعلا من سنوات، وأصبح من المبادىء الثابتة في وزارة الأشغال العناية بالمصارف التي انتشرت الآن في كل مكان وما زالت تنال من اهتمام الحكومات المتعاقبة ما تستحقه . وقد كان للجمعية الجغرافية مع غيرها من المشتغلين بهذه الشؤون فضل التنبيه إلى هذا الخطر والمطالبة بدرئه قبل وقوعه .

وأُلقيت كذلك محاضرات أخرى في موضوعات مختلفة نذكر منهـا على سبيل المثال

المحاضرات التي ألقاهـا المسيو جورج فوكار عن طبائع الشعوب الأفريقيـة ومحاضرة الدكتور حافظ عفيفي باشا عن رحلته من بنغازي إلى جغبوب في صحبة السنوسي الكبير. والمحاضرات التي ألقيت عن أخلاق المصريين وعاداتهم وتقاليدهم في العهد الحديث لدبانه وصيداوي . وقد نشرت هذه الأبحاث في الجزء الثامن من مجلة الجمعية بعد احتجابها بضع سنين .

ولقد وجه المغفور له الأمير فؤاد همه أثناء رياسته للجمعية إلى أن تظهر أبحاثها أولاً وقبل كل شيء كل ما يتعلق بمصر والسودان في حاضرهما وتاريخهما القديم والحديث . ووجه عنايته بنوع خاص إلى الأبحاث الخاصة بطبائع الشعوب الأفريقية، ونشر على العلماء أسئلة كثيرة خاصة بذلك . وكلف المسيو توماس أن ينظم تنظيماً علميًّا متحف الجمعيـة الجغرافي وهو متحف حوى مجموعات نفيسة عن أفريقية الاستوائية ، كما عني بنشر فهرس لما حوته هذه المجموعات . وقد تمهد الجمعية بكل ما يساعدها على القيام بمهمتها النافعة، إذ مدَّها بكثير من الكتب العلمية والخرائط، كما وثَّق صلات علمية وروحية بينها وبين الجمعيات الأخرى . وفي عهده قُبِل مبدأ تبادل النشرات والأبحاث مع جمعيتنا المصرية

وقد ظلَّ المغفور له الأمير فؤاد يرعى الجمعية الجغرافية ويخصها بعطفه وتشجيعه إلى أن دعته العناية الإلهية ليتبوأ عرش مصر فلم يقطع صلته بها بل زاد عطفه عليها وتشجيعه لها ماديًّا وأدبيًّا .

لقد شرَّفني رحمهُ الله بأن أكون ناظر خاصته ومدير الأوقاف الخصوصية الملكيـة كما شرَّفت بناءً على رغبته السامية بأن أكون عضواً في مجلس إدارة الجمعية وهو شرف أعتزُّ به. وقد لمست وأنا بالقرب منه مقدار حدبه على الجمعية واهتمامه بشؤونهـا ورغبته الدائمة في ضمان حياتها وتقدمها . وطالما أمرني بأن أقدم لها من ماله ما يساعدها على القيام بمهمتها على أحسن وجه وأكمله . وقد بلغ مجموع ما دفعهُ من ماله مساعدة للجمعية في المدة من سنة ١٩٢٥ إلى سنة ١٩٣٥ أي في عشر سنوات مبلغ ١١٠ ٢٧ جنيهات دفعها من ماله راضياً مسروراً . وقلَّ من يعرف لهُ هذه المكرمات، لأنه لم يعط ما أعطاه للجمعية طمعاً في شهرة أو ليتحدث الناس عن ذلك، بل فعله ابتغاء وجه الله وخدمة الوطن.

وكانت هباته تختلف سنة عن أخرى بحسب حاجة الجمعية إلى المال أو اتساع نشاطها باقبال بعض العلماء على التأليف والنشر، فقـد وهبها مثلاً ٦٢٥٠ جنيهاً في سنة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩

و ٦٠١٠ جنيهات في سنة ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ و ٥٠٠٠ جنيه في سنة ١٩٣١ ـ ١٩٣٢

وقد بلغت قيمة إعانات الحكومة للجمعية في العشر السنوات السابق الكلام عنها مبلغ ١٣٣٥٠ جنيهاً إذ كانت الحكومة تعطيها ألف جنيه سنوياً تزيدها قليلاً في بعض السنين.

ولقد كانت هذه الاعانة الحكومية تمكن الجمعية من مواجهة مصروفاتها العادية ومرتبات موظفيها، ولم يكن يبقى لديها بعد ذلك مال يساعدها على النشاط العلمي. من أجل ذلك كانت الهبات الملكية التي زادت عن ضعف إعانة الحكومة ذات فائدة كبرى للجمعية. وقد تمكنت من التوسع في النشر الذي كلفها أزيد من عشرين ألفاً من الجنيهات. كما سمحت لها هذه الهبات بأن تغذي مكتبتها بما يزيد قيمتها العلمية وأنفقت في سبيل ذلك ٤٧٢٢ من الجنيهات في العشر السنوات المذكورة

وقد ازدان متحفها الاتنوغرافي بما جعله أكبر قيمة وأكثر نفعاً

كان من نتيجة تشجيع المغفور له الملك فؤاد للجمعية ومدها بهذه الهبات الملكية الكريمة أن اتسع نشاطها وزادت ثروتها العلمية وقد تمكنت في عهد حكمه من طبع أكثر من عشرين بحثاً كلها خاص بشؤون جغرافية مصر وما جاورها من البلاد.

ولا أريد أن أطيل عليكم بذكر هذه الأبحاث كلها، فأكتفي بأن أذكر بعض أمثلة:

فمنها بحث عن ميناء السويس للمسيو G. Jondet

وبحث له أيضاً عن اسكندرية ومينائها.

ومنها للمسيو G. Douin بحث خاص بأسطول بونابرت وشواطىء مصر وأبي قير.

وبحث للمسيو De La Ronciere عن اكتشاف أفريقية في القرون الوسطى. وجغرافية مصر في عهد العرب للمغفور له الامير عمر طوسون، والبحر الاحمر والحبشة وبلاد العرب من أقدم العصور للمسيو Kammerer وله أيضاً البرتغاليون في المحيط الهندي والبحر الاحمر في القرن الخامس عشر.

ومنها معجم جغرافي للمسيو H. Gauthier اشتمل على الأسماء الجغرافية التي وردت في النصوص الهيروغليفية

وقد اشتركت الجمعية في عهده اشتراكاً نافعاً في أبحاث عالمية إذ طلب منها الاتحاد الجغرافي الدولي أن تجري بحثاً عن المساكن في الريف فقامت به ووصل البحث إلى نتائج خاصة بمصر نافعة. وكانت مصر ثاني دولة أعلنت نتيجة بحثها في هذا الموضوع الهام.

وخدمة للجغرافيا والتاريخ في مصر جمع في قصر عابدين كل ما كان في «دفترخانة» الحكومة بالقلعة من أوراق تتعلق بحكم محمد علي الكبير والخديو اسماعيل وهي مخطوطات لها قيمة علمية لا تقدَّر في نظر للعلماء الذين يريدون الوقوف على تاريخ مصر وجغرافيتها على الوجه الصحيح .

وقد كانت اللغة المستعملة في الدواوين وفي المخاطبات الرسمية في مصر وفي الخارج هي اللغة التركية ، واستمرَّ الحال كذلك إلى أن تولى الخديو اسماعيل حكم مصر ، فجعل اللغة العربية لغة الدواوين وحلت محل اللغة التركية . وقد هجرت تركيا بعد ذلك حروفها التركية وأحلت محلها الحروف اللاتينية ، وحصل هذا التغيير الهام في عهد المغفور له الملك فؤاد ، فأدرك بثاقب فكره أن هذا التراث العظيم سيضيع على الأمة كلما تقادم العهد ويصبح طلسماً من الطلاسم يصعب حله والافادة منهُ ، وعلم رحمهُ الله بأن هذه المحفوظات علاوة على الصعوبة التي ذكرتها مهملة ومحفوظة بغير نظام ولا ترتيب، فعهد الى عالم هو استاذ اللغة التركية بمدرسة اللغات الشرقية بباريس في جمع شتاتها ونشر ملخص لها، فقام بذلك وشفع هذا الملخص بدراسة عن الادارة التركية في مصر في أوائل القرن التاسع عشر

وبعد نقل هذه المحفوظات إلى قصر عابدين أمر المغفور له الملك فؤاد بترجمتها الى اللغة العربية واستمرَّ العمل في ذلك طوال مدة حكمهِ . وها هي ذي محفوظات عابدين عامرة بهذا الكنز الثمين يرجع اليهِ العلماء والمؤرخون في أبحاثهم الخاصة بمصر فيجدون فيه ما يرفع رأس مصر عالياً ويظهر فضل العائلة الحاكمة على العلم وعلى البلاد

ولم يكتف رحمه الله بما تقدم بل كلف شخصيات كبيرة أن تنسخ لهُ صورة المستندات الدبلوماسية والمراسلات الرسمية التي تبودلت بين ممثلي الدول الأجنبية وحكوماتهم خاصة بمصر .

فقام رينيه قطاوي بك بنسخ صورة المحفوظات الروسية عن عهد محمد علي الكبير والمسيو A. G. Binis المحفوظات البولونية عن بعثة بولونية عسكرية في مصر في عهد محمد علي

وقام المسيو Georges Douin بنسخ كثير من المحفوظات الفرنسية في عهد محمد علي الكبير والخديو اسماعيل .

وقام المسيو A.G. Politis بنسخ المحفوظات اليونانية وعلاقة مصر باليونان في حكم محمد علي .

وقام سان ماركو بنسخ المحفوظات النمساوية والايطالية في عهد الخديو اسماعيل

وقد أنفق المغفور له الملك فؤاد في سبيل الحصول على صورة هذه المحفوظات الرسمية العظيمة القيمة بضعة ألوف من الجنيهات.

وقد نشرت هذه المستندات الرسمية في أربعين مجلداً ، كما نشرت مؤلفات كثيرة جعلت هذه المستندات مادتها الأساسية ولم يتم طبع كل ذلك في عهد المغفور له الملك فؤاد ، فأتمّ جلالة الملك فاروق الأول ما بدأه أبوه العظيم ، وبذلك تمّ طبع كل هذه المستندات وأهدى كل من الوالد وولده ما طبع في عهده إلى الجمعية الجغرافية لبيعه بأثمان قليلة تضم لإيراداتها ويعم نفعها البلاد .

ولم تقف همة المغفور له الملك فؤاد عند ما سبق بيانه وهو كثير في ذاته ، بل انتهز فرصة وجوده بفرنسا في سنة ١٩٢٧ وتحدّث مع المسيو جبرييل هانوتو وهو أحد وزراء فرنسا ومن كبار علمائها ليضع هو ونخبة من علماء فرنسا تاريخاً جامعاً لمصر من أقدم العصور إلى الآن وقد تمّ الاتفاق معه بعد ذلك على تنفيذ هذه الفكرة السامية وطبع هذا المؤلف النفيس في سبعة مجلدات .

وقد أراد رحمه الله أن يعم النفع طبقات أكبر لا تصل إلى الحصول على هذا الكتاب النفيس ، فأمر بالاتفاق مع نخبة من العلماء على نشر مختصر لتاريخ مصر يكون في أربعة أجزاء ، وقد تم ذلك ونشر هذا الكتاب القيم وأعجب به كل من اطلع عليه وأهديت نسخ هذا المؤلف إلى الجمعية الجغرافية . ولا أشك في أن كل من اطلع على هذا الكتاب قد استفاد منه وقدر عظمة مصر من أقدم عصور التاريخ وفضلها على الحضارة والمدنية .

وقد تمّ الاتفاق بأمر المغفور له الملك فؤاد مع الجنرال فيجان Weygand – وهو مع الأسف معتقل حربيّ الآن ، ومعلوم أنهُ من أكبر قواد فرنسا – على أن يضع كتاباً في التاريخ الحربي لمحمد علي وأولاده ، وتمّ وضع هذا الكتاب وهو في خزانة كتب الجمعية الآن كما تمّ بأمر جلالته الاتفاق مع الأميرال دوران فييل Durand-Viel من كبار الضباط البحريين في فرنسا على وضع مؤلف عن الوقائع البحرية التي قام بها محمد علي الكبير وابنه إبرهيم وقد بيّن هذا الكتاب كيف وصل أسطول مصر إلى أن يكون في عداد أساطيل الدول الكبرى .

وقد تمّ طبع هذا الكتاب وهو في خزانة كتب الجمعية الجغرافية كذلك .

وقد أنفق المغفور له الملك فؤاد في سبيل وضع هذه المؤلفات ونشرها عشرات الألوف من الجنيهات .

وإن من أنفس ما أهداه المغفور له الملك فؤاد إلى الجمعية الجغرافية خريطة إفريقية التي عملت في سنة ١٨٧٧ بأمر من المغفور له والده الخديو إسماعيل فقد أوجد في أركان حرب الجيش المصري قسماً جغرافيًّا يرأسه الجنرال ستون الأمريكي، وكان يعمل في هذا القسم ضباط مصريون ومعهم ضباط من الجنسيات المختلفة. وتمكن هذا القسم بناءً على رغبة الخديو إسماعيل من وضع خريطة كاملة لافريقية اشتملت على المكتشفات العظيمة التي تمت مدة حكمه وهي ست عشرة سنة، ولم تنشر هذه الخريطة مدة حكم من كان له الفضل في وضعها، وظلت صحيفتها مطوية إلى أن جاء المغفور له الملك فؤاد، فرأى أن هذا الأثر العظيم من آثار والده العلمية لا يصح أن يبقى مجهولاً لا ينتفع به، ودفعه حبه لأبيه وللعلم إلى أن ينشر هذا الأثر على الناس ليعم نفعه، فطلب إلى مصلحة المساحة أن تطبع هذه الخريطة التاريخية القيمة مصغرة، ونفذت مشيئته، وأمر أن تسلم هذه الخرائط المطبوعة للجمعية الجغرافية وأبقى الأصل لديه.

لقد غيرت هذه الخريطة وجه جغرافية إفريقية فقد كانت الخرائط إلى عهد محمد علي تظهر أن في جنوب وادي حلفا أرضاً مجهولة حاول المغفور له محمد علي أن يكشف حقيقتها وذهب بنفسه إلى فازوغلي، فلما تولى الخديو اسماعيل حكم مصر في سنة ١٨٦٤ أرسل حملات استكشاف متعددة وفقت إلى اكتشاف القبائل المتوحشة التي كانت تعيش حينذاك في السودان والكونجو ووادي وهرر ووصلت إلى اكتشاف منابع النيل نفسها

وقد شجع هذه الحملات تشجيعاً كبيراً حتى إن حملة صمويل بيكر وحدها من سنة ١٨٧٠ إلى سنة ١٨٧٤ كلفته ما يقرب من مليون جنيه.

إن هذه الخريطة تظهر لنا أن إسماعيل العظيم ضمَّ إلى مصر المديريات السودانية والمديريات الاستوائية ودارفور وكردفان ووصل إلى المحيط الهندي، وصارت رقعة مصر مدة حكمه ثلاثة ملايين من الكيلومترات المربعة وهو ما يعادل نصف أوربة كلها.

وبعد وفاة المغفور له الملك فؤاد تفضل جلالة الملك فاروق وأمر باهداء أصل هذه الخريطة إلى الجمعية، وأرسلت بكتاب مؤرخ في ١٩ يونيه ١٩٤٠ ذكر فيه أنها من وضع أركان حرب الجيش المصري بأمر جده المغفور له اسماعيل باشا لم يعثر عليها أحد بعد أن غادر مصر، وظلَّ الحال كذلك حتى وجدها والده العظيم فأمر بطبعها مصغرة، ورأى مولانا الملك المعظم حبًّا في تعميم نفعها وبرًّا بوالده وجده أن يهديها إلى الجمعية. وقد تقبلت هذه الهدية الكريمة شاكرة، وهي معروضة في مدخل الجمعية.

ومن الهدايا النفيسة التي أهداها المغفور له الملك فؤاد إلى الجمعية خريطة دقيقة للوجه البحري وضعها في سنة ١٢٨٩هـ العالم المشهور محمود باشا الفلكي بأمر الخديو اسماعيل وأثبت عليها أن أول خريطة عملت للأقطار المصرية هي التي عملها الفرنسيون في سنة ١٢١٣ هجرية ولكن تلك الخريطة كانت مملوءة بالأغلاط لجهل المهندسين الذين قاموا بوضعها لغة البلاد، ولأنهم لم يكونوا في حالة اطمئنان تام، إذ أن البلد لم تقبل الانقياد لحكم الفرنسيين

وبعد أن بين الصعوبات التي صادفته لوضع خريطة دقيقة، وكيف أنه استعمل الفلك في وضعها، ختم عبارته بأنها استلزمت في وضعها بضع سنين، وقبل أن يتم وضعها وجد أن الخديو اسماعيل باصلاحاته العظيمة في خلال هذه السنين قد غير معالم الدلتا بما أصلحه من أراضٍ وما حوله من برك إلى مزارع، فاضطر أن يثبت ذلك في خريطته.

كانت هذه الخريطة ضمن محفوظات المغفور له الملك فؤاد الخاصة، فأمرني بإهدائها إلى الجمعية الجغرافية، وهي من بين الخرائط الكثيرة المحفوظة بها والتي تزدان بها قاعاتها.

وفي سنة ١٩٢٩ أهدى المغفور له الملك فؤاد إلى الجمعية ثلاثمائة مجلد في موضوعات فلكية وجغرافية، وكان ورثة المغفور له محمود باشا الفلكي أهدوها لجلالته

وقد أهدى إليها كذلك خزانة كتب المغفور له البرنس حيدر فاضل، وهي مكونة من ٧٧٨٢ مجلداً وهي كتب قيمة أهديت إلى جلالة الملك فؤاد، فأهداها إلى الجمعية، وهي الآن في إحدى قاعاتها.

وفي سنة ١٩٣٣ تمكن رحمه الله وهو في المانيا من شراء خمسة آلاف ومائتين وأربعين خريطة يرجع عهدها إلى آخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. وكانت للامبراطور نابليون الأول وزوجه الامبراطورة ماري لويز، وقد اشتراها بنية إهدائها إلى الجمعية الجغرافية ليزيد بها ثروتها العلمية، فأهداها اليها وهي بها الآن

ولما أتمت جمعيتنا الجغرافية خمسين سنة من عمرها الطويل ان شاء الله رأى المغفور له الملك فؤاد ان تحتفل بعيدها الخمسيني احتفالاً فخماً فدعا لذلك المؤتمر الجغرافي الحادي عشر ليعقد جلساته في القاهرة وكان ذلك في سنة ١٩٢٥[1].

وقد لبى الدعوة خمسمائة عضو يمثلون مائة وعشرين جمعية علمية من جميع البلاد الأجنبية وقد تتبع الملك فؤاد أعمال هذا المؤتمر وأكرم مثوى العلماء الوافدين على

(١) راجع مقتطف مايو ١٩٢٥

مصر بمناسبة انعقاده ، وقد نجح نجاحاً منقطع النظير . ولـكي تفيد مصر منه أمر جلالة الملك فؤاد بطبع أعماله وقد استلزم ذلك خمسة مجلدات طبعت في مدى سنتين وتزدان بهذه المجلدات خزانة كتب الجمعية وفيها أبحاث أكبر علماء الجغرافيا في العالم . وفي تلك السنة نفسها وبمناسبة هذا المؤتمر أوجد الملك فؤاد الجمعية الجغرافية في مكانهـا الحالي الذي نحن فيه الآن . وبعد المؤتمر وفي السنة نفسها افتتح الملك فؤاد مدينة بور فؤاد على الضفة الشرقية لقناة السويس في حفل رائع أعاد للأذهان حفلات أبيه العظيم .

وفي سنة ١٩٢٦ قبلت جمعيتنا في الاتحاد الجغرافي الدولي بجانب الجمعيّات الجغرافيـة الـكبرى في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا والنمسا وبلجيكا ، فقرت بذلك أعين الملك الراحل الـكريم حيث كان ذلك بمثابة تتويج لعمله المتواصل في خدمة الجمعية .

• • •

ولقد كان لعمل الملك فؤاد وهو رأس العائلة المالكة واهتمامه بالجمعية الجغرافية أثره المحمود في نفوس أمراء البيت المالك الذين يجري في عروقهم دم محمـد علي الـكبير والذين أشربوا حب مصر ، فاهتم كثير منهم بنواح مختلفة من جغرافيـة مصر ، فقـد أخرج المغفور له الأمير عمر طوسون عدة مؤلفات وأبحاث تتعلق بجغرافية مصر وتاريخها في عصورها المختلفة قديمها وحديثها .

وعني حضرة صاحب السمو الأمير يوسف كمال بأن يجمع في مكتبته مؤلفات نفيسة نادرة عن جغرافية مصر في عهود مختلفة ، وبالأخص في عهد البطالسة . ونشر على نفقته في مجلدات ضخمة فخمة خرائط بديعة عن افريقية ومصر بعضها من وضعه ، وكذلك أخرج بياناً عمن ألفوا في تاريخ مصر وجغرافيتها في عهد الفراعنة والاغريقيين والرومان والعرب الى القرن الخامس عشر . وطبع هذا المؤلف النفيس في اثنى عشر مجلداً وأسماه : المجموعة الـكمالية في جغرافية مصر والقارة الافريقيـة لصاحبها يوسف كمال، وأهداه لجده الأكبر الحاج محمد علي .

ومن كبار الأمراء أيضاً المغفور له الأمير كمال الدين حسين الذي أحب الصحراء، وقد جاب الصحراء الغربية عدة مرات ووضع عن رحلاته هذه خريطة من أنفس الخرائط ، وأصلها محفوظ بالجمعية الجغرافية .

ومن مآثر المغفور له الملك فؤاد على الجمعية الجغرافية مساعدته لحضرة صاحب المعالي أحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الملـكي الذي سجل له التاريخ أنه من الروّاد المـكتشفين. ويحق لمصر أن تباهي بذلك .

لقد فكر حسنين باشا في سنة ١٩٢٢ في أن يجوب الصحراء الغربية من الشمال إلى الجنوب آملاً أن يكتشف الواحتين المفقودتين : العوينات وأركنو

وكاشف بعض الشخصيات في ذلك ، فلم يهتم أحد بمشروعه ، ورأى فيه البعض حلماً لا يمكن تحقيقه ، فألهمه الله أن يتقدم بمشروعه للمغفور له الملك فؤاد . وما إن علم الملك بما صحت عزيمة حسنين باشا عليه حتى أكبر فيه هذه الهمة وشجعه على المضي في تنفيذ مشروعه وأمده بالمال وبكل تأييد أدبي، وأوصى به الحكومة خيراً . وقد كتب له النجاح ووفق التوفيق كله في مهمته العلمية، واكتشف الواحتين المفقودتين السالف ذكرهما، ووضع خريطة قيمة تبين خط سير رحلته والجهات التي اكتشفها ، ووضع عن رحلته هذه مؤلفاً ظريفاً تزدان به المكاتب المصرية والأجنبية .

ولقد اغتبط المغفور له الملك فؤاد أشد اغتباط بهذا التوفيق ، وكرّم هذا المكتشف المصريّ في حفلة عشاء صدحت فيها موسيقى الحرس الملكي ؛ وشرّف جلالته بنفسه حفلة أقيمت في الأوبرا تكريماً لحسنين باشا ، وأنعم عليه برتبة البيكوية ونيشان النيل من الطبقة الثالثة ، وسلم إليه صورته زيادة في التكريم .

وقد قدّر الاتحاد الجغرافي الدولي عظم قيمة اكتشاف حسنين باشا فعينه وكيلاً للاتحاد وهنأه اللورد ادوار جليسن رئيس الجمعية الجغرافية البريطانية ، وأنعم عليه جلالة ملك بريطانيا العظمى بالمدالية الذهبية للجمعية الجغرافية، ولولا عناية الملك فؤاد بحسنين باشا وتشجيعه له على المضي في تنفيذ مشروعه لما نالت مصر ولا الجمعية الجغرافية المصرية التي هو الآن رئيسها بالنيابة كل هذا الشرف العظيم .

ولقد كان المغفور له الملك فؤاد دائب التفكير في الجمعية الجغرافية وفيما يعود عليها بالخير ولم ينسها ابداً حتى في أسفاره ، فلقد كان لي شرف مرافقته في رحلته الى سيوه ، فأمرني رحمه الله أن أجمع من سيوه كل ما يهم متحف الجمعية الاتنوغرافي؛ وكان يشرف على هذا العمل بنفسه حتى إذا ما اكتمل ما جمعه اغتبطت نفسه بهذه الهدية التي أعدها لتقدم للجمعية عند رجوعه من رحلته دليلاً على تعلقه بها وحبه لها.

ولم ينس عند ما كانَ يسافر إلى أوربة وهو ملك أن يزور في كل بلد جمعيتها الجغرافية عسى أن يقتبس منها ما ينفع جمعيتنا التي أنشأها أبوه ، ولقد استفادت الجمعية فعلاً من هذه الزيارات .

ترون مما ذكرت من بعض مآثر المغفور له الملك فؤاد على العلم والجمعية،وهو قليل من كثير لا يستطاع حصره، أنهُ كان دائم التفكير فيها وفي ما يرفع من شأنها، ولكن مما يؤثر في النفوس أشد تأثير أنهُ حتى آخر أيام حياته كان يحبها ويفكر في خيرها ، ولذلك كان مما ختم به حياته بالنسبة لها انهُ أهدى إليها في شهر ابريل الذي دعاه الله فيه لجواره هدية قيمة ثمينة ، وهي تحف سودانية وحبشية كانت في متحفه الحربي الخاص بعابدين . ومنها أسلحة دفاع وأسلحة هجوم وأشياء خاصة بثورة المهدي في السودان، وأشياء أخرى خاصة بالحياة في السودان والحبشة ، ومجموعة مداليات خاصة بحكمه وما وقع فيه من حوادث جسام

ما أكرم هذه النفس الزكية وما أبرها !

لا شك أن المغفور له الملك فؤاداً العظيم عمل على رفع شأن الجمعية الجغرافية دائماً وفي كل الظروف ، عمل لذلك ابناً باراً بأبيه ، وعمل لذلك رئيساً ، وعمل لذلك ملكاً ، وعمل لذلك عالماً ، وقد أفلح في كل هذه النواحي .

وقد فاضت روحه الطاهرة في مثل هذا اليوم، فانطفأ بذلك سراج وهاج كان يضيء مصر ويهديها إلى الصراط المستقيم، وأفلت شمسه المشرقة عن هذا الوجود ، فسبحان الحي الذي لا يموت . وإنا لله وإنا اليه راجعون.

ولا يعزينا في مصيبتنا فيه إلاَّ أنهُ ترك فينا شبله العظيم جلالة الملك فاروق الأول الجالس على عرش مصر الذي يترسم خطوات أبيه وأجداده العظام ويشمل العلم والعلماء بجميل رعايته السامية . وقد نالت جمعيتنا الجغرافيـة من عنايته وعطفه وبرّه وهداياه الكريمة المتتاليـة ما يعجزها عن القيام بواجب الشكر . ولا غرابة في ذلك فجلالته يضرب الأمثال للناس للبرّ ببلاده وبأبيه وجده العظيمين . مدّ الله في حياته الغالية ولا حرم جمعيتنا عطفه ورعايته الدائمة ، وأنال مصر على يديه كل ما يتمناه لها من مجد وعظمة .

وإني أبتهل إلى الله جلت قدرته أن يسكن المغفور لهُ فقيدنا العظيم الملك فؤاداً فسيح جناته، وأن يجزيه على ما أسداه لجمعيتنا وللبلاد خير ما يجزي به عباده الصالحين من النبيين والصديقين والشهداء .

# جوّ جزيرة العرب

## وأثره في الهجرات السامية

للدكتور رفيق التميمي

---

يعتبر المؤرخون نهضة العرب في القرنين السابع والثامن الميلادي من الحوادث العالمية الكبرى التي تستحق كل عناية ودرس وتمحيص، وهم لا يرون من الصواب في شيء اعتبار هذه النهضة حادثة منفردة وقعت في ظروف خاصة لن يكون لهـا مثيل في تواريخ الأمم الأخرى . والحقيقةأن هذه النهضة يجب أن تحتل المكان الأول في تواريخ الأمم نظراً لما رافقها من الحوادث الجسام والوقائع الخارقة للعادة . كذلك لا يحسن أن يُعَدّ ما نكتبهُ هنا مقالاً من ورائه العاطفة أملاه علينا إعجابنا بالأعمال الحربية الممتازة التي قام بها قوّاد العصر الراشدي الأفذاذ . والحقيقة التي لا شك فيها أن نهضـة العرب وانتشارهم خارج جزيرتهم بتلك السرعة المدهشة لا يمكن درسها وفهم حقيقتهـا إلاَّ إذا اعتبرنا العوامل الاقليمية والبشرية المتصلة اتصالاً وثيقاً بجغرافيـة البلاد الطبيعية ومركزها بالنسبة إلى خط الاستواء .

لقد اعتاد مؤرخو الاسلام أن يدرسوا هذه النهضة على أنهـا نتيجة لعمل الحكومة الاسلامية العربية التي وضع أسسها المتينة النبي الكريم . كما أنهم يلقون نظرة إعجاب وتقدير على ما قام بهِ الصحابة الكرام من الأعمال الحربية العظيمة وما نالوه من النجاح والتوفيق المنقطع النظير في ساحات القتال في سورية والعراق ومصر . هـذه حقيقة لا يمكن لمؤرخ منصف إلا أن يسلم بها . على أننا من ناحيـة أخرى لا نرى من الحكمة أن نغفل عوامل أخرى جيولوجية لها شأنها في تبسط العرب وانتشارهم السريع خارج جزيرتهم .

لقد كان لهذه العوامل والمؤثرات دخلٌ كبير في الهجرة السامية الأولى . ومن المؤسف حقـاً أن لا نرى المؤرخين ـ إلاَّ القليل منهم ـ قد التفتوا إلى هذه الهجرة وتطوراتها وما نجم عنها من النتائج الخطيرة في حياة الأمم في الشرق الأدنى .

لقد اختلف العلماء في تعيين موطن الساميين الأول . ولهذا الاختلاف أهمية كبرى في دراسة تواريخ الأمم القديمة : ففريق من العلماء ادعوا أن سهول ما بين النهرين هي الموطن الأول للساميين، على حين قام آخرون من المؤرخين فخالفوا هذا الرأي وادعوا أن هذا الموطن السامي الأول يجب أن يكون في جزيرة العرب نفسها ، وكانت حجة هؤلاء أقوى وأمتن من حجة الذين جادلوهم. وقد ظلوا ذوي الكلمة العليا في عالم البحث والتدقيق الى أن قام المستشرق الطلياني جويدي Guidi ووضع رسالته المعروفة سنة ١٨٧٩ ادعى فيها أن بلاد العرب لا يمكن أن تكون الموطن الأول للساميين . وقد دعم آراءه بأدلة استمدها من الفروق البارزة في طرق معيشة الشعوب السامية المختلفة واللهجات الشائعة فيما بينهم ، ثم نبه إلى أن هذا الاختلاف لا يمكن أن يكون إلاّ إذا كان الساميون قد انتشروا من بلاد فيها من السهول والأمطار والأجواء والأودية ما لا يمكن العثور عليه إلاّ في بلادٍ مماثلة لسهول ما بين النهرين .

وحين صرح المستشرق جويدي بهذه النظرية وأخذ يدعم آراءه ببراهين قوية علمية تقدّم لمناقشته علماء آخرون وحاولوا الرد عليه والبرهنة على خطأ نظريته، فكتبوا في ذلك الموضوع مقالات طويلة وألفوا كتباً ضخمة ، وفيها الشيء الكثير من الآراء المفيدة . ومنذ ذلك التاريخ حتى أيامنا هذه والمستشرقون يقومون بجولات علمية جريئة في بلاد الشرق الأدنى ويستخرجون من أرضها آثاراً قيمة تتعلق بالمدنيتين البابلية والآشورية ، منها ما هو قديم جداًّ وقد يرتقي إلى ما قبل خمسة آلاف سنة ق . م . وقد كان لهذه الاكتشافات نتائج خطيرة لأنها برهنت على أن الهجرة السامية إلى الرافدين كانت قد تكرّرت على مر الأجيال السحيقة ولا سيما ما يتعلق منها بالهجرة الكلدانية المتأخرة . برهنت هذه المكتشفات أيضاً على أن موطن هؤلاء الساميين الأول كان في نواحي البحرين واليمامة . وهذه البلاد التي انقلبت الآن إلى سهول رملية قاحلة كانت في الأدوار التاريخية الأولى بلاداً عامرة – على ما يظن – بكثير من المدن والقرى . وهذا الاكتشاف نقض رأي المستشرق جويدي من أساسه ودعم الرأي القائل بوجوب الفحص عن آثار الموطن السامي الأول في جزيرة العرب . ولقد ظهرت آراء في الجيولوجية طريفة دعمت هذه الفكرة وحملت المؤرخين على أن يتجهوا كل الاتجاه إلى الرأي القائل بهجرة الساميين الأول من أقاصي الجزيرة ، وذلك بعد أن ثبت لدى العلماء أن خليج البصرة آخذ في الانكماش، وقد كانت شطوطه الغربية تنتهي عند مدينة نينوى، أما الطبقات الرسوبية التي تكوّنت منها بلاد ما بين النهرين فلقد ظهرت في الأدوار

الجيولوجية الحديثة . ومما يستغرب أن هذا الحادث الجيولوجي لم يسترع أنظار المستشرقين إلاّ في السنين الأخيرة .

وهنالك أمرٌ آخر جديرٌ بالدرس والتمحيص، وهو أنهُ في الزمن الذي ظهر فيهِ الساميون وأخذوا يذهبون إلى أقاصي بلادهم كان السومريون يسكنون في جهات ما بين النهرين، ويُظن أن هؤلاء كانوا قد نزحوا إلى هاتيك البلاد من نواحي جبال أورال والطاي وهم ينتمون إلى الجنس المغولي ولا يمتون بأي نسب إلى الجنس السامي . وكانوا يعيشون عيشة مدنية بالقياس إلى الأقوام المجاورة لهم . وهذا ما حملنا على الاعتقاد بأن لهؤلاء تاريخاً أقدم من تاريخ الساميين ببضعة آلاف من السنين . وقد زعم المؤرخ المعروف Buge بأن المدنية السومرية نشأت قبل المسيح بنحو ثمانية آلاف سنة، وهو زعم لا نظن فيه شيئاً من المبالغة أو الوهم . ويدلنا على ذلك ما قام بهِ العلامة هومل من التدقيقات الفلكية في بلاد بابل ، وما اكتشفهُ البحاثة مورغان من الآثار القديمة من تلال سوسة ، تلك الآثار التي أرجعها العلماء إلى ما قبل المسيح بنحو اثني عشر ألف سنة . وهذه الآثار تتصل اتصالاً وثيقاً بما تركه السومريون

ويؤخذ مما تقدم انهُ لم يكن هنالك مجال لافتراض أن الساميين كانوا مستوطنين تلك الديار أيام السيطرة السومرية على بلاد ما بين النهرين . لذلك نرى من المعقول أن نفحص عن موطن للساميين في أماكن أخرى . وهذا ما عزز النظرية القائلة بأن الموطن الأول السامي يجب أن يكون بعيداً عن بلاد ما بين النهرين .

ومع كل ما ذكرنا ، نرى من الواجب أن نعترف بأن المستشرق جويدي قد ظلَّ مسيطراً في زعمه إن بلاد العرب لا يمكن أن تكون المنشأ والموطن الأول للقبائل السامية . وهكذا ظلت النظريتان المتناقضتان في نشأة الساميين رائجة مدة طويلة دون أن تتغلب إحداها على الأخرى إلى أن ظهر المستشرق الطلياني ليون كايتاني Caetani الذي تناول الموضوع من الوجهة الجيولوجية وأخذ يبرهن بالطرق العلمية على أن مواطنه المستشرق جويدي لم يكن على حق فيما كان يدعيه .

لقد نبه كايتاني الأذهان إلى أن الأحوال الطبيعية في بلاد العرب لم تكن قبل الفين أو ثلاثة آلاف سنة من التاريخ الميلادي بحالتها الطبيعية والجوية الحاضرة ، وأن جفاف الجوّ السائد الآن في هاتيك الديار لم يكن إلاَّ نتيجة لتطورات جيولوجية وإقليمية استغرقت مدة طويلة . ويذهب كايتاني إلى أن الجفاف الحالي قد بدأ في أواخر الدورة الثلجية الأخيرة .

ومن المعلوم لدى علماء الجيولوجية أنهُ منذ زمن بعيد متوغل في القدم يقدَّر بنحو ربع مليون سنة اشتد البرد في نصف الكرة الشمالية بوجه عام وفي انكلترة بوجه خاص فاندفعت متجمدات شبه جزيرة اسكتلنده جنوباً واكتسحت شمالي انكلترة إلى أن بلغت وادي التَّيْميز. وقد شوهدت آثار المتجمدات هذه في شمالي أوربة وآسية وأمريكة الشمالية ووصلت المتجمدات في أمريكة الشمالية الى درجة ٣٠ من درجات العرض الشمالية .

واختلف العلماء في تعليل هذه الادوار الثلجية، فقال بعضهم إن البرد الذي سبب تلك المتجمدات كان منشأه انحراف في فلك الكرة الأرضية . ويقدر الفلكيون حدوث هذا الانحراف مرة في كل بضعة ملايين من السنين . وقد علل العلامة ليل Lyell حدوث تلك الأدوار الثلجية والمتجمدات ، وحاول أن يرجعها إلى تغييرات جغرافية حدثت في الكرة الأرضية .

والعصر الجليدي هذا كان يتخللهُ فترات ركود سادت فيها الأجواء المعتدلة، وكان يقابل هذه الأدوار الثلجية أمطار غزيرة جدًّا تتساقط بصورة متتابعة في كل من المناطق المعتدلة والمعتدلة الحارة . وقد ثبت لدى العلماء أن هذه الدورة الثلجية العنيفة قد قسمت إلى ستة أدوار طويلة الأمد انفصل بعضها عن بعض بفترات ركود طويلة الأجل في الدور الثاني وقصيرته في سائر الأدوار . وظلّ القسم الأعظم من أوربة مستوراً بطبقة ثلجية كثيفة أكثر من دور واحد مدة طويلة . وفي الدور الثاني الذي كان أشد الأدوار الثلجية وأعنفها بلغ سمك الطبقة الثلجية أكثر من الف متر كانت تغطي معظم بلاد الانكليز وبحر الشمال وأكثر من نصف ألمانية وروسية الأوربية . وفي خلال فترات الركود التي تتخللت الأدوار الثلجية كانت المتجمدات تزحف من الشمال إلى الجنوب مكتسحة الجانب الأكبر من نصف الكرة الأرضية الجنوبي تاركة وراءها جوًّا معتدلاً وحرارة منعشة، وهذا ما علل وجود هياكل عظمية لأفيال وجدت في منطقة الأحراج الكثيفة في سيبيرية ، أما البحار القطبية فقد صفا فيها الجو وذابت فيها الثلوج وأصبح الهواء على نحو لانجده الآن إلاَّ في البلاد المعتدلة. درس هذا الموضوع كل من العلامة جيكي Gaikie في كتابه The Great Ice Age في طبعته الثالثة ، والدكتور كرول Croll في مؤلفه القيم ، المسمى : الأقاليم والزمن The Climate and Time.

وفي خلال الأدوار الثلجية الكبرى ، وفي فترات الركود التي كانت تنتاب الكرة الأرضية كانت البلاد الواقعة بين خط الاستواء ، وآخر حد وصلت اليه الطبقات الثلجية الكثيفة

تتمتع بجوٍّ ممطر رطب، ويقدّر العلماء أن الأمطار الشديدة ظلت تتساقط بغزارة لا يتصورها رجل العصر الحاضر، مدةً لا تقل عن مائتي ألف سنة. ويستفاد من الدراسات الجيولوجية المتابعة التي تمت في الجبال الآسيوية والأفريقية أن الأمطار كانت تتساقط عليها بغزارة عظيمة على حين كانت في الوقت نفسه تسود الأدوار الثلجية أقسام أوربة الشمالية.

• • •

ويؤكد علماء الجيولوجية أن صحارى البلاد العربية الواسعة ظلت عرضة لأمطار غزيرة خلال عصور كثيرة، يدلنا على ذلك ما تركته هذه الأمطار من الجروف والأودية والآثار البارزة في جبال سينا وشمالي أفريقية وعلى سفوح الجبال الغربية المطلة على البحر الأحمر.

وكان يجري في أواسط أفريقية نحو الشمال ثلاثة أنهر عظيمة: هي وادي ميا ونهر ايغارغار ونهر النيل. فالنهران الأولان جفّا نهائيًّا بعد الدورة الثلجية الأخيرة، أما نهر النيل فلقد ظلّ محافظاً على عظمته وعلى تدفق مياهه الغزيرة، لأن منابعه تقع في نواحٍ أبعد في الجنوب من النهرين الأولين. وكان يجري في جزيرة العرب أنهر عظيمة. وفي الدورة الثلجية الثانية العنيفة تشكلت التجمدات في أودية جبال سينا الصخرية. وقد اكتشف العلماء آثار هذه التجمدات، ودرسها درساً دقيقاً العلامة جيكي Gaikie ولو واصل العلماء دراساتهم الجيولوجية في جبال مدين لاكتشفوا فيها آثار متجمدات مماثلة. ومن أنهر جزيرة العرب وادي الحمض الذي ينبت مدينة يثرب على أحد فروعه. وكان هذا النهر يصب في البحر الأحمر. وهنالك أنهر ثلاثة أخرى كانت تجري في السهول الواسعة المؤلفة لبلاد نجد والحسا. وأول هذه الأنهار وادي السرحان الذي كان ينبع من مكان يقع في الناحية الشرقية من جبال حوران، ثم يخترق سهول الجزيرة الشمالية ويصب بالقرب من مدن البابليين الخربة أيام لم تكن هنالك دولة بابلية، وكان الخليج الفارسي يمتد إلى النواحي التي ينبت فيها فيما بعد مدينة الهيت على نهر الفرات. والنهر الثاني هو وادي الرمة، وقد كان منبعه شرقي مكة، وكان يتجه نحو الشرق فينضم اليه عدة فروع ثم يصب في بحر عمان ما بين مدينتي (اور) و (ادريدو) السومريتين. والنهر الأخير هو نهر الدواسير وهو أكبر أنهر الجزيرة العربية، وكان يقع منبعه شرقي بلاد اليمن ويسير نحو الشمال مخترقاً سهل الربع الخالي، إلى أن يلتحق بوادي الرمة بالقرب من شواطئ خليج البصرة.

وفي هذا الدور الجيولوجي الذي كانت جزيرة العرب تتمتع فيه بأمطار غزيرة كان وادي الشريعة بحيرة عظيمة تبدأ من جنوبي جبال حرمون وتمتد حتى وادي العربة، ولربما اتصلت مياهه عند مدينة العقبة بالبحر الأحمر .

ويبدو مما تقدم أن الصحارى الأفريقية الوسطى والشمالية وسهول جزيرة العرب المحرومة الآن مياه الأمطار كانت خلال الأدوار الجيولوجية المبحوث عنها تتصف بجوٍّ ممطر منعش وبحرارة معتدلة . كانت الأنهار فيها تنساب بين شجر الأحراج الكثيفة وكان يعيش في تلك الأحراج أسراب من الأفيال والكركدن والتماسيح . ويجد القارئ مقالاً طريفاً في هذه الأسراب من مقالات نشرها المستشرق اليسوعي الأب لامنس في مجلة المشرق الصادرة في بيروت سنة ١٩٠٥ ، ووجدت آثار متحجرة لهذه الحيوانات الضخمة في بعض أماكن أفريقية الشمالية وفي شمال جزيرة العرب وفي بعض المغاور وجبل لبنان . وآخر الحيوانات التي انقرضت هي الأفيال والأسود . وكان ملوك الأشوريين يصيدونها في صحارى البلاد العربية قبل المسيح بألف ومائة سنة .

ويتضح مما تقدَّم أنه بينما كان معظم النواحي الأوروبية وشمالي آسية خالياً من السكان في الأدوار الثلجية كانت جزيرة العرب والصحراء الكبرى وجنوبي آسية تتمتع بجوٍّ معتدل وأمطار غزيرة وتزخر بأنواع النبات والزرع والشجر . وعلاوة على ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن جزيرة العرب كان يسكنها حينئذٍ طائفة من الناس ينتمون إلى دوري بالثوليتيك ونثوليتيك . ودافع عن هذا الزعم العلامة دوعيتي الذي وجد في بعض أنحاء الجزيرة آلات فطرية كان يصنعها ويستخدمها رجل هذين الدورين . وهذا الزعم ليس بغريب عن بلاد العرب التي كانت في تلك الأدوار الجيولوجية تتصف بجوٍّ معتدل وبأمطار غزيرة وحرارة صالحة لسكن المخلوقات الحية . أما هضبة إيران فقد كانت مغطاة بالمتجمدات التي تحول دون تكوين موطن لأي كائن حي . وحين انتهت الأدوار الثلجية وأخذت درجة الحرارة تتساقط تدريجيًّا قلت كمية الأبخرة المتصاعدة من مياه البحار وقلت معها مياه الأمطار التي كانت تتساقط بغزارة مدهشة . وهكذا أخذ يحل الجفاف محل الرطوبة في بعض أقسام الكرة الأرضية . وقد درس هذه الحالة الجوية الطارئة الدكتور فرول وذهب إلى أن الجفاف البطيء سيظل يعمل عمله خلال نحو عشرين الف سنة من السنين القادمة ثم تعود الكرة الأرضية إلى ما كانت عليه من الرطوبة والاعتدال قبل الدورة الثلجية السادسة . ونحن لا نرى من الممكن مناقشة الدكتور فرول في زعمه بشأن جوّ الكرة

الأرضية في المستقبل البعيد ، بل نرى من المعقول والممكن أن نعود إلى الماضي القريب منه والبعيد . فنقول ان بلاد العرب والصحراء الكبرى كانت كما قلنا آنفاً -- تتمتع بجوٍ معتدل وحرارة مقبولة وأمطار غزيرة ، وأنها حافظت على هذه الأمطار مدة طويلة بعد انتهاء الدورة الثلجية الأخيرة ، ثم حلَّ فيها دور الجفاف وأخذ يعمل عمله في أسلوب بطيء جدًّا ، وبتعاقب العصور قلت مياه الأمطار وبقلتها جفت الأرض وقلت مياه الأودية والأنهر . وقد ظلَّ الجفاف يعمل في التخريب حتى نضبت الأنهر ويبست الأرض وانقرضت معالم الحياة الحيوانية والنباتية وحلت محلَّ الأحراج الكثيفة سهول رملية قاحلة تعرَّضت لأشعة الشمس المحرقة في النهار وإلى برد الجو القارس في الليل ، فتفتتت بسبب هذه العوامل الجوية الصخور واستحالت سهولاً رملية نراها منتشرة الآن في جميع أنحاء جزيرة العرب تهدِّد كل من يقترب منها بالموت الزؤام، بسبب جفافها الفظيع وحرارتها الكاوية ، وفقدان جميع أسباب العيش والمأوى . وقد لا يعرف مبلغ خطر هذه الصحارى المخيفة إلاَّ الذين ارتادوها واكتووا بحرّها اللافح وذاقوا مرّ العيش بسبب خلوها من الماء والمسكن وسائر مرافق العيش .

إن الإيضاحات التي بُسطت حتى الآن تكوّن فكرة قريبة من الصحة في حالة البلاد العربية في العصور الجيولوجية السحيقة . على أنهُ من المفيد أن نسأل عن التاريخ الذي ارتدت فيه هاتيك البلاد منظرها الحالي القاحل الموحش . وقد أجاب المستشرق الطلياني كايتاني في تاريخه في الاسلام عن ذلك قال : « لقد أخذت جزيرة العرب تتقهقر وتفقد رطوبتها واعتدال جوِّها وأسباب العيش فيها منذ أكثر من أربعة عشر الف سنة . إذ ان هذا التقهقر كان بطيئاً جدًّا ، فان تأثيره في حياة السكان لم يكن فجائيًّا بل كان مطرداً تبعاً للقلة في الأمطار وارتفاع حرارة الجو . على أن ازدحام السكان لم يكن هنالك كما هي الحال في البلاد المزدحمة الحالية ، وكان الناس يعيشون من صيد السمك ويسكنون متفرقين متباعدين ، ولذلك يمكن أن يقال إن سكان الجزيرة ظلوا على حياتهم هذه إلى أن أخذوا يشعرون بقلة الزاد والمحصول بسبب ندرة الأمطار ، فانصرفوا إلى تدجين الحيوانات البرية ليدفعوا عن أنفسهم غائلة الجوع . ولما اشتدت الحالة بهم ونفد صبرهم من الفاقة والجوع والعطش ارتحلوا الى بلاد أخصب تربة وأجود جوًّا وأكثر أمطاراً . وهكذا بدأت أولى هجراتهم التي حدثت غير مرة . فان الآثار التي استخرجت من جوف الأرض ما بين النهرين الفرات ودجلة تبرهن على أن أولى الهجرات السامية قد بدأت قبل نحو خمسة آلاف من السنين من ميلاد

المسيح . على أن هـذه الاكتشافات يجب أن لا تنفي فـكرة وقوع هجرات سامية أخرى قبل هذا التاريخ . والأسباب الجوية المبحوث عنها والتي حملت الأقوام السامية على هجرة موطنهم الأول وتركه إلى وطن أحن منهُ جوًّا ورطوبة هي نفسها التي حملت أقواماً أخر على الهجرة العامة . فالجفاف الذي طرأ على وادي تريم قرب بحيرة ( لوب نور ) قد حمل الصينيين على هجر مساكنهم هناك في السنين الأخيرة وعلى ارتحـالهم تدريجيًّـا الى أعالي وادي ( هونغ هو ) في مقاطعة شانشي ومنها إلى البلاد الصينية الأصلية

وإذ نقرأ تفاصيل هذه الهجرة الصينية لا بدّ لنا من ان نسجّل الهجرات الآرية التي بدأت قبل نحو ألفي سنة من التاريخ المسيحي على خطين مختلفين . ويبدأ خط الهجرة الآرية الأول من السهول المحيطة ببحر قزوين ماراً بجبال أفغانستان شرقاً فجنوباً إلى أن ينتهي ببلاد الهند الشمالية ذات الأنهر الخمسة، وهي ما تسمى الآن بمقاطعة بنجاب . والخط الثاني الذي اختاره الآريون في هجرتهم سار نحو الغرب ماراً من البلاد الواقعة شمالي بحري قزوين والأسود ، وقد استقرّ أولئك الآريون المهاجرون مدة من الزمن في جنوب روسية ثم انتشروا منها في سائر أقسام القارة الأوربية .

• • •

وبعد بسط ما تقـدّم صار من الممكن أن نقول كلمة صحيحة في الوطن السامي الأول وهي تتلخص في أن الأقوام السامية الأولى كانوا قد قاموا بهجرتهم في موطنهم الأول في بلاد العرب إلى البلاد الواقعة في شمال شرق جزيرتهم ، وهذا ينقض رأي المستشرق الطلياني جويدي القائل بأن الوطن السامي الأول كان في بلاد ما بين النهرين . ولقد ذهب جويدي هذا المذهب لأنه أهمل دراسة العوامل الجيولوجية التي ذكرنا خلاصتها ولم يتأمل التطورات التي طرأت على البلاد بسبب الجفاف البطيء واشتداد حرارة الجو ونضوب المياه الجارية ، واكتفى بأن الجزيرة العربية بسهولهـا القاحلة وجفافها المهلك لا يمكن أن تكون موطناً للساميين . ولم يتنبه جويدي حين دافع عن هذا الرأي إلى أن بلاد ما بين النهرين كانت موطناً للسومريين حين باشر الساميون هجراتهم الأولى .

ومن المعلوم أن السومريين لا يمتون بأية صلة للساميين، بل هم كما قلنا سابقاً من الجنس المغولي سكان بلاد أورال والطاي القدماء .

وحين وضع جويدي رأيه المتقدم ذكره وصف الوطن السامي الأول فقال فيه : « إنه

صحراء منبسطة ليس فيها سوى تلال قليلة الارتفاع ولا تبعد كثيراً عن البحر وفيها أنهار غزيرة المياه وأراض مغطاة بحشائش كثيفة ترعاها قطعان الماشية، وقد استنبت الأهلون فيها بعض الحبوب التي ترويها أمطار غزيرة . وفي فصل الشتاء كانت حرارة الجو تنخفض كثيراً حتى إن الثلج كان يسقط عليها أحياناً » . هذه هي الأوصاف التي انتهى اليها جويدي ونفى بسببها الرأي القائل باعتبار الجزيرة موطناً أول للقبائل السامية لأن هذه الأوصاف ليست متوافرة الآن في صحارى الجزيرة، إلاَّ أنها تنطبق على حالة بلاد العرب حين ظهرت اللغة السامية، وهي من جملة الأدلة على ان الموطن الأول للساميين كان في جنوب جزيرة العرب لا في بلاد ما بين النهرين . لأن الجزيرة حينما أخذت تفقد أحراجها الكثيفة في أسلوب تدريجي أخذ السكان — على ما يرى العلماء — يدجنون الحيوانات ويرعونها في السهول والتلال ويستنبتون بعض البقول والحبوب .

يقول جويدي إن جميع الساميين كانوا يعرفون الجمل ويسمونه بالأسماء المعروفة لديهم وكانوا يصيدون في البحر وفي الأنهر ويزرعون الحبوب ويحرثون الأرضين بواسطة حيوانات مدجنة ويقيمون الأجران لاخراج الحبوب من سنابلها . إلاَّ أنهم كانوا يجهلون صنع الخبز ، وقد زرعوا الكرمة وقطفوا أعنابها إلاَّ أنهم جهلوا صنع الخمر منها . وقد جاء ذكر كروم مدينة الطائف في الأحاديث النبوية . وكان زبيب الطائف يشحن إلى سورية وتستنبت الكرمة في وادي القرى أيضاً وفي بلاد اليمن . فاذا كانت الحال الآن كما ذكرنا فالأولى أن تكون المحصولات في الجزيرة أكثر تنويعاً وازدهاراً حين كان الجوّ معتدلاً والأمطار متواصلة أكثر منها الآن .

ويقول جويدي: « لو كان الساميون هاجروا للمرة الأولى من جزيرتهم إلى بلاد ما بين النهرين لكانوا سموا الصحارى الرملية التي اجتازوها بالأسماء المعروفة لدى سكان ما بين النهرين . وقد وجه هذا الاختلاف في التسمية أنظار المؤرخين، ولاحظوا ان سكان الجنوب كانوا يفهمون من كلمة الصحارى الرملية سهولاً قاحلة لا نبت فيها ولا حيوان . أما أهل الشمال الساميون وهم الآشوريون والعبرانيون فيفهمون من كلمة الصحاري الرملية تلك السهول التي كانوا يربون فيها أغنامهم وإبلهم» .

• • •

هذا ما ساقه جويدي للبرهنة من الوجهة اللغوية على أن الوطن الأصلي السامي كان

بلاد ما بين النهرين . إلاَّ أن المستشرق الايطالي كايتاني يرى في هذا دليلاً آخر على بطلان ذلك الزعم، لأن الهجرة السامية الأولى نحو بلاد ما بين النهرين كانت وقعت قبل أن تصبح جزيرة العرب على ما هي عليه الآن من الجفاف المهلك والجوّ الحار ، وهم لم يكونوا يعرفون للصحارى الرملية ما ألفه أهل الجنوب من المعاني المخيفة، وقد وجدوا حين هجرتهم الأولى نحو الشمال سهولاً مماثلة لتلك التي غادروها في ديارهم الأولى وفيها العشب والحشائش التي كانت ترعاها قطعان الحيوانات المدجنة . وفي إبان الهجرة السامية الأولى نحو العراق لم تكن صحارى الجزيرة قد جفت نهائيًّا وانقرضت فيها معالم الحياة النباتية والحيوانية بل كان فيها بعض المزاعي الصالحة لتربية المواشي وتكثيرها . وقد ظنّ بعض العلماء أن الهجرة السامية الأولى كانت حول سنة ( ٥٠٠٠ ق . م . ) وأن صحارى الجزيرة أضاعت نضارتها وانقلبت إلى رمال قاحلة مخيفة في نحو سنة ١٥٠٠ ق . م .

أما الناحية التي خرج منها الساميون الأولون في الجزيرة فلقد اختلف العلماء فيها فقال فريق منهم بأن الموطن الأصلي السامي كان في نواحي الحسا واليمامة . وقال العلامة الانكليزي هومل بأن موطن العبرانيين والآراميين الأصلي كان في نواحي البحرين واليمامة، ثم انتشروا منها في الشمال وفي الغرب .

وحين جاء الساميون إبان هجرتهم الأولى الى بلاد ما بين النهرين اشتبكوا بالسومريين ووقعت لهم وقائع دامية انتهت باستقرار الساميين ونشرهم عاداتهم ولغتهم بين سكان تلك البلاد الأصليين، وحين أصبح الساميون حكام ما بين النهرين أقبلوا على المدنية السومرية وعلاَّوا بها. وقد ذهب العلماء إلى القول بأن الاحتلال السامي الأول لم يبدأ بحركات عسكرية منظمة بل كان المهاجرون يأتون جماعات فينسلون إلى المراعي الخصبة طلباً للكلأ كما يفعل الآن قبائل نجد البدوية . وقد ظلّ الاحتلال السامي السلمي قائماً حتى أصبح المهاجرون يؤلفون كثرة ساحقة فانقلبوا على ساداتهم السومريين وتغلبوا عليهم وحلوا محلهم في الحكم . ويظن أن هذا الاحتلال الذي كان قد بدأ سلميًّا ثم انقلب إلى احتلال عسكري متغلب لم يتم ولم يتحقق إلا في مدة ألف سنة على الاقل.

( يافا )

# الدين والفلسفة

## الشيخ محمد عبده والتوفيق بينهما *

لمحمد يوسف موسى

مهما يلحّ كلٌّ من رجال الدين ورجال الفلسفة في أن يعرف حدود الدين وحدود الفلسفة حتى لا يكون بينهما عدوان ، ومهما يكن شأن الذين نادوا بذلك من المفكرين المتقدمين ، فان هذا لم يراع دائماً ، بل كان أن اختلطت المباحث الدينية والمباحث الفلسفية ، وتعدى الفلاسفة ما كان يجب أن يلتزموه من حدود ، فزجوا بأنفسهم في ما كان قائماً من نزاع بين الفرق الدينية المختلفة ، وبثوا بصنيعهم هذا كثيراً من فلسفة اليونان التي نالت إعجابهم واستأثرت بألبابهم ، وكان بسبب ذلك ما نعرف من تألب الفقهاء والمتكلمين واضطهادهم لهم وشنهم الحرب عليهم وعلى مؤلفاتهم ، التي جمعت الحسن وغير الحسن ، ما دام أصحابها خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً !

لكن الشيخ محمد عبده يلاحظ بحق أن المتكلمين غلوا في نقد الفلاسفة ، واشتدوا في الحملة عليهم وعلى آرائهم ، « فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة ، وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامي من سعيهم » [1] . وكان رجال الدين هؤلاء ينبعثون في هذه الحملة — كما يقول — ببواعث من الحقد والحسد الذي يأكل القلوب ، أو الجهل بالدين ومبادئه واصوله ومقدماته ؛ مما يجعلهم يرون في كل نظر عقلي خروجاً على الدين .

ولهذا — كما ذكرنا من قبل — لا نرى مثل ذلك الأذى يقع إلاَّ على قاضي قضاة كابن رشد ، أو وزير أو جليس خليفة أو ذي نفوذ عظيم بين العامة . ولهذا أيضاً لم يقف الجهل ببعض من يزعمون أنهم رجال الدين وأهل الحفاظ عنه عند رمي الفلاسفة ومن إليهم بالكفر ، « بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين وخدمة السنة والكتاب » [2]

وتتبين نزعة الشيخ واضحة إلى التوفيق بين الدين والفلسفة ، بعد ما قدمنا لهُ من أصول وضعها لبيان العلاقة بين الوحي والعقل ، من هذا الأصل الآخر الذي أراد بهِ أن

---

* انظر مقتطف يونيو الماضي ص ١٢ (١) رسالة التوحيد ص ٢١ (٢) الاسلام والنصرانية ص ١٥٦

ينأى الناس بأنفسهم وبإخوانهم في الدين عن رميهم بالكفر لأوهى الأسباب ، إذ قرَّر به أنه « إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد ، حُمل على الايمان ولا يجوز حمله على الكفر » (١)

وزاد على هذا في مؤلف آخر حيث أكد أنهُ لا يصح التكفير باعتقاد أحد طرفي النفي والاثبات في المسائل الخلافية في الدين ، ما عدا مسألة الألوهية والنبوَّة والمعاد ، فإن إنكار شيء من هذه الأمور الثلاثة كفر لأنها مبنى جميع الديانات ، « وأما ما سواها من التفاصيل فلا بأس باعتقاد أحد طرفيه إن كان بالبرهان ، والنقليات مؤولات » (٢) وليس وراء هذا تسامح وسعة صدر ، وتمكينٌ للنظر الفلسفي ، وتوفيقٌ له مع الدين !

هذا ، ولم يكتفِ الامام الشيخ محمد عبده بأصول يقررها ، وصلات عامة بين الدين والفلسفة يبيّنها ويطلب رعايتها ، بل تناول أهم المسائل التي ثار من أجلها الخلاف بين رجال الدين ورجال الفلسفة، وأعمل فيها فكره وصدع فيها برأيه، وانتهى منها إلى ما يؤكد في رأيه الوفاق بين الدين والفلسفة. ومن الخير أن نستعرض بعض هذه المسائل في إيجاز، ليكون القول عن بينة، ولنعلم يقيناً كم كان الشيخ محافظاً على ما سبق أن قرّر من مبادئ وأصول :

( ا ) نذكر أولاً مسألة الأسباب والمسببات ، تلك المسألة التي حمي فيها الخلاف بين المعسكرين ، والتي بذل حجة الاسلام الغزالي جهداً كبيراً عنيفاً ليدل على خطأ الفلاسفة في ما ذهبوا اليه من وجود رابطة ضرورية بين ما يجري في العالم من أمر وبين سببه الذي يُعتقد أنهُ كان لأجله .

الفلاسفة ومن إليهم من العقليين يرون هذا الارتباط بين الشيء وسببهُ ضروريًّا ، وإلاَّ لارتفعت الحكمة الموجودة في الصانع وفي المخلوقات ، وهذا إبطال للعقل . أما المتكلمون الأشاعرة — فيرون كما يقول الغزالي — أن « الاقتران بين ما يُعتقد في العادة سبباً وما يُعتقد مسبباً ليس ضروريًّا . . . ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر ، مثل الري والشرب ، والشبع والأكل، والاحتراق ولقاء النار . . . وإن اقترانهما إنما هو لما سبق من تقدير الله سبحانه لخلقها على التساوق ، لا لكونه ضروريًّا في نفسه » (٣)

والفلاسفة ـ ومن شيوخهم ابن رشد ـ يرون أن العقل ليس إلاَّ إدراك الموجودات بأسبابها ، « فمن رفع الأسباب فقد رفع العقل . وصناعة المنطق تضع وضعاً أن ههنا أسباباً

(١) الاسلام والنصرانية ص ٥٧ (٢) الحاشية ص ١٠٧ ، وقريب من هذا ما ذكره ص ٦٠
(٣) تهافت الفلاسفة ، نشر الاب بويج ، ص ٢٧٧ — ٢٧٨

ومسببات ، وأن المعرفة بتلك الأسباب لا تكون على التمام إلاَّ بمعرفة أسبابها ، فرفع هذه الأشياء مبطل للعلم ورفع لهُ » [١]

هكذا ذهب المتكلمون ، وهكذا ذهب الفلاسفة ، في هذه المشكلة ، أي أن كلاًّ من الفريقين كان في ناحية . فجاء الإمام يقرر ، في رده على فرح أنطون صاحب مجلة الجامعة ، أنه « ليس من الممكن لمسلم أن يذهب إلى ارتفاع ما بين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسبّبيّة إلاَّ إذا كفر بدينه قبل أن يكفر بعقله » [٢] وهذا منه ـ كما نرى ـ انحياز الى رأي المعتزلة والفلاسفة ، مهما قيل لتقريبه به من رأي الأشاعرة بأننا لا نقطع العلاقة بين الأسباب الظاهرة ومسبباتها ، لأن الأسباب « لا بدّ منها في صدور الأثر إلا أن الذي يعطيها الوجود عند استكمالها هو الخالق » [٣]

( ب ) وفي مسألة قِدم العالم [٤] نراه يحقق أقوال الطرفين ، ويبين أن القول بالقدم الزماني الذي ذهب اليه الفلاسفة لا يستلزم القول بالقدم الذاتي إلاَّ على ما فهمهُ الأقدمون ، ثم يذكر أنهُ « لا ضير أن ينتحل الناظر أحد الرأيين — رأي المتكلمين ورأي الفلاسفة — إذا سلم برهانه من التقليد» [٥] ومعنى هذا بوضوح أنهُ لا كفر بالذهاب مذهب الفلاسفة . بل إنهُ يصرح بذلك إذ يذكر في آخر المسألة أن القائلين بالقدم لم يكفروا بمذهبهم هذا أو ينكروا بهِ ضروريًّا من الدين ، وإنما هم اجتهدوا وأخطأوا ، فهم مؤمنون مرضيون عند الله تعالى ، إذ لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها [٦].

ويتصل بهذا مشكلة صدور الموجودات عن الله تعالى : بعضها بغير واسطة وبعضها بواسطة من موجود آخر سبق وجوده كما يقول الفلاسفة ، أو كلها بلا واسطة مطلقاً كما يرى المتكلمون ، حتى لا نوهم لغيره من خلقه مشاركة في شيء من الأشياء . في هذه المشكلة يقول توفيقاً بين الرأيين : « فتحقيق مذهب الشيخ الأشعري يتحد مع تحقيق مذهب الحكماء» [٧] ما دام الكل متفقاً على أن كل خلق الله في حاجة إليهِ في وجوده ، سواء أكان وجوده عنهُ بطريق مباشر ، أم كان بواسطة غيره من المعلولات السابقة عليه وجوداً . وإذاً « فلا مخالفة بين القولين بوجهٍ من الوجوه ، إلاَّ ما كان من تعبير لفظي لا يعتد بهِ في الاعتقاديات » [٨] وإذاً فالذين يكفرون الفلاسفة لهذا على خطأ وضلال ، إذ « يدَّعون السنة وهم ناصرو البدعة ، وأي بدعة أكبر من تكفير من يدَّعون الايمان بما جاء بهِ محمد بعضهم لبعض بدون استناد

(١) تهافت التهافت ، الطبعة نفسها ، ص ٥٢٢ (٢) ابن رشد وفلسفته للاستاذ فرح انطون ص ٩١ (٣) المصدر نفسه ص ٩٠ (٤) هذه المسألة ومسألتا علم الله والبعث بالروح فقط هي ما كفر بها الغزالي الفلاسفة (٥) الحاشية ص ٥٧ (٦) المرجع نفسه ص ٦٠ (٧) المرجع ص ٧٧ (٨) المرجع نفسه ص ٧٨

لا إلى كتاب ولا إلى سنة »[١] ولعمري هذا حق كل حق.

(ج) وفي مسألة علم الله تعالى، وأنهُ يتناول الكليات والجزئيات من الأمور المختلفة كما يرى المتكلمون، أو الأمور الكلية فقط كما يرى الفلاسفة. في هذه المسألة يرى الشيخ أن طريق علمنا بالأشياء بتخيلها وانعكاس صورها على آلة الادراك لا يناسب الله تعالى، لأن هذا التخيل والانعكاس لا يكونان إلاَّ بعد حدوثها في الزمان، أمراً أمراً أو جزئيًّا جزئيًّا. أما اللائق بالله وكمال قدرته فهو إدراك الأشياء كلها حتى ما كان جزئيًّا منها بطريق التعقل لا التخيل على نحو كلي — أي بعلم أسبابها الكلية — كما تعلم الذات ذاتها، وهذا ما يسمى في اصطلاح الحكماء والفلاسفة بعلم الله بالكليات دون الجزئيات. فالاختلاف إذاً في نحو الإدراك من كونه كليًّا أو جزئيًّا، لا في المدرَك بفتح الراء، « وعلى هذا لا يستحقون التكفير، فإنهم قد أثبتوا علم الله بجميع الكليات والجزئيات، فإنه على وجه غير الوجه الذي عليه علومنا، وهذا لا ضير فيه »[٢].

هذا لا ضير فيه حقًّا، وبخاصة — كما يقول الشيخ — لأن الفلاسفة حين ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه في هذه المسألة كانوا يرون أن هذا هو الكمال اللائق بالله تعالى، فلا يستحقون التكفير، إنما يستحقه من يذهب إلى رأي يعلم أنهُ نقص في جانب الله ومع هذا يعتقده، والفلاسفة ليسوا بهذه المثابة. إنهم يعتقدون أن الله هو خالق كل شيء، الكليات والجزئيات بإرادته على حسب علمه، فكيف لا يعلم من خلق أو ما خلق وهو اللطيف الخبير!

(د) — وأخيراً، فيما يتعلق بالبعث الجسماني الذي أنكره الفلاسفة لما قام في رأيهم من الادلة على نفيهِ، فقد رأى أن ليس من الممكن تأويل النصوص القرآنية الدالة عليه، ولا من الحق أن يتركها ويأخذ بما استدل به الفلاسفة من الأدلة النظرية. لهذا وذاك نجده يؤكد أن إعادة الأجسام التي تعلقت الأرواح بها في الدنيا أمر يجب اعتقاده شرعاً ويكفر منكره، وكل ما يمكن أن نتأول فيه هو كيفية تلك اللذائذ والآلام الجسمية من غير أن نخشى الوقوع في الكفر ونحوه[٣]. وهذا الرأي منهُ يدلنا على أنهُ قد يعتد بالنصوص الدينية أكثر مما يعتد بالعقل ونظره.

وبعد، فقد طال الحديث طويلاً في ما كنا نقدر في بيان موقف الأستاذ الشيخ محمد عبده من الدين والفلسفة، ومنهُ يتبين لنا كم كانت سعة صدره، وكم كان ينعي على تكفير الفلاسفة في غير ما يجب التكفير فيهِ، وكيف كان يعمل على أن يتعاون الوحي والعقل أو الدين والعلم والفلسفة لخير الإنسان والإنسانية كلها!

(١) الحاشية ص ٧٨ (٢) المرجع نفسه ص ١١٣ (٣) المرجع نفسه ص ١٩٧

# المطالب الخلقية بعد الحرب (*)

## وهل في وسع التربية تحقيقها ؟

للدكتور تشارلس وطسن

---

يتساءلون عن أهم ما يفتقر اليهِ العالم بعد الحرب ، فيذهبون في الاجابة كل مذهب . يجيب بعضهم أنهُ المطاط ، ويرى فريق أنه الفولاذ ، ويزعم آخرون أنه السفن لتيسير التجارة والنقل ، ويذهب قوم الى أنهُ مدّ الأماكن التي أصابها ما أصابها من البوار والتخريب بالأغذية . كما يؤكد غيرهم أنهُ العقاقير والفيتامينات . أما أنا فاسمحوا لي أن أتعالى بكم الى أفق دون مستواه النفعيات ، وأقول إن أهم ما نحتاج اليهِ بعد الحرب هو الأخلاق الكريمة . ويمكن الحكم على جسامة حاجتنا إلى هذه بما أصاب المقاييس الأخلاقية في هذه الأيام من التدهور والانحلال .

ولنلق أولاً نظرة إلى الأمم المعادية . لقد توسل هؤلاء في خلال الثلاثين السنة الماضية بكل وسيلة مستطاعة أن يشربوا مواطنيهم ذلك المبدأ الفاسد من أساسهِ ، ألا وهو مبدأ الحق للقوة . فلم يشعلوا نار هذه الحرب إلاَّ لاخراجهِ من حيز القول إلى حيز الفعل ، فنهجوا في غزواتهم المطردة لشتى البلدان سبل النهب ، والسلب ، والسطو ، والسخرة ، والطغيان ، والتقتيل . ولقد تناول تلقين هذه المبادئ نيفاً وأربعين مليوناً من الأنفس في ايطاليـة وثمانين مليوناً في ألمانية وحدها . وأنى لهذه الملايين أن ترعوي عما تغلغل في نفوسها من الإثم والعدوان ، فتنضم إلى حظيرة عالم جديد يخفق فوق نظامه لواء الخير ؟

أضف إلى سكان الأمم المعادية تلك الملايين من الأنفس في الأمم التي أخضعتها المانية في عهد قوتها فاستهواها ما نالها من ظفر وأغراها ما أحرزته من بطش ، وأخـذت ترتاب في مبادئ العدالة والحق ، ووفاء العهود ، والرحمة ، والصلاح ، وتزعم : أن هذه ليست إلا تقاليد يلوح لنا أنها بالية معيبة ، نسج عليها الدهر خيوط العنكبوت . فما لنا لا ننتظم في سلك هذا النظام الوثني الجديد ، نظام الحديد والدم ؟ ولعلنا كنا نستطيع أن نعزي أنفسنا

---

* ترجمة الخطاب الذي ألقي في الحفلة السنوية لتوزيع الاجازات العلمية للجامعة الاميركية بالقاهرة يوم ٨ يونيو ١٩٤٤

بأن نصر الامم المتحالفة كفيل باعادة الأمور إلى نصابها، فيما لو كانت هذه المبادئ المحطمة مقصورة على الأمم المعادية.

ولكن مما يؤسف لهُ أن في خلال هذه الحملة التي نحملها على هذا الشر المنظم، قد أصاب الخير أيضاً ما يصيب الرجل الآمن المطمئن من مقاومة اللصوص وقطّاع الطرق. وهل يسلم من يشترك في غسل الاقذار، من التلوث بالأوحال؟ أو نعجب إذا رأينا المبادئ الخلقية في الامم المتحالفة نفسها يهبط مستواها من جراء الشئون الحربية؟

تأملوا في عوامل التجربة والإغراء التي تكتنف اليوم القوات المتحاربة في جميع الامم. وانظروا كيف أن جيلاً كاملاً من شبابها قد مزق الروابط الاجتماعية وانسلخ من تلك المبادئ التي كانت في الأحوال العادية تكبح جماحه وتهديه إلى سواء السبيل. انظروا كيف أن جحافل هذا الشباب قد حرمت عيوناً كانت بالأمس في الأوطان ترعاها وتتسامى بها إلى المكارم، فاذا بها اليوم طعمة لشرك الاغراء الجنسي. ففي محطات السكك الحديدية تعرض عليها للبيع صور وكتب من أحط ما يرى وما يقرأ. وفي حالة من ثورة النفس تستهوي الجندي الخمر، فيخضع لسلطانها، أملاً في أن يسكر بنشوتها لتخفف عنه ألم الوحدة، وتهدئ أعصابه الثائرة

ولست أريد هنا أن أنتقص من الجهود المنظمة التي تبذل في حماية الجنود من هذه المساوئ وسواها، بكيفية لم يسبق لها في تاريخ الحروب مثيل، وإنما أردت أن أبين أن هبوط المستوى الخلقي بسبب الحرب كان أمراً لا مفرّ منهُ، وهذا أمر لا ينكره كل من كان على بينة من بواطن الأمور.

وهناك أمر آخر ينبغي أن نضيفهُ إلى هذه الصورة التي رسمناها لكم، وهو أن هبوط المستوى الخلقي لم يكن مقصوراً على القوات المتحاربة، وإنما شمل كذلك المدنيين، والأدلة على هذا تجل عن الحصر. أليست الأسر مفككة، والبيوت مصدعة؟ فهذا الزوج والأب جندي في الجيش، وهذه الزوجة والأم لبت نداء الوطن فاشتغلت في مصانع الذخيرة وغيرها مما قضت به الحرب، وهؤلاء البنون والبنات يتركون بغير رقيب.

كذلك دور الاعمال قد تأثرت. فهناك إخفاء السلع وتخزينها. وهناك الارباح الاستثنائية الفاحشة. وهناك الوصايا العشر، قد استبدلت الوصية الثامنة منها وهي «لا تسرق» بقولهم «لا تسرق قليلاً». وها نحن أولاء في مصر، ولسنا من الأمم المتحاربة، نحس بهذه الموجة العنيفة القاسية من العبث بالقانون والاستهتار بالمبادئ، فنقرأ انباء الفضائح المنكرة في الاتجار بالمخدرات، وسرقة الأدوية والعقاقير من المستشفيات. وكذلك الأمر في أميركا، فعندما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها طغت على البلاد موجة

من أشد السرقات جرأة ، ودبَّ فيها وباء خطف الأطفال ، وقيام عصابات تفرض الضرائب في المدن الكبرى على أصحاب المحال والمخازن التجارية .

وكلما طالت الحرب ، زادت الأخلاق تدهوراً . ولقد صدق البارون « فونهوجل » حينما قال إن حروب نابوليون — وقد طال أمدها — قد تأثرت بسببها الحياة الأوربية فرجعت القهقرى بما يقرب من ثلاثين عاماً ، ولعلَّ الدليل على هذا أن انجلترة بعد معركة واترلو لم تستطع التصديق على صك الاصلاح ، إلاَّ بعد سبعة عشر عاماً. وأن فرنسة لم تربح معركتها الأولى ضد آل بوربون الاَّ بعد خمسة عشر عاماً .

أجل ، إنا إزاء هذا التدهور اليوم ، بسبب الحرب الحالية ، لفي حاجة ملحة إلى ذلك المستوى الخلقي الرفيع الذي نعده أساس الجماعات المنظمة . بيد أن المسألة أشد خطراً مما يبدو لأول وهلة . وذلك لأن مستوى الأخلاق، وإن لم يك كافياً لمطالب العالم قبل الحرب أو يوشك أن يكون كذلك، ولم ترع حرمته على الوجه المطلوب، لن يعود كافياً لسد حاجات العالم بعد الحرب.

من العبث أن نخدع أنفسنا فنظن أن أمة من الأمم بعد الحرب— مصر كانت أو اميركة، أو أي بلد من بلدان أوربة او آسية — تستطيع أن تعود نظم الحياة فيها، الى ما كانت عليه قبل الحرب . إن مصر بعد الحرب لن تكون مصر قبلها أبداً . فهذه الملايين من الجحافل التي تهافتت عليها من انجلترة واسترالية ونيوزيلندة وجنوب إفريقية وهندستان وأميركة هل كان قدومها مجرد زيارة لم تترك آثاراً، سيئة كانت أو حسنة ؟ على النقيض من ذلك قد تأثرت بها أقصى القرى، في الآراء الاجتماعية، والوسائل المعيشية، والمعارف العامة العالمية. هيهات أن تقصر الحياة فيها على ما كانت عليه من قبل . لقد اتسع الأفق أمامها فامتدت علاقاتها ، لا بالعالم العربي وحده ، بل بالعالم أجمع . وما يقال عن مصر يقال عن سواها من الأمم، ولربما كانت أميركة في مقدمتها ، وقد خرجت أخيراً عن عزلتها لتتصل بالعالم الخارجي .

فيجمل بنا إزاء هذه الحالة أن نزن بميزان العقل ، نتائج ما نحن قادمون عليه من حياة جديدة واسعة الأفق ، وما تتطلبه من خلق أعلى مقياساً وأسمى قوة ، في ظروف وملابسات أشد خطراً مما كانت . ولننتقل بكم الآن من العام إلى الخاص .

أول ما يتبادر إلى الذهن مما نتوقع حدوثه بعد الحرب ، قيام هيئة عالمية تكون أقوى أثراً وأسمى شأناً مما كانت عليه عصبة الأمم قبل الحرب . فما الشرط الأساسي الذي تتطلبه هذه الهيئة ؟ وهل ثمة ما يفوق العنصر الأخلاقي بين الأمم توفيراً لهذا الشرط ؟ وإلاَّ فلمَ أخفقت العصبة في قرارات كان العالم أشد حاجة إلى البت فيها ؟ ألم يكن السبب أنهُ بالرغم من التأكيدات والعبارات القوية المحبوكة التي صبغت بها مبادئ الولاء للعصبة ، اتضح أن

دولة معينة من أعضائها كانت تعقد اتفاقات سرية منافية لهذه المبادئ؟ ألم يكن الاخلال بشرف العهود والمواثيق بين الأمم سبباً في انحلال العصبة وتفكك أوصالها؟ إذاً فالعصبة الجديدة لن تقوم لهـا قائمة ما لم تكن دعامتها من الصراحة أقوى، ورائدها من الأمانة والصدق أسمى من سابقتها. وينبغي ألاَّ تكون كلمة « دبلوماسي » أو « دبلوماسية » بعد اليوم، مرادفة لمعنى الخديعة، والمماطلة، والختل، والمعاملة ذات الوجهين.

والدعوة للخلق الكريم، وحسن المعاملة بين الانسان والانسان معروفة منذ القدم. فقد قرأنا في القرآن الكريم للمسلمين: « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوَّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيًّا أو فقيراً فالله أولى بهما» (الآية ١٣٤ سورة النساء) وقرأنا في التوراة المقدسة للمسيحيين واليهود عن المتكلم بالصدق في قلبه... يحلف شاهداً على نفسه وإن كان في ذلك وبالٌ عليه.

يتبين من هذا أن الصدق وحفظ العهود بين الأفراد قد أمر به جميع الأديان على السواء. على أن تطبيق هـذا المقياس الخلقي بعد الحرب ينبغي أن يشمل الأمم والأفراد. ذلك لأن المقاييس الدبلوماسية الدولية المعمول بها الآن لم تعد كافية، والعالم بعد اليوم في شديد الحاجة إلى السمو بها، وإلاَّ كان لا بدّ لأولادنا أن يخوضوا غمار حرب عالمية أخرى، لاقدَّر الله.

وما سردناه من الأدلة في شأن المستوى الخلقي بين الأمم، يمكن تطبيقه على العلاقات التجارية والحياة الاجتماعية والاقتصادية. ولـكني لا أحاول الخوض في هذا الموضوع، لانتقل بكم إلى الاجابة عن هذا السؤال، ألا وهو ما العلاقة بين هذا كله وبين التربية يا ترى؟

وإذا ما تحدَّثنا عن التربيـة. فاننا نصطدم برأيين، رأي يعنى بالمعرفة البحتة، وآخر يعنى بالمعرفة والخلق، والجامعة الأميركية بالقاهرة من هذا الرأي الأخير، ويبلغ اعتزازنا بهـذا المبدأ، أننا لو خيرنا بين الأمرين، لآثرنا أن نترك الفرد في غياهب الجهل، على أن نزوده بالعلم مجرداً عن المبادئ الخلقية. أليس هذا أقل خطراً على المجتمع؟ فهاكم رجال العصابات ولصوص البنوك، هل هم جهلاء؟ كلاَّ، إنهم كثيراً ما يكونون على جانب عظيم من العلم والمعارف الفنية، ولـكن ينقصهم الخلق. ولذا فاننا نقول لوالدي الطلبة وأولياء أمورهم: « إن جامعتنا ليست مكتب استعلامات، ولـكنها معهد، للمبادئ الخلقية فيه أسمى منزلة بجانب المعرفة ».

ولـكن هل في مقدور التربية أن تبث في نفوس النشء هذا الخلق؟ وإذا كان الأمر كذلك فمـا الوسيلة؟ لنعترف أولاً بأن البيت أبعد أثراً فيما يتعلق بهـذه المسألة من المدرسة. فقلما تستطيع المدرسة أن تفعل شيئاً لشاب نشأ في بيت هبط مستواه الخلقي،

فتفشى فيه الخداع والكذب ، بين الزوج وزوجه ، وبين الوالد وأولاده ، وبين السيد وخدمه ، وبين أفراد الأسرة ومعشر أصدقائهم . بيد أن البيت إذا تعاون والمدرسة ، أمكن الوصول إلى نتائج محمودة . ولكن كيف ؟

أجيب عن ذلك بقولي إن التربية الخلقية أصبحت في السنوات الأخيرة علماً . لقد أوسعها المربون درساً وبحثاً . ووضعوا لها اختبارات ومقاييس . وفي معهدنا هذا نحاول أن ننتفع بنتائج هذه البحوث التي كشفت النقاب عن حقائق غريبة . من ذلك أن مجرد استذكار الحكم الأخلاقية وحفظ المبادئ الدينية عن ظهر قلب ، طريقة تكاد تكون عديمة الفائدة قطعيًا . ومع ذلك فقد كانت ولا تزال الطريقة الشائعة في بث المبادئ الأخلاقية وتربية النشء عليها . فهل إذا حفظ الفتى الوصايا العشر أو أمثال سليمان ، أو غير ذلك من الحكم ، يمتنع عن ارتكاب الرذائل ؟ تدل التجارب والأبحاث أن الجواب عن ذلك كان سلبياً ، قد تكون هذه الطريقة ذات فائدة باعتبارها وسيلة من وسائل التعبير لمن سمت اخلاقه ولكنها تكاد تكون عديمة النفع باعتبارها أداة رادعة . إن المسألة تتطلب التعمق إلى ما هو أبعد من مجرد الاستذكار

من أشد العوامل أثراً في التربية الخلقية ، البيئة التي ينشأ فيها الطالب . فما الجو المدرسي الذي ينشأ فيه ابنك ؟ أجو يتفشى فيه الغش في حجرة الدراسة ، وفي ساحة اللعب ؟ أم جو يسود فيه الصدق والرجولة السليمة الكاملة ، والتفكير الذي لا تشوبهُ شائبة ، والروح الرياضية العالية ؟

وهناك عامل آخر له أثر عظيم في حياة الطالب . وهو اتصاله برؤساء وزعماء ذوي مبادئ أخلاقية سامية . وهذا هو السر في جماعات الكشافة . فالكشاف الزعيم حقًّا هو سر نجاح الجماعة التي يقودها . وقد صدق من قال : إن الاخلاق تكتسب ولا تلقن ، أجل تدرك بالاتصال بمن نبلت أخلاقهم .

ولما كانت جامعتنا تعلم أنهُ يغلب على أساتذتها ، من أصحاب الكراسي ، أن يترفعوا ، أو يكونوا بمعزل عن الطلبة ، لما بينهم من الفوارق في السن ، فانها تستدعي على الدوام من أميركة شباناً ممتازين ، كما تتخير نخبة من شباب المصريين للتدريس ، يكونون أكثر ميلاً للاختلاط بالطلبة من الأساتذة الكبار . وذلك في الألعاب الرياضية وفي نواحي النشاط على اختلاف أنواعها . بهذا التأثير الشخصي من أفاضل الأميركيين والمصريين نستطيع أن نكوّن في النشء خلقاً سليماً .

ويوجد عامل أساسي آخر له أثر كبير في تكوين الخلق ، ألا وهو أن ييسر للطالب أن يبت في الأمور بنفسه ، ويشجّع على تقرير الأشياء بذاته . وقد سبق القول أنهُ يستدل من مبادئ التربية الحديثة أن استذكار الحكم الخلقية قليل الجدوى ، فلمَ ذلك ؟ السبب أن

الفرد لم يكن له نصيب في وضع هذه الحكم . وإنما هو قد لقنها تلقيناً بغير دليل مقنع ترتاح اليه نفسه ، أو بتعبير آخر إنها فرضت عليهِ فرضاً .

وأرجو المعذرة إذا عدت بكم الى اختبار شخصي ، أراني مديناً بهِ إلى والدي الذي لاقى مثواه منذ زمن ليس بالقريب. فقد توجهت اليهِ مرة بهذا السؤال: « أبي أأفعل هذا أم هذا ؟ » فأبى عليَّ الاجابة وترك لي الحكم قائلاً : « أيهما الصواب في نظرك يا شارل ؟ » . وفي خلال السنوات التي قضيتها من عمري بعد ذلك إلى يومنا هذا ، تحملت تبعة البت في أموري بنفسي ، سواء أكنت وحدي أم مع الغير ، وسواء أكان ذلك ليلاً أم نهاراً ، وسواء أكنت مع الأغلبية أم مع الأقلية . أجل أيها الأصدقاء ، إن المبادئ الأخلاقية لا يمكن أن تفرض فرضاً على الانسان ، بل ينبغي أن تكون ثمرة الاختبار الحر ، والبت في الأمور ، على أنه وإن كان ينبغي أنْ يكون التاثير بالارشاد والنصح ، فانهُ في أساسهِ يجب أن يتصل بالحياة الواقعية كما هي ، وأن يكون من عمل الطالب نفسه .

وأخيراً دعوني أؤكد لكم ما هناك من العلاقة الوثيقة بين الخلق والدين . إن الدين ، أيًّا كان ، يصلح أن يكون أساساً للمستوى الخلقي . إن الايمان بالله تعالى ، المهيمن على أخلاق الكون ، والاعتقاد بالحياة الأخرى ، هما الحصن المنيع الذي تشاد عليه فكرة الخلق . قال مرة سير روبرت سيسل : صدقوني إنهُ ليس من الصواب أن تثقوا برجل يقول إنهُ لا يعتقد بالله ولا الحياة الآخرة . ومن حسن الحظ أن الأديان الثلاثة التي تدين بها الأقطار المجاورة لنا — الاسلام والمسيحية واليهودية — تؤمن بالله وبالحياة الأخرى ، وبذا تصلح أن تتخذ أساساً وثيقاً للتربية الخلقية . وإن هذه الجامعة وإن كانت معهداً مسيحيًّا بطبيعتها ، فانها تشجع طلاَّبها على البحث في أديانهم ليستمد كل من دينه القوة والارشاد . أضف إلى هذا أن الجامعة قامت بأكثر من ذلك وهي أنها طلبت إلى أحد أساتذتها ، وهو متبحر في اللغة العربية وملم بأحوال الشرق ، أن يقضي عاماً كاملاً في دراسة الآراء الدينية والخلقية في الشرق الأدنى ، حتى يقف على خير ما ينتفع به منها في تدريس علم الأخلاق . وكثيراً ما يستحثنا الغير على أن يكون معهدنا علميًّا بحتاً ، فنأبى ذلك لاعتقادنا أن الخلق والدين صنوان لا يفترقان

سيداتي ، سادتي — هذه هي بعض الطرق التي تقرّها التربية العلمية الحديثة لتكوين الخلق . وسواءٌ تعلقت هـذه الطرق بهذه الجامعة أو سواها ، فاننا نؤمل أن يستجيب الوالدون وأولياء الأمور وزعماء التربية في كل مكان لهـذه المطالب الملحة التي تفتقر اليها الانسانية بعد الحرب ، حتى نتزوَّد بالعدة الكاملة ، لا لنصلح ما أفسدتهُ الحرب من الأخلاق فحسب ، بل لنشيد عالماً جديداً أسعد حالاً من عالمنا هذا .

# المآصر في بلاد الروم والاسلام

— ٥ —

لميخائيل عوّاد

## (ج) مأصر عكّة

كانت مدينة عكّة تزهو بمأصرها وتفاخر بمناعة سلسلته، وعلى يديها أضحت حصينة جدًّا لا سبيل اليها، ولعلَّ البشَّاري المقدسيّ خير من عني بوصفها تخليداً لذكرى جدّه أبي بكر البنَّاء الذي ابتنى ميناء عكّة، إذْ كان يومئذٍ مهندساً بارعاً في الشام. ودونك وصف البشاري لميناء عكّة ومأصرها: « عكّة مدينة حصينة على البحر . . . ولم تكن على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون ( ابن طولون )، وقد كان رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها، فأحبَّ أن يتخذ لعكّة مثل ذلك الميناء، فجمع صنَّاع الكورة وعرض عليهم ذلك، فقيل: لا يهتدي أحد الى البناء في الماء في هذا الزمان، ثم ذُكر له جدُّنا أبو بكر البنَّاء وقيل: إن كان عند أحدٍ علمُ هذا فعنده، فكتب الى صاحبهِ على بيت القدس حتى أنهضهُ اليه، فلما صار اليه وذكر له ذلك، قال: هذا أمرٌ هين، عليَّ بفِلق الجمَّيز الغليظة، فصفَّها على وجه الماء بقدر الحصن البريّ، وخيَّط بعضها ببعض، وجعل لها باباً من الغرب عظيماً، ثم بنى عليها بالحجارة والشيد، وجعل كلما بنى خمس دوامس ربطها بأعمدة غلاظ ليشتدَّ البناء، وجُعلت الفِلَق كلما ثقلت نزلت، حتى إذا علم أنها جلست على الرمل، تركها حولا كاملاً حتى أخذت قرارها، ثم عاد فبنى من حيث ترك، كلما بلغ البناء إلى الحائط القديم داخله فيه وخيَّطه بهِ، ثم جعل على الباب قنطرة، فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتُجرّ السلسلة مثل صور ... »[1].

ثم جاءَ ياقوت الحموي ( المتوفى سنة ٦٢٦ هـ ) فنبَّه إلى مأصر عكّة بقوله: « ... ثم عاد فبنى من حيث ترك، وكلما بلغ البناءُ الى الحائط الذي قبله، أدخله فيهِ وخيَّطه بهِ، ثم

(١) أحسن التقاسيم ( ص ١٦٢ — ١٦٣ )

جعل على الباب قنطرة ، والمراكب كل ليلة تدخل البناء ( صوابها الميناء ) ، وتُجرّ السلسلة بينها وبين البحر الأعظم مثل صور ... » [١]

ويلاحظ من هذا ، أنَّ ياقوتاً نقل كلامه عن البشّاريّ القدسيّ .

وقد يكون البرج الذي أشار اليهِ القاضي بهاء الدين بن شدّاد (المتوفى سنة ٦٣٢ هـ ) ، والمسمى بـ « برج الذبّان » هو الذي فيه قُفل المأصر ( السلسلة ) لميناء عكة، فمن خبره أنهُ « لما كان الثاني والعشرين من شعبان جهَّز العدوّ بُطساً [٢] متعدّدة لمحاصرة برج الذبّان ، وهو برج في وسط البحر مبني على الصخر على باب ميناء عكة يحرس بهِ الميناء ، ومتى عبره المركب أمن غائلة العدو ، فأراد العدو أخذه ليبقى الميناء بحكمه ويمنع الدخول اليه بشيء من البطس فتنقطع الميرة عن البلد ... » [٣] .

هذا وقد صرَّح زكريا بن محمد بن محمود القزويني ( المتوفى سنة ٦٨٢ هـ ) أنه نقل قول البشاري القدسي في صفة عكة ومينائها وسلسلتها [٤] .

أما ابن عبد الحق ، فانه لم يفته وصفها [٥] ، ولكن يستشف من خلال كلامه أنه مأخوذ من كلام ياقوت . وهذا أمر معروف عند الباحثين ، فان كتابه يعتبر مختصراً لمعجم البلدان ومستدركاً عليه في بعض الأحيان . ولهذا السبب ، لا حاجة بنا إلى إيراد ما كتبه هذا ، ولا إلى ما كتبه القزويني من قبله ، بعد أن تبين لنا أن أولهما نقل كلامه من معجم البلدان ، وثانيهما درج على خُطى البشاري القدسي السالف الذكر .

## ( د ) مأصر مدينة صور

أما المأصر الذي في ميناء صور فلا يقل خطراً وشأناً عن نظيره في باب الأبواب . وأقدم خبر وقفنا عليه بهذا الشأن ، ما رواه البشاري القدسي نقلاً عن محمد بن حسن الشيباني ( المتوفى سنة ١٨٧ ، وقيل ١٨٩ هـ ) ، وذلك في معرض كلامه على صور . قال البشاري : « ... وصور مدينة حصينة على البحر ، بل فيه ، يدخل اليها من باب واحد على جسر واحد قد أحاط البحر بها ، ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا أرض ، تدخل فيه المراكب كل ليلة

---

( ١ ) معجم البلدان ٣ : ٧٠٨ ، مادة عكة ) (٢) بطساً ، انظر «الذيل» في آخر هذا المقال (٣) النوادر السلطانية ( ٣ : ١٨٤ ) . وانظر ص ١١٨ ففيها كلام على برج الداوية الذي شيد لحفظ ميناء عكة
( ٤ ) آثار البلاد وأخبار العباد ( ص ١٤٨ طبعة وستنفلد في غوتنجن ) (٥) مراصد الاطلاع ( ٢ : ٢٧١ — ٢٧٢ )

ثم تجر السلسلة التي ذكرها محمد بن الحسن في كتاب الإكراه [١] . . . . » [٢]

وكان الرحالة الدائم الصيت ابن جبير الاندلسي ( المتوفى سنة ٦١٤ هـ ) قد زار مدينة صور في يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الآخرة من سنة إحدى وثمانين وخمسمائة للهجرة وأقام بها أحد عشر يوماً ، فكتب لنا وصفاً رائعاً لمآصر هذه المدينة ومقابلته بالذي في عكة ، ودونك ما رواه : « صور مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ، . . . . وذلك أنها راجعة إلى بابين : أحدهما في البر والآخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، . . . . وأما الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ، وليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ، ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجص ، فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلاَّ عند إزالتها ، وعلى ذلك الباب حرَّاس وأمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج إلاَّ على أعينهم ، فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكة مثلها في الوضع والصفة ، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك ، وإنما ترسي خارجها ، والمراكب الصغار تدخل اليها ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل . . . » [٣]

ومن المرجح أن سلسلة صور لم يطل أمدها بعد المائة السابعة للهجرة ، كما أشار إلى ذلك القلقشندي ( المتوفى سنة ٨٢١ هـ ) الذي قال في صفتها : « وبناؤها ( مدينة صور ) من أعظم أبنية الدنيا ، وكانت من أحصن الحصون التي على ساحل البحر ، فلما فتحها المسلمون في سنة تسعين وستمائة مع عكة خربوها خوفاً أن يتحصن بها العدو ، ... ويقال إنها أقدم بلد بالساحل . . . قال الشريف الادريسي : « وكان بها مرسى يدخل اليه من تحت قنطرة عليها سلسلة تمنع المراكب من الدخول ...» [٤]

## (هـ) مأصر المهدية

أما مأصر المهدية فقد وصفه ياقوت بما هذا نصهُ : « ... قال ( أبو عبيد البكري ) :

---

(١) ذكره الحاج خليفة ( كشف الظنون ٥ : ٤٨ طبع لندن = ٢ : ٢٦٤ طبعة استانبول الاولى ) ، فقال : « كتاب الاكراه للامام محمد بن حسن الشيباني المتوفى سنة ١٨٧ » — قلت : وذكر ابن خلكان وفاته في سنة ١٨٩ هـ انظر ترجمته في وفيات الاعيان ( ١ : ٦٤٧ — ٦٤٨ طبعة بولاق الاولى ) (٢) أحسن التقاسيم (ص ١٦٣ — ١٦٤) . — وجاء في النسخة الاستانبولية لمخطوط أحسن التقاسيم ما هذا نصه :
« وانما تدخل المراكب هذا الحير وتجر السلسلة كي لا يعبر عليها الروم في الليل » .
(٣) رحلة ابن جبير (ص ٣٠٨ طبعة رايت ) . أو (ص ٣٠٤ — ٣٠٥ طبعة ديغويه ) ، او (ص ٢٨٦ — ٢٨٧ ) طبع مطبعة السعادة بمصر) (٤) صبح الاعشى ( ٤ : ١٥٣ )

ومرسى المهدية منقورة في حجر صلد، تسع ثلاثين مركباً . على طرفيْ المرسى برْجان بينهما سلسلة حديد، فإذا أريد إدخال سفينة، أرسل حرّاس البرجين أحد طرفي السلسلة حتى تدخل السفينة، ثم يمدّونها كما كانت تحبيساً لها..... »[1]

ونظير هذا القول ما حكاهُ القزويني في صفة المهدية وميناثها والسلسلة الراكبة عليه، غير أنهُ ذكر عدداً آخر للسفن التي يسعها هذا الميناء، واليك قوله: «.... ومرساها منقورة في حجر صلد تسع مايتي مركباً (كذا)، وعلى طرف المرْسى برجان بينهما سلسلة حديد، إذا أريد إدخال سفينة أرسل الحرّاس أحد طرفيْ السلسلة لتدخل الخارجة ثم يمدّها...»[2]

## ﴿ الذيل ﴾

البُطس، واحدتها البُطسة وهي ضرب من مراكب البحر الكبيرة، تتخذ في الحروب وفي التجارة، وهي بلغة أهل أسبانية . ورد ذكرها غير مرة في كتب التاريخ . وكانت البُطسة الواحدة تشحن بمئات الرجال، وبكثير من غرائر القمح، وبالمير والأسلحة الثقيلة . قال ابن شداد (النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفيّة — خزانة كتب الحروب الصليبية — ٣ : ٢٢٠ — ٢٢١، باريس سنة ١٨٨٤) : في خبر بُطسة إسلامية عظيمة أنها وصلت « من بيروت مشحونة بالآلات والأسلحة والمير والرجال والأبطال والمقاتلة، وكان السلطان قد أمر بتعبيتها وتسييرها من بيروت، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيماً حتى تدخل البلد مراغمة للعدوّ، وكان عدّة رجالها المقاتلة سمّائة وخمسين رجلاً، فاعترض لها الانكتار في عدّة شوانٍ قيل كان في أربعين قلعاً فاحتاطوا بها من جميع جوانبها واشتدّوا في قتالها ... »

وقال في مكان آخر (٣ : ١٧٨ — ١٧٩) : « ... وكان الفرنج ... قد أداروا مراكبهم حول عكة حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين، وكانت قد اشتدّت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة، فركب بُطسة ببيروت جماعة من المسلمين وأودعوها أربع مائة غرارة قمح، ووضعوا فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة ... »

وإليك خبراً حرره المقريزي في أحداث سنة ٥٧٨ هـ (السلوك في معرفة دول الملوك، بتحقيق الدكتور محمد مصطفى زيادة، ١ : ٧٧) يوضح فيه العدد الكبير من الجند وغيرهم، الذي تستوعبه البطسة . قال : « . . . وخرج عزّ الدين فرخشاه من دمشق، فأغار على طبرية وعكة، وأخذ الشقيف (أرنون) وعاد بألف أسير ... وألقى الريح بطسة للفرنج الى برّ دمياط، فأسر منها ألف وسمّائة وتسعون نفساً سوى من غرق» .

---

(١) معجم البلدان (٤ : ٦٩٥— ٦٩٦) (٢) آثار العباد (ص١٨٣— ١٨٤)

# الرؤساء الثلاثة

— ٢ —

## لنكان : محرر الرقيق

للدكتور نجيب الأرمنازي

---

بعد ثمانين سنة ونيف مضت على نشأة هذه الأمة الأميركية أصابتها أزمة شديدة تعرّض بها الاتحاد لخطر التفكك والانحلال ؛ وذلك بسبب الخلاف الذي نشب بين ولايات الشمال وولايات الجنوب، فكان لنكان هو الرجل الذي أرسلته العناية لحماية الاتحاد والغاء الرقيق ، وهو من أغرب شخصيات العالم ، نشأ في بيئة فقيرة ، وقضى سنيه الأولى في البؤس والحاجة . وكان من أول عمره شديد الاقبال على التعلم ، فقرأ بعناية وشغف بعض الكتب التي وقعت له، وكان لا ينفك عن مطالعة التوراة وشكسبير، ويتطلع منذ صغره إلى ما يكون له من عظم الخطر في هذا العالم الفسيح الذي لم يكن يعرف شيئاً كثيراً عنه ، ولم يكن يفارقه الغم والتردد حتى بلغ الخامسة والعشرين من عمره من غير أن يتخذ لنفسه طريقة في الحياة ، وكان الناس يحبونه حبًّا جمًّا ولا سيما رفاقه ، إذ كان حلو الحديث سائغ المورد لطيف المعاشرة كريم السجايا ، دون أن يخرج عن وقاره ورزانته ولعلَّ الجد الذي في وجهه كان عنوان حياته الأولى وأثر الغابات العابسة والسهول المقفرة ؛ أما بشاشته فهي من تطلعه إلى النور والتعلم وبروق الآمال ، وقلما عرف الرجال حتى أقربهم اليه ما تنطوي عليه نفسه من قوة وعزيمة وقدرة، وقد وصف دغلاس أحد أعضاء مجلس الشيوخ ومعارض هذا الرجل المجهول بقوله : « ما أشد الجهد الذي ينبغي عليَّ أن أبذله في لقائه ومنافسته ، هذا هو رجل حزبه الذي لا تلين له قناة ، ولا يفارقه ذهنه الحديد ، ولا يضاهى في معرفة التواريخ والوقائع ، أفضل من يرتجل الكلام في هذا الغرب ، وهو شريف لا يَخدَع وأريب لا يُخدَع » .

وكان أكبر هم لنكان أن يصون الاتحاد ، والاتحاد عنده قبل الدستور ، لأن الدستور

قد وضع ليجعل الاتحاد أكثر انسجاماً ، فلا تستطيع دولة أن تخرج من الاتحاد وفاقاً لمشيئتها ، وكل قرار تصدره في هذا الشأن لا عبرة له من الوجهة الشرعية ، فالاتحاد لا يمكن أن يتطرّق اليه الوهن أو أن يتعرض لخطر الحل ، ولما افتتح رئاسته الأولى سنة ١٨٦١ خاطب مواطنيه الغضاب بقوله : إن المكاره التي تحاذرونها هي في الحقيقة غير كائنة ، وتبعة الحرب الأهلية المخيفة لا تقع عليّ ، وإنما تبعتها بين أيديكم ، إنكم تحلفون الايمان على تقويض بنيان الحكومة ، وأنا أرفع الصوت جهرة وأنادي معلناً مشهداً أنني سأحميها وأدافع عنها وأحافظ عليها . . . وأكد نيته تطبيق القوانين في جميع أنحاء الدولة ، وأبدى كثيراً من روح التساهل في هذه الخطبة حتى عدّ ذلك موطن ضعف ، ولكن يده الحديدية كانت — كما يقول الفرنجة — في قفاز من « القطيفة » ، وقد انقاد إلى بعض الدواعي السياسية فأرجأ قضية تحرير العبيد ، وصرف همه إلى صيانة الاتحاد ، سواء أكان قد حرّر العبيد أم لم يحرّروا في أثناء هذا النضال.

***

ولما استمرت نار الحرب عقد مجلس الأمة مؤتمراً استثنائيًّا فبعث اليه برسالة لم يكن فيها لبس ولا غموض ، فوصف حالة البلاد وذكر ما لسلامة الاتحاد من شأن في نظر العالم ، وقال : على هذا النضال الذي نتحمل أعباءه يتوقف أمر هو أكثر من مصير الولايات المتحدة ، إذ أن الأسرة الانسانية الكبرى تشهد : أجمهورية دستورية دمقراطية أم حكومة الشعب قادرة على صيانة حدودها وقمع الفتن الأهلية ؟ وهل يجب أن تكون الحكومة قوية جدًّا حتى تستطيع أن تدفع عن حريات مواطنيها أو أن تبلغ درجة من الضعف بحيث تعجز عن صيانة نفسها ؟ وكان لنكان قد وقف قانون الحرية الشخصية وتجاوز سلطته — ودعا من ذات نفسه الى زيادة عدد الجيش في البر والبحر ، وفي ذلك خروج ظاهر على القانون ، غير أن لنكان كان يرد على منتقديه بأن السلامة العامة تتطلب تلك الوسائل الاستثنائية ، وقد أصدر مجلس الامة قراراً تجرّد فيه من كل عاطفة غضب وحقد ، ولم يهتم إلاَّ بواجبه نحو البلاد كلها ، وهو عالم بأن هذه الحرب ليس فيها روح اضطهاد أو رغبة في فتح ، وما أوقدت نارها إلاَّ لحماية الاتحاد والمحافظة عليه والتساوي في الحقوق بين جميع الدول . ومتى أدركت هذه الغاية فان الحرب واضعة أوزارها.

أما تحرير الرقيق فلم يعلن إلاَّ في سنة ١٨٦٣ فكان لاعلانه أثر كبير في مختلف أقطار

الأرض، وكانت الشعوب قليلة الاهتمام ببقاء الاتحاد الأميركي أو زواله، ولكن إعلان لنكان لتحرير العبيد أثار في العالم هزة إعجاب وإكبار . ولم يخل من ذلك حتى بعض الذين كانوا يتوقعون انتصار الجنوبيين . وقامت على الأثر دعوة تحرير العبيد ولاسيما في بريطانيا العظمى .

ولم يكن الرئيس يقبل تسوية أو هوادة في الأمر الذي يقره . ولجأ إلى وسائل العنف لقمع الفتن والثوائر التي كان يثيرها معارضو خططه ، وقد لمس موضع الداء بإشارته إلى عقاب الموت الذي يصيب الجندي عند فراره من الجيش ، وتساءل هل ينبغي اطلاق النار على جندي مسكين جاهل لاذ بالفرار ، ولا يجوز أن تنزع شعرة من رأس المهيج المحتال الذي حرضه ؟ وقد حاول مندوبو الجنوب في حديث طويل أن يقنعوه بعقد صلح مع الولايات الجنوبية ، واستشهدوا على ذلك بما فعله شارل ملك انكلترة بمفاوضة العاصين من رعاياه ، فأجابهم : إن بضاعتي مزجاة في علم التاريخ، وأنا أرجع في هذا الأمر الى أمين سر الدولة ، وكل ما أذكره من هذه القصة أن شارل الأول قطع رأسه .

* * *

لقد تقلد كثير من الأميركيين السلاح لأنهم كانوا يحبون الاتحاد ويحرصون عليه ، ولا يحجمون عن بذل دمائهم في سبيل البلاد وصيانتها من التجزئة ، ولكن لنكان قاده إلى ذلك سبب أسمى وغاية أبعد ، فقد رأى أن مبدأ الدمقراطية وحكم البلاد نفسها بنفسها كان معرضاً للخطر ، وأن سعادة الأسرة الانسانية بأسرها ذات علاقة بهذا الأمر ، ولم يكن يطيق لنكان إدراك هاتين الغايتين العظيمتين دون مؤازرة الشعب القادر المخلص ، وحق للرجال أن تشاطره الفخر بهذا النصر . غير أنه أحق بالنصيب الأوفى لأنه كان ربان السفينة الذي يقودها في ساعة شديدة الحرج . ولا يشك أحد في أن لنكان كان الرجل كل الرجل ، ولكن ليس من الهين تحديد الصفات التي تكون أسباب عظمته ، فدهاؤه لم يكن يبهر الأقربين اليه ، حتى إن وزارته أتى عليها بعض الزمن قبلما تكشفت القناع عن أسراره وبعد أن سبقها الشعب ، ولم يعرف حق المعرفة إلا بعد موته سمو آرائه التي دبر بها الأمور في ذلك العهد الدقيق الخطر ، وكلما زاد تأمل الناس كلماته زاد شعور الاعجاب به ، وقد تكون اكبر فضائله القدرة على تبين الرأي العام ، وقلما تمتع رجل دولة بما تمتع به من الثقة ، أما تأثير صدقه فلم يكن يقتصر على الجماهير .

ولم يحاول أحد أن يستخرج كنه هذه العبقرية . ولم يذكر التاريخ خلقاً عظيماً فاجأ العالم بمثل هذه المفاجأة ، وقد وصفه غولدوين سمث المؤرخ الانكليزي بقوله : ولد في آخر

طبقات المجتمع، وتكوّن في بيئة النضال والشقاء ، وسما في الحياة العامة حتى أصبح الأميركي الأول ، وتقلد أعباء مهمته في الوقت الذي كانت قوى الحرية وقوى العبودية توشك أن تشتبك في قتال مميت ، فقبض على أزمة الحكم بيد قوية ، ولولا عبقريته الفذة لما سلم الاتحاد في رأي الكثيرين . وقد أودت رصاصة قاتل بهذا الرجل العظيم الذي هو من أفضل تجار عرفته الإنسانية الحرة ، وكان الرزء به أعظم الأرزاء التي ألمت بالولايات المتحدة ، ومنذ غيب الثرى وجهه ما برح يعلو نجمهُ ويتألق كوكبهُ ، وهو لا يعد رئيساً عالي الصيت للولايات المتحدة ، بل يعد من أعظم رجال التاريخ ، وحسبه العملان العظيمان اللذان قام بهما لتخليد ذكره : إلغاء الرق ، وصيانة الاتحاد .

* * *

وفي سيرة لنكان الحافلة بالأعمال الجليلة نجد كثيراً من التناقضات التي هي عنوان عظمته ، فقد كان مظهره مظهر واثق بأصحابه مطمئن اليهم ، ولكن نفسه العجيبة كانت بعيدة الغور بحيث لا يدرك مكنونها ، وكانت تلوح عليه مخايل الرجل المتلجلج المتلكئ المضطرب ، ولكن وجهه لم تفارقه قط روعته ، وكان حاضر الذهن فلا تفوته الكلمة النادرة أو رواية بعض الحوادث الفكهة ، غير أنه كان في قرارة النفس التي انطوت عليها جوانحه مجرى حزن وأسىً يملأ حياته ويتبين في جميع مواقفه ، وهو لم يكن راسخ القدم في فن الخطابة ، ولا طويل الباع في علوم الأدب ، ولكن كلامه في شؤون الرق من أبلغ ما تفجرت به عيون الفصاحة في ذلك الزمن إيجازاً ومتانة وقوة حجة ، وكانت خطبته في جتسبرغ على أثر الوقعة الكبرى المسماة بهذا المكان ، وخطبته في افتتاح عهده الثاني ، من درر الأدب الرفيع .

فمن أقوال لنكان التي كان ينطق بها عن فطرة ملهمة وملكة متأصلة كما هو شأن سائر قادة الشعوب : « إن من الامتهان لسكان بعض الولايات ألاّ نراهم جديرين بحكم أنفسهم ، ولا جدال في أن مبدأ حكم الشعب لنفسه بنفسه صحيح ، وسيظل صحيحاً الى الأبد ، ولكن إذا كان الزنجي رجلاً ألا نرى ـ بقدر ما في المبدأ من صحة ـ أننا إذا حرمناه حكم نفسه إنما نخرق بذلك مبدأ سيادة الشعب ، وإذا حكم الرجل الأبيض نفسه كان ذلك تطبيقاً لمبدأ سيادة الشعب ، ولكنه إذا كان يحكم نفسه ويحكم رجلاً غيره ، فذلك أكثر من سيادة الشعب : إنهُ الاستبداد ، وليس في الناس من يتوافر لديه الخير ليحكم غيره بدون رضاه ، وما حياة أمة نصفها حر ونصفها الآخر عبد » . وكان يقول في الرق إنهُ يمقته لما

ينطوي عليه في ذاته من جور قبيح ، ويمقته لأنه يسلب النظام الجمهوري الذي نحمله الى العالم مثالاً من أثر الحق في أيدينا ، ويمقته لأنه يدفع رجالاً كثيرين من الأخيار الى محاربة المبادئ الأساسية للحرية المدنية ، فيصرون على دعواهم أنه ليس ثمة من حق نستند اليه في أعمالنا وما هنالك إلاّ المصلحة الشخصية .

أما خطبته بعد يوم جتسبرغ في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٣ فانها قد سارت كل مسير. وتوارث الأميركيون ما فيها من كلمات بليغة ، حتى إن الرئيس ولسن الذي كان معجباً بسلفه البعيد لنكان أوردها بتمامها في كتابه تاريخ الشعب الأميركي ، وقد طبع على غرارها إحدى جلائل خطبه ، وهي التي افتتح بها رئاسته الثانية ، وكان قد اجتمع الناس في ساحة الوقعة أو على مقربة منها غداة ذلك اليوم الذي كان من أشد أيام الحرب الأهلية هولاً ليمجدوا ذكرى ضحاياها . وسألوا الرئيس أن يخطبهم في هـذا الحفل المشهود ، فتكلم بكلام رفت لهُ القلوب وذرفت العيون ، وكان مما قاله :

« منذ سبع وثمانين سنة خلت انجب آباؤنا في هذه القارة أمـة جديدة رضعت لبان الحرية ، ونذرت نفسها للدعوة بأن جميع الناس ولدوا على السواء .

ونحن الآن في حرب أهليـة ضروس تمتحن فيهـا هذه الأمـة لتعرف هل تستطيع الحياة والبقاء هي أو أية أمة غيرها نشأت نشأتها ونذرت نفسها مثلها . وفي هذه الساحة نلتقي في ميدان عظيم من ميادين هذه الحرب وقد جئنا اليه لنجعل من بعضه مثوى خالداً لأولئك الذين جادوا بحياتهم لتحيا هذه الأمة ، وحق علينا كل ما نقوم به في سبيل ذلك.

غير أننا ليس في وسعنا أن ننذر أو نقدس أو نبارك هذه الأرض، إذ ليس في متناول طاقتنا أن نزيد في مكانتها أو أن ننقصها بعد أن أفاض عليها الأبطال الذين ناضلوا فيها أحياءً أو أمواتاً ما أفاضوا من حلل التقديس . والعالم لن ينظر إلاّ قليلاً ولن يذكر إلاّ قليلاً ما تنطق به أفواهنا في هذا المكان ولكنه لا يستطيع أن ينسى أبداً ما صنعه فيه أولئك الأبطال . وجدير بنا أن ننذر نفوسنا ههنا للعمل الذي لم يتمه والذي خطا به المقاتلون فيه خطوات كريمة . وإنه ليجدر بنا أن ننذر أنفسنا في هذا الميدان للمهمة العظمى التي يجب علينا أن نتمها وأن نستمد من هؤلاء الموتى الأمجاد ولاءً متزايداً لهذه القضية التي جادوا في سبيلها بأقصى غاية الاخلاص ، وأن نعقد العزيمة الصادقة على أن لا يكون موت هؤلاء قد ذهب ضياعاً وعلى أن تبعث الحرية في هذه الأمة التي تستظل بظل الله بعثاً جديداً، وأن لا تضمحل على وجه هذه الأرض حكومة من الشعب وبالشعب وللشعب » .

وقد تمتع الرئيس لنكان بسلطة عظيمة في مدة أربع سنين لم ينلها أحد من قبله ولم يطلبها أحد من بعده ، فلم يستبد ولم يستأثر ، ولم يغير شيئاً من أوضاع الدولة ومناهجها ما عدا علاقة السيد بعبده وتعزيز بنيان الاتحاد وتوثيق عراه ، فما تبدل شيء من الحريات العامة ، ولا تحوّلت طبيعة الأمة الجوهرية من أنها محبة للسلام ، ولما انفضت الجيوش بعد أن أسدل قناع هذه الحرب الضروس ، عاد الجنود إلى شؤونهم السلمية باندفاع كأنهُ السحر ، وآخر عمل قام به الجيش هو عرضه الأخير الذي مشت فيه الصفوف تجري في أعطافها هزة النصر لتحيي قادتها ورؤساءها التحية الأخيرة ، ولكن غاب في هذا اليوم أحق الرجال بفخر الظفر وأزهدهم فيه ، الذي رمقهُ العالم بأمره وامتلأ قلبه بحب بلاده . طوته المنون قبل عشرة أيام في سجل العظماء الخالدين .

***

واذا كانت الحرب قد انتهت فانها قد جرّت وراءها جرائر ، وكان ينبغي مواجهة مشكلات الانشاء والتعمير ومعاملة أهل الجنوب بعد أن أعادهم السيف الى حظيرة الوطن ، فكان يرى فريق في طليعتهم الرئيس لنكان وأمين سر الدولة سوارد والقائد غرانت وهم الذين أبلوا أحسن البلاء في إطفاء الفتنة وإزالة التفرقة ، وأنهُ ينبغي العفو والصفح حتى تنقضي الحرب ولا أحقاد ولا ضغائن . وقد قام في وجه الرئيس من يعارضه ، ويرى أن يصلى بنار الحرب جناتها ومثيرو نقعها ، وهم لا يشاركون القائلين بالاكتفاء بعودة أهل الجنوب إلى الوطن ومنحهم الحقوق والمزايا التي يتمتع بها سكان الشمال ، بل يرون معاملتهم بقوانين البلاد المفتوحة ، جزاءً لما كسبت أيديهم ، ولا ينظر أصحاب هذا الرأي لما يظهرونه من صدقٍ وإخلاص ، فلولا انكسارهم لأصروا على بغيهم وتعنتهم ، ولكن الرئيس كان على عادته متمسكاً بالخطة التي يمليها عليه عقله لا هواه ، فقد خاض غمرات الحرب بقلب لا يكاد يطيعه ، ولكن عزيمته لا تنثني ، فحارب مكرهاً أشد حرب ، لأنه لم يجد عن الحرب مندوحة ، حتى إذا وضعت أوزارها أقبل على مداواة ما خلفته من الشرور التي أخلت الديار وأخربت الربوع وأوحشت المغاني ، فهل أدرك الذي فتكت يداه بالرئيس تعصباً لأهل الجنوب ، ما ينطوي عليه ذلك القلب الكبير من رقة ورحمة ؟ .

# مدرسة المعري

كامل كيلاني

---

كنت أشعر دائماً أن الحاجة ماسة إلى تنسيق مكتبة للشباب تجمع كثيراً من فنون الأدب العربي في عصوره القديمة والوسطى والحديثة .

وأعني بالأدب العربي ما يحمله المنظوم والمنثور من نتائج قرائح الشعراء والخطباء والمترسلين ، وطرائقهم في التصرف في أفانين القول ، وأساليب البيان والتبيين .

***

ورأيت أن « أبا العلاء » وحده مدرسة جامعة لأهم عناصر فنون الأدب ، من أول عصور الجاهلية إلى العصر الذي كان يعيش فيه ، إذ كان أدبه منفرداً ، مغنياً عن أدب غيره مجتمعاً .

ومن حقه علينا ألاّ ندخر جهداً في إحياء مدرسته وتجلية برامجها ومراسمها ، وإنارة معالمها ، فما أجدر هذا البارع الموهوب أن يدرسه المعاصرون بعناية كاملة ، دراسة شاملة ، وأن يتثبت المتحدثون ، ويتريث الباحثون ، ويطيلوا الروية في تمحيص نصوصه وتفهم مباغيه ، والفحص عن أهدافه وتقصي مراميه ، فلا يصدروا — له أو عليه — حكماً قبل أن يتموا قراءة آثاره ، ويطيلوا التأمل في معانيها ومراميها بحثاً وفهماً حتى يصلوا إلى غايته ومرماه ، ويبلغوا الصميم مما عناه وتوخّاه ، ويكتنهوا الهدف الذي قصد اليه وانتواه .

ولن يصلوا إلى شيء من هذا إلا بعد أن يطيلوا الروية والفحص عما اكتنف الشاعر من ظروف ومناسبات ، وحوافز وملابسات ، أوحت اليه ما كتب ، وأنطقته بما قال . وما أجدرهم أن يتثبتوا مما يروونه له ، أو يأخذونه عليه ، من شعر ونثر ورواية ، ويتعرّفوا من أي معين استقى رواته ؟ ومن أي مشرع نهلوا ؟ أمن أثبات كتبه ؟ أم فائت شعره ؟ أم مما انتحله ودسه عليه الحاقدون والكائدون ممن وقفوا حياتهم على تشويه الحقائق وإفساد التاريخ ؟ وهل ينسجم أسلوبه مع أسلوب « أبي العلاء » ؟ أو هو بعيد عنه مكذوب عليه؟

فإذا تثبتوا من ذلك كله ، واطمأنوا إلى صحة النص العلائي وأصالته وجب أن يتعرفوا الزمن الذي قاله فيه على اليقين والتحقيق ، لا على الحدس والتلفيق . وفي أي عهد نطق به الشاعر : أفي عهد الشباب أم الشيخوخة ؟

وكيف قال « أبو العلاء » أجادًّا كان أم ساخراً ؟ مثبتاً أم نافياً ؟ منشئاً أم راوياً ؟ ساخطاً أم راضياً ؟ مجاملاً أم متحدياً ؟ معابثاً أم هادياً ؟

وأي الطريق سلكه حين أثبت ما قال : طريق الحقيقة أم طريق المجاز ؟

وعلى أي لسان أجرى حواره وساق أدلته : على لسان العاطفة أم على لسان العقل ؟ وعلى لسان الحكيم أم الشاعر ؟ وأي الأسلوبين توخى : الشك أم السخرية ؟ وإلى أي هدف سدد طعنته ؟ وهل أصاب سهمه رمِيَّته ؟

ورحم الله ناقدنا العظيم « عبد القاهر الجرجاني » حين عرض لدقائق البيان وأسراره ، فروى قولةً رائعة المغزى عميقة الدلالة في شرح ما نريده ونبغيه، وتجلية ما نهدف له وننميه. وقد أوردها في سياق حديث لبعض المستنيرين ، قال : ما علمت أنَّ كلمة :« سبحان الله » تكسب قائلها إثماً إلاَّ اليوم ، فلما سئل عن السبب قال :

ذكر أحد الناس عند « أحمد بن يحي » — المعروف بثعلب — بسوء ، فقال أحدُ الحاضرين : « يا سبحان الله ! »

فقال « ثعلب » : « أثمتَ » .

وما نظنُّ القارئ في حاجة إلى الكشف عن موطن الإثم في تسبيح ذلك الرجل ،فقد ثبَّت — بتسبيحهِ — التهمة على من قُـذف بها ، وأدخل في روع السامعين أنهُ اقتنع بصدق ما أُسند إلى صاحبه من غير مناقشة ولا تمحيص !

ومن ثمَّ غضب عليه الامام اللغويُّ الأديب : « ثعلب » ، وخطَّـأه وأثَّمـهُ.

وقريبٌ من هذه اللفتة البارعة قولُ أبي العلاء :

إذا رام كيداً بالصلاة مقيمُـها  فتاركها ـ عمداً ـ إلى الله أقربُ

وقد أخذنا أنفسنا في رسالتي « الغفران » و «الهناء» وكتاب «على هامش الغفران » ألاَّ يعرض « أبو العلاء » لمعنى فلسفيٍّ ، أو يُـلمع إلى فكرة من خواص فكرهِ ، إلاَّ ألحقنا بها ما يماثلها — فيما نقل عنهُ — ولا جرم أنَّ شعر « أبي العلاء » ونثره يفسر بعضهُ بعضاً، فهو يلمِّح إلى الفكرة في بيت ، ويوضِّحها في بيت آخر ، ويزيدها إبانةً وتوضيحاً في متناثر أبيات أخر .

فلا منتدح لمن يتناول بالبحث إحدى نواحي « أبي العلاء » من أن يستقري شعره

ونثره ويتفطّن إلى النظائر والأشباه ، وما يتداخل من أفكاره ، وما يرجع من بعضها على بعض ، حتى تنفسح أمامهُ سبل الموازنة والترجيح .

وما أحوج القارئ لآثار هذا الفيلسوف الأديب المتفرد في أسلوبه وتفكيره ، المبدع في بيانه وتعبيره ، المغرب في ألفاظه ومبانيه ، المتعمق في أغراضهِ ومعانيه ، أن يضاعف يقظتهُ — كما أسلفنا القول في مقدمة الغفران — لتفهم معناه البعيد ، ويحبس انتباهه لتقصي مرماهِ الخفيّ ، ويجلو فطنته لاكتناه مغزاه المستسرّ . ويحشد قواه الفكرية كلها ، فلا يتوزّعهُ تحري الصواب في إعراب كلمة ، أو تصريفها ، أو وجه سياقها .

وقد يكون ذلك أجمع سهل القيادة ميسور التأتّي ، هيّن الدَّرك ، للأديب المتمكن ، ولكنهُ — على ذلك — شدّ ما يكون حجر عثرة في طريق الشداة من المتأدبين ، فسرعان ما يدركهم الملل ، ويقعد بهم العجز ، ولا يلبثون أن يضجروا بمتابعة القراءة ، وبذلك يفوتهم — على الرغم منهم — أن يستمتعوا بهذه الكنوز الفكرية ، الجديرة بالجد والمعاناة .

واستتبع هذا العمل أن نشرح الألفاظ شرحاً دقيقاً ، يتكشف بهِ المقصود من معانيها في عرض الكلام .

ويسير غاية اليسر هذا العمل ، لو أن الكاتب غير « أبي العلاء » من كتّاب الغريب المنصوص عليهِ صراحة في المعجمات .

فان امتلاك « أبي العلاء » لناصية اللغة ونوادرها ، وسعة محفوظهِ من جزل النظم والنثر ، وتمرسهُ بمختلف أساليبها ، وغوصه على فرائدها ، وتهديه لأبكار المعاني وعيون الكلام ، وتوفقهُ الى ابتداع الصور الفنية الرائعة ، وحشده أفانين مختلفة من معجب التصاوير ، وبارعِ الصيغ ، وتبحره في التاريخ ، كل أولئك قد أجرى لسانهُ بالكثير الأكثر من صور ألفاظ ، تدلُّ — بعد الروية ومدّ البحث — على غير المعروف الظاهر من معانيها ، بما توسعت بهِ اللغة ، وتشعب التصريف ، فصار واجباً أن نحد المراد من اللفظ في سياق الجملة حدّاً دقيقاً ، وأن نفسره بما يقتضيهِ ذلك السياق [1] .

***

فما أكثر ما تخفى إشاراته على الفطن اللبيب الذي لم يرُض نفسه على طول مصاحبته والانتقال معه في أجوائه الفكرية ، وسماواتهِ الفلسفية ، ومفازاتهِ وجناتهِ الأدبية .

(٢) انظر مقدمة الطبعة الثالثة من « رسالة الغفران »

وما أكثر ما تخفى تلميحاته وتصريحاتهُ على من قصروا في درس جغرافيته الذهنية ومراميهِ النفسية ، وما أجدرهم أن يتعرَّفوا - إلى ذلك - موقع كل كلمة قالها ، فان الكلمة الواحدة - كما يعلم القارئ - تقال في مناسبتين مختلفتين ، فتكون في إحداهما شكراً وإيماناً ، وفي الأخرى جحوداً وكفراناً .

﴿ لغة الجن ﴾ وقد أبدع فيلسوفنا - فيما قصه علينا من بدائع فنهِ - وبلغ ما هو جديرٌ بهِ من غايات الإمتاع والتجويد فيما أجراه من حوار بين صاحبه : « ابن القارح » ، والجنيّ : « أبي هدرش » ، وكان من بدائع لفتاته - في ذلك الحوار - قوله على لسان صاحبه وهو يحدّثهُ في جنة العفاريت : « لله درُّك يا أبا هدرش ! لقد كنت تمارس أوابد ومنديات ( تزاول جرائم لا تنسى آثارها ، ومخزيات لا تمحى ذكرياتها ) . فكيف ألسنتكم ؟ أيكون فيكم عربٌ لا يفهمون عن الروم ، ورومٌ لا يفهمون عن العرب ، كما نجد في أجيال الإنس ؟ » فيقول : « هيهات - أيها المرحوم - إنّا أهل ذكاء وفطن ، ولا بدَّ لأحدنا أن يكون عارفاً بجميع الألسن الإنسية ، ولنا بعد ذلك لسانٌ لا يعرفهُ الأنيس [(١)] »

فقد يرى الباحث في هذه الصورة العلائية الفاتنة مثالاً يفسر ما يحتاج اليهِ دارس النصوص العلائية من التعمق في درس الأدب العربي عامة قبل أن يتخصص في درس الأدب العلائي . فان شاعرنا يكاد يشبهُ الجنيَّ : « أبا هدرش » في المعرفة والاحاطة ، فهو عارفٌ بالأساليب العربية ، وله - بعد ذلك - أسلوب ينفرد بهِ فلا يكاد يشركه فيهِ أحدٌ من الأناسي - وسيرى القارئ في المعجم العلائي - متى أذن الله لهُ بالظهور - مصداق ذلك .

﴿ قرَّة العين ﴾ على أننا نجتزئ - في هذا المقام - بمثل واحد يقرّب من حوار الجنيّ ما بعُد ، ويصوّر للقارئ بعض ما نعنيهِ ، بهذا التشبيه .

فلو أن أديباً قرأ البيتين التاليين - قراءة عابر غير متعمق - وهما من فائت شعر « أبي العلاء » :

« يا قُرَّة العين : « أم حفصٍ » و « أم عثمان » جارتاكِ
فتلكِ لا تحذرين منها ، وهذه تبتغي أذاكِ »

فما نحسبهُ يخرج منهما بطائلٍ ولعلهُ لا يرى فيهما إلاَّ معنًى تافهاً غاية في الضآلة والحقارة ، فقد يحسب أن شاعرنا يناجي حبيبةً له ويتودَّد قائلاً :

(١) ارجع الى الفصل الرابع من رسالة الغفران

« إنَّ لكِ — يا قرَّة عيني وبهجة نفسي — جارتين إحداهما تدعى : « أمَّ حفص » والأخرى : « أمَّ عثمان » .

أولاهما بعيدة عن الأذيةِ والشرّ مأمونة الضرر ، أما الأخرى فهي على العكس منها مخوفة البطش جديرة بالتوقى والحذر .

وهي — على هذا — صورة عادية قليلة الغناء ، مسلوبة الرُّواء ، غير خليقة بفن « أبي العلاء »

***

ولكنك تقرأ البيت التالى في لزومياته :

ما قُرَّةُ العين[١] — ذاتُ الورد[٢] معوزةٌ[٣] وغُيبت — عن بواكي الأعين[٤] القُررُ[٥] »

فلا تلبث أن تنعم النظر فيه قليلا حتى ينكشف لك من تفصيل هذا اللوح العلائي الفاتن ما لم يكن ليخطر لك على بال ، ولا يلبث أن يجلو لك — على إيجازه — بعض ما غمض عليك في ذين البيتين .

فهو هنا لا يزال — كما ترى — مشغول الخاطر موصول التفكير بالحديث عن قرَّة العين ، ولكنه لا يعني بها قرَّة عينه ، وبهجة خاطره ، وحبيبة نفسه ، كما تبادر اليك أول وهلة ، بل هو يجري على مألوف عادته في الإيهام والتَّورية والاستخدام[٦] .

فان القرَّة وهي الضفدِع — كما تعلم — قد التبس معناها حين أضيفت إلى العين وهو لا يعني بها — في هذين المقامين — عين الانسان بل عين الماء ليمهد المقابلة في البيت الذي اخترناه من لزومياته بين العين الجارية والعين الباكية تفيض إحداهما بالماء فيشفي ماؤها غلة الصَّادِي ويُرويه ، وتفيض الأخرى بهِ فيعذب دمعها صاحبها ويشقيه . وهو يمثِّل لك ضِفدع الماء في هذا البيت ناعمة قريرة العين بما تظفر به من نصيبها في تلك العين ، غير محتاجة — بعد ذلك — إلى شيء آخر في الحياة .

(١) القرة : الضفدع . وقرة العين : ضفدع الماء (٢) الورد : النصيب من الماء ، والورد ( أيضاً ) : القوم يردون الماء . (٣) معوزة : محتاجة (٤) بواكي الاعين : الاعين الباكية . (٥) القرر : الافراح والمسرات وجالبات البهجة ، تقول : قرت عينه قرة ( مصدر ضد سخنت ) بردت وانقطع بكاؤها واستحرارها بالدمع ، فان للسرور دمعة باردة وللحزن دمعة حارة .

وقرت العين ( من القرار ) أي : رأت ما كانت متشوقة إليه ، فقرت ونامت .

قالوا : « وقرت عينه ( من القرور ) وهو الدمع البارد يخرج مع الفرح »

تقول : « قرت عينك أيها القارىء » اي طابت نفسك .

(٦) الاستخدام ، فيما يقول علماء البديع : أن تخدم الكلمة معنيين ، والتورية ( أو الإيهام ) : أن يطلق لفظ له معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد اعتماداً على قرينة خفية .

فهي — على صغر قدرها وهوان شأنها وضآلة خطرها — مستغنية راضية بعيشها وادعة قانعة برزقها .

على حين حرمت الأعين الباكيات أن تظفر بما تصبو اليه من بهجـة وسرور ، وعزَّ عليها أن تلقى ما لقيته الضفدع من راحة العزاء ، وتظفر بما يكفكف من عبرتها ، ويسكن من لوعتها .

***

فإذا رجعت إلى اللوح الأول — على ضوء هذا البيت — تـكشف لك جماله شيئاً ، ثم لا يلبث الضوء أن يجلوه لك في أبهى صوره ، وأجمل حلله ، حين تنصت إلى مناجاة شاعرنا لتلك الضفدع فتلمح — في ثناياها — شاعراً مشفقاً حدباً يخيل اليك — لفرط شغله بها ورحمته لها — أنهُ يعيش معها ، ويحيا في عالمها ويحس إحساسها ، ويعنيه ما يعرض لها من مشكلاتها ، ويبهج نفسه ما يسعدها فيفرح لأفراحها ، ويشقى بآلامها وأتراحها .

ولقد يخيل إليك — إذا أطلت التأمل في هذين البيتين وتركت لخيالك العنان — أنه يسمرُ اليها متردداً ، ويهمس في أذنها متودداً ، راثياً لما تلقاه في هذه الحياة من التعرض للأذاة ، وظلم الجائرين من الجناة .

وربما عنَّ لك أن تسايره في خياله ، وأوحت إليك هذه الصورة أن تعبر عن آمالك وآماله ، مازجاً بين مقالك ومقاله ، مفصحاً عما ترجم عنه أو أغفله ، مفصلاً ما أوجزه بيانه وأجمله ، فتمثلته يخاطبها حانياً ، ويقول لها مناجياً :

« يا ساكنة الماء ، سلمت من كل بلاء . أيتها الضفدع السكينة ، أتعلمين من تجاورينه ؟ وهل تبالين الخطر ـ كما نباليه ـ وتحذرينه ؟

ولو أنك — يا ضفدع الماء — عقلت ، فعرفت بعض ما جهلت ، لتفزعت مما تتعرضين له من فنون الإيذاء ، وضروب الألم والشقاء .

فاسمعي إن كنت تسمعين ، واعلمي إن كنت لا تعلمين ، أن لك — يا قرَّة العين — جارتين ، مختلفتي الطباع متباينتين ، إحداهما : وفية شاكرة ، والأخرى غادرة ماكرة .

تعيش معك أولاهما في دعة وسلام ، ولا يتغير ودها على الأيام . أما الأخرى فهي ساهرة العين لا تغفل عن أذاك ولا تنام ، ولا تفتأ جاهدة تتربص بك عادية الحمام .

عنيت بالأولى صاحبتك « أم حفص » : تلك البطة الوادعة الكريمة ، وأردت بالأخرى عدوتك « أم عثمان » : تلك الحية المعتدية الأثيمة .

فأنت ترى في هذا اللوح — على إيجازه — كيف تشقى الضفدع كما نشقى ، وتلقى من حسن الجوار وسوئه مثل ما نلقى ، وكيف كتب عليها — كما كتب علينا — أن تجاور الأخيار، ثم لا تجد — الى ذلك — مناصاً من مجاورة الأشرار . فهي مثلنا تفوز — من إحدى جارتيها — بالسلامة فتسلم ، وتأنس منها بطيب الجوار فتنعم وتغنم ، على حين تلقى — من الأخرى — ما يروعها ويفزعها، وربما حان — على يديها — أجلها ومصرعها .

فإذا انتقلنا إلى رسالته التي بعث بها إلى خاله يعزيه ويواسيه ، ويهوّن عليه ما عظم من مصابه في فقد أخيه ، رأيناه يعرض لمصرعي الضفدع والحية معاً ، ويتمثل نهايتيهما جميعاً — فيما يعرضه خياله ويتمثله من مصارع الأحياء ، ممن عاش في البر أو سبح في الماء أو طار في الهواء — فيقول :

وعُلجوم (ضفدع ) يصدح ( يغنّى ) إذا طلعت النجوم كأنهُ — في المشرع ( الماء )— قارس أو مصطلٍ ( طالبُ دفءٍ ) والزمن قارسٌ ( شديد البرد ) .

وهاجة ( وهي الأنثى من الضفادع )[1] بالماء شديدةُ اللجاجة، وحيةٍ لغائص الدُّرّ منكلة (مؤذية ، او منحّية ) تزعمُ العربُ : أنها بالدر موكلةٌ (حارسة له ،مفوضةٌ في أمره).

﴿ ترجمة النصوص العلائية ﴾ وقد بدأت — منذ سنوات — بنقل أسلوبه في شعره وكتبه ومساجلاته، ورسائله ومحاوراته ، إلى أسلوب سهل يفهمهُ الشَّادي بعد أن مهدتُ لتلك النصوص بما يوضّحُ خفاياها ،ويكشف عن كنوزها وخباياها ، مازجاً — بين حين وآخر — ما صعب من شرحه ، بما يسهلهُ على القارئ من تفسيري ، وما علا من أسلوبه بما يدنيه اليه من تعبيري .

ورسالة الهناء بعد رسالة الغفران شاهدان عدلان، ودليلان باقيان ، بل آيتان باهرتان ، على ما أسلفه شاعرنا العبقري وفيلسوفنا الألمعي، للأدب العربي،والشباب الجامعي،من صور فكرية، وطرائف بيانية.

﴿ في العيد الألفي ﴾ وهذه حديقة أبي العلاء نزفها الى القراء في عيد مولده الألفي بما تحويه من ثمر جنيٍّ ، وغذاءٍ شهي ، ينعم بها صفوة الشباب، من طالبي الآداب.

نقدمها أجزاءً وفصولاً ، وترجمات وأصولاً :

نترجم النص العلائي الى الأسلوب العصري او نقبسهُ او نشرحهُ ، أو نجتزئ بألفاظ تجلو غامضه وتوضحهُ .

(١) القرة والعلجوم والهاجة ،كلها بعض ما يطلق على الضفدع ، وقد فصلنا ذلك في كتاب « أصدقاء الربيع » وهو الجزء الأول من « قصص علمية للاطفال»

وفقنا الله إلى استثارة هـذا الـكنز واستخراج نصوصهِ وبدائعهِ، وتنسيق فصوصـهِ وروائعه . وشرح ما استمر من غوامضهِ وخفاياه، وتجلية ما اشتبه من مقاصده وطواياه، وإسعاد القارئ بما اختص بهِ شاعرنا المحبوب ، وفيلسوفنا الموهوب، من توجيهات فلسفية ونفحات عبقرية ، وإشارات ساحرة ، ولفتات ساخرة، ونقدات باهرة ، ورياض حافلة بنضير الأزهار ، وضاحك النوار ، وناضج الثمار . وعوالم زاخرة بفنون الحياة ، ناطقة شخوصها بأروع ما يتخيله الفكر ويتمناه .

﴿ أسلوب المعري ﴾ وقد سلـكت في حديقة « أبي العلاء » ، ما سلـكته في « رسالة الهناء» ، فترجمت — في هذه وتلك — إلى أساليبنا العصرية ، جمهرة من بدائعه الفكرية ، اخترتها من «سقطِ الزند» و « ملقى السبيل » و«ديوان اللزوميات » و« رسالة الغفران » وكتاب « الفصول والغايات » ، وما إليها من أثبات كتبه ، ونفائس أدبه .

وأسلوب شاعرنا — كما يعرفه رواده ومريدوه — أشبه بالغابة منه بالحديقة ، وبالجبل الشامخ ، منه بالسهل المنبسط الفسيح.

فهو يسلس لقارئه حيناً ، ويتوعر أحياناً ، وتفصح ألفاظه عن خفاياه مرة ، وتغمض على الأكياس — مرات — فلا تسلَس لهم عناناً ، وتشتبه أغراضه — كما رأيت — فيقتضي فهمها شارحاً وتَـرجماناً.

فلا غرو إذا نسقت إلى جانب تلك الغابة العلائيـة المشتبكة الأصول والألفاف [١] ، المتوشجة[٢] المسالك والأهداف ، المتباعدة الحدود والأطراف ، حديقة[٣] حالية ، قطوفها دانية ، واضحة معالمها ، بينة مراسمها .

وأسلوب شاعرنا كالذهب ، ولا غرو في ذلك ، فهو يتوخى — إلى إبداعه الفني — نصرة الحق ، وفي الحق من الذهب — كما يقول — ثلاث خلال : ثقله ، ولونه ، وبقاؤه على الأبد بغير تغيير .

وقد أضفنا — بما ترجمناه وقبسناه وشرحناه — إلى ما يحتويه المنجم العلائي من حر ذهبه الأصفر قليلاً من النحاس الأحمر، ليصبح كالعملة الذهبية الحديثة أقرب إلى التداول وأدنى إلى التناول . فالنحاس — كما يعلم القارئ — يخالط الجنيه الذهبي فيضفي على صفرته شيئاً من حمرته ،فيكتسب سناه — من عنصريهما — سحره وفتونه، ويستمد صوته — من معدنيهما — جرسه ورنينه، ويستجد إشراقه — من لونيهما — مايختال به من نَـضرة وزينة.

---

(١) الالفاف : الاشجار يلتف بعضها ببعض (٢) المتوشجة : المشتبكة
(٣) انظر صفحة ٥٢ من « حديقة أبي العلاء »

وأسلوب شاعرنا كالصهباء المعتقة، فلاغرو إذا مزجناها بقليل من الماء ليخفف من سورتها[١] على محتسيها، ويلطف من نشوتها على شاربيها، فما أندر من يطيق احتساءَ المعتقة صرفاً، وليس كلُّ قارئ — فيما نرى، حليفاً للنصوص القديمة وإلفاً، وقلما تطيق المعدة الطعام إذا أفرطَ في اللذاذة والدسم، وربما انقلب — لفرط لذاذته، أو دسامته — زعافاً من السم.

﴿ ترجمات ونصوص ﴾ على أننا عُنينا بإثبات الترجمة المستخلصة من النصوص، واللآلاءِ المقتبس من النصوص، وجعلنا — من الترجمة والأصل — حديقة وغابة، ليقضي من شاءَ من إحداهما — أو كليهما — آرابه. فان كانت الغابة أروع، فإنَّ الحديقة أروحُ وللغابة دروب ومسالك، وفيها إلى ذلك ظلمات حوالك، ولا بد لمخترقيها من دُربة ومهارة، وجُرأة وجسارة، والحديقة — بعد — أيسر مطافاً، وأدنى قطافاً.

واذا كانت للغابة أدلاَّؤها وروائدوها، فللحديقة أصفياؤها ومريدوها، والناس — كما يقول شاعرنا — أخياف[٢] والطبائع ألوان وأصناف: هذا يبذل للمصاعب جهده ولا يدخر وسعهُ، وذاك أخو نزهة ومتعة.

هذا مولع بارتياد فسيح السهول المنبسطة وما يكتنفها من تلال، وذاك مغرًى بتسنم عالي القمم من شم الجبال، أحدهما يؤثر السلامة على النضال، ويقنع بصيد الارنب أو الغزال، والآخر يهدف لتذليل ما صعب من المحال، ولا يرضى بما دون اقتناص الأسد الرئبال، ولكل وجهته[٣] وطريقته، ومذهبهُ ونزعتهُ، وكلاهما مستفيدٌ، ولخيره مريدٌ.

﴿ كأسان ﴾ وإن رواد الأدب العلائي ومريدي بيانهِ، وعشاق إبداعهِ وافتنانهِ. ليؤثرون أسلوبه — كما أوثره — خالصاً أصيلاً، ويُفتنون بغابته الرائعة — كما أفتن — فلا يرتضون بها بديلاً.

وقد عرضنا — من الخمر العلائية — لونين. وقدَّمنا — من معتَّق صهبائها — كأسين. فمن شاء فليشرب مشعشعة ومن شاء فلينعم بها صرفاً، ومنْ أراد فليشرب كأساً واحدة ومن أطاق فليشرب ألفاً.

---

(١) السورة: الحدة، وقد سار الشراب، يسور، سوراً، وسورة، اذا أخذ الرأس.

(٢) الاخياف: الضروب المختلفة في الاخلاق والاشكال، والاخياف — من الناس — الذين أمهم واحدة، وآباؤهم شتى، يقال: «الناس أخياف»، أي لا يستوون. ويقال: إخوة أخياف، وهم الذين تختلف آباؤهم، وأمهم واحدة: ومنه قيل: «الناس أخياف» أي مختلفون. قال أبو العلاء في لزومياته:

«يريدُ خل خليلا كي يوافقه … في الطبع، هيهات: إن الناس أخياف
لولا التخالف لم تركض لغارتها … خيل، ولم تقن أرماح وأسياف

(٣) وجهة الانسان: كل مكان يستقبله.

# عمر الخيام كما أعرفه

## - ٦ -

لمحمود المنجوري

---

اهتمَّ الانجليز بالرباعيات ، فأقبل الأدباء والشعراء على ترجمتها وشرحها ، ومن أدق الترجمات ترجمة و نفلد Whinfield سنة ١٨٨٣ في ٥٠٨ رباعية ومعها المتن الفارسي ، وترجمة جون باين Jone Payne في ١٥٨ رباعية ،وتوجد تراجم أخرى ودراسات مختلفة بلغت المائتين بين شرح ونقد وترجمة . وقد ترجمها الى الفرنسية ، غير السيو نقولا ، المستشرق ن. هنري .

وترجمها الى الالمانية المستشرق بودنستيد Bodenstedt . ويقول العلماء الانجليز إنها من أدق الترجمات التي ظهرت في المكتبة العمرية وأوثقها ، وقام غير واحد من علماء الألمان بدراسات مختلفة في نواحي الخيام من شعر وفلسفة وعقائد وفلك ورياضة .

ولقد عثر الدكتور فردريخ روزن سنة ١٩٢١ على نسخة قديمة للرباعيات ، ضمت ٣٢٩ رباعية ، يرجع تاريخها الى سنة ٧٢١ هـ . ولقد وصفها الدكتور روزن بأنها قد تكون نسخة مطابقة لنسخة مفقودة كتبت سنة ٧٢١ هـ ، وذلك لان خطها وورقها على شيء من الجدة والرونق لا يتفق وقدم التاريخ المكتوب عليها ، ولقد نشر الدكتور روزن هذه النسخة سنة ١٩٢٢ بمقدمة قال فيها إنه قد وصل إليه من المحقق الفارسي الشيخ ميرزا محمد قزويني أمين المخطوطات الفارسية في الخزانة الاهلية بباريس صورة من مجموعة فيها ١٣ رباعية وجدت بين مجموعات أخرى في كتاب مؤنس الأحرار تاريخه ٧٤١ هـ ، ولقد أكَّد الشيخ ميرزا أن مجموعة روزن هي أقدم مجموعة لرباعيات عمر الخيام لأنها تسبق نسخة أوزلي بثلاث وعشرين ومائة سنة . وترجمها الى اللغة التركية المعلم فيضي ، ثم نقلها بعده الأديب الشاعر مستجابي زاده عصمت ، ثم عبد الله بك جودت وهي ترجمة مشهورة ذائعة . ثم تناول الخيام الفيلسوف الشاعر الكبير رضا توفيق بك مع الاستاذ حسين دانش بالدرس والتحليل والترجمة ، ثم نهض من الشباب التركي الشاعر رفعت بك أحمد ، فترجم أربعين رباعية ، وترجم الاستاذ حسين رفعت بك ١٥٨ رباعية ، كما ترجمها إلى التركية الشاعر اللغوي المرحوم نور الدين بك مصطفى في مخطوط مودع مكتبته بمدينة حلوان ، ولم يطبع بعد ، وقد اطلعت عليه

أما دراسات الخيام فيبدو الاهتمام بها في مئات الكتب والمباحث التي تناولته في نواحيه المختلفة ، وإنا لنذكر بعض المستشرقين الذين توفروا على هذه الدراسات :

( ١ ) المستشرق الروسي رزوكفسكي ، حقق الرباعيات واستقرّ رأيه على أن ٨٢ رباعية

ليست للخيام بل هي منسوبة اليه، وعرض – في دراسة – موازنة بين أساليبها وأخيلتها ومناهجها وبين أساليب بعض شعراء الفرس، وقال إن هذه الرباعيات المنتحلة إنما هي لتسعة وثلاثين شاعراً فارسيًّا، أمثال عبد الله الانصاري وأبي سعيد بن أبي الخير، والآنوري، والعسجدي، والعطار، والفردوسي، وجلال الدين رومي، ونصر الدين الطوسي، وحافظ الشيرازي.

(٢) ف. وبك F. Webek نشر كتاب الجبر لعمر الخيام وترجمه سنة ١٨٥١ في باريس.

(٣) م. كويل M. Quel نشر بحوثاً قيمة بمجلة كلكتا سنة ١٨٥٨ بلندن

(٤) ج نيقولا ترجم رباعيات الخيام نثراً الى الفرنسية عن نسخة طهران في ٤٦٤ رباعية سنة ١٨٨٧ بباريس.

(٥) ن. دول، ترجم رباعيات الخيام سنة ١٨٩٨ بلندن.

(٦) هـ. الين « « « « «

(٧) ا. براون، له مباحث نشرها بمجلة الجمعية الملكية الاسيوية ١٨٩٩ بلندن.

(٨) د. رس « « « « « « ١٨٩٨ بلندن ومقدمة كتاب رباعيات عمر الخيام للمستشرق هـ باتسن. لندن ١٩٠٠.

(٩) ج. مارتولد، رباعيات الخيام سنة ١٩١٠ باريس.

(١٠) روزن، نشر مخطوطته التي يرجع تاريخها الى سنة ٧٢١هـ في ٣٢٩ رباعية ببرلين سنة ١٩٢١

(١١) ا. روتفلد، عمر الخيام وتحقيق ميلاده وعصره سنة ١٩٢٢ لندن.

(١٢) ت. وير، مقالات في الشاعر عمر الخيام سنة ١٩٢٦ لندن.

(١٣) كريستنس. رباعيات عمر الخيام، تحقيق في صحة الرباعيات، وقد استقرَّ رأيه على أن ١٢٠ رباعية هي التي للخيام، وقد دارت دراسته في مجموعات مختلفة اشتمل بعضها على ٢٩ رباعية واشتمل البعض الآخر على ٨٠٠ رباعية في عهود تقع بين سنتي ٧٢١ هـ و١١٩٥ هـ. وقد طبعت هذه البحوث القيمة سنة ١٩٢٧ بمدينة كوبنهاجن.

(١٤) ب. سالي، عمر الخيام عالم وفيلسوف، سنة ١٩٢٧ بباريس.

(١٥) د. رس، مجلة مدرسة المباحث الشرقية سنة ١٩٢٧ لندن.

(١٦) فردريخ روزن، رباعيات عمر الخيام، لندن سنة ١٩٣٠.

(١٧) مجلة لندن المصورة، مخطوط لرباعيات الخيام، مايو سنة ١٩٣٠.

(١٨) المستشرق الأستاذ وبل مدير المباحث الشرقية في خزانة برلين، عثر في خزانة برلين على كتاب منثور لعمر الخيام اسمهُ (نَوْرُوز نامه) أي (رسالة النَّوْرُوز) وجدها ضمن مجموعة لستة كتب مكتوبة في سنة ٧٦٨ هـ. وتقع رسالة الخيام هذه في ٥٤ صفحة تناول

فيها مباحث مختلفة ، كعيد النوروز وتاريخ فارس ، وبعض فنون الصيد ، وعلم المعادن ، والخمر ، والأدب والجمال . وقد ذكر الأستاذ أحمد رامي في مقدمة ترجمته للرباعيات انهُ تحقق من إسناد هذه الرسالة إلى عمر ، لأن سائر الرسائل التي احتواها الكتاب لمؤلفين عاشوا في عصر الخيام ، وأن كثيراً مما جاء في فقراته يشابه اتجاه الرباعيات فيما خصَّ الخمر والحب والجمال . ولم يذكر الأستاذ رامي أسماء هؤلاء المؤلفين الذين عاصروا الخيام ، ولم يقدم لنا نموذجاً من هذا الكتاب النادر ، وقد حاولنا البحث في القاهرة وفي خزائن البلاد الشرقية عن نسخة لهذا الكتاب فلم نوفَّق للآن . ولقد أشار الأستاذ رامي إلى لقطة أخرى عثر عليها في سنة ١٩٣٠ وهي مخطوط مصور لرباعيات الخيام بخط أحد سكان مشهد سنة ٩١١ هـ اشتراه الأستاذ نجيب أشرف وأهداه إلى خزانة بتنا بالهند وفيه ٢٠٦ رباعية مكتوبة بخط جميل وفيه من الصور البديعة ما يجعله طرفة فارسية نادرة . ولا شك في أنه يتعين علينا إضافة هذه التحفة إلى قائمة المخطوطات التي وصلت الينا حتى الآن ، وهي :

(١) نسخة روزن ببرلين ، وبها ٣٢٩ رباعية سنة ٧٢١ هـ

(٢) نسخة كوركيان ، وبها ١٣ رباعية سنة ٧٤١ هـ وهي التي حققها الأستاذ ميرزا قزويني

(٣) نسخة بودليان بأكسفورد ، وبها ١٥٨ رباعية سنة ٨٦٥ هـ

(٤) نسخة الخزانة الأهلية بباريس ، وبها ٢١٣ رباعية سنة ٩٠٢ هـ

(٥) نسخة الخزانة الأهلية بباريس ، وبها ٣٤٩ رباعية سنة ٩٣٤ هـ

(٦) نسخة المتحف البريطاني بلندن ، وبها ٢٦٩ رباعية سنة ٩٧٧ هـ

(٧) نسخة المتحف البريطاني بلندن ، وبها ٥٤٥ رباعية سنة ١٠٣٣ هـ

(٨) نسخة خزانة برلين ، وبها ٢٣٨ رباعية سنة ١٠٥٨ هـ

(٩) نسخة جامعة كمبردج ، وبها ٨٠١ رباعية سنة ١١٩٥ هـ

(١٠) مخطوطة خزانة الجمعية الاسيوية بالبنجال ، لم نتمكن من تعيين تاريخها ، ولكنها طبعت في كلكتة سنة ١٨٣٦ ، وهذه المخطوطة هي التي أرسل صورة منها مستر كاول إلى صديقه فتزجرالد سنة ١٨٣٧ م للاستعانة بها على الترجمة [١] وهي تحتوي ٤٩٢ رباعية

(١١) مخطوطة طهران التي نقل عنها مسيو نقولا ترجمته النثرية سنة ١٨٦٧ م ولم نتمكن من تحديد تاريخها ، وهي تحوي ٤٦٤ رباعية

(١٢) مخطوطة تبريز ، طبعت سنة ١٨٦٨ م وتحتوي ٤٥٣ رباعية

(١٣) مخطوطة لكناو ، طبعت سنة ١٨٩٤ م في ٧٧٠ رباعية

---

(١) رس ص ٨٣ ، مقدمة رباعيات الخيام ، لندن ١٩٠٠

# التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

# المشتمل


## ١ – الكتب

| | | |
|---|---|---|
| أقاصيص | نقد | بقلم صديق شيبوب |
| بشار بن برد | – | – بشر فارس |
| دراسة الشعراء | – | – ابرهيم عبد القادر المازني |
| من تراث مصر | – | – وهيب كامل |

كتب ظهرت :

التعليم والتربية في بريطانية ، خواطر ساذج ، الشوامخ ، نداء القلب

## ٢ – الاستدراك

| | |
|---|---|
| الحيوان ، الجزء الخامس | بقلم الأب أنستاس ماري الكرملي |
| مجموع رسائل الجاحظ | – عبد السلام محمد هارون |

## ٣ – التعقيب

| | |
|---|---|
| تبيين | بقلم أسعد طلس |
| ردّ | – * |

# ١ – الكتب

## • أقاصيص •

١٣ × ١٨½ سم ١٨٠ ص لجنة النشر للجامعيين القاهرة ١٩٤٤

إنَّ المجموعات القصصية نادرة عندنا ، لأن فن القصة جديد على الأدب العربي . ونحن لا نذكر منها غير كتاب « موكب الحياة » الذي نشرته « المقتطف » سنة ١٩٤٢ . أما مجموعة « أقاصيص » فقد اقتصرت على أدباء مصر . وقد أحسنت لجنة النشر للجامعيين صنعاً حين جمعت في كتاب واحد أقاصيص لكتاب تتباين مناهلهم بحيث يستطيع القارئ أن يتبين مختلف الأساليب التي يجري عليها بعض القُصاص عندنا ، وشتى الأفكار التي يتداولها كل واحد منهم ، والمواهب التي يتميز بها والوسائل التي يتناول بها فنه .

ضمت هذه المجموعة اثنتي عشرة أقصوصة لتسعة قصاصين مصريين .

والأقصوصة الأولى بقلم الاستاذ إبرهيم عبد القادر المازني بعنوان « على الهامش » ولاشك ان أسلوب الاستاذ المازني المتدفق في استرساله ، القوي في بيانه ، ضمين لحسن الاداء ، ولطف الوصف والتمثيل ، ومداورة الحديث في رشاقة ، والتعبير في سهولة عما يريد الافصاح عنهُ من خلجات النفس واضطرابات القلب .

تناول الاستاذ المازني في اقصوصته بعض مشكلات الأسرة حين تنصرف الزوجة الى العناية بمنزلها في طواعية ولين ، مهملة شؤونها الخاصة من زينة وأناقة . يلقى الزوج فتاة تمثل في عينيه الجمال الذي يصبو اليه والزينة التي يرغب فيها فلا يلقاها في منزله . وقد كان الاستاذ المازني لبقاً في معالجة هذا الموضوع ذي الخطر الاجتماعي والاخلاقي ، كما كان لبقاً في تمثيل أشخاص الاقصوصة . ولكن طريقة سرد هذه الحوادث وما تخللها من تقلبات جعلاها أقرب الى نوع القصة المتوسطة في الحجم ( نوفيل ) منها الى الاقصوصة .

وللاستاذ محمود تيمور قصتان هما : « البديل » و « موعد » نجد فيهما ما قد ألفناه في أسلوب القاص الأديب : مزيج متوازن بين الواقعية والوجدانية في الموضوع ، ودراية ببناء الأقصوصة وحبك حوادثها ، الى سلاسة في الاسلوب ووضوح في أخلاق الاشخاص . وكثيراً ما يرمي الاستاذ تيمور الى تصوير العواطف من حيث لا يشعر القارئ ، كما فعل في أقصوصة البديل التي شاء أن يصور فيها عاطفة الأمومة وما لها من الحرمة في النفوس .

وتشبه أقصوصة « نداء البحر » ، وهي بقلم الأستاذ ابراهيم المصري ، أقصوصة « على

الهامش » في موضوعها . فقد عرض الكاتبان لمشكلة واحدة هي النضال في حياة الأسرة بين القديم والجديد ، وقد انتهيا ، أي الأستاذان المازني والمصري ، إلى حل واحد وهو أنه من الخير للمرأة ان تتطور وتتمشى مع آراء العصر لكي تستطيع الاحتفاظ بزوجها أو خطيبها. ونجد في « نداء البحر » صورة من الحياة المصرية على طريقة الأستاذ المصري : معارضة بين الماضي والحاضر ، بين الغرائز والتقاليد ، كثيراً ما يتصادم فيها الواقع والخيال .

وقد هاجم الدكتور سعيد عبده النساء في ادارة شؤون البيت ، وهي مهاجمة فيها الكثير من الدعابة والتهكم .

وجلا الأستاذ صلاح الدين ذهني صورة من الريف المصري يتخللها جمال مناظره وبهاء حقوله وهدوء حياته وبساطة فلاحيه . وقد طالعنا من قبل للأستاذ صلاح الدين مثل هذه الأقصوصة التي تحمل طابع الريف وتصف مشاهده وعاداته وتقاليده وأخلاقه .

وقد تفردت أقصوصه «ضباب ورماد» دون غيرها من أقاصيص المجموعة بأنها كتبت على طريقة رمزية . وقد شاء مؤلفها الأستاذ عادل كامل أن يصف فيها حالة العالم وانعكاسه على نفسه فحشر شتى الصور ليرمز إلى حالة الحرب القائمة ، ثم مثل الحياة في شكل فتاة أحبها فخضع لها حيناً ، وسعد بها حيناً آخر ، ثم غادرته فجأة على غير موعد . وقد أصاب الكاتب الأديب بعض التوفيق في خلق الجو الرمزي لأقصوصته ، ولكنهُ لم يبلغ مثل هذا التوفيق في الصور التي رسم الكثير منها على طريقة مذهب ما وراء الواقع لأنهُ لم يستطع أن يثير لها في نفس القارئ صدى يؤلف بينهُ وبين القارئ . والصور هي انعكاس العالم الخارجي على نفس الانسان . ومهمة الأديب أن يعبر عن هذا الانعكاس بالأسلوب الذي يجده خير وسيلة لخلق الصدى الذي ذكرناه في نفس قارئه . وقد شاء الأستاذ عادل كامل أن يدل في قصته على ان مظاهر العالم الخارجي موجودة في نفسه ، ولكنه لم يوفق تماماً للتعبير عن هذا المعنى بالصور التي اختارها فاضطر إلى الافصاح بعد أن حاول الاكتفاء بالرمز .

على أننا نود أن نشير إلى أن هذه المآخذ التي ذكرناها لا تنقص من فضل الأديب الشاب الذي شاء أن ينهج نهجاً لم يسبقه اليه في الأدب العربي الحديث إلاَّ أفراد ، ويكاد الناجحون منهم يُعدون على أصابع اليد ، نذكر في طليعتهم صاحب « مفرق الطريق » و« سوء تفاهم » .

أما الأقاصيص الأخرى فهي « شهرزاد » بقلم الأستاذ محمد فتحي أبو الفضل ، وأقصوصتا « مائة جنيه » و « عودة سنوهي » بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ، وأقصوصتا « الغاية تبرر الواسطة » و « حلم آثم » بقلم الأستاذ عبدالحميد جودة السحار . وهذه أول مرة أحظى فيها بمطالعة أقاصيص بقلم هؤلاء الأدباء .

وإذا كان من الصعب الحكم على كاتب من خلال أقصوصة واحدة أو أقصوصتين فاننا نلاحظ في ما طالعناه لهم في هذه المجموعة مواهب في التأليف القصصي ومعرفة بحسن البناء وتسيير الحوادث ووصف مختلف الأحاسيس ، ولكنه يعوزها الكثير من العمق والاتساع في هذا الوصف الذي ذكرناه . ففي « شهرزاد » وصف للشباب حين يلهو ، وحين يشتاق ويرغب ، وحين يحزن ويزهد . وفي « مائة جنيه » موازنة مؤلمة بين ضعة نفس نجدها في الأغنياء البخلاء وعلو نفس نشهدها في الفقراء المستقيمين . وفي « الغاية تبرر الواسطة » نجد صورة للحياة اليومية تحاك حولها حادثة زواج.

وجملة القول أن القارئ يجد في كل واحدة من هذه الأقاصيص التي أشرنا اليها فكرة تسيّر القصة وإحساساً يدبرها .

الاسكندرية صديق شيبوب

## • بشار بن برد • بقلم ابرهيم عبد القادر المازني

١٣½ × ١٩ سم ١٣٢ ص لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية القاهرة ١٩٤٤

على الناقد أن يتلقى الكتاب الخارج الى الناس على النحو الذي قصد صاحبه إليه ، فليس يحسن به أن يرقب ما ترف إليه نفسه ويرضى به ذوقه ، فيتشبث بما دار لمخيلته وقام في وهمه . يتلقى الكتاب على وجهته وغايته فينظر ما يكون قدر الوجهة وما يكون خطر الغاية ، ثم يتبصر مدى بلوغ هذه بفضل تلك

فلقد كان في وسع المؤلف أن يسترسل في سيرة بشّار فيدفع إلينا قصة شاعر زخرت حياته بالنوادر والطرائف وغصّ عهده بالفتن في جانب السياسة والدين والاجتماع . ولو كان صنع لجاء الكتاب نابضاً ، ذلك أن بالمازني حذقاً لسرد القصص . إلاّ أنه مال عن فن الاسترسال، وإن كان ممن يحكمه ، فطرق باب النقد الصريح . دخله متحلياً بصفتين ، لا أجد بدّاً من التنويه بهما ، وبخاصة في زمن كادت مقاييس النطق تضيع فيه أو تسقط بين أيدي فريق من الكتبة المقتحمين والمرتجلين .

أعرض المازني عن آراء من سبقه في شعر بشار وأسقط موازينهم وأهمل أقوالهم ، فنظر بعين البصير الذي تصفح آداب الفرنجة فضلاً عن آداب العرب ، وهو يذكر أنه ابن المئات العشرين لا المائة الثامنة أو التاسعة — هذه صفة . والصفة الأخرى رفعُ المازني عمود الشعر فوق الأغراض الدنيوية، ثم غضبه لجلال الفن من جهة وعزة الانسان من جهة . فالي هاتين

الصفحتين تَـرد أقوال له في بشار ، وهي أقوال فيها إقدام وفيها علاء : ودونك مثلاً : «ولعل الأشبه بالصواب أن نقول إن معاني بشار — ومعظمها وسط — كثيرة في كلام من سبقوه ومن جاءوا بعده ، وهي ليست من البراعة أو العمق بحيث لا يعقل أن تخطر على البال . واذا ذكرت ان كل شاعر كان يحفظ كلام من سبقوه ويحرص على الاحاطة به فانك خليق أن لا تستغرب هذا التشابه الكثير بين معاني المتقدمين والمتأخرين » ص ١١٥ . تلك غمزة لأسلوب شعراء العرب في الأخذ والاقتباس والمحاكاة والمعارضـة ، وهي غمزة حقّـة — ثم قوله : «إن القليل الباقي ... من شعره ... لا يكفي للقول بأنه زعيم الشعراء المحدثين ، فان هذه دعوى عريضة لا تقبل بغير دليل » ص ١٦ . ثم قوله : « فلم تكن مزية بشار سموّ المعنى وقوة الخيال أو صدق العاطفة أو اخلاص السريرة أو نفاذ البصيرة ، وانمـا كانت قدرته على الأداء الجيد . . . فهو مشغول أبداً بمطالب الجسد وشهوات البدن ، وبعيد جدًّا أن يكون ذو الطبيعة الحيوانية ممن تستغرقه العاطفة أو تستولي عليه الفكرة ، ولهذا لم يرتق في شعره قط إلى عليا مراتب الفن » ص ١١٢ . فهذه ثورة يثورها ابن المئات العشرين على أحكام الأصمعي وأبي عبيدة والجاحظ وغيرهم ، وبصره بالفن أعلى عندي وأسلم ، وعلمه بـ« سلم القيم الانسانية » أوفر وأشرف .

ولعلَّ وراء تلك الثورة غضبَ المازني على بشار لانهُ يحط من جلال الفن ويغض من عزة الانسان بالهجاء الذي آثره ووقف له ملكته. يقول المازني :«واذا كان لم يجيء في الهجاء بشيء من البراعات فلاعجب ، فما كان الهجاء عنده إلا زجراً وتخويفاً . وأكثره فحش، لاسرافه في البذاءَة التي تشبه بذاءَة العامة والسوقة والسفلة ، ولم تكن سلاطته مظهر قوة ، بل آية ضعف وعجز . . . وكان في أبي معاذ جبن وذلة » ص ١١٢ ، ١١٣ ، ٣٢ .

إني ليبدو لي أن المازني — وأنا بخلقهِ عارف — يمج بشاراً « لأنه كان اتخـذ الهجاء تجارة ، وجعل منهُ وسيلة للابتزاز مخافة التشهير Blackmail فكرهه الناس جميعاً »ص ٥٢

من أجل ذلك كرهه المازني أيضاً . والحق أن الهجاء صـار من مخزيات أدبنا لمـا خرج عن غرضه الأول، وقد كان لوناً من ألوان العقاب الاجتماعي ينزله الشاعر باسم القبيلة على من ذلّـت ساحته وركّ عرضه ، أو ضرباً من ضروب الكهانة أو ما يقارب الكهانة يعمد اليه الناظم في الدعاء على العدو ( راجع ما سطرتـه في ذيل دائرة المعـارف الاسلاميـة ، ط هولندة ، مادة هجاء ) . انحط الهجاء عن هذا الجانب المنزَّه عن الفردية والمادية وأمسى أسلوباً من أساليب اللئام . تلك مسبّـة . ومما يورث الحزن أن هذا الهجاء الساقط الرذول أثر في الأدب العربي كله شعره ونثره ، حتى إنك لتجد من لا ينفكّ يلجأ اليه وفي متوهَّمه

أنه ذو هولة وذو صولة ، والتحقيق أنه سفيه عاجز .

وكأني بالمؤلف الغاضب على السفيه العاجز أحس عند خاتمة كتابه أنه ظلم بشاراً وبالغ في التجني عليه ، فانبرى يلتمس له المعاذير ، فوصف الاضطراب الذي كانت تعانيه الملة في أيام بشار وألمع إلى ما ذاع في بعض الأقطار من مبادئ الإباحة ومذاهب الإلحاد إلى فتن سياسية ودينية لفت بشاراً في تيارها فسولت له المجون والزندقة وزينت التجرؤ والتمرد .

أجل إن المازني — بفضل الليانة التي في حاشيته والعذوبة التي في لسانه — ما استطاع أن يحب بشاراً وأن يحببهُ إلى قارئه ، فبدا حكمه قاسياً وجاء غضبه في صورة ظلم . ولعلّ المازني في كل ذلك غلّب طبعه على فكره وأقام السماحة التي في عوده مقياساً ينصبه لعجم صاحبه - بل عدوه - بشار . قد يكون تجنى عليه - ولا سيما إن شعر بشار لم يقع إلينا منهُ إلاَّ اليسير - ولكنهُ تطالب الصدق الذي أصبحنا ننشده في الأدب، وترسّم السموّ الذي نعدّه اليوم جوهر الشعر .

...

ولم يرسل المازني حكمه إرسالاً . هو يعرف كيف يتدبر الشعر ويتصفح الخبر ليستشف روح الشاعر . اقرأ الفصل الذي كتبه في ذهاب حاسة البصر وما يولد ذلك في النفس والملكة (ص ٢٦ وما يليها) ، والفصل الذي استخلص فيه جبن بشار وعجزه (ص ٣٤ وما يليها) ، ثم الفصل الذي توصل فيه إلى أن بشاراً أميل إلى انتهاب العيش منهُ إلى التأمل، وأرع في وزن الخسارة والربح منه في إيثار مروءة أو رعاية أدب (ص ٥٥ وما يليها) . في تلك الفصول نفاذ، كما أن في غيرها دقة (ص ١٠٤ مثلاً، عند الكلام في سقوط الهجاء على يد بشار) . وكان في الود أن نصيب هذا النفاذ وتلك الدقة أيضاً في فصلين اختصر المؤلف أحدهما وهوّن الآخر . أما الفصل المختصر فهو الذي عرض فيه المؤلف حالة البصرة في أيام بشار خاصة ، فالحديث هنا يطول ومن مستطرداته الواجبة ما وقع بين بشار والمعتزلة ، وحقّ هذا الفصل أن يقع في صدر الكتاب لا في ذيله . وأما الفصل الذي هُوّن فموضوعه زندقة بشار. ومجمل رأي المؤلف أن « تهمة الزندقة إنما جاءته ولصقت به من طول لسانه على الأكثر دون فعله » ص ٥١ . وأكبر الظن أن المؤلف لم يذهب في تعرف حقيقة الزندقة في العهد الاول أيام كان « العارف » يتعقب الزنادقة بأمر الخليفة ، فقتل فيمن قتل بشار وابن عبد القدوس . وهذه الزندقة فيها شعوبية وفيها مانوية ومزدكية . ثم صارت الزندقة إلى معانٍ أخر، منها الالحاد أو « حرية الفكر » وهو المعنى الذي اقتصر عليه المؤلف ( راجع مفاتيح العلوم ، ودائرة المعارف الاسلامية ، ط هولندة ، مادة زنديق ،

و Browne التاريخ الأدبي لفارس ج ١ ص ١٥٩ — ١٦٠ ) . وفي زندقة بشار ونعتها كتب Nicholson في التاريخ الأدبي للعرب ص ٣٧٢ ، وفليب حِتّي في تاريخ العرب (بالانجليزية ) ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ . هذا ومن قبلُ سلك صاحب رسالة الغفران بشاراً في الزنادقة وسلكه أيضاً ابن النديم في الفهرست .

•••

وفي المازني فطنة للشعر يقظة ، يدل عليها اختياره لقصيدتين أنزلها منزلة الروائع احداها لبشار ومطلعها : قد لامني في خليلتي عمرُ ، والاخرى لابن الرومي وهي في رثاء وحيد المغنية ، ولا اعرف في أدبنا قصيدة تطاولها — وقد رأى الاستاذ الناقد أن يوازن بينهما ليميز الوحي الحمي من الوحي المعنوي . وهو في اختياره وموازنته أحسن . وكذلك كان شأنه في الموازنة التي عقدها بين ابي العلاء وبشار . غير أني كنت أرتقب من جانب المازني أن يبين قدرة بشار على الاستحداث في التصوير وتلك القصيدة بين يديه ، كذلك كنت أرتقب أن يذهب في الفحص عن طرائق بشار في التشبيه ، والبحث عن خصائصه في التعبير ، وهذه وتلك من نفائس بشار وعقائله . في ذلك استيفاء للدرس . هل أعجله موعد مضروب عن الذهاب ، هل حبست قريحتَه قلة الأوراق ؟

بقي أن المؤلف ذكر في فاتحة كتابه المراجع التي اعتمدها، فأحسن في ذلك ، ولعل هذا يرشد غيره . فهل لي أن اجعل بين يدي المؤلف غيرها على ضآلتها ، فضلاً عما دونته قبل — والمعلوم ان أخبار بشار وأشعاره تتناثر في الكثير الأكثر من أسفار الأدب والتاريخ مما يفوت الاحصاء — : الشعر والشعراء لابن قتيبة ، القاهرة ١٣٥٠ ، ص ٢٩١ — ٢٩٣ . معجم الشعراء للمرزباني ، القاهرة ١٣٥٤ ، ص ٤١٦ . رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصفي ، القاهرة ١٣٤٨ ج ٧ ص ١١ — ١٣ ، ٥٨ . الامتاع والمؤانسة للتوحيدي ، القاهرة ١٩٤٢ ج ٢ ص ١٨٠ — ١٨١ ، ج ٣ ص ٣١ . البديع لابن المعتز ، انجلترة ١٩٣٥ ، ص ١ ، ١٩ ، ٤٣ ، ٦٠

•••

وبعدُ فقد كتب الأستاذ المازني : « فان كنتُ أصبت فوفقت فيها ولله الحمد . وإلاّ فانني مستعد أن أتدارك النقص أو الخطأ متى تيسرت اعادة الطبع إذا تفضل عليّ القراء بما يقعون عليه من ذلك » ( ص ٥ ).

أقيد هذه الجملة إكباراً لمسطرها ، في عهدٍ قد ورمت فيه الدعوى وانتفخ النفج .

بشر فارس

## • دراسة الشعراء •

بدأ به المرحوم المرصفي وأكمله ابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي

١٧ × ٢٤ سم ٢٨٦ ص مطبعة الاستقامة القاهرة ١٩٤٤

هو كتاب في دراسة خمسة من الشعراء : امرئ القيس ، والأعشى ، والنابغة الذبياني ، وزهير ، والحطيئة ، بدأه المرحوم الأستاذ محمد حسن نائل المرصفي وأتم منه دراسة امرئ القيس والأعشى والنابغة ، وترجمة زهير ، ثم وافاه الأجل ، فتولى الأستاذان الابياري - وهو محرر بمجمع فؤاد الأول - وشلبي - وهو مدرس بالمدارس الأميرية - إكماله ، فشرحا معلقة زهير بن أبي سلمى ، وترجما للحطيئة ، وساقا مختارات من شعره .

تلقى المرحوم المرصفي علومه في الأزهر ، وكان زميلاً للدكتور طه حسين ، وصديقاً له لا يفارقه حتى كأنهما المعنيان بقول الشاعر :

وكنا كندماني جذيمة حقبة من الدهر حتى قيل لن يتفرقا
فلما تفرقنا ، كأني ومالكاً لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وكان شيخه في الأدب أيام الطلب المرحوم الشيخ سيد المرصفي العالم الأديب المشهور فاستفاد منه دقة وقدرة على تفتيش الكلام وإحسان النظر فيه ، ونفعته صحبته لطه فاتسع أفقه ، واستطاع أن ينظر في الأدب القديم من الناحية التي هي أضوأ له ، وكانت فيه حذاقة ولوذعية وبصر .

وترك الأزهر ، كما تركه طه ، قبل أن يستوفى حظه من علومه ؛ ويظهر انهُ ضاق صدراً بأسلوب التعليم في الأزهر ، وكان ذا يسار فلم يضره ذلك ولم يشق عليه ، غير أنهُ أبى القعود والكسل ، فتولى تدريس اللغة العربية في مدرسة الفرير ، وأصدر طبعة أنيقة بالشكل الكامل والصور لكليلة ودمنة ، ثم نفض يده من التعليم، وتولى إدارة جريدة السياسة زمناً طويلاً ، وفي آخر عهده بها ، أصدر مجلته الشهيرة « الجديد » على غرار حديث من حيث الشكل والموضوع، ثم أردفها بأختها « شهرزاد » وقصرها على القصة ، فكانت أول مجلة في بابها تصدر في مصر .

وعكف في أثناء ذلك على « دراسة الشعراء » فكان في فترات الراحة وخلو الذرع يقرأ ويكتب ، فأتم ، كما أسلفنا ، امرأ القيس والأعشى والنابغة وترجمة زهير ؛ وشرع في الطبع قبل أن ينتهي من الكتاب ، ولكنه مرض وثقلت عليه العلة ، ثم وافاه الحين ، فظلت

الملازم المطبوعة مهملة لا يدري بها أحد ، حتى تذكر السيد مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ما كان يعرفه من أمر هذا الكتاب فاستنقذه واستعان الأستاذين الابياري وشلبي على إتمامه ، ففعلا وتوخيا ، ما استطاعا ، منهج المرحوم المرصفي في البحث .

ولكن الغريب أنهما فاتهما أن يقولا كلمة في المرصفي ، فلست ترى أكثر من اسمه على الكتاب ، وكان في وسعهما أن ينصفاه — لولا السهو — بنبذة وجيزة تعرف القراء به ، وتخرجه من هذه الظلمة ، فقد كان رحمه الله على نشاطه وكثرة دخوله في الأمور العامة ، وطيب مخالطته للناس ، جم التواضع يؤثر الانزواء ، وينفر من الظهور ، ويأنف أن تأخذه خفة من الزهو ، فجنى عليه هذا ، فلما وافاه الأجل لف عليه كفنان .

وثم مسألة أخرى : هي أننا لا ندري لماذا آثر الأستاذان الابياري وشلبي الحطيئة خاصة ، وأهملا بقية شعراء المعلقات أو المطولات كما تسمى أحياناً ؟ وكان المعقول ، والمنتظر أن يسيرا على الدرب ، فيتناولا بالدرس واحداً آخر - على الأقل - من أصحاب المعلقات إذا كانت أزمة الورق تحول دون ما هو أكثر .

وطريقة المرصفي في البحث هي أن يبدأ باثبات « عناصر الموضوع » أي باجمال لما سيفصله فيما بعد ، ثم يسوق ترجمة الشاعر ويقول ما يعن له في خصائص شعره ، وطبقته ، وأثره ، ثم يتناول معلقته ويصفها قبل أن يشرحها ، بيتاً بيتاً - لفظاً ومعنى .

وهذه الطريقة يشبه أن يكون الغرض منها التيسير على طلاب الأدب ، فإن في الكلام دقة مع الايجاز ، وعناية بجلاء كثير من الغوامض التي يشق بها المبتدئ ، وله الى جانب هذا آراء كثيرة في الادب والنقد ، وتعليل النزعات ، وأثر البيئات المتفاوتة ، والى أي حد يجوز استخلاص اخلاق الشاعر من شعره ، وغير ذلك مما لا يتسع المقام لبسطه .

أما الأستاذان الابياري وشلبي فقد جريا على طريقته في الترجمة وشرح الشعر ، ولكنهما لم يتوسعا كتوسعه في البيان ، وليس لهما مثل ما له من الآراء والأحكام ، وقد اكتفيا من الشرح بتفسير الالفاظ دون معاني الأبيات الا في الندرة القليلة .

وفي الكتاب هنات طفيفة لعلها من اغلاط المطابع ، وهي أوضح من أن تحتاج إلى إشارة .

رحم الله المرصفي . كان على شيء غير قليل من الادب والعلم ، ولكن تواضعه حجب فضله ، وكان رحب الجناب وافر الخير ، وما من أحد من اخوانه الا والمرصفي عليه فضل من سجايا النفس ومروءة القلب ، فحرام أن يخرج كتابه وليس فيه من ذكره إلا اسمه على غلافه ، ولو كان هذا قبراً لطمعنا أن تخط على صواه كلمتان وسنتان !

ابراهيم عبد القادر المازني

• تراث مصر • The Legacy of Egypt

نشره س . ر . ك . جلنفيل S. R. K. Glanville

½١٢ × ١٧ سم ٤٢٤ ص أكسفرد سنة ١٩٤٢

هذا كتاب يحتاج إليه ويستفيد منه العالم في الدراسات المصرية القديمة كما يستفيد منه ويحتاج اليه غير المعنيين بها . ومع أن جل ما فيه من معارف متفرق في بطون الكتب، فإن جمع شتات هذه المعارف وإبرازها في لوح واحد كفيل بأن يبعث في ذهن القارئ صورة واضحة الأجزاء للتاريخ والحضارة المصرية .

وأصحاب الدراسات القديمة إطلاقاً يجدون فيه نفعاً وعلماً أيضاً . ولو أنهم جميعاً يعرفون أن طاليس وصولون وفيثاغورث ودمقريطس الأبدري وأفلاطون قد تلقوا كلهم العلم عن كهنة المصريين .

ومما يدعو إلى الأسف حقاً أن يكون الفصل الأول « التقاويم وعلم التأريخ » فاصّاً بكثير من سبحات الخيال وسانحات الخاطر ، بدلاً من أن يعنى فيه صاحبه الأستاذ سِول Sewell بالحقائق التي تقوم على صحتها أدلة ثابتة . وإذ ليس هنا مجال استقصاء وجدل ، يكفينا أن نشير إلى قوله إنه في العهد الذي أخضع فيه مينا مصر السفلى كان سكانها يقوّمون الزمن بالسنة الفصلية التي تبدأ بعد خمسة وأربعين يوماً من الاعتدال الخريفي ، وهذا التاريخ في محفوظ عيد « بعل » المسمى عيد « ساحين » ، ولا يزال أثره يجر أذياله في بريطانية . ثم يقول (ص ٧ ) : « ومن المحقق أن عيد رأس السنة هذا قد أدخله في بريطانية مستعمرو مقاطعة كورنوَل Cornwall الذين نزحوا من حوض البحر المتوسط . وإذن فقد وقفنا على برهان على الصلة العلمية بين مصر وشعوب البحر المتوسط كانت فيما نرى نتيجة للاتصال التجاري »

هذا ومما لا شك فيه أنه لا يوجد على ما نعلم في بريطانية دليل مادي واحد على أنه قد وصل اليها القوم الذين نسميهم الفينيقيين ويسميهم صاحبنا هنا « الكنوسيين » نسبةً إلى « كنوسس » Knossos.

ولندع عالم الفروض ولنولّ وجوهنا شطر عالم الحقائق المقررة التي يعرضها هذا الكتاب أحسن عرضٍ وأجمله . فأظهر ما أورثته مصر العالمَ وأبقاه هو بالطبع التقويم . وقد كان قديماً من ٣٦٥ يوماً ، فصحح فيما بعد فصار ¼ ٣٦٥ يوماً ، وهذا نقلهُ يوليس قيصر إلى رومة أخذاً بإشارة أحد علماء الاسكندرية ، ثم نقده أجسطس ومن بعده البابا

جريجوريُس التاسع سنة ١٥٨٢ وما زال معمولاً بهِ إلى الآن .

وأشاعت مصر في العالم أدانيَ المعرفة : الحروف الهجائيـة والورق . فقد أوضح الأستاذ جردنر Gardiner في مقاله « الكتابة والأدب » أن الحروف الهجائية الفينيقية التي اشتق منها الغرب كله حروفه مأخوذة من الرسم السينائي ، وهـذا بدوره مأخوذ من الهيلغريفية . ولا غرو أن يكون الأستاذ جردنر حريصاً على عرض هـذه النظرية أحسن عرض، فهو صاحبها وأول من نادى بها قبل خمسٍ وعشرين سنة . ولم يقطع الكاتب برأي في صلة الأدب المصري بالأدب اليوناني ،واكتفى أن رجع إلى نظرية الأستاذ پيت Peet التي تقول بأنه لولا مصر لكان من المشكوك فيه أن يصل الأدب اليوناني إلى ما بلغه من سموّ

أما الورق البردي فقد كانت مصر مصدره الوحيد في العالم القديم ، وظلت تزوِّد بهِ الامبراطورية الرومانية من انجلترة غرباً الى الفرات شرقاً ومن الدانوب شمالاً إلى الشلال الاول جنوباً ، وذلك إلى مدخل العصور المظلمة .

وما كان لليونان أن يقيموا في ميدان العلم والطب هذا البناء الشامخ المنيف، لو لم يتخذوا من مصر وعلومها وفنونها أسسًا يبنون عليه . فالساعات المائيـة التي عزي اكتشافها إلى اليونان كانت معروفة شائعة الاستعمال في مصر منذ سنة ١٣٥٠ ق . م ، إن لم يكن قبلها . ولم يكن أخذ الطب عن المصريين دأب اليونان وحدهم ، فقد شرع الفرس في استحضار الأطباء من مصر . ولا غرو فالمصريون أول من ألَّـف الكتب الطبية ، ودوّن الملاحظات التشريحية، وأجرى التجارب في الجراحة . وهم أول من استعمل الجبائر واللفائف والضمادات . وأما اصطلاحاتهم الطبية فعلى غاية من الدقة . ومن الممكن تتبع التأثير المصري في كتب الطب اليونانية واللاتينية والعربية والسريانية والايرانية ، والكتب الاوربيـة في العصور الوسطى . هذا إلى أن ألوان العلاج الشعبية في أوربة والشرق الأدنى ترجع في جملتها الى أصل مصري .

وفي فن البناء أورثت مصر العالم من الأعمدة ما يسمَّى الآن بالطراز السابق للدوري Pre-Doric ويوجد هذا الطراز في سقارة ومقابر بني حسن . وأشاعت استعمال الابن ، وهذا ذهب إلى أسبانية ومنها إلى أميركة الأسبانية ومعه اسمه المصري دِبِب الذي صار في اللغة القبطية طوبي ، وفي العربية طوبه ، وفي الأسبانية أدربي .

أما في الناحية الدينية فيقرر الأستاذ ايسترلي Oesterly في مقاله « مصر وبني إسرائيل » أن تأثير الديانة المصرية في اليهودية ضئيل جداً ( ص ٢٣٨ ) . ويبدو لنا أن في هذا التعميم بعض الغلوّ ؛ نظراً الى ما بين الشعبين من قرب وإلى هجرة اليهود الى مصر في فجر التاريخ

اليهودي ، وإلى الصلات السياسية التي ظلت وطيدة بين مصر واليهود إلى آخر عهد الملوك اليهود ، وإلى إقامة شعائر الدين المصري في المقاطعات المصرية في فلسطين وسورية أيام اتساع الامبراطورية المصرية .

وكنا نود أن يبين لنا الكاتب مبلغ تأثير التوحيد المصري الذي ساد في عهد أخناتون في الفكر اليهودي . وهذا التأثير واضح في الأدب اليهودي في سفر « أيوب » و « الجامعة » و« المزامير » و« الأمثال » . ثم ذهب الكاتب إلى أن « الأمثال » مقتبسة من تعاليم أمنمحتب فعقد بينهما معارضة نفيسة ( ص ٢٤٦ وما يليها ) . وليت الناشر حرص على ألاَّ يتكرر بحث مسألة واحدة في موضعين : فقد تناول الأستاذ جردنر أيضاً موضوع تأثير « تعاليم امنمحتب » في سفر « الأمثال » ( ص ٦٨ ) .

وفي الدين المسيحي تركت مصر آثاراً لا تبيد . فكنيسة الاسكندرية تقرر أن خلق العالم كان في سنة ٥٤٩٨ ق . م . وهذا التاريخ مأخوذ من مانيتو الكاهن المصري الذي عاش في سمنود في القرن الثالث قبل الميلاد . والتقشف والرهبنة انتشرا من مصر الى العالم ، وكلمة « ناسك » في اللغات الاوروبية hermit مأخوذة من أصل يوناني معناه الصحراء — صحراء مصر . وأخرجت الاسكندرية كثيراً من آباء الكنيسة أمثال أوريجن وكلمنت الاسكندري وآريوس وأثناسيوس ، وفيها نبت المذهب الاجنوسطي.

وذهب الاستاذ جونز Jones في مقاله « مصر ورومة » إلى أن تأليه المصريين لملوكهم الذي ورثه البطالمة عن الاسكندر قد أخذ به سائر ملوك العالم اليوناني ومن بعدهم الرومان ، وإلى أنه لم يزُل بدخول الدولة الرومانية الشرقية في المسيحية ، بل كان هذا التأليه منشأ حق الملوك المقدس الذي انسحب إلى العصر الحديث من القرون الوسطى ( ص ٢٩١ ) . وعندنا أن حجج الأستاذ جونز مجتلبة بعض الاجتلاب ، وأن حق الملوك المقدس ما كان لينشأ لو لم تتفق الرواقية والمسيحية على إعلاء قدر الإنسان والارتقاء بهِ إلى المجد الإلهي في القرن الثاني بعد المسيح .

وبعد ، فالكتاب واحد من سلسلة ، وقد جاءَ الجزء الخاص بتراث مصر الاسلامية ضئيلاً في الكتاب ، لأن الموضوع قد درس من قبل في « تراث الاسلام » وهو منقول إلى لغتنا وليس هذا الكتاب الذي وصفناه هنا بمنقول . وهو صورة شريفة للتعاون العلمي الذي كان يسود العالم قبل هذه الحرب ، فقد اشترك في وضعه جمهرة من العلماء في مختلف الأقطار .

وهيب كامل

• التعليم والتربية في بريطانية • بقلم هيلس نقله الى العربية حسن احمد السلمان

١٤ ½ × ٢١ ½ سم ١٠٢ ص مطبعة المعارف بغداد ١٩٤٤

للانجليز طريقة خاصة في تربية أولادهم وتغذية ضمائرهم وتنشئة عقولهم. وذلك مما جعل لهم طابعاً متميزاً في أحوالهم وأعمالهم . ومن يقرأ هذا الكتاب يبلغ بعضاً من أسباب تلك الأعمال وأسرار تلك الاحوال . فإنهُ يبسط في وضوح أساليب التعليم وأنظمة التجهيز للحياة على اختلاف أنواعها ومراتبها من المدرسة الأولية العامة حتى الجامعة سواء الحديثة أو القديمة · ونحب أن نرفع الى أعين قراء العربية ما يتبين من سطور هذه الرسالة ، وهو أن أمر التربية والتعليم في بريطانية موكول إلى أصحاب الشأن ومراقب من جانب الرأي العام، فليس للحكومة اليد العالية في التشريع ولا التوجيه.

*[1]

• خواطر ساذج • بقلم خليل تقي الدين

١٢ ½ × ١٧ ½ سم ١٥٤ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٣

هي خواطر كان ينشرها الأستاذ خليل تقي الدين في مجلة « المكشوف » البيروتية مرة كل أسبوع بتوقيع « ساذج » ، يعبر بها عما يجيش في نفسه على أثر حادث أو مشاهدة أو اطلاع . وهو في بعض أغراضها ينفذ إلى الصميم بعين الأديب وفكر المتأمل وروح الشاعر المتصوف .

وقد شاء صاحب مجلة « المكشوف » الأستاذ فؤاد حبيش أن يخرج هذه الخواطر في كتاب ، فأحسن . وقد ذكر المؤلف في مقدمته أنهُ لما كتب خواطره كان أبعد الناس عن الظن انها ستضمُّها يوماً دفّتا كتاب . هذا وكان المأمول ان يرجع الى خواطره فينظر في بعضها ليساوي بينها جميعاً في الرتبة لأن فيها ما هو وليد حادث عابر .

*

• الشوامخ — ١ — امرؤ القيس • بقلم محمد صبري

١٦ × ٢٤ ½ سم ١١١ ص دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤

سلسلة بدأها الدكتور محمد صبري بكتاب في امرئ القيس ، وسيتلوه آخر في البحتري،

---

(١) النجم يرمز الى اسم من أسماء المتعاونين على إخراج الباب .

ولم يبين القاعدة التي جرى عليها في اختيار الشعراء ، والداعي إلى ايثار بعضهم دون بعض وهم كثر ، ولعله سيفعل في الجزء التالي .

وقد ساق في هذا الكتاب حياة امرئ القيس ووصفها على قدر ما يتيسر من أخباره وشعره ، ثم أورد رأي القدماء فيه ، وعقب برأيه هو . وخير ما في الكتاب عناية الكاتب بملكة التصوير والوصف التي امتاز بها هذا الشاعر ، وقد أنصفهُ ووفاه حقهُ ، وأحله محله ، وان كان قد غلا قليلا حين رفعهُ الى مقام لا يدانيه فيهِ أحد من شعراء الجاهلية ، جميعاً . على أن هذا لا يغض من قيمة بحثه على الجملة ، ولكن القصد خير وأولى على العموم .

*

• نداء القلب • بقلم: الياس أبو شبكة

١٢ ½ × ١٧ ½ سم ٦١ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٤

ديوان شعر خفيف في الحجم ، وكذلك هو في الموضوع والتخيل والتصوير والتمثيل . والظن أن مقطوعاته للغناء ، أو كأنها له ، نعني الغناء الهين الرخو . وهذا اللون من النظم افتتن به نفر من شعراء مصر وبعض شعراء لبنان وغيره . وهو يلذ عامة « السامعين » ولا سيما الأوانس العواشق . فهو يدور على الحب طبعاً ، وما يلتف على الحب من رشف خمر وطلب لهو ثم من بكاء وسهاد . وصاحب « نداء القلب » الذي يقول في سذاجة لطيفة « كان لي في الغرام قلبٌ بغي ( كذا ) » ص ٣٨ ، ينشدنا هذه القصيدة الخفيفة ( مع كراهة لفظ وارد في البيت الأول والأخير ، في الغناء خاصة حيث التقطيع ) :

يا حب عذِّبْ عذّبه فؤادي وكل ما بي من العذابِ
يذوب حبّـا على كتابي يفيض نور من الشعور
على مـدادي . . . . يا حب عذِّب عذّب فؤادي

ونحن نعلم أن في المهجر وفي لبنان اليوم لوناً آخر أدخل في الشعر ، يضم بدائع أو حسنات معنىً ومبنى . فقد قرأنا لايليا أبي ماضي ولشفيق معلوف ثم لميخائيل نعيمة . وقرأنا أيضاً مقطوعات لسعيد عقل ويوسف غصوب وكذلك لصلاح الأسير ولهذا الشاعر نفسه أيضاً .

*

# ٢ – الاستدراك

الحيوان * الجزء الخامس للجاحظ

بتحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون

١٧ × ٢٤ سم ٦٣٩ ص مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٩٤٣ *

— وذكر الكاتب الناشر بردي الجرادة والجندب فقال : هما رجلاه . والصواب أنهما جناحاه لأن البرد الثوب المخطط ، والمخطط في الجراد والجندب والفراش ونحوها : الجناح والجمع أجنحة .

— وجاء في متن الجاحظ ص ٥٦٢ : « يزعم أن الدبا يريد الخضرة ، ودونها النهر الجاري » . ونظن أن هناك سقطاً وهو « يريد الخضرة ولو حال دونها النهر الجاري » . على أن الكلام على ما هو مثبت قد يخرج أيضاً تخريجاً صحيحاً .

— جاء ذكر القفعة في ص ٥٦٦ وح ٣ — وهي كلمة استعارها منا الفرنسيون وسموها Cabas.

— وذكر النقل بالفتح ص ٥٦٦ وح ٤ وهو « ما يعبث به الشارب على شرابه ويتنقل به . ويقال أيضاً بالضم . وقيل الضم عامية » . اهـ . وعندنا أن الضم هو الأفصح لأنه معرب من اللاتينية Nucleus وهو كل ثمر ذي نوى يتنقل به عند الشراب .

— وقال المحرر في ح ١ من ص ٥٩١ : « فئام جماعات كثيرة . لا واحد له من لفظه » . قلنا والذي عندنا أن الفئام جمع فئة وأصل فئام : فئان بكسر الفاء وفي الآخر نون وهو أقدم جمع معروف في لغتنا . ومثل ذلك في العبرية فيقولون في جمع سروف : سروفيم وفي جمع كروب : كروبيم . ثم نقلوا الميم إلى النون كما أن أصل التنوين تمييم . وكنا قد وضعنا مقالاً ضافي الذيل في مجلة المشرق البيروتية قبل نحو خمسين سنة وهي ليست أمامنا لنحيل القارئ عليها . ومثل هذا الجمع القديم قول اللغويين في جمع أرض واوز وسنة : ارضون

* راجع الفصل الاول والثاني من هذا الاستدراك في عدد مايو ويونيو سنة ١٩٤٤

وأوزون وسنون إلى غيرها وهي كثيرة . فهذا الجمع أقدم من قولهم « أراضٍ واوزات وسنوات ».

— وجاء ذكر البواقيل التي واحدها البوقال في هذا البيت الوارد في ص ٥٩٧ :

فمن رأى النيل رأي العين من كثب فما أرى النيل إلاّ في البواقيل

قال المطرز الوشي : « البواقيل : جمع بوقال ، بضم الباء وهو كوز بلا عروة » .

وجاء في أساس البلاغة ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة سنة ١٩٢٢ م في الجزء ١ : ٥٨ :«وفلان لا يعرف البواقيل ، من الشواقيل : فالباقول ( كذا ) الكوب . والشاقول: عصا قدر ذراع في رأسها زجّ ، يشد اليها المسّاح [1] حبلة ، ثم يرزّه في الأرض ، ويتضبطها حتى يمد الحبل» وهو من واضح الخطأ . وذلك لأسباب منها : ان البوقال ذكره كثير من اللغويين ولم يذكر أحد الباقول .

ومنها : ان الغربيين استعاروها منا وقالوا : Bocal ولم يقولوا Bacoul .

ومنها : اننا استعرناها من اليونانية Boukalis ولو كان الفرنسيون استعاروها من اليونانيين لقالوا Boucal لا : Bocal.

ومنها : ان أساس البلاغة المطبوع في دار الكتب المصرية مشحون أغلاطاً شنيعة . ولما عارضنا المطبوع بالمخطوط المحروز في خزانتنا ، لاحظنا فيها أوهاماً يأسف لوقوعها فيه كل عربي غيور . وقد ذكرنا ذلك للعربي الغيور على اللغة العدنانيــة ، الدكتور منصور فهمي بك سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٤ ,فقال لنــا · إنهُ يعهد الينا إعادة طبعه بعد الحرب إن أبقانا الله بين الأحياء .

ومنها : أن الذي خدع الواقف على طبعه ، ظن ان مفرد البواقيل هو الباقول ، لمعرفته

(١) الذي في لسان العرب : « الشاقول : خشبة قدر ذراعين في رأسها زج تكون مع الزراع بالبصرة يحمل أحدهم فيهــا رأس الحبل ، ثم يرزها في الارض ويتضبطها حتى يمدوا الحبل » — وفي محيط المحيط : « الشاقول : خشبة تكون مع الزراع بالبصرة ، في رأسها زج كعقب الرمح . ومنه شـاقول البنائين والمهندسين والفلكيين . وهم يستعملون منه فعلا ، فيقولون : شقل المكان ونحوه أي اختبر ارتفاعه وانخفاضه. والاسم عندهم الشقلة . قيل : هو معرب شاقول بالفارسية » انتهى — قلنا : هي بالنبطية والمندائية —وهي لغة صابئة البطائح — شاقولا . وكانوا أهل زراعة وصيد سمك في العراق كله .

ان الشواقيل واحدها الشاقول ، فقاس الواحد على الآخر [١].

فهذه أدلة بينة على ان الأستاذ عبد السلام محمد هارون أخذ بالصحيح ونبذ القبيح .

— وجاء في ح ٢ ص ٥٩٩ : « التقنص : الصيد » والذي عندنا ان التقنص كالقنص وهو الصيد بالكلب وذلك أن الكلمة القنص منقولة من اللاتينية Canis أي الكلب أو أنها من اليونانية Kunègesia,as بمعنى اصطاد الصيد مستعيناً بالكلب [٢].

— وقال الموشّي في ح ٣ من ص ٥٩٩ : « والصعو » طائر أصغر من العصفور احمر الرأس، وهي بلغة العلم الاوربي Regulus ومنهُ ما يسمى : Goldcrest or Kinglet قلنا : لو قال الاستاذ أصغر من الدوريّ، أو أصغر من العصفور الدوري لكان أقوم، لأن العصفور في اللغة يطلق على كل طائر دون الحمام .ولهذا يعدّ العصفور نفسه عصفوراً. وقول الاستاذ : « بلغة العلم » الاوربي غير موافق للمصطلح المشتهر، وكان الأحسن أن يقتنع بقوله : « بلغة أهل العلم » نابذاً « الاوربي » نبذ النواة . لان اللفظ العلمي لا يعرفهُ الاوربي فقط ، بل الأميركي ، والأفريقي ، والآسوي ، والاسترالي . وقوله : « بلغة العلم » صحيح بخلاف من أنكر هذا التعبير جهلاً لاسرار العربية .

وقوله Regulus ( وهو اسم عام علمي يشمل جميع صغار الطويئرات المغرِّدة ) ثم قوله Kinglet أو Goldcrest وهو اللفظ الانكليزي لنوع من جنس المليك أي Regulus ليس باسم يميزه كل التمييز عن اسم الجنس .

ثم ان الاستاذ عاد فاستعمل العصافير بمعنى الدوريات في كلامه على الدُخل في الحاشية (٦) من تلك الصفحة فقد قال :

— « الدخل» بضم الدال وتشديد الخاء المفتوحة : طير صغار أمثال العصافير تأوي الشجر

---

(١) ومن الادلة المبينة لخطأ اساس البلاغة : أن الطبعة المصرية المذكورة لم تذكر ( الشاقول ) في مظنتها ولا في أي موطن آخر منها .أما نسختنا الخطية المجودة فقد ذكرتها في مادة ش ق ل. وقد قيدها أيضاً جميع أرباب الكتب لمتون اللغة غير المختصرة

(٢) أن العرب ميزوا بين الصياد والقناص والعركي فالاول يعني كل من يأخذ حيواناً بحيلة أو بوسيلة من الوسائل . — والثاني صياد الحيوان مستعيناً بالكلب— وأغلب ما يكون هذا الكلب من جنس السلوقي وهو الضرو والضري —وأما العركي— فصياد السمك ولم يشتقوا اسماً لمهنته ، فلم يقولوا : عراكة ولا عرك ولا أي لفظ آخر ، كما انهم لم يشتقوا منه فعلا يدل على ذلك

الملتف، وهي أنواع كثيرة كلها غرّيد، يعرف كثير منها عند عامة أهل مصر بالزريقة، وهو بالانكليزية Sylvia or Warbler » فنزيد على ما قلنا في الشارة السابقة أن Sylvia كلمة لاتينية معناها: دغلية أي أنها تأوي الى الدغل ولعلّ الدخل العربية مشتقة من الدغل، ثم وزنت وزن صيغة مبالغة، لأن موطنها الدائم الأيك والحرج والغابات، أما الانكليز فلا يعرفون هذه الكلمة الرومية، إلاّ العلماء منهم أرباب الثقافة العالية — وأما اللفظ الانكليزي لهذا الطويئر فهو Warbler ومعناه المرنم والمغني والمغرد، واسم هذا الطويئر بالفرنسية Fauvette.

ومن أسمائها العربية: الشوّالة والدخناء والكحلاء إلى غيرها.

وقال الاستاذ في ح ٣ ص ٦٠٤: « الروح النفس، يذكر ويؤنث » — قلنا: يذكر ويؤنث إذا أريد بهِ ما تقوم به حياة الجسد. أما إذا أريد بهِ العقل والفكر والوحي إلى ما ضاهى هذه المعاني فلا يؤنث البتة. فالروح الأمين عند المسلمين لقب جبريل، ولا يقال البتة: الروح الأمينة. ويقول النصارى: الروح القدس ولا يقولون: الروح القديسة ولا القدوسة ولا القدسة ولا ما يداني هذه النعوت من الألفاظ المؤنثة، للدلالة على الاقنوم الثالث عندهم.

٧ — الخلاصة وهي الخاتمة: يتحقق القارئ مما كتبناه هنا أن الأستاذ عبد السلام محمد هارون هو من أحسن من تولى نشر كتب الأقدمين، فانه صرف زمناً طويلاً في مطالعة الأسفار على اختلاف موضوعاتها، لابراز نص الجاحظ بأبهى حلة وأصح عبارة، نابذاً كل ما أدخله فيه النساخ والوراقون من التصحيف والتحريف، والحذف والسخف، والزيادة والنقصان، حتى أصبح هذا الكتاب في جميع أجزائه من أصح وأفصح ما برز في المطابع المصرية منذ نشأتها إلى يومنا.

فنحن نشكره باسم العرب جميعهم ونتمنى أن يتمم ما شرع فيه ويوفقه الله لاخراج سائر مؤلفات الجاحظ، وأثابه أحسن ثواب.

الأب أنستاس ماري الكرملي

من أعضاء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

## • مجموع رسائل الجاحظ •

نشره : باول كراوس ، ومحمد طه الحاجري

٢٤×١٧ سم ١٢٤ ص ومقدمة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٣

هذا المجموع النفيس يشتمل على أربع رسائل :

أولها : (رسالة المعاد والمعاش) في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم . كتب بها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد. وهي رسالة كبيرة تقع في ٣٦ صفحة يقول في صدرها : « ولم أزل — أبقاك الله — بالموضع الذي قد علمتَ : من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها . . فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش ، أصف لك فيه علل الأشياء ، وأخبرك بأسبابها . . . »

ثم يمضي في رسم سياسة حكيمة لمن صنع له هـذه الرسالة . وتتجلى لنا دقة الجاحظ واستكناهه لخفايا الغرائز في فرقه بين الغضب والحزن . ثم يحمل حملة شعواء على تلك الخلة التي فرّقت بين الأمم والأجيال في كل العصور ؛ وهي المفاخرة بالأنساب . ويسلك بعد ذلك مسلكاً دقيقاً إلى خطإ خلقي آخر يقع فيه كثير من الناس ، فيقول :

« ألاَّ يحـدث لك انحطاط من حطّت الدنيا من إخوانك استهانةً به ، ولا لحقّه إضاعة ، ولِما كنت تعلم من قدره استصغاراً . بل إن زدته قليلاً كان أشرف لك ، وأعطف للقلوب عليك . . ولا يحـدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذللا ، وإيثاراً لهُ على نظرائه في الحفظ والاكرام . بل لو انقبضت عنه كان مادحك أكثر من ذامّـك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك » .

وثانيها : (رسالة كتمان السر وحفظ اللسان) وتقع في ٢٤ صفحة ، ولا تقل في الروعة عن سابقتها ، ويتجلى فيها اقتدار الجاحظ على الاحتجاج لما هو بسبيله .

هو يتحدث مثلاً عن الدوافع الملحة التي تدفع بعض النـاس أن يستعلنوا ما انطوت صدورهم عليه من السر ، ويصور ذلك في لباقة القصصي الماهر ، إذ يقول : « وكان الأعمش سيئ الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يضجرونه ويسومونه نشر ما يجب طيه عنهم ، فيقبل على شاةٍ كانت له في منزله ، فيحدثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : ليت أني كنت شاة الأعمش [1] » .

(١) انظر ثمار القلوب للثعالبي ص ١٣٤

وثالثها: ( رسالة في الجد والهزل ) وهي في ٣٨ صفحة ، يسوقها الى محمد بن عبد الملك ابن الزيات . وهي كعنوانها أمشاج من فنون في الجد وأخرى في الهزل . ويسري فيها مثل الروح التي سرت في رسالة التربيع والتدوير .

ومما فيها من الطرائف عقده موازنة بين قراءة المستلقي وقراءة الجالس ، ويحتج للأولى بقوله في الكتب : « ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ، ولا أنظر فيها وأنا منتصب ، استظهاراً على تعب البدن ، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالي ، وإذ كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب ، ولأن ذلك أبقى على نور البصر ... »

ورابعها : ( رسالة فصل ما بين العداوة والحسد ) . تقع في ٢٦ صفحة . يقول في أولها : « أصحب الله مدتك بالسعادة والسلامة ، وقرنها بالعافية والسرور ، ووصلها بالنعمة التي لا تزول ، والكرامة التي لا تحول . هذا كتاب — أطال الله بقاءك — نبيل بارع فصل فيه بين الحسد والعداوة ، لم يسبقني اليه أحد » .

وصدق الجاحظ ، فإن أحداً لم يسبقه إلى هذه الدقة البالغة في تمييز هذين الطبعين ، وإن أحداً لم يكتب بعده هذا المعنى ، في مثل تلك القوة والبراعة .

١ — هذه الرسائل الأربع لم يسبق نشرها من قبل . فللأستاذين الناشرين فضل السبق إلى نشرها ، وتمكين الأدباء من تناول ما فيها من فضل بارع وخير وفير .

٢ — وقد سلك الناشران منهج النشر العلمي الصحيح ، وحرصا أشد الحرص على أمانة النقل وصدق الرواية عما بأيديهما من أصول . وهذا مبعث رضا ومثار تقدير لكل من يطالع هذا المجموع من رسائل الجاحظ .

٣ — وقد استعمل الناشران طريقة استحدثاها في التعليق على النصوص ، وأعدّا لذلك أهبة لا يستهان بها من الأقواس والمعقفات والنقط والرموز والنجوم والاصطلاحات . وهي بلا ريب ضرورية للتعليق والتحقيق . ولكنهما ربطا الجواد خلف المركب ، فظهر في طريقتهما ( ولاسيما النجوم ) كثير من العسر الذي لا يتغلب عليه إلاّ حشد قوى الدربة والرياضة . كما خالفا في ذلك الطريقة المألوفة التي جرى الناشرون عليها ، واستساغها جمهور القارئين والباحثين . ولعلّ من عذرهما في ذلك رغبة التغلب على مشكلة الورق . ولكن ذلك لا يقوم عذراً إزاء ما ابتدعا من صعوبة .

٤ — خلت هذه الرسائل من الشرح ، ولغة الجاحظ الذي كان يتنسم هواء القرن الثالث الهجري ، فيها إشارات وعبارات ومثل وشعر يخفى كثير منه على القارئ من الخاصة ، فما

بالك بالوسط ؟ الحق أننا في عصر يفتقر أهله أشد الافتقار إلى من يحسن صلتهم بتراثهم القديم ، وينهج لهم السبيل اليه .

٥ — في الرسائل كثير من الأعلام ، أعلام الناس والبلدان . وهي بحاجة إلى تحقيق وترجمة توضح الجو للقارئ ، وتسعفهُ بفهم النصوص فهماً كاملاً . ومع ذلك لم يظفر علم من أولئك بترجمة أو بتحقيق . ومما جاء محرفاً منها : « غيلان بن خرشة الضبي » ، ( ص١١٧ ) إذ كتب محرفاً برسم : « خرشنة » . وغيلان هذا كان أعرابيًّا جافياً به لوثة ، وكان في أيام زياد ، وله معه حديث طويل سرده ابن قتيبة[١] . وروى أبو الفرج[٢] أن غيلان بن خرشة الضبي دخل إلى قوم من إخوانه وعندهم قينة ، فجلس معهم وهو لا يدري فيمَ هم حتى غنت القينة :

طبيبيَّ داويتما ظاهراً فمن ذا يداوي جوى باطنا

فغضب ووثب وهو يقول: السوط ـ وربِّ غيلان ـ يداوي ذلك الجوى ! وخرج من عندهم. و « خرشة » بالتحريك . أما خرشنة فاسم لبلد قرب ملطية من بلاد الروم ، غزاه سيف الدولة ، وذكره المتنبي وغيره في شعره .

٦ — خلت هذه النشرة من الفهارس . ولسنا بصدد أن نبين قيمة الفهارس بعد ما وضح للباحثين ضرورتها ، وشدة الحاجة اليها . وليست المائة والأربعون صفحة بالقدر الهين الذي يستغنى فيه عن الفهارس .

٧ — تضمنت الرسائل آيات قرآنية كثيرة . وقد جرى الناشرون المحدثون تبعاً للسلف على تمييزها عن غيرها من النصوص بمميز يظهرها. ولكننا وجدنا الآيات الكريمة تجري مع النص لا يفصلها منهُ فاصل . بل إن بعض الآيات قد جاء متداخلاً في البعض الآخر ، كما في ص١٨ س ١٤ — ١٥ : « خذوا حذركم » « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » رسمت هاتان الآيتان على هذا الوضع : خذوا حذركم ولا تلقوا بأيديكم من التهلكة . مع أنهما من سورتين مختلفتين. وكان أولى من التنبيه في أسفل الصفحة أن يفرق بينهما في الرسم . وقد وردت هذه الآية التالية محرفة : «وتحبون المال حبًّا جمًّا » إذ رسمت بلفظ « ويحبون » بالياء التحتية . وهو سهو عظيم ما كان أجدر بالناشرين ألاَّ يقعا فيه . وقد أجمع القراء على لفظ التاء الفوقية المثناة لم يشذ منهم أحد[٣] .

بذل الناشران جهداً موفقاً في تصحيح النصوص، ونترك الكلام لهما يقولان : « ومع

---

(١) عيون الاخبار ( ٣ : ٢٤٤ — ٢٤٦ ) (٢) الاغاني ( ١٢ : ٩٢ طبع الساسي )

(٣) انظر سورة الفجر في إتحاف فضلاء البشر ، والقراءات الشاذة لابن خالويه

ذلك بقيت في هذه الرسالة مواضع على فسادها ونقصها ، لم نوفق إلى تصحيحها ، ولم نجد العون على إقامة عوجها في أصل آخر ، أو قراءة أخرى . ولكنا آثرنا أن نظهر هذه الرسائل على ما فيها مما فات طوقنا ، فذلك خير من أن تظل حبيسة مقيدة . وما يزال أملنا كبيراً في أن يتاح لنا من الوسائل ما يمهد السبيل إلى تصحيحها ، أو أن نجد من نقد الناقدين ما عسى أن يجلو هذه المواضع المغشاة فيها »[1] .

وهذه المواضع التي أشار اليها كثيرة حقاً ، ولعلي استطعت أن أجلو بعضها :

ص ٦ س ٥ : « اتفقت عليه محاسن الأمم » والصواب : « محاب » جمع « محبة » ويؤكد هذا التصحيح قول الجاحظ في ص ١١ س ١٦ : « وهاتان خلتان داخل فيهما جميع محاب العباد ومكارههم » .

ص ١٣ س ٦ : « لموافقتها » صوابه : « لموافقتهما » .

ص ٢٧ س ١٤ : « أنفس العقدة » وجهه : « العُقَد » جمع عقدة ، وهو ما يعتقده المرء من مال ونحوه .

ص ٣٢ س ١٦ : « فلا تستقبلها بالتضجع وتغبين الرأي » أما التضجع فهو التقعد في الأمر وعدم القيام به . وأما « تغبين » فتحريف ، صوابه : « تغبيب » والمراد به الاهمال والتأخير ، مأخوذ من غب الورد : أن تشرب الابل يوماً ، ويوماً لا . والمغببة : الشاة تحلب يوماً وتترك يوماً . أما « التغبين » بالنون في الآخر ، فلم تعرفه اللغة .

ص ٣٢ س ١٨ : « فان الاعتذار يكسر حمّى اللائمة » . لا يقال كذلك . وإنما هي « حميّا اللائمة » وحميا كل شيء : شدته وحدته . وانظر ص ٢ س ٥ .

ص ٣٥ س ١٠ : « إن ضبطت ذلك وقومت عليك نفسك » الصواب : «قومت عليه »

وفي ص ٣٥ س ١٤ : « والمولّي لكل إحسان» بتشديد لام المولى . الوجه « المُولي» من : أولاه أنعم عليه . ومنه قول أبي الطيب :

وكل امرئ يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العزَّ طيب

ص ٣٧ س ٨ : « ولا يأنف شريف أن يقصر دونك ، ولا يخشع عالم أن يأخذ عنك » صوابه : « ولا يخشى عالم » .

ص ٣٨ س ١٩ : « لأنه يزم اللسان ويخطمه ، ويشكله ويزبنه » ليس للزّبن هنا وجه فالزبن : الدفع . وإنما المراد هنا التقييد والحبس . والوجه : « يربثه » ربثه يربُثه ، بالضم : حبسه .

---

(١) انظر صفحة (ي) من المقدمة .

ص ٣٩ س ٩ : « واستعمل فضول النظر فدعت إلى فضول القول » ليس كذلك ، إنما هو تعقيب على ما قبله ، صوابه : « واستعمال فضول النظر يدعو إلى فضول القول » وانظر ما في ص ٥٣ س ٧ .

ص ٣٩ س ١١ : « وجشَّمه مؤونة الصبر على ستر الحلم والحكمة » الحلم لا يُتكلف ستره ، وإنما هو : « العلم » . ومما يؤيد هذا التصحيح قوله في الصفحة نفسها س ٤ : « وتنتجه الحكمة والعلم » .

ص ٣٩ س ١٩ : « ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق ، فوجب عليه إثم الانفاق منها » الصواب : « فيها » أي في أبواب الباطل والفسق .

ص ٤٨ — س ٣ — ٤ : « الوُلوع بكل ممنوع ، والضجر بكل محصول » . ضبطت واو « الولوع » بالضم ، وصوابها الفتح . كما أن كلمة « محصول » محرفة ، والوجه : « مبذول » .

ص ٤٩ س ٥ : «وقضى ذلك الأرب وطر» وصوابه :« وقضى من ذلك الأرب وطرا ».

ص ٥١ س ١٤ : « تنقب العوام عن أسرار الملوك » وضبطت : « تنقُّب » بتشديد القاف المضمومة . صوابه : « تنقيب » مصدر « نقب عن الأخبار وغيرها بحث أو أخبر بها [(١)] »

ص ٥٥ س ١١ : « ولو حاجَّه فيما ادعى ، ووقفه لانقطع » . إنما هي : « وواقفه » . والمواقفة : أن يقف معه في حرب أو خصومة [(٢)] .

ص ٥٩ س ١٢ : « كلمة غارت فجنت حربا عوانا » الصواب : « عارت » بالعين المهملة . وفي حديث عثمان « أنه كان يشتري العير حكرة ثم يقول : من يربحني عقلها » قال ابن منظور : « العير الابل بأحمالها . فعل من عار يعير إذا سار » . وقال أيضاً : « وقصيدة عائرة سائرة » و « رجل عيار كثير المجيء والذهاب في الأرض » .

ص ٦٣ س ٧ : « يحذرك مُصارع البغي » الوجه : « مَصارع » بفتح الميم .

ص ٦٩ س ٣ : « وتقريظ الثمر » صوابه : « التمر » بالمثناة . ومبنى الكلام كله على الزرع والنخل [(٣)] .

ص ٦٩ س ٣ : « تميزوا هذا التمييز » إنما هو : « التميز » .

---

(١) انظر اللسان ( ٢ : ٢٢٦ — ٢٢٧ ) (٢) انظر الحيوان ( ١ : ٩٢ س ٨ / ٤ : ٩٢ س ١٠ ) .
(٣) انظر السطر الاول من هذه الرسالة ص ٦١

ص ٦٩ س ٥ : « ومتى صار الحكم للنعجة نسبا وللكرمة صهرا » . ليس للنعجة هنا مقام. إنما هي : « للنخلة » والكلام في المفاضلة بين الزروع[1]

ص٦٩ س ١٣ « وليس هذا أول شرك نصبته ، ولا أول كيد أرغته » . ليس كذلك بل هو : « ولا أول صيد أرغتهُ » أراغ الصيد يريغه : طلبه .

ص ٧٠س١٥ :« وربت كلمة تدور مع خلتها ، وتنقلب مع جارتها ، وبارادة صاحبتها». إنما يقول الجاحظ :« وبإزاء صاحبتها ».

ص ٧٥ س ١٠ — ١١ : « وإذا تطاول الكد رسخ الزّهد » الصواب :« رُتِج الذهن» أي أغلق . ولا وجه للزهد في هذا المقام .

ص ٨١ س ١٥ : « فلعلّي كنت أعيش بالرفق . وأتبلغ بحشاشة النفس » الصواب : « بالرَّمق » . والرمق ، بالتحريك : بقية الحياة ، كما أن الحشاشة أيضاً بقية الحياة . ومنهُ قول امرئ القيس[2] :

وما المرء ما دامت حشاشة نفسه بمدرك أطراف الخطوب ولا آل

ص ٨٣ س ١٤ : « والغضبان يشغلهُ الغضب ، ويغلي بهِ الغيظ » الصواب : « يشعله » من الإشعال. اعتبر هذا بقوله ص ٨٤ س١ : « واحترق حتى لا يفهم » وقوله س ٧ منها : « وأذكى ناره واشتعل » .

ص ٨٤ س ٤ :«وليس يصارع الغضب أيام شبابه وغرب نابه شيء إلاّ صرعه » . ليس يقولها الجاحظ ، إنما هي : « إبان » أي وقت .

ص ٨٧ س٧—٨ : «فإني لا أعرف إلاّ مجازها في الجملة، ولا أحق خاصتها على التحصيل» الوجه :« على التفصيل » وهو ما يقابل:« الجملة ».

ص ٩١ س ١٥ : « وطبيعتك هي المسكنة » صوابه « المسكة » ، والمسكة ، بالضم : ما يتمسك به . وتقابل بها : « الحجة » في السطر السابق .

ص ٩٢ س ٢ : « بما يشيع لك من اسم المتسرع ، وبما تضاف اليهِ من سخف المتبرع » إنما هي « سخف المترع » بتاءين . وفي اللسان : « تترع إلى الشيء : تسرع . وتترّع إلينا بالشر تسرع . والمترع : الشرير المسارع إلى ما لا ينبغي لهُ» .

ص ٩٢ س ٣ : « تكذب قولي ، وتفسد خبري » الوجه : « وتفند خبري » والتفنيد : التكذيب . وفي قول الله : « إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون » .

---

(١) انظر السطر الاول من هذه الرسالة ص ٦١. (٢) ديوانه ص ١٧ طبع هندية ١٣٢٤

ص ٩٢ س١١ : « لاستواء الخواطر ، ولا يقافها على الارادة » . إنما هي : « ولا تفاقها »
ص ١٠٣ س ٥ : «فغلق المأمون واحتدم» . الصواب : «فقلق» بقافين، كما في الأصل . والقلق : الانزعاج وهو يجري مع الهياج والاضطرام الواردين في النص . وكلمة : « فغلق » التي جاء بها الأستاذان جميلة ، وهي بمعنى غضب واحتد . ولكن ليس ما يدعو إلى اجتلابها .
ص ١٠٣ س ٧ : « يدب عن كتابي » . هي : « يذب» بالمعجمة .
ص ١٠٥ س ١٤ « والعداوة « تخلق وتمل » . إنما هي : « وتبلى »
ص ١٠٧ س ١ : « وحمه بلخ » باهمال الكلمة الأولى كما في الأصل . هي : « وناحية بلخ »
ص ١٠٧ س ٤ : « وانتفض انتفاض الملَّس المطور » . صوابه : المغلَّس » . والتغليس السير في الغلس أو ورود الماء فيه . وما يمطر فيه من الحيوان والطير يكون ذلك أشد لبرده وانتفاضه .
ص ١٠٧ س ٣ : « أخذته الأرَباء وتنفس الصعداء » إنما هي « الأرْباء » جمع ربو . والربو : البُهر والتهيج وتواتر النفَس .
ص ١٠٨ س ٢ — ٣ عند ذكر الكتب : « ولا يبلغ أقصى علمه أمانيها » . الصواب : « ما فيها » وليس للكتب أماني .
ص ١١٠ س ١٠ : «وسبباً يستدعي بهِ ألبابهم » . لا يقال كذلك . هي : « يسترعي» بالراء . وجاء في س ١٢ : « استدعى » صوابها : « استرعى » . وهو مثل قولهم : أرْعني سمعك، وراعِني سمعك .
ص ١١١س ١٥ :«من لطيف ما يستدعى به الصدْق ».صوابه:«يسترعى به الصديق».
ص ١١١—١١٢ :« لما ساغ له في الناس وانتشر منه ».إنما هي: « لما شاع له في الناس »
ص ١١٧ س ١٤ : « وإن اكتسى ثوباً نسيساً » . وليس للنسيس هنا وجه . والصواب: « ثوباً نفيساً » .
ص ١١٧ س ١٥ : « وإذا تخرق في غناه وقرته » كذا وردت بالقاف ، وإنما هي : « وفرته » بالفاء بمعنى تركته ولم أتعرض له .
ص ١١٨ س ٥ : قول النابغة الجعدي :

وليس بمعروف لنا أن نردها صحاحاً ولا مستنكراً أن نعفرا

جاءت « نعفرا » بالنون بعدها عين وفاء . وهو تحريف . والصواب : « أن تعقَّرا » بالتاء بعدها عين وقاف . وقد ورد البيت في مراجع كثيرة [1]

(١) انظر منها جمهرة أشعار العرب ١٤٨ طبع بولاق ، والاصابة ٨٦٣٣، والخزانة ٣ : ١٥٢ طبع السلفية ، وأمالي المرتضى ١ : ١٩٤

ص ١١٨ س ١٨ (للفِنْد الزِّمّاني) : فلما صرخ الشر وأمسى وهو غرثان
وهو تصحيف عجيب، إنما هو : فلما صرَّح الشر فأمسى وهو عريان
صرح الشر : بدا وانكشف، وعريه مثل لظهوره ووضوحه. والبيت من مقطوعة حماسية مشهورة، هي ثاني مقطوعة في حماسة أبي تمام [1].

ص ١١٨ س ٢١ : «كفم الزق وها» الصواب : «وهي» بالياء.

ص ١١٩ س ١٥ قول الراجز : «ومن عداء يتقي بالراح» هذا تحريف. والصواب : «ومن عذيد» كما رواه الجاحظ نفسه في الحيوان وفي البيان [2].

ص ١١٩ س ١٩ : «بقاقية تقرى العروق فتحمم» إنما هي : «تفري» بالفاء، أي تقطع.

ص ١٢٠ س ٩ : «وتتابعوا عليّ تتابع الدبر على مشتار العسل» الصواب : «تتايعوا» و«تتايع» بالياء المثناة التحتية قبل العين. وفي الحديث [3] : «ما يحملكم على أن «تتايعوا» في الكذب كما يتتايع الفراش في النار». والتتايع : التهافت والإسراع.

ص ١٢١ س ٤ : أما الحوادث من خليلك مثل جندلة المراجم
إنما هي : «أبقى الحوادث». والأبيات قالها معاوية أو تمثل بها في قصة طريفة رواها ابن قتيبة والقالي والحصري [4].

هذا بعض ما بدا لي من غوامض هذه المجموعة، ومنعتني خشية الاطالة أن أتم استيعابه

عبد السلام محمد هارون

# ٣ — التعقيب

## تبيين

قرأت استدراك الأستاذ أحمد محمد شاكر في مقتطف مايو ١٩٤٤ على ما جاء في مقالي «دار الحديث النورية». فشكرت له عنايته وحسن تدقيقه لاهتدائه الى خطإ ومحال وقعتُ فيهما.

أما المحال فهو أن أروي عن الذهبي حوادث جرت في سنة ٧٩٩ وهو الذي قد توفي سنة ٧٤٨ على قول أكثر مؤرخيه، وهو الصواب، أو سنة ٧٥٣ على قول ابن إياس (بدائع الزهور ج ١ ص ١٩٩) ودائرة المعارف الاسلامية في أثناء ترجمتها للذهبي.

(١) حماسة أبي تمام (١ : ٦) وانظر حماسة البحتري ٧٤ وأمالي القالي (١ : ٢٦٠) والاغاني (٢٠ : ١٤٣) (٢) الحيوان (١ : ٣٥١/٣ : ٧٩ — ٨٠) والبيان (٣ : ١٩٠) طبع سنة ١٣٤٥ (٣) اللسان (٩ : ٣٨٧) (٤) عيون الاخبار (٣ : ٥٠) والامالي (٢ : ٣١١) وزهر الآداب (١ : ٤٦).

وأما الخطأ فهو أن أقول أن التتار دخلوا دمشق سنة ٧٩٩ مع أنهم قد دخلوها سنة ٨٠٣ ، وهذا أمر معروف مشهور ، ذكره ابن العماد والسخاوي وابن تغري بردي ، وابن طولون الصالحي وابن إياس وكردعلي ، وغيرهم كثير . ولكن الحادث الذي نقلناه عن الذهبي هو حادث جرى سنة ٦٩٩ تسع وتسعين وستمائة — وقد كتبت الستة ، سهواً ، سبعة — فقد ذكر الذهبي في دول الاسلام ( المطبوع بحيدر آباد سنة ١٣٣٧ — ج ٢ ص ١٥٧ ) ما نصه : « ثم دخلت التتار دمشق وشرعوا في المصادرة والعسف ونهبوا ( نهبوا ) الصالحية وسبوا أهلها وأتعبوا الخلق ووقع الحريق من صاحب سيس والكفرة فأحرقوا جامع العقيبة وعدة أماكن وحاصروا القلعة ودار السعادة ودار الحديث والعدلية والنورية وخربت تلك الناحية كلها وهرب أهلها وبقي باب البريد اصطبلاً فيه الزبل نحو ذراع . »

دمشق أسعد طلس

◆

## ردّ

وردت الينا كلمة من الاستاذ محمد عبد العزيز مرزوق ردًّا على الاشارة التي نشرت في مقتطف يونيو الى رسالته « الاسلام والفنون الجميلة » . فجاءَ في الرد أن صاحب الاشارة لم يناقش آراء الرسالة ، وأنهُ أخذ عليهِ نشر صور منقولة عن كتب في الفن طبعت من قبل في مصر من دون أن يذكر تحت كل صورة المصدر المنقول عنهُ ، فهذا في رأي المؤلف مباح لأنهُ « من الاسراف حقًّا ألاَّ يستفيد الانسان من كليشهات أنفقت الدولة على صنع معظمها طالما انها تكشف عن الفكرة بجلاء فضلاً عن انهُ ذكر في احدى صفحات الرسالة أسماء الكتب التي نقل عنها الصور » .

والجواب عن هذا عند صاحب الاشارة انهُ ما أراد سوى التعريف بمضمون الرسالة ولم يرَ مجالاً لمناقشة الآراء وهي في نظره على حسن عرضها ليست على خطر ولا جدة . وأما قصة « الكايشهات » أي أصول الرسم المنقولة عن كتب أخرى فالرأي عند صاحب الاشارة انهُ لابد من ذكر المصدر تحت كل صورة فلا يكفي الايماء في هامش بذيل الكتاب. ثم ليس لانفاق الدولة دخل في هذا التدقيق من جانب المؤلفين ، إذ الفضل للمنقب عن الرسم والمختار له لا للدولة ،وهي هنا تقوم مقام ناشر من الناشرين . وكيفما كانت الحال فليس من المرغوب فيه — عامة — أن تستغل رسوم أنفقت عليها الدولة في كتاب من الكتب ليس مما تقوم الدولة على طبعه ونشره . *

◆



# باب الأخبار العلمية

## تأثير النيكوتين حقناً يعادل تأثيره تدخيناً(١)

### حقن النيكوتين تحت الجلد

يتخذ تدخين الأفيون وسيلة لتعاطي المورفين . كما يتخذ تدخين التبغ وسيلة لتعاطي النيكوتين . ولمعرفة مبلغ تأثير عقار النيكوتين في الجسم عني الأستاذ جونسون(٢) بتجربيه حقناً تحت الجلد في خمسة وثلاثين متطوعاً بمقادير معروفة للموازنة بين أثره فيهم وماهو معروف من أثره بالتدخين . فقد حقن سبعة منهم بجرعة واحدة أو حقنة على حين حقن الآخرين بمقادير تختلف بين جرعتين وخمس وثلاثين جرعة . وكان لحقن شخص لا يدخن بجزء $\frac{1}{٥٠}$ من القمحة تأثير من العسير وصفه بأكثر من أنهُ يماثل التأثير الذي ينشأ عن التدخين ؛ فكانت تبدو على المحقون الأعراض نفسها التي تبدو على المدخن الجديد كالدوار والغثيان والدوخة والصداع والاغماء وهي أعراض من السهل تمييزها وإرجاعها إلى فعله الخاص به دون سواه . وفضلاً عن ذلك يقول المدخنون الذين حقنوا بالنيكوتين على اختلاف مزاجهم أنهم يشعرون بلذة بعد الحقن به بقليل كما لو كانوا يدخنون أنواع اللفائف التي اعتادوا تدخينها من زمن طويل .

وإذا حقنوا بجرعات متتابعة جرياً على نظام تدخينهم عزفوا عن التدخين فترة أطول من الفترة التي كانوا يقضونها بلا تدخين .

وأما غير المدخنين فيصفون شعورهم بعد الحقن به بأنهُ شيء غريب مزعج وأنهُ يماثل شعور المبتدئ بالتدخين، ولا يحس بهذا الشعور إلاَّ بعد مضي خمس دقائق على حقنه . ويستمر هذا التأثير والشعور نحو خمس عشرة دقيقة . ويشعر المحقون بالنيكوتين بألم في موضع الحقن وربما امتدَّ الألم من مكان الأبرة إلى طرف الفخذ أو الساعد المحقون ثم يتلاشى بعد زمن قصير . ويقول الأستاذ إنهُ حقن شخصاً لا يدخن بمقدار $\frac{1}{٤٠}$ من القمحة فظهرت عليه أعراض التسمم في حين لم يتأثر المدخن المدمن من حقنه بمقدار $\frac{1}{٢٠}$ من القمحة بعد مرور ساعة على تدخين لفافته . وفي هذا دليل على تأثير العادة وطاقة الجسم من تعود كمية النيكوتين بالتدخين .

### أعراض التسمم

وأعراض التسمم تتجلى في دوار عنيف وسرعة في ضربات القلب وغثيان وقيء وإغماء . ومع أن نسبة النيكوتين في التبغ تختلف بين نصف الواحد وخمسة في المائة ونسبة ما حقن منه في الوريد بين $\frac{1}{٥٠٠}$ و $\frac{1}{٧٥}$ من القمحة ، فان تأثيره في الحالين

---

(١) من محاضرة ألقاها الدكتور شخاشيري في مؤتمر الجمعية الطبية الملكية المصرية بدار الحكمة في ٧ ديسمبر ١٩٤٣

(٢) عن مجلة اللانست الطبية الانجليزية

كان واحداً . أي أن ما يشعر به المدخن عند استنشاقه نفساً من الدخان يماثل ما يحس المحقون به من تأثير . وهذا يؤيد ما تقدم وهو أن ما يحدثه التدخين في نفس المدخن من تأثير يعادل ما تحدثه حقنة منه تحت الجلد بمقدار $\frac{1}{٥٠}$ من القمحة في المحقون نفسه . وفي الغالب يحس بأثر النيكوتين بعد تعاطيه بخمس عشرة ثانية سواء كان حقناً أو تدخيناً . ويستمر ذلك الأثر من دقيقة إلى بضع دقائق . وأعطى الأستاذ النيكوتين بالفم بنسبة $\frac{1}{٢٥}$ من القمحة في مائة وخمسين جراماً من الماء فكان له بهذا المحلول طعم التبغ وخصائصه . وأعطاه في محلول آخر ولكن بنسبة أعلى فلم يسغ مذاقه وكان طعمه حريفاً مزعجاً . ويقول الأستاذ إن في تدخين لفافة كاملة ما يعادل تأثير $\frac{1}{١٠}$ من القمحة لو أخذ بالفم .

أستاذ يفضل الحقنة على التدخين

وقد تناول الأستاذ نفسه ثمانين حقنة من النيكوتين بنسبة $\frac{1}{٥٠}$ من القمحة بمعدل ٣ في اليوم مع قليل من اللفائف فغدا بعد هذا الاختبار الطويل يفضل الحقنة على تدخين اللفافة . ويقول إنه شعر بشيء ينقصه عند ما أمسك عن حقن نفسه به . ويقول إنه أعطى النيكوتين سيدة مصابة بمرض عصبي دون علمها، وان المريضة قالت له عندما توقف عن إعطائها إياه إنه كان أشد وطأة في تأثيره فيها من الدواء « فينوبار بيتول » الذي كانت تتعاطاه من قبل بنسبة قمحة في كل جرعة ، وكان النيكوتين مع ذلك أدعى إلى تهدئة أعصابها منه ، وإن كان لم ينومها مثله . وأظهرت له استياءها عند توقفه عن متابعة إعطائها إياه .

ومدمنو اللفائف يشعرون قليلاً أو كثيراً بدوخة النيكوتين الخاصة به، ويطيب لهم بنوع خاص الاستمتاع بلذة التدخين في الصباح ، ولا سيما بعد القهوة أو الشاي، وهم لا يأكلون ولا يشربون القهوة وغير القهوة في ذلك الوقت إلاَّ لأجل اللفافة وإشباع رغبتهم من طعمها وإطفاء شهوتهم بتلك الرائحة المتصاعدة منها . وهذا ناشئ ولا شك عن إدمان ممارسة التدخين وتعوده لا عن شيء آخر .

سبب ارتياح المدخن

وإن الارتياح الذي يشعر به المدخن عند ما يستنشق دخان اللفافة عائد إلى نوع من التخدير وتنبه كريات الاحساس في المخ . وإن الشهوة الملحة في طلب ذلك الارتياح ناشئة عن خلو الجسم من المخدر الذي هو النيكوتين وزوال تأثيره عنه . وبعبارة أوضح إن شعور اللذة في التدخين مسبب عن استفزاز خلايا الاحساس بالدماغ، وان الرغبة في طلبه من جديد منشؤها أولاً الارتياح الذي يشيعهُ في النفس من استنشاقه . وثانياً التهيج الذي يشعر به المدخن بعد زوال تأثيره عنهُ أو شعور التهيج في الأغشية التي

يلامسها الدخان كالفم . والمسالك الهوائية بعد زوال الأثر الذي أحدثهُ فيها .

وعلى هـذا الضوء من البحث نحكم بأن النيكوتين أو التـدخين على مختلف أشكاله مخدر كالمورفين وأشباهه ، وله من الزايا والخصائص ما لتلك « المـكيفات » من مزايا وخصائص ، فهو يخدِّر الأعصاب ويشيع الارتياح في النفس ويغري المدمن بالتعلق بهِ والاعتماد عليه في تخدير أعصابه المـكدودة وتسكين أفـكاره المضطربة . والشواهد على هذا كثيرة لا يتسع المجال لبحثها وعرضها الآن .

## تجاوز الحدود يفقد اللذة

ولـكن طاقة الخلايا للاستفزاز وقبول رسائل التنبه محدودة . ولذلك عنـد ما يتجاوز المدخنَ تلك الحدود لـكثرة تدخينه يفقد شـعور اللذة التي كان يشعر بها من قبل ، أو يخيل اليه انهُ قد فقدها أو فقد جزءًا منها ؛ ويظن أن ذلك راجع إلى قلة تدخينه لا كثرته ، فيندفع في مداواة ذلك التهيج والاضطراب بالتي كانت هي الداء — بالتدخين — على أمل أن يروي ظمأه ويرضي شهوته منه . ولـكن إرضاء الشهوة محال ، وكلما تمادى في التدخين من جديد ازداد رغبة فيه وتعلقاً به ، وهكذا تتأصل العادة فيه ، ومبلغ تأصل العادة في مدمن المخدِّر يقاس بالصعوبة التي يلاقيها عند ما يحاول الاقلاع عنه .

وانهُ لمن الصعب حقًّـا على المدخن المدمن الذي قضى نصف عمره يدخن أن يقلع عن التدخين فوراً إلاَّ إذا وهبه الله عقـلاً نيراً وإرادة قوية . والمدمنون عادة لا يكـترثون لمـا ينتابهم من توعك ومرض معتقـدين خطأً بأن أسـباب ما يصابون بهِ من التهابات رئوية وشعبية وزكام وغير ذلك لا علاقة له ولا يمكن أن يكون له علاقة من قريب أو بعيد بالتدخين ، ويستاؤون فعلاً ممن يقول لهم بأن التدخين قد يكون السبب في علتهم وما حلَّ بهم من أسقام. وعلى هذا تـكون أقوالهم عن تأثير التدخين في صحتهم موضع شك كبير . والواقع أن ما يقوله معظم المدخنين في هذا الشأن يناقض دائماً الأعراض البادية عليهم منه بقدر ما يتفق مع زمن عهدهم به وتعودهم إياه . وقليل منهم يرغب صادقاً في الاقلاع عن التدخين. وقد يحاول بعضهم التغلب على شعور الاستمتاع به ولو إلى حين ، وقد ينجح في محاولاته حيناً ويخفق وياللاسف أحياناً. وفي حال امتناعهم عن التدخين تتحسن صحتهم وخصوصاً مدمن اللفائف ، وبعضهم ينكر التحسن في صحته ويدعي نقيض ذلك إما غفلة أو عمدا .

ومعظم الذين ظهرت عليهم أعراض الالتهابات الرئوية والشعبية والقرحة المعدية والعتامة في النظر يستحيل عليهم الـكف عن

التدخين إلاَّ عند ما تسوء حالتهم الصحية ويتقدم فيهم الداء إلى مواطن الخطر . وإذ ذاك يكون انقطاعهم قصير الأمد لدنوهم من باب النهاية المحتومة عليهم وعلى الأحياء جميعاً .

الدكتور شخاشيري

## الماء العذب في المحيطات

في أزمنة الحرب، تكثر حوادث غرق السفن بأنواعها ، ويلجأ ركابها الى قوارب النجاة يتكدسون فيها منتظرين رحمة القدر تجيء اليهم في سفينة أخرى تنقذهم ، أو طائرة تهبط عليهم فتنجيهم من أهوال المحيطات

ولئن نجا ركاب هذه القوارب من غرق، فلن ينجوا من جوع يفري أحشاءهم وظمأ يجفف ألسنتهم .

فرأى حاكم بنسلفانيا السابق ، جيفورد پنشو Gifford Pinchot أن يبحث ويستقصي عسى أن يصل إلى مخرج من غائلة الجوع ومهرب من وطأة الظمأ .

ومنذ عامين ، قرأ پنشو خبراً عن ثلاثة من الطيارين هوت بهم طائرتهم البحرية في المحيط ، واستطاعوا أن يعيشوا ٣٤ يوماً في المحيط الهادي على طوف من المطاط ، بفضل تناولهم طعاماً مؤلفاً من طائرين وسمكات ثلاث . وعلى أثر قراءة هذه القصة، أطلق پنشو لتفكيره العنان ، فأدرك بعد أن عاد بذاكرته إلى السنوات التي قضاها في صيد الأسماك ، أن صغار الأسماك تتجمع حول الأجسام الطافية كالقوارب وحطام السفن وما إليها ، فتتبعها السمكات الكبار لقنصها وافتراسها، وحدّث پنشو نفسه قائلاً : « ولِمَ لا تُجهَّز جميع قوارب النجاة بقناصة لصيد الأسماك ، لعلها ترد عن اللاجئين فيها وطأة الجوع وتبقي على حياتهم بضعة أيام .

ظلت أصداء هذه الآراء تتجاوب في عقله إلى أن ذهب مع أسرته إلى مدينة دانية لتمضية عطلة الأسبوع . وبينما هو في هذه البلدة ، خطر له أن يزور أحد المشافي المحلية ويتحدث إلى المرضى الذين نجوا من السفن المغرقة بفعل الطرابيد . فكانت لكل من نزلاء المستشفى آراء مختلفة ، ولكنهم اتفقوا جميعاً على أمر واحد ، وهو أن ما نهكهم لم يكن انفجار السفينة ، ولا الجوع ، ولكن الذي أصاب منهم مقتلاً هو : الظمأ .

وفي مساء ذلك اليوم ، طرح جيفورد پنشو جسمه على فراشه طلباً للنوم ، ولكن هيهات . وفي ذلك تقول زوجه : « لقد ظل طوال الليل ، وأنا يقظة ، إلى جانبه يردد : «لابد أن هناك وسيلة للظفر بالماء في المحيط » . وفي صباح اليوم التالي ، قفز پنشو من فراشه وقد اختمرت في عقله فكرة . لقد عرف أن جسم الانسان يحتوي على مقدار كبير من الماء ، فلِمَ لا يصدق

ذلك على الأسماك ؟ ولِمَ لا يكون هذا الماء أو العصير ، صالحاً للشرب ؟

وتذكر أنه كان في حداثته يهوى صيد الأسماك ، ويقطع البحار الجنوبية في رحلات صيد يقضي فيها نفسه ، ويجوب بقاعاً مجهولة غير مطروقة ، إشباعاً لنهم الهواية وتلبية لندائها . وتذكر أيضاً أنه تناول طعاماً من السمك النيء ، فلم يجد طعمه مرًّا ، أو كريهاً .

ومن ثمَّ ، قام الشيخ پنشو وهو في السادسة والسبعين ، يطوف بتجار السمك في وشنطن باحثاً عن سمك بحري طازج . ولما عثر على بغيته ، أخذ منهُ شريحة وخلطها بقليل من الأرز ثم لفّها في قطعة من القماش كالتي تستعمل في حفظ الجبن ، وأمسك بطرفيها وعصرها ، فانساب منها سائل ورديّ اللون . ولما تذوّقه ، وجده عذباً ، وليس بهِ من طعم السمك إلاَّ الشيء اليسير جدًّا . وبهذه الوسيلة السهلة ، استطاع پنشو أن يحول ١٢ ٪ من وزن السمكة إلى عصير ، وباستعمال ضاغطةٍ يدوية بسيطة استطاع مضاعفة مقدار العصير .

ولما أحرز هذا النجاح ، رأى پنشو بمساعدة أحد أطباء جامعة نيويورك ، أن يجري تجربة للتثبت من أن هذا السائل يؤدي وظيفة الماء في الابقاء على الحياة . فتطوع رجلان للامتناع عن شرب الماء عشرة أيام ، ولم يتناولا في هذه الفترة سوى عصير السمك والجراية العادية التي تمنح ركاب قوارب النجاة . فأسفرت النتيجة عن نجاحٍ تام ، إذ أمضى الرجلان المدة المعينة في صحة جيدة جدًّا .

« هذا جميل ، ولكن كيف يستطيع أناس قذفتهم الأمواج في قاربٍ للنجاة وسط محيطٍ مقفرٍ ، استخلاص العصارة من السمك ؟ » هكذا كان اتجاه تفكير پنشو

ووردت على خاطره أيضاً ذكريات الماضي ، فأدرك أنهُ كان قد خرج للصيد مع صديق يدعى تشارلس نوردف Charles Nordhoff ، فأرسل اليهِ يسأله ، أ كان أهالي المناطق التي قصدوها للصيد ، يشربون عصير السمك . فردّ عليه نوردف قائلاً : « يقول الپولينيزيون إن الانسان يستطيع أن يعيش مدة طويلة دون تناول الماء إذا مضغ السمك النيء ، ولفظ الأجسام الصلبة جميعها »

فابتهج پنشو وقال: « لسنا في حاجة إذاً إلى ضغط السمك او عصره ، لأن كل رجل يحمل معصرته الخاصة ، وهي لا تزيد شيئاً على حمولة قارب النجاة . وأرجو أن لا يمضي طويل وقت ، حتى يكون كل بحّار قد عرف أنهُ يستطيع في زمن الضيق أن « يشرب » سمكاً نيئاً ويأكلهُ أيضاً . لأن نسيج السمك — كما قال نوردف — من أفضل الأطعمة المغذية وأسهلها هضماً »

وديع فلسطين

# فهرس الجزء الثاني

## من المجلد الخامس بعد المائة


٩٩ الحالة الجوية وتأثيرها في الأجسام الحية : لفؤاد صروف

١٠٦ الفجر الروحاني (قصيدة) : لبودلير

١٠٧ مآثر الملك فؤاد على معاهد العلم : لمحمد زكي الابراشي باشا

١٢١ جو جزيرة العرب وأثره في الهجرات السامية : للدكتور رفيق التميمي

١٣١ الدين والفلسفة — الشيخ محمد عبده والتوفيق بينهما : لمحمد يوسف موسى

١٣٥ المطالب الخلقية بعد الحرب : للدكتور تشارلس وطسن

١٤١ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عوّاد

١٤٥ الرؤساء الثلاثة ٢ . لنكان محرر الرقيق : للدكتور نجيب الأرمنازي

١٥١ على هامش العيد الألفي لأبي العلاء — مدرسة المعري : لكامل كيلاني

١٦٠ عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود النجوري


## باب التعريف والتنقيب


١٦٣ ١ — الكتب : « أقاصيص » نشرته لجنة النشر للجامعيين . نقد بقلم صديق شيبوب — « بشار بن برد » تأليف ابرهيم عبد القادر المازني . نقد بقلم بشر فارس — « دراسة الشعراء » تأليف المرصفي وابرهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي . نقد بقلم ابرهيم عبد القادر المازني — « تراث مصر » نشره س . ر . ك . جلنفيل . نقد بقلم وهيب كامل — ثم كتب أخرى ظهرت .

٢ — الاستدراك : « كتاب الحيوان ، الجزء الخامس » بقلم الاب انستاس ماري الكرملي — « مجموع رسائل الجاحظ » بقلم عبد السلام محمد هارون .

٣ — التعقيب : « تبيين » بقلم أسعد طلس — « رد » بقلم *

١٩١ باب الأخبار العلمية * تأثير النيكوتين حقناً يعادل تأثيره تدخيناً . حقن النيكوتين تحت الجلد . أعراض التسمم . أستاذ يفضل الحقنة على التدخين . سبب ارتياح المدخن . تجاوز الحدود بلذة اللذة : للدكتور شخاشيري — الماء العذب في المحيطات : لوديع فلسطين .

# المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الخامس بعد المائة

١ أغسطس سنة ١٩٤٤ — ١٢ شعبان سنة ١٣٦٣


# العقل مناط الامل

قلّب النظر في شؤون الأمم ومشكلاتها المحتملة غداة هذه الحرب الطاحنة ، كيف تشاء فلا مفر لك من الحكم بأن تحقيق الرجاء المعقود على إنشاء عالم تتوافر فيه أسباب الرخاء لجميع الناس ، وتتوطد أركان السلام في جميع أنحاء الأرض ، مرتبط بتحكيم العقل والخضوع لسلطان المعرفة . فالحريات الأربع التي نصبت هدفاً للاجتماع البشري ، مرتبط تحقيقها أوثق ارتباط ، بهذا التحكيم وذلك الخضوع : « وتعرفون الحق والحق يحرركم »

## ١ — العقل وموارد الطاقة

قد يقتتل الناس في سبيل النفط والفحم ، لأن الصناعة لا تستغني عن أحدهما الآن ، لتدير الآلات المتحركة في المصانع أو السيارات والطائرات والسفن المتحركة على الأرض أو في الهواء والماء . وقد يكون توزيع النفط والفحم في جوف الأرض توزيعاً لا تعادل فيه بين الأمم ، إن أخذنا بالحدود الجغرافية القائمة الآن ، ولكن العقل يتعين عليه ، أن ينشئ النظام الذي يتاح فيه لكل أمة ما يكفي حاجتها المشروعة . على أن العقل لا يقف عند هذا الحد ، بل هو يسعى ، من طريق الأداة التي اخترعها — أداة العلم — إلى بلوغ اليوم الذي تصبح فيه موارد الطاقة المحركة ميسورة للجميع كالهواء في جوّ الأرض أو كالخضرة على سطحها أو كالأشعة التي تملأ رحاب الكون .

فمن المحتمل أن تكون الطاقة المستخرجة من الذرات أو من ضوء الشمس الأداة المرموقة لقلب أساليب العيش في المستقبل رأساً على عقب . فإذا تمكن العلماء من إطلاق الطاقة الكامنة

في الذرات على وجه عملي ، أو إذا استطاعوا أن ينفذوا إلى سرّ الأوراق الخضر في التقاط طاقة الشمس وخزنها ، فقد يكون العصر المقبل عصراً تتوافر فيه الطاقة المحركة توافر الهواء الذي نتنفسه أو الماء الذي نبل ظمأنا بهِ .

فالناس يعتمدون الآن على النفط ومشتقاته ، أو على الطاقة المولّدة من الماء المنحدر . والمصدران الأولان من مصادر الطاقة — أي النفط والفحم — مآلهما إلى النفاد ، وإن اختلف العلماء في تقدير أمد الاعتماد عليهما قبل نفادهما . فاذا وفق باحث علميّ إلى كشف أسلوب عملي قليل النفقة يطلق بهِ الطاقة المذخورة في الذرّة أو يتناول بهِ الطاقة من ضوء الشمس ، فالنتائج الصناعية والاقتصادية التي يسفر عنها كشف من هذا القبيل تكون في الطبقة الأولى من عظم الشأن في الاجتماع البشري .

والشمس هي في الأصل مصدر كل طاقةٍ متاحة لنا . فالحرارة والطاقة الكهربية مردّهما جميعاً إلى الشمس ، سواء أمن الماء المنحدر تولّدت الطاقة ، أم من الفحم المحترق أم من النفط . وكل الطعام يصنع أصلاً في معمل الورق الأخضر ، فهو دون غيره من معامل الطبيعة والانسان يستطيع ان يلتقط طاقة الشمس بأسلوب هين ويستعملها في بناء المواد الغذائية الأساسية ، ثم يخزنها . ثم يأخذها الانسان والحيوان طعاماً . وما فتئت الشعوب تتزاحم بالمناكب وتتقاتل في سبيل « مكان في الشمس » على حد قول غليوم الثاني . والمكان في الشمس قد يعني الطعام الذي تولده الأوراق الخضر بفعل طاقة الشمس . وهذه الحرب الناشبة الآن مدار ناحية منها على الأقل على طاقة الشمس الجامدة في جزيئات النفط وأطباق الفحم .

إن موضوع طاقة الشمس موضوع واسع النطاق . ويقول الدكتور انمن مدير معهد كترنغ الأمريكي ، لدراسة اليخضور ( كلوروفيل ) والتركيب الضوئي : إن سطح الأرض يتلقى كل سنة من طاقة الشمس ، قدراً يعدل الطاقة التي يولدها حرق ستمائة الف مليون مليون مليون (٦٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ) طن من أجود أصناف الفحم ( الانتراسيت ) .

والنبات الأخضر هو أعظم أداة وأدق أداة لتحويل طاقة الشمس إلى أشياء تنفع الناس . وطريقته في هذا التحويل يطلق عليها وصف « التركيب الضوئي » . أما سرّها فلم يبح تماماً للعلماء حتى الآن . فالنفوذ إلى هذا السر في طليعة مشكلات العلم ، بل في طليعة مشكلات الحضارة . فعلى السياسة التي تبيح لأعمال الحرب ألوف الملايين من الجنيهات أن تبيح للباحثين في هذا الموضوع ما يكفيهم من المال للبحث ؛ فإذا وفقوا إلى حل المشكل

كان ذلك خطوة كبيرة نحو تحقيق إحدى الحريات الأربع التي يريدها الناس أركاناً للعالم المرتجى ، وهي التحرر من العوز والفاقة .

ويرى الدكتور امن أن هذه المشكلة تعالج من ناحيتين . أما الأولى فدراسة أسرار النمو في النبات ، وهذا يتيح للعلماء والزرّاع متعاونين ، زرع نبات يفوق مئات الأضعاف النبات الذي يزرع الآن في جميع أنحاء الأرض ، فيحوَّل جانب كبير منهُ إلى مصادر تستخرج منها الطاقة بأساليب جديدة .

وأما الثانية فالبحث الكيميائي الأصيل في التفاعلات التي تمكن العلماء من تقليد الورق الأخضر ، أو مجاراته في تركيب الكربون ( المنتزع من ثاني اكسيد الكربون ) والايدروجين ( من الماء ) في مركبات تشبه المثلين ( غاز المستنقعات ) أو البنزين ، ثم إضافة الاكسجين إلى هذه المركبات للحصول على السكر والشحم والخشب ، ثم إضافة النتروجين للحصول على البروتين . ومن هذه المركبات الأساسية تصنع مركبات أخرى متعددة تعد جزيئاتها مخازن للطاقة .

ومتى حلّ العلماء مشكلة التركيب الضوئي وأنشأوا طريقتهم الخاصة لخزن طاقة الشمس المشعة ، فقد تكون هذه الطريقة مماثلة في أصولها لطريقة الأوراق الخضر ، وقد تكون أنعل منها وأكفأ .

فالناس بوجهٍ عام يعتمدون بغير اهتمام بالمستقبل ، على قدرتهم أن يتناولوا الطاقة من الفحم والنفط وما أشبه ، ولكن مثلهم في ذلك كمثل التاجر الذي ينفق رأس ماله أو يبعثره رويداً رويداً . ولذلك يذهب الدكتور امن إلى أن البحث في هذا الموضوع ، ليس بحثاً نظريًّا وحسب ، بل هو بحث نظري فتان وعملي خطير في آن . وإذا لم يتنبه أقطاب الحكومات والشعوب إلى هذا البحث حالا ، ويرصدوا المال الوافي للعلماء ، ليشرعوا في بحث واسع النطاق منذ الآن ، فقد يواجه البشر المشكلة ، وليس بين أيديهم الأدوات اللازمة أو المعرفة الكافية لحلها . وقد يصاب الناس من جراء ذلك بنقص في الطاقة المتاحة لهم إذا أهمل هذا البحث .

وغني عن البيان أن الذرَّة تحتوي على طاقة كامنة فيها ، تتيح للناس إذا أطلقت بأسلوب عملي غير كبير النفقة ، مقادير من الطاقة المحركة لا حدود لها .

فقبل أربع سنوات أو خمس ، كان هذا الموضوع لا يستوقف عناية العلماء الا من ناحيته النظرية . ولكن فلق ذرة الاورانيوم في أوائل سنة ١٩٣٩ ، فتح باباً جديداً في هذا الموضوع . لأن فلق ذرة الأورانيوم صحبه إطلاق قدر عظيم من الطاقة الذرية

الكامنة . فأقبل رجال علم الذرة ، في شتى أقطار الأرض على بحث هذه الناحية الجديدة في هذا الموضوع الخطير .

وأغلب الرأي — على ما استطعنا استخلاصه من المجلات العلمية التي وصلت إلينا — أنه إذا أتقنت طريقة إطلاق الطاقة من الأورانيوم إتقاناً عمليًّا تجاريًّا ، فانها لا تبيح لنا الاّ الطاقة المخزونة في قدر يسير جداً من ذرات الأرض ، وهي ذرات عنصر الأورانيوم . وإذن فالرجاء الأكبر معلق بكشف طريقة أخرى تمكن العلماء ورجال الصناعة بعدهم من إبادة الذرات أيةً كانت أو إفنائها . وهذا هو رأي الدكتور توف أحد علماء قسم المغنطيسية الأرضية بمعهد كرنيجي في واشنطن العاصمة . وهو في طليعة الباحثين في هذا الموضوع .

أما الدكتور كولدج مدير معامل البحث العلمي في الشركة الكهربية العامة فيرى أن البحث أفضى إلى طريقة تطلق من عنصر الاورانيوم قدراً عظيماً من الطاقة الذرية ، وأنه إذا أفضى البحث في المستقبل إلى فهم سر هذا الاطلاق فهماً دقيقاً فقد نستطيع أن نطلق من رطل واحد من الأورانيوم قدراً من الطاقة يفوق الطاقة المستخرجة من ملايين من أرطال الفحم . حتى إذا كانت نفقة إطلاق الطاقة من الأورانيوم أكبر من نفقة إطلاقها من الفحم ، كان ذلك خيراً لأنه يتيح مصدراً للطاقة حيث اعتبار خفة وزن الوقود له شأن عظيم . ومن المحتمل أن يفضي البحث الذري إلى وسيلة تطلق بها الطاقة الذرية من ذرات بعض العناصر المألوفة .

وسئل الدكتور لي ده فرست وهو من أعلام المخترعات اللاسلكية في ذلك فقال : « إن كشف الجهاز الرحوي والتوسع في بنائه واستعماله ، يسوغ الرجاء المعقود باحتمال اعتمادنا في المستقبل على الطاقة المنطلقة من الذرة من طريق تهشيمها فنتاح مقادير من الطاقة لا تحد » .

ومهما يبعد الزمن الذي تنفد فيه موارد النفط فالفحم فانها ماضية إلى النفاد لا ريب في ذلك . والبحث في هذا الموضوع ، كالبحث في موضوع طاقة الشمس وخزنها ، قليل قليل الآن بالقياس إلى الفائدة العامة التي تجنى من البحث لو حلّت إحدى هاتين المشكلتين . فالحاجة إلى إرصاد مبالغ وافرة المال تتيح لعشرات بل مئات من الباحثين التوفر على هذه البحوث الفتانة الجليلة النفع .

## ٢ — العقل وموارد الصناعة

مهما تكن وجوه التحول السياسي والاجتماعي التي يحتمل أن تطرأ على حياة البشر فلا مفر من اطراد اعتمادهم في الحرب والسلم على الموارد المعدنية ، أو ما يحل محلها . ومهما تكن قواعد النظام العالمي الذي يكافح في سبيله عشرات الملايين من الرجال والنساء ،

فلن يصبح هذا النظام حقيقة واقعة إلاَّ إذا كان ملائماً لخصائص الطبيعة البشرية ، وأوصاف الموارد المتاحة لهم في طبقات الأرض .

وقد دلَّ البحث الدقيق المحكم في موارد القارات جميعاً على أن فيها موارد وافية من المعادن الأساسية ، أي أن الطبيعة تتيح فرصاً متساوية للناس أو تكاد تتساوى ، ولكن الناس اختلف شأنهم حتى الآن في اغتنام هذه الفرص واستغلالها . إلاّ أن الطبيعة لا تميل إلى انعزال كل قارة عن الأخرى واستكفائها . والقول بأن كل قارة تحوي في طبقات ثراها موارد معدنية وافية ، ليس صحيحاً على إطلاقه ، حتى إذا سلمنا بأن بعض المعادن يصلح للاستعمال محل بعض آخر — كاستعمال النفط المستقطر من الفحم بدلاً من النفط الطبيعي في قارة أوربة — وجدنا شذوذاً من القاعدة العامة . ففي معظم المناطق التي ارتقت فيها الصناعة وازدحمت منشآتها ، نجد قلة ظاهرة في موارد القصدير ، فلا يكاد يكون في ثرى القارة الاميركية الشمالية ركاز قصدير ، وفي قارة أوربة موارد قصدير يسيرة ، لا تجهز تلك القارة بأكثر من خمسة في المائة مما تستهلكه من هذا العنصر . وكذلك قل — على تفاوت — في النيكل والراديوم وغيرها .

فاستغلال موارد الأرض المعدنية المتاحة استغلالاً كاملاً يقتضي تنظيم حياة الأمم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، على أساس عالمي، يضع العقل أركانه على أساس البحث العلمي . ويقول مايذر أستاذ علم طبقات الأرض في جامعة هارفرد : إن اكتفاءَ كل قارَّة وعزلتها أمر لا يقرُّه علم طبقات الأرض . فليست هناك قارة ما ، تستطيع أن تجهِّز الشعوب التي تقطنها بالمقادير الكافية من جميع المعادن اللازمة للحضارة ، وأن تكفي حاجات جميع الناس . فالاستغلال التام لموارد الأرض لا يتمُّ إلاَّ إذا ساهمت كلُّ قارَّة بنصيب في سبيل الخير العام ، ولا مفرَّ للعالم الجولوجي — على قول مايذر — من القول بأن تنظيم هذا الاستغلال على أساس عالمي أدنى إلى تحقيق الخير العام .

على أنَّ العلم استهلَّ في العهد الأخير فصلاً جديداً وكتب فيه آيات تبشر بتخفيف ضغط الحضارة الحديثة على موارد الأرض التي تنفد مهما تكن عظيمة ، وذلك باستحداث مواد كثيرة تحلُّ محلَّ المعادن ، ولا تنفد . فموارد الطبيعة طائفتان بوجهٍ عام ، إحداهما طائفة المعادن التي تكوَّنت في جوف الأرض في أحوال جولوجية خاصة عريقة في القدم، وهذه المواد مصيرها إلى القلة والنفاد . والثانية طائفة المواد التي تتجدَّد كلَّ سنة ، لأن التراب والماء والهواء وضوء الشمس تتعاون على تجديدها ، فهي لن تنفد إلاّ إذا انصرف الناس عن الزراعة . والعلم الحديث أثبت أننا نستطيع ان نصنع من موارد الطبيعة التي تخرجها تربة الأرض طائفة كبيرة من

المواد التي كنا نعتمد فيها على المناجم والآبار . فمئات من العجائن الكيميائية تحل الآن محلّ عشرات من الفلزات في مئات من وجوه الاستعمال .

ولنضرب على ذلك مثلاً واحداً ، هو حبةٌ من فول الصويا ، الذي أصبح نفسه في نظر العلماء لا يقتصر على كونه طعاماً مغذياً ، بل صار عندهم مخزناً لا ينفد ما فيه من العناصر التي تصلحُ لاستخراج كثير من مواد الصناعة .

أقبلت شعوب الشرق الأقصى ، ولا سيما سكان الصين ومنشوريا ، من قرون على زراعة « فول الصويا » ، الذي أطلق لينيوس عليه اسمه العلمي غليسين هسبيد Glycine Hispide فغدت حبوبه مورداً لطعام سكان آسية الغربية في منزلة موارد الخبز واللحم والدهن جميعاً . أما في أوربة وأميركة ففضل الناس الحنطة والذرة والشعير ، في المقام الأول . وفي مستهل القرن التاسع عشر بدأ الأميركيون في الولايات المتحدة يزرعون فول الصويا ، ولكنهم لم يصنعوا منه طعاماً بل صنعوا منه علفاً للمواشي ، أو حرثوه في الأرض لتسميدها به . وقد بلغت المساحة المزروعة « فول الصويا » في الولايات المتحدة الأميركية بحسب الاحصاء الأخير أربعة عشر مليون فدان ( ايكر ) .

ولكن أصحاب العلم الجديد — علم « الكيمرجي » أي استخراج مواد للصناعة من منتجات الحقول — وجهوا النظر إلى أن حبوب هذا الفول كنز لا يفنى . ففيها طاقة يجهز بها من يأكلها ، وفيها مواد كثيرة تصلح لشتى الصناعات . وإذا كان الكيميائي الزراعي والصناعي في هذا العصر ، لا يحيط عمله كالكيميائي القديم ، بألوان السحر وضروب الخفاء ولا يحاول أن يحوّل المعادن السخيفة إلى معادن ثمينة ، فانه عند ما يستخرج حريراً من خشب الشجر ويصنع أبواباً وصوفاً من بروتين فول الصويا ، يصغر في جنب عمله ، عمل جميع الكيميائيين الأقدمين .

والنتائج التي يسفر عنها بحث الباحثين في هذا الميدان العلمي الجديد ، في فترة قصيرة لا تبدو سريعة ولا تستوقف النظر . ولكن إذا أحصي ما تحقق منها خلال السنوات العشر الأخيرة ، ثبت أنها خطوة عمرانية عظيمة الشأن لا تقوَّم بمال ، لأنها سبيل جديد إلى استعمال الموارد الطبيعية المتجددة سنة بعد سنة ، وإحلال منتجاتها محل بعض الموارد التي لا تتجدد إذا نفدت . فتأثيرها في العمران مزدوج ، فهي تتيح للناس ما لم يكن متاحاً لهم من قبل ، وهي تغني عن معادن آخذة في النفاد ، فتضعف من حدّة التنافس الدولي على حيازتها .

والأصل في هذه النهضة العلمية الزراعية الصناعية في ما يتعلق بهذا الفول هو جزيء البروتين في حبة « فول الصويا » . وكل من طالع كتب التغذية يعلم أن البروتين مصدر من

أعظم مصادر الطاقة . ودقيق فول الصويا نصفه بروتين ، تؤيده مواد أخرى مثل الدهون والمعادن اللازمة والفيتامينات ، ومادة « الليسيثين » وهي لازمة للأعصاب وللأعضاء الحيوية . أما النشا فقليل فيه ، وهذا مستحسن لأن أكثر الناس يكثر من تناول النشاء في الخبز والرز والبطاطس وما أشبه .

وهذه العناصر مركبة تركيباً متزناً في حبة فول الصويا ، حتى ليصح أن توصف بأنها غذاء طبيعي قائم بذاته . وقد استعملت في المانيـة عنصراً أصيلاً في جراية الجنود . وفي سنة ١٩٣٨ أصدرت القيادة الألمانية العليا كتاب طهي للجيش يحتوي على مائتين واثنتين وستين وصفة لطهي فول الصويا . ووزارة الزراعة الأمريكية أصدرت كتيباً من هذا القبيل ، ومما جاء فيه أن إضافة دقيق فول الصويا الى دقيق الحنطة ، يزيد مقـدار البروتين ويقلل مقدار النشا ، ويجعل العجين أصلح للخبز ، وأطيب طعماً . ومكتب الكيمياء بوزارة الزراعة الأمريكية قال في نشرة : إن إضافة عشرين في المائة من دقيق فول الصويا إلى دقيق الحنطة يزيد مقدار الجير في الخبز ويجعل البروتين أيسر هضماً . ويحتفظ الخبز بطراوته يوماً كاملاً أكثر مما يحتفظ بها خبز الحنطة . ويصلح دقيق فول الصويا لجميع أصناف الكعك والرقاق وعلى وجهٍ خاص لصنع خبز حسن النكهة للمصابين بالديابيطس ( البول السكري ) .

وإذا كانت آسية الغربية قد غذَّت شعوبها بفول الصويا ألوفاً من السنين — وقد وصفت الكتابات الصينية هذا الفول منذ ثلاثة آلاف سنة قبل التاريخ الميلادي — فان الشعوب الصناعية أخذت تغذي « مكناتها » بهذه الحبوب . فالألمان يحاولون استخراج زيت ( دهن ) منه يحل محلّ النفط في محركات ديزل . والروس كشفوا أسلوباً لاستخراج بروتين الفول لاستعماله في كل ما يستعمل فيه البروتين . ومادة الليسيثين تصلح للمزج بأصناف البنزين الجـديدة . و « فورد » يصنع منه هياكل شبابيك ، ومقابض أبواب وأجزاء كثيرة من أجزاء السيـارات ، كما صنعوا منه صنوفاً تصلح لحشو الوسائد والمقاعد ، ونسج الملاءات والأقمشة ، ودهاناً يدهن به الخشب والحـديد ( كالورنيش ) . وهنالك فريق من العلمـاء معنيّ الآن بكشف أساليب لتحويل جزيئات البروتين المستخرجة من فول الصويا إلى مطاط وقد صنع منه مطاط أطلق عليه اسم « نوربول » Norepole

***

وهذا التطوُّر العلمي لا يزال في مستهله ، فإذا قال رجال السياسـة « الرخاء » و « التحرُّر من العوز » قال رجال العلم « لبيكم ، بين أيديكم » ، ولو كان مستقبل العالم مرتبطاً بالموارد المتاحة له وحسب ، لما كان هنالك شكٌّ في كونه مستقبلاً باهراً مفاتيحهُ في أيدي العلماء

# هل الشام الى السفور ؟

كنت في رأس تلك السوق الغاصّة بالألطاف ، سوق الحميدية ، أنقّل الطرف بين قاشاني وردي ولازوردي من صنع أهل دمشق للمئة السادسة عشرة ، ونارجيلة من البلور البوهيمي المطوّس والمزوّق ، وطنفسة إذا بُثّت حسبتها روضة جاءت تؤنسك ، وديباج فارسي نعّمته الأنامل الرقائق على تعاقب السنين الرخيّة . كنت في حانوتٍ حلف صاحبها لا أنقلب إلى مصر إلاّ شاكيَ الجيب .

وإذا أصوات تصيح : « سكّر . سكّر » [1] .

خفَّ الفراش إلى الباب وغلّقه . فصعدت إلى الطبقة الثانية من الحانوت وجعلت أتبصر من تفاريج مشربية تركية طغى نافرُها على غائرها . تبصرت فإذا لمة من الخلق في أيديهم عصيّ وحجارة وفي وجوههم غضب ينزو . . . أهل حيّ الميدان والشاغور نزلوا إلى الأسواق يثيرون الرهج .

العصيّ تطوّح والحجارة تلقى . . . والزجاج أمسى أغلى من الألطاف وأندر . فـ « سكّر . سكّر » .

دفقت اللمّة نحو الجامع الأموي والحناجر تقذف بصيحات طابتْ أذني على سماعها ... « يحيا الحجاب والانتداب » . . . ما هذه الصيحة ؟ قاتل الله السجع العربي إن كان ما له نحو هذا . الحمد لله انها صيحة فرد .

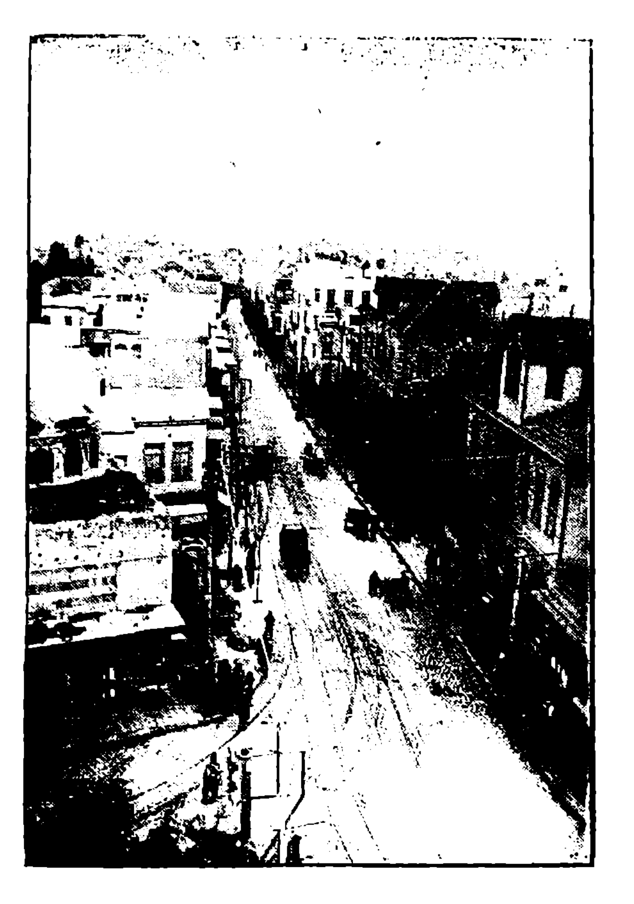
الحجاب ! حجاب المرأة الشامية ، ذلك كان مثار الفتنة . سالت وانتشرت فدام اختلاجها نحو أسبوع . وما أظن القارئ إلاّ تواردت إليه أنباؤها وقد ابتدأت في العشرين من أيار ( مايو ) سنة ١٩٤٤ ومن أنبائها الجسام أن تلك اللمّة — وقد أذكاها المتشددون — هاجموا في الصباح داراً للسينما كان العرض فيها للنساء خاصة . ولكن الشرطة ردّت هؤلاء الغلاة وأطلقت فيهم الرصاص فقتل رجل وفتى .

---

(١) « أغلق » في لغة الشام . والكلمة سريانية .



نساء محجبات في حي باب السلام بدمشق



حي الصالحية



قروية تسير في حي الميدان

مقتطف أغسطس ١٩٤٤ ، ص ٢٠٥



ليست الحوادث ما يعنيني ههنا ، فإن همي العرض والبحث من الناحية الاجتماعية . حتى الجانب السياسي لن أُهمل عنده . فقد بسط هذا الجانب وأظهر دفائنه رئيس وزراء سورية في الخطبة التي خطبها بين أيدي النواب في الرابع والعشرين من مايو ، وقد نشرتها صحف الشام . ومما جاء فيها نصًّا : « ان هنالك فئة من الناس يشجعون في الخفاء ومن وراء ستار أولئك الذين قاموا بهذا العمل . فهؤلاء المتصيدون في الماء العكر شهد الله ليسوا من أهل الإيمان وأصحاب العقائد ولا من أصحاب الفهم بل هم دائماً أهل نقمة ولؤم وبغض لكل ما يقال له استقلال لأنهم نشأوا تحت ظلال العبودية » .[1]

***

مدار الصراع إذن مسألة الحجاب سواء كان السخط على السفور حقًّا أو مجتلباً أو مستثمراً . إن الباعث الظاهر هو ذلك السخط ، والصراع الملموس هو ذلك الذي يقوم بين التحرر والتقيد والترخص والتشدد . فلننظر في حال المتصارعين : النساء من جهة ، ومن جهة المتشددون . ثم لنتبين موقف الأمة والحكومة القائمة ، فقد يكون في هذا العرض وهذا البحث مادة لا يشوبها هوًى تُمِدُّ من يخطر له اليوم أو في الغد أن يتتبع جريان الحركة النسوية في الشام .

***

في دمشق جمعيتان للنساء تسعيان لترقية المرأة . الأولى جمعية « يقظة المرأة » ورئيستها الآنسة سعاد مردم بك ، والثانية « جمعية دوحة الأدب » ورئيستها السيدة عادلة خانم بيهم وهي زوج الأمير مختار الجزائري . وللجمعيتين كاتمة سر واحدة هي ابنة الشيخ عبد القادر المغربي[2] . ومن أغراض الجمعيتين مواساة الفقراء والمساكين . وللجمعية الثانية مدرستان إحداهما لتعليم البنات والأخرى لتلقين فن الحضانة . وقد « احتجت » ( كما يُقال اليوم ) هاتان الجمعيتان على غضبة المتشددين ، إذ رأتا أن المرأة على أيديهم موضع ذلة ، وقد أكد لي أب لإحدى الداخلات في هاتين الجمعيتين « أن المرأة الشامية فوق استنكار المتصلبين » . ومما لا بدَّ من ذكره أن نساء الجمعيتين لا يعالجنَ قضية السفور ، ولا يخضنَ في أسبابها ، وفيهنَّ المحجوبات والسافرات ، وفيهنَّ مسيحيات أيضاً .

---

(١) صحيفة القبس ، العدد الـ ٢٦٧٨ ٢٤ / ٥ / ١٩٤٤

(٢) وهنالك جمعية ثالثة أخرى اسمها « جمعية الاتحاد النسائي » وعهدها جديد وغايتها لم تظهر لي بعد

والحق أن الحجاب في مدن الشام كلها له سَيَرانه وله سلطانه ، وكأني به أمر له قدسية : تستر المدنية وجهها بنقابين اثنين في الشام وحلب وحماة وحمص . وفي حمص رأيت بعيني السنة الماضية عجائز المسيحيات والبراقع لا تزال على وجوههنَّ . وليس حال الحجاب كذلك في القرى ، فنساؤها سوافر حتى إذا جَلَلْنَ في المدن . وفي حسباني أن المسلمات العاصيات حكم الحجاب في دمشق لا يتجاوزنَ المئة ، وهنَّ معروفات ، مرموقات ، جلهنَّ من علية الناس ، وفيهنَّ زوجات وزراء لهذا العهد . ويبدو لي أن الدمشقيات المثقفات آخذات منذ سنتين في العصيان ، فهنَّ يسفرنَ إذا اغتربن . وفي اللواتي يقمنَ بالحيين الحديثين : الصالحية والمهاجرين من أصبحت تمتاض عن النقاب الخمارَ تشدّه من الرأس حتى العنق مستديراً على نحوٍ عرفناه في مصر من زمن قريب . وفيهنَّ من ذهبت أبعد من ذلك فجعلت الخمار يتدلى على الكتفين ، فلا الشعر كله ولا الأذنان ولا العنق مستورة ، شأنَ كثير من المسيحيات في باب توما : حي النصارى . غير أن هذه وتلك ترسلان النقاب — أو النقابين — إذا انحدرتا إلى قلب المدينة ، إلى السوق ، إلى أحياء مثل الميدان والشاغور وقبر عاتكة حيث النساء يفرطنَ في التنقب والادناء من الحبرات الواسعة والادلاء . أين الرقة في برقع فتاة القاهرة أو الإسكندرية ، وأين « عروستها » ثم أين انضمام ملاءتها ؟

ومن طلائع ذلك العصيان أيضاً إقبال بعضهنَّ على التبرج والتجمل ، فقد تلمح تحت النقاب الواحد أصباغاً شتى ، ثم تلحظ لفة الساقين حتى منشأ الركبتين ، وقد يبدو هذا غريباً والوجه مستَّر . . . يا لمتناقضات النساء ! . . . ومن الطلائع كذلك أن النساء يحتذينَ الحذاء المفلّج ذا الكعب القائم الطويل ويؤثرنَ النعل المصنوعة من « الفلين » . كل ذلك إثم عند المتشددين . ودونك واقعة تدل على النضال الخفي قبل أن يستفحل الأمر فيقع في أمواج الفتنة :

حدَّثني من أثق به أن ربة بيت من بيوتات حي الشّاغور — وهو حي محافظ على التقاليد كما قدمت لك — دعت سرباً من السيدات ، فجاء اللواتي يقمنَ بالصالحية والمهاجرين سافرات ، قد ضربنَ الخُمُر على رؤوسهنَّ وجعلنَ في أرجلهنَّ الأحذية والنعال المنكرة . فلما انصرفنَ أتى أهل الحي صاحبَ الدار ونصحوا له بالكف عن مثل هذه الدعوة ثم أنذروه وأوعدوه .

***

وسبب استفحال الأمر أن المتشددين بلغهم أن حفلة قومية ستجري في نادي الضباط الفرنسيين لأجل إعانة الأطفال الفقراء ، وأن المسلمات مساهماتٌ فيها . فألقيت خطب في

الجوامع ولاسيما جامع تنكز[1]. وجامع تنكز مقر« الجمعية الغراء » التي عملت مع الحكومة الوطنية فرشحت نائب رئيسها للنيابة في المجلس ، وفي هذا الجامع خطب رئيس الجمهورية أيام الانتخابات في السنة الماضية . فللجامع خطره ، وللجمعية قوتها .

أبت الجمعية أن تنتهي والحكومة تبين لها سلامة الأمر وتتحرى لها وجوه النصح وتبصرها عواقب الفتنة ، على حسب ما جاء في خطبة رئيس الوزراء .

ثار المتشددون ، وقبل ذلك بقليل ثاروا على « جمعية المواساة » في حلب يزعمون أن نساءها يعملنَ لأجل السفور لا لأجل الخير . ثاروا في حلب ثم في دمشق ، وكيف لا يثورون وهم الذين نهضوا يدعون النساء سنة ١٩٣٠ و ١٩٣١ إلى ترك الزينة تركاً ولبس الملاءة البيضاء فهي أقرب إلى التقوى وأدل على الزهد وليت المرأة تُلف بها اللفة الأخيرة ، في ذلك الثواب . ثم هم الذين أسقطوا حكومة « الكتلة الوطنية » سنة ١٩٣٩ غضباً على مشروع قانون « الطوائف » الذي قدمهُ السيد جميل مردم بك . ثم هم الذين أجمعوا الرأي على مناوأة الشهبندر رحمه الله لاعتقادهم أنه من أنصار التجدد .

ثار المتشددون فطالبوا بإقامة الحجاب من غير تسمح ولا تهوين ، وبالغاء المدارس التجهيزية للبنات ، وبمنع النساء من حضور الحفلات على اختلافها ، وبغير ذلك مما أمضي عنه . ومما حدث أيام الرهج أن حبراً أسود أو أحمر ألقي على سيدات في الطريق ، وقديماً ألقي عليهنَّ « ماء النار » أو « ماء الفضة » ... اللهَ في قوارير دمشق !

***

وقفت الحكومة في وجه المتشددين وقفة صلبة ، فرئيس الجمهورية شكري بك القوتلي ورئيس الوزراء سعدالله بك الجابري ووزير الداخلية لطفي بك الحفار وسائر الوزراء أجمعوا الرأي على قمع الفتنة وعقدوا النية على العنف بمن أثارها ، ولم يكترثوا لهول الحجاب ولا لسلطانه فصرَّحوا بأن « هذه الحوادث جاءت نتيجة لهذه الحرية التي ظن بعض الجهلة أنهُ يستطيع بواسطتها أن يحصل على الحد من حرية بعض الناس ... » وأنهم « لا يستطيعون أن يفرضوا على الزوج إرادتهم بضرورة دعوته لعمل هو أولى به وقد أمره الشرع به ... » وأنهم « لا يمكنهم أن يدخلوا بيوت الناس ويفتشوا عما يجري فيها ، فالأصل براءة الذمة. » وأنهم « عند ظهور نتيجة الحوادث وظهور المسؤولين عما حدث سينظرون في أمرهم وقد

---

(١) أنشأه ملك الامراء تنكز ، وتكامل بناؤه سنة ٧١٨ . راجع « ثمار المقاصد في ذكر المساجد» ليوسف بن عبد الهادي ص ٢٠٢ . نشره محمد أسعد طلس ، بيروت ١٩٤٣ .

اتخذوا تدابيرهم في كل مدينة وفي كل مكان لقمع كل حركة يمكن أن تصطبغ بصبغة من هذه الأنواع ، إما بالتعدي على الحريات أو بالطعن في الأديان ... ومع الأسف تحت اسم الدعوة والتبشير لإقامة أسس الفضيلة والدين والأخلاق أصبحت القضية قضية تحكم . إنه إذا لم يعيَّن من يريدون أو لم يعيّن إمام أو مدرس أو ينقل موظف أو يزد راتب تستغل هذه الأمور للشغب وفرض الأمر بالطلب وهذا ما لا يستطاع تحمله والقبول به »[1] .

وصفوة هذا الكلام القويّ أن الحكومة الوطنية القائمة اليوم في الشام لا ترضى عن أمرين : الأول الحد من حرية الفرد ، فللفرد — من جهة الدستور — أن يرفض الحجاب . والثاني استثمار الدعوة الى إقامة الدين وبث مكارم الأخلاق في سبيل المنازعة والمجاذبة .

* * *

وأما أهل دمشق — ما عدا المتصلبين — فلا أظنني أغالي إذا قلت إنهم ارتاحوا إلى موقف الحكومة ، سواء كانوا من الناصرين لها أو المعارضين ، وفيهم من يسأل المضيّ في الحزم والشدة ، من ذلك ما كتبه الأستاذ نصوح بابيل في صحيفته « الأيام » ( ٢٦ / ٥ / ٤٤ ) قال : « إننا لا نحرص إلاّ على مكافحة الشر والاجرام . وليس للدين ولما يأمر به الدين علاقة ما في هذه الدعوة ، والله وحده أعلم بمن هم أصحاب الدين حقاً ، وبمن يتخذونه وسيلة للاستثمار والاستغلال ، وستاراً يخفي وراءه شتى المآرب والغايات . نحن أمام حوادث وقعت وأرواح زهقت ومأساة مثلت ، فهل نكتفي منها بالانتقام من قبضة أفرادها في يد البوليس ؟ الحق يأمر أولاً بمحاكمة الدافعين والمدبرين » .

وقد وزع أصحاب الأذهان المستنيرة نشرات متعددة أعلنوا فيها استنكارهم للفتنة . ومن الجمعيات التي تضم هؤلاء المستنيرين : الحزب الشيوعي وهيئة التعليم الثانوي والابتدائي وجمعية الشبان المسلمين .

وأحب أن أنقل من هذه النشرات ما يتصل بقضية الحجاب ، إذ عليها مدار هذا المقال : جاء في « نداء طلاب الجامعة السورية » : « أثيرت في دمشق حركة سيئة أدّت إلى خلق جو خانق من الرجعية والخيانة تحت ستار الدين . وإن الشباب العربي المثقف الذي تعنيه هذه الظاهرة المصطنعة والمخجلة والتي تلطخ خلق الأمة وثقافة أبنائها وتقف في طريق نهضتها التحريرية وتطورها الطبيعي اللذين ينشدها، يرى واجباً عليه أن يعلن استياءه

(١) من خطبة رئيس الوزراء .

واستنكاره . ومما يؤلمنا أن يتصدَّر هذه الأعمال رجال مغرضون ومن بينهم نائب أسندت اليه أمانة الأمة ليعمل على خدمة قضيتها لا ليمثل رجعيتها » .

وثمة « بيان جمعية خريجي المعاهد العلمية العالية في دمشق » وهي جمعية تضم نخبة من أهل التحصيل وأرباب الاجتهاد ، فيهم الأستاذ والطبيب والمهندس وغير ذلك ، وقد اجتمعتْ بفريق منهم ، بعد انكشاف الغمة عن دمشق ، وعلى رأسهم نائب رئيس الجمعية الدكتور زكي الجابي . فما جاء في بيانهم :

« إن جمعية خريجي المعاهد العلمية العالية ترى في الحوادث الأخيرة مظاهر مؤسفة لقضايا اجتماعية خطيرة ، تتصل بصميم حياة الفرد والأسرة والمجتمع ، وهي قضايا لم يكن لها في الماضي نصيب من التوجيه العلمي الصحيح ظنًّا من الكثيرين أن الزمن والتطور وحدهما كفيلان بايجاد حل لها فكان أن زادها الزمن والتطور تأزماً . وإن الجمعية إذ تبتهج لما دلَّ عليه قرار المجلس النيابي من روح دستورية شريفة تعتقد أن هذه القضايا جديرة بالعناية . وتأتي قضية المرأة في رأسها : ويتضح حينئذٍ لكل ذي حسٍّ سليم أن الواجب الأول نحو المرأة هو أن تتهيأ لديها المناعة الخلقيةُ القوية لكي تجابه ما تلاقيه وستلاقيه في الحاضر والمستقبل من تطور في وسائل العيش والتقدم المادي وشروط المجتمع وأحداث يفرضها الزمان فرضاً ، وإنما تتهيأ هذه المناعة الخلقية بطرق التربية والتهذيب والتثقيف في المنزل والمدرسة والمجتمع .

« إن الجمعية تعتقد أنه لا يصح أن يتكلم باسم الدين الحنيف من يشاء ويتشرَّف بزيه من يشاء ، ويدعو تحت ستاره إلى ما يشاء ، وأنه لا بدَّ من ضمانات خلقية وعلمية تفرضها وترعاها ، بالاتفاق مع أولي الامر . »

***

ذلك عرض مجمل لما جرى في دمشق قيَّدتُ فيه نواحي الجذب والدفع في قضية الحجاب . وهي قضية تشغل الشام اليوم وستشغلها زمناً لعلهُ لا يطول ثم تنحل عقدتها ، شأنها في بلاد أخر . فبالموازنة يستطيع القارئ المتأمل أن يدرك مغزى ما جرى في دمشق فيرتقب اليوم الذي تتفق فيه الأفهام على أن تخلي بين المرء وما يختار لنفسه ، وتتواطأ الهمم ولاسيما همم النساء أنفسهنَّ على رفع العوائق .

بشر فارس

# اصلاح التربية

## في المدارس المصرية

---

قرأت تقرير حضرة صاحب المعالي أحمد نجيب الهلالي باشا وزير المعارف العمومية المصرية في التعليم في مصر قراءة مقدّر له مُغْرم بموضوعه فاذا به يصوّر نقائص التعليم في إنجلترة والولايات المتحدة وما يقابلها من نقائص التعليم في مصر تصوير خبير عليم .

ولاشكّ أن المراد بالتعليم في هذا التقرير إنما هو التربية فهو في : إصلاح التربية في مصر . وبعبارة أدق : إصلاح التربية في المدارس المصرية . لأنهُ إنما بيّن عيوب التربية في المدارس وحدها ، وبيّنها فيها بأوسع معانيها وهي الجسديّة والنفسيّة والعقليّة لا عيوب التعليم وحدَه .

وهذا التقرير جديرٌ كل الجدارة بأن يتصدى لدراسته ونقده المربون والعلماء والأدباء والساسة وكل قادر على الدراسة والنقد ، وأن توليه الصحف والمجلات على اختلاف ألوانها وأقدارها أكبر نصيب من عنايتها، لأنه يدعو إلى نقض بناء قديم متداعٍ منهار وإلى بناء صرح حديث متين ، وما هذا البناء الذي يستحق كل هـذه العناية ؟ إنهُ المدرسة وكفى . لأنّ المدرسة مهد الحضارة ومصدر الحياة ومنبع كل قوة وعزّة للأمة .

وإذا لم يشأ حضرة صاحب المعالي واضعه أن يستثير الرأي العام المصري على نظم التربية المدرسية القائمة وأن يستنهض الهمم لدراستها ونقدها قبل أن يضع تقريره ويقدمه للمجلسين كما فعل وزير المعارف الانجليزية قبل أن يضع الكتاب الأبيض ويقدمه للمجلسين فانه جعل التقرير مرناً قابلاً للتفاصيل الاصلاحية من كل لون فلا تزال أبواب القول فيه مفتحة .

وإذ كان ذلك كذلك وكانت وزارة المعارف جادةً الآن في وضع القوانين التي تنظم بها المدرسة على وفق ما جاءَ في هذا التقرير فإنّ من التفريط في حقوق الوطن أن يسكت القادرون عن دراسة هذا التقرير ونقده وألاّ تفسح الصحف والمجلات صدورها لكل كلام نافع في موضوعه .

ومن أجل ذلك أكتب هـذا المقال لأعلى المدارس قدْراً وارفعها منزلةً وهي مجلة

المقتطف حاملة لواء العلوم والآداب والفنون في السبعين سنة الأخيرة في العالم العربي كله ، وبذلك أكون قد وضعت الأمانة التي في عنقي في عنقها هي ، وهي خيرُ من يؤدي الأمانة الى أهلها وهم قراؤها فأقول :

إن هذا التقرير الجدير بأكبر عناية مرآة صافية مجلوّة تتجلّى فيها مشكلات التربية في المدارس المصرية أوضح تجلٍّ ويزيدها وضوحاً موازنتها بنظائرها في إنجلترة وأميركة ويمكن حصر هذه المشكلات فيما يأتي :

(١) أرستقراطية التربية (٢) انفصام عرا المدارس المصرية (٣) اقتصارها على تعليم العلم وحده (٤) انقطاع الصلة بينها وبين عضديها وهما المنزل والمجتمع (٥) توقيتها بأعمار وأوقات قصيرة (٦) المدارس الأهلية (٧) المباني المدرسية (٨) الامتحانات (٩) المعلمون (١٠) مواد الدراسة *

وشرّ هذه المشكلات وأجمعها لكثير من النقائص هي أرستقراطية التربية أو اختصاص القادرين على بعض نفقاتها بخير وسائلها وهم الأقلية الصغرى وحرمان غير القادرين على بعض نفقاتها هذا الخير وهم الأكثرية الكبرى ، وقد عني هذا التقرير بهذه المشكلة أكبر عناية حتى كأنه ما وضع إلاّ لأجلها .

وذلك لأن هذا الاختصاص جديرٌ أن يرتفع بالأقلية إلى أعلى ما تحب من درجات الرقي الجسدي والنفسي والعقلي ومن رغد العيش وترف الحياة ونعيمها ومن مناصب السيادة والجاه العريض ، وحرمان الأكثرية حقيقٌ أن يهبط بها إلى أسفل ما تكره من دركات الاضمحلال الجسدي والنفسي والعقلي ومن المعيشة الضنك ومن المذلة والعبودية . وذلك قمين بأن يجعل الأمة طبقتين سيدة ومسودة ويوسع ما بينهما من خلاف ويقضي على وحدة الأمة وتجانسها وتماسكها القضاء المبرم ويسارع بها إلى أسوأ مصير .

وليس لهذا البلاء المبين من سبب إلاّ قدرة الأقلية على بعض النفقات وعجز الأكثرية عنها فالاختصاص بخير وسائل التربية قائم على القدرة المالية لا على قدر المواهب والملكات النفسية والعقلية التي تؤهل الطالب لاجتياز مراحل التربية حتى نهاياتها بتفوّقان ثم التصدر لخدمة الوطن عن جدارة واستحقاق كما يقول التقرير . ١

ولا علاج لذلك إلاّ إلغاء النفقات المدرسية لا من المدارس الابتدائية والثانوية حسب كما ارتبطت حكومتنا إنجلترة والولايات المتحدة وكما ارتبطت الحكومة المصرية بهذا التقرير الذي أقرّه المجلسان بل منهما ومن جميع مراحل التربية الأخرى كما فعلت دول أقل منا عدداً وثروة بل وحضارة .

غير أن هذا الالغاء في إنجلترة وأميركة سلاح ذو حدين سيقضي على أرستقراطية التربية فيهما قضاءً لا مردَّ له ، ولكنه في مصر سلاح كهام لا يمكن أن يبلغ الحز ما دام للتربية الأولى في بلادنا نوعان من المدارس أحدهما رياض الاطفال فالمدارس الابتدائية وباب هذا النوع مفتوح على مصراعيه لمراحل التربية الأخرى ، والآخر المدارس الأولية وبابه موصد كل الإيصاد دونها فلا منفذ منه اليها .

ولسنا نملك وسيلة لتوزيع الأطفال وهم أعظم كنوز ثروتنا على هذين النوعين توزيعاً عادلاً حكيماً على قدر المواهب والملكات والميول لا على قدر ما يملكون من مال ، وهم منذ قبولهم في النوعين من هذه المرحلة حتى نهايتها في سن لا يصح فيها الحكم على مصيرهم فقد كاد المربون في الدول التي نقل عنها التقرير وفي مصر يجمعون على أن أكثر الاطفال إن لم يكن جميعهم لا يمكن أن تظهر جميع مواهبهم وميولهم للأعمال التي سيزاولونها في كبرهم ظهوراً واضحاً صادقاً يعتد به ويعتمد عليه قبل سن الثالثة عشرة وهي السن التي يقضونها كلها في المرحلة الأولى بنوعيها . فقد جاء في التقرير : ويلاحظ أن رجال التربية يرون — مستندين إلى تجاربهم الماضية — أن اختيار نوع التعليم والتوجه إلى مهنة خاصة لا يصح أن يكون في سن الحادية عشرة كما لا يصح أن يستند إلى امتحان يعقد في هذه السن لأنها سن مبكرة وقد أخذ الكتاب الأبيض بهذا الرأي وقرر أنه لا يصح بمقتضى امتحان في هذه السن المبكرة الحكم على مستقبل الصبية والمهن التي ينبغي أن يمارسوها في حياتهم فضلاً عن أن المواهب والاستعدادات الحقيقية لا تبرز في هذه السن المبكرة ولذلك رأوا أن يكون توزيع التلاميذ في سن الحادية عشرة على مختلف انواع التعليم الثانوي توزيعاً مبدئيًّا يعاد النظر فيه في سن الثالثة عشرة ( ص ٢٤ س ٢١ ).

ولسنا نملك وسيلة لا حرج فيها ولا ضرر لوصل أحد هذين النوعين من هذه المدارس بالآخر وصلاً يسوّي بينهما وبين تلاميذها في الوسائل والنتائج وييسّر لذوي المواهب والملكات الصالحة الاستمرار في مراحل التربية حتى النهاية ، ما دامت المدرسة الأوّلية لا تؤهل للمدرسة الثانوية كالمدرسة الابتدائية . وما دام هذا الفارق بين المدرستين الأولية والابتدائية قائماً لا يمكن ان يرجى لديمقراطية التربية قيام . إنهما نقيضان لا يجتمعان . ولا علاج لذلك إلاَّ ما أقوله الآن وهو رأي لي قديم قلته في مؤتمر التعليم الأولي سنة ١٩٢٥ وما كنت أقوله قبل ذلك وهو إما إلغاء رياض الأطفال والمدارس الابتدائية وجعل المدرسة الأولية هي مدرسة المرحلة الأولى الالزامية الموصلة للمدرسة الثانوية وإما إلغاء المدرسة الأوّلية وإبقاء رياض الأطفال والمدارس الابتدائية وجعلهما المرحلة الأولى

الالزامية الموصلة للمدرسة الثانوية . فاذا لم يكن بدٌّ من بقاء المدرستين الأولية والابتدائية فلتكن إحداهما وهي الأولية مقدمة لا بدَّ منها لدخول الأخرى وهي المدرسة الابتدائية فتحل بذلك محل رياض الأطفال وتسمّى باسمها إن شئنا وتكون المدرستان مرحلة واحدة هي المرحلة الالزامية الموصّلة للمدرسة الثانوية . وفي كل حال من هؤلاء الأحوال الثلاث يُفْرَض على جميع الأبناء الأغنياء والفقراء معاً اجتياز هذه المرحلة وتوجّه كل الجهود والعناية والمال لترقيتها وتعميمها حتى تتسع طولاً وعرضاً وعُمْقاً على وَفْق تعبير التقرير ويمكن مع ذلك أن يكون من مدارس المرحلة الأولى المذكورة في أي وضع من الأوضاع الثلاثة المذكورة ريفي وحضري ، فان ذلك لا يؤثر بأية حال في ديمقراطية التربية

فاذا لم نفعل شيئاً من ذلك وأبقينا المدرستين الأولية والابتدائية على ما هما عليه الآن من اختلاف في الوسائل والغايات كان من المستحيل أن تحقق العدالة الاجتماعية في أحق بيئاتها بها وهي المرحلة الأولى من التربية التي تعد من مراحل التربية الأخرى كالأساس من البناء .

أما العقبة الكبرى في سبيل هذه الأوضاع وهي اللغة الأجنبية في المدارس الابتدائية فهذه يجب وجوباً تربوياً وقومياً إلغاؤها إلغاءً تامّاً لا رجعة فيه أَبَدَ الآباد ، لأن اللغة أداة التثقيف والتهذيب ، والأطفال في هذه السنّ سنّ التربية الأولى حديثو عهد باللغة وبالمعارف والتداريب التي لا بدّ منها لتثقيفهم وتهذيبهم ، ولا نعتمد في انتشارها بينهم إلاّ على اللغة القومية ، هذه اللغة التي تملأ أسماعهم وأبصارهم وتملك مداركهم ومشاعرهم في بيئات التربية الثلاث المنزل والمدرسة والمجتمع ، ولا تدع لغيرها من اللغات سبيلاً إليهم إلاّ إذا وهَنَت هي ووهَنَ معها التثقيف والتهذيب القوميان . وأيّة أمّة من الأمم التي نريد أن نساير ركبها في الحضارة وفي مقدّمتها إنجلترة وأمريكة تعلّم أبناءها في مدارسها الابتدائية لغة أجنبيّة ؟ إنها إن فعلت ذلك كانت غير جديرة بأن تكون قدوة لنا وبأن نقلّدها فيما فعلت من مُنْكَرٍ بيّن .

ومن شرّ هذه المشكلات وأسوئها تأثيراً في حياتنا انفصام عُرا المدارس المصرية أو عدم اتّصال بعض مراحلها ببعض اتصالاً وثيقاً يُيَسّر للطالب الانتقال من أيّة مرحلة إلى غيرها أرقى منها أو أصلح له منها لما في هذا الانفصام من عُقْم محقّق بالقضاء على كثير من المواهب والملكات ومصالح الوطن، فكثيراً ما ظهر على كثير ممن أتمّوا الدراسة في المدارس الأولية سلامة المدارك وسموّها والقدرة الفائقة المؤهلة لاجتياز مراحل التربية حتى نهاياتها العليا، ولكنهم حُرِموا الاستمرار في معاهد التربية لتكميل أنفسهم ورفع شأنها

وحُرمت الأمة ثمرات أعظم غرس فيها لا لشيءٍ إلاّ لهذا الفارق الذي قطع صلة مدارسهم الأولية بالمدارس الثانوية فما بعدها وهو اللغة الأجنبية.

وكثيراً ما ظهر فيمن تربوا في مدارس المعلمين الأولية ما يؤهلهم لإتمام التربية في معقد آمالهم الأسمى وهو دار العلوم وتحرَّقت نفوسهم شوقاً إليها وحفيت أقلامهم وأقدامهم في السَّعي لدخولها وهم يحرمون وتحرم الأمة ثمرات رقيهم النفسيّ والعقليّ. ولطالما ذابت نفوس المربين في المدارس الأولية للمعلمين والمدارس الأولية حسرات على النبوغ الذي قُبر فيها لأنه لا يجد له منفذاً.

وفيمن يربَّون في مدارس التعليم الفني المتوسط الزراعي والصناعي والتجاري من إذا ذاقوا حلاوة الفن في هذه المدارس ومرنوا عليه وامتزجوا به فيها وتاقت نفوسهم إلى الاستزادة منهُ حتى نهايته وإلى الكمال والرقيّ في هذه الحياة وجدوا أبواب كلياته ومدارسه العليا موصدة في وجوههم فتموت فيهم الهمم والآمال وتفقد الأمة بذلك ثروةً لا تقدَّر.

وفي معاهد الأزهر الشريف المختلفة طلاّب يتبيَّنُ لهم أنفسهم أنهم ليسوا أهلاً لما خلق لهُ الأزهر وهو مناصب الهداية والارشاد الدينية وتنصرف نفوسهم عن معاهدهم ولا يبقون فيها إلاّ لأنهم لا يجدون سبيلاً إلى المدارس المدنية. وفي المدارس المدنية من تنمي فيهم العاطفة الدينية نماءً كبيراً ويتوقون إلى الانتقال إلى المعاهد الدينية فمناصب الهداية السامية ويزهدون فيما هم فيه ولكنهم لا يجدون إلى ما يبتغون سبيلاً

فهل من الخير والمصلحة للدين والدنيا معاً أن يبقى فريق من شباب الأمة في ناحية وقلوبهم وعقولهم في ناحية أخرى. أليس انفصام عرا المدارس المصرية من شر نقائص التربية ومصائبها؟ وهل في إنجلترة وأميركة أمثال هذا الانفصام. وهذا التعسير على طلاّب التثقف والتهذب؟ وهل في الدنيا عقمٌ شرٌّ من هذا العقم وخسائر أفدح من هذه الخسائر؟

إني وإن لم أكن من أنصار مسايرة ركب الحضارة الغربية شبراً بشبر وذراعاً بذراع موافق على أن نساير هذا الركب فيما ورد في هذا التقرير من شؤون التربية، لأن المدرسة هي إحدى القوتين اللتين فاقتنا فيهما أوربة وأميركة كل الفوقان، ويجب أن نلحقها فيهما. أما القوة الأخرى فهي المصنع وبخاصة المصنع الحربي. والمدرسة هي الأصل، هي مصدر كل القوى بشرط ألاَّ نشذَّ عن مسايرة أوربة وأميركة فنستبقي بعض آثار الارستقراطية وبعض آثار الانفصام.

عبد الله أمين

# ديوان منسوب الى المعري

لأسعد طلس

---

الديوان الذي ننشره هنا هو أحد الآثار المجهولة من أدب المعري[1] وهو رسالة لطيفة محفوظة بدار الكتب الظاهرية تحت رقم ٥٥٤٢ في ثماني عشرة ورقة ( ٢١ × ١٧ سنتيماً ) مكتوبة بخط يرجع إلى القرن الحادي عشر. وقد اختلف العلماء في أمر هذا الديوان ، فالأستاذ سليم الجندي يرى في مقال نشره بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق عدد آذار ( فبراير ) ، نيسان ( مارس ) سنة ١٩٤٣ أنه لأبي العلاء لأسباب ذكرها . ويرى الأستاذ خليل بك مردم أنه لمتأخر حاكى في بعض الأبيات أسلوب أبي العلاء . ورأيي أن في الديوان ما يدعو الى الشك في النسبة إلى أبي العلاء ، وفيه ما يدعو إلى القطع بأنه من شعره .

أما ما يدعو إلى الشك فأمور ، منها : أن الديوان كله في الغزل كما سيرى القارئ وليس فيه إشارة إلى حلب ولا إلى ناحيـة من نواحيها ، كما يقول كاتب المقدمـة ، إلا في البيتين الآتيين . وهما قوله :

فُرات الحمى من لي بتبريدك الحشا ودونك سورٌ من قنا وسيوف

وقوله : قتيلاً إذا ناديتمـــوه أجابكم له شرق بالدمع إن ذكر الشرقا

فأنت ترى أنه يتشوّف في البيت الأول إلى مياه الفرات ، والفرات من انهار حلب كما أنه من أنهار العراق . وفي البيت الثاني يتشوّق إلى الشرق والشام شرق كما أن العراق شرق الشرق !!

ومنها أن في لغة الديوان — كما يرى الأستاذ الجندي — بعض الركاكة ، وإن كان يغلب على ظننا أن مصدر هذه الركاكة — أو أكثرها — راجع إلى الناسخ الذي شوّه الديوان تشويهاً ما بعده تشويه . وما نريد أن نضرب الأمثلة على ذلك فان في ذلك مضيعة للوقت .

ومنها ما في الديوان من استعارات وتشبيهات وزخارف يمجها الذوق ، ولم نتعوّد أن نجدها في الأسلوب العلائي ، كقوله :

---

(١) عكفت على دراسة أبي العلاء ، واعتمدت على مخطوطات في الخزائن ، من ذلك نبذة من « الأيك والغصون » وأخرى لم تنشر من « الفصول والغايات » وهـذا الديوان ، وقد وصلت الى نظرات جديدة ضمنتها كتاباً لطيفاً سميته : « نظرات جديدة في أدب المعري » وألحقت به ما لم ينشر بعد من أدب أبي العلاء . ثم بعثت بالكتاب الى الدكتور طه حسين بك بمناسبة إشرافه على إحياء آثار المعري .

رشأ صام علواً فادعت يثرب الحشا      وأفطر سفلاً فادعت ردفه مصر

أما الأمور التي تدعو إلى القول بأنهُ من آثار أبي العلاء المعري فهي كثيرة :

منها أن من ينعم النظر في الديوان يرَ فيهِ شيئاً كثيراً مما كان أبو العلاء يأخذ نفسه به من لزوم ما لا يلزم ، وحسبك أول البيت وآخره وما الى ذلك من القيود. ومنها أن في لغة الديوان إغراباً كثيراً وأبو العلاء ممن كانوا يؤثرون الاغراب في شعرهم ونثرهم . ومنها أن الديوان مملوء بالمحسنات المعنوية أو اللفظية التي كان المعري يتعمدها في شعره . ومنها أن روح الزهد والنسك التي تظهر في ثنايا بعض القصائد كثيرة الشبه بنهج أبي العلاء في اللزوميات .

لهذه الأمور نميل إلى أنه غير بعيد أن يكون لأبي العلاء ، وها نحن أولاء ننشره ليرى القراء رأيهم فيه والسلام .

دمشق      أسعد طلس

## ديوان أبي العلاء المعري رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أودع في كل قلب ما أشغله ، الخالق الذي خلق الإنسان وبالعقل فضّلهُ ، وأوضح لذوي الأدب سبيل البلاغة فاتضح ما يجلو من وجوه المعاني عيون الملح ، وخصَّ من شاءَ بالفضائل من العباد ، وقسمهم أقساماً فهذا مفيد وهذا مفاد ، وجعل هذا الإنسان قابلاً لكل مراد ، والصلاة والسلام على أشرف العباد، وعلى آله الغر الجياد .

وبعد فقد قال أبو العلاء المعري وكان ببغداد يتشوَّق الى حلب ونواحيها ، ونظم هذا الديوان ، وبالله سبحانه التوفيق[1] .

### حرف الهمزة

أما لَكَ يا داء المحب دواء      بلى عند بعض الناس منك شفاء

أسيرُ العدى بالمال يفديه أهله      وما لأسير الغانيات فداء

أسود الشرى في الحرب تحمي نفوسها      بنجدتها ما لم تمنَّ ظباء

إذا كنت خلواً فاعذر الصبَّ في الهوى      فما المبتلى والمستريح سواء

أتأمرني بالصبر عمن أحبهُ      وهيهات ما لي في هواه عزاء

أموت اشتياقاً ثم أحيي لشقوتي      كذلك حياة العاشقين شقاء

---

(١) هذه المقدمة مع العنوان من قلم الناسخ في رأينا

إليك فلو ذقت الهوى لعذرتني جفونك وسنا والفؤاد هواء
ألا إن قلب الصبّ في يد غيره (١) يقلبهُ بالطوع كيف يشاء
أنا لمت أهل العشق قبلك في الهوى فها أنا أدري مثلهم وأساء
أصابت فؤادي أسهم اللحظ إذ رمت فلله قتلى الأعين الشهداء

## حرف الباء

بكت رحمة للصب عين عدوه فما لحبيب القلب لا يرحم الصبّا
بخيلٌ بأن يحيي القتيل بلحظه وأن يرد الظمآن بارده العذبا
بعيدٌ على أن الديار قريبة فحتى متى بالبعد تمزج لي القربا
بنفسي حبيبٌ خانني فوفيته فزاد قلىً فازداد قلبي له حبًّا
بذلت له الود المصون وأدمعي ولم يقتنع حتى وهبت له القلبا
بدا لي فقلت اردده قال ملكته ولو لم تهبهُ لي تملكته غصبا
بعينين هاروتيتين كأنما يجرّد نحوي منهما صارماً عضبا
براني هوى الظبي الغرير وقادني ذليلاً وكم راض الهوى جامحاً صعبا
بللت ردائي بالدموع وإنما يزاد بها الباكي على كربه كربا
بعثت رسولي بالخيال الذي سرى إليك بدمعي والنسيم الذي هبّا

## حرف التاء

ترى قبّلتك الريح عنيْ وبلغت من السر ما استودعتها حين هبت
تحية مشتاق يعض بنانه إلى قدم زلت ولم تتثبّت
تركت التي من أجلها جدّ بي السرى على أنني أحببتها وأحبّت
تعجبت إذ مدّ النوى لوداعها يداً كيف لم تشلل هناك وتبّت
تقول اصطبر كم ذا البكاء فقلت ما دموعي جرت بل أبحر الشوق عبت
تميمية ترقى الضجيع بريقها إذا عقرب منها على الصدغ دبت
تبيت على شمس الضحى فكأنها مع الحور في دار النعيم تربت
تهب رياح المسك من نفحاتها فما استنشقتها الريح إلاّ وهبت
تراءت لعيني في المنام فأطفأت بزورتها نار الهوى وهي شبت
تذكرتها حتى إذا ما تماثلت طربت كأني قد دعوت ولبّت

(١) على هامش الاصل : « في نسخة : حبه »

## حرف الثاء

ثملت بذكراها وطبت كشارب لها بالمثاني وحده والمثالث
ثلاث سلبنَ القلب حسن عزائه وألبسنني ثوبي خليع وناكث
ثقالة ردفيها ورقة خصرها وسحر العيون القاتلات البواعث
ثقفت بعينيك الأسود كأنما هما سيف جبار مصلاً عائث (؟)
ثقي بي على ذا النأي إني لمقسم بعينيك لا أشكو ولست بحانث
ثبوتاً على عهدي الذي كان بيننا إذا غيّر الأحباب صرف الحوادث
ثنتني صروف الدهر عنك وما انثنى فؤادي لجسمي راحلٌ مثل لابث
ثمار المنى من يجنها دون إلفه يجد طيبات العيش مثل الخبائث
ثلمت ضوى صبري (؟) فأورثني الضنا فويح غرام للضنا فيك وارث
ثوائي على حر الغضا مذ فراقكم فهل من خيال عن غرامي باعث

## حرف الجيم

جوًى تتلظى ناره في جوانحي فكيف ينام الليل حرّان منضج
جفاه الكرى والطيف مذ واصل البكا فحتى متى يبكي ولا يتفرّج
جرى القدر الجاري عليه بفرقةٍ فليس له من داخل الهمّ مخرج
جليدٌ على الكتمان لو لم تبُح به دموع على خديه بالدم تمزج
جعلت امحّي ما كتبت بعبرتي وكدت لمقمي في كتابي أدرج
جزى الله من أدّى رسالة عاشق وحسن أعذاراً من البين تسمج
جواباً لعل الكتب تطفئ لاعجاً على كبدٍ من ذكركم تتوهج
جميلاً فما فعل الجميل بضائع ولا سيما في الصب والصب أحوج
جنيت على نفسي الهوى فقتلتها وحبي بريء من دمي متحرج
جلاء همومي طيفكم يوضح الدجى وإلاّ فأنفاس الصبا تتأرّج

## حرف الحاء

حسبت النوى تسلي فزدت بها هوى واغلقت باب الوصل من حيث يفتح
حرمت وصال الحب في طلب الغنا وأي غنى في وجهه كنت أربح
حباني بياقوت من الدر أحمر ودر فم منه سنا البرق يلمح

حبيب أحيّا منه بالبدر ناطقاً ... وأغبق خمراً من جناه وأصبح
حسان الدمى تصبو إلى حسن وجهه ... وصلد الصفا من لمس كفيه يرشح
حُسدْت عليه قاتل الله حاسدي ... فضنّ به الدهر الذي كان يسمح
حمدت زماني فيـــه ثم ذممته ... وما زال هذا الدهر يهجى ويُـمدح
حديثٌ له في النفس لست أذيعه ... بتذكاره يؤذي الفؤاد ويجرح
حضرنا وإن غبنا جسوماً وخاطراً ... فنحن قريب والمنازل نزَّح
حيا عبرتي يحيي الثرى بعد موتها ... وأيسر منهُ الوابل المتبطح

## حرف الخاء

خلعت عذاري في اللاح ولم أبل ... بما يستريح حاسد لي لاطخ
خليون يلحون الشجي على البكا ... وليس لأحكام الأحبة فاسخ
خدعتكم لما سلوت تجاهلاً ... وقلبي في علم الصبابة راسخ
خليلي إن النار في مشرقية ... لها فتكات المرد وهي مشايخ
خلا أن هذا الحب طلَّ به دمي ... وقومي جبال الملوك شوامخ
خضعت لمن أصبحت في الحب عبده ... على أن مجدي في الأعزّة باذخ
خطوب الهوى حلت فكم هدمت عليَّ ... وكم شيبة من عاشق وهو شارخ
خبت كل نار غير نار صبابتي ... ستبقى وإسرافيل في الصور نافخ
خذي أدمعي ياريح هدياً إلى الحمى ... لتسقيهم منها الغروب النواضح
خواطر قلبي أخبرتني بأنهم ... على العهد لم ينسخ ودادي ناسخ

## حرف الدال

ديارهم لا غيرتك يد البلى ... ولا زال يسقيك الحيا ويجود
دنوت من القلب العميد على النوى ... وكل له قلب عليك عميد
دعوناك مرضى لو شفيت مجيبة ... ألم تسمعينا نحن منك بعيد
ديون علينا يقتضيها غريمها ... فلا قضيت إلاَّ وأنت شهيد
دجى الليل صبح فيك إذ أنت مطلع ... لكل هلال أطلعته سعود
دهتك الليالي بالنوى فتفرَّقت ... جآذر كانت تلتقي وأسود
دوائر ذي الدنيا تدور بأهلها ... فتنقص حالات الفتى وتزيد

دراري سعد الفعل (؟) لما تجانحت   فبيض الليالي في جفوني سود
دموعي لها من أربع وحشاشتي   وفيها امانيّ فأينْ تريد
دفعت اليها في الوداع وديعة   وقلت احفظيها إنني سأعود

## حرف الذال

ذكرت زمان الوصل فيها فليس لي   عزاء ولا صبر ولا متلذذ
ذهبت وقد سدَّ الفراق مذاهبي   وقلبي إلى نحو الأحبة مجبذ
ذهلت فما أدري إلى أين قادني   قضاء على الانسان يجري فينفذ
ذممت حياتي كيف أحمدها وقد   تركت من اللذات ما كنت آخذ
ذللت فطاماً بعد عزّ رضعته   وعرَّضت نفسي حيث مالي منفذ
ذنوبي لعمري غرقتني فأوبقت ، وإلاَّ فاني قلّب الدهر جهبذ
زمام الهوى يرعى فهلاً رعيته   وكنت بقربي من نوى أتعوَّذ
ذويت وعودي بالرضاب اخضراره   صديت وقلبي بالتواصل يشحذ
ذكاه وبدر التم يحتجبان من   محاسن مَن قلبي عليه مجذذ
ذوائبه مسكٌ ثنـاياه لؤلؤ   وخداه تبر والعذار زمرذ

## حرف الراء

رشاً صام علواً فادعت يثرب الحشا   وأفطر سفلاً فادعت ردفه مصر
ربيب بمقاصير أبوه وأمه   وإن كان أبهى منهما الشمس والبدر
رضيت بهِ جوراً على حكم جوره   وقلت لقلبي اصبر لعلّ الهوى أجر
رأى ذلتي في العشق فاعتزَّ واعتدى   على مهجة فيها له النهي والأمر
رفعت الى قاضي هواه ظلامتي   فوقّع المظلوم موعدك الحشر
رحيمٌ لغيري والرخيم كلامه   فما بالدماء (؟) ولا قلبه صخر
رعى الله من يهوى هواي وإنني   على العهد باقٍ لا سلو ولا غدر
ربى الوصل قبل اليوم كانت حواليّاً   بأوجه أحبابيً فعطلها الدهر
رياضاً سقى ماء الغمام شقيقها   وجادت بلا غيث أقاصيها الخمر
رياحين ما حيّا الوصال بشمها   قبيل الهوى حتى أتيح له الهجر

## حرف الزاي

زخارف دنيانا الأنيقة أصبحت هشيماً كما رث الرداء المطرز
زمان الصبا لله درك لم تزل مواعيد من نهوى لنا فيك تنجز
زيارتنا في كل يوم وسرنا جهاراً بلا واشٍ يرانا فيغمز
زررنا على غير الفواحش قمصنا ولم نستجز إلاّ الذي هو أجوز
زنت أعين منا وعفت ضمائر فبقنا وأيدينا من اللمس تحجز
زرى وجه من نهوى على البدر إذ بدا وأعجزه حسناً وما كان يعجز
زيادة بدر التمّ كالنقص عنده فللبدر منه خجلة حين يبرز
زمام قلوب العاشقين بكفه يقاد كمغلول اليدين ويحفز
زبى الأسد أو أشراكها لحظاته وسيف الردى فيها فكيف تحرز
زعمتم بأن الحب فيه تذلل صدقتم وفيه الملاح تعزز

## حرف السين

سلامٌ على الأحباب تفتقه الصبا كما فتق المسك الزكي التنفس
سقوا الغيث حتى يورق العيش عندهم ويختال في حليٍ وأثواب سندس
سواء عليَّ الليل والصبح بعدهم ولو كنت (؟) لاحلى كل حندس
سناهم سراجي والخدود شقائقي وتلك العيون البابليات نرجسي
سألت وميض البرق حمل رسالتي إلى ذي دلال مطمع لي مؤيس
سرى موهناً يحدو دموعي إلى الحمى ويحكي لعيني ثغر أشنب ألعس
سموت بطرفي نحو إبريز خده لأغنى فقال ارجع غنيًّا كمفلس
سعيداً شقيًّا بين نار وجنة من الصبر عرياناً من السقم ملبس (؟)
سباني بمخطوط من المسك أسود على صحن مسبوك من التبر أملس
سويداء قلبي للأحبة منزل وذكراهم في ظلمة الليل مؤنسي

## حرف الشين

شفار الهوى قصت جناحي فلم أطر وقد يطمع المقصوص أن يتريشا
شققت جيوب الدمع في الربع إذ عفا ونادت ربع الآنس إذ بات موحشا

شهدنا لقد أرواك غيث عيوننا (١)
شربناه فازددنا هياماً وغلة وهل تطفئ العينان ما شبّ في الحشا
شفا الله أكباد المحبين من جوًى وكيف لسان الدمع عنهم فما وشا
شقي بالهوى العشاق أو سعدوا به وماتوا ولو داواهم الوصل عيّشا
شغفت بمن يحكي الغزال إذا رنا ويحكي قضيب الخيزران إذا مشى
شويدن أنس صاد قلبي بلحظه وطاووس حسن في فؤادي عششا
شرعت لقلبي الصبر عن حسن وجهه فما هو إلاَّ أن رآه فأدهشا
شديد القوى والصبر كنتُ فهدّني كفى حزناً أن يصرع الأسد الرشا

## حرف الصاد

صدقت وقد أودى الهوى بحشاشتي عشية زمت للرحيل قلاص
صدرت عن الماء الذي كنت وارداً وأقوت رسوم للصبا وعراص
صممت عن الحادي عميت عن البكا (٢) لبين ليس منه مناص
صروف الليالي فوّقت لي سهامها فهل لي من الصبر الجميل دلاص
صرمنَ حبال الوصل عن شمس كلةٍ عليها من الليل البهيم عقاص
صبوت إليها فاشترتني بلحظها رخيصاً كذاك العاشقون رخاص
صفا ودها لو لم يحل دون وصلها وشاة وحراس عليَّ حراصْ
صبوت وكلتا مقلتيَّ سخية لإنسانها تجري الدموع مقاص ( ؟ )
صحا كل قلب فاستراح من الهوى وليس لقلبي من هواه خلاص
صلوا في الهوى نقتص منكم جروحكم فقد قال ربي والجروح قصاص

## حرف الضاد

ضنى كان أبداه الهوى فأعاره سواداً بدا في حمرة وبياض
ضواحك أزهار وأعين نرجس أشارت بألحاظ إليّ غضاض
ضحىً وجنا ورد يعود بنفسجاً إذا ما اشتهاه عاشق لعضاض
ضع السيف واقتل مهجتي بمحاجر مراض وإن تخبر فغير مراض

(١) لم نستطع قراءة هذا الشطر لسوء حال المخطوطة (٢) بياض بالاصل

ضربت بها في كل قلب أسرته فكم من قتيل وهو ليث غياض
ضلالة قلبي وهي عندي هداية تنزه طرفي والملاح رياضي
ضمنت لها أن لست أسلو عن الهوى وحكمته فليقض ما هو قاضي
ضننت بسلواني وجدت بمهجتي فهل أنت عن فعل المتيم راضي
ضلوعي على نار من الوجد تنحني ولكنني جلد القوى متغاضي
ضغائن في صدر الليالي على الفتى فمستقبل من خطبهن وماضي

## حرف الطاء

طباعي أبت إلاَّ التذلل في الهوى فلا زال خدي للحبيب بساطا
طريف الهوى بين الحشا وتليده طويتهما طي التجار رياطا
طعمت الهوى في لحظه وشربته فلم أستطع نحو السلوّ نشاطا
طلبت سبيلاً للسلوّ فلم أجد (١)
طمعت بأن أسلو الهوى فغلبتني وقد ضربتني مقلتاك سياطا
طويت بطون العيس نحوك حجة وأوثقت خبلي في هواك رباطا
طعنت بلحظ من بعيد وهكذا قنا اللحظ يبلغن النجوم شطاطا
طربنا ومن ألحاظ عينيك سكرنا فأية خمرٍ منهما نتعاطى
طوال الليالي فيك أرعى نجومها إذا ما غشى النوم الجفون نخاطا
طمى بحر شوقي والتظى جاحم الهوى وهذا بقلبي ثم ذاك أحاطا

## حرف الظاء

ظفرت بقربٍ منك حتى إذا صفت حياتي وأحظتني لديك حظوظ
ظعنت وقلبي في يديك وديعة فهل أنت للمستودعات حفوظ
ظلمت فؤادي كيف أزمعت دونه وأنت فؤادي إن ذا ليغيظ
ظمئت وما يشفي لي الماء غلة وأشقى كأني للزفير أفيظ
ظلال الهوى عادت حروراً (وأصبحت) سموم اشتياق كدت منه أفيظ
ظننت بأن الدهر يبقى مسالماً وهيهات حرب النائبات كظوظ
ظباء الهوى والهجر والعذل في الهوى وواشٍ وغيران عليَّ حفيظ
ظلامٌ على صبحٍ وغصنٌ على نقا هنالك يختال الهوى ويحوظ

---

(١) بياض بالاصل

ظراف لعمري العاشقون وإنما يلومهم قاسي الفؤاد غليظ
ظهرت على الحساد في الفضل إنني صميمٌ وكل الحاسدين وشيظ

## حرف العين

عجبت من الأيام كيف تقلبت بنا فتفرّقنا كأن لم نجمع
عباديد شتى مثل ما أسر الأسى فرائد من دمع الفريد مفجع
على بينكم أعزز عليّ ببينكم لقد زاد حرقاً في الحشا المتقطع
عدوني وإن لم تنجزوا ربَّ موعد شفا علتي منكم وإن خاب مطمعي
عسى الطيف أن يزدارني فأبثه سرائر شوق للحبيب المودع
عهدت الهوى حلواً فلما شربته تجرَّعت منه غصة المتجرّع
عشيات أيام الحمى جادك الحيا لقد كنت ريحان المحبين فارجعي
عذارك مسك أذفر في أنوفنا فشوقاً إلى مشمومك المتو (١)
عميد الهوى يشفي به من سقامه فأهدي الينا نشره بالتمنع
عفا الله عن ذا الدهر إن ردَّ وصلها وشعّب منا كل قلب مصدّع

## حرف الغين

غرقت ولا ماء سوى عبرة جرت وحق الأسى في باطل الصبر دامغ
غداة أجابت عيننا داعي النوى وودعني بدر من السجف بازغ
غضضت جفوني عن سناه مهابةً وفي القلب شيطان من الحب نازغ
غزال تحلى بالبهاء وبالسنا وناهيك من حلي له الله صائغ
غرير شممت منهُ فيه (؟) بسحرةٍ فقلت له هل أنت للمسك ماضغ
غيور أبوه كيف لي بلقائه ومن دونه سمر القنا والسوابغ
غوى القلب فيه وهو لولاه راشد ومُلّىءٌ وجداً وهو لولاه فارغ
غلبت عذولي حجة بجفونه وهل حجج العشاق إلاّ بوالغ
غريت أنا والعاذلون بحبه وفي مثله عذر المحبين سائغ
غزتني عيون أيدتها على دمي عقارب مسك للقلوب لوادغ

## حرف الفاء

فنيت هوًى إلاَّ حشاشة مهجتي أجود بها في مربع ومصيف

(١) لم نستطع أن نتبين بقية كلمة القافية. ولعلها : المتضوع

فريداً من الأحباب أبكي طلولهم وأكثر فيها لو شفيت وقوفي
فيا أسفاهُ للمغاني كأنها سطور محاها الدهر غير حروف
فقدت شموساً كنت أجلو بها الدجى إلى أن أصابتها النوى بكسوف
فراق نعمنا بالتواصل قبله ولكنها الأيام ذات صروف
فديت بمهضوم الحشا ناعم الصبا (١)
فتور بعينيه عليَّ أعانه فيا من رأى مستنصراً بضعيف
فداء لهُ نفسي على السخط والرضى وطوبى لنفسي إن بليت وعوفي
فُراق الحمى من لي بتبريدك الحشا ودونك معور من قنا وسيوف
فؤادي الصدى (١)

## حرف القاف

قليلٌ لعيني أن تصوب صبابة إذا شمت من تلقاء أرضكم برقا
قضاة الهوى والله يسألكم غداً عن العاشق المسكين ما باله يشقى
قفوا وانصفوا من عاد من جودكم بكم فلم يستطع صبراً فشأنكم رفقا
قتيلاً إذا ناديتموه أجابكم له شرق بالدمع إن ذكر الشرقا
قيامته قامت ولكن خيالكم يمنيه باللقيا فمن ذا يبقى (؟)
قلىً ووداداً هم (؟) في موضع الهوى فلا سلوة عنكم وإن جل ما ألقى
قنعت بوصل الطيف إذ قادني الكرى فكيف رقادي والمدامع ما ترقا
قسا قلب دهر حلّ عقد وصالكم وسدّ علينا دون ذكركم طرقا
قديماً شفى (٢) من النوى وردّت لنا الأيام باطلها حقّا
(٣) ففك إسار الحب واستنقذ الطرقا (؟).

## حرف الكاف

كفى حزناً أن لا صديق وأنني فريدٌ بلا عيش يمر ولا نسك
كأني نضار ظنهُ الدهر بهرجاً وألقاه في نارٍ ليخلص بالسبك
كرهت حياتي واستطبت منيتي إذا ضحكت مني فعيني دماً تبكي
كبرت على شكوى الزمان وأهله ودهر خئون لست عنهُ بمنفك
كفرت بدين الحب لولا مهفهف قضت لدمي ألحاظ عينيه بالسفك

(١) في الاصل حروف غير مقروءة (٢) هنا كلمة غير مقروءة (٣) الشطر الاول متعسر القراءة

كتبت اليه بالدموع رسالة فجاوبني أنت القتيل بلا شك
كشفت قناعي فيك يا رشأ الفلا وما كنت أرضى قبل ذلك بالهتك
كذاك غزال الوحش في البر يرتعي وأنت غزال الإنس ترتع في الملك
وأيقنت (١) بأنك لو نظمت واسطة السلك
كلامك من ورد وثغرك مثله وريقك من خمر وريحك من مسك

## حرف اللام

لحا الله دهراً حال بيني وبينهم وحرَّم وصل الحب وهو محلل
لبانات نفسي وهو عندي شفاؤها من السقم لو أن العليل يعلَّل
لبست الضنا حتى تبدَّل صورة سوى صورتي والحب لا يتبدل
لعلَّ الليالي والحوادث خصمنا كما حكمت فينا بجور ستعدل
لقد ضقت ذرعاً بالهوى ثم بالنوى ولا ذنب لي لكنني أتحمل
لي شفة المحبوب أو ورد خده مدى أملي لو تمَّ لي ما أؤمل
لعمري لو قبلته حيث أشتهي لأعطيته دنياي لو كان يقبل
لموت به (٢) يولّي بتوقيع المدام ويعزل
لساني حلو وهو أحلى لو انه يعل بسلسال الرضاب وينهل
لي الويح إن لم أحب منك بنظرة معاودة أحيا بها حين أقتل

## قافية الميم

متى يشتفي المشتاق ممن يحبه وهل تنفع الشكوى الى غير راحم
منيته أولى بها من حياته إذا كان شكوى الشوق ضربة لازم
مُنعت ورود الماء والنار في الحشا لخام أضحى مفطراً مثل صائم
مياه الغوادي والجداول جمة وأرغب عنها بالدموع السواجم
مواردكم أشهى إلى الحائم الصدي ولو أنها شيبت بسم الأراقم
منتم علينا مرة بوصالكم وسالمتم والدهر غير مسالم
محوتم كتاباً للعتاب بخطه ومدّ إليَّ (٣) الرضا كف هادم
معالم أحيا الحب فيها قتيله وأنصف من تلك العيون الظوالم
ملكنَ فلما جرنَ كان انتصافنا بتلك الثنايا والخدود النواعم
ملالاً لأيام الزمان على النوى ومعذرةً لي في الصبا المتقادم

(١) لم نستطع تبين حروف الاصل (٢) بالاصل بياض (٣) هنا كلمة متعذرة قراءتها

## حرف النون

نوى فرّقت شمل الهوى فيـاهه ... ننـال (؟) وأما عهده فيصـان
نعيمي وعزي كنتم ثم بنتم ... فعيشي عذاب بعدكم وهوان
نصيبي من عهد الحبيب ووصله ... به العيش عيش والزمان زمان
نهتني النهى عن حبكم فعصيتهـا ... وهيهـات يثنى للمحب عنـان
نسيم الصبا من أجلـكم أستطيبه ... وإن زاد في قلبي به الخفقان
ندمت عليهـا مثل ما يندم الفتى ... فيقرع سن أو يعض بنـان
نفت عن جفوني النوم ورق حمائم ... شكونَ ولم يفصح لهنَّ لسان
نعينَ اليَّ البين لا كان يومه ... فما باله لم يخل منـه مكان
نعينَ ولم يذرفنَ دمعاً وإنما ... تنـاثر من عيني لهنَّ جمان
نكأنَ جروحي لو أعنَّ على البكا ... بدمع ألا إن الحزين يعان

## قافية الهاء

هوى الحب ريحان وراح لأهله ... وإن نضجت أكبادهم بلظاه
هرقت دمي في حب صب ولا أرى الـ ... ـمحب ليرضى أن يبيح حماه
هنيئاً مريئاً في الهوى لـكم دمي ... رضاكم عن الصب العديم رضاه
هجرتم وخنتم عهد من لم يخنكم ... وقلتم ملول والملول سواه
هدمتم بناء الحب منا بهجركم ... وفي مثلـكم يرضى الحكيم صباه
هدى الله قلبي بالهوى وأضله ... ولو شاء من بعد الضلال هداه
هوى عذرة أدنى هواه وإنما ... بلية من يهوى بقدر هواه
هموم جلبنَ الشيب قبل أوانه ... وصدّعن قلباً لا يبض صفاه
هرمت وشابت لمتي غير أنني ... فتى الحب والشيخ الظريف فتاه
هزمت جيوش الصبر في معرك الهوى ... وقصر في الهيجاء طول قناه

## حرف الواو

وفتني دموع العين والصبر خانني ... فجرعت في حبي لك المر والحلوا
وضقت بهذا الحب ذرعاً وحيلة ... وحتى متى أشكو ولا تنفع الشكوى
وهبتك حظي من سرور ولذة ... فجازيتني أن زدت بلوى على بلوى
وشى عندك الواشون بي فهجرتني ... وحملتني في الحب ما لم أكن أقوى
ولو أنني إذ كنت عندك مذنباً ... وجدت سبيلاً فيه أسألك العفوا

وصالك لي محيا وهجرك قاتلي وحبك شغل كنت من قبله خلوا
وقفت على آثار وصلك في الحمى وأنكرت صبري في معارفها شجوا
وقلت لعيني دار حبك فاسجمي بكاءً كما فيها قررت بمن أهوى
وحق الهوى لاذقت غمضاً ولا رقت دموعك أو تحيي المحل الذي أقوى
ورود الردى أولى وإن عيف رسمه لمن بات ظمآناً إلى ريق من يهوى

حرف اللام الف

لأستسقينَّ العين غيثاً لربعكم وإن زاده صوب الدموع محولا
لأستنشقنَّ الريح شوقاً اليكم إذا هي هبت بكرة وأصيلا
لأنتم وإن خنتم مواثيق عهدنا أحبة قلبي لا أريد بديلا
لآخر عهدي مثل أوله بكم وإن كنتم لا تحفظون خليلا
لأسعدتم المشتاق لو ذقتم الهوى فأحييتم بالوصـــل منه قتيلا
لأجزاكم (؟) بالصب أفضل مغنم بعيشكم رفقاً عليه قليلا
لأن تحسنوا أولى بكم من مساءة وما كان أولى بالجميل جميلا
لأسترزقنَّ الله يوماً فربما وجدت اليكم في المنام سبيلا
لأحتسبنَّ الذل في طاعة الهوى وأي محب لا يعيش ذليلا
لآلئ عين عقدها متناثر وإن كان لا يشفي البكاء غليلا

حرف اليـاء

يدي كل قتال وطرفك لا يدي فلا تخش في قتلي سوى الله يا ظبي
يميناً لقد أفنى هواك تجلدي وأغوى فؤادي حيث لم أدر ما الغي
يقولون أقصر كم فؤادك هائم فقلت دعوني ميتاً إنما يسمع الحيّ
يموت أسير الحب قبل انطلاقه وما يفقد المهلوك من أمره شي (؟)
يسير عليّ الخطب حين ألفته وألبسته مستحسناً فهو لي زي
يكاد الصفا القاسي يذوب صبابة إذا وطئته الخرّد اللعس اللمي
يئست من السلوان حتى بكيته فلو أنني غيلان ما سُليت مي
يهجنَ الهوى حتى يرينَ كيوسف ويذممنَ حسناً زانه الحلي والوشي
ينابيع دمعي من جفوني تحدرت سقت ربعكم حتى أضرَّ به السقي
يكل ويفنى منطقي عن شكيتي ومنطق مثلي لا كليل ولا عيّ

تم الديوان والحمد لله رب العالمين

# الحمى الصفراء

## هل هي موجودة في القطر المصري ؟

للدكتور عمر خيرت
كلية الطب — جامعة فاروق الاول

---

بعد أن اكتشف البرتغاليون غرب إفريقية في أواخر القرن الخامس عشر ، عرفوا هناك حمى يصحبها اصفرار الجلد ويموت بسببها الكثيرون . ومن غرب إفريقية انتقل المرض إلى أميركة الجنوبية بواسطة الزنوج الأرقاء . ولهذا المرض الوبائي أعراض يسهل تمييزها . فاذا لدغت بعوضة معدية شخصاً ، فبعد مدة أقصرها ثلاثة أيام وأقصاها ستة ، تعتريه قشعريرة وارتفاع في درجة الحرارة يستمر ثلاثة أيام مع صداع أليم ووجع في الظهر . وتحمر العينان حتى تصيرا بلون الدم ، ويشح البول ويحتوي زلالاً كثيراً . ثم تهبط الحمى بالتدريج مع بطء بالغ في النبض ، ويتلو ذلك دور النقه إذا كتب للمريض الشفاء ، وإلاّ فترجع الحمى ويصفر بياض العينين ثم الجلد كله باليرقان ( ولهذا سمي المرض بالحمى الصفراء ) وينزف الدم من جميع فتحات الجسم ، من الفم والأنف والأذنين والعينين ، كما يتقيأ المريض دماً أسود ، ويبول دماً ويتبرز دماً . وقد يتهيج ثم يموت في غيبوبة . وأكثر الميتات تحدث في اليوم الخامس أو السادس من ابتداء المرض . وقد تصل نسبة الوفيات الى ٨٠ ٪ . ففي وباء ساحل الذهب سنة ١٨٢٦ مات من حامية المدينة ١١٥ جندياً من ٥٣٥ . وفي وباء عام ١٨٧٨ بالسنغال مات ٢٢ طبيباً من ٢٦ .

بعوضة الأيديز

ولما اشتدّ الوباء في البرازيل عام ١٩٠٠ ، أوفد اليها جيش الولايات المتحدة بعثة طبية وكانت الشبهات قد حامت قبل ذلك حول البعوض باعتباره ناقلاً للمرض ، فارتدى بعض أعضاء البعثة جلابيب مرضى هذا الداء ملوّثة بافرازاتهم وناموا بها ثلاثاً وستين ليلة مع المرضى في غرف محصنة من البعوض فلم يمرض منهم أحد . وربوا بعوضاً خالياً من الأمراض ، فقس

بيضه عندهم ، ثم جعلوه يلدغ مرضى الحمى الصفراء . فلما لدغ المتطوعين بعد ذلك أصابهم المرض ، وكان أولهم الدكتور جيمس كارول عضو البعثة . ثم أثبتوا أن جرثومة هذه الحمى من النوع المتناهي في الصغر بحيث يمر خلال مسام المرشحات ولا تمكن رؤيته بالمجهر (وهو ما يسمى ڤيرَس virus )، وذلك بأن رشحوا مقداراً من دم مريض ليزيلوا أية جراثيم عادية قد تكون فيه ، ثم حقنوا به ستة متطوعين فأصيبوا جميعاً . وثبت أن بعوضة « أيديز إيجبتاي » Aëdes aegypti هي الناقلة للمرض ، وأنها إذا مصت دم مريض في الثلاثة الأيام الأولى ثم لدغت أشخاصاً آخرين بعد ذلك باثني عشر يوماً ولو لدغة واحدة ، مرضوا بهذه الحمى . وتظل البعوضة بعد ذلك تعدي الناس طول حياتها . ولا يلزم لتوالد هذه البعوضة برك أو مستنقعات بل تتوالد في أصغر مقدار من الماء في أي وعاء ولو كان علبة سردين فارغة بها قليل من ماء المطر . وإذا كان الجو مناسباً فقست البيضة بعوضة جديدة في مدة أسبوعين . وصدر هذه البعوضة مخطط على شكل قيثارة ، وذلك يميزها عن بعوضة الأنوفيليس التي تنقل الملاريا . ولقد ثبت أن نوعاً آخر من البعوض غير الأيديز ينقل الحمى الصفراء ، حدث ذلك في بعض بقاع البرازيل . ( ونصف البعوض المنتشر في المنازل في القطر المصري هو من نوع الأيديز ) .

وكانت نتيجة هذه الأبحاث الباهرة حرباً طاحنة شنتها حكومة البرازيل ضد البعوض ، فلم تترك له مكاناً يتوالد فيه حتى أصص الأزهار ، ففاقت نتائج هذه الحملة كل مأمول ، حتى ظُنّ وقتئذٍ أن البقعة الوحيدة التي بقيت مصدراً لهذا المرض هي غرب إفريقية . ولكن الأبحاث التي قامت بها مؤسسة روكفلر الأميركية قلبت هذا الرأي رأساً على عقب ، فقد أثبت سوبر Soper سنة ١٩٣٦ أن هناك نوعين من الحمى الصفراء وإن تكن جرثومتهما واحدة : النوع الوبائي الحاد القتّال الذي سبق وصف أعراضه ، ونوع آخر ما فتئ موجوداً ولكن في شكل حميد خفيف الوطء متوطّن لم ينتبه له أحد من قبل . وساعد على هذا الاكتشاف طريقتان من طرق الفحص : الأولى لزوم أخذ نموذج من كبد كل شخص يموت في العشرة الأيام الأولى من أيّ مرض . ولا لزوم لتشريح الجثة ، بل تؤخذ قطعة صغيرة من الكبد في حجم الفولة بواسطة آلة صغيرة تُطعن بها الكبد من الخارج visceroteme ، وتعمل منها قطاعات رقيقة تصبغ بلون خاص ، ثم يفحصها الطبيب الباثولوجي تحت المجهر ، فيعرف أن وفاة المريض بسبب هذه الحمى حتى لو لم يصحبها اصفرار في الجلد يدلّ عليها ، إذ يصيب المنطقة الوسطى من فصوص الكبد تلف وتحوّل دهني . والطريقة الثانية ــ طريقة حقن الفيران mouse protection test يمكن بواسطتها التحقق

من وجود الحمى الصفراء في بلدٍ ما ولو كانت مستترة في شكلها الحميد المتوطن . والطريقة باختصار هي أن تحقن الفيران في تجويف بطنها بمصل دم الشخص المراد فحصه بعد أن يمزج بالجرثومة مستخلصة من مخ فأر ، وفي الوقت نفسه يحقن مخ الفيران نفسها بقليل من محلول النشا المغلى ليجذب الجرثومة الى المخ . فان لم يكنّ الشخص قد أصيب مطلقاً بهذه الحمى ، فإن الفيران تموت في مدة أسبوعين. وأما إن كان مرض بها ولو من سنين كثيرة . فإن الفيران لا يصيبها أيّ ضرر ، إذ يقيها المصل فعل الجرثومة لاحتوائه على مواد واقية تبقى في الدم بعد الشفاء من المرض وتقي الشخص هذه الحمى طول حياته . وقد ثبت بطريقة حقن الفيران هذه أن الحمى الصفراء لا تزال متوطنة في منطقة تمتد من درجة ١٥ شمالاً الى ٥ جنوباً ، في إفريقية من السنغال غرباً الى مديرية بحر الغزال في السودان شرقاً ، وفي أميركة الجنوبية في البرازيل وبوليفيا وكولمبيا ، وما بين إفريقية وأميركة من جزر . وكذلك نزل المرض في المنطقة المعتدلة بالجهات الجنوبية من الولايات المتحدة كما أصاب أسبانية وإيطالية .

ولا تندثر الجرثومة في الفترات التي تعقب موجات المرض الوبائي ، بل ينقلها البعوض إلى القرود والقنافذ ونوع من الحشرات القارضة ، فيحفظها فيها إلى أن يمص دمها بعوض جديد ينقلها إلى الآدميين من جديد ، وبذلك تبقى الحلقة متصلة .

والطريق الطبيعي العادي الذي يصاب به الناس بالمرض هو لدغة البعوضة ، ولكن الجرثومة يمكنها أيضاً اختراق الجلد السليم كما يمكنها الدخول من العين ومن غشاء الأنف متى لمست نقطة من دم مريض في الثلاثة الأيام الأولى أحد هذه المواضع . وقد يحدث هذا للأطباء ومساعديهم عند تحليل الدم أو تشريح القرود لعمل الأبحاث بها . ولقد شاهدت سنة ١٩٣٥ لوحاً من الرخام على باب غرفة المعمل بمستشفى طب المناطق الحارة في لندن ، عليه اسم فتىً كان مساعداً فنيّاً ومات بالحمى الصفراء بسبب نقطة دم لمست أصبعه ، من مريض كان يعدّ كرات دمه . وذلك لأن الفيرس يوجد في الدم بمقادير لا يتصورها العقل في الثلاثة الأيام الأولى من المرض ، حتى إن القطرة الواحدة من الدم تحفظ قوّتها المعدية ولو خُففت بالماء عشرة آلاف مرة . والفيرس لصغر حجمه لا تمكن رؤيته بأقوى المجاهر العادية ، فان حجمه يختلف بين ١٧ مليميكرون و ٢٨ ( المليميكرون جزء من مليون من المليمتر ) .

والفضل في اكتشاف لقاح واق من هذه الحمى يرجع إلى ثيلر Theiler فإنهُ وجد عام ١٩٣٠ أنهُ عند حقن مخ الفيران البيض بجرثومة المرض يصيبها الالتهاب في المخ

ولا تتأثر أحشاؤها . فبعد نقل الجرثومة من مخ فأر الى مخ فأر آخر نحو عشرين مرة ، تتحول جرثومة « مثبّـتة » fixed لا تصيب غير المخ ، فإذا حقن بها بعد ذلك قرد تحت الجلد ، فلا تتأثر أحشاؤه ولا تظهر عليه أعراض الحمى الصفراء ، بل بالعكس تتكوّن فيه مناعة ضد هذه الحمى .

ولما كان معظم الأمراض التي جرثومتها ڤيرس (كالجدري مثلاً) لا ينفع في الوقاية منها إلاَّ لقاح جرثومته حية ليست مقتولة كما هو في الحال في اللقاح الواقي من التيفويد مثلاً ، فقد استعمل ليجريه Laigret الفرنسي سنة ١٩٣٣ لقاحاً مكوّناً من مخ الفيران المصابة بڤيرس مثبّـت ، جراثيمه حية . ولكن أُضعفت قوتها المعدية بتمريرها في مخ الفيران مرات كثيرة (١١٥ مرة) . ولكن لما كان استعمال مثل هذا اللقاح لا يخلو من خطر لاحتوائه جراثيم حية ، ابتكر فندلى Findley عام ١٩٣٤ في معهد «ولكم» للأبحاث بلندن طريقة حقن المريض باللقاح مصحوباً بمصل واق يستحضر من دم شخص يكون قد شفي من الحمى الصفراء، بعد ان يزاد مقدار المادة الواقية في دمه بحقنه بلقاح ليجريه . واجتناباً لما عساه يكون في مخ الفيران من جراثيم أمراض أخرى ، يُـزرع الڤيرس الآن على جنين البيضة وهو داخلها. وبالرغم من أن المصل الواقي يرشّـح لينقّـى من أي جراثيم عادية قد يكون ملوّثاً بها ، ثم يعقم بعد ذلك بتسخينه نصف ساعة في درجة ٥٦ سنتجراد ظهر أخـيراً أن هذا التطهير غـير كاف ، إذ ظهرت على بعض من لقحوا بلقاح فندلي أعراض مرض اليرقان الخاطي infective hepatitis بعد تلقيحهم باثنين وثمانين يوماً ، وهو مرض بسيط لا خوف منهُ إلاَّ في ما ندر ، وجرثومته نوع من الڤيرس . واتضح أنهُ لا بد أن بعض من أُخذ مصلهم لاستعماله في لقاح فندلي ، كانوا في دور حضانة هذا المرض لم تظهر عليهم بعد أعراضه كاليرقان وغيره . ولقد أجرى فندلي ومارتن Martin أبحاثاً في هذا الشأن ، نشرا نتيجتها في مجلة اللانسـت في العام الماضي ، ولاشك أنهُ اتخذت احتياطات لتطهير المصل الواقي بطريقة أوفى حتى لا يتكرر ما وقع .

وكما أن إبادة البعوض من أفعل الوسائل في قطع دابر هذه الحمى ، فتلقيح السكان كذلك لازم ، خصوصاً أهل المدن الساحلية والمدن التي بها مطارات وبلاد الدلتا الواطئة الرطبة. وفي جامبيا لُـقح أغلب الأوربيين لعدم وجود المناعة عندهم ووجودها عند أهل البلاد الأصليين الذين يصابون وهم أطفال بالنوع الخفيف الوطأة المتوطن ، فتتكوّن عندهم مناعة تبقى طول العمر ، فتقيهم المرض الوبائي الحاد . والخوف الآن هو من انتقال الحمى الصفراء إلى بقاع أخرى في إفريقية ، وإلى الهند والصين، فإنها تفتك بالأقوام الذين لا مناعة عندهم فتكاً ذريعاً

ويظهر أن النوع الوبائي القتّال لم يزر مصر حتى الآن ، ولا أظن أن أحداً أجرى تجارب حقن الفيران فيها لمعرفة وجود النوع الحميد بها ، والناس يحسبونه انفلونزا بسيطة . ولا يبعد أن يكون هذا النوع الخفيف الوطأة الصعب التشخيص متوطناً بمصر ، فإنهُ موجود في السودان كما ظهر من تجارب حقن الفيران هناك ، وإن لم يظهر في شكله الوبائي . بل لقد أصاب المرض الوبائي الفتّاك بلاداً أبرد من مصر جوّاً هي إيطالية واسبانية ، ولا تعوز مصر البعوضة الناقلة لهُ ، فإن نصف البعوض المنتشر في المنازل منها . فإن كان هذا النوع الحميد من الحمى متوطناً بمصر فالخوف هو من أن تظهر بين وقت ووقت حالات من النوع الوبائي القتّال . وإن لم يكن المرض وجود بمصر قط ، فالخطر من وروده من غرب إفريقية ومن السودان خطر جدير بكل عناية ، فقد تنقل الطائرات شخصاً في دور الحضانة لا تظهر أعراض المرض عليه إلاَّ بعد وصوله ، فان لدغته بعوضة الأيديز ثم لدغت بعد ذلك أشخاصاً آخرين انتشر الوباء لا قدّر الله . بل قد تحمل الطائرات بعوضاً معدياً مستعدّاً لنشر المرض على الفور . وهناك بالطبع اتفاقات دولية بشأن تطهير الطائرات من البعوض في المطارات ، وأنظمة للحجر الصحي والتلقيح ضد هذا المرض .

والحرب ضد البعوض قد شنّتها وزارة الصحة في مصر فلم تنتشر بعوضة الجامبيا التي نقلت الملاريا في باقي مديريات القطر . ولكن على الجمهور أيضاً أن يقوم بواجبه ، فلا يخلو منزل سواءٌ في المدن أو في الريف من أماكن تصلح لتوالد البعوض ، مثل الماء الذي في صينية القلل أو الذي في زير غير مغطى أو الاناء الموضوع تحته ، وكذلك ما يوضع من ماء قليل تحت أرجل خزائن الطعام لمنع وصول النمل اليها أو أيّ ماءٍ في وعاء مهجور . كل هذه أماكن تصلح لتوالد بعوضة الأيديز مهما تردم الحكومة من برك ومستنقعات ، والواجب تغطيتها حتى لا يبيض فيها البعوض ، أو إذا لم يمكن تغطيتها يوضع فيها قليل من الجاز لقتل اليرقات . وإذا كان الجمهور في مصر لم يشارك الحكومة مشاركة جدية في حربها ضد البعوض أثناء وباء الملاريا الأخير ، فلأن بعوضته أصابت إقليمين فقط ولم تنتشر في القطر كله ، ولأن نسبة الوفيات من الملاريا نسبة ضئيلة ، ولم تفتك الملاريا بالفقراء في قنا وأسوان إلاَّ لأنهم كانوا جياعاً ضعفت مقاومتهم . أما الحمى الصفراء فشأنها غير ذلك ، لا يفلت منها إلاَّ من لقح ضدها أو من كان قد شفي منها ، ومن كل مائة تصيبهم قد يموت ثمانون شخصاً ، والبعوضة الناقلة لها موجودة في القطر المصري كله . فلا شك أن أول ما ينبغي عمله هو فحص دم أفراد كثيرين كبار في السن يختارون من كل مديرية في مصر ، بطريقة حقن الفيران، لمعرفة وجود المرض بشكله الحميد أو عدم وجوده قطعاً .

# من مناهج التأليف

## في القرن الثالث الهجري

لمحمود عبد الغني حسن

---

يعدّ ابن قتيبة من أقدم المؤلفين في اللغة العربية ، فقد عاش في القرن الثالث الهجري ، وأمدّ المكتبة العربية بكثير من الكتب المتنوعة في الأدب والتاريخ واللغة والتفسير والحديث والفقه . وبعض هذه الكتب أدركته الحظوظ البواسم فطبع أحسن طبع وأكثره إتقاناً ، من ذلك كتاب « عيون الأخبار » الذي طبع جزء منه في مدينة « جوتنجن » سنة ١٨٩٩ تحت إشراف المستشرق بروكلمن . ولكنه طبع كاملاً في مطبعة دار الكتب المصرية المشهورة بحسن القيام على ما تطبعه .

ويظهر أن ابن قتيبة كان مجموعة من المعارف الدائرة في عصره . فهو يشبه جماعة « الانسكلوبيديين » أصحاب الموسوعات في العصور الحديثة .

تراه في الشريعة عالماً متمكناً وخطيباً متدفقاً ، شهد له ابن تيمية الفقيه المشهور ، ولم ينقصه في المرتبة عن ابن الأنباري المحدث السلفي الجليل . وتراه في الرواية والتاريخ حجة ثبتاً ، وراوية محققاً ، ينتخل الأخبار ويميز بين الآثار . وتراه في الأدب صاحب ذوق سليم ومنهج قويم ، وطبع أصيل ، وفطرة مواتية ، وسليقة جارية ، لم يفسدها تشدد الفقهاء ، بل تراه على الضد من ذلك ينفر من التزمت ، ويتجافى عن التعنت ، ويأخذ نفسه بالمزح في غير إسراف والفكاهة في غير إغراق . لأنه يرى حاجة النفس البشرية إلى التخلص من قيود الجد أحياناً حتى لا تفسد الطباع .

ولقد جرت عادة ابن قتيبة أن يقدم لكتبه بمقدمة تختلف طولاً وقصراً وأهمية بحسب موضوع الكتاب وأهميته . فلكتابه « الميسر والقداح » مقدمة لا تتجاوز الثلاثين سطراً . ولكنها على إيجازها توضح الغرض من تأليف الكتاب ، وتبين الغاية التي قصد اليها مؤلفه ، والخطة التي سار عليها .

ولكتابه المشهور « أدب الكاتب » أو « أدب الكتاب » مقدمة طويلة شرحها ابن

السيد البطليوسي في صدر كتابه « الاقتضاب ، في شرح أدب الكتاب » . ولم يترك الشارح شيئاً في المقدمة إلا علق عليه تعليقات لغوية أدبية تاريخية .

وكتاب « الاقتضاب » هذا مطبوع في المطبعة الادبية ببيروت في بدء القرن العشرين . وقد صححهُ وضبطه وأشرف على طبعه العالم اللغوي الشيخ عبد الله البستاني صاحب معجم البستان .

أما كتاب « عيون الأخبار » فهو أضخم كتب ابن قتيبة المطبوعة ، وأحفلها بالأخبار . وهو من كتب الأدب الممتعة التي تتنقل بين صفحاتها كما تتنقل في الروض الأنيق بين ثمره وينعه . فتأخذ لنفسك ما طاب لها ، ووافق هواها ، بين تاريخ وأدب وملح ونوادر وشعر ونثر . وقد قسمهُ أبواباً عشرة ذكرها مفصَّلة في المقدمة ليعفي القارئ من كد الطلب وتعب التصفح وطول النظر عند حدوث الحاجة الى بعض ما أودع فيها .

والذي يعنينا من هذا الكتاب مقدمته . فهي تعرض علينا منهجاً من مناهج التأليف ، وترينا أسلوباً من أساليب الكتّاب في العصور الأولى للتأليف العربي . وهو منهج لم يخطئ صاحبه التوفيق ، وطريقة كانت قصداً لمن أتى بعده من المؤلفين .

وأحب قبل الأخذ في الموضوع أن أشير الى ناحية من أخلاق المؤلف في أدب نفسه . فقد كان رجلاً جليل القدر موفور المروءة مصوناً عن الدنية . ولهذا اشترط على المتأدب التصدي للتأليف ( أن يؤدب نفسهُ قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة وصناعته عن شين الكذب ) .

وتلك مثلى الخطط لمن يتصدى لتناول الأدب ، ويستهدف لمآخذ التأليف . فمن العيب أن يكون الأديبُ حلو اللفظ مرّ الفعال . ومن التنافر أن يكون الأديب رقيق العبارة وغليظ الطبع جافي الخصال .

وأول ما صنع ابن قتيبة أنه جعل الكتاب أبواباً متقاربة وفصولاً متشابهة ، وقرن الباب بشكله ، والخبر بمثله ، والكلمة بأختها ، ليسهل على المتعلم علمها ، وعلى الدارس حفظها ، وعلى المريد طلبها . وتلك طريقة تدل على العقل المنظم والذهن المرتب . ومزيتها أنها تسهل الرجوع الى الكتاب في أي باب . ونعرف فضل هذه المزية في كتاب عيون الأخبار ، إذا وازنا بينه وبين كتاب «الكشكول» لبهاء الدين العاملي ، وكتاب «المخلاة» له ، وكتاب « زهر الآداب » للحصري القيرواني . فهي كتب تنساق فيها الروايات والحكايات من غير جامع يجمعها أو نسب يؤلف بينها . ولهذا يصعب الرجوع اليها ، والبحث فيها . ولكنها تنفع لمن يمسك الكتاب من أوله فلا يتركه حتى يأتي على آخره . ولهذا كان

« عيون الأخبار » مرجعاً قديماً سهل المورد قريب التناول . وثاني ما صنعه ابن قتيبة أنه لم يجعل كتابه وقفاً على فريق دون فريق أو خاصًّا بجماعة دون جماعة . فلم يجعله وقفاً على طالب الدنيا دون طالب الآخرة ، ولا على خواص الناس دون عوامهم ، ولا على ملوكهم دون رعاياهم . ولقد أنصف فيما صنع . فان مزية الكتاب الطيب أن تأخذ منهُ الألباب على قدر القرائح والفهوم ، كما فعل ابن المقفع في كتاب « كليلة ودمنة » فللعاقل فيه مطلب ، وللجاهل كذلك . فالأول يلتمس العبرة ، والثاني يجد التسلية . وثالث ما صنع ابن قتيبة أنهُ جعل فيهِ باباً للمزح والفكاهة ترويحاً للقارئ من كد الجد . فان الأذن مجَّاجة . ولا بدَّ للطبع المكدود من فكاهة تريح عنهُ ، بشرط ألاَّ يخرج ذلك عن غرض الكتاب . فان المزح إذا كان مقارباً ، ولاحايينه مُـشاكلاً ، كان أجدى على النفس وأروح للقلب . ولم يخرج بهِ ذلك إلى القبيح أو المنكر أو الكبائر والصغائر . فأن النبي عليه السلام كان يمزح ولا يقول إلاَّ حقًّا .

وقد التزم المؤلف الصراحة في هذا الباب جرياً على طريقته . فهو لا يرى أن الإفصاح بذكر العورة أو التصريح بوصف الفاحشة فيه خروج عن جادة الأدب ، أو انحراف عن منهج الأخلاق . وهو يرى أن أسماء الاعضاء لا تؤثم . وإنما المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب . ويروي تأييداً لمذهبه أخباراً عن النبي عليهِ السلام وأبي بكر وعلي بن أبي طالب والشعبي الفقيه .

والرجل هنا فطن لبيب ، فلا تفوته المهاجاة بين جرير والفرزدق ، هو يعرض لها ، ويعرِّض بها . ويذكر أن ما جاءَ في كتابهِ ليس من شكل ما جاءَ في شعر الشاعرين الأمويين . لأن شعرهما تعيير وابتهار في الأخوات والأمهات وقذفٌ للمحصنات الغافلات . ولا يرى التصريح بالكلام إلاَّ عند ما لا يجد منهُ بدًّا ، وذلك حين لا تغني الكناية ولا يجدي التصريح .

ومما انتهجه ابن قتيبة أنهُ قد يروي الحادثة بألفاظ غير معربة وعبارات ملحونة ، حرصاً على حلاوة النكتة وملاحة النادرة . لأن الإعراب قد يفقد النكتة حلاوتها ويضيع مزيتها .

ومن العجيب أن يصدر هذا الكلام عن أديب كبير من أدباء القرن الثالث . وهو في الوقت نفسه عالم باللغة وأسرارها وله فيها مجال أي مجال . ولكن الرجل — كما أسلفنا — حين نصب نفسه للرواية والأدب طرح عن نفسه تزمت الفقهاء ، وجمود النحاة . فهو يصرح بالفكاهة ولو أغضب جماعة المتزمتين ، ويروي الحادثة على وقوع اللحن فيها ولو أسخط جماعة النحويين ، ما دام في ذلك إرضاء لحق النكتة . . وهو حق عند الأدباء واجب الأداء ....

وجميل من ابن قتيبة ألاّ يزعم أنهُ اختار لكتابه أطيب ما في سوق الأدب ، وهو هنا يلتمس معذاره إذا لم يعجبك اختياره .. ويحسن الاعتذار بقوله : ( إن الحسن إذا وصل بمثله نقص قدراهما ولم يتبين فاضل بمفضول ، وإذا وصل بما هو دونهُ أراك نقصان أحدهما من الآخر الرجحان ) .

ومنهج آخر لابن قتيبة في جمع الأخبار والتقاطها . أنهُ ينشدها كل منشد، ويطلبها كل مطلب، بغض النظر عن الأسنان والأقدار . فهو لا يستنكف أن يأخذ عن الحديث سنًّا لحداثته ، ولا عن الصغير قدراً لخساسته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها فضلاً عن غيرها . وقد أنصف الرجل، فالحداثة لا تمنع فضلاً ، والفقر لا ينقص قدراً . وما أصدق الشاعر حين قال :

فما الحـــداثة من فضل بمانعـة قد يظهر الفضل في الشبان والشيب

ويظهر أن الرجل كان له اطلاع على اللغة الفارسية ، فهو من أصل فارسي . وأبوه من مدينة مرو ، وإن كان صاحبنا ولد بالكوفة أو بغداد على خلاف بين المؤرخين في ذلك . ويعترف في مقدمة كتابه بأنهُ تلقط بعض هذه الأحاديث من كتب الأعاجم وسيرهم . وهي كتب أثرت في الأدب العربي أثراً واضحاً ، وتأثر بها طائفة من أدباء العربية الأوائل أمثال ابن المقفع وآل نوبخت والجاحظ والبيهقي وغيرهم .

وكان يختار من شعر المتأخرين وكلام المحدثين ما حسن لفظه ورقَّ معناه . فلم يتعصب للأوائل على الأواخر ولم يؤثر المتقدم على المتأخر . ولكنه راعى حسن الكلام ولم يراع سبق الزمان . فربَّ كلام قديم لم يرفعه قدم صاحبه . وكلام حديث لم يزر به تأخر قائله . بل العبرة بالقول ذاته دون زمانه ومكانه . إلاَّ أنه أغفل في كثير من الكتاب نسبة الكلام إلى أصحابه ، فهو يكتفي بقوله : « قال الآخر » تخلصاً من النص على القائل . وقد كان ذلك يكون مقبولاً في عصورنا المتأخرة لسعة المأثور وكثرة المروي واختلاط مذاهب النسب على مريده . أما في عصر ابن قتيبة فذلك كثير ...

ولم ينس ابن قتيبة على مكانه في الفقه والشريعة حظه من الدنيا ... فلم يكن من العلماء الذين لا يرون الدين إلاَّ صلاةً وقياماً وركوعاً وسجوداً ... بل كان يرى الطريق الى الله في كل شيء ... ويقول في ذلك : ( ليس الطريق الى الله واحداً ولا كل الخير مجتمعاً في تهجد الليل ، وسرد الصيام، وعلم الحلال والحرام ... بل الطرق اليهِ كثيرة وأبواب الخير واسعة ، وصلاح الدين بصلاح الزمان ) .

وكان على دينه وعلمه وتقواه مرحاً في وقار ، لم يخرج عن سمته، ولم يجرح المرح كرامته . وصفهُ الخطيب البغدادي صاحب (تاريخ بغداد) بأنهُ كان ثقة ديّناً فاضلاً .

# الرؤساء الثلاثة

## — ٣ —

## ولسن : محرر الشعوب

### للدكتور نجيب الأرمنازي

---

إذا كان مصرع لنكلن قد أشجى الولايات المتحدة وأمضها ، فان عاقبة ولسن كذلك لا تقل عنها في ما أبقته من شجو وحزن ، ولئن اغتال الأول متعصب أعمى لقد اغتالت الثاني المنازعات الحزبية والمنافسات السياسية ، وشيء آخر أراده أن يكون في العالم وهو رفعه إلى مستوى أعلى ، ولكنهُ كان فوق حقيقته وفوق ما يستطيعه ، وقد انتهت حياة الرئيس السياسية وطويت أخرى صحائفها سنة ١٩٢٠ لا سنة ١٩٢٤ حين وقّع أحد الأطباء وثيقة تحمل اسم وودرو ولسن وتثبت وفاته . فأية علامة تهكم مخيفة تقترن بسيرة هذا الرجل الذي ظهر في حين من الأحيان كأنه بارقة أمل الانسانية بأسرها ، وأنهُ أقوى شخصية في تاريخ الولايات المتحدة وجمهوريتها ! ولكن سرعان ما اختفى وراء الأفق وسجل اسمه ذكرى أعظم إخفاق في تاريخ السياسة. وما هذا الاخفاق إلاَّ نتيجة اجتماع عناصر مختلفة أدت إلى تضاؤل حب شعب الولايات المتحدة له ، فقد أغضب الارلنديين لأنهُ لم يؤيد قضيتهم التأييد الذي كانوا يتوقعونه ، وأثار الألمان لأنهُ لم يرع عهده لوطنهم ولم يصر الاصرار كله على تنفيذ قواعده الشهيرة ، وأحفظ الايطاليين لأنه لم يدع بلادهم تحقق كل ما تصبو اليه من توسع ، ولم يطمئن كذلك رغبات منافسيه السياسيين في بلاده فجعلهم يتربصون به الدوائر . وقد سألت جريدة نيويورك افننغ بوست الأميركية الجنرال سمطس الذي اجتمع له من صفات القيادة العسكرية والبراعة السياسية ما لم يجتمع لسواه ، رأيهُ في عمل الرئيس ولسن وما صار اليهِ أمره، فأجابها بقوله : « لقد اضطرَّ الرئيس ان يتسامح في كثير مما قرره من قواعده الأربع عشرة ، وليس هو الذي أخفق بل الانسانية هي التي أخفقت وسيبقى المبادئ التي وضعها من الخلود ما يحسد عليه ... ولن يفوت الأميركيين في مستقبل

أيامهم أن يضعوا ولسن إلى جانب وشنطن ولنكان ، وستفوقهما شهرته بشمولها وأثرها في جميع العالم . »

حقاً لقد غلب الرئيس على أمره في أثناء مفاوضات الصلح ونزل عن عدة نواحٍ من مبادئه العليا ، ولكن المعاهدة مع ذلك كانت مطبوعة بطابع الرغبة في الصلح والسلام ، وقد أصرّ ولسن على أن يكون السلم معقوداً في وضح النهار ومؤسساً على العدل المجرد عن الهوى وكان يريد من عصبة الأمم أن تكون ضماناً لصيانة السلم وأن تستمين لادراك غاياتها بقوى العالم المتمدن المتحدة ، غير أن أوربة كانت أميل لسياسة التوازن ومنافسات التحالف ، ومع ذلك استطاع الرئيس بما دعا اليهِ من المبادئ القويمة المؤسسة على الإيثار أن يغير كثيراً من أساليب السياسة الأوربية القديمة التي تستمد من قواعد الفتح وخطط مكيفلي ، وكانت عصبة الأمم الوسيلة الوحيدة لحماية الحضارة والدفاع عنها ، وهي فكرة عظيمة وطريقة محدثة في التاريخ العام ، لو استطاعت أن تسيطر على الدول بجملتها ، لا أن تضيع ثقة العالم بعجزها عن تحقيق مثلها العليا .

وقد أراد الرئيس في دعوته إلى إنشاء عصبة الأمم أن يجعل من قاعدة مونرو الأميركية قاعدة عالمية ، فقال في رسالته سنة ١٩١٧ : « أقترح أن تطبق هذه القاعدة في العالم كله ، بحيث لا تعمل دولة على إجبار أمة أخرى أو شعب آخر على الخضوع لسياستها الخاصة ، ولكن كل شعب تترك لهُ الحرية في تحديد السياسة التي يريدها والطريقة التي يختارها دون أن توضع العقبات في سبيله أو يعرّض للتهديد والارهاب ، والشعوب الصغيرة في ذلك كالشعوب الكبيرة أو الشعوب العظيمة » . وقد انتقد الشيخ لوردج الذي كان رأس معارضة ولسن هذا ، وقال : إن معنى إعلان تطبيق قاعدة مونرو في العالم بأسره أنها لم يبق لها مجال تطبيق أو بقاء ، إذ هي في الحقيقة لم توضع إلاَّ لحماية نصف الكرة الأميركية . على حين أن هذا الشيخ نفسه كان يخطب في أثناء الحرب خطباً لا تخرج عن مبادئ الرئيس ولسن وما يدعو الناس اليهِ

ولم يكن الرئيس ولسن يعد نفسه محارباً في جملة المتحاربين ولكن حكماً بينهم ؛ وقد حاول في بادئ الأمر أن يحتفظ بحياد بلاده ، فالانكليز يعرقلون سير التجارة الأميركية والألمان ينسفون سفنها ، ولكن الأميركيين كانوا يخشون عاقبة انتصار ألمانية وبسط سيادتها على العالم ، وما يجر اليهِ ذلك من تهديد بلادهم وإفساد المبادئ التي تحيا لأجلها وتحيا فيها وخسران ما لها من مصالح خاصة وعامة ، وهي لم تكن تخشى أن تستعبدها ألمانية

إذا كتب لها النصر ، ولكنها لم تكن تشك أن سحق ألمانية للدول المتحالفة يعرّض أميركة لأخطار عظيمة ويحملها على أن تتبع في بلادها خططاً ومناهج عسكرية وأن تكون دائماً مضطرة للتأهب والاستعداد ، فكان رأي جمهور هؤلاء الأميركيين أنهُ يجب التدخل حتى يدفع هذا الخطر الداهم قبل أن يفوت الأوان ، وكانت حرب الغواصات التي أعلنت ألمانية عزمها على القيام بها دون هوادة سبباً في دخول أميركة الحرب ، وقد ارتكبت ألمانية أخطاءً كثيرة في الحرب الماضية ، فقد ظنت أن إنكلترة لا تحارب في سبيل قصاصة ورق ( حياد البلجيك ) . وحسبت أن باريس ستسقط قبل أن تكون روسية قد أتمت تعبئتها ، وأن إيطالية ستكون في صفها أو أنها تبقى على الحياد . ولكن لم يرتكب شعب خطيئة سياسية تحمل بسببها أعباءً كثيرة كخطيئة الشعب الألماني عند ما دفع الولايات المتحدة ورئيسها الذي يحب السلم الى خوض غمرات القتال ، فلم يقدر عواطف الأمة الأميركية حق قدرها ولا حسب حساب وسائلها العظيمة وقدرتها بذلك على أن تنقلب دولة عسكرية قوية.

وقد كان الرئيس ولسن — كما وصفه هنري وليم أستاذ التاريخ في جامعة نيويورك — على خلق عظيم وشرف رفيع ، ممتعاً بأرقى مواهب الفكر ، واثقاً بنفسه ، مستقلا برأيه ، لا يخلو من الحذر والحيطة ، ولا ترى فيه صفات الإيناس والتحبب أو الجاذبية الشخصية التي تعد سبباً جوهريًّا من أسباب النجاح في صناعة السياسة . وقد تلقى مبادئه وتعاليمه عن الأسس الدمقراطية الأميركية وتقاليدها ووجدها في النصوص التاريخية والقواعد الحرة حتى كأنهُ حاول أن يطبق أساليب بلاده في العالم كله . حقاً أنهُ كان ينتقد بشدة مناهج بعض الأميركيين في الاغراء والإفساد والرشوة وكان يرجو أن يشفي عالماً عليلاً مضطرباً ويجعلهُ صالحاً شريفاً بتنفيذ الخطط التي تغلغلت في فؤاده . وكان في بعض كتبه ومؤلفاته يشرح الحرية الانكليزية ويتخذها مثالاً يحتذيه ، ويستحسن ما يصنعه المصلحون من الانكليز الذين يعملون على إنقاذ الامبراطورية دون أن يغيروا الدستور أو يبطلوا قواعده أو يغيروا جوهر الأمور وطبيعتها .

وكان الرئيس في مؤتمر فرساي يرسل نظراته إلى العالم وإلى ما يجري فيه من أحداث خطيرة ويريد تغييره واصلاحه دون أن يزلزل بنيانه ويقوّض أركانه، بل يعمد إلى تطبيق قواعد الحرية السائدة في أميركة وفي بريطانية العظمى بضمان عصبة الأمم وتمهدها ، ولكن تقاليد الفتوح وضغائن الحروب التي أحياها النصر في النفوس ، وبث المبادئ الوطنية المفرطة في صفوف الشعوب الكبرى والصغرى ، جعل ممثلي جميع هذه الشعوب يتهافتون على إحراز ثمرات الانتصار، فأصبح هذا الوضع منذراً منذ افتتاح المؤتمر، وأخذ الرئيس يحذر عواقب

الطمع والحرص وما تجره من النكبات والكوارث ، وأنكر الاعتماد على السلاح للاستيلاء على بعض البلدان ، ففي ذلك ما فيه من نقص قيمة المطالب المنشودة وإضعاف شأنها ، لأن تحكيم القوة يؤدي إلى الاعتقاد بأن الذي يلجأ اليها يشك في عدل قضيته وصحة حجته ويريد أن يستحوذ على الربوع التي لا يجد لديه من الحق ما يكفي لتأييد دعواه فيها ، فيحل العنف والشدة محل الحق الذي يستند إلى الجنس والتاريخ والشعب ، ويثير الشبهات بعمله حول المستندات التي يعتمد عليها ، كما أنهُ يؤكد عدم ثقته بمؤتمر السلم .

وفي الحق أن قوى عظيمة كانت تتهيأ لنضاله ، وهي قوى مخيفة متألبة . وكان ولسن يمني نفسه بالانتصار على النظام القديم ، لأن العالم كلهُ كان يؤيده ويهتف له في ساعة من ساعات الحماسة وسمو النفوس ، ولكن هذا العالم كله كان يرتاب في نجاحه ويتجهم له ويحمل عليهِ ، وكان يعتقد باصلاح النوع الانساني ويقدر عظم التبعة وخطر المسؤولية . وقد قام بعمل من أعمال الدعاة والحكماء والفلاسفة ، فخاطب الشعوب وقرّر المبادئ وحث على تطبيقها ولكنه لم يقارب بينها وبين حقائق الحياة كما هي ، وحقائق الشعوب كما هي . لا كما يريد أن تكون هذه وتلك ، فلم يلبث أن وجد المبادئ التي قررها يُدال منها حتى إنها حوّلت في المعاهدة إلى نصوص أصبح الرئيس نفسه يجهل كثيراً منها . وقد خاض غمار مفاوضات سياسة عسيرة في باريس كانت أهبته لها أقل من أهبة مخاطبيه ومناظريه المجهزين بالأسلحة الماضية والبراهين القاطعة ، حتى إن بلاده تخلت عنهُ ، كما عارضه حلفاؤه وتنكروا له ، وبقي وحده يناضل في قتال عنيف ويعالج المصاعب الجسام ، وباح الرئيس بما يخامره من أسى في خطبة ألقاها بلهجة مؤثرة في جمعية الشرائع الدولية في باريس على أثر تقديم المعاهدة إلى مندوبي الألمان قائلاً : لقد خيبت تجارب الحياة ما تطلعت اليهِ الشعوب من آمال حسان ، وخيل إليها أن الشمس لا تشرق بضيائها دفعة واحدة ، ولكن تسير على مهل فتشق أشعتها الدياجي رويداً رويداً حتى تملأ الكون بنورها الوضاء.

إن هذا الرئيس الذي شعر بمرارة الخيبة كان يعتقد بكوكب سعده الطالع وكأنهُ رأى بعينه فجر الحرية قد انشقّ جانبه وبزغ تاريخه ، فحاول أن يجعل من أماني الأمس حقائق الغد ، فيالها من ساعة عظيمة في التاريخ ، ويا بؤس الذين اعترضوا مناهجه وقطعت بهم السبل دونه ! فقد كان في مصلحة الدول بل في مصلحة أوربة كلها تنفيذ شروط الرئيس ولسن والتقيد بها ، فهذه الشروط أعانت الحلفاء عوناً كبيراً في سنة الحرب الأخيرة بما بعثته في النفوس من العقيدة التي أخذت بمجامع القلوب ، بعد أن أصبح كثير من المحاربين

يتململون من القتال في سبيل غايات موهومة ، وقد أنكر على ولسن شأنه مفاوضاً ورجل دولة ، ولكن هل ينكر أن قواعده هي الوثيقة الأولى التي احتكم اليها الفريقان المتقاتلان ، وأن كلماته كان فيها من بعد الغور وعظمة الحقيقة ما لا ينسى أبد الدهر ؟ وقد حسب الرئيس الأميركي عند ما أعلن آراءه وقواعده أنه اقتربت ساعة التقاليد السياسية القديمة ، وأزيل الستار الذي كان يخفي وراءه الدول العظمى ، فأقبل الناس بعضهم على بعض يستبشرون بأن رجلاً في هذه المنزلة ، وهذا المقام والسلطة من أمة عظيمة ، رفع صوته بذلك النداء الذي خرج من كل قلب ، ولكنه كان كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وطويت الفكرة الجديدة في أعلام الظفر المبين الذي ينشئ في النفوس سكرة غرور واقتدار هي أشد خطراً من السم .

أما الولايات المتحدة فقد نفد صبرها يومئذٍ من الرجل الذي لا يعرف إلاَّ قليلاً من حقيقة العالم ، والذي تكهن بوقوع الكارثة مرة أخرى إذا لم تعبأ أمته قواها الحربية والاقتصادية لمقاومة معكري صفو السلام ومهددي بنيان الحضارة . وقد ضحك الناس من أقواله سنة ١٩١٩ ، ولكن لم تأت سنة ١٩٤١ حتى أصبح هذا الضحك أشبه بالبكاء ... وأخذ الأميركيون يحيون ذكرى الرئيس الحكيم في البلد الذي ولد فيه وفي كل فرصة سانحة ، وقد بعثت نفخة الحرب عدداً لا يحصى من الموتى ، وبينهم وودرو ولسن الذي أشرق مجدداً في أذهان الأميركيين وأخذت آراؤه وكلماته تتردد على الأفواه والأقلام مستعيدة بهجتها ورونقها ، ورأى حتى الذين أنكروه ما كان من بعد النظر في قوله : لا ينبغي أن يسود العالم توازن قوى بل مجموعة قوى موحدة ، ولا منافسات منظمة بل سلام عام منظم .

لقد نشأ ولسن في الولايات الجنوبية ، وكان عمره تسع سنوات لما وضعت الحرب الأهلية أوزارها ، فشبَّ في مناطق تبدو فيها الحياة أكثر مشقة وصعوبة ، ولا سيما بسبب الفقر الذي ضرب فيها بجرانه في السنوات الأولى بعد الحرب ، وما يعترض العمل من عقبات سياسية واجتماعية ، وبقيت آثار هذه النشأة مرتسمة على محياه ، وزاول ولسن صناعة التعليم حيناً ، وكان أستاذاً للتاريخ في جامعة برنستن ، وارتقى بعد ذلك منصب رئاسة الجامعة ، ثم انتخب حاكماً لولاية نيو جرسي ، فكان شعاره في المهمتين اللتين تقلدهما الحزم والنضال ، وتوجهت الأنظار إلى شخصية هذا الرجل القوية ، حتى فاز بانتخاب الرئاسة سنة ١٩١٢

فلا جدال في أن الرئيس ولسن كان فيلسوفاً اجتماعيـًا ، ولا جدال في أنه لم تكن تخفى عليه خافية من أوضاع الدولة في الولايات المتحدة ، وأتم برهان على ذلك ما حواه برنامجه التشريعي الذي أعدَّه في النصف الأول من مدة رئاسته ، وأول شيء أقرَّه هو أن الزعامة الحزبية من المهام الأولى التابعة للرئاسة ، وهي حقيقة أقرَّها وطبقهـا كل رئيس قوي ، لكنها لم تعلن صراحـة من لدن أحد قبله ، وخلال السنتين الأوليين أحدث تغييرات في نظم الولايات المتحدة السياسية والاجتماعية والاقتصادية هي في الحقيقة إصلاحات عبقرية... وكان عند ما يجمع رأيه على شيء يعتقد فيه الصلاح يتشبث به ولا يحوّل عنه قيد شعرة ، وكان ينفذ ببصره إلى دقائق الأمور الادارية ويُـدهِـش بمعرفته أسرارها، والمصلحة العامة هي رائده الوحيد ، ولا يبالي ما يصنع في مقاومة خصومها ، وفي هذه الكلمة ما يترجم عما تنطوي عليه نفسه : يجب علينا أن نرتاب بكل رجل يريد أن يتخذ جهود البلاد وحاجاتها وسيلة لمآربه وزيادة ثرائه ، وأن نسهر حتى لا تكون فتنة ولا تبث مكيدة تفسد نظامنا وتضير شعبنا ، وأن لا ندع سبيلا للحيلة ولا للرشوة تنفذان منه إلى حكمنا وإدارتنا . وكذلك قوله : المصلحة لا تؤلف بين الرجال بل إنها تفرقهم ، فمتى حدثت ثغرة في المصالح التي كانت متفقة ، فان عواطف الحسد تهب على الأثر وتجر من ورائها الجرائر ، أما الذي يجمع بين الناس ويؤلفهم فهو إخلاص مشترك لمبادئ الحق الكبرى ، وقد أخذ الرجال يبحثون منذ لاح فجر الحرية عن حقوقهم ، ومضت مئات السنين حتى أصبح الواجب العنصر الأول للحق ، والشرط الذي يدرك به الانسان حقه ، هو أن يقوم قبل كل شيء بواجبه .

لقد حالت حرب سنة ١٩١٤ دون تحقيق ما كان يريده لبلاده، ولكن انقياده لخوض غمراتها جعله يفكر في تطبيق قواعد الحق والواجب في علاقات الأمم بعضها ببعض ، وفي حماية السلم واجتناب كوارث الحرب ، ومن الخطأ أن يظن أن المنازعات الحزبية هي التي كانت السبب في معارضة أمته لمناهجه ، فان الولايات المتحدة قد خرجت من الحرب وهي أكثر مالاً ، وأعز جانباً ، واختباراتها تدلهـا في مدى مئة سنة على أنها ليست معرضة لخطر ، ولا تدفعها حاجة لاتخاذ التدابير لحماية السلام والطمأنينة في جميع أقطار الأرض ، وهي تعتقد أن قوتها كافية لسد حاجاتها،وأن أوربة ستظل مفتقرة اليها ، وقد اكتفت من الحرب بالظفر ، وخرجت تمرح في جلابيب الغبطة والتفاؤل ، لم تستقر في نفوسها تلك الحكم البالغة التي أنشأتها مصائب الحرب ومخاوف المستقبل ، وكانت عصبة الأمم في نظرها

مثلاً أعلى لا يستطاع تحقيقه وحل مشكلات العالم المقبلة بوسائله، فأميركة تنشد النصر وهزيمة ألمانية الجبارة ولا تبالي ما يجري بعد ذلك ، والرئيس ينشد النصر ويريد أن يربطه باقامة النظام الجديد . وكانت عصبة الأمم يمكن أن تصبح أداة الاصلاح لو أنها أمدت بالقوة الكافية وهذه القوة ما كانت لتجد تأييدها المعنوي عند قاض غير مكترث، بل عند أمة كالولايات المتحدة التي رفضت أن تشترك في العصبة ، ففقدت منذ تلك اللحظة ، نصيبها من النجاح. لقد أخفق ولسن خطته لا لأنه كانت تنقصه الحكمة — كما ادعى بعضهم — ولا لأنهُ لم يستطع أن يغير نفسه ، بل لأن بلاده كانت في حال لا يمكن تغييرها ، ولم تكن فيها الكفاية للاضطلاع بالعبء العظيم الذي ألقاه على عاتقها ، وهو لم يكن يستطيع أن يعمل أكثر مما عمل ، كالرجل القوي الذي ذكر في أساطير اليونان وقدر لهُ أن يغالب القدر الذي لا يغلب ، ولو كانت لديه من المقدرة في علم النفس بقدر ما كان عند الرئيسين تيودور روزفلت وفرنكلن روزفلت ، لبقي كذلك من المحتمل أن يكون معرضاً للخطأ والاخفاق ، لأن عجز الولايات المتحدة عن فهم ضرورة إنشاء عصبة الامم كان شيئاً متأصلاً فيها ، ولا يمكن إزالته مهما يبذل الداعي إلى ذلك من ضروب المهارة والحذق ، وإذا كانت حجة ولسن أقل قوة وصلابة، فان نفوذه المعنوي كان أعظم أثراً وأبعد غاية ، وإذا كان قد أخطأ فذلك لأنهُ كان يعرف الكتب أكثر مما يعرف الرجال ، وكان كثير الاعتماد على حرية الفكر ، حتى إنه أراد أن يجرد العقل من العاطفة ، وفي الحق أن كثيراً من العلماء يخطئون .

على أن كل ما يقال في أغلاط الرئيس ولسن قد طوي معهُ في لحده ، ولا نستطيع أن تبعثه الصرخات المدوية المنبعثة من أرجاء العالم ، وليست الشخصية القلقة أحياناً هي التي تخلد الآن في النفوس ، ولكن الرجل السياسي الذي كان يسعى ، كما قال ، لمواجهة الحقائق وحدها ويجتنب مظاهر المجاملة المزخرفة، والذي أراد أن يخرج السياسة الدولية من أساليب التسلط والارهاب والدسيسة والخداع والاستئثار، ويدخل في خططها وتقاليدها شيئاً أمنع من القوة وأجل من المنفعة وأثبت من سياسة التوازن وعقودها الملزمة ، شيئاً يفصل في الخصومات ويحمي حمى السلام ويصون حقوق الشعوب ويساوي بين الأقوياء والضعفاء : ذلك هو الحق العام الجديد الذي ما زالت تحن اليه الانسانية كما تحن إلى الخيالات والأحلام والأماني ، والذي لا تطلع شمسه فجأة — كما قال ولسن — ولكن تسير على مهل فتبدد الظلمات حتى تملأ الكون بضيائها .

# الدين والفلسفة

## نتيجة البحث (*)

محمد يوسف موسى

---

لقد انتهينا أخيراً مما أردنا من بيان معنى الدين والفلسفة ونشأتهما ، والصلة الطبيعية بينهما ، وما كان بين ممثليهما من خصومة سجلها التاريخ ، وما كان من محاولات الفلاسفة للتوفيق بينهما . فبعد هذا كله ننتقل إلى المسألة الأخيرة من هذا البحث ، أعني إلى الرأي الذي نرى في الصلة التي بين الوحي والعقل ، أو بتعبير آخر بين الدين والفلسفة ، إذ كانت هذه المسألة — ولا تزال — من المشكلات التي تشغل المفكرين الذين يعنون بالدين والفلسفة والمعرفة حتى هذه الأيام .

في رأيي أن هذه الصلة كان يجب أن تكون صلة تعاون في سبيل العلم وسعادة الفرد والمجتمع ، ما دام هذا هو جماع الغاية التي يهدف كل منهما إليها ، وما دام المرء لا يكاد يستغني بالوحي وحده أو العقل وحده .

الفيلسوف في حاجة ماسة إلى الدين ، يجد فيه برد اليقين والملاذ الأمين في الاعتقاد بالله ، والقدر خيره وشره ، واليوم الآخر وما يكون فيه من جزاء ينعم به الخيّر وإن كان بائساً محروماً في الدنيا . ورجل الدين في حاجة للتفلسف ، يعرّفه ما غمض من عقائده وقضاياه : والعالم ونشأته ونظمه وغايته ، وما يتشوّف إلى فهمه في العوالم العلوية ، ويساعده على درك حلول كثير من المشكلات التي يجول فيها الفكر ولم يبينها الوحي حين كان ينزل بياناً شافياً لحكم رآها العليم الخبير . وبالاجمال ، أو بعبارة أخرى ، الفلسفة في حاجة إلى الدين لما ذكرناه ، ولما قد تجده فيه من تصحيح لبعض نظرياتها وبيان الحق والباطل منها ، والدين في حاجة إلى الفلسفة ليمكن لنفسه في العقول .

---

(*) انظر أعداد المقتطف من يناير الى يوليو ١٩٤٤

إذاً لم يكن ضرورياً — وربما لم يكن طبيعياً — أن تكون خصومة بين الدين والفلسفة ، وكان طبيعياً وقد قامت هذه الخصومة أن توجد محاولات للتوفيق والجمع بينهما .

ومبدأ التوفيق في نفسهِ والعمل له حسنٌ وخير ، ويقول بهِ كثير من رجال الدين والفلسفة ، فالغزالي يذكر أن بين المعقول والمنقول تصادماً في أول النظر وظاهر الفكر ، وأن الذين خاضوا في ذلك التصادم صاروا فرقاً خمساً تبعاً للتعصب لهذا أو ذاك أو الوقوف بين بين ، وأن الفرقة المحقة هي الفرقة الخامسة المتوسطة الجامعة بين البحث عن العقل والشرع والمنكرة لتعارضهما والتي عنيت لهذا بالتوفيق بينهما [1]

لكن هذه المحاولة للجمع أو التوفيق بين العقل والوحي تعتبر في رأينا ناجحة أحياناً ومخفقة أحياناً ، أو كما يقول الغزالي أيضاً : « إن ذلك سهلٌ يسيرٌ في بعض الأمور . ولكن شاقٌ عسيرٌ في الأكثر » [2] وليس الأمر مما لا يكون ولا يستطاع ، كما أكد من قبل أبو سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام ، للهوة التي لا يمكن اجتيازها في رأيه بين الدين المأخوذ بالوحي النازل والفلسفة المأخوذة من الرأي الزائل [3]

نعم ، ليس الأمر مما لا يستطاع البتة كما يرى السجستاني. ذلك بأنهُ — على سبيل التمثيل — يمكن التوفيق إلى حد كبير بين ما يذهب إليه الفلاسفة في مسألة العقول وما جاءَ عن الدين في مسألة الملائكة . إنهُ مما لا حرج فيهِ من ناحية الدين أن نرى في عقول الأفلاك ومنها العقل الفعال ، أو الاسباب الثواني — كما يعبر الفارابي — التي هي أسباب وجود الأجسام السماوية وجواهرها ، كائنات روحانية أو الملائكة التي جاءَ بها الدين ، وأن نرى في العقل الفعال من بينها — الذي تفيض منه الحقائق على الفيلسوف والنبي — الروح الأمين وروح القدس الذي يتنزّل بالوحي بأمر الله على من يشاء من عباده [4]. من الممكن أن نقول هذا ونعتقده ، فنكون قد وفقنا في هذه الناحية بين الوحي والعقل ، على ألاّ نتقيد بما ذكره الفلاسفة من عدد لهذه العقول ، وعلى ألاّ ننسب اليها شيئاً من التصرف إلاّ باذن ربها الذي يجعلها وسائط بينهُ وبين خلقه ، وأسباباً لتدبير ما يشاء من أمور ، كما جعل العالم الأرضي محكوماً بنُظم وقوانين تسيّره باذنه على مقتضى حكمته .

---

(١) قانون التأويل للغزالي ، طبع مصر عام ١٩٤٠ ، ص٦—٩ (٢) المصدر نفسه ص ٩

(٣) المقابسات للتوحيدي ، نشر الاستاذ السندوبي بمصر عام ١٩٢٩ م ، ص ٤٧، ٤٩

(٤) السياسات المدنية للفارابي ص ٣ ، طبع حيدر آباد عام ١٣٤٦هـ ،

ونذكر في هذا مثالاً آخر لم يتقدم له ذكر أيضاً ، وهو مسألة قِدَم ما قال به الفلاسفة من العالم قدماً زمانيًّـا ، تلك التي كانت من المسائل التي كفّـر بها الغزالي الفلاسفة . أعتقد أن الأمر هنا مزلقة ومن الخطر الخوض فيه ، ولـكن مع هذا أشير إلى رأي يذهب اليهِ بعض المفكرين قد يكون الحق أو قريباً منه ، وقد يكون فيهِ تخفيف من عنف الخصومة بين الدين والفلسفة، هذا الرأي هو أن القول بما ذهب الفلاسفة إلى قدمه من العالم قدماً زمانيًّـا قول لاينافي الدين ، ولا يتعارض والحديث المروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « كان الله ولا شيء معه » .

ذلك بأن أشد ما حاول حجة الإسلام الغزالي إلزام الفلاسفة به في هذه المسألة ، هو أن الذهاب إلى هذا يسلب عن الله الإرادة والاختيار ، مادام هذا الذي يقال بقدمه زمانيًّـا من العالم قد وجد عن الله تعالى ومعه في الأزل ، بلا فترة يتحقق معها الاختيار والإرادة. ولـكن إذا أمكن أن نقول إن الله الغني بذاته عن كل ما سواه في إيجاد العالم ، العليم بعلم انكشف به كل شيء أزلاً ، المريد بإرادة لا تحتاج البتة إلى ما تحتاج إليه إرادة المحدثين من تروّ بتقليب للأمر على وجوهه يأخذ بعض الزمن وإن قلّ — إذا أمكن أن نقول إن الله تعالى الذي هذا شأنه وتلك صفاته ، قد أوجد فيما لا يزال ما يقال بقدمه من العالم من غير حاجة إلى ما نحتاج إليه من زمن نتروى فيه ونختار ثم نريد ، أمكن أن يقال إنهُ أوجده وهو في أعلى مراتب المختارين المريدين ، ولا يكون في القول بهذا إلحاد في الدين أو كفر . وبخاصة والعقل يتصوَّر فاصلاً مّـا ، بين وجود الله ووجود هذا العالم عنه ، يتحقق فيه الاختيار والإرادة من جانب الله الذي جلّ وتعالى عن الحاجة إلى زمن يتروّى فيه ويختار ، كما يتصور العقل فترة بين حركة الأصبع وحركة الخاتم التي وجدت عنه .

إني لا أقول إن هذا الرأي الذي يذهب إلى قدم ما يقال بقدمه من العالم قدماً زمانيًّـا على هذا الوجه هو الحق ، ولا أقول إن هذا هو ما أعتقده ، ولـكن أقول إنهُ بعد أن يتبين الباحث التفرقة بين القدم الزماني والقدم الذاتي ، وأن الذهاب إلى الأول لا يستلزم الذهاب إلى الثاني ، لا يكون كافراً ولا ملحداً إن أداه نظره واجتهاده إلى القول بالقدم الزماني مع الفلاسفة والإعراض عن القول بالحدوث الذي قال به المتـكلمون ، وغاية ما في الأمر أنهُ قد يقال عنه إنه اجتهد وأخطأ فهو معذور ولا ضير في ذلك عليه .

ومهما يكن من الأمر ، فإنا إذا قررنا أن الجمع بين الوحي والعقل ممكن أحياناً ، وآية هذا ما ضربنا من مُـثُـل، وما كان من الفلاسفة في هذا السبيل ، فاننا لا نستطيع أن نقرر

أن ذلك ممكن دائماً في كل ما يظهر تعارضه بين الدين والفلسفة ، لا نستطيع هذا إلاَّ إذا أغمضنا النظر عن بعض ما جاء بهِ الوحي مما لا يسلك مع مقررات الفلسفة في قرن أو أوّلنا بعض نصوصه تأويلاً تعسفيًّا تنبو الأفهام واللغة عنه . ومن المثل لهذا الضرب مسألة النبوَّة والمعجزات التي تقوم في الدين على الوحي وخرق القوانين الطبيعية ، على حين أن الحال في نظر الفلسفة — كما ذكرنا من قبل — لا يعدو أمراً طبيعيًّا معقولاً يتم بصنيع النبي وكسبه بعد أن يعدّ نفسه له . وشتان بين النظريتين ، وعسيرٌ بل متعذر الجمع بين الرأيين !

هذا وربما كان من أهم المبادئ التي قررها الفلاسفة للتوفيق بين الوحي والعقل اعتبار أن الدين له ظاهر وباطن ، ولكلٍّ أهله ، وهو مبدأ يحسّهُ كل منا وليس من الحق إنكاره أو دفعه ، كما أن له ما يعضده من أقوال جماعة من السلف .

روى البخاري أن عليًّا رضي الله عنهُ قال : « حدّثوا الناس بما يعرفون ، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله ! » كما أُثِر عنهُ أنهُ كان يتألم مما يحبسه من علمٍ لا يجد حَمَلةً له ، وفي هذا يقول وهو يشير إلى صدره : « إن ههنا علوماً جمة لو وجدت لها حَمَلة [1] » . ومن ثمَّ كانت الحكمة التي يتداولها الناس : « ليس كل ما يعلم يقال ، ولا كل ما يقال جاء وقته ، ولا كل ما جاء وقته حضر ناسه » .

***

وأخيراً ، أحب أن أختم هذا البحث بالقول بأن الجمع بين الوحي والعقل — أو التوفيق بين الدين والفلسفة — من المطامع العصية ، وبأن السبيل اليهِ شاقٌّ وعرٌ ، فلنسر فيهِ إذاً على حذر . ذلك بأن نجعل أولاً ما جاء بهِ الدين من حقائق لا لبس فيها من الأسس التي يجب التمسك بها وإن خالفها رأي هذا الفيلسوف أو ذاك . ومثلها في هذا مثل ما يؤدي اليهِ النظر البرهاني الصحيح ، النظرَ الذي يحدث العلمَ اليقيني ، والذي يوجب لهذا تأويل ما يعارضهُ في الظاهر من النصوص ، فان الحق — كما يقول بحقٍّ ابن رشد — لا يضاد الحق ، بل يوافقه ويشهد له . بذلك نكون أدنى إلى التوفيق ، وأقرب إلى إصابة الحق . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

---

(١) الذريعة للاصفهاني ، الطبعة الثانية بمطبعة الوطن ، ص٨٧ .

# عمر الخيام كما أعرفه

## - ٧ -

### بعث الخيام الى الشرق

### في مصر

لمحمود المنجوري

---

لما أخرج الشاعر الرقيق وديع البستاني في فبراير سنة ١٩١٢ طائفة من شعر الخيام عن فتزجرلد في نشيدين عربيين ، قدمها بقوله: « أريد بالسباعيات هذين النشيدين اللذين عنيتُ بتضمينهما رُوحَ الخيام التي ضمنها رباعياته ، وعساني لم أظلم تلك الروح بنقلها من بيت فارسي إلى بيت عربي ، بل من رباعية إلى سباعية ، فعهدي باللغتين شقيقتين تتبادلان مواطن الأفكار ومساكن الخيال » وفي الحق أن البستاني لم يظلم الخيام في شيء ، بل إنهُ أسدى اليهِ وإلينا خدمة مشكورة ، وستبقى لهُ يد السبق دائماً ، إذ بعث الخيام إلى الشرق بعد رقدة طويلة كاد يطويه الزمن فيها طي النسيان .

وترجمة البستاني ليست تطابق المتن الفارسي في شيء ، لأنها منقولة عن الإنجليزية ، والإنجليزية قد تصرفت تصرفاً في الوضع جمعَ من الرباعيات المتناثرة تناثر الوحي العابر ملحمة منظومة العقد ، فليست هي بترجمة تحدد كل رباعية بمعانيها في شكلها ووحدتها ، ولكنها ترجمة استجابت لوحي الخيام وروحه وإلهامه ، وحرصت على المعالم الفنية والأدبية والفلسفية للأهداف التي كان يرمي اليها عمر الخيام على وجه عام ، ومن ترجمة البستاني قوله :

أمس أبصرتُ جارنا الخزّافا يجبلُ الطينَ كيف شاءَ اعتسافا

ويكيل المقدار منه جُزَافا

وكأني أُسْمِعْتُ بين يديه صوتَ ذاتٍ مظلومةٍ تشتكيه

آه رفقاً فأنت طينٌ وماءٌ أيها المرء لا تسمني العذابا

بدا هذا القبس في الأفق المصري في فبراير سنة ١٩١٢ ، فلفت أبناء الأدب العربي إلى ما في الأدب الفارسي الشقيق من ذخائر ، وإلى ما لعمر الخيام الرياضي الفلكي من شعر فلسفي رائع ، فأقبلوا على رباعياته قراءة ودراسة وترجمة ، فانبرى المرحوم الأديب محمد السباعي وترجم ١٠١ رباعية عن الانجليزية في شعر رصين ليس له ما لترجمة البستانيّ من عذوبة ورقة ووداعة ، ولست أستطيع أن أقبل هذه الرباعيات ترجمة حريصة في أدائها للصور الصحيحة التي أرادها الخيام ، فقد لعبت بها يد الصنعة ، واستبقت اليها ألوان من الشعر العربي الخالص ، فجاءت صورة لشعر عربي يمكن أن يرد إلى عهد الشاعر ابن وكيع الذي قال :

غرّد الطيرُ فَنَبِّه من نَعَسْ وأدر كأسك فالوقت خُلَسْ

سلَّ سيفُ الفجر من غمد الدجى وتعرّى الصبحُ من ثوب الغَلَس

وانجلى عن حُلَلٍ فضيةٍ نالها من ظلم الليلِ دنسْ

وعفا الله عن السباعي الذي قال إنهُ ترجم الرباعية الأولى للخيام في قوله : (١)

غرد الطير فنبه من نعس وأدر كأسك فالوقت خلس

سلّ سيفُ الفجر من غمد الغلس وانبرى في الشرق رام أرسلا

أسهم الأنوار في هام القلاع

فلا يزال ابن وكيع يطالب السباعي حيث هما الآن بشعره وقد اتخذ الخيام حكماً ليقضي له بحقه !

فترجمة السباعي ترجمة غلبت عليها صور الشعر العربي ومعانيه أداءً ومذاقاً ، ولم تخل من الصنعة اللفظية والاقتباس الذي باعد بين الترجمة والأصل الفارسي .

ولعلَّ ترجمة السباعي لم ترق أنصار المدرسة الحديثة ، فاجتمع الرأي بين طائفة من الأدباء في سنة ١٩٢٣ ، على أن أقوم بترجمتها نثراً ، تحرراً من قيود النظم وأوضاع النقل ، فعكفت على الترجمة عن نسخة أوزلي وعن نسخة اعتمدها المستشرق الألماني الدكتور

(١) ص ٣٣ الصراف ط دار السلام

فردريخ روزن ، وقد راجع الترجمة يومئذٍ أستاذنا المرحوم محمود مراد ونشرت طائفة منها في مجلة المحاسن بالقاهرة .

وتقدم إلى الأصل الفارسي الأستاذ أحمد رامي فترجم الرباعيات نظماً سنة ١٩٢٤ [١] فكانت محاولة موفقة من شاعرنا الغرد زاد في قيمتها المراجع التي ذيلها بها في الطبعة الثانية التي نشرها سنة ١٩٣١ ، وإن هذه الطبعة لتكون وافية لو أن الأستاذ رامي نشرها مع المتن الفارسي . ومن ترجمة رامي قول الخيام :

سمعت صوتاً هاتفاً في السحر نادى من الحان : غُفاةَ البشر

هُبوا املأوا كأس الطلا من قَبْلَ أن تفعم كأسَ العمر كفُّ القدر

***

أين النديم السمح أين الصبوح فقد أمضَّ الهم قلبي الجريح

ثلاثة هُنَّ أحبّ المنى خمرٌ وأنغامٌ ووجهٌ صبيح

***

ولقد نظم الدكتور أحمد زكي أبو شادي ١٣٠ رباعية في سنة ١٩٢٨ معتمداً في نظمه على ترجمة نثرية عن الفارسية لشاعر العراق المرحوم جميل صدقي الزهاوي وقد نشرها كاملة سنة ١٩٣١، ومنها قوله :

لا تظننّ أنني من يخاف الـناس أو قسوة المنية أخشى

لست أخشى حقيقة الموت لكن أنا أخشى أني أسأت العيشا ؟

***

ولقد عثرت في ديسمبر سنة ١٩٤٣ أثناء بحثي عن مراجع الأدب الفارسي في خزانة المرحوم نورالدين بك مصطفى [٢] بمدينة حلوان على ترجمة له مخطوطة للرباعيات ، ترجمها عن الفارسية نظماً إلى العربية والتركية مع المتن الفارسي ، ولقد تركها نور الدين بك مبعثرة

(١) عن نسخة المستشرق نقولا التي نشرها عن مخطوطة طهران

(٢) ولد نور الدين بك مصطفى سنة ١٨٨٣ بمدينة أهريدا من أعمال يوغسلافيا وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٢٨ ، وكان وكيلا لديوان الاوقاف ، كما كان شاعراً في اللغات الثلاث التركية والفارسية والعربية ، وهو صاحب دائرة المعارف الطورانية في أربعين مجلداً وهو جهد منقطع النظير لا يزال يثوي صاحبه مخطوطاً في مكتبته ، وله دواوين في الشعر العربي والتركي والفارسي منها : نور الالهام وأوهامي والبستان وغيرها وترجم اللزوميات وقصص لافونتين الى التركية .

بين أوراقه وتحفه واستطاع نجله الدكتور محمد نور الدين الاهتداء إلى ١٢٠ رباعية ، وقد ظهر لي من مراجعتها أن نور الدين بك حقق منها ٨١ رباعية قطع بصحة نسبتها إلى الخيام .

ومن ترجمته قول الخيام :

لك الشكر مني يزوّد منّك فكيف أعيش لأقضي دينك
فعالي سوءٌ فتجزى بسوء ؟ فما الفرق يا رب بيني وبينك !

***

ثورٌ يقال كأنهُ تحت الثرى وكذاك ثورٌ في النجوم منوّرا
أنا ما رأيتهما ، ولكن في الورى آلاف حُمر صرتُ بينهما أرى

وأغلب الظن أن هذه الترجمة كانت تنتظر مراجعة من صاحبها لولا أن المنية عاجلته .

وفي مصر في أوائل عام ١٩٤٤ ظهر لون جديد لترجمة رباعيات الخيام أخرجهُ الى العامية شيخ الزجالين وإمامهم الأستاذ حسين مظلوم رياض فسكبها في ثلاث أناشيد ، جاءت مثالاً للأدب العامي الرفيع ، على أنه يلوح لنا أن الاستاذ مظلوم قد تأثر بناحية من نواحي الخيام الفلسفية ، فطبع زجله بطابع التصوف ، وحمل جميع المعاني المختلفة التي وسعتها الرباعيات على أنهـا من وحي الصوفية الخالصة . وليس الأستاذ مظلوم هو وحده الذي وقع في هذا الظن بل إن كثيراً من أهل التصوف في عصورهم المختلفة قد أدخلوا الخيام في زمرتهم وتغنوا برباعياته في أناشيدهم وفي مجالسهم ، ولقد أشار الوزير جمال الدين القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ الى ذلك فقال : « وقد وقف متأخرو الصوفية على شيء من ظواهر شعره فنقلوها إلى طريقتهم وتحاضروا بها في مجالسهم وخلواتهم ، وبواطنها حيَّاتٌ للشريعة لواسع ، ومجامع للاغلال جوامع ، ولما قدح أهل زمانه في دينه ، وأظهروا ما أسره من مكنونه ، خشي على دمه ، وأمسك من عنان لسانه وقلمه ، وحجَّ متاقاة لا تقية ، وأبدى أسراراً من المرار غير نقية . . »

ولهذا أرى أن ترجمة الأستاذ مظلوم ، وإن دلت على مكانة وقدرة بالغة في هذا اللون الرفيع من الأداء ، لا تصور الخيام كما أراد الخيام أن يكون ، بل صورت الخيام كما أراد الأستاذ مظلوم أن يفهمه وهو متأثر بجلال الفكرة الصوفية وسموها وخلود المعاني الروحية الخالصة المستقرة في قلوب أهل الصوفية الواصلين .

# المآصر فى بلاد الروم والاسلام

## — ٦ —

لميخائيل عوّاد

### المآصر في البلاد المصرية

مصر العزيزة « إقليم قديم جليل عظيم ، جسيم العائدة في سالف الزمان ، كان قديماً قُعدَد الملك يسكنه عظام الفراعنة وكبار الجبابرة [١] » ، و « هو الاقليم الذي افتخر به فرعون على الورى [٢] » .

ومصر بلد الفضائل والمحاسن ، والطلسمات والعجائب ، والكنوز والدفائن . أما فضائلها فكثيرة ، « منها أن الله عزّ وجلّ ذكرها في كتابه العزيز بضعاً وعشرين مرّة ، تارة بصريح الذكر ، وتارة إيماء [٣] » ، وهي من الخصب وسعة الرزق على درجة عظيمة « بدليل قوله تعالى مخبراً عن قوم فرعون : ( كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ) [٤] »

وأشير في غير موطن من العهد القديم إلى خصب أرض مصر وغزارة محاصيلها ، ففي سفر التكوين ( ١٣ : ١٥ ) ، قال الله تعالى لابراهيم عليه السلام : ( إنّ جميع الأرض التي تراها لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد ) وجاء في سفر الخروج ( ١٦ : ٢ — ٣ ) : ( فتذمّر كل جماعة بني إسرائيل على موسى وهرون في البرية . وقال لهما بنو إسرائيل : ليتنا متنا بيد الربّ في أرض مصر حيث كنا نجلس عند قدور اللحم ونأكل من الطعام ، شبعنا فلم أخرجتمانا إلى هذه البرية لتقتلا هذا الجمهور كله بالجوع ) .

---

(١) صورة الارض ( ص ١٣٥ ) (٢) أحسن التقاسيم ( ص ١٩٣ )
(٣) خطط المقريزي ( ١ : ٣٥ ) (٤) صبح الاعشى ( ٣ : ٢٨٢ )

وفي سفر العدد ( ١١ : ٥ ) ، قال بنو إسرائيل : ( فقد ذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً ، والقثاء والبطيخ والكرّاث والبصل والثوم )

« ومصر خزائن الأرضين كلها : ( وآويناهما الى ربوةٍ ذات قرار ومعين ) ، وسلطانها سلطان الأرضين كلها ، ألا ترى إلى قول يوسف عليه السلام لملك مصر ( اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ) [١] »

ومن ثمَّ أصبحت « خزانة أمير المؤمنين التي يحمل عليها حمل موءنة ثغوره وأطرافه ، ويقوّت بها عامة جنده ورعيته مع اتصالها بالمغرب ومجاورتها أجناد الشام [٢] »

أمّا محاسنها فلا جرم « أنها مع ما اشتملت عليهِ من الفضائل ، وحُفَّت به من المآثر أعظم الأقاليم خطراً ، وأجلها قدراً ، وأفخمها مملكة ، وأطيبها تربة ، وأخفها ماء ، وأخصبها زرعاً ، وأحسنها ثماراً ، وأعدلها هواءً ، وألطفها سماكناً . ولذلك ترى الناس يرحلون اليها وفوداً ، ويفدون عليها من كلّ ناحية ، وقلَّ أنْ يخرج منها من دخلها ، أو يرحل عنها مَن ولجها ، مع ما اشتملت عليهِ من حسن المنظر ، وبهجة الرَّونق ، لاسيما في زمن الربيع ، وما يبدو بها من الزروع التي تملأ العين وسامةً وحسناً ، وتروق صورةً ومعنىً » [٣]

قيل : « من أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر الى مثلها في الدنيا فلينظر الى أرض مصر حين يخضر زرعها وتنور ثمارها ، وقال كعب الأحبار : من أراد أن ينظر الى شبه الجنة فلينظر الى مصر إذا أزهرت » [٤] .

ومصر « فرضة الدنيا ، يحمل خيرها الى ما سواها ، فساحلها بمدينة القلزم يحمل منه الى الحرمين واليمن والهند والصين وعمان والسند والشحر ، وساحلها من جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلاد الروم والفرنج ، وسواحل الشام والثغور الى حدود العراق ، وثغر الاسكندرية فرضة إقريطش وصقلية وبلاد المغرب . ومن جهة الصعيد يحمل الى بلاد الغرب والنوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن » [٥] .

ومصر هذه « إقليم العجائب ومعدن الغرائب ، كان أهلها أهل مُلك عظيم وعزّ قديم ، وفيها من الكنوز العظيمة مالا يدخله الإحصاء ، حتى يقال إنهُ ما فيها موضع إلاَّ وفيه كنز » [٦]

---

(١) معجم البلدان ( ٤ : ٥٤٥ ) ، وخطط المقريزي ( ١ : ٣٧ )
(٢) معجم البلدان ( ٤ : ٥٤٧ ) (٣) صبح الاعشى ( ٣ : ٢٨٥ )
(٤) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ( ١ : ٧ ، المطبعة الشرفية بالقاهرة )
(٥) خطط المقريزي ( ١ : ٤٣ ) (٦) صبح الاعشى ( ٣ : ٢٨٦ )

ومن طريف ما قاله عبد الله بن عمرو بن العاص : « البركة عشر بركات ، في مصر تسع بركات ، وفي الأرضين بركة واحدة . والشرّ عشرة أجزاء ، بمصر جزء واحد ، وفي الأرض كلها تسعة أجزاء »(١)

أما خراجها فهو في مقدمة خراجات الأقاليم غزارة . قال ابن حوقل : « وجدتُ بخط أبي النمر الورّاق في أخبار أبي الحسين الخصيبيّ ، قال : حدثني أبو خازم القاضي ، قال: قال لي أبو الحسن بن المدبّر: لو عمرت مصر كلها لوفتْ بأعمال الدنيا . قال: وقال له إنه كان يتقلـد الدواوين بالعراق ، يريد ديوان المشرق والمغرب ، قال: ولم أبتْ قط ليلةً من الليالي وعليّ عملٌ أو بقية منهُ ، وتقلّـدت مصر فكنت ربما بتُّ وقد بقي عليّ شيء من العمل ، فأستتمهُ إذا أصبحتُ . . . . . »(٢)

وقال غيره إنّ « خراج مصر وحدها يضعف على جميع خراج الروم ، وحمل منها موسى ابن عيسى في دولة بني العباس ألفي ألف ومائة وثمانين الف دينار »(٣)

فلا عجب أن تكون مصر وهي مالكة هذه الصفات العديدة ، والنعم العتيدة ، محط أنظار الأمم ، من فرس وروم وفرنج وغيرهم ، ومعقد آمالهم وأمانيهم ، فطمع فيها الطامعون في السنين السالفة ، وغزتها الجيوش غير مرة ، فعاثت بأرضها فساداً .

وكانت المدن المصرية في كل هاتيك الغزوات تعاني شدائد الحصار ، خاصة ما توسد منها ساحل البحر ، مما اضطرها إلى دفع الخطر المتوقع في كل آن ، بكل ما أوتيته من حيلة ووسيلة . فأقام أصحابها الأسوار المنيعة حولها من طرف البر ، ومدوا السلاسل الحديد (المآصر البحرية) ذات الأبراج الرصينة في موانيها من طرف البحر ، فأضحت منيعة لا ترام ولا يوصل اليها .

وكانت دمياط والاسكندرية والسويس وهي مفاتيح مصر ، أعظم الثغور ذات المآصر البحرية ، ولعلها نصبت في رشيد والبرلس وتنيس والفرما وشطا وأخنا ، وغيرها من المدن الساحلية ، غير أننا لم نقف فيما بين يدينا من مصادر على نص صريح يشير إلى ذلك .

(١) مختصر كتاب البلدان ( ص ٥٧ ) ، وحسن المحاضرة ( ١ : ٩ )

(٢) صورة الارض ( ص ١٣٥ ) ، وانظر معجم البلدان ( ٤ : ٥٤٦ ) وقد تصحف اسم القاضي فيه الى « أبي حازم » بالحاء المهملة ، خلافاً لسائر المراجع . وهو عبد الحميد بن عبد العزيز . انظر أخباره في تاريخ الطبري ( ٣ : ٢٢٠٧ ، ٢٢١١ ، ٢٢١٢ ، ٢٢١٥ ، ٢٢٢٢ ) وفي ملحق الولاة والقضاة للكندي ( ص ٥١٩ طبعة كست )

(٣) مختصر كتاب البلدان ( ص ٧٦ ) .

# شيروود أندرسن

ترجمة مقال بقلم

السيدة نلي فوشيه زئانبري

---

مثله كمثل كثير من إخوته في الأدب ، نشأ في أسرة رقيقة الحال ، وشقّ طريقه إلى المجد والشهرة عصاميًّا عتاده العزم والمثابرة .

ولد سنة ١٨٧٦ في ولاية أوهايو ، وكان والده سروجيًّا ميالاً إلى الترحل ، يتنقل من بلد إلى بلدٍ في الولاية ، ولكنه لم يوفق في حياته المعيشية توفيقاً مرضيًّا . وكانت والدته إيطالية الأصل ، على جانب من وسامة الطلعة وبسالة النفس . وقد توفيت في مقتبل عمرها بعد أن أعقبت سبع بنين . وقد اضطرّ هذا الصغير من أبنائها أن يحاول كسب القوت. وعلى الرغم مما كان يتصف به من ذكاء وهمة لم يكن لديه متسع من الوقت يسمح له بمواصلة التعلم . فجعل يمارس أعمالاً شتى ، فرة يبيع الصحف ، وتارة يبيع الفول السوداني أو حصاد البرسيم ، وحيناً هو صبي في إصطبل ، ثم هو عامل في الزراعة . وكان يتمكن من كسب بضعة دولارات في سباق الخيل وفي المشارب والمصانع . فإذا خلا له وقت بعد تطوافه في الشوارع وتردّده على الحانات ، انكبّ على القراءة متعطشاً منهوماً .

ولما شارف السابعة عشرة ، قدم شيكاغو ليجرب حظه ، وبدأ يتكسب بالعمل في مصنع ، وشعر بميله إلى الكتابة ورغبته في التعبير عن أفكاره . واتقدت بين جوانحه تلك الرغبة والميل ، حتى إن منظر الورق والمداد كان يترك في نفسه مثل أثر المخدِّر .

وقد أخذت بغضاؤه لعمل المصنع المتشابه تزداد رويداً رويداً ، فانخرط في سلك الجيش أثناء الحرب الاسبانية الأميركية ، وكان لحسن سلوكه أثر في إصلاح شأنه .

وحين رجع إلى شيكاغو استكمل خبرته العملية ، فالتحق بمكتب لنشر الأخبار ، وتمرّس فيه بأعمال هذا الفرع الصغير من الصحافة التي رأى فيها عوناً للكاتب على أن يخلق لنفسه شخصية .

وقد استهوته الأعمال بعض الوقت ، فأدار مصنعاً للتصوير في مسقط رأسه ، وأفاد

منهُ مالاً . ولكنه لاحظ أن الأعمال الأدبية التي يقف عليها سويعات قليلة كانت تضر بانتاج مصنعه . وبينما كان يملي يوماً رسالة خاصة بالعمل غادر المصنع إلى غير رجعة .

وزاول بعد ذلك العمل في الصحافة والنشر، واجتهد أن يعلي من صيته ، وأن يكتسب ما يعيد بهِ إلى أصدقائه أموالهم التي فقدوها بعد أن كانوا قد أودعوها رصيداً في مصنعه .

وقد كان باديء الأمر شاذ الأسلوب ، فلم يرض عنهُ أصحاب الصحف ، ولكن الكاتب الناشيء توالت عليه آيات التشجيع من أدباء مثل « تيودور دريزر » و « بن هشت » و « فلويد دل » .

وفي سنة ١٩١٦ نشر أولى رواياته « بن وندي ماك فرسن » . وفي سنة ١٩١٩ نشر مجموعة أخبار « ونسبورج — أوهايو » فطار في الجمهور اسمه .

ثم أقام في « نيويورك » وانضمَّ إلى طوائف الكتاب ، واشترك نشيطاً في مجلات أدبية وفنية وسياسية ، فكان ما يكتبه موضع تقدير نقاد يؤخذ عنهم الرأي .

وفي سنة ١٩٢١ منح جائزة مقدارها ألفا دولار ، وضعتها جريدة « ذي ديال » فسافر إلى أوربة ، ولما رجع أقام في « أورليان الجديدة » نحواً من سنة مع « وليام فوكنر » وبعد ذلك أقام في مزرعة في « فرجينيا » حيث أسس بماله الخاص جريدتين إحداهما جمهورية والأخرى ديمقراطية .

وبمناسبة مروره بأوربة جاء في مذكرات « جرتروذ ستين » قصة هزلية تبين أسلوب صاحب تلك الشخصية المبتكرة : « زار شيروود أندرسن باريس هذا الشتاء ، وظهر بمظهر جذّاب ، وكان يسلينا كثيراً بما يسلّى بهِ نفسه . ويجب أن أقرّ بأنهُ كان يتألق بطولة ولكن في شكل شاذ » .وجاء في موضع آخر : « كنا قد ركّبنا من مدة قريبة أجهزة التدفئة الكهربائية حينما قدم شيروود أندرسن باريس ، فأقمنا له حفلة استقبال بمناسبة عيد الميلاد . وكانت الأجهزة ترسل حرارتها بقوة، حتى أصبح الجو حارًّا ، ولكن الجمع كان مبتهجاً مسروراً . كان شيروود متشحاً بوشاح أحمر جديد كعادته ، فبدا غاية في الأناقة . وقد أقبل مع ولديه جان وأخته إلى باريس . وكان جان شابًّا بطيء الحركة خجولاً » .

وقد اتفق شيروود أندرسن وجرتروذ ستين على نقط عدة، أهمها التأليف الأدبي . وعلى الرغم مما لشيروود من قلة المبالغة ومن زيادة الإيضاح فقد جرّد كلاهما أسلوبه من الطابع الروائي الكثير التطويل .

وقد تنوعت أعمال شيروود ، فمنها الروايات والأخبـار والتجارب ومقالات الصحف والمجلات وقصص الأفراد والمقطوعات الشعرية وقطع التمثيل والدراسـات الفنية . وبذلك تخصص أو كاد في جميع نواحي الانتاج الأدبي . فالتفت إليه عدد كبير من النقاد الاميركيين والأجانب .

وهو روائي ذو ضمير حي . ولذلك عني بصفة خاصة بتصوير التجارب اليومية المتكررة لأبطاله في شكل يظهر تضاربها . وهو حريص على تجلية الواقع ، يسعى في نقل حقائق الوجود إلى كتبه . ومع أن بعض مؤلفاته تعدُّ شروداً لفكره من الأوضاع الفنيـة ، فإنه يحق له القول بأن الروايات يجب انتزاع موضوعاتها من صور الحياة العادية ، وأن على الخيال المبدع ألاَّ يجعل له من غير منابع الواقع مستقى .

ولم يكن يعدّ الشؤون الاقتصادية والسياسية أو المسائل الخاصة بالاصلاح الاجتماعي مما يهتم به الروائي كبير اهتمام . وهو يقول : «أعتقد أن الروائي والمفكر شخصان مختلفان، فالروائي يرسم حيـاة عصره كما يشعر بها ويستنشقها ويتذوَّقهـا . وأما إيقاد الثورة فليس من شأنه » .

ولهذا استقى شيروود من تجاربه الشخصية موضوعاته جميعاً ، وفي مختلف رواياته كثير من الأشخاص — عرضهم في قصصه الخاصة بحياة الأفراد — يظهرون تحت ستار خفيف للواقع. وأبطاله في الغالب أحياء ذوو حس لا يرضون عند اكتشاف شخصيتهم المفردة ، وهم يهربون من البيئة التي أوجدتهم فيها الملابسات ، ويهيمون على وجوههم دون أن يخبروا من لهم صلة بهم باحثين عن حل لمشكلاتهم ، آملين أن يجدوا هـذا الحل بفصم جميع العرى التي تربطهم بماضيهم سواء أكان معززاً بأسرة يعولونها أم بضاعة يزاولونهـا . وأحياناً يكون اضطرابهم ناتجاً من عدم إيمانهم بأنفسهم ، فحين يجتذبهم هدف مثل حب امرأة كما في (ضحك عابث ) أو فكرة اجتماعية كما في ( الرجال العاملون ) فإن قلوبهم تثوب إليها الطمأنينة .

وأسلوب شيروود يبسط بوضوح خاص الحالة النفسية لهؤلاء الأشخاص الحائرين المترددين . فالجمل المقتضبة أحياناً ، وتصوير العواطف المتتابعة دون أن يربط بعضها ببعض فكرة بينة ، وجميع المؤثرات المتتالية على حافة الخيـال والواقع — كل ذلك يمهد لقصصه جوًّا يجعل القارئ الحائر يستبين تخيلاته وأحلامه التي لم تكد تتكوَّن في قلبه المعذب .

# رقصة

لعبد الله مردم بك

لشكاية الأوتار هينمة الرياح الصاخبه
أو خفقة من جانح أشجته دمعة ناحبه
فكأنما الأوتار حين ترن همسة عاتبه
ما هيج الداء الدفين كزفرة من نادبه
تتنازع القلب اللحون وتستبيح غواربه
وتثور عاطفة الهوى في كل صدر لاغبه
حتى ترى الإلفين معتنقين من حمى الصدور

مالت عليه كأنها غصن تعابثه الرياح
وبعينها من سورة الـ أحلام للهيمان راح
فافترت الشفتان عن أمل كما افتر الصباح
وتفتقت في صدره من لوعة الذكرى جراح
فأسف كالورقاء هاض جناحها القدر المتاح
ويكاد يسبق لفظه من حرقة الشوق النواح
كتم اللسان ونمت العينان عن سر الضمير

دارا وفي صدريهما غصص وفي القلبين نار
ولغصة الشوق المبرح في ضلوعهما أوار
زنارها منه اليمين وطوقها منه اليسار
ولصدره عن نهدها من جامح الشوق اهتصار
ما كان من برح الجوى لهما على حال قرار

يتدافعان كموجة راحت تقاذفها البحار
وتراهما يتراجعان تراجع الطير الكسير

ترتد عنه إلى الوراء من الدلال وتهربُ
كالصب أوحشه من الماضي خيالٌ مرعب
هو ما تباعدت انبرى من جسمها يتقرّب
يمراه طالقة بيمناها فأين المهرب
ولها إذا أنست اليه تضرُّع وتعتب
همسٌ كمعسول المنى يسبي العقول ويخلب
واللفظ يقطر سلسلاً كتقاطر الماء النمير

انظرهما غردين لفهما الصبا بجناحه
فاستسلما لهواهما يتساقيان براحه
كلٌّ تعلق في رداء أليفه ووشاحه
كتعلق المذعور خوف اليمّ في ملاّحه
أو كالطعين تمسكت يمناه في جرّاحه
ظمآنِ ليس لشوقها كبحٌ ولا لجماحه
قلِقانِ مثل فراشتين تبارتا قرب الغدير

تلقاهما روحين في بدنٍ يحوطهما ذراعُ
نشر الهوى بُرديه فوقهما كما نُشر الشراع
وإذا تقضّى الفصل لاح على وجوههما التياع
كمخبل نفث السقام به وعاوده الصداع
أو طائر لما تملكه من الصياد باع
فالقلب يوحشه الفراق ويدمع العين الوداع
وإن استعيد العزف عاد اللحن موصول الصفير

دمشق

# التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق، فنجريه إلى غايتين: إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة. ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن. هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى

بشر فارس

# المشتمل


١ — الفنون الرفيعة

قلعة سمعان ( مع صورتين ) بقلم داود صليبا

٢ — الكتب

ألف ليلة وليلة نقد بقلم وداد سكاكيني

بنت الشيطان — — كامل محمود حبيب

ثمار المقاصد في ذكر المساجد — — أحمد محمد شاكر

عَ الماشي — — حسن كامل الصيرفي

معارك العرب في الشرق والغرب — — محمد عبد الغني حسن

كتب ظهرت

٣ — المجلات

مجلة الحقوق بقلم حامد زكي

المشرق — *

٤ — الاستدراك

القاموس العصري بقلم الأب أنستاس ماري الكرملي



الجناح الشرقي : التزيينات في أواسط الحنايا



الكنيسة الشرقية : الحنايا من الفناء الخارجي

( تصوير درونياز ، حلب )

# ١ – الفنون الرفيعة

## قلعـة سمعـان

افتتح اليونان سورية في عهد الإسكندر سنة ٣٣٣ ق . م . ثم افتتحها الرومان سنة ٦٤ ق . م . وبقيت كذلك الى سـنة ٣٩٥ م وفيهـا انقسمت المملكة الرومانيـة إلى إمبراطوريتين شرقية وغربية — فتبعت سورية المملكة الرومانية الشرقية المسماة البيزنطية ، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وبقيت كذلك إلى الفتح العربي سنة ٦٣٦ أي أنه مرَّ على سورية عشرة قرون من القرن الرابع قبل الميلاد إلى أوائل القرن السابع بعده وهي مزدهرة تؤلف جزءًا من ممالك عريقة في المدنية .

كانت بلادنا مأهولة بالسكان أكثر مما هي عليه اليوم . وقد أثْـرت من التجارة بين فارس والهند والصين وبلاد حوض البحر المتوسط . حكمها أباطرة يحرصون على الفن والترف وطبقة مثرية تبني القصور وتتنافس في تزيينها فكانت البلاد مسرح فن وعمارة .

وقد ساعد على انتشار البناء الحجر الكلسي الذي يسهل نحته والأشجار الكثيرة التي تنبت في الأمانوس ولبنان . وكانت سورية يغمرها الشعور الديني فشادت الكنائس الفخمة والقصور الشاهقة . وقد اكتسب المهندس السوري والصانع السوري خبرة فنية فائقة بعد بناء أنطاكية وتدمر وبعلبك فتابع عمله مثابراً على خطته في الإبداع .

إن أكثر هذه الأبنية قام على أسلوب خاص يعرف بالأسلوب السوري وهو يتأثر بالفن الإغريقي في طراز بنائه وبالفن الفارسي باستخدام القباب والحنايا ، وبالفن البيزنطي في نقش الأعمدة وتزيينها .

وقد خشي السوريون أن ينصهروا في بوتقة المملكة البيزنطية فاندفعوا يشجعون الانقسامات الدينية واعتنقوا مذهب أصحاب الطبيعة الواحدة حفظاً لكيانهم . وكان هذا النضال الديني يستر نضالاً سياسيًّا . ثم حافظوا على لغتهم فتغلبت الإرَمية على اليونانية ، ووسموا فنهم بطابع خاص واتسع نطاق هذا الفن فشمل مصر وآسية الصغرى وإفريقية حتى سواحل الادرياتيك في أوربة .

يقول بنوا Benoit في كتابه « فن البناء في الشرق » : « إن مهندسي سورية كانوا بنائين بارعين يفتشون أبداً عن الطريف ، وقد جمعوا بين خبرة اليونان ودقة الفرس ».

***

هذا وإن النسك قديم في طباع البشر ، فلما جاءت المسيحية أنشأ الرهبان الديارات فانفردوا في المغاور والقبور المهجورة واجتمعوا في البيوت . ومنذ عام ٣١٢ في عهد الانبراطور قسطنطين الكبير انتصرت المسيحية على الوثنية فخرج الرهبان من مخابئهم ولجأوا إلى أبراج وصخور مرتفعة .

وقد ولد سمعان العمودي سنة ٣٩٠ وترهب منذ صغره ثم عكف على العبادة والتقشف وانتهى به الحال إلى إحداث مذهب جديد ، فقد بنى عموداً ضخماً ووضع في رأسه لوحاً مربع الشكل وبنى عليه كوخاً من خشب ، وبقي كذلك عدة سنوات ، ثم أزال هذا الكوخ وتعرّض للحر والقر ، وبقي كذلك أكثر من ثلاثين سنة . وانتشرت طريقة سمعان في عصر يسيطر فيه الدين على عقول البشر وأقبل كثير من الرهبان على تقليده .

إن سمعان فرَّ من العالم ونشد العزلة التامة ، ولكن سرعان ما ذاع صيته فأتاه جمٌّ غفير من الحُمْس للتبرك به ، وقد لحق بهم عدد كبير خرجوا للنزهة . وتلا هؤلاء عدد أكبر من المرتزقة أتوا للبيع والشراء ، وتحوَّل النسك إلى مزار يزخر بالناس . فنشأت مدينة كاملة بأسواقها وقصورها وكنائسها وهي التي تعرف بدير سمعان على مسافة قريبة من القلعة ، وآثارها تدل على اتساعها .

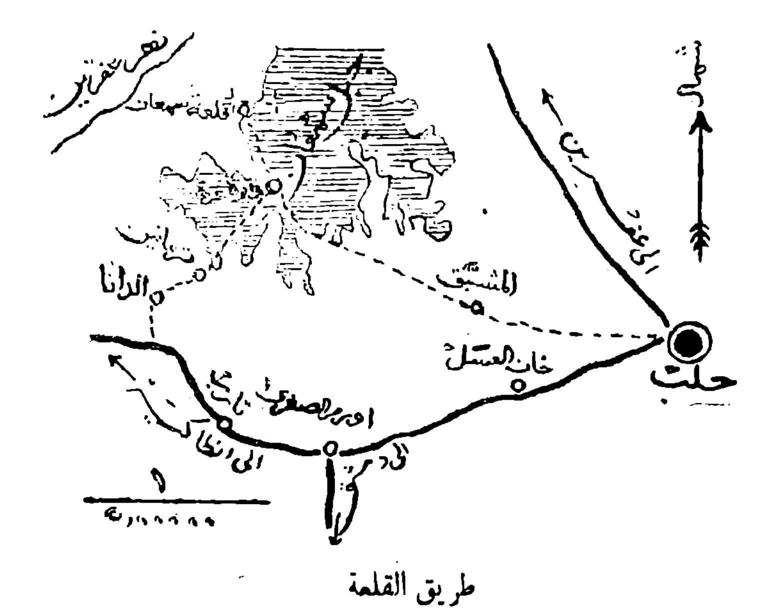
جاوز صيت سمعان البلاد السورية واحتكم إليه البدو في خصوماتهم ، وأصبح قديساً يشفي المرضى فجاءته الوفود من أقصى البلاد المسيحية المعروفة في ذلك العصر من جرمانية وغالية وبريطانية وسواها . وتوفي سمعان سنة ٤٥٩ فوضع جثمانه في أسفل العمود ثم نقل إلى أنطاكية ودفن في كنيستها الكبرى .

رأى الرهبان بعد موت سمعان أن المكان تحوَّل إلى مزار تقصده قوافل الحجاج ، فبنوا كنيسة ضخمة أتموا عمارتها سنة ٥٠٠ ثم حصنوها بعد الفتح العربي فغلب عليها اسم « القلعة » . وظلَّ الرهبان معتكفين في الدير ، والحرب سجال على الحدود ولا سيما في عصر الحمدانيين ، يغير الروم على حلب ويغير عليهم سيف الدولة .

ذكر المؤرخ يحيى بن سعيد « أنه في سنة ٩٨٢ استولى الروم على كلس وأوقعوا بجماعة من الحمدانيين وحاصروا أفاميه وقاتلوا أهلها أشد قتال وجاؤوا إلى حلب . فسار قرغويه

نائب سعد الدولة الحمداني إلى دير سمعان في مدة ثلاثة أيام وقاتل أهله أشد قتال وفتحه بالسيف وقتل جماعة من رهبانه وكان ديراً آهلاً عامراً وسبى خلقاً التجأوا اليه من أنطاكية». وعلى ذلك تهدم القسم الأعظم من الدير وبقيت منه أطلال تدل على عظمته. وقد ذكر ديل Diehl «أن القلعة هي جوهرة الفن المسيحي» وهي أكبر كنيسة مسيحية عرفت قبل بناء الكنائس الكبرى في الغرب في القرن الثاني عشر ككنيسة القديس بطرس في رومة.

وقد ذكر المؤرخون الذين زاروا القلعة في إبان عظمتها أنها كانت مطلية بدهان جميل تتخلله خيوط مذهبة وأن الأرض كانت مفروشة بالفسيفساء وكان فيها قناديل من المعادن الثمينة وتصاوير رائعة.




طريق القلعة

واجتمعت بها كل طرف الفن فظهرت ألوانها البراقة وكانت هندستها مصنوعة بحيث تدخل الأنوار خفيفة فتزيد في جمالها وتجعل جوها للخشوع والرهبة.

تقع قلعة سمعان في السفح الغربي لجبل سمعان في شمال غربي حلب، والطريق المؤدية إليها هي الطريق المعبدة العامة إلى أورم الصغرى، ومن هناك تسلك طريق أنطاكية إلى تارب، وبعد هذه القرية تترك الطريق المعبدة، وتسير يميناً في طريق ضيقة فتمر بقرى دانا وترمانين ودارة عزة، وبعد هذه القرية بعشر دقائق تصل إلى القلعة. وهناك طريق ثانية أقرب من الأولى إلى حلب، تمر فيها على قرية المشبق حيث تجد كنيسة قديمة قد احتفظت ببنائها، وهذه الطريق لا تصلح للسيارات.

يحتوي البناء على ساحة متسعة هي المدخل العام وعلى فناء داخلي. ويتألف بناء الكنيسة من مدخل مسقوف على شكل مستطيل ثم من كنيسة ذات أربعة أجنحة أو بعبارة أصح من أربع كنائس مبنية على الشكل الآتي:

يتوسط البناء عمود يحيط به مثمن منتظم له أربع فتحات على اربع كنائس، وأربع

فتحات على غرف صغيرة مبنية على شكل شبه منحرف . وتتألف كل كنيسة من ثلاث أسواق إحداها عريضة والاخريان ضيقتان . وتنفصل الأسواق بصفين من الأعمدة كانت تحمل أقواساً : ست في كل جهة ، وقد هدمت بكاملها إلاَّ قواعدها . ونلاحظ أن القسم الشرقي أطول من الأقسام الثلاثة الأخرى ففيه تسعة أعمدة من كل جهة، وتنتهي الأجنحة الثلاثة بجدران مستقيمة، والقسم ينتهي بثلاث حنايا ، وهذا القسم الشرقي كان للعبادة فقط. أما الأقسام الأخرى فلجلوس الزائرين .

يلاصق الكنيسة معبد صغير خاص بالرهبان ، وبناؤه فسيح فيه فتحات متعددة تدلّ على وجود غرف كثيرة في طبقات ثلاث . وفي شمالي البناء مغارة منقورة في الصخر فيها مقابر . وعند مدخل القلعة غرفة مبنية على شكل مثمن فيها بركة صغيرة « لتعميد » الأطفال ، وتحيط بها أطلال عدة غرف لمسكن الزوار ، ثم طلل كنيسة صغيرة .

ويحيط بهذا البناء سور متين فيه أبراج مرتفعة تشرف على القلعة وعلى السهل الذي يجاورها. وقد بني هذا السور بعد الفتح العربي ليستطيع الرهبان الدفاع عن قلعتهم .

وتطل من الجناح الغربي على سهل عفرين في منظر ساحر . ولدينا آثار شرفة متسعة ، فالبناء من هذه الجهة يلامس قمة الجبل . وقد تهدمت الشرفة ، إلاّ أنها أجمل مكان يأوي إليه الزائر ويتمتع فيه بروعة سهل عفرين .

وتشغل القلعة مساحة ٣٨٤٠ متراً مربعاً . وطول البناء من الشرق إلى الغرب ١٠٠ متر ومن الشمال إلى الجنوب ٨٨ متراً . وعرض كل جناح ٢٤ متراً ، وقطر المثمن ٢٨ متراً . وتدلّ هذه الأبعاد على ضخامة البناء .

ويظهر البناء منتظماً على المخطّط . ولكن الجناح الشرقي ينحرف في الحقيقة قليلاً لأن الكنائس القديمة كانت تتجه دوماً نحو الشرق .

وتدل الأحجار المبعثرة على أن القسم الأعظم من البناء قد تهدّم فيضطر الزائر الى أن يسير على الأحجار ولا سيما في أطراف البناء .

ويتألف مدخل الكنيسة من ثلاثة أبواب أحدها متسع في الوسط . والآخران صغيران وهما على الأطراف . وتتكئ القوس الوسطى على عمودين نحت كل منهما من قطعة واحدة ، ويعلو كلاًّ منهما تاج كورنثي الشكل ، وتتتابع الخطوط التزيينية في وسط الجدران ويعلو كل باب مثلث، وكان بين المثلثات أعمدة تربط الأبواب بعضها ببعض وتمكنها . وكان المثلث يُغطّى بسقف ذي منحدرين .

وإذا انتهينا من المدخل المسقوف وجدنا أربعة أبواب ، اثنان منها في الوسط ، واثنان

في طرفي الجنـاح الجنوبي . ويعلو البناء جدار فيه أربع نوافذ تحيط بها خيوط منحوتة نافرة . وتدل التيجان الباقية فوق هـذه النوافذ أنهـا تنقسم قسمين ، وأن كل قسم يتألف من نافذتين تفصلهما أعمدة دقيقة. ونلاحظ في هذا المدخل خصائص الفن السوري . فالكنيسة مزينة في جميع أقسامها الداخلية والخارجية ، والجدران مبنية من حجارة متوسطة في الحجم . وقد كان بامكان البنّـاء أن يستخدم الأحجار الضخمة والبناء يرتكز على الصخر ، لـكنه آثر أن يأخذك بدقة الصنعة وإتقانها لا بضخامة الأحجار . ونلاحظ أن النوافذ هي من ضمن البناء وليست نافرة ، ونرى تعدّد الأبواب تسهيلاً لدخول الزائرين وخروجهم . ونشاهد أمكنة كثيرة لأعمدة فقدت .[1]

والبناء رائع في ائتلافه فلا تظهر مواد غريبة تربط الأحجار بعضها ببعض . والجدران متناسقة . وأحجارها كاسية تتصف بالبساطة وحسن الذوق زادها الزمن جمالاً ، وقد أجاد المهندس ، في رأينا ، المزج بين الأقواس الشرقية التقليدية والهندسة اليونانية .

لننتقل الآن إلى المثمّـن ، وقد بقيت منه خمس أقواس وتهدّمت ثلاث . ويتوسط هذا المثمن عمود يقال إنه عمود سمعان . ومن المرجح أن المهندس قد وضعه في وسط البناء فان في الجهة الشرقية قاعدة عمود آخر عريضة جداً يُصعد إليها بدرجات . وقد تكون القاعدة الحقيقية لعمود سمعان . فقد أجمع المؤرخون على وجود عمود ضخم ، طوله أحد عشر متراً ثم زاده سمعان إلى سبعة عشر متراً ثم إلى واحد وعشرين متراً ، وقد صنعه تلاميذ سمعان تقديساً له وكان مؤلفاً من ثلاث قطع .

ويبلغ قطر أقواس المثمن الفخمة سبعة أمتار ، وهي ترتكز على أعمدة مستقلة عن أعمدة الزوايا ، ونلاحظ ذهاب أعمدة كثيرة من بين الأقواس ، فقد كانت تتمم البناء وتؤلف دائرة تتوجها . والمثمن يؤلف داراً مكشوفة . وسقوف الأجنحة الأربعة كانت تنتهي بميل قبل أن تصل إلى المثمن . لذلك كانت تبدو هـذه الدار الفسيحة متناسقة البناء تدعمها أعمدة مؤلفة من ثلاث طبقات .

ونشاهد في الجهة الشرقية آثار باب مبني في القرن السابع يحتوي على ثلاث فتحات ، وهو قائم بين الـكنيسة والدار المثمنة لئلاً يزعج طواف الحجـاج بالعمود وصلاة المصلين في الـكنيسة .

وإذا نظرتَ إلى المثمن قلت ما كان أروع هذا البناء لو كان المثمن مسقوفاً على شكل الأجنحة الأربعة فيصبح بناءً واحداً متماسكاً وقد انفرد Krekner بهذا الرأي . ولـكن

طراز البناء واتجاه الأقواس وضخامة المثمن تدلنا دلالة واضحة على أن الدار كانت مكشوفة، وهذا ما أجمع عليه الذين درسوا القلعة أمثال De Vogüé وButler وMattern .

ونشاهد التناسب الجميل بين الأحجار والخطوط النافرة التي تزيد على الثمانية ، وتختم القوس بنحت ناعم نافر نجده في جميع أقواس البناء .

وفي الجناح الشرقي نجد الحنايا الثلاث . الحنية الوسطى فسيحة يصعد إليها بدرجات ، وفي وسطها كانت المائدة وفيها خمس نوافذ تعلوها خيوط نافرة يتصل بعضها ببعض وتزين الأقواس والأجزاء التي بينها .

ويتوسط الحنية تزيينات ، وتنتهي الحنية بغطاء على شكل نصف قبة ، تعلوها فتحة لدخول النور ، ونجد من كل جهة حنية صغيرة ، لا تختلف بطرازها عن الحنية الوسطى . أما أسواق الكنيسة الثلاث فكانت منقسمة بالنسبة الى هذه الحنايا . ثم تدل آثار النحت الموجودة في الزوايا على أن الجناح كان مغطى بسقف ذي منحدرين .

أما النقوش التي في وسط الحنايا فتعلو أعمدة تتألف من رسوم متداخلة ومن صفين من ورق النخيل النافرة المنحنية إلى الأمام . وفي الإطار المنقوش ثلاث طبقات : يتألف الجزء الأسفل منها من نجوم ذات رؤوس دقيقة متداخلة بين خطوط معوجة ، والجزء الأوسط من ورود رؤوسها متعاكسة ، والجزء الأعلى من خط فيه زخارف ناتئة ، ثم تشبه حنايا الفناء الخارجي القسم الداخلي بأحجارها وزخارفها . بقيت قواعد الأعمدة وتيجانها وقد سقطت .

وتدل أطلال مساكن الرهبان على وجود دير كامل يتسع لإيواء عدد كبير ممن يؤمونه ويحرسون القلعة إذا دهمها خطر .

• • •

تلك صفحة رائعة من صفحات ماضينا الزاهر . وقد أردت أن أنشرها وأذيعها بعد أن تأملتها بإعجاب . وحداني إلى ذلك خاصةً أني رأيت أبناء وطني غير مكترثين لآثار بلادهم على انواعها ولا مقبلين على زيارتها ولا العناية بها ولا التعظيم لها إلاَّ في النادر .

حلب داود صليبا

# ٢ - الكتب

## • ألف ليلة وليلة • بقلم سهير القلماوي

١٧ × ٢٢ ½ سم ٣٢٠ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٣

عجباً لخلود شهرزاد وما حملت في طواياها من صور وأحلام . لقد ولدت هذه المرأة الساحرة من خواطر مبتكرها المجهول كما ولدت الإلهة اليونانية الزهرة من دماغ جوبيتر ومرّت الأجيال وشهرزاد فتنة الأسمار وبهرة الأخبار ، وتصرّمت العصور والزهرة بهجة الفن وقريحة الشعر .

ولقد تعاقبت الأحقاب منذ مولد ألف ليلة وليلة وما زال فريق من الشرقيين يسكبون عليها أبصارهم ومشاعرهم ، مأخوذين بقصصها مفتونين بحوادثها ، يتقصون فيها روايات اللصوص والصعاليك ، وتشوقهم مطارحات المغرمين ومكايد الخبيثين ، يصدقون أساطير السندباد في البحر وطلاسم الجن في البر ويستخفهم كل ما في الليالي من حلاوة الكلام ، وأخذ ناس في الغرب ينشقون في ألف ليلة وليلة بخور الشرق عابقاً في قصور الخلفاء . وقد تألقت في جوّها الثريّيات والشموع فتكسرت أضواؤها على تاج مرصع بالدر والياقوت فوق هامة هرون الرشيد وهو على متكأ وثير ، ووراءه « مسرور » ممسك بمروحة من ريش النعام وندمان من حوله ، وحاشية من خلفه ، وراقصات مياسات بالدلال ، وحجّاب بالباب ، وحشم يسعون بين النُدُل بسائغ الشراب وشهيّ الطعام .

صور تتابعت على خاطري وأنا أقرأ كتاب الدكتورة سهير القلماوي في « ألف ليلة وليلة » وهو رسالة جامعية ضافية جاءت حجة على مجهود المرأة في التأليف والتحقيق ، وأن في وسعها مضاهاة الرجل في مناهج البحوث العلمية وتاريخ الأدب .

لقد توفرت سهير على دراسة بحثها هذا فاغتربت من أجله ونقبت ، واطلعت على أكثر ما كتب الغربيون في ألف ليلة وليلة قديماً وحديثاً ، فاستقصت النصوص ومحصتها وعرضت آراء المستشرقين على بساط من النقاش ، فإن منهم جماعة أحبوا هذا الكتاب الشعبي وأكبوا على فحواه ، فحللوه وركبوه وعرضوه في معاريض النقد والاستقراء ، فذكرت

السيدة الباحثة في مستهل كتابها أدباء من الغرب حاكوا ألف ليلة وليلة، فانسحبوا على أذياله وتقيّلوا ظلاله. فمرَّ ببالي بعد الذين ذكرتهم سهير: ڤولتير في قصة «الوزير زاديج» فان على قصته هذه نفحات من ألف ليلة وليلة في تهويلاتها وفيما اشتملت عليه من الفواجيء والفجائع، ومنهم نفر كانوا دهاقين سياسة جاءوا بلاد الشرق من فرنسة بمراتب السفراء فتلهى منهم من تلهى عن سياسة الدول بفن القصص فعبرت حكاياتنا الشعبية من القسطنطينية إلى أوربة، فكانت في أدب الغرب متاعاً للأحاديث ومعازف للهو والسلوى، وإذا هي على مسارحهم روايات تمثيلية وفي دور السينما مشاهد رائعة وصور خالبة.

وقد حارت السيدة سهير كغيرها من الباحثين في واضع ألف ليلة وليلة، فهي ترى أن مؤلفها أكثر من واحد، ونقرت في تاريخ صدوزها وحوادثها حتى استقرَّ رأيها على أن منجم الليالي ومطلّ عهدها كانا في أيام المنصور أو المأمون، ثم جعل الشعبيون يلحقون بها كل قصة تستهوي العامة وتستريح إليها الخاصة، ولما عرضت المؤلفة لخصائص الليالي وتصنيفها أخضعتها لمؤثرات الحضارة الإسلامية ومظاهر الدين، إذ أن الروح الدينية تموج في أكثر مناحي الكتاب، ويظهر فيها الإذعان للقضاء والقدر، وقد بحثت النواحي الاجتماعية فيه فرأت صوراً صادقة لحياة المجتمع بمصر وبغداد في عصور تأليفه، وساقت بحثها إلى قضايا الأدب والشعر فدلت كيف خرجت أنباء الأدب من كتب الأصمعي وأنداده من الرواة لتدخل أبهاء ألف ليلة وليلة على يد قاصٍّ ماهر سكب عليها من فنه روحاً شعبيًّا ساحراً.

وهكذا فيض لصاحبة الكتاب أن تدرس نصوص الليالي وفصولها كما يدرسها الرجال الذين لا يعبأون بالمرأة على نحو ما ينبغي لها، لأنهم لم يكونوا نساء فيستطيعوا التسلل بدراستهم إلى سرّ المرأة، وأحسب صاحبة الكتاب قد هيبت هذه الموالج بما هي أحرى به وأولى، ولم يستفض حديثها عن المرأة في ألف ليلة وليلة والمرأة فيها مغبونة منكودة، ولئن عقدت الباحثة فصلاً فيها في كتابها لقد جاءت به بسبيل التحقيق العلمي وإتماماً لرسالتها. ثم ربما كان القارىء يودّ أنْ لو عرضت المؤلفة لمطارب الرقص وملاهي الموسيقى ولو من وراء حجاب، فهذا باب فيه طرفة وفيه فائدة.

وكذلك كان قلمها العلمي غالباً على قلمها الأدبي في كتابها، ولكم آثرت لو جرى هذا القلم بيد سهير على سجاياه منطلقاً من قيود الجامعة التي آثرتها في البحث.

وليت الأديبة المصرية تعود إلى شهرزاد ملفوفة بالديباج المفوف مضمخة بالعطور، تقص أحسن القصص على شهريار وهو مجذوب النظر مخلوب الفكر، وقد انكسر سيفه

واستمرّ بطشه يهم به التهويم في قطع من الليل فيدفعه السهر وشهرزاد تصب في مسمعه ألحان كلامها وتملأ عينيه بروعة جمالها وتطبع على الليالي قلبه بالهوى ، فإذا لاح الصباح سكتت عن الكلام المباح ...

وداد سكاكيني

**• بنت الشيطان • بقلم محمود تيمور**

١٣ ½ × ١٩ ½ سم ١٥٠ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤

ما كان لي أن أعرض لما كتب الأستاذ محمود تيمور وقد عرفهُ القارئ قاصًّا يتقدم نئة من قصاص العربية في العصر الحاضر ، ويفنّن في سبك القصة وفي عرض الحوادث ، ويتصرّف في الغرض بحسب ما توحي إليه درايته وتجربته وتوفره على هذا النوع من الأدب زماناً . وهو في كل ذلك سليم الخاطرة ، سلس التعبير.

والأستاذ تيمور ـ لطول خبرته ـ يستطيع أن يتخيّر السمين وينفي الغث . وإن مجموعته الأخيرة من القصص « بنت الشيطان وقصص أخرى » ينغمر فيها الحسّ فتلفه حتى تطوى القصة الأخيرة « قدح ماء وليمونة » وهي قصة الصراع العنيف بين القلب والعقل. وأي رجل يتغلب عقله على قلبه في ساعة ساحرة فيقذف بالكأس المشتهاة ، وهو يوشك أن يرتشف رحيقها اللذ ، ثم ينطلق عجلاً لا يلوي على شيء ؟ أي رجل يفعل ذلك إلاّ أن يكون رجلاً عظيما ؟

هذه القصة « قدح ماء وليمونة » هي و « خصام » و « الترام رقم ٢ » بلغت شأواً حقًّا في فن القصة القصيرة، ولم تتخلف عنها « بنت الشيطان » لولا غموض ضئيل رانٍ على مرمى القصة : فهذا الخير الذي أراده رأس الشر « بلزعبول » لم يستطع أن يغير من طبيعة المخلوق أو أن يمحوها . أما كيف ارتدَّ كل أمر الى أصله فهذا شيء يكشف عنه سياق الحديث . ثم لا عجب إن رحتُ أحاور الأستاذ تيمور فأقول : كيف غمَّ على الشياطين أمر العباءة السحرية وكيف جازت عليهم حيلة الأمير زبرجد حين أراد الدخول الى حرمهم ففاز ؟ ولماذا انتحر صاحب « البومة تنعق » ألأنهُ كان يعيش في الريف وإن في طاقته أن يدفع عن نفسه هذا الكابوس فيرجع الى القاهرة حيث الهرج والمرج ؟ أم لأنهُ قسا على زوجته حيناً وكان يستطيع أن يكفِّر عن سيئاته ؟ أم لأنهُ قتل البومة والإنسان في كل يوم

ألف قتيل ؟ وماذا عسى أن تكون العقدة في « ليلة عرس » ويا ليت عنوانها كان « أمانيّ قلب » أو ما أشبه ذاك .

هذا ولقد صدَّر الأستاذ كتابهُ بمقدمة انضمت على صرخة صريحة فيها عتب على الجمهور الذي انكبَّ على القَصص الرخيص . هذا القصص الذي يجذب اليهِ النفوس الضعيفة والعقول السقيمة فيبذر فيها غراس الشر والأخيلة الخاوية والأوهام المبتذلة، وهو يفسد عقول النشء وأنصاف المتعلمين ، شأنهُ في ذلك شأن المقالة الواهنة الضعيفة التي تخلو من الفائدة وتفهق بالشر ،ونحن أحوج ما نكون إلى أن ندفعهم عن كل ذلك . فهذا القصص ينحط بالشعب إلى أسفل ، وتلك المقالة تعصف بصبابة من الأخلاق نترجَّاها . وهما نوعان من الأدب يتعاوران الزعامة حالاً بعد حال .

هذه الصرخة فيها الحكمة والغيرة ، فهل إلى العمل على تحقيق أمانيّ المؤلف من سبيل ? سل الكاتب والناشر والقارئ وولي الأمر .

كامل محمود حبيب

## • ثمار المقاصد في ذكر المساجد ، ليوسف بن عبد الهادي •

بتحقيق محمد أسعد طلس

١٦ × ٢٥ سم ٣٣٢ ص نشر المعهد الافرنسي بدمشق بيروت ١٩٤٣

قصد المؤلف إلى ذكر المساجد التي عرفت في عصره ( القرن التاسع الهجري ) في دمشق وما قرب منها،أحصاها إحصاءً جيّداً ، وأرخها تأريخاً مختصراً . ثم ختم الكتاب بفصول في أحكام المساجد ، ما يجوز فيها وما لا يجوز ، وآداب دخولها وآداب المكوث فيها ، إلى نحو ذلك مما عرف في كتب الفقه .

والكتاب تحفة طريفة من آثار علماء الشأم الأعلام ، مؤلفه ندّ السيوطي وشبهه وعصريّه ، كلاهما عالم واسع الاطلاع ، مؤلف مكثر ، يخوض في كل علم ويؤلف في كل فنّ . ابن عبد الهادي مات سنة ٩٠٩ والسيوطي مات سنة ٩١١ ، وأكثر مؤلفاتهما جمع أو تلخيص ، وكلاهما أنتج كثيراً ، ولكن السيوطي أشيع ذكراً ، وأبعد صيتاً بما نشر من مؤلفاته .

وميزة هذا الكتاب أنهُ ابتكار جميل ، لم يسبق إليه المؤلف فيما نعلم . وكم تمنينا على

وزارة الأوقاف المصرية أن تصنع مثل هـذا الصنيع ، تحصي مساجد المملكة المصرية في كتاب مستوعب يذكر فيه تاريخها مفصلاً وأماكنها مبينة محدودة . وقد بلغني أخيراً أنهم فكروا في ذلك واتجهوا إلى تحقيقه ، ولعلهم فاعلون إن شاء الله .

وأما إخراج الكتاب فقد أوفى فيه الدكتور أسعد على الغاية . إتقان مع أناقة ، في تحقيق علمي تاريخي دقيق . زيّن حواشيه بنفائس من نتاج بحثه في مصادر التاريخ وغيرها ، ومن آرائه ودراساته ومشاهداته ، ونحن نقدر ما لقي من صعوبات في إخراج الكتاب ، فإنهُ نشره عن نسخة وحيدة من مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق وهي بخط المؤلف ، وخطه من الخطوط التي تصعب قراءتها إلاّ على الخبراء الذين مارسوا مثل هذه الخطوط ، بل هو جديرٌ بأن يوصف بما وصفه به الدكتور أسعدَ أنه « رديء الكتابة » وقد اظهرنا على مثال منه بتصوير الصفحتين الأخيرتين من الكتاب .

وكلمة الدكتور أسعد في أواخر مقدمته تصوّر بعض ما لقي من صعوبة وما بذل من جهد : « والنسخة التي نقدمها اليوم لقراء العربية نسخة وحيدة في مكاتب العالم ، رأيتها منذ سنوات فأعجبتني وعزمت على نشرها ، وأخذت أفتش عن مصادر أستعين بها في عملي هذا فلم أهتد إلى شيءٍ سوى تاريخ ابن عساكر ، وتنبيه الطالب وإرشاد الدارس للنعيمي وبعض مختصراته ، ومنادمة الأطلال لبدران ، وخطط الشام لكرد علي ، فقرأت هـذه المصادر كلها قراءة أعانتني على اكتشاف بعض الأسماء والأمكنة ، وما اكتشاف هـذه الأمكنة بالأمر السهل ، فان للبلاد والأرض انقلاباً وتطوراً عجيباً كما للإنسان — على رأي ابن خلدون — والله وحده يعلم كم كانت مهمتي عسيرة . وما أقول إني بلغت فيـه الغاية ولكنني بذلت الجهد واستعنت بالمصادر من شرقية وغربية ، وسألت العلماء ، وهم جد قليلين في هذا الباب ، فكان لي من ذلك بعض العون » .

وقد وضع للكتاب ذيلاً ، وهو حافل نفيس ، إذ أحصى فيه مساجد دمشق الموجودة إلى نهاية سنة ١٣٦١ ، وقد زارها مسجداً مسجداً ، وهي أكثر من ثلاثمائة مسجد . وصفها وصفاً كاشفاً ، وحاول تعيين تاريخها مما وجد في نصوص المصادر التاريخية ، ومما قرأ على جدرانها من كتابات ونقوش ، ومن طرز البناء وأساليب عمرانه . وذكر من النقوش والكتابات ما لم يكن منشوراً في كتاب فرنسي سماه . وليته استوعب ذكر النقوش والكتابات في هذا السفر القيم ، ليكون عمله تامًّا وافياً ، ولأنه ليس من الفروض على الباحثين والمنقبين من الأمم العربية أن يعرفوا اللغة الفرنسية ، أو أن يستوعبوا قراءة ما كتب بها في علومهم وآثارهم ومفاخر بلادهم .

وقدّم الدكتور أسعد الكتاب بمقدمة جيدة، ترجم فيها مؤلفه ترجمة وافية، وأحصى مؤلفاته الباقية في دار الكتب الظاهرية، وعرّفها للقارئ تعريفاً كافياً.

وصنع للكتاب فهارس متقنة، للبقاع والمساجد والأعلام. وختم الكتاب بمصوّر جغرافي « خريطة » ذكر فيها المساجد الموجودة بدمشق، قسّمها إلى مربعات صغيرة رمز لها بحروف وأرقام، وذكر هذه الحروف والأرقام عقب الكلام على كل مسجد، ليسهل على القارئ تعيين موضع المسجد في «الخريطة».

ولكننا لاحظنا أن «الخريطة» موضوعة في الأصل باللغة الفرنسية وأنها صنعت بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣٤ فهي على أكثر تقدير تنتهي في سنة ١٣٥٣ هـ وقد صرح المؤلف أنهُ أحصى مساجد دمشق إلى سنة ١٣٦١ هـ.

وقد علمنا أن هذا العمل الجليل قد توّج بقرار نبيل من « المجمع العلمي العربي بدمشق تنفيذاً للمادة ٤٨ من النظام الداخلي للمجمع، وهي تنص « أن المجمع يوزع سنويّاً ثلاث جوائز نقدية على ثلاثة مؤلفين سوريين صنفوا أو ترجموا كتباً قيمة. وعلى ذلك منح المجمع الدكتور أسعد طلس إحدى الجوائز الثلاث لسنة ١٩٤٤ لإجادته في نشر هذا الكتاب.

وهذا القرار النبيل وسامٌ أدبيّ ناله المحقق عن جدارة، وشهادة وضعت موضعها ليس تقديرها بما فيها من جائزة مادية بل بصدورها عن رجال هم من أساطين العلم.

احمد محمد شاكر

• معارك العرب في الشرق والغرب • بقلم بطرس البستاني

١٥ ½ × ٢١ ½ سم ١٣٢ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٤

في هذه الأيام التي تطالعنا فيها الصحف وشركات الأنباء والإذاعات بأخبار المعارك التي تدور رحاها ويحمى وطيسها في أكثر من مكان من الأرض، يظهر كتاب عربيّ يعيد إلى الأذهان تلك المعارك التي دارت بين العرب وجيوش الدول المنظمة كالفرس والروم ومن إليهم.

والحرب كريهة إلى النفوس، وخاصة لمن خاضوا في ويلها وذاقوا من مرها. وما أحكم زهيراً حين قال:

وما الحرب إلاّ ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضرَ إذا ضريتموها فتضرم..

ألا إن الحديث عن المعترك، ووصف الموقعة، وتتبع الحوادث والتعليل لها قد يلذ

القارئ المتلهي بسير الأبطال كما يلذّ العالم المعنيّ بأحداث الزمان .

وخير كتب المعارك والوقائع ما جمع بين اللذتين . فلا تطغى فيه البطولة والاغراق والمبالغة على الشرح والتحليل والتعليل ، كما لا يطغى فيه هذا على ذاك . فاذا ما طغى الجانب الاول كان الكتاب أقرب إلى الأساطير منه إلى العلم ، وإذا ما طغى الجانب الثاني كان الكتاب أدنى إلى الجفوة وأبعد من اللذة .

والأستاذ بطرس البستاني أخذ في كتابه هذا مأخذاً يرضي عشاق البطولة وأنصار العلم فقد حسبتُني حينما هممت بمطالعة الكتاب أنني أقرأ قَصَصاً شائقاً ، فاذا بي أقرأ بجانب ذلك علماً غزيراً وتحقيقاً في الروايات التي يصادفها قارئ كتب التاريخ الاسلامي .

والمؤلف نفسه يصرح بذلك في مقدمته المتزنة التي قدّم بها لكتابه . فهو يعرض الروايات العربية وغير العربية ، ويوازن بينها ويستخرج منها — بعد التمحيص والتفكير — أقربها إلى الحق وأشبهها بالصدق ، مع بُعد فيه عن التعصب والتحيز ، وإيثارٍ لاصابة الحقيقة مهما كان مصدرها .

والمؤلف مدرك تمام الادراك لما يتعرض له المؤرخ من التأثر بنوازع العِرق ( الجنس ) ومنازع الوطن والدين . لا يُستثنى من ذلك عربي ولا عجمي . وقد يجرُّ ذلك إلى الجَنَفِ في الحكم والميل في الرأي . لهذا كان البستاني يقظاً في تقليب وجوه آراء الفرنجة حتى يميز الحق من باطلها .

ويظهر ذلك في مسألة « جوليان » وانحيازه إلى موسى بن نصير . فقد عللها لويس برتران مؤلف «تاريخ أسبانية» تعليلاً لا يتفق مع رواية مؤرخي العرب . ولكن بطرس البستاني يبين وجه الحق في المسألة في هدوء وحسن تقدير .

إلاَّ أن بطرس البستاني قد ينسى أحياناً ما أَخَذَ به نفسه في مقدمة كتابه . فهو يشك في خطبة طارق بن زياد في غير مدعاة إلى الشك ويحاول أن يعقد شبهاً بينها وبين خطبة « يوناتان » في بني إسرائيل حتى يقول إن الرواة من العرب صنعوها على غرارها. ومما يحمله على الشك فيها أن طارقاً استعمل .. « عُرباناً » وهي ليست من الكلم الفِصاح . . ! ويخلص من هذا إلى قوله « فالخطبة كما يتبين لنا مصنوعة » وهذا تعسف في الحكم يستغرب من جانب مؤلف نصب لنفسه موازين قبل أن يشرع في الكتابة . وهل يجعل استعمال كلمة «عربان» الخطبة مصنوعة ؟ ألم يرجح البستاني أن طارقاً بربري مستعرب ؟ فلماذا يستكثر عليه لحنةً واحدة ؟

« والغنائم » و « المغانم » ثم « نفائس » البلاد المفتوحة ألفاظ يديرها المؤلف في كل وجه من وجوه سياقه،حتى إنها لتكاد تطغى على « الروح » و « الايمان » اللتين استعملهما المؤلف قليلاً واللتين هما أيضاً من خصائص المعارك العربية الأولى ، وذلك موضع مراجعة وتدارك إن شاء الله في الجزء الثاني من الكتاب .

محمد عبد الغني حسن

## • ع الماشي • بقلم ابرهيم عبد القادر المازني

١٤ × ٢٠ سم ١٠٩ ص لجنة النشر للجامعيين القاهرة ١٩٤٤

الأستاذ إبرهيم عبد القادر المازني أول من أثبت قدرة اللغة الفصحى على احتضان التعبيرات الدارجة ، وعلى صياغتها بحيث لا تفقد روحها ، ولا تنقص جاذبيتها ، أو يتلاشى سحرها ، وتبرد حرارتها . ولعله في هذه الناحية يكاد يتفرد بهذه الميزة كما يتفرد أسلوبه بحلاوة التأثير وطلاوة التعبير .

ولقد كانت للأستاذ المازني مشاركة حسنة في فنّ القصة والأقصوصة أفاد منها الأدب العربيُّ الحديث ، فأبرز طائفةً من آثاره في هذا اللون من الأدب ، وكان آخر ما أبرزه مجموعته التي أسماها عَ « الماشي » .

ولا يعجبنَّ القارئ من هذا العنوان فقد درج الأستاذ المازني على التواضع في عناوين كتبه، بل على التواضع في أسلوبه والبساطة فيه — تلك البساطة التي هي أولى مراتب البلاغة ، البساطة التي تبدو هيِّنةً في التقليد على حين أنها بعيدةٌ عن ذلك لأنها من روح المؤلف وصورة من شخصيته . فأنت تراه قد سمّى قبل ذلك كتابين بعنوانين متواضعين : « حصاد الهشيم » و « قبض الريح » . ولعلّ هذا التواضع سرٌّ من أسرار اقتدار المازني على اجتذاب قرائه اليه ، وعلى كثرة المعجبين بأدبه .

ولا ينكر أحدٌ ما لقوّة أسلوب المازني وقدرته على تصوير الدقائق من الأشياء والتعبير الصادق عن الخواطر والخلجات النفسية ، والتغلغل في بواطن النفس ، والكشف عن أسرارها . وإن اختلف فريقٌ في مدى اقتراب بعض أقاصيصه وقصصه من شروط هذا الفن ، أو مدى بُعدها فان تعبير المازني وتصويره لمن أدقّ أدوات القاصّ ، وقد

لا يجاريه في ذلك إلاَّ القليل من كتَّابنا . فلا يملك قارئه إلاَّ أن يسايره في طريقه ، وإن اختلف معه في الغاية التي انتهى اليها .

ولقد انطوت مجموعته الجديدة على أربع عشرة أقصوصة ، استطاع فيها أن يثبت قدرة اللغة الفصحى على التعبير عن النكتة المصرية بل النكتة الشامية دون أن يحس القارئ فيها جوداً ، بل قد لا يتردد في الاعتراف بأن حلاوة هذه النكتة زادت وأن بهجتها لمعت ، وأنه يمكن التقريب بين العامية والفصحى بل إدماجهما معاً بحيث تستطيع الأخيرة أن تضم الأولى إليها بدون تنافر أو سقوط .

على أن لي بعض ملاحظات أذكر منها ( عَ الماشي ) تلك الجملة التي ختم بها أقصوصته الأولى « من ذكريات لبنان » ، وكان جميلاً لو حذف الفقرة الأخيرة منها وترك القارئ يقدر من خلال الحديث ونهاية القصة حيرة الرجل مع المرأة . كذلك الأقصوصة التي أسماها « نزهة وسليمه باشا » فانها أقرب إلى أدب المقال منها إلى أدب القصة .

أما بقية أقاصيص الكتاب فهي من القوة بمكان . ولن أنسى تلك اللوعة التي أثارتها في نفسي أقصوصته التي ختم بها كتابه وهي « كيف حفرت بئراً لنفسي ؟ » فهذه الأقصوصة إلى جانب ما اشتمل عليه كتابه الجديد من أقاصيص ، ثروة يغنى بها الأدب الحديث .

حسن كامل الصيرفي

◆

• خصائص الروح الفرنسي • بقلم عثمان أمين

١٢ × ١٨سم ٣١ ص دار النشر هورروس القاهرة ١٩٤٤

رأى الأستاذ الدكتور عثمان أمين المتخرج في السُّربون ومدرس تاريخ الفلسفة بكلية الآداب عندنا أن يفحص عن الروح الفرنسي ويذيع فضله ، ويريد بالروح كلمة Esprit ، Spirit . فبيّن خصائصه وهي : «القصد والاتزان ، والحكم السليم، والبساطة والوضوح، والاتصال بالجمهور ، والنفور من تكلف إقامة المذاهب الفكرية ، وإيثار الملكات البشرية ، والملاحظة الباطنية ( يعني ملاحظة الباطن ) » . والحق أن وراء تحليل المؤلف لذلك لروح وتفصيله لخصائصه اطلاعاً ودراية وتفهماً . ولا نشك أن الروح الفرنسي حقيق بمثل هذه العناية ، فهو في المراتب العليا ، وله فضل عظيم في غذو الضمير وتنوير الفكر . ومما

يبدو لنا أن في المؤلف تحمساً للموضوع الذي عالجه وإيثاراً لا تُرتاب في صدقه للعقلية الفرنسية . وكان أدنى إلى الاعتدال أن يترك في المقدمة الموازنة المبتسرة التي عقدها بين العقلية الفرنسية والعقليتين الانجليزية والألمانية . هذا وإننا نرى أن المؤلف قصر نظره على ميدان الفلسفة ، وهو ميدانه ، وإن قال في الخاتمة : « تلك بعض الصفات التي تبدَّت لنا ممثلة للتفكير الفرنسي في جملته » ، على حين أن الروح الفرنسي في جملته يتجلى في الأدب والتصوير والنحت والموسيقى وغير ذلك أيضاً . ولو عرض المؤلف الألوان الحديثة للأدب وما إليه لراجع بعض تلك الخصائص مثل « البساطة والوضوح » ( نذكر أصحاب الشعر الرمزي على طريقة Rimbaud و Claudel و Mallarmé وقصص جيرودو وأضرابه والموسيقى التأثرية على طريقة Debussy ) ومثل « الاتصال بالجمهور » ( نذكر أصحاب أدب ما وراء الواقع وتصويره ) . والرسالة حرية بالمطالعة والتأمل .

*[(١)]

• سيدة القصور • بقلم علي الجارم

١١ ½ × ١٦ ½ سم ١٥٢ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

• من النقد الفرنسي • بقلم محمد روحي فيصل

١١ ½ × ١٥ ½ سم ١٥١ ص مكتبة البابيروس دمشق ١٩٤٤

قدر هذا الكتاب الصغير أنه ينقل الى قراء العربية بعض آراء الغرب الحديثة في الفن والأدب نقلاً حسناً في عبارة سليمة ، أنيقة أحيانا . ولا شك أنَّ بالمقبلين على صناعة الأدب عندنا ولاسيما الهاجمين على نقد الشعر من غير أبوابه حاجة الى مطالعة فصل بول ڤاليري في « الشعر » وفصل آبل بونار في « الحيــاة والشعر » كما أن بهم حاجة إلى تأمل ما سطره لانسون في « العاطفة والأدب» وفي « البيان » . لعلّ في مثل تلك الفصول ما يثقف من ضئول محصوله ويُـفطن من بطؤ فهمه ويرهف من غلظ حسّــه . هذا ولا بدّ من ترجمة الفصول الرفيعة في النقد والاسترسال حتى يحسن التوجيه ، وتستقيم المقاييس . وللمترجم فضل في الاختيار والنقل .

*

(١) النجم يرمز الى اسم من أسماء المتعاونين على الانشاء في هذا الباب .

# ٣ - المجلات

## مجلة الحقوق

أتمت مجلة الحقوق للبحوث القانونية والاقتصادية سنتها الأولى بظهور العدد الرابع (أكتوبر — ديسمبر سنة ١٩٤٣). وهذه المجلة تصدرها كلية الحقوق في جامعة فاروق الأول تحت إشراف مؤسسها ورئيس تحريرها العميد الدكتور زكي عبد المتعال.

ونظرة سريعة إلى المجلة تبين لنا عظم المجهود الذي بذل في سبيل إخراجها على صورتها الحاضرة. فلقد بلغ مجموع الصحف المكتوبة باللغة العربية نحو تسعمائة صفحة، ومجموع التي بلغة أجنبية نحو المائة.

أما محتويات المجلة فهي متنوعة يجد القارئ في مختلف أعدادها مجموعة حسنة من المقالات لبعض القائمين بالتدريس في الكلية، كما ساهم فيها بعض أساتذة خارجين عنها. ويضيق النطاق هنا عن التنويه بموضوعات هذه المباحث وبأسماء كاتبيها فحسبنا أن نثبت أنها موضوعات شائقة وهامة، تناولت الشريعة الاسلامية والقانون الجنائي والقانون الدولي العام والخاص والقوانين المالية والادارية. ولا جدال في أن الباحث — سواء كانت بغيته علمية أو عملية — واجد فيها سنداً يركن إليه ومرجعاً يهتدي به.

ولما كانت هذه المباحث، كما قدمنا، متناولة لأغلب فروع القانون والاقتصاد كان من المستحسن، في نظرنا، أن يخصص كل عدد من الأعداد الأربعة لفرع معين، أي لنوع خاص من المباحث بحيث يكون العدد الأول للدراسات الشرعية ولتاريخ التشريع، وأن يكون الثاني للقانون الخاص وما يتصل به، وهكذا ...

وبجانب المقالات التي أشرنا إليها، يجد القارئ طائفة من التعليقات على الأحكام الصادرة من الجهات القضائية على أنواعها. ولهذه الناحية خطرها لدى الباحثين، إذ فيها يلتقي العلم بالعمل ويظهر مدى التفاعل بينهما. وهكذا يساهم الفقه في تكوين قضاء متئد يساير ضرورات الحياة المتحولة. والواقع أن هذا الباب من مظاهر التماسك بين اجتهاد الفقه ونشاط القضاء، ولذلك نود لو يفسح له المجال على وجه أوفى في المستقبل.

ولم يغفل المشرفون على تحرير المجلة تخصيص جانب للعمل التشريعي، فنشروا بعض

وثائق وتقارير تمس موضوعات ذات شأن في ميدان القانون . فالقارئ يطلع من ص ٢٩١ إلى ص ٢٩٤ على مذكرة وزارة العدل في مهمة لجنة التوحيد لجهات شهر التصرفات العقارية والسجل العقاري . وعمل هذه اللجنة غير يسير ، يعرف ذلك كل من اشتغل بدراسة القانون المدني علماً وعملا . ومما هو جدير بالذكر أنه في المجلة باب للتعليق على المؤلفات القانونية والاقتصادية الحديثة . وفي هذا خدمة للاختصاصيين إذ تعرّف لهم المجلة ما يظهر من التآليف وتبيّن لهم قيمتها العلمية أو العملية . وفي مأمولنا أن يتسع الباب لتلخيص بعض المقالات والمباحث الهامة التي تنشرها المجلات الأخرى استكمالاً للفائدة .

والخلاصة أن مجلة الحقوق قد برزت في وقت وجيز إلى الصفوف الأول في ميدان النشاط العلمي . وعندي أنها ستحقق الأغراض التي ينشدها مؤسسها ، ولا يسعني إلاّ أن أتمنى لها اطراد التقدم والفلاح .

حامد زكي

الاستاذ بكلية الحقوق (جامعة فؤاد الاول)
والعميد السابق لكلية الحقوق ببغداد

## المشرق

احتجبت مجلة المشرق نحو سنتين فافتقد قراء العربية جانباً من زادهم . وقد ورد علينا العدد المنتظر وهو الأربعون ( ١٩٤٢ — ١٩٤٣ ) ووجدناه يضم ثلاثة مباحث تهم المتعقب للأدب العربي الحديث : المبحث الأول تاريخي بقلم إبراهيم عواد وعنوانه « لبنان في عهد المماليك » وفيه عرض لغزو مماليك مصر ولمحنة الجبل وأهله البواسل من دروز ونصارى . وفي المبحث الثاني : « الأدب وتطوره في جبل عامل » بسط الشيخ علي الزين خصائص أدب رجال الشيعة العامليين قديماً ونبّه إلى تحوّل النثر والشعر في العصر الحديث. ويجري هذا المجرى المبحث الثالث وعنوانه : « مظاهر الأدب في جبل الدروز » لسعيد أبي الحسن من السويداء ، وفيه طرائف كثيرة . ويلي هذه المباحث فهارس المشرق العامة وهي تتناول المجلدات الأربعين . وكنا نترقبها من زمن لأن الباحث لا يسعه إلاّ أن يرجع الى المشرق الحين بعد الحين، فهذه المسارد تُدني التفتيش وتيسر التنقيب .

وبعد فما ترامى إلينا أن المشرق خارج بعد اليوم في صورة جديدة بهمة الأب لويس خليل الماروني الذي أبرز هـذا العدد ، ونحن لا ننفك نرتقب الفوائد وقد أومأت اليها المقدمات .

*

# ٤ – الاستدراك

---

• القاموس العصري • عربي – انكليزي بقلم إلياس أنطون إلياس

١٦ × ٢٤ سم ٧٤١ ص المطبعة العصرية القاهرة ١٩٤٣

كنتُ قد ناهزتُ الخامسة عشرة من سنّي ، أو جاوزتها بقليل — إلّمْ تخني ذاكرتي — حينما قُلِّدت تدريس آداب اللغة العربية في المدرسة التي نشأتُ فيها في بغداد مسقط رأسي أي في مدرسة القديس يوسف للآباء الكرمليّين . وكنت قد لاحظتُ عهدئذ أن المعاجم الضادية اللسان تختلف كل الاختلاف عن الدواوين الإفرنجية اللُّغَى ، لأننا نرى هذه تعرّف الحيوان والنباتَ والجماد تعريفاً يرشدك إلى عين الشيء أو يكاد ، على حين نرى معاجمنا لا تهديك إلى مطلوبك إلاَّ من بعيد ، لأنها كثيراً ما تعرّفك بالشيء بقولها : حيوان ، طائر ، سمكة ، حشرة ، هامة ، أو ما يداني هذا التعريف العام ، المبهم ، الموهم ، الذي لا يسمن ولا يغني من جوع [١] .

فقلنا في نفسنا : إن سهل الله لنا السفر إلى ديار الأفرنج لندرسنّ علوم التاريخ الطبيعي [٢] درساً متقناً يهدينا الى سواء السبيل ، ويرشدنا إلى كل خلق إرشاداً ، يجعلنا نعرف الاشياء بأعيانها ، من دون تردُّد ، ولا تريُّث ، ولا تريُّب .

ولما تغربنا في سنة ١٨٨٦ م الى سنة ١٨٩٤ ، ودخلنا مدارس بلجكة ، وفرنسة ، كان

---

(١) راجع مقالة لنا في المقتطف المجلد ١٠٤ : ٢٣٨

(٢) التاريخ الطبيعي ، Natural History ، تسمية جديدة لم تكن معروفة في سابق العهد ، وتعني العلوم التي تصف الاحياء وصفاً صادقاً ، وتبوبها تبويباً جامعاً مانعاً ، فتهديك الى معرفة الانسان ، والحيوان ، ( من ذوات الاربع وغيرها ) والطير ، والسمك ، والحشرة ، والهامة ، والجماد والسائل . — ولم تكن هذه الكلمة معروفة عند من تقدمنا في هذه الدنيا ، وانما هي منقولة نقلا عن ابناء الغرب ، إذ يوافق المبنى المعنى ، ولا يعترض عليه إلا من أعماه الهوى أو الغرض ، أي اولئك الذين حادت طبائعهم عن السراط المستقيم ، واشتهروا بمخالفتهم لارباب الذوق السليم . نعم ان بعض الناس من الاقدمين في عصر العباسيين سموه ( علم المواليد ) لكن «التاريخ الطبيعي» أصوب وأدل على المعنى المنشود .

أساتذتنا يأخذوننا إلى المتاحف [١] ، والمعارض وأحيار [٢] الحيوان ، والطير ، والسمك والحشرات ، والنبات ، لنرى رأي العين ما يريدون أن يُرسخوه في أذهاننا من الحقائق والدقائق إرساخاً مكيناً ، فنجحوا في عملهم هذا . وبهذهِ الطريقة ، عرفنا أشياءَ جمة ، كان يستحيل علينا معرفتها معرفة تامة ، لولا هذهِ الوسيلة العلمية ، الناجحة ، البديعة.

ثم دخلنا في دير الرهبان الكرمليين في بلجكة ، وأتممنا ما كنا قد بدأنا بهِ ، ولما عدنا الى بغداد ، دار السلام ، سنة ١٨٩٤ ، أخذنا بإتمام ما كنا نشمّسنا فيهِ قبل الغربة ، وهو تصنيف معجم واسع أسميناهُ «المساعد» ، يوضح الألفاظ المبهمة المدلول إيضاحاً يشفي ما في النفس من العلـة ، وما في الصدى من الغُلَّـة .

وكنا في هذه الأثناء نبحث عن المعاجم المختلفة الألسنة من خطية ومطبوعة ، فنقتنيها . فاجتمع عندنا منها قدر غير يسير ، أي نحو من ثلثمائة ، ورأينا فيها من القُصور ، والأغلاط ، والأوهام المتنوّعة ما يُثَبِّط الهِمم ، ويغلّ الأيدي ، ويقيد الأرجُل ، لـكن مع كل ذلك ثابرنا حاقّ المثابرة ، وأبينا أن نرجع القهقرى ، فبلغنا — والحمد لله — مبلغاً ظهر لنا فيهِ أننا لم نضع أوقاتنا ، وكان كثيرون — من ربوع شتّى ، وأصقاع نائية — يستشيروننا في بعض الألفاظ ، فيرجعون عنا بما يرضيهم حافلي الوفاض ، أكثر مما كانت ترضيهم المعاجم الأخرى ، الغالية الثمن ، المختلفة المباحث والموضوعات ، التي كانت في أيديهم ، وحتى التي كانت بين أيديهم

وفي الآخر ، وقع بيدنا ، المعجم العربي الإنكليزي الموسوم بالقاموس [٣] العصريّ : تأليف الياس انطون الياس ، فألفيناهُ الضالة المنشودة ، بل قلنا : كل الصيد في جوف الفرا لأننا قدرناه أفضل من جميع ما أُلِّف في هذا الموضوع ، إلاّ أننا وقعنا فيـهِ على أوهام

---

(١) المتاحف جمع متحف كمصحف ، وغلط من فتح أوله . وأحسن منه المتحفة وهي الدار التي تكثر فيها التحف .

(٢) الاحيار جمع حير ، زنة خير ، هكذا جاءت هذه اللفظة في تواريخ عهد العباسيين ، ويراد بالحير: حديقة الحيوانات وبالانكليزية Zoological Garden.

(٣) اعترض كثيرون على المؤلف لكونه عنون كتابه بالقاموس . قالوا : وهذه الـكلمة لم ترد عند العرب بمعنى المعجم أو كتاب متن اللغة . فنقول لهم : اعتراضكم بارد لأن العرب أسمت ( أوقليـدس ) كل كتاب في الهندسة . وأوقليدس اسم الحكيم الذي وضع كتاباً في الهندسة . ومن هـذا القبيل ( المجـطي ) ( وآجرومية ، والعامة تقول أجرومية ) فتأمل ثم تذكر اسم معجم الفيروزابادي المسمى «القاموس المحيط» ..

فاتت المؤلف أو نَدَّت من أنامل المنضّد ، فأحببنا أن ننبه صاحبهُ على وقوعها ، ثم استأذنّاه في أن نصلحها بيراعتنا الضعيفة المرتجفة ، حتى لا نتعبهُ في هذا العمل الشاق ، ولما كان المصنف مطبوعاً على أصدق التواضع رضي بأن نتولى هذه الخدمة الصغرى بطيبة خاطر كما هو شأن العلماء العاملين ، فقمنا بها بأحسن ما في طاقتنا .

• • •

وأول شيءٍ جلب نظرنا اليهِ أنهُ أعرب جميع أواخر الأسماء أو يكاد ، بعلامة الرفع . والمشهور أن أطراف الكلم تجرَّد من كل حركة ، إلاَّ في المبنيّات ، فتبقى على ما بنيت عليه ، كما في أواخر الأفعال الماضية . مثل علمَ وفهمَ وأكرم . وأواخر الضمائر كما في هُوَ وهمْ وهنَّ . وأواخر أدوات الحروف ، كما في على ولنْ وحيثُ إلى نظائرها .

ولما سألنا المؤلف عن سبب ضبط أطراف الأسماء بعلامة الرفع ، منوناً كان أو غير منون ، قال : عمدنا إلى ذلك ، تمييزاً للأسماء من الأفعال . فلو قلنا مثلاً وخم ، ووزانَ كنف ، بمعنى وخيم ، بلا رفع ، اختلط على القارئ بفعل وَخِمَ ، زنة علِم . فمنعاً لهذا الوهم ، اضطررنا إلى هذا الاستعمال ، فهو اصطلاح خاص بنا لا قاعدة عامة للجميع .

فقلنا لهُ : ان هناك أسامي لا تشبه الأفعال في صيغتها ، أفما كان الاحرى أن تهمل علامة الإعراب ؟ قال : من اتخذ قاعدة في البعض ، جرى عليها في الكل .

ومن الامارات الدالة على قيمة كل معجم ، مراجعة اصطلاحات علم المواليد ، أي الأوضاع العائدة إلى علم الحيوان والنبات والجماد . وقد راجعنا أسفاراً عدة ، فألفيناها لا تُعنى عناية صادقة بوضع المقابل لها في لُغَى الافرنج . وربما شرحوا الحرف الافرنجي بعبارة طويلة عريضة ، وأهملوا اللفظ العربي الصحيح الفصيح ، ففات المقصود من استشارة المعجم وسبب وضعهِ .

أما الأستاذ الياس فقد أفرغ كل وسعه في وجود اللفظ الافرنجي المقابل للعربي أو بالعكس . ومع ذلك فقد وجدناهُ يخطئ في بعض تلك الأوضاع ، أو في رسمها ، لأنهُ اعتمد على بعض نقلة العلوم والفنون والصنائع من أهل هذا العصر ، فانهُ رسم مثلاً (الكهربا) بهمزة في الآخر ، وينسب إليهِ بقوله (الكهربائي) ، مع أن الأقدمين منّا صرّحوا بأنها مقصورة ، وليس وراء الألف القائمة حرف أو همزة ، كما ليس وراء عبادان قرية (راجع تاج العروس في مستدرك كهرب) .

ومما تبع فيهِ بعض كتبة هذا العصر ، أنهُ قال في (ص ٢٨٦ من الطبعة الثانيـة ) : « سيارة : كوكب يسير حول الشمس » مع أن الكوكب المذكور يسمى ( سياراً ) ، بلا هاء في الآخر ، بخلاف ( السيارة ) المتخذة الآن للركوب ، فانها تختم بهاء .

ومن أسماء الحيوان التي لم يصب فيها الحزَّ ، قوله في ص ٢٠٩ : «رجل الغاب : حيوان بين القرد والانسان » وتبع في هذه التسمية كل من كتب في الأوران أوتان . ولا جرَم ان قولنا : رجل الغاب لا يصح إلاّ على الذكر من هذا القرد ، دون الأنثى . ولهذا وجب علينا أن نقول : إنسـان الغاب ، ليقع على الذكر والأنثى معاً . فضلاً عن أن معنى ( أوران أوتان ) إنسان الغاب ، لا رجل الغاب .

وفي باب الواو : ذكر الوز العراقي ( في ص ٧٠٨ ) وهذه كلمة شائعة على ألسنة الأدباء شيوعها على أسنة يراع العلماء ، مع سوء وضع هذه الكلمة في غير موضعها ، لأنها تدل على أوز يسبح دائماً في الماء ويلتذّ بهِ . وليس لهذا الطائر وجود في بلادنا لينسب إليها ، إنما سبب هذا الوهم الشنيع أن مطبعة من مطابع بيروت أصدرت كتيباً لتعليم الصبيان أوائل القراءة ، ورسمت فيهِ صورة هذا الطائر ، وكتبت تحته ( وز عراقي ) وذلك قبل نحو ٦٥ سنة . ولما كانت سنة ١٨٩٥ أخذت نسخة من هذا الـكتيّـب إلى أشهر علماء العربية في بغداد يومئذٍ ، وهو السيد الشيخ نعمان الآلوسي مدرس العربية في جامع مرجان ، من أشهر جوامع بغداد . وقلت لهُ . ما تسمي هذا الطائر المرسوم شكلهُ هنا ؟ — ووضعت يدي اليمنى على ما كتب تحتهُ — فقال : هذا الأوز الغيْـراق — ( ولفظ الكلمة بكسر الغين المعجمة ، تليها ياء مثناة تحتية ساكنة فراء مفتوحة ، فألف فقاف ) .

فقلت لهُ : يا سيدي ، المكتوب هنا ( وز عراقي ) . فقال : هذا غلط طبع ، أو غلط يدل على جهل صـاحبه ، إن كان المؤلف كتب الكلمة عمداً بهـذه الصورة . فقلت لهُ : يا سيدي ، لكلمة المؤلف ( وز عراقي ) معنى ، وأما ( وز غيراق ) فلا معنى لهُ . . . — فقال : ليس في بلادنا وزّ بهذا الخلق حتى ينسب اليهِ . وثمَّ سبب آخر لتسميته بالغيراق ، لأنك تراه دائمـاً سابحاً في الماء على ما وصفه الكتّـاب الأقدمون مثل الدميري ، والكتّـاب المعاصرون كأحمد فارس . ولما كان بعضهم يجهل معنى ( الوز الغيراق ) لأنه لم يألف سماع الكلمة هذه ، وقد ألِف سماع ( العراق ) ، ظنَّ أن اللفظ الصحيح هو هذا ، دون ذاك ، وهكذا سرى الوهم من واحد إلى آخر ، وليس هناك من ينبه على هـذا الوهم ، ولا من يضرب على ايدي النقلة الجهلة والنساخ المساخ لكلام الأقدمين .

والآن أزيد على ما تقدم : وأما الذين عربوا كتب الأقدمين من اليونانية، فانهم ذكروه باسم (القُـقْـنُـس) بقافين والأولى منهما مضمومة والثانيـة ساكنة ، فنون مضمومة ، وفي الآخر سين مهملة ، وقد يعجمها بعضهم فيقول : الققنش وباليونانية Kuknos . ولغويُّـونا حذفوا علامة الاعراب اليونانية . وقالوا ( قوق ) و ( قاق ) . وكنت قد وضعت مقالة في مجلة المجمع العلمي العربي الدمشقية في سنيها الأولى . وهي ليست الآن بين يديّ لأذكر السنة والصفحة . وبينتُ بعض هذه الأسماء وشرحتها .

ومن الأغلاط التي ركب متنها الأستاذ ، سائراً بها وراء بعض الـكُتَّـاب المعاصرين ، قولهُ في ص ٦٩٤ : « آبِض : سفرجي » فوجدنا فيها وهمين : الأول وضعهُ الـكلمة في مادة (و ب ض ) مع أنها ظاهرة الاشتقاق من ( ا ب ض ) . والثاني أنهُ فسرها بكلمة مصرية عامية مشهورة على الألسن وهي (سفرجي) . وذكرها جميع اللغويين في مادة ( ا ب ض ) مع أن الـكلمة يونانية من Abax ومعناها : « ما يُـزين فناء الرجل وباب دارهِ ومحل طعامهِ وشرابهِ ، وهو زِلّـيج مربع من رخام أو كَيْـصَـمِـيّ أو زجاج ملوّن ، تُـزيَّـن بهِ بعض المواطن التي يتردَّد إليها صاحب المنزل ليَـأنَـسَ بالنظر اليها . على أن لغويينا ، ذكروها بقولهم : الآبض الذي : يزيّـن فناء الرجل وباب دارهِ بطعامهِ وشرابهِ » — وصواب الرواية : « ما يزين بهِ فناء الرجل وباب دارهِ ومكان طعامهِ وشرابهِ » والذي ساقهم إلى الوهم هو : أن الآبض ، وردت بصيغة الفاعل ، فأوّلوها بما أوّلوها ، وقد قلنا كلمتنا في هذا البحث في كتابنا ( أغلاط اللغويين الأقدمين ) ، وهو ليس بيدنا الآن لنحيل النظر فيه .

ومن أوهام أهل هذا العصر (ص ٢٦١ ) أنهم يظنون أن السُّعَـادي العاميّـة ، وزَان الغُـرَابي ، وهو السُّعْـد عند الفصحاء أي بضم السين المهملة ، وإهمال الدال بعـد العين الساكنة هو المسمى بالانـكليزية Sedge وليس الأمر كذلك، بل الذي يقابل هذه الانكليزية هي سعادى ، بضم السين المهملة وعين مهملة مفتوحة يليها الف فدال مهملة مفتوحة وفي الآخر ياء مهملة . وأما السُّـعَـاديّ العامية فهي عنـد الفصحاء ، هو النبت المسمى بالانـكليزية English galangale, Cypress, galingale لـكن المؤلف تبع خطأ المتحذلقين ، ولم يتبع علماء الفن الذين يخالفون العوام كل المخالفة .

◆ ◆ ◆

هذا بعض ما لاحظناه في هذا المعجم ، فلم يبق علينا إلاّ أن نبيّـن مزايا هذا السِـفْـر ، والسبب الذي حملنا على أن نعتمد عليهِ دون غيرهِ ، فنقول :

من خصائص هذا الديوان اللغوي : أنه معجم حيّ لا معجم ميت . إنك تلفي جميع المعاجم التي تطبع أو تؤلف في هذه السنين الأخيرة ، أي منذ نحو مائة سنة ، تدوّن الكلم القديمة منذ نأناة الاسلام إلى هذا العهد ، ولا تقيد حرفاً واحداً من فصيح كلام المعاصرين . وهذه الصفة تجعل الكتاب من كتب الأموات لا من كتب الأحياء ، تَقَصَّر فيها مثلاً عن سيارة ، وطيارة ، وغواصة ، ومدرعة ، ودبابة (بالمعنى الحديث) ودرّاجة ، وسحّابة ، وجميع أوضاع المحاكم ، ومصطلحات القضاء ، والقانون ، والألفاظ النصرانية فانك لا تجد لها ذكراً ، ولا إشارة ولو من طرف خفي إلاّ في النادر ، لكنك تجدها في « القاموس العصري » . فلقد تفرّد بأن وضع بجانب الكلمة العربية التي ينشد نقلها إلى الانكليزية ما يفيد معناها بالعربية أيضاً ، لكن بما يبينها لك تبياناً آخر ، يفهمك الأولى ، بلا تعب ولا نصب . وأنه يسرد لك جميع الألفاظ التي وضعها المعاصرون ، من أرباب الصحف والمجلات ، والمؤلفات العصرية ، في العلوم ، والآداب ، والفنون ، والصنائع المستحدثة ولا تكاد تجد لها أثراً في سائر الدواوين . وأنه تجد فيه كيف تقع على الكلمة التي لا تسقط عليها في مظنتها ، فهو يرشدك إلى محل الاطلاع عليها ، وهي ميزة تفرّد بها هذا السفر الجليل ، فانك تجد مثلاً في مادة ( اح . ويليهما حرف ثالث ) في ص ٨ محل وجود الكلم التي لا تراها في ما تركب من هذه الأحرف الثلاثة وأنه جمع إلى مراجعة الجرائد والمجلات والدواوين الخاصة والعامة قديمة وحديثة لأبناء العرب والغرب طبعاً متقناً ونظيفاً ، وحروفاً أفرنجية وعربية ضخمة ودقيقة .

فلتلك الخصائص أقبل العراقيون على اقتناء هذا القاموس ولم يحبوا أن يضعوا بجانبه معجماً آخر ضخماً كان أو غير ضخم ، لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة ، وجميع أمانيهم ، من ألفاظ عربية ، ومصطلحات إنكليزية . وقد رأيناه في أيدي كثيرين حتى عند سكان سواحل البحار المحيطة بجزيرة العرب ، كالكويت ، والبحرين ، ونجد ، والمحميات التسع أو النواحي التسع . فلا شك أن هذا الأستاذ يستحق من أهل اللغة الانكليزية جزاءً يعادل الخدمة التي خدم بها لغتهم وحببها إلى الناطقين بالضاد .

الأب انستاس ماري الكرملي
من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية





## كيف ينتفع الأميركيون بالمخلفات الزراعية

### إنتاج الفحم الحجري والبنزين من الحقول لا من المناجم في ساعتين !

### وقود معدني من المزارع

في أميركة عالم كيميائي مشهور ، هو الدكتور إرنست برل Berl أستاذ المباحث العلمية في معهد كرنيجي الصناعي الفني في مدينة بتسبرج بالولايات المتحدة . وقد أعلن برل منذ أواخر سنة ١٩٤٠ أنه سوف يأتي يوم نستطيع فيه أن نستخرج الفحم الحجري والبنزين من المزارع ، لا من المناجم والآبار . ثم صرح بأنه قد أتيح له في معهد مباحثه استخراج الزيت المعدني الخام وضروب الفحم الحجري القاريّ والأسفلت وفحم الكوك ، وذلك من مواد شتى ، أخصها الذرة والخشب والأعشاب البحرية والأوراق النباتية والعسل الأسود ، لأن هذه المواد جميعها غاصة بالمركبات التي تسمى بالمواد الهيدروكربونية ، التي يتألف منها النشا والسكر .

ويعترف هذا العالم بأن أصناف الفحم الحجري والأسفلت والزيوت المعدنية التي استخرجها تحتوي على خصائص تشبهها في المنتجات الطبيعية المعروفة كل الشبه وبأنه لم يكن في وسعه في بدء أمره إنتاج الفحم الحجري الصلد ولكنه قال : إنه لن يألو جهداً حتى يفوز بما يبغي في المستقبل القريب .

وسيجني الأميركيون من هذه الطريقة منافع جمة إذ تنشئ لهم مصدراً للوقود يتسنى تجديده على الدوام . فقد كان المعروف أن الموارد الطبيعية للفحم الحجري والزيت المعدني قابلة للنفاد . وإذا نفدت فلن يمكن تعويضها إلاّ بعد انقضاء حقب طويلة لا يستطاع تحديدها .

### أسلوب سريع للإنتاج

وأعرب الدكتور برل أن في مقدوره صنع الفحم الحجري أو الزيت المعدني في خلال ساعة أو ساعتين . وذلك بطريقة هينة . ومدارها تسخين المواد الهيدروكربونية تحت الضغط بعد خلطها بحجر الجير .

بيد أنه لا يتاح الآن أن تنافس أسعار هذه المنتجات أثمان الزيت المعدني الخام الذي يستخرج من باطن الأرض ولكنها أرخص من البنزين الذي يستخرج من الفحم الحجري لأن هذه الطريقة الأخيرة تحتاج إلى أجهزة غالية ذات ضغط مرتفع.

## المخلفات الزراعية موارد لا تحد

ثم جاء في أحدث ماورد علينا من أنباء أميركا الخاصة بهذا العالم واختراعه، ما يأتي نقلاً عن إحدى المجلات العلمية: —

لو تمكنت ذات يوم من دخول المعمل الكيميائي الذي يديره الدكتور إرنست برل في معهد كرنيجي الصناعي الفني، حاملاً بوشلاً من الحنطة (البوشل مكيال للحبوب يساوي ثمانية جالونات) أو سلةً من الأوراق النباتية العتيقة، لاستطعت بعد ساعة مزايلته ومعك قدرٌ من الفحم الحجري القاريّ أو زيت الوقود، هو نتيجة تحويل ما قدمت إليه من الحاصلات الزراعية، إذ يجح ذلك العالم الشيخ الوقور الذي يعمل في مدينة بتسبرج الاميركية الصناعية ذات الجو الملبد بدخان المصانع، منافساً الخليقة في منتجاتها الطبيعية، فينتج في ستين دقيقة مواد تشبه ما تقضي الطبيعة في إنتاجه ملايين السنوات.

## تزيل بعض بواعث الكفاح

فتراه هنالك ينتفع بالحاصلات الزائدة على الحاجة وبالمواد الزراعية المهملة في الحقول أو أية مادة تحتوي على كربوهيدرات. فقد اخترع طريقة لتحويل هاتيك الحاصلات الى موارد وقود لا تُحدُّ. وتسنَّى له بوسيلة واحدة التخلص إلى الأبد من التهديد الخاص بعجز موارد الزيت الطبيعي في المستقبل البعيد. فأنشأ سوقاً واسعة الأرجاءِ لجميع ما قد يستغنى عنه الفلاحون من مخلفات حقولهم. كما نسخ أيضاً مذهب «البلاد الضئيلة الزيت» لأن أية دولة في وسعها زرع البسلة الصينية أو فول الصوية والبرسيم الحجازي، ستغدو واثقة من حصولها على مورد ثابت من النفط السامي الدرجة. وربَّ سائل يسأل: هل يؤثر العالم الالتجاء إلى مكتشفات الدكتور برل التجاءً تاماً في الأحوال الحاضرة، أو هو لا يكترث لها؟

## الانسان يستنفد والخليقة تغدق

وجوابنا عن ذلك: أنهُ يخيل الينا أنهُ في خلال السنوات العشر القادمة، لامندوحة عن الانتفاع إما بطريقة هذا العالم، وإما بغيرها من وسائل التركيب الكيميائي للوقود لأن الموارد العالمية للزيت المعدني تستنفد استنفاداً ذريعاً. وفي هذا الصدد يقول الدكتور برل: «ولكن هذا الاستهلاك السريع للزيت المعدني الطبيعي لا يسوغ أن يكون باعثاً فعليًّا على اضطرابنا، ما دامت الخليقة تغدق علينا كل سنة حاصلات زراعية

وما بقيت الحاصلات تصنع لنا بطريقة التركيب الكيميائي الضوئي أي بتأثير الشمس في الخلايا النباتية، جميع المواد الهيدروكربونية اللازمة للانتاج الزيت، ممثلة في السكر والسليلوز. وعندي أن الحاصلات الزراعية التي تستغل من العالم في ثلاث سنوات يمكن أن تمدنا بمقادير من الزيت المعدني تعدل جميع الزيوت المعدنيـة المدخرة الآن في باطن الأرض »

ومن المعتقدات الشائعة أن الزيت المعدني والفحم الحجري، قد تولدا حينما كانت الأرض في حال التكوين. وأن هاتيك الحاصلات كانت مثل فصل غامض في تاريخ علم طبقات الارض. ومما لاشك فيه أن هذه الطريقة ما فتئت جارية على ذلك النمط، إذ الفحم الحجري والزيت المعـدني ما زالا يتولدان في باطن الأرض. ولـكن من سوء حظنا أننا لا بدَّ أن نقضي ملايين السنين ريثما نظفر بالحاصلات الأخيرة من ذينك المعدنين.

## المواد الهيدروكربونية هي الاساس

فأضحى هذا العالم الشيخ يستبدل الدهور الطويلة التي تقضيها الطبيعة في خلق تينك المادتين المعدنيتين بالضغط والحرارة وغيرها، فيتمكن من تعجيل الانتاج مئات البلايين من المرات. فيقوم أولاً بتحويل المواد الهيدروكربونية النباتية الى منتجات تشبه القار أو القير الطبيعي، ثم يواصل العمل إما بطريقة التقطير المتلف (ومداره تسخين المواد المقصودة دون ملامستها للهواء تسخيناً يفضي الى انحلال أغلب الأجسام العضوية انحلالاً مقترناً إذ تتولد طائفة من أجسام جديدة وذلك باعادة تنسيق الذرات بتأثير الحرارة) وإما باخراج الاوكسجين وإما بمزجه بالهدروجين فيحصل على مادة تشبه الأسفلت والزيت الخام الطبيعي. ومن هذه يسهل استخراج المواد الهيدروكربونية الدنيئة الرتبة مثل البنزين والكيروسين. والبنزين الذي يستخرج بهذه الوسيلة يفوق النوع الذي يحوي كثيراً من المواد المائعة لدويّ السيارات.

## مقابلة النفقات

والزيت الذي يستخرجه الدكتور برل بطريقته المتقدم وصفها أثمن من الزيت الطبيعي الخام. ولكن ينتظر أن تنعكس الآية في المستقبل وذلك حينما يفرغ الزيت الطبيعي الموجود تحت سطح الأرض، فترتفع أسعاره ارتفاعاً فادحاً.

وحين يستطيع برل إنتاج مقادير كبيرة من زيته الصناعي، تنخفض أثمانه انخفاضاً نسبيًّا. وجدير بنا أن نذكر أن البنزين الصناعي يتيسر إنتاجه بنصف النفقات التي تنفقها ألمانية الآن في تحويل الفحم الحجري الى غاز يحل محله.

## الاصل بحث مذهب علمي

ويرجع اختراع طريقة برل هذه الخاصة بتحويل المواد النباتية الى الزمن الذي عقب الحرب العالمية الأولى حينما كان هذا المخترع أستاذاً للكيمياء الصناعية والكيمياء الكهربية في الجامعة الصناعية الفنية في دارمستاد في ألمانية حيث وقع حينئذٍ في حيص بيص لأنهُ كان مفروضاً عليه باعتباره أستاذاً في ذينك العلمين أن يدرّس مذهباً علميًّا لم يكن هو يعتقد صحتهُ . ونعني به ( أن الزيت المعدني بأجمعه قد تولد من السمك ) وكان التعليل المعروف في ذلك العهد أنهُ في غضونَ دهر من دهور تاريخ نشوء العالم ، وقعت كوارث عالمية معروفة فأهلكت رِبواتٌ من السمك ( الربوة هنا بكسر الراء هي الجماعة العظيمة نحو عشرة آلاف ، وجمعها ربىً بكسر الراء وتنوين الألف المقصورة ) ثم تحولت هاتيك الأسماك بعد ردح من الزمن إلى زيوت معدنية . وكان الدكتور برل لا يصدق ذلك التعليل بل يحسبهُ هُراء ، فكان يحتج على هذا الرأي بدليل وجود آبار للزيت المعدني في بلاد المكسيك وفي ولاية تكساس ( إحدى الولايات المؤلفة لجمهورية أميركة الكبرى ) حيث يوجد الزيت المعدني في اثنتين وعشرين طبقة مختلفة من طبقات الأراضي . وهذا يعني أن الكارثة التي أشار إليها العلماء القدماء كانت عامة فتكررت بنفسها ٢٢ مرة . وهذا أمر غير معقول . فلم يقر الدكتور برل قائليه عليه بل خالفهم فيه كل المخالفة ونقض رأيهم في منشأ الفحم الحجري القائل بأنهُ مواد من هيا كل أشجار عتيقة . فنفى ذلك الاعتقاد القديم في سنة ١٩٢٦ إذ قام بتجربة علمية مشهورة وذلك في معهد مباحثه . فهدم بها ذينك المذهبين هدماً حاسماً . وتفصيل الخبر أنهُ دخل معمله الكيميائي يقلّ علبة من الورق القويّ ملآى بغلاف الذرة وغيره من الأعشاب ، فلم يلبث حتى خرج من العمل ظافراً بدلو مُفعمة بالفحم الحجري القاريّ ، فجعل يضيف مقادير قليلة من القلي إلى ذلك الفحم النيءِ حتى حوّلهُ إلى فحم كوك . ثم عاد فغيّر تلك المواد القلوية فاستطاع إنتاج القار والأسفلت والزيت الخام والبنزين والكيروسين أيضاً .

## لا حاجة إلى الأنابيب

ويثق بعض الخبراء بأن طريقة برل هذه التي تقضي بتحويل قمامات الحقول في مواضعها إلى وقود . ستقضي على ضرورة مدّ الأنابيب من قطر إلى آخر أو من قارة إلى جارتها ، وتجعل كل فلاّح وحطّاب ( قاطع لقرم الأشجار ) منتجاً للزيت المعدني . وعلى هذا الغرار يمكن تحويل الحاصلات الزراعية التي لا يجني منها أربابها أرباحاً تذكر ، إلى موارد كسب ثابتة تدر عليهم النضار . إذ يسهل تحويل الشجيرات النفاشية « التي

وقف نموها » في الغابات ، وسيقان الذرة وغلاف كيزانها وما شاكلها من مهملات الحقول بأسرها ، إلى المواد الهيدروكربونية التي نحن في أمس حاجة اليها . وربما تؤول طريقة برل إلى إمكان تحويل القمامات التي تجمع من المدن إلى مواد نافعة لأنها حافلة بمخاليط تجزل فيها المواد الهيدروكربونية التي نخسرها حينما نعمد إلى إحراق القمامات بحسبانها مواد مضرة بالصحة العامة.(*)

عوض جندي

## فول الصوية

### أحدث ما عرف عنهُ

بين النباتات الغريبـة المهمة في الغذاء والتي زرعت في مصر بين سنتي ١٨٧٠ — ١٨٨٠ فول الصوية (١) وموطنه الصين واليابان حيث زرع من قديم الزمن حاصلاً غذائيًّا للانسان والماشية كما يزرع في شرق البنغال والهند الصينية وغيرها . وهو عشب سنوي قائم يتردد ارتفاعه بين قدمين وثلاث أقدام بحسب صنفه وتربة الأرض المزروع فيها وقد يبلغ من الارتفاع أربع أقدام إلى ستّ أو يزيد .

وفلاحته سهلة . يجود في الأقاليم الموالية للحارّة التي يهطل فيها المطر باعتدال وتكون تربتها خصبة مفككة هيّنة الحرث . فتبذر البزور بذراً ضيّقاً في صفوف متباعد بعضها عن بعض قدر قدم وبين البزرة والأخرى قدمان أو تبذر بذراً أوسع بحسب الصنف المراد زرعه . ومقدار البذار « التقاوي » نحو ٢٠ رطلاً للفدان . فلا تلبث البزور أن تنبت بسرعة ويكون الحاصل صالحاً للجني بعـد ثلاثة أشهر من وقت الزرع . وهو يختلف بحسب الصنف وتربة الأرض والأقاليم وغير ذلك لـكنه يبلغ في المتوسط ١٠٠٠ رطل من الفدان . وقد تزرع الأصناف الطوال علفاً أخضر للماشية فيحصل على سبعة أطنان أو ثمانية من الفدان .

وتشتمل القرنة من القرنات القصار المزغّبَة على ثلاث بزرات أو أربع . وهذه البزور طعام مغذٍّ ومقياس للغذاء في موطن النبات ، إذ تلي الأرزّ في الاعتبار . وهي ملساء تشبه بزور البسلّة ويختلف لونها بحسب الصنف من الأسمر إلى الأسود إلى الأصفر إلى الأخضر . وتطهى وتعدّ طعاماً

(١) اسمـه العلمي Glycine hispida وبالانجليزية Soy or Soya-bean وبالفرنسية Soja من الفصيلة القرنية

(*) نقترح على القراء أن تكون مطالعة هذه الحقائق والاتجاهات العلميـة مقترنة بمطالعة المقالة الأولى في هذا الجزء من المقتطف ، فهذه تكمل تلك .

بطرق كثيرة فقد تغلى أو تشوى أو تطحن دقيقاً . وهاك تحليلها الكيميائي نقلاً عن الأستاذ ا.ه . تشرتش «حبوب الغذاء بالهند» ماء : ١١ ٪ — مواد زلالية أو بروتيدات ( مكونات للحم ) : ٣ و ٣٥ ٪ — مواد كربوهيدراتية ( نشا وسكر وغيرها ) : ٢٦ ٪ — زيت أو دهن : ٩ و ١٨ ٪ — ليف أو خلوز سليلوز : ٢ و ٤ ٪ — رماد : ٦ و ٤ ٪ .

وبما أن هذه البزور تشتمل على نشا قليل أو لا تشتمل عليه أصلاً فهي تعمل كعكاً يابساً « بقسماطاً » أو خبزاً للمرضى بالبول السكريّ . وقيل إنها تستعمل أحياناً لغش القهوة . ويستخلص منها دهن قيّم يدخل في الزبد الصناعي « المرغرين » أو في صناعة الصابون وغيرها . أمّا الكُسْب المتخلّف فيعمل أقراصاً تعطى علفاً مغذّياً للماشية .

وغالب ما تصدَّر البزور من منشوريا وبالأخص لاستخلاص الدهن فتأخذ لندن وحدها ما يزيد عن مليون طن في السنة قدَّروا ثمن الطن منها قبل الحرب بمبلغ ١٢ — ١٥ جنيهاً إنجليزيًّا . هذا وقد يعمل من البزور نوع من الحساء يعرف باسم « حساء الصوية »

محمود مصطفى الدمياطي

## انتهاج أسلوب واحد في كتابة الاسماء العربية بالانجليزية

وجه الميجور وليم أستُر عضو البرلمان البريطاني ورئيس لجنة شؤون الشرق الاوسط المتفرعة من لجنة الشؤون الامبراطورية في حزب المحافظين البريطاني سؤالاً في مجلس النواب البريطاني في شأن انتهاج أسلوب واحد لكتابة الأسماء العربية المستعملة في بريطانية باللغة الانجليزية .

وقد سأل الميجور استُر وزير الخارجية هل بلغهُ أن السلطات البريطانية المختصة في الشرق الاوسط استخدمت طريقة واحدة لهجاء الاسماء العربية وأن وزارة الخارجية وغيرها من المصالح البريطانية تستخدم أساليب شتى . وكذلك سئل الوزير : هل يرى اقتباس الأسلوب الشائع في الشرق الأوسط واستخدامه في لندن ؟

وقد أفضى الميجور استُر الذي قضى في القوات البريطانية في الشرق الأوسط ثلاثة أعوام ونصف عام منذ سنة ١٩٣٩ بحديث الى وكالة الأنباء العربية قال فيه : « إن الجنرال ويفل استخدم طريقة واحدة لهجاء الكلمات العربية دلّت على نجاحها في الشرق الأوسط ، ولكني وجدت المصالح الحكومية المختلفة في لندن تستخدم أساليب متعددة في هذا الشأن . وكثيراً ما يؤدي هذا إلى التأخر في الوصول إلى التفاهم وعلى الرغم من بساطة هذا الموضوع فانني أعدّهُ هامّاً جليل الشأن » .

## مستقبل النقل الجوي بين نيويورك والقاهرة

أبرق مراسل حربي أميركي الى نيويورك يقول: «إن ازدياد حركة النقل الجوي للبضائع والركاب بين القاهرة ونيويورك قد قصر أمد الرحلة الجوية بينهما الى ٣٨ ساعة فقط» ثم قال: «ولا يزال الطريق الجوي القديم إلى الشرق الأقصى عبر شمال إفريقية ومصر هو الطريق العادي المألوف. وكان السائد فيما مضى أن يطير المرء أياماً من نيويورك الى ميامي ثم تحمله الطائرة الى ناتال عبر المحيط الأطلسي الجنوبي وتذهب بعد ذلك الى الدار البيضاء ثم تعبر جبال أطلس بمحاذاة ساحل البحر المتوسط الى الجزائر ومنها تنطلق الى القاهرة في رحلة تستمر ثماني ساعات».

«أما اليوم وقد ازداد عدد طائرات النقل التابعة للجيش الأميركي التي تهبط الى المطار الجديد المنشأ أخيراً في عرض الصحراء فان الطائرات الأميركية تعمد الى اختصار الرحلة من نيويورك مقتصرة على التوقف في جزر آزور، والدار البيضاء، والجزائر، ثم تصل الى القاهرة في مدة تقل عن يوم ونصف يوم منذ ساعة قيامها من نيويورك

«وهذا المطار الجديد حقيق بأن يستوقف أنظار معظم الأميركيين المعنيين بشؤون النقل الجوي. وهو يعرف باسم «مطار باين» نسبة الى الليفتنانت كولونيل «جون باين» الذي قتل في غضون معركة جوية دارت رحاها في العام الماضي فوق أراضي العدو.

«وقد افتتح هذا المطار منذ سنة أو أقل قليلا. وصار بعد هذه المدة القصيرة منافساً او فائقاً على طائفة من المطارات الكبيرة مثل مطار اطلنطا بولاية جورجيا، ومطار دلاس بولاية تكساس، ومطار «سولت ليك سيتي» في يوتاه، ومطار دنفر في كولورادو. بل بزّ تلك المطارات جميعاً في حجمه واتساع مؤسساته، وهو يكاد يناهز اليوم حجم مطار لاجوارديا بمدينة نيويورك.

«ولقد بدأ مطار «باين» نشاطه في أغسطس من العام المنصرم، بعد أن تم إنشاؤه في شهرين اثنين. واستمرت الاعمال الانشائية فيه بعد ذلك على نحو أسرع وأحكم الى أن أصبح معسكراً حربيًّا كبيراً».

## هل تعلم؟

* أن استهلاك البنزين في الدنمارك لم يزد في سنة ١٩٤٣ على واحد في المائة من استهلاكه قبل الحرب.

* أن المباحث النفسية في جامعة كاليفورنية تدلّ على أن ذا الفكر البطيء ليس ضعيف العقل حتماً.

# فهرس الجزء الثالث

## من المجلد الخامس بعد المائة


١٩٧ العقل مناط الأمل : لفؤاد صروف
٢٠٤ هل الشام إلى السفور ؟ لبشر فارس
٢١٠ إصلاح التربية في المدارس المصرية : لعبد الله أمين
٢١٥ ديوان منسوب إلى المعري : لأسعد طلس
٢٢٩ الحمى الصفراء — هل هي موجودة في القطر المصري ؟ للدكتور عمر خيرت
٢٣٤ من مناهج التأليف في القرن الثالث الهجري : لمحمد عبد الغني حسن
٢٣٨ الرؤساء الثلاثة — ولسن محرر الشعوب : للدكتور نجيب الارمنازي
٢٤٥ الدين والفلسفة — نتيجة البحث : لمحمد يوسف موسى
٢٤٩ عمر الخيام كما أعرفه — بعث الخيام إلى الشرق ، في مصر : لمحمود المنجوري
٢٥٣ الناصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد
٢٥٦ شيروود أندرسن : ترجمة للسيدة نلي ڤوشيه زنانيري
٢٥٩ رقصة ( قصيدة ) : لعدنان مردم بك


## باب التعريف والتنقيب


٢٦٣ ١ — الفنون الرفيعة : « قلعة سمعان » بقلم داود صليبا
٢ — الكتب : « الف ليلة وليلة » تأليف سهير القلماوي . نقد بقلم وداد سكاكيني — « بنت الشيطان » تأليف محمود تيمور . نقد بقلم كامل محمود حبيب — « ثمار المقاصد في ذكر المساجد » ليوسف بن عبد الهادي وتحقيق محمد أسعد طلس . نقد بقلم احمد محمد شاكر — « معارك العرب في الشرق والغرب » تأليف بطرس البستاني . نقد بقلم محمد عبد الغني حسن — « ع الماشي » تأليف ابرهيم عبد القادر المازني . نقد بقلم حسن كامل الصيرفي — ثم كتب أخرى ظهرت
٣ — المجلات : « مجلة الحقوق » بقلم حامد زكي — « المشرق » بقلم *
٤ — الاستدراك : « القاموس العصري » بقلم الاب انستاس ماري الكرملي
٢٨٩ باب الأخبار العلمية * كيف ينتفع الاميركيون بالمخلفات الزراعية ؟ : لعوض جندي — فول الصوية : لمحمود مصطفى الدمياطي — انتهاج أسلوب واحد في كتابة الاسماء العربية وبالانجليزية — مستقبل النقل الجوي بين نيويورك والقاهرة — هل تعلم ؟

# المقتطف

الجزء الرابع من المجلد الخامس بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٤ — ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٦٣


# النقل الجوي الدولي

## آفاقه ومشكلاته – بعد الحرب

### لباب المشكلة

هي المقاتلات والقاذفات التي تستوقف أخبارها الأنظار وتغصب فعال رجالها الإعجاب ، ولكن طائرات النقل هي الطائرات التي أحدثت انقلاباً خطيراً في ميدان النقل العالمي ، ربما لا يجاريه انقلاب آخر أحدثتهُ هذه الحرب في سعة مداه وعمق أثره .

فحين نشبت هذه الحرب في خريف سنة ١٩٣٩ كان النقل الجوّي الدولي آخذاً في الاتساع . فقد تضاعف طول الخطوط التي تجتازها طائرات النقل بين سنتي ١٩٣٠ و ١٩٣٨ وزاد عدد الأميال التي تقطعها ثلاثة أضعاف . ومع ذلك فلا بدَّ من التسليم بأن الطائرات لم تحوّل قارات الأرض ومحيطاتها « عالماً واحداً » على حدّ قول ويلكي إلاَّ خلال هذه الحرب . فقد اختزلت مسافات السفر وقصرت زمن الرحلة بين مواقع بعيدة ، من أسابيع وأيام في السفينة وسكة الحديد ، إلى ساعات في الطائرات . ففي كل أسبوع يرحل قومٌ من الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة ، أو من الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط ، فلا تستغرق الرحلة أكثر من ثلاثين ساعة إلى أربعين .

وقد روت مجلة الميكانيكا العامة منذ أشهر الحادثة التالية : جلس عامل الإشارة اللاسلكية في مقرّ القيادة في وشنطن أمام جهازه . وإذا الجهاز يسجل رسالة من قيادة ماك آرثر في الجانب الآخر من الكرة . وكان مؤدّاها أن الجنرال يحتاج إلى طنين من قطع الغيار في أستراليا وأن حاجته إليهما شديدة . فلم تمض دقائق معدودات ، حتى كانت قيادة

التموين في الجيش الاميركي قد عيَّنت المصنع الذي يمكن أن تؤخذ منه هذه القطع ، وبعد دقائق أخرى تلقى قائد طائرة من طائرات قيادة النقل إشارة ، وكان في طريقه بين مدينتين أميركيتين ، وطائرتهُ مشحونة شحناً ما . وكان الزمن قرب منتصف الليل حين تلقى الطيار هذه الإشارة ، فانحرف عن سيره إلى مدينة لم تكن في جدول سيره . فأفرغ شحن طائرته وشحن القطع التي طلبها ماك آرثر واتجه بها إلى مطار على ساحل أميركة الغربي فبلغهُ في الصباح ، وتولّت طائرة أخرى نقل هذه القطع إلى أسترالية فبلغتها في ثمانٍ وأربعين ساعة !

وإذن يحق لنا أن نتوقع ، غداة نهاية الحرب ، أن يتحقق ما تعلن عنهُ بعض شركات الطائرات ، من أن أبعد مكان على سطح كرة الارض لا يبعد عن أي مطار أكثر من ستين ساعة بالطائرة . ولذلك ينتظر أن يتسع نطاق النقل الجوي الدولي ، حين تضع الحرب أوزارها اتساعاً يفوق اتساعه فيما بين سنة ١٩٣٠ و ١٩٣٨ .

على أن هذا الاتساع لن يتمّ على وجههِ الصحيح ، إلاّ إذا نظرت الحكومات وشركات الطيران إلى الموضوع نظرة التعاون الصحيح ، بدلاً من أن يكون مثاراً للنزاع بينها . وقد دارت في العهد الأخير مناقشة على جانبي المحيط الأطلسي ، أثارت بعض النفوس . ولكن يرجى أن يسفر المؤتمر العتيد في شيكاغو عن التفاهم على مسألة النقل الجوي ، كالتفاهم الذي أسفر عنهُ مؤتمر خبراء النفط منذ أشهر . فليس ثمة خدمة ما تسدى إلى أحدٍ ، إن قال الاميركيون إن مستقبل الولايات المتحدة يتعرَّض للخطر إن لم يسمح لطائراتهم بأن تطير في كل جوٍّ وفوق كل أرض ، أو إن قال البريطانيون إن بريطانية يحف بها الخطر إن لم تكن جامعة الأمم البريطانية مباحة لخطوط النقل الجوي البريطانية محرَّمة على غيرها . ويزداد الموضوع غموضاً حين يتحدَّث الذين لا يحملون تبعة ما يقولون ثم حديث المستخفّ عن «السيادة» و«حرية الجوّ» وما أشبهها . فالنقل الجوّي الدولي ، لهُ وجوهٌ متعددة من النفع ونواحٍ لا تحصى للاتساع ، وحدودٌ لا يمكن أن يتعدَّاها الآن . فيجب أن تبحث جميع هذه المسائل بحثاً يتحكم فيهِ العقل الراجح والفكر الموزون . وهذا المقال يفرض استقرار العالم استقراراً سياسيًّا ، يتيح للباحث أن يقيم الوزن للاعتبارات الاقتصادية المحض دون الحربية . وإلى أن تنتهي الحرب ويستتب السلام وتنفذ أحكامهُ ، يجب أن يفرض كذلك أن دول المحور لن يكون لها نصيب في شبكة المواصلات الجوّية الدولية ، خلال سنوات بعد الحرب على الأقل ، أو إطلاقاً .

## مستقبل النقل الجوي

لا مفرَّ من الاعتراف بأن الضرورة الحربية تفرض الآن طبيعة المواصلات الجوّية العالمية ومشكلة خطوطها المتقاطعة . فطائفة كثيرة من خطوط النقل الجوّي المألوفة الآن ،

لا صلة بينها وبين خطوط النقل الجوي التي يحتمل أن تظلّ مستعملة بعد الحرب . فقد تقتضي الضرورة الحربية إنشاء خط جوي يتبع دائرة كبيرة على سطح الكرة مارّة بالقطب ، لكي تنقل الطائرات عتاداً حربيًّا لازماً من اميركة إلى أسترالية أو الفيلبين في أقصر مدة ، ولكن من الجائز حين تنقضي هذه الضرورة أن تعجز شركة من شركات النقل الجوّي عن أن تنشئ خطًّا جويًّا يتبع هذه الدائرة ، وأن تقيمهُ على أساس تجاري .

وثمة عاملان أساسيان في تقرير هذه الخطوط ، أما الاول فهو أن معظم المدن الكبيرة في شتى بلاد الأرض واقعة إلى الجنوب من خط العرض الستين . وإذن فالطيران من إحدى هذه المدن إلى مدينة تقابلها على الناحية الأخرى من الكرة ، فوق القطب — وهذا هو أقصر طريق بينهما — لا يحتمل أن يجنى منه نفع تجاري ، لأن الطائرة ، في طيرانها فوق منطقة القطب الشمالي حيث تتبع دائرة كبيرة مارة بمركز القطب ، لا تمر فوق بلاد كثيرة يمكن أن ينقل منها أو إليها ما يستحق الذكر . ولذلك قد تفضل طرق أطول لكي يتاح للطائرات أن تمر فوق بلاد تستطيع أن تنقل منها أو إليها شحنات يدفع أجر نقلها . وأما العامل الآخر فهو الوقود الذي تستهلكه الطائرة بالقياس إلى وزن الشحن المأجور . وقد ثبت أن طائرات النقل الأميركية ، من طراز دوغلاس د س ٣ التي تحمل ٢٠ راكباً مسافة ٥٠٠ ميل تستهلك ألفي رطل من الوقود لكل ٥٠٠٠ رطل من الحمل الذي تحمله . فاذا طبقنا ذلك على رحلات أطول مدى فوق القطب ، وجب أن تنقلب النسبة ، أي أن يصبح مقدار الوقود المستعمل ٥٠٠٠ رطل من الوقود لكل ٢٠٠٠ رطل من الحمل . فالطائرة التي تعبر المحيط الأطلسي تحمل الآن ١٨٠٠٠ رطل من الوقود مقابل ما وزنه ٤٠٠٠ رطل من الركاب أو الشحن . ومع ان ارتقاء صناعة الطائرات يتيح رحلات طولها ٣٠٠٠ ميل أو ٤٠٠٠ ميل ، فان تسييرها على أساس تجاري هذه المسافة غير مستطاع لارتفاع نسبة الوقود اللازم بالقياس إلى ما تحمله الطائرة مما يدفع عنه أجر للشركة التي تسيرها .

ومهندسو الطيران يصممون الآن طائرات نقل تستطيع أن تقطع المسافة بين نيويورك ولندن في اثنتي عشرة ساعة ، ولكن هذا ليس مستطاعاً إلاَّ بتقليل ما تستطيع الطائرة أن تحمله لزيادة الوقود اللازم للرحلة . والطائرة نفسها تستطيع أن تقطع المسافة بين المدينتين إذا هي وقفت ثلاث مرات في الطريق — في نيوفندلند وجرينلند وأيسلند . وهذا يمكنها من أن تقلل ما تحمله من الوقود لكل مرحلة من الرحلة كلها ، فتزيد ما تحمله من ركاب أو بضائع ، وهذا يتيح للشركة التي تسيّرها أن تخفض أجور النقل . نعم إن المدة التي تستغرقها الرحلة تكون أطول من مدة طائرة تطير رأساً من نيويورك إلى لندن ، ولكن زيادة المدة

تجعل تسيير الطائرة على أساس تجاري أمراً مستطاعاً . ولذلك يحتمل أن تشتمل خطوط النقل الجوي بين أميركة وبريطانيـة ، على النوعين جميعاً ، وفقاً للحاجـة . وعلى أن بعض المشتغلين بالطيران يقولون إن أجر النقل الجوي للراكب الواحد بين نيويورك ولندن سيكون ٢٥ جنيهاً ، وأن البعض الآخر يقول إنه ستصنع طائرات تتسع لأربع مئة راكب ، فالمحتمل أن تكون الطائرات التي تعبر شمالي المحيط الأطلسي ، مما يتسع لأربعين أو خمسين راكباً وأن أقل أجر لن يقل عن خمسين جنيهاً . وقد يكون هذا الأجر دون الحقيقـة إن لم يتح للطـائرات أن تحمل بريداً مستعجلا يعوّضها من بعض النفقة الكبيرة .

والغـالب كذلك أن تكون الطائرات التي تنقل البضائع ممـا يقطع الطريق بين أميركة وبريطانية أو بريطانية وأميركة في مراحل قصيرة . فقد يضطر القواد أن ينقلوا بالطائرات سيارات ومدافع في أثناء الحرب ، ولـكن لا يحتمل أن يعمد المصدّرون والمستوردون إلى إصدار الثلاجات الـكهربائية واستيرادها بالطائرات — إلاَّ إذا عزَّت كلُّ وسيلة أخرى من وسائل النقل . فنفقة النقل الجوّي عالية والتقدير الغالب الآن هو أن أجرة النقل الجوي لما زنتهُ طن مسافة ميل ، تتفاوت بين خمسة قروش وعشرة قروش . على حين لا يكاف نقل الطن مسافة ميل بالقطار أكثر من ربع قرش وبالسفينة ربع المليم . وقد يتمكن رجال النقل الجوّي من خفض أجرة النقل إلى نصف ما هي عليهِ الآن ، بعد سنوات ، ولـكنها تظلُّ مع ذلك عالية جدًّا إذا قيست بأجرة النقل بالقطار والسفينة . ولذلك يشكُّ الخبراء في أن تستعمل طائرات الشحن لنقل شيءٍ عدا البضائع التي لها قيمة عظيمة ، أو التي تقضي الحاجة الملحة بنقلها على أسرع وجهٍ مستطاع .

## نظام جديد للنقل الجوي

فإن لم يكن ثمة ما يحول دون التوسّع العظيم في النقل الجوّي ، من نواحي الصنـاعة والتجارة ، فما هي المشكلة التي تحيِّر الحكومات ودوائر الطيران ، وتثير الجدال وتعقد المؤتمرات لبحثها كمؤتمر شيكاغو الذي ذهب إليهِ وفد مصري من أيام ؟.

في الوسع تلخيص المشكلة في السؤال التالي : هل يسمح القانون الدولي الخاص بالطيران ، بهذا التوسّع دون عائق يعوقهُ ، ودون نزاع بين الدول يثيرهُ ، وإذا كان الجواب بالنفي فأي نظام يجب أنْ يحلَّ محلهُ ؟.

بحث الخبراء المنزَّهون عن الهوى هذا الموضوع فإذا هناك خمس قواعد عامة تستطيع الدول وشركات الطيران أن تختار بينها ، لاتخاذ إحداها أساساً لهذا النظام المطلوب . وهي :

(أولاً) تجديد النظام الذي كان متبعاً قبل نشوب الحرب وهو قائم على مبدإ « النطاق الجوّي الخاص » والاتفاقات المتبادلة . (ثانياً) جعل جميع خطوط الطيران — ما عدا الخطوط الداخلية في بلدٍ ما — خطوطاً دولية. (ثالثاً) إطلاق حرية الجوّ على نحو ما كانت الدول تسعى إلى تحقيق « حرية البحار » . (رابعاً) حرية العبور أي إطلاق الحرية للطائرات أن تعبر جوّ أية دولة ، وأن تقف في قواعد معيّنة للتزوّد بالوقود والمعونة الفنية ولكن دون أن يكون لها الحق في أن تنقل شحناً من القواعد التي تقف فيها . (خامساً) حرية العبور مقرونة بتوزيع الخطوط الجوية الدولية فيما بين الدول المختلفة .

١ — كانت القاعدة التي قام عليها النقل الجوّي الدولي قبل نشوب الحرب ، تعرف بقاعدة « سيادة الجوّ » في الولايات المتحدة وقاعدة « النطاق الجوّي المقفل » في بريطانية. وعلى أن « السيادة » صورة قانونية لا يحتمل أن تتبدّل الآن ، فيجوز أن تظلّ الأمم محتفظة بسيادتها القانونية ، دون أن يحول ذلك دون اتفاقها على الحدّ من ممارسة تلك السيادة في بعض النواحي . ولذلك يفضل الخبراء التعبير الإنكليزي — النطاق الجوي المقفل — لتصوير مبدإ النظام القديم في النقل الجوّي الدولي ، على التعبير الأميركي .

وهناك اتفاقان دوليان — أحدهما اتفاق باريس سنة ١٩١٩ واتفاق هافانا سنة ١٩٢٨ — يحكمان النقل الجوي الدولي ، وبمقتضاهما يتعين على كل شركة طيران تسير طائراتها بين الدول أن تظفر بإذن في تسيير هذه الطائرات من حكومات الدول التي تجوزها هذه الخطوط أو تطير الطائرات في جوّها . وهذا الإذن لا يقتصر على المرور فوق أرض هذه الدولة أو تلك ، بل يشمل كذلك النزول في قواعدها الجوّية ، وتفريغ الشحن وإنزال الركّاب ، وأخذ شحن جديد أو مسافرين ، وكذلك التزوّد بالوقود والظفر بما يلزم لإصلاح الطائرة ، واللجوء إلى هذه القواعد أو الهبوط في أرض خلاء ، نجاةً من عاصفةٍ تهبّ او عطل يصيب الطائرة .

وقد اقتضى تطبيق هذه القاعدة مساومة طويلة معقدة بين الحكومات للظفر بترخيص من هذا القبيل ، وللاتفاق على تبادل الترخيصات . وقد بلغ عدد الاتفاقات التي تشمل بلاد أوربة وحدها مئة اتفاق أو تزيد ، قبل سنة ١٩٣٩ . نعم كانت هناك رقع من سطح الأرض يتاح فيها لشركات الطيران نفسها أن تتفق مع الحكومات مباشرةً على حقوق النزول في أرضها والطيران في جوّها وما أشبه ذلك وفي طليعتها بلاد أميركة اللاتينية ، فإذا استثنيت هذه البلاد ، فإن المفاوضة والمساومة اللتين كانت تسبقان كلّ اتفاق ، كان من شأنهما تعويق تقدم النقل الجوّي . وقد ظلّت خطوط كثيرة للنقل الجوّي غير مستعملةٍ ، لتعذّر الاتفاق على الدول صاحبة الشأن فيها ، مع أنها كانت تبشر بنجاح عظيم .

فإذا اختارت الدول ودوائر الطيران بعد الحرب أن تسلك هذا الطريق، طريق المفاوضة على إنشاء الخطوط الجوية، فعسى أن لا يتعذر عليها أن تتفق، ولكن ليس ثمة ريب في أن المفاوضة والمساومة على الحقوق وعقد الاتفاقات المتبادلة من شأنها أن تؤخر توسيع شبكة المواصلات الجوية الدولية، في المراحل الأولى التي تلي انتهاء الحرب. خذ على ذلك مثلاً واحداً. فقد تطلب إحدى شركات الطيران الأميركية ترخيصاً بانشاء خط جوّي يتبع الدائرة الكبيرة، من شيكاغو إلى سنغافورة وباتافيا. فإذا أريد إنشاء هذا الخط على قاعدة المفاوضة والمساومة، وجب أن تعقد اتفاقات خاصة مع كندا واتحاد السوفيت والصين وفرنسة وبريطانية وهولندة. ومن المرجَّح أن تتطلَّع كل دولة منها إلى الظفر بحقوق خاصة بها لقاءَ ما تمنحهُ من حقوق للآخرين. وفي وسع دولة واحدة منها أو مجموعة من الدول أن تؤخر — إن قصدت — إنشاء هذا الخط حتى تصبح قادرة أن تستفيد من الحقوق التي تستطيع أن تظفر بها من وراء المفاوضة والمساومة.

وعلى أنَّ التأخير في إنشاء خطوط الطيران الدولية خطر في حد ذاته على تقدم النقل الجوّي، ولكنهُ ليس الخطر الأكبر، ذلك بأن هذا الضرب من المساومة والمنافسة، قد يفضي إلى قيام نزاع بين الدول، قد يعكّر صفو السلام، ولاسيما لأن بعض الدول، ستكون في الفترة التي تلي نهاية الحرب مباشرة، ونتيجةً لجهودها الحربيّ، أقدر من غيرها على النزول إلى ميدان النقل الجوّي الدولي، لما ظفرت بهِ من تجربة في بناء طائرات النقل العظيمة وتسييرها وتدريب عدد وافر من الرجال على ذلك.

٢ — تحويل خطوط الطيران خطوطاً دوليةً. هذا المقترح، هو أجرأ المقترحات، ولبابُهُ تحويل جميع خطوط الطيران بين الدول خطوطاً دولية. ولكنَّ تعبير «تحويلها خطوطاً دولية» يحتاج إلى توضيح. هل يعني الاتفاق الدولي على أجور النقل والسفر، والمساعدات التي تسديها الحكومات لشركات الطيران؟ هل يعني إنشاء هيئة دولية تملك القواعد الجوية ووسائلها، أو هل يعني إنشاء شركة دولية ذات رأس مال مختلط وموظفين من جميع البلاد، تشرف على تسيير هذه الخطوط.

لا مرية أن المعنى الثالث هو المعنى الوحيد الذي ينطبق عليهِ وصف «الدولي» ومع ذلك فإنهُ في حاجة إلى التحديد. هل تكون هذه الشركة هيئة تساهم فيها الدول المتحدة، كما يساهم الناس في شركة تجارية، أو تكون شبكة من الخطوط الجوّية المنتشرة فوق وجه الأرض ويُشرف عليها السلاح الجوّي الدولي — أحد فروع «قوة المحافظة على السلام» — كما يقترح هنري ولاس وكيل رئاسة الولايات المتحدة؟

ولكن على رغم المزايا الكثيرة التي تلازم تحقيق هذا المقترح ، يبدو أن الاهتمام به يسير ، فليس في الولايات المتحدة من يؤيده من الكبار سوى ولاس وهو معتزل وكالة الرئاسة في ٢٠ يناير القادم . أما في بريطانية ، فحزب العمال فيها يميل إلى تأييده وكذلك بعض الصحف الكبيرة . ويقال إن الحكومة معنية به . ولكنّ دوائر الطيران في بريطانية لا ترى حكمة في تطبيقه تطبيقاً عامّاً وقد تستثنى من ذلك تطبيقهُ على الخطوط الجوّية في القارة الاوربية . وكندا أقلُّ ميلاً إلى تطبيقه من أميركة . أما روسيا السوفيتية فلم توضح موقفها ، والغالب أنها معارضة .

٣ — حرية الهواء . يغلب في بعض الدوائر أن الأخذ باطلاق « حرية الهواء » هو البديل الوحيد من النظام القائم على قاعدة « النطاق الجوّي المقفل » . على أن التعبير نفسهُ قد يعني واحداً من ثلاثة أشياء . فقد يعني أولاً حرية العبور أي أنهُ يحق لطائرة تابعة لدولة ما أن تجوز هواءَ دولة أخرى دون النزول في ارضها . وقد يعني ثانياً حرية الانتفاع بوسائل الطيران كالنزول في المطارات والاطلاع على الأرصاد الجوية والاتصال اللاسلكي . وقد يعني ثالثاً حرية النقل الجوي فيؤذن لطائرة من دولة ما ، أن تنقل ركاباً أو شحناً إلى دولة أخرى أو منها أو فيها . والمعنى الثالث هو أوسعها وأحراها بأن يكون المقصود بحرية الهواءِ . وقد يقتصر على النقل إلى دولة ومنها ، دون القيام بأعمال النقل فيها .

ولكنَّ حرية الهواء بهذا التفسير الواسع ، تتصل اتصالاً وثيقاً بالسيادة في معناها القانوني ، وبالسلامة في معناها الحربي . ولذلك يحرص دعاة هذا الرأي على أن يضمّنوا مقترحاتهم الاعتراف بحق الدولة أن تعيّن مناطق تعدُّها لازمة للدفاع ، فيحرُم الطيران فوقها ، ويذهب بعضهم إلى القول بأن المقتضيات العملية تقتضي ، حين تزدحم طرق الهواء ، أن تعيّن كلُّ دولة طرقاً خاصة تجعلها مباحة للطائرات الاجنبية .

على أن المبدأ الأصيل في مذهب حرّية الهواء ، هو إطلاق التنافس في النقل الجوّي الدولي من كل قيد . والرأي أن هذه المنافسة الحرة هي خير وسيلة لنموّ النقل الجوّي نموّاً يعتمد على « بقاءِ الأصلح » أو ما من قبيلهِ في عالم الاقتصاد . ولكن هذا الإطلاق يفضي إلى مشكلات خطرة ، إن هو ذهب إلى أقصى حدوده . فإذا سيَّرت الشركات الاميركية طائراتها فوق كل قارة آسية ، والصينية فوق كل قارة أوربة ، والأوربية فوق قارتي أميركة الشمالية والجنوبية ، فالعاقبة هي منافسة غير اقتصادية ، أو هو تناحر يفضي إلى ضرورة عون الشركات من مال دولها ، فإلى المشكلات السياسية التي يحتمل أن تلابسها . ( للبحث تتمة )

---

# رحلة خابت

أما سمعتم معي صوتاً صريع النغمْ
تلفظه أضلعي منخلعات الهمم ؟

أضلعُ صدرٍ هفا
- وما علمْ -
إلى خليج الشّفا
من الندم

هناك حيث انفصم
ماضي العمُرْ
فلا أثُرا
طوى الجراحَ العدم

في صدريَ المُقلعِ
هفَ العلَمْ
فانتشرت أضلعي
تُجري الحُلُم

أما سمعتم معي صوتاً صريع النغم؟
وا ضجَّة المطمع من يأس شوقٍ فُطِم!

صوتَ شراعٍ وَنَى
ثم انحطم
يا للعلم
أعياه هولُ الفَنا

لندن ، يوليو ١٩٣٦ بشر فارس

# هل نجحت الحرية

## في التاريخ ؟

قسطنطين تيودوري

---

قال إبراهام لنكولن : « إنه من المهم أن نتساءل : هل في مكنة أية حكومة لا تملك القدر الكافي من الحرية لتعزز به شعبها أن تحافظ على وجودها وكيانها عند حدوث الطوارئ الجديدة ؟ » . إن هذه الملاحظة الخطيرة التي أبداها الرئيس لنكولن تتصل بمنشأ قضية من أهم القضايا في التاريخ الإنساني، فهناك توازن بين الحرية التهذيبية والحرية السياسية والحرية الاقتصادية ، وهناك توازن بين حرية الفرد وقوة الدولة . وهذا التوازن في القوى الذي من شأنه أن يضمن استقراراً كافياً دون أن يعوق نجاح الحرية يعد من أعظم المعضلات التي لقيتها الدول منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا .

إن هناك عاملاً عظيماً يجب أن نلتفت إليه إذا تأملنا التباطؤ الظاهر في تقدم البشرية ولكن هذا العامل العظيم انعكاسات لاشعورية ذات حالات خاصة Conditioned Reflexes تسيطر على نفسية الفرد وعلى نفسية الجماعة بوجهٍ عام . ولسنا نقدر مبلغ تأثير هذه الانعكاسات في الحياة البشرية إلاّ بتفطننا إلى أخلاق الفرد والعادات التي تتحكم في أخلاق الجماعة مبنية عليها ، مستندة إليها . ثم إذا كان التقدم البشري يستأصل خلقاً سيئاً واحداً فانه في الوقت نفسه يعرّض للخطر عشرة أخلاق على الأقل ليست كريمة . ويرجع ذلك إلى طبيعتنا السيكولوجية التي نستخدم في اصطناعها الانعكاسات ذات الحالات الخاصة بطريقة لاشعورية في أكثر الحال ، وبطريقة شعورية اختيارية أحياناً .

ولا يمكن لأي تقدم تدركه البشرية أن يدوم ويثمر ، إلاّ إذا تأصلت أصوله في الأذهان . وفي هذه الحالة تمتد هذه الأصول — بطريقة الانعكاسات اللاشعورية — إلى عدد كبير من الناس ، فيغتذون بها وينتفعون ، ويصبح التقدم حينئذٍ حقيقة محسوسة وعملاً نافعاً مثمراً . ولقد حاولت البشرية في أدوار التاريخ المختلفة أن تظفر بتقدم عظيم القدر فنجحت

في ذلك مدة قصيرة من الزمن ، ولـكن سرعان ما تداعى هذا التقدم لأن جذوره لم تتأصل في عقول الناس تأصلاً. وحين كانت تمفو آثار التقدم في العالم كان ذلك التوازن القديم يعود إلى الظهور وهو أشد رسوخاً واستقراراً من ذي قبل . ومن أجل ذلك أخفق المصلحون الدينيون في بناء وحدة دينية كاملة ، ومن أجل السبب نفسه بلغ إخفاق الثورة الفرنسية التي نشبت في سنة ١٧٨٩ مبلغاً كبيراً ، فماذا أفادت الحرية والمساواة والإخاء الشعب الباريسي بعد أن قضى مئة سنة يقاسي خلالها الجور والظلم ؟ إن هذا الشعب بمعاناته العبودية وتحمله القوانين الجائرة ، فقد — من حيث لا يدري — تلك الانعكاسات اللاشعورية المنطوية على القوة الطبيعية التي تسيّر أخلاقه وتكيّف حياته بمقتضى سنة التطور الطبيعي . والنتيجة التي تنشأ عادةً من فقدان هذه الانعكاسات تفضي إلى إطلاق العنان لغرائز الحياة الحيوانية في الإنسان . ومن الطبيعي أنه لا ينتظر أن تصدر عن مثل هذه الحياة حياة اجتماعية منظمة من الطراز الرفيع . على أننا إذا نظرنا من الناحية الأخرى إلى الثورة الأميركية رأينا أن النتيجة التي أسفرت عنها كانت بعكس ذلك ، فالأميركيون في سنة ١٧٧٦ كانوا يستمتعون بحرية المساواة الشخصية أو ما يسمونه الأخوة التعاونية Co-operative Fraternity وكان من أثر الثورة الأميركية وقتئذٍ أن أيدت الأميركيين في طرائق حياتهم ووافقت على تصرفاتهم وباركت أعمال اعتدائهم . لذلك ليس من العجب ألاَّ يثير إعلان الاستقلال الأميركي وحصول الأميركيين على حقوقهم تلك الضجة المدوّية التي أثارها الفرنسيون لما فازوا باستقلالهم ونالوا حقوقهم .

وعلى الرغم من هذه الحقائق التاريخية الساطعة التي تجلت في كل من الثورة الأميركية والفرنسية ، فإن الثورة الفرنسية لم تنته بتقهقر تام . ففي ثورة تموز ( يوليه ) سنة ١٨٣٠ ولدت فرنسة جديدة ، ولدت فرنسة الديمقراطية . ومع أن مرمى هذه الثورة كان أقل شأناً من ثورة سنة ١٧٨٩ فإنها قد نجحت في تأييد مناهج الحياة التي كانت تسلكها الطبقة الفرنسية المتوسطة ، هذه المناهج التي ارتقت في العهد الواقع بين سنة ١٧٨٩ وسنة ١٨٣٠ . وقد أدَّى هذا الارتقاء في مناهج الحياة إلى جعل المبادئ الأدبية للحرية الثقافية والسياسية سائدة في ذلك العصر .

إن الثورة الفرنسية قد وضعت حدًّا لعصر كانت فيه الحضارة مشوّشة لا تناسق فيها ولا توازن، وقد ذهب بعض المفكرين إلى أنهُ كان بالإمكان أن تقف هذه الثورة لو أن طبقة الأشراف التجأت إلى القوة آنذاك . وقد استحوذت هذه الفكرة على كثير من الطبقات

والهيئات ، وتغلغلت في الأوساط والبيئات المختلفة ، وآمن بها فريق من مفكري عصرنا الحاضر ، فأفضى كل ذلك إلى خلق المذهب الفاشستي الذي يقوم على تمجيد القوة وإعلاء شأنها وتقديس الذين يعتنقونها. ولنبحث فيما يلي هذا المبدأ القائم على تمجيد القوة لنرى صحته أو بطلانه : تساقط النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في فرنسة في القرون الوسطى لما اعتلى لويس الرابع عشر عرش فرنسة ، فقد ركز هذا الملك جميع القوى في دار القضاء التي بناها في فرساي ، إذ جعلها المحجّة الوحيدة للطبقة الحاكمة في البلاد ، وجمّلها بأفخم الأثاث وأندر التحف والآثار ، وأسكن فيها الأسرة المالكة ومئات النبلاء وطائفة كبيرة من الجند والحشم، وصيّرها مرتعاً خصباً لألوان الرفاهية والنعيم. فاسترعت محكمته هذه الأنظار في فرنسة وفي أوربة أيضاً إذ تجلت فيها روح الأتوقراطية — روح الاستبداد بالسلطة — بأجلى مظاهرها . فوسائل القوة التي تذرّع بها هذا الملك جعلته محاطاً بالنفوذ والهيبة . وغنيٌّ عن البيان أن هيبة من هذا النوع لا يظفر بها المرء إلاَّ إذا ارتكزت على القوة والاستبداد . وقد سرى ردّ الفعل الذي أحدثته أعمال هذا الملك الاستبدادية في فرنسة وفي سائر أوربة كذلك ، وكان من نتيجة ذلك أن رأس وليم البرتقالي الذي استوى على عرش إنجلترة سنة ١٦٨٩ حركة ناجحة قاوم بها هذه الأعمال الأتوقراطية .

وبينما كان النبلاء في فرنسة منهمكين في استبدادهم بالناس واستخدام وسائل نفوذهم وهيبتهم إذ عقد وليم المذكور حلفاً أضعف بهِ قوة لويس الرابع عشر في الحرب المعروفة « بالخلافة الأسبانية » التي نشبت بين فرنسة من جهة وإنجلترة والنمسة وبروسية وهولندة والبرتقال من جهة أخرى ، وذلك دفاعاً عن الاستقلال وعن حرية البروتستانت الثقافية في فرنسة . وقد استمرت هذه الحرب إحدى عشرة سنة، وبعد مئة سنة تقريباً صار النظام الاستبدادي الذي اتبعه لويس الرابع عشر إلى الخراب والدمار . وربَّ سائل يسأل : لماذا لم يتذرّع أشراف فرنسة بالقوة في سنة ١٧٨٩ لقمع الثورة الفرنسية كما اعتقد بعض المفكرين فإن ذلك كان ممكناً ؟ والجواب أن نظاماً مرتكزاً على الهيبة لا يمكن أن يدوم إذا تجرَّد منها ، فالهيبة التي كانت سائدة في عصر لويس الرابع عشر كانت مرتكزة على مجد عسكري ملكي فقط ، وما عتم هذا المجد أن تفكك واضمحلَّ . وهكذا نرى أن الهيبة العظيمة التي كان يتمتع بها لويس الرابع عشر وينافس بها غيره من ملوك أوربة قد تحداها ملكٌ هيّن كوليم البرتقالي . حقّاً كان في مقدور أولئك الأشراف أن يحاربوا في سبيل إعادة ملك لويس الرابع عشر وفي سبيل تجديد هيبته وكرامته، وكان في مقدورهم أيضاً أن يحاربوا من أجل القضاء على الحرية التي رفرفت أعلامها في هولندة وفي غيرها من البلدان

البروتستانتية المذهب، ولكنهم لم يستطيعوا إلى هذه الحرب سبيلاً ، إذ كان من المستحيل عليهم أن يستردوا هيبة كالهيبة التي كان يتمتع بها لويس الرابع عشر . ولكن ما كان ممكناً أن يتوقعوا الحصول عليه هو مارسمهُ لهم ميرابو : أن يقطعوا الجسر المؤدي إلى عالم ديمقراطي قبل فوات الوقت . ولو أن ميرابو زعيم الثورة وخطيبها طال عمره لتحقق ما رسمهُ لهم ولسارت الثورة الفرنسية في طريق إنشائي أوصل فرنسة إلى تلك الحرية التي نالتها هولندة بفضل انتصارها التام على النظام الفرنسي الأتوقراطي .

***

ولنستعرض الآن بعض الحوادث التاريخية، لنبرهن بها على أن الحرية إذا لم ترسخ جذورها في حياة البشر الثقافية كان نصيبها الإخفاق التام .

استطاعت بروسية في عهد فردريك الكبير أن تستمر على النظام الإقطاعي حتى الحرب العالمية . ذلك لأنها أدمجت — في عهد أبي فردريك — نظام لويس الرابع عشر في حرية هولندة الثقافية واتخذت من هذا الإدماج نظاماً للحكم سارت بمقتضاه . وكان من نتائج هذا الإدماج في عهد فردريك الكبير أن فصل العدل عن قوة الدولة التنفيذية، فكان في استطاعة المرء في بروسية — استناداً إلى ذلك — أن يقاضي الملك بدون استشارته ، في حين أن الدستور في أمريكة لم يخوّل الأميركي مثل هذا الحق .

إن بروسية في تطبيقها سياسة الإدماج استطاعت أن تنشئ خلال القرن التاسع عشر نظاماً من التقدم الثقافي كان منطوياً على طراز رفيع من الحرية ، وقد مكّنها هذا النظام من إصابة تقدم غير قليل في الحرية ، إلا أن انهزامها في الحرب العالمية أفقدها عنصر الهيبة الذي لازم سياسة الإدماج هذه . فالجمهورية الديمقراطية التي تأسست بعد الحرب الأخيرة على أساس الهزيمة — بعكس الجمهوريات في سويسرة والولايات المتحدة التي أنشئت على أساس النصر — كانت في حاجة إلى عنصر أساسي من الهيبة في أول الأمر ، بل كانت في حاجة ماسة إلى من يثير عواطفها ويوقظ مشاعرها . فلو وجد من يطالب بإرجاع الملكية إليها لأدى ذلك إلى تجديد عوامل التنبيه والإنعاش التي فقدها البروسيون بسبب سقوط عنصر الهيبة في حياتهم . بيد أن الحرب العالمية أوجدت لهم بديلاً من ذلك تجربة ظهرت لأول مرة في إيطالية ، وهذه التجربة عبارة عن نظام جديد فريد يحتوي على عناصر من الهيبة تبدو من خلالها الروح الديمقراطية ، ذلك هو النظام النازي الذي تجري الهيبة في ثناياه

من مصدر مركزي واحد ثم تتفرَّع إلى شُعب تضيق شيئاً فشيئاً ، وذلك كله بأسلوب لم يسبق له مثيل .

ويجب أن نعترف هنا أن الحرية الديمقراطية قد أخفقت لأنها لم تملأ الفراغ الذي خلا بسقوط الملكية في ألمانية ، ولأنها عجزت أيضاً عن منع النظام النازي من الظهور ، وينبغي أن نتعلم من هذا كله أن الحواجز التي تعوق اطراد الحرية السياسية أو الحرية الاقتصادية أو الحرية الثقافية لا يمكن أن تزول إذا كانت هذه الحواجز تسدُّ الحاجات الثقافية والسياسية في العالم وتساعد على إمداد المجتمع بقوة الاستقرار . لذلك لم يكن بالإمكان أن تُنقذ حرية ألمانية ويصان نجاح هذه الحرية فيها ، إذ لم تستطع هذه الجمهورية الظفر بهيبة واسعة كما أنها لم توفق لعقد اتحاد مع النمسة كما سعى إلى ذلك وزيرها برونِنغ . ولكن إذ تزول حواجز كثيرة في آن واحد من طريق الحرية فمعنى ذلك أن عجلات الانعكاسات اللاشعورية التي تقدم الكلام عليها تقف فجأة عن العمل ولا يعود الفوز بالحرية مضموناً .

وقد أصبح من الأمور الواقعة أن ما يبلغهُ المرء من نجاح في الحرية في مختلف أدوار التاريخ إنما تعيّنهُ طبيعته السيكولوجية ، فعلى هذه الطبيعة يتوقف الشيء الكثير من نجاح الإنسان أو خيبتهِ .

***

ومما قوّى الدعامة التي قام عليها نظام الحرية السياسية في الولايات المتحدة أن الحرية الاقتصادية والحرية الثقافية لم تكونا إبان ظهورهما في هذه البلاد من القضايا المعضلة كل الإعضال ، ذلك لأن الحواجز التي اعترضت طريق هاتين الحريتين كانت قليلة الأثر . ثم إن مسألة التدقيق في الدين وتجريده من « الطقوس » والشعائر المختلفة كانت مستحوذة على عقول الأميركيين في ذلك الوقت ، حتى إنهم لم يتطلعوا إلى الحياة العابثة التي كان يحياها الأوربيون .

وقد سهّل ذلك إزالة الحواجز التي اعترضت سير الحرية السياسية في الولايات المتحدة ، حتى سارت هذه الحرية شوطاً بعيداً في مضمار التقدم والفلاح . ولكن الذي يدعو إلى العجب والدهشة أن مشكلة الرق التي كانت موضوع عناية رجال الدستور الأميركي حتى السنين الأخيرة ، لم تنل اهتمام أحد منهم حين ظهورها .

ولنضرب الآن مثلاً آخر نبين بهِ كيف أضرَّ الضغط المتزايد على الحرية الثقافية إضراراً

بالغاً بكل من الحرية الاقتصادية والحرية السياسية . ويدور مثلنا هذا على اليونان في العصر الكلاسيكي والعصر البيزنطي :

إن اليونان بانغماسهم في ثقافتهم الشخصية قد أضعفوا — قبل الأوان — رغبتهم في الدفاع عن استقلالهم ، وقد نتج عن هذا الارتقاء الشخصي أن صار الفرد اليوناني عبداً للسيد الروماني الفظ القاسي ، وصار البيزنطي التاعس الحظ في آسية عبداً لنظام الأتراك البربري .

وليس من الحق أن نوجه اللوم في هذا إلى بعض الشخصيات اليونانية الممتازة ، لأن اليونان كانوا مستمتعين وقتئذٍ بالاستقلال ، وما دام الأمر كذلك فإنهُ لا ينتظر أن يختلفوا في أخلاقهم عن غيرهم من الأمم المستقلة . ولكن إذا نظرنا إلى هذه القضية من ناحية أخرى رأينا أن تحرير العقل ، بمثل هذه السرعة الظاهرة ، يُفضي عادةً إلى فقدان عناصر القوة في الخلق الذي يستقرُّ فيه الاستقلال ، وبضياع الاستقلال قضي قضاءً تامًّا على الصفات الأدبية للثقافة اليونانية . وإننا نرى من هذه الملاحظات التي لا سبيل إلى إنكارها أو تجاهلها أن نظرية ماركس القائلة بأن الحرية السياسية من دون الحرية الاقتصادية لا قيمة لها ، بعيدة عن الصواب . وهذا ما يحملنا على القول بأن السعي الجدي لتحقيق نظرية ماركس في الحرية الاقتصادية قد أدَّى إلى هدم الحرية الثقافية ولم ينجح في إيجاد الحرية السياسية .

***

وفي ضوء الأمثلة التي أوردناها فيما تقدم نقول إن كل تقدم ناقص غير متناسق الأجزاء في الجهة الواحدة يسبب خسارة الحرية والاستقلال في الجهة الأخرى . وقد أثبتت الوقائع التاريخية والاختبارات العلمية والعملية أن أضمن وسيلة لنجاح الحرية هي أن تزول بالتدريج الحواجز والموانع التي تعترض طريقها مع الاحتفاظ التام بجميع الفوائد التي أدركتها البشرية في هذه السبيل .

ففي الولايات المتحدة مثلاً نرى أن الحرية السياسية لا تحتاج إلى إصلاح أو تحسين في حين تحتاج الحرية الاقتصادية والحرية الثقافية في هذه البلاد إلى الإصلاح والتحسين . ثم إن التوزيع الناقص للفرص التي تنهض بالحرية الاقتصادية قد أدَّى إلى الكساد الحالي في ميدان الحرية الاقتصادية، وفي هذا الميدان يجب أن يفوز العالم بقسط أوفى من هذه الحرية في المستقبل القريب .

وفي ختام بحثنا نقول إن رأي روسو القائل بوجوب تحرير الإنسان من قيود الثقافة ليكون كاملاً ، يعد اليوم رأياً خياليًّا لا مبرّر له في نظر العلم ، لأننا نعلم أن الإنسان إذا تحرّر من بعض هذه القيود سيسعى حتماً إلى تقييد نفسه بأغلال جديدة ، إذ ليس في الطبيعة البشرية توازن له من القوة ما تستطيع أن تعزز به نفسها . لذلك فالعقل والخلق الأدبي ضروريان كل الضرورة لتأييد التوازن الاجتماعي وتثبيته من جهة ، ولمنع المجتمع البشري من الانحطاط والتدهور من جهة أخرى .

إن علم وصف الإنسان الشامل المعروف « بالانتروبولوغيا» Anthropology « أرانا أن كثيراً من الثقافات البشرية التي كنا نحسبها أساسية جوهرية قد انطوت على عناصر ضعيفة من التقدم الاجتماعي . وقد وقفت هذه العناصر حاجزاً ذاتيًّا دون التقدم العام . ولكن على الرغم من ذلك صحّ ما ذهب إليه مفكرو القرن الثامن عشر من أن الرغبة في إدراك التقدم في الحرية كائنة في كل مكان في الطبيعة البشرية ، فبشيء بسيط من التعديل في أسس أولئك المفكرين نستطيع اليوم أن نبني مبادئ الحرية على الأساس نفسه تقريباً ، لأن الفرق الجوهري بين وجهة نظر أولئك المفكرين وما يجب أن تكون عليه الحرية في يومنا هذا كائن فقط في الموقف الجديد الذي أوجدته نظرية النشوء والارتقاء في هذا القرن .

ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أن المفكر الألماني Sessing كوّن رأياً يمكن موازنته بهذا الرأي ، إذ عالج موضوع الحرية فقال : « إن مبادئ الحرية يمكن أن تصيب نجاحاً في هذا القرن إذا طبقت في العالم كله فكرة التعليم » وإذا نحن أحللنا تطبيق فكرة النشوء والارتقاء محل فكرة التعليم العالمي لم يعد هناك فرق يعتد به بين وجهتي النظر المتقدمتين .

***

وخلاصة القول أنهُ لن يتسنى للحرية أن تدوم وتثمر إلاّ إذا ارتكزت على أسس علمية وتعليمية صحيحة ، وسايرت سنة النشوء والارتقاء ، ورسخت فيها جذور حية من المبادئ الأدبية الخالدة .

(القدس)

# صاحب المزمار

أقصوصة للكاتب الأسباني « بلاسكو ايبانيز »

نقلها عن الترجمة الفرنسية : صديق شيبوب

كان معروفاً في الريف المحيط بمدينة بلنسية لا يجهله أحد من سكان القرى والمزارع ، وكان صوت مزماره لا يكاد يسمع في إحداها حتى يسرع إليه الأولاد وتتنادى النساء ويخرج الرجال من الحانات .

ديموني ، هذا هو : ديموني .

أما هو فكان ينفخ في مزماره متورّم الخدين ، فاتر العينين ، غير عابئ بهذه الحفاوة الشعبية كالصنم لا يبالي بما يثير حوله من إعجاب . وكان أبداً يُرى متأبطاً مزماره إلاَّ إذا اشتدَّ به السكر فسقط حيث هو في الحانة أو نام في أحد الأهراء فوق أكداس التبن، فكأن مزماره عضو جديد وهبته إياه الطبيعة في طفرة موسيقية عجيبة .

وكانت النساء على سخريتهنَّ بهذا الآفاق الشريد قد وجدنَ فيه كثيراً من الجمال . . . كان مديد القامة ، مفتول الأعضاء ، مستدير الرأس ، عالي الجبهة ، كثيف الشعر ، أقنى الأنف في حدبة جريئة . وكان منظره ينم عن جلال وصفاء كأنهُ أحد نبلاء الرومان .

كان «ديموني» سكّيراً . ولم يكن الفن العجيب الذي يستنطق به مزماره يثير من الاهتمام قدر ما يثير سكره العنيف في المجتمعات الكبيرة .

وكانت شهرته بالزمر تحمل جميع القرى على دعوته إلى الاشتراك في حفلاتها ، فيحضر بقامته الطويلة مشياً ، صامتاً متجهماً ، يتأبط مزماره ومعه صبي يحمل طبلاً صغيراً ينقر به

وديموني يزمر . وكان من عادته أن يختار صبية من أمثاله المشردين ، فيلازمه الصبي ملازمة ظله في غدوه ورواحه ، وفي نهاره وليله، فلا يغادره حتى يدمن الشراب إدمانه .

لم يكن أحد في المقاطعة يجاري ديموني في فنه ، على أنه كان يكلف الذين يسرهم أن يدعوه إلى حفلاتهم مشقة كبيرة ومالاً موفوراً . فقد كان عليهم أن يراقبوه منذ وصوله إلى القرية، وأن يتوعدوه بالضرب إذا دخل الحانات قبل قيام الحفلة، غير أن تعبهم كان في غالب الأحيان يذهب سدى . فكم من مرة ، وهو في طواف كنسي ، عزف النشيد الوطني عند مروره بحانة القرية ، أو صلاة الموتى عند وصول الطواف إلى الكنيسة حيث يجب عزف نشيد الابتهاج .

وكان القوم يضحكون من غفلته هذه ومن استهتاره بالحفلات الكنسية ، وكان غلمان القرية يطوفون به هازلين ساخرين من تظاهره بالجد في سيره قدّام صليب القرية . وكثيراً ما رفعوا قِبَل عينيه كأس نبيذ ، فكان ينظر إليهم في خبث كأنه يقول لهم : « إلى وقت قريب » .

وكان هذا الوقت القريب كل سعادة ديموني ، لأنه يمثل له انتهاء الحفلة وخلاصه من رقابة وجهاء القرية واستئناف حريته في الحانة .

***

هناك ، بجوار الدنان الملأى بالنبيذ الأحمر القاتم ، بين المناضد المكسوّة بالصفيح عليه آثار الأكواب المستديرة ، وسط روائح الزيت والثوم والسمك المملح والسردين المشوي ، تحت سقف الحانة يتدلى منه لحم الخنزير والنقانق ، وقد تكاثف عليه الذباب . هناك كان ديموني يشعر بأنه في محيطه .

أما الحانة فكانت تحس بالزهو عند حضور هذا الضيف، وفي إثره عدد كثير من المعجبين به حتى إن صاحبها كان يحار كيف يلبي طلب كل واحد من الجمع الحاشد ، ويسرع في ذلك . وكانت تتصاعد في جوّ الحانة رائحة الصوف وريح الأقدام ؛ وكان هذا الجمع الجمّ يُرى على ضوء مصباح يتطاير منهُ الدخان ، وقد جلس بعضه على المقاعد الخشبية المربعة ، وقعد بعضهُ القرفصاء ، وكل واحد ممسكٌ بيده الغليظة أسفل وجهه كأنه يخاف أن تتقطع أوصاله من شدّة الضحك .

ثم لا تلبث الأنظار أن تتجه نحو ديمو ني ومزماره .

— الجَــدَّة ، انفخ مثـلَ الجدَّة .

فلا يأبه ديمو ني في بادئ الأمر للملتفين بهِ ، ولـكنه لا يبطىء أن يتنـاول مزماره وينفخ فيهِ مقلداً صوت الجدَّات العجائز بين ضحك الحاضرين وسرورهم .

ثم يسألونه أن يقلّـد السكِّـيرة . وكانت فتاة مشرّدة تنتقل من قرية إلى أخرى تبيع المناديل وتنفق كسبَـها في شرب الخمر . والطريف أن السكِّـيرة كانت كثيراً ما تشهد هـذه الاجتماعات وتضحك قبل جميع الجالسين ، بل أكثر منهم ، حينما يقلدها ديمو ني بمزماره وهي تنادي لبضاعتها وتخاصم النساء اللواتي يقبلن على الشراء .

فإذا استنفد ديمو ني ألحـانه المرحة ومشت الخمر فيه مال إلى أنغام شجيـة ، فيصمت الحاضرون مأخوذين . وكان عندئذٍ يحـاكي زقزقة العصافير وحفيف السنابل في الحقل والرياح تداعبها ، ورنين النواقيس المتباعدة .

كان القوم عند ذلك لا يشعرون بالميل إلى السخرية من ديمو ني ومن ألحانه الجميلة ولا من الضرب الذي ينهال به ، بين حين وحين ، على الصبي الذي ينقر بطبله الصـغير ، وذلك لأن فنه المحكم قد أثر في نفوسهم الطيبة . بل كانوا يعجبون بهـذا السكّـير الذي يُشجيهم بمزماره وهو لا يتركه إلاَّ ليشتفّ الكأس في عبّـة واحدة .

ولم يكن قط يتكلم ، لذلك لم يعرف أحد من أمره شيئاً . وإنما اشتهر بأنه من مدينة « بنيكوفار » حيث يملك بيتاً قديماً احتفظ به لأنهُ لم يجد من يشتريه ، وبأنهُ باع ما ورث من والديه من أطيان ومواشٍ فأنفق الثمن في الشراب . أما أن يتعاطى عملاً ما فكلاَّ ، والف مرَّة كلاَّ . إنه ولد ليكون سكيراً ، وما دام مزماره بين يديه فهو لا يعدم الطعام . وكان ينام في آخر الليل سكران في إحدى زوايا الخانة أو في أحد أهراء القرية ، وينام الصبي عند قدميه كأنه كلب صغير ، وهو لا يقلّ عنهُ سكراً .

***

لم يدر أحد كيف تمَّ اللقاء ، ولـكنهُ كان من الواجب أن يكون ، فكان ... اتصل ديمو ني بالسكِّـيرة وتحابَّـا .

كان كل واحد منهما يسلك مسلكه في عالم السكر ، فالتقيا واتحدا ليسيرا معاً في طريق واحـدة . وقد صارت المؤاخاة التي قامت بينهما إلى الحب ، فانقطعا إلى البيت الذي في قرية « بنيكوفار » يخفيان فيه سعادتهما . وكانا ينظران طول الليل إلى النجوم تضطرب في السماء من خلال الثقوب الواسعة في سقف الغرفة التي ولد فيها ديموني ، وكان البيت متداعياً . وقد حدث لهما في إحـدى الليالي العاصفة أن سقط المطر عليهما من السقف فهربا من غرفة إلى غرفة حتى انتهيا إلى كهف منسي في أحد أركان المنزل نسج العنكبوت فيه خيوطه ، فأويا اليهِ ليزدهر بين جنباته ربيع حياتهما .

ولماذا يقبلان على الزواج وهما لا يقيمان وزناً لأقاويل النـاس ؟ إن الشرائع والتقاليد الاجتماعية لم تُسنّ لهما . يكفيهما أنهما يتحابـان ويجدان كسرة خبز للغذاء وحانة ترضى بأن تسقيهما الخمر على أن يدفعا ثمنها حين يكسبان بعض المال .

***

كانت علامات التفكير تظهر على ديموني كأنّ باباً مجهولاً قد انفتح في مجرى حياته، فأبصر منهُ سعادة عظيمة لا عهد له بهـا . لقد كان ولعه منذ حداثته : الزمار والخمر . أما الآن وقد بلغ الثامنة والعشرين فإنهُ زهد في الشرب بعض الزهد وصار يشعر بأنه يذوب ، كما تذوب الشمعة المتقدة ، وهو بين ذراعي صاحبته تلك السكيرة النحيلة الجسم كأنها الحشرة القبيحة المنظر ، السوداء الوجه من فرط ما أحرقتها نار الخمور الملتهبة في أحشائها ، تلك المخلوقة الحادة الغريزة التي تضطرب كالوتر المشدود ، التي تمثل في عيني صاحبها أبعد معاني الجمال . وكانت سعادتهما عظيمة، وكانا لا يقنعان بالتنعم بها في البيت، فكانا يتداعبان خارجه بين أيدي الناس... في مجونٍ صافٍ .

وكان الحب والخمـر قد أكسبا ديموني جمالاً وقوة على حين زادا في نحول صاحبته وسواد بشرتها . وكانت تعنى به كل العناية وتُهمل نفسهـا حتى إنهـا كانت ترتدي ثياباً ممزّقة .

وصارت لا تفارقه أبداً لأن شابـاً وسيماً مثله عرضة لأخطار جمة . فهي لا تكتفي بالانتقال معه في جولاته الفنية بل تبرز إلى جانبهِ وهو يسير في الحفلات الدينية ، غير عابئة بما يقال ، مسددة لحاظها إلى جميع النساء في قسوة تنم عن عداوة .

وقد برزت ذات مرة وعليها أمارات الحمل ، فأغرق الناس في الضحك، حتى كادوا يفسدون مغزى الحفلة الدينية .

أما هو فكان ينم مظهره عن لذة الظفر . كان يمشي نافخاً في مزماره كأنه أنف طويل ينساق إلى السماء ، وإلى جنبه الصبي يحمل الطبل الصغير ، وإلى جنبه الآخر السكيرة وقد استدارت فارتفعت ثيابها الممزّقة وظهرت ساقاها النحيلتان كأنهما ترقصان في حذائهما الواسع ، وهما جافتان قذرتان كالنقارة التي ينقر بها الصبي الطبل .

وقد أثار هذا المنظر اشمئزاز رجال الدين ، فحاولوا أن يحملوا ديمو ني على الزواج وفقاً للمراسم المتبعة . فأبى ، فمنعوه دخول الكنيسة والاشتراك في الحفلات الرسمية ولكنهم لم يستطيعوا أن يستغنوا عنهُ أيام الطواف في المدينة .

***

على أن السكيرة لم تلد، أعسرت فانتُزع الجنين انتزاعاً، فقَضَت بمرأى من عيني ديمو ني المذعورتين . ولم يدرِ ، وقد رآها تلفظ نفَسها الأخير من غير توجع ولا حشرجة : أذهبت هي إلى غير رجعة أم نامت كما كانت تنام عند قدميه إعياءً وسكراً ؟ .

كان للنبأ دويٌّ عظيم في قرية « بنيكوفار » فاجتمع الأهلون على باب البيت القديم ليروا السكيرة مدرجةً في النعش وديمو ني بجانبها يبكي وقد انحنت قامته الطويلة وتهالك رأسهُ كأنهُ ثور حزين .

ولكنّ أحداً لم يتواضع فيدخل البيت . ولم يمش في الجنازة غير عدد قليل من أصدقاء ديمو ني المشردين مثله .

وكان هؤلاء قد أمضوا ليلاً ساهراً بجانب الجثة . وكانوا في كلِّ ساعة يذهبون إلى الحانة فيملأون قارورة خمراً حتى نال منهم الشراب فناموا . ولما أشرقت الشمس وأرسلت أشعتها من خلال ثقوب السقف استيقظوا فوجدوا أنفسهم نياماً حول الميتة كما كانوا يفعلون في بعض الليالي وهم مطرّحون سكارى لا يلوون على شيء .

أية دموع ذرفوا عليها ؟ .. إنها تنام الآن في نعشها ، نعش الفقراء ، لا تستطيع النهوض لتأخذ قسطها من لهو مجلسهم . تعساً لها من حياة ... أهذه نهاية كل حيّ ؟ ..

وقد بكى هؤلاء السكارى طويلاً . وكان الحزن والسكر يمتلجان في نفوسهم وهم يحملون

النعش إلى المقر الأخير . وقد شهد كل أهل القرية الجنازة من بعيد . وكان النساء يُغربن في الضحك من المنظر العجيب . كان أصدقاء ديمونى يتمايلون يميناً ويساراً والنعش فوق أعناقهم يهتز كأنهُ باخرة عتيقة وسط عاصفة هوجاء . وكان الغلمان يطوفون بهم كعادتهم في الحفلات، وكان الناس يضحكون كأن الجنازة مهزلة وكأن الفتاة ماتت شهيدة نشوة عنيفة .

أما ديمونى فلم يكن قد استفاق بعدُ من سكرة أمس ، فكانت دموع الخمر تمتزج بدموع الحزن على رفيقة عمره ونديمة شرابه . وبعد أن أودعها اللحد ذهب إلى الحانة وتناول الأقداح بيده ، وكانت لم تنفض بعدُ أثرَ التراب المهيل .

***

تغيرت حال ديمونى منذ ذلك اليوم . ودَّع الأسفار البعيدة والليالي الجائشة في الحانات. لقد اعتزم ألاّ يغادر قريته أو يشترك في الحفلات الدينية .

وتوكيداً لاعتزامه أطلق الصبي من خدمته والتزامه . فقد كان يؤمل أن يرزق من صاحبته غلاماً يرافقه في غدوه ورواحه بدلاً من هذا الأجير . أما الآن فهو وحيد . هل يشعر بالسعادة حيناً ليصبر إلى هذه المأساة ؟ . حالتان لم يعرفهما قبل أن يحب السكيرة . فلم يجد غير الشراب صديقاً ومعزياً .

كان يلزم داره طول النهار ، فاذا جاء الليل تسلل إلى خارج القرية كأنهُ لص حتى يصل إلى المدفن ، فيدخله من ثغرة في أحد جدرانه.

وكان العمال عند عودتهم إلى القرية في المساء يسمعون أنغاماً ناعمة شجية تتصاعد من بين القبور ، فينـادون :

أهذا أنت يا ديمونى ؟

فتصمت الموسيقى في وجوه هؤلاء الجبناء الذين إنما يتكلمون ليستروا جَزَعهم ورعبهم .

فاذا ابتعد وقع خطاهم وخيمت السكينة على الحقول ، استردَّت الموسيقى أنغامها في جوف الظلمات كأنها إرنان طفل ينادي أمَّـا لن تعود .

# الحيوان المنسي

للأب أنستاس ماري الكرملي

---

## توطئة

الغاية من وضع هذه المقالة إرشاد القارئ إلى الألفاظ العربية لأسماء حيوانات مذكورة في تآليف الغربيين ، لكنها غير منصوص عليها في مصنفات من تقدَّمنا ولا مذكورة فيها بالأسماء التي نتعرَّض لها هنا .

والذي أهاب بنا إلى هذا العمل ، أننا وقفنا في أسفار الأجانب ، وتآليف أدبائنا على مقالات شتى ، يذكر فيها أصحابها : أن العرب أمعنوا في أصقاع آسية وإفريقية وأميركة منذ عهد واغل في القدم، من غير أن يدروا كيف تم ذلك ولا كيف بلغوها ، مع ما كان لديهم من الوسائل البسيطة الضعيفة التي لا تمكنهم من تحقيق أمانيهم . وقد أيد أصحاب تلك الآراء ما أتوا به من أدلة ليست بسهلة التجريح ولا بهينة النقض ، ولا يمكن أن تنكر .

فجئنا نحن لنؤيد تلك الأقوال ونسندها بما بدا لنا من أسماء بعض الحيوانات التي لم يتمكن العلماء من معرفة معناها الأصلي، كما لم يتمكن أرباب تلك الأنحاء من شرح سبب تسميتها . فنلقي هذه الدلو في الدلاء دعماً لما ذهبوا إليه . أي أن العرب رحلوا إلى تلك الأرجاء منذ أقدم الأزمنة ، فوضعوا لها تلك الأسماء التي لها معنى يؤيد سبب وضعها في العربية ولا معنى لها في لغى أهل البلاد الموجودة فيها تلك الحيوانات . فنقول :

١ — ﴿ الكميشيّ أو الشاجَّة ﴾ : في أميركة الجنوبية طائر غريب الأمر ، وعجيب الشكل ، اسمه العلمي Palamedea cornata أو Annima وكثيراً ما يدجنه أهالي تلك الأرجاء الوطنيون ليودعوه حراسة الدجاجيات من مخالب الجوارح ومن أنياب الضواري فيدفع عنها عواديها . وهو يمتاز بقرن طويل مزجج يزين رأسه ، وهو في الوقت عينه آلة يدافع بها عن نفسه وعمن يناضل عنه . وله في كل من جناحيه مهماز مسنن للغاية عينها . وأما منسره ورجلاه وساقاه فتشبه ما كان من هذا القبيل في الدجاجيات . ويتصل بالبط والوز من جهة بنية خلقه ، واسمه بالإنكليزية Kamichi .

ومن أسماء الكيشي : ( الناعق الأقرن ) وهو ترجمة الانكليزية Horned Screamer والشاجة . وسمي ( ناعقاً ) لأنه ينعق بعدوه إذا ما رآه قادماً إليه، فان ارتدع فبها ونعمت ، وإلاَّ فإنه يطعنه بقرنه المسنن ويورده حياض المنايا .

واسمه الثاني (الكيشي) مشتق من الكش، يقال : كش فلاناً بالسيف : إذا قطع أطرافه فهو فعيل بمعنى فاعل، وزيدت الياء في الآخر للمبالغة كما قالوا : أحمر وأحمري، ديار ودياري، دوار ودواري ، إلى نظائرهن . وذلك لسبب فتك هذا الطائر بقرنه فهو كالسيف القاطع .

واسمه الثالث : الشاجة ، اسم فاعل من شج رأسه يشجه : جرحه وكسره . وزيدت التاء للمبالغة أيضاً كما قالوا : راوية والأصل راوٍ . وبالانكليزية Chaja وبلسان العلماء Chauna وهذه اللفظة مترادفة لما ذكرناه في صدر هذا البحث . Chanaria

٢ — ﴿ الكانس ﴾ : واسمه بالإنكليزية Kanchil قال لغويوهم : إن هذا الاسم ماليزي الوضع، أما نحن فنراه من نجار عربي هو كانس ، من كنس الظبي يكنس ( بالكسر ) كنوساً دخل كناسهُ . وهو ظبي ظريف الشكل رشيق القوام سريع الحركة ، اسمهُ العلمي Tragulus Pygmaeus أو T. Kanchil ويرى في جزر زانج أي في جاوة وسومطرة وما جاورهما من الخُرص ( أي جزر البحار ) ويحتال على صائده بأن يكنس في كناسهِ حالما يراهُ مقبلاً إليهِ ليصطاده .

٣ — ﴿ كانّ الجرو أو كانّ الأجرية ﴾ : كانّ الجُرْو ، بكاف مفتوحة يليها ألف فنون شديدة وهي مضافة إلى الجرو المثلثة الجيم،و هو صغير كل شيء حتى الحنظل والرمان والبطيخ والخيار ، وغلب على ولد الكلب والأسد . ومعنى ( كانّ الجرو ) مخفي ولده الصغير ، وذلك أن لهذا الحيوان جراباً في أسفل بطنهِ يخفي فيهِ أجراءَه كل مرة يرى خطراً على نفسهِ ولاسيما على فراخهِ ،وهذا يرى في الأنثى فقط . ويكتب اسمهُ بالإنكليزية هكذا Kangaroo وبالفرنسية Kangouroo أو Kangourou وسماه بعض كتّابنا المعاصرين ( القنقر ) وزان جعفر ، من باب التعريب . ونحن نفضّل العودة إلى الأصل العربيّ وهو واضح كل الوضوح ويقال في جمعه : ( كوانّ الأجرية) أو ( كانّات الأجرية) واسمهُ العلميّ Macropus Major وموطنهُ أستراليةِ.ولا يرى في غيرها من البلاد . ونكتفي بهذه الكلمة ، لأن غايتنا ذكر الأسماء دون وصف الحيوان، ومن أحبَّ التوسع فليراجع الكتب الموضوعة في علم الحيوان.

٤ — ﴿ القهقهُ ﴾ [1]القهقهُ ، وبالإنكليزية Kaka قيل في أصل الكلمة إنها من اللغة

(١) راجع الذيل

الاورية ومعناها الببغاء . وقال الإنكليز : إنما سمي بحكاية صوته فكأنهُ قهقه . فقد يكون ذلك وقد يكون أنه سمي بالقهقهة من العربية ، فهذا الفعل معروف في لغتنا وغير معروف في لغى الغير، واسمهُ العلمي نسطور الجنوبي Nestor Meridionalis وهو ضرب من الببغاء موطنهُ نيوزيلندة . والقهقه الجبلي واسمه العلمي نسطور الجليل N. Notabilis معروف بحرصهِ على أكل اللحم . ولذا يتهجم على الحملان والخنانيص ليفترسها ، ولهذا أيضاً يطارده أهل تلك البلاد درءاً لكل ضرر عن صغار الحيوانات من ذوات الأربع .

٥ — ﴿ القحقذاح ﴾ : القحقاح وبالإنكليزية Kahkapo وبلسان العلم Strigops Habroptilus طائر من جوارح الليل يشبه الببغاء كل الشبه، وموطنهُ نيوزيلندة يقضي نهاره في النقوب ويسعى لرزقهِ في الليل ، ولون ريشهِ كلون ريش البوم وكذلك ظاهر خلقهِ . وأجنحتهُ عريضة . وهو لا يستطيع أن يطير مدة طويلة . ومن أسمائهِ ( البوم الببغاء ) و ( ببغاء الليل ) و ( قهقه الليل ) . والقحقاح مشتق من العربية ، من قولهم : قحقح القرد : إذا ضحك . وصوت هذا الطائر في الليل يشبه قحقحة القرد ، ومنهُ اسمه .

٦ — ﴿ القبع ﴾ القُبع كزفر هو الذي يسميهِ المصريون ( أرنب هنديّ ) أو ( رومي ) وبالانكليزية Guinea Pig وبالفرنسية Cobaye وبلسان العلم Cavia Cobaya واللفظ العربي من القبوع، لأنهُ كثير القبوع أي النخير وهو صوته وإن لم يكن شديداً كقبوع الخنزير ( المقتطف ١٠٤ : ٢٠٠ )

٧ — ﴿ الجوب ﴾ : ظبي موطنهُ غربي إفريقية ، اسمهُ الانكليزي Guiba أو Guib والعلمي Tragelaphus Scriptus وهو مخطط الجلد تخطيطاً غريباً ، فانك ترى عليهِ نكتاً وجدداً حمراوات ، على مفترشٍ أصحر . ومن أسمائهِ ( الظبي المكتَّب ) أي المخطط خطوط الكتب . وأما اسمهُ ( الجوب ) فمن العربية ، من جاب الأرض يجوبها جوباً : إذا قطعها ، لخفة تنقله من أرض إلى أرضٍ بسرعة مدهشة .

٨ — ﴿ القاهي أو القاهة ﴾ : ( القاهي ) أو ( القاهة ) قرد طويل الأنف حديد الفؤاد اسمهُ الانكليزي Kahau أو Kaha واسمهُ العلمي Semnopitecus Nasalis موطنه برنيو من جزر أرخبيل الصُنـد . والغالب على لونهِ الكبدة اللامعة ، ولون بطنه وكتفيهِ وجانبي هامتهِ أصفر ذهبيّ وأعلى رأسِهِ ورقبتهِ أسمر . ومن أسمائهِ عند الانكليز ما معناه القرد المخرطم : Proboscis Monkey . ويقولون : إن اسمهُ مأخوذ من حكاية صوتهِ . والذي عندنا أنهُ من أصل عربيّ صميم، فقد قال اللغويون في تفسير القاهي : الحديد الفؤاد المستطار أي المُسْرع الجري . وهو كذلك .

٩ — ﴿ العداء ﴾ : العَدَّاء من ظباء إفريقيـة العظمى ، وهو مشهور بشدة عدوهِ واستطارته ، ومنهُ اسمهُ العربيّ ، وباللاتينية Addax وبلغة العلماء Hippotragus, or Oryx, Nasomaculatus أي الأرخ المبقّع الخطم . وهو ملويّ القرنين ، وكان يعرفهُ الأقدمون . ويظن لغويو الإنكليز أن اسمهُ إفريقي الوضع ولم يعرفوا أنهُ من العربية ( وراجع المقتطف ١٠٤ : ١٩٩ )

١٠ — ﴿ القموص ﴾ : القَمُوص من أجمل الظباء وأبدعها خلقة وأسرعها حركة واستطارة. واسمهُ واضح الأصل العربيّ ، وهو فعول من القِماص كَسَراب وغراب ، وهو الوثب المشهور بهِ هذا الحيوان الظريف الرشيق . ووزنهُ فعول للمبالغة في وثبهِ . واسمهُ بالفرنسية والإنكليزية واحد Chamois وبلسان العلم Rupicarpa Tragus ويُرى على رؤوس الشوامخ من جبال أوربة كالألب والبرانس وما ضاهاها . والصيادون يفتخرون بصَيْدهِ ، لأنهم لا يحصلون عليهِ بسهولة ( راجع المقتطف ١٠٤ : ٢٠٠ ) .

١١ — ﴿ البواع ﴾ : البَوَّاع ثعبان هائل العظم يسمّيهِ الإنكليز والفرنسيون باسم واحد Boa . ويقول الأولون إن الكلمة من Boa اللاتينية وهو ضرب من حيّات الماء ، ولعلّ أصلها Bos وهي الثور لعظم خلقها . وأما الآخرون فيقولون إنها من اللاتينية Bos ومعناها القُلْب Coluber وهي الحُفّات أيضاً ، وموطن البوّاع أميركة الجنوبية والوسطى وجُزُر الأنتيل . والاسم يشمل البواع العَصَّار ، وبلسان العلم Boa Constrictor والبوّاع الأنبراذور B. Imperator ويكون في المكسيك ، والبواع الفارس B. Eques ويكون في پيرو . ويبلغ طولهُ أكثر من ستة أمتار ، وطعامهُ صغار ذوات الثدي ، فهو يهجم عليها ويلتف عليها التفافاً حتى يعصرها عصراً فتختنق . وهو مولع بنوع خاصّ بصغار القوارض فيؤدي للزراع خدمة صادقة . ولا يتعرض للإنسان البتة ( راجع المقتطف ١٠٤ : ٢٠٠ )

١٢ — ﴿ الشعاب ﴾ : الشعَّاب ، طائر هو القرّاع والنقّاب والنقاب والنقّار ، مضافات إلى الخشب ، وأكثر ما يرى في أميركة وهو الأحمر البطن ، واسمهُ الشعَّاب وبالإنكليزية Chab للقرّاع الخاص بأميركة ، والعلماء لا يعرفون أصل هذه الكلمة . وعربيتها واضحة تفقأ حصرماً في عين المنكر لها ، وهي من شَعَب الشيء : صدمهُ . وهو يشعب خشب الأشجار ليستخرج ما فيها من الدود والهوام المختلفة ، واسمهُ العلميّ Melanerpes Carolinus أي القَرَّاع ؛ والشَعَّاب الكاروليني نسبة إلى كارولينة من ديار أميركة .

١٣ — ﴿ القلب ﴾ : القُلْب ، بضم القاف ، هو على ما في كتب متون لغتنا : الحيَّة البيضاء ، ولم يزيدوا على هذا القَدْر . وأظن أن هذا الحرف ينظر إلى اللاتينية Coluber

أو إلى مؤنثها Colubra بمعناها، وبالفرنسية Couleuvre وبالإنكليزية Common Snake وهي حيَّة بيضاء لا تؤذي، وهي كثيرة الوجود في منازل الأهلين في العراق، لكن الناس يهابونها لجهلهم حقيقتها ويخافونها خوفاً عظيماً، لظنهم أنها سامة وقتَّالة. وقد قبضت على كثير منها، فهي تعض بفمها [٢] لكنها لا تؤذي لعدم وجود ناب فيها. والبغداديون يسمونها (غزالية) نسبة إلى الغزال للونها الأبيض الغزالي. وأما القلب فاسمها العربي الفصيح القديم ولا بد من أن الأجانب اقتبسوها منا أو أننا نحن اقتبسناها منهم بحذف الهجاء الأخير من اللاتينية [٣]

( الذيل )

( ١ ) القهقه، هنا فعل ماض مبني على الفتح، وقد عد هنا اسماً ودخلت عليه أداة التعريف. ولا غرابة في هذا، فقد ورد مثله في كثير من كلام الاقدمين منا. فقد ورد عنهم أنهم قالوا: القال والقيل، مبنيين على الفتح: الاول فعل ماض معلوم والثاني فعل ماض مجهول. وقيل غير هذا القول، لكن المشهور ما أوردناه هنا وهو الغالب في آرائهم.

ولاعجب في دخول ( ال ) على الفعل، فقد قال السلف: الكنتي ( وزان الكردي ) والكنتني ( بزيادة نون بعد التاء المثناة الفوقية ) وهو أغرب للكبير العمر، وهو منسوب في كلا اللفظين نسبة يندر ورود مثالها. قال الشاعر:

وأصبحت «كنتياً»، وأصبحت عاجناً وشر خصال المرء «كنت» وعاجن

وهو الذي يقول «كنت» في شبابي كذا وكذا. و ( كنت ) الواردة في العجز منونة مرفوعة.

وقالوا: «اليلمعي» بياء النسبة في آخر المضارع «يلمع» من لمع يلمع. ثم قلبوا الياء ألفاً فقالوا: ألمعي» والاصل ما ذكرناه وقالوا: «اليرنأ» وهو ماض بصيغة المضارع المعلوم وهذا أعجب وأغرب. قال ابن جني: «وقالوا يرنأ ( زنة بفتح ويفتح الآخر ) لحيته: صبغها باليرنأ. بضم الياء المثناة التحتية، وفتح الراء وشد النون المفتوحة. وفي الآخر همزة مكسورة ). وقال: هذا يفعل ( بالفتحات وسكون الفاء ) في الماضي. وما أغربه وأطرفه! اه ( عن اللسان في ز ن أ )

وقالوا: الكان كان مبنيتين، لنوع من الغناء في عهد العباسيين. الى غير ذلك.

( ٢ ) كنت أقمت في جبل الكرمل سنة ١٩٢٤ و ١٩٢٥ وأذهب كل صباح الى دير الكرمليات اليوسفيات في عسفيا من قرى ذلك الطود. ولاحظت في صباح ٧ مايو ( أيار ) من سنة ١٩٢٥، أن الراهبات لا يدخلن قاعة الاكل، صباح ذلك النهار، وهن خائفات مذعورات، فسألت عن السبب، فقيل لي: إن حية عظيماً قد دخل القاعة، ولا تجرؤ واحدة منهن على أن تدخل فيها. فقلت: علي بهراوة، فأعطيتها. ولما ولجت القاعة، وأنعمت النظر في رأسه، وجدته مفلطحاً، وهو علامة على أنه حفث لا أفعى. فذهبت اليه وقبضت عليه من رقبته وغمزتها غمزاً وقست طوله فاذا هو متر و ٧٥ سنتيمتراً، وغلظه فاذا قطره ثلاثة سنتيمترات غزالي اللون. ولما أمسكته التف على ساعدي التفافاً شديداً وكان يعصره عصراً. فلما رأتني الراهبات أخذن يصرخن ويولولن. فقلت لهن: لا تخفن، فهذا حفاث لا أفعى، وهو ينفخ ليخيفني، ولست ممن يقعقع له بالشنان، فلا خوف علي ولا عليكن. ثم وضعت رأسه في فيَّ، لأبين لهن أن لا خوف علي منه ولا ضرر. فكان إشفاقهن علي أعظم واستطرن جميعهن. ومن بعد أن بقي ملتفاً على ساعدي ساعات، أخذت فهراً وشدخت به رأسه فمات، ولم يقع ما يسوء أحداً.

( ٣ ) إن اعتبرنا القلب من اللاتينية، بخلاف ما ذهبنا اليه، فتكون عربت أولاً بصورة ( قلوب )، ولم تكن بصورة ( قلب ) المفردة. ثم عدت جمعاً ومفردها ( قلب ) بالضم من باب الوهم، كما قالوا غرش أو قرش مع أن الاصل المعرب هو غروش أو قروش أي Groschen الالمانية.

# التكيف الاقتصادي

لسعد ابراهيم النمري

---

التكيف الاقتصادي من القضايا الاقتصادية التي تكون جزءاً من مادة علم الاقتصاد وتستلزم جهداً وعناءً في التفكير .

والاقتصاد علم اجتماعي يبحث في أعمال الإنسان الصناعية . ويستخلص من هذا أن علم الاقتصاد يتناول أموراً ثلاثة ، هي الإنسان ونظام العمل والعلاقة بينهما . أما البحث في الإنسان وطبيعته فذاك من اختصاص علم النفس الاقتصادي . وهو لا يختلف عن علم النفس العام إلاّ في أنه يعني بتطبيق علم النفس على الاقتصاد أو المعاش . ولست أقصد التوسع في هذا الموضوع ، ولكني سأقتصر على ذكر الشيء اللازم لموضوعنا ، فأقول :

في الإنسان جملة دوافع أو غرائز تسيره وتتفاعل فيه ، أهمها ما يلي هذا :

١ — غريزة التسامي : وهي التي تبعث في الإنسان الرغبة في السيطرة والزعامة والقوة .

٢ — « الحيازة : وهي تدفع الإنسان إلى الحصول على الثروة والغنى .

٣ — « العمل : وهي تسوق الإنسان إلى إظهار كفايته وابتكاراته .

٤ — « الحنوّ : وهي تحمله على إظهار اللطف والعطف والبذل والخدمة سواء لأسرته أو بيئته .

٥ — « الاجتماع : وهي التي تجعل الإنسان يأنس بأخيه الإنسان ويشعر بشعوره .

٦ — « الإذعان : وهي التي تجبر الإنسان على الإذعان للواقع أو تجعل العمال ينقادون للزعماء .

٧ — « الجنس : وهي أقوى الغرائز وأفعلها فيما يظن .

٨ — « المنازعة : وهي سبب الأحزاب في النظام القائم .

٩ — « التفكير والاستطلاع : وهي التي تؤدي إلى الاكتشاف والاختراع والتنظيم

١٠ — « الخوف : وهي التي تهاجم التاجر فيحمل همّ الخسارة ، والعامل فيحمل همّ الفصل من الوظيفة .

وأهم خصائص هذه الغرائز أو الدوافع أنها تولد مع الإنسان على درجات متفاوتة، وأنها تؤثر فيه فتجبره على نوع ما من السلوك، وأنها تتحوّل وتنشأ، وأنها تتشابك. ولهذا لا بد أن ينظر إليها نظرة شاملة لفهم السلوك الاقتصادي للإنسان بوجهٍ عام.

فماذا نعني بالتكييف الاقتصادي ؟

نعني بالتكييف الاقتصادي التوفيق بين طبيعة الإنسان والنظام، ولإيضاح المقصود بهذه اللفظة لا بدّ من بعض الشرح.

تحيط بالإنسان بيئة اقتصادية هو جزء منها، وفي هذه البيئة يصرف أموره للحصول على الثروة واستهلاكها إشباعاً لرغباته وحاجاته. وتظهر ميول الفرد وأفكاره وأعماله من تصادم طبيعة البشرية والبيئة التي يولد فيها المرء. وهنا تلتقي الطبيعة البشرية بالبيئة، فإما أن تندمج فيها وتستسيغها وإما أن تنفر منها وتسعى لهدمها. وفي هذا التصادم يجري تغيير في الطبيعة البشرية قد نسميه «تضارباً داخليًّا» فأحدنا يحب أن يلهو ولكنهُ يقبل على إتمام ما يجب عليه، وآخر يتهافت على جمع المال ولكنه يجود بسخاء لمساعدة مشروع خيري، وآخر موظف كبير يؤثر أن يرقي شخصاً ما أكثر كفاية من قريبه، وآخر يحب أن ينتقد القادة أو الزعماء فيضبط نفسه ليتهيأ له البقاء في العمل أو الترقي فيه. والخلاصة أن بعض الميول يموت جملة وبعضها يعيش والبعض الآخر يتحوّل ويتجه اتجاهاً جديداً. إن هذا الصراع بين الميول الغريزية مستمر، ونتائج هذا الصراع وطرائق التحكم فيه تقودنا إلى تحليل السلك الاقتصادي للإنسان. إن نتيجة الصراع هو تكييف طبيعة الإنسان الأصلية للبيئة الاقتصادية أو التوفيق بين إظهار الميول الغريزية وكبتها. ففي البيئة الاقتصادية تجد مطامح الإنسان فرصاً للظهور. وفي الوقت نفسه يكون الحد من هذه المطامح شاملا. ومن هاتين الناحيتين نشأت مدرستان للفكر: الأولى تقول بلزوم تغيير الطبيعة الإنسانية، والأخرى تقول بوجوب تغيير النظام الاقتصادي. وبكلمة أوضح إحداهما تقول إن الطبيعة البشرية تحتاج إلى تهذيب وضبط وإرشاد وتوجيه حتى تلائم النظام. والأخرى تقول إن النظام الاقتصادي يحتاج إلى تحويل يلائم الطبيعة الإنسانية. ولكل من هاتين النظرتين فائدتها العلمية، ولكن كلتا النظرتين غير صواب، لأن كلاً منهما تبسط المسألة وتهوّن من شأنها فتبعدها عن إمكان الحل. والرأي الصائب هو التوفيق بين هاتين الفكرتين، فالتحسين يجب أن يتناول الطبيعة الإنسانية مرةً والنظام الاقتصادي مرةً أخرى. وأكثر الأحيان يتناول الطبيعة والنظام معاً. وهذا ما أعنيه بالتكييف الاقتصادي.

والتكيف الإنساني أو النفساني يتم بطرق متعددة ، ولكنَّ أهم أنواعه خمسة :

١ — الترويض — ويقصد بذلك ضبط النفس وتعويدها السير بحسب مقتضيات النظام الاقتصادي، ولولا هذا الضبط لما تقدمت المدنية هذا الشوط البعيد . إن هذه الفكرة واضحة تمام الوضوح في ما كتبه العالم النفسي المشهور ثورندايك فاسمعه يقول : « إن الحياة التي تفرضها الطبيعة الأصلية في الإنسان ربما كانت شبيهة بحياة الذئب أو القرد أكثر مما هي شبيهة بالحياة الحاضرة نتيجة للفنون الإنسانية والعادة والتفكير — تلك التي تظهر في اللغات والآلات والبناء والكتب والعادات . إن الطبائع الأصليَّة في الإنسان لم تكن صحيحة من قبل ، وليست هي صحيحة الآن ، وربما لا تكون صحيحة في المستقبل . وبهذه الطبائع وحدها لا يشعر الإنسان إلاّ بحاجات قليلة في الحياة، وأقل منها ما يتوفر للإنسان إشباعهُ . الإنسان في الوقت الحاضر متمدن عاقل إنساني لأنه غيَّر في الماضي الأشياء إلى أشكال أكثر فائدةً لنفسه وغيَّر أجزاءً من طبيعتهِ الخاصة إلى صفات أكثر فائدةً للإنسان بمجموعه . ولهذا فالإنسان يغيِّر نفسه دائماً لمصلحته . إن طبيعته غير مستقيمة في نظره . ولكن شيئاً واحداً جَمَّل حياته هو القدرة على جعل تلك الطبيعة أفضل مما هي عليه الآن، إن السيطرة على هذه الميول الأصلية تحتاج إلى استثمار الميول النافعة والاحتراس من الميول الضارة . إن الدوافع الطبيعيَّة والشهوات الإنسانية يجب أن تُطوَّع وأن تُرقَّى بعادات الحياة المتحضرة وفنونها وعلومها، ولكن كل جزء من هذه الفنون والعلوم خلقتها قوى كامنة في الطبيعة الإنسانية . ولا يمكن الركون إلى الغرائز بتأليف عادات مستحبة إلاّ بتأثير ضغط اجتماعي قوي، بحيث إن حاجات الفرد تندمج في حاجات المجموع » . ومعنى هذا أن الإنسان يكيِّف نفسه لمصلحة المجتمع، ومفاد هذا أنهُ لا بد من حدوث بعض الضرر النفسي للافراد ولكنهُ ضرر لازم لسير الحضارة .

٢ — القضاء على الدوافع الضارة — وأهم طريقة لإزالتها هي الإهمال . فالكره والحسد والطمع والقسوة والاضطهاد والمنازعة تتسنى إزالتها إلى حدٍّ كبير . ولاريب أن روح المزاحمة قد تؤدي إلى تخاصم نفعي خسيس. وبذلك يمكن إحلال التساند من محل المزاحمة للمصلحة المشتركة على أننا نجد أشخاصاً كثيرين في هذا العالم قد تبدَّلت طبائعهم ، فمنهم من مات فيهم الشوق إلى اللعب والمرح أو مات فيهم الحنوّ أو انتفت عنهم غريزة الحيازة أو الغضب أو التفكير ، وعلى هذا فإنه بالقضاء على الدوافع الضارة لا بُدَّ من القضاء على بعض الصفات المستحبة في الإنسان . ولكن البيئة يجب أن تطرح الدوافع الوحشية فقط ، تلك التي لا تلائم روح

العصر والحضارة ، وأن تستثمر الطبائع الممتازة في الجهد الاقتصادي.

٣ — تحويل الميول — وأقصد بهذا الانتفاع بالغرائز الفعّالة في أعمال نافعة، فبدلاً من إماتة هذه الغرائز الخطرة يجب تحويلها إلى اتجاهات مفيدة . من هذه الغرائز غريزة الجنس، وأبرز المفكرين الذين أشبعوها بحثاً هو فرويد . ولكن فرويد نفسه يقول: « إن الدوافع الغريزية تتحوّل من هدفها الجنسي وتسير نحو غايات اجتماعية عالية غير جنسية » . أي أن الغريزة المتدفقة يمكن تحويلها إلى اللعب أو الفن أو الدين . وقد قال وليم جيمس : إن حب الحرب متأصل في الإنسان ، ولكن يمكن إيجاد الوسائل التي تقوم مقام الحرب . فالإحساس بالعظمة والمجد والبطولة يمكن أن يستبدل به شعور الكرامة في ميدان الاختراع أو تحمل التبعات في ميدان العمل أو الترقي من طريق إجادة العمل أو البروز في الألعاب الرياضية. حتى لقد ذهب بعض المفكرين إلى القول بأن «وراء الشر قوة» لا يتعذر استخدامها والاستفادة منها بواسطة التثقيف والتعليم .

٤ — التسويغ — وأعني به استخراج الأسباب بعد الانتهاء من عملٍ يرغب المرء في إنجازه . أي أن يفعل الانسان ما يشاء ثم يسعى لتفسير ذلك تفسيراً مقنعاً لنفسه ولغيره . مثال ذلك : أن الزعيم يطلب من الشعب البذل والاخلاص في قضية من القضايا فيلتف حوله دون أن يدرك القضية نفسها، فبعد أن يسلم الناس تسليماً أعمى بصدق القضية يبدءون في بحث الأسباب التي حملتهم على التشيع لها . وهنا نستطيع أن نثبت شيئاً يجرى عليه إجماع الهيئة البشرية . ذلك أن الجماعة تعد الشيء المكروه غير صحيح والشيء الجديد غير مقبول،لأنهُ يخالف ما تعودتهُ . وإذا اعتقد الانسان شيئاً تؤمن بهِ الجماعة كان من العسير عليه أن يخرج عن حكم المألوف . وكذلك يود الشخص المتطرف أن تقوم ثورة لأنهُ يرى أن النظام الرأسمالي كله مساوئ وليس فيه عدالة .إن اعتقاد الناس من هذه الناحية أمرٌ لا يرتكز على التفكير أولاً . فاذا أخفق عامل أو صانع أو موظف في عمله فإنه لا يقر بعجزه بل يسعى إلى الإنحاء باللوم على غيره، ويجب أن يقنع نفسهُ بأن الملابسات هي التي عاكسته، كأن يقول إن رفقاءه الموظفين أرهقوه بالعمل أو تدخلوا في شؤونه أو أزعجوه، ولذلك لا يستطيع أن يقوم بالعمل . والرئيس يفرض سلطته على مرءوسيه،لأنهُ يعتقد أنهم لا يتبعون النظام، على حين أن قصده الأول إثبات سلطته.

يحكى أن أحد الضباط جاءَ إلى اللورد كتشنر وهو في حرب جنوب إفريقية يشرح لهُ الأسباب التي حملته على عدم تنفيذ أمر عسكري . فأجابه كتشنر : « إن الأسباب التي

ذكرتها هي أحسن أسباب سمعتها في حياتي، ولكن اذهب الآن ونفذ الأمر ».

ويمكن أن يقال إن الشخص إذا أراد اتباع ميوله أحاط نفسه بأسباب وفروض تسوّغ عمله وأظهرها بأشكال تلائم طبيعته . ففي ميدان الاقتصاد نجد التاجر الذي يحس احتمال هبوط السعر في المستقبل ويخشى الخسارة يخفض الأسعار لينفد ما عنده من البضائع المكدسة، ثم يقول إنه يحارب جماعة المستغلين .والعامل الذي يخشى ضياع وظيفته يشايع فكرة التخريب أو حصر الإنتاج — إنه يفعل ذلك ملبياً داعي الغريزة التي تتطلب حلا وإن كان غير معقول .

٥ — الثورة — ويقصد بها الخروج على أوضاع المجتمع . وسبب ذلك أن فريقاً من الناس لا تلتئم حياتهم مع النظام الاجتماعي مهما يكن سهلاً ، ولهذا إذا عاشوا في محيط صعب أصاب جهازهم العصبي الهدم،فتحدث من جرّاء ذلك حوادث مروعة أساسها الضعف النفسي . ومنشأ هذا الضعف اختلال التوازن بين الميول الغريزية . أما فرويد فقد أرجع الضعف العصبي إلى الغريزة الجنسية التي تحد من ظهورها أحكام المجتمع وعرفه . ولكن غيره من العلماء يرى أن عدم فسح المجال للشخص في إظهار نشاطه الحيوي في المجتمع سبب آخر لاختلال التوازن . وقال آخرون إن أية عاطفة كالحب والكره والجوع والخجل والحزن والخوف قد تؤدي إلى النتيجة نفسها . وقال غير هؤلاء إن الحواجز التي تضعها الهيئة البشرية هي التي توجد خللاً في التوازن العقلي لأنها تعاكس مشارب الإنسان . ومثل هؤلاء الناس إما أن يهملوا أعمالهم ويستولي عليهم اليأس والقنوط وإما أن يعمدوا إلى الثورة . وإذا عمد أحدهم إلى الثورة فليس ذلك ناجماً إلاّ عن خوفه من ضياع عمله . فإذا أمكن تأمين مورد العيش للإنسان لم يندفع صوب الأعمال الهدّامة بل نحو التفكير والعمل المثمر والخير العام . وقد ظهرت الديانات والفلسفات في العالم لمقاومة وحشية الإنسان وقسوته، فوضعت الخير المطلق ليحل محل الأنانية والإيمان ضد الخوف .

وهكذا نخرج بالنتيجة التالية،وهي : أن جهاز الانسان يحتاج إلى تنظيم وإرشاد في طرق نبيلة، ويحتاج إلى فرص لإظهار الميول الغريزية الرئيسة التي ليس فيها خطر على المجموع . والآن ماذا يجب أن يقال في تكييف النظام ؟ أو ما هو التغيير الذي يجب أن يصيب النظام الاقتصادي كي يلائم مصلحة الفرد والمجموع ؟ إن هذا السؤال ينطوي على حقيقة هامة وهي أن النظام الاقتصادي القائم ناقص ، ولكني أحسب القارئ يدرك هذه الحقيقة ، فأتجاوزها إلى بحث الموضوع الأساسي .

يتم هذا التكيف ( تكيف النظام ) بطرق عدة : بطريق المصادفة أو الاتجاه الأعمى أو العنف أو التسليم أو التعاون أو الثورة أو التنظيم العلمي .

إن النظام الاقتصادي واسع الآفاق بحيث إن كثيراً من المفكرين حينما يرون تعقيد مسائله ييأسون من حلها ويقنعون أنفسهم بأن التحسين الاقتصادي آتٍ بطبيعة الحال ولكنهم يتناسون المصائب البشرية التي يفرضها النظام . أما التفكير الصحيح فهو أن التكيف يجب أن يتم على ضوء الحقائق العلمية وبالأسلوب العلمي والفلسفة الأخلاقية الحديثة واكتشاف طرقٍ جديدة للحياة الاقتصادية . إن الطريقة المثلى هي معالجة هذه القضايا — كما قلت — بالبحث العلمي الذي يستوجب الاستقصاء والتجربة والتفكير والملاحظة والتحليل والاستنباط ثم البرهان . ولا يتوافر ذلك إلاّ إذا انصرف المختصون كل إلى عمله ليوفقوا حينئذٍ إلى حل معقول . على أن هذا لا يعني عدم إعطاء الحق لكلِّ فردٍ في التفكير في هذه القضايا ، بل نحن نقول إن عليه واجب التفكير ، وعليه أن يكيف المحيط الذي يحتويه بقدر ما فيه من مقدرة وشخصية ، أي أن الفرد يجب أن يكون حرًّا طليقاً قادراً على تحسين العمل الذي يزاوله بشرط أن يضبط نفسه ويوجهها توجيهاً رشيداً يلائم محيطه .

يقول جون ديوي في هذا الصدد :

« إن أحسن ضمان للجهد العام هو إطلاق القدرة الفرديَّة المتنوعة واستعمالها في الإنشاء والتنظيم وبعد النظر والنشاط والاحتمال . يجب أن نهذِّب الشخصيَّة . ولا يمكن تهذيبها إذا حصرنا مدى تأثيرها في الأمور الفنيَّة أو الاختصاصية أو شؤون الحياة التي ليس لها منزلة عالية ولكن التعليم الكامل يتم حينما يُعطى لكل فرد نصيب في المسؤولية يناسب مقدرته وكفايته في توجيه الغايات ووضع الخطط للهيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها . هذه الحقيقة تحدد معنى الديموقراطية ومنزلتها . . . . ترقى طبيعة الإنسان إذا اشتركت عناصرها في توجيه الأمور المشتركة ، تلك الأمور التي من أجلها يكوّن الناس جماعات كالأسرات والشركات الصناعية والحكومات والأديان والجمعيات العلمية وغيرها . . . حينما تعمل مقدرة الإنسان الحرَّة قوة اجتماعية مبدعة ... وحين يتيسر تحصيل المعاش ـ من جهة اقتصادية ـ في ظل حياة جديرة بالكرامة » .

---

# شعب پولندة وطبقاته

لحسين المهدي غنام

---

## ١ — شعب پولندة

الپولنديون من أقدم الشعوب الأوربية ، فقد تحدث عنهم بطليموس الجغرافي المعروف، في القرن الثاني للميلاد ، وسماهم ( البولانيز ) ، كما أن جوردانيز من القرن السادس للميلاد يتحدث عن السلافيين الذين عاشوا على ضفاف الفستولا ، ولكنهُ لم يقطع بتسميتهم قطعاً باتًّا . وفي القرن السادس أو السابع استقر بعض الناس على هذا النهر، وكانوا يسمون ( الليخ ) ، ولم يستطع أحد أن يفسر معنى هذه التسمية تفسيراً مقبولاً معقولاً ، ولكن بعض المؤرخين يقولون إن كلمة ( ليخ ) تطورت حتى صارت ( بولياني ) أو ( بولاكي ) . والمؤرخ الروسي القديم ( نسطور ) نطق باسمين ، أحدهما ( پوليان لياخوف ) على نهر الفستولا ، والثاني ( پوليان روسوف ) على نهر الدنيبر .

ثم إن ( شاينوخا ) ، المؤرخ الپولندي نفسه ، تحدث في أصل الشعب الپولندي فقال إنهم انحدروا ، كالروسيين ، من سلالات أتت من الشمال فاستوطنت روسية وپولندة ، وحاول أن يعلل نظريته تلك بترجمة بعض الأسماء ولكنه لم يفلح ، وخاصة في تطبيق هذه النظرية على الروسيين .

أما سكان پولندة عامة فيشتملون على العناصر الآتية :

أولاً — الآريون . ويتألفون من :

ا — الپولنديين ، ومنهم القشوبيون، وهم يقيمون في ساحل البلطيق بالقرب من دانزيج . والبولنديون الذين يمتون إلى الفرع الغربي من الجنس السلافي ، كما تدل على ذلك لغتهم التي ما زالت تحتفظ ببعض النبرات السلافية .

ب — الروسيين الحمر ، وهؤلاء يمتون إلى الفرع الشرقي من الأسرة السلافية .

حـ — الروسيين البيض ، وهؤلاء يؤلفون القسم الأكبر من سكان لتوانية .

د — اللتوانيين واللات والساموجيت ، ويقيمون عند ضفاف نهر ڤلنو .

هـ — الجرمان ، وقد نزحوا إليها في أوائل القرن الثالث عشر .

و — الأرمن ، وقد رحلوا إليها سعياً وراء التجارة ، واستوطنوها في القرن الثالث عشر كذلك ، أما ذراريهم فأغلبهم يعيشون في جاليسية ، وما زالوا يحتفظون ببعض لغتهم ولهجتهم .

ثانياً — الفنلنديون : ومن هذا الجنس انحدر ( الأستونيون ) المقيمون عند شاطىء البلطيق ، ولكنهم ظلوا محتفظين بآدابهم ولغتهم وطابعهم الفكري وقوميتهم .

ثالثاً — الساميون : ومن هؤلاء اليهود الذين نزحوا إلى بولندة في عصور متقدمة جداً ، واحتكروا التجارة فيها .

وكانت هجرة اليهود الاولى من الدانوب الأدنى ، ومن مملكة الخزر الذين دخلوا في الديانة اليهودية ، وكان عددهم عظيماً وتأثيرهم في بولندة ظاهراً .

وفي نهاية القرن الحادي عشر نزح إلى بولندة فوج آخر من اليهود قدم من ألمانية ، وفي منتصف القرن الثالث عشر منحهم ( بولسلاس الورع ) امتيازات كثيرة ، ولما تولى ( كازيمير العظيم ) في النصف الأول من القرن الرابع عشر زاد لهم في هذه الامتيازات ، ولعله توسع فيها محاباة لليهود الذين فطنوا لحاجته إلى المال فأمدوه به لسد نفقات حروبه الكثيرة ، ومع أن عددهم في تلك الفترة قارب مليونين ونصف مليون . فانهم لم يندمجوا في الشعب البولندي ، بل ظلوا مترفعين عازفين عن الاختلاط إلاّ في المعاملات التجارية ، وكانوا يستعملون اللغة الألمانية بدلاً من اللغة البولندية ، وكانوا يعتبرون أحط طبقة من طبقات الشعب البولندي ، كما سيأتي بعد .

## ٢ — طبقات الشعب البولندي

يبدو أن طبقة الفلاحين في كل أمة هي الطبقة التي يقع عليها الغبن الأكبر ، وخاصة في الشعوب الشرقية أو المختلطة بها ، كالشعب الروسي ، وابن عمه الشعب البولندي ، على حين أن طبقة النبلاء في تلك الشعوب تتمتع بالنعيم كله .

ففي أوائل القرن السادس عشر كان النبلاء في بولندة يستأثرون بالسلطة كلها ، ولم يكن هناك ترتيب تدريجيّ بين الطبقات في تلك الأيام ، فطبقة النبلاء الرفيعة كانت تتلوها طبقة

المدنيين أو ( أبناء البلد ) ، وهؤلاء كانوا في الغالب من الجرمان . أما الفلاحون فلم يكن لهم قدر مطلقاً ! ولم يكن لهم قط حق في معارضة سادتهم النبلاء في شيء . . حتى في الحياة أو الموت . . .

وتبعاً لذلك انحط الأدب القومي بل انعدم ، أما المؤلفون الذين ظهروا وقتئذٍ فكانوا قساوسة استعملوا اللغة اللاتينية في كتاباتهم ، فاندثرت أشعارهم وأناشيدهم وأغانيهم القومية ، ولم يبق من ذلك الشعر القومي غير قصيدة واحدة مخطوطة في خزانة زامويسكي بمدينة وارسو ، وقد نشرها الأستاذ نهرنج في برلين سنة ١٨٨٧ ، وهي تصف حادثة وقعت سنة ١٤٦١ ، وقد صورت هذه الحادثة حالة الشعب في ذلك الحين ، وإليك مجملها :

« كان محافظ مدينة كراكوف يان تنشينسكي من أسرة نبيلة في بولندة ، وقد رفض أن يصحب الملك في حملة تأديب شنها على فرسان الألمان ، أما شقيق ذلك المحافظ واسمهُ أندرو ، فقد أراد أن يصحب الملك ويساعده في تلك الحملة ، ولكن أسلحته لم تكن صالحة فذهب بها إلى حدّاد اسمه كليمنت بمدينة كراكوف ، فأصلحها الحداد وطلب أجراً لذلك قيمته جنيهان تقريباً ، فنقده النبيل ربع الأجر ، ولكن الحداد أصر على تناول الأجر كله ، فلكمه النبيل ، ثم ذهب إلى مجلس الشورى وشكاه مدعياً أنه اعتدى عليه ورفض تسليمه سلاحه ! .

فأرسل المجلس إلى الحدّاد ، ولكن النبيل لم يقوَ على الانتظار ، فترك ساحة المجلس ووقف مع أصدقائه أمام منزل أحد أعضاء ذلك المجلس ، فإذا كليمنت يدخل ساحة المجلس والرسول معه ، وما كاد الحداد يرى النبيل حتى توجه إليهِ وقال له : سيدي ! . . . إنك أهنتني في بيتي واعتديت عليّ وصلمت أذني ، والآن ستلقى جزاءك الحق . فانهال النبيل وابنه وأصدقاؤه على الحداد بالضرب على قارعة الطريق ، فصرخ الشعب وهاج وماج ، وانطلق ناقوس المدينة يدق ، وأقبل الناس من كل حدب وصوب مهطعين إلى ذلك النبيل وأصدقائه ليثأروا منهم ، ففر النبيل واحتمى بمنزل أحد محصلي الضرائب ، ثم عدا إلى كنيسة ، ولكن الناس لحقوا بهِ وذبحوه فيها !

ولما عاد الملك غضب لهذا الحادث أشد الغضب ، وأمر بالقبض على المذنبين ، فاتهم أخو النبيل القتيل تسعة أشخاص ، منهم عمدة المدينة وثلاثة أعضاء من المجلس ، وخمسة أعضاء مساعدين ، ولكن ثلاثة منهم برئوا ونفذ حكم الإعدام سرّاً في الآخرين ، لأن النبلاء خافوا أن يقتل هؤلاء جهراً فيثور الشعب ! »

هذه هي القصة القديمة ، وقد تناولها المؤرخ البولندي ( دلوجوش ) . وأضاف إليها ان جثة ذلك النبيل ألقيت على قارعة الطريق وبقيت هنالك ثلاثة أيام ، ولكن بعض المؤرخين الآخرين يقول إن هذه الرواية لا تخلو من مبالغة .

ومن هذه الحادثة تعرف مدى الامتيازات والكراهية التي كان يتمتع بها هؤلاء النبلاء في مختلف العصور ، والتي ازدادت على مر الأيام . . .

كان النبلاء يستعملون الفلاحين كقطعان الماشية لا أكثر بل أقل ، يغلون لهم محصول أرضهم . فأثروا إثراءً فاحشاً ، وأصبحوا في سعة تمكنهم من إرسال أبنائهم إلى بلاد أجنبية يتلقون فيها التعليم مع ما في هذا من النفقات الباهظة في ذلك العهد .

وقد وصف القسيس الإنجليزي الدكتور روبرت ساوث ، لما زار بولندة في الربع الأخير من القرن السابع عشر ، كثيراً من أخلاق البولنديين وملكيهم وشعبهم عامة ونبلائهم خاصة . فقال في هؤلاء النبلاء :

« إن للنبيل البولندي الحق في حياة فلاحيه أو موتهم ، فهو يقتلهم أينما شاء ، حتى لو كان لمجرد التسلية »

وقد ذكر كثيراً من الحوادث المخزية التي فعلها هؤلاء (الأشراف !) مع نساء فلاحيهم ! وكان هؤلاء النبلاء يعيشون في أفق من الأبهة والمهابة والعظمة المتكلفة .

وكانت تلك الحال التي عليها النبلاء ، من أكبر العوامل التي أدت إلى انحلال بولندة في القرن الثامن عشر ، حينما خسرت استقلالها . فقد كانت عاملاً في اضطرابات داخلية ، وتفكك بين عرى الشعب ، حتى انقسم عدة طبقات ليس فيما بين إحداها والأخرى نسبة معقولة ، في الغالب . وتأتي بهذا الترتيب :

١—النبلاء ٢—رجال الدين ٣—المدنيون ٤—الفلاحون ٥— اليهود .

* * *

١ — النبلاء : أما النبلاء فكانوا على ما وصفنا آنفاً ، وكان فيهم إلى جانب ذلك غطرسة ، حتى الذي يُعسر منهم ويضطر إلى العمل بيده وإن كان أجيراً في حقل ، تراه سائراً وراء محراثه حافي القدمين ، وهو يعلق سيفاً قديماً صدئا في جانبه بقطعة من الخيط ،علامة على أنهُ من أرومة النبلاء !

ومن أمثال البولنديين الشعبية في ذلك قولهم : ( النبيل في عشه ، كالملك على عرشه ! )

وقصدهم النبيل الفقير ولو في كوخ حقير، وهم في هذا المثل يوافقون المثل المصري : ( إن دبلت الوردة ريحتها فيها ! ) ، ولكنهم أشبه بصلف الأتراك الذين جاوروهم مئات السنين . من ذلك قصة بعض شحاذي الأتراك المشهورة بيننا حينما كانوا يجوبون قرى مصر — في نهاية القرن التاسع عشر وبداءة هذا القرن — فإنهم كانوا ينظرون إلى المصريين نظرة الزراية والتعالي حتى حين يسألونهم إحساناً !

ولم تقتصر جناية النبلاء البولنديين على الحياة الاجتماعية بل أضعفوا بلادهم سياسيًّا وحربيًّا ، ولكن سبباً عظيماً من تلك الأسباب التي أضعفت بولندة ، كان افتقار النبلاء أنفسهم إلى الروح الوطنية الخالصة، فقد كانوا يفضلون منافعهم الشخصية والبيتية على مصالح الشعب في مجموعه ، ولقد زادتهم الامتيازات التي منحت لهم تهالكاً على منافعهم المادية ...

وكان لكل نبيل أن يؤسس له جيشاً خاصًّا ! ومن هنا كانت تنشأ مشاجرات خاصة لا تلبث أن تصير نوعاً من الحرب والفتنة الداخلية بين نبيل وآخر أو بين نبيل وعامة الشعب ، وبهذا ضعف جيش الدولة الرسمي .

هؤلاء كانوا نبلاء بولندة ، وهذا بعض شيء عنهم وعن حياتهم ، وسيرتهم طويلة عويصة ، ولكنهم أخذوا يضمحلون ويقلون قبل اضمحلال الجمهورية نفسها ، وأخذ الكثيرون منهم يهجرون ضياعهم ومزارعهم ، بعد أن يرهنوها أو يبيعوها ، ثم ينزحون إلى المدن ليعيشوا عيشة السرف والترف التي قلدوا فيها أغنياء الفرنسيين.

* * *

٢ — رجال الدين : أما الطبقة الثانية ، وهي طبقة رجال الدين ، فقد احتلت مكاناً عظيماً في الحياة الاجتماعية منذ عرفتها البلاد البولندية ، وكانت لها أملاك شاسعة وضياع كبيرة ظلت تنمو وتزداد ، بما كان يمنح أو يوهب لها ، حتى خشي على أملاك الدولة كلها أن تصبح في يد الكنيسة ، فاستصدر قانون خاص سنة ١٦٦٩ يحظر على الكنيسة أن تحوّل أملاك أحد إليها أو يعاقب بنزعها منه وضمها إليها .

وكان للقسس كراسي في مجلس الشيوخ ، وكان العضو منهم يعين فيه بواسطة الملك ، ويصدق البابا هذا التعيين ، وقد بلغ رئيس أساقفة ( جينزن ) رياسة هذا المجلس ، كما أنهُ كان ( قائمقام ) الملك في فترة خلو العرش من أحد الملوك .

ولكن القسس كانوا خاضعين للقانون المدني فيحاكمون أمام المحاكم الأهلية ، وإذا اتهم

أحدهم بارتكاب جريمة قبضت عليه ( الشرطة ) المدنية ، ولكنه يحاكم أمام هيئة دينية ، فإذا ثبتت إدانته سلمته هذه الهيئة إلى السلطات المدنية تفعل به ما يشاء القانون .

ومع أن رجال الدين كانوا يتمتعون هناك بسلطة روحية عظيمة ، فإن طبقات أخرى من الشعب ممن كان لهم صوت أرقى من صوت الفلاحين ، لم تأذن لهم بالتوسع في امتيازاتهم خشية أن يستبدوا استبداد طبقة النبلاء .

وكان القساوسة حتى سنة ١٥٣٨ يؤذن لهم في شغل الوظائف المدنية العامة ، ولكن هذا التقليد أبطل وحظر بعد ذلك التاريخ ثم سُنّ قانون جعلهم يدفعون الضرائب التي يدفعها سائر أبناء الشعب الآخرين ، ما عدا النبلاء ...

وكان التعليم كله تقريباً في يد الإكليروس الذين أشرفوا على الجامعات ، وكانت مهنة الطب مقصورة عليهم .

***

٣ — المدنيون : أما المدنيون ، أو ( أبناء البلد ) على حسب اصطلاحنا الدارج ، فقد كانوا في الغالب تجاراً وصناعاً ، ولكن معظمهم كان من الألمان وبعض اليهود .

وذلك لأن العبودية التي فرضها النبلاء على الفلاحين والطبقة المدقعة من أبناء بولندة الخلّص وقيدوهم بها حظرت عليهم العمل إلاّ في حقول ساداتهم ، فصارت التجارة والصناعة في أيدي الأجانب .

وترتب على ذلك عدم وجود طبقة متوسطة من الشعب الأصيل كما تقدم ، فكان هذا سبباً من أسباب سقوط الدولة .

ولم يكن هؤلاء المدنيون خاضعين لقانون الدولة العام ، فكانت لهم قوانين خاصة في المقاطعات المختلفة ، ففي الجنوب كانوا خاضعين لقانون مجدبورج ، وفي الشمال لقانون كولم .

وكان الخصام قائماً بين هؤلاء المدنيين والنبلاء ، وقد حرم على النبلاء الاشتغال بالتجارة والصناعات ، ويبدو أن المدنيين — وكانوا كلهم تقريباً من الألمان واليهود — أرادوا احتكار التجارة والصناعة . ومنهم من تبوأ مركزاً كبيراً ، حتى إن أحد الرعايا الألمان دعا الملك كازيمير وكثيراً من الملوك إلى وليمة أقامها .

ولكن التجارة لم تفلح في بولندة طويلاً ، لأنهُ لم يكن هناك محاكم ودور للقضاء

تفصل بين النبلاء والمدنيين إذا قصدوا إليها للحكم في مطالبة بدين أو حقوق مالية ، كما رأينا في حادثة الحداد السابقة . فقد تسلط النبلاء على كل شيء ، وكانوا يملكون مدناً بأكملها .

وفي سنة ١٧٦٨ سنّ قانون للحد من فساد هؤلاء النبلاء وجرائمهم الكثيرة ، ولكنه عوّضهم عن هذا ، في الوقت نفسه ، بأن جعل لهم الحق في مضاعفة خدمات المدنيين لهم فلم يكن هذا القانون إلاّ ذرّاً للرماد في العيون !

***

٤ — الفلاحون : وتأتي بعد ذلك طبقة الفلاحين ، وهي تنقسم قسمين :

ا — الكميتون : أي الفلاحون الأحرار . هؤلاء كانوا — كما أطلق عليهم — أحراراً إلاّ في وجوب تأديتهم خدمات معينة .

ب — الفلاحون العبيد : وهؤلاء كانوا ملكاً مشاعاً لساداتهم النبلاء ، وليس لهم حقوق مطلقاً .

أما ( الكميتون أو الـ ( كميتسي ) ، كما كانوا يسمون في اللغة البولندية ، فقد جعلوا يفقدون حريتهم على مرّ الزمن ، وصاروا مثل الآخرين لا يبرحون الأرض التي يفلحونها .

وكان النبلاء يهربون من دفع الضرائب للدولة ، ولكنها كانت تجبى من الفلاحين فقط ، حتى ساءت أحوالهم . ولم يكن الفلاحون الأحرار يملكون من الأرض إلا أحد نوعين :

الأول — قطعة يرثها الفلاح ، ولا تزيد على ثلاثين فداناً قطعاً وتسمى ( الفالكا أو اللان ) ، ويكون الفلاح قد ورثها عن أحد من أسرته .

الثاني — قطعة أرض يؤجرها النبيل للفلاح لبضع سنوات ، وكانت السنة الزراعية تنتهي عادةً في عيد الميلاد من كل عام .

ولكن النبلاء — مع هذا — كانوا يسطون على أراضي الفلاحين المملوكة ويغتصبونها منهم ، والفلاح الذي كان يعترض أو يتظلم يتلف النبيل أرضه ، وكانت للنبلاء في ذلك آلاف الطرق . . !

ومع أن الملك كازيمير العظيم كثيراً ما حدّ من جور هؤلاء النبلاء ، فقد خلفه من سنّ قانوناً يحرم على أي فرد عامي — من الطبقة الوضيعة — أن يمتلك ارضاً !

وكان محرَّماً كذلك على التجار والصناع أن يمتلكوا أرضاً ، وهكذا صارت ( الأطيان ) كلها تقريباً ملكاً للنبلاء !

ويقول المؤرخ اليولندي ( ليلفل ) : إن هذا الظلم أدّى بالشعب إلى الثورات والمطالبة بالحرية الشخصية ، فقد كان محظوراً على أي فلاح أن ينتقل من مكان إلى مكان إلاّ باذن من سيده ، أي صاحب الأرض التي يعمل فيها ، فإنهُ عبد من عبيده !

وقد كان محظوراً على حكام المقاطعات الأخرى أن يأذنوا لأي فلاح من مقاطعة أخرى بدخول مقاطعاتهم إن لم يكن يحمل أوراقاً رسمية من مقاطعته الأولى تخوّله دخول المقاطعة الثانية ، ومن كان يحاول الانتقال من مكان إلى مكان من غير جواز يُعدّ هارباً أو طريداً . . .

ومهما يبلغ الظلم بأحد الفلاحين فإنهُ لا يستطيع معارضة ظالمه (النبيل) إلاّ إذا وجد نبيلاً آخر يحميه ويدفع عنه ، ولكن مثل هذا كان كثيراً ما ينتهي في جانب مصلحة النبيل الأول فيضيع الفلاح بينهما ، إذ يفضل النبيل خصمه النبيل على عبده الفلاح الذليل !

ولم ينصف الفلاحين إلاّ الملك (كازمير العظيم) الذي اعترف بحريتهم الشخصية، وحرّم على النبلاء اغتصاب أرضهم الموروثة ، وجعل للفلاحين الحق في ترك سادتهم متى شاءوا .

ويقول المؤرخ اليولندي كروس إن الطبقات الدنيا في پولندة كانت مثلها في روسية ، تعيش في عبودية مطلقة ، وكان الذي يقتل فلاحاً يدفع غرامة مالية زهيدة ، وكان للسيد الحق في قتل عبيده أو الإبقاء على حياتهم . وقد ظل هذا التقليد قائماً حتى سنة ١٧٦٨ ، حيث أعلن وقتئذٍ أن قتل فلاح جناية كبرى ، ولكن صعوبات كثيرة اعترضت هذا القانون ، فلم تكن تثبت إدانة قاتل إلاّ إذا شهد عليه اثنان من النبلاء ، أو أربعة من الفلاحين ، باعتبار شهادة النبيل الواحد بشهادة اثنين من الفلاحين !

وإذا لم يشهد هؤلاء على قاتل حكم عليه بغرامة مالية فقط . وكان القانون الأسبق يحكم على القاتل بغرامة قدرها عشرة (مارك) أي ما يقرب من ستين قرشاً مصريًّا !

وكان النبلاء ينظرون إلى الفلاحين نظرتهم إلى الحيوانات أو أقل ، وقد كتب المؤرخ الرحالة الفرنسي ( أوتفي ) عن هذه القبضة فقال : إنه كان يراجع بعض النبلاء في معاملتهم للفلاحين قائلاً إن هذه المعاملة لا تتفق مع الروح المسيحية ، فيقولون إن هؤلاء الفلاحين أقوياء ولكنهم لا يشتغلون . ولا يستعملون قوتهم إلاّ كما نستعملها نحن في قتل جيادنا ،

وإن هؤلاء الفلاحين يخدموننا بدلاً من الحيوانات .

وقد ذكر مثل هذا الرحالة ( بيتر موندي ) ، وزاد أن الفلاحين يعيشون كالعبيد أو الحيوان ولا يسمح لهم بشيء من الغذاء إلاّ ما يمسك الرمق .

يقول الأستاذ مورفيل: ( إن بولندة تألمت كثيراً واحتملت كثيراً وتعذبت كثيراً على يد هؤلاء النبلاء ، ولا نود أن نسترسل في نقد حياتها القديمة وهي في محنتها الحاضرة ( القرن التاسع عشر ) ، ولكن عدالة التاريخ يجب أن تظل باقية قائمة ، وان نفضلها على العواطف الشخصية ، ولهذا يجب أن ننتقل إلى صفحات « كوكس » ) وهو ينتقل إلى هذه الصفحات التي ينتقد فيها القرى البولندية نقداً قاسياً ، أشبه بالنقد الذي نوجهه إلى قرانا المصرية القذرة الحقيرة ! . فلم يكن السائح الإنجليزي يجد إلاّ فنادق صغيرة يملكها ( اليهود ) ، كما نجد اليونانيين « الأروام » في قرى مصر البعيدة أو القريبة ينشئون المقاصف والمشارب الصغيرة ! ولكن المسافر كان يضطر أن ينام مع الجياد والأبقار والخنازير . . .

يقول كوكس : ( إننا لم نكن نجد في بيت القروي إلاّ حجرة واحدة تنام فيها أسرته كلها ، ولم نكن نجد من الطعام إلاّ بيضاً ولبناً ، وغالباً ما كنا نفقدهما أيضاً فلا نعثر عليهما ، وكان فراشنا تبناً نبسطه على الأرض ، وما كان أسعدنا إذ نجد بعضاً من هذا التبن نظيفاً ! . والقرويون فقراء مدقعون ، خاملون ، وضعاء ، وقد بدوا لنا أيأس وأشقى ناس وقع عليهم نظرنا في أية بقعة من بقاع الأرض جبنا آفاقها. وكانوا عندما يروننا يلتفون حولنا ويسألوننا إحساناً ، متوسلين إلى ذلك بمختلف الأساليب والإشارات ) .

ويصف ( أوتفي ) ، الذي تقدّم ذكره ، الأكواخ البولندية فيقول : إن أثاث البيوت البولندية يتكوّن من أوانٍ طينية أو خشبية ، أما فراشهم فيصنع من القش والريش ، وليس عليه غطاء ما !

ولم يكن لأفرانهم ومواقدهم مداخن تصرف الدخان ، فينطلق هذا في البيت فيمتلئ به ، ولم يكن لبيوتهم منفذ غير نافذة صغيرة ترتفع عن الأرض أربع أقدام ، وعندما يدخل الناس أكواخهم يضطرون إلى الانحناء وهم داخلون حتى لا يختنقوا بالدخان الكثيف الذي يقابلهم ، ولم يكن في استطاعة أحد أن يرى السقف من كثافة الدخان ، ومع هذا فإنه من العسير أن ينام أحد في الشتاء إلاّ إذا أوقد ناراً بجانبه !

أما في الصيف فلا تفتح النافذة مطلقاً مهما يكن الجو حاراً ، كما هي الحال في الفنادق

الصغيرة التي يملكها اليهود ؛ حتى إن السائح يفضل أن ينام في ( الإسطبل ) ولا ينام في الحجرة الداخلة المخصصة للمسافرين ، فهي في حال من القذارة لا تقاس بجانبها حظائر الخنازير .. أضف إلى ذلك أن تلك الحجرة في الفندق كانت تستعمل للمسافرين ، ولأفراد أسرة صاحب الفندق جميعاً أن يناموا معهم فيها ، على القش الذي لا يستبدل إلاّ إذا تفتت وتآكل ! [١] .

وكانت هذه المساكن ، بل جميع مساكن البولنديين عامة ، مصنوعة من الخشب تتألف من طبقة واحدة .

* * *

٥ — اليهود : ثم تأتي طبقة اليهود .

وكان هؤلاء منتشرين في بولندة انتشاراً واسعاً، وهم يؤلفون عنصراً هامًّا قويًّا بها ، وقد دخلوها في عصور متقدمة ، ومنحهم الملك كازيمير العظيم ( كاچيميش )، امتيازات كثيرة.

وكان هذا الرجل العظيم حقًّا يعطف على الطبقات المملوكة ، فهو الذي أنصف الفلاحين ، كما تقدم ، وعطف على اليهود ، ومنحهم تلك الامتيازات الكثيرة . أما اليهود فقد أمدوه من جانبهم بالأموال الكثيرة قروضاً ، ليستخدمها في حروبه ، مع أنهم كانوا أوضع طبقة في بولندة .

ولعل الملك كازيمير أخطأ في تقديره لهم خطأً كبيراً أو قليلاً ، فقد استأثروا بتجارة المملكة كلها واحتكروها تقريباً بعد ذلك .

وقد تحدث عنهم المؤرخ البولندي لنجنخ ، الذي عاش في أول القرن الثامن عشر ، فذكر أنهم دخلوا بولندة واشتغلوا خدماً للنبلاء ، وبعضهم أنشأ تلك الفنادق الحقيرة القذرة هناك ، وقد تقدم ذكرها .

وقد عطف عليهم كذلك الملك سوبيسكي ، فانتشروا في بولندة ولا يزالون يؤلفون جزءاً كبيراً من سكانها إلى اليوم .

ومع أنهم بلغوا ذلك الشأو فإنهم كانوا كما تقدم يُعدّون من الضالين ، وينزلون منزلة الطبقة السفلى في بولندة ، وكانوا مرغمين على أن يضعوا شارات صفراً لتميّزهم عن الفلاحين البولنديين ...

---

(١) وكانت هذه حال كثير من شعوب أوربة في ذلك الزمن ، ولكنها تقدمت ، وحالة الاغلبية من فلاحي مصر أشبه بتلك الحال ، ولم تتقدم شيئاً !

# المدرسة الأمجدية

للدكتور أسعد طلس
من أعضاء المعهد الفرنسي بدمشق

## لمحة تاريخية

المدرسة — التربة الأمجدية منسوبة إلى الملك الشاعر بهرام شاه بن الملك المنصور فرخشاه بن شاهنشاه المشهور بالملك الأمجد.

وبهرام شاه هذا تولى بعلبك بعد وفاة أبيه سنة ٥٧٨ هـ ولم يزل أميراً عليها حتى قدم الملك الأشرف موسى بن الملك العادل إلى دمشق فملكها في سنة ٦٢٨ وأراد انتزاع بعلبك من صاحبها الأمجد فرفض هذا أول الأمر النزول عنها، ثم اضطره ابن عمه فأعطاه الزبداني وما إليها وانتزع منه بعلبك وهو كاره وكان ذلك في سنة ٦٢٧، ويظهر أن الملك الأمجد سكن بدمشق في دار أبيه مدة قصيرة ومات في سنة ٦٢٧ أو سنة ٦٢٨ قتله غلام مملوك له [1] ويظهر أن الملك الأشرف موسى كان قاسياً في معاملته الأمجد وآل بيته فقد امتلك أموالهم وتصرّف فيها تصرّف المالكين. فقد حدّثنا ابن كثير في حوادث سنة ٦٣٥ أن الملك الأشرف وقف دار فرخشاه التي يقال لها دار السعادة وبستانه بالنيرب على ابنيه [2]. فلا شك عندنا في أن الملك الأشرف تملك أملاك الأمجد وتصرّف فيها وحرم أبناءه إياها وإلاّ فكيف يتصرف فيها وأبناء صاحبها أحياء. وقد يقال ربما باعوه إياها ولكن ما عرف عن قسوة الملك الأشرف يجعلنا نستنتج هذا الاستنتاج.

وكان الملك الأمجد شاعراً مجيداً بل هو أشعر ملوك بني أيوب، وكان له ديوان شعر، وقد أورد له ابن شاكر الكتبي وابن كثير بعض مقطعات من شعره منها قوله:

يميناً لقد بالغت يا خل في العذل ... وما هكذا فعل الأخلاء بالخل
إذا أنت لم تسعد خليلك في الهوى ... فذره فقد أمسى عن العذل في شغل
ولا تحسبنّ اللوم يذهبُ وَجْدَهُ ... فلومك بالمحبوب يغري ولا يسلي
وما كنتُ ممن يُذهب الوجدُ حزمَه ... لعمرك لولا أسهم الأعين النجل.

قال بدران نقلاً عن النعيمي: إن الملك الأمجد كان أوصى بوصية كبيرة ثم قتل فقام بعده

---

(١) انظر ترجمته في المعلمة الاسلامية النص الفرنسي ٥٩٩/١ والبداية والنهاية لابن كثير ١٣/ ١٣١ وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ١/ ٨١ ومنادمة الاطلال لبدران ١/ ١١٣ (٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٤٧

ولده الملك المظفر نور الدين عمر فعمر تلك المدرسة بمال الوصية وجعلها على الحنفية والشافعية، وكانت في موضع لطيف جداً لها شبابيك تطل على الميدان الأخضر المسمى بالمرجة الفيحاء، وتظهر للواقف بالميدان الأخضر قصراً بديعاً لأنها تعلو عنه علواً كثيراً، وإلى جانبها كانت المدرسة الفرخشاهية

وقد ذكر العلموي المدرسة الأمجدية في المدارس الشافعية وقال : إنها في الشرف الأعلى وأول من درس فيها رفيع الدين الجيلي ، ثم تعاقب عليها مدرسون كثير منهم أمين الدين ابن عساكر وجمال الدين المحقق الفقيه الطبيب بالمارستان العوزي ( — ٦٩٤ ) (١) والسيد ناصر الدين نقيب الأشراف ( — ٨١٤ ) (٢) وابن قاضي شهبة المؤرخ الدمشقي المشهور وابن قاضي عجلون(٣) . قلت: ويظهر أن هذه المدرسة — التربة قد عاشت مع شقيقتها المدرسة الفرخشاهية، فاننا لم نعثر لها على خبر في تواريخ دمشق المتأخرة . وممن كتبوا فيها : النعيمي في تنبيه الطالب والعلموي في مختصره وبدران في المنادمة .

## وصف بنائها

تقع هذه المدرسة — التربة لصيق المدرسة الفرخشاهية التي سنصفها لك وهي في حالة أحسن من الفرخشاهية . وقد ساءت حالتها في العصور الأخيرة حتى قال بدران : « إن هذه المدرسة قد أصبحت اليوم بستاناً كالمدرسة الفرخشاهية، ومن يفتش ير موضع هذه المدارس التي كانت بالشرف الأعلى دوراً وحدائق (٤) » ويظهر أن الشيخ بدران مبالغ بعض المبالغة ، فإن القبة ما تزال كما كانت في عهدها الغابر ، إلا أن علائم الشيخوخة بادية عليها ولم ينتقص الناس منها شيئاً . وإنما أتى الخطأ الشيخ بدران لأنه ظن أن المدرسة غير التربة وأنها بناء مستقل مؤلف من غرف وقاعات وأبهاء مع أن هذا ليس شرطاً في المدارس، فقد تكون المدرسة عبارة عن قبة التربة ليس غير، وهذا النوع من المدارس هو الذي اصطلحنا على تسميته باسم — التربة المدرسة — وهذا النوع من المدارس كان فاشياً جداً في العصر الأيوبي والعصور التي جاءت بعده . وتحت هذه القباب كانت تقام الدروس وتحلق الحلقات ونحن نشاطر السيد Sauvaget رأيه في أن هذه المدرسة — التربة والمدرسة الفرخشاهية أيضاً لم تكونا أكثر من هاتين القبتين ومن حولها صحن فيه بركة ومرافق . وقد بقي إلى أيامنا هذه شيء من الصحن، والبركة كذلك ما تزال باقية، وقد تعدى الناس على الصحن فاختلسوا قسماً كبيراً منهُ .

---

(١) انظر ترجمته في ابن كثير ١٣ / ٣٤٢ (٢و٣) انظر ترجمته في .Y. A سنة 1894 ص ٤٥٩
(٤) منادمة الاطلال ١ / ١١٢

أما مخطط هـذه القبة فهو كمخطط القبة الفرخشاهية : أقيم على أرض مربعة الشكل مساحتهـا ( ٦٫٥٠ × ٦٫٥٠ ) من الأمتار ، وهي بناء مربع الشـكل يحيط به حيطان من الحجارة الضخمة من أرضه في إفريز القبة ، وقد كسيت حجارة الحيطان من الخارج بقشرة من الجص الأبيض ما يزال قسم منها باقياً . ومن فوق هـذه الحيطان إفريز قامت فوقه أقواس القبة الأربع التي سنصفها لك في كلامنا على القبة الفرخشاهية ، لأن هذه القبة مثلها تماماً ، ومن فوق هـذه الأقواس يقوم السطح الأصفر الذي تقوم فيـه الست عشرة كوة ، واحدة مفتوحة وأخرى صماء ، وهذه الـكوى الصمّ شباك صغير مربع من فوقه نقش غائر على شكل مروحة أو صدفة لها خمس تخاريم . وهذا الشـكل من الـكوى هو شـكل عراقي بحت جاء الشـام في العصر الأموي ومنه انتشر في العـالم الاسلامي حتى بلغ تونس وجزيرة صقليـة [1] ومن فوق هذه الـكوى تقوم قبة على شـكل نصف دائرة وفي هـذه القبة طاقات صغيرة جداً تساءل المسيو Sauvaget عن فائدتها فقال لعلها للتنوير ، ثم قال إن هذا تعليل بعيد لصغر حجمها فان قطر الواحدة لا يزيد على عشرة سنتيمترات ، ثم قال لعلها للتهوية ولـكنهُ استبعد هـذا أيضاً لعلوها علوّاً شاهقاً ، ثم قال فلعلّ هـذا نوع من الحيل الشرعية لجأ إليه البناة لئلاَّ يخالفوا الإشارة النبوية التي تنهى عن بناء القبـاب على القبور فكأنهم بهذه الخروق يوهمون أنهم لم يبنوا قباباً تامة . ثم قال ولـكن هذا التعليل غير كاف وهو في الوقت نفسه يثير إشكالات أخرى ، فلعلّ دراسات أخرى تكشف حقيقة هذه الطاقات أو الخروق وتبين الفوائد والعلل التي حدت بالبناة أن يفعلوها [2] .

قلت : أما أنا فأستبعد هذا التعليل الثالث كل الاستبعاد ، فإن هذه الحيلة سخيفة وبعيدة من المنطق ، فلا يظن أن قوماً كالأيوبيين يلجأون إليهـا ولا سيما أن أمامهم قبة القبر النبوي وغيرها من القباب وليس فيها شيء من أثر هذه الطاقات أو الخروق . وإنما الذي نراه أنهم إنما جعلوها للتهوية لأنها في مكان عال يسهل معه توريد الهواء وتصديره .

والقبة بصورة عامة حسنة الحالة خارجها وداخلها ، وتمتاز عن القبة الفرخشاهية ببقاء القبر فيها ، وهو فرشة من الحجارة الضخمة حجمها ( ٢٫٢٠ × ١٫٢٥ × ٠٫٨٠ ) ومن فوق هذه الفرشة فرشة أخرى من حجارة ولـكنها مسنمة ، وقد جعل لها إطار لينقش عليه شيء من الـكتابة ولـكنهُ لم يُفعل . وليس في حيطان هـذه القبة ما يدل على أنهـا كانت منقوشة أو مزخرفة .

(١) انظر G. Marçais, Manuel I, 32. Der Islam V, 358.
(٢) انظر les Monuments I, 40

# المآصر في بلاد الروم والاسلام

لميخائيل عوّاد

— ٧ —

## (ب) مأصر الإسكندرية

الإسكندريّـة أجلّ ثغور الديار المصريّـة وأعظمها شأناً، فهي تطلّ على نحر بحر الروم، وإليها تهوي ركائب التجّـار في البرّ والبحر، وتمير من قماشها جميع أقطار الأرض، وهي فرضة بلاد المغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم والشام.

أمّـا أهلها فهم على يقظة من أمور البحر والاحتراز من العدوّ الطارق، ومع هـذا لم تَنْجُ من هجمات العدوّ الذي انتابها غير مرّة، واجتاح أهلها، وقَتَلَ وسَبَى، فكان ذلك سبباً محتوماً للعمل على تحصينها تحصيناً منيعاً من البرّ والبحر، فنصب المأصر ذو السلاسل الحديد على فم مينائها، ورتبت المقاتلة على أبراجه.

والذي يؤسف له أنّ أنباء هذا المأصر ضئيلة المقدار في المراجع القديمة، فهذا القلقشندي (المتوفّى سنة ٨٢١ هـ) أشَارَ إشَارةً خفيفة إليه في عرض كلامه على آلات الحصـار، فقال: « . . . وقد رأيتُ بالإسكندريّـة في الدولة الأشرفيَّـة، شعبَان بن حُسَيْن في نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرّام رحمه الله، بها مدفعاً قد صُنِع من نحَاس ورصاصٍ وقيّـد بأطراف الحديد، رُميَ عنه من الميدان بِبُنْدُقَةٍ من حديدٍ عظيمة محماة، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر، وهي مسافة بعيدة »[1].

وقد تدارك المرحوم علي باشا مبارك بعض الخلل فأفاض في صفة الإسكندريّـة، وأشار غير مرّة إلى برج سلسلة المأصر في مينائهـا. ودونك بعض ما دوّنه، قالَ في أسوار مدينة الإسكندريّـة: « قد استدلّ من البحث الذي أجراه العالم الفاضل محمود بك الفلكي على جدران السور القديم الذي كان لهذه المدينة أن عرضه كان خمسة أمتار .... وقد تتبع أثره من ابتداء برج السلسلة الذي كان يُسمَّى قديماً (رأس لوشباس) إلى الحدرة . . . . . . . وقد ظهر أنّ السور من برج السلسلة إلى الميناء الغربية كان يتبع مسير الساحل .. ».

---

(١) صبح الاعشى (٢ : ١٣٧)

ثمّ قالَ : « .... وكان مِن ضمن الحارات العرضية شارع يخرج مِن برج السلسلة بسبب أنّـه كان به سراية ملوكية .... ، إنَّ أراضي المدينة لم تكن مستوية ، وكانت منقسمة بطبقة الأرض إلى قسمَيْن بوادٍ يختلف عرضه .... وابتداء الوادي المذكور من برج السلسلة ، ويمتدّ إلى بحيرة مربوط .... » .

ولدى كلامه على جزيرة فاروس قال : « كانت هـذه الجزيرة في الأيام الخالية محصنة بأسوار وأبراج في دوائرها.... والشعب الممتد في البحر بين برج السلسلة والجزيرة مِن جهة وبين العجمي والجزيرة مِن الجهة الأخرى ، فدلَّ ذلك على أنَّ هـذه الجزيرة والشعب المذكورة أصلها مِن الساحـل وانفصلت منه بحادثة حدثت في الأزمان العتيقة .... » .

ثم واصل كلامه على الميناء الشرقية التي يطل عليها برج السلسلة ، فقال إنَّ « هذه الميناء هي التي مشهورة ( كذا ) في الأيام العتيقة ، ويسميها الإسكندرانيون الآن بالميناء الجديدة . وكان مدخلها ضيقاً وبه شعب وصخور كثيرة ، منها ما يظهر على سطح الماء ، ومنها ما هو مغطى به ، وكان في داخلها سرايات كثيرة للملوك ، بعضها مبني على الصخور الطبيعية ، وبعضها بني فوق صخور حادثة ، وكان ساحلها من ابتداء برج السلسلة إلى آخر السبعغلوات ( الجسر المسمى هيبتاستاد ) مزيناً بالسرايات الفاخرة والمباني البهجة . وقد عثر محمود بك أثناء بحثه عن آثار اسكندرية القديمة على بواقٍ من الجسر المذكور . وتلك البواقي متجهة من برج السلسلة إلى جهة مدخل الميناء ويمتد إلى مائتي متر تقريباً ، ويظهر أن الحفر الموجودة الآن في مدخل الميناء كانت من ضمن الجسر . فان كان كذلك ، كان طول الجسر من ابتداء برج السلسلة نحو ٩٠٠ متر في الطول و ٦٠٠ في العرض ، ومن هذا يعلم أنَّ الميناء كانت مقفولة من جميع الجهات ما عـدا الفم الذي كانت السفن تدخل منه ، الذي هو من جهة المنار وعرضه ٦٠٠ متر ، والظاهر أنه كان منقسماً إلى قسمين ، أحدهما صغير وهو الذي كان من جهـة المنار ، وقدره ١٠٠ متر تقريباً ، والآخر عرضه ٢٠٠ ، وكانا منفصلين بصخرة وهي الآن تحت الماء بقدر ٧ أمتار . وفي كتاب ماني الفرنساوي ( ألفهُ سـنة ١٧٣٥ وهو يبحث في مصر ) ، أن الفتحة الـكبرى كانت بقرب المنار وتنتهي بصخور بني فوقها قلعة ومنارتان ، والفتحة الثانية كانت بعد هذه ، وكان على نهايتها من جهة برج السلسلة منار ثالث انهدم ولم يبقَ له أثر في وقته ، وكانت المراكب تمرّ بين الثاني والثالث من المنارات ، ولـكنه لصغره وكثرة صخوره كان لا يـستعمل إلاّ للمراكب الصغيرة ، والآخر هو الذي كان يكثر استعماله ، وكانت الفتحات المذكورة تقفل بسلاسل من الحـديد ، وقد عثر محمود بك أيضاً على آثار الميناء الصـغيرة التي غربيّ برج السلسلة

ومتصلة بهِ ... وظنَّ أنها الجزيرة التي كان فوقها سراية التيمنوم وكان يتوصّل منها إلى البرّ بجسر في منتصف المسافة التي بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات . . . ، والمسافة الكائنة بين برج السلسلة وجسر السبع غلوات طولها ٢٢٠٠ متر ، وكان بهِ السرايات الملوكية ومباني البحرية . وكانت إحدى السرايات المسماة بالسراية البرانية محل برج السلسلة ، ولعلَّ سبب تسميتها بذلك خروجها عن الميناء ...، وكان بقرب السراية من جهة الشرق ما بين برج السلسلة والمسلة برج عظيم السعة ... ، والسرايات الأخر كانت بين هذه السراية وبرج السلسلة ... »

وفي عرض كلامه على خليج الإسكندرية قال إنّ « هـذا الخليج كان محاذياً لسور المدينة القبلي ... وكان على الخليج القديم ثلاث قناطر ... وكانت القناطر المذكورة على أبعاد متساوية ، الأولى في جهة البلد ...والثانية في مقابلة الشارع الموصل لرأس السلسلة... »(١)

## ( ج ) مأصر شيديا

لم نعثر على نبإٍ صريح يذكر وجود مأصر في هذه البليدة ، ولـكنْ إشارة خفيفة ذكرها علي باشا مبارك أثناء كلامه على الإسكندرية ، قال إنَّ شيديا « كانت على بعد أربعة وعشرين فرسخاً من إسكندرية بناءً على ما ذكره استرابون وغيره ، وكانت كثيرة العمران تقرب من أن تعدّ من المدن لكثرة أهلها . وكانت مركزاً لأخذ الجمرك من المراكب الحادرة والمقلعة ولذا قال استرابون إنهُ كان هناك قنطرة من المراكب على النهر ، واسم القرية مستعار من اسم القنطرة . . . » (٢)

## ( د ) مأصر السويس

السويس بليد متوسّـط ساحل بحر القُـلزم ، وهو ميناء أهل مصر إلى مكة والمدينة ، بينه وبين الفسطاط سبعة أيام . وأخبار مأصره ضئيلة ، وقد انفرد المقريزي بالتلميح إلى برجه في كلامه على حوادث سنة ٥٧٧ هـ . قال : «في ( شهر ) ربيع الأول طرق الفرنج ساحل تنّيس ، وأخذوا مركبًا للتجار ، ووصلت مراكب من دمياط كانت قد استدعيت من خمسين مركبًا لتكون في ساحل مصر ، وكمل بناء برج بالسويس يسع عشرين فارساً ، ورتّب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد التي يجلب منها الشبّ إلى بلاد الفرنج ، وأمر بعمارة قلعة تنّيس...»(٣)

أفـكان هذا البرج من الأبراج البرية التي تشاد لحفظ الطرق وتأمينها من غائلة العدو ، أم من أبراج المآصر البحرية التي مرَّ بنا خبرها في تضاعيف بحثنا ؟ .

(١) خطط مصر الجديدة (٧ : ٣٥ — ٤٥) (٢) خطط مصر الجديدة ( ٧ : ٤٥ — ٤٦ )
(٣) السلوك ( ١ : ٧٢ )

# عمر الخيام كما أعرفه

## — ٨ —

### بعث الخيام إلى الشرق

### في غير مصر

لمحمود المنجوري

---

أما الجهد الذي بذلته في هـذه الناحية الأقطار العربيـة الشقيقة ، فللعراق فيه السهم الموفق ، فقد تقدم إلى الرباعيات الشاعر السيد محمد الهاشمي وترجم نحو ٣٠٠ رباعية في سنة ١٩٢١ كما ذكر الأستاذ أحمد حامد الصراف في مقدمة كتابه عن عمر الخيـام الذي نشره في سنة ١٩٣١ ، وقد راجعت الأمثلة التي نشرت من هذه الرباعيات فاذا بهـا تطابق الأصل الفارسي دقة ورقة وسلاسة . وإليك مثلاً منها :

يا إلهي إذا جنيتُ فإثمي  يا إلهي على شبابي وجسمي
وعلى نفسي الحزينة جُـرمي  أنا جانٍ رجوت عفواً وصفحا
منك قد غَـرَّه رضـاك نجـــارا

يا إلهي أوعدتني بعـذاب  أنا منه في حيرة واضطراب
أين ؟ قل يا ربي مكان العذاب  حيثما كنتَ لا عذابَ ، فأنَّـى
هو إذ أنتم بكل مكان

جيئتي في الدنيا أذى واضطراب  وبقـائي تحير وارتيـاب
وبقَسْـرٍ يكون مني ذهاب  أي قصـدٍ من جيئةٍ وبقـاء
وذهابٍ ؟ قد ضَلَّـت الألبـاب

بيدٍ مصحفٌ وكأسٌ بأخرى  تارةً بالحـــلال آتي ومَـرَّا
بحرامٍ آتي فأحمل وزرا  لست تحت السماء بالكافر الحـ
ـرِّ ولا كنت كامل الإسـلام

ثم ترجمها نثراً الأستاذ الصراف في سنة ١٩٣١ ترجمة اشتملت المتن الفارسي تقابله النصوص العربية نثراً، وقد ترجم منها ١٥٣ رباعية نقلها عن نسخة الدكتور فريدريخ رُوزن وراجعها بنسخة الكاتب التركي المعروف حسين دانش. والترجمة دقيقة صادقة تطابق الفارسية نصًّا ومعنىً تمام المطابقة، وهي آية الترجمات النثرية وأدق ترجمة ظهرت لرباعيات الخيام، في اللغة العربية من حيث الحرص على أداء المعاني كما أرادها الخيام. وإليك نماذج منها :

« قوم يتفكرون في المذهب والدين، وآخرون محتارون بين الشك واليقين. وإذا بمنادٍ يهتف من عالم الغيب : أيها الغافلون الطريق لا هذا ولا ذاك » .

« نحن يامفتي المدينة أصلح منك عملاً، ومع كل هذا السكر أصحى منك، إنّا نشرب دَمَ العنب، وأنت تشرب دم الناس. فأنصف ! أينا أشد سفكاً للدماء ؟ »

وترجمها شعراً الشاعر العراقي السيد أحمد الصافي النجفي ونشرها مع المتن الفارسي في ٣٥١ رباعية عن نسختين، واحدة طبعها في طهران السيد رشيد الياسمي، وثانيتهما قديمة قابلها بنسخة الدكتور فريدريخ روزن. وإليك مثلاً منها :

بدا الصبح وانشقَّ جيب الظلام فقم ودع الهم واحسُ المدام
فكم من صباحٍ سيبدو لنا ونحن نيامٌ ببطن الرّغام

***

إلهي قل لي من خلا من خطيئةٍ وكيف تُرى عاش البريءُ من الذنب
إذا كنت تجزي الذنب مني بمثلهِ فما الفرق ما بيني وبينك يا ربي ؟

***

أما ترجمة فيلسوف العراق المرحوم جميل صدقي الزهاوي فقد انطوت على المذاهب الفلسفية التي أرادها الخيام صريحة في غير مواربة، وهي صورة استطاع فيها جميل صدقي الزهاوي الثائر المتمرد أن يطبع في معالمها ما كان يجول في نفسه مما طابق دعوة الخيام من تمرد وتجديد وانقلاب وثورة. وإليك طرفاً منها :

اسقني الكأس فهي تعدل عندي ألف دين وألف ملكٍ وطيد
ليس من مرة سواها تساوي ألف حلو في كل هذا الوجود

***

أيها المفتي نحن أتقى وأصحى منك لا نقسو مثلما أنت تقسو
أنت تحسُو دَمَ الأنام وإنا لدم الكرم وهو في الجام نحسو

هذا هو الجانب الأكبر من الجهد الذي بذله العقل العربي في دراسة الخيام، وهو

جهد متواضع لا يكاد يوازن الجهود التي بذلها العقل الغربي في دراسته . ولقد استطعنا أن نطوف بالجهدين وأن نذكر منهما ما وصل إلينا حتى اليوم ، ولا شك أن الجهود العربية سوف لا تقنع بهذه المباحث المتواضعة وسوف تستأنف نشاطها في ضوء البحث العلمي الخالص ، فسيبقى الخيام حيًّا في أدبه وفلسفته ومعانيه ما بقي للأدب دولة ، بل إن الصور التي بعثها أدب الخيام ستبقى قوية ناصعة حاملة المعاني التي أحلته مكاناً رفيعاً بين الشعراء العالميين أمثال شكسبير وهايني وجوتيه وموليير ، فلقد جمع الخيام ما لكل من هؤلاء من خيال ونقد وتهكم ومزاح وفلسفة ودعوة إلى حرية الفكر والانقلاب .

## ﴿ ذيل ﴾

### مؤلفات الخيام (١)

١ — رسالة في الجبر والمقابلة نشرها الأستاذ ويبك F. Woepcke عام ١٨٥١ م باريز .

٢ — رسالة في شرح ما أشكل من مبادئ إقليدس — مكتبة متحف ليدن .

٣ — التقويم الجلالي ( زيجي ملك شاه ) جداول في الأرصاد الفلكية ، ذكره صاحب كشف الظنون .

٤ — رسالة في الصيد والذهب والخمر والحب والجمال ضمن كتاب نيروزنامه تاريخه سنة ٧٦٨ هـ

٥ — رسالة الكون والتكليف في الطبيعيات — رسالة فلسفية كتبها رداً على سؤال عبد الرحيم النسوي ونشرها محيي الدين صبري .

٦ — رسالة في كليات الوجود في الطبيعيات كتبها لفخر الملك بن المؤيد ، وقد ذكر رس أنه اطلع عليها بالمتحف البريطاني بلندن ، وأنه قرأ في صدرها الجملة الآتية : هذه رسالة فارسية لعمر الخيام .

٧ — رسالة في الاحتيال لمعرفة مقداري الذهب والفضة في جسم مركب منهما ، مكتبة جوتا بألمانية .

٨ — ميزان الحكم في العلوم ، لم نعثر عليه .

٩ — لوازم الأمكنة في العلوم الطبيعية ، لم نعثر عليه

١٠ — ضبط القواعد في تخريج المربعات والجذور التربيعية

١١ — رسالة في جواب ثلاث مسائل وفي كشف الحجاب عن ضرورة التضاد في العالم ، نشرها محيي الدين صبري مع رسائل أخرى بعنوان ( جامع البدائع )

(١) راجع نزهة الارواح والمستشرق فريدريخ روزن ورس وبرون والصراف

# باب المراسلة والمناظرة

## حول المجلد الخامس

### من كتاب الحيوان للجاحظ

قرأت ما دبجته يراعة المحقق الكبير الأب أنستاس ماري الكرملي فيما سبق من أعداد « المقتطف » تعليقاً على المجلد الخامس من كتاب الحيوان ، فزاد إعجابي بهذا المحقق الغيور على العلم . وبهرني ما شهد له الناس به من سعة الاطلاع ، والإخلاص في البحث والتحري.

وزرته في الدير بشبرا القاهرة ، فكدت أقضي العجب حين طلب إليَّ في صدق أن أجادله في ما أراه موضعاً للجدل، ثم هو يعيد عليَّ هذا الطلب ، فاذا العلم يرتفع ثم يرتفع في ناظري ، وإذا جلال العلماء يأخذني فيما أشهد من كرم هذا الخطير وتواضعه ، فالحق وحده يبقى وتفنى الزخارف والأباطيل .

— قال الأب :« نقل المحرر بعض عبارات إفرنجية تفسيراً لبعض الكلم العربية نقلاً عن الأجانب ، وكان يحسن بهِ أن يترجمها إلى العربية ليستفيد منها من لا يفهم الإفرنجية » ، ومثل بما جاء في الحاشية ١ ص ٣٥١ و ح ٧ ص ٤٦٨ .

أما ما جاء في الموضع الأول وهو : ... a stone

فقد أثبتُ ترجمته قبلهُ ، وهي : « المينا حجر يشبه حجر اللازورد تزخرف به الفضة».

وأما ما جاء في ص ٤٦٨ فهو : ... a privy فقد أثبت تفسيره قبل : « هو الكنيف الذي يكون مشرفاً على سطح بقناة من الأرض » .

— أخذ عليَّ حضرته استعمال « التنبيه » مكان « الحاشية » مع أن كلمة التنبيه أعرق في الاستعمال من الحاشية ، وأوسع مدلولاً . وقد عرف من مؤلفات الأقدمين « التنبيه » لأبي عبيد البكري ، على أمالي القالي . و « التنبيهات ، على أغاليط الرواة » لعلي بن حمزة البصري ، وهي حواشٍ وتعليقات وتصحيحات لبعض كتب اللغة ، وهذا نحو ما أنا بسبيله من إخراج مكتبة الجاحظ .

— وفي ص ٦١ قول الجاحظ : « وإذا انحط شرقاً أو غرباً صار كل شيء بين عينيك وبين قرصها من الهواء ملابساً للغبار والدخان والبخار وضروب الضباب والأنداء ، فتراها إما صفراء وإما حمراء » . قال الأب : « الصواب إما صفراً وإما حمراً ، أي أن كلاًّ من صفراً وحمراً بالجمع المنصوب غير الممدود . والمد من جهل النساخ » . وليأذن لي أن أقول إن العبارة سليمة ، وأن كلمتي « صفراء وحمراء » هنا ليست صفة للجمع ، وإنما هي صفة للشمس المفردة ، فإن الضمير في « انحط » عائد إلى « قرص الشمس » في كلام قبله ، وهو : « ولو أن دخاناً عرض بينك وبين قرص الشمس أو القمر لرايته أحمر . وكذلك قرص الشمس في المشرق أحمر وأصفر ، للبخار المعترض بينك وبينه » فالكلام في لون الشمس ، لا لون ضروب الضباب والأنداء .

وليأذن لي كرة أخرى أن أعلن له أن وصف الجمع المكسر بفعلاء المفرد صحيح لا ريب فيه ولا شية ، وقد سبق لي تحقيق قديم في ص ٢١٥١ من مجلة الثقافة ، توجهت به إلى الأب الجليل . ولست أملك أن أعيده هنا مكرراً ، ولكني أضيف اليه أموراً (١) جاء في اللسان تعليقاً على حديث : « ليس في الخضراوات صدقة » : « قياس ما كان على هذا الوزن من الصفات ألاَّ يجمع هذا الجمع ، وإنما يجمع به ما كان اسماً لا صفة ، نحو صحراء وخنفساء . وإنما جمعه هذا الجمع لأنهُ قد صار اسماً لهذه البقول لا صفة ، تقول العرب لهذه البقول : الخضراء » فتسمية البقول بالخضراء ، مسبوقة بوصفها بهذا اللفظ ، فهي وصف قد سمي به . (٢) ونظير هذه العبارة ما ورد في المادة نفسها من اللسان ص ٣٢٩ س ٣ : « والخضراء من الحمام الدواجن وإن اختلفت ألوانها ، لأن أكثر ألوانها الخضرة » (٣) وجاء في اللسان (٦ : ٤٢٥ — ٤٢٦) : « وحكى ابن الأعرابي ليل قمراء . قال ابن سيده : وهو غريب . قال : وعندي أنهُ عنى بالليل الليلة ، أو أنه على تأنيث الجمع » يعني أنه جعل الليل جمعاً لليلة ، كما تجمع البقرة على البقر ، والتمرة على التمر . فهذا نص قاطع أيضاً في أن جمع المكسر المؤنث يسوغ وصفه بفعلاء المفرد . ومما هو جدير بالذكر أن ابن سيده من أشد اللغويين تزمتاً وتحفظاً . (٤) وأما ما يذهب اليه الأب من أن ما يرى في الكتب القديمة هو من جهل النساخ ، فإن هذه حجة ذات وجهين ، إذ نستطيع أن نقول إن الناسخين أهملوا بعض الهمزات في هذه الكلمات ، إهمال تحريف أو إهمال رسم [(١)]

— وفي ص ٨٤ قلت : « البركان عامية ، مأخوذة من : volcano » وقال الأب : « والذي

(١) من قواعد علماء الرسم الأقدمين حذف الهمزة خطا ، إن سبقت بساكن ، فيكتبون نحو حمراء : « حمرا » . انظر المطالع النصرية ص ٨٢

عندنا أنها معربة ، وقد وردت في شعر ابن حمديس » وهو يشير بذلك إلى ما ورد في ديوانه ص ٢٤١ من قصيدة له يذكر فيها صقلية :

إذا عثَّنت فيها التنانير خلتها تفتح للبركان عنها منافسا

لكن ابن حمديس ليس ممن يحتج بعربيته ، وهو من شعراء القرن السادس الهجري ، توفي سنة ٥٢٧ . ولعلَّ أقدم نص وردت فيه هذه الكلمة ما جاء في التنبيه والإشراف للمسعودي المتوفى سنة ٣٤٥ . قال في ص ٥٢ : « وجزيرة صقلية وما يليها من جبل البركان ، ومنهُ تخرج عين النار التي تعرف بأطمة صقلية » والرجلان ليسا ممن يعتد بتعريبه .

— وفي ح ٢ ص ٩٥ : « فذا توفي حوالي سنة ٣٣٧ » أنكرها الأستاذ الأب ، وقال : إن الفصحاء من الكتبة لم يعرفوها . وليست هذه بحجة قاطعة في نفي صحة هذا الاستعمال ، فإن فصحاء الكتبة الأقدمين لم يعرفوا كثيراً من العبارات التي نتداولها اليوم ونديرها على المجاز والاستعارة والتمثيل . أفيمنع ذلك صحة تلك العبارات ؟ وفي اللسان : « رأيت الناس حواله وحواليه ، وحوله وحوليه » فهذه الألفاظ أخوات يجعل أحدها في مكان صاحبه .

— وفي ح ٩ ص ١٥٢ : « فيما عدا ( ل ) : فه . وأنى يكون له فم ؟ » وهو تعليق على قول الجاحظ : « إذ مرَّ العقعق والسِّخاب في منقاره » قال الأب : « ورواية الفم أصح من رواية المنقار » . واستشهد بقول صاحب المصباح إنهم قالوا : فم الحيوان . أما أن رواية الفم أصح من رواية المنقار فلم يأت لها الأب بدليل ، إذ لا ريب في أن الاسم الموضوع للشيء أولى من الاسم المستعار له ، والمنقار هو الموضوع للطير . وأما استشهاده بما جاء في المصباح من إضافة الفم إلى الحيوان وإدخاله بذلك الطير في جملة الحيوان ففيه نظر آخر ، إذ أن المراد بالحيوان هنا ما عدا الطير الذي خص به لفظ المنقار . ومما هو جدير بالذكر أن نسخة « ل » المشار إليها في التعليق هي أصح نسخ الحيوان وأقومها .

— وفي ح ٥ ص ١٥٨ كتبت في قول الشاعر : « معي كل فضفاض القميص » بقولي : « ( ط ) فقط فضفاض الثياب . ولم أجدها في مرجع » .ظنَّ الأب أني أستنكر العبارة ، وأنا إنما عنَيت أن نسخة ط من الحيوان أتت وحدها بهذه الرواية ، ولم أجدها في مرجع آخر من المراجع التي سقتها لتخريج هذا البيت ، وسردتها في ص ١٥٧ — ١٥٨ .

— وفي ح ٥ ص ٢٠٩ قال الأب : « وقد أخطأ استينكاس بتسميته بالإنكليزية : black partridge والحق أن استينكاس لم يسمه هكذا ، بل سماه : Francolin وأما الذي سماه Black Partridge فهو المعلوف في معجم الحيوان ص ١٨٤ .

— وفي ص ٢٧٩ : « تبت بلاد بالصين » قال الأب : «الصواب أنها بلاد واقعة في شرقيها

وليست منها » . وأمامي الآن مصور ( مصلحة المساحة المصرية ) للدولة وفيه رسم للدولة الصينية وهي تشتمل على بلاد الصين الأصيلة ، وبلاد المغول ، وبلاد التركستان الشرقية ، وبلاد تبت ، وموقع بلاد تبت في الغرب لا الشرق ، فليس في شرق الصين إلاّ بحر الصين .

— وفي ص ٢٩٩ ، قال الأب : إن « سم بريص » ليس من كلام العوام ، وإن الشاعر تصرّف في هذه الكلمة « تصرف الشعراء في الكلام من قصر وزيادة وتغيير » . وهذا التصرف الذي عناه له حدود وقوانين ، دوَّنها النحاة في أبواب الترخيم ، وقيدها الأدباء في ضرائر الشعر ، « وسم بريص » ليس على قاعدة من قواعد الترخيم ولا مما يجيزه الأدباء في ضرائر الشعر .

— وفي ص ٣٣٥ قال الأب في الكلام على « بيشة » : « والذي في حفظنا أنه من مواضع العراق » . وليس الأمر كذلك ، فإن بين بيشة والعراق بوناً شاسعاً . قال ياقوت : « بيشة من عمل مكة مما يلي اليمن ، من مكة على خمس مراحل ، وبهـا من النخل والفسيل شيء كثير . وفي وادي بيشة موضع مشجر كثير الأسد » .

— وفي ص ٣٦٦ قال الجاحظ : « وليس للكلب اسم سوى الكلب ، وللديك اسم إلاّ الديك » . فذهب الأب إلى أن الجاحظ يعني أن الديك ليس له اسم سوى الديك ، واستدرك على الجاحظ بكلمتي « العترسان والعترفان » ، والحق أن الجاحظ إنما يعني الأسماء الجامدة التي ليس لها أصل في الاشتقاق ، فهو يقول قبل هذا الكلام : « وللسنور فضيلة أخرى ، أنه كثير الأسماء القائمة بنفسها ، غير المشتقات » وذكر من أسمائه القط ، والهر ، والضيون . أما الديك فليس له اسم آخر من الأسماء الجوامد مثل ما للسنور . وأما ما ذكره الأب من « العترسان والعترفان » فإن الواحد منهما مشتق من العترسة ، وهي الغصْب والغلبة ، والأخذ بشدة وعنف وجفاء وغلظة ، ومنه العنتريس للداهية وللناقة الصلبة الوثيقة والرجل الشجاع . والآخر مشتق من معنى الشدة والخبث . قالوا : جمل عتريف وناقة عتريفة شديدة . ورجل عتريف وعتروف أي خبيث فاجر جريء ماض.

— وفي ص ٣٧٣ ذكر الأب أن « الضمج » وهو ما يعرف في مصر بالبق لا يعيش بالعراق ، وأنه يموت هناك لشدة الحر . وهذا عجب ، فإنه إنما يتكاثر ويظهر في مصر في شدة الحر ، ويختفي في الشتاء والربيع . وقال أيضاً : إن صواب العبارة « يكون في السرر والحصر » لا « السر والجدر » وأيد ذلك بقوله : « إنه يعيش فيها — أي الحصر — بمئات وألوف » مع أن المشاهد الواقع بين ظهرانينا في المصر بين أن الضمج إنما يشتد تكاثره في شقوق الجدران وثقوبها . ولذلك يلجأون إلى رأب تلك الصدوع وسد تلك الثقوب . أما الحصر فأقل شأناً من الجدر في إيواء الضمج وتكثيره . وأما كلمة « القتل » فقد نبهت عليها في أخطاء الطبع .

— وفي ص ٦٣: عبارة: «التياس صاحب التيوس» قال الأب: «يكفي التياس أن يكون له تيس واحد، أو أن يكون ممسكاً تيساً واحداً ليصح فيه هذا الاسم». وعلى قياس قوله ينبغي أن نفسر «الكلاَّب» بأنه صاحب الكلب، و«البقَّار» بأنه صاحب البقرة، وهكذا. وليس ذلك بمألوف في عبارات المفسرين من اللغويين، فهم يقولون في تفسير الكلاَّب إنه صاحب الكلاب والقرَّاد صاحب القرود، وفي تفسير البقَّار صاحب البقر، والبغَّال صاحب البغال[1]، ولعل ما دفع الأب إلى ذلك ما ورد في اللسان من قوله: «والتياس الذي يمسكه» وفي القاموس: «والتياس ممسكه» فهما في ذلك تابعان للجوهري في الصحاح. والجوهري إنما تكلم بالإفراد هنا لأنه أراد أن يرجع الضمير إلى «التيس» الذي سبق ذكره قبله، وهو مفرد.

— وفي ص ٤٧٣ كتبت «الغراير» كما وردت في أصل الحيوان بالياء، على التسهيل، فقال الأب: «الصواب أنها مهموزة ... لأنها غير جوفاء ولا يائية البناء». وليس في الأمر خطأ ولا صواب، وإنما هما مذهبان يجري أحدهما على الهمز والآخر على التسهيل. والتسهيل هو لغة قريش في جميع كلامها، وإن كان النحاة قد وضعوا للتسهيل قيوداً ورسوماً لم تعرفها قريش، فان النصوص متواترة أن قريشاً لم تستعمل الهمزة في كلامها. قال الرضي[2]: «نخففها قوم، وهم أكثر أهل الحجاز ولا سيما قريش. روي عن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنه: نزل القرآن بلسان قريش، وليسوا بأصحاب نبر، ولولا أن جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي صلى الله عليه وسلم ما همزنا».

وقال السيوطي[3]: «والكُتَّاب بنوا الخط في الأكثر على حسب تسهيلها لوجهين: أحدهما أن التسهيل لغة أهل الحجاز، واللغة الحجازية هي الفصحى».

وقال ابن منظور[4]: وفي الحديث: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: يا نبيء الله. فقال: لا تنبر باسمي — أي لا تهمز — وفي رواية: فقال: إنا معشر قريش لا ننبر. والنبر: همز الحرف. ولم تكن قريش تهمز في كلامها. ولما حجَّ المهدي قدم الكسائي يصلي بالمدينة، فهمز، فأنكر أهل المدينة عليه وقالوا: تنبر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن».

على أن المتصفح لكثير من المخطوطات القديمة يرى كتابة التسهيل شائعة فيها.

— وقال الأب في ص ٤٧٤ في بيت أبي الأسود الدؤلي:

ولا بسبس كالعنز أطول رسلها     ورعمانها يومان ثم يزول

---

(١) انظر اللسان (٢: ٢١٨ س ٢ / ٤: ٣٥٠ س ١٠ / ٥: ١٤٠ س ٨/١٣: ٦٣ س ١٠).
(٢) شرح الشافية (٣: ٣١). (٣) همع الهوامع (٢: ٢٣٣). (٤) اللسان (٧: ٣٩ — ٤٠).

« الكلمة مصحفة أصلها بشيش بشينين معجمتين يتوسطهما ياء مثناة تحتية ساكنة ، والشيش الصيص ... » إلخ . وهذا التصحيح الذي أورده لا يستقيم به الوزن، ومن أين لنا تشبيه الصعب الخلق بالرديء من التمر .

— وفي ص ٥٢٥ : « الرق ، بالفتح : السلحفاة المائية » . وقد استغرب الأب هذا التعبير لأن السلحفاة تكون دائماً مائية برية » .

والحق أن السلاحف على ضربين : سلحفاة برية لها طبع الحيوان البري، وأخرى بحرية لها طبيعة التمساح تعيش في البحر وتضع بيضها في الشطوط . وقد عقد الدميري فصلاً لكل منهما . وفي اللسان : « والرق ضرب من دواب الماء شبه التمساح » . ويقال للسلحفاة البحرية أيضاً الحمسة واللجأة . وقد خصصت المعلمة البريطانية فصلين للسلحفاة البحرية : جاء في الأول منهما : Sea tortoise و Sea turtle these all have the limbs formed as flippers : أي أن لها أطرافاً كهيئة الزعانف . كما خصصت فصلين للسلحفاة البرية : جاء في الأول منهما : Land tortoise و Land turtle a chelonian of terresterial habits أي السلاحف ذات الطبائع البرية .

— وفي ص ٥٦٦ ورد ذكر « النقل » وهو ما يعبث به الشارب على شرابه ويتنقل به. وجاء في نصوص القدماء : « ويقال أيضاً بالضم ، وقيل الضم عامية » قال الأب : « وعندنا أن الضم هو الأفصح ، لأنهُ معرب عن اللاتينية : Nucleus » . والحكم بتعريبه ليس من القوة بمكان ، لأن المادة في العربية واسعة ، واشتقاق هذه الكلمة من مادتها ليس فيه شيء من العسر . ولو قد ذهبنا إلى أنها معربة ، ما كان هذا اللفظ الذي عرب حكماً ومقياساً في تقدير الفصيح والأفصح ، إذ أن اللغة العربية لغة مروية ، وللرواية فيها السلطان والحكم . والعرب لم يلتزموا في التعريب مداناة الأصل ولا مقاربته ، وإنما يلزمون ما تطوع لهُ ألسنتهم وأذواقهم .

هذه بعض ما أسعفتني به هذه الصفحات المحدودة من « المقتطف » وبقيت مواضع لم أعرض لها خشية الإطالة .

وإني لأقدم إلى الأستاذ الأب الجليل شكراً صادقاً، واعترافاً خالصاً بجميل صنعه فيما درس من هذا الجزء من كتاب الحيوان ، وندعو الله أن يمتعه بالسلامة والعافية ، حتى نقرأ دراسته لسائر هذا الكتاب وما يتلوه من مكتبة الجاحظ ، ولنفيد من أدبه البارع وعلمه الوافر الغزير .

عبد السلام محمد هارون

# التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى .

بشر فارس

# المشتمل

## ١ — الكتب

الحياة الإنسانية عند أبي العلاء نقد بقلم إبرهيم عبد القادر المازني

كتب ظهرت :

إبليس يغني ، أبو نواس ، جحا في جانبولاد ، حلاوة الفراق في العراق ، المجتمع الأفضل

## ٢ — التحقيق

كلمتان في الديوان المنسوب الى المعرّيّ بقلم { خليل شيبوب / محمد عبد الغني حسن }

## ٣ — المصادر

ما سلم من تواريخ البلدان العراقية بقلم كوركيس عوّاد

# ١ – الكتب

• الحياة الإنسانية عند أبي العلاء • بقلم بنت الشاطىء

١٥ × ٢٢ سم ٢٠٨ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر / ١٩٤٤

هذا كتاب قيم ، وضعته الأديبة « بنت الشاطئ » ( السيدة عائشة عبد الرحمن ) وتقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول في سنة ١٩٤١ فنالت به درجة الأستاذية « ماجستير » في الآداب مع مرتبة الشرف الأولى ، ونشرته في الشهر الماضي من هذا العام لمناسبة الاحتفال بمرور ألف عام على مولد المعري ، بعد أن أعادت فيه النظر وراجعته.

ومما يجب أن يذكر لها بالحمد والإعجاب قولها في « مقدمة النشر » إن من خير ما انتفعت به عند مراجعة البحث وإعداده للنشر « الرجوع إلى التقرير القيم الذي كتبه عنه حضرة شيخي الجليل « الأستاذ أمين الخولي » والنظر في مناقشاته لي أثناء الامتحان . وأشهد أن هذا التقرير قد غيّر من رأيي في غير مسألةٍ تغييراً جوهريّاً ، فما أتردد في الاعتراف بأنه كان تكملة للتوجيه المنهجي الذي تدين به حياتي الفكرية لشيخي الجليل » .

والكتاب فصول كثيرة بعضها أطول من بعض ، تناولت فيها بالبحث الدقيق المعتمد على النصوص من شعر الشاعر ونثره ، منهج أبي العلاء في تفكيره ، ومكانه بين الشعر والفلسفة ، وأبا العلاء أمام هذه الحياة ، ومراحل الحياة الإنسانيـة ، من النشأة إلى الموت ، وما عسى أن يكون بعده . فتكلمت على إيمانه بالعقل تارة وكفره به تارة أخرى ، وعللت اضطرابه وتناقضه ، وعرضت أقوال من زعموه فيلسوفاً أو غير فيلسوف ، وشاعراً أو غير شاعر ، وانتهت إلى أن شأنه ليس بشأن الفيلسوف ، وأنه قد يلتقي مع الفيلسوف في النهاية « ولكنه يأخذك إليه واثباً ممرغاً » ، وأنهُ بين الشعراء في الذروة من حيث وضوح الشعور وصفاؤه وقوته ، وبينت الفرق بينه وبين غيره من الشعراء ، وكيف أنه لا يكذب ولا يقول إلاّ ما يعني ، وأن شعره ترجمة صادقة عما يجد ويرى .

وتناولت تشاؤمه — وردّته إلى دواعيه — ومتاعبه الخاصـة في حياته ونضاله للدنيا وهزيمته ، وسوء الحياة العامة في زمانه ومكانه ، وعللت خروجه إلى بغداد بأنه فوق حب العلم وطلب الشهرة ، كان مظهراً لنضاله ، وتحديه للدنيا ، والاستخفاف بمتاعبه وبآفته ، ولكنهُ

وجد أن مكانه قلق في بغداد ، وإن كان قد زعم أنه ما رحل عنها إلاّ لمرض أمه وإخفاقه في طلب الثراء .

وانتقلت بعد ذلك إلى رأيه في الخلق وهل له علة غائيّة، فاستخلصت من كلامه أنه يرى أن الكون لم يخلق لنا أو من أجلنا ، وأن ظواهره لا تتأثر بنا ، وأن لكل كائن حقه في الحياة ، وأن الكون لم يخلق عبثاً ، ولكنا نجهل العلة والحكمة وإن كان جهلنا لا ينفي وجودهما . وتكلمت على الخير والشر ، والجبر والاختيار ، ورأي أبي العلاء في ذلك كله ومذهبه فيه ، وكيف أنهُ كان متشائماً يرى الكون حافلاً بالشر ، وأن إرادة الله شاملة فهو تعالى خالق الخير والشر ، وأنه سبحانه لا يقع في ملكه ما لا يريد ، وأن الله لا يُحكم عليه بما يُحكم علينا به ، وأننا لا نملك سوى مقاييسنا المحدودة وجلّ الله عن التشبيه والقياس وبينت أن الرجل كان متردداً بين الجبر والاختيار لا يثبت على رأي في أحدهما ، بل لقد بلغ من حيرته أنهُ كان أحياناً يجمع بين النقيضين ، وقد اختلف رأيهُ أيضاً تبعاً لذلك في الثواب والعقاب .

وساقت الشواهد على أن الشاعر ، على الرغم من سوء ظنه بالدنيا وما يعرب عنه من رغبته في التخلص من محنة الحياة ، لم يبرأ من حب الدنيا ، بل كان متشبثاً بالحياة ، شديد الفزع من الموت ، لجهله بما وراءه وخوفه مما عسى أن يصير إليه بعده

وليس هذا الذي ذكرته إلاَّ سرداً لما حواه هذا الكتاب من البحوث الدقيقة المحكمة وأشهد أنه خير ما قرأته في موضوعه ، بل خير ما نشر في عامنا هذا من المباحث المتصلة بأبي العلاء . والاستقصاء فيه تام ، والتحقيق وافر ، والآراء سديدة متزنة .

وليس ينقصه ليتمّ به انتفاع القراء إلاّ أن يضاف إليه شرح بعض الغريب ، فقد كان أبو العلاء مولعاً بهِ ، حتى لقد وصفه ياقوت في معجم الأدباء بأنه متفاصح متحذلق ، بل شتمه وقال إنه حمار ، ومعتوه ، ومجنون ، واتهمه بالزندقة وكفره . ولكن هذا لا يعنينا في هذا المقام ، وإنما أردنا أن نقول إنهُ كثيراً ما يستعمل ألفاظاً حوشية غير مأنوسة أو مألوفة مثل الصَّعْو للعصفور ، والمَعْو للرطب ، والنطف لفاسد النية ، والكر للحبل إلخ . . . ولا سيما في نثره ، ومن حق القراء على المؤلفين أن يتوخوا شيئاً من التيسير عليهم . فإن بنا حاجة إلى تحبيب الأدب العربي القديم إليهم ، وتألفهم من نفرتهم منه .

ابرهيم عبد القادر المازني

• إبليس يغني • بقلم صلاح الدين المنجد

١٤ × ٢١ سم ١٣٥ ص مطبعة الترقي دمشق ١٩٤٣

رأى الأديب الدمشقي صلاح الدين المنجد أن يشارك في بعث الأدب العربي القديم وصبه في قالب حديث منشط، فاختار قصتين من ذلك الأدب بطلهما إبليس، وهو تارةً يغني وأخرى يلهو، والقصتان من « الأغاني » في معرض أخبار الموصليّين إبراهيم وإسحق، وفيهما خفّة. والقصة الثالثة « حسناء البصرة » تمثل لوعات الوجد ولهفات الهيام. وقد اختار المؤلف قالب المسرحية للقصص الثلاث ولم يطلق مخيلته ولم يستثمر تجربته. ولكن توسم خطط الأصل متلطفاً فلم يتجاوز الترتيب والتفصيل والتقطيع. * (١)

• أبو نواس • بقلم عبد الحليم محمود

$11\frac{1}{2}$ × $16\frac{1}{2}$ سم ١٣٦ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

• جحا في جانبولاد • بقلم محمد فريد أبو حديد

$11\frac{1}{2}$ × $16\frac{1}{2}$ سم ١٤٤ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

• حلاوة الفراق في العراق • بقلم عبد الحليم اللاذقي

$14\frac{1}{2}$ × ٢٠ سم ٨٤ ص دار النهضة بيروت ١٩٤٤

في هذه الرسالة العجلى يحكي لنا المؤلف رحلة قام بها في العراق. وعلى قصر هذه الرحلة استطاع أن يجلو لنا مرآة تعكس بعض خصائص المدن العراقية الكبرى على تفاوتها وألواناً من النشاط الذي يقبل عليه أهلوها.

ولم يسطر المؤلف رحلته تسطير الأديب أو الشاعر أو المنقب، ولكنه أراد أن يقرر وأن يصف وان ينبه على طريقة الجوّال المستطلع في بساطة وسهولة. وله على وجه التخصيص التفاتات مفيدة إلى ناحية تخطيط المدن.

هذا ولعلّ المؤلف أراد بعنوان الرسالة — وهو مستغرب — أن يقول إن العراق حلو عنده إلى حدٍّ يجعل حلواً فراقَ الأهل والأحباب من أجله. *

(١) النجم يرمز إلى اسم من أسماء المتعاونين على الإنشاء في هذا الباب.

• المجتمع الأفضل • بقلم أندره فكتور

١٤×٢٠ سم ٧٨ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٣

يحسن التنويه بإقبال دار المكشوف على نشر سلسلة من التآليف التي تتناول « مشاكل اليوم » وذلك بجنب إخراجها مجلتها المتداولة ومنشورات في فن النثر والشعر وقف قارئ هذا الباب على طائفة منها . وأما تلك السلسلة فتصفها الدار تقول إنها « غذاء عقلي يستسيغه كل طالب معرفة وراغب في الاطلاع على ما يضطرب به العصر من معضلات » .

و « المجتمع الأفضل » رسالة لطيفة ألفها كاتب فرنسي ثم نقلها إلى العربية الأستاذ إلياس أبو شبكة، فهو حريّ بشكر الشاكر . وتتصل الرسالة من حيث المجرى والمقصد بسياسة النفس البشرية ، ورائدها المحبة والعمل والإتقان وغير ذلك من البواعث الشريفة .

ويا ليت الرسالة خرجت في لغتنا سليمة الأداء ، محكمة السبك . فإن في أسلوبها أثر التركيب الفرنسي في مواضع ، مما يُخرج التعبير عن نسجنا وصياغتنا ، وقد يزلقه إلى جانب العُجمة . في الرسالة مثل هذا : « فهل فكرتم مرة في أهمية ما يصدر عن اقتناء مذهب اجتماعي سليم » ، ومثل هذا : « المناضل لأجل مصالحه الذاتية ضد مصالح الآخرين » .

وأما الزلات فقول المترجم : « تبريراً لما يأتونه من مظاهر العنف » . والصواب « تسويغاً » لأن المقصود هو التجويز لا التزكية — وقوله : « أسياد العالم » . و « أسياد » من لفظ العامة على ما نبه عليه الشيخ إبرهيم اليازجي في « لغة الجرائد » [١] — وقوله : « فهل هي مذهب فناء أم هي مذهب حياة للمجتمع ؟ » فوضع علامة الاستفهام في آخر الجملة يخرج معنى أم من الإضراب ، فالغرض إذاً طلب التعيين ، ولا بدّ من استعمال الهمزة — وقوله : « منهمكاً بمصالحه » والمسموع : « همكه في الأمر ، وانهمك فيه وتهمك فيه » عن « لسان العرب » .

هذا وحسب المترجم هذا القدر من المآخذ ، وهي بعض ما وقفنا في خمس الصفحات الأوليات من الترجمة . على أننا ندري أن في القطر الشقيق . في بلد اليازجيين والبستانيين أولئك الأئمة الأعلام ، من تسلم العبارة على طرف قلمه وبروق البيان ، فهنالك الفاخوري والعلايلي وعبود وزريق وزخريا ، وأضرابهم غير قليل فلسنا ها هنا في سبيل الإحصاء . وبعدُ فليس الأصل الفرنسي بين يدينا فلا سبيل إلى الحكم في شأن الترجمة وفي مبلغ انطباقها على الأصل .

*

(١) من غرائب العاميات في هذه الرسالة كلمة « ورشة » ص ٢٢ . والمقصود المصنع أو المعمل ، فلفظة الورشة مما عربه العامة عن الانجليزية workshop .

# ٢ – التحقيق

نشر المقتطف في جزء أغسطس الذاهب ديواناً منسوباً إلى أبي العلاء المعري، عُني بإخراجه الدكتور أسعد طلس. وقد وردت علينا كلمتان في تحقيق هذا الديوان ننشرهما بعد:

— ١ —

إن من قرأ ديوان اللزوميات وديوان سقط الزند للمعري وألف بعض الشيء طريقته في التفكير والنظم يقطع قطعاً باتّاً بأن الديوان الذي نشر في المقتطف في عدد أول أغسطس سنة ١٩٤٤ لا تصح نسبته إليه، بل هو لبعض المتأخرين من شعراء القرن العاشر أو الحادي عشر الهجري، لأن في روح هذا الشعر وأسلوبه ومعانيه واستعاراته دليلاً واضحاً على أن ناظمه متأثر ببعض الشعراء الغزليين من المائة الأولى للهجرة، كقوله:

نفت عن جفوني النوم ورق حمائم    شكون ولم يفصح لهن لسانُ
نعين ولم يذرفن دمعاً وإنما    تناثر من عيني لهن جمان

فإن فيه التفاتاً إلى الأبيات المشهورة لابن الدمينة:

ألا يا حمامات اللوى عدن عودة    فإني إلى أصواتكن حنونُ
ولم ترَ عيني قبلهن بواكيا    بكينَ ولم تدمع لهنّ عيون

أما تأثره بديوان ابن الفارض فجليّ كل الجلاء، حتى إن كثيراً من معانيه مقتبس منه، بل إن طريقته في الوصف مطبوعة بطابعه، كقوله:

إليك فلو ذقت الهوى لعذرتني    جفونك وسنى والفؤاد هواء

قال ابن الفارض:

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى    فإذا عشقت فبعد ذلك عنِّف

وقوله:

عدوني وإن لم تنجزوا رب موعد    شفى علتي منكم وإن خاب مطمعي

قال ابن الفارض:

عديني بوعدٍ وامطلي بوفائه    فعندي إذا صح الوفا حسُن المطْلُ

وقوله : ضمنت لها أن لست أسلو عن الهوى وحكمته فليقض ما هو قاض

قال ابن الفارض :

ولك الأمر فاقض ما أنت قاضٍ فعليَّ الجمال قد ولا كا

إلى غير ذلك من الأبيات الكثيرة المنبثة في الديوان، حتى إن في قصائد حروف الراء والطاء والعين وبخاصة النون معاني منسوخة نسخاً وممسوخة مسخاً لبعض المتقدمين، ولابن الفارض هذا . وهناك صيغ شعرية، كقوله «عشيات الحمى »و« موعدك الحشر »تثبت أن الناظم لم يكن يجري على سليقة مستقلة أو أسلوب شخصي. إلاّ أننا في الأبيات الأولى من قصيدة حرف الزاي نتبين بعض الشيء روح المعري ، والبيت الوحيد الذي يتمشى مع نفس المعري هو قوله :

ضغائن في صدور الليالي على الفتى فمستقبل من خطبهن وماض

على أن قولهم إن في هذا الشعر قيوداً مما كان المعري يأخذ نفسه بها ، ليس على شيء من الصحة، لأن المعري لم يأخذ نفسه إلاَّ بالتزام ما لا يلزم، كما انقاد في بعض المواقف إلى الإكثار من الجناس اللفظي من مركب ومصحف وتام وغير ذلك .

أما ناظم هذا الديوان فقد تقيد بعدد الأبيات في كل قصيدة فجعله عشرة ، وأخذ على نفسه ما يسميه البديعيون « الحبك » وهو ابتداء كل بيت بحرف القافية وهي طريقة متأخرة لم يجر عليها المعري بل ابتدعها صفي الدين الحلي في القرن الثامن الهجري في مجموعة قصائد عددها تسع وعشرون قصيدة وعدد كل قصيدة تسعة وعشرون بيتاً مدح بها الملك المنصور نجم الدين بن أرتق، وأسماها :« درر النحور في امتداح الملك المنصور» وقدمها إليه سنة ٧٠١ للهجرة مع قصيدة جاء فيها :

أهدي قلائد أشعار فرائدها در نهضت به من أبحر عمق

تسع وعشرون إذ عدت قصائدها ومثلها عدد الأبيات في النسق

لم أقتنع بالقوافي في أواخرها حتى لزمت أواليها فلم تعق

وإنه لمن الخير أن ينشر مثل هذا الديوان حتى يُـنفى عن حكيم المعرة في عهد يحيي فيه العالم العربي عيده الألفي، ويعمل على نشر كل ما قيل فيه . فللناشر وللمجلة المقتطف كل الشكر على ذلك .

الاسكندرية خليل شيبوب

— ٢ —

عرفت من أحد علماء العربية مشافهة أن المخطوط ليس عليه تاريخ يعين زمانه، وأن بهِ مقدمة قصيرة، وأن الخط المكتوب بهِ بقلم النسخ القريب من خطوط القرن العاشر فما بعده.

أما المقدمة القصيرة فقد نشرتها المقتطف، وهي ليست من أسلوب أبي العلاء بسبيل. فإن عبارات التحميد فيها ليست مما جرى عليهِ المعري في مقدمة « سقط الزند »، ومقدمة « لزوم ما لا يلزم ». فهو في هاتين المقدمتين بعيد عن التحميد، وإن كان يختمهما بطلب التوفيق من الله. أضف إلى هذا ورود لفظة « أشغل » وهي لغة رديئة في « شغل ».

وهناك أمور تجعل القارئ في شك مريب من نسبة هذا الديوان إلى أبي العلاء المعري. وقد يكون « لأبي علاءٍ معريٍّ » آخر ممن ولدوا بالمعرة واشتركوا مع شاعرنا المشهور في الكنية والنسبة وعاصروه أو تأخروا عنه، مثل أبي العلاء بن أبي الندى، وأبي العلاء أحمد بن أبي اليسر، وأبي العلاء بن عبد الله بن المحسن وغيرهم.

ومما يحمل على الشك في نسبة هذا الديوان إلى شاعرنا المعري التنوخي أمور منها:

( ١ ) أن طريقته التي التزمها من حبك أول البيت وآخره هي طريقة متأخرة لم تكن معروفة في عهده. والمتتبع لتطور الشعر العربي يلاحظ أن « الحبك البديعي » لم يظهر قبل عصر « صفي الدين الحلي » من شعراء القرن الثامن ( ٦٧٧ — ٧٥٠ هـ ). ولعلَّ « الحلي » أول من استعمل « الحبك » في شعره. وكان ذلك في قصائده المعروفة « بالأرتقيات » التي مدح بها المنصور أحد ملوك الدولة الأرتقية بماردين. على أن طريقة الحبك هذه لم تجد لها — بعد صفي الدين الحلي — سوقاً رائجة عند الشعراء وعلماء البديع. فان تقي الدين بن حجة الحموي ( ٧٦٧ — ٨٣٧ هـ ) لم يشر إليها في « بديعيته » ولا في شرحها المعروف ( بخزانة الأدب ) مع أنهُ أورد فيها مائة واثنين وأربعين نوعاً من البديع. ولعل هذا يدل على أن تلك الطريقة غير متأصلة في أدبنا.

ولقد قال — وقد يقول قائل — إن الأخذ « بالحبك » والتزامه والتزام العدد نوع من « لزوم ما لا يلزم » الذي أخذ أبو العلاء بهِ نفسه في كثير من شعره. ولكن الرد على هذا أن التزام ما لا يلزم هو شيء شرحه المعري في مقدمة اللزوميات شرحاً فائضاً. وهو شيء يتعلق بالقافية فقط وما يتصل بها من الروي. أما أوائل الابيات واتفاقها بعضها مع بعض

واتفاقها مع أواخر الأبيات ، والتقيد بعدد معين من الأبيـات في كل قصيدة، فذلك ليس من لزوم ما لا يلزم في قليل ولا كثير .

(٢) هذا الديوان في الغزل وفيه صبابات وأشواق لم تعرف عن أبي العلاء المشهور . وليس معنى هذا أن أبا العلاء لم يتغزل قط . فله القافية التى أولها : « زارت عليها للظلام رواق » ، وله الضادية التي أولها : « منك الصدود ومني بالصدود رضا »

وأبو العلاء أعقلُ من أن يعنّـيَ نفسه بغزل متكلف، وأن يختص به ديواناً برمته . فقد صَحَّ له بعض الغزل والشوق الملحّ إلى المعرة ، كقوله وهو في الـكرخ مخاطباً البرق :

فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسالي

(٣) يقول في المقدمة : إن هذا الديوان في التشوق إلى حلب ونواحيها . وليس فيـه إلاّ بيتان اثنان فيهما إشارة إلى ذلك ، ذكرها الأستاذ أسعد طلس في كلمته التي قدَّم بها بين يدي الديوان . على أن المعري في شعره الصحيح في الحنين إلى وطنه يصرّح بذكر المعرة ولا يذكر « حلب » كما تقول مقدمة الديوان . ومن شعره في المعرة غير ما أوردته سابقاً قوله:

سرى برق المعرة بعد وهن فبـات برامةٍ يصف الـكلالا

( ٤ ) في الديوان أخطاء في اللغة والنحو نعجب من صدورها من أبي العـلاء المعروف بعلمه الواسع . وفيه تساهل وتجوّز لم يعرف في عصر أبي العلاء . فهو يقول : « وقلبي إلى نحو الأحبة مجبذ» . والصحيح أنها مجبوذ بمعنى مجذوب . لأن الفعل ثلاثي لا رباعي . ويقول: « فما استنشقتها الريح إلاّ وهبت » . والواو هنا بعد إلاّ لحن لا يفوت على مثل أبي العلاء . قال تعالى : « ما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون »

ويقول: «قفوا وانصفوا» بهمزة الوصل، والصحيح قطع الهمزة لأن الفعل رباعي . وكان الأولى أن يقول: «قفوا أنصفوا » بحذف واو العطف ليتم القطع. ثم يقول: «وما المبتلي والمستريح سواءٌ» برفع سواء . والأولى نصبها على لغة الحجازيين الغالبة ، لا رفعها على لغة تميم.

( ٥ ) في الديوان تعابير ليست لأبي العلاء ولـكنها لشعراء قبله مشهورين . والمعروف أن المعري كان حريصاً في أخذه معتزّاً بتفرده في تعبيره.

فقوله: «موعدك الحشر » من الهذلي في رائيته الفاتنة . وقوله:«زنت أعين منا وعفت ضمائر » من قول الحمداني : « لقد كرمت نجوى وعفت ضمائر » .

وقوله : «عشيات أيام الحمى » من قول شاعر الحماسة :« فليست عشيات الحمى برواجع » وقوله : « وحراس عليَّ حراص » من قول ابن حجر الـكندي :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشراً علىَّ حراصاً لو يشرُّون مقتلي

(٦) في الديوان تعبيرات ركيكة واستعارات وتشبيهات سخيفة أو غير مألوفة في عصر المعري . كقوله :

ذوائبه مسك ثناياه لؤلؤ وخداه تبر والعذار زمرذ

فالخدود تشبه بالورد.والعذار يشبه بالنمل أو النبت الناجم ولا يشبه بالزمرذ .ثم كقوله :

غرير شممت منه فاه بسُحْرةٍ فقلت له هل أنت للمسك ماضغ ؟

يريد أنه عَذْب المقبَّل ، طيب رائحة الفم . والتأليف هنا سخيف .

ومن التأليف الركيك قوله :

جلاء همومي طيفكم يوضح الدجى وإلاّ فأنفاس الصبا تتأرج

وقوله : جميلاً فما فعل الجميل بضائع ولاسيما في الصب والصبّ أحوجُ

ومن الاستعارات السمجة قوله :

رشا صام عُلْوا فادعت يثرب الحشا وأفطر سفلاً فادعت ردفه مصر

(٧) في الديوان تذلل في الغزل ، وهذا ليس بأخلاق المعري أشبه . وكلمة الذل والتذلل تدور في هذا الديوان مرّات كثيرة كأنها مضروبة على صاحبه ! فهو يقول : « طباعي أبت إلاَّ التذلل في الهوى » ويقول : « رأى ذلتي في العشق فاعتز واعتدى » وغير ذلك .

الحق أن هذا الغزل المنسوب إلى أبي العلاء يشبه غزل ابن الفارض في تذلله حيث يقول:

مني له ذل الخضوع ومنهُ لي عز المنوع وقوة المستضعف

ولعلّ ناظم هذا الديوان المريب متأخر جرى فيه مجرى «عمر بن الفارض» في غزله الصوفي.

(٨) في بعض أبيات هذا الديوان رقة ذائبة أراها كثيرة على أبي العلاء المعري الزاهد الخشوشن حتى في لفظهِ ... كقوله :

أصابت فؤادي أسهم اللحظ إذ رمت فللهِ قتلى الأعين الشهداء

وكقولهِ : دفعت إليها في الوداع وديعة وقلت احفظيها إنني سأعود

ولقد ورد في الديوان بعض التصحيف مما سها عنه الناشر مثل: « فها أنا أدري مثلهم وأساء » والصواب : أوذي . ومثل: « فقلت دعوني ميتاً إنما يسمع الحي» والشطر مكسور لزيادة كلمة ميتاً ، والصواب حذفها ليقوم الوزن . ورحم الله أبا العلاء .

محمد عبد الغني حسن

# ٣ - المصادر

## ما سلم من تواريخ البلدان العراقية

### ١ — تصدير

لم يبق لنا في الخزائن إلاّ نزر يسير من الكتب العربية . ولو حاولنا الموازنة بين ما أُلِّف من التصانيف منذ بدء التأليف في الإسلام حتى سنة ١٢٥٠ للهجرة مثلاً ، وما بقي من ذلك، لاختلَّ بيدنا الميزان، ولتعذَّر التعادل بين الموجود والمفقود . والأمثلة على ذلك تفوق الحصر . فأبو الريحان البيروني الذي أربت مؤلّفاته على مائة وعشرين مؤلفاً ، بين مجلّد ورسالة ، لم يتّصل بنا منها سوى عشرين ، ثمّ إنّ المطبوع من هذا العدد الأخير لا يتعدّى عدد أصابع اليد الواحدة .

وكذلك إسحق بن إبرهيم الموصلي ، فقد ذكر له ابن النديم نحواً من أربعين كتاباً، فأين هي الآن ؟ ومن يصدق أنها أصبحت اليوم أسماءً بلا مسمّيات ؟

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي أثبت ابن النديم أسماء مؤلفاته ، فإذا هي قد جاوزت مائة وأربعين تأليفاً . فأين نحن من ذلك التراث الأدبي ؟ والمعروف منها في عصرنا لا يزيد على الثلاثة ؟

ومثل هذا في ذكر التآليف شيء كثار ، نخشى أن نُمعن فيه إلى أكثر ممّا ذكرنا ، فنسئم به القرّاء وهو مما نتحاماه.

### ٢ — البلدان العراقية

ولقد نالت البلدان العراقية حظّاً حسناً وعنايةً فائقة عند قدماء المؤلّفين . فصنّفوا الكتب في أغلبها ، باحثين عن خططها وحوادثها وأخبار رجالها . ولا نُجانب الصواب إذا ما قلنا إنّ المؤرخين لم يَدَعُوا مدينةً عراقية ذات شأن ، إلاّ عُنوا بتدوين تاريخها فإربل والأنبار والبصرة وبغداد وتكريت والحيرة وسامراء والكوفة والموصل وواسط

وغيرها ... كل هذه المدن عثرنا في المراجع المختلفة على أسماء تواريخها [١]. ونضيف إلى ما تقدم أنّ أغلبها لم يُصَنَّف فيه كتابٌ واحدٌ فحسب، بل كان لبعضها ثلاثة كتب أو خمسة أو عشرة أو عشرون أو ثلاثون أو ما يزيد على ذلك .

## ٣ — سبيلنا في هذا البحث

وقد حاولنا في هذا المقال أن نستقصي ذكر ما انتهى إلينا خبره وما وقع إلينا من هاتيك المؤلّفات الموضوعة منذ أوائل التأليف في الإسلام حتى سنة ١٢٥٠ للهجرة (١٨٣٤ م)، مشيرين إلى المطبوع منها والمخطوط . فإن كان مطبوعاً ذكرنا محل طبعه وسنته واسم ناشره إلى غير ذلك من البيانات الضرورية . وإن كان مخطوطاً دللنا على نسخه ومظانها على قدر ما أتيح لنا من الوقوف عليه، ووصفناها بما يناسب المقام . ولم نغفل عن تعيين سني وفيات المؤلفين ولا عن ذكر المراجع [٢] التي تطرّقت إليَّ أخبارهم . هذا وقد راعينا في ترتيب المدن التسلسل الهجائي في أسمائها، ورتّبنا أسماء المؤلفات ذاتها في هذا المقال بحسب قدمها، الأقدم فالقديم والحديث فالأحدث .

أما المؤلفات القديمة التي ضاعت بمرور الأيام، فإنها لا تدخل في نطاق بحثنا هذا، كما أننا لم نتكلّم على ما صنّف من تواريخ هذه المدن بعد سنة ١٢٥٠ للهجرة . فلهذه ولتلك حديثٌ طويل ربما نعود إليه في فرصة أخرى .

◆◆◆

﴿ البصرة ﴾ : الكتب المؤلفة في تاريخها وأخبارها ورجالها، ناهزت عدّتها عشرين كتاباً، لا نعرف منها اليوم سوى :

١ — أخبار الوافدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة والوافدات على معاوية ابن أبي سفيان : جمعهُ أبو الوليد العباس بن بكّار الضبّي [٣]، المتوفى بالبصرة سنة ٢٢٢ هـ رواية أبي القاسم التنوخي، عن أحمد بن عبد الله الدوريّ، عن شيوخه، عنه .

لم يرد ذكر هذا الكتاب في كشف الظنون . وقد وقفنا على خبر نسخةٍ منه في خزانة

---

(١) للمؤلفين المحدثين تصانيف في تواريخ هذه المدن العراقية : إربل، البصرة، بغداد، تلكيف، الحلة، الحيرة، سامراء، العمارة، كربلاء، الكوفة، الموصل، النجف .

(٢) كثير من هذه المراجع يتكرر ذكرها في هوامش هذا المقال . وسندون عناوينها كاملة في المرة الاولى ومختصرة فيما يلي ذلك (٣) انظر ترجمته في لسان الميزان لابن حجر العسقلاني (٣ : ٢٣٧ — ٢٣٨)

كتب الأسكوريال [1] قرب مدريد ، ضمن مجموعٍ رقمه ٤٦٧ ( الورقة ٧٣ — ١٠١ منه ) وهو غير مطبوع .

٢ — أخبار النحويين البصريين : لأبي سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ، المتوفى سنة ٣٦٨ هـ . قال في أوّله إنه « كتاب فيه أخبار مشاهير النحويين ، وطرف من أخبارهم ، وذكر أخذ بعضهم عن بعض ، والسابق منهم إلى علم النحو » .

وقد احتوى الكتاب بعد المقدمة ، على أخبار عشرة من أولئك النحاة البصريين ، وهم : أبو زيد والأصمعيّ وأبو عبيدة والجرْميّ والمازنيّ والتوزيّ والزياديّ والرياشيّ والسجستانيّ والمبرّد .

عُنيَ بتحقيقه ونشره المستشرق فرتس كرنكو F. Krenkow عن نسخةٍ في إستانبول [2] ، كتبت سنة ٣٧٦ هـ فهي قريبٌ عهدها جدًّا من عصر المؤلف . طبع في بيروت سنة ١٩٣٦ ( المطبعة الكاثوليكية ، ١١١ صفحة صغيرة المتن ، معها ٣ صفحات مصوَّرة بالشمس ، وفيها ٩ صفحات لمقدمة فرنسية للناشر )

ترجمة السيرافي في : الفهرست لابن النديم ( ص ٦٢ — ٦٣ فلوجل ) ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ( ٧ : ٣٤١ — ٣٤٢ ) ، ونزهة الألبّاء للأنباري ( ص ٣٧٩ — ٣٨٢ طبعة سنة ١٢٩٤ هـ ) والمنتظم لابن الجوزي ( ٧ : ٩٥ ) ، ومعجم الأدباء لياقوت ( ٣ : ٨٤ — ١٢٥ مرجليوث ) ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ( ١ : ١٨٣ بولاق ١٢٧٥ هـ ) ، والبداية والنهاية لابن كثير ( ١١ : ٢٩٤ ) وبغية الوعاة للسيوطي ( ص ٢٢١ — ٢٢٢ ) ، وشذرات الذهب لابن العماد ( ٣ : ٦٥—٦٦ ) . وفي كتاب الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ( ١ : ١٢٩ وما بعدها ) تقريظٌ له ونعتٌ لمعارفه .

٣ — منظومة في آل أفراسياب : للشيخ ياسين بن حمزة بن أبي شهاب البصري . والأسرة التي وُضعت لها هذه القصيدة ، تنتسب إلى أفراسياب الديريّ ( نسبة إلى الدير ، موضع في شمالي البصرة ) المتوفى سنة ١٠١٢ هـ ، وكان تولى أمارة البصرة سنة ١٠٠٥ هـ ، في عهد السلطان العثماني مراد الثالث . من هذه المنظومة نسخة خطّية في خزانة الاستاذ عباس العزاوي ببغداد .

---

(١) Derenbourg: Mss. Ar. Escur. (Vol. I. Paris, 1884, p. 311, No 467, 5-6)

(٢) أفادني الدكتور مصطفى جواد ان في خزانة الجامعة المصرية بكلية الآداب نسخة من هذا الكتاب

٤ — زاد المسافر ولهنة [١] المقيم والحاضر فيما جرى لحسين باشا بن أفراسياب حاكم البصرة : تأليف الشيخ فتح الله بن علوان الكعبي ، المولود سنة ١٠٥٣ والمتوفى بعد سنة ١٠٩٠ هـ . يتناول هذا الكتاب أخبار البصرة وأحداثها في أواخر المائة الحادية عشرة للهجرة ( ١٦٤٥ — ١٦٦٥ م ) . نشره خلف شوقي أمين الداودي ( مطبعة الفرات — بغداد ١٩٢٤ ، ٥٦ ص ) . أما مؤلف الكتاب ، فقد دوّن الناشر ترجمته في صدر الكتاب وأورد شيئاً من شعره .

٥ — سبائك العسجد في أخبار أحمد نجل رزق الأسعد : للشيخ عثمان بن سند البصريّ المتوفى ببغداد سنة ١٢٤٢ هـ ، وقيل في سنة وفاته غير ذلك

في هذا الكتاب ترجمة الشيخ أحمد المذكور ، المتوفى سنة ١٢٢٤ كما أن فيه تراجم أعيان البصرة خاصة ، في أوائل المائة الثالثة عشرة للهجرة ، هذا إلى ما تضمنه من تراجم رجال من البحرين والكويت ونجد والبلاد العراقية . ألفَّهُ ابن سند لأولاد الشيخ أحمد ، وكانوا خمسة ، وقد خصَّ كلاً منهم بترجمة ( انظر الصفحة ١٠٧ — ١١٥ من السبائك ) ، وذكر أخبار أصحابهم معهم . وعبارات الكتاب مسجّعة كلها ، يتخلّلها أشعار كثيرة . طبع بمطبعة البيان في بمبي سنة ١٣١٥ هـ في ١٢٠ صفحة .

أما ابن سند ، مؤلف الكتاب ، فقد دوّن ترجمته غير واحدٍ ، منهم : كاظم الدجيلي ( لغة العرب ٣ ( ١٩١٣ ) ص ١٨٠ — ١٨٦ ) ، ومحمود شكري الآلوسي ( المسك الأذفر في تراجم علماء بغداد في القرن الثاني عشر والثالث عشر ص ١٤١ — ١٤٦ ) والأب لويس شيخو اليسوعي ( الآداب العربية في القرن التاسع عشر ١ : ٩٤ ) .

• • •

❁ بغداد ❁ : أما المؤلفات الموضوعة في تاريخ بغداد ، فكثيرة جدًّا تنيف على أربعين مؤلفاً ، منها ما هو في مجلدات كثيرة . والذي سلم منها على ما نعلم :

١ — كتاب بغداد : لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر المعروف بطيفور ، المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ( طالع ترجمته في الفهرست ص ١٤٦ ، وتاريخ بغداد للخطيب ٤ : ٢١١ — ٢١٢ ، ومعجم الأدباء ١ : ١٥٢ — ١٥٧ ) . وهذا الكتاب أقدم تاريخ وضع لمدينة بغداد [٢] لم يسلم من آفات الدهر سوى جزئه السادس ، كان محفوظاً في خزانة المتحف البريطاني [٣]

---

(١) اللهنة : ما يتعلل به قبل الغداء (٢) كشف الظنون ( ٢ : ١١٩ فلوجل )
(٣) Cat. Cod. Man. Or. Mus. Br. ( London, 1846, p. 545; No. 1264

بلندن، فاستخرجه المستشرق هنس كلر H. Keller واستنسخه باليد وطبعه على الحجر، ثم نقله إلى الألمانية وعلق عليه ( ليبسك ١٩٠٨ م، ٣٨٢ ص للمتن و ١٨٥ للترجمة ) . وكان المستشرق المذكور قد نشر جانباً من هذا الجزء ( الورقة ١ — ٢٦ من المخطوط ) في أطروحته التي وضعها بصدد هذا السفر التاريخي، وطبعها في ليبسك سنة ١٨٩٨ ( ٢٧ ص المتن و ٦٠ ص للترجمة والمقدمة والتعليقات بالألمانية ) .

إن الأجزاء الخمسة الأولى من هذا الكتاب، لا تزال ضائعة [١] . وهذا الجزء السادس يتناول أخبار المأمون منذ شخوصه إلى بغداد في سنة ٢٠٤ هـ ( وهي سنة مولد المؤلف ) إلى وفاة الخليفة المذكور عام ٢١٨ هـ ؛ مع ما ينوط بأحوال زمانه، وذكر الأدباء والشعراء الذين اختلفوا إلى مجلسه .

ولسنا نعلم علم اليقين كم كان عدد أجزاء هذا الكتاب الجليل . غير أن ابن النديم (الفهرست . ص ١٤٧ ) ذكر أنهُ ضمنهُ الأخبار إلى آخر أيام المهتدي [٢] .

فالأجزاء التي قبل السادس، تناولت على ما نظن، أخبار خمسة من خلفاء بني العباس وهم : المنصور ( باني بغداد ) والمهدي والهادي والرشيد والأمين . فهل كان المؤلف قد خصَّ كل خليفة منهم بجزءٍ من كتابه ؟

ثم يجيء الجزء السادس وهو الذي طبع، فيستوفي أخبار المأمون كما أسلفنا . ومن ثمة لا نشك في أن الكتاب يحوي بضعة أجزاء أخرى، فيها أخبار من تولى زمام الخلافة بعد المأمون، وآخرهم المهتدي [٣] .

وقد ذكر ابن النديم (الفهرست.ص ١٤٧) . أن عُبَيد الله بن أحمد بن أبي طيفور « زاد على كتاب أبيه أخبار المعتمد وأخبار المعتضد وأخبار المكتفي وأخبار المقتدر، ولم يتمه » ولكن هذا التاريخ لم ينته إلينا مع الأسف وإنما وقفنا على نقول منهُ في كتاب بدائع البدائه لابن ظافر الأزدي (ص ٣٦ و ٤١ و ١١٩ بولاق ١٢٧٨ هـ ) ومعجم الأدباء ( ١ : ١٥٣ ) ولسان الميزان (١:١٩٠) .

٢ — تاريخ بغدادُ مدينة السلام : للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، المتوفى سنة ٤٦٣ هـ . طبع هذا الكتاب بكماله في القاهرة ( مطبعة السعادة، سنة ١٩٣١ في

---

( ١ ) وقفنا على نقل من أحدها في تاريخ بغداد للخطيب الآتي ذكره ( راجع مقدمته الخطابية، ص ٤٧ طبعة سلمون )

( ٢ ) دامت خلافته نحواً من سنة، وانتهت في شهر رجب سنة ٢٥٦ هـ (٣) هؤلاء الخلفاء سبعة وهم المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي . وكثيراً ما تمنينا أن تكون هذه الأجزاء بيدنا، لنستدل بها على ما كانت عليه بغداد في عهد انتقال الخلفاء العباسيين منها الى مدينة سامراء .

١٤ مجلداً[1] ، تبلغ في مجموعها نحو ٦٨٠٠ صفحة . ويدور هذا التاريخ على أمرين :

الأول : خِطَط بغداد القديمة . وقد تكلّم فيه على بناء مدينة بغداد ، وتحديدها وذكر محالّها وطاقاتها وسككها ودروبها وأرباضها وقصورها ومساجدها وأنهارها الجارية بين الدور والساكن وجسورها ومقابرها .

الثاني : رجال بغداد أو مَن طرأ عليها من بلدانٍ شتّى . وقد ترجم منهم ٧٨٣١ شخصاً وهذه التراجم تكاد تكون مرتّبة فيه على حسب حروف الهجاء ، غير أنه ابتدأ بالمحمّدين ثم بالأحمدين ، ثم اتبع حروف المعجم .

وكان المستشرق جورج سلْمون ( G. Salmon ) قد نشر القسمَ الأوّل المتضمّن خطَط بغداد من تاريخ الخطيب ، في باريس سنة ١٩٠٤ ، مترجماً إياه إلى الفرنسية بعنوان . L'Introduction Topographique à l'Histoire de Baghdad ( ٩٣ ص المتن ، و ٢٠٩ ص للترجمة والمقدمة والتعليقات والفهارس ) .

وقد ألّف الملك المعظّم أبو المظفّر عيسى ابن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب الحنفي ، المتوفَّى سنة ٦٢٤ هـ ردًّا على تاريخ الخطيب فيما يتعلّق بفقه الإمام أبي حنيفة النعمان الذي ورد في المجلّد الثالث عشر منه . وعنوان هذا الرد « السهم المصيب في كبد الخطيب » . طبع في القاهرة سنة ١٩٣٢ ( مطبعة السعادة ، ١٨٤ ص ) ولجلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ ردّ آخر بعنوان « السهم المصيب في نحر الخطيب » ذكره صاحب كشف الظنون ( ٣ : ٦٣٢ ) ولا نعلم أنه طُبع .

ولتاريخ بغداد للخطيب ، « ذيول » و « مختصرات » متعدّدة ، صنّفها جماعة ممّن جاء بعده من المؤرّخين ، وسنذكر ما بقي لنا منها في سياق هذا المقال .

ترجمة الخطيب في : تاريخ ابن عساكر ( التهذيب ١ : ٣٩٨ — ٤٠٠ ) ، والمنتظم (٨ : ٢٦٥ — ٢٧٠ ) ، ومعجم الأدباء ( ١ : ٢٤٦ — ٢٦٠ ) والوفيات ( ١ : ٣٧ — ٣٨ ) ، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ( ٣ : ١٢ — ١٦ ) ، والبداية والنهاية ( ١٢ : ١٠١ — ١٠٣ ) وطبقات الشافعية للمصنف (ص ٥٧ — ٥٨ ) ، والشذرات ( ٣ : ٣١١ — ٣١٢ ) .

٣ — تذييل تاريخ بغداد : لأبي سعد السمعاني صاحب كتاب الأنساب ، المتوفّى سنة ٥٦٢ . وقد ضاع أكثره في ما أظنّ ، وبقي قليل منه أدخله البنداري في تاريخه الذي

(١) ذكر الحاج خليفة ( كشف الظنون ٢ : ١١٩ ) أن نسخة منه بخط المؤلف كانت في وقف المستنصرية أربعة عشر مجلداً .

ألّفه لبغداد على ما سيجيء خبره ، وشيء من مختصره الذي لابن منظور كما سنذكره أيضاً .
وكان السمعاني قد ذيّل بكتابه هذا « تاريخ بغداد » للخطيب وجرى فيه على أسلوبه ، وجعله في خمسة عشر مجلداً على ما ورد في المظان التاريخية .[1]

والسمعاني هذا ، عَلَم من أعلام التأليف في الإسلام ، وتجد ترجمته في المنتظم ( ١٠ : ٢٢٤ — ٢٢٥ ) ، واللباب في الأنساب لابن الأثير ( ١ : ٩ — ١١ ) ، والوفيات ( ١ : ٤٢٦ — ٤٢٨ ) ، وتذكرة الحفاظ ( ٤ : ١٠٧ — ١١٠ ) ، والبداية والنهاية ( ١٢ : ٢٥٤ ) ، وطبقات السبكي ( ٤ : ٢٥٩ — ٢٦٠ ) ، والشذرات ( ٤ : ٢٠٥ — ٢٠٦ )

٤— مُعجم شيوخ بغداد ، ويُعرف بالمشيخة البغدادية : لأبي طاهر السلفي الأصبهاني الشافعي ، نزيل الإسكندرية ، المتوفّى سنة ٥٧٦ هـ . منه نسخة في خزانة الأسكوريال[2] كُتبت سنة ٥٩٤ هـ . قوامها ٢٤٧ ورقة .[3] وهذا الكتاب لم يطبع .

وللاطلاع على ترجمة أبي طاهر السلفي راجع : الوفيات ( ١ : ٤٣ — ٤٤ ) ، وطبقات السبكي ( ٤٠ : ٤٣ — ٤٨ ) ، ولسان الميزان ( ١ : ٢٩٩ — ٣٠٠ ) ، وتذكرة الحفاظ ( ٤ : ٩٠ — ٩٦ ) ، والشذرات ( ٤ : ٢٥٥ ) .

٥— ذيل تاريخ مدينة السلام بغداد : لأبي عبد الله محمد بن سعيد المعروف بابن الدبيثي[4] الواسطي ، المتوفّى سنة ٦٣٧ هـ . جعله ذيلاً على تاريخ بغداد لأبي سعد السمعاني الذي ذيّل به تاريخ بغداد للخطيب .

وقد ذكرنا أنّ غالب تاريخ بغداد للسمعاني قد نالته يد الضياع . أما تاريخها لابن الدبيثي ، فالذي سلم منه[5] بضعة مجلدات ، تفرقت في خزائن الكتب على الوجه التالي :

---

( ١ ) كما في الوفيات ( ١ : ٤٢٧ ) وكشف الظنون ( ٢ : ١١٩ ) وذكر صاحب تذكرة الحفاظ ( ٤ : ١٠٨ ) والشذرات ( ٤ : ٢٠٦ ) أن « الذيل على تاريخ الخطيب أربعمائة طاقة » .

( ٢ ) وصفها ميخائيل الغزيري في فهرسته :
Casiri : Bibl. Ar. Hisp. Escur. (Vol. 2, Madrid 1770, p. 330, No. 1778)
وكذلك وصفها ليفي بروفنسال في فهرسته :
Levi-Provençal: Mss. Ar. Escur. (Vol. 3, Paris 1928. p. 281, No. 1783)

( ٣ ) ذكر جرجي زيدان ( تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ٧١ طبعة سنة ١٩٣١ ) أنه في نحو مائة كراس .

( ٤ ) الدبيثي ، نسبة إلى دبيثا ( بفتح الدال على المشهور وقيل بضم الدال وآخره مقصور ) من قرى واسط الحجاج بالعراق .

( ٥ ) أشار السخاوي ( الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : ص ١٢٣ ) إلى وجود نسختين من هذا الكتاب في مكة وثالثة عند السبط . لكننا لا ندري اليوم مآل هذه النسخ الثلاث !

( أ ) المجلّـد الأول : في خزانة شهيد علي باشا في إستانبول .[١] رقمه ١٨٧٠ . أوّله : « الحمد لله الأوّل بلا ابتداء والآخر بلا انتهـاء ... الخ » . وجاء في آخره : « وقع الفراغ منه في غرّة جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ، كتبهُ عبدالرحيم بن عبدالخالق الشافعي الدمشقي » فتكون هذه النسخة قد كُتبت قبل وفاة المؤلّـف بسنتين .

ومن المجلّـد الأوّل أيضاً نسخة بدار الـكتب المصرية سُمعت على ابن الدبيثي سـنة ٦١٧ هـ ، وقد صوّر منهـا المجمع العلمي العربي نسخة لخزانتـه . أخبرني بذلك الدكتور مصطفى جواد.

( ب ) المجلّـد الأوّل أيضاً : في الخزانة الوطنية بباريس . رقمه ٥٩٢١ [٢] وهو مكتوب بخط تعليقي رديء في ٢٩٨ ورقة . وقد انتسخ الدكتور مصطفى جواد نسخاً لنفسه على هذا المجلد وما سنذكره من مجلداته التي بدار الـكتب الوطنية بباريس .

( ج ) المجلد الثاني : وهو في باريس أيضاً ، رقمه ٢١٣٣ [٣] يبتدئ باسم أحمد ، وينتهي بترجمة الحجاج بن علي . وقوامه ٢١١ ورقة . ويظن أن هذه النسخة كتبت في المائة السابعة للهجرة ، أي في عصر المؤلف .

( د ) المجلد الثالث في باريس أيضاً . رقمه ٥٩٢٢ [٤] ، وقد كتب سنة ٦٣٦ للهجرة ، أي قبل وفاة المؤلف بسنة واحدة ! قوامه ٢٢٣ ورقة .

( هـ) المجلد الثالث أيضاً : في خزانة كتب جامعة كمبردج ( برقم ١٦٩ Add. 2924 )[٥] يبدأ بمواصلة حرف العين في سياقة التراجم ، وفيه ترجمة أحدهم المتوفى سنة ٦١٥ هـ وهو من معاصري المؤلف . يقوم هذا المجلد على ١٨٥ ورقة ، وخطـه نسخي ، ولعلـه كـتب في المائة السابعة للهجرة . جاء في آخره : « انتهى حرف العين ، ويليـه المجلد الرابع وأوله حرف الغين » .

إن هـذه المجلدات المتبقية من تاريخ ابن الدبيثي غير مطبوعة ، وهي تتناول تراجم

---

(١) أفادني وصف هذه النسخة الاستانبولية ، الاستاذ عباس العزاوي ، الذي أتيح له الوقوف عليها .

(٢) Blochet : Cat. Coll. Mss. Or., Scheffer (Paris, 1900 p. 21)

وكذلك : Blochet : Cat. Mss. Ar. Nouv. acq. 1884-1924 ( Paris, 1925 p. 140)

(٣) De Slane : Cat. Mss. Ar. (Paris, 1895 p. 378)

(٤) Blochet : Cat. Mss. Ar. (p. 140)

(٥) Browne : A. Hand-List Muh. Mss. Univ. Cambr. (Cambridge, 1900. pp. 26-27)

رجال بغداد ، ممن لم يرد لهم ذكرٌ في المؤلفات التي سبقت الإشارة اليها .

وترجمة الواسطي : في الوفيات ( ١ : ٧٤٤ ) ، وطبقات السبكي (٥ : ٢٦) ، والحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة لابن الفوطي (ص ١٣٥—١٣٦) وتذكرة الحفاظ (٤ : ١٩٩ — ٢٠٠) وغاية النهاية في طبقات القرّاء للجزري (٢ : ١٤٥ الرقم ٣٠٣٠) ، والشذرات ( ٥ : ١٨٥ — ١٨٦) . .

٦ — مختار مختصر تاريخ بغداد لأبي بكر الخطيب : المختصر المذكور هنا لأبي عليّ يحيى بن عيسى بن جزلة الحكيم البغدادي المتوفى سنة ٤٧٣ وقيل ٤٩٣ هـ . و « المختار » هذا للقاضي أبي اليمن مسعود بن محمد بن أحمد بن حامد ، ولم نتحقق سنة وفاته . منه نسخة في خزانة المتحف البريطاني [1] جاء في أولها : « الجزء الأول من مختار مختصر كتاب تاريخ بغداد لأبي بكر أحمد بن عليّ الخطيب رحمة الله عليه ، اختيار أبي علي يحيى بن عيسى بن جزلة الحكيم البغدادي رحمه الله » .

وفي مقدمته يقول : « وهذا الكتاب الذي صنّفه الشيخ أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب الحافظ البغدادي رحمه الله وسماه تاريخ بغداد ، كتابٌ جليلٌ في هذا العلم نفيسٌ ، وقد تعب فيه وسهر وأطال الزمان ، والله تعالى يثيبه ويحسن إليه . إلا أنهُ طويل ، وللإطالة آفات أقربها الملل ، والملل داعيةُ الترك . وقد استخرت الله تعالى ، واختصرته ، وذكرتُ أسماء الرجال الذين ذكرهم على ترتيبه ، وما استحسنته من خبر وحكاية وشعر وحديث نقلتهُ . فالأغراض تختلف ، ولهوى القلوب سريرةٌ لا تُعلم . اختصره القاضي أبو اليُمن مسعود بن محمد بن أحمد بن حامد رحمه الله ، لنفسه ولمن عساه يرغب في الاختصار أو نقل شيء منه » اهـ .

وجاء في آخره : « تمّ المختار من مختصر كتاب تاريخ بغداد ، بعون الله تعالى ، في العشرة الأولى من شهر رمضان المبارك سنة ستة ( كذا . والصواب ستّ ) وسبعين بعد الألف والمائتين من هجرة سيّد الثقلين . . . على يد العبد الفقير الراجي رحمة ربه العليّ ، محمد عليّ » اهـ .

وترجمة المؤلف: في المنتظم (٩ : ١١٩) وعيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي اصيبعة ( ١ : ٢٥٥ ) ، والكامل لابن الأثير ( ١٠ : ١١٢ بولاق ١٢٩٠ هـ ) ، وأخبار الحكماء للقفطي ( ص ٣٦٥ — ٣٦٦ طبعة ليبسك ) ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبري ( ص ٣٣٩)

(١) Cat, Cod, Or, Mus, Brit. (p. 733-734, No 1625)

والوفيات (٢ : ٣٨٧ — ٣٨٨) ، والمخطوطات العربية لكتبة النصرانية للأب لويس شيخو (ص ٦ و ٢٣٠)

٧ — ذيل تاريخ بغداد ، ويسمى أيضاً التاريخ المجدد : للحافظ محبّ الدين محمد بن محمود المعروف بابن النجّار البغدادي ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . وهو ذيلٌ عظيم على تاريخ بغداد للخطيب . ذكر ابن كثير (البداية والنهاية ١٣ : ١٦٩) أنه أكمله في ستة عشر مجلداً . وقال الحاج خليفة (كشف الظنون ٢ : ١٢٠) إنهُ يتمّ في ثلاثين مجلداً ، وإنهُ رأى المجلد السادس عشر منهُ في حرف العين ، يذكر تراجم الرجال كالطبقات . وقال ياقوت الحموي (معجم الأدباء ٧ : ١٠٣) إن لابن النجار « التصانيف الممتعة ، منها تاريخ بغداد ذيل به تاريخ مدينة السلام للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي ، واستدرك فيه عليه . وهو تاريخ حافل دل على تبحره في التاريخ وسعة حفظه للتراجم والأخبار » .

وحكى السخاوي (الإعلان بالتوبيخ.ص ١٢٣) أنهُ وقف على نسخة منه في سبعة عشر مجلداً ، بخطِ الجمال الظاهري في الأوقاف التي بجامع الحاكم ، وأن بعضه فقد . ترى أين اليوم هذه النسخة التي أشار إليها السخاوي ؟

لقد ضاع أغلب تاريخ ابن النجار ، وغاية ما انتهى الينا منهُ :

(ا) المجلد العاشر منهُ : في الخزانة الظاهرية بدمشق[1] ، وهو في ٤٦٠ صفحة كبيرة ، أوله ترجمة عبد المغيث بن زهير الحربي المتوفى سنة ٥٨٣ هـ ، وآخره ترجمة علي بن الحسين القري الحنبلي[2] .

(ب) مجلد في باريس[3] ، رقمهُ ٢١٣١ . لعلهُ أن يكون المجلد السادس عشر وجانباً من السابع عشر . وفيهِ تراجم الأشخاص من « علي بن محمد الدامغاني » إلى آخر العليين . ثم يبدأ بالعمرين ، وينقطع في عمر بن محمد السهروردي (المدفون في بغداد) بعد أن يورد نحو ثلث ترجمته أو نصفها . ثم يقفز إلى حرف الفاء الذي من تراجمه « الفضل بن محمد ابن سعيد الحداد » . كتب هذا المخطوط سنة ٧٤٨ للهجرة ، وفيهِ ١٤٥ ورقة .

وقد انتسخ الدكتور مصطفى جواد عليهِ نسخة لنفسهِ ، وفي آخرها ما نصهُ : « آخر

(١) قائمة مخطوطات الخزانة الظاهرية بدمشق (ص ٨٤ ، الرقم ٤٢) ومجلة المجمع العلمي العربي «١٢ (١٩٣٢) ص ٥٠٦ ، و ١٨ (١٩٤٣) ص ١٨٢ »

(٢) حبيب زيات : خزائن الكتب في دمشق وضواحيها (ص ٧٧ ، الرقم ٤٢)

(٣) تكرم الدكتور مصطفى جواد بوصف هذه النسخة الباريسية ، التي وقف عليها بنفسه وتوفر على مطالعتها واستنساخها .

المجلد الثالث والعشرين من الأصل من التاريخ المجدد لمدينة السلام وهو آخر المجلد الحادي عشر من هذه النسخة، يتلوه أول المجلد الرابع والعشرين من الأصل، وأول الجزء « الفضل ابن محمد بن عبد الله العطار » . هذان المجلدان لما يطبعا .

وترجمة ابن النجار في : معجم الأدباء ( ٧ : ١٠٣ — ١٠٤ ) ، والحوادث الجامعة ( ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ) ، وطبقات السبكي ( ٥ : ٤١ ) وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ( ٢ : ٢٦٤ — ٢٦٥ ) ، وتذكرة الحفاظ ( ٤ : ٢١٢ — ٢١٤ ) ، والبداية والنهاية ( ١٣ : ١٦٩ ) والشذرات ( ٥ : ٢٢٦ — ٢٢٧ )

٨ — مختار ذيل تاريخ بغداد للسمعاني : لجمال الدين عبد الله بن مكرّم بن منظور صاحب « لسان العرب » ، المتوفى سنة ٧١١ هـ .

وهذا « المختار » في تراجم رجال بغداد ، اختصرهُ ابن منظور من «ذيل تاريخ بغداد» لأبي سعد السمعاني الذي مرَّ بنا ذكره في الرقم ٣ .

ومن مختصره نسخة من المجلد الثاني في خزانة كمبردج[(١)]، تبدأ بترجمة «محمد بن أبي بكر البردوي الصابوني » . وهي تتناول تراجم المحمدين ، ثم الأحمدين ، ثم الأسماء الأخرى مصنفة على حروف المعجم ، حتى تبلغ الحسينيين .

ومنهُ أيضاً نسخة في خزانة ليدن في هولندة ، برقم ١٠٢٣ [(٢)].

وترجمة المؤلف في : فوات الوفيات ( ٢ : ٢٦٥ ) ، ونكت الهميان في نكت العميان للصفدي ( ٢٧٥ — ٢٧٦ ) ، والدرر الكامنة للعسقلاني ( ٤ : ٢٦٢ — ٢٦٤ ) ، وبغية الوعاة ( ص ١٠٦ ) ، والشذرات ( ٦ : ٢٦ ) .

( ٩ ) — تراجم علماء بغداد [(٣)] لأبي الخير نجم الدين سعيد بن عبد الله الدهلي البغدادي [(٤)] ، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . قال ابن حجر العسقلاني بحقه ( الدرر الكامنة ٢ : ١٣٥ ) إنه «جمع التراجم لكثير من أعيان دمشق وبغداد » . ونحن لا نشك في أن هذه التراجم البغدادية المذكورة أعلاه ، هي التي أشار إليها ابن حجر ونقل منها ابن قاضي شهبة

(١) Palmer : Cat. Ar. Pers. Turk Mss. Lib. Trin. Col. (Cambridge, 1870 p. 152-153, No R, 13. 66)

(٢) De Goeje et Jurnboll : Cat. Cod. Ar. Bibl. Acad. Lugd-Bat (II, 1907 p. 110-111)

(٣) نبهنا الى هذا الكتاب الاستاذ المحامي عباس العزاوي .

(٤) ترجمته في : تاريخ علماء بغداد المسمى منتخب المختار للتقي الفاسي المكي (ص ٥٧ — ٥٨) والدرر الكامنة: ( ٢ : ١٣٤ — ١٣٥ ) .

في ذيل تاريخ الذهبي كما في ترجمة صفي الدين الحلي وعبد الرحمن الفاروثي من الذيل .

وكان الشيخ طاهر الجزائري ( مجلة المقتبس ٢ سنة ١٩٠٧ ص ٣ ) قد وقف على نسخة خطية من هذه التراجم ، بيد أننا لا نعرف الآن شيئاً من أمر تلك النسخة .

١٠ — المستفاد من ذيل تاريخ بغداد : للحافظ أحمد بن أيبك بن عبد الله الحسامي الحسيني المعروف بابن الدمياطي المتوفى بمصر سنة ٧٤٩ هـ . وهو مختصر «ذيل تاريخ بغداد» لابن النجار( انظر الرقم ٧ من تواريخ بغداد) . ذكره جرجي زيدان ( تاريخ آداب اللغة العربية ٣ : ٧٥) ويعقوب سركيس (لغة العرب ٦ (١٩٢٨) ص ٣٥٦ ) . ولم يتطرق إلى ذكره صاحب كشف الظنون .

منه نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة [١] في ثمانية أجزاء قوامها ٨٢ ورقة بخط المؤلف نفسه . والكتاب مجموعة تراجم روعي في كتابتها الاختصار ، تبتدئ بالمحمدين أما غيرهم فعلى حروف المعجم .

وترجمة ابن الدمياطي في : الدرر الكامنة ( ١ : ١٠٨ ) ، وذيل تذكرة حفاظ الذهبي لأبي المحاسن الحسيني الدمشقي ( ٥٤—٥٧ ) ، وذيل طبقات حفاظ الذهبي للسيوطي ( ص ٣٥٥ ) .

١١ — تاريخ بغداد : للفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني [٢] ، المتوفى بعد سنة ٦٣٩ هـ . وهو معجم لتراجم مشاهير رجال بغداد ، جمع فيه تاريخ الخطيب وذيله للسمعاني وذيل هذا لابن الدبيثي ولم يزد إلا سطوراً . الموجود منه اليوم مجلده الأول ، في باريس برقم ٦١٥٢ Blochet, p. 198 ، وهو بخط مؤلفه ، كتبه سنة ٦٣٩ هـ بخط نسخي ، وفيه خرم ، وأوراقهُ الحالية تبلغ ١١٦ .

وقد انتسخ الدكتور مصطفى جواد عليه نسخة لنفسه لكنهُ لم يذكر الترجمين في تاريخ الخطيب .

نقل عنهُ الأستاذ حبيب زيات ( الخزانة الشرقية ٢ : ١٩ — ٢٠ ) شيئاً من ترجمة أحمد ابن إبراهيم بن أيوب المسوحي . وما زال هذا المجلد غير مطبوع .

١٢ — مناقب بغداد : طبع على غلافه أنهُ لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي

---

(١) فهرست الكتبخانة الخديوية (٥ : ١٥٠) ، وفهرست دار الكتب المصرية (٥ : ٣٤٤) .

(٢) هو مترجم الشاهنامة الترجمة العربية التي نشرها الدكتور عبد الوهاب عزام ، وصدرها بترجمة البنداري .

الشهير بابن الجوزي ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . والظاهر أنّ هـذا المطبوع ليس لابن الجوزي المذكور ، فقد ذكر سبط ابن الجوزي ( مرآة الزمان ٨ : ٣١٢ ) أن لأبي الفرج المذكور « كتاب مناقب بغداد في مجلد » على حين أن هذا المطبوع لايعدو أن يكون رسالةً صغيرة. ومن ثمّـة نرى أنهُ مختصر للأصل .

وأول من تنبه إلى أن هذا المطبوع ليس لابن الجوزي هو الأستاذ يوسف غنيمة ( لغة العرب ٤ سنة ١٩٢٦ ص ٢٧٤ ) استناداً إلى ما ورد فيه ، حيث يُـقرأ ( في الصفحة ٣٤ من المطبوع ) أن مؤلفه كان حيًّـا يرزق بعد سنة ٦٥٤ هـ . وعلى ذلك : مال الأستاذ إلى أن الـكتاب من تأليف الشيخ أبي محمد يوسف بن أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ، المقتول في فتنة التتار في بغداد سنة ٦٥٦ هـ . فكأنه أراد أن يقول إن المؤلف كان ابناً لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

وارتأى الأستاذ يعقوب سركيس ( لغة العرب ٥ ( ١٩٢٧ ص ٢١٦ — ٢٢٤ ) ومجلة (المجمع العلمي العربي بدمشق ٨ ( ١٩٢٨ ) ٦٢٩—٦٣٢ ) ، ووافقه على ذلك الأستاذ عبدالله مخلص ( مجلة المجمع ٩ سنة ١٩٢٩ ص ١١٨ — ١١٩ ) أنه تأليف جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، الذي قتل سنة ٦٥٦ هـ [١] . لأن اسمه ولقبـه وكنيته تتفق كل الاتفاق وما يماثلها في ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . بيد أن المراجع الحالية التي بأيدينا لا تشير إلى أن لهذا المقتول سنة ٦٥٦ هـ كتاباً في هذا الموضوع .

وحاول الأستاذ عبـد العزيز الميمني الراجكوتي ( مجلة المجمع ٩ : ١١٩ — ١٢٠ ) والأستاذ محمد راغب الطباخ ( مجلة المجمع ٩ : ٤٣٩ — ٤٤٠ ) أن يثبتا صحة نسبة هـذا الـكتاب إلى ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

ويرى الدكتور مصطفى جواد ( راجع : الجامع المختصر لابن الساعي . المقدمة ، ص يح ، والحاشية ١ من ص ٨٠ ) ، أن هذا الـكتاب من مختصرات ابن الفوطي المؤرخ البغدادي[٢] صاحب كتاب الحوادث الجامعة وغيره من التصانيف ، المتوفى سنة ٧٢٣ هـ ، بدليل أن مخطوطة الـكتاب كانت هي والحوادث الجامعة في مجلد واحدٍ ، مكتوبٍ بخطّ واحد في زمن واحد[٢]

(١) انظر خبره في الحوادث الجامعة . ص ٣٢٨

(٢) ترجمه محمد رضا الشبيبي في مجلة المعلم الجديد ( ٦ ( ١٩٤٠ ) ص ١ — ١٥ ) ، وترجمه مصطفى جواد في صدر طبعة كتاب الحوادث الجامعة ( ص ١٤ — ٢١ )

(٣) وهذا ما حققه نجيب هواويني الذي فحص عن المخطوطة الاصلية ( وهي بدار الكتب المصرية ، برقم ١٣٨٣ ) وأبدى رأيه القاطع في رسالته التي بعث بها إلى الأب أنستاس ماري الـكرملي ، بتاريخ ١٠ سبتمبر ١٩٣٤ وقد وقفني عليها يعقوب سركيس .

فإذا أمكن إثبات أن الكتابين هما بخطّ ابن الفوطي نفسه ، صحّ لنا عندئذٍ اعتبار ابن الفوطي ملخصاً لكتاب مناقب بغداد ومضيفاً إليه .

ومهما يكن من أمر مؤلفه ، فانّ هذا الكتاب ، على صغر حجمه ، ذو فائدة كبيرة ، لما تضمنه من الحقائق الثمينة عن خطط بغداد ومجمل أحوالها ، خاصة ما ورد فيه من المقتبسات الخطيرة الشأن التي نقلها عن كتاب « أخبار بغداد » لهلال بن المحسن الصابئ ، المتوفى سنة ٤٤٨ هـ ذاك الكتاب الذي ضاع ويا للأسف فيما ضاع من التآليف.

إن كتاب مناقب بغداد ، عُني بنشره الأستاذ محمد بهجة الأثري ( مطبعة دار السلام ـ بغداد ١٣٤٢ هـ ، ٤٨ ص )

وترجمة ابن الجوزي في : مرآة الزمان ( ٨ : ٣١٠ — ٣٢٥ طبعة شيكاغو ) والجامع المختصر لابن الساعي ( ٩ : ٦٥ — ٦٧ ) ، والوفيات ( ١ : ٣٩٥ — ٣٩٦ ) ، وتذكرة الحفاظ ( ٤ : ١٣١ — ١٣٧ ) ، وطبقات القراء ( ١ : ٣٧٥ الرقم ١٥٩٢ ) ، والشذرات ( ٤ : ٣٢٩ — ٣٣١ )

١٣ — المختصر المحتاج إليه من تاريخ بغداد : للحافظ شمس الدين الذهبي ، المتوفى سنة ٧٤٨ هـ . اختصره من ذيل تاريخ بغداد لابن الدبيثيّ ( انظر الرقم ٥ من تواريخ بغداد ) وقد أتمّ اختصاره في سنة ٧٠٤ هـ وإليك ما قاله الحاج خليفة ( كشف الظنون ٢ : ١٢٠ ) بصدده : « وأخذ شمس الدين محمد بن أحمد الحافظ الذهبي ، المتوفّى سنة ٧٤٨ ذيل ابن الدبيثي ولخّصه واختصره في نصفه » .

منه نسخة بخطّ المؤلف بدار الكتب المصرية [1] ، وهي في خمسة أجزاء تدخل في مجلّد واحد ، رقمه ٣٢٤ تاريخ، وقوامه ١٣٢ ورقة .

والذهبي صاحب هذا المختصر ، من أشهر المؤرخين في الإسلام ، وممّن عرفوا بسعة التأليف . راجع ترجمته في فوات الوفيات ( ٢ : ١٨٣ ) ، وطبقات السبكي (٥: ٢١٦ـ ٢٢١) والدرر ( ٢ : ٦٦ ) ، والشذرات ( ٣ : ٣٩٥ ) ، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني ( ٢ : ١١٠ — ١١٢ ) .

١٤ — تاريخ علماء بغداد المسمّى منتخب المختار : للتقي محمد بن أحمد الفاسيّ ، المتوفّى سنة ٨٣٢ هـ . انتخبهُ من « المختار المذيَّل على تاريخ ابن النجار » لابن رافع السلامي ، المتوفّى سنة ٧٧٤ هـ . إنَّ « المختار » لابن رافع قد ضاع على ما يُظَنّ . قال فيه

(١) فهرست الكتبخانة الخديوية ( ٥ : ١٤٥ ) ، وفهرس دار الكتب المصرية ( ٥ : ٣٣٥ )

ابن حجر ( الدرر ٣ : ٤٣٩ ) : « ... وجمع ابن رافع ذيلاً على تاريخ بغداد لابن النجّار في ثلاث مجلدات أو أربع ، ورأيتُ بعضه بخطّه » . وقال ابن العماد الحنبلي ( الشذرات ٦ : ٢٣٤ ) إنّ ابن رافع « صنّف ذيلاً على تاريخ بغداد لابن النجّار أربع مجلّدات ، وقد عُدِم هو والمعجم في الفتن » . وقال الجَزَري ( طبقات القرّاء ٢ : ١٣٩ ) إنهُ « لو ذيَّل على تاريخ دمشق لكان أولى » !

أمّا منتخب المختار للفاسيّ ، وقد عني بنشره الأستاذ عبّاس العزّاوي ( مطبعة الأهالي — بغداد ١٩٣٨ ، ٢٨٦ ص ) . وهو يحتوي على مائتي ترجمة وترجمة لمن اشتهر في بغداد .

وترجمة الفاسي في : لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ لابن فهد المكي (ص ٢٩١-٢٩٧) والضوء اللامع للسخاوي ( ٧ : ١٨ — ٢٠ ) ، والشذرات ( ٧ : ١٩٩ ) ، والبدر الطالع ( ٢ : ١١٤ ) .وترجمة السلامي في : ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني الدمشقي ( ص ٥٢ — ٥٤ ) وطبقات القراء ( ٢ : ١٣٩ ، الرقم ٣٠٠٢ ) ، والدرر ( ٣ : ٤٣٩ — ٤٤٠ ) ، وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي ( ص ٣٦٦ ) ، والشذرات ( ٦ : ٢٣٤ — ٢٣٥ ) . وقد تحرف الاسم في الشذرات إلى « ابن شافع » بدلاً من « ابن رافع ».

١٥ — جامع الأنوار في مناقب الأبرار : وهو كتاب في تراجم أولياء بغداد . ألفه باللغة التركية مرتضى افندي الشهير بنظمي زاده ، المتوفّى سنة ١١٣٣ هـ .

لهذا الكتاب ترجمتان عربيتان : الأولى نقلها أحمد بن السيد حامد فخري زاده الموصلي مفتي الموصل ، المتوفّى سنة ١٢١٩ هـ ، بإشارةٍ من سعد الله بك نجل الحاج حسين باشا الجليلي الموصلي ، الذي تولى حكم مدينة الموصل في سنة ١١٤٣ هـ ، ثم تداول أمرها سبع مرات ، وكانت وفاته سنة ١١٧١ هـ . ومن هذه الترجمة نسخة خطية في المدرسة الحسينية بالموصل ( مخطوطات الموصل ، ص ١٢٢ رقم ٢٨ ) بخطّ المترجم ، وأخرى في خزانة الأستاذ عباس العزّاوي ببغداد، وثالثة في خزانة المتحف البريطاني برقم Or. ٨٨٦٣ وهي في ٨٤ ص.

والترجمة الثانية لعيسى صفاء الدين البندنيجي ، المتوفّى سنة ١٢٨٣ هـ. نقلها بزيادات واستدراكات عليها. منها نسخة في خزانة الأب أنستاس ماري الكرملي ببغداد، في ٦٦ص.[1] ونسختان في خزانة الأستاذ عبّاس العزاوي ، إحداها قديمة . وهنالك نسخة رابعة عند جميل بك الطالباني في كركوك ، وخامسة عند الشيخ إبراهيم الدروبي ببغداد .

هذا وإنّ الكتاب بكلتا ترجمتيه غير مطبوع .

---

(١) فهرست مخطوطات خزانة مبحث الكرمليين ببغداد ( مخطوط . الرقم ٣٣٦ )

لقد كتب المستشرق كرنكو نبذة في لغة العرب (٧ سنة ١٩٢٧ ص ٢٩٨، ٢٩٩) عرّف بها هذا الكتاب. ثم تلاه الأستاذ يعقوب سركيس فوفاه حقه من الوصف والتدقيق في لغة العرب (٧ «١٩٢٧» ص٥١٨ — ٥٢٧). وقد استفدنا من كليهما في ما كتبناه على هذا الكتاب.

وترجمة الموصل في غاية المرام (سيأتي الكلام عليه) لياسين العمري (ص ٣٩٩ من مخطوط يعقوب سركيس). وفي تاريخ الموصل للقس سليمان صائغ (٢ : ٢٢١).

وترجمة البندنيجي في تذكرة الشعراء أو شعراء بغداد وكتابها في أيام وزارة داود باشا لعبد القادر الخطيبي الشهرباني. (ص ٣٤ الرقم ٢١ طبعة الأب أنستاس ماري الكرملي)، والمسك الأذفر (ص ١٣٠ ـ ١٣٢).

١٦ — رسالة في وصف حصار الأعجام لمدينة دار السلام: لعبد الجمال حسن بن عبد الباقي بن أبي بكر، المتوفى في حدود سنة ١١٥٦ هـ (راجع ترجمته في تاريخ الموصل لصائغ ٢ : ١٥٩ — ١٦٦). كتبها من بغداد إلى أحد أصدقائه في الموصل. وقد وقف على نسخة منها في ١٧ صفحة الأب صائغ فوصفها في تاريخ الموصل (٢ : ١٦٦) أولها: «تحية ألذ من نمير ماء الامداد لدى اشتداد ظماء الحصار... الخ». ولم يشر إلى محل وجودها. والمحاصرة المذكورة جرت سنة ١١٥٥ هـ.

١٧ — تاريخ قضاة بغداد: للشيخ محمد بن عبد الرحمن الرحبي البغدادي، المتوفى سنة ١١٩٧ هـ. الكتاب لما يطبع. ومنه نسخة بخط المؤلف تاريخها سنة ١١٧٣ هـ في دار آل الرحبي، وهي اليوم عند عبد القادر الرحبي المقيم في قرية بوهريز في العراق. ومنه نسخة ثانية عند الاستاذ الشيخ إبراهيم عبد الغني الدروبي، نقلها سنة ١٣٦٠هـ عن النسخة المذكورة.

١٨ — تاريخ نساء بغداد: لمحمد بن عبد الرحمن الرحبي المذكور أعلاه. وقفنا على نسخة منه لدى الشيخ ابراهيم الدروبي، نقلها بيده سنة ١٣٦٠ هـ عن النسخة الأم المحفوظة في بعض بيوتات بغداد.

١٩ — بهجة الإخوان في ذكر الوزير سليمان: لمحمود بن عثمان الرحبي. وهو في تاريخ الوزير سليمان باشا مؤسس دولة المماليك ببغداد سنة ١١٦٣ هـ. منه نسخة في خزانة المتحف البريطاني Cat. Cod. Mss. Or., No. 385 وأخرى في خزانة الأستاذ عباس العزاوي.

٢٠ — حديقة الورود في ترجمة أبي الثناء شهاب الدين محمود: وهو السيد محمود أفندي المعروف بالشهاب الآلوسي، المولود في بغداد سنة ١٢١٧ هـ، والمتوفى فيها سنة ١٢٧٠ هـ.

وهذا الكتاب مجموعة المدائح التي قالها بعض الفضلاء في حياته ، والمراثي التي رثوه بها بعد مماته . جمعها تلميذه الملاّ عبد الفتاح أفندي المعروف بشواف زاده . وهو كتاب كبير ، وقفنا على نسخة منه عند الأستاذ إبراهيم الدروبي نقلها بيده عن نسخة أخرى في بغداد .

وللشهاب الآلوسي ، ترجمة ثانية ، كتبها بعض تلاميذه طبعت في المجلد الأول من تفسيره الشهير الموسوم «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني » ( بولاق ١٣٠١هـ ) ، وعنوان ترجمته هناك « أريج الند والعود في ترجمة أبي عبد الله شهاب الدين محمود » .

٢١ — غاية المرام في تاريخ محاسن بغداد دار السلام : لياسين العمري بن خير الله العمري الخطيب الموصلي المتوفى بعد سنة ١٢٢٥ هـ . ألفه سنه ١٢٢٠ هـ وأهداه إلى الوزير يحيى باشا بن نعمان باشا الجليلي . منه نسخة في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ببغداد ، ونسختان أخريان في خزانة الأب انستاس ( فهرست مخطوطات الكرمليين ، الرقم ٢٣٦ و٦٥٩ ) كتبت الأولى سنة ١٣٣٥ والثانية سنة ١٣٣٦ هـ ، وفي كل منهما ٤٣٠ ص . وهنالك نسخة رابعة في خزانة الأستاذ عباس العزاوي ، وخامسة لدى الشيخ إبرهيم الدروبي كتبها بيده .

وترجمة المؤلف في : منهل الأولياء ( مخطوط عندنا ، ص ١٣٥ — ١٣٦ وسيرد ذكره في هذا المقال ) ، وتاريخ الموصل لصائغ (٢ : ٢٠٨—٢١٠) ، والآداب العربية في القرن التاسع عشر لشيخو ( ١ :٣١ )

٢٢ — لقط المفقود في آثار آل عبود : تأليف القدسي يوسف بن ديمتري بن جرجس الخوري عبود . أصله من حلب ، وقد غادرها سنة ١٢١٥ هـ ( ١٨٠٠ م ) وقصد بغداد . ثم طوّف في البلدان ، وعاد أخيراً إلى مسقط رأسه حلب ، فتوفى فيها سنة ١٢٢٠ هـ ( ١٨٠٦م ) . وقد كتب يعقوب سركيس ترجمة المؤلف في لغة العرب (٤ سنة ١٩١٤ ص ١٩-٢٣) . وسيأتي بنا في الرقم ٢٣ من تواريخ بغداد ، الكلام على تأليف لابنه .

وكان القدسي يوسف في أثناء إقامته ببغداد ، قد دوّن ما شاهده فيها من الأمور في كتاب وقفنا على نسخته الفريدة بخط مؤلفها في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس . وقد نشر حضرته جانباً منه بمقدمة وتعليقات في لغة العرب ( ٤ ( ١٩١٤ ) ص ١٩ — ٢٣ و ٧٠ — ٨٠ ) ثم جاءت الحرب العظمى الماضية ، فاحتجبت تلك المجلة ، وظلّ باقي الكتاب غير مطبوع .

إن ما نشره الأستاذ سركيس يحوي أخبار السنوات ١٢١٥ — ١٢١٧ هـ .

٢٣ — نبذة من تاريخ بغداد والبصرة والمنتفق في أوائل المائة التاسعة عشرة للميلاد : كتبها الشمّاس ميخائيل بن القدسي يوسف ( انظر الرقم ٢٢ من تواريخ بغداد ) بن ديمتري ابن جرجس الخوري عبّود المتوفى في كلكتة في ١٨ آب ١٨١٤ م ( ١٢٣٠ هـ ) . دوّنها حينما كان في البصرة بعنوان « بيان مقتصر شرح ما حدث بأيام عبد الله باشا والي بغداد الذي هو أول مملوك اشتراه سليمان باشا » .

نشرها يعقوب سركيس ، عن نسخة وحيدة بخطّ المؤلف محفوظة في خزانته في مجلة لغة العرب ( ٣ سنة ١٩١٣ ص ٥٦٣ ـ ٥٧٤ ، ٦٣٩ ـ ٦٥٩ ) وفي عباراتها ركاكة، قال الناشر ( لغة العرب ٣ : ٥٦٣ الحاشية ٤ ) : « لقد أبقيتُ سبك عباراتها على حالها بغير أدنى تغيير وما لم يتيسر لي قراءته أبقيتُ محله خالياً منه . وقد علقت بعض الحواشي على ما ظننت أنهُ يحتاج إلى فهمه الذين لا يحسنون لغة عوام العراق أو ليسوا منه »

٢٤ — تاريخ بغداد : لأبي المعاليَ الشيخ علي بن الشيخ محمد سعيد ابن الشيخ عبد الله السويدي البغدادي المتوفى سنة ١٢٣٧ هـ . أنبأنا مدوّنو سيرته ـ وهم قريبو عهدٍ منا ـ أن للسويدي هذا « تاريخ بغداد » لكنهم لم يشيروا إلى مواطن وجوده . ولم يتحقق لدينا وجود شيءٍ من نسخهِ في خزائن الكتب المشهورة ، فلعلّه مزويّ في أماكن مجهولة .

وترجمة المؤلف في : تذكرة الشعراء ( ص ٥٨ ) ، والمسك الأذفر ( ص ٧٣ ـ ٧٩ ) ، والآداب العربية لشيخو ( ١ : ٩٣ ) ، ولغة العرب ( ٢ ( ١٩١٣ ) ص ٣٨٣ ـ ٣٨٥ ) من مقالٍ لكاظم الدجيلي .

٢٥ — مَطَالع السُّعُود في أخبار أعلم الوزراء وأعظمهم داود : لعثمان بن سند البصري ، المتوفّى سنة ١٢٤٢ هـ وقيل في وفاته غير ذلك ( وقد مرّت الإشارة إليه في الرقم ٥ من تواريخ البصرة ) . وهو تاريخ بغداد من سنة ١١٨٨ إلى ١٢٤٢ هـ . منه نسخة في خزانة كتب الأوقاف العامة ببغداد ، تتقوّم من ٣٠٨ ورقات ، وثانية في خزانة كتب المتحف العراقي ( في ٣٩٥ ص ) ، وثالثة في خزانة الأستاذ العزّاوي . وهاتان الأخيرتان منقولتان عن نسخة الأوقاف . والكتاب غير مطبوع .

وقد اختصره في سنة ١٢٩٠ هـ أمين بن حسن الحلواني المدني ، المتوفّى سنة ١٣١٦ هـ وطبعه على الحجر في بمبي ( المطبعة الحسينية ١٣٠٤ هـ ، ٦٤ ص ) بعنوان « مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود » . وقد أضاف إليه المختصر زيادات إلى ما بعد سنة ١٢٤٢ هـ .

وترجمة الحلواني في دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية ٢ : ٦٥٩) وقد جاء هناك

قول القائل : «وممّا صنّفه ، مطالع السعود بطيب أخبار الوالي داود . وهذا ليس بصواب فإنه مختصره لا مصنّفه .

أما داود باشا ، فهو الذي تولّى الحكم في بغداد من سنة ١٢٣٢ إلى ١٢٤٦ هـ . وكانت ولادته في تفليس نحو سنة ١١٩٠ هـ . ثم تقلّبت بهِ الأحوال حتى بلغ تلك الرتبة . مات سنة ١٢٦٧ هـ .

• • •

﴿ الكوفة ﴾: كثرت المؤلفات القديمة الموضوعة في أخبار هذه المدينة العراقية الشهيرة حتى جاوزت الخمسة عشر ، لا نجد منه اليوم سوى :

١ — أخبار الوافدين من الرجال من أهل الكوفة والبصرة والوافدات على معاوية ابن أبي سفيان : لأبي الوليد العباس بن بكّار الضبّي، المتوفّى سنة ٢٢٢ هـ . وقد أسلفنا القول في هذا الكتاب ( انظر الرقم ١ من تواريخ البصرة ) .

٢ — فضل الكوفة وفضل أهلها : للسيد الشريف أبي عبد الله محمد العلوي الحسني الموجود منه المجلّد الأول في الخزانة الظاهرية بدمشق [١] .

• • •

﴿ الموصل ﴾ أمّا ما أُلّف في الموصل وأخبارها ورجالها ، فالذي أحصينا [٢] منه يفيف على الثلاثين كتاباً ، ضاع منها الكثير ، والذي صمد منها بوجه الدهر :

١ — تاريخ الموصل : للإمام المؤرّخ أبي زكريا يزيد بن محمد بن إياس بن القاسم الأزدي [٣] الذي كان قاضياً في الموصل ، وعاش في أواخر المائة الثالثة للهجرة . ذكره السخاوي ( الإعلان بالتوبيخ . ص ١٣٣ ) والحاج خليفة ( كشف الظنون ٢ : ١٤١ فلوجل) وغيرهما . والكتاب على ما ترجح الرأي عندنا يتألف من ثلاثة مجلدات ، سلم منها الثاني ، وهو مخطوط فريد في خزانة المتحف البريطاني ، كُتب سنة ٦٥٤ هـ ، وعنه نُقلت بعض النسخ : ففي دار الكتب المصرية ( انظر فهرسها ٥ : ١١٧ الرقم ٢٤٧٥ ) نسخة مأخوذة بالفتغراف . كما أنّ

( ١ ) حبيب زيات : خزائن الكتب في دمشق وضواحيها ( ص ٣٥ الرقم ٩٣ )

( ٢ ) في مقالنا « الموصل وكتب التاريخ » المنشور في مجلة « النجم » بالموصل ( ٧ سنة ١٩٣٥ ص ٣٧١ — ٣٨٢ ) تفصيلات وافية في هذا الموضوع

( ٣ ) أعددنا بحثاً لهذا الكتاب ولمؤلفه ، ننشره في فرصة أخرى .

في خزانة الخوري سليمان صائغ بالموصل نسخة فتغرافية ثانية ، نقلت عنها بيدي سنة ١٩٣٦ نسخة هي الآن في خزانتي ببغداد .

إنّ هذا المجلد ، يتناول أخبار الموصل في أواخر عهد الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية ، أي من سنة ١٠١ إلى سنة ٢٢٤ للهجرة .

وقد نشر يوسف أليان سركيس ( لغة العرب ٦ : ١٩٢٨ ص ١١٢ — ١١٦ ) نبذتين قصيرتين من هذا التاريخ :

الأولى في ذكر « الدار المنقوشة » في الموصل ، والثانية في حفر « النهر المكشوف » في الموصل . أما المجلد بكماله فلمّا ينشر .

٢ — تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل : لعز الدين بن الأثير الجزري ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ . وهو صاحب التاريخ المشهور بالكامل .

وتاريخ الدولة الأتابكية ، يتناول أخبار الموصل من سنة ٥١٢ إلى ٦١٢ للهجرة . وقد طبع في باريس سنة ١٨٧٦ في ٣٩٤ صفحة بقطع الربع الكبير ، نصف الصفحة الأعلى المتن العربي ، والنصف الآخر للترجمة الفرنسية التي وضعها ناشره المستشرق البارون دي سلان De Slane ، وذلك ضمن المجلد الثاني من مجموعة تواريخ الحروب الصليبية حسب أخبار المؤرخين الشرقيين « Recueil des Historiens des Croisades : Historiens Orientaux (T. II, 2e Partie, Paris, 1876) مأخوذاً عن النسخة الخطية الباريسية الرقة ١٨٩٨ . ويرى عنوانه في قائمة باريس هكذا : « الباهر في تاريخ الموصل » . وكلاهما شيء واحد .

وابن الأثير هذا تجد ترجمته في : الوفيات ( ١ : ٤٩٤ — ٤٩٥ ) ، وطبقات السبكي ( ٥ : ١٢٧ ) وتاريخ أبي الفداء ( ٤ : ٣٩٨ طبعة ريسكي = ٣ : ١٥٤ طبعة مصر ) ، والبداية والنهاية ( ١٣ : ١٣٩ ) ، ومفتاح السعادة لطاش كبري زاده ( ١ : ٢٠٦ ) ، والشذرات ( ٥ : ١٣٧ ) .

٣ — الروض النضر في ( تراجم ) أدباء العصر : لعصام الدين عثمان بن عليّ العمريّ الموصلي ، المتوفّى سنة ١١٨٤ هـ . ترجم فيه ١٢٣ أديباً أغلبهم من أبناء الموصل ، وأورد قطعاً من شعرهم ونثرهم . الكتاب لم يطبع . منهُ نسخة في خزانة العزاوي ببغداد . وذكر الأب صائغ ( تاريخ الموصل ٢ : ١٨٢ ) أن منه نسخة في المتحف البريطاني ، وأخرى في برلين ، كما أنهُ وقف في الموصل على نسخة أخرى في ٧٤٨ صفحة من القطع الكبير .

أما المؤلف فتجد ترجمته في : منهل الأولياء ( مخطوط عندنا ، ص ١٠٠ — ١٠١ ) ، وسلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر للمرادي ( ٣ : ١٦٤ — ١٦٦ ) ، وتاريخ الموصل لصائغ ( ٢ : ١٨١ — ١٨٥ ) .

٤ — شمامة العنبر والزهر المعنبر : لمحمد بن مصطفى الغلامي ، المتوفى سنة ١١٨٦ هـ . أغلب ما فيه تراجم شعراء الموصل وأدبائها من أهل المائة الثانية عشرة للهجرة . والكتاب في ٢٧٠ صفحة بقطع الثمن ، يشتمل على تراجم ٤٢ أديباً من الموصل ، وخمسة من بغداد ، وما لكلٍّ منهم من آثار وتصانيف . ويعدهذا الكتاب أدبيًّا أكثر منه تاريخيًّا أو سيريًّا ، فقد صرف المؤلف جلّ عنايته إلى تنميق عبارته ، وأهمل في الغالب تعيين السنين وربط الحوادث بها . منه أربع نسخ في الموصل : إحداها في خزانة الخوري سليمان صائغ ( تاريخ الموصل ٢ : ١٧٧ ) ، والثانية في خزانة شريف جلبي ابن الحاج عبد الله زكريا ( مخطوطات الموصل . ص ٢٨٧ الرقم ١ أسفل ) وهي في ١٢٤ صفحة ، تاريخها ١٢٠٧ هـ . والثالثة في خزانة عبد الله افندي ابن الحاج علي افندي العمري ( مخطوطات الموصل . ص٢٩١ الرقم٢) والرابعة في خزانة مصطفى أفندي ابن محمود افندي العمري ( مخطوطات الموصل . ص ٢٩٨ الرقم ٥ ) تاريخها ١٢٣٠ هـ . ومن هذا الكتاب أيضاً نسخة في خزانة الأب أنستاس ماري الكرملي ببغداد ( مخطوطات الكرمليين . الرقم ٣٥٤ ) كتبت سنة ١٣٢٢ هـ في ٣٣٢ ص . وأخرى في خزانة الأستاذ العزاوي .

الكتاب لم يطبع ، وإنما نشر خلاصته الأستاذ محمد رؤوف الغلامي [١]

وترجمة المؤلف في سلك الدرر ( ٤ : ١٢٤ ) وقد قال إن وفاته كانت في سنة ١١٧٦ هـ بخلاف المراجع الأخرى . وله ترجمة في منهل الأولياء ( مخطوطنا . ص ١١٠ — ١١٢ ) ، وتاريخ الموصل ( ٢ : ١٧٦ — ١٧٩ ) وفي « الشمامة » ذاتها : وقد أفرد الأستاذ محمد رؤوف الغلامي كتاباً قائماً بذاته في ترجمته عنوانه » العلم السامي في ترجمة الشيخ محمد الغلامي » ( الموصل ١٩٤٢ ) .

٥ — منهل الأولياء ومشرب ( ومورد ) الأصفياء في سادات الموصل الحدباء : لمحمد أمين بن خير الله الخطيب العمري الموصلي ، المتوفى سنة ١٢٠٣ هـ . دون فيه تاريخ الموصل منذ عصورها حتى نهاية سنة ١٢٠١ هـ . ووطأ له توطئة في وصف موقع الموصل وما يجاورها من القرى والبقاع .

---

( ١ ) راجع ذلك في كتاب العلم السامي ( ص ٢٦٥ — ٢٩٧ )

ثم بحث في حكومات الموصل، وقد أوجز في هذا الباب واستعان فيه بما تقدمه من الأسفار التاريخية وعلى الأخص تاريخ أبي الفداء . ثم أفرد بحثاً خاصاً لرجالات الموصل وفضلائها مع إيراد شيء من نظمهم أو نثرهم . ثم ذكر سير الأنبياء والأئمة والشيوخ والصالحين ذوي المراقد والمقامات في مدينة الموصل . وهذا البحث ، مع ما يعتوره من مواطن ضعيفة ، يعد من أهم وأقدم ما كتب في المراقد والمزارات الموصلية[1] . ثم ختم المؤلف كتابه ببحث في كرامات الأولياء . فالكتاب إذن مرتب على مقدمة وأبواب وخاتمة . وهو لم يطبع . منهُ نسخ خطية كثيرة : إحداهنَّ في برلين Ahlwardt, No. 9801 كتبت سنة ١٢٦٣ هـ . وقد وصفت هذه النسخة أيضاً في فهرست المخطوطات السريانية في برلين Sachau, No. 335 والنسخة الثانية في خزانة المتحف البريطاني بلندن Rieu, No 679 تاريخها ١٢٩٧ هـ . وفي الموصل نسخة في خزانة سليمان بك الجليلي (مخطوطات الموصل . ص ٢٨٧ الرقم ٢ ) ، وثانية في خزانة الدكتور داود الجلبي (مخطوطات الموصل . ص ٢٨٥ـ ٢٨٦ الرقم ٧٦) ، وثالثة في خزانة الخوري سليمان صائغ . وفي بغداد نسخة في خزانة كاتب هذه السطور ، وأخرى في خزانة الأستاذ عباس العزاوي . كما أن في دار الكتب المصرية ( فهرست الدار ٥ : ٣٧٢ ) نسخة رقمها ٣١٩٣ ، وأخرى في خزانة كتب البلدية بالإسكندرية ( معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف إلياس سركيس . حاشية الصفحة ٣٥) وأخرى في خزانة جامعة استانبول .

فتكون نسخ هذا الكتاب التي وقفنا على خبرها بلغت عشراً . فليته ينشر بالطبع لتعم فوائده القراء .

وترجمة المؤلف في : الدر المنتثر لأخيه ياسين العمري ( مخطوط ) ، وغرائب الأثر في حوادث ربع القرن الثالث عشر لياسين العمري أيضاً (ص ١٩ طبعة صديق الجليلي ) وتاريخ الموصل (٢: ٢٠٥ — ٢٠٨) .

وقد اختصر هذا الكتاب الأستاذ سليمان الدخيل . ومن هذا المختصر نسخة في خزانة الأب أنستاس ( مخطوطات الكرمليين ببغداد . الرقم ١٤٨ ) .

٦ — منية الأدباء في تاريخ الحدباء : وهو في أخبار الموصل وأدبائها وشعرائها ، لياسين

---

(١) نذكر في هذا المقام كتاباً ألفه نقولا سيوفي ، قنصل فرنسة في الموصل ( المتوفى سنة ١٩٠١ ) جمع فيه ما وقف عليه من الكتابات العربية المحررة فوق أبنية الموصل كالمساجد والمراقد والمدارس وغيرها . وهو مخطوط في باريس Blochet, Eo 5142 وعنه صورت نسخة لخزانة كتب المتحف العراقي ببغداد . وقد وصفنا هذا الكتاب النفيس في مجلة النجم (١٠ سنة ١٩٣٨ ص ١٣٥ — ١٤٤)

الخطيب بن خير الله العمري الموصلي ، المتوفى بعد سنة ١٢٢٥ هـ . لقد ذكرنا في مطاوي بحثنا ( انظر الرقم ٢١ من تواريخ بغداد ) كتاب ياسين في تاريخ بغداد ) الموسوم بغاية المرام . أما هذا الثاني الذي وضعه في تاريخ الموصل فمنه نسخة في المتحف البريطاني Cat. Cod. Mss. Or., p 578 برقم ١٢٦٥، تاريخها ١٢٣٢هـ وهذه موضوعات الكتاب:

فصل في ذكر الموصل الحدباء . فصل في ذكر من ملكها في الاسلام . فصل فيما في الموصل من مراقد الأنبياء. فصل في ذكر ما كان للموصل من القرى والحصون في الزمان القديم. فصل فيما وقع بها من الحوادث السماوية والأرضية والفتن . خاتمة في ذكر دجلة ومحاسنه وسبب أصله . وهذا الكتاب غير مطبوع

٧ — شجرة في نسب نقباء الموصل: لا نعلم واضعها ، منها نسخة في خزانة المحامي محيي الدين أبي الخطاب بالموصل (مخطوطات الموصل ص. ٢٩٨ الرقم ٤ في الأعلى ) . كان هؤلاء النقباء فيما مضى أسرة كبيرة ، تولت النقابة في الموصل قروناً ، وصار لها فروع في نصيبين وغيرها ، ثم انقطع ذكرها في نحو أواسط المائة الثامنة للهجرة .

٨ — تراجم بعض علماء الموصل : مخطوطة جاء في أولها : « هذه أوراق في ترجمة بعض العلماء والشعراء والأدباء الناشئين في بلدة ( الـ ) موصل الخضراء ، في تاريخ المائة الثانية عشرة من هجرة سيد البشر الذين هم قبل المائة بسنين . والمخطوطة في خزانة الأستاذ عيسى اسكندر المعلوف بزحلة ( لبنان ) ، في مجموع يتألف من ١١ قسماً ؛ والبحث المشار إليه هو السادس من أقسام ذلك المجموع ( راجع : مجلة النجم ١ ( ١٩٢٩ ) ص ٥٦٨ — ٥٧٣ ، المراجعة ص ٥٧٢ ، ولغة العرب ٥ (١٩٢٧)ص ٧٠ — ٧٦ ) . ويرى الدكتور داود الجلبي ( لغة العرب ٥ ( ١٩٢٧ ) ص٢٣٤ ) أن هذه المخطوطة إنما هي كتاب الدر المنتثر في تراجم فضلاء القرن الثاني عشر لياسين العمري .

٩ — حصار نادرشاه ( طهماسب قولي ) للموصل وانسحابه عنها خائباً : وهي أرجوزة تاريخية في ٤٥٨ بيتاً ، وصف فيها الناظم محاولة نادرشاه الاستيلاء على الموصل سنة ١٧٤٢ م وخيبته في ذلك ، مطلعها :

أحمدُ ربي خالقي معيني     في كل وقت وكل حين

وهي لم تطبع . منها نسخة في خزانة امين بك الجليلي بالموصل (مخطوطات الموصل ص ٢٦٤ المجموع رقم ١٢ ) ، وأخرى في خزانة الدكتور داود الجلبي ( مخطوطات الموصل ص ٢٧٩ ، الرقم ٦١ ، الفقرة ٣ ) .

١٠ — أرجوزة خليل افندي البصيري في وصف حصار الموصل : وهو خليل بن علي البصير ، المتوفى سنة ١١٧٦ هـ ، بعث بها إلى السيد عبد الله افندي ( سيأتي ذكره ) وصف فيها محاصرة الموصل أيضاً . وهذا مطلعها :

الحمد لله السـلام المؤمن الملك المقتـدر المهيمن

وآخرها : ما اشتدتِ الفتنة والمخاصمه وامتدتِ الهُدْنَة والمسالمه

إني أنا المُقِرُّ بالتقصيرِ المستهامُ الحافظُ البصيري

والأرجوزة في ٦٩ بيتاً . منها نسخة في خزانة برلين ,Ahlw, No, 9802. A تاريخها ١٢٤١ هـ . وهي لم تطبع .

ترجمته في : منهل الأولياء (مخطوطنا ، ص ١٠٥ )، وسلك الدرر (٢ : ١٠٢ — ١٠٣) وقد أورد المرادي له هناك ثمانية أبيات ضادية القافية ، أرّخ فيها محاصرة الموصل ، مطلعها:

كفى الله أهل الموصل الشر إذ أتى عدوٌّ لهم من جانب الشرق ناهض

والخليل البصيري ترجمة مطولة في تاريخ الموصل ( ٢ : ١٧١ ـ ١٧٤ ) ، ومتوسطة في تذكرة الشعراء (ص ٢٣ — ٢٤ ) ، وموجزة في مخطوطات الموصل ( ص ١٥ ) والعلم السامي (ص ٥٢ و ٢٧٠ ) .

١١ — أرجوزة أخرى في حصار نادر شاه للموصل : قوامها ٢١٥ بيتاً ، هذا مطلعها :

الحمـد لله العزيز الغالب الناصر المد ذي المواهب

وآخرها : ما أغمدت قواضب الكفاحِ بين الورى في السلم والصلاح

من المحبّ المخلص المباهي بحب أهل الفضل عبد الله

و « عبد الله » هذا ، هو الذي بعث إليه خليل البصيري بأرجوزته المارة الذكر . وهو السيد عبدالله الموصلي المعروف بالفخري ، المتوفّى سنة ١١٨٨ هـ ( طالع ترجمته في : منهل الأولياء ) مخطوطنا ، (ص ١٠٤ـ١٠٥)، وتاريخ الموصل (٢ : ١٨٧ ـ ١٨٩) ، والعلم السامي ص ٢٦٩). وهذه الأرجوزة لم تُطبع . منها نسخة في خزانة برلين .Ahlw, No 9802. B تاريخها ١٢٤١ هـ . ونسخة أخرى في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ببغداد ( ضمن مجموع أدبي، وهي في الصفحة ٢٣٦ إلى ٢٥٠ منهُ) وقد أوردها الشيخ عبد الرحمن السويدي المتوفى سنة ١٢٠٠ هـ في كتابه « حديقة الزوراء في تاريخ الوزراء » .

وترجمة السويدي في : سلك الدرر ( ٢ : ٣٣٠ ) والمسك الأذفر (ص ٦٥ — ٦٨ ) ، والآداب العربية لشيخو ( ١ : ٩٢ ) ، ولغة العرب ( ٢ (١٩١٢) ص ٢٧٨ — ٢٨٠ من مقال الاستاذ كاظم الدجيلي ) .

ومن هذا الكتاب النسخة الأمّ في المتحف البريطاني ، وعنها نسخة مصوّرة في خزانة عباس العزاوي . وذكر الأستاذ عز الدين التنوخي ( مجلة المجمع العلمي العربي ٨ سنة ١٩٢٨ ص ٤٤٩ ) أن من حديقة الزوراء نسخة في المدينة المنوّرة ، في خزانة شيخ الاسلام عارف حكمت . وقد اختصر هذا الكتاب سليمان الدخيل ، فجاءت « الأرجوزة » في المختصر ، الذي نجد نسخته الأصلية في خزانة الأب أنستاس ماري الكرملي ، وعنها نقلت نسخة الأستاذ يعقوب سركيس .

١٢ — أرجوزة السويدي في حصار الموصل : وهي للشيخ عبد الله السويدي المتوفى سنة ١١٧٤ هـ ، عارض بها أرجوزة البصيري ، مطلعها :

الحمــد لله المعزّ الحافظ إذ بات ذو الفتوى بعيش خافض

وآخرها :

ما قامت الفرسان للمجادلهْ لنصر دين الله في المباهلهْ

والأرجوزة تقوم على ١٦٨ بيتاً . منها نسخة في خزانة الأستاذ يعقوب سركيس ، ضمن المجموع المذكور آنفاً [١]

وترجمة المؤلف في : سلك الدرر ( ٣ : ٨٤ — ٨٦ ) ، والمسك الأذفر ( ص ٦٠—٦٤ ) والآداب العربية لشيخو ( ١ : ٩٢ ) ، ولغة العرب ( ٢ ( ١٩١٢ ) ص ٢١٩ — ٢٢٣ )

• • •

﴿ النجف ﴾ لمدينة النجف أخبار كثيرة في المصنّفات التاريخية والبلدانية . وقد بلغت المؤلفات الموضوعة فيها خاصة نحواً من خمسة ، انتهى إلينا منها :

١ — كتاب فرحة الغري [٢] : للنقيب السيد العلامة الفقيه غياث الدين عبد الكريم ابن السيد أحمد الطاووسي [٣] ، المتوفّى سنة ٦٩٣ هـ من آل طاووس العلويين المشاهير . طبع في إيران سنة ١٣١١ هـ .

٢ — الدلائل البرهانية في تصحيح الحضرة الغروية : وهو مختصر فرحة الغري ، لمؤلف مجهول . قال صاحب ماضي النجف وحاضرها (ص ٣): إنه رآه في الخزانة الرضوية سنة

---

( ١ ) في مخطوطات الموصل ( ص ٢٦٤ ، الرقم ١٢ ) وصف مجموعة في خزانة أمين بك الجليلي ، « فيها ثلاث رسائل تبحث عن محاولة نادرشاه الاستيلاء على الموصل وعن خيبته . إحداها منظومة تركية ، والثانية نثر تركي ، والثالثة منظومة عربية » . ونحن لا نعرف شيئاً عن هذه الثالثة ولا عن قائلها .

( ٢ ) راجع ماضي النجف وحاضرها : لجعفر ابن الشيخ باقر آل محبوبة النجفي ( ص ٣ )

( ٣ ) نود أن نشير خاصة إلى أن له ترجمة موجزة في الحوادث الجامعة ( ص ٤٨٠ )

١٣٤٩ هـ . وقد نسبه السيد جعفر آل بحر العلوم ( ماضي النجف وحاضرها . ص ٣ ) إلى الشيخ أحمد الجؤذري النجفي ، الذي اختصره سنة ١٠٤٨ هـ .

• • •

﴿ واسط ﴾ كانت مدينة واسط عظيمة الشأن في تاريخ العراق ، ممّا حمل المؤرخين على العناية بتدوين أخبارها . وقد بلغت المؤلفات الموضوعة في تاريخها خمسة ، لا نعرف منها اليوم سوى واحدٍ فقط ، وهو :

« تاريخ واسط » : لأسلم بن سهل الرَزّاز الواسطي المعروف بِبَحْشَل ، المتوفّى سنة ٢٨٨ وقيل ٢٩٢ للهجرة . نسخته الفريدة في الخزانة التيمورية ( الرقم ١٤٨٣ تاريخ ) بدار الكتب المصرية . وعنها نُقِلتْ نسختان هما الآن في خزانة كتب المتحف العراقي ببغداد ، إحداهما مصوّرة ، والثانية مخطوطة . وعن هاتين النسختين نقلنا نسخة لخزانتنا .

وكنّا قد نشرنا في جريدة « الأخبار الأسبوعية » [١] بحثاً مستفيضاً عن هذا الكتاب الذي لم يطبع وعن مؤلفه ، كما أننا اخترنا منهُ فقرات كثيرة ، كانت أول ما نشر من هذا التاريخ .

وترجمة المؤلف في : معجم الأدباء ( ٢ : ٢٥٦ ) ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ( ٢ : ٢١٢ ) ، وتاج العروس للسيّد مرتضى الزبيدي ( ٢ : ٢٢٢ ) . وقد نوه بذكره السمعاني في الأنساب (مادة : الواسطي ) ، وياقوت الحموي في معجم البلدان . والرزاز نسبة إلى « الرزازين » المحلة السفلى بواسط على ما في معجم الأدباء وتذكرة الحفاظ . وقد أغفلته كتب الأنساب التي يصل اليها الباحث ، فهو من المستدركات عليها .

• • •

﴿ خاتمة البحث ﴾ فهذه على ما رأيت ، قرابة مائة وعشرين كتاباً عربيّاً قديماً ، صنفت في تاريخ ست مدن عراقية لا غير . ولسنا نعرف منها اليوم سوى ثلثها ، بل أقل من ذلك إن تحرينا الأمر تحرياً صادقاً . فكم خسارتنا يا ترى في هذا الشأن ؟ وأين نحن من مخلفات السلف التي جاوزت حدود التصديق لسعتها ووفرتها ؟ وهل يأتي يوم يعثر فيه على ما ضاع أو على بعضه ، فتقر به عيون العلماء والباحثين ، وتتسع به ثروتنا الأدبية والتاريخية ؟

بغداد كوركيس عواد

---

( ١ ) راجع أعدادها ٧ و ٨ و ٩ الصادرة في بغداد ، بتاريخ ٨ و ٢٢ تشرين الأول و ٥ تشرين الثاني من سنة ١٩٣٨

# باب الأخبار العلمية

## جوائز نوبل في الطب ووظائف الأعضاء

أذيع من ستوكهلم عاصمة السويد أن جائزتي نوبل في الطب ووظائف الأعضاء في سنتي ١٩٤٣ و ١٩٤٤ منحتا لأربعة علماء في الولايات المتحدة ، ثلاثة منهم أميركيون والرابع دنماركي فرّ من الدنمارك ولجأ إلى أميركا منذ أربع سنوات .

وقد منحت جائزة سنة ١٩٤٣ للدكتور إدورد أدلبرت دويزي أستاذ الكيمياء الحيوية في مدرسة الطب بجامعة سان لويس ، وللدكتور هندريكس دام الدنماركي الملحق الآن بمستشفى سترونغ التذكاري بمدينة روتشستر في ولاية نيويورك .

أما جائزة سنة ١٩٤٤ فقد منحت للدكتور جوزيف إرلانجر أستاذ وظائف الأعضاء في جامعة وشنطن بمدينة سان لويس وللدكتور هربرت سبنسر جاسر مدير معهد روكفلر ، لبحثهما في الوظائف المختلفة لأعصاب معيّنة

## فيتامين النزف

إن البحث الذي منحت من أجله جائزة ١٩٤٣ للعالمين دام ودويزي مداره كشف الفيتامين K المانع للنزف وتحقيق فوائده ووجوه استعماله . وقد وصفنا بحثهما في المقتطف ( إبريل ١٩٤١ صفحة ٣٨٩ ) وقد روينا حينئذٍ حادثة نعيدها هنا لأنها تمثل خير تمثيل ، تأثير هذا الفيتامين ونفعهُ :

فالمعروف الآن ان مقدار المادة التي تجمد الدم ، قليلة جدًّا في الوليد لأسباب مجهولة . وأصغر جرح يصيب الصغار عند الولادة أو في الأيام الأولى بعدها يستنزف دمهم فيموتون . ومن الشواهد على نفع هذا الفيتامين أن طفلاً ولد وبعد ولادته بثلاثة أيام ، وجد دم في أنفهِ فاستخرجت قطرة دم من قدمه للبحث ، فوجد أنها جمدت بعد ١١ دقيقة من استخراجها . وبقي دم جرح القدم يسيل ١٢ ساعة فجرّع مقداراً صغيراً من فيتامين K فوقف النزف من قدمهِ وبعد ٩٠ دقيقة قصر وقت تجمّد الدم إلى النصف ثم إلى الوقت العادي وهو ٣ دقائق.

## الكينا المصنوعة

وفّق عالمان أميركيان شابان - روبرت ودوارد ووليم دورنغ - إلى صنع الكينا بالتأليف الكيميائي، خلافاً بذلك مشكلة ما فتئت تشغل فريقاً من الكيميائيين منذ قرن من الزمان.

والكينا المصنوعة بالتأليف الكيميائي، تختلف عن البلاسموكين والأتبرين، وهما كالكينا عقاران فعّالان في قتل طفيلي الملاريا. على أن البلاسموكين والأتبرين بديلان من الكينا أي أنهما مادتان تفعلان فعل الكينا، على حين أن الكينا المصنوعة هي الكينا الطبيعية ذاتها ولكنها مصنوعة بأيدي البشر بدلاً من أن تستخلص من لحاء الشجر.

وفائدة الكينا المصنوعة، أنها تضمّ إلى الكينا الطبيعية وغيرها من العقاقير الصالحة لمكافحة الملاريا، في شن حرب شعواء على الملاريا في البقاع التي يكثر فيها المصابون ويعزّ العلاج. فإذا استطاع المهندسون الكيميائيون تطبيق أسلوب ودوارد ودورنغ على مقتضيات الانتاج التجاري الواسع النطاق كان عمل هذين العالمين نعمة من أعظم نعم العلم الحديث.

## مركز الحياة في البيضة

ليس صفار البيضة هو الذي يتحوّل جنيناً ففرخاً. إنما هو معين الطعام الذي يعتمد عليه الجنين في التغذية بعد تكوّنه. أما مركز الحياة في البيضة، فهو خلية صغيرة مكانها في أحد جانبي الصفار، ولا تمكن رؤيتها إلاّ مكبرة بالمجهر.

## للكرنب نفع طبي

في القرن الثالث قبل التاريخ الميلادي أشار أحد حكماء الرومان باستعمال الكرنب المعروف في علاج الجروح. والبحث العلمي الحديث يميل إلى تأييد هذا القول. فقد وجد بيدرسون وفيشر، الباحثان في مركز التجارب الزراعية في نيويورك، أن في الكرنب مادة تفتك ببعض أصناف البكتيريا، وقدما نتيجة بحثهما في رسالة تليت في جمعية البكتريولوجيين الأميركيين. وهذه الأصناف هي ما يوصف عادةً بلفظي: « جرام السلبية » أي التي لا تنصبغ بحسب طريقة جرام للفحص المجهري، ومن أمثالها باشلس القولون. فأكل الكرنب الغض قد ينفع في السيطرة على نمو بعض أنواع البكتيريا في المعى.

ولهذه المادة تأثير في بعض أنواع الستافيلوكوكس، التي تكثر عادة في الجروح، وهو تأثير لا يجاري تأثير البنيسيلين، ولكنه يكفي لتأييد ما قاله الحكيم الروماني، منذ ثلاثة وعشرين قرناً تقريباً.

# فهرس الجزء الرابع

## من المجلد الخامس بعد المائة


٢٩٥ النقل الجوي الدولي : لفؤاد صروف

٣٠٢ رحلة خابت (قصيدة) : لبشر فارس

٣٠٤ هل نجحت الحرية في التاريخ : لقسطنطين ثيودوري

٣١١ صاحب الزمار (قصة) : لبلاسكو إيبانيز ، نقلها صديق شيبوب

٣١٧ الحيوان المنمي : للأب أنستاس ماري الكرملي

٣٢٢ التكييف الاقتصادي : لسعد إبرهيم النمري

٣٢٨ شعب پولندة وطبقاته : لحسين المهدي غنام

٣٣٨ المدرسة الأمجدية : للدكتور أسعد طلس

٣٤١ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد

٣٤٤ عمر الخيام كما أعرفه : لمحمود النجوري

٣٤٧ باب المراسلة والمناظرة * حول المجلد الخامس من كتاب الحيوان للجاحظ : لعبد السلام محمد هارون


### باب التعريف والتنقيب


٣٥٥ ١ — الكتب : « الحياة الانسانية عند أبي العلاء » تأليف بنت الشاطىء . نقد بقلم إبرهيم عبد القادر المازني — كتب أخرى ظهرت

٢ — التحقيق : كلمتان في الديوان المنسوب إلى المعري . بقلم : خليل شيبوب ومحمد عبد الغني حسن

٣ — المصادر : ما سلم من تواريخ البلدان العراقية . بقلم : كوركيس عواد

٣٩٠ باب الأخبار العلمية * جوائز نوبل في الطب ووظائف الاعضاء . فيتامين الزف . الكينا المصنوعة . مركز الحياة في البيضة . للكرنب نفع طبي

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد الخامس بعد المائة

١ دسمبر سنة ١٩٤٤ — ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٦٣

# التعرض للضوء

## وتأثيره في خواص الأحياء وتكاثرها

الشمس هي المصدر الذي تستمد الأرض منه الطاقة اللازمة لكل عمل طبيعي أو حيوي على سطحها . وقد تؤخذ الطاقة مباشرة من الشمس كما تفعل حبات اليخضور في أوراق النبات الأخضر ، أو قد تؤخذ مداورة كما يفعل الانسان حين يولد الطاقة المحركة من الماء المنحدر . فهذا الماء لم يرتفع إلى رأس المنحدر ، إلاّ بفعل حرارة الشمس التي بخرته ثم انعقد في الجو غيماً فقطراً فجرى منحدراً من أعلى إلى أسفل .

فمن البداهة أن يكون لأشعة الشمس تأثير في حياة النبات والحيوان ، وأن يتباين هذا التأثير ، بتباين مدّة التعرض لضوء الشمس ، وباختلاف الأشعة التي يتألف منها هذا الضوء وبعوامل أخرى .

إن طول النهار يختلف باختلاف خط العرض ، وباختلاف الفصل من السنة ، فطول النهار وطول الليل متساويان تقريباً عند خط الاستواء . أما عند القطبين ، فان الشمس تشرق نحو أربع وعشرين ساعة متصلة في بعض الصيف يوماً بعد يوم ، والظلام يرين نحو أربع وعشرين ساعة متصلة في بعض الشتاء يوماً بعد يوم ، والبلاد الواقعة بين خط الاستواء والقطبين يتفاوت فيها طول النهار والليل بتفاوت الوضع الجغرافي وفصل السنة .

ولكن مدّة الاشراق والظلام ، ليست العامل الوحيد ، في ما لضوء الشمس من تأثير . فشدة ضوء الشمس تختلف كمربع البعد عن الشمس ، ولما كان فلك الأرض إهليجيّاً والشمس

في أحد محترقيه ، فشدة ضوء الشمس الساقط على الأرض تزيد أو تنقص وفقاً لوجودها في نقطة الذنب أو نقطة الرأس ، وهذا الفرق يبلغ نحو ٧ في المائة . ثم إن بعض الاختلاف في شدة ضوء الشمس يرجع إلى ما في الهواء من دقائق الغبار أو بخار الماء ، وإلى انحراف الشمس عن السمت ، وهو كبير في الشتاء ، ولذلك نجد أن مقداراً واحداً من ضوء الشمس في وقت واحد من النهار ، أضعف وأقل حرارة في الشتاء منهُ في الصيف .

وأنواع الأمواج التي يتألف منها ضوء الشمس ، تختلف كذلك . فالضوء الابيض — ومعظم طاقتهِ مركز في منطقة اللون الأصفر — تكثر فيهِ الأشعة الحمر حين تنحدر الشمس إلى المغيب ، والأشعة الحمر أطول أمواجاً فهي أضعف طاقة من الأشعة الصفر . والتبديل في أنواع الأمواج التي يتألف منها ضوء الشمس الواصل إلينا ، مردهُ إلى تأثير الغلاف الغازي الذي يحيط بالأرض ، في الأشعة حين تخترقهُ . فضوء الشمس أغنى بالأمواج الزرق البنفسجية في الصيف في المنطقة الشمالية المعتدلة ، منهُ في الشتاء .

***

إلى هذه الحقائق تردُّ المباحث الحديثة في النبات والحيوان ، لمعرفة مدى تأثرها بطول تعرضها لأشعة الشمس أو بقصره . وقد أسفرت هذه المباحث عن حقائق غريبة ، في نمو النبات والحيوان ، وخواصهما وتكاثرهما .

من الأمور التي في حكم النواميس الطبيعية التي لا تحول ، انتظام ازدهار أصنافٍ من النبات في فصولٍ معيَّنة من السنة .

وقد أثبت البحث أن للحرارة شأناً عظيماً في هذا الإزهار ، ولكنهُ أثبت كذلك أن العامل المسيطر على الإزهار هو طول النهار ، أو مدة التعرُّض لضوء الشمس . فمن النبات ما يزهر في الخريف حين تكون مدَّة التعرض لضوء الشمس أقصر منها في الصيف . فهذا النبات يزهر في الصيف إذا وضعتهُ في مستنبت معتم وعرضتهُ لضوء في المستنبت تعريضاً لا تزيد مدتهُ على مدة تعرضه لضوء الشمس في الخريف . وقد أثبت باحثان يدعيان جارنر والارد أنهما يستطيعان أن يحملا نباتات شتى على الازهار ، في غير مواعيد إزهارها الطبيعي بضبط ساعات تعرُّضها للضوء . وذلك بغرسها في مستنبتات معتمة ، وتعريضها تعريضاً دقيقاً لضوء الشمس عدداً معيَّناً من الساعات .

والنباتات الزهرية — في عرف هذين الباحثين — ثلاثة أصناف عامة ، من حيث تأثرها

بزمن تعرضها للشمس . فالصنف الأول يبدأ الإِزهار حين يكون النهار قصيراً ، وآخر يبدأ الإِزهار حين يكون النهار طويلاً ، والثالث لا يتأثر تأثراً ظاهراً بطول تعرّضه لضوء الشمس أو قصره .

وقد طبقت هذه الحقائق تطبيقاً عمليًّا على أحد أصناف التبغ . فهو ضخم الأوراق وإذن فالعناية بانباتهِ لها فائدة اقتصادية . ولكنهُ لا يزهر ولا يولد بزراً في أيام الصيف الطويلة . فأُجريت التجارب عليهِ في مستنبت في فصل الشتاء لجاد ، وإذا ظهر أن قصر تعرّضهِ لضوء الشمس في أيام الشتاء لا يكفيهِ للإِزهار والبذر ، عُرِّض مدة إضافية معيَّنةً للضوء الكهربي .

***

هذه البحوث الحديثة ، تفتن الالب ، وتكشف عن بعض أسرار الحياة ، وتعين على تحسين أصناف النبات . وقد فصلنا بعض نواحيها في المقتطف، ثم في كتاب « الفتح مستمر » . على أننا اطلعنا منذ عهد قريب على وصف مباحث من هذا القبيل أجراها العالم بيسو نيت Bissonette — وهو عالم أميركي وأستاذ في كلية ترينتي بهارتفورد كونكتكت — على أصناف من الحيوان ، أسفرت عن نتائج تبعث على العجب والإِعجاب ، ولا بدَّ أن تجنى منها فائدة علمية واقتصادية عظيمة .

فحين قال الشاعر تنيسون، في قصيدتهِ لكسلي هول : « إن هوى الشاب يتجه إلى الحب في الربيع » كان الرأي أن عودة الدفء إلى الأرض يوقظ الطبيعة من غفوة الشتاء ، ويحث على النشاط ، وأنَّ دفءَ الفصل المقبل يجهز الأحياءَ من نبات وحيوان بفيض من الطاقة لا بدَّ منهُ في النموّ والحركة .

ولكن التفسير الجديد الذي أسفر عنهُ بحث بيسو نيت في الحيوان ، وبحوث الآخرين من أمثال جارنر وألارد في النبات ، هو أن زيادة التعرُّض لضوء القمر ، في أيامٍ آخذة في الطول ، هو سرُّ الميل إلى الحب والنموّ .

يعد الأستاذ بيسو نيت ، أعظم ثقة في العالم في موضوع تأثير الضوء في وجوه التغير الذي يقع في الأحياء في الفصول المختلفة . وقد أجرى تجارب على حيوانات شتى ، أسفرت عن وجوه من التأثر والتغيُّر، كانت تسنَد من قبل ، إلى اختلاف درجة الحرارة وحسبُ .

فقد تمكن بيسو نيت من أن يحمل بعض الحيوانات على أن تتخذ لها في الشتاء الفروة التي

تتخذها في الربيع ، وبعضاً آخر على أن يلد بطنين من الولد في السنة بدلاً من بطنٍ واحد ، وقسر طيوراً على أن تبيض في ثلج الشتاء بيضاً لم تكن تبيضه إلاّ في أيام الربيع الدافئة .

وقد ظفر بهذه النتائج ، بتغيير مدى تعرضها للضوء سواءٌ أصناعيًّا كان الضوء أم طبيعيًّا . فبعضها ظفر بهِ باطالة النهار — أي مدة التعرُّض للضوء — وبعضها بتقصير هذه المدة . والبعض الآخر بتعريض الحيوان للضوء زمناً قصيراً فزمناً طويلاً على التوالي .

وقد أثبتت طائفة من التجارب أن ثمة زمناً معيناً من التعرض للضوء ، يجعل بعض الانواع من الحيوان في حالة قابلة للاستجابة للمؤثرات الطبيعية . وبهذا يفسر سر الطيور القواطع . فطول النهار أو قصره هو العامل الحاسم في هجرة هذه الطيور ، ولا يتغير تأثيره في حر أو برد .

وقد أجريت إحدى التجارب على ابن عرس ، فاستطاع بيسونيت أن يحمل هذا الحيوان على أن يرتدي في الربيع الثوب الأبيض أو القريب من البياض الذي ألف ارتداءه في الشتاء وعلى الاحتفاظ بهذا الثوب الابيض خلال الصيف والخريف ، ثم على أن يرتدي في يناير وفبراير الثوب الأسمر الأدكن الذي ألفه في الصيف، وقد كانت درجة الحرارة هي الدرجة الخاصة بكل فصل من الفصول لم يعترها تبديل ، ولكن زمن التعرض للضوء وحده هو الذي تبدَّل . فعرض ابن عرس في الصيف لجو حرارته كحرارة الصيف ، ولكن مدة تعرضهِ للضوء فيهِ كانت كمدة تعرضهِ للضوء في يوم من أيام الشتاء، فاتخذ ابن عرس في الصيف الثوب الأبيض أو القريب من البياض الذي يألفهُ في الشتاء .

وقد تمادى بيسونيت في تجربتهِ التي أجراها على ابن عرس، فجعلهُ يغير لون ثوبه أربع مرات — من أبيض إلى أسمر ثم إلى أبيض فأسمر — بدلاً من مرتين بتعريضهِ للضوء مدداً تحكم في طولها وقصرها .

من الفراء المشهورة فراء حيوان يعرف باسم «المنك» وهو ثمين فاخر ، وأفخرهُ وأغلاهُ ما كان مصنوعاً من فراءهذا الحيوان في فصل الشتاء . وجلد حيوانٌ واحد قد يبلغ ثمنهُ ٢٥٠ جنيهاً، ولكن بيسونيت أثبت بالتجريب العملي في مزرعة لحيوان المنك في أميركا انهُ يستطيع أن يجعل فراء الحيوان في الصيف كفرائهِ الثمينة المطلوبة التي يمتاز بها في الشتاء .

ويلوح أن حيوان المنك رقيق المزاج فقد أثر في بعضه تقصير زمن تعرضه للضوء ، في فصل الصيف ، فاضطرب جهازه العصبي ، فلم يتخذ لنفسه ثوبهُ السويَّ ، حتى حين حلَّ فصل الشتاء فعلاً .

وقد حمل حيوان « الراكون » على أن يولد مرتين في السنة بدلاً من مرة واحدة ، بزيادة تعريضه لضوء المصباح ، في فصل الخريف بعد أنْ يقلَّ الضوء الطبيعي ، حين يقصر النهار . وحين أعيدت هذه التجربة ، للاستيثاق ، ظهر أمر عجيب . ذلك بأن الطعام المقدَّم لهذه الحيوانات ، كان ينقصهُ بعض المواد البروتينية . وكان النقص راجعاً إلى خطإٍ في تدبير الطعام . ولكن ظهر أن هذا النقص أسفر في الحيوانات المعرَّضة لضوء المصباح ، عن معدَّل أعلى في حمل الإِناث ، وعددٍ أكبر من الولد في كل بطن ، بالقياس إلى الحيوانات الأخرى التي ظلت في المعمل تعيش عيشتها السوية المألوفة .

ويقابل هذا أن الماعز يزداد تناسلهُ حين يكون النهار قصيراً . ويقل تكاثرهُ حين يكون النهار طويلاً .

ولعلَّ أبلغ دليلٍ على أن درجة الحرارة ليست العامل الفاصل في إحداث التغيُّرات الفسيولوجية التي تحمل بعض الطيور على أن يبيض في فصول دون فصول ، هو هذه التجارب التي أجراها بيسونيت وصاحبهُ « تشيك » Csech على الطائر المعروف باسم التَدْرُجْ Pheasant وهو شبيه بالحجل جميل المنظر . والتدرج يبيض في العادة في شهر ابريل والطائفة التي اعتمدها بيسونيت في هذه التجربة لضبطها ، جرت على عادة أن تبيض في ابريل ولكن الفريق من هذه الطائفة الذي أجرى بيسونيت التجربة عليهِ ، بدأ يبيض في شهر فبراير .

قال بيسونيت : وكنا نجمع البيض لنمنع تجمدهُ لأن التدرج كان كثيراً ما يلقي بيضهُ في الثلج وكانت طيور منهُ تقف عند حافة أقفاصها فتتجمد وتموت ، وبعضها كان يحاول التخلص من قبضة الجمد فينزع ريش ذيلهِ .

وقد بدأ تطبيق جدول تعريضها للضوء في الثالث من يناير فأضيء مصباح كهربي مدة ساعة في الأسبوع في القفص الخارجي ، ثم زيدت المدة حتى صارت سبع ساعات في الأسبوع ثم ظلَّت كذلك إلى أن انتهت التجربة .

وللاستاذ بيسونيت تجارب ، تشير إلى أن الضوء يؤثر في الحيوان من طريق العينين فيؤثر بدوره في الغدة النخامية ، وهذه الغدة تؤثر في أجهزة التناسل ونموّ الريش والفراء . فعصب البصر يتصل اتصالاً مباشراً بالمخ ، والغدة النخامية موقعها عند أسفل المخ من الخلف . ولكنَّ الأستاذ بيسونيت لم يكشف بعد ، أي شيء في العين أو المخ يؤثر في الغدة النخامية ؟

# قوس الغمام

قوسٌ من الألوان لا تنحني    مشدودةٌ في الجوّ أوتارُها
في كل لونٍ مائلٌ أزرق    تلهـه الشمسُ وأقمارُها

قاعدةٌ في الأفق مرفوعةٌ    فوق المياهِ الزرقِ أحجارُها
الذهبُ الإبريزُ فولاذها    واللؤلؤ المنثور مسمارُها
غصنٌ من الأنوار إما التوى    تشمّهُ الأرضُ وأبحارُها
طيرٌ من الجنة ريشاته    منثورة في الجو آثارها
قصيدةٌ للشمس أبياتها    وللنجوم الزهر أشعارُها

كأن هذي الأرض في عرسها    تاهت على الإنسان أقطارها
فضفّرت للصبح إكليله    وطاب واخضرّ له غارُها
واختلجت بالنور أبرادها    وفُتقت في الجو أزرارُها
ولوحت زهواً بمنديلها    ورقصت في الروض أسمارُها
فرنّ في الأجواء خلخالها    وشُد في الآفاق زنارُها

كأن عينَ الشمس في جوها    تُلَوّنُ الأمطارَ أنوارُها

بيروت    الدكتور حبيب ثابت

# البنسلين والرمد

## حديث للدكتور علي توفيق شوشة بك

### وكيل وزارة الصحة

---

يُعد الرمد الصديدي من أهم العوامل التي تؤدي إلى فقدان البصر ، وخاصة إذا كان ناشئاً عن عدوى «الجونوكوك» وهو ميكروب السيلان . فلما كشف البنسلين ، وعرف تأثيره العجيب في علاج السيلان ، كان من الطبيعي أن يتجه التفكير إلى استخدامه في هذا النوع من الأرماد الصديدية ، ما دام الميكروب المسبب لهما واحداً . وقد جُرب — أي البنسلين — في شكل قطرة ومرهم، يوضعان مراراً في العين، فوجد تأثيره ضعيفاً وفائدته محدودة ، لذلك رؤي أن يجرّب بطريق الحقن . فاستعمل حقناً في العضل كل أربع ساعات مدة ٢٤ ساعة، واقتصرت التجارب على الرمد الصديدي الناشيء من ميكروب الجونوكوك وحده .

وقد اختيرت لهذا الغرض ثلاث حالات لأشخاص تتفاوت أعمارهم ودرجات إصابتهم . الأولى حالة غلام في التاسعة من عمره ، والثانية حالة طفلة عمرها أربع سنوات ، والثالثة حالة رجل عمره ٤٥ سنة .

وكانت إصابة الغلام برمد صديدي خفيف غير مصحوب بمضاعفات ، وقد أظهر الجونوكوك عند هذا الغلام قوة مقاومة شديدة للبنسلين، فلم يختف الميكروب من عينه إلا بعد عشر ساعات أي بعد ثالث حقنة . ومع أن الحالة تحسنت من الوجهة الاكلينيكية — إذ قلت الافرازات واختفى ورم الجفون واحتقان الملتحمة، واستطاع المريض فتح عينيه — فقد ظهر الميكروب ثانية بعد ٢٥ ساعة من آخر حقنة .

وكان الرمد الصديدي الذي أصيبت به الطفلة مصحوباً بقرحة خفيفة في العين اليسرى ، وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث ساعات من أول حقنة ، وتحسنت حالة الجفون والملتحمة من الوجهة الاكلينيكية ولكن بقيت القرحة كما هي ، ثم عاد الميكروب إلى الظهور بعد ٢٤ ساعة من آخر حقنة .

أما إصابة الرجل فكانت أشد . وذلك أن الرمد الصديدي كان مصحوباً بقرحة مع فتق ( قرحة منبثقة ) في العين اليسرى . وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث ساعات أيضاً ، وتحسنت

حالة الجفون والملتحمة ، وخاصـة في العين اليمنى ، إلاَّ أن القرحة والفتق القرحي واحتقان العين وما بهـا من الآلام ، كل هذه لم تتحسن ، ولذلك ظهر الميكروب بعد ٤٨ ساعة من آخر حقنة .

وقد وُضعت الحالات الثـلاث التي تقدم ذكرها موضع الملاحظة والفحص ثلاثة أيام أخرى بدون أي علاج . فلما لم يختف الميكروب ولم تلتئم القروح أجريت بعض العلاجات النوعيـة ثلاثة أيام فاختفى الميكروب من أول يوم ، والتأمت القروح .

وقد تبين أن الوقت الذي أعطيت فيه الحقن « وهو ٢٤ ساعة » لم يكن كافياً . ولهـذا أجريت التجربة في حالتين ، وأعطيت الحقن فيهما مدة ٤٨ ساعة ليلاً ونهاراً . فشوهد التحسن من الناحية الاكلينيكية ، إلاّ أن هذه الطريقة كانت متعبة وغير عملية ، لأنها تستدعي تخصيص طبيب لاعطاء الحقن ليلاً ، كل ثلاث ساعات . وهذا يتعذر تنفيذه إذا كان عدد المرضى كثيراً كما هي الحال في الأرماد الصديدية .

والخلاصة أننا وجدنا أن هناك تأثيراً لمادة البنسلين في الأرماد الصديدية البسيطة ، والتي لا تكون مصحوبة بالمضـاعفات الناجمة عن ميكروب الجونوكوك ، غير أن طريقة العلاج به تحتاج إلى تخصيص أداة طبية تتفرغ لحقن المريض ليل نهار ، مما يجعل تنفيذها من الوجهة العملية غير مستطاع ، وبخاصة إذا لاحظنا أن حالات الأرماد الصديدية كثيرة الانتشار في المدن والريف .

وأرى أن أذكر في هذا الصدد ، أن كثرة انتشار الرمد في مصر حملتني على التفكير في استخدام بعض المركبات النوعية التي أثبتت التجارب والمشاهدات شدة تأثيرها ، على ألاَّ يكون استخدامها مقصوراً على المستشفيـات الرمدية ، بل يشمل ذلك جميع الوحدات التابعة للوزارة ، في الأقاليم ، سواء أكانت منشات صحية أم مستوصفات .

ولقد استأنست في ذلك بالدكتور ولسون مدير المعهد الرمدي التذكاري ، فأيد هذه الفكرة كل التأييد بمذكرة نفيسة سأعرضها على معالي الوزير ، ليضع ما ورد فيهـا من المقترحات موضع البحث . فإذا استقرت النية على الأخذ بها بدأت الوزارة في التنفيذ . وبذلك نكون قد خطونا خطوة جريئة في مكافحة مرض من أشد الأمراض خطراً على المصريين . (١)

---

(١) نشر في الاهرام ٢٠ نوفمبر ١٩٤٤

# الروح العلائية

## وأثرها في أدبنا الحديث

لأنيس الخوري المقدسي

كان الشعر القديم عموماً يدور حول نفس الشاعر أو من يتصل بهم من عظماء الناس ، إليهم يتزلف ، وبوقائعهم يهتم ، ولاتمام رغائبهم يسرع . أما الشعب ورغائبه والمجتمع وحاجاته والحياة ومشكلاتها والطبيعة ومعانيها فقلّما كانت تهمّه أو تسترعي انتباهه . وإن كان شيء من ذلك فعرضاً في مقدّمات قصائده أو خطرة خاطفة من بعض خواطره — وبعبارة أخرى كان الشاعر موضوع شعره ، فالمديح أو الرثاء لمن يستعظمه أو يستوهبه ، والغزل أو العتاب لمن يحبه أو يلازمه ، والفخر بنفسه أو بعشيرته . وقد نسج أكثر الشعراء على هذا المنوال لم يشذ عنهم في ذلك غير النادر ومن هذا النادر شاعر المعرّة . بل هو عند التحقيق نسيج وحده بين القدماء وسابق لأوانه دون سائر الشعراء .

انفرد هذا الحكيم في عهده بمزية النظر الحرّ إلى الكون والمجتمع البشري فلم يكن قبله من حمل حملته على الفساد العام والمعتقدات الشائعة . وقد مرّت قرون قبل أن بعثت روحه ثانية تحرّك في أدبنا الحديث روح التأمل العميق والنظر الواسع . هذا البحث هو الذي نحاول أن ندرسه في حياتنا الأدبية لنبيّن ولو بإيجاز كلّي مدى أثره فيها .

كانت حياتنا الروحية حتى أواخر القرن الماضي لا تزال جارية على سنّة القرون الوسطى ، وطفيفاً جدًّا كان تأثرنا بالنضال المحتدم يومئذٍ في أوربة بين آراء الطبيعيين وتعاليم الإلهيين . فظلّت رهبة الدين مستولية على المجتمع العربي . وظلّ الإيمان بالله وبالآخرة راسخاً في نفوسهم . الله أكبر بيده نواميس الكون وإليه مصير الانسان ، وما السماء والجحيم والخلود والتنزيل والنبوءة إلاّ بديهيّات لا تقبل مناقشة ولا تحتاج إلى برهان . وإلى ذلك يرجع كل أدب روحيٍّ في الأقطار العربيّة قبل الانقلاب الفكري الذي عمّ الغرب ابروز نظرية التطور الطبيعي واهتمام العلماء والفلاسفة بها .

فلمّا انتشر كتاب داروِن في أصول الأنواع وأخذ أرباب العلم والنظر يبحثون في

نظرياته بين مناقش ومدافع لم يستطع العالم العربي أن يبقى بنجوة من هذه الموجة الفكرية العامّة ، فنشأ فيه كما نشأ في الغرب قبله فئة من مريدي التحقيق العلمي كان لها أثر كبير في إثارة الشكوك وتنشيط البحث الحر ورفض ما لا يجاري السنن الطبيعية مما أدّى إلى كثير من الجدل والمناظرة [١] .

وكان لذلك نتيجتان ، الأولى تطرّف البعض في رفض النصوص الدينية المخالفة للعلم — وهو مذهب الدكتور شبلي شميّل ومدرسته — والثانية الأخذ بتأويل تلك النصوص للجمع بين العلم والإيمان وهو مذهب كثيرين ومنهم جمال الدين الأفغاني [٢] والشيخ محمد عبده [٣] وقد توسع في ذلك محمد فريد وجدي حتى جعل التأويل قاعدة الأصول الاسلامية وأوجب تأويل نص الكتاب إن أوهم ظاهر ألفاظه مخالفة للعقل والعلم ( راجع مقالة الاسلام والعلم الحديث في عدد الهلال الممتاز « العرب والاسلام في العصر الحديث » سنة ١٩٣٩ ) .

وقد ظلّ هذا النزاع بين الطبيعيين والإلهيين محتدماً حتى مطلع القرن العشرين، ولعلّه لا يزال في بعض الأنحاء إلى الآن . على أن النزعة الفكرية في أدب هذا القرن هي نزعة التجديد، تجديد المعتقدات وتحريرها من قيود التقاليد والخرافات . فالأدب القديم المحافظ يتراجع اليوم أمام أدب ينادي بالحرّية الفكرية والتساهل الديني لا من طريق الالحاد كما قد يتبادر إلى ذهن البعض « فلا شيء — كما يقول الدكتور صرّوف — أفسد من هذا الوهم ولا أقبح منه تهمة على العلم لأن العلم والكفر مستقلان كل الاستقلال، فكم عالم من أشد الناس تديّناً وكم كافر يجهل مبادئ العلم » [٤] .

هذا الأدب الجديد أدبٌ فكريّ ومن مزاياه الشكّ في كلّ ما يناقض العلم أو يغلّ العقل عن التقدم . ولا أقول إنهُ صدى لشعر المعرّي ولكنّي أقول إنهُ يستقي من نفس المنبع ، منبع التفكير الحرّ المنبثق من اصطدام النظريات العلمية بالتقاليد الدينية والاجتماعية . فكيف تسنى لشاعر اللزوميات في القرن الخامس الهجري ما يتسنّى لمفكري القرن العشرين ؟ وهل كان في بيئته ما يدفعه إلى ورود هذا المنبع الفكري ؟ سؤال لا بدّ في الاجابة عنه من الرجوع إلى عهد الشاعر وإلقاء نظرة على أثره في نفسه .

﴿ بيئة المعري الفكرية ﴾ : عاش شاعرنا ما بين منتصف القرن الرابع ومنتصف القرن الخامس

(١) من رام الاطلاع على ما كان يدور من خصومة في هذا الباب فليراجع المقتطف مج ٨ ص ٧١٢ — ٧١٩
(٢) راجع خاطرات الافغاني للمخزومي ١٦١ و ١٨٥
(٣) راجع مقال الدين والفلسفة ، المقتطف مج ١٠٥ (٤) المقتطف ٧ — ٥٦٥

للهجرة — أي في إبّان الحضارة الفكرية العربية. في ذلك العصر كان قد تم نقل العلوم اليونانية وسواها إلى العربية ونبغ في الشرق العربي كثيرون من العلماء والمفكّرين. فكانت بغداد وعدد من المدن الشرقية الأخرى مراكز علمية احتكت فيها «الروحانية» السامية التي حملت إلى الناس الإيمان بالتوحيد والمعاد بالعقلية اليونانية التي حملت اليهم البحث المنطقي والنظريات الفلسفية. وكان من جرّاء هذا الاحتكاك تعدّد المنازع الفكرية والكلامية مما أحدث في العقول ميلاً إلى النظر النقدي. فتسرَّب الشك إلى عقول الكثيرين واستولى على البعض منهم روح الإنكار أو اللاأدرية، فرفضوا ما لم تقبله عقولهم من تعاليم وسنن. ومن هؤلاء المعرّي فقد نشأ في هذا الجوّ الفكري المضطرب توّاقاً إلى المعرفة وبلوغ الحقائق المشبعة للعقل، وفي نفسه الحساسة كان اصطدام التقاليد بالتفكير الحرّ اصطداماً عنيفاً. حقّاً لا نعرف بالضبط متى كان ابتداؤه ولكننا نعلم أن أثره لم يبرز إلاّ بعد رجوعه من بغداد وحبسه نفسه على العلم في المعرّة. وفي كلامه على نفسه في كتابه الفصول والغايات[1] ما يدل على نزعته منذ الثلاثين إلى التأمل العقلي يقول مخاطباً النفس: «قد أخلقتِ الجسد فما تريدين، اظعني عنه لا يحمدك في الحامدين. ما زلت آمل الخير وأرقبه حتى نضوت كمَلاً ثلاثين . . . فلما تقضت الثلاثون وأنا كواضع مرجله على نار الحباحب علمت أن الخير مني غير قريب. الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ورحم المسكين، وتبرّع بما لا يجب عليه وكره الحنث وكفَّر عن اليمين». ومن قرأ هذا الفصل كله كما ورد في الكتاب يستشف ما استشفه الدكتور طه حسين من نزعة المعرّي إلى التأمل في النفس وتبعتها وفي الشر وأنه غريزة في الحيوان وفي طلبه التزهد والتعالي عن سفاسف الحياة[2].

وقد نرى نزعة التأمل العقلي قبل ذلك فيه في رثائه لوالده وهو في شبابه، إذ يقول عن مصير الأموات:

طلبت يقيناً يا جهينة عنهم ولن تخبريني يا جهين سوى الظن

فإن تعهديني لا أزال مسائلاً فإنيَ لم أعط الصحيح فأستغني

ولكن نفسيته على ما يظهر لم تنضج إلاّ في دور العزلة — دور اللزوميات، وفيه يظهر طابعه الروحيّ الخاص.

﴿ طابعه الروحي ﴾: ليست اللزوميات عند التحقيق إلاَّ انعكاساً لحالاته النفسية الناشئة عن بيئته الفكرية والاجتماعية. ويظهر فيها مطبوعاً بطابع خاص يميزه عن سائر الشعراء

(١) ص ٢٧٩ (٢) مع أبي العلاء في سجنه ص ٢١٥ — ٢٢٣

والـكتّاب وهو يتألف من ثلاثة عناصر رئيسية هي : الحيرة والتشاؤم والاخلاص .

١ — الحيرة: وهي وليدة التفكير في ما لا يحده العقل المحدود . أهناك حياة ثانية أم لا حياة؟ هل الله كما تصورّه النصوص الدينية أو هو شيء آخر ؟ أيتفق العقل والايمان أم لا يتفقان ؟. مثل هذه الأسئلة كانت تضطرب في نفس المعري وكان لديها كالقارب تتقاذفه اللجج . فبينا تراه يقينيًّا يهاجم الجاحدين والمعطلين في مثل قوله :

إذا كنت من فرط السفاه معطّلا ... فيا جاحد اشهد أنني غير جاحد

وقوله : وقال أناس ما لأمر حقيقة ... فهل أثبتوا أن لا شقاء ولا نعمى

فنحن وهم في مزعم وتشاجر ... ويعلم رب الناس أكذبنا زعما

وقوله : لا ريب أن الله حق فلتعد ... باللوم أنفسكم على مرتابها

تراه يتابع اللاأدريين فيقف من الغيبيات موقف الشكاك بل موقف المناقض نفسه إذ يقول:

دفناهم في الأرض دفن تيقن ... ولا علم بالأرواح غير ظنون

وروم الفتى ما قد طوى الله علمه ... يعد جنوناً أو شبيه جنون

*

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحق لسكان البرية أن يبكوا

يحطمنا صرف الزمان كأننا ... زجاج ولكن لا يعاد له سبك

*

خذ المرآة واستخبر نجوماً ... تمر بطعم الأري المشور

تدل على الحمام بلا ارتياب ... ولكن لا تدل على النشور

والآراء في تفسير حيرة الشاعر وتناقضه مختلفة . ومهما تكن فمما لا شك فيه أنه لم يصل إلى درجة الالحاد فهو يقول بإله حكيم متعال عن البشر . ولكن صورة الله في نفسه ليست الصورة ذاتها التي يتخيلها المؤمن العادي . ولعلنا من دراسة أقواله ومقابلتها نخلص إلى الحكم بأن نظره إلى العالم الثاني لم يكن إلاَّ نظر لاأدريٍّ متأثر بالاسلام أو مسلم متأثر باللاأدرية.

٢ — تشاؤمه : وهو ظاهر في أكثر شعره — كقوله في الإنسان والطبيعة البشرية :

قد فاضت الدنيا بأدناسها ... على براياها وأجناسها

وكل حي فوقها ظالم ... وما بها أظلم من ناسها

وقوله :

قالوا فلان جيّد لصديقه ... لا يكذبوا ما في البرية جيّد

فأميرهم نال الإمارة بالخنا ... وتقيهم بصلاته متصيّد

وجبلة الناس الفساد وضلّ من يسمو بحكمته إلى تهذيبها

ولو تابعناه في آرائه ووقفنا عند ظاهر أقواله لقلنا حتماً بالجبرية المطلقة ولما رأينا من حاجة إلى معاهد تربوية أو علمية ولا إلى شرائع دينية . فباطلة كل وسائل الثقافة أو الإصلاح . أليس الانسان ولد فاسداً وسيبقى كذلك إلى أن يزول ؟ ولكن هل كان المعري جبريًّا وإلى أي حدّ ؟ وللجواب عن هذا السؤال يجب هنا أن نفرّق بين الجبرية الفلسفية والجبرية الشعرية . فالأولى تفكير منظم ينتهي فعلاً إلى القول بأن الإنسان غير مكلّف وأنهُ لا سبيل إلى خروجه عما رسم له منذ الأزل، وهي فكرة تهدم كل ما يحاوله الانسان من ترقية نفسه كفرد أو كمجموع ، وتجعل الشرائع الدينية والاجتماعية قيوداً لا معنى لها في الحياة . أما الجبرية الشعرية فهي شعور فقط بضعف الانسان إزاء المجهول . فبينا ترى الشاعر من جهة يقول بالقدَر ويصف فعله وأثره في الناس . كقوله :

وللحيّ رزقٌ ما أتاه بسعيه وعقلٌ ولكن ليس ينفعه العقل

*

قضى الله فينا بالذي هو كائن فتم وضاعت حكمة الحكماء

*

كتب الشقاء على الفتى في عيشه وليبلغنّ قضاءه المكتوبا

*

ما حركت قدم ولا بسطت يد إلاّ لها سبب من المقدار

*

قضاء يوافي من جميع جهاته كما هو عن أيماننا والأياسر
ولو لم يرد جور البزاة على القطا مكوّنها ما صاغها بمناسر

*

وهل ألوم غبيًّا في غباوته وبالقضاء أتته قلة الفطن

*

وما دفعت حكماء الرجال حتفاً بحكمة بقراطها
ولكن يجيء قضاء يريك أخا غيّها مثل سقراطها

تراه من جهة أخرى يدعو الناس إلى مثل عليا ينشدونها ويحضهم على فضائل يعيشون بموجبها . وهو في هذه الدعوة جادّ فيما يقول، ويحملنا ضمناً على الاعتقاد بأنه مؤمن بقدرة الإنسان على الخير . وإلاَّ فما معنى طلبه الاصلاح الديني والاجتماعي وما معنى نقده حياة الأفراد والجماعات، ولماذا يدعونا إلى اتباع العقل والبعد عن الكذب والرياء والتنويه والادعاء حاضًّا على العمل الصالح وضبط النفس عن الشهوات وغير ذلك من الفضائل . إن المعري جبري

إذ يرى ضعف الانسان أمام الكون وحوادث الأيام أمام نظام الحياة والموت. ولكنه غير جبري في الدعوة إلى البر والتقوى والحض على الحياة الفاضلة.

نعم إنه على ما يظهر يائس من تهذيب الطبع البشري:

فلا تأمل من الدنيا صلاحاً فذاك هو الذي لا يستطاع

ولكن يأسه لا يمنعهُ عن تبيان ما يجب عليهم أن يفعلوه لينالوا التهذيب الحقيقي. فكأنه يترك للانسان شيئاً من الحرية، ولهذا تسمعه يعارض الجبرية بقوله:

إن كان من فعل الكبائر مجبرا فعقابه ظلمٌ على ما يفعل

٣ — الاخلاص: وهو من أبرز صفاتهِ. فهو مخلص إلى العقل الهادي الوحيد في الحياة:

كذب الظن لا إمام سوى العقـــل مشيراً في صبحه والمساء

*

جاءت أحاديث إن صحت فإن لها شأناً ولكنّ فيها ضعف إسناد

فشاور العقل واترك غيره هدرا فالعقل خير مشير ضمّه النادي

ولا يعني ذلك أن المعرّي كانَ معتزليًّا في آرائه ونظرياته إذ كان يهاجم بنقده جميع الفرق، ولكنهُ كان كالمعتزلة في تعظيمه شأن العقل. ويظهر إخلاصه أيضاً في نظره إلى الدين. وهو عنده على وجهين. الأول: وضعي أي نظام بشري قائم على مراسيم وفرائض، وهذا باب للاختلاف بين الناس ولنشوء التحزب والتنافر بينهم بل التباغض وسفك الدماء، وفي ذلك يقول:

إن الشرائع ألقت بيننا إحناً وأودعتنا أفانين العداوات

والثاني: روحي عملي وهو رياضة النفس على عمل الخير والتمسك بأهداب الفضيلة والتعالي عن الأطماع الضارّة والشهوات الفاسدة.

وقد يكون في الوجه الوضعي من الدين فائدة لمن فهم حقيقته وعرف كيف يستخدمه لتقوية الروح الدينية الحقيقية في النفس. ولكن المعري قلما يرى ذلك. فهو صريح في مهاجمته النظم الخارجية زاعماً أن أربابها إنما يحرصون عليها لما يرجونه من فائدة مادية:

إنما هذه المذاهب أسبا ب لجذب الدنيا إلى الرؤساء

*

أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما دياناتكم مكرٌ من القدماء

أرادوا بها جمع الحطام فأدركوا وبادوا وماتت سنة اللؤماء

هكذا ينظر إلى النظم الدينية. بل كثيراً ما نراه يسرف في تهجمه على رؤساء الدين وينعتهم عموماً بما قد يصدق فقط على بعض الأفراد، فيقول مثلاً:

رويدك قد غررت وأنت حرٌّ    بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يحرّم فيكم الصهباء صبحاً    ويشربها على عمد مساءَ
يقول لكم غدوت بلا كساء    وفي لذاتها رهن الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى    فمن جهتين لا جهة أساءَ

ومن إسرافه في ذلك قوله :

كم قائم بعظاته متفقه    في الدين يوجد حين يكشف عاهرا

ومع تفضيله الاسلام على سواه يدمج أهله مع أهل سائر المذاهب والفرق فيقول :

وكلنا قوم سوء لا أخصّ به    بعض الأنام ولكن أجمع الفرقا

*

دينٌ وكفرٌ وأنباء تقصّ وفرْ    قان ينصّ وتوراة وإنجيل

*

في كل جيل أباطيل يدان بها    فهل تفرّد يوماً بالهدى جيل

*

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت    ويهود حارت والمجوس مضلَّله
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا    دين وآخر ديّن لا عقل له

وأقواله في ذلك أكثر من أن يحصرها هذا المقام . ومهما يكن من إسرافه وتعميمه فهو لا شك حرب على الرياء في الدين والانصراف إلى الأوضاع الخارجيّة . وإنما الأمر عنده الجوهر لا العرض — الروح لا المسوح — فلا عجب أن نراه يخاطب الديّن الذي لا يأمن الناس بوائقه بقوله :

توهمت يا مغرور أنك ديّن    عليَّ يمين الله ما لك دين
تسير إلى البيت الحرام تنسكاً    ويشكوك جار بائس وخدين

والذي يستسلم إلى أطماعه وشهواته :

سبّح وصلّ وطف بمكة زائراً    سبعين لا سبعاً فلست بناسك
جهل الديانة من إذا عرضت له    أطماعه لم يلف بالمتماسك

فالدين الحقيقي عنده هو الانصاف وإعطاء كل ذي حق حقه :

الدين إنصافك الأقوام كلهم    وأيُّ دين لآبي الحق إن وجبا

وكما أن إخلاصه للحقيقة يدفعه إلى تلمّس الدين في قلب الإنسان وتصرّفاته لا في فروضه ووسائل عباداته ، كذلك هو يدفعه إلى التصريح برأيه في موقف الحكومة من الشعب . فالحكومة عنده إنما هي خادمة للشعب مستأجرة بماله لأجل مصالحه ، لا سيدة

مستبدة به تسومه العذاب وتتمتع بما يجنيه من مال . فيؤلمه أن يرى الحكام في أيامه :

يسوسون الأمور بغير عقل  فينفذ أمرهم ويقال ساسه
فأفٍّ من الحياة وأفٍّ مني  ومن زمن رئاسته خساسه

ويصوّرهم بأقبح الصور فيقول :

ساس الأنام شياطين مسلطةٌ  في كل مصر من الوالين شيطان

وقد يحمل المعري إخلاصه أيضاً إلى مهاجمة العلماء ذاهباً إلى أن علمهم ليس بشيء بل هو الجهل :

وما العلماء والجهال إلاّ  قريب حين تنظر من قريب

ولا يستثني نفسه بل يصرّح بكل تواضع أنهُ جاهل :

الله يشهد أني جاهلٌ ورعٌ  فليحضر القوم إقراري وإشهادي
أعمى البصيرة لا يهديه ناظره  إذ كل أعمى لديه من عصا هادي

*

أقررت بالجهل وادّعى فهمي  قومٌ فأمري وأمرهم عجب
والحقُّ أني وأنهم هذرٌ  لست نجيباً ولا همُ نجب

*

علمي بأني جاهلٌ متمكنٌ  عندي وإن ضيّعت حق العالم

*

لقد علم الله رب الكمال  بقلة عقلي وديني ومالي

*

دعيت أبا العلاء وذاك مينٌ  ولكنَّ الصحيح أبو النزول

ومن ظواهر صراحته ذهابه إلى أن الكون سائر على نظام أزلي ثابت ، فإذا حبس المطر أو فاض فإن الصلاة إلى الله مثلاً لا تحمله على تغيير طبيعة الجو :

قضى الله في وقت مضى أن عامكم  يقلّ حياه أو يزيد به السّجم
فقولكم ربّ اسقنا غير مُمطرٍ  ولكن بهذا دانت العُرب والعُجمُ

ومهما يحاول الإنسان أن يغالب هذا النظام المحتوم فإنهُ لا يرجع إلاّ بالخيبة ولا يلاقي غير العناء :

والطبع أحكمه المليك فلن ترى  حجراً يقول ولا هزبراً يبغم
وإذا غدوت على القضاء مغالباً  فأذاك تستمري وأنفك ترغم

وإذا كان الأمر كذلك فعبث تعلقنا بالخوارق واتكالنا على التدجيل والتنجيم والسحر وما إلى ذلك من ضروب الأباطيل ، ومن العبث أن نقول إن بركات الطبيعة متعلقة بأعمال الإنسان :

لم يسقكم ربكم عن حسن فعلكمُ ولا حماكم غماماً سوءُ أفعال
وإنما هي أقدارٌ مرتبةٌ ما علقت باساءات وإجمال

فالمعري مخلص للحقيقة ينفر من الرياء والاستبداد والادعاء ويطلب الصراحة والابتعاد عن الغرور ونبذ كل ما لا يوافق العقل ، فلا بدع أن نرى الكثيرين في عهده وبعد عهده بعيدين عن إدراك كنه نفسه يرمونه بالكفر أو يتقوّلون عليه ما يعليه عليهم الجهل وسوء الظن .

كان المعري في القرن الخامس الهجري يعيش في جوّ قرننا الحاضر بل نستطيع أن نعده من حكماء هذا القرن ومن روّاد التفكير الروحي الحديث . ومن يقرأ أدبنا التأملي اليوم ولا يراه مشبعاً بالروح العلائية — روح الحيرة والتشاؤم والإخلاص للحقيقة — تلك الروح التي تفيض من قلب الشاعر متأثرة بمساوئ الحياة . كان الشعراء قبله وهم مبصرون لا يرون في الحياة إلاّ أنفسهم ولا يرون في الأدب إلاّ ما يوصلهم إلى أغراضهم ، لكن المعري وهو الأعمى قد ألقى على الحياة نظرة أوسع من نظراتهم وتطلع إلى آفاق أبعد من آفاقهم ، فانعكست نظراته عن بيئة قاتمة كأنما هي أشعة تنفذ الينا من وراء زجاجة سوداء ، وهي نفس الروح أو النظرات التي نراها في أدبنا الحديث . ولا أعني أن هذا صدى أو تقليد لشعر المعري بل أعيد القول أن شاعر المعرة وشاعر القرن العشرين يستقيان من نبع واحد .

والغريب أننا لا نرى في هذه القرون العشرة التي تفصلنا عن أبي العلاء عهداً شملته هذه النزعة الفكرية التي نراها اليوم ، ولماذا ؟ لأن هذه القرون شهدت انحطاط الحركة العلمية الحرّة وسيطرة التقاليد القديمة ، فاتجه العقل فيها نحو الجمع الأدبي والتصنيف الديني والتفسير اللغوي والبياني وغرق في تيار الرجعية فلم تتهيأ له بيئة تساعده على النظر الحر كما تهيأت له في الآونة الأخيرة ، وإذا قلت الآونة الأخيرة فاني أعني ما أقول ، إذ هي لا تتجاوز الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية ، بل لعلها لا تتجاوز المدى القائم بين الحرب العالمية الأولى وهذه الحرب. ففي هذه الفترة نرى الشعر العربي يخرج عما كان عليه في أواخر القرن التاسع عشر ، يخرج عن الموضوعات القديمة التي عرفت في كل الأجيال إلى آفاق جديدة يطل منها على المدنية الحاضرة ويرى ما فيها من قبح أو جمال .

﴿ظواهر الاتفاق والاختلاف بين أدب المعري وأدب القرن العشرين﴾ : إن أدبنا الفكري إزاء الروح العلائية بين عاملي جذب ودفع . الأول يقوده إلى نفس المنهل الذي نهل منه المعري والثاني يدفعه عنه إلى منهل آخر . فلو راجعنا الشعر العربي الحديث لوجدنا فيه ما نجده في اللزوميات من نظر إلى الحياة وما وراء الحياة . خذ مثلاً هذين البيتين :

خبرت دنياي وأبناءها مذ نشأتي خبرة مستقرئ

فلم أشاهد غير ما حالة أرتني السوء بكل امرئ

هذا صوت يرتفع من العراق على لسان الدجيلي وهو شبيه في تشاؤمه بصوت الرصافي إذ يقول ضارباً على هذا الوتر :

أرى الخير في الأحياء ومض سحابة بدا خلّباً والشر ضربة لازم
إذا ما رأينا واحداً قام بانياً هناك رأينا خلفه ألف هادم
وما جاء فيهم عادل يستميلهم إلى الخير إلاّ صده ألف ظالم
جهلت كجهل الناس حكمة خالق على الخلق طرّا بالتعاسة حاكم

ألا يعكس لنا هذا الكلام روح أبي العلاء المتبرمة بالأنام ؟ وأمثال هذه الأبيات كثيرة في هذا العصر . وكما لام المعري والده على الاتيان به إلى هذا العالم المملوء بالشقاء هكذا يفعل الشاعر المصري محمود أبو الوفا إذ يصيح بمرارة اليائس :

أبي ! وفي النار مثوى كل والدة ووالدٍ أنجبا للبؤس أمثالي
خلفتني فوضعت الحبل في عنقي يشده الف دهر جد ختال
ما كان ضرك لو من غير صاحبة قضيت عمرك شأن الزاهد السالي

وهوذا العقاد وهو الأديب القائل بوجوب الانضواء إلى كنف الثقافة الحديثة ، والمعنيّ في كتاباته باصلاح المجتمع . تجيئه أحياناً ساعات يقع فيها تحت تأثير أبي العلاء فيقول :

لقد كنت أرجو في الحياة لبانة فعدت وما لي في الحياة رجاء
وكنت أخال الناس إلا أقلهم كراماً إذا هم كلهم لؤماء

وهذا شاعر مصري آخر ، هو أحمد رامي ، وهو من ناظمي الأغاني المرحة تحل به أحياناً الروح العلائية فيصبح متظلماً من الحياة وأبنائها :

كثر اللؤم في بني الانسان وقسا قلبهم من الأضغان

وبعد أن يعدد مساوئ الحياة من غدر وظلم وقسوة وسلب يدعو الطبيعة إلى البكاء على الإنسان . وعلى طريقة المعري يصرّح ان لاخير إلاَّ في امحاء هذه الدنيا من صفحة الاكوان :

إن دنيا تضج باللؤم أولى بامحاء من صفحة الأكوان

وإنك لتحسّ بهذه الروح المتبرمة في كل الأقطار العربية حتى في المهاجر الاميركية ولعلها بين اللبنانيين والسوريين هناك أشد لاصطدام خياليتهم الشرقية بالمادية الغربية .
فجبران مثلاً لا يرى بين الناس ما نسميه خيراً أو عدلاً أو ديناً . وفي مواكبه يصرّح قائلاً :

الخير في الناس مصنوع إذا جبروا والشرّ في الناس لا يفنى وإن قبروا
والعدل في الأرض يبكي الجن لو سمعوا به ويستضحك الأموات لو بصروا

والدين في الناس حقلٌ ليس يزرعه . إلاّ الأُلى لهمُ من زرعه وطر

وهو يزعم أن هذه المثل العليا لا توجد على حقيقتها إلاّ في الطبيعة بعيـدة عن صخب المدن وتـكالب سكانها — ففي الطبيعة لا تعدّي ولا حسد ولا ظلم ولا أوهام بل كل شيء يجري على مقتضى ما خلق له . ومثلهُ فوزي المعلوف في قصـيدته على بساط الريح وأخوه شفيق في عبقر ورشيد الخوري في قروياته وأعاصيره ورهط غيرهم من أدباء المهاجر . وقد تجاوزت هذه الروح العـلائية الحديثة مصر وسورية ولبنان والعراق إلى سـائر الاقطار العربية فدخلت الحجاز وتونس وسواها وتغلغلت في نفوس النشء الجديد .

وكما تنبعث روح أبي العلاء في عصرنا بالتشـاؤم تنبعث بالحيرة أو النزعة اللا أدرية . ويكفي للتمثيل هنا أن أنوّه بقصيدة أبي ماضي « الطلاسم » وقصيدة الرصافي « من أين من أين يا ابتدائي » والزهاوي « حول الحقيقة » . ويمثل ذلك قول الزركلي من قصـيدة « في سرّ الوجود أو الحياة » :

لجّـة مزبدة أم نَـهَـر معتكر أم هو سيلْ ما أمامي؟ حيرة لاتنتهي ما دام هذا الليل ليلْ

وقد تصل هذه اللا أدرية في الصافي النجفي حدود الإنكار في قصيدته الخلود الزائف وسواها. فهو يقف هناك موقف المتهكم من اليقينيين الذين ينظرون إلى ما بعد الموت نظرهم إلى أمر واقعي.

وفي أدبنا الجديد نزعة علائية شديدة إلى محاربة التعصب الديني والتقاليد البالية والدعوة إلى التمسك بجوهر الدين دون العرض ، بالعمل دون العقيدة . ولا أبالغ إذا قلت إن هذي هي النزعة العامة في الشعر العصري في كل الأقطـار العربية ، وهي أوضح من أن أمثّـل لها في هذا المقام . وقد دعت إليها دواعي المدنية الحديثة المبنية على روح العلم والنظر الحرّ إلى الحياة . وأوقدها في الأدب حدَثان هامان — الأول إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ . والثاني الدعوة إلى الملك العربي أيام المغفور له فيصل . فهـذان الحدَثان كانا منبعثاً لتموجات أدبية متدفقة من قلوب تؤمن بالإخاء والوئام . وتختلف عن دعوة المعري بأنها أكثر اتصالاً بالعاطفة القومية . فالمعري لم يعنَ بهذه الناحيـة الخاصة ولم يكن في بيئته ما يدفعه إلى غير النظر الروحي أو الاجتماعي البحت . أما الأدب الحديث فيجعل الدعوة إلى جوهر الدين والتعالي عن القشور الفارغة والأنظمة المفرقة وسيلة لتقوية الرابطة القومية بين مختلف العناصر ، وهنا تشتبك السياسة بالدين أو الدعوة إلى القومية بالدعوة إلى شجب العنعنات الطائفيـة الحائلة دون الاتحاد القومي . وقد قاد ذلك بعضهم إلى التهجم على رؤساء الدين — كما فعل المعري — وعزو كثيرٍ من السيئات إليهم — وكما أسرف شاعر المعرة أسرفوا هم أيضـاً وأطلقوا لأقلامهم العنان دون رادع في هذا الميدان .

ومن أمثلة هذا الإسراف ما جاء للريحاني من خطبة له موضوعها «الثورة الأدبية» قال:[1]

« وأما الكهان ياسادتي فهم أول من عاثوا في الأرض فساداً. هم أول من قيدوا النفوس البشرية واستعبدوها ، هم أول من تاجروا بالخداع والتغرير. هم أول من استولوا على الأمراء والملوك وأيدوا سلطانهم بأنباء من السماء كاذبة . والكهان اليوم أو رؤساء الأديان كلها هم أعداء الحرية الروحية الأدبية». إلى أن يقول : «على الكهان وآلهة الكهان امتشق نبي العرب حسامه في الكعبة . وصبَّ أشعيا نار غضبه في أورشليم على الكهان ومذابحهم وتزاويقهم وأصنامهم ، وانقضت صواعق حزقيال في إسرائيل ، وزمزمت رعود دانيال في بابل . على تغريرات رجال الدين وخزعبلات العبادات قام ابن عبد الوهاب في نجد ولوثيروس في وتنبورغ ونوكس في إنكلترة ، وغيرهم في البلاد كثيرون» .

وكما كان الأدب العلائي ينزع إلى العقل ويؤمن بالنظام الأزلي وينفر من التدجيل والأوهام هكذا نرى أدبنا الآن . على أن في الأدب الحديث برغم ما يشمله من ظلام التشاؤم والحيرة مسحة من التفاؤل أو الرضى بالواقع والايمان بمقدرة الإنسان على التقدم . وقد مرَّ معنا أن المعري لم يكن جبريّـاً مطلق الجبرية وأن في شعره ما يسمح للإنسان بشيء من حرية الإرادة في التصرّف . ولكن ذلك لم يبلغ فيه درجة الرضى والايمان بمقدرة الإنسان كما نراه في الأدب الحديث . إن المعري يكاد يقف أمام القدر موقف الوهن والتردد :

تعب كلها الحياة فما أعجب إلاّ من راغب في ازدياد

أما الشاعر الحديث فينزع إلى المناضلة والجهاد . المعري لم يكن يرى في الحياة ما يستحق السعي لأجله ، أما شاعر اليوم فالحياة عنده برغم قتامها ذات قيمة ولكن قيمتها لن تبلغ إلاّ بأرهاف العزم واطّراح الخوف والاقدام على المصاعب. وعلى ذلك قول الشاعر المصري عبد الرحمن شكري :

انفضُ عنك الحذار من حادث الدهـر فليس الحذار يغني فتيلا
إنما العيش أن تكون جريئاً ليس ترضى الحياة غمراً ذليلا

ويقول : هو العيش كالحسناء تبغض محجماً جباناً ويحظى بالوصال جسور
بدا لي أن لا سعد إلاّ تصبّر تقرّبه في النائبات صدور
وعزمٌ وإيمانٌ وطبعٌ وحكمةٌ ورأيٌ بآلاء الحياة خبير

فالكدّ والجرأة والصبر هي مفاتيح الحياة المثلى، وإذا صحّ ذلك فالحياة التي هذه مفاتيحها حياة ثمينة جديرة بالاهتمام والجهاد . وهذا الجهاد كثيراً ما يعني التمرد على القديم . ولا ينكر أن المعري كان متمرداً يدعو إلى اطراح كل ما لا يقبله العقل السليم، ولكن تمرده مقيد بالاستسلام للقضاء ، وبهذا يختلف عن الشاعر الحديث الذي يعني بالتمرد التخلص

(١) راجعها في الريحانيات ٢ — ٤٣

المطلق من كل ما يقيد النفس البشرية ويقف في سبيل تقدمها المطرّد. ويتمثل لنا ذلك في جبران ومدرسته. فالتمرد عنده ليس هدماً فحسب بل هو الخطوة الأولى في سبيل البناء الأثبت وهو التخلص من العوائق التي تعوقنا عن النمو إلى ما هو أفضل [١]. وفي هذا الجهاد والسعي نحو الأفضل تنكشف لنا معاني الحياة الحقيقية. فاللاأدرية الحديثة مع اعترافها بجهل الانسان للحقيقة ترى لزاماً عليه ابتغاءها أو الطموح إليها إذ على هذا الابتغاء والطموح تقوم دعائم العمران والتقدم.

ويكثر في أقوال المحدثين القول بأن السعادة حالة وجدانية نفسية لا أمر موضعي نحصل عليه من الخارج. فالبعض يلتمسها في القناعة والبعض في بساطة العيش والبعض في الالتجاء إلى حمى الطبيعة والبعد عن عناء المدنية والبعض يراها في السعي المستمر والاختبار المتجدد كقول أحدهم [٢]: « لذاتنا في الشوق لا في الوصال » ولا ينكر أن فكرة القناعة والبساطة فكرة قديمة وهي بارزة في حياة المعري وأقواله. أما فكرة السعي المستمر والاختبار المتجدد ففكرة حديثة مستمدة من الأدب الغربي، ولعلّ غوته في روايته فوست هو أعظم من أثار هذه الفكرة في نفوس المحدثين. [٣]

ومهما يكن من علاقة بين أدبنا الحديث والروح العلائية فما لا شك فيه أن العصر الحاضر متأثر بهذه الروح وأن شاعر المعرة لا يزال حيّاً في نفوس المفكرين. ولا أعلم شاعراً قديماً بلغ تأثيره الروحي في أدبنا ما بلغه تأثير هذا الشاعر العظيم — شاعر واحد فقط يقاربه هو أبو الطيب المتنبي ولكن من سبيل آخر. فهذا يثير فينا روح الفخر القومي أو الفردي. ويرفعنا إلى ذروات الاختبار الحي ولكننا لا نقف معه كما نقف مع المعري متسائلين عن الحياة والانسان، عن الشرائع والعمران، عن الأكوان وما وراء الأكوان.

ليس المعري أشعر شعراء العرب فقد نرى كثيرين ممن يفوقونه في نواحٍ مختلفة من الفن الشعري، ولكنك قلما تجد فيهم من يضاهيه في تأثيره الروحي على الأجيال. ولماذا؟ أليس لأنهُ يطبع شعره بطابع الصراحة والاخلاص، ولأنهُ ينظر إلى الحياة نظرة المترفع الحقيقي لا المقلّد للمترفعين أو المرتزق بادعاء الورع والدين:

فلتفعل النفس الجميل لأنه خيرٌ وأحسن لا لأجل نوالها

إن المعري أسمى تراث روحي وصل إلينا من الأجيال الغابرة وقد زالت منذ أيامه إلى الآن دول وتيجان، وبادت أمم وبلدان، ولكن روحه لا تزال حية لأنها روح النابغة الذي يعيش لكل زمان.

---

(١) راجع مقالة النفس الطموحة في العواصف (٢) يوسف غصوب في القفص المهجور ١٤٩

(٣) وقد توسع الاستاذ أحمد أمين بك في شرح هذه الفكرة (راجع كلامه في كتابه فيض الخاطر ٣ — ٩٤ فهو حري بالمطالعة)

# حمى البرداء ومقاومتها

للدكتور بشير العظمة

رئيس السريريات الطبية في معهد الطب بدمشق

---

كان الطب الوقائي وما يزال غاية عزيزة من غايات الطب، فانهُ بالرغم من معرفتنا لعدد من الأدوية الناجعة ضد بعض الأمراض لا نزال عاجزين عن تعقيم الجسم أو تنقيته من جميع آثار تخريب الجراثيم متى صالت عليه .

كانت البرداء أو الطاعون الأخضر منذ قديم العصور أخطر جائحة هددت كيان الجنس البشري، فهي متى ظهرت في بقعة من الأرض زادت الوفيات في المنطقة الموبوءة بعضها بالبرداء والبعض الآخر بتسهيل البرداء لفتك العوامل الممرضة الأخرى . وزيادة الوفيات بين الأطفال خاصة وهرب من تبقى من الكهول على قيد الحياة من المرض والموت يؤديان الى قلة السكان فتقفر الأرض وتبور زراعتها وتشتد وطأة البعوض على العدد القليل الذي جالد فبقي في تلك الناحية، وإن نقص السكان ونقص الحيوانات الداجنة التي تقل مع خراب الأرض وحاجة البعوض الخبيث إلى الدم بأي ثمن تجعل أجسام المتخلفين في الأرض المقفرة فرائس يتهالك آلاف البعوض على الوصول إليها . فالبرداء تخف وطأتها في المناطق المأهولة عما هي عليه في المناطق القليلة السكان ، كما أن الفقر والجوع عونان للبرداء في عملها الفتاك . ويقول المثل الإيطالي : إن علاج البرداء في القِـدر قبل كل شيء .

من الثابت أن انتشار البرداء في بلاد اليونان كان من العوامل الفعالة في الاجهاز على مدنية طالما فاخر بها التاريخ القديم ، فان هذا العرق البشري الذي اشتهر بقوته وحسن بنائه هو اليوم شعب هزيل نحيل لا يفترق عن غيره من الشعوب المتأخرة ، كل ذلك نتيجة إصابة أجداده بالبرداء واجتياحها مناطق كان الري والعمران فيها مما تغنت بهِ القرون زمناً طويلاً .

ومالنا نذهب بعيداً والشواهد ماثلة للعيان في بلادنا ، فأرض الشام درة إمبراطورية الرومان ومن قبلهم من الحثيين والفرس واليونان حتى صدر الاسلام كانت أرضاً مشهورة بخصبها وعمرانها ، فقد كان عدد سكان هذه البقعة من الشرق الأدنى على ما يقرر المؤلفون عشرين مليوناً من الأنفس، وما ازدهار تدمر والبتراء ودور ادروبوس ( خرائب الصالحية عند الفرات اليوم ) وبعلبك وجرش وغيرها من آلاف القرى المندثرة إلاّ شواهد على ما كانت عليه بلاد الشام من ازدهار وعمران . وقد كانت أفامية وإنطاكية من أعظم مدن

السلوقيين والرومان، بل كانتا عاصمتين كبيرتين، وتقع خرائب أولاهما في وسط ما نسميه اليوم مستنقع الغاب الرهيب، وتقع ثانيتهما في منطقة مستنقع العمق الوبيل .

وليس من الضروري أن تصاب البلاد بنكبة لتندثر معالم مدنيتها التي عاشت قروناً طويلة، بل يكفي أن يهمل الري فيها زمناً ما لتصبح قفراً يباباً موطناً للبعوض ومقبرة للبشر سكانها . فالفناء رابض أبداً إلى جانب البقاء ، والتبدل على قيد غلوة من الاستقرار .

وهناك برهان عكسي على ما أقول ، وهو أن البعوض يتراجع متى تقدم العمران وكثر السكان، فإن منطقة جزيرة ابن عمر الموبوءة بالبرداء دخلها عام ألف وتسعمائة وثلاثين أقوام لاجئون من المناطق المجاورة عُنوا بأمور معاشهم وتوافر لهم الغذاء والكساء والدواء فعاشوا في الجزيرة الموبوءة وعمروا مدناً لم نعرف قبل ذلك إلا بأنها قرى صغيرة لا يمكن للبشر أن يعيش بها . فبلغ عدد سكان القامشلية عشرين ألفاً أو يزيدون ، وكان من نتيجة عمران الزراعة وازدهارها حولها نقص إصابات البرداء فيها .

فالكفاح بين البعوض والإنسان أو بين الخراب والعمران قديم العهد وهذا العدو الصغير المستكين عدو خطر قضى على مدنيات قديمة أو سهل السبل إلى ذلك . فكفاح البرداء في بلادنا كفاح ضروري للبقاء، وليست مشكلة البرداء مشكلة اليوم ولا الأمس القريب بل هي خطر لا يزال يهدد بالفناء سكان هذه البقعة منذ قرون كثيرة .

ينتقل عامل البرداء بين البشر والبعوض الخبيث فقط، ويكفي للقضاء على البرداء ومكافحتها كفاحاً ناجحاً القضاء على معين الحمة في أحد الطرفين .

لقد كافحت إيطالية البرداء المستوطنة بعض أرجائها بما سموه إصلاح الأرض bonification ولم تفكر في النفقة التي اقتضاها هذا الإصلاح، كما ان أميركة عند ما أخذت في كفاح البرداء في منطقة قناة باناما لم تنظر إلى تكاليف ذلك . فإذا كان ذلك جائزاً وممكناً في البلدين حيث المناطق الموبوءة محدودة فإن التفكير في ذلك أي في القضاء نهائيًّا على البرداء بإزالة جميع ملاجئها في سنة أو سنين معدودة حلم بعيد المنال في بلاد أكثر مناطقها موبوء. فالمشكلة المالية أكبر من أن تسوى وتكاليف تجفيف مجامع المياه وإصلاح شطوط مجاريها وتنظيم الري المهمل منذ قرون بعيدة ووفرة مياه أرضنا، كل هذا يجعل التفكير في إصلاح أرضنا إصلاحاً أساسيًّا كما ذكرت أمراً لا يمكن تحقيقه إلا بصورة تدريجية .

وأما محاولة الأمر الثاني أي معالجة جميع المرضى المصابين مرة واحدة حتى الشفاء التام فإن عدد هؤلاء المصابين قد يبلغ في بعض البقاع الموبوءة مئة في المئة من السكان ولا يقل في أكثرها عن ستين إلى سبعين في المئة منهم، فمعالجتهم مرة واحدة حتى تعقيم أجسادهم مما

تحمل من مصورات أمر عسير . فإن مداواة المريض بالبرداء المزمنة قد تقتضي عناية متصلة مدة أشهر أو سنين كثيرة إذ تختبيء المصورات غالباً في أعماق الأحشاء فلا تنالها الأدوية .

وتنتظر الفرصة المواتية للنكس، وقد شوهدت حوادث نكس بها الأنتان البردائي بعد مرور عشر سنين وعشرين سنة الى ستين سنة من الاصابة الأولى برغم ابتعاد المصاب عن المنطقة الموبوءة طول هذه المدة ، فتعقيم أجسام البشر مما يحملون من عوامل البرداء أمر خيالي لا يمكن تحقيقه أيضاً . فغاية الكفاح في بلادنا يجب أن تكون بمنع تحول البرداء المستوطنة السليمة في منطقة ما إلى برداء خبيثة وأن تكافح البرداء الخبيثة لنجعل منها برداء سليمة. وتلخص طرق هذا الكفاح في ما يلي هذا : ١ — في المناطق التي لا تخشى فيها إصابة الشخص بعدوى جديدة تجب معالجة المريض حتى شفائه التام . ٢ — في المناطق التي يتعرض فيها الشخص إلى انتانات مكررة يجب أن تقتصر المداواة على شفاء النوبات الحادة شفاءً سريريّـًا ولا فائدة من معالجة المريض حتى الشفاء النهائي إذ سيتعرض لإصابة جديدة حين توقف المداواة . ٣ — وقاية الأطفال والكهول المسالمين المعرضين للإصابة .

وإذا كان سكان المنطقة الموبوءة هم سكانها في القديم أعني حاملي المناعة النسبية prémunition عولج المرضى منهم كما ذكرت حتى شفاء الأعراض الحادة . أما إذا كان سكان المنطقة لا يحملون مناعة نسبية لأنهم غرباء أتوا للعمل بها من منطقة غير موبوءة فهم أشخاص معرضون للإصابة بأشكال خطرة كثيراً ما تكون مميتة . ويكتسب الشخص المناعة النسبية ضد البرداء بعد أن يعيش مدة لا تقل عن خمس سنين في المنطقة الموبوءة فلا تظهر البرداء في هذا الشخص بعد ذلك إلاَّ بنوبات سليمة عارضة أو أنها لا تظهر بأية ظاهرة سريرية .

ويتعرض الأطفال للإصابة غالباً إصابة مميتة ، فيجب أن توجه العناية لهم فإن أبدانهم الغضَّة الفتية لا تعرف كيف تدافع عن نفسها كما اعتاد ذلك الآباء . فالوقاية الدوائية توجه إلى الأطفال جميعاً وإلى الأغراب عن المناطق الموبوءة، ومداواة المرضى بغية كفاح البرداء يجب أن تقتصر على شفاء الظواهر السريرية في المستوطنين، وتكون بتعقيم الجسم من آثار المصورات للذين يعيشون بعيداً عن المنطقة الموبوءة حذراً من انتشار البرداء في مناطق سليمة .

وإذا شوهد أن حمة البرداء شديدة وجب فرض نطاق صحي barrage sanitaire خوف انتشار وباء مخيف ،فالبعوض الذي لا يقوى على الطيران إلا مسافات ضئيلة قد يقوم البشر عنه بنقل المرض إلى مناطق بعيدة جدًّا عن البؤرة الموبوءة .

فإذا أدت وسائل الكفاح التي أجملتها إلى زيادة عدد السكان انقلبت المشكلة رأساً على عقب ، فازدهرت الزراعة وتحسن العمران وانسحبت البرداء تدريجيًّا حتى يقضي عليها

نهائيًا . ولن يقضى عليها قضاءً مبرماً إلا متى صلح حال الأرض ومن عليها .

ولتنظيم العلاج في المناطق الموبوءة تؤسس مستوصفات بسيطة يعالج بها المرضى مجاناً وأحياناً بالرغم منهم أو على الأقل بالرغم من إهمالهم وتهاونهم . ويقوم على هذه المستوصفات طبيب يساعده ممرضون جوالون لكل منهم دراجة بخارية أو دابة على حسب طبيعة الأرض ومجهر لفحص دماء المرضى . يأخذ الممرضون الجوالون الدم من المرضى وبعد الفحص عنه يشير الطبيب على ورقة خاصة بالدواء اللازم فيأخذه الممرض الجوال ويوزع العلاج على مستحقيه . ويراقب الممرضون الجوالون مجامع المياه الصغيرة المهملة أو الري المهمل الذي يترك فيه فلاحو القرى المياه ليالي وأياماً كثيرة تسير كما تشتهي في أرض غير مستوية ، ويعلم هؤلاء الممرضون القرويين كيف تنتشر البرداء وكيف تتقى فان معرفتهم بذلك تسهل جدًّا مهمة الكفاح وتجعل من السكان مناصرين للمشروع لا حرباً عليه . ولهذه الطريقة فوائد كبيرة إذ لا تتطلب من المريض نفقة ولا جهداً وخاصة في المناطق التي يؤمها العرب الرحل ولا تجعل من الطبيب موظفاً لتوزيع الكينين ، وتوفر على الدولة مبالغ كبيرة هي فروق الرواتب بين عدد من الأطباء وعدد مماثل من الممرضين المدربين ، ويكون نظام العمل فنيًّا فيوفر ذلك مقادير كبيرة من الأدوية . في كل قرية من القرى المجاورة للمستوصف يراجع المرضى القادرون على التنقل طبيب المستوصف مرتين أسبوعيًّا ويحمل الممرضون الجوالون المصابين إصابة شديدة إلى المستوصف للعناية بهم في أسرة تجهز لذلك كما يراقبون تعاطي الأدوية الموصوفة أمامهم .

أما توزيع الكينين أو غيره دون رقابة علمية ودون التفريق بين المرضى ففيه إسراف كبير ولن يكون من نتيجة ذلك القضاء على البرداء ولا التخفيف من إصاباتها بل هو تبذير للمال وتبديد للأدوية وتخدير للأعصاب لا للبرداء ، فان هذا المرض المستوطن منذ أجيال كثيرة في أكثر بقاع أرضنا لن يقضى عليه ولن يحد من نشاطه ملايين حبات الأتبرين ومعه الكينين الذي يوزع دون نظام دقيق وخطة مرسومة تطبق تدريجيًّا وعلى مراحل طويلة في المناطق الموبوءة حتى يقضى نهائيًّا عليه .

أما البعوض وهو صاحب البيت الذي استوطن بلاد الشام كما ذكرت منذ أحقاب بعيدة فأكثر سكان البلاد دخلاء عليه في موطن يجد من كثرة مياه أرضه واتساعها ما يجعله يقاوم بدون عناء كفاحنا ، فالتفكير في القضاء على البعوض مرة واحدة عبث لا جدوى منه . وقد باءت تجربة الانكليز في تجفيف مجامع المياه في مكدونية بالإخفاق المروع بعد أن أنفقت في سبيل ذلك مبالغ طائلة فلنقنع من كفاح البعوض بازالة مجامع المياه الصغيرة القريبة من المدن والقرى والتي تفيد إزالتها الزراعة ، وكذلك إزالة المواقع المائية التي تترك نتيجة إهمال

السقي وهي ملاجىء للبعوض يسهل ردمها وتستفيد الزراعة من ذلك أيضاً . ولا بدَّ قبل بدء كفاح البعوض من دراسة أنواعه فإن للبعوض الخبيث مائة وخمسين نوعاً تنقل ستة وثلاثون نوعاً منها البرداء وإن هذه الانواع تختلف في طرق معاشها وتفريخها وكل ما يتصل بحياتها اختلافاً بيناً . ولهذه الدراسة شأن بعيد في نجاح الكفاح . وقد يستفاد من تكثير بعض أنواع السمك الذي يتغـذى بيرقات البعوض في التقليل منهُ في مجامع المياه التي لا يمكن تجفيفهـا ، وأحسن هذه الأنواع النوع الأميركي Gambustion Halbrooki وهو سمك صغير يتكاثر بسرعة في المياه الراكدة ولاسيما أيام الصيف والخريف ويزهد فيه الصيادون فلا يلاحقونه . على أنه ينبغي أن نصرف العناية إلى شطوط المياه فنتعهدها ونعتني بغرس أشجار الأوكاليبتوس وخاصة في الأماكن التي يكون بها مستوى الماء مرتفعاً فتمتص هذه الأشجار ماء الأرض ، على أن يحترس من إحداث غابات كثيفة في هذه المناطق إذ أن مجامع المياه في وسط الغابات هي خير الأماكن لتفريخ البعوض وتكاثره .

وقد ساعد هذا التشجير وازدهار الزراعة في فلسطين على نجاح كفاح البرداء .

ويعمد في الينابيع القليـلة الماء الراكدة تقريباً إلى طريقة لطيفة طريفة لمنع تفريخ البعوض فيها ، وذلك بأن يحفر مجريان متوازيان يجري الماء في كل منهما أسبوعاً فقط وعندئذٍ تموت اليرقات التي قد توجد في الماء قبل تمام نضجها .

ولا يعتمد على البترول ولا أخضر باريس إلاّ في كفاح البعوض بصورة مؤقتة في مجامع المياه الصغيرة أيضاً بانتظار تجفيفها ، فإن هـذه الطريقة كثيرة التكاليف ويرجح المازوت على البترول الصافي لقلة تبخره ويحسب ١٥ سم ٣ لكل متر مربع بشرط أن لا تـزال الأعشاب والطحالب من سطح الماء وأن يحرك لينتشر البترول على جميع السطح ويجدد رش البترول كل خمسة عشر يوماً في الربيع والخريف وكل عشرة أيام في الصيف . أما كفاح البعوض الكهل فيكون بتجهيز البيوت بوسـائل الدفاع السلبي من مناخل وأبواب محكمة الاغلاق والنوم داخل الكلل ، فإن أقل فتحة في الكلة أو النافذة كافيـة لوصول البعوض المتعطش للدم إلى فريسته . يفتش عن البعوض الكهل خلف الستائر والأثاث خاصة أيام الشتاء حيث قد يقضي البعوض الشتاء في المنازل ينقل المرض من المريض إلى السليم ، فالقضاء على أفراده الشاتية قضاء على آلاف أو عشرات الألوف من أنسالها . وينتبه في كفـاح البعوض الكهل إلى تطهير القاطرات والطائرات والسيارات قبل سفرها من منطقة موبوءة وعند وصولهـا إلى منطقة سليمة ، فربما رحل البعوض في وسائل النقل هذه حاملاً البلاء تحت أجنحته كما حدث ذلك في العام الماضي في صعيد مصر . وعلى الذي يضطر للمبيت في منطقة موزغية أن يبتعد عن القرى

الموبوءة ومجامع المياه فيها مسافة لا تقل عن ٢ — ٥ كيلو مترات . على أن أسباب الحيطة الشخصية مهما بولغ في إتقانها قد لا تمنع عن الشخص الإصابة بالبرداء ، فإن البعوض الفتي يسعى إلى فريسته في الظهيرة وخاصة في الغرف المعتمة أو المناطق المشجرة الكثيرة .

يعطى من يتعرّض مؤقتاً للإصابة ٠٫٤٠ سنتغرام يوميًّا من الكينين، ويرى البعض أن إعطاء ٠٫٥٠ سنتغرام كل ثلاثة أيام أو غرام كامل كل أسبوع فقط مقدار كاف للوقاية أو يعطى بدلاً من الكينين الاتبرين بمقدار ثلاثة أقراص كل خمسة أيام .

واذا هددت جائحة البرداء بالاستيلاء فإن من التدابير السريعة التي يلجأ إليها في القضاء على جائحتها توزيع الأدوية على سكان المنطقة جميعاً للوقاية مرة في الأسبوع ثم كل عشرة أيام ثم مرتين في الشهر. وقد نجح هذا التدبير المؤقت نجاحاً باهراً في وقف الجائحات الاستيلائية في تونس وإيطالية . وقد امتاز الاتبرين عن الكينين في تأثيره الواقي للبرداء بعد التجارب التي أجريت في الهند الصينية وخاصة إشراك الاتبرين مع البلاسموشين،ويحضر للاطفال مركب يدعى بالشوكولاتين تحوي القطعة منه على ٠٫١٠ سنتغرام اريستوشين ممزوجة بالشوكولاته وهي سهلة الاستعمال لذيذة الطعم .

إن لكل بلد موبوء بالبرداء معهداً لدراستها العلمية تدرس فيه أنواع البعوض الناقل وطرق معاشه ومناطق تفريخه وأشكال البرداء ومناطق توزعها في الاقليم، وتقرر هذه المؤسسة بناء على المعلومات التي توصلت إليها طرق الكفاح الواجب اتباعها، فهي بمثابة أركان الحرب دماغ الجيش، ولاسيما أنهُ ليس هناك قواعد مقررة لكفاح البرداء بل تختلف الأساليب التي تتبع باختلاف الأرض والسكان . وتتولى هذه المؤسسة تنظيم دروس سنوية للأطباء الموكلين بالكفاح وتهيئة العدد اللازم من الممرضين وتنبيه الرأي العام والحكومات إلى ضرورة هذا الكفاح ونفعه بالمحاضرات والاعلان والخطابة، كما تعلم أساتذة المدارس وموظفي الحكومة في المناطق الموبوءة ليكونوا عوناً لها. فالبرداء في بلادنا التي كانت قديماً مصدر خراب لا تزال تهدد الثروة الوطنية والإنتاج الزراعي والصناعي بجائحاتها التي تفتك ويشتد سعيرها أيام الصيف وأيام الخريف أيام العمل المثمر، فهي تكلف الثروة العامة سنويًّا بين فرائس تقضي عليهم بالموت ومرضى تحبسهم عن عملهم وأدوية تصرف في سبيل ذلك مبالغ من المال إذا أردنا تصورها أعجزتنا الأرقام في مقاربة الحقيقة مهما بالغنا فيها. فليست المبالغ التي يمكن أن تنفق أو تخصص سنويًّا في موازنة الدولة لكفاحها والجهد الذي يبذل في سبيل ذلك إلاَّ شيئاً ضئيلاً مما يجب علينا ، فكفاح البرداء عمل اقتصادي وطني جليل .

# أنواع القطن

## وتخصيص مناطقها *

يوسف فارس

---

لا يفوت أحداً — زارعاً كان أو تاجراً أو غازلاً — أن يلاحظ أن أنواع القطن المختلفة جملت تظهر وتختفي بسرعة تثير القلق في نفوس من تتصل أعمالهم بالقطن من قريب أو بعيد ، وقد أدّى ذلك إلى التفكير في علاج تلك الحالة، فهل يكفي في علاجها أن نكثر من الأنواع حتى لا ينقرض نوع إلاّ ظهر لهُ بديل ؟ وهل تصل بنا هذه السياسة إلى الغاية المرجوة من الحصول دائماً على أنواع قطنيـة جيدة تلائم مصلحة الزارع والتاجر والغازل جميعاً ؟ ليس ثمة خلاف على أن السعي الدائب لاستنبات أنواع جديدة من القطن أمرٌ لاينكره أحد ، بل إنهُ لخليق بالتقدير والتشجيع . بيد أن نتائج هذا السعي غير مقرونة دائماً بالنجاح ، فكثيراً ما ينشد العالم النباتي نوعاً من الزرع يتميز ببعض الصفات ، وقد يوفق إليهِ في بعض الأحيان ، فيعيش هذا النوع مدة طويلة أو قصيرة من الزمن ، ولكنهُ على الأيام يفقد صفاته كلها أو بعضها ، فلا يلبث أن يزول ويصبح أمراً قد كان . وإذن فالنجاح في استنباط الأنواع في كف القدر ، وقد يخلف الغيب الظنون !

فعلينا إزاء ذلك أن نفكر في طريقة أخرى غير التهافت على الإكثار من الأنواع الجديدة ، وليس لدينا من طريقة سوى الاحتفاظ بالأنواع التي نتداولها جهد المستطاع، على أن من المشكوك فيه أن يستمر علماؤنا النباتيون في استنباط أنواع تفوق ما لدينا الآن، وربما مرت بهم فترة لا يحصلون فيها على نوع مستحسن . وقد يتفق أن تقع تلك الفترة في وقت يتدهور فيهِ نوع على غرّة ، ويصبح على وشك الزوال من الحقل، وذلك على نحو ما حدث منذ عشرات السنين ، فكيف يكون الموقف عندئذٍ ؟ إما أن نمضي في زراعـة النوع الذي فقد صفاته فكسدت سوقه فيخسر الزراع وتخسر من ورائه البلاد ، وإما أن نلوذ بنوع عاديّ الصفات أو غير ثابتها ممـا يكون لدى الفنيين ، فنزرعه على مضض، وهـذا شرّ من الفرض الأول ، ولنا في الماضي عبر ما برح يذكرها كثير . فاتقاء هـذا الشر ميسور إذا اتبعنا سياسة الاحتفاظ بصـفات أقطاننا الممتازة أطول زمن ممكن ، وفي خلال هـذا

---

* قدم هذا البحث الى لجنة « بورصة مينا البصل » بالاسكندرية ، وصاحب البحث من أعضائها .

الزمن الطويل يتسنى للنباتيين أن يستنبطوا على مهل أنواعاً طيبة مركزة الصفات تركيزاً ثابتاً ، فإذا دفعوا بها إلى الحقول والأسواق كانوا واثقين أنها بصفاتها الثابتة المركزة لا تتزعزع ولا يدركها التدهور العاجل الذي أدرك النوعين : المسمَّى بالفؤادي والمسمَّى بالوفير ، وغيرهما .

***

يعزو بعضهم التدهور إلى النبات نفسه ، ويعزوه بعضهم إلى الجو ، ويرى آخرون أن التدهور راجع إلى التربة أو إلى المياه الجوفية مع علاقتها بالصرف وما إلى ذلك . وقد تكون هذه الأسباب على جانب من الصحة ، ولا سيما إذا ارتبط بعضها ببعض ، واتفقت في المكان والزمان والحال ، ولكنها ليست فيما نرى السبب الأكبر لانحطاط ما يستجد من أنواع القطن ، وحسبنا على ذلك دليلاً أن نوعاً يزرع في مصر العليا من نحو نصف قرن ولم يدركه التدهور ، وهو الأشموني . وهذا النوع المحتفظ بصفاته يقبل فلاح الصعيد على زرعه وجنيه ، ويشتريه تاجر القطن راغباً فيه ويفتش عنه الغزال في كل حين . فهذا الأشموني قطن ممتاز ، وصفاته الحسنة باقية ، وفضائله ثابتة ، مع أن الأنواع التي من عهده أسرع إليها الزوال فانقرضت ، وآخرها « السكلاريدس » الذي أخذ يهجر الحقل بعد ملازمة طويلة ، وقد يقال إن الأشموني هو النوع الوحيد الذي ثبت حتى الآن في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة دون الأنواع التي سبقته أو نجحت في عهده (١) .

فما سر ذلك وما سببه ؟ خيرٌ لنا أن نلجأ في الجواب عن هذا السؤال إلى البحث المقارن بين الأشموني وزراعته في الوجه القبلي وبين الأنواع الأخرى وزراعتها في الوجه البحري . أما الفوارق بين الوجه القبلي والوجه البحري من حيث الجو والتربة والري والصرف والدورة والمعاملات الزراعية ونحوها فلن يبلغ بها التباين أن تؤدي إلى التأثير في صفات النبات حفظاً أو ضياعاً .

اختصت مصر العليا بزراعة الأشموني مستقلاً دون غيره في الحقول إلاَّ ما سمي بحقل التجارب ، وذلك بخلاف سائر الأنواع في مصر السفلى فإنها تزرع فيها بعضها بجوار بعض ، وإن هذا لهو الفارق العظيم بين الوجهين : القبلي والبحري . ففي حقول الصعيد كلها نجد ذلك النوع الواحد ، وأما في الوجه البحري فالأنواع المختلفة مزروعة في حقول متجاورة ، وقد نرى في البلدة الواحدة أنواعاً متعددة ، وأيضاً في الضيعة الواحدة . ولما كان القطن من النبات ذي الزهرة التي تقبل التلقيح بالعوامل الطبيعية فمن اليسير أن نستنتج أن زرع أنواعه المتعددة في حقول متلاصقة يساعد على التلقيح الخلطي ، وذلك مؤدٍّ إلى

(١) نقول على سبيل التذكرة إن اسم الزاجورة كان يطلق على نوع الأشموني المزروع في الوجه البحري بمصر .

التهجين الطبيعي ولو بنسبة ضئيلة كل سنة، وقد تبلغ هذه النسبة خمساً في المائة ، فاذا انقضت عشرون سنة أصبح القطن من نوع آخر .

وربَّ قائل يقول : أليس السكلاريدس ناجاً من هذا التهجين الطبيعي، فما بالك تنكره ؟. فأقول إن التهجين إنما يحسن إذا خصصت لهُ حقول تجارب يتولاها الفنيون ، فأما أن تكون أرض مصر كلها حقول تهجين فذلك هو الخطأ الوخيم العقبي . ولقد زال السكلاريدس من حيث نشأ، فالعامل الذي أحياه هو العامل الذي أماته . وقد انقرضت قبله تلك الأنواع التي كان لها الفضل في شهرة القطن المصري ، أمثال النوباري والعفيفي واليانوفتش وغيرها ، وربما انقرض على نحوها الوفير ولحق بهِ الكرنك والجيزة (٧) وكل ما قد يظهر من بعد إذا اطردت الحال على هذا المنوال .

وهناك أيضاً سبب شديد هو قيام المحالج بحلج أقطان من أنواع مختلفة. فالعناية في المحالج مهما تكن بالغة من حيث النظافة والنظام، لا يمكن معها الجزم بأنهُ لن يحدث خلط بين أنواع البذرة حين تتوالى الأقطان على المحلج وتمر مختلف البذور في الغرابيل واحدة بعد أخرى

فإذا ابتغينا الاحتفاظ بأنواع القطن فلزام علينا أن نحدد مناطق خاصة للأنواع المختلفة ما أمكن ذلك . وبتحديد كل منطقة لنوع ما سيخصص محلج المنطقة لهذا النوع وحده فيؤمن الخلط، ولا ريب أن لهذا الإجراء تبعاته من الإضرار ببعض الأفراد ، ولكن المصلحة الفردية تهون بجانب مصلحة الجماعة ومصلحة البلاد .

إن فوائد هذا الاقتراح إذا أتيح لهُ التنفيذ جديرة أن تحل من التقدير أكرم محل . إلاّ أن بعض الزرّاع قد يعترضون عليه من الوجهة الاقتصادية، فهم يصبحون بهِ طوع سعر لنوع واحد، وهذا شأن زرّاع الوجه القبلي ، فإنهم كما قدمنا لا يزرعون إلاّ نوعاً واحداً . ونحن نعلم أن أنواع القطن تتفاوت أسعارها زيادة ونقصاناً بحكم الأسعار العالمية وعوامل المضاربة ، وقد شاهدنا في الماضي كيف زاد سعر الأشموني على سعر السكلاريدس، على أن النوع الذي يقل سعره الذاتي عن غيره يكون إنتاجه أقوى والعكس بالعكس ، فكأن الطبيعة بهذا تقيم بين النباتات ميزان عدل .

أضف إلى هذا أن الفلاح الصغير يوجّه عادةً إلى زرع نوع دون نوع بغير دافع من الإنتاج الزراعي نفسه ، بل بتأثير من التاجر الذي ييسر لهُ البذرة للتقاوي . وقد يكون هذا الفلاح الصغير على غير علم بالنوع الذي يجود أكثر من غيره في منطقة أرضه .

وأما اعتراض التجار وأصحاب المحالج فحكمهم حكم زملائهم في الصعيد أيضاً . وعلى أية حال فأغلبهم تهمهم الكمية لا النوع، فإذا تبين لهم أن تنفيذ هذا الاقتراح مؤدٍّ إلى زيادة

المقدار بطلت الشكوى . ولمن يرغب من التجار في شراء أنواع أخرى أن ينشئ مكاتب في كل المناطق التي تزرع النوع الذي يرغب في الحصول عليه .

والآن نلمع إلى بعض الفوائد الزراعية والاقتصادية التي يواتينا بها تنفيذ هذا الاقتراح:

## الفوائد الزراعية

في علم الزارع أن لكل نبات مزايا ومطالب تختلف — ولو بنسبة ضئيلة — عما هي في غيره، وهذا الاختلاف قائم بين الأنواع حتى لو كانت من فصيلة واحدة ، وأنواع القطن أشد من سواها اختلافاً في المعاملات الزراعية مثل طريقة الزرع ومواعيده أو تخطيط الأرض ومسافات البرك « وخف » النبات، وأنواعه تختلف أيضاً من حيث قابليتها للتسميد الفني أو عدم قابليتها ، ومن حيث الري الكثير أو القليل ، وجودة الصرف وضعفه ، وكذلك من حيث مناعتها من الأمراض ومقاومتها للعواصف الجوية ، ومن حيث مواعيد الجني وطرقه . وبعض أنواع القطن تختلف عن بعض من الوجهة النباتية فهناك أنواع تمتاز في نموها الخضري فلا تصلح في الأراضي الموفورة الغرين ، وهناك أنواع مبكرة لا تمكث طويلاً فيستحسن فطامها عن الري قبل غيرها ، وأنواع إذا زرعت في منطقة ما بلغت نسبة تصفية حلجها درجة عالية ، وأنواع يكبر حجم بذرتها إذا زرعت في تربة خاصة ، وأنواع يؤدي زرعها في جهة ما إلى أن تنخفض في تيلتها درجة النعومة والمتانة والطول. وهذا كله يميل بنا إلى القول بأن في مكنتنا تلافي نواحي الضعف جميعاً إذا اتخذنا قاعدة تحديد المناطق ، وخصصنا لكل منطقة النوع الذي يجود فيها من مختلف الوجوه .

ومحتمل أن يكون اتخاذنا لهذه القاعدة منشأ لعامل التنافس بين الزراع في العناية والتجويد، فتوحيد النوع يغري كل زارع ببذل الجهد في إيجاد محصول أوفر كمية وأجود رتبة. فتكثير الأنواع يسقط فضيلة التنافس ، فأما التوحيد فإنهُ يحركها .

## الفوائد الاقتصادية

إذا خصصت كل منطقة لنوع معين أصبح تخصيص المحالج لهذا النوع المعين أمراً محتوماً. وفي ذلك فوائد جمة :

أولاً : منع أسباب الخلط في أنواع البذرة وأيضاً في أنواع القطن وبذلك تسهل مهمة القائمين على منع الخلط .

وثانياً : عدالة التوزيع بين المناطق فيما يتعلق بمقادير القطن التي تحلج في محالج كل منطقة فلا يشحن قطن منطقة إلى أخرى ، فيستفيد بحق أهل كل منطقة من عمليات الحلج فتتعادل

المحالج وزوال أهم الأسباب التي تؤدي إلى أن تتوقف بعض المحالج عجزاً . على أن هناك محالج ستقف عجزاً عن مجاراة تيار المنافسة بين مديرية وأخرى.

وثالثاً : يصبح اختصاص هذه المحالج مقصوراً على النوع الذي يزرع في منطقتها دون سواه فتجيد حلجه مع الاقتصاد في النفقة ومع المحافظة على « التيلة » وزيادة تصافي المحلج وزيادة معدل إنتاج الدولاب الواحد .

ورابعاً : يصير التاجر أيضاً بفضل التخصيص على دراية تامة بنوع القطن في كل بلد من المنطقة في مختلف السنين ، إذ تتزايل أسباب التدهور فيبقى النوع محتفظاً بصفاته فترة مديدة فيطمئن التاجر اليه ويبتاعه بأسعار مرتفعة ، وكذلك يعود الفلاح إخصائيًّا في النوع ، وينجم عن هذا أيضاً أن نرى مقادير النوع الواحد من القطن أقرب تجانساً في التيلة واللون مما كانت عليه من قبل إذ يخلط قطن نوع واحد ناتج في الشرقية بغيره من نوعه ناتج في الدقهلية أو الغربية فلا يكون هذا الخليط إلاّ قطناً غير متجانس مهما نحكم تضريبه وحلجه . ولا مرية في أن التجانس في كل أنواع القطن يجعلها ممتازة يقبل الصانع على شرائها غير هيّاب ولا متوجس ، باذلاً لها أرفع الأثمان .

وهناك ملاحظة أخرى ، وهي أن الفترة بين زوال نوع من القطن وظهور نوع آخر هي فترة خسارة على الفلاح والتاجر والصانع . فالنوع إذا أوشك أن يزول أهمل وخسّ ثمنه ، وتعب التاجر في بيعه بالخارج ، وقلق بال الصانع لمشاهدته ضعف النوع وقرب زواله مما يحتم عليه إدخال بعض التغيير في آلاته .

وإلى جانب هذا يصعب على الفلاح عند ظهور نوع جديد أن يبيعه في السوق فيضطر إلى قبول الحط من ثمنه ، كما حدث في أنواع المنوفي ، وكذلك يزهد التاجر فيه خشية بقائه في مخازنه فلا تمتد اليه يد الصانع ، كما حدث في نوع البهتيم ، فإذا قبل الصانع شراءه تحكم في سعره حتى يأخذه بأبخس الأثمان . ويظل الأمر كذلك فوضى واضطراباً حتى تتوطد قدم النوع في السوق وتظهر المنافسة حقيقة سعره كما حدث في نوع الملكي .

وقد ينشأ من كثرة الأنواع قلق التجار ، إذ يحار الفرازون إزاء الكثرة والتشابه بين نوع ونوع . وقد يساعد هذا التشابه على خلط الأقطان كما حدث بين المعرض والوفير . وتلك حالات تضايق التجار وتبعث في نفوسهم القلق حين يقدرون السعر ، فلا يبذلون إلاّ أسعاراً وأثماناً أقل من الحقيقة احتياطاً للمغالطة . وواضح من هذا كله أن تغيير الأنواع بسرعة يترتب عليه إضرار بالجميع . فمن الصواب الواجب ألاّ يحدث ذلك التغيير إلاّ بعد أطول زمن ممكن وعند الضرورة القصوى ، أو في الحالات التي يتميز فيها نوع ما من القطن تميزاً بارزاً .

# عادات البولنديين وعقائدهم

لحسين المهدي غنام

---

كانت ملابس النبلاء وأزياء الأغنياء البولنديين تتفق وأزياء العصور المتقدمة ، وخاصة الفرنسية ، إذ كانوا يأخذون كثيراً عن الفرنسيين ، إلا أنها كانت تمتاز بغلاء أثمانها وأبهتها وكانت في الغالب من فراء ثمينة تشترى من روسية .

أما الطبقة الدنيا فكانت تقنع بجلد النمر وأبي الأبرد والعنبر إذا استطاعوا الحصول عليها.

وكانت نساء الطبقة العالية يرتدين الملابس التي توافق مكانتهن السامية ، ويحلين رؤوسهن بأكاليل مذهبة وجواهر نادرة وزهور وغير ذلك ، كما أنهن كن يقتبسن الأزياء الفرنسية .

وكانوا يسرفون في الزينة إسرافاً بالغاً ، فكان الرجل أو المرأة يمتلك ما يقرب من خمسين حلة للزينة ، ويزينون خدمهم كذلك ، وكانت هذه الحال تسوقهم إلى الإفلاس في الغالب.

وكان الرجال محاطين دائماً بعدد عظيم من الخدم ، والنسوة بعدد جم من الوصائف .

وكان يسمى النبلاء والأشراف الذين لا يعملون ولا يأبهون بالسياسة : « شلاختا » وكلمة ( شلاختا ) مأخوذة من الكلمة الألمانية ( خشلخت ) ، ولعلها تفيد معنى التبطل .

ومن هؤلاء ( الشلاختا ) برز بعض الأفراد في القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وعنوا بالسياسة ، فكانوا نواة لطغيان النبلاء في ما جاء من العصور !

وكان من شأن مجلس أعيانهم أن يبرم كل شيء ، فهو الذي يعلن الحرب أو السلم . وهو الذي يجند الجيش ، ويجبي الضرائب ، ويشرع القوانين .

ولكن الذين كانوا ينفذون الأمر هم حكام عسكريون في الغالب ، يعينهم الملك أو الأمير برتبة جنرال ، ويسمونهم الحراس أو المحافظين.

وكان مجلس الأعيان ينعقد كل عامين ، إلا في أحوال استثنائية عند الحاجة ، فيجتمع اجتماعاً خاصاً ، ثم يجتمع بعد ذلك كل خمسة وعشرين عاماً في دورة استثنائية لمراجعة ما جرى في الأعوام السابقة .. ولكنه كان مجلساً شاذاً في الكثير من عادات أعضائه وطباعهم .

فهم يتكلمون متى أرادوا بالقسوة أو هجر الكلام ، ويعنفون حتى ملوكهم ، وسيأتي الكلام على هذا المجلس في موضع آخر . . .

وكان في المملكة ، ثلاثة عشر أسقفاً ورأسهم، يتمتعون جميعاً باحترام عظيم عام .

ويليهم في الاحترام أمراء المقاطعات الخمسة والثلاثون ، والثلاثون محافظاً الكبار والتسعة والأربعون محافظاً من الدرجة الثانية، وكان هؤلاء جميعاً مع عشرة ضباط يؤلفون مجلس الشيوخ.

وكان هؤلاء الأمراء والحراس والمحافظون حكاماً على الإمارات والمقاطعات طول حياتهم.

وكانوا يتمتعون بسلطة تخولهم توجيه مقاطعاتهم وحكمها حكماً ذاتياً . وإذا اجتمعوا في مجلس الشيوخ جلس الملك تحت ظلة تخيم على عرش مرتفع وجلس إزاءه القساوسة والأمراء والمحافظون في ثلاثة صفوف من الجانبين في قاعة المجلس ، وجلس من خلفهم حكام الدرجة الثانية فالضباط .

ولم يكن المُلْك وراثياً حتى عهد قريب ، فكان الذي يبرز من الأمراء أو يغتصب الملك بقوته ينتخب ملكاً ، حتى لو كان غريباً غيرَ بولندي !

وكان من عادة البولنديين المتقدمين أن يحلقوا رؤوسهم ويتركوا خصلة في وسطها ولم يركبوا اللحى مستعارة على عادة بعض الشعوب الأخرى . ولكنهم ركّبوا شوارب طويلة كانت تغطي أفواههم تقريباً .

وكانت السيدات والنبيلات يرتدينَ الأزياء الفرنسية . وكانت السيدة لا تخرج إلاَّ في عربة مطهمة تجرها ستة جياد ! حتى إن قصدت إلى الكنيسة أو ذهبت إلى زيارة من يقيم على عشر خطوات .

وإذا خرج بولندي أو بولندية من الطبقة العالية في الليل توضع على عربته أو عربتها ما لا يقل عن أربعة وعشرين مشعلاً موقدة بالشموع تنير الطريق أمام العربة ، ويحفها بعض ( اليسقجية ) كشأن الأتراك والمصريين في تلك السنوات ! .

هذا وكان الفلاحون يتدثرون بالجلود الخشنة والصوف الرخيص ، ويستعملون لحاء الأشجار أحذية تقيهم وطأة البرد أو غلاظة الصخور .

على أن مظاهر أبهة النبلاء والأشراف كانت أروع من الأبهة التركية في كثير من الأحوال ، وبخاصة حفلاتهم الرسمية وولائمهم ، وإن كانت موضع نظر من الناحية الخلقية .

فقد كانت عادتهم أنهم إذا أقاموا وليمة ، وجب على كل ضيف يدعى إليها أن يحضر معهُ سكيناً وشوكة وملعقة ليتناول بها طعامه ، فلم يكن من عادة الداعين أن يقدموا هذه الأدوات . وكانوا يخيطون قطعة من الكتان الأبيض في مفرش المائدة فتستعمل منشفة .

وحين يحضر المدعوون جميعاً تغلق الأبواب كلها ولا تفتح — مطلقاً -- إلاّ عند ما ينتهي العشاء وينهض المدعوون وبين يدي كل واحد منهم الطَبق الذي أكل فيه، وهكذا لا يفقد طبق واحد ! وذلك لأن السابلة كانوا يسرقون الأواني . وكان لكل ذي مقام قاعة في بيته تكون للضيوف . وكانت هذه القاعة تضم مائدة جانبية مبنية بناءً يحيط بها درابزين ويخاط في مفرش هذه المائدة قطعة كتان ، كما مرّ بك ، لا ترفع حتى تصير قذرة جدّاً بما يتساقط عليها من فضلات الطعام !

وعلى هذه المائدة مكان مخصص للموسيقى التي كانت تتألف من ( كمان وأرغن ) . . .

وكان كل مدعو يصحب معه تابعه إلى الوليمة ، وعند ما يجلس الضيف إلى المائدة يقطع نصف رغيفه ويعطيه لتابعه مع طبق مملوء لحماً ، فيقف هذا الخادم وراء سيده يتناول طعامه .

وإذا طلب السيد كوب نبيذ أو كوبين ، أحضر خادمه مثلها لنفسه ، وشرب في الكوب الذي شرب فيه سيده .

واللحم الذي يقدَّم للضيف كثير جدًّا حتى إنهُ يتجاوز حاجة الآكلين بقدر كبير ، ولكن شيئاً من هذا اللحم لا يعود إلى المطبخ ، لأن الخدم يستولون عليه جميعاً ، وقد يعودون به إلى بيوتهم .

وكانت عادة كل سيدة أن تزوّد خادمها بمنديل يحمل إليها فيه الحلوى الجافة أو الفاكهة التي تزيد على حاجة الآكلين . . .

وبعد أن يتناولوا الطعام يرقصون على أنغام الأرغن والكمان . . .

ولعلَّ الاضطهاد الذي عاش فيه البولنديون الأفحاح والظلم الذي شملهم على أيدي سادتهم ، أورثهم الخضوع للقضاء والقدر .

وأعان على قيام هذه العقيدة طبيعة بلادهم الهادئة ، والنهر الذي أقاموا على ضفافه ، كما أن وادي النيل الوادع والظلم الذي حاق بأهلهُ في عصور الظلام الماضية أنشأ شعباً قانعاً مستسلماً في الغالب .

والبولنديون يردّدون كثيراً كلمة العناية الإلهية . فقد كانوا حتى سنة ١٨٥٥ يعتقدون أن « العناية الإلهية » أبقت لهم أميرهم البولندي آدم تشار تورسكي ، حتى يستطيع أن يتكلم باسم بلاده مطالباً بانصافها وتخليصها من غاصبيها . . .

فالعناية الإلهية عند البولندي عقيدة ، حتى في حياة الفرد العادي منهم ، وقنوته ملحوظ ، وخاصةً في العصور التي قسّمت فيها بولندة . . .

ومثل هذه العقيدة استحوذت على شاعرهم الأعظم آدم متسكيفتش ، فقد كان يؤمن أن

« القدر » اختار الأسرة البونابرتية لإنجاء بولندة من غاصبيها جميعاً : روسية وبروسية والنمسة . . . وصار هذا الإيمان فكرة قوية ثابتة ، وصارت جزءًا من فلسفته التصوفية التي مال اليها قبل أخريات أيامه .

وكان هذا إيمان الكثيرين من البولنديين — نازلهم وعاليهم — وظل باقياً إلى الآن ، ولكنهُ انحرف قليلاً فصار افتخاراً بعظمتهم ومباهاة برجالهم .

***

قال الكاتب الانجليزي المعروف ج . ك . تشسترتُن في كتابه « أحاديث عامة » : لقد صدمتني جملتان سمعتهما لما زرت بولندة، قالهما لي ضابط الفرسان الذي لقينا مع فرسانه لأجل حراستنا ، وكان يتكلم بلغة فرنسية صحيحة كأنه أحد الفرنسيين الأقحاح ، أما الجملة الأولى فهذه : « إني لن أدعوك صديق بولندة الأول فالله تعالى وحده هو الصديق الأول لبولندة » . والجملة الثانية قالها لي الضابط نفسه بعد قليل ، في شيء من الدعابة : « وبعد ، فلا يوجد في الحياة غير وظيفتين ، الأولى وظيفة الشاعر ، والثانية وظيفة الجندي الفارس » .

وقد ردَّ تشسترتن على الجملة الثانية مازحاً ساخراً . فقال : « إنك أنت الشاعر وأنا الجندي الفارس ! » .

وكتب تشسترتن غير هذا في وصف هؤلاء البولنديين وأخلاقهم وشعورهم ونفسيتهم فقال : « إنهم ناس ورعون يخشون الله ويتقون قتل الناس » . وكان يسمع من الكثيرين هذه الجملة : « إن الله تعالى هو الصديق الأوحد لبولندة » .

والبولندي في الغالب رجل فخور بقومه ولكنه وديع الطبع مسالم محب للخير ذو أخلاق عالية . وحبه للهدوء يجعل قومه ميالين إلى حياة الوحدة ، كما هي حال كثير من أهل الشرق الآن .

ويرجع فخر البولندي بوطنه إلى حب أصيل لبلاده ، وتاريخها المجيد ، حتى إذا رأى البولندي شيئاً عظيماً أو فعلاً مجيداً يفعله أي رجل نسب هذا الفعل إلى أعمال شبيهة بأعمال البولنديين ، على الرغم من هزيمة بولندة وتعاستها في العصور الأخيرة . فقد قال الشاعر الإنجليزي بللوك يصف نظرة البولندي العليا في تقديس مقام عظيم :

« رجاء نصف المهزوم : بيت من ذهب ، ومقام سيف ، وبرج من عاج . »

# المدرسة الفرخشاهية

للدكتور أسعد طلس
من أعضاء المعهد الفرنسي بدمشق

## ١ — لمحة تاريخية

تنسب هذه المدرسة إلى الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن الملك شاهنشاه بن أيوب ابن شاذي، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين بن أيوب . وكان صاحب بعلبك كما كان ينوب عن عمه صلاح الدين كثيراً إذا ما غاب عن دمشق. وكان صلاح الدين يثق به ويكرمه ويفضله على جميع آله، وكان شجاعاً كريماً فاضلاً له شعر جيد . قال في الروضتين نقلاً عن ابن أبي طي: « كان فرخشاه من أكرم النـاس وأطهرهم أخلاقاً وأسدهم رأياً وأشجعهم قلباً، مضافاً إلى شجاعته كونه عالماً متفنناً كثير الأدب ، مطبوع النظم والنثر . . . وكان من أخص خواصه وذوي اصطفائه الصدر العالم الكبير تاج الدين أبو اليمن الكندي ، أوحد دهره ، وعلامة زمانه ، ووزير دسته ، ورفيق درسه ، وشعاع شمسه ، اجتمع به في مجلس القاضي الفاضل بالقاهرة ، فجاء ذكر بيت لأبي الطيب ، فتكلم فيه تاج الدين بما يليق ، فأعجب فرخشاه وسأل القاضي الفاضل عنه ، فقال : هذا تاج الدين الكندي ، وعرفه بفضله ، فلما قام فرخشاه أخذ بيد الشيخ تاج الدين وخرج به ولزمهُ إلى أن توفي »[1] .

ومن جيد شعر الملك فرخشاه قوله :

أنا في إثر السقـام من هوى هذا الغلام
رشأ ترشق عينا ه فؤادي بالسهـام
كلما أرشفني فا ه على حرّ الأوام
ذقت منه الشهد بالثـلج المصفى بالمدام

وقوله :

إذا شئت أن تعطى الأمور حقوقها وتوقع حكم العدل في حسن موقعه
فلا تضع المعروف في غير أهله فظلمك وضع الشيء في غير موضعه

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين لابن أبي شامه طبع مصر سنة ١٢٨٨ ، ص ٣٤

وقد امتدحه كثير من شعراء عصره ، من أشهرهم ابن سعدان والعماد الكاتب، فما قاله ابن سعدان فيه :

تخذ الساري لبدأً وعود الـزان نابأً والهندواني ظفرا
أعجمي الأنساب قصرت الأعراب عنه نجعاً ونظماً ونثرا
هزمت كتبه الكتائب جفلا وأعادت دجى الحوادث فجرا
فهو كالمازني علماً وكالأحـنف حلماً وكالفرزدق شعرا

ومما قال فيه العماد الكاتب من قصيدة طويلة :

قد قلت للحادي وقد ناديته في مهمه أقصر وصلت مه مه
حتام جذبك للزمام فأرخه فلقد أنخت إلى ذرى فرخشه
متكرم بالطبع لا متكره شتان بين تكرم وتكره
إحسان ذي مجد وهمة ماجد مجد وتقوى عابد متأوه

وقال ابن كثير : امتدحه كثير من الشعراء ، ومات بدمشق في جمادي الأولى[١] سنة ٥٧٨ ( وقيل سنة ٥٧٩ ) ولما مات بنت أمه خطلخير خاتون بنت إبراهيم بن عبد الله له تربة — مدرسة ، هي بالشرف الشمالي ( وقد طبع خطأً بالشرق ) بدمشق ، وإلى جانبها التربة الأمجدية لولده الملك الأمجد وهما وقف على الحنفية والشافعية [٢].

وقال الأسدي :« إنها على الحنفية فقط، ولكن صاحب تنبيه الطالب وغيره لم يذكروا من درس بها من الشافعية ولم يتقدم لها ذكر في مدارسهم »[٣] وقد درس بهذه المدرسة — التربة من الحنفية : العماد بن فخر الدين وابن الحريري محمد بن عثمان الأنصاري رئيس الحنفية وقاضيهم بدمشق ( — ٧٢٨ ) . وقد ذكر هذه المدرسة وطرفاً من تاريخها جماعة ممن كتبوا في تاريخ معاهد دمشق، أولهم :

النعيمي صاحب « تنبيه الطالب وإرشاد الدارس » وقد تحدثنا عنه وعن تاريخه المخطوط فيما سبق . ثم محيي الدين عبد الباسط العلوي مختصر كتاب « تنبيه الطالب . . . . . . » وقد ترجم المختصر إلى الفرنسية وعلق عليه المستشرق Sauvaire [٤] وأخيراً جاء الشيخ

(١) كتاب الروضتين ٢ / ٣٤
(٢) البداية والنهاية ١٢ / ٣١١
(٣) منادمة الاطلال لبدران ، مخطوطة المعهد الفرنسي بدمشق ٢ / ٢٥٣
(٤) انظر Journal Asiatique 1894-69

عبد القادر بدران الدمشقي فألف « منادمة الأطلال » وتحدث فيه بآثار دمشق في زمنه [١]

ويظهر أن هذه المدرسة — التربة ظلّت عامرة إلى أواخر القرن الثامن ، فقد رأيت أن ممن درسوا فيها في هذا العصر قاضي الحنفية بدمشق ، ثم يبدو أنها ظلّت عامرة إلى أيام العلموي الذي كان يعيش في أوائل القرن العاشر [٢] ، فقد ذكرها وقال : إن النعيمي لم يذكر من شيوخها الشافعيين أحداً ، فهو يريد بهذا القول أن يثبت أنها خاصة بالحنفية .

ويظهر أن العطب ابتدأ يدب اليها في القرن الحادي عشر ، فإننا لا نجد لها ذكراً منذ هذا القرن في تواريخ العصور المتأخرة ، كخلاصة الأثر للمحبي ، وسلك الدرر للمرادي . وآخر من ذكرها مشيراً إليها الشيخ بدران ( — ١٣٢٣ ) وإليك نص كلامه : « قال ابن كثير : إنها للحنفية والشافعية ، وقال الأسدي ، إنها على الحنفية فقط ، ولكن صاحب التنبيه ( النعيمي ) وغيره لم يذكروا من درس بها من الشافعية ، ولم يتقدم لها ذكر في مدارسهم . وهذا الخلاف لا طائل تحته بعد ما صارت بستاناً . ولقد وقفت على ما بقي من آثارهم فقرأت كتابة في حائط قبتها الشرقي فوق الشباك ، فإذا هي ، ( ثم سرد الكتابة التي سترد عليك ثم قال ) : ثم دخلت القبة ، فإذا لها باب صغير من الجانب الغربي وهي متسعة وقد سقط أعلاها وبنى بها أصحاب البستان الذي كان مدرسة إصطبلاً صغيراً وحجرة ، وجُعل فوقهما غرفتان . وجدران تلك القبة الأربعة في غاية المتانة ، مبنية بالحجارة الضخمة ، وفي جدارها القبلي باب يتوصل منه إلى قبّة ثانية أصغر منها وهي على حالها لم يتغير منها شيء . وهي التربة الأمجدية ، وبها قبر بني بالحجارة الكبيرة وارتفاعه عن الأرض أكثر من ذراع ، ولها باب من الجانب الغربي . وأمام القبتين الآن من الجانب الغربي بركة صغيرة يمر فيها الماء . وأما المدرسة فهي الآن بستان ولم يبق من آثارها سوى أساس جدارها الذي كان محيطاً به ، وقد جعل أساساً لدكّ [٣] البستان ، ولسوف تذهب هذه الآثار أيضاً فلا يبقى لها ذكر إلاّ في القرطاس [٤] .

جاء بعد بدران المستشرق سوفَجيه Sauvaget فذكرها في كتابه وقال : إنها قد ساء

(١) انظر مخطوطته المحفوظة بالخزانة التيمورية ، ومنها نسخة بمكتبة المعهد الفرنسي بدمشق ( في فصل المدارس الحنفية )

(٢) لا نعرف بالضبط سنة وفاته ويغلب على ظن Sauvaire أنه مات في سنة ٩٢٢ (انظر J. A سنة ١٨٩٤ ص ٤٥٩ )

(٣) الدك كلمة شامية يطلقونها على حيطان البساتين من الطين النيء المعمول على شكل قوالب طولها ذراع في ذراع أو أكثر

(٤) المنادمة ، مخطوطة المعهد ٢ / ٢٥٤

حالها جداً وتبدلت معالمها وخصوصاً حينما حوّلت في سنة ٢٧ — ١٩٢٦ إلى مسجد ، فقد شوهت معالمها تشويهاً قبيحاً بهذا التبديل الذي لم يقم به أناس لهم خبرة بالترميمات والاصلاحات الأثرية . ثم ذكر أنك إذا خصت عن القبة وما يجاورها لا تجد أثراً آخر لبناء آخر، فالمدرسة التي يذكرها المؤرخون لم تكن شيئاً غير هذه القبة، ففيها كانت تلقى الدروس وتستدير الحلقات [1] .

قلت : ويظهر أن العمران لما امتد إلى تلك المنطقة أصبح البستان الذي أشار اليه بدران دوراً وحوانيت ، فقام أهل الحي وجعلوا من المدرسة مسجداً في سنة ٢٧—١٩٢٦ ولكنهم شوهوه هذا التشويه الذي تحدث عنه السيد Sauvaget .

والمدرسة اليوم تقع في دخلة صغيرة تسمى دخلة القزاز ( في شارع زقاق الصخر ) غير بعيدة من بناء مدرسة التجهيز .

## ٢ — وصف البناء

المدرسة — التربة بناء مربع مساحته ٨٫٧٠ × ٨٫٧٠ من الأمتار ، له حيطان من الحجر الأصفر الضخم ( ٤٤ سم ) وتشكل هذه الحجارة الضخمة من مدماكات [2] ثم تصغر الحجارة فتصبح ( ٠٫٢٥ سم ).

وقد فتح في كل جهة من جهات البناء المربع باب إلى الجهات الأربع جعل الباب الشرقي المدخل الرئيسي وجعل الباب الجنوبي مدخلاً إلى القبة الأمجدية التي تحدثنا عنها من قبل . أما الباب الشمالي فقد جعل شباكاً يشرف على دخلة صغيرة وهو مسدود اليوم . والباب الغربي يؤدي إلى صحن المدرسة ، وقد سد اليوم بخشب وطين سداً قبيحاً ، ومن فوق هذه الحيطان كانت تقوم القبة الجميلة . وهي قائمة على أربع أقواس من الآجر يمتطي كل قوس حائطين من الحيطان الأربعة ، وبين كل قوسين قوس ثالثة تقوم على حائط واحد من هذه الحيطان وقد قسمت هذه القوس إلى كوتين صغيرتين . ومن فوق هذه الأقواس جميعاً كانت تقوم ست عشرة كوة على سطح أصغر من السطح الذي قامت عليه الأقواس ومن فوق هذه الكوى تقوم قبة شكلها نصف دائري . وهذا الشكل من القباب هو الشكل الدارج في دمشق الأيوبية وحدها في القرنين السادس والسابع على ما يذكره السيد Sauvaget هذا وصف مجمل لحالة القبة من الخارج قبل أن تتهدم ، كما يدل نمط القبة التي إلى جانبها

(١) Monuments, I, 35. (٢) المدماك : كلمة شامية تطلق على الصف الواحد من الحجارة في الحائط أو غيره .

وغط كثير من القباب التي رفعته في هذا العصر . أما اليوم فقد تهدمت الكوى الست عشرة والقبة الكروية ، وأقيمت من فوق الأقواس قبة من خشب وطين قبيحة الهيئة والشكل .

هذا وصف القبة كما كانت من خارجها ، فأما داخلها فقد كانت حيطانها مغشاة بقشرة من الجص الأبيض ، من تحته طبقة من الآجر . ويظهر أنه كان لها محراب جعل مكانه باب حينما بنيت القبة الأمجدية إلى جانبها . وتحت هذه القبة كان يقع قبر الملك فرخشاه ، وليس له أثر اليوم ، فقد درس تماماً ، وفرشت أرض القبة بالموزييك الحديث .

## ٣ — زخارف القبة ونقوشها

قلنا إن حالة القبة اليوم جد سيئة لا تبين لزائرها الحالة الزاهية التي كانت عليها ، ولكنك تشاهد على كل حال آثاراً عظيمة فخمة وبناءً مهندساً . أما من الخارج فالقبة ساذجة وليس فيها شيء من الزخرفة البنائية ، إلا قفل قوس الباب فإنه نحت من الحجر الأسود تكتنفه صفحات من الحجارة البيض المصفرة . ومن تحت هذه القوس تقع أسكفة الباب ، وهي قطعة ضخمة من الحجر الأبيض طولها ١٫٢٠ متر وقد حفر عليها إطار مستطيل في طرفيه مثلثان وضمن هذا نقشت الكتابة الآتية : ( بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه التربة المباركة الفقيرة إلى رحمة الله تعالى برسم ولدها الملك المنصور معز الدين والدنيا فرخشاه بن شاه شاه ( هكذا ) بن أيوب الملكي الناصري توفي مستهل جمادى الآخر (هكذا) سنة تسع وسبعين وخمسمائة ) [١] .

أما نقوش القبة من الداخل فكانت نوعين : ١ — نقوش بالحبر الأزرق على أرض من الجص ، وهي زخارف هندسية ونباتية رائعة تشبه نقوش تربة البدري . وقد طمست هذه النقوش كلها لما طليت حيطان التربة وجعلت مسجداً ، وقد حفظ لنا السيد Sauvaget بعض هذه النقوش في كتابه [٢] وقد أسف جداً لعجزه عن نقل كثير من هذه النقوش . فالظاهر أن الناس قد طلوا القبة بالجص ثانية فذهب كل أثر للنقش . ومن الواجب على رجال مصلحة الآثار رفع هذه الغشاوات وإعادة النقش إلى حالته الأولى .
٢ — نقوش جصية ألصقت على الحيطان في الزوايا والأطراف . وقد بقيت هذه النقوش لأن طبقة الجص التي طليت بها الحيطان لم تقو على تشويهها ، وهي نقوش جميلة بارعة في أشكالها الهندسية وتعاريجها .

---

(١) أورد هذه الكتابة بدران في « المنادمة » باختلاف بسيط ، وقد مر بك أن بعض المؤرخين يجعلون وفاته سنة ٥٧٨ (٢) Les Monuments Ayyoubites, I, 29-3

# التكيف الاقتصادي

لصمر ابرهيم النمرى

## — ٢ —

ما هو العلاج لمشكلات النظام الاقتصادي ؟ قبل الاجابة عن هذا السؤال أود أن ألجأ إلى التاريخ لأقص بإيجاز التطور الذي أصاب النظم الاقتصادية ، فأقول :

أول نظام اقتصادي نشأ في العصر الحديث هو النظام التجاري (Mercantilism) أو مذهب الكسبيين كما سماه البعض ، وأساسه أن الثروة تتألف من المال والمعادن الثمينة التي إن حازتها الدولة أصبحت منيعة الجانب . وقد ظهر هذا المبدأ منذ فجر القرن السابع عشر وكان مثار الحروب طوال القرن الثامن عشر في القارة الأوروبية وسبب المشاحنات الدولية للاستيلاء على المستعمرات . وكان من نتائجه أيضاً وضع القوانين في كل دولة للتضييق على حرية التجارة والصناعة . وفي أواخر القرن الثامن عشر بدأ آدم سمث هجومه العنيف على هذا النظام حين نشر كتابه ( ثروة الأمم ) وجاهر بأن الفرد أصلح ما يكون للحكم على منافعه الاقتصادية . وقد كانت فكرته هذه تتمشى مع الفلسفة السياسية لذلك العصر وما تلاه . إذ أن مفكري الثورتين الأميركية والفرنسية وكتاباً كثيرين مثل توماس پين وبنتام ووليم فون هامبولت قالوا إن مهمة الحكومة تنحصر في إقامة العدل أو القضاء وليس لها حق التدخل في الشؤون الاقتصادية . وهكذا نشأ نظام جديد ساعدت الثورة الصناعية على ظهوره هو النظام الفردي ( Indviidualism ) أو النظام الحر ( Laissez-faire ) على أن السير بموجب هذا النظام أدّى إلى ويلاتٍ بشرية أوجبت تفكيراً جديداً يقضي بتدخل الحكومة في الأعمال الاقتصادية تأميناً لمصلحة الأمة ، فظهر مذهب آخر هو المذهب الجمعي ( Collectivism ) القائل إن الديمقراطية السياسية لا تكفل سعادة المجموع ولاسيما أن المصالح الاقتصادية تسيطر عليها وتتحكم فيها . أو بمعنى آخر إن الديمقراطية الاقتصادية يجب أن تكون أساس الدولة . وهكذا نشأت وزارات العمل والصحة والزراعة في بريطانية وظهرت حركة النقابات في فرنسة والشيوعية في روسية والمجالس الاقتصادية في أرلندة وألمانية والفاشستية في إيطالية . ومن هذا العرض الوجيز نفهم أن النظم الاقتصادية قابلة للتغيير وأنها في طريق التغيير ، وكلما تقدم الانسان في العلم والاختراع ظهرت ملابسات جديدة تقتضي التوجيه . إن أول قانون في الحياة ليس هو الجمود بل الحركة والتغير أو التكييف لملاءمة الأحوال الجديدة

وعلى هذا يجب أن تُسيَّر النظم الاجتماعية تسييراً علميًّا بحيث لا تثار طبيعة الانسان بل ترضى وتقنع ضمن حدود صالحة. قال أحد المفكرين: « إن أول علامة للانسان المتمدن تشككه في المبادئ التي يعتنقها » ولكننا نجد فرقاً في الأشخاص من هذه الناحية. فالرجعي يعتقد أن الأوضاع الاجتماعية صحيحة لا تحتاج إلى تبديل ولا يعتريها ضعف ما ويفرض أن المتطرفين في حاجة إلى تذليل لينقادوا لقوانين المجتمع. والمفكر الحر يرى أن الطبيعة البشرية كاملة ويفرض أن الرجعيين مرغمون على تغيير النظم لتتفق والأهواء البشرية. على أننا أوضحنا فيما سبق الحاجة إلى تطويع الميول الإنسانية وترقيتها، فبقي علينا أن نبحث التغيير الواجب إحداثه في التنظيم الاجتماعي.

أهم نواحي التغيير ثلاث، هي: التدخل الحكومي والراديكالية الاقتصادية والديمقراطية الاقتصادية. اما مسألة التدخل الحكومي فلا تزال من الأمور الجدلية ولكن الاقتصاديين الأحرار يرون ضرورة التدخل الحكومي لازالة الأضرار الاجتماعية وتسيير الأعمال الصناعية، وهم يقولون إن مهمة الحكومة ليست هي التدخل حيث لا مسوّغ لتدخلها بل مهمتها أن تعاون وتوجه وتبني حيث لا تستطيع الأحوال الاقتصادية أن تصح من تلقاء نفسها. وعلى ذكر مسؤولية الحكومة تحسن الإشارة إلى قول العالم السياسي المعروف هارولد لاسكي: « إن أهم تغيير في النظام السياسي في النصف الأخير من القرن الماضي هو السرعة التي سبقت بها الدولة بضغط الحوادث لاتخاذ شكلٍ إيجابي في المسائل الاقتصادية . . . وعلى الجملة فإنه من الواضح أن الحيز السياسي يحدد اليوم في الغالب باعتبارات اقتصادية »

وقد بلغ التدخل الحكومي أوجه في الحرب العالميّة الأولى تبعاً للضرورة في جميع البلدان المحاربة، فسيطرت الحكومات على جميع مرافق الحياة لكسب الحرب ولم يبق للتوجيه الفردي قيمة ما. وما إن وضعت الحرب أوزارها حتى ظهر رد الفعل في جميع الدول ضد التدخل وفعلاً عادت تدريجيًّا الصناعة والتجارة إلى ما كانت عليه قبل الحرب، وأصبحتا تسيران على قاعدة الحرية الفرديّة والجهد الشخصي. غير أن الحكومات لم تعد قادرة على التنصل من الاهتمام بالشؤون الاقتصادية، ولهذا أصبح التدخل الحكومي أشد مما كان عليه قبل الحرب، وصار من المتفق عليه أن تتدخل الحكومة في القضايا التي ثبت لزوم التدخل فيها كالمنافع العامة مثلاً. وقد سارت الحياة الاقتصادية سيراً حسناً إلى أن حلّت الأزمة الاقتصادية العالمية سنة ١٩٢٩ وبذلك اضطربت الأمور وأصبحت الدول الرأسمالية ملزمة أن تتدخل في مشكلات الصناعة والتجارة والعناية بالتبطل. وهنا يحسن بي أن أشرح تاريخ التدخل الحكومي أو تطوره. ففي الولايات المتحدة بدأ تنظيم الأعمال الاقتصادية المعروفة

بالمنافع العامة كالتلغراف والتلفون والماء والنور والطرق الحديديّة قبل الحرب الأولى لحماية الجمهور من الأجور الباهظة وتزويده بخدمة صالحة . وكذلك بوشر تنظيم المصارف لتثبيت مستوى الأسعار بعد الحرب . ثم تولت الحكومة تنظيم التجارة والصناعة للحد من الاحتكار أو للمحافظة على مبدأ التزاحم . فنشأت اللجنة التجارية التي من مهمتها البحث عن تنظيم المؤسسات التجارية ومديرها وأعمالها وإدارتها ، وهل تنطبق على قوانين الدولة أو لا تنطبق؟ . وكذلك أوجد تشريع يعرف بقانون كلاينون غايته محاربة المزاحمة غير المشروعة أو توجيه التجارة والصناعة تبعاً لمصلحة الأمة . ووضعت أساسات التعاون الذي يعتبر متمماً للتزاحم بقانون « وب » للتجارة الخارجية وقانون « إدج » للمصارف التي تتعامل بتلك التجارة . وأصبحت وظيفة الحكومة التوفيق بين مبدأ التزاحم ومبدأ التعاون في النظام الاقتصادي.

وقد كان الداعي إلى اتخاذ هذا الموقف اتساع حجم المؤسسات والاتجاه نحو التكتل التجاري الذي يؤدي إلى الاحتكار . وتعجز الحكومة التي تقصد محاربة هذه الظاهرة لأن انتشار الطرق العلميّة ووفرتها مما يدعو إلى الإنتاج الواسع النطاق ، وكل ما تستطيع الحكومة أن تفعله هو السعي لإبقاء مبدأ التزاحم سليماً إلى أبعد حدّ ممكن . وقد حاولت الحكومة البريطانية أن تحارب هذا التضخم فوجدت أنها غير قادرة فعدلت عن خطتها .

وقد ظهر في العصر الحاضر من استطاعوا أن يذللوا مصاعب النظام الاقتصادي فكانوا إذا صُدوا في ناحية ولجوا أخرى . فالنشاط الإنساني لا يمكن أن يحد ولكن يمكن تنظيمه وتوجيهه لخدمة الجمعية البشريّة ومن هنا حدث تغيير في وجهة نظر قادة الصناعة والتجارة فلم يعد جمع المال أو البروز الشخصي في رأيهم العامل الأساسي في الموضوع ، بل إن أسساً معنوية جديدة أضيفت كالشرف والخلق والمثالية التجارية القائمة على فكرة الخدمة العامة . وهذا ما عناه جورج پيركن حين قال : إن العصر الفردي الذي كنا نعيش فيه . . . أغدق الثروة بسرعة على الأفراد وكان جمع المال الهم الوحيد للناس في هذه البلاد في الأربعين سنة الأخيرة . ولكن العصر الفردي على الإجمال لم يكن ناجحاً لا للفرد ولا للمجموع ، ولذلك فهو آخذ في الزوال ، وليس في نظري ما هو أوضح من ذلك ، وأعتقد أنه كلما أسرع إنسان المستقبل في فهم هذا الأمر وسلك بموجبه كان نجاحه مضموناً وسعادة بلاده محتومة . إن زينتنا الوحيدة وهي ( الدولار ) لم تعد ذات قيمة كما كانت فالرجل ذو القدرة الفائقة سينظر من الآن فصاعداً الى مكافأته على عمله لا من جهة واحدة بل من اثنتين : سينظر أولاً وفي الدرجة الأولى إلى إتمام عمل المنفعة العامة . وثانياً إلى كسب الثروة الخاصة . وفي اعتقادي أن عادة جمع الثروة من أجل حيازتها فقط قد وصلت إلى أوجها . وعادة إنجاز مهمة عامة من أجل

إنجازها أصبحت متمكنة في النفوس » . فالمشكلة إذن هي توسيع مجال الخير العام وإيجاد المنافذ للميول الفردية ، وإذن لا بدّ من التدخل الحكومي لضمان الناحيتين .

ولم يقتصر تدخل الحكومة على التجارة والصناعة فحسب بل تناول مشكلة العمال لأن العمال ركن هام من أركان نظام الإنتاج . فأصبحت الحكومة تهتم بأمور العمال وأحوال العمل وتنظر في الخلافات الناشئة بين العمال وأصحاب العمل وتصدر أحكامها وتجبر هؤلاء العمال على استئناف العمل بشروط تراها مناسبة . فساء هذا الأمر العمال لأنه انتزع منهم حرية الإضراب . وحجة الحكومة في ذلك أن وقف العمل يسبب خسارة عظمى للهيئة الاجتماعية . ولكن تذمر العمال على كل حال أدّى إلى تغيير جوهري هو إعطاء العمال حرية الإضراب وقد أيد هذا ما اقترحته اللجنة التي ألفها الرئيس ولسن عام ١٩١٩ من أن الاجبار خطأ وأن الطريقة المثلى هي التحكيم ، ولكن الحكومة ما لبثت توحي إلى المحاكم بمنع الإضراب . فأسفر هذا عن وضع مادة في القانون تقول : إن عمل الفرد ليس هو سلعة معدة للبيع وإن تنظيم صفوف العمال قانوني . ولا يمكن منع العمال « من تنفيذ أغراضهم المشروعة » على أن هذا التشريع لم يحمِ العمال من أحكام المحاكم ، لأن المحاكم هي التي تقرر الأغراض المشروعة والأغراض غير المشروعة ، أي أن العمال ما زالوا تحت سلطة المحاكم . والاختبار يثبت أن الوضع يستدعي التقليل من استعمال سلطة الحكومة الاجبارية وإيجاد سلطة منظمة لجميع مشكلات العمال خارجة عن المحاكم . لأنه إذا استرسلت الحكومة في سياسة القهر فسيؤدي ذلك إلى نتائج نفسية عند العمال تدعو إلى الثورة والتخريب . إذ ليس من الحكمة الاكتفاء بكبح جماح الطبقة العاملة بل بايجاد الوسائل لإظهار قوة هذه الطبقة ومساعدتها . وفعلاً خطت الحكومة الأميركية خطوة طيبة هي التحكيم ، وعلى الأخص في قضايا السكك الحديدية . وقد زاد التدخل الحكومي في أميركة كثيراً بعد الأزمة الاقتصادية سنة ١٩٢٩ وذلك لمنع انهيار النظام الاقتصادي الرأسمالي فأدخل قانون الإنعاش القومي N. R. A. وغايته تنظيم الصناعة من حيث الإنتاج والأسعار على نحو التنظيم الزراعي الذي سبق ذلك . ولكن الخطوة الجريئة تمت حينما وضع الرئيس روزفلت مشروع التعامل الجديد New Deal موضع التطبيق سنة ١٩٣٤ وذلك الذي يتعلق بالتأمين الاجتماعي والتبطل والأشغال العامة والاحتفاظ بالمواد العامة . وكان من أثر هذا المشروع الاعتراف بحقوق العمال من حيث التنظيم والمساومة المشتركة واتخاذ محكمة العدل العليا طابعاً جديداً . وسارت الحياة الاقتصادية في أميركة بشكل مرضٍ حتى إعلان الحرب حينما سيطرت الحكومة على جميع نواحي الإنتاج مرة ثانية .

أما في بريطانية فقد بدأ التدخل الحكومي على شكل إصلاح في زمن لويد جورج قبل الحرب الماضية واستمرَّ بعدها . والإصلاح الذي تمَّ يشمل وضع حدٍّ أدنى للأجور ومنع تشغيل الأولاد وحماية النساء اللواتي في الصناعة وإيجاد مبدأ التعويض والتأمين والوقاية من الحوادث الخطرة والنار وتوفير الأحوال الصحيَّة وتحديد ساعات العمل وإيجاد أماكن السكن الملائمة وتأليف اللجان الصناعيَّة وإنشاء هيئات للتوظيف . وقد أدَّت هذه الحركة إلى تحسين يذكر ولكن يجب أن ندرك أن التحسين الناشيء عن الإصلاح له حدود فالإصلاح ليس برنامجاً شاملاً موحداً ولكنهُ مجموعة من المشروعات الفرديَّة، ولهذا يبقى النظام الاقتصادي دون تغيير أساسي وتبقى مساوئه تفعل فعلها . وما دامت حالة الطبقات وحقوقها وميزاتها في النظام الاجتماعي بدون هذا التغيير الأساسي فإن حركة الإصلاح تبدو سطحية . فالإصلاح الحقيقي يجب ألاَّ يعني هدية من الهيئة الاجتماعية للمحتاجين بل يجب أن يعني تنظيم المجال للإنتاج الشخصي.وتقدم المجموع عن طريق الجهد المبدع لجميع الأفراد. ولما نشبت الحرب الماضية صار التدخل في بريطانية فعليًّا وزال بزوالها،وذلك لأن بريطانية كانت أمنع من أن تتعرض لانهيار اقتصادي،ومع ذلك فقد عدّلت بريطانية سياستها الجمركية وتدخلت في شؤون الزراعة والمناجم . ولما حلَّت الحرب الحاضرة استولت الحكومة على كل الأعمال وظهر مشروع بيفردج وأعلن مشروع السنوات الأربع على لسان المستر تشرتشل .

أما في ألمانية وإيطالية واليابان فكان التدخل الحكومي عامًّا وغايته تهيئة كل من هذه البلدان للحرب بتوسيع برامج التسلح، وهذا النوع من التدخل مخفق من الناحية الاقتصادية لأنه يفقر الدولة ويخفض مستوى المعيشة وإن قضى مؤقتاً على مشكلة التبطل . وقد أعطي التدخل الحكومي اسماً جديداً في السنوات الأخيرة فأصبح يعرف بالتوجيه الاقتصادي Economic planning ومدلول هذه التسمية ضبط أمور ثلاثة : وهي ماذا يجب أن ينتج ؟ وما سعر المنتوجات ؟ وكيف توزّع الثروة بين طبقات الشعب ؟

وليس بين حكومات العالم ما يجاري روسية في هذا الميدان ، وسبب ذلك أنها دولة اشتراكية . فالنظام الرأسمالي في بريطانية وأميركة وأضرابهما قائم على الربح الفردي،والنظام الاقتصادي في الدول النازية قائم على سوق الفرد لمصلحة التسلح فالحرب، والنظام الاشتراكي في روسية قائم على أساس الربح الاجتماعي العام . غير أن النظام الديمقراطي يكفل الحرية الفردية والنظامان النازي والشيوعي هدفاها . فالمشكلة إذن هي وجدان نظام يمكنه التوفيق بين الحرية الفردية والتوجيه الحكومي . ولسنا نعلم ما مصير الأمور بعد الحرب القائمة

« شرق الاردن »

# الحيوان المنسي

للأب أنستاس ماري الكرملي
من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

— ٢ —

١٤ — ﴿ الحفث ﴾: الحَـفث كَكَتف: حية عظيمة كالجراب . وهو اسم آخر للقلب المتقدم ذكرها ولكن باللغة اليونانية، أي Ophis وتلفظ ( حفس ) لوجود حرف حلق في الاول يشار اليه عندهم بعلامة حلقية . أفنحن أخذنا كلمتنا من اليونانيين، أم هم استعاروها منا ؟ فالأمر يحتاج إلى درس . والظنون أن الأسبقية لنا لأن الهلنيين أهملوا حلقية الحرف الأول ولم يبقوا منه إلاّ الاشارة ، بخلاف بني عدنان فانهم احتفظوا به . والكلمة مشتقة من فحّ فحيحاً ، ثم ذيل الفعل بالثاء المثلثة إبقاءً لصوت الحاء على قوته وصوناً له . قال لغويونا : الحفيف يكون من جلد الأفعى ، والفحيح من فيه . وكذلك الطائر والشجرة : إذا سمع لهما صوت ، ويقال في الحفث الفحث والفِنح أيضاً والوزن واحد.

١٥ — ﴿ الزريقاء ﴾ : الزريقاء ، وبالانكليزية Suricat وتكتب عندهم أيضاً Surikate و Suricate هو حيوان كالسنور يكون في جنوبي إفريقية. ويظن لغويو الإنكليز أن الكلمة من لغة أهل تلك الديار ، ولا يعرفون سبب هذه التسمية . والذي عندنا أنها من وضع العرب الذين وصلوا إلى تلك الديار من قديم الزمن . قال صاحب القاموس : الزريقاء دابة كالسنور . وكذلك قال سائر اللغويين ، ولم يزيدوا على هذا القدر . وسماهُ الإنكليز أيضاً Zenick وهو تصحيف للأول . وهو حيوان لبون من ذوات الأوجرة . اسمهُ العلمي Suricata Tetradactyla ( أي الزريقاء ذات الأربع أصابع ) وهو يشبه سنور الزباد ، ولونهُ السمرة الضاربة إلى الرُّمدة ، وهي من معاني الزرقة عند العرب ومنها اسمهُ ، مع جُددٍ على ظهره .

١٦ — ﴿المغوار﴾ : المغوار في اللغة : القاتل الكثير الغارات وهو يناسب الإفرنجية Jaguar. وهو نمر موطنهُ أميركة ، واسمهُ في اللغة البرازيلية ( يَغوارا ) Yagoara ولهُ

اسم آخر في الانكليزية هو ( البَبْر الاميركي ) American Tiger وبلسان علماء الحيوان Felis onca وهو ضارٍ ضخم من فصيلة السنانير مفتول العضل مأسوره قوي البنية ، يظعن من تكساس والمكسيك إلى بتاغونية . ولونهُ في الغالب أصفر أسيْمر ، وعليه دارات عريضة مشبعة اللون وقد تكون تلك الحلق مزوّاة ، وتحوي كلٌّ منها في الغالب جُدَّة أو جُدَّتين مشبعتين ، وأكثر إقامته على الأشجار فإذا رأى فريستهُ أغار عليها فانقضَّ انقضاض الطائر الجارح ، ومنهُ اسمهُ المغوار وهو من وضع أبناء عدنان في غابر الزمان .

١٧ — ﴿ الغويثيّ ﴾ : الغويثيّ ، بضم الغين المعجمة وفتح الواو وإسكان الياء المثناة التحتية يليها همزة مكسورة فباء موحدة تحتية مكسورة وفي الآخر ياء مشدَّدة من الظباء بل من أصغر ما يعرف منها اسمهُ الانكليزي Kleeneboc واسمهُ العلمي Cephalophus Pygmaeus وموطنهُ جنوبي إفريقية ، علوّهُ قدم واحدة عند كتفيهِ ، فإذا رأى عدوًّا يهجم عليهِ غاب عنهُ بلمح البصر ومنهُ اسمه ، وهو في منتهى الخفَر وقد صحف الانكليز وغيرهم هذا الاسم بصورة Guevi ومن أسمائهِ الانكليزية Pygmy Antelope أي الظبي القزم .

١٨ — ﴿الشقيح﴾: الشقيح ، أقبح القردة خلقة ومنهُ اسمهُ في العربية ومنهُ الانكليزية Saki وكذلك في سائر اللغات الجارية في ديار أميركة، ويظن الغربيون أن الكلمة من لغة البلاد التي يوجد فيها إذ لم يعرفوا أصلها ولا من أي لغة هي ، فهي عندنا عربية بلا شك . وأنواع الشقيح كثيرة وموطنها أميركة الجنوبية وهو من جنس الفاتكات[1] Pithcci التي تشمل قسماً من الحيوانات اللبونة فيها القردة Apes والهجارس Monkeys . والشقيح بوجهٍ عام آذنُ (أي عظيم الأذنين طويلهما) في جميع ضروبه، ولهُ ذنب وافر الشعر سبطهُ واسم الشقيح الأسود عند العلماء Pithecia Satanas أي الشقيح الشيطان واسم الشقيح الأبيض الرأس P. Leucocephala والأحمر الظهر P. Chiropotes وهي أحسن ضروب هذا الجنس المعهودة

١٩ — ﴿الهر الأميركي﴾ : الهر الأميركي ، واسمه بالانكليزية والفرنسية Eyra واضح أنهُ من العربية هرَّة ؛ وعلماء الحيوان من إنكليز وفرنسيين لا يعرفون هذا الأصل إذ يقولون إنهُ بلغة أهالي أميركة الجنوبية وهو سنور وحشيّ ، وإنما نعتناه بالأميركي تمييزاً لهُ من سائر السنانير ، واسمهُ العلمي Felis Eyra وهو ينتقل من البرازيل إلى تكساس ،

(١) راجع الذيل

ولونهُ أصفر أحيمر . وحجمهُ يداني حجم السنور الأهلي لكنهُ أدق منهُ جسماً وأقصر رجلاً .

٢٠ — ﴿ النفوح ﴾ : النفوح ، فعول من نفح الطيب ينفح للمبالغة ، أي فاح وانتشرت رائحتهُ ، والنفوح ظبي صغير تفوح منهُ رائحة مسك طيبة واسمهُ بالانكليزية والفرنسية Napu وهو واضح الأصل العربي بيد أن علماء الحيوان من إنكليز وفرنسيين وأميركيين يقولون إن اللفظ من لغة أهالي زاتج . واسمهُ العلمي Tragulus Yavanicus وحجمه حجم الخُزَز ( الأرنب البرية ) ، وهو معروف بسرعة حركته ووثباته الرشيقة . ومن أسمائه الانكليزية Java musk deer أي ظبي[٢] المسك الجاوي ، وظبي المسك القزم Pygmy musk deer و Deeriet أي الظُّبَيّ ، بصيغة التصغير .

٢١ — ﴿ الفكّة ﴾ : الفكة ، لغةً ، مصدر فكّ يفَك ويفُك كعلم وكرم أي حمق في استرخاء . والفكة هنا : حيوان صغير موطنه أميركة الجنوبية ، وهو من القوارض ومشهور بحمقه المسترخي حتى إنه كثيراً ما يفاجأ ليقتل فلا يلتمس لنفسه مفرّاً فيؤخذ ويُذل . واسمه الغربي Paca وهو بين من أنه منقول مبنًى ومعنًى عن العربية ، بيد أن البصراء في علم العجماوات يجهلون هذا النجار ، وكذلك قل على أهالي الأرجاء التي يرى فيها . واسمه العلمي Coelogenis Paca ولونه أسمر أسيود ، وعلى جانبيه خطوط متوازية هي جُدد بيض كأنه قُبع مخطط ، ويتصل بالغوطي والقبع .

٢٢ — ﴿ الفلاّح ﴾ : الفلاّح ، لغة من يفلح الشيء ، أي يشقه ويقطعه ، وفعال من صيغ المبالغة والمراد به هنا : ضربٌ من الظباء يكون للذكر منه قرنان طويلان ، ذوا عقد وأنابيب على شكل قيثارة . واللون الغالب عليه الكمتة . وعلى عجزه ما يشبه الهلال ، أسود اللون . وموطنه إفريقية الجنوبية . وسمي فلاّحاً لأنهُ يطعن عدوه بقرنيه الحادين ويبقر بهما بطنه فيورده حياض المنايا . ولا يعرف علماء الحيوان أصل هذه اللفظة ، وهو واضح أنهُ من العربية ، واسمه بالانكليزية Pallah وبلسان العلم Aegyceros Melampus ومن أسمائه الانكليزية Roodebok .

٢٣ — ﴿ الغوطي ﴾ : الغوطي[٣] بضم الغين المعجمة ، جمع غوط بالفتح والغوطي مختومة بياء النسب والغوط والغائط المطمئن الواسع من الأرض ، وهو حيوان لبون من

(٢) راجع الذيل (٣) راجع الذيل

القوارض ، موطنه أميركة وأوقيانية وهو بحجم الخزز بألف غوطهما ومنه اسمه بالعربية وفي الانكليزية يسمى Agouti وكذلك في الفرنسية . وقد قال علماء الحيوان من أبناء الغرب إن هذا اللفظ مأخوذ من لسان الأميركيين الأصليين ولم يعرفوا أصل وضعه . وجنسه يعود إلى ما يسمى في اللغة العلمية Dasyprocta

٢٤ — ﴿ الحبس بمعنى الوعل والبدن ﴾ : الحبس[٤] ، بفتح الحاء المهملة : الجبل العظيم ويضاف إليه الوعل والبدن فيقال ، بدن الحبس ووعل الحبس ، ثم اكتفوا بالاحتفاظ بالمضاف إليه وقالوا : الحبس ، وباللاتينية Ibex و Ibicis . وهو ضرب من القموص موئله الجبال العالية العظيمة . وله قرنان عريضان يشرفان على جبهته وينعطفان على ظهره . ومن أسمائه بالانكليزية Steinbock ومعناه تيس الصخر . وقد خص هذا الجنس بالأوربي منه وبالوعل المتوطن لجنوبي إفريقية . واسمه العلمي Nanotragus Tragulus وهو يألف الأصقاع اليابسة الجافة الصخرية ، ويكتب اسمه بالانكليزية بصور مختلفة وهي : Steinbok, Steinboc, Stonebock, Stonebuck والمعنى واحد والمعين بها واحد أيضاً

﴿ ملاحظة ﴾ — اعتمدنا لوضع هذه المقالة على معجم وبستر واسمه Webster's revised unabridged dictionary of the english language— Springfield, Mass, U. S. A.

## ﴿ الذيل ﴾

(١) ( الفاتكات ) ، جمع ( فاتك ) لغير العاقل هنا . وهو اسم فاعل من فتك في الخبث فتوكاً ، أي بالغ فيه . ويراد بالفاتكات ، جنس من القردة معروفة بخبثها ودهائها ونكرها . ويقال فيها أيضاً ( الفواتك )

( ٢ ) للكلمة Deer الانكليزية ثلاثة معان في الغالب فهي تعني الظبي وبالفرنسية Daim والايل Cerf والآبد Bête fauve . ورأينا هنا أن يقال ظبي ، لان هـذا الحيوان يشبه الظبي دون الايل وأي آبد كان .

(٣) أصل الكلمة الاجنبية Algouti; Agout أي أنهم أسقطوا منهـا لام التعريف ، لانها ليست من أصلهـا . والاجانب كثيراً ما يعيثون بألفاظنا كما نتصرف في كلمهم . فقد يحذفون اللام كما رأيت ، وكما في النفير ، فانهم قالوا Ana fin ( أنافين ) والتنور فقالوا Athanor ( اتنور ) ، والحبارى فقالوا Aubère ( أوبير ) والمصلى ، فقالوا Aumusse ( أو مصل ) الى غيرهن . — وقد يحتفظون بها ، كما في الكيمياء Alchimie والقرآن Alcoran ، والغارة Algarade — وقد يزيدون عليها اداتهم للتعريف ، فيكون هناك تعريف على تعريف ، فقد قالوا l'Alcool, l'Alcoran, l'Alchimie

( ٤ ) لما لم يكن في لغى الافرنج أحرف حلق كأحرفنا فانهم كثيراً ما يسقطونها في كلامهم ، فيقولون في المسيح : Messie وفي يسوع Jésus وفي نوح Noé وفي حواء Eve الى آخر ما هناك من هذه الالفاظ وهكذا أسقطوا من الحبس الحاء فقالوا Ibex

# المآصر في بلاد الروم والاسلام

لميخائيل عوّاد

— ٨ —

## (١) مأصر دمياط *

١ — ﴿ في كتب البلدان ﴾ دمياط على ما جاء في كتب البلدان العربية ، مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاويةٍ بين بحر الروم الملح والنيل ، وهي ثغر من ثغور الاسلام ، ومن شمالي دمياط يصبّ ماء النيل إلى البحر الملح في موضع يُقال لهُ الأشتوم حيث يبلغ عرض النيل هناك نحواً من مائة ذراع . قال ياقوت الحموي : « وعليه من جانبيه برجان بينهما سلسلة حديد عليها حرسٌ ، لا يخرج مركب إلى البحر الملح ولا يدخل إلاّ بإذن ، ومن قبلها خليج يأخذ من بحرها سمت القبلة إلى تنّيس ، وعلى سورها محارس ورباطات . . . . » [١]

وممن تطرّق إلى ذكر المأصر الدمياطي هذا ، اثنان من مشاهير البلدانيين ، نعني بهما زكريا القزويني ، وابن عبد الحق ، غير أنهما لم يخرجا في ما سطّراه عما ذكره ياقوت من قبلهما . ومما يحسن التنبيه عليه ، أن لفظة « عليها حرسٌ » الواردة في عبارة ياقوت أعلاه ، قد حرِّفت في كل من كتاب القزويني [٢] ، وكتاب ابن عبد الحق [٣] إلى « عليها جرسٌ » فليصحّحا .

٢ — ﴿ في كتب التاريخ ﴾ كانت المائة السابعة للهجرة مشحونة بأنباء غزو الفرنج للديار الشامية والثغور المصرية ، فطلائع جيوشهم كانت تطرق موانئ هاتيك البلاد بين حين وآخر ، ولكنهم يُصدّون عنها في غالب الكرّات بفضل المآصر البحرية ذات السلاسل الحديدية المحكمة الصنع ، والأبراج المنيعة ، ويردون من حيث أتوا وتخيب آمالهم في الاستيلاء على نعم البلاد وخيراتها ، والتمتع بحسنها وطيب هوائها .

وفي الأسفار التاريخية كلام مسهب على حملات الفرنج هذه ، وهي التي أطلق على أغلبها في التاريخ اسم « الحروب الصليبية » .

---

(*) رأينا تأخير هذا الفصل عن الفصل السابق ورقمه ٧ وهو : ( ب ) مأصر الاسكندرية ، المنشور في مقتطف نوفمبر وذلك لاستفاضته وضيق المقام . هذا والسياق متصل . فلزم التنويه

(١) معجم البلدان ( ٢ : ٦٠٢ مادة دمياط ) (٢) آثار البلاد ( ص ١٢٩ ) (٣) مراصد الاطلاع ( ١ : ٤١١ )

وبين المؤرخين طائفة ممّن شهد أو سمع بالكثير من حوادث هذه الحروب ، فلم يلازموا الصمت إزاءها ، بل دوّنوا أخبارها ، وفصلوا وقائعها . ولا غرو أن يكون ما كتبوه متقارباً في المطلب متباعداً في الطرز واللون ، مما حدا بنا إلى جمع ما تيسر لنا جمعه من أنبائها المتعلقة بأمر المآصر وإيراده في محله من بحثنا هذا .

ولقد كان ابن الأثير ( المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ) من أوائل المؤرخين الذين سمعوا بخبر هذه الغزوات ، لأنهُ كان حيّاً يومذاك ، فنقل الينا خبر حصر الفرنج مدينة دمياط ، واستيلائهم على سلسلة مينائها . ودونك ما قاله في هذا الصدد ، نرويه هنا لما له من الخطر : « لما عاد الفرنج من حصار الطور أقاموا بعكة إلى أن دخلت سنة خمس عشرة وستمائة ، فساروا في البحر إلى دمياط ، فوصلوا في صفر فأرسوا على بر الجيزة [1] بينهم وبين دمياط النيل ، فانّ بعض النيل يصبّ في البحر المالح عند دمياط ، وقد بني في النيل [2] برج كبير منيع ، وجعلوا فيه سلاسل من حديد غلاظاً ومدّوها في النيل إلى سور دمياط لتمنع المراكب الواصلة من البحر المالح أنْ تصعد في النيل إلى ديار مصر ، ولولا هذا البرج وهذه السلاسل لكانت مراكب العدوّ لا يقدر أحدٌ على منعها عن أقاصي ديار مصر وأدانيها ، فلمّا نزل الفرنج على برّ الجيزة وبينهم وبين دمياط النيل ، بنوا عليهم سوراً وجعلوا خندقاً يمنعهم ممّن يريدهم ، وشرعوا في قتال مَن بدمياط ، وعملوا آلات ومَرمّات [3] وأبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه ، وكان البرج مشحوناً بالرجال ، وقد نزل الملك الكامل بن الملك العادل وهو صاحب دمياط وجميع ديار مصر بمنزلة تُعرف بالعادليّة بالقرب من دمياط ، والعساكر متّصلة من عنده إلى دمياط ليمنع العدوّ من العبور إلى أرضها ، وأدام الفرنج قتال البرج وتابعوه ، فلم يظفروا منهُ بشيء ، وكسرت مرمّاتهم وآلاتهم ، ومع هذا فهم ملازمون لقتاله ، فبقوا كذلك أربعة أشهُر ولم يقدروا على أخذه ، ثمّ بعد ذلك ملكوا البرج فلمّا ملكوه قطعوا السلاسل لتدخل مراكبهم من البحر المالح

---

(١) الجيزة في اللغة : الناحية وجانب الوادي

(٢) يظهر أن هناك برجاً آخر — غير هذا البرج الذي نحن بصدده — ، شيد في دمياط باسم برج السلسلة . فقد حكى المقريزي ( السلوك ١ : ٤١٧ — ٤١٨ حوادث سنة ٦٥٧ هـ في معرض كلامه على الملك المظفر سيف الدين قطز ) أنه « بعث بالمنصور وأخيه وأمه إلى دمياط ، واعتقلهم في برج عمره وسماه برج السلسلة . . . . » .

(٣) مرمات ، واحدتها مرمة : وهي ضرب من مراكب البحر العظيمة . ذكرها ابن الاثير في حوادث سنة ٦١٤ هـ بقوله : « . . . . وصل اليهم مركب كبير للفرنج من أعظم المراكب يسمى مرمة وحوله عدة حراقات تحميه والجميع مملوءة من الميرة والسلاح » .

في النيل ويتحكموا في البر ، فنصب الملك الكامل عوض السلاسل جسراً عظيماً امتنعوا به من سلوك النيل ، ثم إنهم قاتلوا عليه أيضاً قتالاً شديداً كثيراً متتابعاً حتى قطعوه ، فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار وملأها وخرقها وغرقها في النيل فمنعت المراكب من سلوكه . . . . » [١] .

وممن كان عائشاً في هاتيك الأيام المؤرخ الشهير سبط ابن الجوزي ( المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ) ، وقد تناول بايجاز خبر حصار الفرنج مدينة دمياط والتضييق على مآصرها البحري ، ومما ذكره في حوادث سنة ٦١٥ هـ ، أن « في جمادى الأولى أخذ الفرنج برج السلسلة ، وأرسل الكامل شيخ الشيوخ صدر الدين إلى العادل يخبره ويستصرخ . فلما اجتمع بالعادل أخبره ، فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت » [٢] . ثم واصل كلامه فذكر وفاة الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب بن شادي بن مروان ، وقال : « قد ذكرنا وصول شيخ الشيوخ بخبر برج دمياط وأنه انزعج ودق بيده على صدره ، وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع أو ثامن من جمادى الآخرة فتوفي في عاكفين . . . . » [٣]

ويعد شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي المعروف بأبي شامة (المتوفى سنة ٦٦٥ هـ ) من أولئك المؤرخين الذين اتصلوا بأمور هذه الحروب، ووقفوا على الكثير من حوادثها وأنبائها ، وقد وصف برج السلسلة في ميناء دمياط خير وصف لأنه رآه رأي العيان ، وأفاض في رواية استيلاء الفرنج على هذه السلسلة بقوله : «وفيها ( سنة ٦١٥ هـ ) أخذ الفرنج النازلون على دمياط برج السلسلة في آخر جمادى الأول فأرسل الكامل إلى ابنه العادل شيخ الشيوخ صدر الدين يخبره ويستصرخ به ، فلما اجتمع بالعادل ، فأخبره ، فدق بيده على صدره ومرض مرض الموت — . قلت : وأذكر وأنا بدمشق حين بلغ الناس أخذ برج السلسلة وقد شق على من يعرفه مشقة شديدة منهم شيخنا أبو الحسن السخاوي ( علي بن محمد السخاوي ) ، ورأيته يضرب يداً على يد ويعظم أمر ذلك ، وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه فقال : هو قفل الديار المصرية ، وصدق ، فاني لما رأيته في سنة ثمان وعشرين . . . . بان لي صحة ما أشار الشيخ اليه ، وذلك أنه برج عال مبني في وسط النيل ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه ، وفي ناحيته

---

( ١ ) الكامل في التاريخ ( ١٢ : ٢١٠ — ٢١١ ، أوربة ) — ( ١٢ : ١٣٣ ، بولاق ) . — وانظر خزانة كتب الحروب الصليبية ( ١٢ ، ١١٤ — ١١٥ ، باريس سنة ١٨٨٧ ، القسم المستل من كتاب كامل التواريخ لابن الاثير ) . ( ٢ ) مرآة الزمان ( ٨ : ٣٨٩ ) . ( ٣ ) مرآة الزمان ( ٨ : ٣٩١ ).

سلسلتان تمتد إحداها على النيل إلى دمياط ، والأخرى على النيل إلى البحيرة فيمنع كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها إذا أريد ذلك حين قتال العدو ، فهو قفل البلاد بالديار المصرية ، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور اليها ، ومتى لم تكن السلسلة عبرت المراكب وبلغت إلى القاهرة ومصر وإلى قوص وأسوان والله المستعان [1] »

ثم ذكر وفاة العادل في نفس السنة وأن « سبب موته انزعاجه من الخبر الذي جاءه من دمياط ، أن الفرنج استولوا على برج السلسلة ، فدق بيده على صدره وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة فتوفى بعالقين ... » [2] .

وفي المائة الثامنة للهجرة نقل خبر هذا الحدث الخطير في تاريخ مصر ، مؤرخ من أشهر المؤرخين ، نعني به شمس الدين الذهبي ( المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ) ، فانه في مجرى كلامه على خلافة الناصر لدين الله العباسي ، تعرض بشيء من الايجاز إلى نزول الفرنج على دمياط فجهز العادل العساكر إلى ابنه الكامل ليكشف عنها ، فأقبل ونزل تجاه دمياط ، فدام الحصار والقتال أربعة أشهر ، فمات الملك العادل في وسط الشدة واستراح ، فأخذت الفرنج برج السلسلة من دمياط ، وهو برج شاهق في وسط النيل ، وسابط من شرقيه والجيزة بحذابه من غربيه ، وعلى جنبي البرج سلسلتان عظيمتان تمتد هذه إلى سور دمياط ، والأخرى إلى سور الجيزة ، تقفل السلسلتان فتمنع المراكب من العبور إلى ديار مصر في النيل » [3] .

وقد نحا ابن كثير الدمشقي (المتوفى سنة ٧٧٤ هـ) نحو سلفه الذهبي ، فما رواه في حوادث سنة ٦١٥ للهجرة أنه في شهر ربيع الأول « نزلت الفرنج على دمياط وأخذوا برج السلسلة في جمادى الأولى ، وكان حصناً منيعاً ، وهو قفل ديار مصر ... » .

ثم واصل كلامه بقوله : « وفيها توفي السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، فأخذت الفرنج دمياط ، ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط ، فحاصروه مدة أربعة شهور ، والملك الكامل يقاتلهم ويمانعهم ، فتملكوا برج السلسلة وهو كالقفل على ديار مصر وصفته في وسط جزيرة في النيل عند انتهائه إلى البحر ، ومنه إلى دمياط ، وهو على شاطىء البحر وحافة سلسلة منه إلى الجانب الآخر ، وعليه الجسر ، وسلسلة أخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل فلا يمكن الدخول . فلمّا ملكت الفرنج هذا البرج ، شقّ ذلك على

(١) منتخبات من كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ، — وهو الجزء الخامس من خزانة كتب الحروب الصليبية ، (ص ١٦٧ — ١٦٨، طبعة بربيه دي مينار في باريس سنة ١٩٠٦ )
(٢) منتخبات من كتاب الروضتين (ص ١٧٠) (٣) دول الاسلام ( ٢ : ٨٨ طبع حيدر آباد ١٣٣٧هـ )

المسلمين ، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر ، تأوّه لذلك تأوهاً شديداً ودقّ بيده على صدره أسفاً وحزناً على المسلمين وبلادها ، ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عزّ وجلّ ، فلما كان يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة توفي بقرية عالقين (كذا ، وصوابها عَـالِقين) » [1] .

وكان تقيّ الدين المقريزي (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ) مؤرّخ مصر ومدوّن خططها وأخبارها وآثارها ، قد أفاض الكلام في دمياط وزمن إنشاء مأصرها البحريّ وما أصاب تلك المدينة والمأصر من نكبات الفرنج على كرّ السنين ، وفي قوله فائدة وموعظة تاريخية بليغة . قال : « دمياط كورة من كور أرض مصر ، بينها وبين تنّيس اثنا عشر فرسخاً . . . ولمّا قدم المسلمون إلى أرض مصر ، كان على دمياط رجل من أخوال المقوقس يقال له الهاموك . . . ، وما زالت دمياط بيد المسلمين إلى أن نزل عليها الروم في سنة تسعين من الهجرة ، فأسروا خالد بن كيسان وكان على البحر هناك وسيّروه إلى ملك الروم ، فأنفذه إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك من أجل الهدنة التي كانت بينه وبين الروم ، فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك نازل الروم دمياط في ثلثمائة وستين مركباً فقتلوا وسبوا ، وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائة . ولمّا كانت الفتنة بين الأخوين محمد الأمين وعبد الله المأمون وكانت الفتن بأرض مصر ، طمع الروم في البلاد ونزلوا دمياط في أعوام بضع ومائتين ، ثمّ لمّا كانت خلافة أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وأمير مصر يومئذٍ عنبسة بن إسحاق ، نزل الروم دمياط يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين فملكوها وما فيها ، وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين ، وسبوا النساء والأطفال . . . فأمر المتوكل ببناء حصن [2] دمياط فابتدئ في بنائه يوم الاثنين لثلاث خلون من شهر رمضان سنة تسع وثلاثين (ومائتين) ، وأنشأ من حينئذٍ الأسطول بمصر ، فلما كان في سنة سبع ، طرق الروم دمياط في نحو مائتي مركب فأقاموا يعبثون في السواحل شهراً وهم يقتلون ويأسرون وكانت للمسلمين معهم معارك ، ثم لما كانت الفتن بعد موت كافور الإخشيدي ، طرق الروم دمياط لعشر خلون من (شهر) رجب سنة سبع وخمسين وثلثمائة في بضع وعشرين مركباً فقتلوا وأسروا . . . وفي أيام الخليفة الفائز بنصر الله عيسى ، والوزير حينئذٍ الصالح طلائع بن رزيك ، نزل على دمياط

(١) البداية والنهاية في التاريخ (١٣ : ٧٨ — ٧٩ مطبعة السعادة بمصر) .

(٢) حكى المقريزي في خططه (١ : ٢٩١) أن المتوكل « أمر ببناء حصن على البحر بتنيس ، فتولى عمارته عنبسة بن إسحاق أمير مصر ، وأنفق فيه وفي حصن دمياط والفرما مالاً عظيماً » وفي كلامه على مدينة الفرما (الخطط ١ : ٣٤١) قال : « ... وبنى بها المتوكل على الله حصناً على البحر تولى بناءه عنبسة بن إسحاق أمير مصر في سنة تسع وثلاثين ومائتين عندما بنى حصن دمياط وحصن تنيس وأنفق فيها مالاً عظيماً .. »

نحو ستين مركباً في جمادى الآخرة سنة خمسين وخمسمائة . . . فعاثوا وقتلوا . . . وفي وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب للعاضد ، وصل الفرنج إلى دمياط في شهر ربيع الأول سنة خمس وستين وخمسمائة ، وهم فيما يزيد على ألف ومائتي مركب ، فخرجت العساكر من القاهرة ، وقد بلغت النفقة عليهم زيادة على خمسمائة ألف وخمسين ألف دينار ، فأقامت الحرب مدة خمسة وخمسين يوماً ، وكانت صعبة شديدة . . . ، وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة رُتبت المقاتلة على البرجين وشدّت مراكب إلى السلسلة ليقاتل عليها ويدافع عن الدخول من بين البرجين ، ورمّ شعث سور المدينة وسدّت ثلمه ، وأتقنت السلسلة التي بين البرجين ، فبلغت النفقة على ذلك ألف ألف دينار ، واعتبر السور [1] ، فكان قياسه أربعة آلاف وستمائة وثلاثين ذراعاً . وفي سنة ثمان وثمانين وخمسمائة أمر السلطان بقطع أشجار [2] بساتين دمياط وحفر خندقها ، وعمل جسر عند سلسلة البرج . وفي سنة خمس عشرة وستمائة كانت واقعة دمياط العظمى ، . . . فبرز الفرنج . . . وعزموا على قصد الديار المصرية فركبوا بجموعهم البحر ، وساروا إلى دمياط في صفر ، فنزلوا يوم الثلاثاء رابع ( شهر ) ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة . . . . وهم نحو السبعين ألف فارس وأربعمائة ألف رجل ، فخيموا تجاه دمياط في البر الغربي ، وحفروا على عسكرهم خندقاً ، وأقاموا عليه سوراً وشرعوا في قتال برج دمياط ، فانه كان برجاً منيعاً فيه سلاسل من حديد غلاظ تمدّ على النيل لتمنع المراكب الواصلة في البحر الملح من الدخول إلى ديار مصر في النيل ، . . . . وفي مدة إقامة الفرنج بهذا البر الغربي عملوا الآلات والمراسي وأقاموا أبراجاً يزحفون بها في المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه ، فانهم إذا ملكوه تمكنوا من العبور في النيل إلى القاهرة ومصر ، وكان هذا البرج مشحوناً بالمقاتلة ، فتحيل الفرنج عليه وعملوا برجاً من الصواري على بسطة ( كذا ، والصواب بطسة ) كبيرة وأقلعوا بها حتى أسندوها اليه ، وقاتلوا من به حتى أخذوه .....، واشتد الفرنج وألحوا في القتال حتى استولوا على برج السلسلة وقطعوا السلاسل المتصلة به لتجوز مراكبهم في بحر النيل ويتمكنوا من البلاد ، فنصب الملك الكامل بدل السلاسل جسراً عظيماً لمنع الفرنج من عبور النيل ؛ فقاتلت

---

( ١ ) قال القلقشندي ( صبح الاعشى ٣ : ٤٠٦ ) « إن دمياط كان عليها أسوار من عمارة المتوكل أحد خلفاء بني العباس ، فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرة بعد مرة ، خربت المسلمون أسوارها في سنة ثمان وأربعين وستمائة خوفاً من استيلائهم عليها ، وهي على ذلك إلى الآن » .

( ٢ ) روى المقريزي في حوادث سنة ٥٨٨ هـ ( السلوك ١ : ١١١ ) أنه كتب باخلاء مدينة تنيس ، ونقل أهلها إلى دمياط ، وقطع أشجار بساتين دمياط ، وإخراج النساء منها ، فخلت تنيس إلا من المقاتلة ، وحفر خندق دمياط ، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها » .

الفرنج عليه قتالاً شديداً إلى أن قطعوه ، وكان قد أنفق على البرج والجسر ما ينيف على سبعين ألف دينار ، وكان الكامل يركب في كل يوم عدة مرار من العادلية إلى دمياط لتدبير الأمور وإعمال الحيلة في مكايدة الفرنج ، فأمر الملك الكامل أن يفرق (كذا ، وصوابها يغرق) عدة من المراكب في النيل حتى تمنع الفرنج من سلوك النيل .... » [١] .

وممن نقل خبر دمياط ومأصرها البحري واستيلاء الفرنج عليها ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي [٢] (المتوفى سنة ٨٧٤ هـ) ، وقد صرح بأنه أخذ الرواية عن سبط ابن الجوزي السالف الذكر . كما أن جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ) ، تناول الكلام عليها ناقلاً أقواله [٣] عمن تقدمه من المؤرخين الذين أوردنا أخبارهم .

ولعل آخر من تناول أخبار المأصر البحري في ميناء دمياط هو ابن إياس المؤرخ المصري (المتوفى سنة ٩٣٠ هـ) فقد حكى أنه «لما ملك المسلمون مدينة دمياط ، أشار الأمراء على السلطان بهدم مدينة دمياط ، فأرسل إليها الهدادين فهدموها عن آخرها ولم يبق منها سوى الجامع الكبير ، ووقع فيها الهدم في يوم الاثنين ثامن شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، واستمرت من يومئذ خراباً ، وصار مكان بيوتها أخصاصاً من القش على شاطىء بحر النيل ، يسكن فيها جماعة من الصيادين وسموها المنشية ، واستمرت على ذلك إلى دولة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري فأمر بتجديد عمارتها ، فأرسل اليها جماعة من البنائين والحجارين ، وكان ابتداء عمارتها في سنة خمسين وستمائة ، فجدد بناء سورها ، وأمر بردم فم البحر الذي تدخل منه مراكب الفرنج ، فردموه من القرابيص التي كانت هناك من الهدم القديم ، فامتنعت المراكب الكبار من الدخول إلى بحر النيل من يومئذٍ . ثم إن الملك الظاهر أمر بإعادة السلسلة الحديد التي كانت من البر إلى البر ، قيل إن هذه السلسلة كانت في أيام المقوقس عظيم القبط ثم بطلت فأمر بإعادتها كما كانت» [٤] .

---

(١) خطط المقريزي (١ : ٣٤٤ — ٣٤٩) ، وقد نقل هذه الاخبار برمتها علي باشا مبارك في كتابه : الخطط الجديدة لمصر القاهرة (١١ : ٣٦ — ٣٨) . وقد تناول المقريزي أيضاً في كتابه السلوك (١ : ٧٢ . حوادث سنة ٥٧٧ هـ ، و ص ١٨٨ — ١٩٠ ، ١٩٤ — ١٩٥ حوادث سنة ٦١٥ هـ) الاخبار التي حررها في خططه بتغيير يسير لا يخرج به عن المقصد نفسه . نقول : ومن المهم ذكره أن المقريزي اعتمد في رواية هذه الحوادث على ابن الاثير اعتماداً كلياً ، وزاد عليه بعض أمور في خطط دمياط ومسالكها

(٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (٦ : ١٧٠ ، حوادث سنة ٥٩٧ هـ ، و ٦ : ٢٢٢ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ . طبع دار الكتب المصرية)

(٣) انظر : تاريخ الخلفاء (ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ، القاهرة سنة ١٣٥١ هـ) ، وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة (٢ : ٢٨ ، حوادث سنة ٦١٥ هـ ، المطبعة الشرفية بمصر)

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور (١ : ٨٧ ، بولاق سنة ١٣١١ هـ)

# علم الكيمرجي ومنافعه

Chemurgy

لعوض جندي

---

ان كلمة كيمرجي منحوتة من لفظين انكليزيين يراد بهما الانتفاع بالحاصلات الزراعية في الصناعات الكيميائية. ويسرني ، وقد طالعت المقال النفيس الذي كتبه رئيس تحرير المقتطف في علم الكيمرجي ، أن أشد أزره في هذه المباحث الجليلة

يتفاءل الزراع الأميركيون خيراً ويرجون يسراً من حاصلاتهم الزراعية حينما تقف رحى الحرب الحالية . إذ هم يتوقعون إنتاج غلال عجيبة تختلف عن المألوفة اختلافاً كبيراً . نقصد المواد الأولية التي سيتضافر على الانتفاع بها أصحاب المصانع والمعامل الكيميائية والمزارع .

ومع كون علم الكيمرجي أي الكيمياء الزراعية الصناعية قد جاوزت العقد الأول فقط من عمرها فإنها قد جددت أحوال زراعات الكون . ويرجع تاريخ تأسيسها إلى منتصف العقد الماضي من السنين ، إذ اجتمع خبراء الكيمياء والزراعة في مجمعهم السنوي للبحث في مسألة تزويد الفلاح بحاصلات أكثر مما لديه بغية زيادة ربحه وتموين الصناعة بمصادر جديدة لها من المواد الأولية أرخص من الخامات المعتادة .

وقصارى القول أن أولئك الخبراء الكيميائيين قد تقصوا ذلك الموضوع وما برحوا يستنبطون منافع جديدة للحاصلات الثابتة ويحثون قومهم على زرع حاصلات جديدة إما لمنافعها الحديثة وإما لمنافعها القديمة وإما للانتفاع بالمخلفات الزراعية . ومن الرجح أن الباحثين الذين فكروا في الحرب كانوا قلة . بيد أنه من حسن حظ أمريكة أن اليابانيين حينما زحفوا بعد ذلك ببضعة أشهر من الشاطئ الاسيوي إلى أبواب أسترالية ، كان علم الكيمرجي قد أنشئ وأعد لسد حاجة أمريكة .

ولو تأملت بعض الحاصلات الزراعية ، بحسب أسمائها الانكليزية متبعاً ترتيبها بالحروف الهجائية لأدركت أن أول ما حبسه اليابانيون عن أميركة هي ألياف الأباكا abaca أي قنب مانيلاّ ( ومانيلاّ هي إحدى جزائر الفلبيين ) وهي الألياف التي كان الأميركيون يصنعونها حبالاً ولاسيما الحبال البحرية التي ما زالوا في أمسّ حاجة اليها . ثم الكاسافا cassava التي كانت أمريكة تستوردها من جزائر الهند الشرقية الهولندية . والكاسافا هي مصدر النشا اللازم لصناعة المنسوجات إذ تؤخذ منها الصموغ ومواد اللاصق التي تعتمد عليها الصناعات الاميركية . وكذلك حُرمت البلاد الاميركية الجوت الذي كانت تستورده من الهند لصنع

الخيش المتخذة منهُ أكياس الرمل في زمن الحرب . وحرمت أيضاً الكابوك kapok الذي كانت تصدره اليها جزائر المحيط الجنوبي الغربي . وهو النبات الذي يقي مناطق النجاة والأطواف من الغرق ( وقد وصفنه في مقال نشر بمقتطف يناير سنة ١٩٤٣ ) ثم صمغ اللك ( المعروف عند النجارين المصريين باسم الجملكة ) وقوامه قشور حشرات شرقية . ويليه زيت النخل وزيت الطنج المستعملان في صناعة الصابون والطلاء والتزييت والمطاط . وصمغ اللك من المواد التي امتنع حصول الحلفاء عليها حينما زحف اليابانيون على جزائر الهند الشرقية . وقد ثبت أن أميركة لا تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها منه . كما تبينت استحالة حصول الأميركيين على كثير من هاتيك الحاصلات الزراعية من أي مكان آخر . وثبت أن المنتجات الأميركية من تلك الأنواع محدودة بحيث لا تفي حاجات البلاد وأنه لا بدّ من الاستعانة بحاصلات البلاد المذكورة آنفاً .

وأغرقت غواصات ألمانية البواخر التي كانت تنقل مادة التنين من أميركة الجنوبية حيث تستخرج هذه المادة من شجر القبراخو quebracho trees ويستعمل التنين لدبغ الجلود الخام . وكذلك أغرقت الغواصات البواخر التي كانت تقل الفلّين من شبه جزيرة أيبريا . وكانت أمريكة ذات قدرة صناعية جبارة ، ومع ذلك فالجبابرة يمكن أن يموتوا جوعاً لأن احتياجاتهم العظيمة ليس من السهل سدها . وقد كانت في حاجة ماسة إلى هاتيك الحاصلات أو ما يشبهها وإلا وقفت رحى الحرب . وربّ سائل يسأل : كيف ظفرت بها ؟ وجوابنا عن ذلك — أنها حصلت عليها بالكيمرجي . والكيمياء العصرية والزراعة هما أساس علم الكيمرجي . فإذا أردنا إحراز أية مادة او إنتاج بديل لحاصل من الحاصلات النادرة الوجود ، قام الكيميائيون بتحليل ذلك النتاج ليقفوا على كنه الجزيئات المؤلفة له . ثم يفحصون المنتجات المشابهة له ، في الحاصلات التي استطاعت أو تستطيع أمريكة إنتاجها ، ليعينوا أي حاصل منها له جزيئات تتاح إعادة حشدها على ذلك النمط . وأهم مثال يجوز إيراده في هذا المقام تحسين المطاط الصناعي في زمن الحرب الحالية تحسيناً حثيثاً، إذ تمكنت اليابان في خلال بضعة أسابيع من الاستيلاء على أكثر موارد المطاط الطبيعي في العالم قاطبة . ومع ذلك أصبح في وسع الأميركيين بفضل الكيمرجي ألاّ يكتفوا بالحصول على صنف واحد من المطاط ، بل ظفروا بعشرات منه ، يمكن صنعها أشياء أنيقة تمتاز بقابليتها للمط ومتانتها أو قسوتها وفق المرام . وذلك أن علماء الكيمرجي تمثلوا بالتجارب التي كان المرحوم العلاّمة توماس ألفا إديصون قد جربها في زمانه إذ زرع نبات العود الذهبي أو goldenrod غصين الذهب ، كي يستخرج منه المطاط ؛ فزرعوا هم أيضاً الهندباء البرية أو سن الأسد واستخرجوا منها مطاطاً .

وأتيح لعلماء وزارة الزراعة في معهد المباحث الخاص بالمناطق الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية ، إنتاج النوريبول norepol وهو مطاط صناعي مؤلف من زيوت فول الصويا « البسلة الصينية » والحنطة وغيرها من الخضر . ومن المنافع الحديثة للحاصلات الزراعية أيضاً مادة الزين zein وهي من المنتجات الثانوية للقمح ، تحل محل صمغ اللك ( الجملكة ) ومنها أيضاً نشا البطاطا الذي يستعمل بدلاً من نشا الكاسافا ( وهي شجرة المانيوق ) .

وكان أول من أعلن عن ( الجملكة ) الصناعية معامل آرثر . د . ليتل الكيميائية ، وذلك في أوائل السنة الحالية . وهذا النتاج الصناعي الجديد سيخفف من وطأة الحاجة إلى (الجملكة) الطبيعية التي كانت تستورد عادة من بلاد الهند.

ومخترع هذه المادة الكيميائية هو C. G Harford هارفورد وقد صرّح أن هذه ( الجملكة ) تشبه صمغ اللك الطبيعي ، بل تفوقه في بعض خصائصها إذ هي تلتصق بالمعادن بسهولة مثلها في الخشب ، وأنها تقاوم تأثير المياه في السطوح التي تدهن بها . ولهذه (الجملكة) الصناعية الجديدة اسم صناعي هو زينلاك Zinlac وتقوم بصناعتها مصانع وليم زينسير William Zinseer في مدينة نيويورك وهي شائعة الاستعمال الآن في الأدوات الحربية .

أما صمغ اللك الطبيعي فهو مفرزات متجمدة تفرزها حشرة هندية ، وقد كانت في الواقع ذات مزايا فذة هي قسوتها ومقاومتها للبلى وسرعة جفافها وسهولة تذويبها في المواد المذوبة الرخيصة وبهذه المميزات راج استعمالها في كل مكان لأغراض شتى ومنها وقاية أراضي الحجر وصقل الأثاثات الأنيقة . وطالما حاول المخترعون تقليدها فكان نصيبهم الفشل حتى قيض الله لنا علماء أمريكة المشار إليهم فأفلحوا كل الفلاح .

ويتسنى أحياناً في أمريكة زرع المحصول الذي كان يستورد عادة من خارج البلاد فينمو في التربة الأمريكية على ما يرام . ومثال ذلك أن اليابانيين حظروا القنب الذي كان الأميركيون يستوردونه من جزائر الفيلبين فجعل هؤلاء يزرعونه في بلاد ولايات كنتكي ومينسوتا وويسكونسن فجنى زارعو هذا المحصول الحديث جداً أرباحاً جديدة فوق أرباحهم المألوفة وبلغت المساحات التي زرعت هنالك بذلك المحصول سنة ١٩٤٣ — ١٨٥٠٠٠ فدان. ومن جهة أخرى يمكن غالباً أن يحل هذا المحصول الوطني محل المحصول الأجنبي . ومن ثمة تبين أن بذور الخروع يتسنى الاستغناء بزيتها عن زيت الطنج tung وأنه يمكن زرعها في مفاوز الولايات الواقعة في جنوب غربي الولايات المتحدة . والطنج زيت من زيوت التجفيف يدخل في صنع الورنيش الزيتي النفيس الثابت . ولعل أهم فوائد الكيمرجي التي يدهش الملأ فائدة تحويل نفايات الحقول إلى مواد نافعة مربحة . ويلخص علم الكيمرجي في هاتين الجملتين: « لكل شيء تنبته التربة نفع خاص وإن كنا لما نوفق لمعرفة نفع كل مادة على حدتها »

نعيدان قصب السكر المعصورة وسيقان القمح وقشور الفول السوداني يمكن أن تقوم مقام الفلين، الذي هو حاصل من حاصلات أشجار تنمو في بلاد البورتغال وأسبانيا وإفريقية الشمالية. ولو استطاعت أميركة برغم غواصات هتلر المنبثة في أغوار مياه المحيط الاطلنطي الحصول على حاجتها من الفلين، لحالت السياسة الدولية دون حرية تجارته.

وليس محتوماً على كل عالم بالكيمرجي تقويض المحتويات الكيميائية للفلين مثلاً ليستنبط بديلاً له[1] بل عليه أن ينهج منهجاً آخر. ومن المقترحات التي اقترحت لسد ذلك العوز، اتخاذ عوض للفلين مؤلف من ألياف الذرة وجمارها، فظهر أنها لا تصلح لذلك الغرض لأن خلاياها تكبر بكثير أمثالها في الفلين، فضلاً عن كون غشائها أدق كثيراً من تلك، غير أنه تبين أن الجمار إذا قطع قطعاً دقيقة وأذيبت حتى تصير سائلاً يمكن تكثيفه وتقسيته إلى أن يصبح مادة مرنة ينتج منها جسم يكاد يشبه التركيب الطبيعي للفلين، فيصلح استعمال هذا النتاج المتخذ من نفاية الحقل فليناً صناعيًّا لتغطية القناني.

ويرى علماء الكيمرجي أن الأعشاب البرية الضارة التي تنبت في وسط النباتات النافعة إنما هي أزهار بغيضة عند الناس أجمعين، ومنها نبات العشر[2] (ضالة علماء الكيمرجي) وهو ذو ألياف حريرية تشبه الكابوك (وقد وصفته أيضاً في مقال نشر في باب الأخبار العلمية بمقتطف يناير سنة ١٩٤٣) وأليافه جوفاء مملوءة بالهواء خفيفة جدًّا وتغشاها مادة شمعية تجعلها مسيكة فلا تستطيع المياه اختراقها، ويستعمل حرير العشر بديلاً طبيعيًّا للكابوك في صناعة الأدوات والملابس الواقية من الغرق فضلاً عن كون ميزات ذلك الحرير العازلة للرطوبة عزلاً جيداً تجعله صالحاً لصنع الحلل التي يرتديها الطيارون الذين يحلقون في أعلى طبقات الجو. ومن منافع المخلفات الحقلية أيضاً أنها تتخذ منها مادة تحل محل الجليسرين في صناعة التبغ وذلك لأن الجليسرين أصبح نادر الوجود لشدة الحاجة إليه في صنع المفرقعات. والمعروف أن التفاح حين تعبئته في العلب أو عند تجفيفه، تنبذ مادة قلوبه وقشوره. بيد أنه لما كان علم الكيمرجي كما قلنا لا يبيح الاستغناء عن أي جزء من أي شيء تنبته الأرض إذ يرى فيه نفعاً للخلق، فقد حول أضرار النبات إلى منافع. وسلمت أطنان من التفاح الجيد

---

(١) اخترع أحد علماء الالمان فليناً من البطاطس وذلك بأن تكشط الاجزاء الدقيقة التي تبقى من لباب البطاطس عالقة بقشوره؛ فتباع كعلف للمواشي. أما القشارة فتضغط حتى تصبح طبقات يعلو بعضها بعضا فتصلح لسد القناني كالفلين الطبيعي.

(٢) وصفت هذا النبات في مقال مسهب نشر في مقتطف يناير سنة ١٩٤٣ وكان لذلك البحث صدى خطير وحسن تقدير لدى عظماء المملكة العربية السعودية ولذلك طلب إلي السيد سليمان الحمد السليمان نجل وكيل وزارة المالية السعودية بمكة المكرمة بعض معلومات بشأن العشر فتشرفت بلقائه يوم ٢٩ أبريل سنة ١٩٤٣ في الوكالة العربية السعودية بالقاهرة حيث تباحثنا ملياً في هذا الموضوع لان في بلاد العرب ألوفاً من شجر العشر.

كل الجودة ، الذي يستهدف للتلف فتعاف الناس شراءه وأكله ، إلى علماء الكيمرجي الذين سبق أن قاموا بعمل خلاصات من تلك المواد المهملة فعمدوا إلى إجراء التجارب في شراب التفاح ليستخرجوا منه مواد تقوم مقام السوائل النادرة الوجود فوفقوا كل التوفيق إذ تيسر لهم استخلاص مادة من التفاح السائل تتخذ عوضاً من الجليسرين فنجم عن تلك المباحث القليلة الجليلة الفوائد إنشاء سوق رائجة في بلاد الولايات المتحدة الأميركية لأكثر من مليونين ونصف مليون بوشل للتفاح التالف الذي كان فاقد النفع هناك كل سنة . والبوشل يعادل ثمانية جالونات .

وكذلك أتيح لهم الانتفاع باللحاء الذي يسقط عادة من أشجار الشوكران الضخمة التي يقطعها الحطابون من مناطق شمال غربي المحيط الهادي إذ وُجِدَ لها مكان صالح في علم الكيمرجي ، لأن العلماء استطاعوا أن يستخرجوا من تلك القشور مقادير مربحة من مادة التنين المستعملة في صناعة دبغ الجلود ، وناهيك بالمنافع الجديدة التي ابتدعها علماء الكيمرجي من نباتي القطن وفول الصوية إذ استطاعوا في زهاء عشرة أعوام جعل ذلك الفول الشرقي العام محصولاً كبيراً من الغلات الأميركية التي تربى على مائتي مليون بوشل في السنة حيث يستخرج منهُ زيت للتزييت والطلاء والعجائن الكيميائية . وتتخذ منه بروتينات وأغذية للانسان وعلف للحيوان ، وتستخرج منهُ أيضاً خيوط للنسج . وكذلك ما فتئ أولئك العلماء يهتدون إلى منافع جديدة للقطن ومنها استعماله عوضاً من الجوت الذي كان يستورد من بلاد الهند لصنع أكياس الرمل .

وكان البارود العادم الدخان ، يصنع عادة من زغابة القطن ونقصد بها الشعر الزغبيّ الذي يبقى لاصقاً ببذور القطن ، بعد إنتزاع التيلة منها . فاخترع علماء الكيمرجي آلات خاصة تقوم بتقطيع تيلة القطن نفسها قطعاً قصيرة تشبه هاتيك الزغابات ابتغاء استعمالها في صناعة ذلك البارود بمقادير جزيلة جدًّا . ثم ختم الكاتب الأميركي بحثه هذا قائلاً : ما من أمة تستطيع الطموح إلى المستقبل ثابتة الجأش ، إذا كان رخاؤها مرتبطاً بالمواد الأولية المعدنية وحدها ، لأن هذه المواد تستنفد دائماً أسرع مما تتجدد . وطالما نبهنا علماء الجيولوجيا إلى قرب الزمن الذي سوف تفرغ فيه منابعنا من نفطها ومناجمنا من حديدها وغيره من الفلزات وذلك لكثرة ما نستهلكه منها . ولكن لا خوف علينا ما دام في وسعنا إنتاج ما نحتاج اليه من أي مصدر زراعي . فيعوضنا عما نستنفده من مقادير المعادن والزيوت المعدنية . وكلما كثر اعتمادنا على العجائن الكيميائية التي تصنع من المصادر النباتية ، قلّ تعويلنا على تلك المعادن القابلة للنفاد . وكذلك كلما اشتد إقبالنا على استعمال الوقود النباتي والزيوت النباتية لتزييت آلاتنا ، قلّ خوفنا من استفراغ منابع زيتنا .

# التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون الذوق، فنجريه إلى غايتين: إحداهما مراجعة بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً أو أداء، والأخرى نشر ما انطوى من الضنائن المخطوطة أو المهملة. ومقصدنا أن يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل ومعرضاً للمستبصر الراكن. هذا ويشترك في إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى.

بشر فارس

المقتطف، دسمبر ١٩٤٤

# المشتمل


## ١ — المسائل

| | | | |
|---|---|---|---|
| اللغة والقومية | محاضرة | بقلم | الدكتور بشر فارس |

## ٢ — الكتب

| | | | |
|---|---|---|---|
| المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن | نقد | بقلم | أحمد محمد شاكر |
| المعري ذلك المجهول | — | — | محمد شوقي أمين |
| ٣٥٠ مصدراً في دراسة أبي العلاء | — | — | عبد السلام محمد هارون |

كتب ظهرت :

| | | | |
|---|---|---|---|
| تاريخ النبات | — | — | * |
| سيرة أبي العلاء وفلسفته | — | — | * |

## ٣ — المجلات

| | | |
|---|---|---|
| نشرة المباحث العربية | بقلم | * |

## ٤ — الاستدراك

| | | | |
|---|---|---|---|
| « الامتاع والمؤانسة » | الجزء الثالث | بقلم | مصطفى جواد |

## ٥ — التعقيب

| | | |
|---|---|---|
| في الشعر الحديث | بقلم | زكي طليمات |


---

# ١ – المسائل

## اللغـــة والقوميـــة

محاضرة ألقيت في « كلية المقاصد الاسلامية » ببيروت.
في السابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٩٤٤

---

يسعدني ويعلي من شاني أن أجلس بين أيديكم في بلد ثغره وسهله وجبله قد أخرجت في العصر الحديث جمهرة من العلماء الأعلام صرفوا هممهم الى لغتنا الشريفة، فهذبوها وأغنـوها وقيدوها وأعلَـوها ، وكان الزمن الجائر قد جرها إلى الترهل والضآلة وإلى التفكك والحقارة بعد ماضٍ زاهر ماجد .

فبفضل الشدياق والأحدب واليازجيين والبستانيين والأسير ثم بفضل الشرتوني وعبدالرحمن سلام وأضرابهما أستطيع أن أتحدث اليكم بهـذه اللغة السليمة وتستطيعون أنتم أن تصغوا وتلقطوا . هؤلاء الأعلام هيأوا لنا سبيل التفاهم وهيأوها لـكم فيما بينكم على بسـاط مديد متقَـن الصنعة . رحمهم الله رحمة واسعة ، فإنهم من روّاد القومية من حيث لا يشعرون وبناة التآلف على أسٍّ ثابت .

جئتكم اليوم وفي صدري أشياء من حال لبنان الحـاضر لا يستطيـع العامل في ميدان الفكر أن يسهو عنهـا وأن يغضي ، وإن كان دأبه العلم الصرف والأدب المحض . ولا تظنوا أني أبتغي توجيهكم في هذا دعوى ليست والله من شيمتي، ولـكن في نيتي أن أذاكركم في شأنٍ شاغلٍ لـكم ولي أيضاً ، وهو شأن القومية ورسوّها وعلوها .

• • •

إنما شرط القومية تلاؤم دفين بين أبناء الأمة وتساير من جهة المعنى ومن جهـة الحس جميعا . وقد استقام لعلماء الاجتماع لهذا العهد أن للقومية مقوّمات . وقد اختلف العلماء في قيم هذه المقوّمات وذهبوا مذاهب في تغليب إحداها على الأخرى . وكيفما كانت الحال فلسنا ههنا بسبيل البحث المجرد ، ولست بسائق إليكم حديثاً في علم الاجتماع . وإنما أريد أن أجري

الكلام في جهة العمل من طريقٍ وضعي لا شأن للتخيل فيه .

لنعرض المقوّمات التي انتهى إليها الباحثون ، ولنتصفحها على ضوء المجتمع اللبناني القائم اليوم قياماً حقاً مستقلاً بنفسه ، لعلنا نصيب ما قدر كل مقومة لديه ، وما مبلغ حظها من القوة والرسوخ .

صنف العلماء تلك المقوّمات فوجدوها هذه : الأرض ، والدين ، والدم ، والماضي مع الرغبة في الاستمرار ، ومصلحة العموم ، ثم اللغة .

— أما الأرض ، فما يورث الأسف أن لبنان بقع بقع ٍ وكل بقعة منطوية على نفسها ، لأهلها تصوراتهم ونزعاتهم . فمن هذا أن لسكان جبل كسروان مثلاً لا تجدونها عند أهل البقاع ، حتى المدينة ينقسم أهلها على أهواء ، ففي بيروت أحياء ، وكل حي يرى على طريقته ويسعى ويؤمل . أضيفوا إلى هذا أن بقعاً أُدرجت في لبنان من عهدٍ قصير فدخلته وما أحسبها داخلته ، وذلك لسببين : أما الأول فقرب عهد الادراج ، وأما الثاني فدخولها في أرض توزعت جهاتها وتضاربت كوَرها . وخلاصة هذا أن الأرض اللبنانية لا تستطيع ان تضم أبناءها فتركزهم في مستقَر تتلاءم أطرافه .

هذا ويتفق للأرض على وجه العموم ألا تصلح لتكون مقوّمة من مقوّمات القومية ، فهذه بريطانية العظمى — وقوميتها فوق الشبهة — مقسومة قسمين متنافرين : إنكلترة وسكوتلندة . وقد لمس هذا منكم من قصد إلى بريطانية فجاس إلى ابن سكوتلندة وسمعه يقول : « لست بانكليزي » . غير أني أربأ بكم أن تذهبوا أبعد مما أذهب فيزعم زاعمكم أن أقسام أرض لبنان إلى انفصام واقتطاع ما دامت على غير تواطؤ وتماثل .

— وأما الدين فخيرٌ لي ولكم أن نمر به سُرعاناً وليس ذلك من باب الخشية . ولست ممن يخشى النظر في الأمر الراهن وإن وعر مسلكه ، فقد آن للمفكر الحر المخلص أن يجبه كل مشكلة بما قد يكون مكروها — ولكن الاسراع ههنا سببه ضجر في طياته ألم حزّاز تغذوه دهشة ملحة ، هي الدهشة من قوم يضربون في أرض واحدة وبعضهم إلى بعض ينظر نظرة المتعدي مرة والمستعدي أخرى . لنمر سراعاً فالهواء — الله أعلم — إلى غير صلاح . وبحسبي أن ألفظ كلمة واحدة هي « الطائفية » فأستخلص مما تثير حول حروفها المريضة أن الدين في لبنان هيهات أن يكون معقل انضمام ومحور التفاف . وهنا كذلك لا تذهبوا إلى أبعد مما أذهب إليه فيزعم زاعمكم أن الأديان إذا تباينت في بلدٍ واحد مجلبة للانفصال ، فهذه ألمانية وهذه روسية كلتاهما تضم مذاهب شتى وليس شك أنها على قومية فعالة .

— وأما الدم فلا أعني نقاوته وتحدره كذلك من عروق الجدود حتى عروق البنين. فالأمر — وإن تشبث به قوم وأنهضوا عليه سياستهم وتدبيرهم — أدخل في باب الأسطورة منه في باب العلم، ولا سيما في قطر توافدت عليه أجيال من الناس فاتحين أو فازعين. لست تلك النقاوة أعني ولكني أريد امتزاج الدماء بين الفئات المختلفات التي بقيد الحياة.

ولا يخفى على أحدكم أن حالكم على عكس ذلك لأسباب دفائن لم يحن بعدُ النظرُ فيها والحكم. ذلك بأن الأمة لا تثب دفعةً واحدةً من انزواء أجزائها بعضها عن بعض إلى التحامها جملة. التدرج هنا أفضل وأحكم وإنما المعول على تخلص القلب وتفتح الروح: صدق وسمو. إذن ليس في وسع الدم أن يشارك في تلاؤم الأفراد ولو بحظ يسير.

— وأما الماضي وما يحدثه من الرغبة في الاستمرار فإني أراكم تلتفتون إلى عهود وأمم، فهذا يصعد حتى زمن متقادم دارج فتأخذه الفينيقية، وذاك يتشبث بالعربية، وثالث يخلطها بالإسلام عفواً. وعن هذه الأصول تنشق فروع.

فكيف توجهون المضيّ على سمت واحد وحاديكم غير واحد. إنما الماضي — كما يقول الفيلسوف برجسن — نافذة منها يُطل المطل على المستقبل. ونافذتكم على فتحات متباينات. فهذه أبصاركم زائغة، يتخاطفها الشمال والجنوب ومطامحها مقسمة بين تشريق وتغريب. وإنما غاية اضطراب العين انتشار فعجز. حمى الله أعينكم! والماضي، كما ترون، لا يعبّد لكم طريق المستقبل الصمّام لخطاكم بل هو يحرف بعضها عن بعض.

— وأما مصلحة العموم — وهي القومة الأولى للقومية البريطانية مثلاً — فأراكم لم تستوضحوها بعد. ولا لوم عليكم، فالعالم اليوم على تجاذب وتدافع. فأنّى لكم أن تتجهوا الوجهة الصالحة النافعة؟ الضباب حول الخلق كافة، فلحاظهم على تفرق وتحير. ثم إنكم لا تزالون في بدء تدبير شؤونكم، فإن جربتم هذا فلم تجربوا ذاك، وإن امتحنتكم السياسة من شقٍّ فلم تمتحنكم من شقٍّ آخر. فأنتم لا تنفكون في تقري الباب الذي يولجكم إلى النعيم، وتحري الحاجب الذي لا يخفي سيفاً. فحكمكم في مصلحة عموم أفراد الأمة لا يزال صريع المنازعة يلفه الغموض والفرض والحدس.

• • •

بقيت اللغة. فهل أحدكم يشك أنكم على لغة واحدة. أجل أخبرني صديق أثير أن نفراً يقولون بأن للبنان لغتين، فهذا زعم لا ينهض له دليل. فلغتك إنما هي التي تنطق بها

سليقةً أول ما تنطق ، ثم تأخذها سماعاً واعتياداً لا تكسباً وتكلفاً . وإن بدا لنفر أن يحرّفوا ألسنتهم عن أصولها فذلك شأنهم وحدهم .

إن لغتكم هي العربية رضيتم أو كرهتم، حسنت لديكم أو ساءت. تلك حقيقة لا ترد . وعلى صعيدها تلتقي خطاكم جميعا. فإن وهنت القوميات الأخرى أو بطلت فإن اللغة هي المقومة الحافلة الفريدة التي أتيحت لكم ولا تنفك بين أيديكم . هي ملككم جميعاً ، اشتركتم على اختلاف مذاهبكم ومناهلكم في تسويتها ورفعها . كلكم ابنها وراعيها ، فمن العسف أن يقول قائل : « أبت العربية أن تتنصر » . تلك قولة لفظ بها من لفظ من نحو مائة سنة وهو لاهٍ ، وبعض اللهو إثم . هي قولة فيها بهتان بل فيها عدوان ، ونحن اليوم إلى الحق ننظر وبالوئام نستبشر .

هذا وليست اللغة بالمقومة التي يقل قدرها في أمر القومية . هل غاب عنكم أن دانتي الشاعر الايطالي العظيم جمع كلمات المناطق الايطالية بفضل ملحمته « الاضحوكة الالهية » ؟ ثم اذكروا أن آداب النهضة الفرنسية بشعراء البلياد Pleïade وبأمثال رابليه ومونتني ثم بالمتحذلقات وما نبذن من تراكيب الأقاليم ثم بالمجمع وما فرضه من قواعد النحو ، اذكروا أن كل ذلك أعان على لمّ الأطراف وضم إداراتها من طريق التعبير المؤتلف . وكذلك الأمر في غير إيطالية وفرنسة . فهذه العرب ألم تهيء غلبة لغة قريش نظمَ شمل القبائل ؟ ثم هذه بوهيمية وإرلندة في العهد الحديث ألم يرجع أهلها إلى الوعي القومي بفضل اللغويين والشعراء والمؤرخين الذين أحيوا لغة القوم ونشروا آدابها ؟ ثم هل يفوتكم أن اللغة هي الحصن الأخير المتمكن في وجه الغازي القاهر ؟ ألم تستمسك شعوبية الفرس بالفارسية ؟ وما الذي أعجز الحكم التركي سوى العربية على اضمحلالها ؟ وبولندة تلك الضحية الدائمة ، أليست لغتها التي ظلّت تنفث الوطنية في عزوق أبنائها البؤساء ، وفنلندة هل كانت صرعت صولة السويد لو لم تنبذ اللغة السويدية شيئاً فشيئاً لتحل محلها اللغة الفنلندية بعد أن دوّنت آياتها وهذبتها ؟ ولكم بعد ذلك عبرة اللغة العبرية ، وكلكم لمسها بيدٍ نافرة .

• • •

بين أيديكم عُدة تفاهم محكمة مكينة، فعليكم إياها وبها . الزموها وتمسكوا بها وبالغوا في صونها وصقلها ، كما صنعت العرب في المئتين الثالثة والرابعة ، وكما صنع فرجيل وهوراس وأقرانهما من قبل فبلغوا باللغة اللاتينية ذرى الغزارة والليانة واللطافة . وإن لم تفعلوا نصداً لغتكم من طول الإهمال وتنفلت من بين أناملكم، فتقعدوا وقد غاب من تحت أرجلكم

ذلك الصعيد الأوحد في حدود أرضكم . ومن وسائلكم في الصون أن تفرضوها في كل موضع فلا تقبلوا منها بديلا . وان تخاطبتم وتراسلتم فبها أولاً ، وإن حادثتم غير الناطق بها في بلدكم فبها ثم بلغته . وأما المدارس فلا تأذنوا في أن تجري اللغة في فصولها مجرًى هيناً وأن تنتحي ناحيةً فتغلبها على أمرها لغة أجنبية عن ألسنتكم . في ذلك استرخاء وراءه ذل . ولتشتدَّ مراقبتكم ولتنبسط على المناهج والنماذج ، ولا بدَّ أن تطلَق على المدرسين أنفسهم : هل يحذقون هذه اللغة ؟ وأعلى من هذا : هل يحبون هذه اللغة فيحببوها إلى التلامذة ؟ ثم لتُقرأ العلوم والآداب بهذه اللغة أيضاً حتى يتدرَّب اللسان ويدرَب وحتى يشعر صاحبه أنه يستطيع أن يضعهُ حيث يشاء ، فتجلّ اللغة في عينه ، فتظل المقومة الشريفة الرفيعة .

وأما وسائل الصقل فاجتهاد متواصل في تهذيب هذه اللغة وإغنائها . وهذه حكومتكم مقبلة على إنشاء مجمع علمي ستكون علوم اللغة من شواغله ، وفي المأمول أن ينشأ لوجه العلم وأن يعمل فيه أصحاب الكفاية والدراية ، فلا يكون إنشاؤه مظهراً من مظاهر الأبهة والتهويل ، وإن آفة شرقنا البهرج ، ثم لا يكون طوع الطائفية تلك النكبة التي لا يفرح بها غير جهَلة أو فسَقة .

وليس معنى كل ذلك أني أتشيع للعربية وأغض البصر عن سائر اللغات . فهذه حماقة . ولكني أسألكم أن تنزلوها المنزلة الأولى حتى تبقى على سلطانها بل تمضي فيه . ولكم بعد ذلك أن تقبلوا على اللغة التي تجذبكم . والخير ترك الايثار ، لأن الايثار يورث الهوى ، وحليف الهوى التعصب ، فإن تعصبتم للغةٍ ما زحمت لغتكم ، والقلب لا يحمل اثنين . ثم إن الإقبال على لغات متعددة يشق لكم الأفق فيفسح للفهم ويوسع للإدراك ، إذ لكل لغة أسرار وخصائص من جهة القواعد ومن جهة الآداب ، وبنا حاجة إلى كل ما يفتّح ويصعّد حتى نشد من تلك المقومات الواهنة ونعالج تلك المقومات الضائعة .

• • •

وبعيد عن ذهني أن أحرككم إلى الاستمساك باللغة لتتخذوها غاية فتصرفوا إليها نشاطكم صرفاً ، وتجعلوها المقصد الأسمى ، كلاَّ ! أنا أدعوكم إلى الاستمساك بها على أنها وسيلة فعالة . وأملي كبير في أن تعينكم اللغة على مراجعة المقومات الأخرى ، ودعوني هنا ألوّح وأمثل :

أما الأرض فمن طريق المواطأة على القراءة الواحدة والفهم الواحد تتساير الذهنيات إلى أنحاء متقاربة ثم مع الزمن إلى أنحاء متماثلة.

وأما الدين فبالاطلاع على الآثار يعلم الجاهل أن الهوّة بين هذه الفئة وتلك لم تكن على السحق الذي نعانيه ، فالنصراني مثلاً أعان المسلم في بعض فتوحاته وكرّاته بفضل القربى والأخوة ، والمسلم، مثلاً ، كثيراً ما فطن إلى أن دينه إلى السماحة .

وتجدون أشباه هذا في تاريخ بلدكم ، فيتجسم لكم في الواقعات الرائعة منها أن المسلمين والنصارى جاهدوا صفّا واحداً في أثناء الحرب الماضية فأوقع بهم الترك ، من غير تمييز ، الضيم والشنق والقتل .

ومن قبل اتحدت طوائف لبنان كلها ، وذلك لما غزا المماليك جبل كسروان في خاتمة المئة الثالثة عشرة ، فانضمت النصارى من موارنة وملكيين ويعاقبة إلى الشيعة والنصيرية وإلى الدروز وأجمعوا فيما بينهم — كما جاء في تاريخ المطران تادروس — على تفويض أمرهم إلى بيت « بلّمع » ( أبي اللمع ) الدرزي وكان فيه الشرف والتقدم .

وأما الماضي وما يحدثه من الرغبة في الاستمرار فإن عرضتم ألطاف الحضارة التي ورثتم لغتها علمتم أنها في الأوج من بعض النواحي وفي بعض العهود ، وأنها أمدت الحضارة الأوربية الحديثة ، فهي خليقة بأن تكون منهلاً صافيا . ولكم أن تختاروا وأن تنبذوا ، وأن تستلهموا وأن تستميضوا ، وطِلبتكم التقدم والوثبان . ولكن لا بدّ لكم من أن تجمعوا الأكف لتلقطوا الماء من نبع واحد . وإنما اللغة التي نشأتم عليها هي الدرب المؤدي إلى النبع . هل لدى أحدكم درب حيّ آخر ؟ إن وجود النبع لا يكفي .

• • •

تلك خواطر خطرت لي وأنا في شعاب جبلكم أمضي . وإني لأعلم أنها موضع مراجعة، ولا يخفى عليّ أنها منار نقاش ، ولكني أردت أن أبثكم إياها قبل أن أغادركم لعلي أن أفيد ، وإن لم أفِد فصدري يملأه الود ، على كل حال ، والإخلاص .

بشر فارس

# ٢ - الكتب

---

## • المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن •

تأليف جولد تسيهر — ترجمة علي حسن عبد القادر

١٦ × ٢٣ سم   ١٨٤ ص   القاهرة سنة ١٣٦٣ هـ ١٩٤٤ م

يعرض المستشرقون لعلوم الاسلام وتاريخ الاسلام عرضاً علمياً في بعض أحيانهم، وعرضاً كله غرض في بعض أحيانهم .

ولقد كان المسلمون — ولا يزالون — في حاجة إلى معرفة آراء هؤلاء ، سواء منها ما كان رأياً عن معرفة وثبت وإنصاف ، وما كان عن هوى وغرض ، حتى يدركوا مقاصد القوم ونياتهم نحوهم ونحو بلادهم . فما أتى المسلمون في القرنين الماضيين إلاّ من جهلهم ما يضمر بعض أولئك القوم لهم وما يقولون فيهم .

وكنا — نحن الأزهريين في هذا العصر — نجتهد بكل وسيلة نستطيع ، أن نتعرّف آراء أولئك في تاريخنا وعلومنا ، ونقرأ كل ما يترجم عنهم في الكتب والصحف والمجلات، ونتصل بمن عرفوا اللغات الأجنبية وبمن تعلموا في أوربة من المصريين ، ونقتني آثارنا النفيسة التي ينشرها المستشرقون ، نستطلع بذلك كله الأخبار والآراء . ثم بعثت بعض البعوث منا إلى أوربة للدرس والمعرفة والتنقيب ، وعاد بعض من بُعث ، فتوقعنا أن يقوموا ببعض هذا الواجب ، واجب تعريفنا تعريفاً علمياً بآراء علماء أوربة فيما عرضوا له من دقائق العلم الإسلامي ، فلم يفعلوا ، ولا نزال نتوقع أن يفعلوا . ولعلّ لهم من أحداث هذه الحرب بعض العذر ، فقد كان أثرها شديداً على الورق والطبع والنشر .

ولكن أخانا علي حسن عبد القادر لم تقف دونه العقبات فيما يستطيع، فأخرج لنا هذا الكتاب في هذا العام ، ونحن على ثقة أن سيتبعهُ كتباً أخرى . ولعلّ في نشاطه وعمله هذا ما يحفز إخوانه على أن يقوموا بحركة مباركة في الترجمة والنشر ، قياماً ببعض الواجب عليهم نحو أزهرهم .

وقد اختار المترجم هذا الكتاب لأنه « لشيخ من شيوخ المستشرقين ( وهو مجري ) معروف بطول الباع معرفة مستفيضة . . . وقد كان هذا الكتاب آخر كتاب لهُ ، ملأه

بتجاربه في البحوث الإسلامية ... حتى إنه ليعدُّ كافياً لتعرف آراء المستشرقين، ومصادرهم ومؤلفاتهم، وزبدة ما يمكن أن يعرضوا لهُ من نقد وتقدير في هذا الصدد».

وفي هذا الكتاب من الخطأ ما يحتاج من أجله إلى درس كل مسألة من مسائله درساً دقيقاً وافياً، حتى لا يغتر قارئه بظاهر القول فيقع فيما وقع فيه المؤلف. ولعلّنا نوفق إلى صنع ذلك في إحدى المجلات الخاصة بمثل هذه الأبحاث أو في كتاب خاص، بعون الله وتوفيقه.

ولم يكن المجال واسعاً في ترجمة الكتاب أن يتعقب الأستاذ المترجم مسائله تفصيلاً، ولكنه تعقبهُ إجمالاً في عشر صفحات ألحقها بآخر الكتاب، أجاد فيها جدًّا، قال: «إن نظرة عابرة في هذا الكتاب تجعل القارئ لأول وهلة يقف موقف الحائر المتردد في الحكم عليه: فبينما نرى فيه اطلاعاً واسعاً في الكتب الاسلامية، وفكرة طريفة في عرض الموضوع عرضاً علميًّا، نجد في الوقت نفسه أن المؤلف قد تخلى عنه قلم العالم النزيه في نقد المسائل نقداً سليماً ... ولعلَّ هذه الفرصة في عرض هذا الكتاب تبين للناس بعض ذلك، حتى يقفوا موقف الحيطة والحذر إزاء ما يقرؤون (للمستشرقين) وموقف الريبة لهم، حتى يتبينوا، ويعرضوا ذلك على مصادره الأصلية» ص ١٧٤.

والذي نراه نحن فوق هذا أن الهوى قد يغلب حتى يضع المؤلف موضع الشك في أمانته في اختيار ما ينقل.

فقد عرض المؤلف — مثلاً — لأول سورة الروم «غُلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غَلَبهم سيَغْلِبون في بضع سنين» فذكر المعروف في القراءة والتفسير والسير والتاريخ: أن الفرس انتصروا على الروم ففرح المشركون بهزيمة النصارى أهل الكتاب وحزن المسلمون، وأن الآية بشرتهم بنصر الروم على الفرس في بضع سنين. ولكن المؤلف لا يرضيه أن يسير على الجادة الواضحة، ويريد أن يتبع طريق التشكيك في قراءات القرآن فيقول ص ١٩: «ولكن قراءة هذه الآية على هذا الشكل [١] لم يتفق عليها عند جميع القرّاء فقد قرأها أكثرهم: «غَلبت» [٢] ... وأن ذلك يتعلق بانتصار الروم على بعض القبائل العربية بالشام. وأصحاب هذه القراءة يذكرون أن فيها تنبؤاً للنبي بما حصل بعد تسع سنين بعد هذا الوحي من انتصار المسلمين على البيزنطيين. ونحن نرى أن القراءتين متناقضتان في المعنى، فالغالبون في القراءة المشهورة هم المغلوبون في القراءة الأخرى،

(١) أي قراءة «غلبت» بالبناء للمفعول، و «سيغلبون» بالبناء الفاعل

(٢) أي قراءة «غلبت» بالبناء للفاعل، و «سيغلبون» بالبناء للمفعول

ومتعلق الفعل في قراءة على الفاعلية ، وفي أخرى على المفعولية » .

وهذا الذي حكاه غير صحيح ، أعني ادعاءه أن أكثر القرّاء قرؤوها « غَلبت » بالبناء للفاعل، و«سيَغلبون» بالبناء للمفعول. وليس هذا عن سهو منه أو قصور في البحث، فإن اطلاعه واسع جدًّا على كتب التفسير والقراءات، كما يبدو من كتابه. وإنما قصد إلى غير الصحيح .

وذلك أن كل القراء السبعة ورواتهم ، وسائر القراء العشرة ، وسائر القراء الأربعة عشر لم يقرؤوها إلاّ « غُلبت » بالبناء للمفعول ، و « سيَغلبون » بالبناء للفاعل ، قولاً واحداً وقراءة واحدة . والقراءة الأخرى التي نسبها إلى أكثر القراء قراءة شاذة جدًّا ، نقلها ابن خالويه في كتاب « القراءات الشاذة » الذي نشرته جمعية المستشرقين الألمانية بتصحيح المستشرق برجشتراسر سنة ١٩٣٤ ص ١١٦ ، ونسبها للنبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب وابن عمر . وهذه نسبة ضعيفة لم تثبت بإسناد صحيح ولا ضعيف عن النبي ، ولم يروها أحد من أهل الحديث . نعم ، روى الترمذي في سننه بإسناده عن أبي سعيد ما يشبه هذا ، وحكى عن شيخه نصر بن علي الجهضمي أنه كان يقرؤها « غلبت » بفتح الغين ، ولكن إسناد حديثه ضعيف جدًّا ، وأخطأ الترمذي فحكم بأنه حديث حسن . ( انظر الترمذي ج ٢ ص ١٥٤ ، ٢٠٦ طبعة بولاق ، وشرح المباركفوري على الترمذي ج ٤ ص ٥٩ — ٦٠ ، ١٦٠ طبع الهند ) . وقد ردّ على الترمذي وبيَّن أن الحديث ضعيف . وروى ابن جرير الطبري في التفسير ج ٢١ ص ١١ من طريق « الحسن الجفري عن سليط » أنهُ سمع ابن عمر يقرأ ذلك . وهذا إسناد ضعيف جدًّا ، الحسن بن أبي جعفر الجفري ضعيف منكر الحديث . وشيخه سليط مجهول ، فمثل هذا الإسناد لا تثبت به قراءة ولا كرامة . ثم بيَّن الطبري الصحيح من القراءة فقال : « والصواب من القراءة في ذلك عندنا ، الذي لا يجوز غيره ( الم غلبت الروم ) بضم الغين ، لاجماع الحجة من القراء عليه » .

لا نظن بعد هذا أن مؤلف الكتاب أخطأ فيما حكى . إنما الواضح الذي لا نشك فيه أنه علم الصحيح وعدل عنه ونقل غيره ، عارفاً أن القرّاء أجمعوا تقريباً على القراءة المعروفة ، ثم نسب القراءة الشاذة المنكرة إلى أكثرهم .

وبعد : فان في الكتاب حافزاً إلى البحث والتوسع ، بما يضمه من نقول وآراء لم ينشر من مثلها في العربية كثير . ويجدر بالعلماء أن يعنوا به وبأمثاله ليستفيدوا طرق البحث والنقد ، بما يرسم من المناهج ، ثم ليعرفوا ما يقال من حق ومن باطل ، وليروا ما يثار من شُبه وشكوك ، يجب عليهم أن يدفعوها ، وفاءً بميثاقهم ، وأداءً لأماناتهم .

أحمد محمد شاكر

• المعري ذلك المجهول • بقلم عبد الله العلايلي

٢٢ × ١٤ ½ سم ١٣٨ ص منشورات الاديب بيروت ١٩٤٤

أوضح صاحب هذه الرسالة ـ وهي من طلائع همة مجلة الأديب ـ في المقدمة أنهُ لا يعني ترجمة حياة أبي العلاء ، ولكنهُ يعمد إلى ترجمة فكره . وأنهُ لا يتناول أدوار استحالات هـذا الفكر ، ولـكنه يخص ببحثه الدور الأخير الذي انتهى إليه المعري ليعلن فلسفته ثم ذكر أن معظم من درسوا ذلك الشـاعر الفيلسوف لم يكشفوا أولاً « طريقته » مع أن كشف الطريقة هو السبيل الأوحد إلى فهمه . وقال إنه استخلص الطريقة النظرية عنـد المعري ، وعَرَضه في ضوئها جهد الطاقة .

وقد قسم الرسالة قسمين ، الأول تحتوي فصوله مقدماتٍ وتمهيداتٍ في مراجع فلسفة أبي العلاء ومنهجه اللغوي وأمثلة من بيانه تطبيقاً لهـذا المنهج وتأييداً له . والقسم الآخر تتناول فصوله حديث الفلسفة العلائية في صميمها، ففيها مباحث تبسط عناصر منطقه وأساسه الفلسفيّ التوحُّـديّ في الإلـهيات والطبيعيات والمجتمع ونظامه .

والرسالة في مجموعها جديدة الفكرة ، طريفة المنحى ، فهي تعالج إثبات الرمزية العميقة في آثار أبي العلاء ، فتجعله صاحب أقدم أثر رمزيّ رائع، وتـحـقـق له أن يسمَّى أبا الرمزية في الأدب العربي . وهي أيضاً تحاول إثبات تعلـق أبي العلاء بالباطنية وأساليبها في فهم الحياة واستشفاف ما وراء الظواهر ، واصطناع أسرار اللغة وطبائع الحروف وما لها من مدلولات عددية .

وأما أسلوب الرسالة فهو إلى السلك العلميّ أقرب ، يستخدم أشتات المواضعات الدائرة في المنطق والفلسفة ، ويؤثر دقة التعبير في صوغ اللفظ ونسج الجملة ، ولا تخطئه السلامة أحياناً على وعورة الطريق الذي ينتحيه في تجلية المعنى وتعزيز الرأي .

وفي غضون الرسالة ألوان من التوجيهات السديدة ، من مثل الكلام في مصادر الغفران ص ٦٤، ومن مثل تعليل دعوة المعرّي إلى محاربة النسل في ص ٢٩ إذ يقول الكاتب: « ومن الخطإ الظن بأن المعري حارب النسل بناءً على فلسفته ، وإنما أخفقت دعوة التوحّـد وشعر بإخفاقها فيئس من الإصـلاح البشريّ ، فنادى بالتهديم ، نادى بخصي الحياة ! . » ومن مثل تعليل التزام ما لا يلزم في ص ٧٥ إذ يقول : « فقد عرفنا أن لزوم ما لا يلزم يعبر عن ظاهرة نزعة باطنية بما فيه من رويّين ظاهر وباطن، وعرفنا أنه اعتزال بالقافية وأخـذ لها بطائفة من

الوسائل القاسية ، وعرفنا من سيرة المعري أنه أخذ نفسه بمثل هذه الوسائل المضنية ، فكان في محبسين مثلما هي في رويّين . إذن فهو القافية الملتزم فيها ، أي المتوحدة مثلما كان متوحداً » .

وكذلك الفصل الموسوم بالمنهج اللغوي في ص ٣٠ ولواحقه في صفحات أُخر ، ولعلّ ذلك أمتع اللوامع الفكرية في هذه الرسالة وابعثها على العجَب .

ويبدو أن طرافة « الطريقة » التي كشفها صاحب الرسالة ونادى بها لفهم المعري، ساقته إلى بعض الإسراف في تصور الرمزية والكنائية والباطنية ، وتمثُّل سلطانها على آثار شاعرنا الفيلسوف . ولئن صحت هذه الطريقة بنماذجها التي قدمها الكاتب ليكوننّ «المعري ذلك المجهول » مجهولاً حقًّا عند الناس كافة ، سواء أفي العصر الحديث كانوا أم في الأعصر الخالية . وقد يظل بيانه كله مطلسماً حتى يطبق صاحب الرسالة طريقته في الشرح على سائر نصوص المعري، إذ لا نرى شرح «الطريقة» وحدها بمجزئ في فهم البيان العلائي على النحو الذي آثره صاحب الرسالة وأبانه فيما اختار من نماذج .

ففي ص ٤٦ يذكر الكاتب قول المعري : « قد علم الحبر الذي نسب إليه حبريل » ويفسره بقوله : « معناه الباطنيّ على مقتضى علم الحرف الروحاني هو اللاهي أو اللاعب الربانيّ ، لأن مخرج الحاء عشرة وحرفه ي ، ومخرج الباء أربعة وحرفه د ، ومخرج الراء مائتان واثنان ويرد إلى أربعة وحرفه د . وهو يؤلف كلمة ددي نسبة إلى الدّد أي اللعب » .

وفي ص ٥٩ يذكر كلمة التينة التي فسرت بها الحماطة الواردة في ديباجة الغفران ، ثم يعلل اختيار التين للكناية فيقول : « ستّر السوءة بورق التين ليس هو إلاّ الخداع والتلفف بورق التين الذي يساوي باطنيًّا كلمة ( الدين ) وذلك لأن ت بأربعمائة وتُردُّ إلى أربعة وحرفها د » .

وفي مطاوي الرسالة مثل هذا التحميل ، ولعلهُ من باب الإغراق في استبطان الكلام واستخراج ما لم يقصد إليه كله ممليه .

والرسالة تمثّل فكرة بديئة ، وتدل على براعة حِذق . وبحسبها أنها تشق في درس المعريّ أفقاً غُفلا .

محمد شوقي أمين

المحرر بمجمع فؤاد الاول للغة العربية

• ٣٥٠ مصدراً في دراسة أبي العلاء • بقلم يوسف أسعد داغر

١٥ ½ × ٢٠ ½ سم ٥١ ص مكتبة صادر بيروت ١٩٤٤

هو عرض عام ، ينتظم الباب الأول منه مصنفات أبي العلاء ، والثاني والثالث منه المصادر العربية والافرنجية التي تناولت أبا العلاء ، والرابع سجل للمهرجانات التي نظمت في أنحاء البلاد الشقيقة ، وما ألقي في كل منها من المحاضرات والأبحاث .

والكتاب من كتب الفهارس التي تعتمد على الإحصاء الدقيق، ولكنه مقصر في المصادر العربية القديمة ، كما يتضح من مقابلة ثَبَتِهِ هذا بثبت لجنة أبي العلاء في « تعريف القدماء بأبي العلاء » القاهرة ١٩٤٤ ، من مخطوطات ومطبوعات . وأما الأبحاث المعاصرة فقد تمكن الأستاذ داغر من الإحاطة بأكبر عدد ممكن منها بما يستحق بهِ الثناء .

وقد وقعت بعض أخطاء في إثبات كتب أبي العلاء ، منها « بحر الزجر » صوابه « نجر الزجر » أي أصل الزجر ، كما في « تعريف القدماء » ص ٤٢ وكما صرح به ابن العديم في « الانصاف والتحري » ص ٥٣٧ . و« الرياش المصطنعي » صوابه : « الرياشي » بالنسبة إلى أبي رياش ( ص ٤٦ ) . و« رسل الراموز »صوابه : « رسيل الراموز » والراموز : البحر ، ورسيله : ماؤه العذب (ص ٤١ ) . و « نظم السور» صوابه «تظلم السور» ، قال ابن العديم ص ٥٣١ :« يتكلم فيه على لسان سور القرآن ، وتتظلم كل سورة ممن قرأها بالشواذ».

على أن هذا لا يضير الأستاذ المؤلف ، ولا ينقص من تقديرنا لصبره وجلده وتفانيه في سعيه ، فإن هذه الأخطاء وقع فيها قبله كثير من الأدباء .

عبد السلام محمد هارون

• • •

• تاريخ النبات • بقلم أحمد عيسى

١٧ × ٢٤ سم ١٢٦ ص كلية الطب بجامعة فؤاد الاول القاهرة ١٩٤٤

هذا موجز في منشأ علم النبات عند العرب وخروجه من طور إلى طور على تعقد الحضارة وتقدم المعرفة واتساع العمران . وقد بسط المؤلف الواسع الاطلاع الدكتور أحمد عيسى بك أحوال كل ذلك . فسرد اللغويين الذين عنوا بتدوين أسامي النبات المتداولة عند العرب في باديتهم ، أمثال الخليل والأصمعي وابن الأعرابي . ثم عرض للعلماء الذين ترجموا أو ألفوا

في النبات من جهة أنه عقار صالح لصناعة الطب ، فذكر حنين بن إسحاق وثابت بن قرة وابن مسكويه ( أي : مسكويه ) وابن سينا وابن الهيثم وإسحاق الاسرائيلي وابن باجه . وانتقل بعد ذلك إلى النبات من جهة الفلاحة وذكر ما دُوّن في ذلك ، ثم فطن إلى الرحالة والرواد من أبناء العرب مثل ابن فضلان وابن بطوطة فنقل ما سطروه في باب النبات .

وقد فات المؤلف أن « كتاب تحفة الأحباب في ماهية النبات والأعشاب » (ص ٩٣ ) نقل إلى الفرنسية مرة ثانية بقلم Salmon وثالثة بقلم Renaud و Colin . ومع الترجمة الثالثة نشر الأصل العربي ( مطبوعات معهد العلوم المغربية، ج ٢٤، باريس ١٩٣٤) وقد استدرك عليه في إفاضةٍ بشر فارس في مجلة « الثقافة » ( الرقم ١١٣ سنة ١٩٤١ ) . ويحسن الاطلاع على تلك الترجمة ، ففي ذيلها فائدتان : الأولى ، ترجمة أسماء النبات بصفاتها وخصائصها إلى الفرنسية مع ردها إلى أصولها اليونانية ، والثانية ، ثبت مستفيض لا غنى عنه . ومما خرج بعد هذه الترجمة ولم يذكره صاحب الموجز الذي نحن بسبيله كتاب الكليات لابن رشد ، وفيه جزء كبير خاص بالأدوية والأغذية ، مداره على النبات والبقول والحشائش . والكتاب منقول بالتصوير الشمسي في المغرب ( بوسكا سنة ١٩٣٩ ) ، ولهذا الكتاب معجم طبي في آخره عمله باللغة العربية الاستاذ الفريد البستاني ونقله إلى الاسبانية غيره .

وهذا الموجز وإن لم تُستقصَ المصادر فيه ولم تقيّد خطوة خطوة، حقيق بأن يُستقبل بالثناء والحفاوة ، فذلك باب من أبواب ثقافتنا الماضية مهمل في دراساتنا الحديثة .

*

• سيرة أبي العلاء وفلسفته • بقلم هنري لاوست

La vie et la Philosophie d'Abul'Ala' par Henri Laoust

٢٠×٢٩ سم ٤٥ ص نشرة المعهد الفرنسي بدمشق بيروت ١٩٤٤

قد سبق لنا أن نذيع فضل المستشرق هنري لاوست مدير المعهد الفرنسي بدمشق لما وصفنا كتابه النفيس في ابن تيمية ( باب التعريف والتنقيب ، يونيو ١٩٤٤ ) . وهذه رسالة له أخرجها على سبيل المشاركة في إحياء ذكرى المعري ، ونشرها في نشرة المعهد BEO ، ولهذا المعهد ونشرته أيادٍ في الدراسات العربية والمباحث الاسلامية .

والرسالة عرض شامل موجز في آن واحد لترجمة أبي العلاء . وتمتاز بالوضوح والتنسيق ووفرة المصادر . وقد ضمت آخر ما قيل في أبي العلاء سواء في الشرق أو في الغرب مع

انفراد المؤلف بخواطر وآراء لم ينبسط في عرضها . وقد استشهد أيضاً بأقوال أبي العلاء ولا سيما بشعره في اللزوميات فنقلها نقلاً دقيقا . وله في باب الفلسفة فصل عنوانه « الحكمة الأخلاقية » هو تبيين حسن لسلوك المعري وإرشاد إلى غاياته ، مثل الاستسلام إلى العبودية في شمم وثبات وراءها طلب التحرر ، ومثل العزلة رغبةً في العيش المنزه عن شر البشر ، ومثل الرفق العظيم الذي يولد في الأنفس التسامح والتفاهم والتآلف لأجل المناضلة في سبيل العقل والحب ، ومثل إصلاح المجتمع بتقويم عوج الحكم وصلف الحاكم .

إلاّ أنه كان بالود أن يتناول المؤلف أدب أبي العلاء بعد ذلك كله فينظر في خصائصه من جهة غربية ، وأبو العلاء حقيق بهذه النظرة ، فقد قال فيه المؤلف في فاتحة الرسالة : « إن شخصية المعري المعمّاة أيّ تعمية حقيقة عندنا بأن تدرَج في تراث الآداب العالمية » .

*

صوت أبي العلاء بقلم طه حسين

١١ ½ × ١٦ ½ سم ١٣١ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

لافوازييه بقلم عبد المجيد يونس وعبد العزيز أمين

١١ ½ × ١٦ ½ سم ١٢٥ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤

# ٣ — المجلات

• نشرة المباحث العربية • Bulletin des Etudes Arabes

يدير إنشاء هذه النشرة في الجزائر الاستاذ المستشرق الفرنسي هنري پيرس Henri Pérès وهي تصدر بالفرنسية كل شهرين وغايتها إعانة المشتغلين بالآداب العربية على الاطلاع والبحث. ففيها فوائد جمة متفرقة . فمن دراسة إلى ترجمة إلى طرفة إلى تنبيه إلى ثَبَت إلى مراجعة المجلات وإلى أخبار أدبية واستشراقية . وفيها أيضاً فصل يهم الطلبة القادمين على الامتحان باللغة العربية . وللنشرة شعار جميل هو : « باب العلم إذا قُرع انفتح » .

وهذه النشرة كما ترى على فائدة غزيرة ، وهي أقرب إلى إدناء الاستشراق منها إلى التأليف والتنقيب . ولكنها يزينها في كل عدد بحث حسن ، من ذلك البحث الموقوف على أبي العلاء في الجزء السابع عشر ( مارس — أبريل ١٩٤٤ ) . ونحن نهنىء مدير النشرة ومخرجها، وهو عالم دؤوب ، بسعيه هذا ونتمنى له الاطراد .

*

# ٤ – الاستدراك

**الامتاع والمؤانسة** الجزء الثالث للتوحيدي

صححه وضبطه وحققه وشرح غريبه ورتب فهارسه : أحمد أمين وأحمد الزين

١٧ × ٢٤ سم ٢٣٠ ص سوى الفهارس القاهرة ١٩٤٤

هـذا الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة هو آخر الأجزاء ، وبه تتم الليالي الأربعون التي حسدتها ألوف ليالٍ على إمتاعيْها الأدبيّ والفلسفيّ ومؤانستيْها الروحية والعقلية ، وإنه لـكتاب بارع الأدب محكم الفلسفة ، جمّ الفوائد بليغ الأسلوب ، كثير النوادر ، دال على براعة أبي حيان في التأليف وبداعة التنميق والتصنيف .

فما ضمنه هذا الجزء وصف طبائع الناس في الإطعام والامساك عنه ، واستحالة أن يحيط العالم علماً بكلّ شيء ، والتحولان الاجتماعي والمذهبي وضرورتهما وشروط السيادة عند العرب والخلال التي لا يأنف الشريف أن يتعلمها ، ووقت إحماد العجلة والإيثار والفتوة والخلق الحسن والخلق السيء ومكارم الأخلاق وحد الشبع وحد السكر ، وحال الموالي عند العرب ، وأخلاق التجار في عصره ، وحال الناس الاجتماعية ، وتأثير الفلك في عالم الأرض ، وإتقان العرب للكلام وتناقض أخلاقهم وحالهم قبل النبوة ، والتوسع في اللغة ، وكراهة البدو للزواج ، والغناء ومنافعه ، ومدح النبيذ ، والسعادة ومقياسها ، والملك ومقامه والصلة بينه وبين الرعية وكيفية سياسة المملكة ، وصفة خلفاء بني العباس وذكر أفضلهم بالإضافة إلى عصر أبي حيان،ومدة الحكم الصالح ، والفرق بين الإرادة والاختيار والمحبة والشهوة والإنشاء والكلام والنفس والروح ونفوس الحيوان ، والعقل ومقاييسه ، والطبيعة وحقيقتها ، وتكبير الواحد وتوحيد الكثير، واختلاف الشوق إلى العلوم ومقاديره ، وإمكان التمويه على العقل والفلسفة لتوحيد الله ، وأسباب اختلاف الناس في الأديان والمذاهب والنحل ، وعلة التمسك بالمذهب والدين ، وبيان أن الأمر بما لا يكون سفاهة وخرق ، وحب النفس ومضاره وكون العقوبة للاصلاح وأنّ النبوّات لا تعجل العقوبة ، والسحر وأنواعه ومنه سحر البيان ، والامامة والجدل فيها ، واختلاف الحديث عن النبي محمد — ص — وباب في التعريض والكناية ، وباب في الجوابات المسكتة وأكثرها منقول من كتاب « البيان

والتبيين » للجاحظ ، والطيرة وغير ذلك من طريف الفوائد ولطيف المباحث كوجود معانٍ لا أسماءَ لها وكون الإنشاء أنقى من الكلام وأوسع منه ، وأسباب شغف الناس بأخبار الملوك والأمراء والحكام ، مما يصعب تبيانه لوروده مفرقاً في الكتاب ومبثوثاً في عدة أبواب. وفي آخر الكتاب رسالتان للمؤلف توضحان شيئاً من سيرته .

وكنا نقدنا الجزئين الأول والثاني نقداً طويلاً وبعثنا به إلى الأستاذ أحمد أمين بك فنشر أكثر النقدات مختصرة في مستدرك للتصحيح جعله في آخر الجزء الثالث — هذا المنقود ها هنا — واعتذر هو وصاحبه الأستاذ أحمد الزين من أنهما لم يستطيعا نشره بحذافيره بسبب ندرة الورق ، وإنّ عملهما ذاك ليستوجب منا الشكر على كل حال .

ولم يخلُ الجزء الثالث من هنات لا يقام لها وزن بالاضافة إلى جمهرة الكتاب وصعوبة مواضيعه . ولقد ثبت أن نشر عالم من العلماء لمخطوط في اختصاصه العلمي برهان قاطع على مثقال علمه ومقدار فهمه ، فالخرقة في ذلك لا تجوز على العلماء ولا تروج في سوق العلم . وانا ذاكرون فيما يلي[1] هذا السطر هنات الجزء التي أشرنا إليها ، ومثبتون معها إصلاحها:[2]

جاء في ص ١ س ٨ من الكتاب « فكان من الجواب إن الناس ... » بكسر همزة « إن » والصواب فتحها لوجوب تأويلها مع الذي بعدها بمصدر مرفوع بكونه اسماً لكان ، والتأويل بالمفرد موجب لفتح الهمزة — كما هو مقرر في كتب النحو — وإذا عدت «كان» تامة فان الفتح لازم لها أيضاً .

س ١٤ منها « فكان ( من ) الجواب أن هذه ... » . وما من سبب لاقحام « من » فان الأصل سليم التركيب . ولكل معنى عبارة ، وقوله « فكان الجواب أنّ ... » أراد به الجواب كله لا شيئاً منه ولا سائره . وجاء في ص ١٨٦ س ١٤ « فكان الجواب إنّ المذاهب فروع » والقول فيه كالقول في السابق.

ص ١٤ « خرج ابن المبارك إلى أصحابه فقال لهم نزل بنا ضيف اليوم فقال اتخذوا لي فالوذجاً فسرنا ذلك منه » . وهذا خبر مضطرب . لا يطرد فيه قوله « فقال لهم ... فقال ... فسرنا ... » ولعل الأصل « فقالوا له نزل بنا ضيف اليوم فقال : اتخذوا لي فالوذجاً ( قالوا ) فسرنا منه ذلك» أو : « ... فقال لهم نزل بنا ضيف اليوم فاتخذوا لي فالوذجاً فقالوا فسرنا ... » .

---

(١) لم تستعمل العرب «ولي يلي» إلا متعدياً لانه لا تتم بل لا تصح فائدته إلا بذكر الفضلة .

(٢) ولم نذكر ما تكرر الوهم فيه مما صححناه في الجزئين السابقين .

ص ٦ س ١٣ «وقطهُ يدخل (تحت) مائدته» وليس بسديد إقحام «تحت» لأن المائدة عند العرب خوان مبسوط ليس بينه وبين الأرض خلو حتى يدخل القط تحته. وعلى الخوان الطعام، ولم تكن المائدة على ما هي عليه اليوم كالمنضدة، ولذلك صح قولهم «جلس على المائدة» كما في ص ١٤ س ١٤ وص ٢٩ س ١٢ من الكتاب لأن الجالس على المائدة يكب عليها ليتناول من الطعام فيأكل.

ص ٧ س ١٠ «فاتركوا الصحفة يبلغ قعرها» بجزم «يبلغ» بالشرط المقدر، ولا وجه له ها هنا، ذلك لأن تعليق حدوث البلوغ بحدوث الترك غير صحيح ودليل على أن شيئاً من الترك لم يحدث قط، وهو ضد الواقع لأن ترك الصحفة قد وقع، والمراد تركها حتى يبلغ قعرها ولم يحدث، فالصواب رفع «يبلغ» وجعل الجملة حالية، بمعنى «ريثما يبلغ قعرها».

ص ١٨ س ٥ «كما تؤكل النقانق» وفي الحاشية اعتراف بكون هذا الطعام مجهولاً قلت: لا يزال العراقيون يسمون غلاصم السمك «النغانغ» جمع نغنغ والظاهر أن أصلها «النقانق» فأبدلت الغين من القاف ومضمون الخبر يدل على أنها كانت تشوى أو تطبخ كالتبوذك [1]

ص ١٨ أيضاً س ١٣ «قدمت باجيرا بخمس سفائف دقيق». وفي الحاشية أن الأصل «سقائق» لا سفائف وأنه تصحيف، والسفائف جمع سفيفة وهي النسيجة من الخوص نحو الزنبيل. قلت أما أن الكلمة مصحفة فصحيح وأما أنها «سفائف» فيدفعه الواقع لأنهم لم تجر عاداتهم بحمل الدقيق في الأسفار في السفائف ولأن خمس سفائف لا يبلغ ثمنها تسعين ألف درهم كما في الخبر فضلاً عن أن تشترى بمائة وخمسين ألف درهم ويتزود منها جيش مصعب بن الزبير كله. فالصواب «سفائن» جمع سفينة ومن المعلوم أن السفن مختلفة الاشكال والحجوم. وقد ضبطت «سفائفَ» بفتح الفاء الثانية وذلك صحيح لأنّ الجمع على صيغة منتهى الجموع، وبقيت كلمة «دقيق» فيجب نصبُها على التمييز فتكون الجملة «خمس سفائن دقيقا».

ص ٢٣ س ١٦ «قال أبيتَ الآن (ألاّ) تودع (إلاّ) بمثل ما تقدم» ولا أرى لاقحام لفظين وجهاً، والصواب «أبيت إلاّ أن تودّع بمثل» كقوله تعالى «ويأبى الله إلاّ أن يتم نوره»

ص ٣٥ س ٧ «ولعلّ تقصيراً أنفع فيما أحبّ بلوغه من برّك». وفي الحاشية أنّ

(١) «المقانق» بالميم في الاول معروفة في لغة الشام اليوم. وشرحها في «محيط المحيط» (مقنق): «المقانق مصارين محشوة لحماً بالافاويه. عامية» (في لهجة مصر: سجق). وفي (نقنق) من المعجم ذاته: «والنقانق من المفردات مثل المقانق» ب. ف.

هذا القول لم يرد إلاّ في نسخة « أ » وأنّ فيه « ترك » مكان برّك بسبب التحريف . قلت إنّ الأصل هو الصحيح الذي يجعل للجملة معنى معقولاً مقبولاً ، وأما وجه « برّك » فيحيل المعنى لأنّ التقصير لا يكون أنفع من حالٍ سوى العدم وهو الترك هاهُنا . فالمؤلف يقول — كما في ص ١٣١ — أو ينقل عمن قال : « والعدم كريه ومهروب منه والوجود على أنقص النعوت أتمّ وأشرف من العدم على أزيد الصفات » .

ص ٢٨ س ٣ « ويقال : أرتُ إرَةً فأنا أئرها وأراً » .وأرتُ خطأ صوابهُ « وأرتُ » لأن مصدر « الوار » و « الارة » كالوعد والعدة ، والماضي « وأر » كوَعَدَ وهو فعل مذكور في كتب اللغة وجارٍ عليه القياس .

ص ٣٩ س ١٠ « آكل الدواب برذونة رغوث وهي التي يرضعها ولدها » وفي الحاشية أنّ هذا الشرح غلط لأن البرذونة لا ولد لها ، ولم ينقل الشارحان قولاً يعتمد في هذه التخطئة والاشارة؛هنا لا تغني أبداً عن العبارة لأنّ المسألة من مسائل علم الحيوان ، فالبرذونة أنثى البرذون وهو من الخيل التي تتخذ للحمل والركوب كاتخاذ البغال ، والبرذونة تسمّى « رَمَكَة » وقيل في وصفها في كتب اللغة : « الرمكة : الفرس أو البرذونة تتخذ للنسل » وسميت كلتاها بالكديش والأكديش في القرون الوسطى ، فكيف يتخذ للنسل ما لا يلد ؟

وفي ص ٤١ س ١٦ « وإذا أخصبوا أغاروا للثأر لا للسؤال » . والفصيح المشهور « غاروا » أي أتوا الغور ( الوادي ) . وقد سبقه من الكلام ما يدل على عكس الغور حين الاجداب وهو قوله « فإذا كان الشتاء انحاز الناس من الجدب والجهد » . ويدل على فصاحة « غاروا » قول المبرد : « ولا يقال أغار إنما يقال غار وأنجد إذا أتى نجداً »[1]. وابو حيان من عادته أن ينقل الفصيح ولكن النساخ لم يكونوا مأمونين عليه . ألا تراه يقول في هذا الجزء ص ٢١٥ « فقبّلها متهمة غائرة » وغائرة اسم فاعل من « غارت ».

ص ٤٣ س ٩ قول الشاعر :

وكأن هدر دمائهم في دورهم    لغط القبيل على خوان زياد

ولا نسبة بين الهدر للصوت والدماء في الدور ، لأن المراد بالهدر الصوت الذي يشبه قرقرة الحمام وتكرير صوته في الحنجرة . والظاهر أنه « وكأن هدر إمائهم » ، شبه هدر الاماء ( ج أَمَة أي الجارية ) بكثرته واختلاطه في الدور بلغط القبيل على خوان زياد.

---

( ١ ) « الكامل » ج ١ ص ١٧٦ طبعة الدلجموني ، القاهرة

ص ٤٣ س ١٢ « مزين له شهوة عن أداء الذي عليه لجاره » . ولم يقل فصيح : « لفلان شهوة عن الفعل » إلاّ بمعنى « حادثة عن الفعل » وهو ضد المعنى المراد — أعني ترك الأداء — فالصواب « سهوةٌ » مصدر « سها عن الشيء يسهو عنهُ ».

ص ٤٦ س ٦ « الجوع داخلها واللّوح خارجها » بفتح اللام الثانية من « اللَّوح » وفي الحاشية أن اللوح هو العطش ، والصواب « اللُّوح » بضم اللام ، كما هو مثبت في كتب اللغة .

ص ٥٣ س ١٣ — ١٤ « لولا مخافة ضعفي ... وحاجة الأخ تبدو لي فأنجحها لم آن.. » بنصب « أنجح » ولا وجه له لأن « لولا » شرطية لا عرضية ، فالصواب الرفع لأن الفاء للعطف المحض على « تبدو » ، وجرى الأمر على العكس في قوله في ص ٥٩ س ١ « ولا أنتم آل ريف فتأكلون » والصواب « فتأكلوا » وفي قوله ( ص ١٠٨ س ١٢ ) : « ليس لها جنس ولا فصل فينشأ الحدّ » برفع ينشأ والصواب النصب .

ص ٦٨ س ٢ « قد أبقينا في ضرع فلانة شيئاً » ، وفي الحاشية أن « فلانة » كناية عن اسم بعض نياقه، قلت: إن فلانة للعاقل و« الفلانة » بأل لغيره فالصواب « في ضرع الفلانة ».

ص ٧١ س ١١ « سمعت الحجاجي يقول : كل الخبز أو السمك فإن أكل ... » . والخبر ناقصٌ كلمة واحدة فلعله «سمعت الحجاجي يقول (تقول) كل الخبز أو السمك فإن أكل.. ».

ص ٧٥ س ١ « العلمُ يُنعش أقواماً » بضم الياء من ينعش أي برباعيه والفصيح الثلاثي وإيّاه أراد الشاعر ولا ضرورة تضطره إلى استعمال الرباعي . حتى إن أبا حيان نفسه قال في « الامتاع » ج ١ ص ٣٠ س ٤ : « فإنك نعشت روحه وكان خفت » ، وورد في معجم الأدباء « ج ٢ ص ١٥٢ » قول أحدهم « فأصبحت للاخوان بالعلم ناعشاً » والأدلة على ذلك كثيرة وهذا التخطي للفصيح مكرّر في ص ٢١٦ س ٩ من الجزء عينه .

وفيها س ١٩ « فقال له الحجاج اذن فتغدّ معي »وهو غير متسق ولا مستقيم . فالصواب « ادْنُ فتغدّ معي ، أمره بالدنوّ . وقد تنبه أيضاً إلى هذا التحريف أحد أصدقائنا ببغداد وهو الأستاذ كوركيس العوّادي .

ص ٨٨ س ٦ « ولو قالت الرعية أيضاً : ولم لا تبحث عن أمرك » بالتاء في « تبحث » هكذا ، والصواب « نبحث » فإن قال الناشران إنه غلط طبع سقط الاعتراض .

ص ٨٩ س ٦ « قال تتقدَّم بأخذهم وصلب بعضهم » . قاله الوزير عبيد الله سليمان

لأمير المؤمنين المعتضد بالله العباسيّ ، وهذا الفعل « تتقدَّم » ببنائه للمعلوم مخالف لرسوم خطاب الأئمة من بني العباس وكان يعدّ إساءة للأدب ، وإنما الوجه في مثله أن يبنى للمجهول ، فيكون « يتقدَّم بأخذهم » ، وقد مضى في الكتاب مثله ص ٦٤ س ١٥ وهو « فقلت يتقدَّم بكذ وكذا ويفعل كذا وكذا » قاله وزير صمصام الدولة لصمصامها .

وفيها س ١٠ « وحططتَ عليَّ الرفق من حيث أشرت بالخُرق » فكيف حطّ عليه الرفق وكيف يكون هذا من تعابير العرب ، فالصواب « حضضت على الرفق » أراد أن إشارة الوزير بالخرق حضّت الخليفة على الرفق لأن حسن التدبير في مخالفته لسوء رأيه .

ص ٩٣ س ١٦ « واذكروا الغث والثمين » ولعل الأصل « السمين » فغيَّره الطبع المطبعي .

ص ٩٧ س ٧ « ممن نقف عليه في هذه البقاع المتقاربة » وفي الحاشية أن الأصل « على ما نقف عليه » وأنه لا مقتضى له ، قلت : بل الأصل أدل من التصحيح على مراد القائل ، لأن « ما » موصولة يراد بها « كلام أئمة الصوفية » المقدم ذكرهم في الكتاب ، ولم يقل فصيح « وقفت على فلان » بمعنى وجدته أو عرفته أو علمت حاله ، حتى يصح التصحيح .

ص ٩٩ س ١٠ « وليس يجوز أيضاً أن يضم الجنس والنوع ولا يأتلفوا » بعطف النوع على الجنس ، ولا يظهر له معنى مقبول ، وإنما المراد « أن يضم الجنس النوع » أي يشتمل عليه ، أي كيف لا يأتلفون والنوع تائق إلى الجنس بكونه فرعاً له ؟

ص ١٠٢ س ١١ — ١٢ « تدفعون القضاء بنحوركم وتتلقون عقابه بصدوركم » ولا أرى محلاً للعقاب سواء أكان مصدر عاقب أم جمع العقبة ، وإنما المراد استعارة الأعقاب للقضاء بعد تشبيهه بالرماح ، فالصواب « أعقابه » جمع عقب ، فهم كما دفعوا رماح القضاء بنحورهم تلقوا أعقابها بصدورهم .

ص ١٠٣ س ١٠ « مدرعة صرف » على وزن معظمة وهو خطأ صوابه « مِدرعة » على وزن « مقرعة » وهذا الوزن من أوزان أسماء آلاته واللباس من الآلات : كالمبذلة والمفضلة والمئيرة والملحفة .

ص ١٠٩ س ٢ « الملحوظ بسيط والمدروك بعيد » . والصواب « المدْرَك » لأنهُ اسم مفعول من « أدركه إدراكا » ، ولم يرد المدروك من فعل ميت مثل المحصول ، حتى يجوز استعماله .

« للكلام بقية » العراق مصطفى جواد

# ٥ — التعقيب

## في الشعر الحديث

تناقلت مجلاتٌ نشر قصيدة عنوانها « إلى زائرة » (١) فأثارت اهتمام طائفة من الذين قرأوها . ودليل هـذا تلك الشروح والتعليقات الكثيرة التي وردت على مجلة « الأديب » البيروتية ، مثلاً . فرأت المجلة أن تنشر بعضها لطرافة القصيدة وتضارب الأفهام لديها ( من عدد آب « أغسطس » إلى تشرين الثاني « نوفبر » سنة ١٩٤٤ ) .

وإن لِمثل هذا لمدلولاً ناصعاً ، وهو أن الأفق الشعري قد تراءى فيه لمح جديد ، وأن اليقظة أصبحت الآن من سمات الواعية الأدبية عند القراء في الشرق . ولتلك الضجة مشابه في الأدب العربي القديم ونظائر في الأدب الغربي الحديث ، ولا حاجة إلى أن أحيط بمواقف الأذهان من الطرائف والغرائب التي أتى بها أبو تمام وابن الرومي ، فكل هذا أمره معلوم ، ولكني أذكر ما انتهى اليه مقروئي وهو موقف نقاد الغرب من بول ڤاليري وهو من أئمة الشعر الفرنسي الحديث ، فقد تباعدت الآراء و الشروح لقصيدته « مقبرة البحر » وانتهى البحث ببعضهم إلى أن الشاعر أثم لأنه أصدر جديداً ، ولكن لهذا الجديد روعة .

وإنني أحب مثل هذا الاثم وأكره الورع الذي يبعثني إلى أن أمضي في الطريق المألوف... فماذا في قصيدة « إلى زائرة » ؟ ولكي يتابع القارئ حديثي عنها أثبت نص القصيدة :

لو كنتِ ناصعة الجبينْ هيهاتِ تنفضني الزياره
ما روعةُ اللفظِ المبين ؟ السحر من وحي العباره

ظلٌّ على وَهَجِ الحنين ورسمةٌ معجزةُ الإشاره
خطٌّ تساقطَ ، كالحزين ، أرخى على العزمِ انكساره
ماذا بوجدِ المحصَنين ؟ صوتٌ شجٍ خلف الستاره

غيَّبتِ في العَجب الدفين معنىً براعته البكاره
درًّا يفوت الناظمين ونهضتِ تَهديني بحاره
خطواتُ وسواسٍ رزين : وَهبٌ تُعمِّيه الطهاره

---

( ١ ) نشر المقتطف أولا هذه القصيدة لبشر فارس في شهر مايو سنة ١٩٤٤

هذه القصيدة من صميم الشعر مبنىً ومعنى . هو قصيد عربي في لفظه وصوغه ، إنساني في معانيه ومراميه ولكن عيبه أنهُ لم يرد وفاقاً لعمود الشعر الذي ما برح الكثير من شعراء هذا الجيل يدورون حوله بلا ملل ٍ ويتمسحون بأحجاره وقد نسوا أنهم يعيشون في القرن العشرين .

المسألة أن القصيدة ليست من الشعر المتداول الذي ألفه القراء . فقد حاول صاحبها أن يلف فيها لفًّا سليماً في « نقل التفكير والتعبير من جهة المعقول إلى جهة المحسوس بلغة ناشطة لا جامدة » على حد تبيين الشاعر لطريقته في مقاله « لفظ الشاعر » الذي قرأته في عدد نوفمبر من « الأديب » (تشرين الثاني ١٩٤٤ ص ٥) وعندي أن الغموض الظاهر الذي غشى هذه القصيدة فحجب مفاتنها عن النظارة المجلى إنما يرجع إلى ما يأتي :

١ — أن الشاعر أراد المعاني الأصيلة للألفاظ التي استعملها ولم يلتفت إلى معانيها المشوهة الجارية اليوم على غير دقة وتمحيص . مثال ذلك أن أحد شراح القصيدة عد عبارة « واضحة الجبين » صفة من صفات الجمال ، كما هو الشائع المتداول الآن ، في حين أن النصوع ، بحسب مدلوله اللغوي الأصيل ، هو الخلوص والوضوح ، فيقال « نصع الحق » إذا وضح وبان ، والمعلوم أنْ ليس كل جلي واضح ِ الجبين بجميل ووسيم .

ويستعمل الشاعر ألفاظه بكل قوتها واكتظاظ مدلولاتها الحقيقية والمجازية . فإذا حار القارئ فليس لغرابة اللفظ ووحشته ، ولكن لأنهُ لا يلم إلمامة دقيقة بمعاني الكلمات.

٢ — أن الشاعر ، وقد أحس نبض الحياة التي تلابسه بقوة وبهرته ألوانها المستحدثة في حواسّه ، خرج عن الطوق المألوف في إيراد التراكيب المطروقة والانقياد إلى القافية المرتقبة المنساقة على أسلوب التقليد . فبيانه إذاً مشبع بشخصيته.

٣ — آثر الشاعر نهج التلويح والايماء لا نهج الافصاح والتبيين ، فهو يوحي ويقلل الكلام ، فلا يذهب بالتعبير إلى أقصى مداه ، وغرضه أن يمنح القارئ لذةَ تنبيهِ الفكر وترهف الحس لأجل استخراج المعنى . فيصبح القارئ شريكاً للشاعر في النظم . وهذه لذة لا نجدها في الشعر الذي ذهب به التعبير إلى أبعد مدى فبدت الصورة جدّاً واضحة بلا ظلال ولا أشباه ظلال . وآية النهج الذي اختاره الشاعر في التلويح والتظليل هذا التصريح الوارد في القصيدة نفسها :

ما روعة اللفظ المبين ؟ السحر من وحي العباره

والوحي هنا ، مِن جهة اللغة الأصيلة : « إعلام في خفاء » .

وكذلك كان شأن الشاعر في مسرحيته « مفرق الطريق » التي كنت أول من كشف عن دقائقها .

ثم يحرص الشاعر على أن يكون التلويح والتظليل غير مقصورين على المعنى ، فيشرك معه اللفظ . من هذا استعماله الكلمات الآتية : « وحي العبارة » ، « ظل على وهج » ، « معجزة الإشاره » ، « تساقط الخط » ، « الستارة » ، « العجب الدفين » ، « الوسواس » « تمويه الطهارة » . وبهذا يستقيم تآلف المبنى بالمعنى.

ومنهج الايحاء والتلويح هو آخر اتجاه عرفته الفنون في أوربة . ولما كنت من رجال المسرح أراني أميل إلى هذا النهج في إخراج المسرحيات الرفيعة ، بحيث تكون الأستار المسرحية خارجة على الطريقة الواقعية في الرسم والتصوير والتزويق . ولشدّ ما ألاقي من عنت النقاد والنظارة في هذا الشأن . ولعل ذلك الذي حداني إلى كتابة هذه الكلمة في منهج هذا اللون من الشعر الحديث ، فذهبي في المسرح مذهب الشاعر في النظم ، فان اختلف الفنان في المظهر والوسائل فهما على اتفاق في المخبر والمقاصد .

٤ — أمعن الشاعر في تغليب المعنى على اللفظ فأوجز الايجاز كله ، فلا حشو ولا شرح. وقد صرف همه إلى أن تكون العبارة إلى المساوقة والموازنة والمشابهة فيما يجريه لفظاً ومعنى. على أنني أعتقد أن للايجاز حدًّا حتى لا ينغلق المعنى على عامة القراء . وفي رأيي أن الشاعر يتجاوز هـذا الحد أحياناً وهو معتمد على فطنة القارئ ،وقد غاب عنه أن أكثر قرائنـا أشربوا وضوح الشعر العربي القديم ومالوا عن إعمال الروية ولا سيما في الشعر وهم يعدونه الآن من ألوان المتعة فحسب . هل يريد شاعرنا أن يجعل بعض شعره « توقيعات » متتابعة ؟ وهل تغلغل في نفسه طلب الاختزال ومحاولة الوصول إلى المقاصد بأقرب الطرق حتى إنهُ يورد بعض أبياته وثباتٍ طائرة تنهب الجو على حين أن أكثرنا لا يزال يدب في بطء على وجه الأرض ؟

• • •

وبعد فان الشاعر جرى في نظم القصيدة على الأسلوب الذي أعلنه في مقاله « لفظ الشاعر » إذ قال : « على الشاعر الحديث أن يصوغ عبارته على حسب ما يستأنس حسه اللغوي بفيض هاجسه ، فذلك تعبيره ... إنما الشاعر سيد لفظه ، ولا يكون كذلك إلاّ إذا أوتي القدرة على التعبير من ذات ملكته » .

ويبدو أنه من الخير لهذا اللون الجديد الغريب عند أكثر القراء أن أثبت هنا الشرح

الذي كتبه بنفاذ بصر فائق الأستاذ عبدالله العلايلي (أبو مضر) وهو من أدباء بيروت، قال:

« لو كنتِ واضحة الجبين جبهاء ساذجة التقاطيع لا تنطق، هيهات أن تشيع زيارتك في نفسي أية الخلجات وتنفض مشاعري بأية الانتفاضات، فاللفظ الواضح البين خلو من الروعة، خلو من الايحاء. كذلك هي التقاطيع التي تبدو بالغة الجلاء فانها تبدو بلهاء بالغة البله لا تملك روعة أو أثراً منها، وانما السحر مما تستوعبه العبارة استيعاباً فيه اكتظاظ وغموض. والعبارة الملأى في تقاطيع الوجه هي المقلة الناعسة الطويلة الأهداب. ان سحرها يتبدى مثل ظلال وافياء فوق لسان اللهب وتوهج الحنين، رحمته الاشارة المعجزة في نواحي امتداداتها ... (هذا ولعل هذه الصورة أخلب ما قيل في العين الناعسة التي يبدو بريق اللحظ فيها من خلال فتور الجفون مثل ظل على وهج.)

هذا الظل الذي ينتشر في وهج الحنين أو هذا السحر يطيف وتنطق به مقلة ناعسة زانها الفتور، حتى ليبدو جفنها بشعرات الهدب صفاً تساقط مثل حزين أرخى ظلال الانكسار على توهج العزم. بيد انه مع ذلك الانكسار أخاذ نفاذ. فماذا هو السر الكائن بوجد المحصنين؟ هل هو سوى صوت شج من جراح الفتور، من جراح الظل المتخطر على وهج الحنين، من جراح الانكسار المسدول على العزم؟ ان وجد المحصنين في حقيقته صوت شج ينوح وراء ستائر الحصانة وكال الطهر.

وكأن فتور مقلتها ذاهل اللفتات سام النظرات. فقد غيبت في نظرات مثل نظرات العجب الدفين العميقة التي تطالع بها، معنىً براعته في بكارته، في انه بكر لم يتدنس. كان معنى خلاباً عميقاً حتى لكأنه الدر أو هو الدر نفسه، وإنه ليفوت الناظمين اكتناهه وتصويره. ولقد ساورها ميل الهوى فنهضت تحته تهدي بحار الدر الشارد في المجهول. وهـذا الميل كان خطوات وسواس يهمس بشيء، يهمس بالحب. ولم يكن وسواساً أحمق يهمس بصدى اللحم والدم بل كان رزيناً. هو وهب بيد أن الطهارة عمته وأخفته ووقفت به عندها ...

وبعد، هذه هي القطعة في معناها كله، وهو كما ترى حلو أنيق وبارع شائق ومبتكر أيضاً. ولولا خوف التطويل لحللتها تحليلا يكشف عما فيها من عمق الهامي وفني معجب. ولعل هذه القطعة أفضل ما قيل في المقلة التي تدور القطعة عليها فقط. »

• • •

بقي أن أذكر ختاماً قول الصابي — وهو من أعلام نقاد العرب — وهو قول يناسب هذا اللون من الشعر الذي يلوّح ولا يفصح، فيشق آفاقاً ويحرك أذهاناً. قال الصابي: « افخر الشعر ما غمض عنك فلم يعطك إلاّ بعد مماطلة منه ».

زكي طليمات

المدير الفني لفرقة التمثيل المصرية
ومدير معهد فن التمثيل العربي

# باب الأخبار العلمية

## القطن الملوّن

اهتدى العلماء أخيراً إلى نوع من القطن ملوّن بأصباغٍ طبيعية بنيَّة وخضْر ، وقد شجعتهم هذه الظاهرة العجيبة على أن يفكروا : هل في الإمكان إنتاج قطن ملوّنٍ بألوان متعددة أخرى ؟ وتمكنوا بالفعل من إنتاج قطن ملونٍ بألوان طبيعية حمر وخضر وبنية و « كاكية » في محطة تجارب الدلتا بسومرفيل .

وتمّ غزل هذا القطن الملوّن في مصانع جديدة خاصة تدار بأيدي النساء . ولكن الطبيعة لم تستطع إلى الآن أن تجاري الكيمياء في إتقان صبغ القطن . ولهذا فإنه لم يحن الوقت بعد لإنتاج القطن على حسب الألوان المطلوبة .

وعلى الرغم من أن القطن الطبيعي الملون لا يصلح اليوم للاستغلال التجاري ، فإنه يعد كشفاً علميًّا هامًّا جديراً بالدراسة والبحث. وقد بدا للعلماء أنه من الممكن التوصل بالطرق العملية إلى تحسين هذا النوع من القطن بحيث يتسنى رواجه في الأسواق العامة ومنافسة القطن المصبوغ بألوانٍ كيميائية .

ووجد اللون البني في تيلة القطن البري والقطن المستنبت على السواء . ولا تتسنى رؤيته إلاّ بعد أن تنفتح اللوزة،ويكمن اللون مادة داخل اللوزة بين الألياف القطنية . ويعزو العلماء هذا التكوين إلى أنه في خلال مدة نمو ألياف القطن ، تسري مادة البروتوبلازم في شرايينها ، وهذه المادة تحتوي في بعض الأحايين على ألوانٍ أخرى غير لون القطن الطبيعي ، وبذلك تتشبع الألياف باللون الطبيعي على نحو الظاهرة العجيبة التي اكتشفها العلماء الأميركيون .

وفي الولايات المتحدة اليوم ما لا يقل عن ثمانية أنواع من القطن ذي التيلة البنيّة اللون ، غير أن أصل هذه الأنواع لا يزال مجهولاً . وقد لوحظ في بعض الأحايين أن فرعاً واحداً في شجيرة قطن تنتج قطناً أبيض يحمل قطناً ذا لون بني ، واكتشف منذ أعوام فروع من شجيرة تنتج قطناً ذا لون بني تحمل قطناً أبيض .

والمعتقد أن جميع القطن الأخضر يرجع في الأصل إلى تغيير في طبيعة الأرض او في طبيعة النبات نفسه . وتيلة القطن الأخضر قصيرة شاذة في طبيعتها ، وسرعان ما يتحوّل هذا اللون إلى لون بني عندما يتعرض للضوء. ومن العجيب أن القطن الأخضر يحتوي على كمية كبيرة من الشمع بالنسبة إلى محتويات القطن الأبيض ، وهو من هذه الناحية أثقل وزناً من القطن العادي . على أن المعروف حتى الآن أن العلماء الروس كانوا أول من أنتج القطن الأخضر .

## طرائف عن الحشرات

يعيش النمل في مستعمرات منظمة تنظيماً حسناً تحتوي كل مستعمرة منها على ما يقرب من مائة ألف حشرة . والنحل يجتمع منه في كل خلية نحو خمسة عشر ألفاً ، والزنبور يعيش كل أربعة آلاف منه معاً ، والشفور ( Hornet ) يكوّن جماعات تضمُّ الجماعة منها مائتي حشرة . والنحل الطنان يجتمع في جماعاتٍ تضمُّ الواحدة منها عدداً يختلف بين الثلاثين والمائة .

ويُقسم العمل في جميع هذه المستعمرات تقسيماً عادلاً يكاد يصل إلى مرتبة الكمال . فلكل عملٍ جماعاتٌ خاصة تقوم بانجازه . ويسعى كبار النمل لِسَبْي صغار النمل من المستعمرات الأخرى ، وتسخيرها كالعبيد . غير أن حياة النمل المسبيّ في المستعمرة الجديدة لا تقل حريّة عن حياة السادة فيها وكثيراً ما تتقاتل المستعمرات المختلفة حتى تقضي جماعة منها قضاءً مبرماً على الجماعة الأخرى . ولهذا السبب يُفرَز جانب من النمل للقيام بأعمال الجند من قتال إبان الحروب . أما أسباب التطاحن فترجع عادة إلى نزاع حول الحدود الخاصة بجماعات النمل ، وكثيراً ما يُفَضُّ النزاع باتفاق بين الطرفين على المصالح المشتركة .

ويمارس النمل ضروب الرياضة كالمصارعة والملاكمة ، كما يقوم بعض منه بحراسة الأبواب والمنافذ . ويتصف الحراس عادة بكبر الرؤوس .

ويضحي بعض النمل بحياته بتناول مقادير كبيرة من العسل تفوق طاقته ، مختزناً إياها في جوفه كالوعاء ، كي يستطيع باقي النمل التزود بالعسل حين الحاجة إليه من آنية تقيه شر الفساد والتلف . ويقوم النمل علاوة على ذلك بزراعة الأرض كالانسان تماماً . ثم إنه يزرع الفطر ( عش الغراب ) ويتفنن في إتقانه حتى إن الزرع الذي نشاهده في الطبيعة من هذا النبات لا ينمو من تلقاء نفسه ، بل يقوم النمل بزراعته بنفسه . كذلك يهتم النمل بتسميد الأرض وتنقيتها من الأعشاب ، ويستعمل فضلاته الحيوانية في هذا الغرض .

ويسعى النمل وراء هوام منزلية خاصة لامتصاص سوائلها ، كالقمل النباتيّ مثلا . فلا تسْلمُ قملةٌ من نملةٍ تمتصُّ عصارتها الذهبية ، لا لنفعها الذاتيّ ، بل لكي توزعها بعدئذ .

ومما يجدر ذكره أن نظام النمل الجماعي ليس نظاماً مثاليّاً ، ذلك لأن الجماعات تكون عادة مقسمة إلى أقسام مهنية تختلف باختلاف نشاطها ، ولا تجتمع جميعها في عش واحد ، بل تتفرق في جماعات مختلفة . فالنمل الذي يقوم بالزراعة مثلاً ، ينتمي إلى فصيلة اتيني ( Attini ) دون سواها . لذلك يصبحُ

من المحال أن تحصل على الصورة المثلى في الطبيعة لعُشٍّ من أوكار النمل يجمع بين الطوائف المهنيّة المختلفة للنمل، لأنها لا تجتمع مطلقاً في وكر واحد .

## البنسلين

جاء في إحدى البرقيات الخاصة بمكتب الأنباء الحربية للولايات المتحدة بالقاهرة أن مما يبعثُ على التفاؤل والاستبشار أن أكثر الأطباء تحفظاً ألفوا أنفسهم أخيراً ، بعد أن أثبتت التجارب الطبية مزايا البنسلين في القضاء على الجراثيم ، مضطرين إلى الاعتراف بأن هذه المادة من أعظم الكشوف الطبيّة التي عرفها العالم حتى الآن .

وفي مقدمة الأمراض التي أمكن علاجها بالبنسلين جميع أنواع القروح الجلدية ( الدمامل ) والالتهابات الجلدية ، والتهابات الأنسجة تحت الجلد ، والخراجات وأمراض العظام التي تنشأ عادةً من جرثومة « ستافيلوككس » التي تغزو الدم تاركةً في أغلب الأحيان آثاراً شديدة الخطر . وهذه الجراثيم التي تقاوم جميع أنواع العلاج الأخرى ، بما فيها العلاج بمادة السلفا تخضع للبنسلين بسرعةٍ تثير الدهشة في كثير من الأحايين .

وآية ما تذهب إليه أن طفلاً ولد أخيراً في مدينة نيويورك ، وبعد انقضاء ثمانية عشر يوماً على ولادته ، أصيب بزكامٍ استحال إلى التهابٍ في الغشاء المخاطي ، ودلّ التحليل على وجود جرثومة « ستافيلوككس » في الأنف والحنجرة ، ولم تلبث هذه الجرثومة أن سرت في الدم ، والأدهى أنهُ تبين من الكشف بأشعة رونتجن ( إكس ) أن الطفل أصيب بالتهاب رئوي ، فرأى الأطباء أن يضعوه في خيمةٍ مملوءة بالأكسجين ، ويعطوه عقار السلفا . وبعد خمسة أيام ، كان لا يزال على قيد الحياة، بيد أن حالته لم تتحسن. وعندئذٍ حقن بالبنسلين فما إن انقضت أربع وعشرون ساعة حتى كان في طريق الشفاء ، وجعلت حالته تتحسن باطراد في الأيام التالية ، ودلّ الكشف بأشعة رونتجن خلال الأسبوع الثالث على زوال الالتهاب الرئوي .

وقد ثبت كذلك أن البنسلين فعال ضد جرثومة « ستربتوككس » التي تفتك بخلايا الدم والتي تعد سبباً لأمراض شتى نذكر منها القروح العفنة في الحلق ، ومرض الخشاء ( تقيح النتوء الحلمي أو الخشاء ) ومرض الحمرة ، والتهاب البريتون ، وحمى النفاس .

وعقاقير السلفا فعالة ضد بعض هذه الأمراض ، أما البنسلين ففعال ضد جميع هذه الحالات .

وقد أحرز البنسلين غلباً حاسماً على الأمراض السرية فهو يشفي مائة في المائة حالات السيلان

في مدة تختلف بين ٢٤ ساعة و ٤٨. وفي بعض الأحيان يتم الشفاء بعد أن يحقن المريض بالبنسلين أربع مرات في ١٢ ساعة أي بمعدل مرة في كل ثلاث ساعات. ويقال مثل هذا القول أيضاً في الزهري، إذ بعد أن يعالج المريض مدة ثمانية أيام فقط بالبنسلين تصبح جراثيم الزهري في حكم العدم. على أنه يلاحظ أن الزهري مرض غريب، ذلك أن جراثيمه اللولبية ألفت الاختفاء في أنسجة الجسم، وتظل في حالة نوم وسبات مدة طويلة. وفي كثير من الأحيان يكون من العسير أن نعرف: هل تحقق الشفاء النهائي أو لم يتحقق ؟.

وديع فلسطين

## ثمرات الحرب الحالية

### في العلوم والفنون

ما من شك أن العلماء والمهندسين في العالم أجمع قد عبئوا لأجل الحرب الحالية، فأصبح ألوف منهم، يقومون بأعمال حربية شتى. ولذلك لا يسوغ أن يذاع كل ما يعرف من ثمرات مجهوداتهم. بل يجب أن يظل جل أنباء انتصاراتهم في ميادين العلوم والفنون سراً دفيناً حتى تضع الحرب أوزارها. وكل ما في وسعنا أن نذكره أنه توجد أجهزة لاسلكية تدل على مواقع الطائرات وهي محلقة في أجواز السماء. وتوجد أيضاً مواد أشد قوة وانفجاراً من الترينيتروتولوين (ت. ن. ت) بل نشاهد كل يوم منتجات المصانع الكبرى، قديمها وحديثها وقد سخرت جميعها لانتاج العتاد الحربي، من طائرات ودبابات ومدافع وبواخر وسائر المعدات الحربية الميكانيكية. وكلها نتائج أصلية للمباحث العلمية والمخترعات الهندسية العصرية. وليس العلماء جميعاً متفرغين لخدمة المصالح الحربية فحسب بل لفريق كبير منهم مآثر غر في كثير من ميادين العلم المختلفة، لا مندوحة عن التنويه بها. ولا غرو فقد تجلى في بيرل هاربور، الظفر الرائع الذي أحرزه عقار السلفانيلاميد في علاج الجروح كما ظهرت منافع تناول الجرحى عقار السلفاثيوزول من طريق الفم. وهو علاج يعقبه الشفاء العاجل المدهش الذي لم يسبق له مثيل بين جرحى الحروب المثخنين بالجراح، كما ذاعت شهرته في علاج الالتهاب الرئوي القتال غالباً. وكذلك في معالجة الأمراض الناشئة عن الجراثيم المقيحة وهي تتفاوت بين الدمامل الناتجة من ميكروبات البذور العنبية المولدة للقيح، وبين تسمم الدم الخطر، فتنقذ يومياً مئات ألوف من الأرواح. وأغرب من ذلك أن استطاع العلماء

استخراج مواد كيميائية من الجراثيم الحية نفسها ستساعد عن قريب السلفانيلاميد ومشتقاته . وقد تفوقه في خواصه الطبية التي تخفف مصائب الامراض كما أتيح لهم صنع أدوية جديدة ناجعة لمكافحة الأدواء وذلك من الجراثيم التي تعيش في الطين نفسه ومن العفن الذي يفسد الخبز .

وبعض هاتيك المواد الكيميائية الجديدة شديد التأثير في الجراثيم . فمنها ما يبيدها جميعاً ومنها ما لا يقوى على قتلها وإنما يقف نموها . فالجراميسيدين gramicidin مثلاً قد تمَّ استعماله في معالجة المرضى ، وهو أعظم دواء حاسم يؤثر في الجراثيم الدقيقة المستديرة التي تسمَّى بذيرات جرام الايجابية Gram-positive micrococci وبلغ من قوته أن سبعة من البليون من الاوقية منه تكفي لقتل بلايين من جراثيم الالتهاب الرئوي ، كما تهلك جراثيم البذور السبحية الخبيثة في ساعتين . كذلك ينجح في علاج الأمراض الجلدية وفي الاصابات المستعصية من ذات الجنب ، وفي الجروح الملوثة بالقيح. وقد استنبطه من التربة الدكتور ديبو وذلك بطرق كيميائية إذ استخرجهُ من الخلايا الدقيقة للجراثيم التي تعيش تحت سطح الأرض في المدن وفي الحقول المحروثة في انحاء الريف .

ويقول العلماء إننا سنسمع أخباراً شتى بشأن هذه الطائفة من المواد الكيميائية التي تستعمل في الطب لدرء الامراض . وتوجد أيضاً مادة كيميائية سنعرف عنها كثيراً عما قريب وهي مادة الأرجينين arginine وهي حامض من الاحماض الامينية التي هي لَبِنَة من لبنات البروتينات وقد أسفرت المباحث التي دارت في شأنها عن كونها مادة كيميائية مختصة بالأبوة ، ولولاها لاستحالت تلك الأمنية التي يصبو اليها كل متزوج ، والارجينين أحد الاحماض الامينية العشرة الاساسية التي توجد في اللحم والسمك والدجاج والبيض والجبن واللبن وبعض الخضر وقد ظهر مفعولها مادةً كيميائية اساسية (للأبوَّة ) إذ تطوَّع فوج من الشبان لحرمان أنفسهم إياها فعاشوا على طعام محتوٍ على مقدار كافٍ من العناصر الأخرى ولكنهُ خالٍ من تلك المادة الجوهرية وعند تغذيتهم بغذاء مجرد من الارجينين ، قلَّ في أجسادهم عدد خلايا تناسل الذكور ، وصارت الخلايا نفسها التي تمت فيهم عادمة التأثير . والليزين lysine حامض آخر من الاحماض الامينية قد يكون مادة كيميائية أساسية ( للأمومة ) إذ دلت المباحث التي دارت فيها ، على كون دورة تناسل الإناث تضطرب عند افتقارها الى الليزين .

«للكلام بقية» — عوض جندي

# فهرس الجزء الخامس

## من المجلد الخامس بعد المائة


٣٩٣ التعرض للضوء : لفؤاد صرّوف

٣٩٨ قوس الغمام (قصيدة) : للدكتور حبيب ثابت

٣٩٩ البنسلين والرمد : للدكتور علي توفيق شوشه بك

٤٠١ الروح العلائية وأثرها في أدبنا الحديث : لأنيس الخوري المقدسي

٤١٤ حمى البرداء ومقاومتها : للدكتور بشير العظمة

٤٢٠ أنواع القطن وتخصيص مناطقها : ليوسف فارس

٤٢٥ عادات البولنديين وعقائدهم : لحسين المهدي غنام

٤٢٩ المدرسة الفرخشاهية : للدكتور أسعد طلس

٤٣٤ التكيف الاقتصادي : لسعد ابرهيم النمري

٤٣٩ الحيوان المنمي : للأب أنستاس ماري الكرملي

٤٤٣ المآصر في بلاد الروم والاسلام : لميخائيل عواد

٤٥٠ علم الكيمرجي ومنافعه : لعوض جندي


### باب التعريف والتنقيب


٤٥٥ ١ — المسائل : « اللغة والقومية » بقلم بشر فارس

٢ — الكتب : « المذاهب الاسلامية في تفسير القرآن » تأليف جولدتسيهر — ترجمة علي حسن عبد القادر . نقد بقلم أحمد محمد شاكر — « المعري ذلك المجهول » تأليف عبدالله العلايلي . نقد بقلم محمد شوقي أمين — « ٣٥٠ مصدراً في دراسة أبي العلاء » تأليف يوسف أسعد داغر . نقد بقلم عبد السلام محمد هارون — ثم كتب ظهرت

٣ — المجلات : نشرة المباحث العربية

٤ — الاستدراك : الامتاع والمؤانسة ، الجزء الثالث ، للتوحيدي . بقلم مصطفى جواد

٥ — التعقيب : في الشعر الحديث . بقلم زكي طليمات

٤٧٩ باب الأخبار العلمية * القطن الملون . طرائف عن الحشرات . البنسلين . ثمرات الحرب الحالية في العلوم والفنون .